

الجزء الرابع

الأدب في المغرب والأندلس

منذ الفتح الإسلامي
إلى آخر عصر ملوك الطوائف

(أواخر القرن الخامس للهجرة - الحادي عشر للميلاد)

تأليف

عمر فروخ

عضو مجمع اللغة العربية في القاهرة
عضو المجمع العلمي العربي في دمشق
عضو جمعية البحوث الاسلامية في بومباي

جميع الحقوق محفوظة لـ
دار العلم للملايين

الطبعة الأولى
آذار (مارس) ١٩٨١

تاريخ الأدب العربي

٤

الكلمة الأولى

هذا هو الجزء الرابع من سلسلة « تاريخ الأدب العربي ». إنّه يبدأ تاريخَ الأدب العربي في المغرب (الشَّمالِ الغربيّ من قارّة إفريقية) والأندلس (الجَنوب الغربي من قارة أوروبّة). ثمّ هو يتناول الحِقبةَ الممتدّة من الفتح الإسلامي (القرن الأول للهجرة = أواخر القرن السابع للميلاد) إلى انتهاء عصرِ دُوَلِ ملوكِ الطوائف في الأندلس، ثمّ يستمرّ إلى مُنتهى القرن الخامس للهجرة (مطلع القرن الثّاني عَشَرَ للميلاد). ذلك لأنّ نفراً من الذين شَهِدوا عصرَ ملوك الطوائف طالتْ حياتُهم بعد ذلك قليلاً أو كثيراً.

ثمّ يلي هذا الجزء:

الجزء الخامس، ويتناول تاريخَ الأدب في عصر المُرابِطين والموحِّدين، في القرن السادس وبعضِ القرن السابع للهجرة، إلى نحو سنة ٦٤٠ (١٢٤٢ م).

الجزء السادس، ويتناول تاريخَ الأدب في عصر بني نَصْرٍ وينتهي بالفتح العثماني في المغرب (للجزائر) نحو ٩٣٢ للهجرة (١٥٢٥ م)، وإن لم يُشْبِهِ الفتحُ العُثمانيُّ في المغرب ما كان من الفَتْحِ العثمانيّ في المشرق.

وغَنِيٌّ عن البيان أن أقولَ هنا إنَّ الأعصر الحضارية (والأعصر الأدبية) لا تنطبق في العادة على الأعصر السياسيّة.

وأنا لم أفْصِلْ تاريخَ الأدب في المشرق من تاريخ الأدب في المغرب لأنّ الأدبينِ مُختلفانِ، ولكنّ عَمَلي هذا كان في سبيلِ التسهيلِ على نفسي في مُعالجة الموضوع. وعسى أن يُقَيِّضَ الله لي فُسحةً أستطيعُ أن أجمعَ في أثنائها تاريخَ الأدب العربي (في المشرق وفي المغرب) في سِلْكٍ واحد.

يجب ألاّ يستغربَ القارىء إذا قُلتُ له إنّ الأدب الأندلسي (وخصوصاً في النثر) كان تقليداً واضحاً للأدب المشرقي، إذ كان الأدبُ المَشرقيُّ هو المِثالَ الذي اقتدى به المغاربةُ في إنشاء أدبهم. لا شكّ في أنّ المُوَشَّحَ فنٌّ مَغْربي (أندلسيّ)، ولكنّ خَصائصَ مَغربية كثيرةً اجتمعتْ في المُوشّحاتِ كانتْ مَشْرقيةً في أُصولها. ثمّ لا نستطيع أن نُنْكِرَ أن السهولة في التركيب (إلى جانبِ ضَعْفٍ كثير فيه) كانتْ أكثرَ في المغرب منها في المشرق. وكذلك لم يُرْزَقِ المَغْربُ أدباءَ كِباراً من نَجْرِ البُحتريّ والجاحظ والمُتنبّي وأبي العَلاء المعَرّيّ وأمثالِهم. ومَعَ أنّنا لا نَدْفَعُ ابنَ هاني الأندلسيّ وابنَ درّاجٍ القَسْطلّيّ وابنَ زيدونٍ عن مكان الصّدارة في الشعر، فإنّ المُعْجَبين بهؤلاء الشعراءِ قد لَقَّبوهم ألقاباً منها بُحتريُّ الغَرْب أو مُتنبّي الغرب. أما في الفلسفة فلا شك في أن التقدم كان للمغاربة على المشارقة.

ثم إنّ أهل المغرب كانوا أكثرَ اهتماماً بأَدبِ المشارقة من أهلِ المشرق بأدب المغاربة. ولقد استمرّ ذلك إلى انتصاف القرن الحاضر الهجري. ولكنّ أهلَ المشرق الآنَ يُكَفِّرون عن ذلك الإهمال للتاريخِ المغربي في أيامِهِمُ الماضية.

ولي في ختام هذه الكلمة الأولى من هذا الجزء رجاءٌ إلى اخواننا في المغرب، هو أنْ يُدركوا تقصيرَ المشارقة في الإحاطة بتاريخ المغرب وبالدِقّة في معرفة الأماكن وضبط الأعلام المغربية (فإنّ هذه الأسماء لأعلامِ الأماكن والأشخاص كانتْ غريبةً عن المشارقة مدّةً طويلةً، بخِلاف الأسماء لأعلامِ الأشخاص والأماكن في المشرق فإنّها كانتْ دائماً جُزْءاً من ثقافة المغاربة). وأنا واثقٌ من أنّ في هذا الجُزْء أيضاً أخطاءً أو أوهاماً يسيرةً أو غيرَ يسيرة. فإذا وقَعَ نَظَرُهم على شيءٍ مما ذكرتُ ثمّ غَفَروا ذلك لنا أو كتبوا إليّ به كُنْتُ لهم من الشاكرين.

ع. ف.

بيروت في خامس ربيع الأوّل ١٤٠١
. ١٩٨١/١/١١

فهرس هذا الجزء

مقدّمة

هذا الجزء الرابع من «تاريخ الأدب العربيّ» (منذ الجاهلية إلى مطلع العصر العثماني في الشرق والغرب) يبدأ به تاريخ الأدب عندنا في المغرب (من قارّة إفريقية وقارّة أوروبّة). إنّ هذا التفريق في الأجزاء بين أدب المشرق (في الأجزاء الثلاثة الأولى التي صدرت) وأدب المغرب (والأندلس) في الأجزاء الثلاثة الباقية– وهذا الجزءُ الرابع أوّلُها– أمرٌ آليٌّ بَحْتٌ حَمَلَت عليه محاولةُ السهولةِ في التأليف.

ولا شكّ في أنني لم أُعان في كتابٍ وضعته من قبلُ ما عانيته من المشاقِّ في وضع هذا الجزءِ الرابع.

فمن المصاعب الأساسية قضيّتان:

– تقليد المغاربة للمشارقة.

– كثرة اهتمام المغاربة بأدب المشارقة في مقابل اهتمام من المشارقة غيرِ كافٍ بأدب المغاربة.

والمشهورُ في تاريخ الأدب أن الأندلسيين كانوا يُقلّدون المشارقةَ (ممّا ترى الإشارات إليه في أماكنَ مختلفةٍ من هذا الكتاب– كما تجد نَفَراً من الأندلسيّين يَرَوْنَ أنّ المشارقة كانوا مُقصّرين عن الأندلسيّين في ميادينَ كثيرةٍ، وخصوصاً في الأدب). ولكنّ الواضحَ الجَلِيَّ أنّ الأدبَ الأندلسي كان أحياناً أغنى في الأغراض (لاختلافِ البيئة الطبيعية بين المغربِ والمشرق) وأعذبَ في اللفظ. ولكنّ الأدبَ المَغرِبيّ (وفيه أدبُ الأندلسِ أيضاً) كان نازلاً عن مستوى الأدب المَشْرقي في ناحيتين: في عُمْقِ التفكير وفي متانة الأسلوب. نحنُ لا نَجِدُ في الأدب الأندلسيّ كاتباً كالجاحظ ولا شاعراً كأبي العلاءِ المعرّي (في سَعَةِ المَيْدان الذي وزّعا فيه جهودهما). وكذلك في

الأسلوب لا نرى تلك المَتانةَ التي نَعْرِفها للفرزدق، أو لجريرٍ مَعَ العذوبة أو لا نرى مثلَ أُسلوبِ المتنبّي والشريف الرضيّ. وذلك لبُعد المَغْرب (الإفريقي) والأندلس (في المكان والزمان) عن بِيئةِ اللسانِ العربيّ الأُولى - في الدرجة الأولى - ثمّ لقرب الأندلس خاصّةً من لُغاتٍ أعجمية وحضارات مختلفة، أكثرَ مـمّا كُنّا نرى في المشرق. وكذلك لا يجوز أن نَنْسى أن سلطةَ الخلافة في المشرق كانت أكثرَ رسوخاً وأوسَع أثراً فيما حولَها من السلطة السياسية في الأندلس خاصّة.

ثمّ تأتي المُعْضِلة الثانية:

لا شكّ في أن المغاربةَ كانوا دائماً أكثرَ عِنايةً بتاريخ المشرق وأدبه من المشارقة بتاريخِ المغرب وأدبِه. فلمّا أردتُ أن أُقْدِمَ على هذا الخِضَمّ الواسع- ذلك الذي ترى جانباً منه في هذا الجزء من عددِ التراجم وسَعَتِها والمختارات المُلحقةِ بها- دَعْكَ من دراسةِ العُصور- وقفتُ في كثيرٍ من الأحيان أمامَ جدارٍ غُفْلٍ (لا منفذ فيه): الأسماءِ الغريبةِ، وقد أَلِفْتُها في أثناء تلك المدة. ولكن بَقِيَ في الأسماء أشياءُ تُرْهِقُ القويَّ الجليدَ: أسماءٌ كثيرةٌ مثل: أبي عبدِ الله محمّدٍ وأبي محمّدٍ عبدِ الله - عشراتٌ ومئاتٌ من مثلِ هذه الأسماء المكرورة في النسب الواحدِ وفي الأنسابِ المختلفة. أقول هذا وأنا واثقٌ من أن إخْواني في المغرب سيَقَعون على عددٍ من تلك الأخطاء، فأرجو ألا يَضِنوا عليّ بالإشارة إليها، وأنا لهم شاكرٌ على كلّ تصحيحٍ أو تنقيحٍ يقترحونه.

وأمّا المشاكلُ العارضة- وفي هذا الجزء الرابعِ خاصةً- فكان منها:

بدأتُ جمعَ المادّةِ لهذه الأجزاء الثلاثة (من الرابع إلى السادس) منذُ ثلاثين عاماً (منذُ سَنَةِ ١٣٧١ للهجرة: عام ١٩٥١ م). ولقدِ اعتمدتُ في ذلك الحين (فيما كنتُ قد اعتمدته) «نفح الطِيب» (طبع ليدن) و«الذخيرة» و«وَفَيات الأعيان» (طبع مصر)، إلى جانبِ عدد كبير من المصادر والمراجع يجد القارىء جانباً منها (ذلك الجانبَ العامَّ في جميعِ أصحابِ التراجم- لا المصادرَ والمراجعَ الخاصّةَ بأديبٍ أديبٍ) في قائمةٍ مُلحَقَةٍ بهذه المقدّمة.

في تلك الأثناء (١٣٧١ - ١٤٠١ هـ = ١٩٥١ - ١٩٨١ م) ظهرتْ طَبَعاتٌ

جديدة لكُتُبٍ كانت قد طُبِعت من قبلُ وظَهَرَتْ كُتُبٌ جديدةٌ (مصادرُ ومراجعُ) فكنتُ مُضطَرًّا في مُعظَم الأحيانِ إلى أنْ أُعيدَ النظرَ في عددٍ كبير من الصَفَحات التي كنتُ قد أنشأتُها من قبلُ، بحَسْبِ ما كنتُ أرى من المادّة الجديدة أو القراءاتِ الجديدة (ما أمكنَ) في تلك الطَبَعات الجديدةِ أو الدراساتِ الجديدة. ويقضي الحقّ أن نشيرُ هنا إلى جُهود الدكتور إحسان عبّاس بالعِناية بتاريخ الأندلس خاصّة، فإنّه قد سهّلَ الوصولَ إلى ذخائرِ هذا التاريخ (في الأدبِ والفِكر) تسهيلاً ظاهراً.

غيرَ أن في الأدب الأندلسي ثغرةً واسعة هي تلك الأسماءُ المتداخلةُ المتشابكةُ المتكرّرة، وقد أشَرْتُ إلى هذهِ المُشكلة قبلَ أسطرٍ قليلة.

ولكنْ يبدو أنّني لم أكنْ وَحدي في مُعاناة هذه المشكلةِ. إن الرجوع إلى فهارسِ عددٍ من الكُتُبِ يُلقِيكَ أحياناً أمام أسماء مفرّقة في الفهارس في غير مواضعها أو مجموعة في غير مواضعها. وربّما بحثتَ عن اسم في فهرس كتاب فلم تجدْه، مع أنّه واردٌ في عدد من صفحات ذلك الكتاب. وربّما كشفت عن اسم فرأيته مُثْبَتاً في الفهرس مُشاراً إلى أنّه واقع في عدد من الصفحات ثمّ تقلّب تلك الصفحاتِ فلا تجدُ لذلك الاسم أثراً. وفي اعتقادي أنّ هذا راجعٌ إلى أن نفراً من المؤلّفين أو من الناشرين يَعْهدون إلى طلاّبهم أو إلى أصدقائهم بجزءٍ من العمل الواجب عليهم هم أو يعهدون إلى هؤلاء بذلك العمل كلّه.

ولعلّك واجد في كتابي هذا شيئاً قليلاً ممّا أشكو أنا الآن منه، ولكنّ مثَل هذا الخطأ سيكون منّي أنا ولن يكون بطبيعة الحال مقصوداً. ولعلّي أكون على صواب إذا أنا قلت إنّ جميع الكتب الكبيرة لا تخلو من مثل ذلك.

وهنالك مشكلة مزعجة في عمل الفهارس أحرص أنا على ألاّ أفرضها على قرّائي. يكتفي نفر كثيرون من ناشري الكتب الكبيرة بأن يذكر الصفحات التي ترد فيها أسماء الأعلام وُروداً صريحاً: محمّد بن عبد الله الفلاني ٨، ١٦، ٤٧، ٢١٠، ٢١١، ٢١٣، ٤٥٠، ٥٠٥، الخ (بلا تفريق بين الصفحات التي يرد فيها ذلك الاسم وُروداً عارضاً أو وُروداً مقصوداً). وربّما وجدت أنّ الصفحات ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١ الخ تتكلّم على ذلك الاسم الذي ذكر أنّه وارد في الصفحة ٤٧ صراحة أو أنّها

صفحات ورد لصاحب ذلك الاسم نصّ من آثاره. لا شكّ في أنّ هذا المنهج يسهّل العمل على مرتّب الفهارس - وخصوصاً إذا لم يكن مرتّب الفهارس هو ناشرَ الكتاب نفسَه - وإليك المثلَ التالي:

في أثناء إعداد ترجمة الحِجاري صاحب المُسهِب رجَعتُ إلى فهرس كتاب « المُغرب » فوجدت أن اسم الحجاري هذا واردٌ في مائتي صفحة أو تزيد. نقلت هذه الصفحات على ثلاث بطاقات ثمّ مررتُ في تلك الصفحات واحدةً واحدة فوجدتّ أن اسم الحجاري قد ورد في معظم هذه الصفحات وُروداً عارضاً لا يوجِب حُكماً ولا يُفيد بحثاً. وبعد تلك الرحلة الطويلة الشاقّة وجدتّ نحوَ عشرِ صَفَحاتٍ فيها شيء من النقد ثمّ بضعَ صفحاتٍ أخرى تتعلّق بحال الحِجاري.

وكذلك كان العملُ الآليُّ الذي قُمتُ به في هذا الجزء مُرهقاً جدًّا. إنّ تنضيدَ الحروف بالعقل الالكتروني (الكومبيوتر) - وخصوصاً في النصوص المشكولة - أمرٌ معقَّد من ناحية ثمّ هو مُتعب في تصحيح « الملازم » من ناحية ثانية. كان المؤلّفُ من قبلُ يأتي إليه في اليومِ بعد اليومِ أو في الأُسبوع بعدَ الأسبوع، ملزمةٌ واحدةٌ (ستَّ عَشْرةَ صفحةً) أو ثلاثُ ملازمَ أو أربعٌ في الأكثر فيصحّحُها على مَهْلٍ وبالتأنّي، كلّ ذلك معَ الحرّيّة في التبديل الضروريّ والتعديل والتذييل. أمّا الآنَ، وفي الوقت الذي أكتب فيه هذه الأسطر، فقد جاءني من ثلاث مطابعَ خمسون ملزمةً (ثمانُمِائةِ صفحةٍ)، ثمّ من كلّ مطبعةٍ رجاءٌ لطيفٌ بأنْ أُسرِعَ في التصحيح، لأنّ « الكومبيوتر » منتظر.

ثمّ إنّ « دار العلم للملايين » عَهِدتَ - مشكورةً - إلى الأستاذ زهير فتح الله، وهو لي تلميذٌ قديم، ثمّ كان منذ ذلك الحين صديقاً أيضاً، بمعاونتي في التصحيح. ورأى الأستاذ زهير فتح الله ألاّ يقصُرَ واجبَه على تصحيحِ الأخطاء المطبعية، بل حَرَصَ أيضاً على أن ينفِيَ من هذا الكتاب ما أمكن من الهَنات. ولقد اقترحَ عدداً من القراءات في عدد من الأحيان ثم عدداً من تفسير الأبيات أحياناً ممّا كان له وجه. ولقد كَرَرْتُ بصري في كلٍّ ما اقترَحَ ثمّ قَبِلْتُ أشياءَ ممّا كان قد اقترحه. فله على جُهودِهِ كلِّها شكرى الجزيلُ.

ثمّ إنَّ الجزأين الباقيين من هذه السلسلة سيمثُلان للطبع قريباً: إنّ مادّتَهما كلَّها موجودة، وقد جرى إعداد الجزءِ الخامِس للطبع، ولكن يحتاجُ إلى أن أمُرَّ عليه أنا ببصري مرّةً أخرى.

والله من وراء القصد.

في السابع والعشرين من ربيعٍ الأوّل ١٤٠١

١٩٨١/٢/٢.

عمر فرّوخ

مصادر ومراجع:

ابن الأثير- الكامل في التاريخ لعزّ الدين أبي الحسن علي بن محمّد الشيباني المعروف بابن الأثير، بيروت (دار صادر ودار بيروت) ١٣٨٥ هـ = ١٩٦٥.

ابن الفرضي- تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس، تأليف أبي الوليد عبد الله بن محمّد بن نصر الأزدي، القاهرة (عزّت الحسيني) ١٩٥٤ م.

ابن قنفذ- وفيات ابن قنفذ أو كتاب الوفيات لأبي العبّاس أحمد بن حسن بن عليّ بن الخطيب الشهير بابن قنفذ القسنطيني (عادل نويهض)، بيروت (منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع) ١٩٧١ م.

الإحاطة في أخبار غرناطة للوزير لسان الدين بن الخطيب، المجلّد الأوّل (محمّد عبد الله عنان)، مصر (دار المعارف) ١٣٧٥ هـ = ١٩٥٥ م. جزءان، القاهرة.

أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر لأحمد بن محمّد السلفي (احسان عبّاس)، بيروت (دار الثقافة) ١٩٦٣ م.

أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها (أميليو لافوانتي أي الكانترا)، مدريد (رفا دنييرا) ١٨٦٧ م.

الأدب المغربي، تأليف محمّد بن تاويت ومحمّد الصادق عفيفي، بيروت (مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني) ١٩٦٠ م.

أزهار الرياض في أخبار عياض، تأليف شهاب الدين أحمد بن محمّد المقّري التلمساني (مصطفى السقّا- إبراهيم الأبياري- عبد الحفيظ شلبي)، القاهرة (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٣٥٨ هـ ١٩٣٩ م.

الأزهار الرياضية في أئمّة وملوك الإباضية، تأليف سليان الباروني،؟ (المطبعة البارونية)؟.

إعتاب الكتّاب، تأليف أبي عبد الله محمّد بن عبد الله القضاعي المعروف بابن الأبّار (صالح الأشتر)، دمشق (مطبوعات مجمع اللغة العربية) ١٣٨٠ هـ = ١٩٦١ م.

الأعلام للزركلي= الأعلام: قاموس تراجم، تأليف خير الدين الزركلي، الطبعة الثالثة،؟ (؟) ١٣٨٩ هـ= ١٩٦٩ م.- الطبعة الرابعة، بيروت (دار العلم للملايين) ١٩٧٩ م.

أعلام من طرابلس، تأليف علي مصطفى المصراتي، طرابلس- ليبيا (مكتبة دار الفكر) ١٣٩٢ هـ = ١٩٧٢ م.

أعلام الفكر الإسلامي

أعلام ليبيا، تأليف طاهر أحمد الزاوي (مكتبة الفرجاني، طرابلس- ليبيا) ١٣٨١ هـ = ١٩٦١ م.

أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تأليف لسان الدين بن الخطيب السلماني (إ. ليفي بروفنسال) بيروت (دار المكشوف) ١٩٥٦ م.

أعيان الشيعة، تأليف محسن عبد الكريم الأمين، أجزاء كثيرة، دمشق وبيروت ١٩٣٦ م وما بعد.

إنباه الرواة على أنباه النحاة، تأليف جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي، (محمد أبو الفضل إبراهيم)، القاهرة (مطبعة دار الكتب المصرية) ١٣٦٩ هـ = ١٩٥٠ م.

الأنموذج- شعراء القيروان من أنموذج الزمان، تأليف أبي عليّ الحسن بن رشيق القيرواني (زين العابدين السنوسي)، تونس (دار المغرب العربي) ١٩٥١ م.

بالنثيا- تاريخ الفكر الأندلسي، تأليف آنخل جنثالث بالنثيا (نقله حسين مؤنس)، القاهرة (مكتبة النهضة المصرية) ١٩٥٥ م.

برنامج شيوخ الرعيني وهو أبو الحسن عليّ بن محمّد الرعيني الاشبيلي (إبراهيم

شبّوح)، دمشق (وزارة الثقافة والإرشاد القومي - مطبوعات مديريّة احياء التراث القديم، رقم ٤) ١٣٨١ هـ = ١٩٦٢ م.

بروكلمن وملحقـــــه Geschichte der Arabischen Litteratur, von Carl Brockelmann (mit Supplementbänden), Leiden (Brill) 1937-49.

بساط العقيق

البلغة

بغية الملتمس في تاريخ الأندلس: علمائها وأمرائها وشعرائها وذوي النباهة فيها ممّن دخل إليها أو خرج عنها، ممّا وشّى به رياض الحميدي وغنم وألحم سداه وتمّم أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبّي (فرنثيسكو قوديره إي زيدين)، مجريط (مطبع روخس) ١٨٨٤ م.

بغية الوعاة في طبقات اللّغويين والنحاة، تأليف جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، مصر (مطبعة السعادة) ١٣٢٦ هـ.

البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذاري المرّاكشي (ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال)، ليدن (بريل) ١٩٤٨ م، الجزء الثالث (إ. لافي بروفنسال)، باريس (بولس كتنر) ١٩٣٠ م.

تاج العروس من جواهر القاموس للسيد محمّد مرتضى الحسني الزبيدي (الأجزاء ١ - ١٨ تحقيق علماء كثيرين)، الكويت (مطبعة حكومة الكويت) ١٣٨٥ هـ = ١٩٦٥ م وما بعد.

تاريخ الأدب الأندلسي: عصر سيادة قرطبة، تأليف احسان عبّاس، بيروت (دار الثقافة) ١٩٦٠ و١٩٦٩ م.

تاريخ الأدب الأندلسيّ: عصر الطوائف والمرابطين، تأليف إحسان عبّاس، بيروت (دار الثقافة) ١٩٦٢ م.

تاريخ الأدب الجزائري، تأليف محمد الطمّار، الجزائر (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع) بلا تاريخ.

تاريخ الأدب العربي في صقلّية، تأليف أمبرتو ريزيتانو، عمّان (الجامعة الأردنية) بلا تاريخ.
تاريخ افتتاح الأندلس، تأليف أبي بكر محمّد بن عمر بن عبد العزيز المعروف بابن القوطية، مصر (مطبعة التوفيق) بلا تاريخ.
تاريخ إفريقية والمغرب: قطعة منه لأبي إسحق إبراهيم بن القاسم الرقيق (المنجي الكعبي)، تونس (رفيق السقطي)، ١٩٦٨ م.
تاريخ الجزائر العامّ، تأليف عبد الرحمن بن محمّد الجيلاني، الجزائر (المطبعة العربية) ١٣٧٢ هـ = ١٩٥٣ م.
تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس = ابن الفرضي.
تاريخ الفكر الأندلسي = بالنثيا.
تاريخ المّن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمّة وجعلهم الوارثين لعبد الملك ابن صاحب الصلاة (عبد الهادي التازي)، بيروت (دار الثقافة) ١٩٦٥ م.
تاريخ النقد الأدبي عند العرب، تأليف إحسان عبّاس، بيروت (دار الأمانة) ١٩٧١ م.
تالي وفيات الأعيان، تأليف فضل الله بن أبي الفخر الصقاعي (جاكلين سوبله)، دمشق (المعهد الفرنسي) ١٩٧٤ م.
تراجم أغلبية للقاضي أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض (استخرجها من «مدارك القاضي عياض» محمّد الطالبي)، تونس (المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية) ١٩٦٨ م.
تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، تأليف محمّد عبد الله عنان، القاهرة (مكتبة الخانجي) ١٣٩٠ هـ = ١٩٧٠ م.
تعريف الخلف برجال السلف، تأليف أبي القاسم محمّد الحفناوي، الجزائر (مطبعة بيير فونتانه الشرقية) ١٩٠٦ م.
التكملة لكتاب الصلة، تأليف أبي عبد الله محمّد بن عبد الله القضاعي المعروف بابن

الأبّار (الفريد بل وابن أبي شنب)- وهو القسم المفقود من طبعة قداره زيدين (مجريط ١٨٨٦ - ١٨٨٩ م) ومن طبعة فنزالش بلنسية (مجريط ١٩١٥ م)، الجزائر (المطبعة الشرقية للأخوين فونطانا) ١٣٣٧ هـ = ١٩١٩ م.

جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس لأبي عبد الله محمّد بن فتّوح الحميديّ (محمّد تاويت الطنجي)، القاهرة (مكتب نشر الثقافة الإسلامية) ١٩٥٢ م.

جيش التوشيح، تصنيف لسان الدين بن الخطيب (جلال ناجي ومحمّد ماضور)، تونس (مطبعة المنار) ١٩٦٧ م.

الحلّة السيراء لأبي عبد الله محمّد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبّار (حسين مؤنس)، القاهرة (الشركة العربية للطباعة والنشر) ١٩٦٣ م.

خريدة القصر وجريدة العصر، تأليف أبي عبد الله محمّد بن محمّد عماد الدين الكاتب الأصفهاني:

- (قسم المغرب) الجزء الأول.
- (قسم المغرب والأندلس) (آذرتاش آذرنوش)، تونس (الدار التونسية للنشر) ١٩٧١ - ١٩٧٢ م.
- (قسم الأندلس) (عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم)، القاهرة (دار نهضة مصر للطبع والنشر).

دائرة المعارف الإسلامية (باللغة الانكليزية)، ليدن (بريل) ولندن (لوزاك)، الطبعة الأولى ١٩١٣ م؛ الطبعة الثانية ١٩٦٠ م.

درّة الحجال

دودو = كتب وشخصيات، تأليف أبي العيد دودو، الجزائر (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع) ١٩٧٠ م.

داية = تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، تأليف محمّد رضوان الداية، بيروت (دار الأنوار) ١٣٨٨ هـ = ١٩٦٨ م.

الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تأليف برهان الدين إبراهيم بن عليّ

بن محمّد بن فرحون اليعمري، مصر (عبّاس بن عبد السلام بن شقرون (١٣٥١ هـ .

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تأليف أبي الحسن عليّ بن بسّام الشنتريني (إحسان عبّاس)، بيروت (دار الثقافة) ١٣٩٩ هـ = ١٩٧٩ م .

الذريعة إلى تصانيف الشيعة، تأليف محمّد محسن آغا بزرك، النجف طهران ١٣٥٥ هـ .

الذيل والتكملة لكتاب الموصول والصلة لأبي عبد الله محمّد بن محمّد بن عبد الملك المرّاكشي (إحسان عبّاس)، بيروت (دار الثقافة) ١٩٦٤ م .

رايات المبرّزين، لأبي الحسن عليّ بن موسى بن سعيد (أميليو غارثيا غوميز)، مدريد (معهد دون خوان الفلانسي)، ١٩٤٢ م .

الرحلة المغربية جدّو .

رحلة التجاني لأبي عبد الله محمّد بن محمّد بن أحمد التجانيّ (حسن حسني عبد الوهّاب)، تونس (المطبعة الرسمية)، ١٣٧٨ هـ=١٩٥٨ م .

روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تأليف عليّ بن عبد الله ابن أبي زرع الفاسيّ، فاس ١٣٠٣ هـ .

الزبيدي = طبقات النحويين واللغويين لأبي بكر محمّد بن الحسن الزبيدي، (محمّد أبو الفضل إبراهيم)، القاهرة (دار المعارف) ١٩٧٣ م .

سركيس = معجم المطبوعات العربية والمعرّبة. جمعه ورتّبه يوسف اليان سركيس، مصر (مطبعة سركيس) ١٣٤٦ هـ=١٩٢٨ م .

شذرات الذهب في أخبار من ذهب لأبي الفلاح عبد الحيّ بن العماد الحنبليّ، بيروت (المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع) بلا تاريخ (نسخة بالتصوير؟).

شهيرات النساء، تأليف حسن حسني عبد الوهّاب، تونس (المطبعة التونسية) ١٣٥٣ هـ .

الصلة في تاريخ أئمّة الأندلس لأبي القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال (عزّت العطّار الحسيني)، القاهرة (مكتبة الخانجي) ١٩٥٠ .

صلة الصلة لأبي جعفر أحمد بن الزبير، بيروت (مكتبة خيّاط) بلا تاريخ (بالتصوير).

طبقات الأطبّاء = عيون الأنباء.

طبقات علماء إفريقية وتونس لأبي العرب محمّد بن أحمد بن تميم القيرواني (علي الشابيّ - نعيم حسن اليافي)، تونس (الدار التونسية للنشر) ١٩٦٨ م.

الطمّار = تاريخ الأدب الجزائري.

العبر في خبر من غبر لشمس الدين أبي عبد الله محمّد بن أحمد الذهبي (نفر من العلماء)، الكويت ١٩٦٠ م.

العرب في صقلّية، تأليف احسان عبّاس، القاهرة (دار المعارف) ١٩٥٩ م.

العربي = مجلّة العربي (الكويت).

عنوان الأريب عمّا نشأ في المملكة التونسية من عالم وأديب، تأليف محمّد النيفر، تونس (المطبعة التونسية) ١٩٥١ م.

عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية لأبي العبّاس أحمد بن أحمد الغبريني (رابح بونار)، الجزائر (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع) ١٣٨٩ هـ = ١٩٧٠ م.

عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء، تأليف موفّق الدين أبي العبّاس أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة، مصر (المطبعة الوهبية) ١٢٩٩ هـ = ١٨٨٢ م.

الفهرست = كتاب الفهرست لأبي الفرج محمّد بن إسحاق النديم الورّاق البغدادي (فلوغل)، بيروت (خيّاط) ١٩٦٤ م (بالتصوير).

فهرسة ابن خير أبي بكر محمّد بن عمر بن خليفة الأموي الاشبيلي (فرنثيسكو قداره زيدين وخليان ربارە طرّاغو)، طبعة جديدة منقحة (زهير فتح الله).

بيروت (المكتب التجاري) - بغداد (مكتبة المثنّى) - القاهرة (مؤسسة الخانجي)، ١٢٨٢ هـ = ١٩٦٣ م (عن طبعة سرقسطة - إسبانية ١٨٩٣ م).

فوات الوفيات لصلاح الدين محمّد بن شاكر الكتبي، مصر ١٢٨٣ هـ.

القاموس المحيط لمجد الدين محمّد بن يعقوب الفيروزأبادي، مصر (المطبعة الحسينية المصرية) ١٣٤٤ هـ.
القدح المعلّى = اختصار القدح المعلّى في التاريخ المحلّى لأبي الحسن عليّ بن موسى بن سعيد، اختصره أبو عبد الله محمّد بن عبد الله بن خليل (إبراهيم الأبياري)، القاهرة (الهيئة العامّة لشؤون المطابع الأميرية) ١٩٥٩ م.
قضاة الأندلس = تاريخ قضاة الأندلس: كتاب المرقبة العليا فيمن يستحقّ القضاء والفتيا لأبي الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي المالقي الأندلسي (إ. ليفي بروفنسال)، القاهرة (دار الكاتب المصري) ١٩٤٨ م.
القفطي = تاريخ الحكماء لأبي الحسن علي بن يوسف القفطي (يوليوس ليبرت)، ليبزيغ (ديتريخ) ١٩٠٣ م.
قلائد العقيان ومحاسن الأعيان لأبي نصر الفتح بن محمّد بن عبد الله بن خاقان القيسي (عبده سليمان الحرايري)، باريس؟ ١٢٧٧ هـ.
كتب وشخصيات = دودو.
المجمل في تاريخ الأدب التونسي، تأليف حسن حسني عبد الوهّاب، تونس (مكتبة المنار) ١٩٦٨ م.
المحمّدون من الشعراء وأشعارهم لأبي الحسن عليّ بن يوسف القفطي (حمد الجاسر)، الرياض (دار اليمامة) ١٩٧٠ م.
مختارات نيكل = مختارات من الشعر الأندلسي (جمعها المستشرق أ. ر. نيكل)، بيروت (دار العلم للملايين) ١٩٤٩ م.
المرقبة العليا = قضاة الأندلس.
المسلمون في صقلّية = المسلمون في جزيرة صقلّية وجنوب إيطالية، تأليف أحمد توفيق المدني، الجزائر (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع) ١٩٦٥ م.
المطرب من أشعار أهل المغرب لأبي الخطّاب عمر بن حسن بن دحية (إبراهيم الابياري وحامد عبد المجيد وأحمد أحمد البدوي)، القاهرة (المطبعة الأميرية) ١٩٥٤ م -.

المطمح = مطمح الأنفس ومسرح التأنّس في ملح أهل الأندلس لأبي نصر الفتح بن محمّد بن عبد الله بن خاقان القيسي، قسطنطينية (مطبعة الجوائب)، ١٣٠٢ (١٣٠٣ هـ).

معالم الإيمان.

المعجب في تلخيص أخبار المغرب لأبي محمّد عبد الواحد بن عليّ التميمي المرّاكشي (دوزي)، أمستردام ١٩٦٨ م (بالتصوير؟).

مجلّة مجمع اللغة العربية بدمشق.

معجم الأدباء لأبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (أحمد فريد رفاعي)، القاهرة (مطبوعات دار المأمون) ١٩٣٦ م = ١٣٥٥ هـ.

معجم أعلام الجزائر.

المغرب في حلى المغرب، لنفر من المؤلّفين آخرهم أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد العنسي (شوقي ضيف)، مصر (دار المعارف) ١٩٥٣ م.

المقتبس لحيّان بن خلف بن حيّان القرطبي:

- المقتبس في تأريخ رجال الأندلس (ملشور م. أنطونية)، باريس (بولس كتنر الكتبي)، ١٩٣٧ م.
- المقتبس في أخبار بلد الأندلس (عبد الرحمن علي الحجّي)، بيروت (دار الثقافة)، ١٩٦٥ م.
- المقتبس من أنباء أهل الأندلس (محمود علي مكّي)، بيروت (دار الكتاب العربي) ١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣ م.

مقدّمة ابن خلدون، بيروت (المطبعة الأدبية)، ١٩٠٠ م؛ - بيروت (مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني) ١٩٦١ م.

الملحق = بروكلمن.

م م ع ع = مجلّة مجمع اللغة العربي بدمشق.

المنّ بالإمامة = تاريخ المنّ بالإمامة.

المنتخب المدرسي، تأليف حسن حسني عبد الوّهاب.

المنهل العذب من تاريخ طرابلس الغرب لأحمد بك، الأستانة (مطابع جمال أفندي) ١٣١٧ هـ.

النبوغ المغربي، تأليف عبد الله كنّون، بيروت (مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني) ١٩٦١ م.

النثر الفنّي في القرن الرابع، تأليف زكي مبارك، القاهرة (مطبعة دار الكتب المصرية) ١٩٣٤ م.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لأحمد بن محمّد المقّري التلمساني (احسان عبّاس)، بيروت (دار صادر) ١٣٨٨ هـ = ١٩٦٨.

نفحات النسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان، لأحمد النائب الأنصاري (علي مصطفى المصراتي)، بيروت (منشورات المكتب التجاري)، ١٩٦٣ م.

نكت الهميان في نكت العميان لصلاح الدين بن أيبك الصفدي (أحمد زكي بك)، مصر (المطبعة الجمالية) ١٣٢٩ هـ = ١٩١١ م.

نيكل = Hispano-Arabic Poetry and its Relation with the Old Provençal Troubadours, by A.R. Nykl, Baltimore 1946.

نيل الابتهاج بتطريز الديباج (بهامش الديباج المذهب).

الوافي بالوفيات لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (علماء مختلفون)، أماكن مختلفة (مطابع مختلفة)، ١٩٣١ م وما بعد.

وفيات ابن قنفذ = ابن قنفذ.

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العبّاس شمس الدين أحمد بن محمّد بن خلّكان (إحسان عبّاس)، بيروت (دار الثقافة) ١٩٧٢ م.

تاريخ الأدبِ العَرَبِيِّ في المَغْرِبِ

المَغْرِبُ هنا يُقال في مُقابلِ المَشْرِق: إنّ مِصْرَ والسُّودانَ (في قارّةِ إفريقِيَةَ) ثمّ الحِجازَ والشامَ (في قارّة آسِيَةَ) وما وراءَ هذه شَرْقاً هو المَشْرِقُ؛ أمّا لِيبِيا وما وراءَها غَرْباً (في قارّة إفريقِيَةَ) ثمّ جزيرَة سِقِلّيَةَ أو صِقِلّيَةَ وشِبْهُ جزيرةِ إبارِيَةَ - الأنْدَلُسُ - (من القارّة الأوروبيّة) فَهِيَ المَغْرِبُ.

وسُكّانُ المغرب في إفريقِيَةَ وَحْدَةٌ جِنْسية، على ذلك أجمع الدارسون. وقد عُرِفَ المَغْرِبُ عندَ أهلهِ بآسْمِ بلادِ الأمازيغ (أيِ الوطنِ الحُرّ)، كما عُرِفَ سُكّانُهُ بآسم الإيمازيغِن (أي الرجالِ الأحرار). غيرَ أنّ تَسْمِيَةَ سُكّانِ المغرب بالبربرِ تَسْمِيَةٌ قديمَةٌ عَرَفَها اليونانُ والرومانُ والأعرابيّون[1] وعَرَفها العربُ وذَكَرَها آمْرُؤُ القيسِ في شِعرِهِ. أما وَجْهُ آشتقاق الكَلِمة «بربر» فقد غابَ -لِقِدَمِهِ- عن رُواةِ اللُّغَةِ وعُلَمائها.

والمغربُ في إفريقية وَحْدَةٌ جُغرافِيَّةٌ، ولكنّ هذه الوحدةَ خَضَعَتْ لِتَسْمِياتٍ دالّةٍ على أقطارها. هذه التسمياتُ التي عَرَفَها العربُ منذُ الفتحِ كانت أربعاً:

- بَرْقَةُ وطَرابُلُسُ (وهما اللّتانِ تُعْرَفانِ اليوم باسم لِيبيا). على أن بَرْقَةَ كانتْ في الأكثرِ تابعةً في تاريخها لِمِصْرَ، بينما طرابُلُسُ كانَت في الأكثر تابعةً لِلْمَغْرِبِ الأدنى.

---

(١) الأعرابيّون هم سكّان شبه جزيرة العرب الأوّلون - وأكثرهم البدو - وهم الذين كانوا قد خرجوا في موجات متباعدة ثمّ استقرّوا في العراق وسورية ومصر والحبشة وعرفوا في مساكنهم الجديدة باسم الأموريّين أو الآراميّين أو الكنعانيّين أو البابليّين أو العرب أو غير ذلك. وكانت عادة المؤرّخين المتأخّرين أن يطلقوا على «الأعرابيّين» اسم «ساميّين»، نسبة في ظنّهم إلى سام بن نوح والاسم «ساميّون» خطأ ليس هنا محلّ تبيانه. أمّا الاسم «أعرابيّون» فقد اقترحه الصديق الدكتور زكي عبد الرحمن النقّاش - ولد ١٣١٣(١٨٩٦ م) في كتابه «دور العروبة في تراثنا اللبناني» (١٩٧٤ م).

- المغرب الأدنى (وهُوَ المعروفُ اليومَ باسمِ تُونِسَ)، وكان الرومانُ يُطْلِقون عليه آسْمَ «إفريقية».

- المغربُ الأوسطُ (وهُوَ الجانبُ الأوسط من المغرب كلّهِ، ولا نَعْرِفُ له حدُوداً مُعيّنةً لا من الشرقِ ولا من الغرب).

- المغربُ الأقصى، وهُوَ الجزء الذي يَقَعُ بعدَ المغربِ الأوسطِ ثمّ يَمْتَدُّ غرباً إلى البحرِ الأخْضر (المُحيطِ الأطْلَسيّ).

ويَحْسُنُ أن نُثْبِتَ هُنا عدداً من المُلاحظاتِ تَتَعلّقُ بالمغرب (في إفريقية) كلّهِ:

أ - إنّ هذهِ التّسْمياتِ لا تدلّ على أقطارٍ مُعَيّنةٍ، وإنْ كانتْ تُشيرُ إلى أجزاءِ المغرب بإضافةِ بعضِها إلى بعضٍ.

ب - ومَعَ أنّ البربرَ وَحْدَةٌ جِنْسِيّةٌ في الأصلِ، فإنّه قد طرأ عَلَيْهِمْ جالياتٌ وفاتحونَ (كما حَدَثَ في كلّ بُقْعَةٍ في العالم)، فإذا هُمُ اليومَ مزيجٌ يَغْلِبُ عليه العُنْصُرُ البربريُّ، إذْ يبدو أن الجواليَ كانتْ قليلةَ العددِ بالإضافةِ إلى جُمْهورِ البربرِ، كما أن جيوشَ الفاتحين أيضاً لم تَكُنْ كثيرةَ العددِ. ونحنُ نُلاحِظُ اليومَ أن البربرَ قبائلُ ذَوُو خَصائِصَ جِنْسِيّةٍ مُتَفاوتةٍ كما أن هذه القبائل تَتَكلّمُ بِضْعَ لَهجاتٍ. ويجبُ ألاّ ننسى أنّه مرّ على المغرب كلّهِ فاتحونَ أو جالياتٌ من الكَنعانيّين الأعرابيّين الذين عَرَفَهُم اليونان باسم الفينيقيّين ثمّ من اليونان والرومان ومن الجِرمان (الفَنْدال والقُوط) الآريّين، وأنّ المغرب كان يتلقّى مَوْجاتٍ زَنْجيّةً من الجَنوب.

جـ - والاعتقاد السائدُ في المغرب إلى اليوم أن البربرَ قَحْطانيّون من عَرَبِ الجنوبِ هاجروا إلى بِلادِهم الحاليّةِ من جَنوبِيّ شِبْهِ جَزيرة العرب - ولا نَعْرِف حُكْمَ التاريخ في ذلك.

د - كان مُعْظَمُ سَواحِلِ المغرب، قبلَ الفتحِ الإسلاميّ، خاضعاً لِلرُّومِ البيزنطيّين؛ وهم الذين كانوا مُسْتَوْلِينَ على الشامِ (في المشرق) قبلَ الفتحِ الإسلامي في المشرق. وقَبْلَ الرومِ كان الرومان يُسَيْطِرونَ على مُعْظَمِ سواحلِ

المغربِ. فلمّا جاء الفتحُ الإسلاميّ كان للنَّصْرانيّةِ بِمَذْهَبَيْها الأرْثوذُكْسِيِّ (الرومي الشرقي) والكاثوليكيّ (الرومانيّ الغربي) شيءٌ مِنَ الآنتشار. أما مُعْظَمُ البربر، على الساحل وفي الداخل، فكانوا على الوَثَنِيّةِ. ولقد كانتِ المنازعاتُ الدينيةُ ثائرةً في المغرب كما كانت في ذلك الحين ثائرةً في المشرق.

وسُكّانُ المغرب أهلُ بَداوةٍ وأهلُ حضارةٍ، فحياتهم من هذه الناحية شَبيهةٌ بحالِ العرب في شِبه جزيرة العرب. على أن ظِلّ الحَضارة في المغرب أوسعُ فالعُمرانُ فيهِ أكثرُ وأقدمُ عَهْداً مّما في شِبهِ جزيرة العربِ حيثُ نشأ الجِنْسُ العربي وتَطَوَّرتِ اللُّغَةُ العربيةُ وجرى الأدب العربي على لِسانِ أهلهِ الأوّلين. وأما بداوة المغرب فتختلف أيضاً من بداوة المشرق في أمرين: إنّ البَدْوَ في المشرق دائمو التَرْحالِ يَتَنَقّلُونَ بِمَواشِيهِمْ من مكانٍ إلى مكانٍ يَتَتَبّعونَ مَساقِطَ الغَيْثِ، حتّى إذا جَفّ الماءُ المُتجَمّعُ في بُقْعَةٍ ونَفِدَ عُشْبُها ارْتَحَلوا إلى مكانٍ آخرَ. فبُيُوتُهم من أجلِ ذلك خِيامٌ يَحْمِلونها مَعَهم حيثُ ذَهَبوا. أما في المغرب فلِلْبَدْوِ رِحْلَتانِ: يَرْحَلون في الشتاء إلى مكانٍ يَنْزِلون فيه، ثمّ يَعودونَ في الصيف إلى مكانِهِمُ الأوّلِ، ولذلك تراهُمْ في بعضِ الأحيانِ يُقيمون بيوتاً من حَجَر. ثمّ هم فوقَ ذلك يُرَبّون الماشيةَ ويزرَعون الأرضَ معاً.

وكثيرٌ من عاداتِ أهْلِ المغربِ الإفْريقيّ في الحياةِ الآجْتماعيةِ كانَ يُشْبِهُ عاداتِ أهلِ المشرقِ من البدو، ولا يزال كذلك إلى حدّ كبير.

الأندلس

أما شِبهُ جزيرةِ إباريةَ (إيبيرية، الأندلس: إسبانية والبرتغال) فَتَقَعُ في الطَرَفِ الجَنوبيّ الغَرْبي من قارّة أوروبّةَ وتُقابِلُ المَغرِبَ الأقصى.

لَمّا جاء الفتحُ الإسلاميُّ كان أهلُ البلادِ الأصليون يَعيشونَ في الأكثر على الزِراعة عِيشةً نَكَداً. أما الحُكْمُ فكانَ في يدِ القُوطِ الغَرْبيّينَ، وهم جِرْمانٌ طارِئون على شِبهِ الجزيرة. وكان الحكم القُوطِيُّ في دَوْرِه الأخيرِ ضَعيفاً مُتفَكّكاً فاسِداً. وكَان أهلُ البلادِ الأصليّون يُعانونَ منه ظُلْماً وإرهاقاً.

وكانتِ النَّصْرانيةُ دينَ شِبهِ الجزيرةِ الإيبيرية: كان الحكّامُ القوطُ أنفُسُهُمْ أريوسيّينَ مُنْشَقّينَ عَنِ الكنيسةِ الكاثوليكية وعن عَقيدة الرومِ الأرثوذُكْسِيَّةِ. وكان للكاثوليكية أتباعٌ في البلادِ ٱلّتي كانتْ تَحْتَ سيطرةِ الرومانِ من قبل، كما كانَ لعقيدة الروم الأرثوذكسِ أتباعٌ حيث كان للروم البيزنطيّين سَيْطَرة (على أجزاء من سواحِلِ الجزيرة). ولم يَكُنِ النِزاعُ الدينيُّ في إيبيرية أقلَّ منه في المغرب الإفريقي ولا أقلَّ مّما كان في المشرق قبلَ الإسلام..

الفتح في المغرب وفي الأندلس

بعدَ أنْ فتحَ عمرُو بْنُ العاصِ مِصْرَ سارَ في سَنَةِ ٢٢ (٦٤٣ م) وفتح بَرْقَةَ صُلْحاً. وقبلَ أنْ تَنْتَهِيَ سَنَةُ ٢٣ كان العربُ قد فَتَحوا جَميعَ ليبيا، في أيامِ عُمَرَ بْنِ الخَطّابِ. وفي أول سَنَةِ ٢٧ (خَريفِ ٦٤٧ م) أذِنَ الخليفةُ عُثْمانُ بْنُ عَفّانَ لواليهِ على مِصْرَ عبدِ اللهِ بْنِ أبي سَرْحٍ بأنْ يَسيرَ إلى فتحِ إفريقِيَةَ (القطرِ التُونِسِيّ). واسْتَطاعَ العربُ في عامٍ واحدٍ أن يفتحوا القُطْرَ التونسي.

غيرَ أنّ ٱلْفِتَنَ ٱلّتي حدثتْ في المَشْرِقِ في أيامِ عُثْمانَ وعَلِيٍّ ومحاولاتِ الرُّومِ في اسْتردادِ ما كانوا قد خَسِروه في المَغْرب - بعدَ أنْ تَوَطَّدَ حُكْمُ العربِ في المَشْرِقِ - جَعَلَتِ العربَ يَتَراجعونَ عن إفريقية وعَنْ أجْزاءٍ من لِيبيا مَرّةً بَعْدَ مَرّةٍ.

ولم يَثْبُتِ الحُكْمُ العربيُّ في المغربِ إلاّ بَعْدَ الفتحِ الرابعِ، سَنَةَ ٤٦ (٦٦٦ م) بقيادةِ عُقْبَةَ بْنِ نافعٍ. وفي سَنَةِ ٥٠ (٦٧٠ م) بنى عُقبةُ قَيْرواناً (مُعَسْكراً) وخطّ فيه مسجداً (عيّن اتّجاهَه نحو القِبلة، أي نحوَ مَكّةَ)، فأصبحَ هذا المعْسكرُ مَعَ الأيّامِ مركزاً مُهِمّاً لتجمّع الجيوش وللسُّكنى. وسَرعانَ ما أصبح هذا «القيروانُ» مدينةً عظيمة مشهورة ومركزاً من مراكزِ العلمِ والحضارةِ في العالم الإسلاميّ.

وتابعَ عُقْبَةُ بنُ نافعٍ نفسُه الفتحَ في المغرب حتّى وَصَلَ إلى ساحلِ البحر، على البحر الأخضر (المحيط الاطلنتي). غيرَ أنّ عُقْبَةَ تَرَكَ الحَزْمَ وعادَ في عددٍ قليلٍ من أتْباعه، فانْتَهَزَ الرومُ والإفرنجةُ فيهِ الفُرْصَةَ وهاجَموه عند تَهودَةَ في بلاد الزاب،

جَنوبَ جِبال أوْراسَ قريباً من بَسْكَرَةَ (في المغرب الأوْسط) فاسْتُشْهِدَ وَمَنْ مَعَه في أواخرِ سَنَةِ ٦٣ (آب ٦٨٣).

وقَضى العربُ عشرينَ سَنَةً أُخرى أو تزيدُ حتّى قَضَوْا على كلِّ نفوذٍ للرّومِ وللإفرنْجَةِ فِي المغرب. عندَئِذٍ آستقرَّ المغربُ إلى الحُكْمِ العَرَبِيّ وبَدأ الإسلامُ ينتشرُ فيه.

وفي سنة ٨٦ (٧٠٥ م) جاء الوليدُ بنُ عبدِ المَلِكِ إلى الخِلافةِ فَفَصَلَ إفْريقِيَةَ وسائِرَ المَغْرِبِ عَنْ وِلايةِ مِصْرَ وَولّى عَلَيْها مُوسى بْنَ نُصَيْرٍ.

الفتح في الأندلس

كان فتحُ الأندلسِ آسْتمراراً لِحَرَكَةِ الفتحِ العامّةِ لِنَشْرِ الدَّعْوة. ثمّ كانَ العربُ يَخافون أن يَثِبَ القُوطُ والإفرنجةُ - ومِنْ ورائِهِمُ الرومُ - عَلَى إفريقيةَ من جديدٍ.

ويَبْدو أن يُلْيانَ كانَ رَجُلاً من الأفارقة وزَوْجاً لِبِنْتِ غَيْطَشَةَ (مَلِكِ القوطِ الشَّرْعِيّ المخلوع) والياً من قِبَلِ القوطِ على سَبْتَةَ. وكذلك كان ناقماً على لُذَريقَ مَلِكِ القوط المُغْتَصِبِ. وقامَ يُلْيان بِمُفاوضة موسى بْنِ نُصَيْرٍ لِتَسْهيلِ فتح الأندلُسِ على العرب. وبَعْدَ أنْ أرْسَلَ موسى بنُ نُصَيرٍ حَمْلَتَيْنِ اسْتِكْشافِيّتَيْنِ في عامَيْنِ مُتَوالِيَيْنِ بِقِيادَةِ يُلْيانَ (٩٠ هـ) ثم بِقيادَةِ مولاهُ طَريفٍ (٩١ هـ) أرسل حَمْلَةَ لِلْفَتْحِ (٩٢ هـ = ٧١١ م) بقيادَةِ مَوْلاه طارقِ بنِ زِيادٍ.

نَزَلَ طارقُ بنُ زيادٍ على البرّ الإسباني ثمّ اخْتارَ مكانَ المعركة المُقْبِلَةِ في إقليمِ البُحَيْرةِ، عندَ مدينةِ لَكُّهْ من كورةِ شَذونةَ قريباً من نَهْرِ لَكُّه. وجاء لُذَريقُ بِجَيْشٍ كَثيفٍ لِلِقاءِ العربِ ولكنّه آنْهَزَمَ لِبراعةِ الخُطّةِ الّتي وَضَعَها طارقٌ ولأنّ نفراً كثيرين من أنْصارِ لُذريقَ خَذَلوه في إبّان المَعْركة. ولم يَعْثُرْ أحَدٌ بعدَ هذه المَعْرَكةِ على جُثّةِ لُذَريقَ.

وقَسَمَ طارقٌ الجيشَ بعدَ مَعْرَكةِ لَكُّه أرْبَعَ فِرَقٍ سارتْ تَفْتَحُ في الأندلسِ بِيُسْرٍ وسُهولةٍ لأنّ الشَّعْبَ الإسبانيَّ كان يَتَلَقّى العربَ بالتَرْحابِ حُبّاً بالتَخَلُّصِ من ظُلْمِ حُكّامِه القُوط.

ووَصَلَتْ أخبارُ الفتحِ هذه إلى موسى بنِ نُصَيرٍ فجَمَعَ جيشاً جديداً وسارَ به إلى الأندلس فَالْتقى بِطارِقٍ عند مدينة طُلَيْطُلَةَ. وفي مَدَى عامينِ آثْنَيْنِ آستطاعَ طارقٌ وموسى أنْ يُتِمّا فَتْحَ شِبْهِ جزيرةِ الأندَلُسِ إلاّ جانباً يَسيراً منها (في الشَّمالِ الغربيّ). أما غنائمُ العربِ في الأندلس فكانتْ عظيمةً جِدّاً أعْظَمُها بلا رَيْبٍ بلادٌ مَنحَتِ العُروبةَ والإسلامَ حَضارةً وثقافةً وأدباً وفنّاً قلّ أنْ عَرَفَ العالَمُ مثلَها.

ولا نعلمُ السببَ الذي من أجلِهِ أرسلَ الوليدُ بنُ عبدِ الملك (٨٦ - ٩٦ هـ) إلى موسى بنِ نُصيرٍ يَدْعوه إلى الرجوع إلى دِمَشْقَ. آسْتَخلَفَ موسى بنُ نصيرٍ آبنَهُ عبدَ العزيز على الأندلس وأسْكَنَه في إشبِيلِيَةَ وأمرَه بمُتابَعَةِ الجِهادِ لتوطيد الفتح، ثمّ قَفَلَ، في أواخر سَنَةَ ٩٥ (٧١٤ م)، ومَعَهُ طارقُ بنُ زِيادٍ والغنائم. وجازَ موسى إلى إفريقية وعيَّنَ آبنَهُ مَرْوَانَ عَلَى طَنجَةَ وآبنَهُ عَبْدَ الله عَلى القيروان. ثم تَابَعَ سَيْره إلى المشرق، في أول سَنَةِ ٩٦ (أيلول - سبتمبر ٧١٤ م). فلمّا وَصَلَ إلى طَبَرِيّةَ من أرضِ فِلَسْطينَ وافاه رَسولٌ من سُلَيْمان بن عبدِ الملك - وهُوَ بعدُ وَليٌّ لِلْعَهْدِ - يَطْلُبُ إليه أن يَتَريّثَ في المسيرِ حتّى يكونَ قُدومُه على دِمَشْقَ وسُليمانُ خليفةٌ، لأنّ الوليدَ كانَ مريضاً مَرَضَ الموتِ. غيرَ أن موسى أغَذَّ السيرَ وفاءً للوليدِ الذي كان قد وَجّهَ الفتوحَ إلى الأندلس فَوَصَلَ إلى دِمَشْقَ والوليدُ حيٌّ في الأغلب.

وجاءَ سليمانُ بنُ عبدِ الملكِ إلى الخِلافة (٩٦ - ٩٩ هـ) فاتّبع سِياسةً يَمنيّة، خِلافاً على أخيهِ وأبيهِ من قَبْلُ في اتّباعِهما سياسةً قَيْسِية، فأساء إلى القَيْسيّين ونَكَبَ القُوّادَ الّذين فَتَحوا الفُتوحَ في المَشرِق ثمّ ألقى موسى بنَ نصيرٍ في السِجْن وأرْسَلَ مُحَمّدَ بنَ يزيدَ والياً على المَغرب وأمره بأنْ يأخُذَ آلَ موسى بنِ نصير بالتعذيبِ والقتل وأن يُغَرّمَهم ثلاثمِائَةِ ألفِ دينارٍ. وقد كانَ سَجْنُ موسى بنِ نصير ومقتلُ ولديه عبدِ الله وعبدِ العزيز من الوَصَمات التي لَصِقَتْ بسليمانَ بنِ عبدِ الملك أبَدَ الدهرِ، ولَمْ يَكُنْ لها تَفْسيرٌ أو تعليلٌ سوى القَسوةِ والفَظاظةِ والحِقْدِ في قلبِ سليمانَ. وتُوُفّيَ موسى بنُ نصير في الحجازِ بائساً فقيراً ذليلاً (٩٨ = ٧١٦ م). أما طارقُ بنُ زيادٍ فقَضى بقيّةَ عُمُرِه خاملاً لا ندري كَيْفَ تَقلّبَ الدهرُ بهِ. ثم توفي نحو سنة ١٠٢ (٧٢٠ م).

طبقات الناس (في الأندلس خاصّة)

لمّا آستتبّ الفتحُ في الأندلسِ أصبحَ الناسُ طبقاتٍ (من حيث العصبيةُ والدين):

١ - المسلمون:

(أ) العرب: الذين جاءوا إلى الأندلس من المشرق ونسلهم. فإذا كانوا قد جاءوا مَعَ طارقِ بنِ زيادٍ أو موسى بنِ نُصيرٍ (في أول الفتح) فهم « البلديّون ». أمّا إذا كانوا قد جاءوا مَعَ بَلْجِ بنِ بِشْرِ آبن عِياضٍ القُشيريّ على رأس جُنْدِ أهلِ الشام، في آخِرِ عصرِ الوُلاة، فهم « الشاميون ».

(ب) البربر: أهل المغرب الذين انتقلوا إلى الأندلس مع الفتح أو بعده.

(جـ) المولّدون أو الموالي: وهُم الذين اعتنقوا الإسلام من نصارى الأندلس.

٢ - غير المسلمين:

المُسْتَعْرِبون: نصارىِ الأندلس الذين تعلّموا اللغة العربية فأصبحت لغتهم ينثِرون فيها وينظِمون.

العَجَم: نصارى الأندلس الذين لم يتعلّموا اللغة العربية، وكانوا يتكلّمون لُغةً محلية هي مزيج تغلب عليه لاتينيةٌ متقهقرة.

الروم والإفرِنج والقوط أسماء تدلّ على غير المسلمين من غير أهل الأندلس (الروم البيزنطيّون والإفرِنجة البرابرة، الخ). وكانت هذه الألفاظ تُطلَقُ أيضاً على النصارى عامّة.

اليهود.

الأدب في هذه الفترة

لم يُؤثَرْ عن عصرِ الفتوح في المغرب والأندلس (٢٣ - ٩٤ = ٦٤٤ - ٦٩٥ م)

أدَبٌ، مَعَ الإيقان بأنّ العربَ كانوا في أثناء تلك الفتوحِ بحاجةٍ إلى شعرٍ وخَطابةٍ يستَخْدِمونَها في حياتِهِمُ الحربيةِ على الأقلّ. أما الشعرُ والنثر المَرْويانِ عن طارقِ بن زياد ففيهما موقفان: موقفٌ راجحٌ هُوَ أن خُطْبَةَ طارقٍ[1] والأبياتَ المنسوبةَ إليه منحولةٌ كلُّها. وهنالك موقفٌ مرجوحٌ (ضعيف) هو أنّ هذا النثرَ والشعرَ لطارقِ بنِ زيادٍ نفسه.

وعلى كلٍّ، فإنّنا إذا ألْفَيْنا شيئاً من الشعر أو النثر - في هذه الفترة - فإنّه يكونُ قد جرى على لسانِ عربٍ من جُنودِ الفَتْحِ فيُعَدُّ حينئذٍ من أدبِ المشرق لا من أدب المغرب. من ذلك مثلاً أدبُ موسى بن نُصيرٍ[2]، فموسى بنُ نصيرٍ كان عربياً فصيحاً بليغاً يُرْوى عنه شيءٌ من الشعر والنثر.

ويبدو أن البربر في المغرب قد بدأوا يتعلّمون القُرآنَ والفِقْهَ والنحو منذ أيام

(١) تنسب إلى طارق بن زياد خطبة مشهورة مطلعها: «أيها الناس. البحر من ورائكم والعدو من أمامكم؛ وليس لكم - والله - إلا الصدق والصبر......».

طارق بن زياد بربري الأصل دخل في الإسلام وفي ولاء موسى بن نصير. ولمّا جاز طارق برجاله إلى الأندلس للفتح لم يكن قد مرّ على إسلامه وتعلّمه اللغة العربية إلاّ سنوات لا يزدن على خمس، فليس من المعقول أن تكون تلك الخطبة من قوله. ثم إنّ في هذه الخطبة صناعةً هي أقرب إلى ما عرف في العصر العبّاسي. ولم ترد هذه الخطبة في مصدر نعرفه قبل نفح الطيب للمقّري (ت ١٠٤١ = ١٦٣١ - ١٦٣٢ م). راجع الخطبة في نفح الطيب ١: ٢٤٠ - ٢٤١، رواها عن بعض المؤرخين.

وكذلك روي لطارق شيء من الشعر منه (نفح الطيب ١: ٢٦٥، عن «المسهب» (للحجاري) و«المغرب» (لابن اليسع).

ركبنـــا سفينـــاً بالمجـــاز مقيّراً   عسى أن يكون الله منّا قد اشترى...

وهذا أيضاً شعر منحول (راجع في طارق بن زياد، نفح الطيب ٣: ١٥٠ وما بعدها متفرّقاً؛ وراجع في الشكّ في الشعر والنثر المرويّين لطارق بن زياد، «الأدب المغربي»، ص ١٠٠ - ١٠٣)؛ وراجع في إثبات هذا النثر وهذا الشعر لطارق بن زياد (ولأنداد طارق بن زياد): «النبوغ المغربي»، ص ٤١ - ٤٢ (من المقدمة)، ٤١ - ٤٢ (من متن الكتاب)، ٣٧٣ - ٣٧٤ (نص الخطبة).

(٢) ولد موسى بن نصير سنة ١٩ وتولّى المغرب سنة ٨٦ ثم عاد إلى المشرق سنة ٩٦. أما وفاته فكانت في الأغلب سنة ٩٩ (٧١٧ م). راجع، في الكلام على موسى بن نصير، وفيات الأعيان ٣: ١٩ - ٢٧؛ نفح الطيب ٢: ١٤٦ - ١٤٩، ١٥٥ - ١٥٦، ٢١٢ - ٢١٦، ٢١٨ - ٢٢٠، ٢٢٢ - ٢٢٧ ثم فيما يتعلّق ببلاغته وشعره ٢٥٠ وما بعدها.

عُقْبَةَ بنِ نافعٍ (ت ٦٣) فقد تَرَكَ عُقبةُ في البربر جماعةً منهم شاكرٌ صاحب الرباط يعلّمون البربرَ القرآنَ وأمور الإسلام. وكذلك فعل موسى بن نصيرٍ فإنّه لمّا جاز إلى الأندلس لِلّحاقِ بطارقٍ ترك في المَغْرب سَبْعَةَ عَشَرَ رَجُلاً من العرب يعلّمون البربر القرآنَ وشرائعَ الإسلام. وقد كان المُنَيْذِرُ اليمانيُّ[1] يُحَدِّثُ في إفريقية بأحاديثِ رسولِ الله.

عصر الولاة (٩٢ - ١٣٨ هـ)

بعدَ مقتلِ عبدِ العزيز بنِ موسى، في مَطْلَعِ سنة ٩٨، بَقِيَتِ الأندلسُ سِتّةَ أشْهُرٍ بلا والٍ، ثمّ قَدّم أهلُ الأندلس أيّوبَ بنَ حبيبٍ اللَّخْمِيَّ، ٱبنَ أُخْتِ موسى بنِ نصيرٍ - وكان رجلاً صالحاً - لِيَؤُمَّهُمْ في صَلاتِهِمْ. بعدَئذٍ ٱرْتَضَوْهُ والياً. غيرَ أن واليَ إفريقيةَ محمّدَ بن يزيدَ أرسل الحُرَّ بنَ عبدِ الرحمن الثَقَفِيَّ لِيَلِيَ الأندلسَ مكانَ أيوبَ ٱبن حبيبٍ، في السنَة نفسها.

في أيام الحُرّ بنِ عبدِ الرحمن تَحَوَّلَتِ العاصمةُ مِنْ إشْبِيلِيَةَ إلى قُرْطُبَةَ لأنّ إشبيلِيَةَ كانتْ ميداناً واسعاً لِنَشاطِ الإسبان ضدّ الحُكْم العربيّ ولأنَّ قرطبةَ أقربُ إلى طريق القوافل. ومنذ أيام الحرّ بنِ عبدِ الرحمنِ بدأتْ غزواتُ العربِ وراءَ جبال البَرانِسِ (في بلاد الإفرنْجة - فرنسة) لأنّ البابويّة ومُلوكَ أوروبّة كانوا قد جَعَلوا بلاد الإفرنجة مَرْكزاً يمّونون منه الإسبان لِقِتالِ العرب.

وفي سنة ٩٩ (٧١٧م) تُوُفِّيَ سُليمانُ بنُ عبدِ الملكِ وخَلَفَهُ عُمَرُ بنُ عبدِ العزيز. فقام عُمَرُ بعزلِ محمّدِ بنِ يزيدَ عن إفريقية وولّى مكانَه إسماعيلَ بنَ أبي المُهاجر، كما ولّى على الأندلس السَّمْحَ بنَ مالكٍ الخَوْلانيّ. وكان عُمَرُ قد قالَ للسمحِ أن يَنْظُرَ في أمورِ الأندلس، فإذا كان فيها خطرٌ على المسلمين فَلْيُقْفِلْهُمْ (يَرُدَّهم) إلى إفريقية ويَنْسَحِبْ مِنَ الأندلس. فكتبَ السمحُ إلى عُمَرَ بأنْ لا خَطَرَ عَلَى المُسْلِمِينَ وأنّ

---

(١) المنيذر الاسلمي. ويعرف أيضاً باسم المنيذر الإفريقي لأنّه سكن إفريقية (الاستقصا ١ : ٤١؛ نفح الطيب ٢ : ٢٣٣)؛ راجع استعراض أقوال المؤرخين في المنيذر في «المنهل العذب» ١ : ٤١ - ٤٣.

أحوَالَهُمْ مُسْتَقِرَّةٌ. عندئـذٍ أمر عُمَرُ بالبقـاء في الأندلس وبالقِيـامِ بِعَدَدٍ من الإصلاحات. وقام السمح بغَزْوَتَيْنِ إلى فرنسة، سَنَةَ ١٠٠ وسنة ١٠٢، فقُتِلَ في الثانية منهما فاستطاع أحدُ القادةِ في جيشه - وهُوَ عبدُ الرحمنِ الغافقيُّ - أنْ يَنْسَحِبَ بالجيشِ بِمَهارةٍ فائقةٍ. فقدّمَهُ الجندُ وجَعَلوه والياً مُوقّتاً على الأندلس.

وفي سنة ١٠١ (٧٢٠م) تُوُفِّيَ عُمَرُ بنُ عبد العزيز وخلفه يزيدُ بنُ عبدِ الملك، فولّى يزيدُ على إفريقية يزيدَ بْنَ أبي مُسْلِمٍ. فلمّا وَصَلَ يزيدُ بنُ أبي مسلم إلى القَيْروان (١٠٣ هـ) ولّى على الأندلس عَنْبَسَةَ بْنَ سُحَيْمٍ الكَلْبِيَّ. وغزا عنبسةُ فرنسة (١٠٥-١٠٧ هـ) فصَعّدَ في حَوْضِ نهر رودنةَ (الرون) حتّى وصل إلى لوكسُوْي (في مقاطعة سأوون العُليا)، وهيَ أبعدُ نقطةٍ وصل إليها العربُ في فرنسة.

معركة بلاط الشهداء: في فرنسة

ومن وُلاةِ الأندلسِ المشهورين عبدُ الرحمن الغافقيُّ، تَوَلّى الأندلسَ للمرّةِ الثانية سَنَةَ ١١٢ (٧٣٠م). قاد عبد الرحمن الغافقي جيشاً إلى فرنسة فَالْتقى بينَ مدينة تُور ومدينة بَوَاتِيَه (على نحو ٢٥٠ كيلو متراً من باريسَ جَنوباً)، بالحاجبِ (كبير البَلاط) قارلُه ومَعَه جُموعٌ لا تُحصى من جميعِ أقطارِ أوروبّةَ (من النصارى ومن القبائل الجرمانية التي لم تكُنْ بعدُ قد دخلتْ في النصرانية). وكان عددُ العرب قليلاً جدّاً، فانهزموا وقُتِلَ عبدُ الرحمن الغافقي وكثيرون مَعَه، في شَوّالٍ ١١٤ (أواخر ٧٣٢م). وتُعْرَفُ هذه المعركة باسم بَلاطِ الشُهداء لكثْرة ما اسْتُشْهِدَ فيها من المُسْلمين. وبَعدَ هذه المعركةِ سُمِّي قارلُه « شارل مارتل » (المِطرقة).

فتنة ميسرة المضغري: في المغرب الأقصى:

في سنة ١١٥ ولّى هشامُ بنُ عبدِ الملك على إفريقية عُبيدَ الله بن الحَبْحاب. وقد حَدَثَتْ في أيامه فِتنةُ مَيْسَرَةَ المَضْغَرِيِّ، وهُوَ رَجُلٌ من البربر تَقبّل دعوةَ الصُفْرِيّة[1] من الخوارج، فأرْسَلَ ابنُ الحبحاب على مضغرة جيشاً بقيادة خالدِ بنِ حبيبٍ فانهزمَ

(١) الصفرية نسبة إلى زياد بن الأصفر، وقيل نسبة إلى عبد الله بن صفّار (بفتح الصاد وتشديد الفاء).

مَضْغَرةُ ولم يَثْبُتْ، فقتَلَهُ أصحابُهُ لأنّه ٱنْهزَمَ ثمّ ولَّوْا على أنْفُسِهِمْ خالدَ بنَ حُميدٍ الزّناتيّ وكرّوا على جيشِ خالدِ بن حبيبٍ، على ضِفافِ نهرِ الشليف، فقُتِلَ من المسلمين عددٌ كبيرٌ حتّى عُرِفَتْ تلك المَعْرَكةُ بٱسمِ غزوةِ الأشْراف.

وٱسْتَمرّ الٱضطرابُ في المغرب وتغلّب البربرُ على الأمور وقاتلوا العربَ فأرسلَ هشامُ بنُ عبد الملك جيشاً كبيراً بقيادةِ كُلْثومِ بنِ عِياضٍ القُشَيْريِّ، وعلى مُقدّمةِ الجيشِ بَلْجُ بنُ بِشْرٍ (ابنُ أختِ كُلثومِ بنِ عِياضٍ). ولكنَّ خالدَ بنَ حُميدٍ الزَناتيَّ تغلّبَ على هذا الجيشِ، على نَهْرِ سباو (أواخر ١٢٣ هـ = خريف ٧٤١م)، وقد قُتِلَ كلثومُ بنُ عِياضٍ في المعركة. ثمّ إن النزاعَ بينَ العرب والبربر بدأ في الأندلس وكادَ يَسْتَفْحِلُ، وكانَ أميرَ الأندلس في ذلك الحين عبدُ الملكِ بنُ قَطَنٍ فاسْتَقْدَمَ بَلْجَ بنَ بِشْرٍ من المَغْرب مَعَ عَشْرَةِ آلافٍ من أهلِ الشام (بعد ٱنْهزامِهِمْ أمامَ الخوارج بقيادةِ خالدٍ الزناتيّ).

بعدَ أن تغلّبَ عبدُ الملك بن قَطَنٍ، بمَعُونةِ بَلْجٍ وأهلِ الشام، على البربر طَمِعَ بَلْجٌ بالولاية على الأندلس. ثمّ حَدَثَ نِزاعٌ طويلٌ وقِتال بينَ عبدِ الملكِ بنِ قَطَنٍ وبين بلجِ ٱبنِ بِشْرٍ قُتِلَ فيه عبدُ الملك ثمّ قُتِلَ بَلْجٌ أيضاً (نحو سنة ١٢٣ = ٧٤١م).

وٱضْطَرَبتِ الأمورُ في الأندلس. ثمّ ٱضْطَرَبَ أمرُ بني أميّةَ في المشرق فلم يَبْقَ لهم سُلْطَةٌ لا على المَغرب ولا على الأندلس، فأخذ أهلُ كلِّ قطرٍ يَتَدبّرون أمورَهم بأنفُسِهِمْ. وٱنقسَمَ أهلُ الأندلسِ خاصةً ثلاثةَ أقسامٍ مُتناحِرَةٍ: البربرَ والبلديّين والشاميّين (راجع، فوق، ص ٣٩).

في هذه الفترة تَوَلّى الأندلسَ رجلٌ مِنَ اليمانيةِ (عَرَبِ الجَنوبِ) ٱسمُهُ أبو الخطّارِ حُسامُ بنُ ضِرارٍ الكَلْبِيُّ. خافَ أبو الخطّار من تجمُّعِ الشاميّين حولَ قُرطبةَ ففرّقهم: أنزلَ أهلَ دِمَشْقَ في إلبيرةَ (مقاطعة غَرْناطة) لشَبَهِ إلبيرة بدمشقَ وسَمّاها « دمشق » - وأنزل أهلَ حِمْص في إشبيلية، لشَبَهِ مقاطعة إشبيلية بحمص، وسمّاها « حمص »- وأنزل أهلَ الأُرْدُنّ في مقاطعة ريّة (في أرْشَذونَة ومالَقَة) وسمّاها « الأردنّ »- وأنزل أهلَ فِلَسْطينَ في شَذونةَ (وهي مقاطعة شَريشَ) وسمّاها « فِلَسْطينَ » - وأنزل أهلَ

مِصْر (وكانوا كثاراً) في مكانين: في مقاطعة باجة من جَنوبيٍّ غربي الأندلس، وفي مقاطعة تُدْميرَ من جَنوبيٍّ شرقيّ الأندلس- وأنزل أهلَ قِنّسْرينَ في مقاطعة جيّان وسَمّاها « قنّسرين ».

أحداث المغرب

في هذه الفترة (١٢٦ هـ = ٧٤٤م) تولّى المَغرِبَ عبدُ الرحمن بن حبيبِ بنِ أبي عبدةَ بن عُقْبَةَ بن نافعٍ، وكان من الذين جاءوا مَعَ بَلْجٍ ثمّ جازَ مَعَ بلجٍ إلى الأندلس ثمّ أخرجه أبو الخَطّار من الأندلس خوفاً منه ومن طُموحِهِ إلى السُلْطة. في هذه المدّة آشْتَعَلَ المغربُ كلُّه بِفِتَنِ الخوارج من الصُفْريّة والإباضية، فيما بين طَرابُلُسِ الغَرْبِ والمحيط الأطْلَسيّ؛ ثمّ جَعَلَ بعضُ الخوارجِ يُقاتلُ بَعْضاً. واستطاعَ عبدُ الرحمن بنُ حبيبٍ أن يَضْبِطَ المَغْرِبَ كلّه وأن يُخْمِدَ تلك الفِتَنَ إلى حين.

العصبيّات في الأندلس (بين القيسية واليمانية)

لم تَخْفَ نيّةُ أبي الخطّارِ في تفريق أهل الشام على الصُميل بن حاتمٍ قائد جُنْدِ قِنّسرينَ، فلم يَرْضَ أن ينتقلَ بِمَنْ مَعَه من قرطبةَ إلى جيّان. جمعَ الصُميل وجوهَ قومِهِ القَيْسِيَّةَ وعَرَضَ عليهم خُطّته للتغلّب على أبي الخطّار. وقال لهم: إنّنا نحن القيسيةَ قَليلو العددِ، بينما اليمانيةُ، قومُ أبي الخطّار، كثيرون ولكنّهم منقسمون. والرأيُ أن نستميلَ منهم قوماً ليسوا على وفاقٍ مَعَ أبي الخطار ثمّ نُقَدِّمَ رجلاً منهم لِلْوِلاية يكونُ له الآسْمُ ولنا الرسْمُ (الحُكْم الفِعْلي). فآستمال الصُميلُ بني لَخْمٍ وبني جُذامٍ ثمّ جعل ثُوابةَ بنَ سَلامةَ الجُذاميَّ والِيَ الأندلس. ووقعت الحربُ بين الصُميل وبين أبي الخطّار فانهزم أبو الخطار ووقَعَ في الأسْر فحَبَسَه الصميل. ونجا أبو الخطار من السجن ولكنْ لم يستطعْ أن يَسْتعيدَ نفوذَه السياسيّ.

تُوُفِّيَ ثُوابةُ بنُ سَلامةَ فجأةً فاتّفق الصُميل مَعَ اليمانية على أن تتَعاقبَ الوِلايةُ بين اليَمانيين والقَيْسيين: يكونُ الوالي في عامٍ قَيْسِيًّا وفي العام الذي يليه يَمانياً، وهكذا دَوالَيْكَ. ثمّ إنّه أقنع اليمانية بأنْ يكونَ البدءُ بقيسيّ لأنّ قيساً هِيَ القبيلةُ التي يَنتمي

إلَيْها الرسولُ، ثمّ قدّم للولاية يوسفَ بنَ عبدِ الرحمن الفِهريَّ، وكان رَجُلاً من نَسْلِ عُقْبَةَ بنِ نافعٍ متقدّماً في السّن لَيّنَ العَريكة ليس له أعداءٌ. فقَبِلَ الجميعُ به وجَعَلَ الصُميلُ يَحْكُمُ من ورائه؛ ثم لم يَفِ الصُميل بما كان قد وعد اليمانية به فظلّت الوِلايةُ بعد ذلك ليوسفَ الفهريّ اسْماً وللصُميل فِعْلاً.

ثمّ وَقَعَ القتالُ بين اليمانية بقيادة يَحيى بن حُريثٍ (ومَعَهم أبو الخطّار) والقيسية بقيادةِ الصُميلِ (ومَعَهم يوسف الفِهريّ)، في أوائل سنة ١٣٠ (أواخر ٧٤٧م) فأنهزم اليمانية وهرب آبن حُريث وأبو الخطّار؛ ولكن جنودَ الصُميل أدركوهما فَضَرَبَ الصميلُ عُنْقَيْهِما وأعناق نفرٍ آخرين من الأسرى اليمانية.

وَوَقَعَتِ الوَحْشةُ بين يوسفَ الفهريِّ والصُميلِ لأنّ كلّ واحدٍ منهما كان يخشى على نفوذه السياسيّ من الآخر.

سقوط الدولة الأمويّة في المشرق

كان لسقوطِ الدولةِ الأمويةِ في المَشْرق (١٣٢ = ٧٤٩م) وقيامِ الدولةِ العَبّاسيّة أثرٌ في المغرب وفي الأندلس: آنقسم أهلُ البلاد فريقينِ؛ منهم مَنْ كان يرى الآستمرارَ في الوَلاءِ لِلأمويّينَ، ومنهم من كان يرى مُناصرةَ العبّاسيين. وكذلك طَمِعَ كثيرون بأنْ يَسْتَبِدّوا ببعضِ البِقاعِ مُستقلّين عن الدَوْلتَيْنِ. فكَثُرتِ الثَّوْراتُ في الأندلس والمغرب معاً. وتحرّك الخوارجُ في المغرب وكان أكْثَرهُم من البربر فضَعُفَتْ سُلطةُ الوُلاةِ العَرَبِ عن ضَبْطِ البلاد. وفي المغرب الأدنى خاصّةً (القطر التونسي) وَقَعَ النزاع بين آل عُقْبَةَ بن نافعٍ على الحكم. وكذلك تحرّك الجَلالِقةُ (سُكّانُ الجانبِ الشَّمالي الغربي من إسبانية، وهو البقعة التي لم يَسْتَوْلِ عليها العرب) وجعلوا يُغيرون على أطراف الأندلس في الشَمال فَجَلاَ قسمٌ كبير من المسلمين عن تلك الأطراف.

المظاهر الأدبية في عصر الولاة

حملَ العربُ لُغَتَهُمْ مَعَهم إلى المغرب والأندلس فكانت تنتشرُ بانتشارِ الإسلام؛ غير أن الحاجةَ ظلّتْ مُلِحّةً إلى من يُعَلِّم البربرَ في المغرب والمُولَّدين (المسلمين من الإسبان) في الأندلس أمورَ الدين واللُّغَةَ العربيةَ. أرسل عُمَرُ بنُ عبدِ العزيز عَشْرةً من التابعين (من أهلِ الجيل الذي تلا جيلَ أصحابِ رسول الله) إلى المغرب لِيُفَقِّهوا أهل المغرب في الدين؛ من هؤلاء حِبّانُ بنُ أبي جَبَلَةَ وعبدُ الرحمن بن نافعٍ وسعدُ بنُ مسعودٍ التُجيبيّ. ونشأ في المغرب والأندلس طَبَقَةٌ من المُؤدِّبين الذين كانوا يعلّمون أبناء الخاصّة في البيوت ويعلّمون أبناء العامّة في الجوامع والمساجد. ونحن نَعْرِفُ أن الغازيَ بنَ قيسٍ[1] - في مَطْلع شبابه، قبلَ دخول عبدِ الرحمن بنِ مُعاويةَ إلى الأندلس (١٣٨ هـ= ٧٥٦م)- كان مُلتزماً للتأديب (التعليم) في قرطبة. بعدئذٍ رَحَلَ إلى المشرق ولَقِيَ الإمامَ مالكَ بنَ أنسٍ ونَفَراً من شيوخ اللغة والنحو كالأصمعيّ (الزبيدي ٢٧٦ - ٢٧٧).

أما النَزْرُ اليسيرُ الذي وَصَلَ إلينا من النثر والشعر في عصر الوُلاةِ (٩٣ - ١٣٨هـ) فقد قالَه مَشارقةٌ من الطارئين على المغرب والأندلس. من ذلك مَثَلاً أن عُبيدةَ بنَ عبد الرحمن تولّى إفريقِيَةَ والمغربَ سَنَةَ ١١١ (٧٢٩م) بعدَ بِشْرِ بنِ صَفْوانَ فأخذ نَفَراً من عُمّال بِشرٍ وأصحابِهِ وأساء إليهم ونكّل بهم. وكان في هؤلاءِ أبو الخطّار بنُ ضِرارٍ الكَلْبي[2] - وكان شريفاً في قومهِ مَعَ فصاحةٍ وبراعة؛ وكان قد

---

(١) راجع ترجمته، تحتِ، ص ٨٦.

(٢) القاموس ٢: ٢٢؛ وفي تاج العروس (الكويت) ١١: ١٩٩ «هو حسام بن ضرار بن سلامان بن خيثم بن ربيعة بن حصن بن ضمضم بن عديّ بن جناب شاعر ولي الأندلس (في خلافة) هشام (بن عبد الملك) وأظهر العصبية لليانية على المضرية وقتله الصميل (بالتصغير) بن حاتم بن شمر (بفتح فكسر) بن =

وَلِيَ في إفريقية وِلايَاتٍ كثيرةً في أيام بِشرٍ - فعزَلَهُ عُبيدةُ ونكّل به، فكَتَبَ أبو الخطّار إلى الخليفةِ هِشامِ بنِ عبدِ الملك بقصيدةٍ منها[1]:

أفأتُمْ، بني مروانَ، قَيْساً دِماءنا؛ وفي اللهِ إنْ لم تُنْصفوا حَكَمٌ عَدْل[2].

كأنّكُمُ لم تَشْهَدوا مرجَ راهطٍ ولم تعلَموا من كان ثَمَّ له الفَضْل[3].

تغافَلْتُمُ عنّا كأنْ لم نَكُنْ لَكُمْ صديقاً؛ وأنتم ما رَعَيْتُمْ لها - فعل[4].

ومِثْلُ ذلك خبرُ عبيدِ الله بن الحَبْحاب[5]:

كان الحَبْحابُ (والدُ عبيد الله) مولًى لبني سَلولٍ، وقدْ أعْتقه رجلٌ اسمُه الحَجّاجُ السَّلوليّ. ونشأ عبيدُ الله بن الحَبْحاب فكانَ رئيساً نبيلاً وأميراً جليلاً بارعاً في الفصاحة والخَطابة حافظاً لأيّامِ العربِ وأشعارِها ووقائعِها. ثمّ ترقّتْ به الحالُ فأصبحَ، في ربيعِ الآخرِ من سَنَةِ ١١٦ (٧٣٤م) والياً على إفريقيةَ وعلى المغربِ كلّهِ، وعلى الأندلسِ أيضاً فيما بعدُ. وهُوَ الذي بني المسجدَ الجامعَ في تُونِسَ ودارَ الصِناعة (لبناء السفن) فيها.

ووَرَدَ على عبيدِ الله بن الحَبْحاب، في ذلك العامِ نفسِه، عُقْبَةُ بنُ الحجّاجِ السَلوليُّ يُهَنِّئُهُ بالوِلايَةِ فأكرمَهُ عبيدُ الله. فغِيظَ أبناءُ عبيدِ الله لأنّ أباهم والِيَ إفريقيةَ

= ذي الجوشن (بالفتح) الضبابيّ». راجع أيضاً جذوة المقتبس ١٨٨؛ الحلّة السيراء ١: ٦١-٦٦؛ نفح الطيب ١: ٢٣٨ (قتل أبو الخطّار سنة ١٢٩)، ٢: ٢٢-٢٦؛ دائرة المعارف الإسلامية ١: ١٣٤-١٣٥؛ الأعلام للزركلي ٢: ١٨٧ (١٧٥).

(١) الحلّة السيراء ١: ٦٤، ٦٥؛ راجع البيان المغرب ١: ٥٠.

(٢) - يا بني مروان، لقد جعلتم دماءنا فيئا (غنيمة لبني قيس أعدائنا= سلّطتم أعداءنا علينا).

(٣) كأنكم نسيتم أنّا نحن (اليمانية من عرب الجنوب) كنّا حلفاءكم في معركة مرج راهط (٨٦ هـ)، وهي المعركة التي وقعت قرب دمشق وانتصر فيها مروان بن الحكم وأحلافه اليمانية على الضحّاك بن قيس وقومه وكانوا من أتباع عبد.الله بن الزبير منافس الأمويّين في طلب الخلافة. في الأصل: «تمّ» (بالتاء بنقطتين من فوقها) والأصحّ أن تكون «ثمّ» (بالثاء المنقوطة بثلاث نقط)= هناك (في تلك المعركة).

(٤) ما رعيتم لنا فعل: لم تدركوا العمل الذي قمنا به في سبيلكم

(٥) البيان المغرب ١: ٥١-٥٣.

والمغرب يبالغُ في إكرام رَجُلٍ من عُرْضِ الناس. فجَمَعَ عبيدُ الله بن الحبحابِ الناسَ وقام فيهم خطيباً فقال:

أيُّها الناسُ: إنّ بَنِيَّ هؤلاءِ غَرّتْهُمْ غِرّةُ الشَيطان لِعِزّةِ السلطان[1] فأرادوا أمراً أخْرُجُ به عنِ الحقّ، وأنكروا ما رأوا من بِرّي[2] لهذا الرجل. وإنّما أُخْبِرُكُم أنّه مَوْلايَ، وأنّ أباه أعْتَقَ[3] أبي! وأنا أكْرَهُ كِتْمانَ أمرِ اللّهُ سُبحانَهُ شهيدٌ عليَّ بهِ[4]!

وفي سَنَة ١٣٧ (٧٥٤م) ثار الحَبحابُ بن رَواحةَ وعامرُ بنُ عمروٍ العَبْدريُّ وحاصرا الصُميلَ بنَ حاتَمٍ في سَرَقُسْطَةَ وضَيّقا عليهِ الحصارَ. واجتمع أقوامٌ من أنصارِ الصُميل لنَجْدته ولكن لم يَجدوا سبيلاً إلى الوُصولِ إليهِ والحصارُ مضروبٌ عليه. وأرادوا أن يُبَشّروه بالنَجْدة ويُشَدّدوا من عَزيمتهِ فاحْتالوا بأن رَمَوْا إليه، من فوقِ السُورِ، بِحِجارةٍ جَعَلوا مَعَ كلّ حجرٍ منها وَرَقةً فيها هذانِ البيتان[5]:

ألا ٱبْشِرْ بالسلامةِ، يا جِدارُ؛ أتـاكَ الغَوْثُ وانقطع الحِصارُ[6]:
أتَتكْ بناتُ أعْوَجَ مُلْجَماتٍ عليهـا الأكرمون وهُمْ نِزارُ[7]:

فقُرِئَتِ الأبياتُ على الصُميل - وكان أُمّيّاً لا يَخُطُّ ولا يقرأ الخطّ - فقال لمن حَوْلَه: «أبْشِروا، يا قومُ! فقد جاءكُمُ الغَوْثُ، وربِّ الكعبةِ[8]». ثمّ عُرِضَ على الصُميل أن يُناصِرَ عبدَ الرحمن (الداخل) ويزوّجَه ابنتَه (تمكيناً للتحالف بينهما)

(١) خدعهم الشيطان بما أصبح لهم من عزّة (قوة) السلطان (الحكم).
(٢) البرّ: الطاعة والإحسان.
(٣) أعتق: حرّر (أنقذ من العبودية).
(٤) الله شهيد عليّ به: الله يعرفه ويوجب عليّ أن أكافىء فاعله.
(٥) أخبار مجموعة ٦٨.
(٦) الجدار كناية عن الحصار. أبشر بالسلامة، يا جدار= ثق أن المحاصرين لم يخرقوك. الغوث: النجدة، المساعدة، الانقاذ من البأس والضيق.
(٧) بنات أعوج: الخيل. كان أعوج حصاناً أصيلاً تنسب إليه الخيل الكريمة. نزار: عرب الشمال.
(٨) وربّ الكعبة= أقسم (بصاحب) الكعبة: الله.

فقال: أُروّي[١] في أمري. بعدئذٍ رَجَعَ في قوله وقال: « تأمّلْتُ الأمرَ فوجدتُه صَعْبَ المُرام؛ فبارَكَ اللهُ لكما في رَأيكُما ومَوْلاكُما! فإنْ أحبّ غيرَ السُلطانِ[٢] فلَهُ عِندي أن يُواسِيَهُ يوسفُ ويزوّجَه ويَحْبُوَهُ. ٱنطلقا راشدَيْنِ! » ولَمّا عَزَمَ عبدُ الرحمنِ بنُ معاوية على الحرب قال يوسف بن عبد الرحمن الفِهريُّ للصُميل: « ما الرأيُ؟ » فقال له الصُميل: « بادِرْهُ الساعةَ، قبلَ أن يَسْتَفْحِلَ أمرُه »[٣].

أبو الأجرب الكلابيّ

١ – هُوَ أبو الأجربِ جَعونةُ بنُ الصِمّة الكِلابي من العرب (البدو) الطارئين على الأندلس، كان يَرْحَلُ (حِيناً) ويَحِلُّ (حيناً) بأكنافِ قُرطبةَ. وقد كان فارساً شُجاعاً حتّى سُمّي « عنترةَ الأندلسِ ».

لا نعلَمُ متى دخل أبو الأجرب إلى الأندلس، ولكنّنا نعلم أنّه كان يهجو الصُميلَ ابنَ حاتَمٍ الكلابّي حينما ثارتِ العَصَبِيّةُ (الفِتْنة والقتال) بينَ والي الأندلس أبي الخَطّارِ حسامِ بنِ ضِرارٍ الكلبي (وكان يَمَنِيّاً من عَرَبِ الجَنوب) والصُميلِ قائدِ جُنْدِ قِنّسْرينَ (جيّانَ)، وكان قَيْسِيًّا (من عرب الشَمال)، سَنَةَ ١٢٦ (٧٤٤م). وكان أبو الأجرب قَيْسِيًّا كالصُميل، ولكنَّ العصبيّةَ العربية لم تنقسم دائماً ٱنقساماً واضحاً، بل كان في كلِ فريقٍ من المتنازعين عادةً جماعةٌ من عربِ الشَمال وجماعة من عرب الجَنوب.

ظَفِرَ الصُميلُ بأبي الأجرب ثمّ عفا عنه فانقلبَ أبو الأجرب يمدَحُ الصُميلَ ويُكثِرُ حتّى كان مُعْظَمُ شعرِه في مديحِ الصُميل. فأقسم الصُميلُ ألاّ يرى أبا الأجرب إلاّ أعطاه (مالاً) – كما كانَ قد فَعَلَ هَرِمُ بنُ سِنانٍ مَعَ زُهيرِ بنِ أبي سُلمى –.

---

(١) روّى في الأمر: قلّبه على وجوهه وتأمّله بأناة وصبر.

(٢) السلطان: الحكم. واساه: عزّاه؛ ساواه بنفسه. يوسف= يوسف بن عبد الرحمن الفهري أمير الأندلس (وكان الصميل وزيراً لعبد الرحمن الفهري). يحبوه: يعطيه (مالاً).

(٣) بادره: ٱسبقه (إلى القتال). استفحل الأمر (أصبح فحلاً) شديداً تصعب معالجته.

وكانت وفاة الصميل في سجن عبد الرحمن سنة ١٤٢ هـ. وكذلك قتل يوسف الفهري في السجن أيضاً سنة ١٤٢ هـ.

من أجلِ ذلك كان أبو الأجرب يُغِبُّ لِقاءَ الصُميل (يَلَقاه في فَتَرات مُتباعِدةٍ). ثمّ اقتصرَ على زِيارته في العيدَيْنِ فقط (عيدِ الفِطْر وعيد الأضْحى).

وتُوُفِّيَ أبو الأجرب في أعقاب عَصْرِ الوُلاةِ في الأندلس، قبلَ وقعة المَصارَةِ (على ثلاثة وعشرين كيلو متراً غربَ قُرطبة). وكانتْ وقعةُ المَصارةِ في التاسعِ من ذي الحِجّة ١٣٨. (١٣/ ٥/ ٧٥٦م).

٢ - كان أبو الأجرب جَعونةُ من قُدماءِ شُعراءِ الأندلس، وكان من طَبَقة جَريرٍ والفَرَزْدقِ في المَشْرق يجري على مذاهب العَرَبِ (البدو) في الشِعْر لا عَلى مذاهب المُحْدَثين[١]. وكان أبو نواس يُعْجَبُ به[٢].

٣ - مختارات من شعره

- يبدو أنه لم يبق لنا من شعر أبي الأجرب إلاّ هذانِ البيتان، وليسا من المديح:

ولقـــد أراني من هَوايَ بمَنْزِلٍ ... عالٍ، ورأسي ذو غدائرَ أفْرَعُ[٣]؛
والعيشُ أغيـدُ ساقـطٌ أفنانُـه، ... والمـاء أطيبُـه لنـا والمرتـع[٤]!

٤ - ** جذوة المقتبس ١٧٧ - ١٧٨؛ (الدار المصرية) ١٨٩ - ١٩٠ (رقم ٢٦١)؛ بغية الملتمس ٢٤٤-٢٤٥؛ (رقم ٦٢٦)؛ المغرب ١: ١٣٢ - ١٣٣؛ نفح الطيب، راجع ٣: ١٧٧، ٢٢٥.

---

(١) راجع نفح الطيب ٣: ١٧٧.
(٢) راجع نفح الطيب ٣: ٢٢٥.
(٣) من هواي بمنزل عال: شابّا أتمتّع بالهوى تمتّعاً كاملاً. غدائر جمع غديرة: ضفيرة (خصلة من الشعر). أفرع: طويل.
(٤) أغيد: جميل، ناعم، فيه سعة وطيب. ساقط أفنانه (أغصانه): أغصانه متدلّية مثقلة بالفاكهة، كناية عن طيب العيش. المرتع: المرعى - وأطيب المأكل والمشرب لنا (نحن الشباب).

عبد الرحمن بن زياد

١ - هو أبو خالدٍ عبدُ الرحمنِ بنُ زيادِ بنِ أَنْعُمٍ المُعافِريّ الإفريقي، وُلِدَ في بَرْقَةَ (شرقّي ليبيا اليوم)، سَنَةَ ٧٤ (٦٩٤م) وَهُوَ أوّلُ مولودٍ للمسلمين في إفريقية.

أخذ عبدُ الرحمن بنُ زيادٍ عن جماعةٍ من علماءِ المَغْرب وَرَحَلَ إلى المشرق مِراراً: رحل مرّة في أيام هشامِ بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥) ومرّة في أيام مروانَ بنِ محمّدٍ (١٢٧ - ١٣٢ هـ)، وقد ولاّه مروانُ بنُ محمّدٍ قضاءَ القيروان. ورَحَل مرّة أخرى في صدرِ الدولة العبّاسية وصَحِبَ أبا جعفرٍ المنصورَ قبلَ أن يَلِيَ الخِلافة.

ولّما سقطتِ الدولةُ الأموية وقامتِ الدولة العبّاسية، سَنَةَ ١٣٢ (٧٤٩م) كان الواليَ على إفريقية، منذُ سَنةِ ١٢٧، عبدُ الرحمنِ بنُ حبيبِ بن أبي عَبْدَةَ بنِ عُقْبةَ بنِ نافعٍ، فأقرّه أبو العبّاس السفّاحُ (١٣٢ - ١٣٦) عليها ثمّ أقرّه المنصورُ (١٣٦ - ١٥٨) أيضاً.

ثمّ حَدَثَ ما حَمَلَ عبدَ الرحمن بنَ حبيبٍ على خَلْعِ طاعة المنصور، وجَرَتْ أحوالٌ قُتِلَ فيها عبدُ الرحمن بنُ حبيبٍ (١٣٧هـ)، فاستطاعَ ابنهُ حبيبٌ، في حديثٍ طويل، أن يتولّى على إفريقية. ثمّ رأى، تأييداً لمركزِهِ أن يَرْجِعَ بإفريقية إلى طاعةِ العبّاسيّين فأرسل، في ذي الحِجّة من سَنةِ ١٣٧ (أَواخرِ الربيعِ من عام ٧٥٥م)، إلى المنصور وفداً فيه عبدُ الرحمن بنُ زيادٍ (ابن الأثير ٥: ٣١٤ - ٣١٥).

ووَقَعَ عبدُ الرحمنِ بنُ زِيادٍ في الأسر (لسبب لا نَعْرِفه) ففداه المنصورُ وَردّهُ إلى إفريقية وولاّه القضاءَ في القيروان. ويبدو أن مُدّتَه في القضاءِ طالتْ حتّى جاء يزيدُ ابنُ حاتِم والياً على إفريقية (١٥٤ - ١٧٠) فطَلَبَ منه إنفاذ حُكمٍ على وجهٍ مُعَيَّنٍ فلم يقبلْ عبدُ الرحمنِ فعَزَلَهُ.

وكانتْ وفاةُ عبدِ الرحمنِ بنِ زيادٍ سَنَةَ ١٦٢ (٧٧٨م) في الأغلب (ابن الأثير ٦: ٥٩؛ راجع البيان المغرب ١: ٨٠)؛ وقيلَ سَنَةَ ١٥٦ (ابن الأثير ٦: ١٢؛ شذرات الذهب ١: ٢٤٠) أو سَنَةَ ١٥٧ (ابن الأثير ٦: ١٢).

٢ - كان عبدُ الرحمنِ بنُ زِيادٍ تَقِيّاً وَرِعاً وزاهداً واعظاً ومحدثاً، تولّى القضاءَ فكان عادلاً في أحكامهِ صُلْباً في مسلَكهِ. وكان أديباً بليغاً شاعراً.

وقد كان عبدُ الرحمن بنُ زياد بنُ أنعمٍ من العلماء، روى عنه الحديثَ جماعةٌ (راجع تراجم أغلبية ٩، ٢٧، ٧١، ٧٧، ١٤٤ ثم ٤٣٦؛ نفح الطيب ١ :٢٧٨، ٢ :٥٧٥، ٣ :٥٨).

٣ - مختارات من آثاره

- لمّا كان عبدُ الرحمنِ بنُ زِيادٍ في العِراق اشتاقَ إلى القيروانِ فقال:

ذكَرْتُ القَيْروانَ فهاجَ شَوْقي؛ وأينَ القَيروانُ مِنَ العِراق!
مَسيرةُ أشْهُرٍ للعِيسِ نَصّاً على الإبِلِ المُضمَّرة العِتاق[1].
فأبْلِغْ أنْعُماً وبَني أبيه ومن يُرجى لنا وله التلاقي:
بأنّ اللهَ قد خلّى سبيلي وجَدَّ بنا المَسيرُ إلى مِزاقِ[2].

- كانتْ لعبدِ الرحمنِ بنِ زيادٍ أحاديثُ مرّتْ فيها الفِقَرُ التالية:

أنا أوّلُ مولودٍ في الإسلام بإفريقية - إذا رأيتَ الهَديّة دخلتْ إلى القاضي من بابٍ فَاعلَمْ أنّ الأمانة خرجت من كُوّةِ دارِه - ما أمرٌ كنتُ أراه ببابِ هشامٍ إلاّ أرى اليومَ طَرَفاً منه بالقيروان - ما يُدرَكُ المالُ والشرف إلاّ في صُحْبَتِك وصحبة من هو مِثْلُك وإنّي تركتُ عجوزاً (بالقيروان) وإنّي أُحِبُّ مُطالعتَها[3].

---

(١) العيساء: الناقة. النّص: حثّ الدابّة على السير الشديد. المضمّرة = الضامرة: النحيلة الخصر القادرة على الجري بسرعة ومدّة طويلة. العتيق: الأصيل، الكريم.

(٢) خلّى سبيلي: أخرجني من الأسر! سمح بعودتي إلى الوطن. ناقة مزاق: سريعة جدّاً (القاموس ٣ : ٢٨٣). والملموح هنا أنّ «مزاق» اسم مكان.

(٣) ما أمر (من الظلم...). بباب هشام (بن عبد الملك) أي في الدولة الأموية. اليوم (أي في أيام الدولة العبّاسية) طرفاً (جانباً، قسماً، شيئاً منه). عجوز (كناية عن أمّه). المطالعة: النظر إلى الشيء باستمرار.

- ومن أحاديثه قوله:

أُسِرْتُ أنا وجماعةٌ معي. فَرُفِعْنا إلى الطاغية. فبَيْنا نحنُ في حَبْسهِ إذ غَشِيَهُ عيدٌ فأقبلَ علينا فيه من الحارِّ والباردِ ما يفوقُ المِقدارَ[1]. فبَيْنَا نحنُ كذلك إذ خَطَرَتِ آمرأة نفيسةٌ[2] على الطاغيةِ فأُخْبِرَتْ بحُسْنِ صنيعِ الملكِ بالعرب. فمزّقتْ ثِيابَها ونَشَرَتْ شَعْرها وسَوّدتْ وَجْهَها وأقبلتْ إليه بمنظرٍ شاهٍ[3]. فقال: ما لكِ؟ فقالتْ: إنّ العَرَبَ قتلوا آبنيَ وزوجيَ وأخي وأبي، وأنتَ تفعل بِهِمُ آلّذي رأيتُ؟......

٤ - ★ ★ طبقات علماء إفريقية وتونس ٩٥ - ١٠٥؛ تراجم أغلبية - راجع الفهرست ص ٤٣٦؛ ابن الأثير ٥: ٣١٥، ٦: ١٢، ٥٩؛ البيان المغرب ١: ٨٠؛ شذرات الذهب ١: ٢٤٠؛ عنوان الأريب ١: ١٩ - ٢٠؛ مجمل الأدب التونسي ٣٢ - ؛ الأعلام للزركلي ٤: ٧٨ (٣: ٣٠٧).

---

(١) الطاغية: الظالم (ملك الروم!). غشيه عيد: حلّ عيد من أعياد قومه. من (الطعام) الحارّ والبارد (من أنواع الطعام). ما يفوق (يزيد على) المقدار (الضروريّ).

(٢) خطرت (جاءت تتبختر). نفيسة على الطاغية: عزيزة، ذات مكانة عنده.

(٣) سوّدت وجهها: وضعت عليه لوناً أسود (كناية عن الحزن). شاه (مشوّه؟).

بنو أُميّةَ في قُرْطُبَةَ

تَنْقَسِمُ الدولةُ الأُمويّة في قُرطبةَ حِقْبَتَيْنِ: حِقْبَةَ الأمراءِ المُتَوارثين، مِنْ سَنَةِ ١٣٨ إلى سنة ٣١٦ (٧٥٥ - ٩٢٩ م)، وهم الأمراء الذين حكموا الأندلس من غير أن يَتَسَمَّوْا بٱسمِ خليفةٍ؛ ثمّ حِقبةَ الخلفاءِ، مِنْ سَنَةِ ٣١٦ إلى سنة ٤٢٢ (٩٢٩ - ١٠٣١ م).

عصر الأمراء المتوارثين (١٣٨ - ٣١٦ هـ)

لمّا سَقَطَتِ الدولةُ الأمويّةُ في المَشرِق (١٣٢ = ٧٤٩ م) تَتَبّعَ العبّاسيون أمراءَ البيتِ الأمويّ المالِكِ بالقتلِ. وكان مِمّن نَجا من القتل عبدُ الرحمن بنُ معاويةَ بنِ هشامِ بنِ عبدِ الملك بنِ مروانَ فٱستطاع أن يَصِلَ إلى الأندلس وأن يَجْمَعَ حولَهُ أنصاراً منهم الصُميلُ بن حاتِمٍ. ولكنّ قِتالاً نَشِبَ بين عبدِ الرحمن بنِ معاويةَ وعبد الرحمن الفِهريّ ٱنتصرَ فيه عبدُ الرحمن بنُ معاويةَ فبُويعَ له بالإمارة في قُرطبةَ يومَ عيدِ الأضحى (العاشرِ من ذي الحِجّة) ١٣٨ (١٣/ ٥/ ٧٥٦ م). ثمّ دخل عبدُ الرحمن الفهريُّ في طاعةِ الأميرِ عبدِ الرحمن بنِ مُعاويةَ. وقد سُمِّيَ عبدُ الرحمن بنُ معاويةَ عبدَ الرحمن الداخلَ لأنّه أولُ من دخل الأندلس من الأمويّين في أحوال قاسيةٍ جدّاً.

حاولَ الخليفةُ العبّاسيُّ أبو جعفرٍ المنصورُ (١٣٦ - ١٥٨) أنْ يُثيرَ في الأندلس فِتنةً على عبدِ الرحمن الداخلِ، ولكنّ عبدَ الرحمن الداخلَ تَغَلّب على تلك الفِتنةِ وَشيكاً. فأدرك أبو جعفرٍ المنصورُ أنْ لا فائدةَ من مُقاومةِ عبدِ الرحمن الداخل وسمّاه صَقْرَ قُرَيْشٍ إعجاباً به وبِمَقْدِرَتهِ على الدخولِ إلى الأندلس والٱستيلاء على المُلْكِ فيها.

ثارتْ على عبدِ الرحمن الداخلِ فِتَنٌ كثيرةٌ فتغلّبَ عليها كلِّها، وقد قُتِلَ الصُميلُ بنُ حاتَمٍ وعبدُ الرحمنِ الفِهريُّ في فتنةٍ من تلك الفتن، سَنَةَ ١٤٢ (٧٥٩ م). وقَطَعَ عبدُ الرحمن الداخلُ صِلته بإفْريقِيَةَ وتركَها للمُتنازعين فيها. ثمّ إنّه لم يُحاوِلْ أن يُغيظَ العبّاسيّين فلم يَتَسَمَّ بالخلافةِ آحتراماً لِحقِّهم فيها وتَجَنُّباً للنزاع معهم.

الخوارج في أقطار المغرب

لّما جدّ الأمويون في المَشْرق في تَتَبُّعِ الخوارجِ، انتقلَ عددٌ من فِرَقِ الخوارجِ إلى المَغْرب كالأزارقة[1] والصُفريّة[2] والإباضيّة (وسيأتي الكلامُ على النشاطِ السياسيّ للخوارجِ مُفَرَّقاً في أماكِنِهِ). ولكنْ لا بدَّ هنا مِنْ كَلِمة في « الإباضيّة » لأنّهم كانوا أبعدَ أثراً في تاريخ المغرب: من طرابلسَ (في غربيّ ليبيا) إلى المغرب الأقصى على شاطىء المحيط الأخضر (الاطلنطيقي). وهم وحدَهُمُ آلذين آستطاعوا أن يؤسّسوا دولةً بالمعنى المألوف، هي الدولة الرُستَميّة.

الإباضيّة أتباع عبدِ الله بن إباضٍ[3] التميميّ. وهو من التابعين (الذين أدركوا صَحابةَ رسولِ الله ولم يدركوا رسولَ الله نفسه). ويبدو أنّه من أهل الكوفة ثمّ خَرَجَ

---

(١) الأزارقة أتباع نافع بن الأزرق (ت نحو ٦٥) كانوا كثيري التشدّد في كلّ شيء: حكموا على مخالفيهم بالشرك واستباحوا قتل المخالفين لهم مع نسائهم وأطفالهم (راجع « الفرق بين الفرق » لعبد القاهر البغدادي، ص ٥٠ - ٥٤). قالوا: كلّ ذنب صاحبه مشرك.

(٢) الصفرية هم أتباع زياد بن الأصفر، في المشهور، يتشدّدون كالأزارقة، ولكن لا يقولون بقتل النساء والأطفال من مخالفيهم. (الفرق بين الفرق، ص ٥٤ - وما بعد).

(٣) راجع ترجمة مبسوطة لعبد الله بن إباض: الاعلام للزركلي ٤: ١٨٤ - ١٨٦ (٦١ - ٦٢). وفي النشأة السياسية للمذهب، راجع « مختصر تاريخ الإباضية » وفي آراء الإباضية، راجع الفرق بين الفرق ٦١ وما بعد.

ويبدو أنّ الصفرية كانوا ذوي النشاط الملحوظ في المغرب كلّه منذ ظهرت دعوة الخوارج عامّة، وخصوصاً في قبيلة برغواطة، سنة ١٢٢ (ابن عذاري ١: ٥٢، شذرات الذهب ١: ١٦٠). واستطاع أمير إفريقية محمّد بن الأشعث الخزاعي (١٤٣ -١٤٨)، في مطلع إمارته أن يهزم الإباضيّة في معركة قتل فيها زعيمهم أبو الخطّاب. فلمّا علم بذلك عبد الرحمن بن رستم الإباضيّ فرّ إلى نواحي تيهرت فاختطّها ونزلها (١٤٤ = ٧٦١ م). وبذلك انتقل المذهب الإباضي في المغرب من حركة فقهيّة إلى تنظيم سياسي، ومن جماعة دينية إلى دولة.

إلى الحِجازِ ليشتركَ في قتال الجيش الأُمويّ، فقد كان معاويةُ بنُ يزيدَ قد أرسلَ مُسلمَ ابنَ]عُقْبةَ المُرِّيّ، سَنَة ٦٣، بجيش كثيف لقتال أهل المدينة الذين كانوا قد خلعوا بَيْعةَ بني أُمَيَّةَ. وكان عبد الله بن إباض في أيامِ مُعاوية (٤٠ - ٦٠ هـ) ثمّ بَقِيَ إلى آخرِ أيام عبد الملك (ت ٨٦ = ٧٠٥ م).

والإباضيّة ليسوا، على الحَصْر، من الخوارج. ويبدو أنّ الذي حمل المؤرّخين والفقهاءَ على عَدِّهم في الخوارج أمران: عِداوُهم لبني أُميّة ثمّ تشدّدُهم في عدد من مسائلِ الاعتقاد والعبادة. فهم يعتقدون أن عُثمانَ بنَ عفّانَ سارَ مُدَيْدةً بِسيرةِ أبي بكرٍ وعُمَرَ ثمّ لانَ لقومهِ الأمويّين في إعطائهم من الدنيا أكثرَ ممّا يستحقّون وفي جمعه الأموال وفي مخالفة عُمَرَ في بعض الأمور، ثم نفى أبا ذَرٍّ الغِفاريَّ عن المدينة وغير ذلك ممّا لا يجوز في الإسلام. ثمّ آستمرّ عِداوُهم لجميع خلفاء بني أميّة الذين كانت دولتهم دنيوية ظالمة. وهم يُجلّون الإمامَ عليّاً ويجلّون عبدَ الله بنَ عبّاسٍ. ثمّ إنّهم يَرَوْنَ أن الخوارجَ كانوا أوّلاً على الحقّ ثمّ فارقوه. وهُم يتبرّأون من نافعِ بنِ الأزرق وأتباعهِ.

وبعدَ آبنِ إباضٍ رَأَسَ الحركةَ أبو الشعثاء جابرُ بنُ زيدٍ الأزْديّ (١٨ - ٩٣ هـ)، وُلِدَ قربَ نَزْوَى في عُمَانَ (بضمّ العين واهمال الميم: في الطرف الجَنوبي الشرقيّ من شبه جزيرة العرب). وكان عالماً كبيراً وفقيهاً مجتهداً. ويرى سُليمانُ البارونيُّ (مختصر تاريخ الإباضيّة ٢٩) أنّ المذهبَ كان يجبُ أن يُنْسبَ إليه لأنّ ابنَ إباضٍ نفسَه كان لا يبتّ أمراً إلاّ بمَشُورته ورِضاه! ولجابرٍ كتابٌ في الفقهِ عنوانه «ديوان جابر» فُقِدَ فيما بعدُ.

ومُنذُ هذا الحينِ، في أيامِ عبدِ الرحمنِ الداخلِ، كانتِ المذاهبُ الخارجيةُ قدِ آنتقلتْ إلى المغرب وأخذت تُرسِلُ جُذورَها إلى كلّ جهة. وقد شجّع على ذلك تخلّيّ عبدِ الرحمن الداخل عنِ الاهتمامِ بشأنِ المغرب لكي يَتَوَفَّرَ على الاهتمام بالأندلُسِ وحدَها.

وأدركتِ الخِلافةُ العبّاسيّة ذلك فجعلتْ تُرْسِلُ إلى المغرب وُلاةً على أقطارِه

ليملأوا الفراغَ الذي أحْدثه سقوطُ الخلافةِ الأمويّة في المشرق وانصرافُ عبد الرحمن الداخل عن مشاكلِ المغرب.

والجديرُ بالذِكْرِ أن الإباضيّةَ الذين كانوا يميلون إلى العبّاسيّين - إلى رجالِ البيتِ العبّاسي - أخذوا الآنَ يُقاومون الوُلاةَ العبّاسيّين ويثورون عليهم.

لم يُحاولِ الأميرُ عبدُ الرحمن أن يُحارِبَ الإسبانَ، ولا اتّفقَ أنْ غزا الإسبانُ الأراضِيَ الداخلةَ في حُكْمِ عبدِ الرحمن. ولكن لَمّا غزا مَلِكُ الفرنجةِ شارلمانُ الأندلسَ (١٦١ هـ = ٧٧٨ م) تَصَدّى له عبدُ الرحمن وهَزَمه. ثمّ تَقَطّعَ جيشُ شارلمانَ في أثناءِ تلك الهَزيمة في مَمَرِّ رونشسبالس (في الافرنسية: رونسفو) عَبْرَ جبالِ البرَانس (البيرينيه). ومن هذه الهزيمةِ نشأتِ الملحمةُ الفرنسية القديمة: أُغْنِيَةُ رولان.

تُوُفِّيَ عبدُ الرحمن الداخلِ (١٧٢ = ٧٨٨ م) فَخَلَفَهُ ٱبنُه هشامٌ الرَضِيُّ، وقد نازعهُ أخَواه سليمانُ وعبدُ الله الحُكْمَ ولكنّه تَغلّبَ عَلَيْهِما ثمّ أرْضاهما بمالٍ دَفَعَهُ إليهما فٱنتقلا إلى المغربِ وصفا الحُكْمُ لهشامٍ. وفي سَنَة ١٧٦ قام ملكُ جيليقية برمودةُ الأولُ بمهاجمة الأندلس، ولكن هشاماً الرضيَّ هزمه. ثمّ تتابعتْ غَزَواتُ العرب إلى جيليقية.

وفي أيّامِ هشامٍ الرضيّ ٱنتقل المذهبُ المالكِيّ إلى الأندلس. والذي يُلاحَظُ أنّ المذاهبَ الشِيعيةَ ومذاهبَ الخوارجِ التي كَثُرَ انتشارُها كلِّها في المغرب لم يَنْتَشِرْ شيءٌ منها في الأندلس.

وبعدَ هشامٍ جاء ٱبنُه الحَكَمُ، سَنَةَ ١٨٠ (٧٩٦ م). وأولُ ما اصطدم به الحكمُ سقوطُ مدينةِ برجلونة (برشلونة) في يد شارلمان (١٨٥ = ٨٠١ م). ثمّ كانتْ هَيْجَتا الرَبَضِ، وذلك أن الدُعاةَ العبّاسيّين ودُعاةَ الفاطميّين الشِيعةَ انْبَثوا بينَ طَبَقات العامّة في الربض (الضاحية الجَنوبية من قرطبة) يُثيرون النِقْمة على الحَكَم. ثمّ زادتِ النِقْمة على الحكم لأنّه كانَ مُندفعاً في لَذّاتهِ ظالماً في فَرْض الضرائب وفي مُعاملَة الناس. وقد كانَ ٱتّخذَ حَرَساً من النصارى وجعل لهم رئيساً منهم أيضاً هو ربيعةُ بنُ تيودولفو. فٱجتمع الفقهاء - وأبرزهم يومَذاك يحيى بن يحيى الليثيّ وطالوتُ بن

عبد الجبار - مَعَ العامّة وقاموا بِهَيْجَتَيْن (ثورتين). فبعد الهَيْجة الأولى، سنة ١٨٩ (٨٠٧ م) قَتَلَ الحَكَمُ اثنين وسَبْعينَ رَجُلاً من رؤساء الفتنة. وبعد الهيجة الثانية، سنة ٢٠٢ (٨١٨ م)، أجلى عن الأندلس ستّين ألفاً هاجروا إلى المغرب ومِصْرَ وجزيرةِ كريدَ. ومنذ ذلك الحين عُرِفَ الحَكَمُ بآسم الحَكَمِ الرَّبَضي.

وفي تلك الأثناء، سَنَةَ ١٩١ (٨٠٧ م)، قام عَمْروسُ بنُ يوسفَ والي طُلَيطلَة بالقضاء على رؤساء الفتن في وَقْعةٍ عُرِفَتْ بآسمِ وَقْعةِ الحُفْرة، لأنّه كان يُلْقي الضحايا في حُفْرةٍ كبيرة وراءَ قصر طُلَيْطُلَةَ.

وبعدَ الحَكَمِ (ت ٢٠٦ = ٨٢٢ م) جاء آبنُه عبدُ الرحمن الأوسط[1]؛ وفي أيامهِ كان عامُ المجاعة (٢٠٧ هـ). وفي أيامهِ أيضاً كانتْ غزوةُ المجوس الأُرْدُمانيّين (الشَماليّين من سُكّان سكاندينافيةَ في شَمالِيّ أوروبّةَ، ومن الدنمارك خاصّةً) فقد هاجم المجوسُ الأندلسَ بجماعاتٍ كبيرة وعلى دُفْعاتٍ مُتلاحقةٍ. ومَعَ أنّ أهلَ الأندلس صدّوا هؤلاء المجوسَ فقد قُتِلَ من المُسلمين في الأندلس عددٌ كبيرٌ جدًّا. ثمّ كانتْ حركةُ الاستخفاف:

هذه الحركةُ نَظّمَتْها البابويّة ودَوْلة الإفرنْجة (فرنسة) وكانَ رئيسَها في الأندلس الراهبُ أولوغيوس؛ وأمّا مُمَوِّلُها فكان ألبارو اليهوديُّ. وكان مدارَ الحركةِ أن يقومَ راهبٌ أو رَجلٌ نَصْراني من العامّة قربَ الجَامع أو في ساحةٍ عامّةٍ ثمّ يَشْتُمُ محمّداً. فكان عوامُّ المسلمين يثورون إلى هذا «المستخف» فيَضْرِبونه أو يَقْتُلونه. ولكنّ رجالَ الدينِ المسيحيّ في الأندلسِ نفسِها شَجَبوا هذه الحركةَ الطائشة؛ ثمّ تمكّن عبدُ الرحمنِ الأوسطُ بحكمتِه من تخفيفِ حِدّتِها.

وكَثُرَتِ الثَّرْوَةُ في أيامِ عبدِ الرَّحمنِ الأوسطِ فاتّسعتِ الحضارةُ وعَمّ الترفُ فأقام عبدُ الرحمن بَلاطاً جَمَعَ فيه أسبابَ التَرَفِ واللَّهْوِ ثمّ استقدمَ زِرْيابَ مُغنّيَ العِراق وتلميذَ إسحاقَ المَوْصِلِيِّ كما نَقَلَ طِرازَ الحياةِ العبّاسية إلى بَلاط قُرطُبةَ.

(١) يقال لعبد الرحمن بن الحكم: عبد الرحمن الأوسط (الثاني) بالإضافة إلى عبد الرحمن بن معاوية الداخل (الأول) وإلى عبد الرحمن بن محمّد الناصر (الثالث).

وفي أيامِ الأميرِ محمّدِ بنِ عبدِ الرحمنِ (٢٣٨ - ٢٧٣) تمَّ القضاءُ على حركةِ الاستخفافِ، ولكنْ ثارتْ فِتْنَةٌ أوسعُ مَدًى وأكثرُ خَطَراً هي ثورةُ عُمَرَ بنِ حَفْصونٍ، وكانَ رَجُلاً يَتَظاهَرُ بالإسلام فجَمَعَ حَوْلَهُ بٱسمِ الدين جُموعاً من العامّة، ومن ذوي الاتّجاهاتِ المختلفة وٱستولى على رُقْعة واسعة من الأندلس وشَغَلَ الأمراءَ بحربٍ طويلةٍ شديدةٍ. وقد كانت البابويّة ودولة الفِرنجة وراء هذه الحركة أيضاً.

ثمّ جاء الأميرُ مُنْذِرُ بنُ محمّدٍ فَبَقِيَ في الحكمِ سَنتينِ. ثمّ خَلَفَهُ أخوه الأميرُ عبدُ الله (٢٧٥ - ٣٠٠)، والأحوالُ مُضْطَرِبة في كلّ مكانٍ حتّى بَلغَتِ الدولةُ الأُمَويّةُ في قرطبةَ دَرَكَةَ ضَعْفِها. وبدأتِ الأندلسُ تَتَجَزّأُ دُوَيْلاتٍ.

تَنازعَ آلُ الحجّاجِ وآل خَلْدونٍ الحكْمَ على إشبيلية وما حَوْلَها ثمّ ٱستبدَّ بإمارة إشبيليةَ آلُ الحجّاجِ ونَزَحَ آلُ خَلْدونٍ إلى إفريقية (تونس)، سَنَةَ ٢٨٦ (٨٩٩ م). واستقلّ آلُ تُجيبَ ٱستقلالاً تامّاً بِسَرَقُسْطَةَ وقَلْعةِ أيّوبَ وما حَوْلَها، كما ٱستولى بنو ذي النون على طُلَيْطُلَةَ.

ثمّ إن أُمراءَ الأمويّين أخذوا يتنازعون في سبيل التَفَرُّدِ بِالحُكْم في قرطبة نفسها. فخاف الأميرُ عبدُ اللهِ مَغَبّةَ هذا النزاعِ وأرادَ أن يُوَطِّدَ المُلْكَ للعرب في الأندلس فَقَتَلَ ٱبْنَيْنِ من أبنائه: مُحَمّداً ومُطَرِّفاً وعدداً من إخوتهِ ثمّ جَعَلَ ولايةَ العهدِ لحفيدهِ عبدِ الرحمنِ بنِ محمّدٍ المقتولِ وأحاطه بنفرٍ من الرِجال الذينَ كان يَثِقُ بهم.

وكانتْ وفاةُ الأميرِ عبدِ الله، سَنَةَ ٣٠٠ (٩١٢ م)، والضَعْفُ والاضطرابُ في ذِرْوَتِها.

الحياة السياسيّة في المغرب كلّه

(في أثناء عصر الأمراء المتوارثين في قرطبة)

(١) في إفريقية: المغرب الأدنى (القطر التونسي)

أرادَ العبّاسيّون أن يَبْسُطوا نُفوذَهم على المغرب فأرسل أبو جعفرٍ المنصورُ، في

سَنَةَ ١٤٤، محمّدَ بنَ الأشعثِ والياً على القيروان، فقام ابن الأشعث بقتالِ أبي الخطّابِ عبدِ الأعلى، رئيس الخوارج فهزمه ودَخَل القيروان. وفي سنة ١٤٨ جاء الأغلبُ بنُ سالمٍ التميميّ لنشر الدعوة العبّاسية وقاتل الخوارجَ الصُفْرية مدّة طويلةً ثمّ أُصيبَ، في أثناءِ قِتَالِهِمْ، بسهمٍ فمات متأثّراً بذلك، سَنَةَ ١٥٠ (٧٦٧ م). وقد ظلّ الأمرُ في القيروان وما حَوْلَها مُضْطَرِباً بحركاتِ الخوارج حتّى قامت الدولة الأغلبية.

في سنة ١٨٣ آستنجد محمّدُ بنُ مقاتلٍ العكّيّ بعامل الزاب (المغرب الأوسط) إبراهيمَ بنِ الأغلبِ، فأسرعَ إبراهيمُ إلى القيروان وآستطاع أن يُقِرَّ الأمنَ ويَضْبِطَ الأمور. عندئذٍ أمرَ هرونُ الرشيدُ بعزلِ محمدِ بنِ مُقاتلٍ العَكّيّ عن إفريقية وبتَوْلِيَةِ إبراهيمَ بنِ الأغلب عليها. وآقترح إبراهيمُ بنُ الأغلبِ على هرونَ الرشيدِ أن يفوِّضَ إليه شيئاً من الاستقلال الداخليّ فيتنازلَ عن مائةِ ألفِ دينارٍ كَانَت تَرِدُ إليه من بَغدادَ لإدارة إفريقية ثم يبعثَ هو من إفريقيةَ الى بَغدادَ بِمِائَةِ الفِ دينارٍ في العام. فكتب الرشيدُ إلى إبراهيمَ بنِ الأغلبِ (١٨٤ = ٨٠٠م) م) يُولّيهِ إفريقيةَ على هذا الشرط. فأقام إبراهيمُ بن الأغلب دولةً في القيروان آتّسعت فيما بعد حتّى آمتدّت من بَرْقَةَ (على حدود مصر) إلى وَلِّيلي على مَقْرُبَةٍ من فاس الحاضرة.

وفي أيام إبراهيمَ بنِ الأغلبِ رَحَلَ الإمامُ أبو سعيدٍ سَحْنونُ بن سعيدٍ إلى المشرق (١٨٨ – ١٩١). فلمّا عادَ ثبّت مذهبَ الإمامِ مالكٍ في المغرب.

ومن أشهرِ الأمراء الأغالبة زِيادةُ الله بنُ إبراهيمَ بنِ الأغلبِ (٢٠١ – ٢٢٣ هـ) بَعَثَ القاضِيَ أسَد بنَ الفُراتِ على رأسِ أُسطولٍ كبير ففتحَ جزيرة صِقِلِّيَةَ، سَنَةَ ٢١٢ (٨٢٧ م)، وقامَ بإصلاحاتٍ كثيرة.

وبنى إبراهيمُ الأصغر (٢٦١ – ٢٩٠)، تاسعُ الأمراء الأغالبةِ، مدينةَ رقّادةَ ونقل العاصمةَ إلَيْها من مدينة العبّاسية. وفي أيامه آتّسع الفتحُ العربي في جزيرة صِقِلّية ثم سار هو بنفسه على رأس جيش كبير للفتح في شبه جزيرة إيطالية، فأصيب بسهم في أثناء حصارِ مدينة كسنتة (كوسنتزا) فمات.

(٢) ليبيا

كانتْ لِيبِيا تابعةً في إدارتها السياسية لإفريقِيَةَ (القطر التونسي).

في سَنَةِ ١٤٠ قادَ عبدُ الملك بن أبي الجَعْدِ الورفجوميّ قبائلَ وَرْفَجومة فاَسْتولى على القيروان وقَتَل والِيَها حبيبَ بنَ عبدِ الرحمن. وفي السنة التالية جَمَعَ أبو الخطّاب عبدُ الأعلى بنُ عبدِ الرحمنِ بن السَمْح المُعافِري، وكانَ من وجوه العرب، جُموعاً من العرب والبربر وقصد طرابُلُسَ الغرب واَستولى عليها. ثمّ إنّه سار إلى القيروان وأخرجَ منها قبائلَ ورفجومةَ وقاتلهم. وفي هذا القتال سَقَطَ عبدُ الملك الورفجوميّ صريعاً.

وبلغ أبا الخطّاب عبدَ الأعلى أن الخليفةَ أبا جعفرٍ المنصورَ أرسلَ ولاةً للاَستيلاء على طرابلس الغرب فاَستخلف على القيروان عبدَ الرحمنِ بنَ رُسْتَمَ الفارسيَّ وعاد هو إلى طرابلس للدفاع عنها. فنشأت بذلك دويلة أئمّةِ نفّوسةَ الإباضيّين (١٤٠ هـ) في الجانب الجبليّ من الجَنوب الغربي من ليبيا. (قبل قيام الدولة الإباضيّة في تيهرت من المغرب الأوسط: الجزائر اليوم).

وتاريخ ليبيا في هذه الحِقْبة ثوراتٌ متلاحقة وحروبٌ. ومَعَ أن الدولةَ الأغلبية قدِ اَسْتَوْلَتْ على ليبيا فإن قبائلَ هوّارة ونَفّوسة ولواتة وغيرها ظلّتْ تأبى الخضوعَ للعبّاسيّين وللأغالبة.

(٣) المغرب الأوسط (الجزائر)

كانَ المغربُ الأوسطُ أيضاً مضطرباً بحَركاتِ الخوارج الصُفْرية والإباضية زَمَناً طويلاً. ثمّ لمّا قُتِلَ أبو الخطّابِ عبدُ الأعلى المُعافريّ في حَرب الوالي العبّاسيِّ مُحمّدِ اَبنِ الأشعثِ هَرَبَ عبدُ الرحمن بن رُسْتَمَ (خليفةُ أبي الخطّابِ على القيروان) إلى قبيلةِ لمايةَ في جبلِ سوفجج (في المغرب الأوسط) فاجتمعَ عليه الإباضيةُ فاَنتقل بهم وبمن كان مَعَه أيضاً إلى تِيَهرْتَ المعروفةِ اليومَ باسمِ تاقدمت. وبعدَ أمدٍ طويلٍ، في سنة ١٦٠ (٧٧٦ م) بايعَ الإباضيةُ بالإمامةِ لعبدِ الرحمنِ بن رُسْتَمَ وأقاموا دولةً

إباضيّة، وصلت حدودُها شَرْقاً إلى طَرابُلُسِ الغربِ وقابسَ وجزيرةِ جربةَ. ولمّا تُوُفّيَ عبدُ الرحمنِ بنُ رُسْتَمَ (١٧١ - ٢٨٧م) بُويع بالإمامةِ بعدَه لابنهِ عبدِ الوهاب. ثمّ جاء الإمامُ أفْلَحُ بنُ عبد الوهاب فحَكَمَ خمسينَ سَنَةً (١٩٠ - ٢٤٠).

والإباضيّة يَكْرهون أنْ يَدْعُوَهُمُ الناسُ «خوارجَ» لأنّهم يَسيرونَ في الحُكْمِ والحياةِ بِحَسْبِ القرآنِ الكريمِ والسُّنَّةِ النبويّة ولكن بمفهوم الأئمّةِ الإباضية. ومَعَ أنَّ الأئمّة الإباضية كانوا يَتَوالَوْنَ في الدولة الرسْتَمية من الأب إلى آبنه، فإنَّ هؤلاء كانوا يجيئون بالانتخاب، أو على الأصحّ بمُوافَقَةِ أهلِ الحلِّ والعَقْد، إذ كانوا لا يؤمنون بخِلافةٍ وراثيةٍ، وإنْ كان نِظامُ الحكم في دَوْلَتِهِم - من الناحيةِ العَمَلية - خلافةً وراثيةً كما كانَ الشأن في الدولةِ الأموية والدولة العبّاسية.

(٤) المغرب الأقصى

بعدَ قتلِ مَيْسَرَةَ المَضْغَريّ قام بأمرِ قبيلة برغواطةَ طريفُ بنُ صالحٍ البرغواطيّ فتَنَبّأ لأتباعه، سَنَةَ ١٢٧، وأمرَهم بخُرافاتٍ وبِدَع. وبعدَ مدّةٍ طويلةٍ سافر إلى المشرق وانقطعتْ أخبارُه.

ثمّ اضطربَ الأمرُ في المغرب وتداولَ الاستيلاء عليه عبدُ الرحمن بنُ حبيبٍ ثمّ أخوه إلياسُ بنُ حبيبٍ ثمّ حبيبُ بنُ عبدِ الرحمن. بعدئذ عاد الإباضيّة إلى القوّة لَمّا آستولى أبو الخطّاب عبدُ الأعلى على طرابُلُسَ والقيروان والمغرب. ثم علا أمر الصُفْرية في آل مِدرارٍ المكناسيّين بناحيةِ المغرب فنَقَضوا طاعةَ العَرَبِ وولَّوْا على أنفسِهِمْ عيسى بنَ يزيدَ الأسودَ من موالي العرب ومن رؤوس الخوارج واختطّوا مدينة سِجِلْماسَةَ، سَنةَ ١٤٠. وكان مُلْكُ بني مدرارٍ في سجلماسة طويلاً جدًّا (١٤٠ - ٣٠٩) ولكنْ كثيرَ الاضطراب.

الدولة الإدريسية

بعدَ مَعْركة فَخّ (قُرْبَ مكّةَ، سنة ١٦٩) نجا إدريسُ بنُ عبدِ الله بنِ الحَسَنِ بن الحسن بن عليّ بن أبي طالبٍ ووصل إلى المغرب ونزل في وَلّيلي عند أميرِها إسحقَ بنِ

عبد الحميد الأَوَرْبِيّ، سَنَةَ ١٧٢ (٧٨٨ م) فبايعته قبائلُ أَوَرْبَةَ على الإمارة. وغزا إدريسُ عدداً من القبائل - وكانتْ منها قبائلُ لم تكنْ قد دخلتْ في الإسلام بعدُ فأسلمتْ - ودَخَلَتْ كلُّها في طاعته. ويُقالُ إنّ هرونَ الرشيدَ لمّا علم بأمرِ إدريسَ في المغرب أرسلَ إليه من سَقَاهُ سمّاً فمات، سنة ١٧٧ (٧٩٣ م).

ولم يكنْ لإدريسَ ولدٌ، بل كانتْ له أَمَةٌ اسْمُها كَنْزَةُ حاملٌ في شَهْرِها السابع. فعَهِدَ البربرُ بالأمرِ إلى مَوْلًى لإدريسَ اسمُهُ راشدٌ رَيْثَما تَضَعُ كنزةُ حَمْلَها. ووَلَدَتْ كنزةُ غُلاماً سُمِّيَ إدريسَ بٱسْمِ أبيه، وقامَ راشدٌ على تربيتِهِ وتثقيفه. ولمّا بلغَ إدريسُ الحاديةَ عَشْرَةَ بُويع بالإمامةِ وأجمع عليه أهل المَغْرب الأقصى، وأصْبَحَ يُعْرَفُ بٱسْمِ إدريسَ الأزهرِ أو إدريسَ الثاني.

ولمّا ضاقتْ مدينةُ وَلِّيلي بالدولة الجديدةِ خَطّ إدريسُ الثاني مدينةَ فاس، سَنَةَ ١٩٢. ولمّا تمّ بناء فاسَ خَطَبَ إدريسُ خُطبةً قال فيها:

..... اللّهُمَّ، إنّك تعلمُ أنّي ما أردتُّ ببناءِ هذه المدينةِ مُباهاةً ولا مفاخرةً ولا سُمْعَةً ولا مُكابرة، وإنّما أردتّ أن تُعْبَدَ فيها ويُتْلى كِتابُكَ وتُقامَ حُدودُك[1] وشَرائعُ دِينِكَ وسنّةُ نَبِيِّكَ محمّدٍ صلّى اللهُ عليه وسلّم. اللّهُمَّ، وَفِّقْ سُكّانَها وقُطّانَها للخيرِ وأعِنْهُمْ عليه، وٱكْفِهِمْ مؤونَةَ أعْدائِهِمْ، وأدْرِرْ عَلَيْهِمُ الرِزْقَ، وأغْمِدْ عنهم سَيْفَ الفِتْنةِ والشِقاق؛ إنّك على كلِّ شيءٍ قدير.

وبرز شيءٌ من المنافسة والعَداوة بين إدريسَ الثاني والأغالبةِ (لأنّ الأغالبةَ كانوا من أنصارِ العبّاسيّين) ثمّ ٱستقرّتِ الأمور بينَ الدولتين.

وبعدَ وفاةِ إدريسَ الثاني، سَنَةَ ٢١٣ (٨٢٨ م) خَلَفَهُ ٱبنُه محمّدٌ، ولكنّ أولادَ إدريسَ تنازعوا وهاجَتْ بَيْنَهُمُ الفِتَنُ وتقاسموا المُلْك.

ومن مَحاسِنِ مُلْكِ الأدارسةِ في المغرب بناءُ جامع القَرَوِيِّيْنَ، بَنَتْهُ أُمُّ البَنينَ فاطمةُ بِنْتُ محمّدٍ الفِهْريّ من أهلِ القَيْروان. وكان البدءُ ببناءِ هذا الجامع - الذي

(١) الحدّ: الحاجز (الفاصل) بين شيئين. حدود الله: نواهيه (الأعمال المحرّمة).

أصبحَ أقدمَ الجامعات في العالم - سَنَة ٢٤٥ (٨٥٩ م).

ومن الدُوَيْلات التي نشأت في المغرب الأقصى، في هذه الحِقبة، دُويلةُ بني مِدرارٍ في سِجِلْماسةَ في بلاد تافيلالتَ، شرقَ مدينة مَرَّاكُشَ على بُعد نحو ثلاثِمِائَةٍ وخمسين كيلومتراً، قريباً من الصحراء، وكانت دولةً إباضيةً صُفرية. وأوّلُ رؤساءِ هذه الدويلةِ أبو القاسم سمغو المِكناسيّ (١٥٥ - ١٦٧). ثمّ خَلَفَهُ ٱبناه إلياسُ واليَسَعُ. وفي أيام اليسعِ (١٧٤ - ٢٠٨) اتّسعَ مُلكُ سِجِلْماسةَ وٱستَبْحَرَ فيها العُمران.

خصائص الأدب وأعلامه

في عصر الأمراء المتوارثين

في هذه الفترةِ، في عصرِ الأمراء المتوارثينَ، من سَنَةِ ١٣٨ إلى سَنَةِ ٣١٦ (٧٥٦ - ٩٢٩ م)، تطوّر الأدبُ في الأندلس وفي المَغْرب كلّهِ تطوّراً كبيراً: ترقّى الشِعرُ من الحماسة الجافيةِ في الرَجَزِ إلى الوصف الجيّد والأغراضِ الوُجدانيّةِ في الأوزانِ المُطْربة. ويُقال إنّ التوشيحَ المُتْرَفَ نشأ في هذا الدورِ على يَدَيْ مُقَدَّمِ بنِ مُعافًى القَبْريّ (ت ٢٩٩ هـ) غيرَ أنّ الخصائصَ العامّةَ من الفنونِ والأغراضِ والأُسلوب ظلّتْ كلُّها مشرقيّةً. ثمّ لم يَصِلْ إلَيْنا موشّحاتٌ من نَظْمِ مُقدّمِ بنِ مُعافًى.

أما في الحِقْبةِ الأُولى من هذهِ الفَتْرةِ، في بَقيّة القَرْنِ الثاني للهِجْرة، فقد كان الجانبُ الأوْفَرُ من قائلي هذا الشِعْرِ والنَثْر مِنَ المَشارقةِ الذين طَرأوا هُمْ أَنْفُسُهُمْ على المَغْرب والأَنْدَلُسِ جُنوداً ووُلاةً أو مِنْ أُولئِكَ الذينِ كان أسْلافُهُم قد طَرأوا على المَغْرب والأندلس. أمّا الذين تَعَرّبوا مِنَ البَرْبَرِ وجَعلوا يَنْظِمون ويَنْثِرونَ في هذهِ الفَتْرة فكانوا لا يَزالون قَليلينَ جِدّاً؛ وكانتْ خَصائِصُهُمُ الأدبيةُ لا تَزالُ ضَعيفةً غيرَ مَصْقولةٍ.

لأمراءِ البيتِ الأُمَويّ في الأندلس - سواءٌ منهم مَنْ تولّى المُلْكَ ومن لم يَتَوَلَّهُ - شِعرٌ بعضُه جيّدٌ. وفي هذا الجزءِ نَفَرٌ منهم جميعاً خُصّوا بتراجِمَ مُستقلّةٍ: عبدُ الرحمنِ الداخلُ (١٣٨ - ١٧٢) وٱبنُه هِشامٌ (وقد وُلِدَ في قُرطُبةَ سَنَةَ ١٣٨) وحفيدُه الحَكَمُ

آبنُ هشامٍ (١٨٠ - ٢٠٦) وعبدُ الرحمنِ الأوسطُ (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) وعبدُ اللهِ بنُ محمّدٍ (٢٧٥ - ٣٠٠) آخِرُ الأمراءِ المتوارثين.

ثمّ هنالك آثارٌ أدبيةٌ لِنَفَرٍ آخرينَ من بني أُميّةَ جاءوا مَعَ عبدِ الرحمنِ الداخلِ أو لَحِقوا به بعدَ مُدَيْدَةٍ منهم عبدُ الملك بنُ عُمَرَ بنِ مَروانَ بنِ الحكم (ت نحو ١٦٠) ومنهم حبيبُ بنُ عبدِ الملك بنِ عُمرَ بنِ الوليد (ت ١٦٠) ومنهم عبدُ الملك بنُ بِشْرِ بنِ عبد الملك بنِ بِشْرِ بنِ مَروانَ قَتَلَ أبو جعفرٍ المنصورُ العبّاسيُّ أباه فنجا هو وقَصَدَ الأندلسَ فدَخَلَها في صَدْرِ إمارةِ عبدِ الرحمن الداخلِ. وعبدُ الملك بنُ بِشْرٍ هذا كان شاعراً رَوَى له آبنُ الأبّار شيئاً من الرثاءِ والفخر ومن الهِجاء والغزل. فمِنْ غزلِه: (الحلّة السيراء ١ : ٥٩):

وبِنَفْسي مَنْ عِنْدَها اليومَ قَلْبي ... عَلِـــقٌ في حِبالِهـــا مَعْمودُ[١].
كُلّما قُلْتُ قد تَناهَيْتُ عَنْها ... عـادَني من غَرامِها ما يَعود[٢].
فبِقَلْبي من لاعجِ الحُبِّ منها ... كُـلَّ يومٍ سُقْمٌ وحُزْنٌ جَديد[٣].

ونَعُدُّ في هذه الفترةِ - من غيرِ أهلِ البيتِ الأُمويّ - في الأندلس أيضاً إبراهيمَ آبنَ محمّدِ بنِ إبراهيمَ بن مَزْيَنَ الأوْدِيّ، وهو من المولَّدين[٤]، أوْرَدَ له ابنُ الأبارِ (الحلّة السيراء ١ : ٨٨) شيئاً مِنَ الغَزَل الرقيق:

بِـــأبي أنـــتَ مِنْ غزالٍ مليـحٍ ... ليسَ فيـــه لمَنْ تـأوّلَ لَوْلا[٥].
رَوْضـةُ الحُسْنِ فيك تُزهى، ولكن ... كـلَّ حَوْلٍ يَبْقى ربيعك حَوْلا[٦]!

---

(١) معمود: مضروب بالعمود (معذّب).

(٢) تناهى: (هنا): توقّف، انتهى. تناهيت عنها: نسيت حبّها. عادني: رجع إليّ مرّة بعد مرّة.

(٣) لاعج: حريق.

(٤) المولّد (في الأندلس) المسلم من الإسبان.

(٥) تأوّل الكلام: نظر في باطنه (أشار إلى المقصود منه). ليس فيه «لولا»: ليس فيه ما يختلف الناس فيه، لا تختلف فيه الآراء.

(٦) تزهى: تفتخر، تعجب (بالبناء للمجهول) بنفسها. الحول: العام، السنة. الربيع عندك (كرمك) يدوم طول العام.

ويبدو من مراجعة الحِلّة السِيَراءِ[1] أنّ الشعراءَ والناثرين في إفريقِيَةَ والمَغرب من الطارئين عليها كانوا غيرَ قليلين؛ من هؤلاء الحسنُ بنُ حربِ الكِنْديّ ويزيدُ بنُ حاتَمٍ بنِ قُبيصةَ بنِ المُهلَّبِ ثمّ ابنُ أخيه الفضلُ بن رَوْحِ بنِ حاتَمٍ ثمّ عَبْدُوَيهِ وسواهم.

من أوائلِ الأدباءِ والمُترسّلين في إفريقيةَ خالدُ بنُ ربيعة الإفريقيّ[2] رَحَلَ إلى الشامِ في خِلافة هشامِ بنِ عبدِ الملكِ (١٠٥ - ١٢٥) وتثقّفَ بأشياءَ من اللُّغةِ والنحوِ والأدب وكان من أوائلِ الذين خَدموا في ديوانِ الإنشاء في دِمَشْقَ فنشأتْ بينَه وبينَ عبدِ الحميدِ بنِ يحيى الكاتبِ (قَتَلَه العبّاسيّون سَنَةَ ١٣٢) مودّةٌ. ويبدو أنّه عادَ إلى إفريقيةَ بعدَ سقوطِ الدولة الأمويّةِ فاتّصلَ بعبدِ الرحمنِ بنِ حبيبِ الفِهْريّ (ت ١٦٢) والِي القَيروانِ من قِبَلِ العبّاسيّين فولاّه عبدُ الرحمن شؤونَ وِلايتهِ في المَغْرب. وكان خالدُ بنُ ربيعةَ مُترسّلاً بليغاً له رسائلُ وله مجموعٌ في الأدبِ نحو مِائَتَيْ وَرَقَةٍ (ألفِ سطر). وكانت وفاته سَنَةَ ١٤٠.

وثار الحسنُ بنُ حربِ الكِنديّ على الأغلبِ بنِ سالمٍ، في سَنَة ١٥٠ (٧٦٧ م) فكَتَبَ الأغلبُ إلى الحسنِ بنِ حربٍ يَتَهَدّدُه:

ألا مَنْ مُبْلِـــغٌ عنّي مَقـــالاً ... يسيرُ بـهِ إلى الحسنِ بنِ حَرْبِ.
فإنّ البَغْيَ أبْعَدُهُ وبالٌ ... عليـكَ، وقُرْبُه لكَ شرُّ قُرب[3].
فـــإنْ لم تَدْعُـــني لِتَنَـــالَ سِلْماً ... وعَفْوي فَادْنُ مِنْ طَعْني وضربي[4]!

فردَّ الحسنُ بنُ حربٍ عليه بقولِه[5]:

---

(١) راجع ١: ٦٩ - ٧٠، ٧٢؛ ٢: ٣٥٦؛ مجمل تاريخ الأدب التونسي ٢٩ - ٣٠..

(٢) الفهرست ١١٨؛ تاريخ إفريقية وتونس للرقيق القيرواني ١٣٤؛ مجمل تاريخ الأدب التونسي ٣٨ - ٣٩؛ الأعلام للزركلي ٢: ٣٣٦ (٢٩٥).

(٣) الوبال: الهلاك.

(٤) ادن: اقترب (فعل أمر). طعني (بالرمح) وضربي (بالسيف): حربي، قتالي.

(٥) الحلّة السيراء ١: ٧٠ - ٧٢؛ مجمل تاريخ الأدب التونسيّ ٢٩ - ٣٠. - بين رواية الحلّة السيراء (١: ٧٠ حاشية) ورواية مجمل تاريخ الأدب التونسي (ص ٣٠) خلاف غير قليل.

ألا قولوا لأغلبَ غيرَ سرٍّ مُغَلْغَلَةً عن الحسنِ بن حربِ[1]
بأنّ الموتَ بَيْنَكُمُ وبيني؛ وكأسُ الموتِ أكرهُ كلِّ شُرب.
رَوَيْدَكُمُ، فيَوْمُكُمُ ويومي، وإنْ بَعُدا، مَصيرُهُما لقُرب!

ثمّ وَقَعَ القتالُ بينَ الأغلبِ بنِ سالمٍ والحسنِ بنِ حربٍ فقُتِلَ الأغلبُ، في شَهْرِ شَعبانَ مِنْ تلك السَنَةِ فرثاه الحَكَمُ بنُ ثابتٍ السَعْديّ، وهُوَ شاعرٌ مُجيدٌ من نَسْلِ الشاعرِ الجاهلي سَلامَة بن جَنْدلٍ (ت ٣٢ قَبلَ الهِجْرة) بأبياتٍ جِيادٍ منها[2]:

لقد أفسدَ الموتُ الحياةَ بأغلبٍ غداةَ غدا للموتِ في الحربِ مُعْلَما[3].
تبدّتْ له أُمُّ المنايا فأقْصَدَتْ، إذا كان يلقى الموتَ في الحربِ صَمّما[4].
أخا غزَواتٍ ما تزالُ جيادُه تُصبِّحُ عنه غارةً حيث يَمّما[5].
أتَتْهُ المنايا في القَنا فاْخْتَرَمْنَهُ وغادَرْنَهُ في مُلتقى الخيل مُسْلَما[6].
كأنّ على أثوابِهِ من دِمائهِ عَبيطاً، وبالخدَّيْنِ والنَحْرِ عَنْدَما[7].
فباتَ شهيداً نالَ أكرمَ مِيتةٍ ولم يَبْغِ عُمْراً أن يطولَ ويَسْقَما[8]!

---

(١) مغلغلة: رسالة..
(٢) الحلّة السيراء ١: ٧١.
(٣) غداة = في الغداة (الصباح). غدا: خرج باكراً (كانت الحرب النبيلة تبدأ في الصباح، ولا تكون غدراً في الليل). معلماً: كاشفاً عن وجهه (كان الفارس المشهور بشجاعته وكثرة من قتله في الحروب يتلثّم حتّى لا يعرفه غرماؤه فيثأروا منه) فخرج الأغلب معلماً لأنّه لا يريد أن يتخفّى عن غرمائه ولأنّه لا يبالي بالأعداء.
(٤) أمّ المنايا: الموت الشديد. أقصد الرجل خصمه: أصاب منه مقتلاً. صمّم: قصد، سار إلى. ويبدو أن عجز هذا البيت جلة معترضة. والكلمتان «إذا كان» قراءة شخصية في مجمل تاريخ الأدب التونسي (!). وفي الحلّة السيراء «فتى حين» (اجتهاداً من المحقّق، لأنّ مكان الكلمتين ممحوّ في المخطوط).
(٥) «أخا» مفعول به من الفعل «أقصدت» (في البيت السابق). تصبّح: تغزو القوم في الصباح. يمّم: قصد.
(٦) أتته المنايا (الموت) في القنا (قتلاً بالرماح) اخترمته (قتلته وهو في مقتبل عمره). غادرنه: تركنه. ملتقى الخيل: ميدان القتال. مسلماً: متروكاً (لا يدافع عنه أحد).
(٧) عبيط: دم مسفوح قريباً (من مدّة يسيرة). النحر: بين الصدر والعنق. العندم: الدم الأحمر.
(٨) لم يشأ أن يطول عمره فتكثر حينئذ أسقامه (أمراضه وأوجاعه).

ثمّ قُتِلَ الحسنُ بنُ حربٍ في أواخرِ شَعبانَ فجِيءَ به إلى تُونِسَ فصُلِبَ يومَ السبتِ آخرَ يومٍ من شَهْرِ شَعبانَ نفسِه (١٥٠ هـ). ويبدو أنّ الحَكَمَ بنَ ثابتٍ السعديَّ لم يُعَمَّرْ بعدَ ذلك طويلاً، ولعلّ موتَه كان في أواخرِ سنةِ ١٥٠ نفسِها[١].

ومن هؤلاء عَبْدَوَيْهِ، وَهُوَ عبدُ اللهُ بنُ الجارودِ العَبْدِيُّ، أحدُ الثائرين في إفريقية، قاتَلَ الفَضْلَ بْنَ رَوْح بنِ حاتِمٍ والي القَيْروانِ (١٧٧ - ١٧٨ هـ) وقتَلَه. وجَهَّزَ أبو عبدِ اللهِ مالكُ بنُ المُنْذرِ الكَلْبي والي مِيلةَ جيشاً وقاتَلَ ابنَ الجارودِ لِيثْأرَ بالفَضْلِ بنِ رَوْحٍ، ولكنّ مالِكاً قُتِلَ أيضاً في المَعْركة. عِنْدَئِذٍ سارَ العَلاءُ بنُ سعيدِ بنِ مَرْوانَ المُهَلَّبي والي الزاب لِقتال ابن الجارود، ولَكِنْ يبدُو أنهُ لَمْ يَقَعْ بين العَلاء وبين ابنِ الجارودِ قتالٌ لأنّ هرونَ الرشيدَ كان قدِ استطاعَ أن يَسْتَميلَ ابنَ الجارودِ ويَسْتَقْدِمَهُ إلى بَغْدادَ.

لَمّا اَلْتَقى مالكُ بنُ المُنْذِرِ بابنِ الجارودِ آنهزمَ أصحابُ مالكٍ فترجّلَ مالكٌ عَنْ فَرَسِهِ ثمّ هَجَمَ في نَفَرٍ مِمّنْ بَقِيَ مَعَهُ من أصحابِهِ وَهُوَ يَقولُ (الحلة السيراء ١ : ٨٧ - ٨٨):

يـا موتُ، إنّي مالـكُ بنُ المُنْـذِرِ	أهْتِـكُ حَشْوَ البَيْـضِ والسَنَوَّرِ[٢]؛
أقتُلُ من صابَرَ أو لَمْ يَصْبِرِ	كأنّـني أفعَـل مـا لَمْ يُقْـدَرِ[٣].

فخَرَجَ إليه ابنُ الجارودِ وَهُوَ يقولُ[٤]:

إليّ فـأدْنُ، مالـكَ بنَ مُنْـذِرٍ؛	أنـا الّـذي قَتَلْـتُ رَبَّ المِنْبَرِ[٥]،
جرّعْتُـهُ كـأسَ الحِمامِ الأحْمَرِ.	فأصْبِرْ - سَتَلْقاه- وإنْ لم يَصْبِرِ[٦]!

---

(١) الحلّة السيراء ١ : ٧١؛ مجمل تاريخ الأدب الأندلسي ٣٠.

(٢) هتك: شقّ، مزّق، قطع. البيضة: الخوذة (إناء معدني) يضعها المحارب على رأسه. السنّور: الدرع. حشو البيض: الرؤوس. حشو السنّور: الأبدان.

(٣) ما لم يقدر: ما لم يأت وقته بعد (أو ما لا يقدر عليه أحد).

(٤) الحلّة السيراء ١ : ٨٧.

(٥) ادن: اقترب (فعل أمر). ربّ المنبر: صاحب العرش (الملك).

(٦) الحِمام: الموت.

ولَمّا أرادَ العَلاء بنُ سعيدٍ أن يَخْرُجَ لِقِتالِ ابنِ الجارودِ كَتَبَ إليه يَقولُ (الحلة السيراء ١ : ٨٧):

لَعَمْرُكَ، يا عَبْدُويَ، ما كنتُ تاركاً دَمَ الفَضْلِ أو يكسونِيَ التُّرْبَ ثائرُ[١].
نَذَرْتَ دَمي فانْظُرْ، إذا ما لَقِيتَني، على مَنْ بكأسَيْها تدورُ الدوائرُ[٢].
ستعلَمُ، إنْ أنْشَبْتُ فيك مَخالبي، إلى أيِّ قِرْنٍ أسْلَمَتْكَ المقادرُ[٣].

فقال عَبْدويه بنُ الجارودِ يَرُدُّ على العَلاءِ بن سعيدٍ[٤]:

أفي كلِّ يومٍ ثائرٌ قد قَتَلْتُه بفَضْلٍ؛ وما يَنْفَكّ لِلْفَضْلِ ثائرُ[٥].
قَضَيْتُ لنفسي الثأرَ في قتلِ مالِكٍ؛ وإنّي لَها قَتْلَ العَلاءِ لناذِرُ[٦].
فما للعَلاءِ خِيرَةٌ في لِقائِنا، وليس له في الناسِ -إنْ فَرّ- عاذِرُ[٧]!

ثمّ هُنالِكَ في هذهِ الحِقْبة، في إفريقية والمَغْرِبِ أيضاً[٨]، مُحمّدُ بنُ مُقاتِلِ بنِ حكيمٍ العَكّيُّ، وتَمّامُ بَنُ تَميمٍ الدارِمِيّ والأغلبُ بنْ سالمٍ (ت ١٤٩) وابنُه إبراهيمُ ابنُ الأغلبِ المشهورُ ويَحْيى بنُ الفَضْلِ بنِ النُّعْمانِ التَميمي وخُريش بنُ عبدِ الرحمنِ وعِمْرانُ بنُ مُجالِدٍ (تُوُفِّيَ قَبيل ٢٠٠) وعامرُ بنُ المَعَمِّرِ بنِ سِنانٍ التَميميُّ وحَمْزَةُ بنُ السَبّالِ المعروفُ بالحَرونِ وغيرُهم. ثمّ هُنالك بُهْلولُ بنُ عبدِ الواحدِ المَدْغرى

---

(١) ما كنت تاركاً دم الفضل (بن روح بن حاتم): لن أترك الأخذ بثأره. يكسوني الترب ثائر: يقتلني ثائر (آخذ بثأر!).

(٢) نذرت دمي: أعلنت أنّك ستقتلني. الدوائر: المصائب (الموت). دارت الدائرة بكأسها على الناس: أماتتهم واحداً بعد واحد.

(٣) إن أنشبت فيك مخالبي (أظافري): إذا تمكّنت منك، إذا لقيتك. القرن: البطل الند لغيره. - إذا ظفرت بك يدي ستعلم أنّي شجاع قويّ مثلك أو أكثر.

(٤) الحلّة السيراء ١ : ٨٦.

(٥) انتقاماً لمقتل الفضل بن روح بن حاتم والي القيروان (أول ١٧٧ - أواسط ١٧٨ هـ). وسيبقى هنالك ثوّار ينتقمون لقتله حتّى يفنوا جميع الذين كانوا خصومه.

(٦) مالك بن المنذر والعلاء بن سعيد (راجع الصفحة السابقة). - قتلت مالكاً وأخذت على نفسي (عزمت) على قتل العلاء.

(٧) ما له خيرة (بكسر ففتح): اختيار (لا بدّ له من أن يحاربنا).

(٨) الحلّة السيراء ١ : ٨٨ وما بعد.

(المضغريّ)، وَهُوَ مِن البَرْبَرِ، وسَيَرِدُ ذِكْرُه في تَرْجَمَةِ إبراهيمَ بنِ الأغلبِ.

ويحسُنُ أن نُشيرَ إلى أنّ دراسةَ الفِقه والنحوِ قد بدأتْ في الأندَلُسِ وفي المَغرب منذ هذا الطَّوْر الباكر.

وكذلك رُوِيَ لرجالِ العُدْوة في إفريقِيَةَ (القُطر التُونسي) والمَغْربِ شعرٌ ونثرٌ ممّن تَوَلَّوُا الإمارةَ في أقطارهم وممّن لم يَتَوَلَّوْها، ومِنَ الذين تَرْجِعُ أنسابُهم إلى العرب أو إلى البربر. ويبدو أن هذا الشعرَ صحيحٌ ولكنْ يبدو عليه أيضاً تقليدٌ كثيرٌ للمشارقة وأكثرُهُ في الحماسةِ والفخر.

ثارَ عِمرانُ بنُ مُجالِدِ بنِ يزيدَ الرَبَعيّ[١] على إبراهيم بنِ الأغلب (١٤٠ - ١٩٦ هـ) وهاجم القَيْروانَ فلم يستطعِ التغلّبَ. ثمّ هَرَبَ إلى نواحي الزابِ[٢] وطَلَبَ الأمانَ من إبراهيمَ فأمّنَهُ إبراهيمُ. ثمّ لما ماتَ إبراهيمُ وخَلَفَهُ آبنُه أبو العبّاس عبدُ الله (١٩٧ - ٢٠١ هـ) جدّدَ عِمرانُ طَلَبَ الأمانِ فأجابه أبو العبّاس إلى ما طَلَبَ ولكنْ عاد فغَدَرَ به وقتله (نحو ١٩٨). ولِعِمْرانَ الرَبَعيِّ - وهُوَ يُنازِلُ إبراهيمَ بنَ الأغلب حَوْلَ القيروان - رَجَزٌ منه:

يا رُسُلَ الموتِ، أنا عِمرانُ، ... أنا الذي أنتم له أعْوانُ[٣].
تُصْعَقُ من خِيفَتِي الفُرسان ... يَضْحَكُ عن أيامِنا الزمانُ[٤].
نحن ضَرَبْنا الناسَ حتّى دانوا ... نقتُلُ أهلَ النُكْثِ حيث كانوا[٥]!

---

(١) الحلّة السيراء ١ : ١٠٤ : كان عمران هذا من أصحاب إبراهيم بن الأغلب ثمّ ثار عليه.

(٢) الزاب مقاطعة في الشمال الغربي من الجزائر اليوم وعاصمتها بسكرة (على نحو ثلاثمائة كيلومتر من مدينة الجزائر جنوباً في شرق).

(٣) رسول الموت هو الذي يأتي إلى الإنسان الذي انتهت مدّته في الأرض فيقبض روحه. والشاعر يقول إنّه هو الذي يقبض الأرواح (يقتل الأعداء في المعارك) وإن ملك الموت يساعده في مَهمّته!

(٤) يصعق: تصيبه الصاعقة، يسقط فاقداً وعيه (يموت). يضحك عن أيامنا الزمان (يسرّ بنجاحنا في المعارك).

(٥) ضربنا: قاتلنا. دانوا: اتّبعوا الدين (أسلموا) أطاعوا. النكث: الإخلاف بالوعد.

وكان حمزة بن السبّال المعروف بالحَرون[1] أحدَ القُوّادِ الرؤساءِ الشُجعان في جُندِ إبراهيمَ بنِ الأغلب. وقد قُتِلَ حمزةُ هذا في إحدى معاركه في تُونِس في صَفَرَ من سَنَةِ ٢٠٩ (أيار - مايو ٨٢٣ م). ولحمزةَ رَجَزٌ جيّدٌ سهلٌ منه (في نُصْرةِ إبراهيمَ بنِ الأغلب):

إنْ غاب إبراهيم عنّا أو حَضَرْ فإنّني أنصُرُهُ فيمن نَصَرْ.
واللهِ، لا أرْجِعُ إلاّ بظَفَرْ؛ ليس يموتُ المرءُ إلاّ بقَدَرْ.
وكلّ من خالَفَنا فقد كفر!

ومن أمراء الأغالبةِ أبو محمّدٍ زِيادةُ اللهِ بنُ إبراهيمَ (٢٠١ - ٢٢٣ هـ) تثقّف باللغة والنحو وقال الشعر الجيّد[2].

لّما استعلى الجُنْدُ في القيروانِ وكاد الأمرُ يخرُجُ من يدِ زِيادةِ الله، قال زيادةُ الله يَصِفُ تلك الحالَ، كيف تبدّلتْ بينَ اليومِ والأمسِ:

يا ويحَ نفسي حينَ أركَبُ غادِياً بالقيروانِ تَخالُني مُختالا،
في فِتْيةٍ مثلَ النجومِ طوالعٍ؛ وتَخالُني بينَ النجوم هِلالا!
واليومَ أركَبُ في الرُعاعِ ولا أرى إلاّ العبيدَ ومَعْشَراً أنذالا.

وجاء إلى زِيادةِ اللهِ رسولٌ من المأمونِ العبّاسي يَحْمِلُ رِسالةً يطلُبُ المأمونُ فيها من زِيادةِ اللهِ أن يخطُبَ على منابرِ إفريقيَة (تُونِسَ) لعبدِ الله بنِ طاهرِ بنِ الحُسينِ والي خُراسانَ (أن يذكُرَ عبدَ الله بنَ طاهرٍ في خُطبةِ الجُمُعة) فلم يَرْضَ زِيادةُ الله وخاطَب الرسولَ بقوله:

« قد علِمَ أميرُ المؤمنين طاعتي له وطاعة آبائي لآبائه وتَقدُّمَ سَلَفي في طاعَتِهم، ثمّ

---

(١) الحلّة السيراء ١: ١٠٧ - ١٠٩.
(٢) الحلّة السيراء ١: ١٦٣ - ١٧٦.

يأمُرني الآنَ بالدعاءِ لعبدِ خُزاعةَ[1]. هذا، واللهِ، أمرٌ لا يكونُ أبداً ».

وقال زِيادةُ الله في تُفّاحةٍ بينَ يديهِ ذَكَّرتْه بِحَبيبهِ:

ولابِسَةٍ ثَوْبَ اصفرارٍ بـلا جِسْمٍ تَنُمُّ بأنفـاسِ الحبيـبِ لِمُشْتَمِّ[2].
تَجَمَّعَ معشوقٌ لديها وعاشقٌ، فـذو نظرٍ يرنو إليهـا وذو شَمِّ[3].
سأُفْنيكِ أو أفنى عليكِ تذكُّراً لِمَنْ أنتِ عِطْرٌ منه في الرَشْفِ واللَثْمِ[4].
فقد هِجتِ في قلبي لَظًى لِتَذَكُّري؛ وعُنوانُه في مُقْلتي دمعةٌ تَهْمي[5].
كأنّيَ أُدْني - حينَ أُدنيكِ- مَنْ به أثَرْتِ اشتياقي في عِناقٍ وفي ضَمِّ[6].

ومن بني الأغلب الذين رَغِبوا عن المُلْكِ يَعقوبُ بن المضاء فقدِ انصرفَ إلى الزُهْد ونَزَع السوادَ (ترك لُبْسَ الثيابِ السود شِعارَ العبّاسيّينَ وشِعار الدولة). وانتقل يعقوبُ إلى العِراق ومات هناك. وليعقوبَ هذا شِعرٌ في الشيبِ والشباب يُخاطب في البيت الأخير منه مَنْ قال له: « قد شِبْتَ »:

فـإنْ تَـكُ لِمّتي كُسِيَـتْ بياضاً وبُـدِّلَ لي المشيـبُ مِنَ الشبـابِ،
فقــد عُمِّرتُ ذا فَرْعٍ أثيــثٍ كأنّ سوادَه حَنَكُ الغُراب.
فـلا تَعْجَلْ، رُوَيْدَكَ، عن قريبٍ كأنّك بالمشيب وبالخِضاب.

ثمّ نحن نَشَمُّ نفحةً أمويّةً من نَفَسِ جريرٍ في أبياتِ أبي العبّاسِ محمّدِ بن الأغلب بنِ إبراهيمَ بنِ الأغلب (ت ٢٤٢ = ٨٥٦م) وهو يفتخرُ قائلاً (الحلة السيراء ١ : ١٧٠):

---

(١) عبد الله بن الحسين فارسيّ النسب من خراسان ولكن ينتسب بالولاء إلى بني خزاعة العرب.
(٢) بلا جسم، لأنّ الأصفرار في التفّاحة جزء منها (ولا يمكن تبديله كالثوب العاديّ).
(٣) تجمّع معشوق لديها وعاشق (؟).
(٤) سأفنيك بكثرة ما أشمّ منك... (لأنك تذكّرينني بحبيبي فأعاملك كما كنت أود أن أعامله. أو أفني عليك تذكّرا...: أو أذوب أنا (أموت) لأنّني لا أستطيع أن أصل فيك إلى غايتي من حبيبي (سيكون تذكيرك لي بالحبيب، مع حرماني من لقائه، سبباً لنحولي أو موتي).
(٥) اللظى: لهيب النار. دمعي الذي يهمي (يتساقط) عنوان (دليل) على ما أشكو من نار البعد عن الحبيب.
(٦) حينما أمسكك بيدي وأدنيك (أقرّبك من أنفي) أتخيّل أنّني أضمّ حبيبي.

أليس أبي وَجـــدّي أوْطـــآني – وجدُّ أبي وعَمّايَ – الرِقابَا؟
وَرِثْـتُ المُلْـك والسُّلطـانَ عنهم فصِرْتُ أعزَّ من وَطِيءِ التُرابا.
أنـا المِلـكُ ٱلـذي أسمو بنفسي فأبلُغُ بالسُمُوِّ بها السَحابا.

ولكنّ التقليدَ والضَعْفَ باديانِ على هذه الأبيات بوُضوحٍ.

وإلى جانبِ الشعرِ في إفريقيةَ (تونس) كانت الحركةُ العِلمية في الفِقه هي التي نقلتِ المغرب إلى المذهبِ المالكيّ وأثّرت في مجرى تاريخه.

فمن أوائلِ الذين يُعَدّون في هذا النِطاقِ خالدُ بنُ أبي عِمْران التُجيبيّ، وُلِدَ في تُونِسَ وتلقّى العلمَ على أبيه وآخَرينَ ثمّ رَحَلَ إلى الحِجاز فرَوَى عن نَفَرٍ من التابعين منهمُ القاسمُ بنُ محمّدِ بنِ أبي بكرٍ الصِدّيق (٣٧ – ١٠٧ هـ) وعن سالمِ بنِ عبدِ اللهِ بن عُمَرَ بنِ الخطّابِ (ت ١٠٦) وعن نافعٍ مولى عبد الله بن عُمرَ بن الخطّاب (ت ١١٧) وعن سُليمانَ بنِ يَسارٍ (ت ١٠٧). ثمّ عادَ خالدٌ إلى إفريقية في مَطلعِ القرنِ الثاني للهجرة يَحْمِلُ فِقْهاً كثيراً وروايات (في الحديث) صحيحةً. وكان ثِقةً فيما يَروي ويقول. وتولّى خالدٌ قضاءَ إفريقية، وكانتْ وَفاتُه سَنَةَ ١٢٧. ولم تقتصرْ روايةُ خالدٍ على الحديثِ والقِراءةِ (قِراءةِ القرآنِ الكريم) والفِقه، بل كانتْ له رواياتٌ مِنَ التاريخِ عن فَتْحِ إفريقيةَ والمَغْربِ نرى كثيراً منها في كِتاب «فتوحُ الشام» للواقديّ وفي كتاب «فتوحِ مصرَ والمغربِ» لابنِ عبدِ الحكم.

ومن حَمَلةِ العلمِ في تونسَ أبو محمّدٍ عبدُ اللهِ بنُ فَرّوخ الفارسيُّ من شُيوخِ أهلِ إفريقيَةَ وفقيهُ القَيْروانِ. وُلِدَ سَنَةَ ١١٥ (٧٣٣ – ٧٣٤ م)، قيلَ في الأندلس، ثمّ سكن القَيْروانَ. رَحَلَ إلى المشرقِ فأخذ عن مالكِ بنِ أنَسٍ في الحجاز ثمّ انتقل إلى العِراق فَلَقِيَ في الكوفة أبا يحيى زكريّا بنَ أبي زائدةَ (ت نحو ١٤٨ = ٧٦٥ م) وسُفيانَ الثَّوْريَّ (ت ١٦١) وأخذ عنهما كثيراً من الحديث، كما أخذَ عن أبي حنيفةَ كثيراً من الفِقه.

وعادَ عبدُ الله بنُ فَرّوخ إلى القيروان وأقْرأ بها الحديثَ والفِقه. وكانت له أيضاً

عِنايةٌ بالتفسير. وَعَرَضَ عليه رَوْحُ بنُ حاتمٍ والي إفريقية (١٧١ - ١٧٤ هـ) القضاءَ في القيروان فأبى. ثمّ إنّ عبدَ الله بنَ فرّوخ ذهب إلى الحجّ. وفي أثناء عَوْدتهِ مرّ بمْصرَ فتُوُفّيَ بها، سَنَةَ ١٧٥ (٧٩١ - ٧٩٢ م) ودُفِنَ في سَفْحِ جَبَلِ المُقَطَّم[1].

ومن هؤلاءِ عليُّ بنُ زِيادٍ العبسيٍّ من أبناءِ تُونِسَ سَمِعَ المُوَطّأَ في المدينةِ من الإمام مالك (ت ١٨٣). وهُوَ أولُ مَنْ أدخَلَ المُوطّأَ إلى المغرب.

ويجيءُ هنا أيضاً عبدُ الله بن حَسانِ اليَحْصُبيّ من أهلِ القَيْروانْ رَحلَ إلى الحِجاز وأخذَ الحديثَ عن مالكٍ ثمّ دَخلَ البَصرةَ والكوفة وتلقّى العربيةَ (النَحْوَ) عن سِيبَوَيْهِ (ت ١٨٠) والكِسائي (ت ١٨٩)، ثمّ عادَ إلى القيروانِ ينشُرُ ما حَمَلَهُ مَعَهُ من العِلم. وكانتْ وفَاتُه في سَنَةِ ٢٢٦ (٨٤٠ - ٨٤١ م).

في القرن الثالث الهجري:

ويحسُنُ هنا، في استكمالِ صورةِ العصر، أن نذكُرَ مؤرّخَيْنِ أحدُهما ابنُ سَلاَمٍ بن عُمَرَ (أو عَمْرٍو)، وهُو أوّلُ المؤرخين الإباضيّين الذين نَعْرِفُهم في المغرب. بَلَغَ أشُدَّه بينَ سَنَةِ ٢٤٠ و ٢٦٠ (٨٥٤ - ٨٧٣ م) وكان كتابُه في التاريخ يتعلّق بانتشار الإسلام في جبل نفوّسة (جَنوبيّ غربي ليبيا) بالإضافة إلى تراجمِ نَفَرٍ من أئمة الإباضيّة الأوّلين كأبي الخَطّاب عبدِ الأعلى (بُويعَ سَنَةَ ١٤٠) وأبي حاتمٍ يعقوبَ بنِ حبيبٍ (١٥٤ - ١٥٥ هـ) وبالإضافة إلى شيءٍ من صلةِ الإباضية في تيهرت (في الجزائر اليوم) بإخوانِهم في المشرق. وكان ابنُ سَلاَمٍ من كبار الإباضية في القُطر التونسيّ (دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٩٢٧).

والمؤرّخُ الثاني هو ابنُ الصغير مؤلّفُ تاريخٍ يتناولُ حياةَ الأئمّةِ الرُستَميّين في تاهرت (وتلفظ أيضاً تيهرت وتيارت) نَقَلَ منه أبو القاسم بنُ إبراهيمَ البرّادي (ت بعدَ ٨١٠) وأحمدُ بنُ سعيدٍ الشمّاخي في كتابه «النيِّر» (ت ٩٢٨). وكتابه في الأكثر

---

(١) طبقات علماء إفريقية وتونس ١٠٧ - ١١١، ١٧٣؛ مجمل تاريخ الأدب التونسي لحسن حسني عبد الوهّاب ٣٧ - ٣٨؛ الأعلام للزركلي ٤: ٢٥٢.

مجموعُ روايات أكثرَ منه تاريخاً سياسيًّا متّصلاً. ولعلّ ابنَ الصغير قد بَقِيَ على فيدِ الحياة إلى سَنَةِ ٣١٠ (٩٢٢ م) أو إلى ما بعدَ ذلك بقليل.

وفي هذا القرنِ نَجِدُ الأدباءَ الذين وُلدوا في الأندلس والمَغْربِ ونشأوا فيهما وظلّت معظمُ خصائصِ أدبهم مشرقيّةً، من هؤلاء بنو أمية في الأندلس وكان من هؤلاءِ جميعاً: الأميرُ عبدُ الرحمنِ الأوسطُ وابنُه الأمير محمّدٌ وحفيدُه الأمير عبدُ الله (ت ٣٠٠ هـ) ثمّ يعقوبُ بنُ الأميرِ عبدِ الرحمنِ الأوسطِ ومُطَرِّفُ بنُ الأمير محمّدٍ. وفي صفّ هؤلاء كلِّهم نَجِدُ في المغربِ نفراً من الأدارسة ومن الأغالبة ونفراً من أهل المغرب كُسليمانَ بنِ وانسوسَ المِكْناسيّ.

في هذا القرنِ نشأ نفرٌ من الذين يستحقّون لَقَبَ شاعرٍ. وَمَعَ أنّ خصائص هؤلاء الشعراءِ كانت لا تزال في الأكثر مشرقيةً، تجري في نِطاقِ الشعر الجاهليّ أو الشعر الأُموي أو الشعر العبّاسيّ، فإنّ نفراً منهم قد خرج عن نِطاقِ التقليد وعن شعر الحماسة إلى فنونٍ منها الرثاء والوصف والغزل والخمر.

وإذا كان بعضُ الشعرِ في الأندلسِ قد فارقَ عدداً من خصائصهِ المَشْرقيةِ، فإنّ النثرَ ظلّ أبداً مشرقيًّا، فإنّنا لم نرَ في النثر أجمعَ - في الخطابة والترسُّل والتأليف - ما رأيناه في الشعرِ كنشأةِ المُوشَّح مثلاً. ثمّ إنّ الشعرَ عند عدّه فَنًّا وُجدانيًّا شخصياً أكثرَ من النثر في العادةِ - قد تأثّر بالبيئةِ الطبيعيّة والبيئة الاجتماعية في الأندلس إلى حدٍّ بعيد. أمّا النثرُ فلم يَجْرِ عليه مثلُ ذلك، إلاّ إذا نظرنا إلى عددٍ من الألفاظ والتراكيب التي جدّتْ على لسانِ أهلِ الأندلس. غيرَ أنّ مثلَ هذه الألفاظ والتراكيب تجدُّ في البيئةِ الواحدة في العصور المختلفة فلا دَخْلَ كبيراً لها هنا في خصائص اللغة والأسلوب.

كان هشامُ بنُ عبد الرحمن الداخل (١٣٩ - ١٨٠ هـ) أولَ الأمراءِ الذين وُلِدوا في الأندلس. أرادَ رجُلٌ يوماً أن يُغْرِيَه بشِراء ضَيَعةٍ تُباع في دَيْنٍ، فقال له هشامٌ (قبلَ أن يتولّى الخِلافة):

«أنا أريدُ أمراً (الخلافة) إنْ بُلِّغْتُه غَنيتُ عنها، وإن قُطِعَ بي دونَه خَسِرْتُها.

ولاَصْطناعُ رجُلٍ أحبُّ إليّ مِنَ اكتسابِ ضَيْعةٍ.... »(الحلّة السيراء ١ : ٤٢ - ٤٣):

البَـذْلُ - لا الجَمْعُ - فِطرةُ الكَرَم؛ فلا تُرِدْ بِيَ ما لم تُرِدْ شِيَمي.
مُلْــكُ الوَرى والعِبــادِ قاطبــةً - لا مُلْكُ بعضِ الضِياع - مِنْ هِمَمي! »

هذا النثرُ وهذا الشعرُ مشرقيّانِ في خصائصِها.

وكان أبو القاسمِ المُطرِّفُ بنُ الأميرِ محمّدِ بنِ عبدِ الرحمنِ شاعراً مُجيداً وبارعاً في الغناء، وهو أشعرُ أولادِ الأميرِ محمّدٍ، تُوُفِّيَ في إمارةِ أبيه (٢٣٨ - ٢٧٣)، وله من العُمُرِ اربعٌ وعشرون سنةً. وفي شعره (الحلة السيراء ١ : ١٢٨ - ١٣٠) جِدٌّ وهَزْل. فمِنْ شِعرهِ يرثي أخاه عبدَ الرحمن:

أخٌ كان؛إنْ لم يُمْرِعِ الناسُ أصبحـتْ مواهِبُـهُ للنـاسِ وهي مرابعُ[1].
كثيرٌ عليكَ الحُزْنُ من كلّ جانبٍ كما كَثُرَتْ من راحتَيْكَ الصنائـع[2].
عليـك سلامُ اللهِ، إنّ الندى له زَوالٌ وإنّ السَعْيَ بعدَك ضائـع[3].

وقال في الشَيْب:

إنّ شيبـــاً وصَبوةً لَمُحـــالُ، قـد أنى أن يكونَ عنها زوالُ[4].
رَكِـبَ الشيـبُ لِمّتي خَلَل الشّعـ ـرِ لوقـتٍ حالـتْ به الأحوال[5].
فَزَعِ النفسَ عن مُزاحٍ ولَهوٍ. تلك حالٌ مضتْ وجاءت حـــال[6].

---

(١) إذا لم تكن الأرض خصبة (في عام ما) وهب الناس من الأموال ما يجعل حياتهم كلّها ربيعاً.

(٢) كثر حزن الناس عليه بمقدار كثرة الصنائع (أوجه المعروف والكرم) على الناس.

(٣) بعدك لن يكون ندى (كرم) ولن يبقى فائدة من السعي (قصد الكرماء للعطاء: لأنّه لن يبقى بعدك كرماء مثلك).

(٤) وصبوة - مع صبوة (حبّ، ميل إلى اللهو). أنى: قرب، حان، وجب. عنها (عن الصبوة). زوال: (هنا) ترك (للصبوة).

(٥) ركب الشيب لِمّتي (كثر في [illegible] ـة رأسي) وتسرّب خلال (بين) سائر شعري. لوقت حالت به الأحوال: في وقت تبدّلت أحوال (من قوّة إلى ضعف، الخ).

(٦) زع فعل أمر من وزع يزع (بمعنى نهى، زجر، منع) - يقول حسين مؤنس (محقّق كتاب الحلّة السيراء ومعلّق حواشيه) أنّ هذا البيت يبدأ في الأصل (في المخطوط) بكلمة «فزع» فاختار هو أن يبدّلها ويجعلها «فدع». ولا ريب في أنّه يدرك أن «فزع» (الفاء حرف عطف، و «زعْ» فعل أمر من وزع يزع) بمعنى فازجر (النفس عن...).

وقال في الخمر واللهو:

أشْهى من الكأسِ حاملُ الكاسِ ... أرعـاهُ ما طـافَ حَوْلَ جُلاّسي.
يَنْقُــلُ من أجلــهِ الجليسُ ولو ... كـان من النُسْك آمنَ النـاس[1]!

ومِنْ أُمرائهم المتوارثين الشعراءِ أيضاً محمّدُ بنُ عبدِ الرحمن تولّى الإمارةَ أربعاً وثلاثين سَنَةً (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ)، وتمتزجُ الحماسةُ في شِعره بالغزل. من ذلك قولُه (الحلّة السيراء ١ : ١١٩ - ١٢٠):

قَفَلْتُ وأغْمَدتُ السيوفَ عن الحربِ، ... ومَا أُغْمِدَتْ عنّي السيوفُ من الحُـبِّ[2]
أقُرطُبــةٌ، هــل لي إليــكِ وِفـادةٌ ... تَقَرُّ بعَيْني أو تُمَهِّدُ من جَنْـبي[3]؟
عَــداني عَـدُوٌّ عن حبيـبٍ فزُرْتُـه ... بجيشٍ تَضيقُ الأرضُ عن عَرْضِهِ الرَحْـبِ[4].
إذا اسْوَدَّ من ليلِ الـدُروع تَبَلَّجَتْ ... أسِنَّتُه فيه عن الأنجُمِ الشُهْـبِ[5].

وله في الخَمْر (الحِلّة السيراء ١ : ١٢٠):

ذكر الصَبوحَ فظــلّ مُصْطَبِحــاً ... يستعمــلُ الإبريــقَ والقَدَحــا[6].
مــا زال حَيّــا وهْو يَشْرَبُهــا ... حتّــى أماتَتــهُ الكؤوس ضُحــى.

في النقد والتقليد:

إنّ الأحوالَ الاجتماعيةَ والخصائصَ الأدبيّة لا تستقِرُّ في الأعصر فَجأةً، بل على

---

(١) ينقل في نظري كلّ حاضر معنا، ولو كان ناسكاً شديد النسك، لأنّني أغار على هذا الساقي الجميل من كلّ إنسان.
(٢) قفلت: رجعت (من الحرب منصوراً) وهادنت العدوّ، ولكّن الحبّ لم يهادنّي (لم يغمد سيوفه عنّي).
(٣) تقرّ بعيني: تقرّ بها عيني (أصبح مسروراً). تمهّد من جنبي (تمهّد الأرض لجنبي) تجعلني مستريحاً.
(٤) كنت مسروراً مع حبيبي فاعتدى عليّ عدوّ فتركت حبيبي لأقوم بغزوة على العدوّ كبيرة تضيق عنها الأرض.
(٥) إذا ظهر هذا الجيش وكأنّه قطعة سوداء كالليل (لكثرة ما فيه من الدروع، من الجنود) ظهرت فيه رؤوس الرماح (لكثرتها) كالأنجم الشهب (النجوم البيضاء) فأصبح كالنهار.
(٦) الصبوح: شرب الخمر صباحاً. وكان مسروراً بشرب الخمر، فلمّا استمرّ شربه إلى الضحى (بعد أن تعلو الشمس فوق الأفق الشرقي) مات (غاب عن الوعي).

التدريجِ قليلاً قليلاً وشيئاً بعدَ شيءٍ. ثمّ يحسُنُ أن نُلاحظَ أنّ أحوالَ الاجتماعِ وخصائصَ الأدبِ لا تغيبُ، عندَ الانتقالِ من عصرٍ إلى عصرٍ، مرّةً واحدةً، بل تبقى منها بَقايا راسبةٌ في المجتمعِ وباديةٌ إلى جانبِ الأحوالِ والخصائصِ الجديدة. ويجوزُ لنا أن نقولَ: إنّ في كلِّ عصرٍ رواسبَ من جميعِ العصورِ التي سَبَقَتْهُ مُفرّقةً في نواحيهِ المُختلفةِ.

ليسَ في ما لَدَيْنا من النِتاجِ الأدبي في عصرِ الأمراءِ المتوارثين ما يدُلُّ على حركةٍ للنقد، ولكن لَعلّنا نَجِدُ رأياً هنا ورأياً هناك، كما قالَ عبدُ الملكِ بنُ حبيبٍ السُلمي (ت ٢٣٨، راجع ترجمته):

والشِعْرُ لا يَسلَسُ إلاّ عـــــلى   فراغِ قلـــبٍ واتّساعِ الخُلُــقْ!

ومن وجوه النقدِ «المقياس» الذي نقيسُ بهِ الشعرَ الجيّدَ والشعرَ غيرَ الجيّدِ. إنّه الإعجابُ أوّلُ أُسُسِ النقدِ الفِطْريّ، في مقابلِ النقدِ العِلمي الذي هو منهجٌ ذو قواعدَ قائمة على الأسبابِ والنتائج بعدَ النظرِ في القِطعة المعروضة للنقد. في النقدِ الفِطْريِّ (في الاجتماع وفي الأدب) نُعْجَبُ بالرجلِ فنُحِبُّ كلَّ شيءٍ يصدُرُ منه. أمّا في النقد العِلمي فإنّنا ننظُرُ إلى القِطعة بقَطْعِ النَظَرِ عن صاحِبِها. وقد نَنْقُدُ قطعتَيْنِ لأديبٍ واحدٍ، فتَثْبُتُ إحداهما على النَقْد وتسقُطُ الثانيةُ منها عندَ النظر.

والمُعارضةُ (تقليدُ الشاعرِ لشاعرٍ آخَرَ) وجهٌ من وُجوهِ النقد الفِطْري. أليس هو مَظهراً من مظاهرِ الإعجابِ والحُكْمِ لشاعرٍ بأنّه أحسن؟

نَجِدُ لِيَحْيى بنِ حَكَمٍ الغَزالِ (ت ٢٥٠) قصيدةً في الخمر عارضَ بها أبا نواسٍ مُعارضةً قريبةً جِدّاً، قيل إنّها خَدَعَتْ أدباءَ بغدادَ (راجع نفح الطيب ٢: ٢٦٠ - ٢٦١). مِنْ هذهِ القصيدةِ ليحيى الغزالِ:

فلمّـــا أتَيْــتُ الحـانَ نادَيْــتُ ربَّــه   فثارَ خفيفَ الروحِ نحوَ ندائي[1].

---

(١) الحان: الحانة (دكّان لبيع الخمر).

قليـــلُ هجوع العـــين إلاّ تَعِلّـــةً على وَجَلٍ منّي ومن نُظرائي[1].
فقُلْـتُ: «أذِقْنيهـا». فلمّـا أذاقها طرحـــتُ إليـه رَيْطـتي ورِدائي[2].
وقلتُ: «أعِرْني بِذْلةً أَسْتَتِرْ بها» بَذَلْتُ له فيها طلاقَ نسائي[3].

إنّنا لا نُخطىءُ في هذه الأبياتِ نَفَسَ أبي نواسٍ (ت ١٩٩ هـ) ولا ألفاظَه وتراكيبه. فمن مديحِ أبي نواسٍ لهرونَ الرشيدِ قصيدةٌ فيها شيءٌ من الخمر منه:

....إلى بيـتِ حـانٍ لا. تَهرُّ كِلابُـه عـــليّ ولا يُنْكِرْنَ طولَ ثَوائي[4].
فـإنْ تَكُنِ الصَهْبـاءُ أوْدَتْ بتالـدي فلم تُوقِني أُكرومتي وحَيائي[5].
فما رِمْتُـه حتّى أتى دونَ ما حَوَتْ يميني حتّى رَيْطتي وحِذائي[6]!

لمّا أُخْرِجَ الوزيرُ هاشمُ بنُ عبدِ العزيز من سِجنه لِيُساقَ إلى القتلِ (٢٧٣ هـ) كَتَبَ إلى جاريةٍ له اسمُها عاجُ يقول (الحلة السيراء ١: ١٤٠ - ١٤١):

وإنّي عـــداني أن أزورك مُطْبِــقٌ وبـابٌ مَنيـعٌ بالحديـد مُضَبَّـبُ[7].
وفي النفس أشياءٌ أَبيتُ بغمّها كأنّي عـلى جمر الغَضـا أتقلّـبُ[8].
وكم قائلٍ قال: انْجُ، ويحَك سالمًا ففي الأرض عنهم مُستَرادٌ ومذهـبُ
فقلتُ له: إنّ الفرارَ مَذَلّةٌ ونفسي على الأسواءِ أحْلى وأطيبُ[9].

---

(١) التعلة: (الشيء القليل)، ما يحاول الإنسان أن يكتفي به. الوجل: الخوف. النظراء: الأكفاء، المتساوون في المرتبة. (صاحب الحانة يكون غير مسلم. من أجل ذلك يخاف من المسلمين الآتين إليه لئلا يكونوا من رجال الشرطة المتخفّين).

(٢) الريطة: رداء من قطعة واحدة (من نسج ليّن نفيس غال (دفع ذلك ثمناً للخمر).

(٣) - أقسمت يميناً أن أطلّق امرأتي إذا لم أردّ له تلك البذلة.

(٤) هرّ الكلب: نبح وكشّر عن أنيابه. الثواء: المكث والبقاء.

(٥) أودت به الأحداث: أهلكته. التالد: المال القديم (الموروث). وقاه الأمر: منعه إياه أو دفع الأمر عنه، حماه.

(٦) رمت (بكسر الراء) أريم: تركت (غادرت المكان). أتى دون ما حوت يميني: أخذ منّي كلّ ما كنت أملك.

(٧) عداني: شغلني، منعني. مطبق: السجن تحت الأرض. مضبّب: مقفل بضبّة (بفتح الضاد: حديدة عريضة يشدّ بها الباب إلى الجدار).

(٨) الغضا: شجر شديد الاشتعال والحرارة.

(٩) الأسواء جمع سوء (شرّ).

سأرضي بحُكْمِ الله في ما ينوبُني؛ وما من قضاء الله للمرءِ مهرب[1].

ففي هذه الأبيات نفسٌ جاهليٌ عليه أثرُ النابغة.

وأحسنُ من أبياتِ هاشمِ بنِ عبدِ العزيز أبياتُ سوّارِ بنِ حَمْدونٍ القيسي: (ت٢٧٧) قال (الحلة السيراء ١: ١٥٠):

ولّما رأوْنا راجعين إلَيْهِمُ تَوَلَّوْا سِراعاً خوفَ وَقْعِ المناصلِ[2].

لقد سَلّ سوّارٌ عليكم مُهَنَّداً يَجُذُّ به الهاماتِ جَذَّ المفاصل[3].

به قتل اللهُ الذين تحزّبوا علينا وكانوا أهلَ إفْكٍ وباطل.

ولكنّ النفس لا يزال جاهليّاً برُغْم الألفاظِ الإسلامية.

زرياب: الغناء

في سَنَةِ ٢٠٧ (٨٢٢ م)، في الأغلب، في مَطْلعِ عهدِ عبدِ الرحمنِ الأوسطِ (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) ٱنتقلَ زِرْيابُ من بَغدادَ إلى قُرطُبَةَ.

كان زِرْيابُ، وهو أبو الحسن عليُّ بنُ نافعٍ[4]، تلميذَ إسحاقَ الموصليِّ (ت ٢٣٥)، مغنِّياً نابغاً وضارباً على العود قديراً، وَقَعَتْ وَحْشةٌ بينَه وبينَ أستاذِه إسحاقَ في خبرٍ طويلٍ (راجع نفح الطيب ٣: ١٢٢ وما بعد) فغادَرَ بَغْدادَ إلى الأندلس. وحَظِيَ زِريابُ عند الأميرِ عبدِ الرحمنِ الأوسطِ حَظْوةً عظيمةً وعَلَتْ مكانَتُهُ في المجتمعِ الأندلسيّ وقلّدَهُ الناسُ في كثيرٍ من نَمَطِ حياتِه.

وفي الأندلسِ زادَ زِريابُ أوتارَ عودِهِ وَتَراً خامساً وسَطاً (في المكانِ وفي القوّة) وسمّاه الأوسطَ وجعلَه في وَسَطِ الأوتار الأربعةِ تحتَ المَثْلَثِ وفوق المَثْنى، واتّخذَ

(١) ناب: أصاب.

(٢) المناصل جمع منصل (بضم الميم والصاد): السيف.

(٣) جذّ: قطع. الهامة: الرأس.

(٤) زرياب، تأليف محمود أحمد الحفني (في أعلام العرب، رقم ٥٤)، القاهرة (الدار المصرية للتأليف والترجمة) بلا تاريخ؛ نفح الطيب ٣: ١٢٢ - ١٣٥؛ الأعلام للزركلي ٥: ١٨٠ - ١٨١ (فيه شيء من التحقيق). مجلة «العربي» (الكويت) ٤ ٦٢١ ص ١٠٢.

مِضرابَ العود (الريشةَ التي يُعْزَفُ بها) من الريشِ الكِبار في جَناحِ النسر، بَدَلَ قِطعةِ الخشب المُرْهَفة (المُرقّقة)، لأنّ قطعة الخشب المُرهفة تتشعّثُ فتُحْدِثُ عند الضرب عدداً من النَقَراتِ في وقتٍ واحدٍ.

وكانت وفاةُ زِريابَ في الثاني والعِشرين من صَفَرَ من سَنَةِ ٢٣٨ (١٣/ ٨ /٨٥٢ م) - قبلَ وفاةِ عبدِ الرحمنِ الأوسطِ بأربعينَ يوماً. وقد كانتْ مُدّةُ زِريابَ في الأندلس قريبةً جِدّاً من مُدّةِ عبدِ الرحمنِ الأوسط على عَرْشِ الأندلس. وخَلّفَ زِريابُ ثمانيةَ أبناءٍ وبِنْتَيْنِ يَعْرِفون الغِناء. وكان أبرعَ أبنائهِ في ذلك قاسمٌ. وكانتْ حَمدونةُ أبرعَ أولادِ زِريابَ في الغِناء، ولكنّ عُلَيَّةَ عاشَت طويلاً بعدَ حمدونةَ فأخذَ الناسُ عنها من الغناء أكثرَ ممّا أخذوا عن أُختها وإخوتها.

ولقد كان للغناءِ في الأندلس تأثيرٌ كبيرٌ سنراه عند الكلام على نَشْأة فنّ التوشيح.

عبد الرحمن الداخل

١ - هو أبو المُطَرِّف عبدُ الرحمن بنُ مُعاويَةَ بنِ هشامِ بنِ عبدِ الملك بن مروانَ، وأمُّه بربرية من سَبْيِ المغرب تُسَمّى راحَ أو رَداحَ. وكان مولدُ عبدِ الرحمن في قريةٍ تُدعى دير حَسَنة قُرْبَ دِمَشْقَ، سَنَةَ ١١٣ (٧٣١ م)؛ وقد تُوُفِّيَ أبوه وتركه صغيراً.

اَستطاعَ عبدُ الرحمنِ الداخلُ أن يدخُلَ الأندلسَ ويُعيدَ فيها مُلْكَ بني أميّةَ الذي سَقَط في المَشْرق فبويع له بالإمارة في قُرطُبَةَ يومَ الأضحى من سَنَةِ ١٣٨ (الجُمُعة عاشرَ ذي الحِجّة = ١٣ /٥ /٧٥٦ م). وكانتْ وفاتُه في عاشرِ جُمادى الآخرة من سَنَةِ ١٧٢ (١٥ /١١ /٧٨٨ م) - راجع أحداث حياته السياسية، فوق، ص ٥٤.

٢ - كان عبدُ الرحمن الداخلُ عُمرانيًّا جليلاً ومُهَنْدِساً بارعاً فهُوَ مُصَمِّمُ جامعِ قرطبةَ الشهيرِ رتّب أعْمِدَتَهُ الكثيرةَ على شكلٍ يُمَكِّنُ كلَّ مُصَلٍّ من أن يرى الإمامَ. وقد كانَ قَلْبُ الجامعِ يبدو وكأنّه غابةٌ من النخيل.

لعبدِ الرحمن الداخلِ شِعْرٌ كثير مشهور (البيان المغرب ٢ : ٦٠)، ولكن الذي

وصل إلينا منه قليل جدًّا. وشعره الباقي لنا في الحنين إلى أرض المشرق وفي الحماسة والوصفِ؛ وهو شِعرٌ وُجداني. وله أيضاً رَجَزٌ (راجع «أخبار مجموعة»، ص ١١٧ - ١١٨).

٣ - مختارات من شعره

- لمّا نزل الأمير عبدَ الرحمن بمُنْيَةِ الرُصافة (بقرطبة) نظر إلى نخلة فهاجت شَجَنَهُ (حزنه) وتذكّر وطنه فقال:

تبـدَّتْ لنـا وَسْطَ الرُّصافـة نخلـةٌ — تناءتْ بأرض الغرب عن بلد النخلِ[١].
فقلـتُ: شبيهي في التغرُّب والنَّوى — وطولِ التنائي عن بَنِيّ وعن أهلي.
نشأتِ بـأرضٍ أنـتِ فيها غريبـةٌ؛ — فمثلُكِ في الإقصاء والمنتأى مثلي.
سَقَتْكِ غوادي المُزْنِ في المنتأى الذي — يسُحُّ، ويستَمْري السِماكَيْنِ بالوَبْل[٢].

- وقال أيضاً في وصف هذه النخلة:

يـا نخـلُ، أنـتِ فريدةٌ مثلي — في الأرض نائيةٌ عن الأَهلِ[٣].
تبكي، وهـلْ تبكي مُكمَّمَـةٌ — عجماءُ لم تُجبَلْ على جَبْلي[٤]؟
ولَوَ انَّهـا عقلَـتْ إذاً لَبكَـتْ — ماءَ الفُراتِ ومَنبِتَ النخـل[٥].
لكنَّهـا حَرُمَـتْ، وأخرجـني — بُغْضي بني العبـاس عن أهلي[٦].

---

(١) الرصافة = رصافة (مرفأ للسفن على النهر) قرطبة. تناءت: بعدت.

(٢) غوادي: غيوم تأتي في الصباح. المزن: المطر. المنتأى: المكان البعيد. سحّ المطر: تساقط بكثرة واستمرار. يستمري: يستحلب (يسبّب خروج اللبن من ضرع الناقة أو البقرة)= يسبّب سقوط المطر. السماكين: نجمان في السماء. الوبل: المطر الشديد. يستمري السماكين: (كناية عن الإتيان بمطر كثير).

(٣) فريدة: مفردة، موجودة وحدها.

(٤) كمّت (بالبناء للمجهول) النخلة أخرجت كمامها (بكسر الكاف): العذق (بكسر العين) الذي يكون فيه ثمرها. وكمّت أيضاً: غطّيت (بالبناء للمجهول) حتّى يصبح بلحها تمرا. تبكي (= كأنّها تبكي). عجماء (لا تستطيع الكلام). لم تجبل على جبلي (لم يجعل الله طبيعتها مثل طبيعتي = طبيعة بشريّة).

(٥) لو كاننت تعقل (لو كانت من البشر)... ماء (نهر الفرات) ومنبت النخل (بلاد الشام).

(٦) حرمت بلاد الشام عليّ فتركتها.

٤- صقر قريش، تأليف علي أدهم، القاهرة (مطبعة المقتطف والمقطّم) ١٩٣٨ م.

- صقر قريش، تأليف عبد الرحمن كحيلة (أعلام العرب ٧٦)، القاهرة (دار الكاتب العربي للطباعة والنشر) ١٩٦٨ م.

** أخبار مجموعة ٤٦ - ١٢٠؛ ابن الفرضي ١١؛ جذوة المقتبس ٩-١٠؛ (الدار المصرية) ٨ - ١٠؛ بغية الملتمس ٦٥؛ الحلّة السيراء ١: ٣٥ - ٤٢؛ نفح الطيب ١: ٢٨٢ - ٢٨٣، ٣٣٢ - ٣٣٤، ٥٤٥ - ٥٤٦، ٥٥٨ - ٥٦٣ (جامع قرطبة)، ٣: ٢٧ - ٥٥، ٥٨ - ٦٠؛ البيان المغرب ٢: ٤٤ - ٦٠؛ وسوى ذلك من كتب التاريخ العامّة؛ نيكل ١٧ - ١٩؛ دائرة المعارف الإسلامية ١: ٨١ - ٨٢؛ الأعلام للزركلي ٤: ١١٣ - ١١٤ (٣: ٣٣٨).

خُريشٌ الكِنْديّ

١ - هو خُريشُ بنُ عبدِ الرحمن بنِ خريشٍ الكِنْديُّ، وهُوَ من العَرَبِ (البَدْوِ) الذين ٱنتقلوا إلى إفريقِيَةَ (تونس) قبلَ أن يأتِيَ إليها المُسَوِّدةُ (دُعاةُ بني العبّاس). وخَلَعَ خُريشٌ طاعةَ بني العبّاس وٱلْتَفّتْ حولَه جموعٌ من العَرَبِ والبَرْبر فحدّثتْهُ نفسُه بالثورة على إبراهيمَ بنِ الأغلبِ والي تونسَ من قِبَلِ هرونَ الرشيدِ. فبَعَثَ إبراهيمُ بنُ الأغلبِ إليه عِمرانَ بنَ مُجالدٍ فَلَقِيَهُ عِمرانُ في سَبْخَةِ تونسَ وقاتله. فٱنهزَمَ خريشٌ وقُتِلَ هو وجماعاتٌ من أتباعه، وذلك سَنَةَ ١٨٦ (٨٠٢ م).

٢ - لخريشٍ الكِنْديِّ شعرٌ ونثرٌ يَجْريان على الخصائص المشرقية.

٣ - مختارات من آثاره

لمّا خَلَعَ خُريشٌ طاعةَ بني العبّاس وثار على إبراهيمَ بنِ الأغلبِ كَتَبَ إلى إبراهيمَ ابن الأغلب:

أمّا بعدُ، فإنّي أقَمْتُ عن الخروجِ قبلَ يومي هذا[1] لأنّي كنتُ أنتظرُ أن تُفْنيَكُمُ الحرب[2]. فلَعَمْري، لقد أرانا الله فيكم ما قوّى به أهلَ دعوةِ الحقّ

(١) أقمت عن الخروج...: تركت القيام بثورة قبل اليوم.
(٢) أن تفنيكم الحرب (بالقتال بين العصبيات، بقتال بعضكم بعضاً).

عليكم[١]. فلمّا وُلِّيتَ أنتَ وعَلِمْتَ أنهم مقسومون بينَ خوفٍ منك ورجاء لك عرفتَ قلّةَ طَمَعِهم فيك[٢]. ولو كان أحدٌ مِمّنْ وَلِيَ هذا الثَغْرَ - ممّن لا نرى طاعتَه - يستحقُّ أن نرضى بولايته لكُنْتَ أنتَ..... ولستُ أطلُبُك[٣] إنْ خرجتَ عن الثغر، فلا تُرِدْ أن تَصْلَى[٤] بحربي؛ ولْيَكُنْ رأيُك طلَبَ سلمي. والسلام.

فارجعْ عنِ الغرب أو ألْقِ السلامَ به ... لا تَخْتَرِمْكَ المنايا حين تَلْقانا[٥].
وسوف تعلمُ أنّ الموتَ يسمع لي ... إذا الْتَقَتْ بنَواحي الفَحْص خَيْلانا[٦].

٤ - ★ ★ الحلّة السيراء ١: ١٠١ - ١٠٤.

محمّد بن بشير المعافري

١ - هُوَ محمّدُ بنُ سعيدِ بنِ بشيرِ بن شُراحيلَ المُعافريُّ أصلُ أهلِهِ من عَرَبِ مِصْرَ الذين جاءوا إلى الأندلس مَعَ بلْجِ بن بِشْرٍ ونزلوا في تُدْمير. وقدِ آنتقل سلفه إلى باجة (جَنوبَ غربيّ الأندلس).

تلقّى محمّدُ بنُ بشيرٍ العلمَ في قُرْطُبَةَ. ثمّ رَحَلَ فَسَمِعَ شيئاً من العلم في مِصرَ. وحجّ ولَقِيَ مالك بن أنسٍ فقيه المدينةِ وسمع منه. ثمّ إنّه عاد إلى بلده باجة. ويبدو أنه جاء إلى قرطبةَ بعد ذلك وأصبح كاتباً للقاضي المُصْعَبِ بنِ عِمرانَ، ثمّ عاد إلى باجة بعد وفاة المصعب.

وآستدعى الأميرُ الحَكمُ بنُ هشامٍ (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) محمّدَ بنَ بشيرٍ وعرض عليه القضاء فأبى في أول الأمر ثمّ عاد فقبل وتولّى الصلاة والقضاء. ثمّ إنّ الحكم عزل

---

(١) أهل دعوة الحقّ: بنو عليّ من (الأدارسة؟).
(٢) عرفت قلّة طمعهم فيك: ضعف أملهم بمحاربتك والتغلّب عليك.
(٣) ولست أطلبك: لا أتقدم وأبدأ بقتالك.
(٤) تصلى بحربي: تذوق طعم حربي (وهزيمتك).
(٥) اخترمته المنيّة (الموت): مات باكراً (شابًّا).
(٦) الفحص: كلّ موضع يُسكن (في منخفض من الأرض؟). وفي المغرب والأندلس عدد من الأماكن تعرف باسم الفحص، نحو فحص البلّوط، الخ. خيلانا: خيلي (فرساني، جنودي) وخيلك.

محمد بن بشير، ولكن ردّه بعدَ مدّة وجيزة إلى مَنْصِبه.

وكانت وفاةُ محمّدِ بنِ بشيرٍ سَنَةَ ١٩٨ (٨١٣ - ٨١٤ م) في قرطبة.

٢ - كان محمّدُ بنُ بشيرٍ من القُضاة المتشدّدين في الحقّ حتّى أنّه ردّ شهادة الأمير الحكم بن هشام، كما كان قليلَ الاهتمامِ بأحوالِ الدنيا ثمّ لم يكن يبالي بمن يمدَحُه ولا بِمنْ يذمّه. وكان أديباً له أبياتٌ فيها شيءٌ من الشَكوى والنُكْتة.

٣ - مختارات من شعره.

إنما * أزرى بقَدْري أنّني ... لَسْتُ من بابَةِ هذا البلدِ[1].

ليس منهم غَيْرُ ذي مَقْلِيَةٍ ... لذوي الألباب أو ذي حسد[2].

يَتَحامَوْنَ لِقائي مِثْلَما ... يتحامَوْنَ لِقاءَ الأسد.

مَطْلَعي أثقَلُ، في أعْيُنِهِم ... وعلى أنْفُسِهِمْ، من أُحُد[3].

لَوْ رَأَوْني وَسْطَ بحرٍ لم يكن ... أحَدٌ يأخُذُ منهم بِيَدي[4].

** بغية الملتمس ٥١ - ٥٣ (رقم ٦٩) قضاة الأندلس ٣٧ - ٥٣؛ المغرب ١: ١٤٤ - ١٤٥؛ التكملة ١: ٩٠؛ نفح الطيب ٢: ١٤٣ - ١٤٩؛ الأعلام للزركلي ٦: ٢٧٧ (٥٢).

جودي بن عثمان

جودي بنُ عُثمانَ العبسيّ الموروريّ، من مُولّدي الأندلسِ، وُلِدَ في طُلَيطلة ثمّ سكن مَوْرُورَ، وكان مولًى لآل طَلحةَ العبسيّين.

ذَهَبَ جودي إلى غَرناطةَ فدَرَسَ النحوَ ثمّ رَحَلَ إلى المشرق فَلَقِيَ الكِسائيَّ (ت ١٨٨) والرُؤاسيّ (ت ١٩٠) والفرّاء (ت ٢٠٧) وغيرَهم. وهو أوّلُ من أدخلَ كتابَ

(*) تروى لمؤمن بن سعيد (ت ٢٦٧ هـ - راجع تحت ص ١٢٣).
(١) أزرى: عاب (انحطّ بقدري، خفض منزلتي). بابة: نوع، صنف، مستوى (أنا أعلى منهم منزلة).
(٢) مقلية: بغض.
(٣) أحد: جبل قرب المدينة.
(٤) ما كان أحد منهم يريد انتشالي (انقاذي).

الكِسائيّ إلى الأندلُسِ فنَقَلَ تعليمَ العربيةِ (النحو) من مذهبِ البَصْريّين إلى مذهب الكوفيّين (راجع الجزء الثاني)، وخصوصاً مذهبَ سِيبويهِ (ت ١٨٠). وكان أهلُ الأندلُس من قبلُ يدرسون اللغةَ والنحو في النصوص من غيرِ أن يكون لهم كُتُبٌ ذاتُ منهجٍ معيّن (مقسّمة أبواباً وموضوعاتٍ). ثمّ إنّ جودي ألّفَ كتاباً في النحو.

وكان جُودي لمّا عاد من المَشْرِقِ قد سكن في قرطبةَ وتصدّر فيها للتعليم، وكان يؤدّبُ أولادَ الأمراء المتوارثين.

وتوفّي جودي بنُ عثمانَ في قرطبةَ سَنَةَ ١٩٨ هـ (٨١٣ – ٨١٤ م).

** الزُبيدي ٢٧٨ – ٢٧٩؛ معجم الأدباء ٧: ٢١٣ – ٢١٤؛ إنباه الرواة ١: ٢٧١ – ٢٧٢؛ بغية الوعاة ٢١٣ – ٢١٤؛ دائرة المعارف الإسلامية (ط ١) ٢: ٥٧٤ – ٥٧٥.

الغازي بن قيس

كان أبو محمّدٍ الغازي بنُ قيسٍ مُولّداً من أهلِ الأندلس. ولمّا دَخَلَ عبدُ الرحمن ابنُ معاويةَ إلى الأندلس (سنة ١٣٨) كان الغازي بنُ قيسٍ يشتغلُ بالتأديب (التعليم) في قرطبة. ثمّ إنّه رَحَلَ إلى المشرق ثمّ عاد إلى الأندلس في أيام عبد الرحمن الداخل (١٣٨ – ١٧٢ هـ).

وأدْرَكَ الغازي بنُ قيسٍ - في رحلته إلى المشرق - الأصمعي (ت ١٥٥) وروى عن الأوزاعي (ت ١٥٧) وشَهِدَ مالكَ بنَ أنسٍ (ت ١٧٩) وهُوَ يُؤلِّفُ الموَطّأَ ورواه عنهُ وحَفِظَهُ وقيل إنّ الغازي بنَ قيسٍ أولُ من أدخلَ كتابَ الموَطّأ إلى الأندلس، كما أدْرك نافعَ بنَ عبدِ الرحمن و(ت ١٦٩) أحدَ القُرّاء السبعة (للقرآن الكريم) وقرأ عليه وأدخل قراءته إلى الأندلس.

ولمّا دخلَ الأميرُ عبدُ الرحمن إلى الأندلس (١٣٨ هـ) وجدَ فيها يحيى بنَ يزيدَ اللَخْميَّ قاضياً فأثبته على القضاء ولم يَعْزِلْهُ إلى أن مات (النباهي ٢١). فيقال إنّ الأميرَ عبدَ الرحمن أراد أن يُعيّن للقضاء الغازيَ بنَ قيسٍ فأبى الغازي فولّى عبدَ الرحمن عندئذ مُعاويةَ بن صالحٍ الحَضْرميّ الحِمْصي (ت ١٦٨).

ثم إنَّ الأميرَ هِشامَ بنَ عبدِ الرحمن (١٧٢ - ١٨٠ هـ) والأميرَ الحكَم بنَ هشامٍ (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) جعَلاه مؤدّباً لأولادِهما.

وكانت وفاةُ الغازي سَنَةَ ١٩٩ (٨١٤ م) وقد أسنّ في الغالب.

** الزبيدي ٢٨٦ - ٢٨٧، ابن الفرضي ١: ٣٨٧ (رقم ١٠١٥)؛ جذوة المقتبس ٣٠٥ (الدار المصرية) ٣٢٤ (رقم ٧٤٨)؛ بغية الملتمس ٣٢٥ (رقم ١٢٧٢)؛ بغية الوعاة ٣٧١؛ الأعلام للزركلي ٥: ٣٠١ (١١٣).

أبو المُخَشّى

١ - هو أبو يحيى عاصمُ بنُ زيدِ بنِ يحيى بن حنظلةَ بن علقمة بن عديّ بن زيدٍ التميميُّ العِباديُّ المعروف بأبي المُخَشّى، دخل أبوه إلى الأندلس معَ جُند الشام، في أواخر سنة ١٢٣ (خريف ٧٤١ م)، ثمّ نزل بقرية شَوْش.

ويبدو أن أبا المُخشّى نفسه قد وُلد في الأندلس فنشّأه أبوه على قول الشعر، فشبّ شاعراً وآنقطع إلى سليمانَ بنِ عبد الرحمنِ بن معاوية، ومدحه مرّة بقصيدة منها:

وليس كمِثْلِ مَنْ إنْ سِيم عُرفاً   يُقَلِّبُ مُقْلةً فيها آزْورارُ!

فغِيظَ هشامُ بن عبد الرحمن من قول أبي المخشى - لأنّه كان أحولَ، كما كانت بينه وبين أخيه سليمانَ وَحْشةٌ - فأمر بأبي المخشى فسُمِلت عيناه. فنظم أبو المخشى قصيدةً جاء بها إلى الأمير عبد الرحمن، فرقّ له عبد الرحمن وأعطاه ألْفَيْ دينارٍ (ضِعفَ دِيَة العينين).

وكانت وفاة أبي المخشى في أيام الأمير الحكَمِ بن هشام (١٨٠ - ٢٠٦ هـ).

٢ - أبو المخشى من فحول الشعراء المتقدّمين في الأندلس مقتدرٌ على قول الشعر، بَدْويّ الأسلوب واضحُ المعنى سهل الألفاظ والتراكيب. كان مدّاحاً كثير الفخر جَسوراً على الأعراض. وقد هاجى شاعراً آسمه آبنُ هُبيرة (المغرب ٢: ١٢٤) وكان هجاءُ كلّ واحدٍ منهما لخصمهِ مُقذِعاً. وهو حسنُ الوصفِ، وقدِ اشتهر بقصيدة طويلة قالها في العمى بعد أن سَمَلَ هشامٌ عينيه. وله رَجَزٌ أيضاً.

٣ - مختارات من شعره

مطلع القصيدة التي قالها أبو المُخشّى في العمى:

خضعَــتْ أُمُّ بنــاتي لِلعــدَى	أَن قضى الله قضــاءً فمضى.
ورأَتْ أَعمَــى ضريراً إنمــا	مشيُهُ في ٱلأَرْض لَمْسٌ بالعصا.
فٱستكانَــتْ ثم قالــت قَوْلــةً،	وَهْيَ حَرّى، بلغَتْ منّي المَدَى[(١)].
ففؤادي قَرِحٌ من قَوْلهــا:	ما مِن الأَدواءِ داءٌ كالعَمَى[(٢)].
وإذا نــال العمــى ذا بَصَرٍ	كان حيّاً مثلَ مَيْتٍ قد ثَوى[(٣)].
وكــأَنّ الناعمَ المسرورَ لم	يَكُ مسروراً إذا لاَح الرَدى[(٤)].

- وقال في مقاساة الهموم:

وهَمٌّ ضافــني في جَوْف يَمٍّ	كِلا مَوْجَيْها عِنــدي كبيرُ[(٥)].
فبِتْنــا والقلوبُ مُعلّقــاتٌ	وأجْنِحةُ الرياحِ بنا تَطيرُ[(٦)].

٤ - ★ ★ ★ جذوة المقتبس ٣٧٧ (الدار المصرية) ٤٠١ - ٤٠٢ (رقم ٩٥٢ أو ٩٥٣)؛ بغية الملتمس ٥١٣ (رقم ١٥٤٣)؛ المغرب ٢: ١٢٣ - ١٢٤؛ الذيل والتكملة ٥: ١٠٢ - ١٠٣؛ نفح الطيب ٤: ١٦٧؛ نيكل ١٩.

الحكم الربضيّ

١ - هو أبو العاصِ الحَكَمُ الرَبَضيُّ بنُ هشامِ الرَضِيِّ بنِ عبدِ الرحمنِ

(١) استكان: خضع وذلّ. حرّى: شديدة الحرّ (من الحزن). قولة بلغت منّي المدى: أثّرت فيّ (أحزنتني كثيراً). المدى: الغاية.

(٢) قرح = مقروح (فيه قرحة بالضمّ) مجروح.

(٣) ثوى: مكث في الأرض، هلك.

(٤) الردى: الموت.

(٥) ضافني: نزل عندي ضيفاً. يم: بحر (من الهموم). كلا موجيها: موج اليم (البحر) وموج بحر الهموم (يبدو أن الشاعر كان يخاف ركوب البحر).

(٦) بتنا: قضينا الليل (في بحر الماء). القلوب معلّقات (مضطربات) بين الخوف والاطمئنان.

الداخلِ - وأُمّه أُمّ وَلدٍ آسمُها زُخرفُ- وُلِدَ سَنَةَ ١٥٤ (٧٧٠ م)، وهو الابنُ الثاني لهشامٍ الرضيّ، قَدّمَه أبوه على أخيه البِكْرِ عبدِ الملك في ولايةِ العهد. بُويعَ بالحُكْمِ في رابعِ صَفَرَ ١٨٠ (١٨ / ٤ /٧٩٦).

لمّا جاء الحَكَمُ إلى الحُكْمِ نازَعَه أخَواه سُليمانُ وعبدُ الله وثارا عليه. أمّا سُليمانُ فقُتِلَ (١٨٤ هـ). وأمّا عبدُ الله فلم يكن صُلْبَ العودِ كأخيه سُليمانَ، فلمّا قُتِلَ سليمانُ طَلَبَ عبدُ الله الأمانَ من أخيه الحَكَمِ فأمّنه وفَرَضَ عليه الإقامةَ في بَلَنْسِية، فعُرِفَ مُنذُ ذلك الحينِ بالبَلَنْسيّ. ثمّ استمرّ عبدُ الله البلنسي على الطاعة فكان أخوهْ الحَكَمُ يُرْسِلُه لإخضاعِ الثائرين أو لغَزْوِ بلاد الفِرنجة (الإسبان).

ومُنذُ مطلعِ إمارةِ الحَكَمِ بدأتْ عليه الثَوْراتُ في سَرَقُسْطَة وطُلَيْطُلَةَ ومارِدَةَ وغيرِها. ولكنّ أعظمَ الفِتَنِ في أيامه كانت في رَبَضِ قُرطبةَ (الضاحية الجَنوبية منها) وفي طليطلة:

كان هِشامٌ الرضيُّ (والدُ الحكم) تقيّاً حلياً فكان للفُقَهاء في أيامه نفوذٌ كبير. أمّا الحكَمُ فكان أيضاً تقيًّا يُقرِّبُ إليه العُلماءَ والفقهاء، ولكنّه كان حازماً شديداً على المخالفين له قاسياً في مُعاملة خصومه. فآجتمع عَمّاه مَسْلَمَةُ وأُمَيَّةُ (آبنا عبدِ الرحمن الداخل) والفقيهان يحيى بنُ يحيى الليثي وطالوتُ بن عبدِ الجبّار وأخذوا يُثيرون عليه العامّةَ. ثمّ نُقِلَ إليه أنّهم كانوا يريدون خَلْعَه. ويبدو أن الدُعاةَ الفاطميّين والدعاةَ العبّاسيّين كانوا وراءَ هذه الحركة. فلمّا حَدَثَتِ الثورةُ عليه بِرَبَضِ قُرطبةَ أخضع الثائرين بقَسْوة وأمر بقتلِ آثْنَيْنِ وسبعينَ من رؤسائهم.

ومن أخطاء الحَكَم أنّه اتّخذ بعدَ هَيْجَة الرَبَضِ الأولى حَرَساً من نصارى الأندلس وجعل القائد عليهم القُومسَ ربيعةَ بنَ تيودولفو (النصراني)، فكان هؤلاءِ أيضاً يَكيدون له. فحدثتْ في الرَبَضِ هَيْجةٌ ثانية (في رمضان سَنةَ ٢٠٢) فكان القضاء عليها أشدَّ قسوةً إذ قتل الحَكَمُ جماعة من أهل الربَض ونفى آخرين عن الأندلس. من أجل ذلك عُرِفَ بلقب «الربضي»:

وكذلك كان أهلُ طليطلةَ كثيري الفِتَن فدبّر الحَكَمُ لهم مكيدةً ثم أوْقَع بهم (١٩١

هـ) وَقْعَةٌ عُرِفَتْ باسم يومِ الحُفرة.

وكَثُرَتْ غَزَواتُ الحكمِ للبلاد التي كانت باقيةً في يد الإسبان. إنّ البابويّة والإفرنْجَة وصلوا أيْدِيَهُمْ بأيْدي نصارى الأندلس وأخذوا يُهاجمون البُلدان الإسلامية. وكان شارلمانُ مَلِكُ فرنسةَ وإمبراطورُ الغَرْبِ (ت ٨١٤ م = ١٩٩ هـ) يقود الحَمَلات على شَماليّ الأندلس بنفسِه، فكان الحَكَمُ يرسلُ الجيوشَ لغزو البلاد الخاضعة للأمراء الإسبان أو للفِرنجة في شماليّ الأندلس. وفي سَنَةِ ١٨٥ سقطتْ بَرْشَلونةُ في يدِ شارلمان.

وكانت وفاة الحكم في آخر سَنَةِ ٢٠٦ هـ (ربيع ٨٢٢ م).

٢ - كان الحكمُ حازماً، ولكنّ حزمَهُ كان يبلُغُ به أحياناً إلى حدّ القَسْوة. غير أنه كان عادلاً. وهو أوّلُ من اتّخذ المرتزِقةَ من غير المسلمين، من النصارى والوثنيّين (من الإسبان والفِرنجة والجِرمان وسواهم) وكان يسمّيهم «الخُرْسَ» (لِعُجْمَتِهم: لجهْلِهمُ اللغةَ العربية). ولم يقتصرِ اعتمادُه على العرب، بل قَرّبَ إليه العربَ والبربرَ والمُوَلّدين (المسلمين من أهل الأندلس الأصليّين) والصقالبة (السلاف، سكان شرقيّ أوروبّة)، وإن كانتْ كلمة «صقالبة» تُطلَقُ في الأندلس على جميع الأوروبيّين غير المسلمين مِمّنْ دخلوا في الجيش الأندلسيّ خاصّة. وفي أيام الحكم بدأتِ العصبيةُ العربية تضعُفُ إذ كَثُرَ في أيامه اختلاطُ العرب بالمولّدين من طريقِ الزَواج.

وكان الحكمُ «أديباً مُفْتَنًّا (كثيرَ التفنّن): خطيباً مُفوَّهاً وشاعراً مجوِّداً تُحذَرُ صَوْلاته وتُسْتَنْدَرُ أبياتُه» (الحلّة السيراء ١ : ٤٣). ومُعْظَمُ شِعرِهِ الحماسةُ والنسيب والوصف.

٣ - مختارات من شعره

للحكم الربضيّ شيء من النسيب منه:

ظَـلَّ من فَرْطِ حُبّـهِ مَمْلوكـاً ... ولقـد كـان قبـلَ ذاك مَليكـاً.

إنْ بكى أو شكا الهوى زِيدَ ظُلْماً ... وبُعاداً يُدني حِماماً وَشيكاً[1].
تركَتْه جآذِرُ القَصْرِ صَبّاً ... مُسْتهاماً على الصَعيد تَريكاً[2].
يجعَلُ الخَدَّ مائِلاً فوقَ تُرْبٍ ... وهْوَ لا يرتضي الحَريرَ أريكاً[3].
هكذا يحسُنُ التذلُّلُ بالحُرّ ... إذا كان في الهوى مملوكا

وكانتْ له خمسُ جَوارٍ مُصْطَحباتٌ مُتّفقات. ولَعلّه أغارَهُنّ يوماً فاتّفقْنَ على أن يُظْهِرْنَ له شيئاً من الدَلال والتَمَنُّع، فقال:

قُضْبٌ مِنَ البانِ ماسَتْ فوق كُثْبانِ ... وَلَّيْنَ عَنّي وقد أزْمَعْنَ هِجْراني[4].
ناشَدتُّهُنّ بِحَقّي فاعْتَزَمْنَ على الـ ... ـعِصْيانِ حتّى حَلا مِنْهنّ عِصْياني[5].
مَلَكْنَني مُلْكَ مَنْ ذَلّت عزائِمُه ... للحُبّ ذُلَّ أسيرٍ مُوثَقٍ عانِ[6].
مَنْ لي بِمُغْتَصِباتِ الروح من بَدَني ... يَغْصِبْنَني في الهوى عِزّي وَسُلطاني!

- وقال بعد أن قضى على الفتنة في الربض:

رأيتُ صُدوعَ الأرض بالسَيْفِ راقعاً، ... وقِدْماً لأَمْتُ الشَعْبَ مُذْ كُنْتُ يافِعا[7]
فسائلْ ثُغوري هلْ بها اليومَ ثُغْرَةٌ ... أُبادِرُها مُسْتَنْضِيَ السيفِ دارعا[8].

---

(١) الحمام: الموت. وشيك: قريب.
(٢) الجؤذر (بضمّ فسكون فضمّ): الغزال الصغير (الفتاة الجميلة). الصبّ: المحبّ. المستهام: الذي كاد يجنّ من شدّة الحب. الصعيد: الأرض. التريك: عنقود (العنب) أو عذق (بكسر العين) النخل إذا جرّد من ثمره (شيء متروك لا قيمة له).
(٣) المائل (الواقف - الموضوع). الأريكة: الكرسي الفاخر، العرش.
(٤) القضيب (كناية عن القامة الجميلة) البان: شجر أغصانه تامّة الاستقامة. ماس: تمايل. الكثيب: تلّة الرمل (كناية عن عجيزة المرأة أو ردفيها). ولّى: ذهب، انصرف، مال. أزمع: قصد.
(٥) حلا منهنّ عصياني: أحببت عصيانهنّ لي.
(٦) موثق: مقيّد. العاني: الذليل، الأسير.
(٧) الصدع (بالفتح): الشقّ. رأب (أصلح الشقّ بالجمع بين جزئيه). لأم: رأب. الشعب (بالفتح) الانفراج بين جبلين (الشقّ). اليافع: الذي لم يبلغ الحلم بعد.
(٨) الثغر: المكان الذي يخشى مجيء العدوّ منه. ثغرة: انفراج في سياج ونحوه. نضا السيف: أخرجه من قرابه. الدارع لابس الدرع.

تُنَبِّئُكَ أنّي لم أكُنْ في قِراعِهِمْ ... بِوَانٍ، وقِدْماً كُنْتُ بالسيفِ قارعا[1].

وإنّي إذا حادوا حِذاراً من الرَدى ... فَلَسْتُ أخا حَيْدٍ عنِ الموتِ جازعا[2].

حَمَيْتُ ذِماري فانْتَهَكْتُ ذِمارَهم؛ ... ومَنْ لا يُحامِ ظلّ خَزْيانَ ضارعا[3].

ولّما تَساقَيْنا سِجالَ حُروبِنا ... سَقَيْتُهُمُ سَجْلاً من الموتِ ناقعا[4].

وهَلْ زِدتُ أنْ وَفَّيْتُهُمْ صاعَ قَرْضِهِمْ ... فلاقَوْا مَنايا قُدِّرَتْ ومَصارِعا[5].

فهاكَ بِلادي، إنّني قد تَرَكْتُها ... مِهاداً ولم أترُكْ عليها مُنازِعا[6].

٤ - ★ ★ أخبار مجموعة ١٣٢ - ١٣٣؛ ابن الفرضي ١: ١٢؛ جذوة المقتبس ١١ (الدار المصرية) ١٠، الحلة السيراء ١: ٤٣ - ٥٠؛ المغرب ١: ٣٨ - ٤٥؛ البيان المغرب ٢: ٦٨ - ٨٠؛ فوات الوفيات ١: ١٨٧ - ١٨٨؛ نفح الطيب ١: ٣٣٨ - ٣٤٤؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٧٣ - ٧٤؛ نيكل ١٩ - ٢١، مختارات ١١ - ١٢؛ الأعلام للزركلي ٢: ٢٩٧ (٢٦٧ - ٢٦٨).

غربيب الطليطليّ

١ - هو أبو عبدِ الله غَرْبيبُ بنُ عبد الله الثَقَفي المعروف بالقُرْطبي (نفح الطيب ٤: ٣٣٢) والمشهور بالطُلَيطُلي، كان ذا طُغيانٍ وذا استخفاف بالعُمّال (ولاة البلدان) أسنَدَ إليه أهلُ طُلَيطُلَةَ أمرَهم. ثمّ إنّه ثار في قرطبةَ واستفحل أمرُه. وكانتْ وفاتُه (المقتبس ٧٦) سَنَةَ ٢٠٧ (٨٣٢ م).

٢ - غَرْبيبُ بن عبد الله شاعرٌ قديم مشهورُ الطريقةِ في الفضل والخير والزهد. وكان الناسُ يتداولون شيئاً من شعره.

---

(١) القراع: الضرب بالسيف. ا'ا اي: الضعيف.

(٢) (إذا الملوك) حادوا (مالوا) حذار (حذر: خوف) الردى (الموت).

(٣) الذمار: ما تجب على الإنسان حمايته. الضارع: الضعيف.

(٤) السجل: الدلو العظيم. الناقع: (سمّ) شديد قاتل.

(٥) وفّيتهم صاع قرضهم (دينهم - بفتح الدال): قاتلتهم قتالاً مثل قتالهم لي.

(٦) مهادا: مستوية، مستقرّة، هادئة.

٣ - **مختارات من شعره**

- جاء في نفح الطيب (٤ : ٣٣٢) من شعر غَربيبِ الطُليطليّ:

أيّهـا الآمِـلُ مـا ليس لـهُ   طالمـا غرَّ جهولاً أملُـهْ.
رُبَّ مَنْ بـات يُمنّـي نفسَه   خانَه، دونَ مُناهُ، أجلُه.
وفتًـى بَكّرَ في حاجاتِـه   عاجلاً، أعقَبَ رَيْثاً عَجَلُهْ!
قـل لمن مَثّـلَ في أشعـارِه: يذهَبُ المرءُ ويبقى مَثَلُه:
نافِسِ المُحْسِنَ في إحسانِـه،   فَسَيَكْفِيكَ مُسِيئاً عَمَلُه!

٤ - ★ ★ المغرب ٢ : ٢٣ - ٢٤؛ جذوة المقتبس ٣٠٧؛ بغية الملتمس ٤٢٨ (رقم ١٢٨١)؛ الذيل والتكملة ٥ : ٩٩٥ (ص ٥٢٢)؛ نفح الطيب ٤ : ٣٣٢؛ مجمل تاريخ الأدب التونسي ٤٢.

شبطون

هُوَ أبو عبدِ اللهِ زيادُ بنُ عبدِ الرحمنِ بنِ زيادِ اللَخْميُّ المعروفُ بشَبْطونٍ، من أهلِ قرطبة، سَمِعَ من حَمِيهِ معاويةَ بنِ صالحٍ الحِمْصِيّ (ت ١٥٨) ثمّ رَحَل إلى المشرق فسمع الموطّأ من الإمامِ مالكٍ (ت ١٧٨) في المدينة كما سَمِعَ من سُفيانَ بن عُيَيْنةَ (ت ١٩٨) في مكّة. وسمع في مِصْرَ من الليث بن سعدٍ (ت ١٧٥).

وشبطونٌ هو الذي أدخلَ الموطّأ إلى الأندلس مُكَمَّلاً مُتْقَناً ونشر فيها المذهبَ المالكيَّ - وقيل أولُ من فعل ذلك (ص ٨٦) الغازي بنُ قيسٍ (ت ١٩٩) - وكان أهل الأندلس يتفقّهون من قبلُ على مذهبِ أبي عمرٍو عبدِ الرحمنِ الأوزاعيّ (٨٨ - ١٥٧ هـ)، أو على مذهبِ أهلِ الحديثِ في الأصحّ.

وأبى شبطونٌ في أولِ الأمر - في أيام هشام بن عبد الرحمن (ت ١٨٠) - أن يتولّى القضاءَ ثمّ تولّى - فيما يبدو - قضاء مدينة طُلَيْطُلة. وكانت وفاتُه سَنَةَ ٢١٢ (٨٢٧ م) في الأغلب.

** جذوة المقتبس ٢١١ (الدار المصرية) ٢٣٨ (رقم ٥٠٤)؛ بغية الملتمس ٣٠٤ (رقم ٨٤٤)؛ الديباج المذهب ١٢٧؛ نفح الطيب ٢: ٤٥ - ٤٦. شذرات الذهب ١: ٣٣٩ - ٣٤٠.

إدريس الأصغر

١ - في سَنَةِ ١٤٥ (٧٦٢ م) ثار محمّدُ بنُ عبدِ الله بنِ الحَسَن المُثنّى بنِ الحسنِ بن عليّ بن أبي طالب (وكان محمّدُ يُلقّبُ: النفسَ الزكيةَ) في المدينة (الحِجاز) على أبي جعفرِ المنصور العبّاسيّ وتسمّى «محمّداً المَهْديَّ». ولكنّه قُتِلَ وشيكاً. فثار أخوه إبراهيم في البصرةِ (العراق) في أواخر ١٤٥ (أوائل ٧٦٣ م) فقُتِلَ أيضاً.

وفي سنة ١٦٩ (٧٨٦ م) ثارَ الحُسين بن عليّ بن الحسنِ المثلّث بنِ الحسنِ المثنّى بن الحسنِ السِبْط بن عليّ بن أبي طالب في المدينة في جماعة من أهلهِ وأنصاره ولكنّه انهزم في وقعة فَخّ (على ثلاثة أميال من مكّة) في تاسعِ ذي الحِجّة من سنة ١٦٩ (١٢/ ٦/ ٧٨٦ م) وقتل. وكان ممّن نجا من القتل في تلك المَعْركة إدريسُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ الحسن المثنّى فهَرَبَ إلى المَغرِبِ الأقصى فنَصَرَهُ البربرُ واجتمعوا عليه وبايعوه في مدينة وَلِيلي وهي قاعدةُ جبلِ زهرون (ولعلّها المسمّاة اليوم «قصرَ فرعون»)، وذلك في رابعِ رَمَضانَ من سنَة ١٧٢ (٦/ ٢/ ٧٨٩ م). واتّخذ مستنشاراً مولى له اسمُه راشدٌ.

ولمّا اتّسعَ مُلكُ إدريسَ في المَغْربِ غِيظَ العبّاسيّون فأرسلوا إليه سُليمانَ بنَ جريرٍ المعروفَ بالشمّاخ. فاتّصل سليمانُ بإدريسَ ونال عنده مكانةً ثمّ احتال في سَمّه بقارورةٍ من طِيب. وكانت وفاة إدريس في فاتحِ (أولِ) ربيعِ الآخِرِ من سَنَةِ ١٧٧ (١٥/ ٧/ ٧٩٣).

وكان للمولى (الإمام الخليفة) إدريس جارية بربرية اسمها كَنْزةُ مات عنها وهي حُبلى. فقام راشدٌ بتدبير أمرِ البلاد. وفي ثالثِ رَجَبَ من سنَة ١٧٧ (١٤/ ١٠/ ٧٩٣ م) وَضَعَتْ كنزةُ غُلاماً سُمِّي إدريسَ وعُرِفَ بإدريسَ الأصغرِ (أو الأزهر)، وقام راشدٌ بتدبير أمرِ إدريسَ الأصغر. ويبدو أنّ العبّاسيّين قدِ ٱستطاعوا أن يَدسّوا إلى راشدٍ من يقتُلُهُ، سنة ١٨٦ هـ (٨٠٢ م) فقام بكفالةِ إدريسَ عندئذٍ أبو خالدٍ يزيدُ ٱبنُ الياسَ العَبْدِيّ.

ولمّا بَلَغَ إدريسُ الأصغرُ الحادية عَشْرَةَ بايعه البربرُ خليفةً لأبيه، في غُرّةِ ربيعِ الأوّلِ من سنة ١٨٨ (١٨/ ٢/ ٨٠٣ م).

وضاقتْ مدينةُ وَلّيلي بالناسِ فشرع إدريس الأصغر ببناء مدينةِ فاسَ في سنة ١٩٢ (٨٠٨ هـ) وجعَلها عُدْوَتَيْنِ (جانبين): عدوة الأندلسيّين نَزَلَ فيها من وَفَدَ عليه من الأندلس وعدوةَ القَرَوِيّين نزل فيها من جاء إليه من مدينة القَيْروان، وبنى في كلّ عدوةٍ جامعاً.

وما زال إدريسُ الأصغرُ جادًّا في توسيع رُقعة ملكه وفي نشر العُمران حتّى كانت وفاتُه في ثاني جُمادى الآخِرةِ من سَنَةِ ٢١٣ (١٨/ ٨/ ٨٢٨ م) في إبّانِ شبابه.

٢ - يبدو أنّ إدريسَ الأصغرَ كان كثيرَ الذكاء حتّى استطاع أن يَتَثَقَّفَ ويخطُبَ الخُطَبَ البليغةَ ويقول الشعرَ المتينَ في الحادية عَشْرَةَ من العُمُر (ولعلّ بعضَ ذلك منسوبٌ إليه). ثمّ إنّه كان قديراً جَواداً ومُصْلحاً عُمرانيًّا. وأكثرُ شِعْرِ إدريس الأصغرِ يدورُ على الحماسة والفخر والأدب (الحكمة). وأمّا نثرُهُ فخُطَبٌ فيها التأكيدُ على حقّ أُسرتِه في المُلكِ لِصِلَتِها برسولِ الله، وفيها أشياءُ من النُّصح الدينيّ والسياسة الإدارية.

٣ - مختارات من آثاره

- لما فَرَغَ إدريسُ من بناء مدينة فاسَ وحضرتِ الجُمعة الأولى، خطب خُطْبَةً قال في آخرها:

اللّهُمَّ، إنّك تعلَمُ أنّي ما أردتُّ ببناءِ هذه المدينةِ مُباهاةً ولا مُفاخرةً ولا رِياءً ولا سِمْعَةً ولا مُكابرةً، وإنّما أردتُّ أن تُعْبَدَ بها ويُتلى بها كِتابُك وتُقام بها حُدودُك وشرائعُ دينِكَ وسُنَّةُ نَبِيِّكَ محمّدٍ صلّى الله عليه وسلّم ما بَقِيَتِ الدنيا. اللّهُمَّ، وَفِّقْ سُكّانَها وقُطّانَها للخيرِ وأعِنْهُمْ عليه واكْفِهِمْ مَؤونَة أعدائهم وأدْرِرْ عليهِمُ الأرزاقَ وأغْمِدْ عنهم سيفَ الفِتنة والشِّقاق. إنّك على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

- قِيلَ لمّا بُويع إدريسُ الأصغرُ بالخِلافة خَطَبَ الناسَ فقال:

الحمدُ للهِ أحْمَدُه وأسْتَغفِرُه وأستعينُ به وأتوكّلُ عليه وأعوذُ به من شرِّ نفسي ومن شرِّ كلّ ذي شرٍّ. وأشهَدُ أن لا إلَهَ إلاّ اللهُ وأنّ محمّداً عبدُه ورسولُه المبعوثُ إلى الثَقَلَينِ[١] بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنِه وسِراجاً مُنيراً[٢] صلّى الله عليه وعلى آلِ بيتهِ الطاهرينَ الذين أذْهَبَ اللهُ عنهُمُ الرِجسَ وطَهّرهم تطهيرا[٣]. أيُّها الناسُ، إنّا قد وَلِينا هذا الأمر الذي يُضاعَفُ فيه للمُحْسِنِ الأجرُ و(يضاعف) على المُسيء الوِزرُ. ونحنُ، والحمدُ للهِ، على قَصْدٍ[٤]، فلا تَمدّوا الأعناقَ[٥] إلى غيرِنا فإنّ الذي تطلُبونه من إقامةِ الحقِّ إنّما تَجِدونه عندنا.

- وقال إدريسٌ الأصغرُ يخاطب البُهلولَ بنَ عبدِ الواحد المُدْغريَّ ويُحذّره من الخروج عنِ الطاعةِ ومن أنْ يسمعَ كلامَ إبراهيمَ بنِ الأغلب:

كأنّـك لم تسمَعْ بمكرِ ابنِ أغلبٍ   وما قد رَمى بالكَيْدِ كلَّ بلادِ.
ومِنْ دونِ ما منّتْـكَ نفسُكَ خالياً   ومَنّاك إبراهيمُ خَرْطُ قَتاد[٦]!

- وكتب إلى إبراهيمَ بنِ الأغلب يدعوه إلى الطاعة:

أُذَكِّرُ إبراهيمَ حقَّ محمّدٍ   وعِتْرتـهِ، والحقُّ خيرُ مَقول[٧].
وأدْعوه للأمرِ الـذي فيـه رُشْدُه،   وما هو -لولا رأيُه- بجَهول.
فـإنْ آثرَ الدُّنيـا فـإنّ أمامَـه   زلازلَ يومٍ للعِقاب طويل!

---

(١) الثقلان: الانس (بكسر الهمزة) والجّن.
(٢) القرآن الكريم ٣٣: ٤٦، سورة الأحزاب.
(٣) القرآن الكريم ٣٣: ٣٣، سورة الأحزاب.
(٤) قصد: اعتدال.
(٥) مدّ عنقه: نظر إلى ما عند الآخرين، طمع، ثار.
(٦) القتاد: نبات له شوك قاس. الخرط: نزع الورق من الغصن بأن تمسك أعلى الغصن بيد ثمّ تحاول أن تجرد ورقه بالمرور بقبضتك عليه. دون ذلك خرط القتاد (أي مشقّة عظيمة).
(٧) العترة: قوم الرجل وعشيرته.

٤ - ★ ★ ★ كتب التاريخ عامة. وتحسن مراجعة تاريخ الطبري وتاريخ ابن الأثير (يهتدى بفهرسيها). ثمّ أنظر مقدّمة ابن خلدون ٣٨ وما بعد، ٤٠٢ س؛ الاستقصا في تاريخ المغرب الأقصى ١: ٧٠ - ٧١؛ الوافي بالوفيات ٨: ٣١٤ - ٣١٥، ٣١٨ - ٣١٩؛ الحلّة السيراء ١: ٥٠ - ٥٦؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ١٠٣١ - ١٠٣٢؛ الأعلام للزركلي ١: ٢٦٦ (٢٧٨).

حسّانة التميميّة

١ - هِيَ حَسّانةُ بنتُ أبي المخشى الشاعر (أنظر، فوق، ص ٨٧)، ماتَ أبوها في أيام الحَكَم الرَّبَضيّ (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) فوَفَدَتْ على الحكم مُسْتَميحةً لفضلِهِ فكتب الحكَمُ إلى عاملِهِ على إلبيرةَ بأن يُجْرِيَ عليها راتباً ويُحْسِنَ إليها. وكانتْ حسّانةُ في ذلك الحينِ بِكْراً لمّا تتزوّجْ بَعْدُ.

ولمّا جاء عبدُ الرحمنِ بنُ الحكم (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) كان العاملَ على إلبيرةَ جابرُ بن لَبيدٍ، وكانتْ حسّانةُ فيما يبدو قد تزوّجتْ قبلَ مدّة ورُزِقت أولاداً ثمّ ماتَ زَوْجُها. وقَطَعَ جابرُ بنُ لَبيدٍ الراتبَ الذي كان جارياً على حسّانة فجاءت حسانةُ إلى عبدِ الرحمن بن الحكم تَشْكو إليه جابراً فعَزَلَهُ عبدُ الرحمن وردّ على حسّانةَ ما كان جارياً عليها في أيامِ أبيه الحكم.

ولعلّ وفاةَ حسّانةَ كانتْ نحو سَنَة ٢٣٠ (٨٤٤ - ٨٤٥ م).

٢ - كانت حَسّانةُ التميميةُ قد تأدّبتْ وتعلّمتِ الشعرَ، وشِعْرُها الباقي لنا مَشْرقيّ النَهْجِ متينُ الأُسلوب وفيهِ شيءٌ من الرِّقَّة برُغْمِ أن ما بَقِيَ منه يدورُ حَوْلَ المديحِ والعِتابِ والاستعطاف.

٣ - مختارات من شعرها

- لمّا وفدتْ حَسّانةُ التميميّةُ على الحَكَمِ أنشدَتْهُ:

إنّي إليكَ، أبا العاصي مُوَجَّعةٌ - أبا المُخَشّى سَقَتْهُ الواكفَ الدِيَمُ -[1]

---

(١) سقت الديم (جمع ديمة: السحابة الممطرة) أبا المخشّى واكفاً: (مطراً غزيراً).

قد كنتُ أرتَعُ في نُعماه عاكفةً، فاليومَ آوِي إلى نُعْماكَ، يا حَكَمُ!
أنتَ الإمامُ الذي آنقادَ الأنامُ له ومَلّكتْه مقاليدَ النُّهى الأمَمُ[1].

- ولها تُخاطِبُ الحَكَمَ أيضاً تشكو إليه جابراً عاملَ إلْبيرةَ:

إلى ذي النَّدى والمجدِ سارتْ ركائبي على شَحَطٍ تَصْلَى بنارِ الهواجر[2]
لِيَجْبُرَ صَدْعي، إنّه خيرُ جابرٍ، ويَمْنَعُني من ذي الظُّلامةِ جابر[3].
فإنّي وأطفالي بقَبْضةِ كَفِّهِ كذي الريش أضْحى في مخالبِ كاسر[4].
جديرٌ لِمِثْلي أن يُقال مَرُوعَةٌ لموتِ أبي العاصي الذي كان ناصري.
سَقاهُ الحبا! لو كان حيّاً لما آعتدى علَيَّ زمانٌ باطشٌ بَطْشَ قادر[5].

٤ - * * نفح الطيب ٤: ١٦٧ - ١٦٨.

يحيى بن يحيى الليثي

هو أبو محمّدٍ يحيى بنُ يحيى بنِ كثيرِ بنِ وسلاسَ بنِ شمال بن منغايا اللَّيْثيّ، من قبيلة مصمودة البربرية (في المغرب). أما نِسبتُهُ إلى بني الليث فهي بالوَلاء.

دخلَ يحيى بنُ يحيى إلى الأندلس في مَطْلَعِ شبابهِ فسَمِعَ من يحيى بنِ مُضَرَ القَيْسِيِّ الأندلسيِّ (ت ١٩٠) ومن شَبْطونٍ (ت ٢١٢). ثمّ إنّه رَحَلَ إلى المشرق - وكان عُمُرُه آنذاك ثَمانِيَ وعِشرينَ سَنَةً - فسمع في مِصر من الليث بن سعدٍ (ت ١٧٥) وسمع في مكّة من سَفيانَ بنِ عُيَيْنَةَ (ت ١٩٨)، كما سمع في المدينة من الإمام مالك (ت ١٧٩).

ولمّا عاد يحيى بن يحيى الليثي إلى الأندلس، بعدَ وَفاةِ الإمام مالكٍ، صارتْ إليه

---

(١) مقاليد (مفاتيح) النهى (العقل).
(٢) الندى: الكرم. الركائب جمع رَكوب: الجمل أو الناقة يسافر الناس عليها. الشحط: البعد. الهاجرة: نصف النهار. صلي بالنار يصلى: تعرّض لحرّها.
(٣) ليجبر صدعي: ليصلح أمري (جبر الصدع: جمع بين الشقّين). جابر الأولى: المصلح. جابر الثانية (في القافية): حاكم إلبيرة الذي تشكو حسّانة من سوء معاملته.
(٤) ذو الريش: الطير الصغير. الكاسر: الطير الكاسر الذي يصطاد الطيور الصغيرة.
(٥) الحيا: المطر.

رئاسة المذهب في الفِقْه فآنتشر المذهبُ المالكيّ على يديه آنتشاراً واسعاً وتفقّه عليه جماعة لا يُحْصَوْنَ عدداً، وكان فقيهَ الأندلس غيرَ مُنازَعٍ.

وكانت وفاةُ يحيى بنِ يحيى الليثيّ في ٢٢ من رَجَبَ ٢٣٤، وقيل ٢٣٣ (٨٤٨ م)، ودُفِنَ في مقبرة بني عامر في ظاهر قرطبةَ.

★ ★ ابن الفرضي ٢: ١٧٦ - ١٧٨ (رقم ١٥٥٦)؛ جذوة المقتبس ٢٥٩ - ٢٦١؛ (الدار المصرية) ٣٨٢ - ٣٨٤ (رقم ٩٠٩)؛ بغية الملتمس ٤٩٥ - ٤٩٨؛ (رقم ١٤٩٧) المغرب ١: ١٦٣ - ١٦٥؛ وفيات الأعيان ٦: ١٤٣ - ١٤٤؛ الديباج المذهب ٣٥٠؛ ابن قنفذ ١٧٢؛ شذرات الذهب ١: ٣٣٩ - ٣٤٠؛ نفح الطيب ٢: ٩ - ١٢؛ بروكلمن ١: ١٧٦، الملحق ١: ٣٠٠ - ٣٠١؛ دائرة المعارف الإسلامية (ط ١) ٤: الأعلام للزركلي ٩: ٢٢٣ - ٢٢٤ (٨: ١٧٦).

عبد الرحمن الأوسط

١ - هو أبو المُطَرِّفِ عبدُ الرحمنِ بنُ الحَكَمِ بنِ هشامِ بنِ عبدِ الرحمنِ الداخلِ، وأمُّه اسمُها حَلاوةُ، وُلِدَ سَنَةَ ١٧٦ (٨٩٢ م) وبُويعَ بالإمارة سَنَةَ ٢٠٦ هـ (٨٥٢ م).

وكانتْ أيامُه أيامَ ازدهارٍ وتَرَفٍ: «لم يَلْقَ المُسلمون مَعَه بُؤساً ولم يَرَوْا يوماً عَبوساً؛ وهو أولُ من جرى على سُنَنِ الخُلفاء في الزينةِ والشَكل وترتيب الخدمة. ثمّ كسا الخلافة[1] أُبَّهةَ الجَلالة. وفي أيامه دخل الأندلسَ نفيسُ الغِطاء وغرائبُ الأشياء، وسِيقَ إليها ذلك من بَغداد». وفي أيّامِه آستبحرتِ الحَضارةُ في الأندلس فآنصرفَ هُو إلى المَلذّاتِ وآحتجبَ عن الناس وملأ قصرَه بأسبابِ اللّهْو وبالجَواري وبالمغنّين والمغنّيات. وهو الذي استدعى زِريابَ مُغنّيَ العِراق، مِنْ بَغْداد إلى الأندلس.

وكانتْ لعبدِ الرحمنِ الأوسطِ جاريةٌ تُسمّى طَروبَ، وكان بها دَنِفاً، فصدّت عنه وأغلقتْ على نفسِها بيتاً فأمرَ بأنْ تُجْعَلَ على البابِ خرائطُ (أوعيةٌ) مملوءةٌ بالدراهم

(١) في أيام عبد الرحمن الأوسط لم يكن الأمويّون قد تلقّبوا بالخلافة بعد. والنصّ هنا يذكر الخلافة على سبيل التجوّز والتشبيه.

حتّى سَتَرَتْ تلك الخرائطُ البابَ آسترضاءً لها وآستعطافاً. فلمّا فَتَحَتْ طروبُ البابَ وأخذتِ الخرائطَ وجدتْ فيها نَحْواً من عِشرينَ ألفاً. ثمّ أمرَ لها أيضاً بعِقْدٍ قيمتُه عَشْرَةُ آلافِ دينارٍ.

وتُوُفِّيَ عبدُ الرحمنِ الأوسطُ في الثالثِ من رَبيعٍ الآخِرِ من سَنَةِ ٢٣٨ (٨٥٢ م) فَجْأةً.

٢ - جَمَعَ عبدُ الرحمنِ الأوسطُ في بَلاطِهِ جماعةً من العلماء والأدباء وكان يُكْرِمُهم ويُحْسِنُ إليهم. وكان هو نفسُه شاعراً مُكْثِراً وصاحبَ بديهةٍ. وشِعرُه وُجدانيٌّ يدور على الوصفِ والغزل. وكانت له أيضاً تواقيعُ بليغةٌ.

٣ - مختارات من آثاره

- لعبدِ الرحمنِ الأوسطِ تواقيعُ بليغةٌ منها:

من لم يَعْرِفْ وجهَ مَطلَبِه كان الحِرمانُ أولى به.

- ووصف مرّة جاريتَهُ طَروبَ[1] وقد لَبِسَتْ عِقداً أهداها إيّاه فاستكثرَ بعضُ الحاضرين ثمنَه (عِشرينَ ألفَ دينارٍ) فقال:

« إنّ لابِسَهُ أنفسُ منه خَطَراً وأرفعُ قَدْراً. ولئن راقَ من هذه الحَصباءِ مَنْظَرُها ورُصِفَ في النفس جوهرُها، فلقد برأ اللهُ من خلقهِ جوهراً يُغْشي الأبصارَ ويُذهِبُ بالألبابِ. وهل على وجهِ الأرضِ من زَبَرْجَدِها وجوهرِها أقرُّ لعينٍ وأجمعُ لزَيْنٍ من وجهٍ أكملَ اللهُ فيهِ الحُسْنَ ونُضْرَتَهُ وألقى عليه الجمالَ وبهجَتَه! ».

ثمّ آلتفتَ إلى الشاعر عبدِ اللهِ بنِ الشَمْرِ، وكان حاضراً، فقال له: هل يحضُرُك شيءٌ في هذا المعنى؟ فأنشدَ عبدُ الله أبياتَه: أتقرن حصباء اليواقيت والشذْر...

فأعْجَبَتْ هذه الأبياتُ الأميرَ عبدَ الرحمن الأوسطَ وطَرِبَ لها طَرباً شديداً ثمّ أنشدَ مُرتجلاً:

---

(١) راجع، فوق، ص ٩٩.

قريضُك يا آبنَ الشَّمْر عفّى على الشعر وجلّ عن الأَوهامِ والفَهْم والفكرِ.
إذا شافهَتْـهُ الأُذنُ أدَّى بسحره إلى القلب إبداعاً فجَلَّ عن السِحر.
وهـل برأ الرحمٰن من كل ما برا أقرَّ لِعَيْن من مُنَعَّمَـــــةٍ بِكر؟
ترى الوردَ فوق الياسَمين بخدّها كما فُوِّفَ الروضُ المنوَّرُ بالزَّهْر[1].
فلو أنـني مُلِّكْتُ قلبي وناظري نظمتُها منها على الجِيد والنَّحْر!

- وخَرَجَ إلى الغَزْوِ فطالت غَيْبَتُه عن قرطبةَ وتذكّر طَروبَ، وكانت أعظم جواريه مكانةً عنده ونفوذاً في بلاطه، وقيلَ إنها كانت قليلة الوفاء له حتّى إنّها شاركت في مؤامرة على خلعه. ومع ذلك فقد قال فيها:

فقدتُّ الهوى مُذْ فقدتُّ الحبيبا، فما أقطـعُ الليـلَ إلاّ نحيبـا.
وإمّا بَدَتْ لِيَ شمسُ النها رِ طالعـةً ذكّرتـني طَروبـا.
فيا طولَ شوقي إلى وجهِها، ويـا كَبِـداً أوْرَثَتْها نُدوبا[2]،
ويا أحسنَ الخلقِ في مُقلتي وأوفرَهم في فؤادي نصيبـــا،
لئن حال دونَك بُعْدُ المَزا رِ من بعدِ أن كنتِ منّي قريبا
لقد أوْرَثَ الشوقُ مني الضّنى وأضْرَمَ في القلب منّي لهيبا،
عَدانِيَ عنـكِ مزارُ العِـدى وقَوْدي إليهم لُهاماً مَهيبا[3]
كأنّيْ تَخَطَّيْـــتُ من سَبْسَبٍ وجاوزتُ بعدَ دُروبٍ دروبا[4]،
أُلاقي بوجهِيَ حرَّ الهَجـــيرِ إذا كاد منه الحَصا أن يَذوبا[5]
أُريـدُ بـذاكَ ثوابَ الالٓـهِ، ومَنْ غيرُه أبْتَغيه مُثيبا!

(١) فوّف: لوّن. التفويف: اجتماع الألوان متجاورة. المنوّر (بفتح الواو المشدّدة وكسرها): المتفتّح بالأزهار.
(٢) الندوب: جمع ندبة: أثر الجرح الباقي.
(٣) اللهام: الجيش العظيم. مهيباً: يهابه الناس.
(٤) السبسب: الأرض القاحلة الواسعة. الدرب: الممرّ في الجبل.
(٥) الهجير: نصف النهار.

أنــا ابن الهِشامَيْنِ من غالــبِ　　أشُبُّ حروباً وأُطفي حروبا[1]
سَمَوْتُ إلى الشِّركِ في جَحْفَــلٍ　　مَلأتُ الحُزون به والسُّهوبا[2].

٤ - ★ ★ المقتبس (راجع الفهرس فيه)؛ جذوة المقتبس ١١ (الدار المصرية) ١٠: الحلة السيراء ١: ١١٣ - ١١٩؛ المغرب ١: ٤٥ - ٥١؛ البيان المغرب... أعمال الأعلام ٢٢؛ نفح الطيب ١: ٣٤٤ - ٣٥٠؛ دائرة المعارف الإسلامية ١: ٨٢ - ٨٣؛ نيكل ٢١ - ٢٢؛ مختارات نيكل ١٤؛ الأعلام للزركلي ٤: ٧٦ (٣: ٣٠٥).

عبد الله بن الشمر

١ - هو عبدُ اللهِ بنُ الشَّمْرِ بن نُميرِ القُرطبيُّ، كان أبوه الشَّمْرُ من موالي بني أُمَيَّةَ ومن أهل العلم بالعربية.

نشأ عبدُ اللهِ بن الشَّمْرِ جامعاً لكثيرٍ من الخِصال التي تُحَبِّبُه إلى الناس: لطيفَ المعاشرة جامعاً لفنونٍ من العلم والأدب. وقد صَحِبَ عبدَ الرحمن بنَ الحَكَمِ قبلَ أن يَلِيَ عبدُ الرحمن الإمارةَ (سنة ٢٠٦ = ٨٢٢ م) ثمّ بعدَ أن تولّى الإمارة. وقد كان في كلّ هذه الحِقْبة نديماً لعبد الرحمن ومُنَجِّماً له وشاعره (راجع نفح الطيب ٣: ٦١٣).

ولمّا غزا عبدُ الرحمن بن الحَكَمِ أرضَ جيلِيقِيَةَ[3]، سَنَةَ ٢٢٥ (٨٤٠ م)، كان عبدُ الله بنُ الشَّمْرِ مَعَهُ. ثمّ تُوُفِّيَ ٱبنُ الشَّمْرِ بُعَيْدَ ذلك.

٢ - كان عبدُ اللهِ بن الشَّمْرِ مُتَفَنِّناً في عددٍ من العلوم بارعاً في التنجيم خاصّةً جيِّدَ الشِّعْرِ مطبوعاً. وفنونُ شِعرِه، فيما يبدو، المديحُ والعِتاب والوصف والهجاء.

---

(١) الهشامين: هاشم بن عبد شمس (في الجاهليين) وهشام بن عبد الملك الأموي.
وفي نسب قريش (والأمويّون منهم) أجداد هم: لؤي بن غالب بن فهر بن مالك، وجده أيضاً هشام بن عبد الرحمن الداخل.

(٢) الجحفل: الجيش العظيم: الحزن (بفتح الحاء وسكون الزاي): الأرض القاسية التي يصعب المسير فيها. السهب: الأرض المستوية التي يسهل السير فيها.

(٣) جيليقية: الطرف الشمالي الغربي من شبه جزيرة الأندلس.

٣ - مختارات من شعره

- خرج عبدُ الرحمنِ بن الحَكَمِ مرّةً لصيدِ الغرانيق (والغُرنوق طائرٌ مائي يُشْبِهُ الكركيّ)، وكان البردُ شديداً، فقال ابن الشَّمْرِ، وكان مَعَه:

ليتَ شِعْري أمِنْ حديدٍ خُلقْنا	أم نُحِتْنـــا من صَخْرة صَمّـاءِ؟
كلَّ عامٍ في الصيف نحنُ غُزاةٌ،	والغَرانيــقُ صيدُنــا في الشتـاء
إذ ترى الأرض - والجليدُ عليها	واقـعٌ - مثــلَ شُقّــةٍ بيضاء.
وكأنّ الأنوفَ تُجْدَعُ منّا	بالَمواسي لزُعْزُع ورُخــــاء[1].
نطلُــبُ الموتَ والهــلاكَ بإلحـا	حٍ، كأنّا نشتـاقُ وقـتَ الفنـاء.

- جرى ذاتَ يومٍ حديثٌ طويلٌ بينَ عبدِ الرحمن بن محمّدٍ ووزيرِه في الُموازنة بين جاريةٍ وعِقدٍ من الجوهر (اللؤلؤ) كانت تلبَسُهُ، فطَلَبَ عبدُ الرحمنِ مِن ابنِ الشَّمْرِ أنْ يقولَ شيئاً في هذا المعنى فقال:

أتَقْرُنُ حَصْبــاءَ اليواقيــتِ والشَذْرِ	إلى مَنْ تعالى عن سَنا الشَّمْس والبدر[2]؟
إلى من بَرَتْ قِدْماً يـدُ الله خلقَـهُ،	ولم يكُ شيئاً غيرُه أبداً يَبْري[3]؟
فأكْرِمْ بــه من صِبْغَــةِ اللهِ جوهراً	تضاءل عنه جوهرُ البر والبحر[4]!

٤ - ★ ★ أخبار مجموعة ١٣٦ - ١٣٨؛ ابن الفرضي ٢٦٨ رقم (٦٩١)؛ المقتبس ٦٥ - ٦٦، راجع الفهرست أيضاً؛ الحلة السيراء ١: ١١٦ - ١١٨؛ المغرب ١: ١٢٤ - ١٢٧؛ البيان المغرب ٢: ٨٥ - ٩٢؛ نفح الطيب - راجع الفهرس؛ نيكل ٢١؛ مختارات ١٣ - ١٤.

---

(١) تجدع: تقطع. المواسي: جمع موسى: سكّين حادّة. الزعزع: الريح الشديدة. الرخاء: الريح الليّنة. - إذا اشتدّ البرد وتجمّدت الأعضاء (كالأذن والأنف) يسهل انفصالها.

(٢) قرن: جمع، (شبّه، وازن بين شيئين). الحصباء: الحصا، الحجارة الصغيرة. الشذرة: القطعة الصغيرة من الذهب، الخرزة الصغيرة يفصل بها بين الحبّتين من اللؤلؤ في العقد. السنا: ضوء البرق.

(٣) برت - برأت: خلقت. ولم يكن غيره (أي الله) يبري (يبرأ) شيئاً.

(٤) الجوهر: اللؤلؤ.

عبد الملك بن حبيب

١ - هو أبو مروانَ عبدُ الملكِ بنُ حبيبٍ[1] السُلَمي المِرْداسي الإلْبيري القُرْطبي الأندلسيّ، من موالي بني سُلَيم، وُلِدَ في حِصْنِ واطَ قُربَ غَرناطةَ (في كورة إلبيرةَ) بُعيد سنة ١٨٠ (٧٩٦ م).

عاش عبدُ الملك بنُ حبيبٍ في صدرِ حياتِهِ مُدَّةً في إلبيرةَ وقُرطبةَ وتَفَقّه فيهما ثمّ رَحَلَ إلى المَشْرق فحجّ ولَقِيَ نفراً من أصحاب مالكِ بنِ أنَسٍ ومن غيرهم: سَمِعَ من عبدِ الملكِ بنِ الماجشون (ت ٢١٢) وأسدِ السنّةِ أسدِ بنِ موسى الأُمويّ (ت ٢١٢) وأصبغَ بنِ الفَرَج (ت ٢٢٥) ومن إسماعيلَ بنِ أبي أُوَيْسٍ وعُبيدِ الله بن موسى الكوفي وسواهم. ولا يُمْكِنُ أن يكون عبدُ الملكِ بنُ حبيبٍ، الذي وُلِدَ سَنَةَ ١٨٠، قد لَقِيَ مالكَ بنَ أنسٍ الذي تُوُفّيَ سَنَةَ ١٧٩، كما زعم نَفَرٌ من الذين ترجموا لعبدِ الملكِ بن حبيبٍ!.

ولمّا عاد عبدُ الملك بنُ حبيبٍ إلى الأندلس سَكَنَ قُرْطبةَ إلى أن تُوُفّيَ في رابعِ رَمَضانَ من سَنَةِ ٢٣٨ (١٨/ ٢/ ٨٥٣ م) في الأغلب. وكان قبلَ وفاتِهِ قد وَقَفَ جميعَ أملاكِهِ على جامع قرطبة.

٢ - كان عبدُ الملكِ بنُ حبيبٍ عالماً مشهوراً مُتَصَرِّفاً في عددٍ من فُنونِ العلم من التفسير والحديث والفِقْه والتاريخ والشعرِ والطِّب والفلك. وقد عُرِفَ بلقب «عالم الأندلس»؛ ومنهم مَنْ يجعَلُه صِنْواً لشبطونٍ (راجع، فوق، ص ٩٣) فلقد كان له أثرٌ في انتقالِ أهلِ المَغْرِبِ والأندلس من مذهبِ أهلِ الحديثِ إلى مذهب الإمام مالك.

وعبدُ الملكِ بنُ حبيبٍ مُصَنِّفٌ مُكْثِرٌ، فمن كتبه: كتاب مكارم الأخلاق - أصول الفرائض (إرث) - كتاب الورع - غريب الحديث - طبقات الفقهاء - تفسيرُ موطّإِ مالكٍ - الواضحة (شرح على موطّأ الإمام مالك) - «التاريخ»

---

(١) في البيان المغرب لابن عذاري (٢ : ١١٠): «هو عبد الملك بن سليمان بن مروان بن جيهلة بن عبّاس بن مرداس السلمي، يكنى أبا هارون».

(وعنوانه طويل يُوجِزُ محتوياتِه. كتابٌ في ابتداء خَلْق الدنيا وذِكْرِ ما خلق اللهُ فيها مِنَ ابتداء خلق السموات وخلق البحار والجبال والجنّة والنار وخلق آدمَ وحوّاءَ وما كان من شأنهما مَعَ إبليسَ وعِدّةُ الأنبياء نَبِيًّا نَبِيًّا إلى محمّدٍ صلّى الله عليه وسلّم وعليهم أجمعين وعِدّةِ الكتب المُنْزَلة وعدة الخلفاءِ إلى حين استفتاحِ الأندلس... وفي آخرِ الكتابِ فصولٌ في الفِقْه والأخلاق والآداب وطائفة من الأشعار ثمّ فصل عن قضاة الأندلس).

والـذي يبدو أنّ النُسخةَ التي وصلتْ إلينا من هذا الكتاب الكبيرِ هي من صُنْعِ ٱبن أبي الرِّقاع تلميذِ عبدِ الملكِ بنِ حبيبٍ أضافَ فيها إلى ما كان قد رواه عن ٱبنِ حبيبٍ أشياءَ كثيرةً، مِنْ ذلك أنه ٱستمرَّ في سِلسلةِ أمراءِ الأندلسِ إلى سَنَةِ ٢٧٤ هـ (٨٨٨ م)، بينما كانت وفاةُ عبدِ الملكِ بن حبيبٍ سَنَةَ ٢٣٨ هـ (راجع بروكلمن ١: ١٥٦).

٣ - **مختارات من شعره**

- قال عبد الملك بن حبيب يشكو الدهر:

صَلاحُ أمري والـذي أبْتَغي ... هَيْنٌ عـلى الرحمنِ في قُدْرَتِـهْ.
ألفٌ من البِيض؛ وأقْلِلْ بها ... لعالِمٍ أزْرى عـلى بُغْيَتـه[1].
زِرْيـابُ يأخذُهـا قَفْلَـةً ... وصَنْعَتي أشرفُ من صَنْعته[2].

- وكَتَبَ إلى محمّدِ بنِ سعيدِ الزجّاليّ رِسالةً خَتَمها بهذهِ الأبياتِ، وهي أيْضاً في الشكوى:

كيف يُطيقُ الشعرَ من أصْبَحَتْ ... حالتُـه اليوم كحـالِ الغَرِقْ.
إذا قَرَضْتُ الشعرَ أو رُمْتُه ... حالتْ همومي دونـه فانغَلَـقْ.

---

(١) ألف من البيض: ألف درهم (من الفضّة).
(٢) زرياب المغنّي (راجع ص ٨٠). يأخذها قفلة (يأخذ ألف درهم في غناء قفلة - نحو شطرين في آخر الأغنية).

والشعرُ لا يَسْلَسُ إلاّ على فَراغِ قلبٍ واتّساعِ الخُلُق.

٤ - ★ ★ ★ ابن الفرضي ١ : ٣١٢ - ٣١٥ ؛ رقم (٨١٦)؛ الزبيدي ٢٨٢ - ٢٨٣ ؛ جذوة المقتبس ٢٦٣ - ٢٦٥ (الدار المصرية) ٢٨٢ - ٢٨٤ (رقم ٦٢٨) بغية الملتمس ٣٦٤ (رقم ١٠٦٣)؛ انباه الرواة ٢ : ٢٠٦ - ٢٠٧ ؛ المغرب ٢ : ٩٦ ؛ الديباج ١٥٤ ؛ بغية الوعاة ٣١٢ ؛ شذرات الذهب ٢ : ٩٠ ؛ نفح الطيب ١ : ٤٦ ثمّ ٢ : ٥ - ٨ ؛ بروكلمن ١ : ١٥٦ ، الملحق ١ : ٢٣١ ؛ ابن قنفذ ١٧١ ؛ المطمح ٣٦ - ٣٧ ؛ بالنثيا ١٩٤ - ١٩٥ ؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣ : ٧٧٥ ؛ الأعلام للزركلي ٤ : ٣٠٢ (١٥٧).

عبّاس بن ناصح

١- هو أبو العَلاء عبّاسُ بنُ ناصحٍ الثَقَفيّ الجَزيريُّ، نِسبةً إلى الجزيرة الخضراء (جَنوبيّ الأندلس). وقيل إنّ أباه ناصحاً كان عبداً لمُزاحِمةَ بنتِ مُزاحِمٍ الثَقَفيّ الجزيريّ (المغرب ١ : ٣٢٤).

وُلِدَ عبّاسُ بنُ ناصحٍ في الجزيرة الخضراء ونشأ فيها. ثمّ إنّه جعل يتردّدُ على قُرْطُبَةَ ويتّصلُ بالحَكَمِ بنِ هشامٍ الرَبَضِيِّ (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) ويمدَحُهُ. فولاّه الحكَمُ القضاءَ على الجزيرةِ الخضراء[١].

ورَحَلَ عبّاسٌ إلى المشرق، قيل ذهب لِيَرَى أبا نُواسٍ وغيرَه من شُعراءِ العِراقِ[٢]. وقيل أرسَلَه عبدُ الرحمنِ بنُ الحَكَمِ (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) إلى العراقِ في الْتِماس الكُتُبِ القديمةِ، فأتاه بالسنْدْ هِنْد[٣] وغيرِه.

---

(١) نقل السيوطي (بغية الوعاة ٢٧٦) عن الزبيدي وابن الفرضي أن عباس بن ناصح ولي قضاء (القضاء في) بلده و(في مدينة) شذونة. وفي المغرب (١ : ٣٢٤): أنّ الزبيدي قال في كتابه « طبقات العلماء » إن عباس بن ناصح « ولي قضاء بلده مع شذوذه »!

(٢) ابن الفرضي ١ : ٣٤١. ويذكر ابن الفرضي أيضاً (١ : ٣٤٠ - ٣٤١) أن ناصحاً رحل بابنه عباس، وهو صغير، إلى المشرق، فنشأ عباس في مصر وتردّد في الحجاز طالباً للغة العرب؛ ثمّ رحل به إلى العراق فلقي الأصمعيّ (ت ٢١٦ هـ). ورجع عباس إلى الأندلس، فلمّا سمع بذكر أبي نواس رحل إلى المشرق ثانية. ولا أرى هذه الروايات تتّسق اتّساقاً معقولاً.

(٣) السندهند كتاب في الفلك والحساب (راجع تاريخ العلوم عند العرب، للمؤلّف، ص ١٢٣ - ١٢٦).

وكانتْ وَفاةُ عبّاسِ بنِ ناصحٍ سَنَةَ ٢٣٨ (٨٥٢ - ٨٥٣ م) في الأغلب.

٢- كان عبّاسُ بنُ ناصحٍ من ذَوِي الفصاحة عالماً باللُّغةِ[١] والنَحْوِ والفِقْه والحديث والتعاليم (العلوم العَدَديَّة: الرياضيّات وما يتّصل بها)، ولكنْ غَلَبَ عليه الشعرُ، وكان شِعرُهُ جَزْلاً مَتيناً يُشْبِهُ ما ألِفَهُ قدماءُ الشعراءِ في المَشْرق.

٣- مختارات من آثاره

في الحلّة السيراء (١: ٤٨):

قال عثمانُ بن المُثنّى النَحْويّ المؤدّب: قَدِمَ بعدَ الوقعة علينا عبّاسُ بن ناصحٍ قرطبةَ، أيامَ الأميرِ عبد الرحمن بن الحكم، فاَستَنْشَدني شعرَ الأميرِ الحكم في الهَيْج (راجع، ص ٥٧)، فأنشدتّه إياه. فلمّا بلغتُ إلى قوله:

وهل زِدْتُّ أن وَفَيتُهم صاعَ قَرْضِهم فلاقَوْا منايا قُدِّرَتْ ومصارعا،

- قال عبّاس (بن ناصح):

.... لو أنّ الحكَمَ يَخشى الخصومةَ (يومَ القيامة) بينَه وبين أهل الرَبَض لقام بعُذرِه فيهم هذا البيتُ. وفي رواية: إذا كانتْ (تلك) الخصومةُ بينَه وبين أهل الربض (عندي) جَبَرْتُه (عَطَفْتُ عليه)، فإنّ هذا البيتَ لَيُحاجِجُ عنه يومَ القيامة (لأنه نسب مقتل خصومه إلى انتهاء آجالهم لا إلى محاربته هو لهم).

- قال عباسُ بنُ ناصحٍ في طولِ الحياة (بغية الوعاة ٢٧٦):

ما خيرُ مُدّةِ عيشِ المرءِ لو جُعِلَتْ كمُدّةِ الدهرِ، والأيامُ تُفْنيها[٢]؟
فارغَبْ بنفسِك أنْ ترضى بغيرِ رضاً[٣] وابْتَغْ نجاتَك بالدُنيا وما فيها.

---

(١) ذكره الفيروزابادي في «البلغة في تاريخ أئمّة اللغة» (ص ١٠٣).

(٢) هذا البيت يفهم على معنيين: لا خير في مدّة، مهما تكن طويلة، ما دامت في آخر الأمر ستنتهي.
- لا خير في طول الحياة، ولو كانت طول الدهر (بلا نهاية)، إذا فنيت (إذا أصبح الإنسان عاجزاً عن التمتّع بما فيها).

(٣) بغير رضا (وإن لم يكن في الحياة ما ليس يدعو إلى الرضا).

– وفي نفح الطيب (١ : ٣٤٣) أنّ العبّاسَ الشاعرَ سَمِعَ امرأةً في مدينة وادي الحجارة تستغيثُ بالحكمِ بنِ هشامٍ لكَثْرة اعتداء الإسبان على المسلمين. فلما عاد عباسٌ إلى قُرطبةَ دخل على الحَكَم وأنشدَه قصيدةً كان قد نَظَمَها في ذلك، مَطْلَعُها:

تَمَلْمَلْتُ في وادي الحِجارةِ مُسْهَراً ... أُراعي نجوماً ما يُرِدْنَ تَغَوُّرا[1].

إليك، أبا العاصي، نَضَيْتُ مَطِيّتي ... تسيرُ بِهَمٍّ سارِيـــاً ومُهَجِّرا[2].

تـــداركْ نساءَ العالمــين بنُصْرةٍ، ... فإنّـك أحْرى أن تُغيث وتَنْصُرا!

– وفي طبقات الزبيدي (ص ٢٨٦) أنّ أبا نواسٍ سأل عباسَ بن ناصحٍ إنشاد قصيدةٍ فأنشده: فأدتُ القريضَ، من ذا فأد[3]!

٤ – ★ ★ الزبيدي ٢٨٤ – ٢٨٦؛ ابن الفرضي ١ : ٣٤٠ – ٣٤١ (رقم ٨٨١)؛ المغرب ١ : ٣٢٤، ٤٥ – ٣٢٥؛ إنباه الرواة ٢ : ٣٦٥ – ٣٦٧؛ بغية الوعاة ٢٧٦؛ نفح الطيب ١ : ٣٤٣، ٢ : ٢٦١ – ٢٦٢، ٣ : ٤٢٤ (الرقم في الفهرست يبدو أنه خطأ)، دائرة المعارف الإسلامية ١ : ١٢ .

أفلح بن عبد الوهّاب

١ – هو أبو سعيدٍ أفلحُ بنُ عبدِ الوهّابِ بنِ عبدِ الرحمن بنِ رُسْتَمَ الإمامُ الثالثُ في الدولة الإباضية في تِيهَرتَ بُويع له بالإمامة (سَنَةَ ١٩٠) يومَ وفاةِ أبيه. ومَعَ أنّه كان ذا عزمٍ وحزمٍ ضابطاً لأمورهِ فقد كَثُرَتْ عليه الفِتَنُ والحروب. من أشهرِ حروبهِ وأكبرِها حربه مَعَ خَلَفِ بنِ السَمْحِ بن أبي الخطّاب عبد الأعلى (وكان السَمْحُ هو الإمامَ الأولَ بطرابُلُسَ ووزيراً لأفلحَ ثمّ واليَه على جَبَلِ نفّوسةَ). ولكنّ خَلَفاً طَمِعَ في الإمامة (العامّة) ونَصَبَ الحرب لأفلحَ. فولّى أفلحُ على جبلِ نفّوسةَ أبا

(١) مسهراً: مصاباً بهمّ يذهب بنومي. تغوّرت النجوم = غارت: غابت.

(٢) أبو العاصي كنية الحكم بن هشام الربضي. نضيت الثوب وأنضيته: أبليته. المطيّة: الدابة. نضيت مطيّتي: أنضيت مطيّتي بطول الطريق ووعورته.
الساري: المسافر في الليل. المهجّر: السائر في المجير (نصف النهار، في وقت الحرّ الشديد).

(٣) لم يذكر الزبيدي غير هذا الشطر، ويبدو أنّه مطلع القصيدة. فأد فلان فلاناً: أصاب فؤاده. فأدتّ القريض (الشعر): برعت فيه، بلغت فيه الغاية.

الحسنِ أيوبَ بنَ العبّاس. ويبدو أن أبا الحسنِ هذا تُوُفِّيَ وشيكاً فولّى أفلحُ بعدَه أبا عُبَيْدَةَ عبدَ الحميد الجِنّاويَّ (الأزهار الرياضية ٢ : ١٥٢) فحارب أبو عبيدةَ خلفاً وتغلّب عليه في ثالثَ عَشَرَ رَجَبَ من سَنَةِ ٢٢١. وقد نصب الحربَ أيضاً لأفلحَ رجلٌ يُعْرَفُ بابن فندين، كما كان عددٌ من القبائل يخرُجُ عن طاعتهِ مرّةً بعدَ مرّةٍ.

وكانت لأفلحَ صِلاتٌ حسنةٌ بملوكِ السودان (الغربي) وبملوك الأندلس الذين عاصَرَ منهم ثلاثةً هُمُ الحَكَمُ الأولُ (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) وعبدُ الرحمنِ الأوسط ومحمّدُ بن عبد الرحمن (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ). ولمّا بنى محمّدُ بنُ إبراهيمَ بنِ الأغلب قُرْبَ مدينة تيهرتَ مدينةً سمّاها «العبّاسية» سارَ إليها أفلحُ وأحْرَقَها، سَنَةَ ٢٢٧[1] وكتبَ بذلك إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط فأرسلَ إليه عبدُ الرحمن مِائَةَ ألفِ درهمٍ[2].

وكانتْ وفاةُ أفلحَ سَنَةَ ٢٤٠ (٨٥٥ م) بعد أن بَقِيَ في الإمامة خمسينَ سَنَةَ.

٢ - كان أفلحُ بنُ عبدِ الوهّاب فقيهاً، كما كان أديباً له نَثْرٌ ونَظْمٌ. ولم يكن في نَثْرِهِ ونظمِهِ ابتكارٌ، بل كانتْ آثارُه مجموعاً من الآراءِ العامّة المعروفةِ السائدة، إلاّ أن سَبْكَه لهذه الآراء والأقوال المعروفةِ كان سَبْكاً سائغاً جميلاً ذا أثرٍ في النفوس. وتكاد تكونُ جميعُ آرائه وتعابيرِه آقتباساً من القُرآنِ والحديث. ولآثارِه قيمةٌ واضحةٌ هي أنّها تُمَثِّلُ رأيَ الإباضيةِ في الدينِ والأخلاقِ وفي المَسْلَكِ العَمَليِّ في الحياة.

٣ - مختارات من آثاره

- النصيحة العامّة:

من أفلحَ بنِ عبدِ الوهّاب إلى مَنْ بَلَغَهُ كِتابُنا هذا من المسلمين. أمّا بعدُ، فالحمدُ

---

(١) في تاريخ ابن الأثير (٦ : ٥١٩) أن هذه الحادثة كانت في سنة ٢٣٩ (نقلاً عن فتوح البلدان للبلاذري، ص ٢٣٤)، فتكون الحادثة حينئذ في أيام الأمير محمّد.

(٢) يقول الباروني (الأزهار الرياضيّة ١٨٦ - ١٨٧) أن أفلح كان يهادي ملوك الأندلس بالمال، وأنّ أفلح لم يتقرّب بإحراق العبّاسية تقرّباً لملوك الأندلس، بل كان ملك الأندلس هو الذي تقرّب من أفلح بالمال.

لله الذي هدانا للإسلامِ وأكرمنا بمحمّدٍ عليه السلام. وأبقانا بعدَ تناسخِ[1] الأمم حتّى أخرَجَنا في الأمة المُكرَّمةِ التي جعَلَها أمّةً وسَطاً شاهدةً لِنَبيّها بالتبليغِ ومُصَدِّقةً لجميعِ الأنبياء وشاهدةً على جميعِ الأممِ بالبلاغِ من الأنبياء عَلَيْهِمُ[2] السلامُ مَنّاً من اللهِ ورحمةً. أرسلَ إلينا نَبِيَّهُ محمّداً صلّى الله عليه وسلّم بالهدى ووَعَدَهُ بالنصرِ على الأعداء وضَمِنَ له الفَلَجَ والغَلَبَةَ ووَعَدَهُ بالعِصمة[3] وقال له عزّ وجلّ: « يا أيُّها الرسولُ، بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إليكَ مِنْ ربّك. وإنْ لم تفعلْ فما بَلّغتَ رسالاتِه. واللهُ يَعْصِمُكَ من الناس »[4]. فأدّى ما أمَرَهُ اللهُ بهِ ونَصَحَ لأُمّتِه ودعا إلى سبيلِ ربّه وجاهد عَدُوَّه وغَلُظَ على الكفّار ولانَ للمؤمنين، فكان لهم كما وَصَفَه اللهُ تعالى رؤوفاً رحيماً. حتّى انْقَضَتْ مُدّتُه وفَنِيَتْ أيامُه واختار له ربُّه ما عنده فقَبَضَهُ[5] إليه محمودَ السَّعْيِ مشكورَ العَمَلِ صلّى الله عليه وسلّم. فلم تَبْقَ خِصْلَةٌ من خِصال الخير الدالّةِ على الرُشْدِ إلاّ دعا إليها وسَنّها أو فَرَضَها أو أوْجَبَها، ولم تَبْقَ خصلةٌ من خِصالِ الشر الداعيةِ إلى الهَلَكَةِ إلاّ زَجَرَ عنها وأمر باجْتِنابِها رحمةً من الله لعباده. فله الحمدُ على ذلك كثيراً. ثمّ أمرَ تعالى بالجِهادِ في سبيلِهِ والقِيام بحقّه والأخذِ بأمرِه والانتهاء عمّا نَهى عنه، وفَرَضَ الأمرَ بالمعروف والنَهْيَ عن المُنْكر وإغاثةَ الملهوف والقيامَ مَعَ المظلوم والقَمْعَ[6] للظالمين لكيلاً تقومَ للشيطانِ دعوةٌ ولا تثبُتَ لأهلِ حزبِه قَدَمٌ ولا ينفُذَ لهم حُكْمٌ....

(١) تناسخ الأمم (هنا) تطوّر بعض الأمم من بعض وترقّيها في سلّم الحضارة.

(٢) هذه الجملة مقتبسة من ثلاث آيات: من سورة البقرة (٢: ١٤٣) « وكذلك جعلناكم أمّة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » ثمّ من سورة آل عمران (٣: ١١٠) « كنتم خير أمّة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون (بفتح الهاء) عن المنكر » ثمّ من سورة النساء (٤: ٤١) « فكيف إذا جئنا من كلّ أمّة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً؟ ». - هذا مثال واحد، ومعظم جمل أفلح تشبه ذلك.

(٣) العصمة (هنا): الحماية من الناس (دفع ضرر الناس عن الرسول)، راجع الآية المستشهد بها. الفلج الظفر.

(٤) راجع سورة المائدة (٥: ٦٧).

(٥) اختار له ربّه ما عنده (عند ربّه): فضّل له الحياة الأخرى على هذه الحياة الدنيا. قبضه إليه: توفّاه (نقله من الحياة الدنيا إلى الحياة الأخرى).

(٦) الملهوف: المظلوم الذي يطلب من الناس مساعدتهم. القمع: القهر والإذلال.

ثمّ أُحَذِّرُكم أهلَ البِدَعِ الذين لم يَعْرِفوا حقًّا فيَتَّبِعوه ولم يَلْقَوْا أهلَ العلمِ فيَقْتَبِسوا منهمُ الدينَ. عاشوا مَعَ أهلِ الجهلِ فخَلا بِهِمُ الشيطانُ ونَفَخَ في قلوبِهِمُ الكِبْرَ وأوْرَثَهُمُ العُجْبَ فاسْتَحْيَوْا[1] أن يقولوا فيما لا يَعلمون «لا نَعْلَمُ». فأفْتَوْا برأيِهِمْ[2] أقواماً جَهَلَةً لا يَعْرِفون ما يُقال لهم: قَلّدوهم[3] دينَهم وألزموا أنْفُسَهُم الرأيَ فاتّبعوهم على بِدْعَتِهِمْ فضلّوا وأضلّوا كثيراً وضلّوا عن سواء السبيل... فاحْذَروا، مَعاشرَ المسلمين، مَنْ كانت هذه صِفَتُه ومَنْ حَلّ بهذه المنزلةِ ورَضِيَها لنفسِه. واعلموا أنّ مَنْ كانَ كهذا فقد صارَ من حِزْبِ الشيطانِ وأوليائه....

هذا، وقد بالَغْتُ إليكم في النصيحة وشَرَحْتُ لكم الموعظةَ ورَضِيتُ لكم بما رَضِيتُ بِهِ لنفسي ونَهَيْتُكم عمّا أنهى عنه نَفْسِيَ نصيحةً لله واجتهاداً في طَلَبِ رِضائه....

- فضلُ العلم. قال من قصيدةٍ له:

للهِ عُصبةُ أهلِ العلمِ إنّ لهم ... فضلاً على الناسِ غُيّاباً وحُضّار[4].

العلمُ علمٌ، كفى بالعلمِ مَكْرُمَةً. ... والجهلُ جهلٌ، كفى بالجهل إدْبار[5].

للعلم فضلٌ على الأعمال قاطبةً؛ ... عن النَبِيءِ رَوَيْنا فيه أخبار[6].

يقول: طالبُ علمٍ باتَ ليلتَه ... في العلم أعظمُ عند الله أخطارا

من عابدٍ سَنَةً لله مُجتهداً ... صامَ النهارَ وأحيا الليلَ إسهارا.

وقال: إنّ مِدادَ الطالبين على ... ثِيابِهِمْ وعلى القُرطاسِ أسطارا[7].

---

(١) الكبر: الجبر والتعاظم على الناس. العجب: الزهو (الافتخار) بالنفس. استحيا: غلبه الحياء أو الخجل.

(٢) أفتى برأيه: فسّر أمور الدين بعقله هو من غير رجوع إلى القرآن أو الحديث أو أعمال الصحابة.

(٣) الملموح هنا أن العامّة من الناس تابعوا الفقهاء في الاعتقاد والعبادات. ويمكن أن تعني أن الفقهاء قلّدوا العامّة الدين (فرضوه عليهم - جعلوه كالقلادة في أعناقهم).

(٤) إنّك تستفيد من العالم إذا حضرت عليه شخصيّاً أو إذا قرأت في كتبه (ولو بعد موته).

(٥) الإدبار: تولي (ذهاب) النجاح والتوفيق عن الإنسان.

(٦) وصل إلينا عن النبيّ أحاديث في فضل العلم.

(٧) المداد: الحبر. الطالبون: طالبو العلم (التلاميذ). القرطاس: الورق. الأسطار: السطور.
- إنّ الحبر سواء أكتبت به سطوراً من العلم أو سقط على الثياب خطأ...

مثل[1] دم الشهداءِ المُكرَمينَ: لهم فضلٌ؛ فأكرِمْ بأهلِ العلم أخيارا.
أكرِمْ بهم مِنْ ذوي الفضلِ المُبين، لهم إرثُ النبُوّةِ في أيديهِمُ صارا[2].
ولا تكُنْ جامعاً للصُحُفِ تَخزِنُها كالعَير يحمِلُ بين العِير أسْفارا[3].
فاطلُبْ من العلم ما تُقْضى الفُروضُ به واعمَلْ بعلمك مُضْطرًّا ومختارا[4].
واجعَلْهُ للهِ، لا تجعَلْهُ مَفْخَرَةً، ولا تُرائي به بَدْواً وأحْضارا[5].
مولاك يعلَمُ ما تُخفي الصُدورُ، فلا يكن لك الحِلْمُ من مولاك غرّارا[6].
ولا تُداهِنْ إذا ما قُلتَ مسألةً، أضْرَرْتَ بالدين- إن داهَنْتَ - إضرارا[7].
وعاشِرِ الناسَ - وانظُرْ من تُعاشِرُهُ- قَصْداً، ولا تُكْثِرَنَّ الصَحْبَ إكثارا[8].
فرُبَّ مُكثِرِ صَحْبٍ لا يزالُ يرى لِنفسه قُرَناءَ السوءِ أشرارا.

٤ - ★ ★ الأزهار الرياضيّة ٢: ١٦٦ - ٢٢٢؛ معجم أعلام الجزائر ١: ٣٤٢ (٢: ٥)؛ تاريخ الجزائر العام ١: ١٩٨؛ الطمار ٣١.

سحنون

١ - هو أبو سعيدٍ عبدُ السلامِ بنُ سعيدِ بنِ حبيبٍ التَنوخيُّ، المعروفُ باسم سحنونٍ (بفتح السين أو بضمّها)، وُلِدَ في القيروانِ في أولِ رَمَضانَ من سنة ١٦٠ (١١/ ٦/ ٧٧٧ م).

---

(١) «مثل» فيها عيب (ينقص فيها مدّ: يجب أن يكون مكانها كلمة على وزن معنى أو رمى).
(٢) في الحديث: العلماء ورثة الأنبياء.
(٣) العير: الحمار. في القرآن الكريم: «كمثل الحمار يحمل أسفاراً (٦٢: ٥، سورة الجمعة). يحمل كتباً ولا ينتفع بما فيها. العير (بالكسر): القافلة.
(٤) ما تقضى الفروض به: ما يعلّمك أمور الدين (أو: ما تقرأه في صلاتك، مثلاً). اعمل بعلمك مضطرّاً ومختاراً (في كلّ حال) في أمور الدين وفي غير أمور الدين.
(٥) أحضار (المقصود جمع حضر ضدّ البدو).
(٦) - إذا لم يعاقبك ربّك اليوم على ذنب اقترفته فلا تغترّ بذلك وتمضي في اقتراف ذلك الذنب تكراراً، فقد تعاقب على ذلك كلّه غداً.
(٧) المداهنة: المصانعة: (موافقة الناس على رأي أنت تعتقد في نفسك خلافه).
(٨) عاشر الناس قصداً (باعتدال) لا تستكثر من الأصدقاء ولا تندفع في صداقة أحد بلا ضابط.

بدأ سحنونٌ دراستَه في تونسَ ثمّ رَحَلَ (١٨٨ هـ) إلى القاهرة فدرس على الفقيه المالكي أبي عبدِ الله عبدِ الرحمن بنِ خالدِ العُتَقي (١٣٢ - ١٩١ هـ). وهو صاحبُ المُدوَّنة (في الفقه المالكي) أخذها عن مالكِ بنِ أنَسٍ ، ثم أخذَها عنه سحنونٌ. ودَرَسَ سحنونٌ على نفرٍ كثيرين أيضاً. وزار سحنونٌ الشامَ ثمّ عاد إلى القيروان (١٩١ هـ = ٨٠٧ م) وبدأ نشرَ مذهبِ مالكٍ في المغرب.

وتولّى سحنون قضاءَ القَيْروانِ في رَمَضان من سَنة ٢٣٤ (نَيسان - أبريل ٨٤٩ م) في أيامِ أبي العبّاس محمّدِ بنِ الأغلب (٢٢٦ - ٢٤٢ هـ).

وكانت وفاةُ سحنونٍ في التاسعِ من رَمَضانَ من سَنَةِ ٢٤٠ (٧/ ٣/ ٨٥٥ م)، وقيل في رَجَبَ.

٢ - كان سحنونٌ حافظاً للعلم ثِقَةً زاهداً في الدنيا مُتواضعاً سليمَ الصدرِ ولكنْ شديداً على أهلِ البِدَعِ. ولسحنونٍ أثرٌ كبيرٌ في انتشار مذهبِ مالكٍ في المَغْرب.

وكان سحنونٌ مُصَنِّفاً، له: المدوّنة في مذهبِ الإمام مالكٍ - كتاب الأجوبة - كتاب آداب المعلّمين (بروكلمن، الملحق ١ : ٣٠٠).

في وفيات الأعيان (١ : ٥٢٣) أن القائد القاضِيَ أسدَ بنَ الفُراتِ (توفّي في بَلَرْمَ عاصمةِ صِقِلّية سَنةَ ٢١٣ هـ) وكان قد رَحَلَ إلى مِصر وسمع من عبد الرحمن بن القاسم وبدأ تأليف كتابٍ في مذهب الإمام مالك. وكان هذا الكتابُ يُعرَفُ بٱسم « الأسدية ». ثمّ إنّ سحنوناً حرّر هذا الكتاب ونقّحه وزاد فيه فأصبح عندنا يعرف اليوم باسم « المدوّنة ».

وذَكَرَ ابنُ خلدونٍ (المقدّمة ٨٠٧) أنّ الناسَ اتّبعوا « مدوّنةَ سحنونٍ، على ما فيها من اختلاطِ المسائلِ في الأبواب، فكانتْ تُسمّى المدوّنةَ والمُخلِّطة ».

٣ - مختارات من آثاره

- لسحنونٍ أقوالٌ حكيمةٌ منها:

أشقى الناسِ من باعَ آخرتَه بِدُنياه؛ وأشقى منه من باع آخرتَه بدنيا غيرِه

- أجرأُ الناسِ على الفُتْيَا أقلُّهم عِلْماً؛ يكونُ عندَ الرَجُلِ بابٌ واحدٌ من العلم فيظُنُّ أنّ الحقَّ كلَّه فيه- مِنْ فِقْهِ الرَجُلِ مَطْعَمُه ومَلْبَسه ومدخَلُه ومخرَجُه وصُحْبَتُه لأهلِ الخيرِ؛ وليستِ العِبادةُ بِطَأْطَأَةِ الرأسِ.

٤ - المدوّنة الكبرى، القاهرة ١٣٢٤ - ١٣٢٥ هـ؛ القاهرة ١٩٠٥ - ١٩٠٦ م.
كتاب آداب المعلّمين (تحرير حسن حسني عبد الوهّاب)، تونس ١٩٣١ م.

★ ★ تراجم أغلبية ٨٦ - ١٣٦؛ علماء إفريقية وتونس ١٨٤ - ١٨٧؛ وفيات الأعيان ٣: ١٨٠ - ١٨٢؛ ابن قنفذ ١٧٤؛ الديباج المذهب ١٦٠؛ بروكلمن ١: ١٨٦، الملحق ١: ٢٩٩ - ٣٠٠؛ دائرة المعارف الإسلامية (ط ١) ٤: ٦٤ - ٦٥؛ مجلّة العربي (٨/ ٦٥، ص ١١١)؛ الأعلام للزركلي ٤: ١٢٩ (٤: ٥).

عبيد الله بن قارلُمان[1]

١ - هو عبيدُ اللهِ بنُ قَرْلُمانَ بنُ بدرٍ، كان مولًى للأميرِ عبدِ الرحمنِ بنِ الحَكَمِ ابنِ هشامٍ (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) ومن نُدْمانِه. ولعلّ وفاتَه كانت قبلَ انتصافِ القرنِ الثالثِ (قبل ٨٤٦ م).

٢ - عبيدُ اللهِ بنُ قرلُمانَ من الشعراءِ المُتقدّمين، وكان مُقِلاً فيما يبدو، ولم يكنْ من فحولِ الشعراء.

٣ - مختارات من شعره

- جَلَسَ الأميرُ عبدُ الرحمنِ بنُ الحكم يوماً للفَصْدِ[2] وفرّقَ على مَنْ حَضَرَهُ من مواليهِ ونُدمانهِ مبالغَ من المال. وكان ابنُ قارلُمانَ غائباً في بادِيَتِهِ (في ضيعةٍ له قُرْبَ قُرطُبَةَ)، فلمّا عَلِمَ بذلك أسْرَعَ إلى قُرطُبَةَ رجاءَ أن ينالَ ما ناله غيرُه لهذه المناسبة، وأنْفَذَ إلى الأميرِ عبدِ الرحمنِ رُقعةً فيها الأبياتُ التاليةُ:

---

(١) راجع في تخريج الأسم «قرلمان»، تحت: أحمد بن قرلمان (ت ٣٧٧ هـ).
(٢) الفصد من وسائل الطّب القديم: استخراج شيء من الدم من جسم الإنسان (في الربيع) تخفيفاً.

يـا مَلِكـاً حَـلَّ ذُرى المَجْـدِ   وعمّ بالإنعـامِ والرِفْـدِ[1]،
طوبى لِمَنْ أسْمَعْتَهُ دعوةً   في يومِ إجماعِـكَ للفَصْـد
فظلَّ ذاك اليومَ من قَصْفِه   مُسْتَوْطِنـاً في جنّـة الخُلْـد[2].
وقد عَداني أن أُرى حاضراً؛   جَـدٌّ متى يُحْظِ الورى يُكْدِ[3].
فَانْتَعِشِ العَثْرةَ مِنْ عاثرٍ   عَـدَتْ عليـه أنْجُمُ الفُرْد[4]،
وٱمْنُنْ بإصفـادي بحطـاً لم يَزَلْ   يَشْمَلُ أهلَ القُرْبِ والبُعْدِ[5].

فوقّعَ الأميرُ عبدُ الرحمنِ في أسفلِ رُقعةِ ابنِ قَرْلُمانَ: «من آثَرَ (فضّل) التَضَجُّعَ فَلْيَرْضَ بحظِّه من النَوْم».

فعاوَدَهُ ابن قَرْلُمانَ برُقْعةٍ أُخرى فيها أبياتٌ مَطْلَعُها:

لا نِمْتُ إنْ كنتُ، يا مولايَ، مَحْروماً.

فأمَرَ له الأميرُ عبدُ الرحمنِ بِصلَةٍ.

٤ - ★ ★   أخبار مجموعة ١٣٩ - ١٤١؛ الحلّة السيراء ١: ١١٨ - ١١٩.

يحيى بن حكم الغزال

١ - هو يحيى بنُ حَكَمٍ البكريّ الجَيّاني، أصلُه من جيّانَ، وقد كان مولدُه في نحو سَنَةِ ١٥٤ (٧٧١ م)، وقيل في سَنَةِ ١٥٦: وكانت إقامتُه في قرطبة.

كان يحيى بن حَكَمٍ رجلاً فارِعَ الطولِ قويَّ البُنْيَةِ جَمَّ النَشاط جميلاً، ولقدِ

---

(١) الرفد: العطاء. عمّ بالرفد: أعطى جميع الناس. في هذه الأبيات روايات مختلفة قليلاً أو كثيراً.
(٢) القصف: اللهو.
(٣) عداه: مرّ به، فاته. جدّ: حظّ. يحظي: يجعل (للناس) حظّاً. يكدى: يبخل؛ وأكدى فلان فلاناً عن الشيء: ردّه عنه (يحظ ويكد مجزومتان باسم الشرط «متى»).
(٤) أنهضني من عثرتي (غلطتي). عدت عليه: اعتدت عليه، ظلمته. أنجم الفرد (بضمّ الفاء) الأنجم التي تبدو وحدها متفرّقة في أطراف السماء (راجع تاج العروس - الكويت ٨: ٤٨٣، ٤٨٧).
(٥) الأصفاد: العطاء.

آحتفظَ بنشاطِه وجمالِه إلى زمنِ شَيْخوختِه، فلُقِّبَ من أجلِ ذلك كلِّهِ بالغَزالِ.

من أشهرِ الأحداثِ في حياةِ يحيى بنِ حَكَمٍ أنّ عبدَ الرحمنِ الأوسطَ أرسلَهُ سفيراً إلى بلاد المجوس في (إحدى جُزُرِ الدانمارك)، نحو سنة ٢٠٥ (٨٢٠ - ٨٢١ م) فأظهر إعجاباً بالملكة «تود». ويبدو أيضاً أنه سَفَرَ إلى بَلاطِ القُسْطنطينية[١]. وقيل إنّ زِريابَ لمّا جاء إلى قرطبة، سَنَةَ ٢١٧ (٨٣٢ م) نشأتْ بينَه وبينَ يحيى بنِ حَكَمٍ نُفْرةٌ فهجاه يحيى وأقْذَع في هجائه. فغَضِبَ عبدُ الرحمن الأوسطُ ونَفَى يحيى عن بَلاطه (وزعموا عنِ الأندلس) فذهب يحيى إلى العِراقِ بُعَيْدَ وَفاةِ أبي نُواسٍ (ت ١٩٩ = ٨١٤ م) وبَقِيَ هُنالِكَ نحو عَشْرِ سَنَواتٍ. ولكنَّ زَمَنَ إقامته في العِراق وزَمَنَ سَفَارَتِهِ إلى بلادِ المجوس يتداخلان تداخلاً شديداً.

وتُوُفِّيَ يحيى بنُ حكمٍ الغَزالُ في مطلَع ٢٥٠ (٨٦٤ م).

٢ - كان يحيى بنُ حكمٍ الغزالُ متعدّدَ نواحي الشخصية. وكان مُشارِكاً في عددٍ من العلوم منها الفَلْسفة والفَلَك. وكذلك كان لَبِقاً حَسَنَ التحديثِ مِمّا جَعَله ناجحاً في الحياةِ السياسيةِ وفي السِفارة.

وكذلك كان أديباً وشاعراً مطبوعاً صاحِبَ بديهةٍ وآبتكارٍ في المعاني، وإنْ كان في أُسْلوبِهِ يَطْبَعُ على غِرارِ المشَارقة مَعَ قِلّةِ عِنايةٍ بالديباجةِ، إذا كانتِ الديباجةُ تَحولُ بينَه وبينَ كمالِ التعبيرِ عنِ المعنى (كما كانَ شأنُ ابن الروميّ). وفنونُ شعرِه المدحُ والهجاء والغزل والـمُجون والخمريّات (وإن لم يكنْ يشرَبُ الخمر) والحِكمةُ مَعَ

---

(١) صدر في سفارة الغزال هذه كتاب هو

The Poet and the Spae-Wife

An attempt to reconstruct al-Ghazal's embassy to the Vikings,

by W. E. D. Allen.

Dublin (Allen Figgis and Co. Ltd). 1960.

ومؤلّفه لا يوافق المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال على رأيه في أن سفارة الغزال كانت إلى القسطنطينية، بل يرى أنّها كانت إلى جزيرة إيرلندة، (غرب جزيرة انكلترة) حينما كانت ايرلندة تحت حكم الفايكنغ الشماليين، وأن هذه السفارة كانت بين الشهر الأوّل من عام ٨٤٥ للميلاد (شوّال ٢٤٤) ومنتصف الصيف من ذلك العام (ص ٥٤).

شيء من التشاؤم. وله أيضاً قَصَصٌ، فقد نَظَم أُرْجوزةً طويلة في فتح الأندلس وفي الوقائع التي دارتْ بينَ المسلمين وملوك النصارى. وشاعتْ هذه الأُرجوزةُ بين الناس. (نفح الطيب ١ : ٢٨٢)، ولكنّها ضاعت فيما بعد[١].

٣ - مختارات من شعره

- كان بعضُ أمراءِ الأندلسِ قد ولّى يحيى الغزالَ قَبْضَ الأعشارِ (نصيب الدولة من المواسم) وخَزْنِها. وبدأ قحطٌ في البلاد فباع يحيى الغزالُ الحبوبَ التي في الأهراء بالثمن الرائج فَنَفَقَتْ بسُرعةٍ. فغَضِبَ الأمير وطالب يحيى بثمن المثل (بعد ارتفاع الأسعار) فلم يستطعْ يحيى ذلك لأنّ الفرق بين الثمن الذي باع به يحيى الحبوبَ والثمن الذي غلا كان ثلاثينَ ألفَ (درهمٍ). فأمرَ الأميرُ بسَجْنِ يحيى الغزال وتقييدِه. فنَظَم يحيى الغزالُ في سِجْنه قصيدةً يبسُطُ فيها القضيّة من وِجْهةِ نظرهِ هو، فَرضِيَ الأميرُ وأطلق سَرَاحَ يَحْيى.

وفي المطرب أن الأميرَ الذي وقعتْ في أيامهِ هذه الحادثةُ هو عبدُ الرحمن ابن الحكم (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ). لكنّ مطلعَ القصيدةِ يَدُلّ على أن شاعرَها كان في الخمسين من العمر (ويحيى الغزالُ كان في أيام عبد الرحمن بن الحكم في صدر شبابه)، إلاّ إذا قَبِلْنا أن يكونَ المطلعُ تقليديًّا عامًّا وليس تجريداً (خطابَ الشاعرِ نفسَه). وفي ما يلي عددٌ من أبياتِ القصيدة المذكورة:

بعضَ تصابيكَ على زينبِ. لا خيرَ في الصَبْوة للأشيبِ[٢].
أبعدَ خَمسينَ تَقضَّيْتَها وافيةً تصبو إلى الرَبْربِ[٣]!
من مُبْلِغٌ عنّي إمامَ الهُدى الوارثَ المجدَ أباً عن أب

(١) في جذوة المقتبس (ص ١٨٦) وبغية الملتمس (ص ٢٥٨؛ راجع الأعلام للزركلي ٢ : ١٧٠) أنّ حبيب بن أحمد الشطجيري (ت نحو ٤٣٠ هـ)، وهو أديب شاعر من أهل قرطبة جمع ديوان يحيى بن الحكم الغزال ورتّبه على الحروف.

(٢) الصبوة: جهلة الشباب. التصابي: تكلّف ذلك، التظاهر بالشباب.

(٣) الربرب: الغزال الصغير.

أنّي إذا أطْنَبَ مُدّاحُه ... قَصَدتُّ في القول فلم أُطْنِب[١].
لا فَكَّ عنّي اللهُ إن لم تكنْ ... أذْكَرْتَنا مِنْ عُمَرَ الطيّب[٢]؛
وأصبحَ المَشْرِق من شَوقِه ... إليكَ قد حَنّ إلى المَغْرب:
مِنْبَرُهُ يَهْتِفُ من شَوْقِه ... إليكَ بالسَهْل وبالمَرْحب.
أطْرَبَهُ الوقتُ الذي قد دَنا، ... وكان من قَبْلِكَ لم يَطْرَب.
هفا به الوجدُ، فلو مِنْبَرٌ ... طار لوافى خَطْفَةَ الكوكبْ[٣]
إلى جميلِ الوجهِ ذي هَيْبةٍ ... ليست لحامي الغابة المُغْضَب[٤].
لا يُمْكِنُ الناظرَ من رُؤيَةٍ ... إلاّ التماحَ الخائفِ المُذْنب[٥].
إن تُرِدِ المالَ فإنّي آمرُؤٌ ... لم أجْمَعِ المالَ ولم أكْسِب[٦].
إذا أخذتَ الحقّ منّي فلا ... تلتمسِ الربحَ ولا تَرْغَب[٧].
قد أحسنَ اللهُ إلَيْنَا معاً ... إنْ كان رأسُ المالِ لم يذهَب[٨]!

– لمّا كان يحيى بنُ حكمٍ الغزالُ في بلاد المجوس لَفَتَ نَظَرَ الملكةِ « تودَ » فسألته يوماً: كَم عُمُرُكَ؟ فقال لها: عشرونَ عاماً! فقالت له: ولكنّ في رأسك شعراً أبيضَ! فأنشد مُرتجلاً:

---

(١) أطنب: بالغ، زاد على الحدّ المطلوب. قصد: اعتدل (جاء بالقصد: بالقدر المطلوب المعقول الكافي).
(٢) لا فكّ الله قيدي ولا أخرجني من السجن إن لم يكن فيك شيء من صفات عمر بن الخطّاب.
(٣) وافى: جاء إلى جوارك. خطفة (لمعة) الكوكب: بسرعة.
(٤) حامي الغابة: الأسد. المغضب: الغضبان (في الحقّ).
(٥) لا يستطيع أحد أن يطيل النظر إليه لهيبته.
(٦) إذا كنت تريد مالاً فلا تطلبه منّي، لأنّي رجل لم أجمع في حياتي مالاً ولم أستطع أن أكسب من المال ما يبقى منه شيء للخزن.
(٧) أنا أعطيتك جميع الثمن الذي بعت به الحبوب فلا تحاول أن تحصل منّي على ربح (لأنّي لا أملك مالاً).
(٨) من حسن حظّي وحظّك أنّي دفعت إليك ثمن الحبوب (كان يحيى الغزال معروفاً بالانهماك في الشهوات وبالإسراف وكان من الممكن أن يتصرف بالثمن الأصلي فيضيع المال كلّه).

كُلِّفْتَ، يا قلبي، هوًى مُتْعِبا غالبْتَ منه الضَيْغَمَ ٱلأَغلبَا[1].
إنّي تعلَّقْـــــــتُ مجوسِيَّـةً تأبَى لِشمس الحسن أن تغرُبا[2].
أَقصى بـــلادِ اللهِ في حيـثُ لا يُلْفِي إليه ذاهبٌ مَذْهبا.
يا تودَ، يا رُودَ الشبابِ التي تُطْلِعُ من أزرارِها الكوكبا[3]،
يا بِأَبي الشخصَ الذي لا أَرى أَحلى على قلبي ولا أَعذَبا.
إن قلتُ يوماً إن عيني رأتْ مُشْبِهَهُ لم أَعْدُ أن أَكذِبا[4].
قالت: «أَرى فَوْدَيه قد نَوّرا»، دُعابــةً توجِـبُ أن أَدْعَبـا[5].
قلتُ لها: «ما بالُه؟ إِنَّهُ قـد يُنْتَـجُ المُهرُ كذا أشْهبا»[6].
فٱستضحكَتْ عُجْباً بقولي لها؛ وإنمـــا قلـــتُ لكي تعجبـــا!

- وقال في النساء:

قالتْ: «أُحِبُّكَ!» قلتُ: «كاذبةٌ؛ غُرّي بـــذا من ليس يَنْتَقِــدُ.
هذا كلامٌ لستُ أقبَلُه: الشيــخُ ليس يُحِبُّـــه أحَــدُ».

- وقال في الخمر (وتجد على قوله شيئاً من منحى أبي نواس):

ولَمّا رأَيتُ الشَربَ أَكدَتْ سماؤهم تأبّطتُ زِقّي وٱحتسبتُ عَنـائي[7].
فلمّا أتيتُ الحانَ ناديتُ ربَّه فثاب خفيفَ الروح نحو ندائي[8].

---

(١) الضيغم: الأسد.
(٢) تعلّقت (أحببت) مجوسيّة (امرأة على دين المجوس - يقصد تود الدنماركيّة. ومع أن سكّان الدنمارك في ذلك الحين كانوا نصارى، فإن قسماً من سكّان شماليّ أوروبّة كانوا لا يزالون في ذلك الحين على الوثنيّة. وكان العرب يسمّونهم كُلّهم «مجوساً»).
(٣) الرود: الرأد، الرؤد (المرأة الشابّة، الليّنة). الأزرار: مدخل العنق من الثوب.
(٤) لم أعد: لم أتجاوز. لم أعد أن أكذب: ما عدوت (تجاوزت) الكذب (في قولي): كذبتُ.
(٥) الفود: الشعر عند الأذن. نوّر (الزهر) تفتّح، كان أبيض.
(٦) نتج (بالبناء للمجهول) المهر (الحصان الصغير): ولد، ولدته أمّه.
(٧) أكدت سماؤهم: قلّ مطرها (افتقروا، احتاجوا). الزقّ: وعاء للخمر. العناء: التعب.
احتسبت عنائي: جعلت تعبي احتساباً (في سبيل الله) - هنا: في سبيل إخواني.
(٨) الحانة محلّ بيع الخمر، جمعها حان. والشاعر يستعمل «الحان» هنا مكان الحانة. ثاب: أقبل.

قليلَ هجوعِ العينِ إلا تَعلَّةً | على وجلٍ منّي ومن نُظرائي[1]
فقلتُ: «أذِقْنيها»، فلمّا أذاقها | طرحتُ إليه رَيْطتي وردائي[2].
وقلتُ: أعِرْني بِذلةً أستتِرْ بها | بذلتُ له فيها طَلاق نسائي[3].
فوالله ما بَرَّتْ يميني ولا وفَتْ | له، غير أنّي ضامن بوفائي[4].
فأُبْتُ إلى صَحْبي ولم أكُ آيِباً | فكلٌّ يفدّيني وحُقَّ فِدائي[5].
تداركتُ في شُرب النبيذ خَطائي | وفارقْتُ فيه شيمتي وحيائي[6].

– وقال يحيى بن الحَكَمِ الغزالُ يَصِفُ أهوالَ بحرِ الشَّمال، ويُخاطِبُ رفيقاً له اسمه يَحْيى (أو هو يخاطب نفسه!):

قالَ لي يحيى، وصِرْ | نا بينَ مَوْجٍ كالجِبال،
وتَوَلَّتْنا رِياحٌ | من دَبورٍ وشَمال[7]
شَقَّتِ القلْعين وآنـ | ـبَتَّتْ عُرى تلك الحِبال[8]

---

(١) التعلّة = ما يتعلّل به الإنسان عن شيء يحتاج إليه: يغمّض عينيه ولكن لا ينام حتّى يتوهّم فقط أنّه نائم فيدخل على نفسه شيئاً من الراحة. وجل: خوف. نظراء: أنداد، أمثال، أشباه، (كان بيع الخمر ممنوعاً، ولذلك كان الخمّارون يخافون من الذين يأتون إليهم لشراء الخمر لئلاّ يكونوا من رجال الشرطة. فكان إذا طرق أحد باب الحانة – وكانت الحانات سرّية – تناوم صاحب الحانة حتّى يقوم القادم بحركات ويقول أقوالاً تدلّ قطعاً على أنّه زبون وليس رجل شرطة).

(٢) فلمّا ذقت خمره وأعجبتني أعطيته ريطتي (ثوبي الحرير) وردائي (ثوبي السابغ: الذي ألبسه فوق ثيابي الأخرى) ليعطيني بقيمتها خمراً.

(٣) طلبت منه ثوباً رخيصاً أستتر به وحلفت له بالطلاق أنّني سأردّه إليه.

(٤) إلى الآن لم أردّ إليه ذلك الثوب، ولكنّني عازم على ردّه. ما برّت يميني: ما وفيت بيميني (بقسمي، بحلفي بالطلاق).

(٥) فأبت: فرجعت (إلى أصحابي بخمر). ولم أك آيباً = ما كنت أظنّ أنني أستطيع أن أرجع إلى أصحابي بشيء من الخمر. يفدّيني: يقول لي: فداك نفسي (يمدحني). وحقّ فدائي: كنت مستحقًّا ذلك.

(٦) أدركت: فعلت الأمر دراكاً (مرّات متوالية). فارقت: خالفت (فعلت غير ما تجيز الأخلاق).

(٧) الدبور: الريح الغربية (والمقصود هنا أنّها شديدة). الشمال (بفتح الشين): الريح الشمالية (المقصود: باردة وشديدة).

(٨) القلع (بكسر القاف): شراع (بكسر الشين) السفينة. انبتّت: تقطعت. العرى (جمع عروة بضمّ العين): (هنا) المكان الذي تربط به أشرعة السفينة بالسارية أو بجوانب المركب.

وتمطّـــــى ملـــــك المو ت إلينـــا عن حيـــال[1].
فرأينـــــا الموتَ رأيَ الـ ـعينِ حالاً بعدَ حال:
«لم يَكُنْ للقومِ فينـــــا، يا رفيقي، رأسُ مال[2]».

- وقال في تأمّلِ الناسِ والنظرِ إلى حقيقتهم:

ومن أنعـــامِ خالِقِنـا علينـا بـــأنّ ذنوبَنـــا ليست تَفوحُ.
فلو فاحَـتْ لأصبَحْنـا هُروبـا فُرادى بالفَـلا مـا نستريح[3]،
وضـاق بكـلّ مُنْتَحِلٍ صلاحاً - لنَتْنِ ذُنوبهِ - البلـدُ الفسيحُ[4].

٤ - يحيى بن الحكم الغزال، تأليف محمّد صالح البنداق (ت اوائل ١٩٨٠ م)، بيروت (دار الآفاق الجديدة) ١٩٧٩ م.

** المقتبس ١١ - ١٣، ٦٤ - ٦٦، ٦٩ - ٧٠، ١٣٤، ١٨١ - ١٨٢، ١٨٥ - ١٨٦، ١٩٤؛ جذوة المقتبس ٣٥١ - ٣٥٣ (الدار المصرية) ٣٧٤ - ٣٧٥ (رقم ٨٨٧ أو ٨٨٨)؛ بغية الملتمس ٤٨٥ - ٤٨٦؛ (رقم ١٤٦٧)؛ المغرب ١: ٣٢٤ - ٣٢٥؛ البيان المغرب ٢: ٩٣؛ نفح الطيب ٢: ٢٥٤ - ٢٦٢؛ نيكل ٢٤ - ٢٧، مختارات نيكل ٢٥ - ٢٦؛ بروكلمن، الملحق ١: ١٤٨؛ دائرة المعارف الإسلامية ٢: ١٠٣٨؛ الاعلام للزركلي ٩: ١٧٣ (٨: ١٤٣).

ابن قطن المهري القيروانيّ

هو أبو الوليدِ عبدُ الملكِ بنُ قَطَنٍ المَهْريُّ القَيْروانيّ[5] لَقِيَ جماعةً من عُلماءِ اللغةِ والنحوِ منهم أبو مالكٍ أمانُ بنُ الصَمصامةِ بن الطِرِمّاحِ الأعرابيُّ وأبو المَنيع الأعرابيُّ ثمّ أصبحَ شيخَ أهلِ اللغة والعَربية (النحو) في بلدِه وزمانِه. له من الكتب:

(١) تمطّى: مشى وهو يتبختر ويحرّك يديه (ليلفت - بفتح الياء وكسر الفاء - انتباهنا: ليخيفنا). ملك الموت: عزرائيل. حيال: جانت.

(٢) القوم (هنا): أصحاب السفينة - لم نكن أنا وأنت عند أصحاب السفينة «رأس مال» (شيئاً ثميناً) يحافظون عليه.

(٣) هروباً فرادي: هاربين متفرّقين (يهرب بعضنا من بعض).

(٤) منتحل صلاحاً: ذلك الذي يدّعي أنه صالح ويتظاهر بذلك.

(٥) هو غير عبد الملك بن قطن الفهري (ت ١٢٣) الذي كان والياً على الأندلس.

تفسيرُ مَغازي الواقديّ - الألفاظ - آشتقاق الأسماء (زاد فيه على ما كان قد جاء به قُطْرُب)[1]. وكذلك كان خطيباً بليغاً وشاعراً عاديًّا وكاتباً متتدراً: كَتَبَ إليه رجُلٌ يوماً كتاباً وأطال فيه على غيرِ فائدةٍ فردّ عليه عبدُ الملكِ المَهريُّ يقول: «خيرٌ من الإطالة السكوتُ، وفي القَصْدِ إلى الحاجة قطعٌ لمسافة الإطالة».

وعُمِّرَ عبدُ المَلِكِ بنُ قَطَنٍ المَهْريُّ طويلاً، وكانتْ وفاتُه لِعَشْرٍ خَلَوْنَ من رَمَضانَ من سَنَةِ ٢٥٦ (١١/٨/٨٧٠ م).

** الزبيدي ٢٤٩ - ٢٥٣؛ إنباه الرواة ٢: ٢٠٨ - ١١٢؛ الوافي بالوفيات ٦: ٩٤؛ بغية الوعاة ٣١٤؛ دائرة المعارف الإسلامية ١: ٧٦؛ الأعلام للزركلي ٤: ٣٠٩ (١٦٢)؛ مجمل تاريخ الأدب التونسي ٦٠.

مؤمن بن سعيد

١ - هو مُؤمِنُ بنُ سعيدِ بنِ إبراهيمَ بنِ قَيْسٍ، كان جَدُّه إبراهيمُ مولًى للأميرِ عبدِ الرحمنِ الداخلِ. رَحَلَ مؤمنُ بنُ سعيدٍ إلى المَشْرق فَلَقِيَ أبا تَمّامٍ (ت ٢٣٢) وروى عنه شعرَه. فلمّا عاد إلى الأندلس جعل الناسُ يقرأون عليه شعرَ أبي تمّام.

وكان مؤمن بن سعيد مُؤَدِّباً لأولادِ أمراءِ قُرْطُبَةَ. وكذلك اتّصل بهاشمِ بنِ عبد العزيز وبغيره من رجال الدولة. ولكنَّ فَلَتاتِ لسانهِ أوقعتِ الوَحْشَةَ بينَه وبين هؤلاء.

في سَنَةِ ٢٦٢ خرج القائدُ هاشمُ بن عبد العزيز لقتال الثائر عبدِ الرحمن بنِ مروانَ الجِليقيِّ (وكان من الذين يَتَظاهرون في الأندلس بالإسلام) على غيرِ أُهْبةٍ صحيحةٍ ثمّ أوْغل في اللّحاق بابنِ مروانَ فقُتِلَ عددٌ كبيرٌ من رجاله ووقع هو أسيراً في يدِ ابن مروانَ الجِليقي. فشَمِتَ به مؤمنُ بنُ سعيدٍ وهجاه (من غير ضَرورةٍ تُوجِبُ ذلك سوى فُحْشِ لسانه). فلمّا خرج هاشمٌ من الأسْر، بعدَ عامين، أوْغرَ صدرَ الأميرِ محمّدٍ على مؤمنِ بنِ سعيدٍ فغضب الأميرُ محمّدٌ على مؤمنِ بن سعيد وحَبَسه.

---

(١) راجع الجزء الثاني.

وظلّ مؤمنُ بن سعيد في السِجْن حتّى تُوُفِّيَ في الرابعِ من رَجَبَ ٢٦٧ (٩/٢/٨٨١ م).

٢ - كان مؤمنُ بن سعيدٍ شاعراً مشهوراً مُكْثِراً مُحْسِناً مطبوعاً، وكان فَحْلَ شعراءِ قرطبةَ في زمانه. ولكنّ شعرَه ضاع ولم يبقَ منه سوى نُتَفٍ أكثرُها في الهِجاء. وكان مؤمن بن سعيد يُهاجي ثمانيةَ عَشَرَ شاعراً فيَعْلوهم. من هؤلاء عبّاسُ بنُ فِرناسٍ وديكُ تيسِ الجِنّ (أحمدُ بن محمّد الكتّاني) والعُتْبي. ولقد كان كثيرَ التهكّم بالناسِ شديدَ الهجوم على أعْراضِهم لا يَهابُ سُوقَةً ولا وزيراً حتّى سمّاه الحِجاريّ دِعْبلَ الأندلس؛ لِشِدة هِجائه (راجع نفح ٣ : ٥٣٨).

٣ - المختار من شعره

- قال مؤمنُ بن سعيدٍ في الشكوى والنسيب:

حُرِمْتُكَ ما عدا نظراً مُضِرًّا ... بقلبٍ بين أضلاعي مُقيمِ :
فعَيْني منكَ في جَنّاتِ عَدْنٍ ... مُخَلّدةً وقلبي في الجَحيمِ !

- وقال شامِتاً بهاشِمِ بنِ عبدِ العزيز، عندَ أسرِه، يُخاطب أبا حَفْصٍ (ابنَ عمِّ هاشمٍ وعدوَّه):

تَصَبّحْ، أبا حَفْصٍ، على أسْرِ هاشمٍ ... ثلاثَ زُجاجاتٍ وخمسَ رَواطمِ[1]،
وبُحْ بالذي قد كنتَ تُخفيه خِفْيةً، ... فقد قطعَ الرحمنُ دولةَ هاشمِ.

- ولّما صنع عبّاس بن فِرناسٍ لنفسه جَناحين وطار بهما قال فيه مؤمن بن سعيد:

يَطُمُّ على العَنقاء في طَيَرانها ... إذا ما كسا جِثْمانَه ريشَ قَشْعمِ[2].

---

(١) تصبّح: اشرب الخمر صباحاً. ثلاث زجاجات (من خمر). خمس رواطم (لا تفهم في هذا البيت إلاّ إذا كانت كناية عن النكاح): مع خمس رواطم (؟ الرطوم: المرأة الضيقة....).

(٢) طمّ الطائر الشجرة: علاها (يطمّ على العنقاء في طيرانها: يزيد عليها في الطيران). القشعم: النسر المسنّ (التامّ العمر القويّ). العنقاء: طائر خرافيّ كبير قويّ.

- وقال يشكو من أهل بلده. (تُروى لمحمدِ بن بشيرٍ المعافري - ت ١٩٨ هـ - فوق، ص ٨٥):

إنّما أزرى بقَــــدْري أنّــــني لستُ من بابــةِ هــذا البلـدِ[١].
ليس منهم غيرُ ذي مَقْلِيَةٍ لِـذوي الألبابِ أو ذي حسد[٢].
يتحامَوْنَ لِقائي مِثْلَما يتحامَوْنَ لقـــــاءَ الأسد.
طَلْعــــتي أثقــــلُ في أعْيُنِهِمْ وعـــلى أنْفُسِهِمْ من أُحُـــدِ[٣].
لو رَأَوْني قَعْرَ بحرٍ لم يكن أحـــدٌ يأخـــذُ منهم بِيــدي[٤].

٤ - ★ ★ المقتبس ١٢٢ وما بعد، ١٦٦ وما بعد؛ جذوة المقتبس ٣٣٠ (الدار المصرية) ٣٥١ (رقم ٨٢٦)؛ بغية الملتمس ٤٥٦ - ٤٥٧ (رقم ١٣٧٦)؛ الوافي بالوفيات ٦ : ٩٤؛ بغية الوعاة ١٨٥؛ بروكلمن، الملحق ١ : ٧٣٧؛ الأعلام للزركلي ٨ : ٢٩١ (٧ : ٣٣٤).

العتبي الشاعر[٥]

١ - هو محمّدُ بنُ عبدِ العزيز العُتبيُّ من شعراءِ دولةِ الأمير محمّدٍ (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) كان منقطعاً إلى الأميرِ القاسمِ بنِ محمّدٍ. فلمّا تولّى الأميرُ عبدُ الله بن محمّدٍ الحُكْمَ (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) اتّهم أخاه قاسماً بأنّه يعملُ على خَلْعه فأمر بسَجْنه. وماتُ الأمير القاسمُ في سِجْنه مسموماً. ولعلّ وفاةَ العُتبيِّ الشاعرِ كانت نحو ٢٧٠ (٨٨٣ م).

---

(١) أزرى به الشيء: نقص من قدره، عابه. البابة: النوع، المستوى.
(٢) مقلية: بغض، كره.
(٣) أحد: جبل (قرب المدينة).
(٤) قعر بحر: في قعر بحر.
(٥) محمّد بن عبد العزيز العتبي الشاعر غير محمّد بن أحمد بن عبد العزيز العتبي (ت ٢٥٤ أو ٢٥٥) الفقيه (نفح الطيب ٢ : ٥١، ٢١٥ - ٢١٦، ٦٢٧؛ شذرات الذهب ٢ : ١٢٩؛ بروكلمن ١ : ١٨٦، الملحق ٣٠٠ - ٣٠١؛ الأعلام للزركلي ٦ : ١٩٧ . وفي الوافي بالوفيات (٢ : ٣٠): محمّد بن أحمد بن عبد العزيز العتبي المتوفّى في عشر الستّين بعد المائتين. وهنالك نفر آخرون أسماؤهم محمّد بن أحمد بن عبد العزيز العتبي (الذيل والتكملة ٤ : ٦٨٣ - ٦٨٥) كلّهم محدّثون.

٢ - كان العُتْبيُّ الشاعرُ من نُبهاءِ الشعراء مُنقطعاً إلى الأميرِ القاسمِ كما كان الشاعرُ مؤمنُ بنُ سعيدٍ (ت ٢٦٧؛ راجع، ص ١٢٢) منقطعاً إلى أخيهِ الأميرِ مَسلمةَ. وكان بين الشاعرين مُهاجاةٌ. وللعُتبي، نثرٌ وشعر. ومن فنون شِعره فخرٌ ومديح وهِجاء ومجون ووصف وخمر. ثمّ إنّ ألفاظَه جَزْلَةٌ وتراكيبه متينة ونَفَسَه مَشرقيّ. وفي شعره شيءٌ من الصِناعة.

٣ - مختارات من شعره

- قال محمّدُ بنُ عبدُ العزيز العتبيّ يمدح الأميرَ قاسمَ بنَ محمّد[١]:

....في جنّـةٍ بإزاء النجم ساميةٍ	أهدتْ لها طيبَها جنّاتُ رِضوان[٢].
وأوجــهٍ كنجومِ الليــل زاهرةٍ	حُفّتْ ببدرِ دُجًى من آلِ مَروانِ[٣].
أعلى قريشٍ مَحلاً في أُرومَتِها،	وجُودُه لِمُرَجّي جودِه دانِ[٤].
غَمْرُ النَوالِ له كفّانِ قد حَوَتا	مِنَ المكارم ما لم تَحْوِ كفّان[٥].
أغرُّ أشْبَهَ آباءً له سَلَفوا:	جُوداً بجودٍ وإحساناً بإحسان[٦].
فاْشرَبْ على جِدّةِ الدنيا وزَهْرتِها	وجَوْدةِ العيش ما كَرَّ الجديدان[٧].

- وقال يمدح الأمير محمّداً (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ)، وذلك سنة ٢٥٤ هـ:

سائِــلْ بمــاردةٍ سيوفَ محمّــدٍ	خَلَّيْنَ ماردةً كأنْ لم تمرُدِ[٨].

---

(١) قاسم بن محمد أخو الأمير عبد الله (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) اتّهمه أخوه بأنّه يكيد له فسجنه. ومات القاسم في السجن مسموماً.

(٢) رضوان: خازن الجنّة.

(٣) حفّت: أحيطت. دجى (ظلام الليل).

(٤) الأرومة: الأصل. دان: قريب.

(٥) غمر: (الماء) الكثير. النوال: العطاء.

(٦) أغرّ: أبيض (كناية عن شرف الأصل).

(٧) الجديدان: الليل والنهار.

(٨) مرد، يمرد (بفتح الراء وضمّها): طغى وجاوز حدّه. يجانس الشاعر بين ماردة وتمرد.

غَمَطَتْ مسالمةَ الأميرِ وهيّجتْ حرباً أباحَتْها لكلِّ مُهَنّدِ[1].
يتْرُكْنَ أبنـــاءَ النِفـــاقِ كأنّهم بالقـاعِ صَرْعى قَهْوةٍ أو مُرْقِدِ[2].
وكـــأنّ عاكفـــةَ النسورِ عَلَيْهِمُ أبناءُ حامٍ يَعْكِفون بمسجدِ[3].
قَضَتِ الصوارمُ بالحُتوفِ عَلَيْهِمُ؛ وإذا قَضى بقَضِيّةٍ لم يُرْدَدِ[4].
كم خائنٍ منهم تَمنّـى - إذ رأى بِيضَ الصوارمِ - أنّه لم يُولَدِ!

٤ - ★ ★ المقتبس ١٥٧ - ١٥٨، ٢٠١ - ٢١١، ٣٢٣ - ٣٢٤، ٣٣٦، ٣٥٩ - ٣٦٠؛ المغرب ١: ١٣٤؛ الحلّة السيراء ١: ١٢٨، ١٤٧؛ البيان المغرب ٢: ١١٢، ١١٣

وليد بن غانم

١ - هو وليدُ بنُ عبدِ الرحمن بنِ عبدِ الحميد بنِ غانمٍ، كان جَدُّه عبدُ الحميد من موالي عبدِ الرحمن الداخلِ ومن قُوّادِه. وأمّا أبوه عبدُ الرحمن فقد تولّى الوزارةَ والحِجابةَ للحَكَمِ بنِ هشامٍ (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) ثمّ لآبنِه وخليفتِه عبدِ الرحمن الأوسطِ (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ). وكانت وفاةُ عبدِ الرحمن بنِ عبدِ الحميد في الحبس سَنَةَ ٢١٠ هـ[5].

ويبدو أنّ أُسرةَ وليدِ بنِ غانمٍ كانت قدِ آنتقلتْ إلى كورة المُوسّطة[6]، وكان قومُه من أجناد الدولة.

---

(١) غمط النعمة: كفرها ولم يشكرها. الأمير محمّد منح أهل ماردة سلماً (عفواً وحسن معاملة) فلم يقابلوا ذلك بالطاعة.

(٢) القاع: الأرض المنخفضة. قهوة: خمر. المرقد: المخدّر.

(٣) النسور السود (كأنّهم من أبناء حام) تطيل المكث على جثثهم.

(٤) الحتف: الهلاك. وإذا قضى (الأمير محمّد!).

(٥) راجع تعليقاً لمحمود علي مكّي (المقتبس ٤٥٠). فعلى هذا يجب أن يكون وليد بن غانم قد بلغ نحو سبعين سنة من العمر.

(٦) المقتبس ١٤١. الموسّطة: كورة قريبة من كورة رية (المقتبس ٣٩٣). و«كورة رية التي منها مالقة» نفح الطيب ١: ٢٦٣) في جنوب الأندلس.

لا نَعْرِفُ شيئاً من أخبار وليدِ بنِ غانمٍ قبلَ أن يتولّى مَنْصِبَ صاحبِ المدينةِ للأمير محمّدٍ (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ). ثمّ رُفِعَ إلى مَنْصِبِ الوزارة. وفي سَنَةِ ٢٦٣ هـ خرج تحتَ إمرة الأميرِ مُنذرٍ[١] لقتالِ عبدِ الرحمن بن مروانَ الجِلّيقيّ[٢]. أمّا وفاتُه فكانتْ في شَعبانَ من سَنَةِ ٢٧٢ (مطلع عام ٨٨٦ م)[٣].

٢ - كان وليدُ بنُ غانمٍ «مِنَ المحكوم لهم بالتَبْريز في العقل والفضل وجَوْدةِ الرأيِ وحُسن السِيرة وسَدادِ المذاهب» وفيًّا لأصدقائه. وكان أديباً مُتَرَسّلاً وبَليغاً، وقيل إنّ له شِعراً. ونثرُه ينكشف عن مَتانةٍ وفَهْمٍ للُّغةِ مَعَ إحاطةٍ بعدد من وجوه المعرفة.

٣ - مختارات من آثاره

- خرج الوزيرُ هاشمُ بنْ عبدِ العزيز في حملةٍ على الثائرِ عبدِ الرحمن بن مروانَ الجِلّيقيّ فهزَمَه عبدُ الرحمن وأسَرَه. ووصَلَ الخبرُ إلى الأميرِ محمّدٍ فلام هاشماً ورماه بالعَجْز والطَيْش. وكان الوليدُ بنُ غانمٍ في المجلس فدافع عن هاشمٍ، وكان صديقاً له، فقال (المقتبس - مكّي - ص ١٧٨):

أصلَحَ اللهُ الأميرَ. إنّه لم يكنْ على هاشمٍ التَخَيُّرُ في الأمرِ ولا الخروجُ على القَدرِ[٤]، بلِ ٱسْتفرغ نُصْحَهُ وأعمَلَ جُهدَه وحامى ٱستطاعَتَه، فأسْلَمَه اللهُ بخِذْلانِ مَنْ مَعَه ونُكولِ مَنْ أطافَ به[٥]. فجُوزِيَ عن نفسِه وسُلطانه خَيْراً! أصلَحُ اللهُ الأميرَ. إنّما كان هاشمٌ عبدَك ونَشْءَ صَنيعَتِكَ وسيفاً من سُيوفك وسَهْماً من سِهامك،

(١) قبل أن يتولّى الحكم.

(٢) عبد الرحمن بن مروان الجليقيّ من أهل ماردة (شمال غربي قرطبة بنحو مائة وستّين كيلومتراً) ثار سنة ٢٥٤ هـ. وطالت فتنة ابن مروان الجليقيّ ووصل يده بألفونس الثالث ملك قشتالة. وظلّ ابن مروان الجليقي ثائراً إلى أيام عبد الرحمن الناصر.

(٣) في المقتبس أن وفاته كانت ٢٩٢، ويبدو أنّه خطأ.

(٤) ما كان يستطيع أن يبدّل القضاء والقدر.

(٥) الخذلان ترك نصرة الذي ينتظر منك النصرة. النكول: الرجوع عمّا يعد به الإنسان.

نَفَذَ أمرُكَ فيه وٱسْتُقْدِمَ للدِفاع عن سُلطانِك حتّى فُلَّ[1] في مَرْضاتِك. فالأَوْلى بكَرَمِ الأميرِ وشرف خَليقتَهِ أن يُحْسِنَ خِلافةَ هاشمٍ في عَقِبهِ ويحفَظَه في ساقَتِه[2] ويُهوِّنَ عليه بلاءه بإمْضاء وَلَدِه على خِدمته وخِلافَتِه بحَضْرتِه[3] حتّى يَمُنَّ اللهُ تعالى بيُمْنِ الأميرِ فيُطْلِقَ سَراحَه ويُقيل عَثْرتَه[4].

- وبَلَغَ إلى هاشمِ بنِ عبدِ العزيزِ ما قاله وليدُ بنُ غانمٍ فكتب إليه يشكُرُه على وَفائه وكَرمِ أخلاقه. فردّ عليه وليدٌ برسالةٍ فيها:

أسألُ اللهُ راغباً إليه فَكَّ أسْرِكَ وتعجيلَ تَخْليصك وتَيْسيرَ إطلاقك. وَرَدَ كتابُك، يا سَيِّدي، فسَكَّنَ من حُرَقي بِك وأطفأ من غُلَّتي[5] فيك وهدّأ من عويلي عليك. فيا لَهْفي على فِراقِ غُرّتِك وفُقْدانِ رُؤيتك لَهْفاً ما إنْ ينقطعُ ولا ينصرم[6]. ولَئنْ صِرْتَ - خلّصك الله - من حُكمِ الله إلى مَشيئته، ومِنْ نافذِ أمرِه إلى سابقِ علمه[7]، لَما قَصّرتَ في المُحاماة عن سُلطانك ودِينِك والتعَرُّضِ للشهادة بجُهْدك[8] فما إنْ تَجِدُ لِلاحِيكَ ولائِمكَ خَلَلاً في عِرْضِك وحَزْمِك[9] ولا إضاعةً في تَدْبيرك وضَبْطِك.

٤ - ★ ★ المقتبس ١٤١، ١٧٣ - ١٧٥، ١٧٧ - ١٧٩، ٢٧١، ٣٨٨ - ٣٩٢، ٤٤٩ - ٤٥٠؛ الحلّة السيراء ١: ١٤١، ٢: ٣٧٤؛ نفح الطيب ٣: ٣٧٢ - ٣٧٣؛ الأعلام للزركلي ٩: ١٤٠ (٨: ١٢٠).

---

(١) كسر (شبّهه بالسيف الذي إذا فلّ لم يقطع).
(٢) أن يحسن خلافته (الاهتمام برعاية أهله) في عقبه (نسله، أهل بيته).
(٣) يدخل ابنه (ابن هاشم بن عبد العزيز) في خدمة الدولة اعترافاً بفضل هاشم.
(٤) يفتديه من الأسر.
(٥) الغلّة: العطش (حرقة الحزن).
(٦) «إن» هنا وفيما يلي زائدة بعد «ما» النافية.
(٧) ... لو رجعت إلى ما كنت فيه (من الحرّية)....
(٨) التعرّض للشهادة (للموت في الجهاد).
(٩) اللاحي: اللائم. لما وجد أحد فيك نقصا.

عثمان بن المثنّى

١ - هو أبو عبد الملك عُثمانُ بن المُثنّى القيسي القُرطبي، وُلِدَ نحو سَنَةِ ١٨٠(٧٩٦ م)- وقيل عاش تِسعاً وتِسعين سَنَةً (فيكون مولده حينئذٍ سَنَةَ ١٧٤)- . رَحَلَ إلى المشرق فلَقِيَ جماعةً من علماء اللغة والنحْو منهُمُ آبنُ الأعرابيّ (ت ٢٣١). وقد لَقِيَ أبا تمّامٍ وقرأ عليه ديوانَه، وكان أوّلَ مَنْ أدخل ديوانَ أبي تمّامٍ إلى الأندلس.

وكانت وفاةُ عُثمانَ بن المثنّى بعد شهر صفر من سنة ٢٧٣ (٨٨٦ م).

٢ - كان عُثمانُ بنُ المثنّى شُجاعاً مُكْثِراً للغَزْوِ في الثُّغور (شَمالِيِّ الأندلس عند الحدود المُصاقبة للإمارات المسيحية). وكذلك كان مُؤدِّباً لأولادِ الأميرِ عبد الرحمن آبن الحَكَم (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) ولأولادِ آبنهِ الأميرِ محمدٍ (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ). وهو من أئمّةِ النحو، وله شيءٌ من النظم. ففي المقتبس (٢٧٤ - ٢٧٥) قصيدةٌ مَدَحَ بها الأميرَ محمّداً، لمّا أسقط الأميرُ محمّدٌ ثُلُثَ العُشورِ عن الرعيّة، تُحِسُّ فيها بنَفَسِ أبي تمّامٍ (وهذا معقولٌ جدًّا لحُبِّ عُثمانَ بنِ المثنّى لأبي تمّامٍ) في رِثاءِ محمّدِ بنِ حُميدٍ الطوسي.

٣ - مختارات من شعره:

- قال عثمان بن المُثنّى يمدَحُ الأميرَ محمدَ بنَ عبدِ الرحمن بن الحكم:

غـدا في أساريرِ الإمـامِ محمّـدٍ ... إمامِ الهدى بدرٌ وفي كفّه بحرُ[1].
تلافى رعاياه بإسْقاط ثُلْثِ ما ... عليهم بما آستوفـى... قبله العُشرُ[2].
وأوسعَهُم عــدلاً ورِفْــقَ سياسةٍ ... فطابتْ به عنه الأحاديثُ والذِّكْر.

---

(١) الأسارير (جمع أسرار): خطوط في الوجه. بدر (كناية عن المهابة من حقيقة الملك). بحر (كناية عن الكرم).

(٢) تنقص في الأصل كلمة «الذي».

لقد حَسَدَتْ أرضُ العِراقينِ أرْضَهـا ... على عدلهِ فينا كما حَسَدَتْ مِصْرُ[١]
هو الدهرُ في تصريفه الفقرُ والغِنى، ... كذلـك في أحداثِهِ النفْعُ والضُرّ.
إذا ذَخَرَ الأملاكُ كَسْباً فما له ... سوى الجدِوالمعروفِ كسبٌ ولا ذُخْر[٢]

٤ - ★ ★ ★ الزبيدي ٢٨٨؛ ابن الفرضي رقم ١: ٣٤٦ (رقم ٨٩١)، طبعة القاهرة ٣٠٢؛ المقتبس ٢٧٤ - ٢٧٥؛ المغرب ١: ١١٢ - ١١٣؛ الحلّة السيراء ١: ٤٨؛ بغية الوعاة ٣٢٤؛ البلغة ١٤١؛ الأعلام للزركلي ٤: ٣٧٦ (٢١٣).

الرازي المؤرّخ

هو محمّدُ بنُ موسى بنِ (بشيرِ بنِ جنّادِ بنِ لقيطِ الكِنانيِّ) الرازيُّ من أهلِ الريّ (خُراسان - فارس) كان يَفِدُ من المشرق على أُمراءِ بني أُمَيَّةَ في الأندلُسِ مُتَّجِراً بالحُليّ والعقاقيرِ وسِواها من عُروض التجارةِ الثمينة. ويبدو أنّه اسْتقرّ في الأندلس سَنَةَ ٢٤٩ (٨٦٤ م) فسكن قرطبة ونال حَظوةً عند الأميرِ محمّدٍ (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) فانْتَدَبَهُ الأميرُ محمّدٌ للإصلاحِ بينَ العَرَبِ والمُولَّدينِ (المسلمين من أصلٍ إسبانيٍّ)، بنواحي غَرناطةَ، في سَنَةِ ٢٧٣. وقد تُوُفِّيَ الرازيُّ في إلبيرة بعد رُجوعهِ من هذه الرِحلة، في ربيعٍ الثاني ٢٧٣ (أيلول - سبتمبر ٨٨٦ م)[٣]، في أيامِ الأمير المُنذرِ الذي جاء إلى الإمارة في صَفَرَ من سَنَةِ ٢٧٣ (تموز - يوليو ٨٨٦ م).

كان الرازيُّ هذا مُتَفَنِّناً في عددٍ من العلوم وكانَ مُؤرِّخاً ألّف «كتاب

---

(١) اقرأ: أرضنا.

(٢) الأملاك جمع ملك مثل ملوك.

(٣) في نفح الطيب (٣: ١١١) أن محمّد بن موسى الرازي توفّي في ربيع الآخر من سنة ٢٧٣. وقد ذكر ابن الفرضي أن مولد ابنه أحمد كان في ذي الحجّة من سنة ٢٧٤، ونقل ذلك عنه السيوطي في بغية الوعاة (ص ١٦٨) وأنخل جنثالث بالنثيا (تاريخ الفكر الأندلسي ١٩٧). وهذا محال لأنّه يجعل وفاة أحمد بعد مولد أبيه بعشرين شهراً. ولو أننا قبلنا من جنثالث بالنثيا أن تكون وفاة محمّد في ٢٧٣ هـ/ ٨٨٦ م مع الإصرار على مولد ابنه أحمد في ذي الحجّة من ٢٧٤ لظلّ الفرق بين وفاة الوالد ومولد ابنه أكثر من عام. والمخرج: إمّا أن تكون وفاة الوالد في سنة ٢٧٤ هـ أو يكون مولد الابن في سنة ٢٧٣ هـ.

الرايات »[1] ذَكَرَ فيه دُخولَ العربِ إلى الأندلس على راياتهم (أي بِحَسْبِ قبائِلِهِمْ وبحسبِ البُعوثِ التي جاءوا فيها جيشاً بعد جيشٍ). وكتابُ الراياتِ ضائعٌ، ولكنّنا نَجِدُ نُتَفاً منه في عددٍ من كتب التاريخ.

- ★★ المقتبس ٢٦٥ - ٢٦٩؛ التكملة ١: ٣٦٦ (رقم ١٠٤٨)؛ نفح الطيب ٣: ١١١؛ بالنثيا ١٩٣ - ١٩٦؛ دائرة المعارف الإسلامية (ط ١) ٣: ١١٣٦؛ الأعلام للزركلي ٧: ٣٣٨ (١١٧).

هاشم بن عبد العزيز

١ - هو أبو خالدٍ هاشمُ بنُ عبدِ العزيزِ بنِ هاشمِ بنِ خالدِ بنِ عبدِ الله بنِ حسنِ ٱبنِ جُعْدِ بنِ أسلمَ بنِ أبانِ بنِ عمرٍو. وكان عمرٌو هذا مولًى لِعُثمانَ بنِ عفّانَ (ت ٣٥ = ٦٥٦ م). ثمّ إنّ أهله كانوا قدِ ٱنتقلوا إلى الأندلُسِ وسكنوا إلْبيرة فأصبحَ لهم فيها رِئاسةٌ وجَلالةٌ.

وُلِدَ هاشمُ بنُ عبدِ العزيزِ (في إلبيرة) في أيامِ الأميرِ عبدِ الرحمنِ بنِ الحَكَمِ (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ)، ولمّا شَبّ أصبحَ من أشياعِ الدولة الأُمَويَّة في الأندلسِ مُخْتَصّاً بالأميرِ محمّدِ بنِ عبدِ الرحمن (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ)، فكان الأميرُ محمّدُ بنُ عبدِ الرحمنِ يُقَرِّبُه فقدِ ٱتّخذه وزيراً ثمّ ولاّهُ كُورةَ جَيّانَ.

وخاض هاشمُ بنُ عبدِ العزيز حروباً كثيرةً، ولكنّه لم يكنْ كثيرَ التوفيق. في سَنَةِ ٢٦٢ (٨٧٦ م) قاد جيشاً لِقتالِ عبدِ الرحمنِ بنِ مروانَ الجِلِيقيِّ بنواحي بَطَلْيَوْسَ فأَوْغَلَ بالجيشِ بلا ٱستعدادٍ تامٍّ ولا ٱحتياطٍ كافٍ، فقُتِلَ عددٌ كبيرٌ من عسكرِه

---

(١) المقصود بالرايات: الرايات التي كانت تحملها القبائل العربية التي دخلت إلى الأندلس (عدد القبائل التي دخلت الأندلس في زمن الفتح): رايتان لموسى بن نصير: عقد له إحداهما عبد الملك بن مروان على إفريقية وما وراءها (يكون والياً على ما يفتحه في إفريقية وما وراءها من البلاد)، والثانية عقدها له الوليد بن عبد الملك على إفريقية أيضاً وما يفتحه وراءها من الغرب، ثمّ راية ثالثة لعبد العزيز بن موسى بن نصير (وقد دخل الأندلس مع أبيه موسى)... وذكر محمّد الزازي أيضاً بيوتات العرب (الأسر العربية المشهورة) التي دخلت إلى الأندلس ولم تكن تحمل رايات (لقلّة عددها، ولأنّها تنتسب إلى القبائل التي كانت تحمل رايات).

وجُرِحَ هو نفسُه وأُسِرَ، ففداه الأميرُ محمّدٌ بمبلغٍ كبيرٍ فخرج من الأسرِ سَنَةَ ٢٦٤.
وفي سَنَةِ ٢٦٨ (٨٨١ م) سار بجيشٍ إلى قتالِ أهلِ سَرَقُسْطَةَ - وكان مَعَهُ المُنْذِرُ بنُ الأميرِ محمّدٍ - فانتصرَ هاشمٌ في تلك الغزوةِ وحطَّمَ سَرَقُسْطَةَ وفتح عدداً من الحصون حولَها، ولكنّه أساء الأدبَ مَعَ المُنذِر حتّى حَقَدَ عليه المنذرُ.

ولمّا جاء المُنذِرُ إلى الإمارة، في ثالثِ ربيعٍ الأوّلِ من سَنَةِ ٢٧٣ (٨/ ٨/ ٨٨٦ م) - وقيل في ثامنِ ربيعٍ الأوّل - أوْهَمَ هاشماً أنّه نَسِيَ ما كان بَيْنَهما واسْتَحْجَبَهُ (جعلَه حاجباً: رئيساً للوَزارةِ)، ثمّ نَكَبَهُ وحَبَسَهُ وعذّبه وقَتَله، في ٢٦ شوّالٍ من سَنَةِ ٢٧٣ (٢٥/ ٣/ ٨٨٧ م).

٢ - كان في هاشمِ بنِ عبدِ العزيزِ عددٌ من الخِصالِ الحميدةِ فقد كان فارساً شُجاعاً ورئيساً كريماً مُحْسِناً وذا قُوّةٍ وجَلَدٍ في الحرب وصبرٍ في المصائب. ولكنّه كان أيضاً حَقوداً لَجوجاً سَيِّءَ التصرُّفِ في أمورِه مَعَ الناس. ثمّ إنّه كان كاتباً بليغاً وشاعراً بارعاً متينَ الأُسلوبِ واضحَ التعبير. وفنونُ شعرِه الفخرُ والعِتابُ والأدبُ (الحِكمة) والهجاء. وكان يَرْتَجِلُ الشِّعْرَ أيضاً.

٣ - مختارات من آثاره

- كان الوزيرُ الوليدُ بنُ عبدِ الرحمنِ بن غانمٍ صديقاً لهاشمِ بنِ عبدِ العزيزِ. فلمّا أُسِرَ هاشمٌ جرى ذِكْرُهُ في مجلسِ الأميرِ محمّدٍ، والوليدُ حاضرٌ، فَنَسَبَهُ الأميرُ محمّدٌ إلى الطيشِ والعجلة والاستبدادِ في الرأيِ حتّى أدّى ذلك إلى انهزامِه في المَعْرَكَةِ وأَسْرِه. فدافع الوليدُ عن هاشمٍ ونَسَبَ انهزامَه وأَسْرَهُ إلى عواملَ كثيرةٍ منها سوءُ الحظِّ. فذَهَبَ غَضَبُ الأميرِ محمّدٍ وسعى في تخليصِ هاشمٍ من الأَسْرِ بفِدْيَةٍ كبيرةٍ. وبَلَغَ ذلك إلى هاشمٍ فكَتَبَ إلى الوليدِ (نفح الطيب ٣: ٣٧٣):

«الصديقُ مَنْ من صَدَقَكَ في الشِّدّةِ لا في الرَّخاء، والأخُ من ذَبَّ[1] عنك في الغَيْبِ لا في المَشْهَدِ، والوفيُّ من وَفَى لك إذا خانَك زمانٌ. وقد أتاني مِنْ كَلامِك بَيْنَ

(١) ذبّ: دافع.

يَدَيْ سَيِّدِنا - جعلَ اللهُ تعالى نِعمتَه سَرْمَداً[1] - ما زادني بِمَوَدَّتِك اْغتباطاً وبصَداقتِك ارتباطاً. ولذلك ما كنتُ أشُدُّ يَدي على وَصْلِكَ بإخائي. وأنا الآنَ بمَوْضِعٍ لا أقْدِرُ فيه على جزاءٍ غيرِ الثناء. وأنتَ أقدرُ منّي على أنْ تَزيدَ ما بَدأتَ به بأنْ تُتِمَّ ما شَرَعْتَ فيه حتّى تَتَكَمَّلَ لك المِنَّةُ ويَسْتَوثِقَ عِقْدُ الصداقة... ».

- وقال هاشمُ بنُ عبدِ العزيزِ في الفخر بأحوالِ الهَزْلِ وأحْوالِ الجِدّ:

أهْوى مُعانقـةَ المِـلا ... ح وشُربَ أكواسِ الطِّـلى[2].
ويَسُرُّني حُسْنُ الرِيا ... ض وقـد توشّتْ بالحُـلى[3].
وأذوبُ مِنْ طَرَبٍ إذا ... مـا الصبـحُ جَرَّدَ مُنْصُـلا[4].
وأهيمُ في قَوْدِ الجُيو ... شِ ونَيْـلِ أسبـابِ العُـلا[5].
وأُهَزُّ مُرتاحاً، إذا ... سَرَتِ المواضي في الطُّـلا[6].
قُلْ لِلّذي يَبْغي مكا ... ني: هكـذا أو لا فـلا!

- وكان أحدُ أبناءِ هاشمِ بنِ عبدِ العزيزِ قد خاطَبَ أباه هاشماً برُقْعةٍ فيها شِعْرٌ ضعيفٌ، فوَقَّعَ على ظهرِ تلك الرُقعةِ بَديهَةً:

لا تَقُلْ - إنْ عَزَمْتَ - إلاّ قريضاً ... رائقـاً لفظُـه ثَقيفـاً رَصينـا[7]

---

(١) سيّدنا (يقصد الأمير محمّداً). سرمدا: أمداً دائماً.
(٢) الملاح جمع مليحة: المرأة ذات اللون الحسن. أكواس جمع كأس (غير قاموسية). وجمع كأس في القاموس كؤس وكؤوس وكاسات وكئاس. الطلى = الطلاء (بالكسر فيهما): الخمر.
(٣) توشّت: (تطرّزت) بالحلى (بالأزهار التي تشبه المعادن الثمينة التي تتحلّى بها النساء).
(٤) المنصل: السيف (نصل السيف). جرّد الصبح منصلاً: بدأت أنوار الصبح تبدو في الشرق كأنّها سيوف (لأن النهار وقت العمل).
(٥) قود الجيوش: قيادة الجيوش (في الحرب).
(٦) أهزّ (بالبناء للمجهول؟): أطرب. أفرح. المواضي: السيوف. الطلا جمع طلاة (بالضمّ فيهما): العنق (أي في المعارك).
(٧) القريض: الشعر. الثقيف: المهذّب (الخالي من الخطأ).

أوْ دَعِ الشِّعْرَ، فهو خيرٌ من الغَثْـ ـثِ، إذا لم تَجِدْ مقالاً ثمينا!

- وكتب إلى جاريتِهِ - واسْمُها عاجُ - من سِجنهِ أبياتاً هي (وفيها شَيْءٌ من نَفَسِ النابغةِ ونفس أبي فراسٍ):

وإنّي عداني أن أزورَكِ مُطْبِقٌ وبابٌ منيعٌ بالحديد مُضَبَّبُ[1].
فإن تَعْجَبي، يا عاجُ، مِمّا أصابني، ففي رَيْبِ هذا الدهرِ ما يُتَعَجَّبُ[2].
وفي النفسِ أشياءٌ أبيتُ بغَمِّها كأنّي على جمرِ الغَضى أتقلّبُ[3].
تَرَكْتُ رَشادَ الأمرِ إذ كُنتُ قادراً عليه فلاقيتُ الذي كنتُ أرْهَبُ.
وكم قائلٍ قال: انْجُ، وَيْحَكَ، سالِماً؛ ففي الأرضِ عنهم مُسْتَرادٌ ومذْهَبُ[4].
فقُلتُ له: إنّ الفِرارَ مَذَلَّةٌ، ونفسي على الأسواءِ أحْلى وأطيبُ
سأرضى بحُكْمِ اللهِ فيما يَنوبُني، وما من قضاءِ اللهِ للمرءِ مهرب.
فمن يَكُ مسروراً بِحالي، فإنّه سيَنْهَلُ في كأسي وَشيكاً ويشرب[5]!

- وقال هاشمُ بنُ عبدِ العزيز (المقتبس ١٣٤):

كان الأميرُ محمّدٌ (راجع، فوق، ص ٥٨) أبصرَ الناس بالرأي وأنفذَهم لِوجهِه، فكان يجمَعُنا للمَشورة على رَسْمٍ من قِبَلِه، فنجتهدُ ويقول كلُّ واحدٍ منّا ما يحضُرُه. فإن وافقَ ما قدِ انتقاه هو أمضاه عن تَحصيلٍ. وإنْ كان في الرأي خَلَلٌ ناظَرَنا على خِطْئِه وقلّبَ لنا وجوهَه وعَدَلَنا عنه بحِجاجٍ وتِبْيانٍ لا نكاد ندفعُه فتُصغي أفهامُنا إليه ونختاره.

---

(١) عداه: فاته. مطبق: (بضمّ الميم وكسر الباء): السجن تحت الأرض. مضبّب: مقفل بحديدة تدخل من الباب في الجدار.

(٢) ما يتعجّب (الإنسان) منه: أمور عجيبة غريبة.

(٣) الغضى شجرة يصنع منه فحم ذو نار شديدة الحرارة (وجمعها: غضى).

(٤) مستراد: مكان بعيد ينزله الإنسان للنجاة من أعدائه. المذهب: مكان يذهب إليه الإنسان.

(٥) سينهل (يشرب) من كأسي: سيصيبه مثل الذي أصابني.

٤ - ★ ★ ★ المقتبس ١٣٤ وما بعد، ١٥٧ - ١٧١، ١٧٧ - ١٧٨، ٢٣٧ - ٢٣٩، ٢٤٨ - ٢٥١، ٣٤١، ٣٤٤ - ٣٤٥، ٣٦٠ - ٣٦٤، ٣٦٨ - ٣٧٨، ٣٨٦ - ٣٨٩؛ جذوة المقتبس ٣٤٢ - (الدار المصرية) ٣٦٤ (رقم ٨٦٤) بغية الملتمس ٤٧٠ (رقم ١٤٢٣)؛ البيان المغرب ٢: ١٠٢ - ١٠٥؛ وأماكن أخرى؛ المغرب ١: ٥٢ - ٥٣، ٢: ٩٤ - ٩٥؛ الحلّة السيراء ١: ١٣٧، ١٤٢، ١٦١ - ١٦٢، ٢: ٣٧٣ - ٣٧٦؛ نفح الطيب ٣: ١٣٠ - ١٣١؛ ٣٧٢ - ٣٧٣؛ الأعلام للزركلي ٩: ٤٨ (٨: ٦٦).

عبّاس بن فِرناس

١ - هو أبو القاسمِ عبّاسُ بنُ فِرْناسٍ[١] بن وَرْدوسَ (ورداس؟) الأندلسيُّ، أصلُ أهلِهِ من بربرِ تاكُرُنّا (إقليم رُنْدةَ - من جَنوبيّ الأندلس) ومن موالي بني أُمَيَّةَ. وُلِدَ في أعقاب القرنِ الثاني للهجرة (أوائل القرن التاسع للميلاد)، وقد عاش في بَلاط قُرْطُبَةَ، في أيامِ الحَكَمِ الرَبَضِيّ (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) وعبدِ الرحمنِ الأوسطِ ومحمّدِ بنِ عبدِ الرحمن (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ). وكان مَسكنُه في الرَبَض (الضاحية) الغربيّ من قرطبة. ويقال إنّه زار العِراق.

اشتهرَ عبّاسُ بنُ فرناسٍ بالبراعة في فنونٍ نظريّة وتَجْريبية فَنُسِبَ إليهِ عددٌ من المُخْتَرَعاتِ منها صِناعةُ الزُّجاجِ من الحِجارة، ومنها المِنقالة[٢]. وكان بارعاً في الرياضيّات والفيزياء والكيمياء والفَلَك والموسيقى. على أنَّ أشهرَ ما عُرِفَ به كان محاولَتَهُ الطيرانَ: فقد كَسا جِسمَه بحريرٍ مُلْصَقٍ عليه ريشٌ كثيرٌ وجعل لنفسه منه جَناحَيْنِ مُتَحرّكين ثمّ صَعِدَ إلى مكانٍ عالٍ وألقى بنفسهِ فطار مسافةً يسيرةً، ولكنّه

---

(١) الفرناس: رئيس الدهاقين (أصحاب الأراضي الواسعة) والأسد. والشجاع؛ والاسم عربي أيضاً. فإنّ رجلاً من بني سليط العرب كان اسمه فرناساً (راجع في ذلك كلّه القاموس ٢: ٢٣٦).

(٢) المنقالة (ويقال: المنقانة): آلة لحساب الوقت أو ساعة (راجع تعليقاً في نفح الطيب ٣: ٣٧٤، الحاشية ٢).

كان قد غَفَلَ عن أن يجعَلَ لنفسهِ ذيْلاً من ريش (مثل زِمِكَّ الطائر)[1] فوقع على مُؤَخَّرته، ولكنّه نجا من الموت. ويَجِبُ أن يكونَ قد فَعلَ ذلك في أوائل كُهولته. وكانتْ وفاةُ عبّاسِ بنِ فرناسٍ في نحو ٢٧٤ (٨٨٧ م) وقد أسنّ، قيل قد زادَتْ سِنُّه على ثمانينَ سَنةً.

٢ - كان عبّاسُ بنُ فِرْناسٍ فيلسوفاً حاذقاً فَعُرِفَ بحكيم الأندلس، كما كان عالماً ذا عقلٍ مُبْدِعٍ. وكذلك كان من علماءِ النحو[2] أديباً مشهوراً وشاعراً مُجيداً. وفنونهُ المدحُ (مَدَحَ جميع أمراءِ بني أُمَيَّةَ الذين عاصَرَهُمْ) والهجاءُ، وقد هاجى مُؤمِنَ آبن سعيدٍ[3] فأفْحَشَ كلٌّ واحدٍ منهما على خصمه. وله وصفٌ بارع. ومَعَ إجماعِ الرُّواةِ على جَوْدة شِعره وكَثْرتهِ، فإنّهم لم يحفظوا لنا منه إلاّ عدداً من الأبيات.

٣ - مختارات من شعره

- في المُحرَّم من سَنَةِ ٢٤٠ (تمّوز - يوليو ٨٥٤ م) ثارَ أهلُ طُليطلةَ واستنجدوا بِمَلِكِ جلّيقية فجاءتهم جموعٌ كبيرةٌ من الإسبان. فَلَقِيَهُمُ الأميرُ محمّدٌ على وادي سَليطٍ (أحدِ روافدِ نهرِ تاجُه جَنوبَ طُليطلة) وهزَمَهُمْ هزيمةً مُنكرةً قُتِلَ فيها من الإسبان نَحوُ عِشرينَ ألفاً. فقال عبّاسُ بنُ فرناسٍ في ذلك (ابن عِذاري ٢: ١١١، راجع ٩٤ - ٩٥ ونفح الطيب ١: ٣٥٠ في معركة وادي سليط):

ومُخْتَلِفِ الأصواتِ مُؤتلفِ الزَّحْفِ ... لَهُومِ الفَلا عَبْـلِ القنابل مُلْتَفِّ[4]
إذا أوْمَضَتْ فيه الصوارمُ خِلْتَها ... بُروقاً تراءى في الجَهام وتستَخْفي[5]

---

(١) الزمكّ (بكسر فكسر فتشديد) والزمكّى (بكسر فكسر فتشديد أيضاً): ذنب الطائر أو أصله ومنبته (القاموس ٣: ٣٠٥).

(٢) بغية الوعاة، ص ٢٧٦.

(٣) راجع فوق، ص ١٢٢.

(٤) مختلف الأصوات (جيش) متعدّد أنواع السلاح (فكلّ نوع من السلاح يحدث صوتاً معيّناً). مؤتلف الزحف: موحّد السير (لأنّه موحّد الهدف). لهوم: أكول. الفلا: الأرض الواسعة (يقطع المسافات الشاسعة بسرعة). عبل: مكتنز، شديد العضلات. القنابل: جماعات الخيل. ملتفّ: متقارب، موحّد، منظّم.

(٥) الصوارم جمع صارم: سيف. خلتها: ظننتها. الجهام: السحاب الذي لا مطر فيه.

كأنّ ذُرى الأعلامِ في مَيَلانه قراقيرُ في يَمٍّ عَجَزْنَ عن القَذَف[1].
وإن طَحَنَتْ أرحاؤها كان قُطْبُها حِجَا مَلْكٍ نَدْبٍ شمائلُه عَفّ[2].
سَمِيٌّ خِتامِ الأنبياءِ محمّدٍ، إذا وُصِفَ الأملاكُ جَلَّ عن الوصف[3].
بَكَى جَبَلا وادي سَلِيطٍ فأعْوَلا على النَفَرِ العُبْدانِ والعُصْبةِ الغُلْفِ[4].
دعاهُمْ صريخُ الحَيْنِ فاجتمعوا له كما اجتمعَ الجُعْلانُ للبَعْرِ في وَقْف[5].
فما كان إلاّ أنْ رماهم بِبَعْضِها فوَلَّوْا على أعقابِ مهزولةٍ كُشْف[6].
كأنّ مساعيرَ الموالي عَلَيْهِمُ شواهينُ جادَتْ للغَرانيقِ بالنَّسْف[7].
بِنَفْسي تَنانينَ الوغى حينَ صَمَّمَتْ إلى الجبلِ المشحونِ صَفّاً على صفّ[8]

---

(١) الذرى جمع ذروة (بالكسر أو الضمّ): الرأس، القمّة (بالكسر). الأعلام جمع علم: الجبل. في ميلانه: تحرّكه في مسيره. القرقور (بالضمّ): السفينة الطويلة العظيمة. اليمّ: البحر. القذف: الاندفاع والسير! - هذا الجيش كبير جدًّا إلى حدّ أن الجبال ترى كأنّها سفن عائمة فيه.

(٢) إن طحنت أرحاؤها (الرحى: حجر الطاحون): إذا بدأت المعركة. القطب: المحور القائم الثابت في الطبق الأسفل من الرحى يدور عليه الطبق الأعلى. القطب (هنا) سيّد القوم، القائد. الحجى: العقل. ندب: ماض حازم في الأمور، عاقل. شمائله: أخلاقه، صفاته (القياس: ندبة شمائله - والتركيب هنا أعسر). العفّ: العفيف (عن الاعتداء).

(٣) الأملاك جمع ملك (بفتح فسكون): ملك (بفتح فكسر).

(٤) أعول: رفع صوته بالبكاء. العبدان: العبيد. الأغلف: الذي لم يختتن (كناية عن الإسبان النصارى: والعبدان كناية عن المسلمين الذين كانوا في جيش ملك الإسبان من الثائرين).

(٥) الحين (بالفتح): الموت. الجعل (بضمّ ففتح): دويبة سوداء كريهة الرائحة. للبعر: لإلقاء البعر (لإخراج القذر من الجسم). في وقف: في سطر أو صفّ واحد(؟).

(٦) فولّوا (هربوا) على أعقاب (وراء ؟) مهزولة (خيل هزيلة، ضعيفة). كشف (جمع أكشف: الحصان الذي له التواء في ذيله). والكشف أيضاً: الذين لا سلاح معهم.

(٧) المسعر (جمعها مساعر) والمسعار (جمعها مساعير): الذي يوقد (يبدأ) الحرب، الشجاع. الموالي: الموالون (وهي أيضاً: المسلمون من غير العرب، في الأندلس). الشاهين: طائر قويّ تصاد به الطيور. الغرنوق (بضمّ الغين): طائر مائي جميل ضعيف. النسف: التبديد والتفريق (الإهلاك). جادت: تكرمت، أعطت (جاءت؟).

(٨) التنّين (بكسر التاء) نوع من الزواحف (المقصود هنا: الحيّة العظيمة، الشجاع). صمّم: اتّجه إلى، سار، قصد. بنفسي (أفدي بنفسي). صفّا على صفّ (كناية عن كثرة جيوش الأعداء).

يقولُ ابنُ يوليشٍ لموسى وقد وَنى: أرى الموت قُدّامي وتحتي ومِنْ خلفي[1].
قَتَلْنا لهم ألْفاً وألفاً ومِثْلَها وألفاً وألفاً بعدَ ألفٍ إلى ألْف،
سوى من طَواه النهرُ في مُسْلَحِبِّه فأُغْرِقَ فيه، أو تَدأدأ من جُرْف[2]

– كان محمودُ بن أبي جميلٍ جوّاداً وعاملاً للأميرِ عبدِ الرحمن بن الحكم على كورة...... فاتّفق أن عَمِل قُبّةَ أدَمٍ (خيمةً كبيرة من جلد) ونصبها عند وادي (نهر) لكُّه وأدَبَ فيها مأدُبةً دعا إليها أشراف الكورة. وبعد المأدبة غنّى أحدُ بني زِريابَ:

ولو لم يَشُقْني الظاعنون لَشاقَني حَمامٌ تداعتْ في الدِّيارِ وقوعُ[3]؛
تَداعَيْن فاستَبْكَيْنَ مَنْ كان ذا هوًى: نوائحُ ما تَجري لَهنّ دموع.

فلمّا تقضّى غِناءُ ٱبنِ زِريابَ مَدّ عبّاسُ يده إلى العود فأخذه وغنّى البَيْتين ثمّ وَصَلَها (ببيْتَينِ) من عندهِ بديهةً فقال:

شَدَدتُ بمحمودٍ يداً حين خانَها زمانٌ لأسبابِ الرجاء قَطوعُ.
بنى لسَماعِ الجودِ والمجدِ قُبّةً إليها جميع الأجْودِينَ ركوعُ.

– ولمّا ثار أهلُ طُليطلَة غزاهمُ الأميرُ محمّدٌ ثمّ ٱحتال فَهَدَمَ القَنطرةَ (الجِسْرَ) الذي على نهرِها (نهرِ تاجُه) فقال عباسُ بنُ فرناسٍ يُسَوِّغ (يُبَرِّرُ) هَدْمَها:

أضْحَتْ طُليطِلَةٌ مُعَطَّلَةً من أهلِها في قَبْضةِ الصَّقْرِ.
تُرِكَتْ بلا أهلٍ تُؤَهِّلُها مهجورةَ الأكنافِ كالقبر.
ما كان يُبْقي اللهُ قنطرةً نُصِبَتْ لِحَمْلِ كتائبِ الكُفر!

---

(1) موسى بن موسى قائد في الثغور (شماليّ الأندلس). ابن يوليش (لعلّه القائد الإسباني). هذه المعركة كانت في أيام أرذون ابن أذفونش (ألفونس) صاحب (ملك) جيليقية (الجانب الشمالي الغربي من إسبانية). ونى: تعب.

(2) المسلحبّ: الطريق الطويل الممتدّ (والمسلئبّ المطر الكثير). تدأدأ: اضطرب في مشيه (سقط). الجرف: شقّ الوادي، صخر فوق هاوية.

(3) شاقه الأمر: جعله يشتاق إليه، يرغب فيه. تداعت الحمام: دعا بعضها بعضاً (صوّتت إحداها فصوّتت ثانية بعدها وثالثة إلخ).

- وقال يَصِفُ رَوْضَةً:

ترى وَرْدَهـا والأُقحُوانَ كأنّـه بها شَفَةٌ لعْسَاء[1] ضاحَكَها ثَغْرُ.

٤ - ★ ★ الزبيدي ٢٩١ - ٢٩٢؛ المقتبس ١٢٤ - ١٢٥، ٢٢٧ - ٢٣٤؛ جذوة المقتبس ٣٠٠؛ (الدار المصرية) ٣١٨ (رقم ٧٣١) بغية الملتمس ٤١٨؛ المغرب ١: ٣٣٣؛ نفح الطيب ١: ١٦٢، ٣: ٣٧٤، ٣٧٥؛ دائرة المعارف الإسلامية ١: ١١؛ الأعلام للزركلي ٤: ٣٧، (٣: ٢٦٤).

مُحمّدٌ البَريديُّ

١ - هو أبو العبّاسِ محمّدُ بنُ أحمدَ البَريديُّ من أهلِ إفْريقِيَةَ (تونس)، جَعَلَهُ الأميرُ أبو إسحاقَ إبراهيمُ الثاني (٢٦١ - ٢٩٠ هـ) أحدَ بني الأغلبِ، كاتِبَهُ الخاصَّ. ثمّ غَضِبَ عليهِ وسجنَهُ. وكانتْ وفاتُه (أو مقتلُه في السِّجن، في الأغلب)، سَنَةَ ٢٧٦ (٨٨٩ م).

٢ - كان محمّدٌ البريديُّ من مشاهيرِ كُتّابِ الدولة الأغلبية وأُدَبائها الظُّرفاءِ، ناثراً ومُتَرَسِّلاً وشاعراً. وأسلوبُه في نثرِه وشعرِه سَهْلٌ مَتينٌ.

٣ - مختارات من آثاره

- كَتَبَ محمّدٌ البَريديُّ من سِجنهِ إلى الأمير أبي إسحاقَ إبراهيمَ يَسْتَعْطِفُهُ:

«أعزَّ اللهُ الأميرَ. مِنْ كَرَمِ العَفْوِ وعُلُوِّ قدرهِ وجليلِ خَطَرِه[2] أن تسمّى اللهُ عزَّ وجلَّ به فسمّى نفسَه الغَفورَ الرحيمَ. والطَبْعُ البشريُّ مُرَكَّبٌ على النقصِ مقرونٌ بالزَلَلِ، إلاّ ما خصّ الله به الأنبياءَ، وأوْدَعَهُ الساداتِ والأمراءَ، مِنْ طهارةِ الأخلاق ونَزاهة الأنفُسِ. ولستُ - أيّدَ اللهُ الأميرَ - مِمّنْ يَدّعي العِصْمة والبَراءةَ من الهَفْوة.

---

(١) الورد: الزهر الأحمر. الأقحوان: زهر بتلاته بيض ووسطه أصفر. اللعساء: السمراء (وكان العرب يحبّون السمرة في الشفاه). ضاحكها ثغر (الصورة غير واضحة).

(٢) الخطر: المكانة الرفيعة والشرف (قيمة العفو وحسن الاتّصاف به).

ولستُ أمُتُّ إليكَ[1] إلاّ بفضلِكَ عليّ وإحسانِك إليّ. ولا أُعرِّفُك بل أُذكِّرُك أنّ مَنْ غَرَسَ غَرْساً فواجبٌ ألاّ يَجْتثَّه وإنْ أبطأ بُسوقُه[2]، بل يَمُدُّه بمدِّ مواردهِ العَذْبة حتّى تَمتدَّ حِيطانه[3] وتُورِقَ أغصانُه. أعاذك الله، بما أودعهُ (فيك) من معالي الأخلاقِ، مِنْ تَرْكِ العَفْوِ عن مُقرٍّ مُعْترفٍ لا يَعْرِفُ إلاّ فضلَكَ ولا يرجو إلاّ عدلَكَ...

- ودخل بعضُهم على محمّدٍ البَريديِّ في السِّجن وأخبرَه أن الأميرَ يُريدُ قتلَهُ، فقال:

تُخَوِّفُني بمخلوقٍ ضعيفٍ ... يَهابُ من المَنيّة ما أهابُ[4].
لهُ أجلٌ، ولي أجلٌ. وكُلٌّ ... سيَبْلُغُ حيث بَلّغهُ الكتابُ![5].

٤ - ★ ★ مجمل تاريخ الأدب التونسي ٦٥ - ٦٧.

بقيّ بن مخلد

هو أبو عبدِ الرحمن بَقِيُّ بنُ مَخْلَدِ القرطبيّ، وُلِدَ في قرطبة في رَمَضانَ من سَنَة ٢٠١ (مطلع الربيع ٨١٧م) وسَمِعَ من أبي عبد الله محمّدِ بنِ عيسى المُعافري القُرطبي (ت ٢٢٢) ومن يحيى بن يحيى الليثيّ (ت ٢٣٨).

ورَحَلَ بقيُّ بن مخلدٍ إلى المشرق مرتين مكث في الأولى منها أربعَ عشْرةَ سَنَةً وفي الثانية نحو عشرين عاماً؛ لَقِيَ أحمدَ بنَ حَنْبلٍ (ت ٢٤٠ هـ) وصَحِبه وتَوثّقتِ الصلةُ بينَها. وأخذَ أيضاً عنْ إبراهيمَ بنِ محمّدٍ الشافعيّ (٢٣٧ هـ) وعن أبي المُصْعَبِ الزُّهْريّ

---

(١) متّ رجل إلى آخر: توسّل ، بقرابة بينهما.
(٢) اجتثّ النبتة: انتزعها من الأرض بجذورها. أبطأ بسوقه: تأخّر نموّه واستتامه.
(٣) يمدّه: يزوّده، يعينه. الموارد: مصادر الماء. تمتدّ تتّسع. الحائط (هنا): البستان (مجموع الأغراس) لأن على البستان حائطاً (سور).
(٤) يهاب: يخاف. المنيّة: الموت. - سيموت يوماً ما كما سأموت أنا الآن.
(٥) الأجل: الزمن المعيّن من الحياة. الكتاب (هنا): وقت نزول الموت (موعد استحقاق الدين).

(ت ٢٤٢ هـ) وغيرِها. ولقدْ أخذ عن جميعِ أصحابِ المذاهب ولم يَقْصُرْ هَمَّه على الأخذِ عمّن كان يعتنق مذهَبَهم كما كان يفعل غيره.

إلى ذلك الحين كان الغالبَ على أهل الأندلس حفظُ رأي الإمامِ مالكٍ والاكتفاءُ بكتبِ الفُروع (أبواب الفِقْه الجزئية: الصلاة - الزكاة - الحَضانة - الشراكة، الخ)، فلمّا عاد بقيٌّ بن مخلدٍ من المشرق حاول أن يحمل الفقهاءَ في الأندلس على الاستناد في آرائهم وأحكامِهم إلى القُرآنِ والحديثِ فانتشر الحديثُ في الأندلس. وكذلك حاول أن ينشُرَ في الأندلسَ مذهبَ الإمامِ الشافعيّ في أيامِ الأميرِ محمّدٍ (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ)، ولكنه لَقِيَ مُقاومةً من نَفَرٍ من خصومهِ أشهرهُم ابن مرتيل (ت ٢٤٠ هـ) شيخُ المالكيّة في عصره.

وكانت وفاةُ بقيّ بن مخلدٍ في ٢٩ جُمادى الثانية من سنة ٢٧٦ (٢٩/ ١٠/ ٨٨٩ م).

كان بقيّ بن مخلدٍ من المفسّرين للقرآن الكريم ومن حُفّاظِ الحديث ومن أئمّةِ الدين والفِقه على المذهب الشافعي ومن الزّهّاد الصالحين.

ولابن بقيٍّ من الكتب: تفسيرُ القرآن الذي فضّله ابنُ حزمٍ (ت ٤٥٦ هـ) على كلّ تفسير آخر، وعلى تفسير الطبري أيضاً، وله كتابٌ في الحديث «المصنّف الكبير» فيه الأحاديث على أسماء الصحابة، ثمّ رتّب الأحاديثَ المَرْويّةَ عن كلّ صَحابي على أبواب الفقه، فهذا الكتاب مُسْنَدٌ (منسوبةٌ أحاديثهُ إلى رُواتها) ثمّ مُصَنَّفٌ (مُرَتَّبٌ على أبواب الفقه).

- تاريخ خليفة بن خيّاط برواية بقي بن مخلد (حقّقه سهيل زكّار)، دمشق (منشورات وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي) ١٩٦٧ - ١٩٦٨ م.

★ المقتبس ٢٦١ - ٢٦٥؛ ابن الفرضي ٩١ - ٩٣ (رقم ٢٨٣)؛ جذوة المقتبس ١٦٧ - ١٦٨ (الدار المصرية) ١٧٧ - ١٧٩ (رقم ٣٣١)؛ بغية الملتمس ٢٢٩ - ٢٣٢؛ الصلة لابن بشكوال ١٢١؛ معجم الأدباء ٧: ٧٥ - ٨٥؛ قضاة الأندلس ٦٣ - ٦٥؛ نفح الطيب ٢: ٤٧، ٥١٨ - ٥٢٠؛ دائرة المعارف الإسلامية ١: ٩٥٦ - ٩٥٧؛ بروكلمان ١: ١٧٢، الملحق ١: ٢٧١؛ الأعلام للزركلي ٢: ٣٣ (٦٠).

عبد الجبّار السرتيّ

١- هو عبدُ الجبّارِ بنُ خالدِ بنِ عِمرانَ السَّرْتِيّ (وسَرْتُ مرفأ في أواسط ساحل ليبيا اليوم)، وُلِدَ سَنَةَ ١٩٤ (٨١٠م) ولازم سحنوناً (ت ٢٤٠) ما ترك مَجْلِسَ عِلمٍ له لم يحضُرْهُ. وكان صديقاً لحمد يسٍ القطّانِ[١] وشريكاً يعمَلانِ في القُطْنِ معاً في سوق الأحدِ ثمّ تقاطعا بسببِ كُتُبِ محمّدِ بنِ مَهْدِيٍّ البكريّ[٢]: كان عبدُ الجبّارِ يقرأها، وكان حَمديسُ يريدُ أن يَصْرِفَه عن قِراءتها. وقد تقاطعا أربعاً وعِشرينَ سَنَةً ولكن لم يُسِئْ أحدٌ منهما إلى الآخَرِ بفعلٍ أو بقولٍ. ولمّا مات عبدُ الجبّار صلّى عليه حمديسٌ.

وجَلَسَ عبدُ الجبّارِ للإفادةِ فسَمِعَ منه جماعةٌ كثيرةُ العددِ.

وكانتْ وفاةُ عبدِ الجبّارِ في أولِ رَجَبَ من سَنَةِ ٢٨١ (٧/ ٩/ ٨٩٤م).

٢- كان عبدُ الجبّارِ السرتيُّ شيخاً صالحاً مُتَعَبِّداً يُضْرَبُ به المَثَلُ في الفضلِ والدِّين. وكان ذا فهمٍ لمعاني العِلْمِ، وله أقوالٌ كثيرةٌ تجري مَجْرى الحِكمة.

٣- مختارات من أقواله

- من أقوالِ عبدِ الجبّارِ السرتي (تراجم أغلبية ٢٩٨- ٢٩٩):

مَنْ قلّ كلامُه قَلَّتْ آثامُه- الصومُ عن الكلامِ أثقلُ (على النفس) من الصومِ عنِ الطعام- من خَلا بربِّهِ لم يَعْدَمِ النورَ من قلبهِ، ومن خلا بغيرِه لم يعدمِ الزِّيادَةَ في ذنبه- لولا الفُضولُ لَصفَتِ العُقولُ ولأصْبَحَ المجهولُ عندك (وهو) معقولٌ- من وبّخكَ فقد نَفَعَكَ، ومن نفعك فقد رَفَعَكَ- كُنتُ أخلو (بنفسي) لأعلَمَ فصِرْتُ أخلو لأغنَمَ- من كان بالليلِ نائماً وبالنهار هائماً فمتى (يصبح غانماً)؟[٣]. وقال (ص ١٢٨، ٣٣٧):

---

(١) جديس القطّان هو أحمد بن محمّد الأشعري (٢٣٠- ٢٨٩ هـ) كان على مذهب الأشاعرة الذين يفضّلون الرواية الدينية على التخريج العقلي (في مسائل الإيمان والعبادات).

(٢) يبدو أن محمّد بن مهدي البكري كان من المعتزلة الذين يقدّمون العقل على الروايات الدينية. وكان سحنون (راجع، فوق، ص ١١٢) يقول: «ابن مهدي هذا ضالّ مضلّ (تراجم أغلبية، ص ٢٩٦)».

(٣) في الأصل: متى ينال الغنائم!.

تَرْكُ الحرام أفضلُ من مَلْءِ الأرض إلى عِنان[1] السماء ذَهباً وفِضّةً كُسِبَت (من وَجْهها الشرعي) وأُنْفِقَتْ في سبيلِ الله لا يُراد بها إلاّ وجهُهُ (وجه الله).

٤- * * تراجم أغلبية ٢٩٤- ٢٩٩؛ الأعلام للزركلي ٤: ٤٨ (٣: ٢٧٤).

تمّام بن عامر[2]

١- هو أبو غالبٍ تمّامُ بنُ عامرِ بنِ أحمدَ بنِ غالبِ بنِ تمّامِ بنِ علقمةَ، وُلِدَ سَنَةَ ١٨٤ هـ (٨٠١ م). وقد وَلِيَ الوَزارةَ للأمير محمّدِ بن عبد الرحمن (٢٣٨- ٢٧٣ هـ) ولولدَيْهِ المُنذرِ وعبدِ الله (٢٧٥- ٣٠٠ هـ). وكانتْ وفاتُه في جُمادى الآخرة من سَنَة ٢٨٣ (صيف ٨٩٦ م).

٢- كان تمّامُ بنُ عامرٍ عالماً وأديباً وإخبارياً، كما كان شاعراً مُكثِراً، وله أُرجوزةٌ في تاريخ الأندلسِ من وقتِ طارقِ بنِ زِيادٍ إلى آخر أيام عبد الرحمن بن الحَكَمِ (ت ٢٣٨) قَلّدَ فيها أُرجوزةَ يحيى بنِ الحكَمِ الغَزالِ (راجع، فوق، ص١١٥). وشعرُه سهلٌ عذبٌ وأغراضُه المدحُ والقَصَص والنسيب والهِجاء، وله مقطوعةٌ في ذمّ الشِّطرنج.

٣- مختارات من شعره

- كانتْ أُمُّ الوليدِ بن خلفِ بن رومانَ (رومانس) فتاةً بارعةَ الجمالِ سَبّاءةً للألبابِ نَصْرانيةً، رآها تمّامٌ فهامَ بها وتزوّجها، فكان أناسٌ يَلومونَه في ذلك فقال:

---

(١) عنان (بالكسر) السماء: نواحيها و(بالفتح): ما بدا لك منها.

(٢) هنالك ثلاثة أشخاص باسم تمّام بن علقمة: وهنالك نفر من المؤرّخين للأدب يخلطون بينهم. إنّ تمّام بن علقمة هذا الذي أوردتّ ترجمته، وكانت وفاته سنة ٢٨٣ هـ، لا يمكن أن يكون تمّام بن علقمة أو تمّاماً الذي كان من أنصار عبد الرحمن الداخل (ت ١٧٢ هـ)، كما ذكر ابن الأبار في «الحلّة السيراء» (١: ١٤٣)، فإنّ النقيب (المناصر) لعبد الرحمن الداخل مات سنة ١٩٨ هـ (المغرب ١: ٤٤). ويرد ذكر تمّام بن علقمة أحد كبار النقباء لعبد الرحمن الداخل في نفح الطيب (٣: ٣٢، ٤٥، ٤٩ - ٥٠؛ راجع ابن عذاري ١: ٥٣، ٥٤). وهنالك تمّام بن علقمة (ت ٤٣٦ هـ)، وستأتي ترجمته.

(٣) قيل ١٩٤ أو ١٩٧ (مطلع القرن التاسع للميلاد).

يُكلِّفُني العُذّالُ صَبْراً على الّتي | أبى الصبرُ عنها أن يَحِلَّ مَحلَّها[1].
إذا ما قَرَعْتُ النفسَ يوماً فأبصرتْ | سبيلَ الهُدى عاد الهوى فأضَلّها[2]
وكم مِنْ عزيزِ النفسِ لم يَلْقَ ذِلّةً | أقادَ الهوى من نفسِه فأذَلّها[3]
عَجِبْتُ لمعذولٍ على حُبِّ نفسهِ | يُكلِّفُه عُذّالُه أن يَمَلَّها[4]!

٤- * * المقتبس ١٧٩- ١٨٤؛ الحلّة السيراء ١: ١٤٣- ١٤٤؛ نفح الطيب ٣: ٣١، ٤٥، ٤٩، ٥٠؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٧٠٢؛ بروكلمان، الملحق ١: ١٤٨؛ الأعلام للزركلي ٢: ٦٩- ٧٠ (٨٦).

سعيد بن جوديّ

١- هُوَ سعيدُ بنُ سُليمانَ بنِ جُوديٍّ السَّعْدِيُّ، كان بَدْوياً خائِضاً وفارساً شُجاعاً من نَسْلِ الطارئين على الأنْدلس مَعَ جيوش الفتحِ أو مَعَ بَلْجِ بنِ بِشْرٍ الذي جاء بجيوشٍ من أهل الشام.

لّما ثار عُمَرُ بنُ حَفْصونٍ- وكان من المُولّدينَ ومِنَ الذين يَتَظاهرون بالإسلام- قاتَلَهُ سعيدُ بنُ جوديّ. غيرَ أنَّ سعيداً أُسِرَ ثمّ خَلَصَ من الأسر، سَنَةَ ٢٧٦.

وكان سعيدٌ أميراً في كورة إلْبيرةَ (قُرْبَ غَرْناطة)، في أيّام الأمير عبدِ اللهِ (٢٧٥- ٣٠٠ هـ)، ولكنّه ثارَ على الأميرِ عبدِ الله لّما أخذتْهُ العصبيةُ العربيةُ (البَدْوية) على بني مَرْوانَ الحاكمين في قرطبة.

وكان سعيدُ بن جوديّ مُحبّاً مُغامراً أحَبّ جاريةً مُغَنِّيَةً كانتْ للأميرِ عبدِ اللهِ (قبلَ أن يَصِلَ الأميرُ عبدُ الله إلى الحُكْمِ) يُكْنى عنها باسم جَيْحانَ؛ وقد تَتَيَّمَ بها ولم

---

(١) العذّال جمع عاذل: اللائم (الذي يلوم الآخرين على الحبّ خاصّة).
أن يحلّ الصبر محلّ المحبوبة (أن أصبر عنها ثمّ أنساها).
(٢) - ألوم نفسي على أنّني مخطىء في حبّي لأمّ الوليد هذه ثمّ يغلبني حبّي فأستمرّ في حبّها.
(٣) - كم من إنسان لم يذلّ في حياته أبداً ولكنّه أحبّ بإرادته وأذلّ نفسه للمحبوب.
(٤) - لا يمكن أن أنسى حبّ أمّ الوليد. إنّها مثل نفسي. فهل رأيتم أحداً يسمع قول الآخرين ويكره نفسه.

يَسْتَطِعِ الوُصولَ إليها فاشترى جاريةً وسمّاها جَيْحانَ. غيرَ أنّ جَيْحانَ الجديدةَ لم تُنْسِهِ هَوَى جَيْحانَ القديمةِ.

وواعَدَ سعيدٌ امرأةً على اللقاءِ فَعَلِمَ زوجُها بذلك فدبّر مَقْتَلَ سعيدٍ، في ذي القَعدة سَنَة ٢٨٤ (آخر عام ٨٩٧ م). وقيل كان مقتلُه بعامل سياسيّ لِكُرْهِهِ إمارةَ بني أميّةَ في الأندلس. وقد رثاه المُقدَّم بن المعافى (نفح الطيب ٣: ٥٣٨).

٢- كان في سعيدِ بنِ سليمانَ بنِ جُوديٍّ «عَشْرُ خِصالٍ تَفَرّدَ بها في زمانه لا يُدْفَعُ عنها: الجودُ والشجاعة والفُروسيةُ والجمال والشِّعر والخَطابة والشدّة والطَّعْن والضرب والرِّماية». وكان أديباً خطيباً وشاعراً مُجيداً أكثرُ شِعْرِهِ الحماسةُ والغزَلُ مَعَ شيء من الشكوى فيها.

٣- المختار من آثاره

- قال سعيدُ بنُ جودي يُظهِرُ الكُرْهَ لبني أميّةَ، مخاطباً الأميرَ عبدَ اللهِ:

يــا بــني مروان، شُدّوا في الهَرَبْ	نَجَمَ الثائرُ من وادي القصــبْ
يــا بــني مَروانَ، خَلّوا مُلْكَنــا؛	إنّما المُلْــكُ لأبنــاءِ العَرَبْ[١]!
قرّبوا الوَرْدَ المُحَلّى بالذهبْ	أسرِجوه إنّ نَجْمي قد غَلَبْ[٢]

- وقال يتغزّل ويَنْسِب بجيحان:

سَمْعي أبى أن يكونَ الروحُ في بَدَني،	فاعْتـاضَ قَلْبِيَ منـه لَوْعَـةَ الحَزَنِ.
أُعْطَيْتُ جَيْحانَ روحي عن تَذَكُّرِها؛	هــذا، ولم أرَهـا يومـاً ولم تَرَني.
كأنّني واسْمَها، والدَّمْعُ مُنْسَكِبٌ	من مُقْلَتي، راهبٌ صلّى على وَثَنِ.

- وقال يصف مَيْلَهُ في الحياة والحبِّ:

لا شيءَ أمْلَحُ من ساقٍ على عُنُقٍ[٣]	ومن مُناقَلَــةٍ كأساً عــلى طَبَــقٍ؛

---

(١) العرب هنا بمعنى البدو.

(٢) الورد: الحصان الورد (الأحمر).

(٣) كناية عن اللهو بالنساء.

ومن مُواصَلَةٍ من بَعْدِ مَعْتَبَةٍ، ومن مراسلةِ الأحبابِ بالحَدَقِ.
جريت جَرْيَ جَموحٍ في الصِّبا طَلِقاً وما خرجتُ لصَرْفِ الدهرِ عن طَلَقي[1]؛
ولا انْثَنَيْتُ لداعي الموتِ يومَ وَغًى كما انثنيتُ وحبلُ الحب في عُنُقي[2]!

٤- * * جذوة المقتبس ٢١٣ (الدار المصرية) ٢٢٩ (رقم ٤٦٦)؛ بغية الملتمس ٢٩٤ (رقم ٧٩٥)؛ المغرب ٢: ١٠٥ - ١٠٦؛ الحلّة السيراء ١٥٤:١ - ١٦٠؛ الأعلام للزركلي ١٤٨:٣ (٩٥).

مجبر بن سفيان

١ - هو مُجْبِرُ بنُ إبراهيمَ بنِ سُفيانَ من الأُسرة الأغلبية. تولى عِدّةَ مُقاطعاتٍ في إمارة بني الأغلب. ثمّ ولاّه ابو اسحاق إبراهيمُ الثاني (٢٦١ - ٢٩٠ هـ) على جَزيرة صِقِلّيَةَ[3]. فلمّا كان في البحر أسَرَهُ الروم وحَمَلوه إلى القُسْطنطينية فمات فيها أسيراً.

٢ - لِمُجْبِرِ بنِ سُفيانَ «روميّةٌ» (قصيدةٌ قالَها في أسْرِهِ في بلاد الروم) وهي طويلةٌ، تُذَكِّرُنا بقصيدةِ أبي فراسٍ الحمدانيِّ (ت ٣٥٧): «أراك عَصِيَّ الدمعِ شِيمَتُكَ الصبْرُ»، مَعَ العلم بأنّ مُجْبِراً تُوُفِّيَ قبلَ أبي فراسٍ بنحو سبعينَ سَنَةً! والقصيدة سهلةٌ رقيقة.

٣ - مختارات من شعره.

قال مُجْبِرُ بنُ سُفيانَ في سِجنه في القُسطنطينية:

ألا ليتَ شِعري، ما الذي فعل الدهرُ بإخواننا، يا قَيْروانُ ويا قَصْرُ[4].
ونحن، وإن طَحْطَحَتْنا رَحى النَوى فلم يَجْتَمِعْ شَمْلٌ لَدَيْنا ولا وَفْرُ[5].

---

(١) الجموح: الحصان النشيط النافر. طلقاً الأولى: حرّاً بلا قيد: طلق الثانية: بشاشة الوجه.
(٢) ما رجعت من المعركة مسروراً بسلامتي كما تعوّدتّ أن أرجع مسروراً من مغامرات الحبّ.
(٣) صقلّية أو سقلّية جزيرة كبيرة عند الطرف الجنوبّي من شبه جزيرة ايطالية فتحها الأغالبة على يد أسد بن الفرات، سنة ٢١٦ للهجرة.
(٤) القيروان عاصمة الأغالبة. القصر مدينة قديمة للأغالبة جنوب القيروان.
(٥) طحطح الرجل الشيء: كسّره وبدّده (فرّقه). الرحى: الطاحون. النوى: البعاد (الغربة). الشمل: المجتمع. لم يجتمع شملهم: لم يلتقوا (ظلّوا متفرّقين في الأرض). الوفر: الغنى. - أنا في الأسر بعيد عن أهلي وفقير.

رأينـا وُجوهَ الدهر وهْي عوابسٌ بأعْيُنِ خَطْـبٍ في مَلاحِظِها شَزْرُ[1].
لعـلّ الذي نجّى من الجُبِّ يوسُفاً، وفرّج عن أيوبَ إذ مسّه الضُرُّ[2]؛
وخلّصَ إبراهيمَ من نار قَوْمه، وأعلى عصا موسى فذلّ له السِحْرُ[3]،
يُصَبِّرُ أهـلَ الأسْرِ في طول أسْرهم على مُعْضلاتِ الأسر. لا سَلِمَ الأسْرُ[4].

٤ - ★ ★ مجمل تاريخ الأدب التونسي ٦٧ - ٦٨.

أبن عبّد السلام الخشنّي

١ - هو أبو عبدِ اللهِ محمّدُ بنُ عبدِ السلامِ بن ثعلبةَ بنِ زيدٍ (بغية الوعاة ٦٧) بن الحسن بن كليب (أو كلب) الخُشَنِيُّ من أهلِ كُورة جَيّانَ، وُلِدَ سَنَةَ ٢١٧ (٨٣٢ - ٨٣٣ م).

انتقل ابنُ عبدِ السلام الخشنيُّ إلى قُرطبةَ وسكَنها وأخذَ عن ابنِ أبي مِطْحَنَةَ (أبي محمّد عبد الله بن محمّد) الصريحيّ المُرسيّ. وقد رَحَلَ، قبل ٢٤٠ (٨٥٤ - ٨٥٥ م)، إلى المَشرق وتطوّف فيه خمْساً وعشرينَ سَنة وأخذ عن نفرٍ كثيرين من العلماءِ، في مصر والحجاز وفي العراق خاصّة. ثمّ إنّه رَجَعَ إلى الأندلس فأخذَ عنه كثيرون. وأرادوه أن يَتولّى القضاءَ فلم يقبلْ. وكانتْ وفاتُه في ٢٦ من رَمَضانَ ٢٨٦ (٥/ ١٠/ ٨٩٩ م) في قُرطُبةَ.

٢ - كان ابنُ عبدِ السلام الخُشنيُّ عالماً وحافظاً للحديث فصيحَ اللسان بصيراً

---

(١) الخطب: الأمر الشديد يكثر فيه التخاطب (الأخذ والردّ). بأعين خطب: بحيرة (بعيون حائرة) ولكن في ملاحظها (نظراتها) شزر (النظر بمؤخّرة العين، من الغضب).

(٢) الجبّ: البئر (كان أبناء يعقوب قد ألقوا - بفتح القاف - أخاهم يوسف في بئر أو حفرة عميقة على طريق مصر). الضرّ: سوء حال البدن (بالمرض الشديد).

(٣) كان قوم إبراهيم الوثنيّون قد أرادوا أن يحرقوه لأنّه كان يدعوهم إلى التوحيد. ولمّا دعا فرعون من كان عنده من السحرة لمناظرة موسى تحداه بعضهم بالسحر. فألقى السحرة العصيّ والحبال وأوهموا الناس بسحرهم أنّها حيّات تتلوّى. فألقى موسى عصاه فاختفت حيّات السحرة.

(٤) المعضلة: المسألة لا يهتدي أحد إلى وجه حلّها.

بكلام العرب. وقد أدْخَلَ إلى الأندلس عِلماً كثيراً من الحديثِ واللغة ومن أشعارِ الجاهليّين. وله عددٌ من التآليف في شرح الحديث.

٣ - مختارات من شعره

- لمّا عادَ ابنُ عبدِ السلام الخُشنيُّ إلى الأندلس - بعدَ غيابِ خمسٍ وعشرينَ سنة - بدا له كأنّه لم يَغِبْ عن الأندلس قطُّ، فقال:

كأنْ لم يكُنْ بَيْنٌ ولم تَكُ فُرقةٌ ... إذا كان من بعد الفراق تلاق[١].
كأنْ لم تُؤَرِّقْ بالعِراقَين مُقْلتي، ... ولم تَمْر كفُّ الشوق ماءَ مآقي[٢]،
ولم أزُرِ الأعرابَ في خَبْتِ أرضِهم ... بذات اللِّوى من رامةٍ وبِراق[٣]،
ولم أصْطَبح بالبِيدِ من قهوة النَوى ... بكأسٍ سقانيها الفِراقُ دِهاق[٤].
بَلى، وكأنّ الموتَ قد زارَ مَضْجَعي ... فحوّلَ منّي النفسَ بين تَراق[٥].
أخي، إنّما الدُنيا مَحَلّةُ فُرقةٍ ... ودارُ غرورٍ آذنتْ بفِراق.
تَزوّدْ، أخي، من قَبْلِ أن تَسْكُنَ الثَرى ... وتَلْتَفَّ ساقٌ للنُشورِ بساق[٦]!

٤ - ★ ★ الزبيدي ٢٩٠؛ ابن الفرضي ٢: ١٦ (الدار المصرية ٢: ١٤ - ١٥)؛ المقتبس ٢٥٠ - ٢٥٨م، ٢٦٠، ٢٦٥؛ جذوة المقتبس ٦٣ - ٦٥ (الدار المصرية) ٦٨ - ٧٠ (رقم ١٠٠)؛ بغية الملتمس ٩٢ - ٩٣(رقم ٢٠٢)؛ بغية الوعاة ٢٦٧؛ نفح الطيب ٢: ٢٣٦، ٦٤٩؛ الأعلام للزركلي ٧: ٧٦ - ٧٧ (٦: ٢٠٥).

---

(١) البين: الفراق، البعاد.

(٢) مرى يمري: مسح وعصر (وحاول استخراج اللبن من الضرع). لم تجعلني أبكي. المأق والمؤق: طرف العين.

(٣) الخبت: الأرض الواسعة أو المنخفضة. ذات اللوى ورامة وبراق أسماء لأماكن.

(٤) اصطبح: شرب الخمر صباحاً. القهوة: الخمر. النوى: البعاد. (قضيت في البادية وقتاً طويلاً بعيداً عن أهلي). الدهاق: المترع: الملآن.

(٥) التراقي جمع ترقوة (في أعلى الصدر ترقوتان مشرفتان). بلغت الروح التراقي: أشرف صاحبها على الموت.

(٦) الثرى: التراب. سكن الثرى: مات ودفن. التفّت الساق بالساق: (كناية عن الازدحام حتى تشتبك أرجل نفر من الناس بأرجل نفر آخرين).

عيسى بن مسكين

١ - هو عيسى بنُ مِسكينِ بنِ منصورِ بنِ خُديجِ بنِ محمّدٍ الإفريقيّ، كان مَوْلِدُه في قريةِ مَسْجِد عيسى قُرْبَ المُنَسْتيرِ (على الساحلِ الجَنوبيّ الغربيّ من تونسَ) سَنَةَ ٢١٤ (٨٢٩ م).

سَمِعَ عيسى بنُ مِسكينٍ في المَغرِب جميعَ كُتُبِ سَحنونٍ من سَحنونٍ (ت ٢٤٠) نفسِه ومِن ابنهِ مُحمّدِ بنِ سحنونٍ (ت ٢٥٦)، وسَمِعَ في مِصْرَ من الحارث بنِ مسكينٍ (ت ٢٥٠) ويونسَ بنِ عبد الأعلى الصَدَفي (ت ٢٦٤) ومحمّدِ بنِ عبدِ الله بن عبد الحكم (ت ٢٦٨) ومحمّدِ بنِ إبراهيمَ بنِ زيادٍ المَوّازِ (ت ٢٨١)، وسَمِعَ في الشام من أبي جعفرٍ الإيليّ، كما سمع من نَفَرٍ آخرينَ.

وأرادَ إبراهيمُ بنُ أحمدَ بنِ الأغلبِ أن يُولّيَ عيسى بنَ مسكينٍ القضاءَ فأبى عيسى حتّى أجمَعَ الناسُ على وُجوبِ توليتهِ. فهدّده إبراهيمُ بالعِقاب إن لم يفعَلْ فَقَبِلَ، بعد شروطٍ اشترطها منها: «أهلُكَ - في الحقّ - وبنو عَمّك وجُندُكُ وفقراءُ الناسِ وأغنياؤهم سَواءٌ. ولا تُوَجّهُ ورائي، ولا أُهَنّىءُ ولا أُعزّي ولا أُشَيّعُ ولا أتَلَقّى. فمتى لم تَفِ لي بشرط (منها) عَزَلْتُ نفسي». فقبل إبراهيمُ منه ذلك ثمّ عَرَضَ عليه الكُسوةَ والصِلة (اللتين تُخْلعان عادةً على القضاة) فلم يقبل عيسى ذلك.

وكانت وفاةُ عيسى بنِ مسكينٍ سَنَةَ ٢٩٥ (٩٠٧ - ٩٠٨ م).

٢ - كان عيسى بنُ مِسكينٍ من أهلِ الفِقْه والوَرَعِ ثِقَةً مُتَفَنّناً في العلوم من الحديثِ والفِقهِ واللغة وغيرِها، كما كان فصيحاً يُجيد الشعر.

٣ - مختارات من آثاره

- قال عيسى بنُ مِسكينٍ يَصِفُ نفسَه في الشيخوخة:

لمّـا كَبِرْتُ أتَتْـني كلُّ داهيـةٍ؛ وكلُّ ما كان منّي زائداً نَقَصا.
أُصافِحُ الأرضَ إن رُمْتُ القِيامَ، وإن مَشَيْتُ تَصْحَبُني ذاتَ اليمين عصا!

- وكانتْ له أقوالٌ حكيمةٌ منها:

أشْرَفُ الغِنى تَرْكُ المُنى - في تَقَلُّبِ الأحوالِ علمٌ بجواهرِ الرجال - المَعاش مُذلٌّ لأهلِ العلم - قاربِ الناسَ في عُقولِهِم تَسْلَمْ مِنْ غوائلهم - خَلّوا لهم دُنياهم يُخلّوا بَيْنَكم وبينَ آخِرَتِكُمْ.

٤ - ★ ★ تراجم أغلبية ٢٣٢ - ٢٥٣، ١١ الديباج المذهب ١٧٩ - ١٨١؛ عنوان الأريب ٢٤ - ٢٥.

مهريّة الأغلبيّة

١ - هي الأميرة مَهْرِيّةُ بنتُ الحسنِ بن غَلبونِ التميميٌّ من بني الأغلبِ ملوكِ القَيروانِ، نشأت في مدينة رَقّادةَ في بيتِ مجدٍ وشِعرٍ. وكانتْ وفاتُها في مكّةَ، سَنَةَ ٢٩٥ (٩٠٨ م).

٢ - مَهْريّةُ الأغلبيةُ أديبةٌ شاعرةٌ مُجيدةٌ تميلُ إلى التصوّفِ، لها رثاءٌ.

٣ - مختارات من شعرها

- قالتْ مَهْرِيّةُ الأغلبيةُ ترثي أخاها[1] (ولم يصلْ إلينا من شِعرها إلاّ هذه القطعةُ):

لَيْتَ شِعري، ما الذي عانَيْتُهُ ... بعدَ طولِ الصّوْمِ مَعْ نَفْيِ الوَسَنْ[2]:

مَعْ غُروبِ النفس عن أوطانِها ... والتخَلّي عن حبيبٍ وسَكَنْ[3].

يا شقيقِ، لَيْس في وَجْدٍ به ... غلّةٌ تمنَعُني مِنْ أن أُجَنّ[4].

---

(١) هو أبو عقال غلبون، كان في أوّل حياته شاعراً ماجناً ثمّ تاب وأقبل على العلم فدرس الحديث وبرع في الأدب. ثمّ إنّه رحل إلى مكّة وجاور فيها فلحقت به أخته مهريّة. وكانت وفاته في مكّة سنة ٢٩١ هـ (راجع الأعلام للزركلي ٥: ٣١٤).

(٢) ما الذي عانيته...: ما أكثر ما قاسيته في سلوك طريق التصوّف الصحيح من كثرة الصيام وقلّة الوسن (النوم).

(٣) السكن: الزوج.

(٤) الأصوب: يا شقيقي (لسلامة الأعراب مع المحافظة على وزن الشعر). أجنّ: أصبح مجنونة. المقصود: حبّي له يجعلني أجنّ (حزناً عليه).

وكما تَبْلَـــى وُجوهٌ في الثَّرى،   فكذا يَبْلى عَلَيْهِنّ الحَزَن[1]!

٤ - ★ ★ معالم الإيمان ٢ : ١٤٤ - ١٤٥ ؛ شهيرات النساء ٢٥ ؛ مجمل تاريخ الأدب التونسي ٦٤ المنتخب المدرسي ٣٢ ؛ بُساط العقيق (والكتب الأربعة الأخيرة لحسن حسني عبدالوهّاب)؛ الأعلام للزركلي ٨ : ٢٦٠ (٧ : ٣١٥).

بكر بن حمّاد

١ - هو أبو عبدِ الرحمنِ بكرُ بنُ حمّادِ بنِ سهر (أو سهل) بن اسماعيلَ الزَّناتيُّ التاهرتيُّ، وُلِدَ في تاهرتَ (الجزائرِ اليومَ)، نحوَ سَنَةِ ٢٠٠ (٨١٥ - ٨١٦ م) ونشأ فيها.

في سنة ٢١٧ انتقل بكرُ بنُ حمّادٍ إلى القيروانِ وقرأ فيها على عَوْنِ بنِ يوسفَ الخُزاعي (ت٢٣٩) وسَمِعَ من سحنون (ت ٢٤٠)، ثمّ سار وشيكاً إلى المشرق وقصد بغدادَ فأخذ عن نَفَرٍ من علمائها ولَقِيَ نفراً من أُدَبائها. ويبدو أنّه تكسّبَ في بغدادَ بالشعر.

وفي سَنَةَ ٢٧٤ (٨٨٧ م) نَجِدُ بكرَ بنَ حمّادٍ ثانيةً في القيروان يتصدّرُ لتدريس العلم والأدب. ويبدو أنّ اهتمامه الأوّلَ كان التكّسبَ بالشعر: مَدَحَ الأميرَ إبراهيمَ بنَ أحمدَ الأغلبيَّ (٢٦١ - ٢٩٨ هـ)، وكان طاغيةً سفّاكاً للدماء، ومَدَحَ أحمدَ بنَ سُفيانَ بَنِ سَوادةَ. وكان بكرُ بنُ حمّادٍ يتردّدُ في أثناء ذلك على بلده تاهرتَ، وقدِ اشترك في الفتنة التي نَشِبَتْ سَنَةَ ٢٨٢ (٨٩٥ م) على أبي يوسفَ بنِ محمّدٍ سادسِ الأئمة الرُسْتَميّين في دُويلةِ بني رُسْتَمَ في تاهرت.

وَوَشَى بعضُهم ببكرِ بنِ حمّادٍ إلى الأميرِ إبراهيمَ بنِ أحمدَ، فغادر بكرٌ القيروانَ راجعاً إلى تاهرتَ -وكان مَعَهُ ابنُه عبدُ الرحمن- سَنَةَ ٢٩٥ (٩٠٧ م). وفي أثناء الطريق خَرَجَ عليهِ اللصوصُ، قُرْبَ قلعةِ ابنِ حمّةَ (شمالَ تاهرتَ)، فقُتِلَ ابنُه عبدُ الرحمنِ وجُرِحَ هو جِراحاً أَوْدَتْ به بُعَيْدَ ذلك في شوّالٍ من سَنَةِ ٢٩٦ (صيف ٩٠٩ م)، ودفن في داره في آرشقول بجوفيّ (جنوبي) مدينة تيهرت.

---

(١) ولكنّ الحزن ينقضي مع مرور الأيام.

٢ - يبدو أن بكرَ بنَ حمّادٍ كان رَجُلاً مُتقلّب الهوى مثلَ مُعْظَمِ الذين يتكسّبون بالشعر: هجا عِمرانَ بن حِطّانَ الخارجيَّ (ت ٨٤ هـ) لأنّ عِمرانَ كان قد أثنى على عبد الرحمن بن مُلْجَمٍ الذي قتل الإمامَ علياً، وهجا المعتصمَ العبّاسيَّ وقال فيه « فليسَ له دينٌ وليس له لُبّ » (عقل). ثمّ عاد فمدح المعتصَم وحرّضه على دِعْبِلٍ الخُزاعيّ الشيعيّ. وثار على الإمام الإباضي أبي حاتمٍ يوسفَ بن محمّدٍ الرُستميّ ثمّ عاد فاعتذر إليه.

وكان من المشتغلين بالحديثِ؛ ولكنّ شُهرتَه إنّما هي في الشعر. وهو شاعرٌ مُجيدٌ متفنّن في أبواب الشعر متين السبك حَسَنُ الديباجة سهلُ التراكيب فصيح الألفاظ يُجيد في القصائدِ الطوالِ وفي المُقَطّعات. وفنونُ شعرهِ المديحُ والعِتاب والهجاء والرِثاء والوصف والغَزَل والزُهد.

٣ - مختارات من شعره

قال بكرُ بنُ حمّادٍ يعتذرُ إلى أبي حاتمٍ يوسفَ بنِ محمّدٍ الرستمي عن اشتراكه في الفتنة التي ثارت على أبي حاتم:

ومُؤنِسَةٍ لي بالعراق تركْتُها	وغُصْنُ شبابي في الغصون نضيرُ.
فقالت، كما قال النُواسيّ قَبْلَها:	(عزيزٌ علينا أن نَراكَ تسير)[١].
فقلت : جَفاني يوسفُ بنُ مُحمّدٍ؛	فطالَ عليّ الليلُ وهو قصير[٢].
أبا حاتمٍ، ما كان ما كان بُغْضَةً،	ولكنْ أتَتْ بعدَ الأمور أمور[٣].
وأكْرَهَني قومٌ خَشِيتُ عِقابَهم	فدارَيْتُهم، والدائراتُ تدور[٤].
وأكرمُ عَفْوٍ يُؤْثِرُ الناسُ أمرَه	إذا ما عفا الإنسانُ هو قدير!

(١) النواسي: أبو نواس الشاعر. الشطر المضمّن من قصيدة لأبي نواس يمدح بها الخصيب عامل مصر في أيام هرون الرشيد.

(٢) جفاني: مال عنّي، تركني، أهملني. طال عليّ الليل: أهمّني، أحزنني.

(٣) ما الأولى حرف نفي، والثانية اسم موصول= لم يكن الذي كان (حدث). بغضة: كرها بك. أتت بعد الأمور أمور: تقلّبت الأحوال كثيراً.

(٤) الدائرات تدور: الأحوال تتبدّل (وتأتي بالمصائب).

- وقال في الغزل والنسيب:

خُلِقْنَ الغواني للرجـــالِ بَلِيَّــةً، فهُنّ موالينـــا ونحنُ عَبيدُهـــا.
إذا ما أرَدْنا الوردَ في غيرِ حينهِ أتَتْنـا به في كلِّ حينٍ خُدودُها.

- وقال يصف البَرْد في مدينة تاهرت:

مـــا أخْشَنَ الـــبردَ ورَيْعانَـــه وأطرفَ الشمسَ بتاهرتِ!
تبــدو من الغـيم إذا ما بَدَتْ كأنّهـــا تُنْشَرُ من تَخْــتِ[1].
فنحن في بحرٍ بـــلا لُجّـــةٍ تجري بنا الريح على السَمْتِ[2].
نفرَحُ بالشمس إذا مـــا بَــدَتْ كفَرْحَـــةِ الذِمِّي بالسَبْت[3].

- وقال يمدح أحمد بن سفيان: (الحلّة السيراء ١ : ١٨٣):

وقائلــةٍ: زارَ الملوك فــلم يُفِــدْ؛ فيا ليته زارَ ابنَ سُفيانَ أحْمـدا[4].
فتىً يُسْخِطُ المالَ الذي هو ربُّه ويُرْضي العَوالي والحُسامَ المُهَنَّـدا[5].

- وقال يرثي ابنه عبد الرحمن:

وهوّنَ وَجْدي أنـي بِـكَ لاحقٌ وأن بَقـــائي في الحيـــاة قليلُ،
وأنْ ليس يبقى للحبيــبِ حبيبهُ، وليسَ بباقٍ للخليل خليل.
ولو أن طولَ الحُزْن ممّـــا يَرُدّه للازمني حزن عليك طويل[6].

---

(١) التخت: صوان (صندوق) الثياب. - كأنّ الغيم ثياب جديدة (تستخرج من صندوقها لأوّل مرّة): تنشر في السماء.

(٢) حينا يغطّي الضباب تاهرت ويعمّها نصبح كأنّنا في بحر هادىء (بلا أمواج) أو لا يغرق أحد فيه (بلا لجّة: معظم الماء). تجري بنا الريح (كأنّها تجري بنا الريح) على السمت: في خطّ مستقيم (نسير دائماً في اتجاه واحد لا نستطيع أن نتّجه يميناً أو يساراً لأننا لا نرى حولنا شيئاً نقصده أو نهتدي به).

(٣) الذمّي: غير المسلم إذا كان يعيش في الدولة الإسلامية (هنا: اليهوديّ).

(٤) لم يفد: لم يستفد، لم يحصل على فائدة.

(٥) ربّه = ربّ المال: صاحبه، مالكه. العوالي: الرماح (العالية نصل حديد في أعلى القناة أو القصبة، في أعلى الرمح). الحسام المهنّد: السيف المصنوع في الهند (السيف الجيّد، الذي ينتصر المحارب به).

(٦) ممّا يردّه = يردّ الميت (بسكون الياء: الذي مات).

٤ ـ الدرّ الوقاد من شعر بكر بن حمّاد (تقاديم وجمع وشرح محمّد بن رمضان شاوي) مستغانم بالجزائر (المطبعة العلوية) ١٣٨٥ هـ = ١٩٦٦ م.

★ الحلة السيراء ١ : ١٧٣ - ١٧٤ ، ١٨٣ ؛ وفيات ابن قنفذ ٥٤ ؛ راجع فهارس « طبقات علماء أفريقية والمغرب »؛ ابن عذاري ١ : ١٥٣ - ١٥٤ ؛ رياض النفوس ٢ : ١٦ - ١٩ ؛ معالم الإيمان للدبّاغ ٢ : ١٩٢ ؛ الأزهار الرياضية ٧٠ وما بعد؛ تاريخ الأدب الأندلسي ٧٢ ؛ تاريخ الجزائر العام ٢ : ٣١ ؛ الطمّار ٣٢ وما بعد؛ مجلة العربي، نيسان ٦٣ (ص ٧٨). الأعلام للزركلي ٢ : ٣٧ (٦٣).

أبو اليسر الشيباني

هو أبو اليُسْرِ إبراهيمُ بنُ أحمدَ الشيبانيُّ المعروفُ بالرياضي، كان مولدُه في بغدادَ سَنَةَ ٢٠٠ (٨١٥ - ٨١٦ م) وسَمِعَ فيها الحديثَ والفِقه والنحو. وقد لَقِيَ في بغدادَ أيضاً نفراً كثيرين من أهلِ العلم والأدب منهم ابنُ قُتيبةَ (ت ٣٢٢) وأبو تمّام (ت ٢٣١) ودِعْبِلٌ الخُزاعيّ (ت ٢٤٦) وعليّ بن الجهْم (ت ٢٤٩) وسعيدُ بن حُميد الكاتبُ (ت ٢٥٠) والجاحظُ (ت ٢٥٥) وسُليمانُ بنُ وَهْبٍ الكاتب (ت ٢٧٢) وأحمدُ بن أبي طاهر طَيْفورٌ المؤدّب الكاتب (ت ٢٨٠) والبحتريّ (ت ٢٨٤) ومحمّد بن يزيد المبرِّد (ت ٢٨٦) وثعلبٌ إمام الكوفيّين في النحو واللغة (ت ٢٩١).

وبعدَ أن تَطوّفَ أبو اليُسْرِ في المشرق كثيراً انتقل إلى المغرب في أيامِ أميرِ القَيْروانَ إبراهيمَ بنِ أحمدَ بنِ محمد الأغلب (٢٦١ - ٢٨٩ هـ) وكَتَبَ له. ثمّ كتب لابنه أبي العبّاس عبدِ الله (٢٨٩ - ٢٩٠). وكان في أيامِ زيادةِ الله آخرِ الأمراء الأغالبة (٢٩٠ - ٣٠٤ هـ) على بيتِ الحكمة. في هذه الأثناء كلِّها كَثُرَ تَطوُّفُ أبي اليسر في المغرب والأندلس. وقد كانت وفاته بالقيروان. سَنَةَ ٢٩٨ (٩١٠ - ٢٩٠ م)، وقد أسنَّ كثيراً.

كان أبو اليُسْرِ الشَّيباني جميلَ الخُلُقِ نزيهَ النفس، عالماً أديباً شاعراً كاتباً ومُترسّلاً بليغاً ومُشاركاً في كثيرٍ من فنون العِلم والأدب حَسَنَ الخَط حَسَنَ التأليف، ألّف من الكتب: سِراجَ الهُدى (في القرآن ومشكله وإعرابه) - لَقيط المَرْجان - المُرصّعة

- المُدبّجة - المُؤنسة - الوحيدة - قُطْب الأدب. وهو الذي أدخل إلى أفريقية رَسائلَ المُحْدَثين وأشعارَهم وطرائفَ أخبارِهم.

★ التكملة ١٧٣؛ نفح الطيب ٣ : ١٣٤ - ١٣٥؛ الأعلام للزركلي ١ : ٢٢ (٢٨).

مقدّم بن معافى القبريّ

١ - هو مُقَدَّمُ بنُ مُعافَى القَبْريّ، نسْبةً إلى مدينة قَبْرَةَ (وقبرةُ كورةٌ من أعمال قُرطبةَ قَصَبَتُها أو عاصمتها قبرةُ أيضاً). نَعْرِفُ من أحداثِ حياته أنّه كان شاعرَ بَلاطٍ في أيامِ الأميرِ عبدِ الله بنِ محمّدٍ (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ). ولعلّ مَوْلِدَه كان سَنَةَ ٢٢٥ (٨٤٠ م). أمّا وفاتُه فكانتْ في حُدودِ سَنَةِ ٢٩٩ (٩١٢ م). ولعلّه كان ضريراً[1].

٢ - يبدو أن مقدّمَ بنَ مُعافى كان شاعراً مدّاحاً، اتّصل بِبَلاطِ قُرطبةَ أيامَ الأمير عبدِ الله، كما مدح سعيد بنَ سُليمان بن جُوديّ (ت ٣٨٤ = ٩٩٤ م)، الذي كان فارساً شاعراً. وكذلك مدح سعيدَ بنَ المُنذر بن سعيدِ البلّوطيّ. غير أنّ أهمّ ما يتعلّق بخصائص مقدّم هذا أنّ مؤرخي الأدب يَنْسِبون إليه اختراعَ الموشّح[2]. غير أنّ موشّحات مُقدّم لم تصل إلينا،ولا وصل إلينا من شعره إلاّ أبياتٌ يسيرة.

٣ - مختارات من شعره:

- قال مُقَدَّمُ بنُ مُعافى يرثي سَعيدَ بن جوديّ (نفح الطيب ٣ : ٥٣٨):

من ذا الـــذي يُطْعِمُ أو يكسو	وقد خَوَى حِلْفَ النَدى رَمْسُ؟
لا اَخضرّتِ الأرضُ، ولا أورقَ الـ	ـعُودُ، ولا أشرقـــتِ الشمس
بعدَ ابنِ جُوديّ الذي لن ترى	أكرمَ منــــه الجِنُّ والإنس.
دموعُ عيـــني في سبيـلِ الأسى	عـــلى سعيــدِ أبـــداً حُبْس.

---

(١) بروكلمان، الملحق ١ : ٤٧٧.

(٢) راجع، تحت، الكلام على الموشح. ثم نفح الطيب ٧ : ٥ - ٦ (عن مقدمة ابن خلدون) ينسب ابن بسّام (الذخيرة) اختراع الموشّح إلى رجل ضرير من قبرة اسمه محمّد بن حمّود أو محمود.

- وله قصيدة أوّلها :

أشجِيتَ إنْ طَرِبتْ حمامةُ وادي ... مَيّادةٌ في ناعمٍ ميّاد؟
تلهو وما مُنيَتْ بجَفْوة زَيْنبٍ ... يوماً، ولا بخَيالها المُعْتاد.
لا تَرْجُ -إذ سَلَبَتْ فؤادَك زينبٌ- ... عَيْشاً؛ فما عيشٌ بغيرِ فُؤاد!

- قيل لِمُقدّمِ بن مُعافى: أتَرْثي سعيدَ بنَ جُوديٍّ وقد ضَرَبَكَ؟ فقال:

واللهِ، إنّه نَفَعَني حتّى بذنوبِه. ولقد نَهاني ذلك الأدبُ (القصاص، العقاب) عن مَضارَّ جمّةٍ كُنْتُ أقعُ فيها على رأسي، أفَلا أرْعَى له ذلك؟ واللهِ، ما ضَرَبَني إلاّ وأنا ظالمٌ له، أفَأَبْقى على ظُلمي له بعدَ موته؟

وقيل له: لِمَ لا تهجو مُؤمِنَ بنَ سعيدٍ؟ فقال:

لا أهجو مَنْ لو هجا النجومَ ما اهْتَدى أحدٌ بها!

٤ - ★ ★ الحلّة السيراء ١ : ١٥٦؛ جذوة المقتبس ٣٣٣؛ بغية الملتمس ٣٦٠ - ٣٦١ (رقم ١٣٨٦)؛ نفح الطيب ٣ : ٥٣٨، ٧ : ٦.

الأمير عبد الله بن محمّد

هو أبو محمّدٍ عبدُ اللهِ بنُ محمّدِ بنِ عبدِ الرحمنِ بنِ الحَكَم، واسم أمّه بَهارُ. كان مولدُه في نِصف ربيعِ الآخرِ من سَنَة ٢٢٩ (١٢/ ١١/ ٨٤٣ م).

بُويع عبدُ الله في نصف صَفَرَ من سنة ٢٧٥ (٢٩/ ٤/ ٨٨٨ م)، والأندلس في أحلكِ أيّامِها لكَثْرةِ الفِتَنِ، فلقد بَلَغَتْ فِتنةُ ابنِ حَفْصونٍ في عهدهِ ذُروةَ اشتدادِها. وكانَ أنصارُ ابنِ حفصون يَصِلونَ في غاراتِهِمْ إلى أحْوازِ قُرطبة. وكذلك استبدَّ بنو حجّاجٍ وبنو خَلْدُونٍ بِمِنْطقيِ إشبيلية وقَرَمونة كما استبدّ آل تُجيبَ بِسَرَقُسْطة وما حولها (في الشَّمال) وبنو ذي النون بطُلَيْطُلة.

وفي أيّامهِ نَبَعَتِ الدولة الفاطمية في القَيْروان، وكانت دَوْلة مُناوئةً للأمويّين في الأندلس.

وكَثُرَتْ غاراتُ الإسبانِ على أطرافِ البلاد فقام الأميرُ عبد الله بغزَوات كثيرةٍ إلى بِلادِ الإسبان، ولكنّ هذه الغزَوات كانت ضعيفة الأثر.

وكان أشدَّ ما لَقِيَهُ الأميرُ عبدُ الله فسادُ قلوبِ إخوتِهِ وأبنائِهِ عليه حتّى بَلَغَتِ الجُرأةُ بهم إلى أن تآمروا عليه. فلمّا عَرَفَ ذلك قتل نفراً منهم. ثمّ لم يَجِدِ الأميرُ عبدُ اللهِ أحداً من إخوته وأبنائه الباقين يصلُحُ للإمارةِ فبايعَ بالإمارةِ لحفيدهِ عبدِ الرحمنِ آبن محمّدِ المقتولِ (الذي أصبح الخليفة عبدَ الرحمن الناصر).

وكانتْ وفاةُ الأميرِ عبدِ اللهِ في مُسْتَهَلِّ رَبيعِ الأولِ من سَنَةِ ٣٠٠ (١٦/ ١٠/ ٩١٢ م).

٢ - كانَ الأميرُ عبدُ اللهِ بنِ محمّدٍ شاعراً مطبوعاً له أشعارٌ حِسانٌ في الغَزَلِ والزُهْدِ وشيءٌ من التوقيع والرسائل.

٣ - المختار من آثاره

- قال الأمير عبد الله بن محمّد في صباه يتغزّل:

وَيْــــلي عــــلى شادِنٍ كحيــــلٍ ... في مِثْلــــهِ يُخْلَــعُ العِــذارُ[1].

كأنّما وَجْنتـــــــــــاهُ وَرْدٌ ... خالطَــــهَ النَّوْر والبَهــــار[2].

قضيـــــبُ بــــانٍ إذا تَثَنَّـــــى ... يُديرُ طَرْفــــاً بـــه آحْوِرار[3].

فصَفْوُ وُدّي عليـــــهِ وَقْــــفٌ ... مــــا آطّرَدَ الليـــلُ والنهــار[4].

- وقال في الغزل أيضاً:

يا مُهْجَةَ المُشْتاقِ، ما أَوْجَعَكْ! ... ويا أسيرَ الحبِّ، ما أخشعَكْ[5]!

(١) الشادن: الغزال الصغير. الكحيل: الذي تكثف رموش عينيه فتبدو أطراف جفونه سودا.

(٢) النور (بفتح النون) الزهر الأبيض. البهار: الزهر الأصفر.

(٣) البان شجر أغصانه شديدة الاستقامة والطول. تثنّى: تمايل. الأحورار أو الحور أن يكون بياض العين شديد البياض وسوادها شديد السواد.

(٤) آطّرد: تتابع واستمرّ.

(٥) المهجة: دم القلب، القلب. ما أخشعك: ما أكثر خضوعك وطاعتك للمحبوب.

ويـا رسولَ العـينِ من لَحْظِهـا بالردّ والتبليــغ مــا أسرَعَــكْ:
تذهَــبُ بالسرِّ وتــأتي بــه في مجلسٍ يخفى على مَنْ مَعَكْ
كم حاجــةٍ أنجزتَ إبرازَهــا! تبـارَكَ الرحمنُ، مـا أطوَعَـكْ!

- وله في الزهد:

يـا من يُرواغُـهُ الأجـلْ، حتى مَ يُلْهيكَ الأملْ[1]؟
حــتى م لا تخشى الردَى وكأنه بك قد نَزَلْ[2]؟
أَغَفَلْـتَ عن طلَـب النجـاةِ، ولا نجاةَ لمن غَفَلْ؟
هيهــاتِ تَشْغَلُــكَ المُنــى؛ ولِمَ يدوم بك الشغَل[3] ؟
فكــأنَّ يومَــك لم يَكُنْ، وكأنَّ نَعْيَك لم يَزَلْ[4].

- وأذنب بعضُ موالي الأمير عبدِ الله يوماً فقال له الأمير عبد الله (ابن عذاري ٢ : ١٥٤): إنّ مَخايلَ الأمور لَتَدُلُّ على خِلافِ قولكَ وتُنْبيءُ عن باطِل تَنَصُّلكَ[5]. ولو أقْرَرْتَ بذنبك واسْتَغْفرتَ لجُرْمكَ لَكانَ أجملَ بكَ وأسدَلَ لستْر العفو عليك[6].

فقال له المُذنبُ: قدِ اشتملَ الذنبُ عَلَيَّ وحاقَ الخطأُ بي[7]. وإنّما أنا بَشَرٌ، وما يقومُ لي عُذْرٌ.

فردّ عليه الأميرُ عبدُ الله: مَهْلاً عليك، رُوَيْداً بكَ. تَقَدَّمَتْ لك خدمةٌ وتأخرّتْ لك تَوْبةٌ، وما للذنب بينهَما مَدْخَلٌ. وقدْ وَسِعَك الغُفرانُ[8].

---

(١) راوغه: داوره، يبدو مبتعداً عنك ثم يقترب وبالعكس.
(٢) الردى: الموت. وكأنه قد نزل: سينزل عمّا قريب جدّاً.
(٣) إنّ الأماني الكاذبة تنسيك الموت، فلماذا يدوم اشتغالك بالأماني الكاذبة؟ الشغل (بفتح ففتح أو بضم فضم).
(٤) كأنّ اليوم الذي أنت فيه (أنت حيّ فيه) لم يأت، وكأنّك لا تزال مهدّداً بالموت.
(٥) مخايل (جمع مخيلة بفتح الميم وكسر الخاء): دلائل، علامات. تنصّل من الذنب: أظهر أنّه بريء منه
(٦) الجرم: الذنب الكبير. أجمل بك: أليق بك وأحسن لك. أسدل (فعل تفضيل) (٧) حاق: أحاط (٨) تقدّمت لك خدمة (اهتمام بأمورنا) وتأخرت لك توبة (لقد تبت أخيراً): قد وسعك الغفران: غفرنا لك!

- وأملى الأميرُ عبدُ الله (على بعضِ كُتّابه) كتاباً إلى بعض عُمّاله:

أما بعدُ، فلو كان نَظَرُكَ فيما خَصَصْناكَ به واهْتِبالُك بهِ على حَسْبِ مُواتَرَتكَ[1] بالكُتُبِ واشتغالِكَ بذلك عن مُهِمِّ أمركَ لَكُنْتَ من أحسنِ رِجالِنا عَناءً[2] وأتَمِّهمْ نظراً وأفضلِهِمْ حَزْماً. فأقْلِلْ من الكُتُب فيما لا وَجْهَ له ولا نفعَ فيه. وآصْرِفْ همّتَكَ وفِكْرتَكَ وعِنايَتَكَ إلى ما يبدو فيه اكْتفاؤكَ ويظهَرُ فيه غَناؤك[3]، إن شاءَ اللهُ.

٤ - * * المقتبس ١٩٥ - ٢٠٠؛ الحلة السيراء ١: ١٢٠ - ١٢٤؛ البيان المغرب ٢: ١٥٢؛ نفح الطيب ١: ٣٥٢ - ٣٥٣؛ دائرة المعارف الإسلامية ١: ٤٩؛ نيكل ٢١ - ٢٢؛ الأعلام للزركلي ٤: ٢٦٢ (١١٩).

محمّد بن عاصم النحوي

هو أبو عبدِ اللهِ محمّدُ بنُ عاصمٍ[4] (وقيل محمّد بن موسى بن هاشم بن يزيد) القُرْطبي النَحْويّ المعروفُ باسم الأقشتين (أوغسطين)، مولى الأمير المنذر بن محمّدِ (ولعلّه دخل الإسلامَ على يَدَيْهِ).

رَحَلَ محمّدُ بن عاصمٍ إلى المشرق وزار الشامَ والعِراقَ وأخذ عن نَفَرٍ من عُلَمائهما، وآنتسخ «الكتابَ» (كتابَ سِيبَوَيْهِ، في النحو) من نُسخةِ سِيبَوَيْهِ نفسِها وأخذ الكتابَ بالروايةِ عن سِيبَوَيْهِ نفسه. وهو نَحْويّ مشهورٌ لم يُقَصِّر في علم النحو عن أصحابِ محمّدِ آبنِ يزيدَ المُبرِّد[5]. ثم هو مُصنِّفٌ له: طبقات الكتّاب بالأندلس - شواهد الحكم - الموفّق - الرائق - فضائل المستبصرة. وكانتْ وفاتُه في رَجَبَ من سَنَةِ ٣٠٧ (مطلع ٩٢٠ م).

---

(١) لو كان اهتمامك بما جعلنا الأمر فيه لك وحدك واهتبالك (إسراعك) في تنفيذه على حسب (بمقدار) مواترتك (متابعتك، موالاتك، إكثارك) من الكتب (الرسائل إلينا).....

(٢) العناء (بالعين المهملة): تعب، اهتمام.

(٣) الغناء (بفتح الغين): النفع.

(٤) راجع نفح الطيب ٣: ١٧٤ - ١٧٥.

(٥) راجع تاريخ الأدب العربيّ للمؤلّف ٢: ٣٥٤

★★ الزبيدي ٣٠٥؛ ابن الفرضي ٢: ٣١؛ جذوة المقتبس ٧٤، ٨٢ (الدار المصرية) ٧٩ - ٨٠ (رقم ١٢٢)؛ بغية الملتمس ١٠٧؛ ١١٦ (رقم ٢٤٣، ٢٦٨)؛ إنباه الرواة ٣: ٢١٦؛ الوافي بالوفيات ٥: ٩٠ - ٩١؛ بغية الوعاة ١٠٨ - ١٠٩.

عبد الله المكفوف النحويّ

هو أبو محمّدٍ عبدُ الله بنُ محمدٍ (وقيل: محمود) النَحْويُّ القَيْروانيُّ من أهل سَرْتٍ أدركَ أبا الوليدِ عبدَ المَلِك بنِ قَطَنٍ المَهْريَّ (ت ٢٥٦ هـ) وأخذَ عنه. ثمّ صَحِبَ حَمْدوناً النَحْويَّ (أبا عبدِ اللهِ محمّدَ بنَ إسماعيلَ) القيروانيَّ المَغْربيّ الإفرِيقيَّ المعروفَ بالنَعْجة (يبدو أن وفاتَه كانت بعد سَنَةَ ٢٠٠ بأمَدٍ). ثم عَظُمت مكانةُ عبدِ اللهِ المكفوفِ فقَصَدَهُ الطُلّابُ من أنحاءِ إفرِيقِية (تُونِسَ) ومن المَغْرب. وكانتْ وفاتُه سَنَةَ ٣٠٨ (٩٢٠ - ٩٢١ م).

كان عبدُ الله المكفوفُ قويَّ الذاكرة جدًّا عالماً بغريب اللغة وبالنحو والشعر وأخبار العرب. وله كتابُ « العَروض » (وهو من أفضل ما وُضِعَ في هذا الفنّ) ثمّ كتابٌ آخَرُ في « صفة أبي زبيد الطائيّ » (ت ٦٢ هـ). وله أيضاً أشعارٌ قصائدَ وأراجيزَ.

★★ الزبيدي ٢٥٧ - ٢٥٩؛ نكت الهميان ١٨٤ - ١٨٥؛ إنباه الرواة ٢: ١٤٧ - ١٤٩؛ بغية الوعاة ٢٩٠؛ البلغة في تاريخ أئمّة اللغة ١١٢ - ١١٣.

أحمد بن إبراهيم اللؤلؤي

١ - هو أبو بكرٍ أحمدُ بنُ إبراهيمَ بن أبي عاصمٍ اللُؤلُؤيُّ، وُلدَ في القيروان، سَنَةَ ٢٧٢ (٨٨٥ - ٨٨٦ م). وكان اللؤلؤيُّ كثيرَ المُلازمة لأبي محمّدٍ المكفوفِ النَحْويّ (ت ٣٠٨) كثيرَ الأخذِ عنه. مات كهلاً سَنَةَ ٣١٨ (٩٣٠ م).

٢ - كان اللُؤلؤيّ من نُحاةِ القَيْروان ومِنَ العلماءِ النُقَّاد في اللُغة والنَحْو والحِفْظ والمقدرةِ في شَرْح دواوين العرب. وكان شاعراً مُجيداً سهلَ القول للشعْر كثيرَ الطبْع على أشعار القدماء. ولم يمدَحْ أحداً تكسّباً، إذ كان أبوه مُوسِراً (الوافي

بالوفيات ٦ : ١٩٨). ثم إنّه، في آخر عُمُره، تركَ الشِعرَ وتوفّرَ على الحديث والفقه. وكان مُؤلّفاً له كتاب الضاد والظاء.

٣- مختارات من شعره:

- قال أحمدُ بنُ إبراهيمَ اللؤلؤيُّ في النسيب، وعلى شعرِه هذا نفحةٌ من نفس آمرىءِ القيس:

أيا طلَلَ الحيِّ الذي تحمّلوا ... بوادي الغَضا، كيف الأحِبّة والحالُ[1]؟
وكيف قضيبُ البانِ والقمرُ الذي ... بوَجْنَتهِ ماءُ المَلاحة سيّال[2]؟
كأن لم تَدُرْ ما بَيْنَنا ذَهَبيّةٌ ... عَبيريّةُ الأنفاس عذراءُ سِلسال[3]؛
ولم أتوسّدْ ناعماً بطنُ كفِّه ... ولم يَحْوِ جسْمَيْنا معَ الليل سِربال[4].
فبانَتْ به عنّي- ولم أدْرِ- بَغْتَةً ... طوارقُ هذا البَيْن، والبينُ قتّال[5].
فلمّا آسْتقلّت ظَعْنُهم وحُدوجُهم ... دَعَوْتُ، ودَمْعُ العين في الخدّ هطّال[6]:
سُقيتُ نَجيعَ السُمِّ إن كان ذا الذي ... تَحَدّثَه الواشون عنّي كما قالوا[7]!

- وله من النسيب الرقيق أيضاً:

لا تقتُل الصبَّ فما حَلّ لَكْ، ... يا مالكاً أسرفَ في ما مَلَكْ!

٤-* * الزبيدي ٢٦٥-٢٦٦؛ إنباه الرواة ١ :٢٧-٢٨؛ الوافي بالوفيات؛ ٦ :١٩٩؛ معجم الأدباء ٢ :٢١٨ - ٢٢٤؛ بغية الوعاة ١ :١٢٧؛ الأعلام للزركلي ١ :٨١ (٨٥).

---

(١) الطلل: أثر الخيمة بعد تقويضها. تحمّلوا: رحلوا. وادي الغضا في الحجاز (وهو يستعمل رمزاً عن مسكن الأحبّة).

(٢) قضيب البان: كناية عن القامة الرشيقة (المرأة الجميلة). وفي رواية: يختال مكان سيّال.

(٣) ذهبية: خمر. عبيرية: طيّبة الرائحة. عذراء (من وعاء للخمر فتح لأوّل مرّة). سلسل وسلسال: باردة سلسة المجرى في الحلق.

(٤) سربال: كساء طويل (جمعنا الليل في لباس واحد: قريباً بعضنا من بعض).

(٥) بان: ابتعد. البين: البعاد. الطارقة: الحادث المفاجىء.

(٦) الظعن: الحمولة (الناقة) تسافر عليها امرأة. الحدج: (شبه بيت تحمله الإبل. استقلّ الظعن: رحلوا.

(٧) في الأصل: نجيع (دم) وهو خطأ. اقرأ: نقيع (ناقع، منقوع) مركّز، شديد (سمّ قاتل بسرعة) وفي الوافي بالوفيات (٦ : ١٩٩):

حرمت مناي منك إن كان ذا الذي ... تقوّله الواشون عنّي كما قالوا.

هذا البيت الأخير تضمين للقاضي عبد الله بن محمّد الحلنجي ابن أخت علّويه»

أبو الأصبغ موسى بن محمّد

١- هو أبو الأصبغ موسى بنُ محمّد بن سعيدِ بن موسى، لعلّ مولدَه كان نحو سَنَةِ ٢٥٠ (٨٦٤م). تولّى أبو الأصبغ خُطّه القُطُع (جِبايةَ الأموال من المقاطعات التي يستبدّ بها نفرٌ مُتَنفّذون أو ثائرون) للأميرِ عبدِ الله بنِ محمّدٍ (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) ثمّ تقلّب في عددٍ من المناصب. ولمّا جاء الأميرُ عبدُ الرحمن بن محمّدٍ إلى العرش جَعَلَ أبا الأصبغ وزيراً له. ثمّ ولّاه الحِجابة، سَنَةَ ٣٠٩ (٩٢١ م).

وكانتْ وفاةُ أبي الأصبغِ موسى بن محمّدٍ في مُنْتَصَفِ صَفَرَ من سَنَةِ ٣٢٠ (٢٦/٣/٩٣٢ م).

٢- أبو الأصبغ موسى بنُ محمّدٍ من أهلِ العِلم والأدبِ والشعرِ، يقول الشعرَ رَوِيّةً وبَديهةً. وكان حسنَ التحديثِ في الجِدِّ والهَزْل. وشعرُه كثيرُ المعاني سهلٌ عذبٌ. وأبرزُ فنونِه الأدَبُ والوصفُ.

٣- مختارات من آثاره:

- جرى ذِكْرُ الشَيْبِ وذَمُّه في مجلسٍ للأمير عبدِ الله- وكان يكره الشيبَ- فسأل عن أحسن ما يُرْوَى في هذا الباب، فقال له أبو الأصبغ: أحسنُ ما قيل فيه عندي- في رأيي- قولُ الأوّل [أي قول شاعر قديم]:

أقولُ لضيف الشيب، إذ حلّ مَفْرِقي: نصيبُـــكَ منّي جَفْوة وقُطوبُ.
حرامٌ علينا أن تَنالَكَ عندَنا كرامــةُ بِرٍّ أو يَمَسَّكَ طِيــبُ!

فاستحسن الأميرُ عبدُ اللهِ البيتين وأمَر أبا الأصبغ أن يَزيدَ فيهما. فزاد عليهما أبو الأصبغ في المجلس نفسه أبياتاً هي:

فيا شرَّ ضَيفٍ حلّ بي؛ وحُلولُهُ يُخَبِّرني أن المماتَ قريــــبُ،
وأنّ جَديدي كلَّ يومٍ إلى بِلًى وأنِّيَ من ثوب الشباب سَليب[1].
فما طيبُ عيش المرءِ إلاّ شبابُه؛ وليس إذا ما بانَ عنه يَطيب.
سأَقْريكَ، ياضيفَ المشيب، قرى القِلى فما لك عنْدي في سِواهُ نصيب[2].

---

(١) البلى: التهرؤ، الفناء. سليب: مسلوب. ثوب سليب (ثوب خلعه صاحبه عنه).

(٢) القرى (بكسر القاف): الضيافة. القلى: البغض. سأقريك (سأطعمك) قرى القلى: لن أكرمك.

وأبكي على ما قد مضى من شبيبتي   بُكاءَ مُحبٍّ قد جَفاه حبيب.

٤ - ★ ★ الحلة السيراء ١ :٢٣٢ - ٢٣٧ .

يزيدُ الفصيح

١ - هو أبو خالدٍ يزيدُ بنُ طَلْحَةَ العَبْسيُّ المعروفُ بالفصيح مِنْ أهلِ إشبيليةَ، أخَذَ عنِ الخصيبِ الكَلْبيّ اللُّغويّ وعن محمّدِ بنِ عبدِ السلام الخُشَني (ت ٢٨٦) ومحمّدِ بنِ عبدِ اللهِ بن الغازي (ت ٢٩٦). وزاد الفرضيُّ أنّه سَمِعَ من محمّدِ بنِ أحمدَ العُتْبيِّ ويحيى بن إبراهيمَ بن مَزْين (رقم ١٦٠٨)؛ وذلك مُسْتَبْعَدٌ لأنّ العُتبيَّ تُوُفّيَ سَنَةَ ٢٥٥ .

وكان ليزيدَ الفصيحِ بإبراهيمَ بنِ حجّاجٍ اللّخْميّ المُستبِد بحكم إشبيلية وقَرَمونةَ صِلَةٌ شخصيةٌ (راجع الزبيدي ٢٩٤) ثمّ صِلة رسميّة في الأغلبِ حتّى يَكْتُبَ كتاباً إلى أهل قَرَمونةَ (أو قرمونيّة) يَحُضُّهم على الطاعة لسُلطةِ إبراهيمَ بنِ الحجّاج.

وكانتْ وفاةُ يزيدَ الفصيحِ سَنَةَ ٣٢٠ (٩٣٢ م).

٢ - كان يزيدُ الفصيحُ بارعاً في اللغة والنحو والفِقه ومشهوراً بالفصاحة والبلاغة والخَطابة. وله نثرٌ وشيءٌ من الشعر.

٣ - مختارات من آثاره

- قال يزيدُ بنُ طَلْحَةَ العَبسيُّ الفصيحُ:

إنّ العِلْمَ ليس من جِهة المُغالبة، ولكنْ من جِهة الإنصافِ والحقيقة.

- وكتب إلى أهل قَرَمونَة (على لسان إبراهيم بن حجّاج!) يَحُضُّهُمْ على الطاعة:

إنّ أحقَّ ما رَجَعَ إليه الغالون ولَحِقَ بهِ التالون، وآثَرَهُ المؤمنون وتعاطاه[1] بَيْنَهُمُ المسلمون- مِمّا ساءَ وسَرّ ونَفَعَ وضَرّ- ما أصْبَحَ بهِ الشَمْلُ مُلْتَئِماً والأمرُ مُنْتَظِماً، والسيفُ

(١) الغالون: المغالون، المتطرّفون؛ والأغلب أن معناها هنا: السابقون (الذين قبلنا). التالون: الذين يأتون بعد غيرهم. آثره: فضّله. تعاطاه المسلمون: تعاملوا به فيما بينهم.

مغمودٌ ورِواقُ الأمنِ ممدودٌ[1]. وليس من ذلك شيءٌ أوْلى، بإحرازِ الثوابِ ولا أحرى، من الدخولِ في الطاعة وتَرْكِ الشُذوذِ عن الأئمّة[2]. فإلى اللهِ نرغَبُ المَعونةَ على أحسنِ بصائرنا في وَهْيٍ يُرَقّعه وشَعْبٍ يَلأَمُهُ وسِلْكٍ يَنْظِمه[3]، وأن يَجْعَلَ ما حَضَضْناكم عليه مِنَ اجتماع الإلْفِ والدُخولِ في الطاعة آختباراً! يَصِلُ منه لنا (اقرأ: إلينا) خيرُ الدارين[4] ويُحْمَلُ عنّا فيه حقُّ الخِلافة المَرْضِيّة التي هي مِنَ الله صلاحٌ لهذه الأُمّة وسُنَّةٌ متَّبَعَةٌ لتأليف الشَمْلِ وحَقْنِ الدماء وتَحْصين الفُروج والأموال[5].

- وله:

فألْبَسَني قُمْصاً مِنَ الفضلِ والنَدى	وألْبَسْتُه قُمْصَ البديعِ من الشِعْرِ[6]:
رِياضاً وحَلْياً لا يزالُ لِباسُه	من اللُؤلُؤِ المكنونِ والسُنْدُسِ الخُضْرِ[7]
كأنّ دقيقَ السِحر بعضُ نشيدِها	ولكنّها دَقّتْ فجلّتْ عن السِحر[8]
تَفضَّلَ بالفَضْلِ الذي هو أهلُه	وأدْرَكَ ماءَ الوجهِ مِنْ قَبْلِ أن يجري[9].

٤- ★ ★ الزبيدي ٢٩٤- ٢٩٦؛ الفرضي رقم ١٦٠٨؛ بغية الوعاة ٤١٧؛ البلغة في تاريخ أئمّة اللغة ٢٨٤- ٢٨٥؛ الأعلام للزركلي ٩: ٣٢٧ (٨: ١٨٤).

(١) والسيف مغمود (الواو هنا واو الحال. غمد السيف وأغمده فهو مغمود ومغمد: وضعه في قرابه).

(٢) الأئمّة: أولي الأمر (الحكّام).

(٣) فإلى الله نرغب... (في الجملة اخلال: كلمات ناقصة). الوهي في الثوب: البقعة المهترئة. يرقّعه (فاعلها: اسم الجلالة، الله). الشعب: الشقّ، الكسر. يلأمه: يجمعه، يصلحه. السلك: الخيط تجمع به الخرز. ينظمه: يسلك به الخرز على نظام معيّن. الإلف: الأليفُ (الموافق في المشرب والسلوك) آختبارا (؟).

(٤) الداران: الدنيا والآخرة.

(٥) تحصين الفروج والأموال: حماية الأعراض والأملاك.

(٦) تفضّل عليّ بمال فأعطيته بدل ذلك شعراً جميلاً. هذا من قول أبي تمّام:
فما فاتني ما عنده من حبائه ولا فاته من فاخر الشعر ما عندي.

(٧) السندس: نسيج رقيق من الديباج (الحرير). - ثياب (سندس) خضر.

(٨) إنشاد هذه القصيدة يفعل فعل السحر الدقيق (الخفيّ، البارع). ولكنّ هذه القصيدة كانت أبرع من السحر فجلّت (عظمت وارتفعت) فأصبحت بذلك أبعد فعلاً من السحر.

(٩) أعطاني على قدره هو (أي كثيراً) قبل أن يجري ماء وجهي: قبل أن أذلّ نفسي بسؤاله.

عصر الخلافة الأمويّة
في قرطبة

كان الحُكْمُ الأمويُّ في الأندلس، منذ تولى عبدُ الرحمن الداخلُ الإمارةَ في قُرطبةَ سَنَةَ ١٣٨ هـ (٧٥٦ م) إلى سقوط الخِلافة الأمويّة سَنَةَ ٤٢٢ (١٠١٣ م)، مِائَتَيْنِ وثَلاثاً وثمانينَ سَنَةً تنقسم أربعَ فَتَراتٍ ظاهرةً:

فترة الأمراء المتوارثين (١٣٨ - ٣١٥ هـ/٩٢٧م)

فترة ازدهار الخلافة (٣١٦ - ٣٦٦ هـ/٩٧٦م)

فترة استبداد المنصور بن أبي عامر (٣٦٦ - ٣٩٢ هـ/١٠٠٢م)

فترة الفتنة (٣٩٢ - ٤٢٢ هـ/١٠٣٠م)

تعاقبَ على العرشِ الأُموي في الأندلس ثمانيةُ أمراءَ من غيرِ لَقَبٍ بالخِلافة، في مَدَى مِائَةٍ واثْنَتَيْنِ وسبعينَ سَنَةً ثَبّتَ الأمويّون فيها دَعائمَ مُلْكِهم وبَدأ في مُلْكهم هذا بروزُ حضارةٍ جديدةٍ في السياسة وفي الحياة الاجتماعية. وكانتْ هذه القوّةُ الناشئة يُطِلُّ منها خطرٌ كبيرٌ على أوروبّةَ. فاجتمعَ الإفرنجة والبابوية على أن يُثيروا في الأندلس «حركةَ الاستخفاف»، وذلك أن ينهَضَ شخصٌ نَصْرانيّ (رجل أو امرأةٌ، أو راهبٌ في كثيرٍ من الأحيان) في مجمعٍ من الناس أو عند بابٍ لأحد المساجد فيشتُمَ محمّداً. ثارتْ هذه الحركة التي كان النصارى يُسمّونها حركةَ الاستشهاد في أيامِ عبدِ الرحمن الأوسطِ ابن الحَكَم (٢٠٦- ٢٣٨ هـ). ولكنّ الخليفةَ والقُضاةَ عالجوا هذه الحركةَ بحكمةٍ فلم يَحْكموا بالقتل على أولئك المستخفّين. فانتهت تلك الحركة لأنّها لم تُؤَدِّ إلى نتيجة عمليةٍ من الفوضى والقتل.

ثمّ وَضَعَ الإفرنجُ والبابوية في الساحة رجلاً نَصْرانياً يُسمّي نفسَه عُمَرَ بنَ حَفصونٍ

ويتظاهر بالإسلام فجمع حولَه عدداً كبيراً من الناقمين وقاتل الدولةَ الأموية وكاد يَصِلُ إلى قُرطبةَ نفسِها. بدأت هذه الحركة في أيامِ محمّدِ بنِ عبد الرحمن (٢٣٨- ٢٧٣ هـ) ثمّ استمرّتْ في أيام المُنْذِر ثمّ في أيام عبد الله بن محمّد (٢٧٥- ٣٠٠ هـ). في هذه الحِقْبة من الضَعْف والتنازع بين أُمراءِ البيت الأموي رَجَع الأميرُ عبد الله إلى نفسِه، ووجد أولادَه غيرَ صالحين لأنْ يَخْلِفوه، فعَهدَ بالأمر بعده إلى حفيد له هو عبدُ الرحمن بن محمد (وكان الأمير عبد الله قد قتل ابنه محمداً هذا) وهيّأ له مُستشارين حازمين مُخلصين.

- وجاء عبدُ الرحمن بن محمّد إلى العرش، سَنَةَ ٣٠٠ (٩١٢ م)، وعُمُرُه ثلاثٌ وعِشْرونَ سَنَةً، فاستطاع في مَدى سِتَّ عَشْرَةَ سَنَةً أن يَقْضِيَ على ثورةِ المُسمّى عُمَرَ بنَ حفصونٍ وأن يُعيدَ الأمنَ والنظام والهَيْبة إلى الأندلس. ثمّ رأى أن الخِلافة العبّاسية قد ضَعُفَتْ كثيراً في أيام المقتدر والمعتضد والمرتضى والقاهر (٢٩٥- ٣٢٠ هـ). بالتنازع على العرش. ثمّ الْتَفَتَ شِمالاً فإذا أوروبّةُ تَحْكُمها- شكلاً على الأقلّ- بابويّةٌ في عصرٍ كان للحُكم الدينيّ وجاهةٌ في كلّ مكان. ففي أوّل ذي الحِجّة من سَنَةِ ٣١٦ (١٣/ ١/ ٩٢٩ م) نادى عبدُ الرحمنِ بنفسِه خليفةً وتلقّب «عبدَ الرحمنَ الناصرَ لدينِ الله»، فأصبحتْ إمارةُ الأمويّين في قُرطُبةَ منذ ذلك اليوم خِلافةً.

وفي أيّامِ عبدِ الرحمنِ الناصرِ بلغتِ الأندلسُ ذِروةَ القُوّة والحضارة والوجاهة والسُلطة حتّى كادتْ تَكْسِفُ نورَ بَغدادَ وحتّى كان الأمراءُ الإسبانُ النصارى يحتكمون إليه في خِلافاتِهِمُ الداخلية (راجع، تحت: بناء الزهراء، ص ١٧٨).

- وتُوُفِّيَ عبدُ الرحمن الناصرُ، سَنَةَ ٣٥٠ (٩٦١ م)، بعدَ أن حكَمَ خمسين سَنَةً، فخلَفه ابنُه الحكَمُ المُسْتَنْصِرُ، وكان رجلاً كثيرَ الاهتمام بالعِلم والفلسفة جَمَعَ في بَلاطه مكتبةً قيل إنّها ضمّتْ أربعينَ ألفَ مُجلّدٍ. ومَعَ انصرافِ الحكَمِ المستنصرِ عن شؤونِ الدولةِ فإنّ دولَتَه عاشتْ قويّةً بفضلِ الهَيْبة التي كانتْ لها من أيّام أبيه. ولكنّ ذلك كلَّه فَسَحَ المجالَ لِشيءٍ من الاضطراب في شؤون الدولة ولشيءٍ من الاستبداد يطمَحُ إليه نَفَرٌ من رجالِها ولشيءٍ من الجُرأة، في الأعداء الداخِليّين والخارجيّين، على

الثورة أو على الحَرْب.

كان للحكَمِ المُستَنصِرِ مَحْظِيّةٌ بُشْكنسيّةٌ اسْمُها أورورا، وكان هو يُسَمِّيها صُبْحَ (ترجمةَ كلمةِ «أورورا») ويناديها «جَعْفَرُ» تحبّباً. وقد رُزِقَ (٣٦٠ هـ) منها غُلاماً سمّاهُ هِشاماً ثمّ جعَله (سنة ٣٦٥ هـ) وليّاً للعَهْدِ.

رجال الدولة: غالب والمصحفي وآبن أبي عامر

كان غالبُ بنُ عبدِ الرحمن الصَقْلَبِيُّ قائداً قديراً مُظفّراً حتّى سُمِّيَ «ذا السَيْفينِ». وكان جعفرُ بنُ عُثمانَ المُصْحَفي كاتباً للحكَمِ المستنصِرِ (حينما كان الحكَمُ لا يزالُ وَليّاً للعهد) ثمّ أصبحَ وزيراً له. وكان محمّدُ بنُ أبي عامرٍ شابّاً ذَكِيّاً نشيطاً طَموحاً آستطاعَ أن يدخُلَ في خِدمة الدولة باكراً وأن يتّصلَ بالبلاط ثمّ يكونَ ناظراً على أملاكِ السيدةِ صُبْحَ.

هشام بن الحكم وبدء الفتنة

تُوُفِّيَ الحكَمُ المُستنصرُ، سَنَةَ ٣٦٦ (٩٧٦ م) فخلَفَه ابنُه هِشامٌ باسم هشامٍ المُؤَيِّدِ، وكان لا يزالُ قاصراً قليلَ العلمِ والاهتمام بمُعاناةِ أمورِ الدولة. اتّخذَ هشامٌ المؤيّدُ جَعْفراً المُصْحَفيّ حاجباً (رئيساً للوزارة) وجَعَلَ محمّدَ بنَ أبي عامرٍ وزيراً للمُصْحفي.

اتّفَقَ أن هاجمَ الإسبانُ شَماليَّ الأندلس، فكان رأيُ غالبٍ والمُصحفيّ مُفاوضةَ العدوِّ لأنّ هزيمتَه في المَعْركةِ أمرٌ مُسْتَبْعَدٌ. أمّا ابنُ أبي عامرٍ فقد أكّدَ أنّ العدوَّ سينهزمُ في المعركة ثمّ اقترح أنْ يقودَ هُوَ الجيشَ بنفسِه. وكانتْ صبحُ الوصيّةُ على ابنها تخافُ أنْ يفقُدَ ابنُها عرشَه فمالتْ إلى رأيِ آبن أبي عامرٍ. وشاء القَدَرُ أن ينتصرَ ابنُ أبي عامرٍ على الإسبان فَعَلَتْ مَنزلتُه كثيراً وتدنّتْ منزلةُ غالبٍ والمُصحفي كثيراً (مع أن غالباً كان القائد الذي خاضَ المعركةَ فعلاً، ولكنّ الحملةَ كانت بِقيادة آبن أبي عامرٍ).

طَمِحَ ابنُ أبي عامرٍ الآن إلى الاستبدادِ بالسُلْطَةِ فحَجَبَ هِشاماً وشَغَلَه بالتَرَفِ واللَهْو ثمّ نَكَبَ المُصْحفي وَغَدَرَ بغالبٍ، في حديثٍ طويل، فأصبحتِ الدولةُ كلُّها في

يَدَيْهِ. عندئذٍ تسمّى « المنصورَ بنَ أبي عامرٍ » وبَنى مدينةً سَمّاها الزاهرةَ (تقليداً للزهراء التي بناها عبدُ الرحمن الناصرُ) وأقامَ فيها بلاَطاً وأصبحَ الحاكمَ الفِعْليَّ في الأندلس. وقد حارَبَ المنصورُ بنُ أبي عامرٍ الإسبانَ ووَسَّعَ رُقعةَ الأندلسِ وقامَ بخمسينَ غزوةً آنتصر فيها كلِّها. وكانتْ وفاتُه سنة ٣٩٢ (١٠٠٢ م) في مدينةِ سالم وهو آيبٌ من غزو بلاد الجلالقة.

خلفاء الفتنة

معنى الفتنةِ هنا تَنازعُ الأحزاب المختلفة في قرطبةَ على الخلافة. وقدِ آمتدَتْ هذه الفِتنةُ ثلاثينَ سَنَةً، من وَفاةِ المنصورِ ابنِ أبي عامرٍ (٣٩٢ هـ) إلى سقوطِ الدولةِ الأُموية في قرطبةَ (٤٢٢ هـ).

بعدَ المنصورِ بنِ أبي عامرٍ تولّى الحِجابةَ في الأندلس ابنُه عبدُ الملك المُظَفَّرُ، وكان قديراً شُجاعاً قريبَ الصِفاتِ من أبيهِ فآستمرَّ في حَجْبِ هشامٍ وفي الاستبدادِ في تسييرِ أمورِ الخِلافة.

ولَمّا توفّي عبدُ الملكِ المظفّرُ (٣٩٨ هـ) خَلَفَه أخوه عبدُ الرحمن المُلقّبُ « شَنْجولَ »، أي شانُجة الصغيرَ (لأنّ أُمّه كانتْ حفيدةَ مَلِكِ بَنْبلونةَ الفِرنْجيّ). غير أنّ عبدَ الرحمنِ هذا كان ضعيفاً مُنْصرفاً إلى مَلَذّاته فآنْحَدَرَتِ الأندلسُ في أيامهِ إلى الفتنةِ والفَوْضى. جاء عبدُ الرحمنِ شَنْجولُ وعلى عرشِ الأندلسِ هشامٌ المؤيّدُ (٣٦٦- ٣٩٩ هـ) الذي كان المنصورُ بنُ أبي عامرٍ قد حَجَبَه واسْتَبَدَّ بحُكْمِ البلادِ مكانه. ثمّ طَمِعَ عبدُ الرحمن شنجول بالمُلْك فأقنع هشاماً المؤيّدَ بأنْ يَجْعَلَهُ وليّاً للعهدِ. فغاظ ذلك بني مروانَ فعَمِلوا على خَلْعِ هِشامٍ (جُمادى الآخرة ٣٩٩) ثمّ نَصَبوا مكانَه محمّداً المَهْدِيَّ بنَ عبدِ الجبّار الأمويّ. وبما أن محمّداً المهديَّ كان يُمَثِّلُ « الحِزْبَ » الأُمويّ العربيّ، فقد غَضِبَ البربرُ فهاجوا قُرْطُبَةَ وخلعوا محمّداً المَهْدِيَّ ونصبوا مكانه سُليانَ المُسْتعينَ بنَ الحَكَمِ بنِ سُليانَ (وهو أيضاً من البيت المروانيّ المالك) في رَبيعِ الأولِ من سَنَةِ ٤٠٠. ولكنّ المروانيّين أعادوا مُحمّداً المَهْديّ في شوّالٍ من سَنَةِ ٤٠٠؛ وبعدَ شهرينِ استطاعَ أنصارُ هشامٍ المؤيّدِ أن يخلعوا محمّداً المَهْديّ ثانيةً وأن يُعيدوا هشاماً إلى العرش.

وبعدَ ثلاثِ سَنَواتٍ، في شوالٍ من سَنَةِ ٤٠٣ (١٠١٣ م)، اقتحمَ البربرُ قرطبةَ ونصبوا خليفَتَهُمْ سُليمانَ المستعينَ على عرشِ الخلافةِ مرّةً ثانيةً. وبعدَ أنْ سالتِ الدماءُ في قرطبةَ أنهاراً أمرَ سُليمانُ المستعينُ بقتلِ هشامٍ المؤيَّد. وعاشَ سليمانُ في خلافتهِ الجديدةِ ثلاثَ سَنَواتٍ وثلاثةَ أشهُرٍ. ثمّ إنّ البربرَ تَخلَّوْا عن سليمانَ المستعينِ والْتَفّوا حولَ رَجُلٍ منهم هو عليُّ بنُ حَمّودٍ وجعلوه خليفةً وسَمَّوْهُ الناصرَ لدينِ اللهِ. ولكنّ العربَ عادوا فقتلوا عليَّ بنَ حمّودٍ وردّوا إلى العرش المُقَلْقَلِ رَجُلاً مروانياً هو عبدُ الرحمنِ المُرْتضى بنُ محمّدٍ، في رَمَضانَ ٤٠٨ (١٠١٨ م). وبعدَ شَهْرَيْنِ فَقَطْ جاء القاسمُ ٱبنُ حمّودٍ إلى عرشِ قرطبةَ، ثمّ خَلَفَه، بعد أربعِ سَنَواتٍ ٱبنُ أخيه يحيى بن حمّود، ثمّ عاد القاسمُ ثانيةً إلى العرش. ثمّ عادَ الأمرُ في قرطبة إلى العرب فجاء إلى عرش الخلافة المُتَزَعْزِعِ عبدُ الرحمن المُسْتَظْهِرُ بن هشامٍ؛ ثمّ بعدَ شهرين جاء محمّدٌ المُسْتَكْفي- وقد كانتِ ابنَتُهُ ولاّدةُ أشهرَ منه في تاريخِ السياسةِ وتاريخ الأدب- ثمّ عاد البربرُ بيحيى بن عليّ بن حمّود؛ ثمّ أعاد العربُ رجلاً مروانيّاً إلى الخلافة هو هشامٌ المُعْتَدُّ بنُ عبد الرحمن المرتضى فحكم حُكْماً مُعْتَلاًّ أرْبَعَ سَنَواتٍ ٱنتهتْ بقَتْله، سَنَةَ ٤٢٢ (١٠٣١ م). وبسقوطِ الدولةِ الأمويّة في قرطبة.

الدولة الفاطمية

ينتسبُ الفاطميّون إلى فاطمةَ الزهراءِ بنتِ محمّدٍ رسولِ اللهِ (صلّى اللهُ عليه وسلّم) وزوجِ عليٍّ بن أبي طالبِ (كرّم الله وجهه). وربّما قيل: العُبيديون والدولةُ العبيدية (نسبة إلى عبيد الله المهديّ أول أئمتهم- خُلفائهم- في المغرب).

الشيعة- الفاطميّون: الاسماعيليّون

الشِيعةُ هم القائلون بأنّ الإمامة (الخِلافة) تكون بالنصّ والتَعْيين لأنّها مِنْ أمورِ الدين (العقيدة) التي لا يَجوزُ أن تُتْرَكَ إلى نَظَرِ الناس، وأنّ الرسولَ صلّى اللهُ عليه وسلّم قد أَسَرَّ إلى عليٍّ بنِ أبي طالبِ بأنّ الخلافةَ ستكونُ فيه وفي نَسْلِه. ثمّ إنّ الأئمّةَ الشيعةَ (منذ عليٍّ) كانوا يُوصي بعضُهم إلى بعضٍ. وهذا خلافُ رأيِ أهلِ السُنّةِ

والجماعةِ الذين يَرَوْنَ أن الخلافةَ أمر دُنْيَوِيٌّ وأن الأُمّة تختارُ من تشاءُ خليفةً بالانتخاب.

والشيعةُ فَرقان كبيران: ٱلاّثنا عَشَريّةُ أو الإماميةُ الذين يَعُدّونَ ٱثْنَيْ عَشَرَ إماماً، ابتداءً بعليٍّ بنِ أبي طالبٍ، هم: عليٌّ- الحَسَن- الحُسينُ بنُ عليٍّ- عليٌّ زينُ العابدينَ- محمّدٌ الباقرُ- جَعْفرٌ الصادقُ- موسى الكاظمُ- عليٌّ الرِضا- محمّدٌ الجَوادُ- عليٌّ الهَادي- الحسنُ العسكريُّ- محمّدٌ المَهْدِيُّ المُنْتَظَرُ (الذي غابَ وسَيَرْجعُ). ثمّ هنالك السَبْعِيُّة أوِ الاسماعيليةُ الذين يَقِفون عندَ سَبْعةِ أئمّة ظاهرينَ آخِرُهم إسماعيلُ بنُ جَعْفرٍ الصادقِ (ولا يأخذون بأخيه موسى الكاظمِ).

والشيعةُ الإمامية- في النَظَرِ إلى القُرآن الكريم- من أهلِ الظاهرِ مَعَ تأويل الآياتِ عند الحاجةِ على مُقْتَضى قوانينِ البلاغةِ وقواعدِ اللغة العربية، فهم في ذلك كأهلِ السُنة والجماعة.

أمّا الشيعة السبعيةُ أو الإسماعيليةُ فهم، بخِلافِ أهلِ السنّةِ والجَماعة وبخلاف الشيعة الإمامية، من أهلِ الباطنِ يعتقدون أنّ لآياتِ القرآنِ ظاهراً وباطناً؛ ثم لهم في ذلك تأويلاتٌ باطنيةٌ تخرُجُ بالقائلِ بها عن الإسلام جُمْلَةً. هذا الفَرْقُ من الشيعةِ هو الذي يُسمّي أصحابُه أنفسَهم «فاطميّين»، وهم أهلُ الدولة الفاطمية.

ويَرَى الفاطميّون أن جَعْفراً الصادقَ أعلَنَ أنّ ابنَه اسماعيلَ قد ماتَ ثمّ سَتَرَهُ خوفاً عليه من الأُمويّين. ثمّ يأتي في سِلسلةِ نَسْلِ اسماعيلَ، عندَ الفاطميّين: محمّدٌ المكتومُ فجعفرٌ المُصَدَّقُ فمحمّدٌ الحبيبُ فعُبَيْدِ اللهِ المَهْدِيّ. وليسَ لهذه السِلسلة من النَسَبِ سَنَدٌ من التارِيخ المعروف.

وبدأ الفاطميّون دَعوةً سِرّيةً في مدينة سَلَمِيَةَ، شَرْقَ حِمْصَ (في الشام) ثمّ انتقلوا بها إلى المَغْرِب.

في أواخرِ القرنِ الثالثِ للهِجْرة جاء أبو عبدِ الله الصَّنعانيُّ الشيعيّ إلى المَغْرِبِ داعياً إلى الرِضا من آلِ مُحمّدٍ ثمّ تألّفَ أقساماً مِنَ البربرِ واستطاعَ أنْ يَتغلّبَ على

الأغالِبَةِ، سَنَةَ ٢٩٦ (٩٠٩ م) في مَعَركة الأرْبُس، إلى الشّمال الغربي من القَيْروانِ قريباً من حدود الجزائر اليومَ. ثمّ إنّه دخل القيروانَ وأخذ البَيْعَةَ فيها لعُبيدِ الله المَهْديّ الفاطميّ (مَعَ أنّ نفراً من المؤرّخين لا يَرَوْنَ نَسَبَ عُبيدِ الله هذا صحيحاً في أولاد فاطمة). وبما أن أهلَ القيروان كانوا كلُّهم من السُنّة فقدِ انْتَقَل عُبيدُ اللهِ إلى نُقْطَةٍ من مُنْتَصَفِ الساحل الشرقيّ (من القطر التُونسي اليومَ) وبنى فيها مدينة المَهْدِيَّةَ واتّخذَها عاصمةً.

وبعدَ عبيدِ الله المهديِّ جاء ابنُه القائمُ (٣٢٢ - ٣٣٤ هـ) ثمّ إسماعيلُ المنصور ثمّ أبو تميمٍ مَعَدٌّ المُعِزّ لدين الله (٣٤١ - ٣٦٥ هـ) فاتّسعتْ مَمْلَكَتُه من البحر المُحيط إلى برْقَةَ (على حدود مصر). وفي سنة٣٥٨(٩٦٩م) وجّهَ المُعزُّ قائدَهُ جوهراً الصِقلّيّ إلى مِصر فانتزعها من يدِ الإخْشيديّين، ثمّ فَتَحَ الرملةَ (في فِلَسْطينَ) ودِمَشْقَ في العام التالي. وفي رَمَضانَ من سَنَة ٣٦٢ (٩٧٤م) بَنى جوهرٌ الصقلّيُّ مدينةَ القاهرة فانتقل إليها المُعزُّ لدين الله، كما بنى الجامع الأزهر (نسبة إلى فاطمة الزهراء: البيضاء). ومن ذلك الحين أصبحت القاهرةُ عاصمةً للدولة الفاطمية.

ولّما انتقل المُعِزّ من المغرب عَهِدَ بخلافتهِ هنالك إلى بُلُكِّينَ بنِ زِيري. وجاء بعد بُلكّينَ ابنُه المنصورُ (٣٧٣ - ٣٨٦ هـ) ثمّ جاء أبو مَنادِ باديسُ بنُ المنصور فاسْتَبْحَرَتِ الحضارةُ، وفي أيّامه بلغتْ إفريقيةُ ذِرْوةً عاليةً من القوّة والثروة. وبعد باديس جاء ابنُه المعزّ (٤٠٦ - ٤٥٣ هـ). وقد سقطت الخلافةُ الأموية في قرطبةُ قبل أنْ يَخْلَعَ المعزُّ بنُ باديسَ طاعةَ الفاطميّين وقبلَ أن تثورَ نقْمةُ العامة على الشِيعةِ في القيروان.

أما في المَغْرِبِ فقدِ انتهتْ دَوْلةُ الادارسةِ سَنَةَ ٣١٣ هـ وخَلَفَتْها دولةُ آل أبي العافية المِكْناسيّين الخوارجُ، وكان أوّلَهم موسى بنُ أبي العافية (٣٠٥ - ٣٤١ هـ) فخلَعَ طاعةَ الفاطميّين ومالَ إلى بني مَروانَ في الأندلس.

وأما في ريف المَغْرب فقامت دولةُ الأدارسة الثانيةُ فكان أولَ حُكّامها القاسمُ كَنّونٌ (٣٢١ - ٣٣٧ هـ) ثمّ جاء ابنُه أبو العَيْش أحمدُ ثمّ ابنُه الآخرُ الحسن بن كنّون (٣٤٣ - ٣٧٥ هـ). ومال الحسن بن كنون إلى طاعة الفاطميّين لأنّ جَوْهَراً الصقلّيّ

كان قادماً على رأس جيشٍ لإعادة سُلطة الفاطميّين إلى المغرب. ثمّ لمّا زال خطرُ ذلك انقلب الحسنُ بن كنّون إلى صَداقةِ المروانيّين في الأندلس من جديد.

بهذا تكونُ الدولة الفاطمية التي قامتْ سَنَةَ ٢٩٦ (٩٠٩ م) قد حلّتْ في المغرب محلَّ الدولة الأغلبية بالقَيْروان (١٨٤ - ٢٩١ هـ) والدولة الرستَمية بتاهرتَ (١٦٠ - ٢٩٦ هـ) ومحل أمراء نفّوسة- بجبل نفوسة إلى الجَنوب الغربي من ليبيا اليومَ (١٤٠ - ٣١٠ هـ) ومحلَّ دولة الأدارسة بفاس (١٧٢ - ٣٤٣ هـ) وبنى مدرار؟ بَسِجِلماسة (١٥٥ - ٣٥٢ هـ) ثم- في سنـة ٢٩٦ - محـل الأغالبـة في صقليـة (٢١٢ - ٢٩٠ هـ)، كما استَوْلَوْا على الجزر الثلاث مالطة وسردانية وكورسيكة. ثم حلّ الفاطميون أيضاً، سنة ٣٥٨ (٩٦٩ م) في مصر محلّ الدولة الإخشيدية.

الفاطميّون في المغرب وصقلّية

وقد عاشت الدولةُ الفاطمية في المغرب مُنافِسةً لدولةِ بني أميةَ في الأندلس، ولكنْ لم تنجْح لها دعوةٌ في الأندلس. غيرَ أن المغرب قد عانى من حكم الفاطميين شدائدَ كثيرةً، إذ عمد الفاطميون إلى فرض آرائهم السياسية ومذهبهم الفقهي بالحُسنى وبالقَهْرِ وكانوا يحاولون القضاء على المذهب المالكي وهو المذهب السائدُ في أقطار المغرب وفي الأندلس أيضاً. وحاول الفاطميون أن ينشروا مذهبهم في صِقِلّيَة أيضاً وفي طرابلس (ليبيا اليوم).

لم يَرْضَ المسلمون في صقلّية بحكم الفاطميّين الجديد، لا لأنّ الفاطميّين كانوا شيعةً أعداءً لبني العبّاس في بغداد فقط، وهوى الصقلّيين كان مَعَ بني العبّاس فحَسْبُ، بل لأنّ الولاةَ الفاطميّين على صقلّية أيضاً كانوا قُساة ظالمين غادرين فاستمرّتِ الفِتَنُ والقلاقلُ في صقلّية على الفاطميّين ووُلاتِهم نحوَ جيلٍ من الدهر (٢٩٦ - ٣٣٧ هـ). ولقد فعلَ وُلاةُ الفاطميّين في صِقلّية من المظالم ما حَمَلَ الناسَ على أن يستنجدوا بالروم على إزالة الحُكم الفاطميّ! لقد حاولوا ذلك مراراً!

ولكّن التاريخ جرى مجرًى أحسنَ عَدْلاً.

في سَنَةِ ٣٣٦ هـ (٩٤٧ - ٩٤٨ م) أرسل الفاطميّون إلى صِقلّية والياً هو الحسنُ بنُ

عليّ بن أبي الحسين الكَلْبي. ومَعَ أنّ الحسنَ هذا كان والياً للفاطميّين ومِنْ أشياعِهم، ومَعَ أنّه سار في أوّلِ أمرِه بالعَسْف والظُلم، فإنّه ٱرْعَوى بعدَ قليلٍ عن ظُلمهِ ومالَ إلى أن يستقلّ بصقلّيةَ عن السلطةِ الفاطمية مَعَ الإبقاء على السِيادة الاسمية على صقلّية للفاطميّين. وهكذا ظلّتْ صقلّيةُ تابعةً للعُبيديّين (الفاطميّين في القيروان) ثمّ بَقِيَتْ على ذلك الوَلاءِ الاسميّ لهم لمّا انتقلوا من القيروان إلى القاهرة، سَنَةَ ٣٥٨ هـ.

والفقهاء المالكية قاوموا إرادة العبيديين. ولم ينشأ ٱتّجاهٌ فقهي في صقلّيّة إلا في أواخر القرن الرابع. في ذلك الحين (وبعد أن نقل الفاطميون دولتهم إلى مصر) بدأ نفر من الذين كانوا يميلون إلى المذهب الفاطميّ (بعوامل مختلفة) يجدون شيئاً من الصعوبة في البقاء في القيروان (بين كَثْرة من أتباع المذهب المالكي) فهاجروا إلى صقلّية علّهم يجدون تلك الجزيرة أرحب لهم. ولكن ذلك لم يزد على أن هيّأ الجو لشيء من الجدال بين نفر من رجال المذهبين برُغْم مَيْل الولاة الفاطميين في صقلية إلى المتقرّبين إليهم بنصرة المذهب الفاطمي.

ونحن لا نكاد نَعْرِف شيئاً ذا أثر من التراث العلمي أو العقلي أو الأدبي في صقلية، في أيام حكم العبيديين - ذلك الحكم الذي ٱمتدّ في صقلية إلى سنة ٣٣٧ (٩٤٨ م) وقام مقامه حكم الأمراء الكلبيين.

المغرب الأوسط (الجزائر)

لمّا قامتِ الدولةُ العُبيدية (الفاطمية) في المَغْرِبِ خَضَعَ لها القُطْرُ الجزائريُّ أيضاً. ولكنْ سَرْعانَ ما ثار أهلُ المغرب الأوسط على العُبيديّين وقتلوا ابنَ حَبّوسٍ عاملَ تاهَرْتَ الفاطميَّ (٣١٢ = ٩٢٥ م) ثمّ استمرَّ القِتالُ بين زَناتَةَ وأحلافِها من قبائلِ كُتامةَ وصِنهاجةَ وبينَ الشِيعة خمسين عاماً. ونجحَتِ الدعوةُ الأُموية في القطر الجزائري أيضاً فثار أبو يزيدَ مَخْلَدُ بن كَيْدادٍ الخارجيُّ المعروفُ بلقبِ صاحبِ الحِمار (٣٣٢ = ٩٤٣ م) على الفاطميّين فانضمّ إليه جماعاتٌ من خوارجِ زَناتةَ ومن أهلِ السُنّة فاستولى أبو يزيدَ على كثير من بلدانِ القُطر الجزائري. ومَعَ أن الفاطميّين

تغلّبوا على أبي يزيدَ وأتباعِه وقتلوه، سنة ٣٣٦، فإنّ الثورةَ على الفاطميّين في الجزائرِ ظلّتْ ناشِطةً. وكان الثائرون على الفاطميّين - في هذهِ الحِقْبة يَدْعُون[1] لعبدِ الرحمنِ الناصرِ الخليفةِ الأمويّ في الأندلس. غيرَ أنّ هذا لم يَمْنَعْ - مَعَ الأسف - من تنازُعِ القبائل البربريةِ في المَغْربِ الأوسط خاصّة.

في ليبيا

كانت ليبيا في أيّامِ الفاطميّين في المَغْربِ تابعةً للفاطميّين، فلمّا انتقلَ المُعِزُّ الفاطميُّ إلى مِصْرَ عَهِدَ إلى بُلُكّينَ بنِ زِيري بالإشراف على ليبيا كلِّها ما عدا مِنْطَقةِ طرابلسَ وما حولها (سَرْتة وأجْدابِيَةَ) فإنّ المُعِزَّ جَعَلَها تابعةً له مباشرةً. ويَحْسُنُ أن نَعْلَمَ أن ليبيا تقسّمتْ في ذلك الحين بينَ حُكّامٍ مَحَلّيّين: استقلّ بنو خَطّابٍ في زَويلةَ (٣٦٠ هـ)، كما استقلّتْ مِنْطَقةُ فَزّانَ. وكذلك آستقلّ الإباضيّة (وهم فُرقةٌ معتدلة من الخوارج) في جبل نَفّوسة.

وحاولَ باديسُ بنُ المنصور بن زيري (٣٨٦ - ٤٠٦ هـ) أن يَمُدَّ سُلْطَتَهُ إلى بَرْقَةَ (شرقيّ ليبيا)، ولكنّ الفاطميّين هزموه. وفي سنَةِ ٣٩٦ كانتْ حَرَكَةُ أبي ركوة:

في سنة ٣٩٥ جاء من الأندلس رَجُلٌ اسمُه الوليدُ بنُ هِشامٍ من نَسْلِ بني أمية ودعا إلى نفسِه فبايعه جماعاتٌ من البربر من لُواتَةَ وزَناتة وبني قُرّةَ ثُمّ قويَ أمرُه في بَرْقَةَ وحكمها سَنَةً كاملةً (٣٩٦ هـ). ولكنّ الحاكِمَ بأمرِ الله الفاطمي تَغَلّبَ عليه وقَتَلَهُ. غير أن أمرَ برقةَ لم يستقرّ للفاطميّين، فإن بني قُرّةَ ظلّوا لا يَخْضَعون لسُلطانِ الفاطميّين.

وفي مَطلعِ القرنِ الخامسِ كانتِ طرابلسُ (ليبيا) مُتنازعةً بينَ العُبيديّين الفاطميّين في القاهرة وبَيْن الصِنهاجيّين المالكيّين (خصوم الفاطميّين) في القيروان. وكان الوُلاةُ المحلّيون ينتقلون بوَلائهم مِنْ هؤلاءِ إلى أولئك ومن أولئك إلى هؤلاء،

---

(١) يدعون لعبد الرحمن الناصر: يذكرون اسمه على المنبر في خطبة الجمعة: اقراراً له بالسلطة السياسية أو الرئاسة الدينية على الأقل.

بحَسْبِ مصالحِهِمُ الآنيةِ. وكثيراً ما كان الانتقالُ بينَ الوَلائَيْنَ يُرافِقُه اقتتالٌ يَهْلِكُ في أثنائه جوعٌ غفيرةٌ.

وقبلَ أن ينقضيَ قرنٌ واحدٌ من الزمن على الحكم الفاطميّ في المغرب، كاد المذهبُ المالكيُّ يندثر في ليبيا، فقد كانَ وُلاةُ الفاطميين قد حَظَروا كلَّ شيءٍ (في الحياة الدينية) غير مذهبِ أسيادِهم حتى صلاة الضُحى وصلاة التراويح[1]- ذانكَ مَظْهرانِ عاديّانِ، ولكنهما شديدا الدَّلالةِ على اتجاه الفاطميين في الحكم.

ولقد تصدّى أبو الحسن المنمّر (٣٤٨ - ٤٣٢ هـ) - تلميذُ ابنِ أبي زيدٍ القيرواني (ت ٣٨٦ هـ) للتيار الفاطمي عاملاً على رَدّ المذهبِ المالكي إلى مكانته (في طرابلس - ليبيا). وبعدَ صِراعٍ طويلٍ في مَيْدانيِ الثقافة والسياسة أُسِرَ ونُفِيَ. ولكنّ كفاحه لم يذهبْ سُدًى[2].

السـودان المغربي (أو الغربي)

السودانُ في عُرف المؤرخين والجغرافيِّين العربِ هو الاقليمُ الأوّل (المِنْطقة الأولى) شَمال خطّ الاستواء (لأنّ القدماء اعتقدوا أن ما يقعُ جَنوبَ خطّ الاستواء غيرُ مسكون - ولا يصلُحُ للسُكنى). فالسودانُ إذَنْ، بهذا النظَرِ، اسمٌ يشمَلُ البلادَ المُمتدّة في أواسِطِ قارّة إفريقيَةَ، من البحرِ الأحمر شرقاً إلى البحر الأخضر (المُحيط الأطلسي) غرباً. هذه البلادُ كلُّها كثيرةُ الحرِّ كثيرة المياه (برُغْمِ بِقاعٍ من الصحارى) وفيها نهرانِ عظيمان سمّاهما ابنُ خلدونٍ (المقدمة - بيروت: دار الكتاب اللبناني، ص ٩٢ - ٩٤) «نهرَ النيل». يعتقد ابنُ خلدونٍ أن هنالك نهراً كبيراً ينبُعُ من جِبال القمر (بفتح القاف أو بضمّها) وراءَ (جَنوبَ) خطّ الاستواء. هذا النهرُ هو نهرُ النيل.

---

(١) صلاة الضحى ركعات (أقلها اثنتان) يتطوع المسلم بها كلّ يوم بعد أن تعلو الشمس مقدار رمح في رأي العين. والتراويح ركعات وتر (ثلاث، خمس،... تسع، واحدة وعشرون، الخ) تصلى في رمضان بعد صلاة العشاء (وتكون صلاة العشاء بعد اختفاء الشفق- الضوء الأحمر الذي يبدو على الأفق الغربي بعد غياب الشمس- بعد نحو ساعة ونصف ساعة من غياب الشمس).

(٢) راجع «أعلام من طرابلس»، تأليف علي مصطفى المصراتي، ص ٣٥ وما بعد.

ثمّ إنّ هذا النهرَ ينقسم فرعَيْنِ: يمرّ فرعٌ منه شَمالاً حتّى يصُبَّ في البحر الأبيض المتوسط (وهذا نيلُ مِصْرَ)، كما يَعْطِفُ الفرعُ الثاني منه غرباً حتّى يصبَّ في البحر المحيط (المحيط الأطلسيّ)، وهذا الفرع - عندَ ابنِ خلدونٍ - هو نيل السودانِ أو نهرُ السودان.

بعد هذه الصورة الخاطئة يحسُنُ أن نقولَ:

السودانُ المغْرِبيّ (أو السودان الغربي أو بلادُ السودان) هو البُقعة الواسعة التي يقع فيها حَوْضُ نهر صِنهاجة (السنغال) وحوضُ نهر السودان (النيجر) أو ما يُعْرَفُ اليومَ باسم «غربيّ (قارّة) إفريقية» (جنوبَ الجزائر والمغرب).

إنّ الفتحَ الإسلاميَّ للمَغْرِب وللأندلس فتحَ أبوابَ السودانِ المَغْرِبيّ لدُخول الإسلام. ففي سَنَةَ ١١٦ (٧٣٤ م) غزا عُبيدُ اللهِ بنُ أبي عُبيدةَ الفِهْري أرضَ السُوس (جِبالَ المغرب الجَنوبية) وبلادَ السودان. ولكنّ الإسلامَ لم يدخُلْ إلى السودانِ بالحرب، بل من طريقِ التجارة حيناً ومن طريق الدُعاة حيناً آخَرَ. ومَعَ أنّ انتشار الإسلام أخذ في الاتّساع، في تلك البلادِ، منذ القرنِ الرابعِ (العاشِر للميلاد)، فإنّ تعريبَ السودانِ المغربيّ لم يتمَّ باكراً ولم يستَقِرَّ كثيراً، فلا نَجِدُ - من أجلِ ذلك - في تلكَ الحِقبةِ أدباءَ كتبوا باللغة العربية، وإن كنّا (مُنذُ ذلك الحين) نَجِدُ عُلماءَ اهتموا بالفِقه لحاجة الناس إلى الفِقه في عباداتهم وفي معاملاتهم التجارية والاجتماعية أيضاً.

صقلّية

صِقِلِّيَةُ (القاموس المحيط ٤ : ٣) جزيرةٌ كبيرة مُصاقبةُ للطرَف الجَنوبيّ من البرّ الطويل (شبه جزيرة إيطالية) أهلُها مزيجٌ من شعوبٍ قديمة. ثمّ نَزَلَ فيها الكَنْعانيّون (الفينيقيّون) ثمّ استعْمَرَها الإغريق (اليونان القدماء) وحكموها. وعَظُمَ النِزاعُ عليها مدّةً بينَ الإغريق والقَرْطاجيّين (أحفادِ الكنعانيّين في قرطاجة - تونس) ثمّ بين الرومان والقرطاجيّين. وفي القَرْن الخامسِ للميلاد - في أثناء هِجْرات البرابرةِ وٱنْسياحِهِم في أوروبّة - نَزَلَ فيها الفاندالُ والقوطُ الشرقيّون. ثمّ ٱستردّها الرومُ

(اليونان المتأخّرون: البيزنطيّون) عامَ ٥٣٥ م (٨٧ قَبْلَ الهِجْرة).

بدأ العربُ غزْوَ صِقلّيةَ منذ أيامَ مُعاوية (٤٠ - ٦٠ هـ) ولكنْ لم يَتِمَّ لهم آستقرارٌ في أرضها.

وأنّتْ صِقلّيةُ من الحُكم الرومي طويلاً - خِلالَ ثلاثةِ قرونٍ مُتَواليةٍ - كما كانت تَئِنّ جميعُ البلادِ الرومية وجميعُ البلاد التي كانتْ خاضعةً للروم. في هذه الأثناء آمَّحَتِ المظاهرُ العُمرانيةُ والحَضارية في صقلّيةَ وتضاءلَ فيها عددُ السكّان. وآشتدّ سوءُ الأحوال السياسيةِ والاقتصادية فثارَ فيها رجلٌ شريفٌ من أهلِها، ومِنْ أصلٍ روميّ، اسمُهُ فيمي (أوفيميوس) على قُسطنطين بِطْريق (قائد) صِقلّيةَ وحاكِمِها من قِبَلِ ملكِ الروم ميخائيل الثاني الألثَغ (٨٢٠ - ٨٢٩ م) وحَكَمَ الجزيرة ثمّ استَنْجَدَ بزيادة الله بن إبراهيمِ بنِ الأغلب (٢٠١ - ٢٢٣ هـ). وفي النِصْف من ربيعٍ الأولِ من سَنَةِ ٢١٢ (مَطلعِ الصيف من عام ٨٢٧ م) أرسل زيادةُ الله أسطولاً إلى صِقلّية بقيادة القاضي أسدِ بنِ الفُراتِ (١٤٢ - ٢١٣ هـ)، يُسانده أسطول فيمي، ففتح مازَرَ (عند الطرف الجَنوبي الغربي) ثمّ انتقل إلى سَرَقوسة (عند الطرف الجَنوبي الشرقي) - وهي عاصمةُ الجزيرة - فَجَرَتْ عِنْدَها مَعْرَكَةٌ عظيمةٌ قُتِلَ فيها فيمي. ثمّ تُوفّي أسدُ بنُ الفُراتِ في أثناءِ حصار سرقوسةَ، سَنَةَ ٢١٣ هـ، من جِراحٍ أصابَتْهُ. وَفي سنة ٢١٦ هـ فَتَحَ المسلمون بَلَرْمَ (على الشاطىء الشماليّ من الجزيرة).

وطالَ حِصارُ سرقوسةَ خمسين سَنَةً واستمرّتِ الحَمَلاتُ على صقلّية حتّى فتح المسلمون سرقوسةَ سَنَةَ ٢٦٥ هـ (٨٧٨ م). ولكنّ الاستيلاءَ على الجزيرةِ كلِّها لم يَتِمَّ إلاّ في سَنَةِ ٢٩٦ هـ (٩٠٨ م)، في العام الذي انقرضتْ فيه دولةُ بني الأغلب وقامتْ فيه الدولة الفاطميةُ في المَغرِب.

العمران:

إنّ السِلْمَ والأمن يُنْتَجُ منهما آستقرارٌ وآطمئنانٌ فتَتَّسِعُ الحياةُ الاقتصادية ويستَبْحِرُ العُمران، كما يقولُ ابنُ خَلْدون. ويكفي في آجتلاء صورةِ العُمران في

أيام عبدِ الرحمن الناصر في الأندلس أن نُشير إلى « الزهراء »، وهي المَقرُّ الرسميّ الجديدُ الذي بناه عبدُ الرحمن الناصر إلى الشّمال الغربي من العاصمةِ قُرطبةَ على جبل العروس (ويقال له اليومَ بالإسبانية: سيارا مورانا - بالألف الأولى والألف الثالثة ممالتين) مُطلّةً على نهر الوادي الكبير.

وإذا نحن قُلنْا: «الزهراءُ» فيحسُنُ أن نفهَمَها على ثلاثةِ أوجهٍ: الجامع والقصرِ والمدينةِ. أمّا الجامع فقد عمل في بنائه من حُذّاق الفَعَلة كلَّ يوم ألفُ نسمةٍ منهم ثلاثُمِائَة بَنّاءٍ ومِائَتا نجّارٍ وخمسُمِائَةٍ من الأُجَراء وسائر (أرباب) الصنائع. فاسْتَتَمَّ بناؤه وَإتقانهُ في مُدّةِ ثمانيةٍ وأربعين يوماً.... وطول المسجد أجمعُ من القِبلة إلى الجَوْف[1]- سِوى المِحراب- سبعةٌ وتسعونَ ذِراعاً، وعَرْضه من الشرق إلى الغرب تسعةٌ وخمسون ذِراعاً. وطولُ صَوْمَعتهِ (مِئْذَنَتِه) في الهواء أربعون ذِراعاً وعرضها عَشْرَةُ أذْرُعٍ في مِثْلها (نفح الطيب ١: ٥٦٤). وكان الفراغُ من بنائه في الثاني والعِشرين من شَعبانَ من سَنَةِ ٣٢٩.

وأمّا القصرُ فقد «أطبق الناسُ على أنّه لم يُبْنَ مثلُه في الإسلام البَتّةَ. وما دخل إليه قطُّ أحدٌ من سائرالبلاد النائية والنِحَلِ المختلفةِ من مَلِكٍ واردٍ ورسولٍ وافدٍ وتاجرٍ جَهْبَذٍ- وفي هذه الطَبقاتِ من الناس تكون المعرفةُ والفِطْنة- إلاّ قطع أنّه لم يَرَ له شَبَهاً، بل لم يَسْمَع به، بل لم يَتَوَهَّمْ مثلَه..... ولو لم يكنْ فيه إلاّ السطح[2] المُمَرَّدُ[3] المُشْرِفُ على الروضة المُباهي بمجلس الذهبِ والقُبّة وعجيبِ ما تضمّنه من إتقان الصَنعة وفخامة الهمّة وحُسنِ المُسْتَشْرَفِ[4] وبراعة الملبس والحِلّة- ما بين مرمرٍ

---

(١) القبلة (بكسر القاف) هي السمت الذي يتّجه فيه المصلّي المسلم نحو مكّة. والقبلة في الأندلس هي نحو الشرق الجنوبي. أمّا الجوف فهو الوسط من الأندلس.

(٢) يقصد: « السقف ».

(٣) الممرّد: الذي فيه طول (واتّساع) مع ملاسة.

(٤) فخامة الهمّة (؟): علوّ همّة بانيه. المستشرف: المنظر من مكان عال.

مسنونٍ وذهبٍ موضونٍ[١] وعَمَدٍ كأنّما أُفرِغَتْ في القوالبِ[٢] ونقوشٍ كالرياض وبِرَكٍ عظيمةٍ مُحكَمةِ الصَنعة وحِياضٍ وتماثيلَ عجيبةِ الأشخاص لا تَهْتدي الأوهام إلى سبيلِ آستقصاءِ التعبيرِ عنها- «لكفاه فخراً». (نفح الطيب ١: ٥٦٥ - ٥٦٦).

وكان عبدُ الرحمن الناصرُ قد أتمّ، في أوائلِ سَنَةِ ٣٢٩ هـ، «بُنيانَ القناةِ الغريبةِ الصَنْعةِ التي جرى فيها الماءُ العَذْبُ من جبل قُرطبةُ إلى قصر الناعورة غربَ قرطبة في المناهر المهندسة وعلى الحنايا المعقودة[٣]، يجري ماؤها بتدبيرٍ وصَنعةٍ مُحكَمة إلى بِرْكة عظيمةٍ عليها أسدٌ عظيمُ الصورةِ بديعُ الصَنعةِ شديدُ الرَوْعة.... مَطْلِيٌّ بذهبِ إبريز[٤] وعَيْناه جَوْهرتانِ لهما وميضٌ شديد، يجري الماء إلى عَجُزِ هذا الأسدِ فيَمُجُّه[٥] في تلك البركة من فيه. فيُبهَرُ الناظرُ بحُسنه ورَوْعة منظره وثَجاجةِ صبّهِ فتُسْقى من مَجاجه[٦] جنانُ هذا القصر على سَعَتها، تَفيضُ على ساحاتِه وجَنَباته ويُمَدُّ النهرُ الأعظمُ[٧] بما فَضَلَ منها» (نفح الطيب ١: ٥٦٤ - ٥٦٥).

وبَدَأ «عبدُ الرحمن الناصرُ لدين الله بُنيانَ (مدينة) الزَهْراء أوّلَ سَنَةَ ٣٢٥، وكان مَبْلَغُ ما يُنْفَقُ فيها كلَّ يومٍ من الصخر المنحوت المنجورِ المُعدّلِ[٨] سِتّةَ آلافِ صخرةٍ،

---

(١) مرمر (نوع من البلاط الجيّد: الرخام). مسنون: مصقول أو ذو أشكال مختلفة. موضون: مضعّف (موضوع طبقات على أشياء أخرى) أو منزّل (مجعولاً أشكالاً معيّنة في مادّة ثانية من الخشب أو الفضّة الخ).

(٢) عمد = أعمدة (جمع عمود). كأنّما أفرغت في القوالب: مستوية ويشبه بعضها بعضاً.

(٣) المنهر: شقّ في الحصن (في بناء) يجري فيه الماء. المهندس: المصنوع على قواعد من أصول البناء. الحنيّة: القوس، القنطرة الصغيرة. المعقود من البناء: المبنيّ بحجارة يمسك بعضها بعضاً لملاستها (من غير ملاط: طين).

(٤) الروعة: الهيبة (الجمال مع إلقاء الرعب في الناظر). الإبريز: الذهب الخالص، الصافي.

(٥) وميض: بريق. عجز: مؤخّرة. مجّ: لفظ الشيء من فمه.

(٦) ثجاجة: انصباب الماء بكثرة. مجاج: خروج الماء من فم (الأسد).

(٧) أمدّ: زاد في، صبّ في. النهر الأعظم: نهر الوادي الكبير الذي تقوم عليه قرطبة.

(٨) المنحوت: المقشور، المجعول أملس. المنجور: المقشور أيضاً (ولكن تستعمل للخشب). المعدّل: المسوّى (المجعول بعضه موافقاً لبعض).

سوى الصخرِ المُصرَّفِ في التبليط.... وكان يَخدِمُ في (بناء) الزهراء كلَّ يومٍ ألفٌ وأربعُمِائَةِ بَغْلٍ... وكان يَرِدُ (إلى) الزهراء من الجِير والجِصّ[1] في كلّ ثالثٍ من الأيام ألفٌ ومِائَةُ جَمَلٍ....» وقد قُدِّرَتِ النَفَقةُ على بناء مدينةِ الزهراء في كلِّ عامٍ بثلاثِمِائَةِ ألفِ دينارٍ مُدَّةَ خمسةٍ وعِشرينَ عاماً من خِلافة عبدِ الرحمنِ الناصرِ (نفح ١ : ٥٦٧ - ٥٦٨) سوى ما أُنفِقَ على بنائها في مَدى خمسةَ عَشَرَ عاماً أُخرى في خِلافةِ الحَكَمِ المستنصر.

من مظاهر الثقافة

كان أهلُ الأندلس يقرأون القرآنَ الكريم بقراءةِ[2] أهلِ المشرق إلى أيام مُجاهدٍ العامريّ مؤسّسِ الدولةِ العامرية في دانِيَةَ (بشرق الأندلس) وجزيرةِ مَيورقة وما حولَها والمُتوفَّى سَنَةَ ٤٣٦ هـ (١٠٤٤- ١٠٤٥ م). وكان لِمُجاهدٍ العامريّ عنايةٌ بهذا الفَن لِمَا كان مولاه المنصورُ بن أبي عامر (ت ٣٩٢ هـ) قد حَرَصَ على تعليمه القراءة على أئمّة القُرّاء. وقد عاصَره اثنان من كِبار القرّاء: ابن حَمّوش وأبو عمروٍ الداني.

وُلِدَ ابنُ حمّوش (ت ٤٣٧ هـ- راجع ترجمته) في القَيْروانِ. وبعدَ رِحلةٍ إلى المشرق عاد إلى القيروان وأقْرَأَ بها. ثمّ انتقل (٣٩٣ هـ) إلى قُرطبةَ وخَطَبَ بجامِعِها وأقرأ. وأمّا أبو عمروٍ عُثمانُ بنُ سعيدِ بنِ عثمانَ الدانيُّ (٣٧١ - ٤٤٤ هـ) فهو من أهل دانِيَةَ بشرقِ الأندلس، رَحَلَ إلى المشرق ثمّ عاد بعلم كثيرٍ في قِراءة القرآن وتفسيره.

وكان جُمهورُ أهلِ المغرب وأهل الأندلس يكْتفون بالرِواية عن السَلَفِ فلا يَرَوْنَ

---

(١) الجير: الكلس قبل حرقه (قبل مزجه بالماء). الجصّ: الكلس المعالج بالماء حتّى يصبح ملاطاً.

(٢) قراءة القرآن: أداء أحكام لفظه بإعطاء الأحرف حقّها من المخارج من الفم واعطاء المدود حقّها من الزمن (بالطول أو القصر) مع مراعاة الجمع بين عدد من الأحرف بالإدغام وغيره.

وكان أهل المشرق يدخلون في القراءة شيئاً من التنغيم. أمّا القراءات (بالجمع) - أو الأحرف، على الأصح - فهي ألفاظ يسيرة نزل بها الوحي بلغات القبائل، نحو: (١٢ : ٨٧، سورة يوسف): «يا بَنِيَّ، اذهبوا فتحسّسوا من يوسف وأخيه (أو فتجسّسوا، بالجيم). ثم هنالك قراءات مشهورة وقراءات شاذّة. فليراجع ذلك كله في مواضعه.

أن يُفَسِّرَ أحدٌ من المتأخّرين شيئاً من القرآنِ حتّى جاء بَقِيُّ بنُ مَخْلَدٍ (ت ٢٧٢). ثمّ لانوا فاشتغل مكّي بن حموشٍ بشيءٍ من التفسير.

وبما أنّ المالكيةَ أكثرُ اعتماداً على الرواية عن السَلَفِ منهم على التفسير بالرأي فقد كان مُعْظَمُ فُقهائهم من أهلِ الحديث. من هؤلاء المُحدّثين والفُقهاء أبو بكرٍ محمّدُ بنُ محمّدِ بنِ وِشاحٍ المعروفُ بابن اللَبّاد (٢٥٠- ٣٣٣ هـ) القَيْرواني، كان من كِبارِ علماء المالكية وله من الكتب: فضائل مالكِ بن أنَسٍ - الآثارُ والفوائد- كَشْف الرِواق عن صُروف الجامعة للأواق (؟) (في تقسيم الإرث). وكان قاسمُ بنُ أصبغَ البياني (ت ٣٤٠- له ترجمة مُفَردَة) من المُحدّثين والفقهاء. وكذلك كان أبو عثمانَ سعيدُ بنُ إبراهيمَ بنِ عبدِ ربّهِ (ت ٣٤٢)فقيهاً وطبيباً وأديباً شاعراً. ثمّ هنالك محمّدُ بنُ القاسمِ بنِ شَعبانَ، ويُعْرَفُ بابن القُرْطِيّ (؟ نحوَ ٢٧٣- مِصْر ٣٥٥ هـ)، من أكابرِ فُقهاء المالكيةِ في عصرهِ وأحفظِهِمْ لمذهبِ مالكٍ.

اتّسعتْ دِراسةُ الفِقْه في هذا العصرِ في الأندلس والمغرب، كثيراً. فمَعَ أنّ محمّدَ بنَ عُمَرَ بنَ القوطيّة الأندلسي (ت ٣٦٧ هـ) كان مُؤرّخاً مشهوراً، كما أنّ محمّدَ بن عبدِ الله ابن أبي زَمَنِينَ القُرطي (٣٢٢- ٣٩٩ هـ) كان من الأدباءِ الشعراء، فإنّهما كِلَيْهما كانتْ لهما عِنايةٌ كبيرةٌ بالفِقه.

وعَرَفَ المغرب، في هذه الفَتْرة، نَفَراً من أشهرِ الفُقهاءِ المالكية. من هؤلاء أشهرُ فُقهاءِ المغرب في عَصره ابن أبي زيدٍ القَيروانيُّ (ت نحو ٣٨٦ هـ) ثمّ ابنهُ محمّدٌ مُؤلفُ «المَدْخَل إلى علم الدين والديانة» (بروكلمن١ : ١٨٨) ثمّ تلميذُه أيضاً خَلَفُ بن أبي القاسم الأزدي البراذعي الذي ألّف (٣٧٢ هـ) كتاب تهذيب المُدوَّنَة والمُخْتَلطة. ثمّ جاء أبو القاسم عبدُ الخالق بن شَبْلونِ (ت ٣٩١ هـ)، ولقد كان الاعتماد عليه في القيروان في الفُتيا والتدريس بعد ابن أبي زيد. ثمّ هنالك أبو محمّد عبدُ الله بن إبراهيم الأصيليّ (ت ٣٩٢ هـ)- من أهل أصيلةَ في الجانب الشماليّ الغربي من المغرب- كان عالماً بالحديث والفِقه والكلام. وبعد أن تطوّف في المغرب والمشرق استقرّ نهائياً في الأندلس في أيام الحَكَم المستنصر (٣٥٠- ٣٦٦ هـ).

ولا بدّ من الإشارةِ إلى فقيهينِ كبيرين في أعقابِ هذا العصر: أبي الحسنِ عليِّ بنُ محمّدٍ القيروانيّ القابسيّ (٣٢٤- ٤٠٣ هـ) شيخُ المالكية في عصره، كان حافظاً للحديث عالماً بالفِقه أصولِه وفروعِه ومشاركاً في عِلم الكلام كثيرَ التأليف في الأصول والفروع؛ ثمّ موسى بنِ عيسى بنِ حاجٍّ الغَفْجوميّ- نِسبةً إلى غفجوم وهي فَخِذٌ من زَناتةَ- والمشهور بأبي عِمرانَ الفاسي (٣٦٨- ٤٣٠ هـ) طاف البلادَ فسمع العلمَ في القيروان وقرطبةَ ومِصْرَ وبَغْدادَ ومكّةَ. وكان يُقرئ القرآنَ بالقراءات السبعِ ويُجوّدها مَعَ المعرفة بالحديثِ ورجاله وبالفقه. ثمّ كانت وفاتُه في القيروان وقبرُه في ظاهِرها معروفٌ يُزارُ ويُشارُ إليه.

ومَعَ أنّ الفِقه المالكي كان هو الغالبَ في المغرب والأندلس، فإنّ المغرب والأندلس كِلَيْهِما قد عَرَفَا ٱتّجاهاتٍ قليلةِ البُروزِ أو كثيرةِ البروز من مذاهبَ أُخرى. أمّا في المغرب فٱنتشر، في وقتٍ من الأوقاتِ، فِقْهان: الفِقهُ الإباضي والفِقه الفاطمي.

بعدَ انقضاءِ حُكمِ الرُسْتَمِيّين في تاهَرتَ بالاستيلاء الفاطمي (٢٩٦ هـ) ٱنسحبَ الإباضيّة إلى جبَلِ نَفّوسةَ وأقاموا لأنفسِهم حُكماً مَحَلّيّاً وحكومةً يجب أن تكون شُورَوِيّة، كما هو معروفٌ من قواعدِ المذهب. والمفروضُ في هذه الحكومة المحلّيّة أن يكون أمراؤها عُلماءَ. فمن الأئمة (بالمعنى السياسيّ والمعنى الديني معاً) ممّن نَعْرِفُ أسماءهم: أبو عمرَ ميمونُ ثمّ أبو الفضل سَهْلُ ثمّ أبو يَحيى زكريّا الأرجاني. وقد ثار هؤلاء على العُبيديّين. ويرى سليمانُ البارونيُّ (مختصر تاريخ الإباضيّة ٥٢) أنّ هؤلاء جميعَهم كانوا في المِائَةِ الرابعة من الهِجرة والنصفِ الأوّل من المِائَةِ الخامسة. ولعلّ أبا زكريّا يحيى بن الخير الجَنَوْوَنيّ- وهو من جبلِ نفّوسة أيضاً- (راجع بروكلمن، الملحق ١ : ٦٩٢) كان من هؤلاء أو بُعيدَ عصرهم. لقد كان من علمائهم على الحصر، دَرَسَ على سُليمانَ بنِ أبي هارونَ وعَرَفْنا له كتابين طُبِعا فيما بعد: كتابَ الوَضْعِ في الفروع (القاهرة ١٣٠٥ هـ) وكتاب النكاح والطلاق (القاهرة، بلا تاريخ).

وفي هذهِ الحِقْبة أَلّفَ القاضي أبو حنيفةَ النُعمانُ بنُ محمّدِ بنِ منصورٍ (ت ٣٦٣ هـ)

كتابه: «دعائمَ الإسلامِ في الحلال والحرامِ والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله». هذا الكتاب مصدر للفِقه الفاطمي.

أمّا في الأندلس فبرز، في هذا العصر أيضاً، اتّجاهانِ فِقهيّان: المذهبُ الشافعيّ الذي ظلّ قاصراً على نَفَرٍ من الفقهاء ثمّ المذهبُ الظاهريُّ الذي لَقيَ انتشاراً أوسع قليلاً.

يبدو أنّ أوّلَ دُخولِ المذهبِ الشافعي إلى الأندلس كان على يدِ المُحدّثِ قاسمِ بنِ محمّدِ بنِ سيّارٍ القُرطبيِ البيانيّ (ت ٢٧٨) وكان يعمل في التوثيق ويُعْرَفُ بصاحب الوثائق. رَحَلَ قاسمُ بنُ محمّدٍ إلى المشرق في أواسط القرن الثالث للهجرة ولَقِيَ نَفَراً من أصحاب الشافعي ثمّ عاد إلى الأندلس ووضع تآليفَ في هذا المذهب منها كتاب الإيضاح في الردّ على المقلّدين. وقد روى عنه أيضاً أسْلَمُ بنُ عبدِ العزيز بن هاشمٍ (ت ٣١٩) وكان من الأئمّة القُضاةِ، تولّى قَضاء الجَماعة في أيامِ عبد الرحمن الناصر، وثقةً من الرُواة يميل إلى مذهبِ الشافعي. وروى عنه أحمدُ بن خالد بن الجَبّاب (٢٤٦–٣٢٢ هـ).

ومن كِبارِ الأندلسيّين الذين أخذوا بمذهب الشافعيّ بَقِيُّ بنُ مَخْلدٍ (ت ٢٧٢ هـ) وله ترجمة مُفْرَدَةٌ. ويبدو أن الأميرَ محمّدَ بنُ عبدِ الرحمن الأوسط (٢٣٨– ٣٢٢ هـ) قد سكَتَ عن نشاطِه في الدعوة لهذا المذهبِ الذي تلقّاه عنه نَفَرٌ كثيرون. وليس ذلك بمستغربٍ فالأمويّون الذين كانوا قد جاءوا من الشام أصبح المذهب الشافعيّ مذهباً لقومهم وقطرهم. ومن أواخرِ الذين مالوا إلى المذهب الشافعي في عصر الأمراء المتوارثين أبو زكريا يَحْيى بنُ عبدِ العزيز المعروفُ بابن الخرّاز القرطبي (ت ٢٩٥). وقد تصدّرَ للتدريس في القَيْروان وفي قُرطبةَ وتكلّم في الفِقه الشافعي.

كان الأميرُ عبدُ الله بنُ عبدِ الرحمن الناصر فقيهاً شافعياً؛ ويبدو أنّ فُقدانَ أملِه في الخِلافة دفعه إلى الاهتمام بالعلم وإلى شيء من العمل السياسيّ (وله ترجمة مفردة). وكان من أنصار المذهب الشافعيّ أحمدُ بنُ عبْدِ الوهّاب بن يونسَ المعروفُ بآبنِ صلا الله (صلّى اله) المُتوفّى سَنَةَ ٣٦٩ (وقيل ٣٩٨)، كان يأخُذُ بالرأي (بتفسير المدارك

الدينية بالعقل) فآتّهمه فقهاءُ المالكية بأنّه معتزلي. والحَكَمُ المُستنصرُ نفسُه (٣٥٠- ٣٦٦ هـ) كان يستحسنُ المذهبَ الشافعيَّ ويُكْرِمُ أهلَه من الأندلسيّين ومن غيرهم، وقد عيّنَ أبا عمرو يوسفَ بنَ محمّدِ الهَمْدانيّ (ت ٣٨٣) من أهل شَذونةَ- وكان شافعياً- على قضاء قلسانةَ، وعيّن أخاه على الصلاة في شَريشَ.

وفي نطاق المذهب الظاهريّ:

وُلدَ أبو سليمانَ داوودُ بنُ عليّ بن خَلَفٍ الاصفهانيُّ (٢٠١ - ٢٧٠ هـ) في الكوفة. ثمّ إنّه انتقل إلى بَغْدادَ. وكان آعتمادُه في الفقه على الظاهر (يأخُذُ بما يَدُلّ عليه ظاهرُ آياتِ القرآن وأحاديث الرسول من غير لجوءٍ إلى تأويلٍ أو رأيٍ أو قِياسٍ). فعلى هذا يكونُ قد أوجدَ المذهبَ الظاهريَّ وعُرفَ هو بداوودَ الظاهريّ.

ومعَ أنّ المذهبَ الظاهريَّ كان قدِ انتقل إلى الأندلس على يدِ أبي محمّدٍ عبدِ الله آبن محمّدِ بن هِلالٍ (ت ٢٩٢)، فإنّ الرجلَ الذي عَمِلَ عن نشر المذهب والاحتجاج له والدفاع عنه كان مُنذرَ بنَ سعيدٍ البلّوطيَّ (٢٧٢- ٣٥٥ هـ). غيرَ أن هذا المذهبَ ظلّ، في المشرق والمغرب، قاصراً. وفي أيام المنصور بن أبي عامرٍ (٣٦٦- ٣٩٢ هـ) خفّتِ الدعوةُ إلى المذهب الظاهري لأنّ المنصورَ وَقَفَ إلى جانبِ فقهاءِ المذهب المالكيّ خصومِ المذهب الظاهري.

مِنَ المُنتظَرِ أن تكونَ الحضارةُ والثقافة في صِقِلّيةَ جانباً من الحضارةِ والثقافةِ في إفريقيَةَ (القيروان) والمَغْرب. ويبدو أن الحياةَ في دَوْرها الأوّل (في عهد الأغالبة) كانتْ دينيةً في مُجْمَلِها فقدْ أكثرَ المسلمون الأوّلون في صِقِلّية من بناءِ المساجدِ: كانَ الأخُ وأخوه أو الأبُ وابنُه يَبْني كلُّ واحدٍ منهما مسجداً قريباً أحدهُما من الآخَر. ولم يكنْ ذلك دليلاً على آنتشار الإسلام وعلى عُمْق الشعور الديني في الناس فحَسْبُ، بل كانتِ المساجدُ مراكزَ للعِلْمِ وللتعليم أيضاً.

وكذلك يبدو أن الفِقْهَ المالكي كان السائدَ في صِقِلّيةَ، ولا غَرْوَ فإنّ فَتْحَ صِقِلّيةَ بدأ بأسدِ بن الفُرات. وأساسُ العِلْم عند أتْباع مالكٍ اليومَ كِتابُ (المدونة) وقد جَمَعَها أسدُ بن الفرات في «الأسدية».... وكان أسدُ بنُ الفراتِ تلميذاً للإمام

مالكٍ[1] (فلسفة التشريع ط ٤، ص ٥٦).

ومن فُقهاءِ المالكية في صِقِلّيةَ أبو يحيى محمدُ بنُ قادمٍ (ت ٢٤٣) تلميذُ أسدِ بنِ الفراتِ ثمّ عبدُ الله بنُ حَمْدونٍ (أو حَمْدُوَيْهِ) الكَلْبي الصِقِلّيّ (ت ٢٧٠ هـ) ودِعامةُ بنُ محمّدٍ الفقيهُ (ت ٢٩٧ هـ) تلميذُ سَحنونٍ (ت ٢٤٠ هـ). ثمّ هنالك أبو لُقمانَ بنُ يوسفَ الغَسّانيّ (ت ٣١٩ هـ) وقد درّسَ المُدوّنةَ في بَلَرْمَ أرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً. ولا نعلَمُ متى درّسها: أفي عهدِ الأغالبة أم في مَطْلعِ عهدِ العُبَيْديّين؟.

اللغة:

اقتصَرَ الأندلسيّون في الاهتمام باللغةِ والنحو- في هذا العصرِ- على الاهتمام بكُتُبِ المشارقة. وقد أدخلَ كتابَ العين[2] إلى الأندلسِ ثابتُ بنُ عبدِ العزيز السَرَقُسْطيُّ (ربّما في أواخر القرن الثالث[3]) كما ألّف أبو بكرٍ الزُبيديُّ (ت ٣٧٩) مُختصراً لكتاب العين ثمّ كتاباً في الاستدراك (لكلمات جديدة) على كتابِ العين نفسه.

والمعاجمُ في الأندلس بدأتْ مُختصراتٍ[4] لكتب المشارقة، ولم يكن فيها مِنَ الابتكار إلاّ قليلٌ. حتّى كتابُ «نوادر اللغة» للقالي - وقد وَضَعَهُ القالي في الأندلس- يُشبهُ كتابَ «الكامل» للمبرّد[5].

ووضع محمّدُ بن أبانِ بنِ سِيدِ بنِ أبانَ القُرطبيُّ (ت ٣٥٤ هـ)[6] مُعجَماً كبيراً (في نحو مِائَةِ سِفْرٍ) بناه على الأنواع لا على الحروف وسمّاه «كتاب العالم». وذكر آنخل

(١) قاسم بن ثابت بن حزم بن عبد الرحمن بن مطرّف بن سليمان بن يحيى العوفي السرقسطي عالم بالحديث والفقه واللغة والنحو والشعر، رحل هو وأبوه إلى المشرق وحجّا ثمّ عادا إلى الأندلس. وقاسم (٢٥٥- ٣٠٢ هـ) أول من أدخل كتاب العين إلى الأندلس. وبدأ قاسم تأليف كتاب الدلائل في شرح الحديث (بذكر ما أغفله أبو عبيدة وابن قتيبة منْ غريب الحديث). ولكنّه مات قبل أن يتمّه فأتمّه أبوه ثابت (٢١٧- ٣١٣ هـ).

(٢) كتاب العين أول القواميس العربية، وهو للخليل بن أحمد الفراهيدي البصري (١٠٠ - ١٧٠ هـ).

(٣) الزبيدي ٣٠٩.

(٤) راجع تاريخ الفكر الأندلسيّ ١٨٩.

(٥) أبو العبّاس المبرّد البصري (ت ٢٨٦ هـ) من علماء اللغة والنحو.

(٦) تاريخ الفكر الأندلسي ١٨٩؛ بغية الوعاة ٤؛ ابن الفرضي ٣٦٢.

جنثالث بالنثيا (تاريخ الفكر الأندلسيّ ١٨٩) أنّ المؤلّف المشرقي سَعيداً الرباعي (ت ٤١٦) قد نَهَجَ في تأليفه «كتابَ اللآلي» نهجَ ابنِ سيدِ الأندلسيّ. ولكنّ في نِسبةِ الابتكار في هذا النوع من التأليف إلى الأندلسيّين موضعاً للنظر.

إلاّ أنّ الإشارة تحسُنُ هنا إلى كتابِ الزُبيدي «طَبَقات النَحْويّين واللغويّين» (في المشرق والمغرب والأندلس) للدّلالة على آهتمام المغاربة كلِّهِمْ بهذا الموضوع، كما تحسُنُ الإشارةُ إلى أبي عليٍّ القالي. مرّت تَرجمةُ أبي عليٍّ اسماعيلَ بنِ القاسمِ القالي البَغْداديِّ في الجزء الثاني. وسآتي هنا بعددٍ من المُلاحظات البارزةِ التي تتعلّقُ به لأنّه يمثّلُ في الأندلسِ آتّجاهاً مَشْرقيًّا واضحاً زاد في أثرِ المشارقةِ في المغاربةِ.

وُلِدَ أبو عليٍّ القالي سَنَةَ ٢٨٨ (٩٠١ م) في بلدةِ مَنازَكَرْدَ (منازجرد) على الفُرات الشرقيّ قُربَ بُحيرةِ «وانَ» من دِيار بكرٍ (شَماليّ الشام والعراق)، في الجَنوب الشرقيّ من آسيةَ الصُغرى (تركية) اليوم.

طافَ القالي في مِنْطَقَتهِ ثمّ جاء إلى المَوْصل، سَنَةَ ٣٠٣ هـ. بعدَئذٍ دخلَ بَغْدادَ سَنَةَ ٣٠٥ وأقامَ فيها إلى سَنَةَ ٣٢٨ وكتب فيها الحديث. ثمّ إنّه خرج من بَغْدادَ قاصداً الأندلسَ. وكان دُخولُه إلى قُرْطُبَةَ في السابع والعشرين من سَنَةِ ٣٣٠ (١٧/ ٥/ ٩٤٢ م). وكانت وَفاةُ القالي في قُرطبةَ في أوائل ربيعِ الآخِرِ أو جُمادى الأُولى من سَنَةِ ٣٥٦ (في أواخرِ الشتاءِ من عام ٩٦٦ م).

أخذ القالي الحديثَ عن جماعةٍ منهم القاضي يوسفُ بنُ يعقوبَ البَصْريُّ (٢٠٨- ٢٩٧ هـ) وأبو القاسم عبدُ الله بنُ محمّدٍ البَغَوِيّ البَغْداديّ (٢١٣- ٣١٧ هـ) المعروف بآبن بنتِ مَنيعٍ وكان مُحدّثَ العراقِ في عصره. ومنهم الحُسينُ بنُ إسماعيلَ المَحامليُّ البَغْدادي (٢٣٥- ٣٣٠ هـ). غيرَ أنّ شيوخَه في اللغة والنحو والأدب كانوا أوسَعَ شُهرةً وأوضحَ نسباً. كان منهم: أبو اسحاقَ إبراهيمُ بنُ السَرِيّ الزجّاجُ (٢٤١- ٣١١ هـ) وأبو الحسنِ عليُّ بنُ سُليمانَ المعروفُ بالأخفشِ الأصغر (ت ٣١٥) وأبو بكرٍ محمّدُ بنُ السَرِيّ بن السرّاج (ت ٣١٦) وأبو بكرٍ محمّدُ بنُ الحسنِ بنِ دُريدٍ (٢٢٣- ٣٢١ هـ) وأحمدُ بنُ عبدِ الله بن مُسلمِ بنِ قُتيبةَ الدِينَوَرِيُّ (ت ٣٢٢).

بهذا يكونُ القالي قد نقلَ إلى الأندلسِ زُبْدَةَ علمِ اللُّغة وعلم النحو.

ولمّا وَفَدَ القالي على الأندلس حَمَلَ مَعَه عدداً كبيراً من الكُتُب وأقْرأها بلا ريب، فكان لها تأثيرٌ كبيرٌ في اتّجاهِ الأندلسيّين في الدراسةِ والثقافة. كانت هذه الكتب لِجماعةٍ من أعلام المَشارقة منهم[1]: الفرّاءُ (ت ٢٠٧) والمازنيُّ (ت ٢٤٩) والمبرِّدُ (ت ٢٨٦) وثَعلبٌ (ت ٢٩١) والأخفشُ الأصغرُ (ت ٣١٥) وابنُ دريدٍ (ت ٣٢١) وابن قُتيبةَ الدِينَوَرِيُّ (ت ٣٢٢) ونِفطَويْهِ (ت ٣٢٣) وابن أبي الأزهر (ت ٣٢٥) وابنُ الأنباري (ت ٣٢٨) وابن دُرُسْتَوَيْهِ (ت ٣٤٧).

وعُنِي القالي بإقراءِ شعرِ نَفَرٍ من الشعراء الجاهليّين والإسلاميّين والمُحْدَثين (العبّاسيّين). من هؤلاء: طَرَفَةُ بنُ العبد والنابغةُ الذُبياني وعُروةُ بنُ الوردِ وحاتمٌ الطائيُّ وزُهيرُ بنُ أبي سُلمى وعَدِيّ بنُ زيدٍ والأعشى الكبير ثمّ الخَنْساء والحُطيئة وحَسّانُ ابنُ ثابتٍ وجميل بُثَيْنَةَ وعُمَرُ بن أبي رَبيعةَ وذو الرُمّة والطِرِمّاحُ بن حكيمٍ ثمّ أبو نُواسٍ.

الجغرافية والتاريخ

وفي الجُغرافية والتاريخ ألّف المغاربة الكُتُبَ تقليداً للمشارقة. ألّف أبو عبدِ اللهِ محمّدُ بنُ يوسفَ التاريخيُّ الورّاقُ (٢٩١ - ٣٦٢ هـ) للحكَمِ المستنصرِ كتاباً ضخماً «مسالك إفريقِيَةَ وممالكها» وألّف في أخبارِ ملوكِها وحروبها كتباً جَمّةً، كما ألّف كتباً في أخبارِ عددٍ من المُدن مثل تِيهرتَ ووَهرانَ وسِجِلماسةَ والبصرةِ. ومحمّدُ بنُ يوسفَ هذا

---

(١) راجع «فهرسة... ابن أبي خير الأشبيلي» (ت ٥٧٥ هـ)، ص ٣٩٨ وما بعد. وللدكتور محسن جمال الدين دراسة هي: «أدباء بغداديّون في الأندلس» (بغداد - منشورات مكتبة النهضة ١٩٦٢ - ١٩٦٣ م)، بذل فيها جهداً مشكوراً لإحصاء هذه الكتب وتنسيقها، ولكن هذا الإحصاء والتنسيق لا يزالان بحاجة إلى إعادة نظر. وفضله أنّه رأى أثر هذه الكتب في حركة العلم في الأندلس. ولأبي عليّ القالي ترجمة نافعة في «طبقات النحويّين واللغويّين» (ص ٢٠٢ - ٢٠٥: أبو عليّ البغداديّ) لتلميذه أبي بكر محمّد بن الحسن الزبيدي (ت ٣٧٩ هـ). ولقد عدّه تلميذه الزبيدي (بضم الزاي) مع المشارقة.

أندلسيّ الأصل نشأ في القيروانَ ثمّ هاجر إلى قُرطبة[1].

وقد كانتِ الغايةُ من تأليفِ كتب الجغرافية معرفةَ الطُرُقِ إلى الحجّ خاصّةً ومعرفةَ الطرق بين بلادِ العالم الإسلاميّ. ولقد ألّف ابن خُرداذبه البغدادي (ت نحو ٢٨٠ هـ) كتاب المسالك والممالك، قبل الوراقِ بنحو قَرْنٍ من الزمن.

واشتهر في التأليف في التاريخ ثلاثةُ أجيالٍ من آلِ الرازيّ وأصلُهم من الرَّيّ في فارسَ بالمشرق: محمّدُ بنُ موسى (ت ٢٧٣ هـ) وابنُه أحمدُ (٢٧٤ - ٣٢٤ هـ) ثمّ حفيدُه عيسى (ولعلّ وفاتَه كانتْ في الثُلُثِ الأخيرِ من القرن الهِجري الرابع).

أمّا محمّد فيُنْسَبُ إليه كتابُ الـرايـات، وقد ضاعَ إلاّ مقاطعَ يسيرةً مُفرّقةً في عددٍ من المصادر. وأمّا ابنُه أحمدُ فَهُوَ مؤرّخُ الأنـدلـسِ ألّفَ أربعةَ كُتُبٍ ضاعتْ أيضاً. وأحَدُ كتبهِ «صِفة قُرطُبة وخِطَطُها ومنازلُ الأعيانِ فيها» يُشبه كتابَ «تاريخِ بغداد» لأحمدَ بنِ أبي طاهـرٍ طيفورِ الخُراسانيّ (٢٠٤ - ٢٨٠ هـ). ولعِيسى أيضاً كتابان: تاريخُ الأندلس ثم حُجّابُ خلفاءِ الأندلس، وقد ضاعا.

ومَعَ أنّ هذه الكُتُبَ كلَّها قد ضاعتْ، فإنّ أسماءها وما بَقِيَ من بَعْضِها (مُفَرَّقاً في المصادر) يَدُلُّ على اتّجاه أصحابِها في تأليفِ التاريخ.

ومن الكُتُبِ المُهمّةِ في التاريخ كتابٌ عُنوانُه «أخبارٌ مجموعةٌ» يبدأ بفتح الأندلس وينتهي بعَدَدٍ من الحوادث في أيامِ عبدِ الرحمنِ الناصرِ (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ). من أجل ذلك يميلُ نفرٌ من الدارسين إلى الاعتقاد بأنّ الكتابَ من هذا العصر. ولكنّ منهم من يرى أنّه أحدثُ من ذلك عهداً. وبما أن الكتاب لا يظهَرُ عليهِ اسمُ مؤلّفٍ فقد ظنّ نَفَرٌ آخرون من الدارسين أنّه من تأليفِ جماعةٍ من المؤرّخين المُتوالين في الزمن[2]. وهنالك كتابٌ صغيرٌ هو «تاريخُ افتتاحِ الأندلس» لابن القوطيّة (ت ٣٦٧ هـ)، وهو يَسْرُدُ الأخبارَ من لَدُن الفَتْحِ إلى آخرِ أيامِ الأميرِ عبدِ الله بن محمّدٍ (ت ٣٠٠) على غايةٍ من الوَجازةِ مَعَ شيءٍ من الرَشْوِ الملموحِ بالقُوط، لأنّ جَدّةَ ابن القوطية

---

(١) جذوة المقتبس ٩٠؛ بغية الملتمس ١٣١؛ بروكلمن، الملحق ١: ٢٣٣.

كانتْ سارةَ حفيدةَ غَيْطَشَةَ الذي وَقَفَ يومَ الفتح إلى جانب المسلمين ٱنتقاماً من لُذَريقَ الذي كان قدِ ٱنتزع منه المُلك.

وكان عَريبُ القرطبي (ت ٣٦٩) قدِ اختصر بعضَ « تاريخ الرُسُلِ والملوكِ » لأبي جعفرٍ محمّدِ بنِ جريرٍ الطَبَريّ (٢٢٤ - ٣١٠ هـ) ثمّ أضاف إليه أشياءَ من تاريخ الأندلس. ثم هنالك كتابٌ كبيرٌ في التاريخ لأحمدَ بنِ عبدِ الملكِ بن شُهيدٍ (ت ٣٩٢) مَبْنِيٌّ على السِنينَ، وهُوَ النَهْجُ الذي كان الطبريّ قدِ اتّبعه.

الرياضيات والطبيعيات

تأخّرَ اتّساعُ النشاطِ العِلمي في مَيْدانَيِ الرياضيّاتِ والطبيعيّات في الأندلس، ثمّ ظلّ الأندلسيّون خاصّةً يُشاركون في علومٍ كثيرةٍ من الحِساب والهَندسة والفلك إلى جانب الطِبّ والفِقه والفلسفة أحياناً. واقتصر نشاطُ أهلِ المغربِ في الأكثر على الطِبّ. وإذا نحن قارنّا جهودَ المغاربة والأندلسيّين - حتّى أواخرِ هذا العصرِ الذي نُجمل خصائصَه العامّةَ هنا - في هذه العلوم بجهود المشارقة لم نَجِدْ للمغاربةِ والأندلسيّين براعةً تُوجِبُ عَدَّهم إلى جانبِ العُلماء المشارقة[1].

لعلّ أولَ مَنْ يستحقُّ الذِكْرَ في هذا الباب، ومن هذه البابةِ، ادريسُ بن ميتم (؟) الإشبيلي القُرطبي (ولعلّ وفاتَه كانت نحو ٣٦٠ هـ)، كانَ نحويّاً بصيراً بحدِّ المَنْطِق حاذقاً بعلم الحساب والتنجيم شاعراً مطبوعاً ومن عُلماءِ الكلام (الزبيدي ٣٣٢). ولقد كان على شعرِهِ طَلاوةٌ. فمن شعره:

أرحِ النفسَ بالدموعِ فَفِيهـــــا ... من جَوَى الشَوْقِ راحةٌ للنفوسِ[2].

وقريـــضٌ يَغـضّ من زَهَرِ الرَوْ ... ضِ ويُزْري على حُلِيٌّ العروس[3]؛

ظـلّ إدْريسُ شاكراً فيـه نُعمـى ... أُسْدِيَـــتْ آنِفـــاً إلى إدْريسِ!

---

(١) راجع تاريخ العلوم عند العرب ١٣١ وما بعد.

(٢) الجوى: اشتداد الحزن أو المرض من الحبّ.

(٣) أزرى: عاب. أزرى على حليّ العروس: أظهر نقص قيمتها بالإضافة إليه نفسه

ومثلُ إدريسَ هذا محمّدُ بنُ عَبْدُونِ الجَبَليّ العُذريّ كانت له رِحْلة إلى المشرق (٣٤٧ - ٣٦٠ هـ) ومُشاركةٌ في عددٍ من العلوم (طبقات الأطباء ٢ : ٤٦). ولكنْ لا بدَّ مِنْ وَقفةٍ قصيرةٍ عند مَسْلمةَ بنِ أحمدَ المِجريطي (ت ٣٩٨ = ١٠٠٧ م) إمامِ الرياضيّين في الأندلس في عصرِه، دَخَلَتِ العلومُ الرياضيّةُ إلى الأندلس على يديهِ وكَثُرَ تلاميذُه فيها. عُني مسلمة بالفلك وبزيج[١] الخوارزمي (ت ٢٣٢) خاصّة وحوّله من السنينَ الفارسيةِ (الشمسية) إلى السنينَ العربية (الهجرية القمرية) ثمّ اختصره وأصلحه. وله كتابٌ اختصر فيه تعديلَ الكواكب من زيج البَتّاني (ت ٣١٧)[٢].

ثمّ هنالك أبو القاسمِ أصبغُ[٣] بنُ محمّدِ بنِ السمح الغَرْناطيّ (٣٦٨ - ٤٢٦ هـ) له من الكتب: المُدخِلُ إلى علم الهندسة (في تفسير كتاب الأركان لأُقْليدُس) - كتاب الهندسة الكبير (؟ معالجة الأشكال الهندسية ذوات الخطوط المستقيمة والمقوّسة والمنحنية)[٤] - طبيعة العدد (خواصّ الأعداد: المُتواليات)[٥] - ثمار العدد (في المعاملات: الحساب التجاريّ) - التعريف بالأُصطرلاب - العمل بالأُصطرلاب - زِيجٌ على مذهب السِند هِند[٦] يتألف من قسمين: أحدهما الجداول (وفيها مواقع النجوم وحركاتها) والثاني منها رسائل الجداول (شرح لها؟).

---

(١) الزيج: جدول فيه مواقع النجوم ومطالعها ومغاربها. والخوارزمي أكبر علماء الرياضيّات في الإسلام وموجد علم الجبر.

(٢) البتّاني من كبار علماء الفلك.

(٣) طبقات الأطباء ٢ : ٣٩؛ بروكلمن ١ : ٦٢٣، الملحق ٨٦١.

(٤) المقوّسة (التي هي قوس): جزء من دائرة (يقال للقوس اليوم: المنحنية). والمنحنية هنا هي التي يقال لها اليوم: الخطّ المنكسر.

(٥) المتواليات: سلاسل أعداد على نسق مخصوص. فالسلسلة الحسابية الطبيعية (تبدأ بالواحد) نحو: ١، ٢، ٣، ٤، ٥ ... الخ أو بفرق معلوم هو اثنين مثلاً نحو ١، ٢، ٤، ٦، ٨ الخ أو ١، ٣، ٥، ٧، الخ، أو بفرق خمسة نحو ١، ٥، ١٠، ١٥، ٢٠ الخ. هذه كلها تسمّى متواليات حسابية. أمّا المتوالية الهندسية فتكون بأن يكون كلّ حدّ (عدد) فيها ضعف الذي قبله، نحو: ١، ٢، ٤، ٨، ١٦، ٣٢ الخ أو ثلاثة أضعافه ١، ٣، ٩، ٢٧، ٨١ الخ.

(٦) الزيج جداول فيها تعيين مواقع النجوم وحركاتها (على مدار السنة) أصله هندي. وهو يتناول الفلك والانساب (المثلّثات) في الأكثر.

وقريب من أصبغَ هذا أبو القاسم أحمدُ بنُ محمّدِ بن عُمَرَ بنِ الصفّار[1] من تلاميذ مَسْلمةَ بن أحمدَ المرحيطي (أو المجريطي أيضاً)[2] كان بارعاً في علم العدد والهندسة والنجوم، وقد تصدّر في قُرطبةَ لتعليم ذلك كلّه. وله زيجٌ مختصرٌ على مذهب السند هند وكتاب العمل بالأصطرلاب حَسَنُ العبارةِ قريبُ المأخذ. وفي صدر الفِتنة انتقل من قرطبة إلى دانية ثمّ تُوفيّ فيها سنة ٤٢٦. وكان لابن الصفّار أخٌ يسمّى محمّداً مشهورٌ بعمل الأصطرلاب لم يكنْ قبلَه في الأندلس أبرعُ منه في ذلك.

ولا بدَّ مِنْ ذِكرِ أبي الحسن عليّ بن أبي الرِجالِ[3] الشَيْباني المَغْربي القيْرواني من أهل مدينة فاسَ، وقد عاش مدّة في بَلاط المُعزّ بن باديسَ الصِنهاجي (٤٠٦ - ٤٥٤ هـ) في القيروان. ويبدو أنّه كانتْ له رِحلةٌ إلى المشرق وأنّه شارك في الأرصاد[4] التي قام بها أبو سهل وَيْجامُ بنُ رُسْتَمَ القوهي (أو الكوهي) في بَغْدادَ سَنَةَ ٣٧٨ هـ. ولابن أبي الرجال تآليفُ أشهرُها كتاب البارع في أحكام النجوم (في التنجيم) وقد كان له أثرٌ كبيرٌ في أوروبّة خاصّة فقد نُقِلَ إلى العِبرية وطُبِعَ بها مرّتين (البندقية في إيطالية ١٤٨٥ م وباسل في سويسرة ١٥٥١ م) كما نُقِلَ إلى اللاتينية وطُبع بها خمسَ مرّاتٍ، وإلى الإسبانية والبُرتغالية. وكانتْ وفاةُ ابنِ أبي الرجال في سَنَةِ ٤٣٢ هـ (١٠٤٠ م) أو بعدَ ذلك بقليلٍ.

عُنِيَ أهلُ المغرب وأهلُ الأندلس بالطبّ وبالنبات لصِلة النباتِ بالمُداواة.

في أيامِ الأميرِ محمّد بن عبد الرحمن (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) وَرَدَ من المشرق طبيبٌ يُعْرَفُ بالحَرّانيّ وكانت معهُ مُجَرَّباتٌ في الطبّ منها مَعجونٌ لوجع البَطْنِ كان يبيعُ

---

(١) طبقات الأطباء ٢: ٤٠.

(٢) المجريطي: نسبة إلى مجريط (مدريد: عاصمة اسبانية اليوم) وفي الصلة لابن بشكوال (ص ٥٨٩): المرجيطي (بتقديم الراء على الجيم). وفي طبقات الأطباء (٢: ٣٩، ٤٠، ٤٥): المرحيطي (بالحاء المهملة)، ولعله خطأ مطبعي. راجع أيضاً بروكلمن: ١: ٢٥٦، الملحق ١: ٤٠١.

(٣) راجع تاريخ الفلك عند العرب تأليف نالينو ١٩٥؛ بروكلمن ١: ٢٥٦، الملحق ١: ٤٠١؛ تاريخ العلوم عند العرب تأليف فرّوخ ١٧٩.

(٤) الأرصاد جمع رصد (بفتح ففتح)- مراقبة حركات النجوم لتعيين مطالعها ومغاربها وسيرها.

الشَّرْبَةَ منه بخمسينَ ديناراً، وكان بَيْعُه رائجاً. فحَسَدَه جماعةٌ من الأطباء وجاء إليه نَفَرٌ منهم فيهم حَمدينُ بنُ أبانٍ وجوادٌ الطبيبُ النصراني واشتَرَوْا منه شَرْبَةً بخمسين ديناراً وجعلوا يذوقونَها ويشَمّونها. ثمّ رَجَعوا إليه فقالوا: قد عَلمنا أن في المعجون كذا وكذا من العقاقير. فقال لهم: «أصبتُمُ العقاقيرَ وأخطأتم مقاديرَها» ثمّ أشْرَكَهُمْ في تِجارتِه لئلاّ ينفردوا بصُنْع المعجون. (طبقات الأطبّاء ٢: ٤٢، راجع ٤١).

ثمّ هنالك أحمدُ وعُمَرُ ابنا يونسَ بنِ أحمدَ الحرّانيّ- ولَعَلَّهما ابنا الحرّاني الآنفِ الذِكْرِ- زارا المشرقَ (٣٣٠- ٣٥١ هـ) ثمّ عادا واتّصلا بالحَكَمِ المُسْتنصرِ (٣٥٠- ٣٦٦ هـ). ولكنّ عُمَرَ تُوُفِّيَ وشيكاً وبَقِيَ أحمدُ مُنْقَطِعاً إلى الحكم يُطَبِّبُهُ ويطبّبُ أهلَ بيته. وكان أحمدُ بارعاً جدّاً في الأدوية المفردة والأدوية المُركّبة، وبارعاً في مُداواة أمراض العيون. ويبدو أنّه عاشَ إلى أواخرِ الدولة الأمويّة. ولعَريبِ بنِ سَعْدٍ القُرطبيِّ (ت ٣٧٠ هـ) كتاب «خَلْق الجَنين وتدبيرُ الحَبالى والمولود».

ثمّ يأتي في هذا العصر أبو داوودَ سُليمانُ بنُ حسّانِ بن جُلْجُلٍ (ت ٣٩٩) وكان طبيباً مختصّاً بهشامٍ المُؤيَّد (٣٦٦- ٣٩٩ هـ، في المرّة الأولى) له من الكتب: تاريخ (أو طبقات) الأطبّاء والفلاسفة، ويسمّى أيضاً: تاريخ الحكماء (ألّفه سنة ٣٧٧)- أدوية الترياق- كتاب تفسير الأدوية المُفردة (الواردة في كِتاب «الأدوية المفردة» تأليف ذيوسقوريدس العين زربيّ اليوناني من أحياء القرن الأوّل بعد الميلاد)، ولعلّه كتاب الحشائش لابن جلجل أيضاً.

ومن كبار الأطبّاءِ ابنُ الجزّارِ القيروانيُّ (ت ٤٠٠ هـ)، وقد كان أبوه وعمُّه طبيبَيْنِ. كان ابنُ الجزّار طبيباً بارعاً ومؤلّفاً مُكثراً في موضوعاتٍ مختلفة. فمن كُتُبه في الطِبّ: زادُ المسافر وقوتُ الحاضِر (طعام الإنسان في السفر والحَضَر)، أو هما كتابانِ فيكون «زادُ المسافر» (في علاج الأمراض)- الاعتماد (في الأدوية المفردة)- البُغية (في الأدوية المركّبة)- العُدّة لطول المدّة (كتاب كبير في الطّب)- قوت المقيم (عشرين مجلّداً)- طِبّ الفقراء- البُلغة (في حفظ الصحّة)- كتاب في المَعِدَةِ وأمراضِها ومداواتها- كتاب في الفَرْقِ بينَ العِلل التي تَشْتَبِهُ أسْبابُها وتختلف أعراضُها

(عَلاماتها)- مُجرَّباتٌ في الطِبّ.

وكان ابنُ الجزّارِ يُنَزِّهُ نفسَه عن أن يتناولَ أجراً من المريضِ أخذاً بيدِهِ. فجَعَلَ على باب داره سَقيفةً وأقعدَ فيها غُلاماً له اسمُه رشيقٌ ووضَعَ بين يَدَيْهِ جميعَ الأدوية. فكان إذا فحصَ مريضاً أرسله إلى رشيقٍ ليأخذَ منه الدواءَ ويدفع إليه المال. فكان بذلك قد أسّس نِظامِ الصَيْدَلةِ بالفصل بينَ الطبيب والصيدلاني.

ومن الذين درسوا على ابن الجزّارِ في القيروان عُمَرُ بنُ حَفْص بن برتقٍ أخذَ عن ابن الجزّار «كتاب زاد المسافر» ثمّ أدخله إلى الأندلس.

وأشهرُ الأطبّاء في الأندلس أبو القاسم خَلَفُ بنُ عبّاسٍ الزهْراويُّ- نِسبةٌ إلى الزهراءِ قُرْبَ قُرطبةَ حيثُ وُلِدَ- بَرَعَ في الجِراحة خاصّة. له كتاب «التصريف لِمَنْ عَجَزَ عن التأليف». ويذكر الزهراويُّ تعقيمَ الجروح بالكيّ وبالقوابض (الموادّ المرّة والحِرِّيفة) ويتكلّم على جراحة العينِ والأُذُنِ والأسنان والفَتْقِ وعلى تفتيت الحصى في المَثانة وعلى التوليد وعلى ربط الشِريان لمنع النزيف. وهو يؤكّد حاجةَ المشتغلين بالطِبّ إلى تشريحِ الأجسامِ مَيْتَةً وحَيّةً. وكانت وفاته سَنَةَ ٤٠٤ (١٠١٣- ١٠١٤ م).

الفلسفة

بدأ التفكيرُ الفلسفيُّ في الأندلس- مستقلاً عنِ الكَلام في المذاهبِ الدينية- مَعَ احتكاك المغاربة في أثناءِ رِحْلاتهم إلى المشرق بأهل الرأي الفلسفي وأهل الاعتزال (النظر العقليّ والبحث المنطقي في العقائد). وأوّلُ من تحسُنُ الإشارةُ إليه في هذا الباب يَحيْى بن يحيى المعروفُ بابن السَمينة (ت ٣١٥)، وكان بصيراً بالحِساب والنجوم والطِبّ والنحو واللغة والفِقه والحديث والأخبار (التاريخ). وكانت له رحلة إلى المشرق رَجَعَ منها وقد تعلّق بأشياءَ من الجَدَل الفلسفي وأصبح مُعْتزليّ المذهب (طبقات الأطبّاء ٢ : ٣٩).

وأوّل الذين اتّجهوا اتّجاهاً فلسفيّاً على الحَصْر في الأندلس محمّدُ بنُ عبدِ الله بن مَسَرَّةَ (٢٦٩- ٣١٩ هـ) عَرَفَ أشياءَ من الفلسفة اليونانية ومال إلى الاعتزال وإلى

التأويلِ الباطني في الدين. من أجل ذلك كان يَكتُم أمرَهُ أشدَّ الكِتمان. ثمّ اضطُرّ إلى أن يخرُجَ من قرطبةَ فانتقل إلى القيروان. ولكنّه عاد بعدَ ذلك إلى قرطبةَ ولَزِمَ فيها بيتاً نائياً عن الناس. وكانت آراءُ ابنِ مسرّة خليطاً من الآراء اليونانيةِ المتأخّرةِ وأكثرها يدورُ حولَ تخيّلِ هذا العالمِ ووجودهِ من الاعتقاد بمادّةٍ روحانيةٍ تتألّف منها الكائنات (المادّية) في مقابلِ العالَمِ العقليّ الذي يتألفُ من الجواهر الخمسة. وفي فلسفته أشياءُ كثيرةٌ وثنيّةٌ.

وكَثُرَ أتباعُ ابن مسّرةَ وخصوصاً في أيام الحَكَم المستنصر لِمَا كان من تشجيع الحكمِ للعلم ولتساهله في آنتشار الآراء المختلفة. فلمّا تُوفّي الحَكَمُ المستنصر، سَنَةَ ٣٦٦ (٩٧٦ م) حدثتْ حملةٌ على آراءِ ابن مسرّةَ وعلى اتباعهِ ثمّ آشتدّت هذه الحَمْلة في أيام المنصور بنِ أبي عامرٍ (ت ٣٩٢ هـ).

مظاهر الأدب وخصائصه وأعلامه

في عصر الخلافة

كان أُمراءُ بني أُميّةَ ينظُرون إلى دولتِهمْ في قُرطبةَ بالأندَلُس على أنّها آستمرارٌ لِدولتِهم في دِمَشْقَ بالشام. فهذا النظرُ القوميُّ العصَبي مُضافاً إلى الجامع الدينيّ الروحيّ جَعَلَ أهلَ الأندَلُسِ كلَّهم يَرَوْنَ في المشرق مَثَلاً أعلى وقُدوةً في الحياة الاجتماعية وفي الفِقه والعلم والتفكير والأدب. من أجل هذا كلّهِ لا يَسْتَغْرِبَنَّ أحدٌ إذا لم يختلفِ الأدبُ الأندلسيُّ في الشعر والنثر من الأدب المشرقي- في خصائصهِ المعنويةِ وخصائصه اللفظية- اختلافاً ظاهراً. وممّا يُروى في هذه الحالِ أنّه لمّا وَصَلَ كتاب « العِقد » لابنِ عبدِ ربّهِ الأندلسيّ (ت ٣٢٨ هـ) إلى المشرقِ وآطّلَعَ عليه الصاحبُ بنُ عبّادٍ (٣٢٦- ٣٨٥ هـ) قال: « هذه بِضاعتُنا رُدَّتْ إلَيْنا! » فإنّ كتابَ « العِقد » هذا كتابٌ مشرقيٌّ في اتّجاهه وموضوعاته وأسلوبهِ وروحهِ ومُنْتَخَباته. ولولا أن فيه فصلاً يتعلّق بأمراءِ الأمويّين في قُرطبةَ لَمَا أدْرَكَ أحدٌ أنّ للكتاب صِلةً بالأندلس.

أوّلُ ما يَلْفِتُ النظرَ في الشعر الأندلسيّ أن الجانبَ الفِكريّ فيه ضعيفٌ بالإضافةِ إلى ما نَعْرِفُه من الشعر المشرقي في طوره الجاهليّ أيضاً. إنّ التَنَوُّعَ والاتّساعَ والعُمْقَ التي نراها في شعر المشارقة لا نراها في شعر المغاربة، فليس في شعراء المغرب والأندلس جبابرةُ فكرٍ وعلمٍ من أمثال آمْرِئِ القيس وطَرَفَةَ بن العبدِ والفَرَزْدَق وبَشّار بن بُرْدٍ وأبي نواسٍ وأبي تمّامٍ والمُتنبّي والمَعرّيّ. لقد كان من مُثُلِهِمُ العُليا أن يُقال في ابن هاني الأندلسيِ «متنبي الغرب» وفي ابنِ زيدونِ «بُحْترِيُّ المَغْرب»!

النتاج الأدبي

إنّ إعجابَ الأندلُسِيّين والمغاربةِ بالمشارقةِ- في السياسةِ والاجتماع- قد بَرَزَ أيضاً في النِتاجِ الأدبيّ وفي خصائصهِ المعنويّة واللفظية. وإذا كانتِ الأغراضُ الأدبيةُ قد عَرَفَتْ بعضَ الاختلافِ والابتكار، لاختلافِ البيئةِ العامّةِ وآختلافِ عددٍ من أحوالِ المُجْتَمَعِ في الغربِ الإسلاميّ منها في الشرقِ الإسلاميّ- قليلاً أو كثيراً- فإنّ الخصائصَ اللفظية لم تختلفْ في العصرِ الذي نُعالِجُه اختلافاً ظاهراً إلاّ في التركيب اللُّغَويّ الذي خَسِرَ شيئاً من مَتانتهِ.

في الشعر:

أمّا فُنونُ الشعرِ فقد بَقِيَتِ الفنونَ المَشْرقيةَ: المدحَ والفخرَ والحماسةَ والرِثاء والهِجاء والوصفَ والغزلَ والنسيب والعِتاب والأدبَ (الحكمة). غيرَ أنّ الأغراضَ (الموضوعاتِ الجزئية) في عددٍ من هذه الفنونِ قد عَرَفَتْ أشياءَ جديدةً، وخصوصاً في الوصفِ الذي آتّسعَ في الأندلُس خاصّةً آتّساعاً عظيماً، وعلى الأخصّ وَصْفَ المعاركِ البحرية ثمّ وصفَ الرياض من عالم الطبيعةِ ووَصْفَ المُنْشآتِ من عالم العُمْران (كوصفِ المُدن ورثائها مَثَلاً). ولقد رَقّتْ في هذه الفنونِ كلِّها عاطفةُ الشاعر وآتّسع خيالُه. ولكن الشعرَ عامّةً ظلّ- من حيثُ المعاني المُبْتَكَرَةُ والمداركُ البعيدةُ الغَوْرِ- أدنى طَبَقَةً من الشعرِ المشرقيّ. ثمّ إنّ المداركَ الفلسفيةَ الصحيحةَ لم تَجِدْ طريقَها إلى

الشعر الأندلُسيّ، لأنّ دراسةَ الفلسفةِ نفسَها قد تأخّرتْ في الغربِ الإسلاميّ عنها في الشرق الإسلاميّ، ولأنّ سيادةَ مذهبٍ دينيّ واحدٍ (هو المذهبُ المالكيّ) لم يُشَجِّعْ على إبداء الآراءِ المختلفةِ كما كان الشأنُ في المشرق مَعَ تَعَدُّدِ المذاهبِ والأديان والفلسفات. ولا شكّ في أنّنا نَجدُ في الشعرِ المَغربيّ عامّةً، في بابِ الأدبِ (الحكمة)، خَطَراتٍ من الفِكْر المُثَقَّفِ قد تبلُغُ إلى ما عندَ ابنِ الروميّ وعند المُتَنبيّ أحياناً. ولكنّنا لا نَجِدُها تبلُغُ- من حيثُ القصدُ والمَنْطِقُ والشُمول والجرأة الصحيحة- إلى ما نَجِدُ عند أبي العَلاءِ المَعرّيّ.

غيرَ أنّه كانَ لانتشارِ المذهبِ الفاطميّ (وهو مذهبٌ باطنيّ حُلوليّ)[1] في المَغْرِب- ولَدى نَفَرٍ قليلينَ مِن الأدباء المُتَكسّبينَ- أثرٌ في تقبُّلِ عددٍ من المداركِ الخارجةِ عنِ التوحيد. من أشْهرِ هؤلاءِ الأدباءِ الشاعرُ ابنُ هانِي الأندلسيّ (ت ٣٦٢) فقد قال في مَدْحِ المُعِزِّ لدين الله الفاطميّ (٣٤١- ٣٦٥ هـ):

ما شِئْتَ، لا ما شاءتِ الأقدارُ! فَاحْكُمْ، فأنتَ الواحدُ القهّارُ!

وسوى ذلك مِمّا تَراه في تَرْجَمَتِهِ.

ولا شكَّ في أنّ الوصفَ- وَصْفَ الطبيعة- كان أبْهى مظاهِرِ الشعرِ الأندلسيّ، لِجَمالِ البِيئة الطبيعيّة في الأندلُسِ ولتَنَوُّعِ مظاهِرِها. ومَعَ الإيقانِ بأنّ الأندلسيّين كانوا بارعينَ جِدّاً في وصفِ الجِنانِ والأنهار والأشجار والأزهار وفي وصفِ السماء وما فيها، فإنّهم لم يَكْسِفوا في ذلك نورَ ابن الروميّ (ت ٢٨٣) وابن المُعْتَزّ (ت ٢٩٦) والصَّنَوْبَريّ (ت ٣٣٤) في ذلك الفنِّ ولا في أغراضِهِ. بَيْدَ أنّ هذا كُلَّهُ لا يمنَعُ الدارسَ من أنْ يكونَ مُنْصِفاً فيرى للأندلُسيّين في وصفِ الطبيعة- وفي غيرِ وصفِ الطبيعة- خَيالاً جميلاً ولَفَتاتٍ كثيرةً بارعةً. غيرَ أنّ تزاحُمَ الصُّوَرِ أحْياناً ثمّ مُحاولةَ الإغراب أحياناً أُخرى كانا يُفْقِدان تلك الأخيلةَ كثيراً من وَضاءتِها. هذا الوصفُ

---

(١) الفاطمي، الباطنيّ (انظر، فوق، ص ١٧٠). مذهب الحلول: الاعتقاد بأن الله يمكن أن يتمثّل بالبشر، يحل في جسم بشريّ.

البارعُ لمظاهرِ الطبيعةِ كان في الأندلس - مُنْذُ هذا الدور الباكر- أحدَ مُقوِّماتِ الأدب الأندلسيّ.

ولقد رَأَيْنا في صورةِ العصرِ السابقِ (عصرِ الأمراء المُتوارثين) آتّكاءَ يحيى الغَزالِ (ت ٢٥٠) في الخمريّات على أبي نُواسٍ. ويحسُنُ أنْ نُشيرَ هُنا إلى أنّ ابنَ درّاجٍ القَسْطَلّيَّ (ت ٤٢١)- بعدَ الغَزالِ بجيلَيْنِ مِنَ الدهرِ أو يَزيدانِ[1]- قدِ آتّكأَ في إحدى مَدائحه (والغايةُ هنا ضربُ مَثَلٍ فَقَطْ) على قصيدةٍ بعينِها لأبي نُواسٍ نفسِه، في الفنِّ والغَرَض والنَفَس والبَحْر والقافية. ولم يَنْسَ ابنُ درّاجٍ أن يُودِّعَ امرأتَه- قبلَ أنْ يذهَبَ إلى الممدوحِ- وأن يُمنِّيَهَا عَطاءً جَزيلاً، كما فعلَ أبو نُواسٍ تَماماً. وهذا يتّضح بأدْنى نَظَرٍ مِن مُقارنةِ قصيدةِ ابنِ درّاجٍ «دعي عَزَماتِ المُسْتَضامِ تَسيرُ» بقصيدةِ أبي نُواسٍ «أجارةَ بَيْتَيْنا، أبوكِ غَيورُ». وفي مختاراتِ ابنِ درّاجٍ جانبٌ من قصيدته المذكورة.

ثمّ بالَغَ المغاربةُ والأندلسيّون في مُحاكاة المشارقة في الأغراض، حتّى في وصف الصحراءِ والبادية، ووصف الأطلالِ والنِياق، مَعَ أنّ الغالبَ على الأندلس خاصّةً كَثْرةُ الأنهار والرِياض.

أمّا الأُسلوبُ فإنّه أصبحَ في هذا الدورِ- عُموماً- أكثرَ رشاقةً وأناقةً، مَعَ فصاحةِ الألفاظ وسُهولةِ التراكيب ووُضوحِ المعاني، وإنْ كان ذلك الأُسلوبُ ذاتُه قد ركَّ تركيبُه قليلاً أو كثيراً. غيرَ أنّ الشاعرَ الفَصيحَ لم يُدْخِلْ شيئاً من الألفاظِ العاميّة في شعره ولا تَرَكَ الإعراب. ويَلْفِتُ النظرَ أنّ الأندلُسيّين والمغاربةَ قدِ آستعملوا ألفاظاً عربيةً لم تَبْقَ- منذُ ذلك الحين- مألوفةً في المشرق، كما آجتهدوا في آشتقاق صِيَغٍ مُتنوّعةٍ أو في آسْتِحْداثِ مَعانٍ جديدةٍ لصِيَغٍ قديمةٍ بحَسْب ما آقْتَضَتْهُ أحوالُ بيئاتِهم. وهذا ما حَمَلَ المُستشرقَ الهولنديَّ راينْهارْتْ دوزي على تصنيف قاموس لهذه الألفاظِ والصِيَغ والمعاني[2]. وربّما لجأتُ أنا إلى الإشارة إلى عدد من الصيغ

---

(١) الجيل ثلاث وثلاثون سنة.

(٢) R. G. Dozy. (1828-1882)

والمعاني التي تَردَ في النصوص الأندلسيةِ من هذا الجزءِ، ثمّ لا تكون قد وَرَدَتْ في القواميس العربية المُعْتَمَدَة، بأنْ أحْصُرَها بينَ أهِلّةٍ أو بأنْ أنُصَّ على أنّها لم تَردْ في القاموس (وتكونُ الإشارةُ عادةً إلى القاموس المُحيط للفيروزابادي).

وأمّا في الخصائص اللفظيّة فإنّ الشعرَ الأندلسيّ لم تكن له في التركيبِ تلك المَتانةُ التي صَنَعَتْ رَوْعَةَ الشعر المشرقيّ. ولمّا قَصّر الأندلسيّون في آختراع المعاني والغَوْص عليها تَعَلّقوا بالألفاظِ الجميلةِ وبالتَنْميق والزُخْرُف. ولا يُنْكِرُ أحدٌ عليهم ألفاظَهم ذاتَ الطَلاوة والرنينِ في التراكيبِ السهلةِ. ولقد نَحا مُعْظَمُ شعراء الأندلس نَحْوَ البُحْتُري (ت ٢٨٦ هـ) في الاتّكاءِ على الألفاظِ الفصيحةِ الحُلوة والتراكيب السَهلةِ العَذْبة والمعاني المألوفةِ القريبةِ المأخذِ. ولكنَّ البُحتريَّ ظلّ في ذلك كلّهِ زعيمَ الشعراء الذين اختاروا أن يَسْلُكوا سبيلَ الألفاظِ الرائقةِ ويَنْشُروا لِواءَ الديباجةِ الأنيقة.

وفي هذا الدَّوْرِ بدأ الاهتمامُ بالمَلاحمِ. قال ابنُ خلدونٍ (المقدمة ٦٠٢): كَتَبَ الناسُ في حَدَثانِ الدُوَلِ منظوماً ومنثوراً ورَجَزاً ما شاء اللهُ أن يكتُبوا. وفي أيدي الناسِ (أشياءُ كثيرةٌ متفرّقةٌ) منها، وتُسمّى الملاحمَ. وبعضُها في حَدَثانِ المِلّة على العُموم، وبعضُها في دولةٍ (دولةٍ) على الخُصوص. وكلّها منسوبةٌ إلى مَشاهيرَ مِنْ أهلِ الخليقة. وليسَ لها أصلٌ يُعْتَمَدُ على رِوايتِهِ عن واضعِهِ المَنْسوبة إليه.

وأوّلُ إشارةٍ إلى الملاحمِ نَجِدُها في آثارِ يحيى بن حَكَمٍ الغزالِ المُتوفّى سَنَةَ ٢٥٠ (راجع ترجمته).

ومِنَ المَلاحمِ الثابتةِ المعروفةِ أرجوزةٌ لابنِ عبدِ رَبّهِ (ت ٣٢٨) تبلُغُ أرْبَعمِائَةٍ وخمسينَ بيتاً فيها وصفٌ لحُروب عبدِ الرحمنِ الناصر، مِنْ سَنَةِ ٣٠١ إلى سَنَةِ ٣٢٣ (٩١٣– ٩٣٣ م). ولكنَّ اهتمامَ ابنِ عبدِ ربّهِ في مَلْحمته كان بِسَرْدِ الأحداثِ التاريخية، ولم يُعْنَ بالفنِّ المَلحميّ، مِنَ التزيينِ بالخَيال ومن براعةِ القَصَص ووَصْفِ البُطولات وحَبْكِ المُفاجئات وتدخُّلِ القُوى الخارقةِ للطبيعة في سبيلِ حَلّ العُقَدِ (ممّا هو معروفٌ في الملاحم التي هِيَ على النَمَطِ اليونانيّ).

ويقال إنّه كانَ لابن عبدِ رَبّهِ مُوشّحاتٌ (راجع ترجمته). ولكنْ لم يَصِلْ إلينا شيءٌ

منها. ولم يُوردْ ابنُ عبدِ ربّهِ شيئاً مِنْ مُوشّحاتهِ- ولا من مُوشّحاتِ غيرِه- في كتابهِ «العِقْد»، مَعَ كَثْرةِ ما يُورد من شِعرِ غيرِه وشعرِ نفسهِ في هذا الكتاب.

ومَعَ كُلِّ هذا التجديدِ الطارىء على الأدبِ الأندلسيّ- في الشِعر وفي النثر- فإنّ الرَجَزَ (وهُوَ فَنٌّ بَدْوِيٌّ جافٍ ونِتاجٌ فِطْرِيٌّ بَسيطٌ- حتّى قِيل فيه: إنّه حِمارُ الشعر) ظَلَّ معروفاً في الأندلُس، لا في الألفيّاتِ الفِقْهيّة والنَحْوية وما شابَهَها فَقَطْ، بل في الإنشاد الوُجْدانيّ أيضاً. وقد ظلّ الرَجَزُ مألوفاً إلى أواخرِ العصر الأندلسي. وفي نفح الطيبِ نحوُ مِائَةِ شاهدٍ تَطولُ أو تقصرُ من هذا البحر[1].

فمن الراجزينَ في عصرِ الخِلافة أبو المُطَرِّفِ عبدُ الله بنُ محمّدٍ الأصمُّ (ت ٣٣٥)، «كان نَحْويّاً لُغَويّاً فصيح اللِسانِ شاعراً مُجَوِّداً. وأكثرُ أشعارِه على مذاهبِ العَرَبِ، وله أراجيزُ فصيحةٌ» (الزبيدي ٣٣١).

وللشاعرِ الرَماديِّ (ت ٤٠٣) المشهورُ رَجَزٌ في موضوعٍ حَضَريّ مِنْ وصفِ الخمرِ ووصفِ الطبيعة (نفح الطيب ٤: ٧٤):

نَوْءٌ وغَيْثٌ مُسْبَلُ وقَهْوَةٌ تَسَلْسَلُ[2]،
تَدورُ بينَ فِتْيَةٍ بخُلْقهمْ تُمَثَّلُ[3].
والأُفْقُ من سَحابِهِ طَلٌّ ضعيفٌ يَنْزلُ[4]،
كأنّهُ من فِضّةٍ بُرادةٌ تُغَرْبَلُ[5].

ومَرّ ابنُ شُهيدٍ (ت ٤٢٦) برَجُلٍ من مَعارفهِ بينَ يَدَيْهِ زِنْبيل فيه حَرْشَفٌ[6] فأمرّ

---

(١) راجع نفح الطيب ٨: ٤٤٨- ٤٥٢ (فهرست الرجز).

(٢) النوء في الأصل منزلة للنجم يحدث في زمانها مطر. الغيث: المطر النافع. المسبل: الكثير (المطول)، المستمر. القهوة: الخمر المطبوخة بالنار. تسلسل = تتسلسل: من «سلسل»: صبّ (الماء) شيئاً فشيئاً. (خمر كانت تشرب قليلاً قليلاً).

(٣) بخلقهم تمثّل (كانت رقيقة دمثة، ليّنة مثل أخلاقهم الكريمة).

(٤) الطلّ: المطر الخفيف.

(٥) البرادة: القطع الصغيرة المنفصلة من قطعة كبيرة من المعدن بعد حكّها ببرد.

(٦) الزنبيل: وعاء كبير مصنوع من خوص النخل (قفة). الحرشف، أو الخرشف، والخرشوف: شوكة=

عليه الرجلُ أنْ يَصِفَ ذلك الحَرْشَفَ، فقال ابنُ شُهيدٍ ارتجالاً (نفح الطيب ٣ : ٢٤٦) أشطُراً منها:

هل أبْصَرتْ عَيْناكَ، يا خَليلي، قنافِـذاً تُبـاع في زِنْبيـلِ[١]؟
من حرشَفٍ مُعْتَمَدٍ جَليلِ ذي إبَرٍ تُنْفِـذُ جِلْـدَ فيـلِ[٢].
كأنّها أنيابُ بِنْتِ الغولِ لو نَخَسَتْ في آسْتِ امْرِىءٍ ثقيـلِ،
لَقَفَّزَتْهُ نَحْوَ أرضِ النيلِ[٣]

في النثر:

إنّ النثرَ العربيَّ (في المَغْرب وفي المشرق أيضاً) لم يَتَطَوَّرْ بالسُرعةِ التي تطوّرَ بها الشعرُ لِسَبَبَيْنِ. أوّلُ ذَيْنِكَ السببينِ أنّ النِتاج في النثرِ- في الخَطابة والترسُّلِ والنقد والمُناظرات والتصنيف- كان يقومُ في الدرجةِ الأُولى على « الرِواية » (نقل الآراءِ عنِ المتقدّمين بلَفْظِها ما أَمْكَنَ) حِرْصاً على صِحّةِ تلك الآراء وإضْفاءً لِشَيْءٍ من الثِقة عليها. فالبُحوثُ في اللُّغةِ والصَرْف والنَحْو والأدب والتاريخ ثمّ في الفِقْهِ بطبيعة الحالِ كانت كلُّها قائمةً على الرِواية. وكلّما كان الراوي أقربَ زَمَناً إلى الذين يَرْوي عنهم، وكُلّما كانتْ ألفاظُه أقربَ إلى ألفاظِهم، كانتِ الثِقَةُ به أكبرَ والاعتمادُ عليه أكثرَ. ولا رَيْبَ في أنّه كان لِروايةِ الحديثِ الشريفِ عن رسولِ اللهِ، على هذا المَنْهَجِ ، أثرٌ أكيدٌ بالغٌ في جَرَيانِ سائرِ فُنونِ المعرفةِ في الإسلام هذا المَجْرى. وثاني ذَيْنِكَ السَبَبينِ أنّ العرب كانوا- وما يزالون- ميّالين إلى الاستشهادِ في ثنايا كلامِهم بالآيات الكريمةِ

---

* الدمَن، أرضي شوكي (لفظ تركيّ!): نبات مأكول يتألّف من قرص مغطّى بطبقات مثلّثة ليفية تنتهي بطرف إبْريّ.

(١) قنفذ (بضمّ فسكون فضمّ): الشيهم بفتح فسكون ففتح)، الدلدل (بضمّ فسكون)، الدلدول (بالضم): حيوان يشبه الجرذون ولكن أكبر حجماً، جسمه مغطّى بشوك مثل الإبر يستطيع أن يطلقها على عدوّه دفاعاً عن نفسه. ويستطيع أن يخفي رأسه في بطنه فيتكوّر ويصبح كرة مغطّاة بشوك، ولذلك يسمّيه العامّة « كبّابة الشوك ».

(٢) معتمد: معتبر (حسن النوع، مرغوب فيه). جليل: كبير الحجم. تنفذ: تخرق.

(٣) نخس: شكّ. الاست: المقعدة (بالكسر)، مؤخّرة البدن. قفّزته (ليست في القاموس): جعلته يقفز.

والأحاديثِ النَبَوِيَّةِ الشريفة وبأقوالِ المُتقدّمين من الشِعرِ والأمثال، ممّا يدعو إلى ثُبوتِ الخصائص الأدبية وآستمرارها، (فيما يتعلّق ببِناءِ الجُمَلِ) على مَناهِجَ مُتقارِبةٍ. وإذا نحنُ اسْتَعْرَضْنا كِتابَ «العِقد» لابنِ عبدِ ربّهِ (ت ٣٢٨) وكتابَ «الأمالي» لأبي عليٍّ القالي (ت ٣٥٦) وخُطَبَ مُنْذرِ بن سعيدِ البلّوطيّ (ت ٣٥٥) وكتابَ «زَهْرِ الآداب» للحُصْريّ (ت ٣١٣) ووَصِيّةَ ابنِ بُرْدٍ الأكبرِ (ت ٤١٨) ورَسائلَ ابنِ شُهَيْدٍ- وكُلُّ هذه تَرْجِعُ إلى أيامِ الخِلافة المَرْوانية في الأندلُس- لم نَجِدْ فيها كُلِّها ما يدُلُّ على آختلافها مِنْ أمْثالِها مِنْ نِتاجِ المشارقة. وأنْصَعُ الأدِلّةِ على هذا أنّ أبا عليٍّ القالي- وَهُوَ مَشْرقيٌّ آنتقل إلى الأندلس سَنَةَ ٣٣٠ (٩٤٢م) - قد أمْلى كتابَه «الأمالي» في مدينةِ الزَهْراء. ومعنى هذا أن أُسْلوبَ النثر الذي جاء به التالي من المَشْرق كان الأُسلوبَ المألوفَ- في ميادينِ العلمِ والأدب- في الأندلُس.

والنَثْرُ أنواعٌ منها الخَطابةُ والترسُّلُ والمُحاضراتُ والمُناظرات، ومنها النَقْدُ والتأليف. وما دامَ العُنْصُرانِ الغالِبانِ في هذه الأنواعِ هُما الرِوايةَ والاستشهادَ، فمِنَ المُنْتَظَرِ ألاّ يكونَ بينَ هذه الأنواعِ من النَثْرِ فروقٌ شاسعة.

وللخَطابة أغراضٌ: تبليغُ أوامر الدولةِ أو الموعظةُ والتحذيرُ أو الحثُّ على عَقْدِ الأحلافِ والصَداقات. وفي هذهِ كُلِّها يحسُنُ أن يكونَ الموضوعُ قريباً من السامعِ وأنْ يكونَ الأُسلوبُ الذي يجري فيه ذلك يُشْبِهُ ما خَطَبَ به القاضي أحمدُ بْنُ بَقيٍّ بن مَخْلَد (ت ٣٣٤) فقال (المرقبة العليا ٦٥):

اللّهُمَّ، وقدْ دَعاك هذا النفَرُ من عِبادِكَ الساعونَ لِثَوابِكَ المُجْتَمعون ببابِكَ، فَزَعاً من عِقابِكَ وَطَمعاً في ثَوابِك؛ وقِبَلَهُمْ[1] من الذُنوبِ ما أحاطَ به عِلْمُكَ وأحْصاه حِفْظُكَ. فَعُدْ عَلَيْهِمْ في مَوْقِفِهِم[2] هذا بِرَحْمةٍ تُوجِبُ لهم جَنَّتَكَ وتُجيرُهم من عَذابِك.

وإذا كانتْ أغراضُ الرسائلِ في الغَرْبِ الإسلاميّ- سَواءٌ أكانتْ تلك الرسائلُ سِياسيةً إداريّة أمْ إخوانيّةً شَخْصية- هي أغراضَها في الشرق الإسلاميّ، فلا مَفَرَّ مِنْ

(١) قبلهم: عندهم، عليهم.
(٢) عاد فلان على فلان: رجع إليه- ارجع عليهم برحمتك بعد غضبك.

أن يكونَ أُسلوباها في المَغرِب والمشرق واحداً أو كأنّهما واحدٌ. في سَنَةِ ٣٩٣ (١٠٠٢ م) كَتَبَ عبدُ المَلِكِ المُظَفَّرُ بنُ المنصورِ بنِ أبي عامرٍ رسالةً إلى المُعِزِّ بنِ زيري بنِ عَطِيّةَ الصِنْهاجِيّ مَلِكِ فاسَ يُقِرُّهُ على عَمَلِهِ[١]. مِنْ هذهِ الرِسالةِ (الاستقصا ١ : ٩٤):

.... إلى كافّةِ أهلِ فاسَ وكافّةِ أهلِ المغرب سَلّمَهُمُ اللهُ..... إنّ المُعِزَّ بنَ زيري بنِ عَطِيّةَ- أكرَمَهُ اللهُ- تابعَ رُسُلَهُ لَدَيْنا وكُتُبَهُ[٢]، مُتَنَصِّلاً من هَناتٍ دَفَعَتْهُ إليها ضَروراتٌ[٣]، ومُسْتَغْفِراً من سَيِّئاتٍ حَطّتها من تَوْبَتِهِ حَسَناتٌ[٤]. والتوبةُ مِمْحاةٌ لِلذَّنْبِ[٥] والاستغفارُ مُنْقِذٌ مِنَ العَيْبِ..... وقد وَعَدَ مِنْ نَفْسِهِ آسْتِشْعارَ الطاعةِ ولُزومَ الجادّةِ[٦] وآعتقادَ الاستقامةِ وحُسْنَ المَعونة وخِفّةَ المَؤونةِ[٧]. فوَلَّيْناه ما قِبَلَكُمْ، وعَهِدْنا إليه أن يعمَلَ بالعَدْلِ فيكم وأن يرفَعَ الجَوْرَ عنكم وأن يُعَمِّرَ سُبُلَكُمْ[٨]، وأن يَقْبَلَ من مُحْسِنِكم ويتجاوزَ عن مُسيئِكم، إلاّ في حُدودِ اللهِ تبارَكَ وتَعالى[٩].....

ومِنَ النِتاجِ المُبْتَكَرِ في الأندلس الكتابةُ الخَيالية التي يُمَثِّلُها أحمدُ بنُ عبدِ الملكِ آبنِ شُهيدٍ (ت ٤٢٦) في كِتابه « التوابع والزوابع »، وفيه كلامٌ على عالَمِ الجِنّ (راجع ترجمة ابن شهيد). ألّفَ ابنُ شُهيدٍ هذا الكتابَ سَنَةَ ٤٢١ (١٠٣٠ م)- قَبْلَ أن يُؤَلِّفَ المَعَرّيُّ « رِسالةَ الغُفران » بَيْنَ سَنَةِ ٤٢٢ وسَنَةِ ٤٢٤ (١٠٣١- ١٠٣٣ م). ومِنَ

---

(١) كان عبد الرحمن الناصر (٣٠٠- ٣٥٠ هـ) قد بسط سلطانه على أمراء المَغْرِبِ ثمّ استمرّ ذلك زمناً بعده. أقرّه على عمله (منصبه): ثبّته فيه.

(٢) تابع رسله: أرسلهم تباعاً وجعلهم كثيرين.

(٣) الهنة (بالفتح): الشيء القليل (من الخطأ).

(٤) حطّتها: (أنزلتها عن ظهره، غفرتها) من توبته (بحسن توبته).

(٥) ممحاة (بالكسر): خرقة تزال بها الأوساخ.

(٦) لزوم (البقاء على) الجادّة: الطريق الواسعة (السلوك في الطاعة مع الجماعة).

(٧) حسن المعونة: المساعدة (بالقيام بما يتعهّد به من الأموال والجيوش ومن سياسة الدولة). خفّة (قلّة) المؤونة (تكليف الإنسان ما يثقله).

(٨) الجور: الظلم. يعمّر سبلكم (طرقكم) يجعلها عامرة، آهلة، آمنة.

(٩) يقبل من محسنكم (ويثيبه على إحسانه) ويتجاوز عن مسيئكم (ينسى سيّئاته الماضية). حدود الله: ما نهى الله عنه.

المُمْكِنِ، كما يقولُ بروكلمن (الملحق١ :٤٥٣)، أن يكونَ المَعَرِّيُّ قد تأثَّرَ بابنِ شُهيدٍ في ذلك.

ثمّ يأتي النَقْدُ. لا شكَّ في أن النقدَ يبدأ بفَهْمِ القِطْعةِ المَعْروضةِ على النَظَرِ. من أجْلِ ذلك كانتِ «الشُّروح» أوّلَ خُطُواتِ النقدِ لِما فيها من مُحاولةِ الكَشْفِ عنِ المعاني ومن تَرْجيح بعضِ المعاني على بَعْضٍ. ومَعَ أن الشُروحَ تبدأ مُحاولةً بسيطةً لِلفَهْمِ اللُّغويِ، فإنّها كثيراً ما تَتّسِعُ فتَتَناوَلُ الفَهْمَ الأدبِيَّ (مَقْصِدَ الأديب الشاعرِ أو الناثرِ من قولِهِ) والفَهْمَ البيانيّ (تعبيرَ الأديبِ عن مقاصِده) والفَهْمَ البلاغي (الصُوَرَ المختلفةَ لتعبير الأديبِ عن معانيهِ المُفْرَدَة). من ذلك كلّهِ مَثَلاً:

ذَكَرَ الزُبيديُّ (ت ٣٧٩) أنّه سأل ابنَ الوزّانِ النَحْويَّ (ت ٣٤٠) عنِ اعتراضِ العُلماءِ على تفسيرِ الإمامِ الشافعيّ (ت ٢٠٤) في قوله تعالى: «ذلك أدْنى ألاّ تَعولوا» (٤: ٣، سورة النساء) ففَسَّرَ الشافعيّ «تَعولوا» بمعنى «يكْثُرُ عِيالُكم». فقال ابنُ الوزّانِ (الزبيدي ٣٧١): أخطأ الشافعيُّ. يُقال: عال(الرجلُ)يَعيلُ إذا افْتقَرَ، وأعال (يُعيلُ) إذا كَثُرَ عِيالُه.....

وهنالك مُلاحَظَةٌ مِنَ النقدِ من طريقِ الشرح اللُّغويّ ذَكَرَها الزُبيديُّ أيضاً في مَعْرِضِ الكلامِ على «الشجي» (الذي أثْقَلَهُ الهَمُّ)- كما وَرَدَتْ في شِعرِ أبي عبدِ الله مُحمّد بنِ الحكيمِ الأندلسيّ (ت ٣٣١): أهِيَ شَجٍ أم شَجِيٌّ؟ وما القياسُ في ذلك وما المَرْوِيُّ عنِ العرب (راجع الزبيدي ٣٠١). وكذلك ذَكَرَ الزُبيديّ (ص ٣٣١) أن أبا عُمَرَ أحمدَ بن مَضاءٍ المعروفَ بابنِ الحصّارِ (ت في أواسط القرن الرابع) كان نَحْوِيّاً ذكيّاً، وكان قليلَ المُطالعة لِكُتُبِ النُحاةِ «لأنّه كان يُعَوِّلُ على قياسِهِ وتعليلِه» (في فَهْمِ وُجوهِ التَخْريج والإعراب).

وليست بِنا حاجةٌ إلى قَوْلٍ هُوَ أنّ المَغاربةَ كانوا يُقدّمون رأيَ المشارقة في النَقْد، وفي النِتاج الأدبيّ الأندلسيّ نفسه. قال أحدُ الأندلسيّين الذين رَحَلوا إلى المشرق (الزبيدي ٣٠١- ٣٠٢): «استَنْشَدَني المُعَوّجُ ببَغْدادَ لأهلِ بَلَدِنا فأنْشَدتُّهُ لأحمدَ بنِ

محمّدِ بنِ عبدِ ربّهِ[1] قصيدةً وثانيةً، فلم يَسْتَحْسِنْ شيئاً مِمّا أنْشَدتُه. فأنْشَدتُّه لمحمّدِ بنِ يحيى:

يــــا غزالاً عَنَّ لي فأبْـ ـتَزَّ قَلْـــبي ثمّ ولّــــى[2]،
أنـــــت منّي بِفُؤادي، يـــا مُـــنى نَفسِيَ، أحلْـــى!

حتّى أتَيْتُ على آخرِ الشعرِ. فقال: هذا الشعرُ بختمِه، لا ما أنْشَدتَّني به آنِفاً[3].

وأرادَ عبدُ الرحمنِ الناصرُ، في مَطْلَعِ خِلافَته، انتساخَ شِعْرِ حَبيبٍ[4] فأحْضَرَ جَماعةً فيهم مُحمّدُ بنُ محمّدِ بنِ أرقمٍ النَحْويُّ الأندلسيّ والوزيرُ أبو الأصبغِ موسى بنُ محمّدِ بنِ الحاجب (ت ٣٢٠) والشاعرُ القَلْفاط وابنُ فَرَجٍ المعروف بالبيساري أو بابن البيساري- وكان من أهلِ العلمِ بالعَرَبيةِ (النحْو) ومن طَبَقةِ ابنِ الحكيمِ والقَلفاطِ. وشاوَرَهُمْ عبدُ الرحمنِ في أي القصائدِ يحسُنُ أنْ يُقَدَّمَ في صَدْرِ الكِتاب[5] فقال ابنُ أرقمٍ: «إنّما يُفَضَّلُ الشِعْرُ ويُقَدَّمُ لِغَرابتهِ وحُسْنِ مَعْناه. وشِعْرُه (شعرُ أبي تمّامٍ) الذي وَصَفَ فيه القَلَمَ[6] لم يَتَقَدَّمْهُ (فيه) عليه مُتَقَدِّمٌ ولا لَحِقَهُ فيه مُتأخِّرٌ». واختلفَ المُجتمعون في ذلك. ثمّ اتّفق أنْ حَضَرَ أبو عبدِ اللهِ الغابي[7] فَسُئِلَ رأيَه في ذلك (من غَيْرِ أن يَعْرِفَ آراءَ المختلفين) فقال: إنّ أهلَ بغدادَ لا يُفضّلون على شعرِ أبي تمّامٍ في القلمِ شيئاً لِغَرابة مَعناه.

ولكن بينما كانَ الشُعراءُ والنُقّاد يذهبون في تذوُّقِ الشِعرِ مذهَبَ القدماء، من

---

(١) الملموح أنّه ابن عبد ربّه صاحب العقد (ت ٣٢٨).
(٢) عنّ: بان، ظهر، بدا. مرّ بسرعة. ابتزّ: سلب. ولّى: انطلق، ذهب.
(٣) بختمه: بعسله (؟)، راجع القاموس ٤: ١٠٢. آنفاً: سابقاً، من قبل.
(٤) الزبيدي ٣٠٦- ٣٠٧. وبويع لعبد الرحمن الناصر بالخلافة سنة ٣١٦. حبيب هو أبو تمّام.
(٥) في صدر الكتاب. يبدو أن المراد كان جمع عدد من مختارات شعر أبي تمّام.
(٦) قطعة مطلعها:

لكَ القلمُ الأعلى الذي بشَباتـــه تُصـــاب من الأمر الكُـــلى والمفاصـــل.

(٧) كذا في الزبيدي ٣٠٧. في انباه الرواة (٣: ٧٠): أبو عبيد الله الغسّاني.

جَزالةِ اللَّفظ ومَتانة الأُسلوب وصِحّة المعنى وشَرَفه، كانتْ طَبَقةٌ من العامّة قد أصْبَحَ أفرادُها لا يفقَهونَ تلك القوانينَ الأدبيةَ. ذَكَرَ الزُبيديُّ (ص ٣٣٧، راجع ص ٣٣٥) أنّ أبا عبدِ اللهِ محمّدَ بنَ يحيى الرياحيّ الأزْديَّ[١] كان يُعاني[٢] الشِعرَ فلا يَتّفق له منه شيءٌ مقبولٌ. ثمّ حَسُنَ شِعرُه وسَلِسَ طبعُه[٣]. وكان الرياحيُّ صديقاً للزُبيدي ولعبد الله ابنِ حَمّودِ الزُبيديّ الأندلسيّ فكَتَبَ إلَيْهِما بقصيدتين مَطْلعاهُما:

خَليلَيَّ من فَرْعَيْ زَبيدٍ ومَذْحِجِ ... قِفا واسْمَعا. قد يُسعِدُ الشَجِيُ الشَجِي[٤].

ألم تَعْلَما أنّي أرِقْتُ، وشاقني ... خَيالٌ سَرى وَهْناً ولَمّا يُعَرِّجِ[٥]؟

★ ★ يا خَليليَّ، عَرِّجا بِمُحِبٍّ ... هِيضَ سُقْماً فما يَريمُ الفِراشا[٦].

ولّما تُوُفِّيَ أحمدُ بنُ موسى بنِ حُديرٍ رَثاهُ الرِياحيُّ بقصيدةٍ بَناها على مذاهبِ العرب وخرج فيها عن مذاهب المُحْدَثين فلم يَرْضَها العامّةُ.

ثمّ يحسُنُ أن نُشيرَ إلى أربعةٍ مّمن عُنُوا بالنَقْدِ وهُمْ ابنُ عبدِ ربِّهِ (ت ٣٢٨) والطَبيخي (ت ٣٥٢) وعبدُ الكريمِ النهشلي (ت ٤٠٥) وابنُ شُهيدِ (ت ٤٢٦)، ولهم كلُّهُمْ في هذا الجزء تراجمُ مستقلّةٌ.

وفي النقد (أو تنوّقِ الأدبِ والحُكمِ على قائليه) نِزاعٌ قَديمٌ ما يزال جديداً هو «المَيْلُ إلى القَدِيمِ أو إلى الحديث»: آلأدبُ القديمُ أفضلُ وأبرعُ وأحقُّ بالحِفْظِ والرِواية

---

(١) راجع ترجمته (ت ٣٥٨).

(٢) كان يعاني الشعر: يحاول نظم الشعر.

(٣) سلس طبعه: لان طبعه للشعر (وانقاد الشعر له).

(٤) زبيد ومذحج من قبائل اليمن. أسعد: أعان (على حمل الهمّ). الشجي. الحزين. الشجي (بفتح فكسر)- شج (بكسرتين لأنّه منقوص)، ووردت ياء «الشجي» في الشعر مشدّدة (القاموس ٤: ٣٤٧). والشاعر هنا حذف الشدّ وأعرب الياء.

(٥) أرق فلان: ذهب نومه. شاقه: حرّك شوقه إلى المحبوب. خيال: طيف (ما يرى في المنام). سرى: سار ليلاً. وهناً: في منتصف الليل. عرّج: مال إلى مكان (زار).

(٦) هيض (مجهول من هاض): كسر عظمه (يقصد: لان عظمه- بمرض يخفّ به الكلس في العظام فيعجز المريض حينئذ عن النهوض أو الاستواء). رام: بارح، ترك.

أمِ الأدبُ الحديث؟ ذلك النزاعُ الذي عَرَفَهُ المَشرِقُ قد عَرَفَه فيما بعدُ المَغرِبُ أيضاً. وحينما نرى كلمة «العَربِ» في النصوصِ المَغربية عامّةً لا يكون العربُ هنا في مُقابلِ العَجَمِ (في المَدْرَكِ القوميّ)، بل يكونُ العربُ بمعنى «البَدْوِ» (في مُقابلِ أهلِ الحَضَرِ أو أهل المُدُن). أمّا المُحْدَثونَ فهمُ الناشِئون في كلِّ جيلٍ (لأن كلَّ جيلٍ بالإضافةِ إلى الجيلِ الذي سَبَقَهُ مُحْدَثٌ، وبالإضافةِ إلى الذي جاءَ بعدَهُ قديمٌ). ولكنْ يبدو أنّ المَغرِبَ لم يَعْرِفْ ذلك النِزاعَ الحادَّ في النَقْد ولا ذلك الانتصارَ المُتَطَرِّفَ لشاعرٍ دونَ شاعرٍ على ما عَرَفْنا في المَشْرِقِ من أمرِ المُخْتلفينَ في الفَرَزْدَقِ وجريرٍ أو في أبي تمّامٍ والبُحتريّ أو في المُتنبيّ ما له وما عليه. ولقدِ اَصْطَحَبَ المَذْهبانِ (طريقةُ العَرَبِ وطريقةُ المُحْدَثين) في المَغْرِبِ فكنتَ ترى ذَيْنِكَ المَذهبَيْنِ في نظمِ الشاعرِ جَنْباً إلى جنبٍ في ديوانهِ (وقد رأيْنا مثلَ ذلك أيضاً في المَشْرق عندَ أبي نُواسٍ مَثَلاً).

وابنُ عبدِ ربّهِ صاحبُ «العِقْدِ» (ت ٣٢٨) أولُ مَنْ تحسُنُ الإشارةُ إليه في حركة النَقْدِ في الأندلس. ولكّن فضلَ ابنِ عبدِ ربِّهِ لم يكنْ في الإتيانِ بجديدٍ في هذا الموضوعِ، بل في نَقْلِ المَداركِ الأساسيّةِ في النَقْدِ من المشرقِ إلى المغربِ. فأوّلُ ما يذهَبُ إليه ابنُ عبدِ ربّهِ أنّ الشِعرَ الجَيّدَ لا يَضُرُّهُ تأخُّرُ صاحبهِ في الزَمَنِ، كما أن الشِعْرَ الرَديءَ لا يَنْفَعُهُ أن يكونَ صاحِبُه معدوداً في القُدماء. والإجادةُ في النِتاج الأدبيّ والحِذْقُ في النقد يَقْتَضيانِ طبيعةً (اَستعداداً) وصِناعةً (تَثَقُّفاً بفنون الأدبِ وبالعلوم المختلفة) ومُدارسَةً (اختباراً). والاختبارُ أرجحُ في المَيْدانَيْنِ من الصِناعة (التعلّم). وهنالك المُفاضلة بينَ اللَفْظِ والمعنى والحُكْمُ بأن المعنى الجَيّدَ مُحتاجٌ في بُروزهِ إلى لفظٍ جَيّدٍ. هذه المداركُ الأساسية في النقد (مَعْرِفةُ النِتاج الجَيّد في الأدبِ) معروفةٌ عند ابنِ سَلّامٍ الجُمَحيّ (ت ٢٣١) وابنِ قُتَيْبةَ الدِينَوَريّ.

ويُمْكِنُ أن نُدْخِلَ وليدَ بنَ عيسى الطَبيخيَّ (ت ٣٥٢) في النُقّاد. لقد كان في أثناءِ شَرْحهِ للأشعارِ يُرَجِّحُ بينَ المعاني المرويّة أو المكنة، كما كان يَعْرِضُ أحياناً لأوجهِ البلاغة، على ما نرى في تَرْجَمتهِ (راجع، تحت، ص ٢٥٤).

أمّا عبدُ الكريم النهشليُّ (ت ٤٠٥) فهو ناقدٌ على الحقيقة رَجّحَ سَبْقَ النَثْرِ على

الشعرِ فأصابَ في الترجيح وأخطأ في تعليلِ ذلك. وجعل الشعر أربعةَ أنواع: المديحَ والهجاء والحكمةَ واللهو. وعَرَضَ لمكانةِ اللفظ والمعنى في جَوْدة الشعر، ووصل بين جودةِ الشعر والأخلاق. وأفضلُ الشعرِ عنده ما بَقِيَ محفوظاً على وجه الدهرِ. ثمّ هو يرى أن النظرَ إلى الشعر يختلفُ باختلافِ الزمانِ والمكانِ (من حيث الأغراض) على «ألاّ يخرُجَ عن حُسنِ الاستواء وحَدّ الاعتدالِ وجَوْدة الصَنْعة».

وأمّا ٱبنُ شُهيد (ت ٤٢٦) فقد أبْدى رأياً فلسفيّاً في النقد قائماً على الحِسّ الشخصي عند النظر إلى القطعة المعروضةِ للعين، ولم يُحاولْ أن يَضَعَ بينَ يَدَي القارىء آلاتٍ عمليّةً لتَطْبيق الأشعار (لجَعْلِ بعضِها فوق بعض في درجات الجودة)، كما فَعَلَ عبدُ الكريم النهشليّ.

وأوّلُ مَطالع ٱبن شُهيدٍ في فلسفةِ النقد أنّه يُريد، وهو الأديبُ البارعُ نظماً ونثراً، أن يجعلَ علماءَ اللغةِ في مَعْزِلٍ عن مَيْدانِ النقد، لأنّ إصابة الناقد إنّما تكون في طبيعته (استعداده الذاتي) أكثر ممّا تكونُ في الأدواتِ الخارجية (المعارفِ اللغوية والتاريخية وسواها). وهو يرى الاعتدالَ في التجنيس والقصد (الاعتدال) بين طريقة العرب (أسلوب القدماء) وطريقة المحدثين (اتّجاه أبناء كلّ جيل جديد).

وإذا كان ٱبنُ شُهيد لم يأتِ في بابِ النقد بأشياءَ جديدةٍ - أو نَستطيعُ الجزمَ بأنّها جديدةٌ - فإنّه عبّر عنها تعبيراً جديداً، إذ أدخل العُنصُرَ الذاتي (الشخصي) في عمل الناقد. ثم هو يوافق عبدَ الكريم النَهشليَّ في أن الشعرَ الجيّدَ يتّصفُ بصِفة الدوام ويبقى مَرْويّاً على وَجْهِ الأيام.

الأدب في صقلية

ومن الأمراء الكلبيّين حكّامِ صِقِلّيةَ نفرٌ من الشعراء المُجيدين، ولكنّ من الذين ظلّ شِعْرُهم تقليداً واضحاً للمشارقة في كلّ شيءٍ حتّى لَيَصْعُبُ جِدًّا أن ترى فيه لمحةً من صقلّية. من هؤلاء مثلاً الأميرُ أبو القاسمِ عبدُ الله بنُ سليمانَ يخلف[1] فقد تَصرّفَ

---

(١) راجع «المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب ايطالية تأليف أحمد توفيق المدني (نشرته الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر) - تاريخ المقدّمة ١٣٦٥ هـ (١٩٤٥ م) - ص ٢١٣ - ٢١٤.

في وجوهِ الأغراضِ وأجادَ الوصفَ والتشبيهَ، إلى جانبِ عددٍ من الكُتب له في الردّ على العُلماء (الفقهاء؟) وفي تَطْبيقِ الشُعراءِ (جعْلهم طبقاتٍ على أزمانِهم أو فنونِهم أو مكانتِهم). قال الأميرُ أبو القاسم في الخمر والغزل ووصف الطبيعة:

أُسابِقُ صُبْحي بصُبْحِ الدِنانِ ... وأصْرِفُ لَيْلي بصِرْفِ العُقارِ[1].
ألا رُبَّ يومٍ لنا بالبروجِ ... بَخيلُ الضياءِ جوادُ القِطارِ[2].
كأنّ الشقيقَ بها وَجنةٌ ... بآخرها لَمْعَةٌ من عِذار[3]؛
كأنّ البنفسجَ في لونه آختلا ... طُ الظلام بضوءِ النهار.
وأُتْرُجُّها كحقاق النُّضار ... تُصَفِّفُ أو كَثُدِيِّ الجَواري[4].
أقَمْنا نُسابِقُ صَرْفَ الزمان ... بِداراً إلى عَيْشِنا المُستعار[5]
نُجيبُ بصوت القناني القيانَ ... إذا ما أجابتْ غِناءَ القَمارى.
نَشَمُّ الخُدودَ شَميمَ الرياض ... ونَجْني النُهودَ اجتناءَ الثمار.
ونُسْقى على النَوْرِ مِثْلَ النجو ... مِ مِثْلَ البُدورِ اعْتَلَتْ للمَدار[6].
نَعِمْنا بها وكأنّ النجومَ ... دَراهمُ من فِضّةٍ في نِثارِ[7].
إذا ما لَقِيتَ الليالي بها ... فأنتَ على صَرْفِها بالخِيار[8]!

---

(١) الدن (بالفتح): وعاء كبير للخمر. العقار: الخمر. صرف: خالصة (غير ممزوجة).

(٢) البروج (لعلّه اسم مكان). القطار: المطر (يوم غائم ممطر).

(٣) الشقيق (شقائق النعمان) كناية عن الحمرة. العذار: الشعر النابت في الوجه.

(٤) الأترج: نوع من الليمون (يكون كبيراً وأصفر). الحقاق (بالكسر) جمع حقّ (بالضمّ): وعاء صغير. النضار: الذهب.

(٥) صرف: أحداث (مصائب). بدارا: استباقاً (نحاول نحن أن نلتقي الصباح مثلاً قبل أن يأتي الصباح حتّى لا نضيع من عمرنا دقيقة سدى).

(٦) النور (بالفتح): الزهر. مثل النجوم: الحبب (بفتح ففتح) وهي نفّاخات صغيرة تطوف على وجه الخمر في الكأس. وربّما بدأ البيت: ونسقى(بالبناء للمجهول)..... فيكون المعنى: ويسقينا في جنينة مملوءة بالأزهار ندمان مثل البدور (بجمالهم) حينما اعتلت في المدار (في مدارها: ارتفعت الى كبد السماء) مثل النجوم (خمراً يطفو الحبب على سطحها). حينئذ تصبح «مثل البدور» فاعلاً.

(٧) النجوم (نجوم السماء أو نجوم الكاس: الحبب؟) في نثار: قطع صغيرة (من ذهب) كناية عن الخمر.

(٨) إذا دهمتك مصائب الدهر فإذا شئت فاشرب الخمر (لكي تنسى تلك المصائب).

وكانَ في النِصْفِ الأوّلِ من القَرْنِ الخامِس للهِجْرة (النصف الأوّل من القرنِ الحادي عَشَرَ للميلاد) نفرٌ من الشعراء منهم الفقيهُ أبو بكرٍ عتيقُ السَمَنْطاري[1]، نِسبَة إلى سامانترية إحدى قُرى صِقلّيةَ، وكان يَنْظِمُ شِعراً من شِعرِ العُلماء العاديّ كقوله:

فِتَنٌ أقْبَلَــــــتْ وقومٌ غفُولُ　　وزمــانٌ عــلى الأنــام يَصول.

– ويبدو أنّ من هؤلاء أيضاً أبو عبدِ الله بنُ الطوبيّ ، وقد كان كاتبَ الإنشاء في صقلّية. وهُوَ شاعرٌ مُتَقَلِّبُ الرأي في الدنيا يدعو حيناً إلى الزهدِ والتصوّف الحقيقيّ ويمْجُنُ أحياناً في الغَزَل المذكّرِ خاصّةً. قال في التصوّف والمتصوّفين:

ليس التصوّفُ لُبْسَ الصوفِ ترقَعُه،　　ولا بُكاءَكَ إن غنّى المُغنّونا؛
ولا صياحٌ ولا رقصٌ ولا طَرَبٌ　　ولا تَغاشٍ كأنْ قد صِرْتَ مجنوناً[2].
بل التصوّفُ أنْ تصفو بلا كَدَرٍ　　وتَتْبَعَ الحقَّ والقُرآنَ والدينا،
وأن تُرى خائفاً لله ذا نَدَمٍ　　على ذُنوبِك طولَ الدهرِ محزوناً.

وكذلك قال في الغزل المذكّر:

أنظُرْ إلى حَسَنٍ وحُسْنِ عِذارِه　　لِترى مَحاسِنَ تَسْحَرُ الأبصارا[3].
فإذا رأيتَ عِذارَه في خَدّهِ　　أبصرتَ ذا لَيْلاً وذاك نَهارا!

غيرَ أنّنا نرى في هذه الحِقْبة أيضاً مَنْ أدرك سُوءَ الحال في صقلّية فنَفَثَ ذلك في شِعْره. قال أبو محمّدِ القاسمُ بنُ عبدِ الله التميمي:

---

(١) المسلمون في صقلية، تأليف مورينو ٤٣، ٤٤.
(٢) تغاش (غير موجودة في القاموس) والمقصود التظاهر بأن الإنسان قد أغمي عليه (من شدّة الخوف من الله).
(٣) العذار: الشعر النابت في الوجه.

وما كنتُ أشقى الغربِ لو كان لم تكن صِقِلّيَـةٌ منـه، وإن لامَ لائمُ[1].

مُنينـا بـذاتِ البَيْن حتّى كأنّنا نرى أن مَنْ يَبْغي سوى البَغْي غاشمُ[2]

يُغيرُ الفتى منا على مالِ نفسهِ، ويقتُلُـهُ غَـدْراً أخوه المُـلائم.

وكانت بلادُ الرومِ طوعَ سُيوفِنا إذا رامَها منّا على البُعْدِ رائمُ[3].

فإن نال مِنّا الناسُ أو قَلّ كُثْرُنا فقد تقتُلُ الحُمّى وتُردي السَمائمُ[4].

أتَوْنا، ولكن بالدروعِ، أساوِداً؛ ولكن أتَيْنـا والسيوفُ عزائمُ[5].

وطِيبُ حياةِ المَرءِ في عِزِّ مَوْتِهِ. وما الموتُ إلاّ أنْ تموتَ الكَرائمُ.

ابن عبد ربّه

١- هو شِهابُ الدين أبو عُمَرَ أحمدُ بنُ عبدِ ربِّهِ بنِ حبيبِ بنِ حُدَيْرِ بنِ سالمٍ القرطبيُّ، وكان سالمٌ القُرطبيّ مولَى هشامِ بنِ عبدِ الرحمنِ الداخل.

وُلِدَ أحمد بن عبد ربّه في عاشرِ رَمَضانَ ٢٤٦ (٢٩/ ١١/ ٨٦٠ م) في قُرطبةَ ونشأ فيها. وتلقّى العلم على نَفَرٍ منهم بَقِيُّ بنُ مَخْلَدٍ (ت ٢٧٦ هـ) ومحمّدُ بنُ وضّاحٍ (ت ٢٨٦) ومحمّد بن عبد السلام الخشني (ت ٢٨٦).

وكان أحمدُ بنُ عبد ربّه شاعرَ بلاطِ للأمير المُنْذِرِ (٢٧٣- ٢٧٥ هـ) وللأميرِ عبدِ الله (٢٧٥- ٣٠٠ هـ) ولعبدِ الرحمنِ الناصر بعدَها. وكذلك كان صديقاً للشاعرِ

(١ و ٢) نحن أشقياء في صقلّية لأن صقلّية جزء من الغرب (الأندلس) الشقي. منينا: أصبنا (بالبناء للمجهول) بذات البين (بالبغضاء والعداوة). يبغي: يطلب. البغي: الظلم. غاشم: ظالم. تعوّدنا الظلم: من الناس حتّى إذا رأينا رجلاً لا يظلم سمّيناه ظالماً. أو نظنّه غشيماً جاهلاً (راجع المعجم الوسيط، ص ٦٥٩). وما كنت (؟) للمخاطبة المؤنثة: أشقى الغرب (بغين منقوطة) أو (للمتكلم المفرد: أشقى العرب (بعين مهملة ومضمومة).

(٣) رام: أراد، قصد.- كنّا نحن نتغلّب على بلاد الروم....

(٤) تردي: تهلك. السموم (بالفتح): الريح الحارّة.

(٥) الروم (النصارى) يتغلّبون علينا لأنهم يلبسون دروعاً (عندهم وسائل كثيرة للقتال)، ونحن نقاتل بعزائمنا (بأيدينا) بدل السيوف (ليس عندنا سلاح).

القَلْفاطِ (ت نحو ٣٣٣) ثمّ فَسَدَ ما بَيْنَهما وتَهاجيا.

وفُلج ابنُ عبد ربّه أعواماً ثم تُوُفِّيَ في قُرطبة في ثامنَ عَشَرَ جُمادى الأولى من سنة ٣٢٨ (٣/ ٣/ ٩٤٠ م).

٢- أبو عُمَرَ أحمدُ بنُ عبدِ ربّه أديبٌ واسعُ الإحاطة بفنونِ العلم والأدب. ثمّ هو شاعرٌ مُكْثِرٌ صحيحُ الأسلوبِ متينُ السَبك سهلُ التركيب يَغْلِبُ على شعرِه مَنْطِقُ العلماءِ، ومَعَ ذلك فنحن نَجِدُ على شعرِه شيئاً من الطلاوة. وليس في شِعره من الصِناعة إلا ما جاء عفواً، مَعَ وجود شيءٍ من التكلّف المعنويّ فيه. وقد ضاعَ شعرُ ابنِ عبدِ ربّه إلاّ ما أورده ابنُ عبدِ ربّه نفسُه في كتابه «العِقد». أما فنونُ شعره فهي المديحُ وفيه شيء من التكلّف والمبالغة، ثم الرثاءُ وهو عندهُ كثيرٌ ومعظمه في أهله رقيقٌ صادقُ العاطفة. وغزلُه كثيرٌ رائقٌ، ولعل أحسنَ شعرِه الغزلُ والرثاءُ. وفي هجائه فُكاهةٌ ودُعابة وشيءٌ من الإقذاع أحياناً. وله أيضاً وصفٌ للطبيعة لا يبلُغُ فيه مبلغَ شعراءِ الأندلس. أما زهُده ففيه تكلّفٌ كثيرٌ لأنّه حاول أن يأتِيَ بمعارضةٍ في الزهد لكلّ متطوعةٍ في الغزَلِ كان قد قالَها في شبابِه. إنّ هذا جعل زُهدَه كثيراً ولكن لم يرفَعْهُ إلى مستوًى عالٍ. ولابنِ عبد ربّه أرجوزةٌ من بابِ الملاحم أبياتُها أربعُمائةٍ وخمسةٌ وأربعون قالها في غزَواتِ عبدِ الرحمن الناصر (٣٠٠- ٣٥٠ هـ) وتناول فيها بطبيعةِ الحال الغَزَواتِ الأولى. وشعرُ ابن عبدِ ربّهِ قصيدٌ ورَجَز.

كان ابنُ عبدِ ربّهِ مُغْرَماً بشعرِه يُورده في كتابه «العِقد» عند كلِّ مُناسبةٍ. ومَعَ ذلك فلم يُورِدْ لنفسه (ولا لغَيْره) شيئاً من المُوَشحّات. ولقد خُدِعَ نفرٌ من النقّاد ومؤرّخي الأدب بجملةِ ابنِ خَلْدونِ (المقدمة، ١١٣٨) تَنْسِبُ موشّحاتٍ إلى «أبي عُمَرَ أحمدَ بن عبدِ ربّه». ومَعَ أن ابنَ خَلْدونِ نفسَه يذكُرُ أن ابنَ عبدِ ربّه هذا هو صاحبُ «العِقد» (كتاب العقد الفريد)، فالحقيقةُ أن صاحبَ الموشّحات هو ابن أخي ابن عبدِ ربّه هذا (وكنيته واسمُه ككنية عمّه واسمِه أيضاً: أبو عمرَ أحمدُ بنُ عبدِ ربّه). وعلى كلّ فإنّه لم يَصِلْ إلينا من موشّحات صاحب العقد (إذا كان صاحبُ العِقد قد نظم موشّحاتٍ) ولا من موشّحات ابن أخيه شيءٌ.

غيرَ أن شهرةَ أبي عُمَرَ أحمدِ بن عبدِ ربّه هي في النثر- وفي كتابه «العقد» خاصّة[1]. جَمَعَ ابنُ عبدِ ربّه في كتابهِ العقد أخباراً وأقوالاً واختياراتِ من النثر والشعر يتعلّق القسمُ الأوفى والأوفر منها بالمشرق حتّى قال الصاحبُ بن عبّاد (ت ٣٨٥ هـ)، وقد رأى هذا الكتاب، جملته المشهورة: «هذه بضاعتُنا رُدّتْ إلينا؛ ظَنَنْتُ أن هذا الكتابَ يشتملُ على شيءٍ من أخبار بلادِهم، وإنّما هو مشتملٌ على أخبار بلادِنا. لا حاجةَ لنا فيه».

جعلَ ابنُ عبدِ ربّه كتابَه خمسةَ وعشرين باباً وشَبّهه بعِقْدٍ فيه خمسةٌ وعشرون حجَراً كريماً: واسطةٌ (في وَسَط العِقد، وتكونُ أكبرَ حبّاتِ العقد) ثمّ أربعةٌ وعشرون حجَراً كلُّ حَجَرَيْنِ منها مُتماثلانِ من جِنْسٍ واحدٍ يَحْتَلاّنِ مكانَيْنِ متقابلين من طَرَفَيِ العقد على جانبي الواسطة. فمن أبواب العقد: اللؤلؤة في السلطان، الفريدة في الحروب، الزبرجدة في الأجواد، الجُمانة في الوفود،....

وقد جمع ابن عبدِ ربّهِ مادّةَ كتابه من مَصادِرَ مختلفةٍ: من الكتبِ السماوية، ومن دواوينِ الشعراء، ومن كُتُب ابنِ المقفّع والجاحظِ والمبرِّد ثم ألحّ بصورةٍ خاصة على كتاب «عيونِ الأخبار» لابن قُتَيْبَةَ حتّى أن بعضَ أبواب العِقد نَسْخٌ واضحٌ من أبوابِ مماثلةٍ في كتاب عيون الأخبار.

أمّا قيمةُ كتاب «العِقد» فتَرْجِعُ إلى أنّه في الدرجةِ الأولى كتابُ مُتْعَةٍ يقرأ الإنسانُ فيه أخباراً طريفةً حتى بلغتِ الحالُ بالمؤلّفِ إلى أن روى أشياءَ من باب الخُرافة. ثمّ إن المؤلّفَ جَمَعَ موضوعاتٍ مختلفةً في كتابٍ واحدٍ، ولكن أحسنَ تصنيفَ هذه الموضوعاتِ وترتيبَها وعَرْضَها. وفي الكتاب نماذجُ جميلةٌ من الشِعر والنثر والأقوال. ثمّ إنّ المؤلّف قَصَدَ إلى العِبْرة الحَسَنةِ والتهذيب الخُلُقي (وإن كان قد أتى أحياناً بأشياءَ خارجةٍ على المألوف)- والكتابُ أيضاً «مَرْجعٌ بمثابةِ مصدرٍ»: أي إنّ ابنَ عبدِ ربّهِ أخَذَ أخباراً وأشعاراً من كُتُب ضاعتْ، فأصبَحْنا لا نَعْرفُ هذه الأخبارَ إلا من كتابه.

(١) إن العنوان «العقد الفريد» تطوّر متأخّر زاد فيه كلمة «الفريد» أحد المطالعين أو الناشرين.

ومَعَ أن المادة التي في كتابِ «العقد» مُعْظَمُها نُقولٌ لا تدُلُّ بطبيعةِ الحال على أسلوبِ ابن عبدِ ربّه، فإنّنا نستطيعُ أن نَصِلَ في الكتابِ إلى مقاطعَ هي بلا ريبٍ من إنشاءِ ابنِ عبد ربّهِ وتدُلُّ على أن أسلوبَ الرجلِ كان مُوجَزاً واضحاً قريبَ المعاني يرتبطُ بعضُ جُملِهِ ببعضِها الآخَرِ ارتباطاً منطقيّاً.

٣ - مختارات من آثاره

- قال ابن عبد ربّه في الغزَلِ والنسيبِ أشياءَ رقيقةً. وقد كثُرَ الاستشهادُ بأبياته التالية:

يا لُؤلُؤاً يَسْبِي العقولَ أنيقا، ورشاً بتقطيعِ القلوبِ رَفيقا[١]،
ما إن رأيتُ- ولا سَمِعْتُ بمثلِهِ- دُرًّا يَعودُ من الحَياء عَقيقا[٢].
وإذا نَظَرْتَ إلى محاسنِ وجهِهِ أبصرتَ وَجْهَك في سنَاه غريقا[٣].
يا من تَقَطَّعَ خَصرُه من رِدْفِه، ما بالُ قلبِكَ لا يكونُ رقيقا!

- وله الأبيات الصادقةُ العاطفةِ في رثاء ابنه:

واكَبِدَا! قد تقطّعتْ كَبِدي! قد حَرّقَتْها لواعجُ الكَمَدِ[٤].
ما مات حيٌّ لِمَيّتٍ أسَفاً أعْذَرُ من والدٍ على ولد.
يا رحمةَ اللهِ، جَاوري جَدَثاً دَفَنْتُ فيه حُشاشتي بيَدي[٥].

---

(١) لؤلؤ (هنا: كناية عن اللون الأبيض الجميل). أنيق: جميل يعجب العين. الرشأ: الغزال الصغير (الفتاة الشابّة الجميلة). الرفيق: الكثير العناية في العمل.

(٢) الدرّ: اللؤلؤ. العقيق: حجر كريم أحمر. درّ يعود من الحياء عقيقاً: وجهه (الأبيض كالدرّ) يعود (يصبح) من الحياء والخجل عقيقاً (أحمر).

(٣) السناء: النور. أبصرت وجهك في سناه غريقاً: ترى صورة وجهك في وجهه (كأنّ وجهه مرآة).

(٤) اللاعج: (الحبّ أو الحزن) المحرق (الشديد الحرارة والألم). الكمد: الحزن.

(٥) الجدث: القبر. الحشاشة: بقية الحياة (كناية عن ولده).

لا صبرَ لي بعدَه ولا جَلَدٌ، فُجعتُ بالصبرِ فيه والجلد[١].

- وقال ابن عبد ربّه في مقدّمة كتاب العِقد:

وقد نَظَرْتُ في بعضِ الكتب الموضوعةِ فوجدتّها غيرَ متفرّقةٍ في فنون الأخبار، ولا جامعةٍ لجُمَلِ الآثار. فجَعَلْتُ هذا الكتابَ كافياً جامعاً لأكثرِ المعاني التي تجري على أفواهِ العامّةِ والخاصّةِ، وتدورُ على أَلْسِنَةِ الملوكِ والسُوقة. وحَلَّيْتُ كلَّ كتابٍ (فصل) منها بشَواهِدَ من الشعر تُجانسُ الأخبارَ في معانيها وتُوافقه (توافق الشعر) في مذاهبها.

- وقال يَصِفُ تَوَلّي عبدِ الرحمنِ الناصرِ حفيدِ الأميرِ عبدِ الله وخليفته؛ وفي هذه القِطعةِ تأنُّقٌ ظاهرٌ:

ثمّ وَلِيَ المَلِكُ القَمَرُ الأزهرُ الأسد الغَضَنْفَرُ المَيْمون النقيبة المحمودُ الضريبة[٢]، سيّدُ الخلفاء وأنجبُ النُجباء عبدُ الرحمن بنُ محمّدٍ أميرُ المؤمنين... فتولّى المُلْكَ وهو جَمرةٌ تحتدمُ ونارٌ تَضْطرِمُ وشِقاقٌ ونفاق[٣]. فأخْمَدَ نيرانَها وسكّن زَلازِلَها، وافْتَتَحَها عَوْداً كما (كان قد) افتتحها بدءاً[٤] سميُّهُ عبدُ الرحمن بنُ مُعاويةَ رَحِمَهُ اللهُ. وقد قُلْتُ وقيلَ في غَزَواتــه كلِّها أشعارٌ قد جالتْ في الأمصار وشَرَدَتْ في البُلدان حتّى أتْهَمَتْ وأَنْجَدَتْ وأعْرَقَتْ[٥].

ولولا أنّ الناسَ مُكْتفون بما في أيديهم منها لأعَدْنا ذِكْرَها أو ذِكْرَ بعضِها. ولكنّا سنذكُرُ ما سَبَقَ إلينا من مناقبِهِ التي لم يَتَقَدَّمْه إليها متقدّمٌ ولا أُخْتَ لها ولا نظيرٌ.....

---

(١) الجلد: القوّة واحتمال المصاعب.

(٢) الأزهر: الأبيض. الغضنفر: الأسد الغليظ الجثّة (القويّ الشديد). الميمون: المبارك. النقيبة: الطبيعة. الضريبة (كالنقيبة). النجيب: الذي له فضل على غيره وشهرة، الذي ينجب أولاداً نابهين، الذكي.

(٣) جمرة تحتدم (تشتعل) بالفتن والثورات. شقاق: خلاف، نزاع (بين أصحاب الملك أنفسهم).

(٤) افتتحها عوداً: فتحها (ردّها إلى حكم بني أميّة من حكم الإسبان أو الثّوار من المسلمين) كما كان جدّه عبد الرحمن الداخل انتزعها (بدءاً) لبني أميّة من أنصار بني العبّاس.

(٥) اتهمت: نزلت إلى تهامة (شاطىء الحجاز). أنجدت: صعدت إلى نجد (الهضبة الوسطى في شبه جزيرة العرب). أعرقت (وصلت إلى العراق)- عمّت واشتهرت.

ومن مَناقبهِ أنّ الملوكَ لم تَزَلْ تَبْني على أقدارها ويُقضى عليها بآثارِها[1]. وأنّه بَنى في المُدّةِ القليلةِ ما لم تَبْنِ الخلفاءُ في المُدّة الطويلة.... ومن مناقبه أنه أولُ من سُمِّيَ أميرَ المؤمنين من خُلفاءِ بني أُمَيَّة بالأندلس.

- ولابنِ عبدِ ربّه أبياتٌ رِقاقٌ بارعاتٌ، منها:

صِلْ من هَوِيتَ وإنْ أبْدى مُعاتبة؛ فأطْيَبُ العَيْشِ وَصْلٌ بين إلْفَيْنِ.
واقطَعْ حَبائِلَ خِدْنٍ لا تُلائمُه، فقلّما تَسَعُ الدُنيا بغيضين[2]!

- اشْرَبْ على المَنْظر الأنيق، وآمْزُجْ بريق الحبيب ريقي؛
وآحْلُلْ وشاحَ الكعاب رِفْقاً خَوْفاً على خَصْرها الرقيق[3].
وقُلْ لِمَنْ لام في التَصابي: خَلِّ قليلاً عن الطريق!

- أنتَ دائي، وفي يديك دوائِي، يا شِفائِي من الجَوى وبَلائِي[4].
إنَّ قلبي يُحِبُّ مَن لا أُسمِّي في عَناءٍ، أَعْظِمْ به من عناء!
كيف لا، كيف أن أَلَذَّ بعيشٍ ماتَ صبري به ومات عزائي.
أيُّها اللائمون، ماذا عليكم أن تعيشوا وأَنْ أموتَ بدائي؟
ليس مَن ماتَ فآستراح بَميْتٍ، إنّما الميْتُ ميِّتُ الأَحياء!

- ودّعتني بزَفْرةٍ وآعتناقِ ثم نادَتْ: متى يكونُ التلاقي؟
وتصدَّتْ فأَشْرَقَ الصُبْحُ منها بينَ تلك الجيوبِ والأطواق[5]
يا سقيمَ الجفونِ من غير سُقْمٍ، بين عَيْنَيْكَ مَصْرَعُ العشّاق.
إنّ يومَ الفراقِ أفظعُ يومٍ، ليتَني مِتُّ قبلَ يوم الفراق!

---

(١) الملوك في العادة تعمل ما تقدر عليه ثمّ نحكم نحن على أعمالهم بما يكون لهذه الأعمال من نتائج.....
(٢) الخدن: الصديق، الأليف.
(٣) الوشاح: قطعة من النسيج تجعلها المرأة على أعلى جسمها. الكعاب والكاعب: الفتاة أول صباها.
(٤) الجوى: ألم الحبّ.
(٥) الجيب: مدخل الثوب في العنق. الطوق: حلية توضع في العنق.

- من أرجوزة ابن عبدِ ربه:

سُبحــانَ مَنْ لم تَحْوِهِ أقطــارُ ولم تكن تُدركُـه الأبصــار؛
ومَنْ عَنَــتْ لوجهــهِ الوجوهُ، فما لــه نِــدٌّ ولا شَبيــه[1].
لكنّــه يــدرك بالقريحــه والعقــلِ والأَبْنِيَــةِ الصحيحه[2].
معرفــةُ العقــلِ مِنَ الانسانِ أثبــتُ من معرفــة العِيــان.
وبعــد حمدِ اللهِ والتمجيــدِ وبعــدَ شُكرِ المُبدئَ المُعيد[3]،
أقولُ في أيــامِ خــيرِ النــاسِ ومَن تحلّــى بالنّدى والباس[4]،
ومن أبــادَ الكُفرَ والنِّفاقــا وشرّدَ الفِتْنــــةَ والشِّقاقــا،
ونحن في حنــادِسٍ كالليْــلِ وفِتنــةٍ مثــلِ غُثــاءِ السَّيْل[5]،
حــتى تولّــى عابــدُ الرحمنِ ذاك الأغَرُّ من بــني مروان.
قد أشرقتْ بنوره البلادُ وانقطــعَ التشغيــبُ والفساد.
خليفــةُ اللهِ الــذي آصطفــاهُ على جميع الخلق وآجتباه[6].
أحْيـا الذي قد ماتَ من مكارم من عهدِ كعـبِ وزمانِ حاتَم[7].
هو الذي جمّع شمْلَ الأمهْ وجـاب عنها دامساتِ الظُّلْمهْ[8]،

---

(١) عنا يعنو: خضع. الند: المثيل.
(٢) القريحة: المقدرة على إدراك الأمور والحكم عليها. الأبنية الصحيحة: مقدمات المنطق، خطوات التفكير المنظم.
(٣) المبدىء والمعيد: الله (هو بدأ الخلق أول مرة وهو سيعيد الناس إلى الحياة يوم القيامة).
(٤) الندى: الكرم. البأس: القوة.
(٥) الحندس (بضم فسكون فضم): اشتداد الظلام. غثاء السيل: الأقذار الخفيفة التي يجرفها السيل فتطفو على سطحه. المقصود في الأصل بهذه الإستعارة: الضعف والشيء لا قيمة له. والشاعر يقصد (أن الفتن) كثيرة شديدة متلاحقة.
(٦) اصطفاه: اختاره. اجتباه: قرّبه.
(٧) كعب بن مامة وحاتم الطائي من الأجواد (من الكرماء) في الجاهلية.
(٨) الدامس: المظلم. جاب ليست في القاموس بالمعنى الذي أراده الشاعر. هـ يقصد «أزاح».

وجدّدَ المُلكَ الذي قد أخلقا حتى رَسَتْ أوتادُه وآستوثقا[1].

وآفتتح الحصونَ حِصناً حصنَا وأوسعَ الناسَ جميعاً أمْنا

وجمّع العُدّة والعَديدا وكثّف الأجنادوالحشودا[2]

ولم يَزَلْ حتى آنتحى جيّانا فلم يَدَعْ بأرضها شَيْطانا[3].

فأصْبح الناسُ جميعاً أُمَّهْ قد عقَدَ الإلَّ لهم والذِّمّهْ[4].

وانصرفَ الناسُ إلى القُليعهْ فصبّحوا العدُوَّ يومَ الجُمعهْ[5].

ثم التقى العِلجان في الطريقِ: البَنْبَلونيُّ مَعَ الجِلّيقي[6].

فأعْقَدَا على آنتهابِ العسكرِ وأن يموتا قبلَ ذاكَ المحضر.

وأقبلوا بأعظم الطُّغيان قد جلّلوا الجبال بالفُرسان[7]؛

فأشرعتْ بينَهُمُ الرِّماحُ وقد علا التكبير والصياح[8].

وآلتقتِ الرِّجالُ بالرجال وآنغمسوا في غَمرةِ القتال،

في موقفٍ زاغتْ به الأبصارُ وقَصُرتْ في طولهِ الأعمارُ.

حتى بَدَتْ هزيمةُ البُشكَنْس كأنه مُخْتَضِبٌ بالوَرس[9].

---

(١) أخلق: تهرأ، ضعف. رست: ثبتت. استوثق الأمر (والكلمة في القاموس لا تأتي بهذا المعنى): أصبح موثوقاً به مضموناً وفي أمان.

(٢) العدة: الآلات والسلاح. العديد: العدد الكثير (من الجند). الحشد (بالفتح): الناس المجموعون لأمر ما.

(٣) انتحى: قصد. جيان: مدينة في جنوبي الأندلس... شيطان: (ثائر).

(٤) الإلّ والذمة: العهد.

(٥) القليعة... صبح الرجل القوم: جاءهم في الصباح.

(٦) بنبلونة: بلدة في أقصى الشمال. البنبلوني (أمير اسباني مسيحي؟) والجلّيقي (ابن مروان الجليقي): ثائر مسلم مرتدّ.

(٧) جلّلوا: غطّوا (بفتح الطاء). جللوا الجبال بالفرسان (لكثرة عددهم).

(٨) التكبير (قول: الله أكبر) من المسلمين. والصياح من الإسبان.

(٩) البشكنس: أمير البشكنس أو الجلالقة (سكان الشمال الغربي من إسبانية) أو قائدهم. الورس: صباغ أصفر مائل إلى الحمرة (من الخوف أو الغضب).

لمّا أتَتْهُ ميتَةَ الخِنزير وأنـه صـار إلى السعـير[١]،
كاتَبَهُ أولادُه بالطاعةْ وبالدُّخول مدخَـلَ الجماعـةْ[٢]؛
وأن يُقِرَّهُمُ عـلى الولايـةْ: عـلى دُرورِ الخَرْج والجبايـةْ[٣]
فاختـار ذا ذاك الإمامُ المُفضِلُ، ولم يَزَلْ من رأيـهِ التَّفَضُّـلُ.
ثم لَوَى الشيطـانُ رأسَ جعفرِ وصـار منـه نافخاً في المُنْخُرِ[٤]
فنقَـضَ العُهودَ والميثاقـا واستعملَ التشغيبَ والنفاقا
فاعتاقـه[٥] الخليفـةُ المُويَّـدُ وهو الـذي يُشقـى بـه ويُسعَـد.
فجنّـد الجنودَ والكتائبـا وقوّد القُوّادَ والمقانبا[٦].
ثم انتحـى من فَوْرِهِ بُبَشْتَرَا فلم يَدَعْ فيها قضيباً أخضرا
حـتى إذا حَـلّ عـلى تُطيلـةْ بكتْ على دمائها المطلولةْ[٧].
وهَمَّ أن يُديـخَ دارَ الحرْب وأن تكونَ ردْأه في الدَّرْبِ[٨].
ثمّ استشارَ ذا النُّهـى والحِجْر مِن صَحْبـه ومن رجال الثَّغر[٩].

---

(١) الخنزير هنا: عمر بن حفصون كان يتظاهر بالإسلام ولم يكن مسلماً (كما ظهر فيما بعد حينما نبش قبره). وقد شغل عمر بن حفصون بثورته الأمراء الأندلسيين مدة طويلة، وكان يتلقى المساعدات من الإسبان ومن الأوروبيين خارج إسبانية.

(٢) بعد موت عمر بن حفصون استمر أولاده في الثورة على أمراء قرطبة. ولكنهم كانوا أحياناً- إذا ضعفوا- تظاهروا بطلب الصلح والعفو.

(٣) درور الخرج: تقديم ضرائب وافية عن أراضيهم.

(٤) ثم... عاد (جعفر بن عمر بن حفصون) إلى الثورة.

(٥) اعتاقه: عاقه، منعه وصده (عن إنزال ضرر بالناس). المؤيد: المُعان (بضم الميم)، الذي يعينه الله.

(٦) قوّد...: عين قوّاداً. المقنب (بكسر الميم وفتح النون): جماعة من الفرسان دون المائة.

(٧) تطيلة بلدة إلى **الشمال الشرقي من سرقسطة**. المطلول: الذي يذهب دمه هدراً، لا ينصره أحد ولا يأخذ بثأره أحد. بكت. لعلّها: بكّت (بتشديد الكاف: جعلت الناس يبكون عليها). وهذا أصحّ في الوزن وفي المعنى.

(٨) أداخ: أخضع وأذل. دار الحرب: بلاد العدو ردأه: عون (؟) له، محطة. الدرب: الطريق في الجبل (أخضع تطيلة حتى لا تكون خطراً وراءه إذا هو قطع الجبال التي وراءها لمحاربة الإسبان).

(٩) النهى والحجر: العقل. الثغر: المكان المخوف، القريب من بلاد العدو (شمالي الأندلس).

فكلُّهم أشار ألاّ يُدْربـــا ولا يجوزَ الجبَلَ المُوَشّبا[1]؛

وشنعوا أنّ وراءَ الفَـــجّ خمسينَ ألفاً من رجال العِلجِ[2].

فقـال: لا بُـدّ من الدخول؛ وما إلى « حاشاه » من سبيلِ[3]

فاستنصرَ اللهَ وعبّـى ودخَـلْ، فكانَ فتحاً لم يكنْ له مَثَلْ[4].

وعاذ بالرَّغبةِ والدُّعاءِ واستنزل الصبرَ من السماء[5]؛

فقدّم القُوّاد بالحُشودِ وأتبـع المُدودَ بالمُدود[6].

فانهزمَ العِلْـجُ، وكانـتْ ملحمـةْ جاوزَ فيها الساقةُ المقدّمه[7]

لم يَغْزُ فيهـا وانتحـى بُبَشْترا فرمّها بما رأى ودبّرا[8].

واحتلهـا بالعزّ والتمكـين ومَحْو آثار بني حَفْصونِ[9]؛

وعاضَها الإصلاحَ من فسادِهِمْ وطهَّرَ القُبورَ من أَجسادهم.

حـتى خـلا ملحودُ كـلِّ قـبر من كُلّ مُرتدٍّ عظيم الكُفر.

عِصابـةٌ من شِيعـةِ الشيطـان عدُوَّةٌ للهِ والسُّلطان

٤- كتابِ العقد (المطبوع باسم « العقد الفريد »)، بولاق (المطبعة الأميرية) ١٢٩٣ هـ، القاهرة (المطبعة العثمانية) ١٣٠٢ هـ، (مطبعة إبراهيم عبد الرازق) ١٣٠٢ هـ (؟)؛ (المطبعة الشرقية) ١٣٠٢ هـ؛ (مطبعة شرف) ١٣٠٥ هـ؛ القاهرة ١٣١٤ هـ، ١٣١٦

---

(١) أدرب: جاوز (أو دخل) الدرب (الممر في الجبل) ليغزو وراء. : المؤشّب (الكثير الرجال والسلاح).

(٢) شنّع: (هوّل بنشر أخبار غير صحيحة أو للتخويف). الفجّ: الطريق الواسع (والمملوح هنا): الطريق في الجبل. العلج: الرجل الغليظ (والكافر الذي لا يعرف اللغة العربية)، ملك الإسبان.

(٣) وما إلى « حاشاه »: إلى استثنائه، إلى تركه.

(٤) عبأ الجيش: جمعه ورتبه.

(٥) عاذ: لجأ.

(٦) المدود: (يقصد جمع مدد- بفتح ففتح- ألف رجل ينضمون إلى جيش).

(٧) الساقة: جماعة ملحقة بالجيش (وتكون الساقة لإعداد الطعام ونقل السلاح وإصلاحه). والمقدمة: القسم الأول المتقدم في الجيش. جاوز فيها...: هرب الجيش كله (؟).

(٨) فيها: في سنة ٣١٦ هـ. انتحى: قصد ببشتر: حصن كان فيه عمر بن حفصون. رمّ القلعة: أصلح ما خرب فيها وزاد في قوتها.

(٩) بنو عمر بن حفصون الذين استمروا في الثورة بعد موته.

هـ؛ (المطبعة الأزهرية) ١٣٢١ هـ؛ القاهرة (المطبعة الجمالية) ١٣٣١ هـ (١٩١٣ م)؛ القاهرة ١٩٢٨ م (١٣٤٦- ١٣٤٧ هـ)؛ (مصطفى محمّد) ١٣٥٣ هـ (١٩٣٤ م)؛ (تحرير أحمد أمين- أحمد الزين- إبراهيم الأبياري) القاهرة (لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٣٥٩ هـ (١٩٤٠ م) وما بعد؛ (تحقيق محمّد سعيد العريان) القاهرة ١٩٤٩ م (١٣٦٨ هـ)، الطبعة الثانية (١٩٥٣ م. ١٣٩٣ هـ (١٩٧٢ م)؛ (تحرير عبد الستّار فرّاج) القاهرة (لجنة التأليف والترجمة والنشر) ، الطبعة الثانية ١٣٦٧ هـ= ١٩٤٨ م.

** ديوان ابن عبد ربّه الأندلسي - مع دراسة لحياته وشعره (نشره محمد ألتونجي)، دمشق (منشورات مؤسسة ومكتبة الخافقين) ١٣٩٧ هـ= ١٩٧٧

- فهارس تحليلية لكتاب العقد الفريد، القاهرة ١٣٢١ هـ؛(استخراج محمّد شافع) كلكتّا ١٩٣٥- ١٩٣٧ م.

- ديوان ابن عبد ربّه (جمعه وحقّقه وشرحه محمّد رضوان الداية)، بيروت (منشورات الرسالة) ١٩٧٩.

- ابن عبد ربّه وعقده، تأليف جبرائيل جبّور، بيروت (المطبعة الكاثوليكية) ١٩٣٣ م؛ (دار الآفاق) ١٩٧٩ م.

- دراسة العقد الفريد، مقال لشفيق جبري (مجلّة مجمع اللغة العربية ٢٧ : ١٧ و ١٦٥)؛ ابن الفرضي ١ : ٤٩- ٥٠؛ جذوة المقتبس ٩٤- ٩٦؛ بغية الملتمس ١٣٧- ١٤٠ (رقم ٣٢٧)؛ المقتبس ٢٤١- ٢٤٣؛ المطمح ٥١- ٥٣؛ المطرب ١٥١- ١٥٦؛ معجم الأدباء ٤ : ٢١١- ٢٢٤؛ وفيات الأعيان ١ : ١١٠- ١١٢؛ الوافي بالوفيات ٨: ١٠- ١٤؛ البيان المغرب ٢ : ٢٢٥؛ نفح الطيب ٧ : ٤٩- ٥٢؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣ : ٦٧٦- ٦٧٧؛ بروكلمان ١ : ١٦١، الملحق ١ : ٢٥٠- ٢٥١؛ نيكل ٣٥- ٤٣؛ مختارات نيكل ١٧- ١٨؛ الأعلام للزركلي ١ : ١٩٧- ١٩٨ (٢٠٧)؛ داية ٢٧٩- ٢٩٢.

القلفاط

١- هو أبو عبدِ اللهِ محمّدُ بنُ يحيى القُرطبيُّ المعروفُ بالقَلْفاط، لا نَعْرِفُ من حياتِهِ الأولى إلاّ أنه كان أحدَ المعلّمين. ويبدو أنّه كان قديمَ العهدِ بصِناعة التعليم حتّى أصبحتْ له جُرأةٌ على العَبَثِ بزُملائه المؤدّبين. وكان القلفاط يدرّسُ النَّحْوَ.

أما أحداثُ حياتِهِ البارزةُ فتكاد تتجمّع في أيّام الأميرِ عبدِ الله بنِ محمّدٍ (٢٧٥- ٣٠٠ هـ) وأيّام عبدِ الرحمن الناصرِ (٣٠٠- ٣٥٠ هـ). قال الحُميدي (جذوة ٩٢): «وأظنّه كان في أيامِ الحكَم المستنصر» (٣٥٠- ٣٦٦ هـ).

غير أنّنا إذا حَسَبْنا أنّه مَدَحَ إبراهيمَ بنَ حَجّاجٍ الثائرَ في إشبيليةَ (ت فجأة ٢٨٨) ثمّ هجاه، كما هجا الأمير عبدَ الله بن محمّدٍ (ت ٣٠٠)، وإذا علمنا أنّه كان صديقاً لابنِ عبدِ ربّه (ت ٣٢٨) ثمّ فَسَدَ ما بينَهما فهجاه، وأنّه كان صديقاً لأبي عبد الله محمّدِ ابن إسماعيلَ الحكيم (ت ٣٣١) لا نستبعدُ أن يكون القَلفاطُ قد عاش رَدْحاً في القرن الهجريّ الرابعِ. ثمّ إنّ عبدَ الرحمنِ الناصرِ قد عَهِدَ إليه وإلى نفرٍ آخرينَ بنَسْخِ شِعر أبي تمّامٍ وترتيبه، ولا يمكن أن يكونَ عبدُ الرحمن الناصرُ قد تَفَرَّغَ لذلك قبل أنْ هدأتْ أحوالُ الأندلس وتسمّى هو بالخلافة (٣١٦ هـ). فلعلّ هذا كلَّه يَميلُ بنا إلى الاعتقاد بأن القَلْفاط ظلّ على قيدِ الحياة إلى نحو ٣٢٥ أو ما بعدَها أيضاً.

٢- «القَلفاطُ» لقبُ محمّدِ بنِ يحيى الأديبِ (تاج العروس ٥ : ٢١٢) من نُحاةِ قُرطبةَ المشهورين ومن اللُّغويّين المُقتدرين. ثمّ إنّه كان أديباً مُقتدِراً في الشعر مُجَوِّداً مطبوعاً يُقَصِّدُ (يَنْظِمُ القصيدة) فيُحْسِنُ ويُطيل. لكنْ لم يَصِلِ إلينا من شعرهِ إلاّ قليلٌ. وكانتْ فنونُ شعرِهِ المديحَ والهجاءَ والغزلَ الرقيق السهل ووصفَ الطبيعة. لكنّ تَوَثُّبَه على الناسِ (بالهجاء) جعله قليلَ الحَظْوَةِ عندهم. وشُهرتُه بالهِجاء خاصّةً.

٣- مختارات من شعره

- قال محمّد بن يحيى القلفاط يَصف الرياضَ:

مُزْنٌ تُغنّيه الصَّبا، فإذا هَمى ... لَبّتْ حَياهُ رَوْضةٌ غَنّاءُ[١]:

فالأرض من ذاك الحَيا مَوْشِيّةٌ، ... والروض من تلك السماء سماءُ[٢].

(١) المزن: المطر. الصبا: ريح الشرق. تغنّيه الصبا (بصوت الرعد): أي يجعل المطر كثيراً (الرعد مرور شرارة كهربائية في الغيم تحيل في العادة بخار الماء الذي هو في الغيم ماء). والملاحظ أن المطر يغزر بعد الرعد مباشرة. همى: سقط بكثرة. الحيا: المطر. الروضة الغنّاء: الكثيرة الأزهار (أو الكثيرة الأطيار التي تألف الرياض حينما يكون ماؤها كثيراً وأزهارها كثيرة). لبّت (استجابت). حياه (ماء مطره) روضة غنّاء (أنبتت نباتاً ناضراً كثيراً ذا أزهار مختلفة).

(٢) موشيّة: فيها وشي (زركشة وزخرف من كثرة أنواع النبات والأزهار). السماء الأولى: المطر. السماء الثانية (استعارة): مثل السماء (يشبّه الأزهار التي في تلك الروضة بالنجوم التي تظهر في السماء (النجوم- جمع نجم: من النبات ما لا ساق له، والأجرام السماوية).

ما إن وَشَتْ كفٌّ صَناعٌ ما وشى ... ذاك الغِنــاءُ بها وذاك الماءُ(١)

زُهْرٌ لهـا مُقَـلٌ جَواحـظُ تـارةً ... ترنو، وتــاراتٍ لهـا إغضـاءُ(٢)

- وقال في النسيب:

يـــــــا غزالاً عَنّ لي فابْـ ... ـتَزّ قلـــــبي ثمّ ولّـــــى،(٣)

أنتَ مِنّي بفُؤادي ... - يـــا مُنـــــى قَلْبِيَ- أولى.

٤- * * الزبيدي ٣٠١- ٣٠٥؛ جذوة المقتبس ٩١- ٩٢ (الدار المصرية) ٩٨ (رقم ١٦٥)؛ بغية الملتمس ١٣٤- ١٣٥؛ المغرب ١: ١١١، إنباه الرواة ٣: ٢٣١، راجع ٢٣٣؛ الوافي بالوفيات ٥: ١٩٢ (راجع ٢٠٠)- في ص ٩٢ (الحاشية ٤) أنّ الصفدي خلط بين محمّد بن يحيى الرباحي (ت ٣٥٨) ومحمّد بن يحيى القلفاط؛ بغية الوعاة ١١٤؛ نفح الطيب ٣: ٢٩٤- ٢٩٥؛ البلغة ٢٤٩، ٢٥٢- ٢٥٥ (ترجمتان موجزة ومبسوطة)؛ نيكل ٣٧.

الحكيم القرطبيّ النحويّ

١- هو أبو عبدِ الله محمّدُ بنُ إسماعيلَ المعروفُ بالحكيم القُرطُبيِّ كان مولدُه في قُرطبةَ نحو سنة ٢٥١ (٨٦٥ م).

أخذ الحكيمُ القرطبيُّ عن المُحدِّث محمّدِ بنِ وضّاحٍ (ت ٢٨٦) وعن اللُّغويّ والمحدّث محمّدِ بنِ عبدِ السلامِ الخُشَنِيّ (ت ٢٨٦ أيضاً) وأخذ المَنْطِقَ عن المتفلسف محمّدِ بنِ عبدِ الله بن مَسَرَّةَ (٢٦٩- ٣١٩ هـ)، ولكن يبدو أنّه لم يتأثّر بشيءٍ من تَطرُّفِ ابنِ مَسَرّةَ وزَنْدَقتهِ. وكذلك أخذ عن محمّدِ بن الغازي (ت ٢٩٦ هـ) ما كان محمّدُ بنُ الغازي قد

---

(١) الصناع: البارع في عمل ما. «إن» زائدة. وشى: زركش، زيّن بالألوان. الغناء: صوت الرعد. الماء = ماء السماء: المطر.

(٢) زهر (بضمّ الزاي): كلّ حيوان أو نبات برّاق اللون المقلة: جسم العين (يشبّه الأزهار بالعيون). جواحظ جمع جاحظة (بارزة، يقظة). ترنو: تتطلّع (كأنّها تنظر). الأغضاء: تقارب جفني العين أو انطباقها (من النعس). المقصود: بعض الأزهار متفتّحاً كثيراً، وبعضه يكون قليل التفتّح. ولعل الكلمة «إغفاء» لا «اغضاء».

(٣) عنّ: ظهر. ابتزّ: سلب، سرق. روي هذان البيتان (فوق ص ٢٠٤).

جَلَبَهُ مَعَه من المَشْرِق من الشِّعر واللُّغة والنحو ومن الأشعار المشروحة روايةً عنه وسَماعاً عليه.

والحكيمُ القرطبيُّ كان مُؤَدِّباً للحكَمِ المستنصر بنِ عبدِ الرحمنِ الناصر. كما كان صديقاً للشاعر القَلفاط (ت ٣٢٥).

وكانت وفاةُ الحكيمِ القرطبيِّ في عاشرِ ذي الحِجّة من سَنَةِ ٣٣١ (٢٦/ ٨/ ٩٤٣ م).

٢- كان الحكيمُ القرطبيُّ بارعاً في اللغة والنحو والحساب والمنطق يُنْعِمُ النظرَ في كلّ شيء، فإذا بَحَثَ في أمرٍ أثار معانِيَه الدقيقةَ. ولكنّه كان عَيِيّاً في المُخاطبات. ومَعَ أنّه لم يُعْنَ بنظمِ الشعر فقد وصل إلينا منه بضعةُ أبياتٍ فيها نَفَسٌ ولَفَتاتٌ ثم سهولةٌ في التعبير.

٣- مختارات من شعره

- سَهِرَ الشاعر القَلفاط عند الحكيمِ القرطبي ليلةً ثمّ باتَ عنده وطال نومُه حتّى كادتِ الشمسُ تُشرق. فانتبه القَلفاط فقال يُخاطِبه مُتَنَدِّراً به يُسمّيه ديكاً ثمّ يُعاتِبُه لأنّه لم يَصِحْ في الوقتِ المُناسب حتى يَنهَضَ القَلفاط لصلاةِ الصُّبح:

يا ديكُ، ما لك لم تَصْرُخْ فتُنْبِهَنا؟ لقد أسأتَ بنا، ديكَ الدَّجاجاتِ!
يا آكلاً للقَذى، يا سالحاً عَبَثاً على الحصيرِ بَهيمِيَّ البهيماتِ!

فأجابه الحكيم القرطبي:

لقد صَرختُ مِراراً جَمّةً عدداً قبلَ الصباح، وبعدَ الصبح، تاراتِ.
لكنْ عَلِمْتُكَ نوّاماً وذا كَسَلٍ قليلَ ذِكْرٍ لجبّارِ السماواتِ

- وللحكيم القرطبيِّ أيضاً يُخاطب مَن اسْمُه ابنُ تَقيّ (في النسيب):

سَلْ تَقِيّاً، باللهِ، يا ابنَ تَقيٍّ: هل ترى قَتْلَ مُستَهامٍ شَجيّ؟
كلّما جَنّ لَيْلُه باتَ يَرعى أنْجُماً هائماً بطَرْفٍ خَفِيّ

يا سَميَّ النَّبيِّ، حَسْبُك ما بي؛ لا تَزِدْني جَوًى، بحقّ النبيّ

٤- ★ ★ الزبيدي ٣٠٠، ابن الفرضي ١ : ٣٤٩ (رقم ١٢٣٠)؛ معجم الأدباء ١٨ : ٣٠؛ الوافي بالوفيات ٢ : ٢١٠؛ بغية الوعاة ٢٢، البلغة ٣١٠.

خليل بن إسحاق

١- هو أبو العبّاسِ خليلُ بنُ إسحاقَ بن وَرْدٍ من أهلِ طرابُلُس (الغرب) ومن أبناء الجُنْد فيها. بَرَع في عددٍ من وُجوهِ العلم وأحاط بعددٍ من فُنون الأدب. وصَحِبَ الصوفيةَ مُدّةً. ويبدو أنّه كان رجلاً صالحاً، فمن أعمالِه أنّه أشْرَفَ على بناء الجامعِ الكبير الذي تمّ بناؤه سَنَةَ ٢٩٩ (٩١٢م) ثمّ زادَ فيه المَنارة (٣٠٠هـ).

وفي سَنَةِ ٢٩٩ ثار أهلُ طرابُلُس على الفاطميّين، فحاصَرَ عُبيدُ اللهِ المَهْدِيُّ- أولُ خلفاءِ الدولة الفاطمية- مدينةَ طرابُلُس حِصاراً شديداً ثمّ فَتَحَها بعدَ مُقاومةٍ عنيفة، سَنَةَ ٣٠٣، وفَرَضَ عليها غَرامةً باهظةً، قيل: أربعمائة ألفِ دينارٍ! في هذه الأثناءِ كان خليلُ بنُ إسحاقَ قد مالَ إلى الدعوة الفاطمية وٱعْتَنَقَها فولاّه عبيدُ اللهِ المَهْديُّ جَمْعَ تلك الغرامةِ، فٱشتطّ في جَمْعِها وعَذّبَ الناسَ في تحصيلها. وتقلّب خليلُ ٱبنُ إسحاقَ في عددٍ من مناصب الدولة: تولّى جَمْعَ الضرائب كما تولّى قيادَةَ فريق الخَيّالةِ.

غير أنّ عبيدَ الله المَهْدِيَّ عادَ فغَضِبَ عليه وأهمله. فلمّا جاء القائمُ بأمرِ الله (٣٢٢- ٣٣٤ هـ) ابنُ عبيدِ الله المَهْدِيّ أمّنَ خليلَ بنَ إسحاقَ وولاّه على جزيرةِ صقلّيةَ (٣٢٥- ٣٢٩ هـ) فأكثرَ فيها من الظلم وسَفْك الدماء وكان يفتخر ويزعُمُ أنّه قتل في صقلّيَةَ ألفَ ألفِ (مليون) نفس.

ثمّ إنّ القائمَ بأمرِ الله صَرَفَ خليلَ بنَ إسحاقَ عن صِقِلِّيَةَ وولاّه على جيشٍ لقتالِ أبي يزيدَ مَخْلدِ بنِ كَيْدادِ الخارجيِّ (٣١٦- ٣٣٦ هـ) المعروفِ بلقبِ «صاحب الحمار». ولكنّ أبا يزيدَ حاصَرَهُ في مدينةِ القَيْروان ثمّ أخذَه فقَتَلَهُ، سَنَةَ ٣٣٢ هـ (٩٤٣- ٩٤٤ م) وصَلَبَه.

٢- كان خليلُ بنُ إسحاقَ شديدَ التقلّبِ في حياته؛ وسَبَبُ آنتقاله من الخَيْرِ والصَّلاح إلى الظُّلم وسفك الدماء والانتقام يخفى علينا اليومَ. ومَعَ ذلك فإنّه كان شاعراً مُجيداً عذبَ الألفاظِ سهلَ التراكيب رقيقَ المعاني. وأكثرُ شِعره مديحٌ للفاطميّين.

٣- مختارات من شعره

- قال خليلُ بنُ إسحاقَ يمدَحُ عُبيد اللهِ المَهْدِيَّ بقصيدةٍ منها:

قِـفْ بالمنـازل وآسْألَنْ أطْلالَهـا . ماذا يَضُرُّكَ لو أردتَّ سُؤالَها[١]؟
هل أنتَ أولُ من بكى في دِمْنةٍ دَرَسَتْ وغَيّرتِ الحوادثُ حالَها[٢]!
يا دارَ زَيْنَبَ، هل تَرُدّيْنَ البُكا عن مُقْلةٍ سَفَحَتْ عليكِ سِجالَها[٣]؟
بُدِّلْتِ، بالأُنُسِ الخرائدِ كالدُّمى، وَحْشَ الفلاةِ ظِباءها ورِئالَها[٤].
صلّى الالَهُ على النَّبيِّ مُحَمّدٍ، وعلى الإمامِ وزادَهُ أمثالَها:
إنّ الإمامَ أقامَ سُنّةَ جَدّه للمُسلمينَ كما جَذَوْتَ نِعالَها[٥]،
وهَدَى بهِ اللهُ البَرِيّةَ بعدَما طلبَ الغُواةُ الظالمون ضَلالَها.
إنّ الخلافة، يا ابنَ بِنْت مُحمّدٍ، حَطّتْ إليك عن النبيّ رحالَها[٦].

(١) الطلل: مكان الخيمة بعد أن ينتزعها أهلها ويرحلوا عن المكان الذي كانوا فيه.
(٢) الدمنة: الطلل. درس المنزل: آمّحت آثاره.
(٣) سفحت العين: سال دمعها. سفحت سجالها (السجل بفتح السين: الدلو العظيم): بكت كثيراً.
(٤) في القاموس (٢ : ١٩٨): الأنوس من الكلاب ضدّ العقور وجمعها أنس (بضمّ فضمّ). ويقصد الشاعر بقوله بالأنس الخرائد: النساء الجميلات اللواتي يأنس بهنّ الرجل عادة. الدمية: التمثال، الصورة (المرأة الجميلة). الرئال جمع رأل: ولد النعامة.
(٥) السنّة: الطريقة، المنهاج، نمط الحياة. جدّه: محمّد رسول الله (يعتقد الفاطميّون أنّ عبيد الله المهدي مؤسّس الدولة الفاطمية من نسل فاطمة بنت محمّد صلى الله عليه وسلم). كما حذوت نعالها: كما فصّلت أديم إحدى النعلين على النعل الأخرى (يعني: يسلك كما كان يسلك رسول الله تماماً)- وفي هذه الاستعارة في هذا المكان قبح ظاهر.
(٦) يا ابن بنت محمّد: يا ابن فاطمة بنت محمّد: يا من أنت من نسلها. حطّت الخلافة إليك رحالها: وجدت فيه الخليفة الحقيقي (يعتقد الفاطميّون أن الإمام عليًّا وحده كان خليفة، ثمّ بقي الناس بلا خليفة حتّى جاءت الدولة الفاطمية).

ولقدْ عَهِدتُّ لآلِ زَيْنبَ حَبرةً ... فيهـا ودُنيـاً أقبلتْ إقبالَها[1].
بيضـاءُ ناعمـةٌ يجولُ وشاحُهـا، ... وتَهُزُّ دِقّـةُ خَصْرِها أكفالَها[2].
وكـأنّ في فِيهـا بُعيدَ رُقادِها ... عَسَلاً أصابَ من السماء زُلالَها[3].
ولقد عَصَيْتُ عَواذلي في حُبِّها. ... والنفسُ تَعْصي في الهَوى عُذّالَها[4].

٤- الحلّة السيراء ١: ٣٠٢- ٣٠٤؛ أعلام ليبيا ١٠٥.

أبو العرب التميميّ

١- هو أبو العرب محمّدُ بنُ أحمدَ بن تميم بن تمّام بن تميم القَيروانيُّ المَغْربيُّ الإفريقيّ، كان جَدّه تَميمُ بنُ تمّامٍ من أُمراءِ العرب (البَدْو) وأميراً على تونس.

بدأ أبو العرب التميميُّ تَلقي العِلمِ على محمّد بنِ يحيى بن السلام[5] ثمّ سَمِعَ من جماعةٍ منهم: أبو موسى عيسى بنُ مِسكينِ الإفريقيّ المحدّثِ الفقيه اللغوي (ت ٢٧٧) وحبيبُ ابنُ نصر بنِ سهلٍ (ت ٢٨٧) وأبو جعفرٍ حَمديسُ بنُ محمّدِ القطّان (ت ٢٨٩) ويحيى بنُ

---

(١) الحبرة (بفتح الحاء): السرور والنعمة (النضارة والرونق، السعادة). ودنيا أقبلت: خصب ونعيم وازدهار.

(٢) يجول وشاحها: يتحرّك وشاحها على كتفيها (كناية عن أنّ جسمها أهيف رشيق غير ضخم). الكفل (بفتح ففتح): الردف (بكسر الراء).- لعلّه يقصد: ضخامة أردافها تتعب خصرها النحيل الضعيف فتجعله يهتزّ بغير إرادته!

(٣) بعيد رقادها: بعد نومها بوقت قليل (عند استيقاظها). الزلال: الماء الصافي. السماء المطر.

(٤) العذلة (بضمّ ففتح) والعذّال (بفتح فتشديد) اللائم (الذي يلوم المحبّ على حبّه)، والجمع منها عذلة (بفتح ففتح) وعذّال وعذّل (بضمّ فتشديد فيها). والعواذل جمع عاذل: عرق يخرج منه دم الاستحاضة في المرأة (القاموس ٤: ١٤). والشاعر يقصد بالعواذل جمع عاذلة (لائمة للمحبّ على حبّه).

(٥) في المقدّمة لناشري كتاب «طبقات علماء إفريقية وتونس» (ص ٢٤) أن أبا العرب ولد بين سنة ٢٥٠ وسنة ٢٦٠ ثمّ على لسان أبي العرب: «أتيت وأنا حدث إلى دار محمّد بن يحيى بن السلام (كذا) فرأيت عنده الطلبة. وقيل لي إنّ الزيّ الذي كنت ألبَسه ليس زيّ طلبة العلم. ثمّ جاء في الصفحة ١١٣ (من الكتاب المنشور) أن محمّد بن يحيى قد مات سنة ٢٦٢ هـ. ومعنى هذا أن أبا العرب لم يكن (لمّا مات محمّد بن يحيى) في سنّ من يطلب العلم. فإذا تشدّدنا وأجزنا أن يكون أبو العرب قد ولد في سنة ٢٦٠ هـ فيكون عمره يوم توفّي محمّد بن يحيى سنتين! وإذا تساهلنا فقبلنا أن يكون قد ولد سنة ٢٥٠ هـ فيكون عمره يوم وفاة محمّد بن يحيى اثنتي عشرة سنة.

جعفرٍ التونسي الحافظ (للحديث) الزاهد (ت ٢٨٩) وأبو عثمانَ سعيدُ بنُ إسحاقَ الكلبيّ (ت ٢٩٥) وأبو يوسفَ جَبَلَةُ بن حَمّودِ بنِ عبدِ الرحمنِ الصَّدَفيّ الفقيه (ت ٢٩٧ أو ٢٩٩) وأبو عثمانَ سعيدُ بنُ الحدّادِ الفقيهُ (ت ٣٠٢ هـ).

وقدِ آحترفَ أبو العربِ تربيةَ أولادِ العرب ونسخَ الكتب. سمع منه أيضاً جماعةٌ منهم نَفَرٌ من الأعلام. من هؤلاء جميعاً ابناه تمّامٌ وتميمٌ ثمّ الفقيه المشهور ابنُ أبي زيدٍ القَيْروانيّ (ت ٣٨٦ هـ) ومحمّدُ بنُ الحارثِ الخُشني (ت بعد ٣٦٦ هـ).

وفي رَجَبَ من سنة ٣٣٣ (٩٤٥ م) حَضّ أهاليَ القيروانِ على القتالِ إلى جانبِ أبي يزيدَ أحمدَ بنِ يزيدَ الخارجيّ صاحبِ الحمارِ ضِدّ العُبيديّين (الفاطميّين) ولكنّه أُسِرَ وحُبسَ ثمّ مات في ٢٢ من ذي القَعْدة في الأغلبِ من سَنَةِ ٣٣٣ (٧/ ٧/ ٩٤٥ م)- وفي الديباج المذهب (ص ٢٥٠) سنة ٣٠٣.

٢- كان أبو العربِ التميميُّ رجلاً صالحاً عارفاً بالحديث ورجالهِ ثِقَةً، وكان فقيهاً حافظاً للمذهب المالكيّ. وقد كان كثيرَ التأليفِ في الحديثِ والفِقه والتاريخ. ويبدو أن معظم كتبهِ في الحديث والفِقه أبوابٌ (أي فصول وليست كتباً مستقلّة). له من الكتب (الفصول) في الفِقه: الوضوء والطهارة- الجنائز- في الصلاة- ذكر الموت وعذاب القبر. ثمّ له طَبَقات علماء إفريقية- (مجموع من التراجم لعلماء القيروان وتونس مَبْنِيّ على الرواية والإملاء)- عُبّادُ إفريقية- مناقب بني تميم- فضائلُ مالكٍ- كتابُ سحنونٍ (ذكر مناقبه وسِيرته في قضائه، ص ١٨٥)- كتاب التاريخ في سَبْعَةَ عَشَرَ جزءاً (ص ٢٧، ٣٦) وقيل في أَحَدَ عَشَرَ جُزءاً (ص ٣٨)، وهو الكتاب الذي كَسَبَهُ لَقَبَ «رافعِ لواءِ التاريخ في إفريقية» (ص ٢٧، راجع ٣٦)- المِحَن- موتُ العلماء (جزءان)- عوالي حديثه[١].

---

(١) عوالي الحديث: الأحاديث التي جرى جمعها وتخريجها في زمن متقدّم. فالأحاديث الواردة مثلاً في «السنن» للنسائي (ت ٣٠٣ هـ) فإنّها تعدّ في عوالي الحديث بالإضافة إلى الأحاديث الواردة في «المستدرك» للحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥ هـ) ولم ترد عند النسائي، فإنها لا تعد من عوالي الحديث بل من نوازله. والمعروف أن الحاكم النيسابوري قد استدرك أحاديث لم ترد في «الصحيحين» في صحيح (مجموع أحاديث) البخاري (ت ٢٥٦ هـ) وصحيح مسلم (ت ٢٦١ هـ). فالأحاديث الواردة =

وأسلوب أبي العربِ عاديٌّ واضحٌ، ولكنّه كثيرُ الإيجازِ إلى حدٍّ الإخْلال أحياناً. وكذلك كان له نظمٌ صحيحُ المعنى مِنْ مِثْلِ شعرِ العلماء.

٣- مختارات من آثاره

- قال أبو العربِ التميميُّ في الصديقِ الذي يتغيرُ:

إذا وَلّى الصديقُ لِغَيْرِ عُذْرٍ   فزادَ اللهَ خُلّتَه انقطاعا[١]

إلى يوم التّناد بلا رجوع.   فإن رامَ الرجوعَ فلا استطاعا[٢]!

إذا ولّى أخوك فَوَلِّ عَنْهُ   وزِدْهُ، وراءَ ما والاكَ، باعا[٣].

ونادِ وراءه: «يا ربِّ، تَمِّمْ؛   ولا تجعلْ لِفُرقتهِ اجتماعا».

- وقال في الضَّعْفِ من التقدّم في السنّ:

ضَعُفَتْ حِيلتي وقلّ آصطباري،   وإلى اللهِ أشتكي كلَّ ما بي:

وَهَنَ العَظْمُ بعدَ أن كان صُلْباً،   وفقدتُ الشبابَ أيَّ شَبابِ[٤].

- سحنون (طبقات علماء إفريقية وتونس ص ١٨٤ - ١٨٥)، وهو نصّ إنشائي لا رواية:

قال أبو العربِ: ومن شيوخِ أهلِ إفْريقِيَةَ أبو سعيد سَحْنونُ بنُ سعيدِ بنِ حبيبٍ التّنوخيُّ، من صَليبةِ العربِ[٥]، وأصلُه من الشام من أهل حِمْصَ. وأبوه سعيدٌ قَدِمَ معَ الجُند، وهو من أهل حمص. كان (سحنون) جامعاً للعلم فقيه البدن (؟) اجتمعتْ فيه

= عند البخاري ومسلم هي من عوالي الحديث بالإضافة إلى الأحاديث التي استدركها الحاكم عليهما. ثمّ إن لعوالي الحديث ونوازله درجات ليس هذا الكتاب مكاناً للتفصيل فيها.

(١) الخلّة (بالضمّ) الصداقة والمحبّة التي تتخلّل القلب.

(٢) التناد: التنادي: يوم القيامة.

(٣) والاك (كذا في الأصل). إقرأ: ولاّك (ولّى عنك). الباع: مدى الذراعين مبسوطتين. أي زده بعداً جديداً فوق ما ابتعد عنك.

(٤) وهن: ضعف. أي شباب!: ذلك الشباب الناضر الذي كان لي.

(٥) صليبة العرب: من العرب الخلّص الذين لم يتّفق اختلاط في أنسابهم.

خِلالٌ(١) ما ٱجتمعتْ في غيره: الفِقهُ البارع والورع الصادق والصرامة في الحقّ والزهادة في الدنيا والتخشُّنُ في الملبس والمطعم والسماحةُ والتَّرْكُ(٢)، لا يقبَلُ من السلطان شيئاً، وكان ربّما وصلَ، بَعْضَ إخوانهِ بالثلاثين ديناراً(٣). وكان (سحنون) أوّلَ من شرّدَ أهلَ الأهواء من المسجد الجامع، وكان فيه حَلَقات للصُّفْرِيّة والإباضيّة (والمعتزلةِ يتناظرون فيه) ويُظْهِرون زَيْغَهم(٤). وقد كان حافظاً للعلم، ولم يكن يَهابُ سُلطاناً في حقٍّ يُقيمه... ووَلِيَ القضاءَ سَنَةَ أربعٍ وثلاثينَ ومائتَيْنِ، وهو يومَئذٍ ابنُ أربعٍ وسبعين سَنَةً، ولم يأخُذْ على القضاءِ أجراً. وتُوُفِّيَ، رَحِمَهُ الله، يومَ الثُّلاثاء لِسَبْعَةِ أيامٍ مَضَتْ من رَجَبَ سَنَةَ أربعينَ ومائتَين.

٤- طبقات علماء إفريقية- ذكر علماء تونس (نشرهما محمّد بن أبي شنب المتوفّى ١٣٤٧ هـ-١٩٢٩ م منفصلين)، الجزائر ١٩١٤ م. ثمّ نشرهما منقولين إلى الفرنسية، الجزائر ١٩٢٠ م- طبقات علماء إفريقية وتونس (تقديم وتحقيق علي الشابّيّ ونعيم حسن اليافي)، تونس (الدار التونسية للنشر) ١٩٦٨ م.

★ راجع مقدّمة «طبقات علماء إفريقية وتونس»؛ الوافي بالوفيات ٢: ٣٩؛ الديباج المذهب ٢٥٠؛ بروكلمن، الملحق ١: ٢٢٨؛ الأعلام للزركلي ٦: ٢٠٠ (٥: ٣٠٩)؛ المجمل في تاريخ الأدب التونسي ٨٠؛ عنوان الأريب ٢٨.

عبد الله بن الناصر

١- هو أبو محمّدٍ عبدُ الله بنُ عبدِ الرحمنِ الناصرِ لدينِ الله، سَمِعَ من جُملةٍ من

---

(١) خلال جمع خلّة (بالفتح): الخصلة (بالفتح)، الصفة.

(٢) الترك: الترك لما هو حقّ للشخص كيلا يكون في أخذه إساءة إلى غيره!.

(٣) وصل... أعطى.

(٤) الصفرية من الخوارج الذين فارقوا الإمام عليًّا لأنّه قبل بالتحكيم بينه وبين معاوية بعد معركة صفّين. وهم يعدّون أصحاب الذنوب في المشركين ولكن لا يقولون بقتل نسائهم وأطفالهم. والإباضيّة أتباع عبد الله بن أباض، يقال فيهم إنّهم خوارج، ولكنّهم أقرب إلى أن يكونوا سلفيّة، غير أنّهم يتشدّدون في أشياء كثيرة كالخوارج (راجع الفهرس الهجائي). المعتزلة هم الذين يريدون إقامة البراهين على صحّة العقائد الإيمانية بالبرهان العقلي ولا يكتفون بالاقتناع بما ورد من ذلك في الروايات الدينية. الزيغ: الميل عن الحق، الباطل.

العلماء منهم المُحدِّثُ محمّدُ بنُ عبدِ الملك بن أيْمَنَ (٢٥٢- ٣٣٠ هـ) والمؤرخُ محمّدُ بنُ عبدِ البَرّ[١] والمؤرّخُ المحدّثُ مَسْلَمَةُ بنُ القاسم (٢٩٣- ٣٥٣ هـ) ومحمّدُ بنُ مُعاويةَ القُرَشيّ (ت ٣٦٥ هـ) وغيرُهم. وقد أخذَ المذهبَ الشافعيَّ عن حسّانِ بنِ سعدٍ[٢] وأحمدَ ابنِ محمّدِ بنِ عبدِ البَرّ. وكان صديقاً لسعيدِ بنِ فَرَجٍ الجَيّانيّ (أخي أحمدَ بنِ فرجٍ صاحبِ كتاب الحدائق والمُتَوَفَّى سَنَةَ ٣٤٤).

وغِيظَ عبدُ الله هذا لأنّ أباه عبدَ الرحمنِ الناصرَ جَعَلَ وِلايةَ العهدِ لأخيهِ الحَكَم. ثمّ نُقلَ إلى عبد الرحمن الناصر خبرُ مؤامرةٍ لخلعه ولقتل الحَكَم، قيل فيها ابنُه عبدُ الله وأحمدُ بن محمّد بن عبد البرّ وأحمدُ بنُ عبد الله بن العطّار (ت ٣٤٥ هـ). فحُبِسوا كُلُّهم في رَمَضَانَ من سَنَةِ ٣٣٨. ثمّ إنّ عبدَ الرحمن الناصرَ أمرَ بقتلِ ابنهِ في ١١ أو ١٢ من ذي الحِجّة من سَنَةِ ٣٣٩ (٢٠ أو ٢١/ ٥/ ٩٥١ م).

٢- من غرائبِ الاتّفاق أن عبدَ الله بنَ عبدِ الرحمنِ الناصرِ كان فقيهاً شافعياً وأنّ أخاه عبدَ العزيز كان حَنفيّاً بينما الحَكَمُ كان مالكيًّا. ولا غرابةَ في أن يكونَ مقتلُ عبدِ الله قد أدّى بالمذهبِ الشافعيّ إلى الركودِ في الأندلس.

وكان عبدُ الله بنُ الناصرِ فقيهاً مُتَنَسِّكاً حتّى سُمِّيَ الزاهدَ، كما كان مُحِبًّا للعلم والعُلماء بصيراً بلسانِ العربِ وشاعراً مطبوعاً مُحْسِناً ومُصَنِّفاً لكتبِ الأدب والتاريخ. له من الكُتُبِ: العليلُ والقتيل (في أخبار بني العبّاس بلَغ به إلى الراضي بنِ المقتدر المتوفّى سنة ٣٢٩ هـ)- المُسْكِتة في فضائلِ بَقِيّ بنِ مَخْلَدٍ.

---

(١) هو أحمد بن محمّد بن عبد البرّ من موالي بني أميّة كان في حزب عبد الله بن الناصر ولم يكن يفارقه. ولمّا عرف عبد الرحمن الناصر بمؤامرة ابنه عبد الله وبمساعدة ابن عبد البرّ هذا أمر بسجنهما مع رفاقهما في المؤامرة. وقد توفّي ابن عبد البر في السجن (٢٨ رمضان ٣٣٨). وهو من فقهاء قرطبة ومن المؤرخين له «تاريخ فقهاء قرطبة» (راجع ابن الفرضيّ ١: ٢٧؛ الحلّة السيراء ١: ٢٠٧؛ الأعلام للزركلي ١: ١٩٩).

(٢) في تاريخ الفكر الأندلسي (ص ٤٣٤): حسان بن سعد و (ص ٤٣٥): الحسن بن سعد!

٣- مختارات من آثاره

- قال عبدُ اللهِ بنُ عبدِ الرحمنِ الناصرِ في الشَكْوى من المحبوب:

أمّـــا فُؤادي فكـــاتمٌ ألَمَـــهُ لوْ لمْ يَبُـحْ ناظري بِها كَتَمَـهْ[١].

ما أوضَحَ السُقْمَ في مَلاحِظِ مَنْ يَهْوى، وإنْ كان كاتِماً سَقَمَهْ[٢]!

ظَلِلْتُ أبكي، وظَـــلَّ يَعْذِلُـني مَنْ لم يُقاسِ الهوى ولا عَلِمَـهْ[٣].

إلَيْـــكَ مِن عاشقٍ بكـى أسَفـاً حبيبَه في الهوى وإنْ ظَلَمَهْ[٤].

ظَلّـــتْ جُيوشُ الأسى تُقاتِلُـــهُ مُـذْ نَـذَرَتْ أعْيُنُ المِلاحِ دَمَهْ[٥].

- ومن نثره:

إنّ هذهِ الوجوهَ الحِسانَ خلاّبةٌ، ولكنّا لا نَتَغَلْغَلُ في نَظَرِها ولا ندّعي العِفّةَ عنها بالجُملة[٦]. وفيها اعْتبارٌ وتَذْكارٌ بالحُور العِينِ التي وعَدَ الله تعالى[٧] - إنّ مِثْلَكَ في الفُقهاءِ لَمَعْدومٌ. ومِنْ عَقْلِ المرءِ ألاّ يُفْنِيَ عُمْرَهُ في ما لا يُنْفِقُهُ عصره[٨].

٤ ★ ★ جذوة المقتبس ٢٤٤ (الدار المصرية) ٢٦٢ - ٢٦٣ (رقم ٥٥٥)= بغية الملتمس ٣٣، المغرب ١ : ١٨٢؛ الحلّة السيراء ١ :٢٠٦؛ نفح الطيب ٣ : ٥٨٢ - ٥٨٣؛ الأعلام للزركلي ٤ : ٢٣٠ (٩٦).

---

(١) قلبي أخفى ألمه من حبّه، ولكن عيني ظهر فيها هذا الألم.

(٢) الملاحظ جمع ملحظ: اللحظ (الرؤية) أو موضعه (العين).- مرض القلب من الحبّ (وكلّ مرض آخر) يظهر في العيون واضحاً جدًّا.

(٣) يعذلني: يلومني.

(٤) إليك من عاشق (كذا في الأصل). أقرأ: إليك عن (أبعد، ابتعد، اترك)..... وإن ظلمه حبيبه.

(٥) الأسى: الحزن. نذر دمه: أباح دمه (سمح لجميع الناس أن يقتلوه).

(٦) خلب: خدع، فتن (سلب العقل). لا نتغلغل..... لا نمعن النظر (إلى الحسان) ولا نستطيع أن نردّ بصرنا عنهنّ بالكلّيّة.

(٧) ....في الجنة

(٨) العاقل لا يعمل عملاً لا يكون له قيمة في عصره أو لا يكون هنالك راغبون فيه.

قاسم بن أصبغ البيّاني

هو أبو محمّدٍ قاسمُ بنُ أصبغَ بنِ محمّدِ بنِ يوسفَ بنِ ناصحِ بنِ عَطاءٍ البيّانّي؛ كان جَدّه الأعلى عطاءٌ مولى الوليدِ بنِ عبدِ الملك.

وُلِدَ قاسمُ بنُ أصبغَ في بَيّانةَ يومَ الإثنين في الثاني والعشرين من ذي الحجّة من سنة ٢٤٧ (بغية الوعاة ٣٧٥) أو ٨٦٢/٢/٢٦م، وسَكَنَ قُرطبةَ.

سَمِعَ في قُرطبةَ نفراً من العلماء منهم ابنُ وضّاحٍ ومحمّدُ بن عبد السلام الخُشَنيّ. ثمّ رَحَلَ إلى المشرق فوصل إلى بغدادَ سَنَةَ ٢٧٦ هـ (٨٨٩- ٨٩٠ م) فسَمِعَ من محمّدِ بنِ عيسى التِرْمِذيّ (ت ٢٧٩ هـ) والحارثِ بن أبي أُسامة التميميّ (ت ٢٨٢ هـ) واسماعيلَ ابنِ اسحقَ الأزدي القاضي (ت ٢٨٢ هـ). وأراد أن يسمَعَ من أبي داوودَ السجسْتانيّ، ولكنْ لم يُدْرِكْهُ لأنّ أبا داوودَ كان قد تُوفّيَ سَنَةَ ٢٧٥ هـ (٨٨٩ م)، قبلَ أن يدخُلَ قاسمُ بن اصبغَ بغدَادَ بِبَعْضِ عامٍ. وكانت وفاةُ قاسم بن اصبغ في ١٤ جمادى الأُولى من سَنَة ٣٤٠ (٩٥١/١٠/١٨م). وفي شذرات الذهب (٢: ٣٥٧) أنه عاش ثلاثاً وستّين سنة (لعلّه خطأ صوابه ثلاث وتسعون) لأن ذهنه تغيّر قبل ثلاث سنوات من وفاته، كما جاء أيضاً في شذرات الذهب.

كان قاسمُ بنُ أصبغَ من أئِمّةِ العلم حافظاً للحديث ثقةً مُكْثِراً من الحِفْظ، بارعاً في الفِقْه وفي علم اللغة. وقدِ آشتهر في الحديثِ خاصّةً شُهرةً عظيمةً حتّى أن الناس كانوا يرحَلون إليه لسَماع الحديث. وكانتْ له تصانيفُ منها: أحكام القرآن- الناسخ والمنسوخ- المصنّف (في الحديث، ألّفه على ترتيب سنن أبي داوود السجستاني وخرّج ما فيه من الأحاديث: ذكر طرق روايتها، وذلك أنّه لم يدرك أبا داوود ليتخرّج عليه فتخرّج على كتابه)- الكبير (في الحديث)- المجتنى (كتاب حديث مصنّف على أبواب الفقه، صنّفه قاسم بن أصبغ لأمير المؤمنين الحكم المستنصر، اختصره من كتابه «الكبير» وبدأ اختصاره في المحرّم من سنة ٣٢٤ هـ)- غرائب حديث مالك بن أنس ممّا ليس في «الموطّأ»- فضائل قريش- كتاب في الانساب.

- ** ابن الفرضي ١: ٤٠٦- ٤٠٨ (رقم ١٠٧٠)؛ جذوة المقتبس ٣١١ (الدار المصرية) ٣٣٠- ٣٣١ (رقم ٧٦٩)؛ بغية الملتمس ٤٣٣- ٤٣٤ (١٢٩٨)؛ معجم الأدباء ١٦: ٢٣٦- ٢٣٧؛ بغية الوعاة ٣٧٥؛ نفح الطيب ٢: ٤٧- ٤٩؛ شذرات الذهب ٢: ٣٥٧؛ دائرة المعارف الإسلامية ٤: ٧١٧- ٧١٨؛ الأعلام للزركلي ٦: ٧ (٥: ١٧٣).

حفصة الحجاريّة

١- هِيَ حَفصةُ بنتُ حَمْدونٍ، من أهل وادي الحِجارة، كانت على شيء من الثروة والوجاهة تَمْلكُ عبيداً. وكانت وفاتها في القرنِ الرابعِ (العاشرِ للميلاد).

٢- كانتْ حَمدونُة الحِجاريةُ عالمةً وأديبةً شاعرةً لها شعرٌ كثير.

٣- مختارات من شعرها

- قالتْ حمدونةُ الحِجاريةُ تَذُمّ عبيدَها:

يا ربٌّ، إنّي من عبيدي على   جَمْرِ الغَضى؛ ما فِيهِمُ من نجيبْ:
إمّا جهولٌ أبْلَهٌ مُتْعِبٌ،   أو فَطِنٌ من كَيْدِهِ لا يُجيبُ!

- وقالتْ في النسيب:

لي حبيبٌ لا يَنْثني لِعتابٍ،   وإذا ما تركتُهُ زادَ تيها.
قالَ لي: هلْ رَأيتِ لي مِنْ شبيهٍ؟   قلتُ: أيضاً، وهل تَرى لي شبيها!

٤- ** المغرب ٢: ٣٧- ٣٨؛ نفح الطيب ٤: ٢٨٥- ٢٨٦؛ الأعلام للزركلي ٢: ٢٩٢ (٢٦٤).

أبو الحزم جهور بن أبي عبدة[١]

١- هو أبو الحزمِ جَهْوَرُ بنُ عُبيدِ الله (ت ٢٩٦) بنِ محمّدِ بنِ الغَمْر بن يحيى بن عبد الغافر بن حسّانِ بن مالكِ بن عبد الله بن جابرٍ: كان عبدُ الله مملوكاً للخليفة الأمويّ مَروانَ بن الحَكَم (ت ٦٥ هـ). وكان حسّانٌ- وكُنيتُه أبو عَبْدَةَ- هو الذي دخل الأندلس (سَنَةَ ١١٣، وإليه تُنْسَبُ الأسرةُ). ثمّ إنّ عُبيدَ الله، وكان يُكنى أبا

(١) حق هذه الترجمة أن تأتي بعد ترجمة «الرازي المؤرخ» (ص ٢٣٨- ٢٤١).

عُثمانَ، قد تقلّب في مناصب الدولة طويلاً، ولكنه آثر أخيراً أن يعتزلَ المناصبَ وأن يهجُرَ المجتمعَ إلى أن تُوُفِّيَ سنة ٢٩٦.

وأمّا جَهْورُ بنُ عُبيدِ الله صاحبُ هذه التَرْجَمةِ فلا نَعْرِفُ من أحداث حياته إلاّ ما ذكره ابنُ الأبّار (ت ٦٥٨) من أنّه تصرّفَ في الكُوَرِ (تَوَلّى المقاطعات) والأمانات والقيادة والمدينة ومن أنّه وَزَرَ للخليفة عبدِ الرحمن الناصرِ (الحلّة السيراء ١ : ٢٤٧). وجاء في البيان المغرب (٢ : ٢٢٠)، في أخبار سَنَة ٣٤٤ ، أن الخليفةَ عبدَ الرحمنِ الناصر «قَلّدَ الوزيرَ جَهْوَرَ بنَ أبي عَبْدةَ النَظَرَ في جميع كُتُب أهلِ الخِدمة». وإذا كان والدُ جَهْوَرٍ قد تُوُفيّ سَنَة ٢٩٦، فلا يُنْتَظر أن يكونَ جهورٌ نفسُه قد عاشَ طويلاً بعد ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م).

٢- كان أبو الحزم جهور بن عبد الله بن أبي عبدة الوزيرُ شاعراً مكثراً، أكثر شعره الوصف والنسيب والأدب (الحكمة).

٣- مختارات من شعره

- قال أبو الحزم جَهْورُ بنُ أبي عبدةَ يَصِفُ الوردَ ويُفَضّله (على الأزهار)، ويَرُدُّ في ذلك على ابن الروميّ الذي فضّل النَرْجسَ على الورد[١]. قال أبو الحزم:

الوردُ أحسنُ ما رأتْ عَيْنٌ، وأزْ ... كى ما سقى ماءُ السحابِ الجائدُ[٢].

خَضَعَتْ نواويرُ الرياض لِحُسنه ... فتذلّلتْ تنقادُ وَهْيَ شوارد[٣].

---

(١) قال ابن الرومي (٢٨٣ هـ):

للنرجس الفضل المبين لأنّه ... زهر ونور وهو نبت واحد.

- المبين: الظاهر، الواضح. الزهر: الورق الملّون (أحمر، أصفر، الخ). النور: بفتح النون): الورق الأبيض. يقول ابن الرومي: النرجس أفضل وأحسن لأنّه زهرته تتألف من لونين: أوراق الوسط فيها صفراء والأوراق المحيطة بيضاء.

(٢) أزكى: أحسن وأطيب رائحة. الجائد: الكريم.

(٣) النواوير (جمع نوّار بضمّ النون وتشديد الواو)، والنّوار جمع نوّارة (بضمّ فتشديد أيضاً): الزهر الأبيض اللون. فتذلّلت.....: اعترفت جميع الأزهار بفضل الورد مع أنّها شوارد: عاصية لا تخضع لأحد....

وإذا تبــدّى الوردُ في أغصانــهِ ذَلّوا: فذا مَيْتٌ وهذا حاسد.
وإذا أتـى وَفْدُ الربيـعِ مُبَشِّراً بطلوعِ صَفْحتهِ فنعْمَ الوافد[1].
ليس المُبَشِّرُ كالمُبَشَّرِ بآسمِـــــه؛ خَبَرٌ عليـه من النُبُوَّةِ شاهـد[2].
وإذا تَعرّى الوردُ من أوراقه بَقِيَـتْ عوارفُـه فهنّ خوالـد[3].

- وقال في العِتاب والنسيب:

يـــا عاتبـــاً لِيَ بالصُـــدو دِ، ألا ذَكَرْتَ قبيحَ غَدْرِكْ[4]؟
أخْلَيْـــتَ من قلـــبي مكـــا نـــاً كـــان معموراً بذِكْرِكْ؛[5]
وأنــــا أُحِبُّــــكَ، لو وَثِقـ ـتَ، وأستـديمُ طويـلَ عُمْرِكْ[6]!

٤- * * جذوة المقتبس ١٧٧ (الدار المصرية) ١٨٨- ١٨٩ (رقم ٣٦٠)؛ الحلّة السيراء ١: ٢٤٥- ٢٥٢ (وفيه مناقشة لتحقيق نسبة أشعار أبي الحزم جهور ومناقشة خلْط نفر من أصحاب المصادر بينه وبين أبي الحزم جهور الذي استبدّ بقرطبة بعد سقوط الخلافة المروانية)؛ راجع أيضاً نفح الطيب ١: ٢٠٣- ٢٠٤ (وفيه أيضاً حاشية في الموضوع نفسه).

سعيد بن عبد ربّه

١- هو أبو عثمانَ سعيدُ بنُ إبراهيمَ (عبدِ الرحمن) بن محمّدِ بن عبدِ ربِّهِ بنِ حبيب آبنِ محمّدِ بن سالمٍ، وسالمٌ هذا مولى الأميرِ هشامٍ الرضيِّ بنِ عبدِ الرحمنِ الداخل. ثم هو

(١) النرجس يسبق الورد في الظهور (فكأنّ النرجس يبشّرنا بقدوم الورد)....

(٢) ...- والمبشّر (بكسر الشين) يكون أدنى مكانة من المبشَّر (بفتح الشين) به. والدليل على ذلك أنّ عيسى بن مريم جاء مبشّراً بمحمّد صلّى الله عليه وسلّم. في القرآن الكريم (٦١: ٦ سورة الصفّ): وإذ قال عيسى بن مريم: يا بني إسرائيل، إنّي رسول الله إليكم مصدّقاً لما بين يديّ من التوراة ومبشّراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد.... ».

(٣) العوارف جمع عارفة: الإحسان. الخالد: الباقي الذي لا يزول.- وإذا تعرّى الخ: إذا ذهبت أيام الورد بقي لنا ما نصنعه من الورد (ماء الورد، الخ).

(٤) أنت تلومني لأنّي تركت لقاءك، مع أنّك أنت قد خنت عهودنا.

(٥) أنت هجرتني مع أنني لم أكن أحبّ أحداً غيرك (لم يكن في قلبي سواك).

(٦) ومع ذلك فأنا أستديم (أطلب دوام) حياتك، وأرجو أن تثق بقولي....

ابنُ أخي ابنِ عبدِ ربّه (ت ٣٢٨) صاحب كتاب « العِقْد ». تكسّبَ بالطِبِّ وعَمِيَ في أواخر أيامهِ. وكانتْ وفاتُه سَنَةَ ٣٤٢ (٩٥٣- ٩٥٤ م).

٢- كان سعيدُ بنُ عبدِ ربّه من أهلِ العلمِ والأدبِ وشاعراً محسناً. غيرَ أنّه شُغِلَ بالطِبِّ والفلك. ومن آثاره: أُرجوزةٌ في الطِبِّ- كتاب في الأقراباذين (الأدوية)- وتعاليقُ مُجرّباتٌ (في الطبّ).

٣- مختارات من شعره

- بَعَثَ سَعيدُ بنُ عبدِ ربِّهِ يوماً إلى عمّهِ أحمدَ (صاحب كتاب « العقد ») يدعوه إلى أن يحضُرَ إليه لِيُؤانسه. فلم يُجِبْهُ عَمّه فكَتَبَ إليه يقولُ معاتباً:

لمّا عَدِمْتُ مُؤانساً وجَليساً ... نادَمْتُ بُقراطاً وجالينوسا[1].
وجَعَلْتُ كُتْبَهُما شِفاءَ تَفَرُّدي، ... وهما الشِفاءُ لكلّ جُرحٍ يُوسى[2].
ووجَدتُ عِلْمَهما إذا حصّلْتُه ... يُذكي ويُحيي للجُسوم نفوساً[3]!

- وقال في أواخرِ عُمُرِه:

أمِنْ بعدِ غَوْصي في علومِ الحقائق ... وطولِ انبساطي في مواهبِ خالقي[4]،
وفي حينِ إشرافِي على مَلَكوته، ... أُرى طالباً رِزْقاً إلى غير خالقي[5]؟
وأيامُ عُمْرِ المرءِ مُتْعَةُ ساعةٍ ... تَجيء حثيثاً مِثْلَ لَمْحةِ بارق[6].

---

(١) بقراط أو أبقراط (ت ٣٦٥ ق. م.) طبيب يوناني قديم مشهور بالبراعة في المداواة. وجالينوس (ت نحو ٢٠٠ م) طبيب يوناني متأخّر في الزمن ولكن بارع في التشريح والتطبيب.

(٢) يوسى = يؤسى (المجهول من ...): يداوى.

(٣) أذكى فلان النار: أوقدها. والشاعر يقصد هنا أنّ قراءة كتب بقراط وجالينوس تذكي الإنسان (تجعله ذكيّاً).

(٤و٥) في هذين البيتين نزعة إلى التصوّف.

(٦) متعة: استفادة، سرور. ساعة: وقت قصير. الحثيث: المستمر (السريع).

وقد آذنت نفسي بتَقْويضِ رِحْلِها، وأَسْرَعَ - في سَوْقي إلى الموت - سائقي[1].

وإنّي وإن أوْغَلْتُ، أو سِرْتُ هارباً من الموت في الآفاق فالموت لاحقي[2]!

٤-★ ★ جذوة المقتبس ٢١٣ ثمّ ٣٧٥ - ٣٧٦ (الدار المصرية) ٢٢٩ ثمّ ٤٠٠ (رقم ٤٦٥ ثمّ ٩٤٨/٩٤٩)؛ بغية الملتمس ٢٩٣ (رقم ٧٩١)؛ طبقات الأطبّاء ٢: ٤٤ - ٤٥؛ ابن جلجل ١٠٤ - ١٠٦ وفيات ابن قنفذ ٢١٤؛ الأعلام للزركلي ٣: ١٥٠ (٩٧).

الداروني

١ - هو أبو محمّدٍ حسنُ بنُ محمّدٍ التميميُّ العنبريُّ الدارونيُّ، نِسبةً إلى دارونَ - وهي مَنْزِلٌ (محطّة للقوافل قربَ القيروان). وكان يعرفُ بابنِ أختِ العاهة (!).

كانَ الدارونيُّ مُعْجَباً بقومهِ تميمٍ وبنَسَبهِ فيهم شديدَ الافتخارِ بهم إلى درجةٍ تخرُجُ عن الحدّ المعقول. وكان كثيرَ الحُبّ للبادية يكرَهُ أهلَ الحَضَر وأهل البَدْو ممّن يعملون في الصناعاتِ والزراعةِ والتجارة. وكانتْ وفاةُ الدارونيّ سنة ٣٤٣ (٩٥٤-٩٥٥ م).

٢ - كان الدارونيُّ إماماً في اللغة وفي العِلم بالشعر مشغوفاً بالشعراءِ القُدماءِ وبذي الرُمّة خاصّةً، عارفاً بأخبار العرب وأنسابها وأيامها. وكذلك كان شاعراً مُجيداً غزيرَ الشعر جيّد الطبع مقتدراً على المعاني.

٣- مختارات من شعره

- أملقَ (أعْسَرَ وافتقر) الدارونيُّ يوماً فكتب إلى أبي جعفرٍ المَرْوَذيْ، وكان يَخْدِمُ الشيعة (الفاطميّين):

كَتَمْـتُ إعساري وأخْفَيْتُـهُ خوفـاً بـأن أشْكو إلى مُعْسِرِ،

(١) آذنت بالمدّ: قاربت. تقويض الرحل: نزع الخيمة من مكانها (استعداداً للرحيل)؛ كناية عن قرب الموت.

(٢) أوغل الرجل في الغابة: سار فيها بعيداً. في الآفاق: أطراف البلاد (الأماكن البعيدة عن الحضر المناطق المعمورة والمناطق المهجورة: سيلحق بي الموت أينما ذهبت.

وأنْ يقولَ الناسُ إنّي فتًى ... لم أصُنِ العِرض ولم أصْبِرِ.
فإن تكُنْ في حاجةٍ شاكياً، ... فاَشْكُ إلى مِثل أبي جعفرِ.
فهْوَ لِما أمّلْتَه أهلُه؛ ... وما أراه اليومَ بالموسِرِ!

٤- ** طبقات الزبيدي ٢٦٧- ٢٦٨؛ بغية الوعاة ٢٣٦؛ البلغة ٦٦.

الرازيّ المؤرّخ

١- هو أبو بكرٍ أحمدُ بنُ محمّدِ بنِ موسى[١] الرازيُّ، وُلِدَ في عاشِرِ ذي الحِجّةِ من سَنَةِ ٢٧٤ (٢٦/ ٤/ ٨٨٨ م). وقد سَمِعَ أبو بكرٍ الرازي هذا من أحمدَ بن خالدٍ[٢] وقاسمِ بن أصبغَ وغيرِهما. وكانتْ وفاتُه في ثاني عَشَرَ رَجَبَ من سَنَةِ ٣٤٤ (١/١١/ ٩٥٥ م).

٢- كان أبو بكرٍ أحمدُ بنُ محمّدِ بنِ موسى الرازيُّ واسعَ الحِفظ للأخبار فعُرِفَ باسم «المؤرّخ» و «بالتاريخيّ» لكَثْرَةِ آشتغاله بالتاريخ. وكان أيضاً متميزاً بالجغرافية أديباً وشاعَراً ولغويّاً ونحويًّا؛ ومُؤلِّفاً مُكْثِراً، له: أخبارُ ملوك الأندلس وكتّابهم وخِططهم (الوافي بالوفيات ٨: ١٣١)- كتاب أنساب مشاهير أهل الأندلس (خمسة أجزاء)، ويسمّى الاستيعاب (الحلّة السيراء ١: ٢٤٥)- كتاب صفة قرطبة وخِطَطِها ومنازل العظماء بها- كتاب كِبار الموالي الأندلسيّين أو أعيان الموالي- أخبار عُمَرَ بنِ حفصونٍ- أخبار مروان بن عبد الرحمن الجلّيقي- أخبار بني قَسي والتُجيبيّين وبني الطُوَيْل والثغرِ (ولعله كتاب الموالي) هذه الكتب لم تصل إلينا، ولكنّ المؤرخين المتأخّرين نقلوا منها في كتبهم نُتَفاً كثيرة.

---

(١) راجع تتمّة نسبه في ترجمة أبيه محمد بن موسى الرازي (ت ٢٧٣ هـ).

(٢) في «تاريخ العلماء والرواة للعلم في الأندلس» لابن الفرضي ثلاثة أسماؤهم أحمد بن خالد: أبو عمر أحمد بن خالد بن الجبّاب القرطبي الفقيه المحدّث (١: ٤٢)، ثم أبو القاسم أحمد بن خالد بن يزيد الأسدي من أهل بجّانة ويعرف بابن أبي هاشم، كان محدّثاً، وقد توفّي في سادس شوّال من سنة ٣٦٨ (١: ٥٩)، ثمّ أبو عمر أحمد بن خالد بن عبد الله الجذاميّ المحدّث المتوفّى في ٢٦ من ذي القعدة من سنة ٣٧٨ (١: ٦٨- ٦٩).

٣- مختارات من آثاره

- قالَ أحمدُ بنُ محمّدِ بنِ موسى الرازيُّ في نسَب عبيدِ الله الملقّبِ بالمَهْدِيّ أوّلِ ملوك الشيعة في المغرب (الحلّة السيراء ١ : ١٩٠):

واختلف الناسُ في نسب عبيد الله. فقال قوم: هو عبيدُ الله بن محمّد بن اسماعيلَ بنِ جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالبٍ. قال: وأخبرني الثِقة عن أبي القاسم أحمدَ بنِ اسماعيلَ الرّسيِّ الحَسَني أنّه قال: باللهِ الذي لا إله إلاّ هو، ما عبيدُ الله منّا. ولا أقولُ هذا لِما فعل، فقد فعَلَ مَنْ لا يُشَكّ في نسبهِ أكثرَ من فعله وأشنع[١].

- وقال في وصف الأندلس (نفح الطيب ١ : ١٢٩- ١٣١):

بلدُ الأندلسِ هو آخِرُ الإقليمِ الرابعِ[٢] إلى المَغْرب. وهو عند الحكماء بلدٌ كريمُ البُقعةِ طيّب التُربة خِصْب الجَناب مُنْبَجِسٌ بالأنهار الغِزار والعيون العِذاب[٣]، قليلُ الهَوام[٤] ذواتِ السموم، معتدلُ الهواء والجوّ[٥] والنسيم، ربيعُه وخريفه ومشتاه ومَصيفه على قَدْر من الاعتدال..... تتصل فواكِهُهُ أكثرَ الأزمنة وتدوم متلاحقةً غيرَ مفقودة. أمّا الساحل منه ونواحيه فيُبادرُه بباكوره[٦]. وأمّا الثَغْر[٧] وجهاته والجبال المخصوصة منه ببرد الهواء فيتأخّر بالكثيرِ من ثمره. فمادّة الخيرات بالبلد مُتَمادِيةٌ في كلّ أوان. وله خواصٌّ في كَرَم النبات يوافقُ في بَعضها أرضَ الهند.... منها أن المَحْلَب- المقدَّم في الأفاويهِ والمفضّلَ في أنواع الأشْنان[٨]- لا يَنْبُتُ بشيء من الأرض إلا بالهند

(١) لا أتهمه بذلك لأفعاله الشنيعة، فقد فعل غيره (ممّن كانوا أشرف نسباً) أفعالاً أشنع من أفعاله.

(٢) الإقليم الرابع: المعتدل (يقع الأقليم الأوّل على خطّ الاستواء، ويقع الأقليم السابع عند القطب الشماليّ).

(٣) منبجس: متفجّر، سائل. الغزير: الكثير. العذاب (بكسر العين): جمع عذب (حلو).

(٤) الهوامّ: (الحشرات الصغيرة).

(٥) الجوّ: المنخفض في الأرض (وهنا: حال الهواء من البرد والحرّ).

(٦) يبادر بباكوره: يعطي أشياء من ثمره باكراً.

(٧) الثغر: المكان الذي يخشى منه مجيء العدوّ (وهنا: شماليّ الأندلس المصاقب لأمراء النصارى).

(٨) المحلب: نوع من الطيب المستخرج من النبات (يؤكل). الأفاويه: أنواع الفلفل. الأشنان (بفتح الهمزة أو كسرها): أنواع من النبات يستخدم ورقه في الغسل والتنظيف (كالصابون).

والأندلس. وللأندلس المدنُ الحصينة والمعاقل المنيعة والقِلاع الحريزة والمصانع الجليلة [١]،ولها البرّ والبحر والسهل والوعر..... والأندلسُ اندلسانِ في اختلاف هبوبِ رياحها وجَرَيان أنهارها: أندلسٌ غربيٌّ وأندلسٌ شرقيّ. فالغربيّ منها ما جرَتْ أوْدِيَتُهُ إلى البحر المُحيط الغَرْبي[٢]، ويُمْطَرُ بالرِياح الغربية. ومبتدأ هذا الحَوْز[٣] من ناحية المشرق معَ المفازة الخارجة من الجَوْف إلى بلد شَنْتَمَرِيّة[٤] طالعاً إلى حوز اغريطة المجاورةِ لِطُلَيطلةَ[٥] مائلاً إلى الغرب ومجاوراً للبحر المتوسط الموازي لقَرْطاجَنّةِ الخلفاء التي من بلد لُورقة[٦]، (ثم) الحَوْزِ الشرقي المعروف بالأندلس الأقصى[٧] وتجري أوديته إلى الشرق، وهو من حدّ جبال البُشْكَنس، هابطاً معَ وادي إبْرُه إلى بلدِ شنت مرية[٨]. ومن جوف هذا البحر وغربه المحيطُ . وفي القِبلة[٩] منه البحر الغربي الذي منه يجري البحر المتوسط الخارج إلى بلاد الشام، وهو البحر المسمّى بَبحْرِ تِيرانَ[١٠]، ومعناه الذي يشُقّ دائرةَ الأرض، ويسمّى البحرَ الكبير.

– وقالأحمدُ بنُ محمّدِ بنِ موسى الرازيُّ (المقتبس ٨٩):

كان الأميرُ عبدُ الرحمنُ (بن الحكم)[١١] مُقدَّمَ الطبَقةِ في البلاغة مطبوعاً على الكتابة

---

(١) المصنع (هنا): البناء العظيم (وفي الأصل: الحوض تجمع فيه المياه).

(٢) الوادي (في المغرب): النهر. المحيط الغربي (الاطلنطيكي).

(٣) الحوز: جانب من الأرض ذو حدود معيّنة.

(٤) المفازة: الصحراء. شنتمريّة: بلدة في أقصى الجنوب الغربي من الأندلس (البرتغال اليوم، وأسمها فارو).

(٥) طليطلة جنوب مدريد.

(٦) قرطاجنّة الحلفاء (أو الخلفاء) مرفأ في الجانب الجنوبي الشرقي من الأندلس. لورقة بلدة داخلية غرب قرطاجنة.

(٧) الأندلس الأقصى الجانب الشمالي الشرقي.

(٨) جبال البشكنس: في الشمال عند اتصال اسبانية بفرنسة. نهر ابره يصبّ عند طرطوشة (على الشاطىء الشمالي الشرقي). شنتمريّة الشرق: بلدة إلى الشرق الشمالي من مدريد.

(٩) الجوف: الجنوب. (وسط اسبانية). المحيط (الاطلنطيكي). القبلة (الجنوب الشرقي): اتجاه المصلّي في الأندلس نحو مكّة.

(١٠) يبدو أن الإشارة هنا إلى البحر الأبيض المتوسّط (ولفظه في الأجنبية مديترّانيوم).

(١١) عبد الرحمن بن الحكم رابع الأمراء المتوارثين في الأندلس (٢٠٦– ٢٣٨ هـ).

مُقتدراً على ما حاوَلَ من سَنِيّ المنثورِ والمنظوم مُؤثراً لِمَنْ يُحْسِنُها مُقَرِّباً بوسيلتِها[1]. وكان له التوقيعُ الوجيزُ[2] والقريض المُستَحْسن.

- وقال أيضاً (المقتبس ١٢٩- ١٣٠):

كان لخلافة الأمير محمّد بنِ عبدِ الرحمنِ غَضارةٌ[3] ولأيامه زهرةٌ ولسُلطانه جلالةٌ سَرَتْ إلى المشرق من قِبَلِ مَنْ تجاوَزَ الأندلسَ من أهل العُدوةِ[4]، فأضحى لديهم طيّبَ الخَبَرِ جميلَ الأثر اعتقدَ له من أجلِهِ كثيرٌ من ملوكِ أهلِ العدوةِ الولايَةَ[5]، وألْقَوْا إليه بالمودّة وأبْدَوْا إليه المحبّةَ وأعتمدوه بالمُشاركة فيما يُحْدِثُ اللهُ إليهم من مِحْنَةَ[6]. فبَلَوْا منه صِحّةَ عقدٍ[7] ونَحيزةً صَغَوْا بها إليه فداموا له على المُواصلة. وكان أكْلَفَهُمْ بما لَدَيْهِ من أملاك[8] أهلِ العُدوة بنو مدرارٍ ملوكُ سِجِلْمَاسةَ وبنو أفْلَحَ بنِ عبدِ الوهّاب الرُسْتَميّ أمراءُ تاهَرْتَ[9] وغيرُهم.

٤- ★ ★ الزبيدي ٣٢٧؛ جذوة المقتبس ٩٧، راجع أيضاً ٩٦-٩٧ (الدار المصرية) ١٠٤ مرتين (رقم ١٧٤ و ١٧٥)؛ بغية الملتمس ١٤٠ (رقم ٣٣٠، راجع أيضاً رقم ٣٢٩)؛ ابن الفرضي ١: ٥٤-٥٥؛ معجم الأدباء ٤: ٢٣٥- ٢٣٦؛ الوافي بالوفيات ٨: ١٣١؛ بغية الوعاة ١٦٨؛ نفح الطيب ٣: ١٧٣- ١٧٤؛ دائرة المعارف الإسلامية ط ١، ٣: ١١٣٧؛ بروكلمن ١: ١٥٦- ١٥٧، الملحق ١: ٢٣١؛ الأعلام للزركلي ١: ١٩٩- ٢٠٠. (٢٠٨).

---

(١) يقرّب إليه البارعين فيها.

(٢) التوقيع: جملة يدوّنها الخليفة أو الوالي أو القاضي في أسفل القصة (الطلب، المعروض المقدم اليه) وتكون حكما بتنفيذ الطلب أو رفضه.

(٣) محّمد بن عبد الرحمن خامس أمراء الأندلس (٢٣٨- ٢٧٣ هـ). غضارة: السعة (بفتح السين) والنعمة.

(٤) العدوة (بضمّ العين أو كسرها): الجانب. (هنا) الشاطىء الشمالي من قارة إفريقية. من تجاوز (في رحلته: أسفاره) الأندلس.

(٥) اعتقد له الولاية: أقرّ له بالطاعة وبحقّه في الحكم.

(٦) واعتمدوه بالمشاركة.... سألوه رأيه وعونه على التغلّب على ما ينزل بهم من الأحداث (اعتداء الأعداء عليهم).

(٧) العقد: العهد، يضمره الإنسان في نفسه.

(٨) أكلفهم: أشدهم تعلّقاً به وحباً له. النحيزة: الطبيعة. صغا: مال إلى... الأملاك (الملوك).

(٩) راجع، فوق، ص ٦١.

أبو وهبٍ العبّاسيُّ

١ - هو أبو وَهْب عبدُ الرحمنِ العبّاسيُّ من بني العَبّاس، مَوْلِدُهُ (في بَغدادَ) نحو سَنَةِ ٢٥٤ (٨٦٨ م)؛ طرأ على الأندلس وسكن قُرطُبةَ وأخفى نَسَبَهُ. وكانت وفاتُه سَنَةَ ٣٤٤ (٩٥٥ م).

٢ - كان أبو وهبٍ العبّاسيُّ زاهداً وَرِعاً قليلَ الاحتفالِ بأمورِ الدنيا، مَعَ أنّه كان مُتَفَنِّناً في أطرافٍ من العلوم. وله كلامٌ في الزُّهد والوَعْظ متينُ الأُسلوبِ. ومثلُ ذلك شعرُه مَعَ سهولةٍ في التركيب وحَلاوةٍ في اللفظ.

٣ - مختارات من شعره

- وممّا ينسب إلى أبي وهبٍ العباسي (نفح الطيب ٤ : ١١٤):

قــد تَخَيّرتُ أن أكونَ مُخِفّــا ... ليس لي من مَطِيِّهم غيرُ رِجْلي[١].

فـإذا كنـتُ بينَ رَكْبٍ فقالوا: ... «قدّموا للرحيل»، قدّمتُ نَعْلي[٢].

حيـثما كنـتُ لا أُخلّفُ رحْلاً؛ ... من رآني فقـد رآني ورحلي[٣].

- وقال في الزهد (نفح الطيب ٣ : ٢٢٦):

تنـامُ، وقـد أُعِـدَّ لـك السُهادُ؛ ... وتُوقِنُ بالرحيـل، وليس زادُ[٤]!

وتُصْبِحُ مثلَ ما تُمسي مُضيعاً، ... كأنّـك لست تـدري ما المُراد.

أتطمَــعُ أن تفوزَ غـداً هنيئـاً ... ولم يكُ منك في الدنيا ٱجتهاد.

إذا فرّطــتَ في تقـديمِ زَرْعٍ، ... فكيفَ يكون - من عَدَمٍ - حَصاد!

---

(١) المخفّ: الذي لا يحمل متاعاً أو أثقالاً (ليس معه أشياء يحملها في انتقاله). المطيّ جمع مطيّة: الدابة التي تُستخدم في الركوب.

(٢) الركب: الجماعة يركبون (ينتقلون، يسافرون) معاً.

(٣) الرحل (هنا): متاع البيت، الأثاث.

(٤) السهاد: السهر (الحزن من التفكير في العواقب). الرحيل: (هنا) الموت. الزاد (هنا) العمل الطيّب الذي ينفع الإنسان في آخرته.

- كان أبو وهبٍ العبّاسيُّ إذا أصبحَ، ونَظَرَ إلى استيلاءِ النور على الظُلْمة، رفع يَدَيْهِ إلى السماء وقال:

اللَّهُمَّ، إنّك أمرتَنا بالدُعاء إذا أسْفَرْنا[1] فاسْتَجبْ لنا كما وَعَدتَّنا. اللّهمَّ، لا تُسَلِّطْ علينا في هذا اليوم من لا يُراقِبُ[2] رضاك ولا سُخْطَك. اللّهمَّ، لا تَجْعَلْ رزْقَنا على يدِ سِواك. اللَّهمَّ، ٱمْحُ من قلوبنا الطَمَعَ في هذه الفانيَةِ[3] كما مَحَوْتَ بهذا النور هذه الظُلْمَةَ. اللَّهمَّ، إنّا لا نَعْرفُ غيرَك فنَسْأَلَه، يا أرْحَمَ الراحمينَ، يا غِياثَ من لا غياثَ له!

- ومن شعره:

أنـا في حالَـتي الـتي قـدْ تَراني ... أحسَنُ النـاسِ إن تَفَكَّرْتَ حالا:
مَنْزِلي حيـثُ شِئْـتُ مِنْ مُسْتَقَرِّ الأرْضِ ... أُسْقَى مِنَ المِيـاهِ زُلالا[4]؛
ليس لي كُسْوةٌ أخـافُ عليهـا ... مِنْ مُغيرٍ، ولا تَرى ليَ مالا[5].
أجعَـلُ الساعِـدَ اليمـينَ وِسادي، ... ثُمّ أثـني إذا انْقَلَبْـتُ الشِّمالا[6].
قـد تَلَـذَّذْتُ حِقْبَـةً بأمورٍ ... فتَدَبَّرْتُهـا فكانـت خَيـالا[7]!

٤-★ ★ المغرب ١ : ٥٨ - ٥٩؛ نفح الطيب ٣ : ٢٠٧، ٢٢٦؛ نيكل ٢١٢؛ مختارات نيكل ١٤٨.

---

(١) أسفر الرجل: سافر باكراً (نهض من نومه).- الدعاء مطلوب في كلّ حين، ولا وجه بتقييده بزمن معيّن أو بحال معيّنة.

(٢) رقب الشيء وارتقبه انتظره. لا يراقب (لا ينتظر، لا يؤمن. لا يخشى)

(٣) السخط: الغضب. الفانية: الحياة الدنيا.

(٤) الزلال: الماء الصافي.

(٥) المغير: الهاجم (اللص).

(٦) الوسادة: المخدّة. أثني (أطوي) الشمال (اليد اليسرى). مرة أجعل وسادتي يدي اليمنى ومرّة أجعلها يدي اليسرى.

(٧) حقبة: مدّة طويلة. تدبّر الأمر: نظر فيه وفكّر فيه.

أحمد بن محمّد بن أضحى

١- هو أحمدُ بنُ محمّدِ بنِ أضْحى بنِ عبدِ اللطيفِ بنِ خالدِ الغريبِ بنِ يزيدَ بنِ الشَمِرِ بنِ عبدِ شمسِ بنِ غريبِ الهَمْداني الإلبْيريّ، من أهلِ هَمْدانَ وَهِيَ قريةٌ على مقرُبةٍ من غَرناطةَ. وعُرِفَ جَدّهُ خالدٌ بلقبِ الغريب لأنّه كانَ أوّلَ مولودٍ من العرب الشاميّين (الذين جاءوا مَعَ بَلْجِ بنِ بِشْرٍ-راجع، فوق،ص ٣٩) في كورة إلبِيرةَ. وكان والدُه محمّدٌ صاحبَ حِصنِ الحَمّةِ من أعمال إلبيرة ومن أنصارِ الأميرِ عبدِ اللهِ بنِ محمّدٍ.

أمّا أحمدُ بنُ محمّدِ بنِ أضْحى نفسُه فلا نَعْرِفُ من أحداثِ حياتِه إلا أنه كان في أيامِ عبدِ الرحمنِ الناصرِ (٣٠٠- ٣٥٠ هـ=٩١٢- ٩٦١ م). ولعلّ وفاته كانتْ في حدود سنة ٣٤٥ (٩٥٦ م)[١].

٢- في الحِلّة السِيَراء (١: ٢٢٩) أنّ أحمدَ بنَ محمّدِ بنِ أضحى «كان من أحسنِ الناسِ وجهاً وأفصحِهِمْ لِساناً وأشْهَمِهِمْ نفساً وأوْسَعِهِمْ أدباً» وكان شاعراً مُجيداً وخطيباً قديراً عارفاً بأشياءَ من العلم (كما نرى من خُطبته)

لابن أضْحى هذا بيتانِ من الرَجَز ألْحَقَهُما بخُطبتهِ بينَ يَدَيْ عبدِ الرحمنِ بنِ مُحمّد، هما:

اللهُ أعطاكَ التي لا فوقَها   وقد أرادَ المُلْحدون عَوْقَها

(١) في الحلّة السيراء (١: ٢٢٩) أن أحمد بن محمّد بن أضحى قدم مع أبيه في وفد من قومه على الناصر عبد الرحمن بن محمّد داخلين في طاعته. إنّ قدومهم هذا يجب أن يكون سنة ٣٠٠ هـ (٩١٢ م) حيّنما جاء أبو مطرّف عبد الرحمن بن محمّد إلى الإمارة. أمّا قول ابن الابّار (الحلّة السيراء ١: ٢٢٩): «على الناصر عبد الرحمن بن محمّد» وقول لسان الدين بن الخطيب (الإحاطة ١: ١٥٧): «قدم على الخليفة عبد الرحمن» فمن باب التجوّز (لأنّ عبد الرحمن بن محمّد لم يأخذ لنفسه البيعة بالخلافة ولا تلّقب بلقب «الناصر» إلاّ في سنة ٣١٦ هـ. وبما أنّ لسان الدين قال عن أهل أحمد بن محمّد بن أضحى «جميعهم من أهل البلاغة والبيان والأدب والشعر البارع» (الإحاطة ١: ١٥٦)، فإنّ تقدّم أحمد بن محمّد ابن أضحى لإلقاء خطبة وإنشاد قصيدة عن الوفد يدلّ على أنّه كان في ذلك الحين من أسنّهم أو من احسنهم أدباً. ولعلّ الاحتمال الثاني هو الأصحّ هنا، وهذا أيضاً يندر أن يتّفق للإنسان قبل الثلاثين من عمره.

عنـك، ويأبـى اللهُ إلاّ سَوْقَهـا إليك، حتّى قلّدوكَ طَوْقها[1].

فإذا هو عَنَى بقوله «التي لا فوقَها» الخِلافةَ فيكونُ وفودُه على عبدِ الرحمنِ بنِ محمّد سَنَةَ ٣١٦ للهجْرة أو بعدَها بقليلٍ.

٣- مختارات من آثاره

- قَدِمَ أحمدُ بنُ محمّد بنِ أضْحى الإلبيريُّ على أبي مُطرِّفٍ عبد الرحمن بن محمدٍ فخطب بين يديه وقال:

الحمدُ للهِ المُحتجبِ بنورِ عظمتهِ عن أبصارِ بَريّته، والدالِّ بحُدوثِ خَلْقه على أزليّته... وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ له إقراراً بوَحْدانيّته.... وأشهدُ أنّ محمّداً عبدهُ ورسولُه انْتَخَبَه من أطيب البُيوتاتِ... ثمّ أكرمَهُ برسالتهِ وأنزلَ عليه مُحْكَمَ تنزيله واختارَ له من أصحابِه وأشْياعه خَلْقاً جَعَلَ منهم أئمّةً يَهْدون بالحق وبه يَعْدلون[2]. وجَعَلَ اللهُ الأميرَ- أعزّهُ اللهُ- وارثَ ما خَلّفوهُ من معاليهم وبانيَ ما أسّسوه من مَشاهِدِهم حتّى أَمّن المَسالك[3] وسَكّن الخائفَ، رَحْمةً من الله أَلْبَسَه كرامَتَها وطَوّقَه فَضيلتَها. واللهُ يُؤتي مُلْكَهُ مَنْ يشاء. واللهُ ذو الفضلِ العظيمِ.

- وقال في العتاب والاعتذار:

هَوًى كَدّرَ الواشونَ منه الذي صفا ونَمُّوا بأفعى الإفْكِ عنّي مُزَخْرَفاً[4].

---

(١) الشاعر هنا لم يجعل الشطر وحدة المعنى. ولو أردنا ترتيب هذين البيتين بحسب المعنى (كما يفعل نفر من الشعراء المعاصرين لنا بأشعارهم من باب التجديد) لكان الترتيب كما يلي:
الله أعطاك التي لا فوقها،
وقد أراد الملحدون عوقها عنك.
ويأبى الله إلاّ سوقها إليك،
حتّى قلّدوك طوقها.

(٢) راجع القرآن الكريم ٧:٥٩ (سورة الأعراف): «ومن قوم موسى أمّة يهدون بالحق وبه يعدلون» (يحكمون بالعدل بين الناس بحسب أمره).

(٣) المشاهد: الآثار الحضارية. المسالك: الطرق (كان عبد الرحمن بن محمّد قد جاء إلى الإمارة والبلاد مضطربة جدًّا بالثورات، وبثورة عمر بن حفصون خاصّة).

(٤) نمّ: زيّن الكلام بالكذب ونقله على غير وجهه. الأفك: الاختلاق، الكذب. مزخرفاً: مذوّقاً، مكذوباً فيه.

وَشَوْا، وأصاخَتْ أُذْنُ خِلّي، فما وَفَوْا بتَبليغِهِ ما لم أَقُلْهُ؛ ولا وَفى[1]!
وهلاّ - كما أَنْصَفْتُه في مَحَبّتي- ثَناهُمْ على الأعقاب منهم فأَنْصَفا[2]؟
فلا كان واشٍ كان داءُ ضَميرِه هَواناً، فلمّا أنْ رأى هَجْرَنا اشتفى[3].
ولا يَفرحوا أنْ أَوْقَدوا الهَجْر جاحِماً فعمّا قريبٍ ينطفي؛ أَوْ قدِ انطفى[4]!

٤- الحلّة السيراء ١: ٢٢٨- ٢٢٩؛ الإحاطة ١: ١٥٦ - ١٥٩.

أبو القاسم الفزاري

١- هو أبو القاسمِ محمّدُ بنُ عبدِ الله الفَزاريُّ، وُلِدَ في القَيْروانِ ونشأ فيها. وكانتْ وفاتُهُ سَنَةَ ٣٤٥ (٩٥٦- ٩٥٧ م).

٢- كان أبو القاسمِ الفَزاري رَجُلاً مُتقلّبَ الهوى يتكسّبُ من أهلِ كلّ دَوْلةٍ قائمةٍ. لمّا تغلّبَ مَخْلَدُ بن كَيْداد[5] على عددٍ من المُدُنِ التونسية وانتزَعها من يدِ الفاطميّين ثم خضعتْ له القيروانُ (٣٣٣ هـ) مَدَحَهُ أبو القاسم الفَزاري بعددٍ من القصائدِ هجا فيها الفاطميّين وتعرّض للمذهب الفاطميّ. ولمّا تمكّن الفاطميّون من هزيمةِ مَخْلدٍ واستردادِ القيروان، وَشِيكاً بعدَ ذلك، ثم بذلوا الأمانَ لأهلِ القيروان مدحَهُمْ أبو القاسم الفَزاريُّ بقصيدةٍ يَرْفَعُهُمْ فيها فوقَ جميعِ المشاهيرِ من أهلِ الجاهليةِ والإسلامِ، ويُشيدُ بالمنصورِ الفاطميّ (٣٣٤- ٣٤١ هـ). والقصيدةُ مَتينةُ السَبْكِ سَهْلةُ التِلاوةِ برُغْمِ ازدحامِها بأسماءِ الرجال.

---

(١) الوشاية حمل الكلام من شخص إلى شخص بقصد الإفساد بينهما. أصاخ: أصغى، استمع. الخلّ: الصديق. ما كان هؤلاء الناس أوفياء (صادقين) في الكلام الذي نقلوه، ولا كان هو صديقاً وفيًّا لي لمّا صدق هذا الكلام.

(٢) ثناهم على الأعقاب: ردّهم خائبين (لم يسمع منهم).

(٣) كان هذا الواشي مبغضاً لنا وكان يرى نفسه محتقراً (حينما كان يشي ولا نسمع منه). فلمّا سمع منه خلّي (صديقي) تلك الوشاية بطل شعوره بحقارة نفسه.

(٤) الجاحم: الشديد الحرارة.

(٥) راجع، فوق، ص ١٧٣.

٣- مختارات من شعره:

- قال أبو القاسمِ الفَزاريُّ من القصيدة التي يَرْفَعُ فيها من شأنِ الفاطميّين:

لَعَمْرُكَ، ما أَوْسُ بنُ سُعدى بقومِهِ ... ولا سيّدُ الأوبار قيسُ بنُ عاصم[١]،

ولا كان ذو الجَدّين بينَ كتائبٍ ... لهامـيمَ من بَكْرٍ وحيٌّ اللهَـازم[٢]،

وربُّ مَعَدٍّ والأحاليفُ حولَهُ ... عُبـابٌ كمَوْجِ اللُّجَـةِ المتلاطم[٣]،

ولا حاجبٌ ذو القوسِ يخطُرُ حولَه ... قُرومٌ كأُسْدِ الغِيـلِ من آلِ دارم[٤]،

ولا خالدٌ سُمُّ العُداةِ آبنُ جعفرٍ ... ولا الحارثُ الشهمُ الفؤادِ آبنُ ظالم[٥]،

ولا كان بَسطامُ بنُ قيسِ بنِ خالدٍ ... وعمروُ بنُ كُلثومِ شِهابُ الأراقم[٦]،

ولا عَلَمُ الأجوادِ كعبُ بنُ مامةٍ ... عقيدُ الثناءِ المَحْضِ دونَ اللوائم[٧]،

بأَمْنَعَ منّي في جوارِ خليفةٍ ... عطوفٍ على أهلِ البيوتاتِ راحم[٨]،

كريمِ المساعي والأيـادي، سَمَتْ بـه ... أُبُوَّةُ صِدْقٍ من ذُؤابَةِ هاشمِ[٩] ....

---

(١) أوس ابن حارثة الطائي من السادات الكرماء وسعدى أمّه. وقيس بن عاصم سيّد بني تميم قال فيه رسول الله: «هذا سيّد أهل الوبر».

(٢) ذو الجدّين (من كان جدّه لأبيه وجدّه لأمّه عظيمين)، وهو عبد الله بن عمرو بن الحارث فارس الضحياء (اسم لعدد من الخيل المشهورة). وفي «مجمل تاريخ الأدب التونسي» (ص ٨٤): ذو الحدّين (بالحاء المهملة): مسعود بن بسطام، وكان شريفاً في قومه. الكتيبة: قطعة من الجيش (المشاة أو الفرسان). اللهاميم جمع لهموم (بضمّ اللام): الجيش العظيم، العدد الكبير. اللهازم: لقب بني تيم الله بن ثعلبة (القاموس ٤: ١٧٩). وفي مجمل الأدب التونسي (ص ٨٤): بطن من بني شيبان.

(٣) ربّ معدّ (من مجمل تاريخ الأدب التونسي): قصيّ بن كلاّب لأنه جمع كلمة قومه. الأحاليف (يقصد الأحلاف جمع حليف) ستّ قبائل من قريش اجتمعوا على أن ينصر بعضهم بعضاً وأن يكونوا عوناً على غيرهم (وهم أبناء عبد مناف، وهؤلاء متأخّرون عن قصيّ، ولكن الشاعر جعلهم حول قصيّ). العباب: معظم السيل، أو ارتفاعه أو موجه.

(٤) حاجب بن زرارة رهن قوسه عند كسرى حتّى لا يعتدي قومه بنو تميم على مراعي القبائل الأخرى عند الفرات، ووفت بنو تميم بذلك. دارم من بني تميم.

(٥) خالد بن جعفر الكلابي والحارث بن ظالم الغطفاني مشهوران بالشجاعة.

(٦) بسطام بن قيس سيّد بني بكر، وعمرو بن كلثوم سيّد بني تغلب. الشهاب: اللامع، المشهور. والشهاب حجر يخرج من مداره حول كوكب فيصل مشتعلاً إلى الأرض (كناية عن الشجاعة والشدّة). الأراقم (جمع أرقم: حيّة) حيّ من تغلب.

(٧) كعب بن مامة من مشاهير الأجواد في الجاهلية.

(٨) البيوتات: الأسر (جمع أسرة) المشهورة ذوات المكانة.

(٩) ذؤابة: أعلى الأشياء (الشريف المقدّم في قومه).

- وقال يفتخرُ بالقيروانِ ويُفَضّلها على بَغْدادَ:

فهـــل للقـــيروانِ وساكِنيهـــا عَديـــلٌ حـــينَ يفتخرُ الفَخورُ[1]؟
بلادٌ حَشْوُها عِلمٌ وحِلمٌ وإسلامٌ ومعروفٌ وخِـــــير[2].
عِراقُ الشامِ بَغـــدادٌ، وهـــذي عراقُ الغَرْبِ بينَها كثـــير[3]!
ولستُ أقيسُ بَغداداً إليها. وكيـــف تُقـــاس بالسَنَـــة الشُهور؟
بَناها كلُّ بَدْرِيٍّ كريمٌ كـــأنَّ صِفـــاحَ أوْجُهِهِمْ بُـــدور[4].
هم صَلَّوْا بَمَسجدها براحاً وليس لهـــا جِـــدارٌ مُستدير[5].

٤- * * مجمل تاريخ الأدب التونسي ٨٣.

ابن الوزان القيرواني النحوي

١- هو أبو القاسمِ ابراهيمُ بنُ عُثمانَ المعروفُ بابنِ الوزّانِ القَيروانيِّ النحويّ، كان كثيرَ السَماع (التعلّم) من ابن عينون قرأ عليه شرح «غريب الحديث» لأبي عُبيد[6]

(١) عديل: مثيل.
(٢) الخير (بالكسر) كالخير (بالفتح).
(٣) الشام (هنا): المشرق. العراق أعظم أقطار المشرق، وتونس أعظم أقطار المغرب.
(٤) البدري: الذي حارب مع الرسول في معركة بدر (أولى معارك الإسلام، في السنة الثانية للهجرة، ٦٢٤ م).
(٥) براحا: حينما كانت أرضه براحاً (أرضاً لا زرع فيها ولا شجر = غير مبنية)- ليس المهمّ أن يكون هناك بناء يسمّى مسجداً، بل المهمّ أن يجتمع الناس للصلاة.
(٦) ابن عيذون (أبو عليّ القالي، ت ٣٥٦ هـ). لم أعثر على كتاب في غريب الحديث لأبي عبيد.
هنالك كتب عنوانها «غريب الحديث» للنضر بن شميل (ت ٢٠٣ هـ) وقطرب (ت ٢٠٦ هـ) وأبي عبيدة معمر بن المثنّى (ت ٢١٠ هـ) وأبي عبيد القاسم بن سلاّم الهروي (ت نحو ٢٢٣ هـ) والمبرّد (ت ٢٨٥ هـ) وإبراهيم الحربي المتوفّى سنة ٢٨٥ هـ (بروكلمن ١: ١٢٩، الملحق ١: ١٨٨) وأبي العبّاس ثعلب (ت ٢٩١ هـ) ومحمّد بن القاسم الأنباري (ت ٣٢٨ هـ) ولآخرين أحدث عهداً من ابن الوزّان. ولعلّ المقصود هنا هو أبو عبيد القاسم بن سلاّم الهروي صاحب «غريب الحديث». ويبدو أن كلمة «شرح» في طبقات الزبيدي (ص ٢٦٩) زائدة. ولعلّ الأصوب ما ذكره السيوطيّ (بغية الوعاة ١٨٣): «وكان (ابن الوزّان) يحفظ العين وغريب أبي عبيد المصنّف (يقصد: يحفظ كتاب العين للخليل بن أحمد وغريب الحديث لأبي عبيد بن سلاّم والمصنّف». وفي معجم الأدباء لياقوت الحموي (١: ٢٠٣): وكان يحفظ كتاب العين للخليل ابن أحمد وغريب المصنّف لأبي عبيد. وفي «إنباه =

وكان صديقاً لأبي محمّدٍ عبدِ الله بنِ محمودِ المكفوفِ (ت ٣٠٨ هـ). وكانتْ وفاتُه في عاشرِ المُحرَّمِ من سَنَةَ ٣٤٦ (١٣/ ٤/ ٩٥٧ م).

٢- كان ابنُ الوزّان القيروانيُّ النحويُّ فقيهاً على مذهب أهل العراق[1]. وكذلك كان إماماً في النحو واللُّغة والعَروض. وكان في ذلك يميلُ إلى مذهب البَصْريين مَعَ معرفتهِ الواسعةِ بمذهب الكوفيّين. ثمّ كان يُفَضِّلُ المازنيَّ في النحو وابنَ السِكّيتِ في اللغة. وهو حَسَنُ الاستخراجِ يستخرجُ من مسائل اللغة والنحو أموراً لم يتقدّمْهُ فيها (لم يكن فيها أحسنُ منه) أحدٌ. وكان غايةً في استخراج المُعمّى[2]. وفي أواخر أيامهِ نَظَمَ شيئاً من الشعر لم يَرْضَهُ ولا أحبَّ أن يُوسَمَ به (أن يُنْسَبَ ذلك الشعرُ إليه). وكانتْ له تصانيفُ كثيرةٌ في اللغة والنحو.

٣- شيء من آثاره

- ممّا رُوي عنِ ابنِ الوزّانِ (طبقات الزبيدي ٢٧٠- ٢٧١):

... والعربُ تقول: «رَجُلٌ ورَجْلٌ» (بضمّ الجيم أو بتسكينها)، وهي لغةُ بني تميم وبني ربيعةَ... وعلى هذا جاء «سُرْقَ» (بتسكين الراء مكان سُرِق بكسر الراء). واللام تُدْغَم في الراء، وقال أكثر القُرّاء «قُرَّبي» (مكانَ: قُلْ رَبّي) لأنّهما من حافّةِ اللِسان مُتقاربتان. ولا تُدْغَمُ الراءُ في اللام (إذا جاءتْ الراءُ أوّلاً) لأنّ الراء فيها تكرير.

و «الذي» فيها خَمْسُ لغاتٍ: الّذي بياءٍ خفيفةٍ (بلا تشديد)؛ والّذِيّ (بتشديد

= الرواة (١ : ١٧٣): وحفظ كتاب العين للخليل بن أحمد.... وكتاب المصنّف لأبي عبيد. ويبدو أن ناشري المراجع المذكورة (طبقات النحويّين واللغويّين، ومعجم الأدباء، وبغية الوعاة) قد أخطأوا في قراءة أصولهم أو توهّموا شيئاً غير موجود أو غفلوا في أثناء تصحيح اللازم. ويكون تصحيح ذلك كلّه كما يلي: قرأ ابن الوزّان القيرواني كتاب العين للخليل ابن أحمد وكتاب غريب الحديث وكتاب غريب المصنّف لأبي عبيد بن سلاّم الهروي. فغريب الحديث.وغريب المصنّف كتابان (راجع معجم الأدباء ١٦ : ٢٥٥ الأسطر ٥، ٦، ٩، ١١، ٢٦٠ السطرين ٤، ٥).

(١) مذهب أهل العراق في الفقه الأخذ بالرأي وإمامهم الأكبر أبو حنيفة.

(٢) المعمَّى: الغامض، الأحجية (راجع طبقات الزبيدي ٢٧٠).

الياء)، والّذِ بحذف الياء وكسر الذال؛ والّذْ بإسكان الذال ويَرِدُ في حالِ الرفع والجر والنصب.

– وسُئِلَ عن تفسير قولهِ تعالى: «ذلك أدْنى ألاّ تَعولوا»[1] وأنَّ الإمامَ الشافعي (ت ٢٠٤ هـ) قال: معنى ذلك ألاّ يَكْثُرَ عِيالُكم. فقال ابنُ الوزّان:

أخطأ (الشافعي)، يُقال: عالَ يَعيل، إذا افتقر؛ وأعال، إذا كَثُرَ عِياله؛ وعال يَعول عَوْلاً، إذا جار (ظَلَم)، ومنه قولُه تعالى: «ألاّ تَعولوا» (في هذه الآية). وعالَ الشيءُ يَعولُ عَوْلاً، إذا زادَ، ومنه: عالتِ الفَريضة[2]. وعالَني الشيء يَعولني إذا أثْقَلني، ومنه قولُ الخنساءِ: «وَيكفي العشيرةَ ما عالَها». ويُقال: عالَ يَعول عَوْلاً إذا تَبَخْتَر.

– وقال ابنُ الوزّانِ: وجاء فَعِلَ يَفْعِلُ (بكسر العين في الماضي والمضارع) في ثلاثةِ أحرفٍ (كَلِمات)؛ قالوا: حَسِبَ يَحْسِبُ وبَئِسَ يَبْئِس ويَبِسَ يَبْبِسُ. وجاء (ذلك) في ثمانيةِ أحرفٍ من المعتلّ الفاء (الفعلِ الذي أوّلُه حرفُ علّة): وَرِمَ يرِمُ، ووَرِيَ الزَنْدُ يَرِي (خرجت منه شرر من نار)، ووَرِثَ يَرِثُ، ووَرِعَ يَرِع، ووَلِيَ يَلِي، ووَمِقَ يَمِق، ووَثِقَ يَثِق، ووَفِقَ يَفِق، ووَلِه يَلِهُ ويَوْلَهُ، ووَهِلَ يَهِلُ ويَوْهَل.

٤– ★ ★ الزبيدي ٢٥٨، ٢٦٩– ٢٧١؛ معجم الأدباء ١: ٢٠٣– ٢٠٤؛ البلغة ٦؛ انباه الرواة ١: ١٧٢؛ الوافي بالوفيات ٦: ٥٠؛ الديباج المذهب ٩١؛ بغية الوعاة ١٨٣؛ شذرات الذهب ٢: ٢٧٣.

اسماعيل بن بدر

١– هو أبو بكرٍ إسماعيلُ بنُ بدرِ بنِ اسماعيلَ بنِ زيادٍ من أهلِ قُرطُبةَ كان مولًى لبني أُميّةَ، سَمِعَ الحديثَ من بَقِيّ بن مَخْلدٍ ومن محمّدِ بن عبد السلام الخُشَني ومحمّدِ بن

---

(١) القرآن الكريم ٤:٣، سورة النساء.

(٢) الفريضة: النصيب من الإرث. عالت الفريضة: نقصت (راجع ذلك في كتب الأحوال الشخصية، في باب تقسيم الإرث).

وضّاحٍ ومُطَرِّفِ بن قَيْسٍ وعبد الله بن مَسَرَّةَ وعُبيدِ الله بن يَحيى. (ابن الفرضي، رقم ٢١٦).

وكان إسماعيل بنُ بدرٍ مُتّصِلاً بعبدِ الرحمن الناصر (٣٠٠- ٣٥٠ هـ) فولاّه الناصرُ الخاصة (إدارة أملاكه الخاصّة) في ربيعٍ الأوّلِ من سنة ٣٠٠ هـ ثمّ ولاّه إشْبِيلِيَةَ. وكذلك ولاّه أحكامَ السوق (الحِسْبة: المحافظة على الأخلاق في الأسواق ومراقبة البضائع وأسعارها).

وكانت وفاةُ إسماعيلَ بنِ بدرٍ سَنَةَ ٣٥١ (٩٦٢ م) وقد عُمِّرَ طويلاً.

- اشتغَلَ اسماعيلُ بنُ بدرٍ بالحديثِ، ولكنّ الشِعْرَ غَلَبَ عليه. وكان شاعراً مُكْثِراً مُجيداً، له مدحٌ ورثاء ووصف وخمريّات. وفي شعرهِ متانةٌ ورِقة أيضاً.

٣- مختارات من آثاره

- قال إسماعيلُ بنُ بدرٍ يرثي ابنُه أحمدَ، وقد ماتَ صغيراً:

غَرَسْتُ قضيباً زَعْزَعَتْهُ يدُ الرَّدى ... فخلّوا دموعَ العينِ تَبْكِ على غَرْسي.
وهـذا حَمامُ الأيْكِ يبكي هديلَه، ... فما لِهَديلي لا تذوب له نفسي[1]!
ـمـا حُزْنُ يعتوبَ عـلى يوسفٍ ... أشدَّ من حُزْني عـــلى أحمد.
أحمدُ ملحودٌ- وهل نَستوي؟- ... وذاك لم يُقْبَرْ ولم يُلْحَـــد[2].
وكان يرجوه؛ وهل أرتجي. ... هـذا وقـد غَمّضتُـه باليَـد[3].

- وأهْدَى إلى بعضٍ من يَعْرِفُه توتاً وكَتَبَ مَعَهُ:

تفاءلـــتُ بالتوت التأنّي لِزَوْرَةٍ؛ ... وذلك فألٌ- ما عَلِمْتُ- صَدوقُ[4].

(١) الهديل: صوت الحمام. وهو أيضاً فرخ الحمام (القاموس ٤: ٦٧، السطر الأخير).

(٢) القبر هو الحفر التي يدفن الميت فيها. واللحد شقّ يكون في عرض القبر.

(٣) اذا مات الانسان جفّ جسمه. من أجل ذلك يسرع أهل الميت بمدّ أعضائه وتغميض عينيه كيلا تظلّ أعضاؤه على غير طبيعتها وكيلا تظلّ مفتوحتين.

(٤) التأنّي: (لعلّه يقصد: الأمل، الرجاء، انتظار زورة).

فأهدَيْتُه غَضاً حكى حَدَقَ المَها، له منظَرٌ بالحُسْنِ منه يَروق[١].

وبَعْضٌ حكى الياقوتَ مِنهُ احمرارُه؛ وما مَجّه للذائقين رحيقُ[٢].

فذا سَبَجٌ- فيما يُرى لاسْودادِه؛ وذا- لاحمرار اللون منه- عَقيق[٣].

- قالَ اسماعيلُ بنُ بدرٍ يَصِفُ غزوةً قام بها عبدُ الرحمن الناصرُ إلى بلادِ الإسبان ويذكُرُ آثار الخرابِ الذي أتى على كلّ شيءٍ.لاحظْ أنّه يُشَبِّهُ الجيش بالبحرِ ويشبّه البِيض (السيوف) بالبِيض (النساء):

وذي لَجَبٍ كالبحر عَبَّ عُبابُه فضاقَ به رَحْبُ الفضا والتنائف[٤]

قريبُ الخُطا نائي المَدى مالئُ المَلا، بجمْعٍ تراه واقفاً غيرَ واقفِ[٥]

تركنا به أرضَ العَدُوّ كأنّها مَجاهِلُ للمُرتادِ غيرَ مَعارف[٦]؛

غَدَتْ بعدَ سَحْب البيض فيها ذُيولَها مَجَرَّ ذُيول الطامساتِ العواصف[٧].

٤- ★ ★ أخبار مجموعة ١٦٠- ١٦٥؛ راجع ابن الفرضي ٨٠ (رقم ٢١٦)؛ راجع جذوة

---

(١) الغضّ: الطريّ، المقطوف حديثاً. الحدقة: العين. المهاة: نوع من الظباء أبيض اللون، كبير العينين. راق: سرّ الناظر.

(٢) حكى: شابه. مجّه: أخرجه من فمه. الرحيق: العسل الموجود في قلب الزهرة.

(٣) السبج: خرز أسود (المعجم الوسيط ٤١٤؛ تاج العروس، الكويت ٦: ٢٧). العقيق: حجر كريم أحمر اللون.

(٤) ذو لجب: (جيش) ذو أصوات كثيرة (لكثرة عدده وسلاحه). العباب: كثرة الماء، السيل العظيم، ارتفاع الموج. عبّ عبابه: عظم موجه وتلاطم. الرحب: الواسع. التنوفة: الفلاة (الأرض الواسعة).

(٥) قريب الخطى: الجنود يمشون فيه بخطوات قصيرة (لازدحامهم وضيق المكان بهم). نائي المدى: بعيد ما بين أوّله وآخره. تراه واقفاً غير واقف: هو يملأ بقعة كبيرة جدًّا من الأرض فلا تدرك العين أنّه يتحرّك.

(٦) المجهل: الأرض لا علامات فيها (خراب). المرتاد: الآتي إلى مكان يطلب شيئاً (عشباً، ماء، الخ). المعرفة: العلامة في الطر يهتدي بها السائرون.

(٧) غدت: أصبحت. بعد سحب البيض فيها ذيولها: بعد المعركة- في البيت استعارة جميلة: يقول الشاعر إنّ البيض (السيوف) بعد أن تنزّهت (يشبّه السيوف البيض، المجلوّة، القاطعة، بالنساء البيض الجميلات) ظفرت بسرعة وسهولة كأنّها كانت تتنزّه. جررت ذيولها: سارت متأنّية تتبختر (سرن متأنّيات يتبخترن). مجّر ذيول الطامسات العواصف: مكان تمرّ به الرياح الشديدة تحمل الرمال وتطمس (تغطّي) بها كلّ أثر.

المقتبس ١٥٣، وبغية الملتمس ٢١٥ (رقم ٥٤٣)؛ الحلّة السيراء ١: ٢٥٤- ٢٥٦، راجع ١٩٩- ٢٠٠؛ ثمّ الأعلام للزركلي ١: ٣٠٥ (٣١٠).

ابن مغيث الأنصاري

١- هو أبو محمّدٍ عبدُ اللهِ بنِ محمّدِ بنِ مغيثِ الأنصاريُّ من أشرافِ قُرطُبةَ، وُلِدَ في ربيعِ الأوّلِ من سَنَةِ ٢٨٥ هـ (نَيْسان- ابريل ٨٩٨ م).

روى ابن مغيثٍ عن خالدِ بنِ سعدٍ ومحمّدِ بنِ أحمدَ الإشبيليّ الزاهدِ وأحمدَ بنِ سعيدِ آبنِ حزمٍ واسماعيلَ بنِ بدرٍ وغيرِهم. ولَقِيَ حظوةً ومكانةً عند الخليفةِ الحكَمِ المُسْتنصرِ (٣٥٠- ٣٦٦ هـ) قبلَ مجيئهِ إلى الخلافةِ وبعدَ مجيئهِ إلى الخلافة. وقد زَهِدَ في أواخرِ أيامِهِ، وكان جِسْمُه قد ضَعُفَ. ثمّ تُوفِّيَ في صدرِ شوّالٍ مِنْ سَنَةِ ٣٥٢ (٢٢/ ١٠/ ٩٦٣ م).

٢- كان ابنُ مُغيثِ الأنصاريُّ من أهلِ الذكاء والمعرفة كاتباً شاعراً وأديباً ناقداً ومؤلّفاً له كتابُ «أشعار الخلفاءِ من بني أُمَيَّةَ» (في الأندلس وفي المشرق) وَضَعَهُ بطلبِ من الخليفة الحكَمِ وجعله على مِثال كتابِ أبي بكرٍ الصولي (ت ٣٣٥ هـ): «أشعارِ أولادِ الخُلفاء». وله أيضاً كتاب التوّابين.

٣- مختارات من آثاره

- قال ابن مُغيثِ الأنصاريُّ في النسيبِ:

أَتَوْا حِسْبَةً إذ قيلَ: «جَدّ نُحولُه ... فلم يَبْقَ من لَحْمٍ عليه ولا عظمِ[١]»؛
فعادوا قَميصاً في فراشٍ فلم يَرَوْا ... ولا لَمَسوا شيئاً يدُلُّ على جِسمِ[٢].
طواه الهوى في ثوبِ سُقْمٍ من الضَنى، ... فليس بمحسوسٍ بعينٍ ولا وَهْمِ[٣]!

---

(١) في الأصل: إن. جدّ نحوله: كثر هزال (بالضم) جسمه. حسبة: طاعة لله (واشفاقاً علي) لا حباً بي ولا رجاء نفع في.

(٢) عادوا: زاروا (المريض).

(٣) الضنى: شدّة النحول والمريض الذي طال مرضه.

- وقال:

أوْثَقُ عملي في نفسي مَلامةُ صدري[1]: أنّي آوي إلى فِراشي ولا يأوي إلى صدري غائلةٌ لمُسْلِمٍ.

٤- ★ ★ جذوة المقتبس ٢٣٥-٢٣٦؛ (الدار المصرية) ٢٥٢ - ٢٥٣ (رقم ٥٣٣) بغية الملتمس ٣١٩ - ٣٢٠ (رقم ٨٨٣)؛ الصلة ١ : ٢٣٧ . الأعلام للزركلي ٤ : ٢٦٤ (١٢٠).

وليد بن عيسى الطبيخي

١- هو أبو العبّاس وليدُ بنُ عيسى بن حارث بن سالمٍ الأمويُّ بالوَلاءِ، عُرِف بالطبيخيّ لأنّه أهدى إلى مؤدّبه الحكيم أبي عبد الله محمّد بن اسماعيلَ القُرطبيّ (٢٥١- ٣٣١ هـ) طعاماً، فقال له مؤدّبه: ما هذا؟ فقال: «طبيخٌ أجَدتُّ صُنْعَه لك». فلقّبه مؤدّبُه الطبيخيّ.

وتلقّى الطبيخيُّ العلمَ على نفرٍ منهم أبو عبدِ الله الغابي أخَذَ عنه شِعْرَ أبي تمّامٍ (الزبيدي ٣١٥). ثمّ إنّه اتّخذ التعليمَ صَنعةً واقتصر على تعليم أبناءِ السَراة ولم يتعرّضْ لتعليم أبناء العامّة. وكان يُحْسِنُ تقريبَ قضايا العلم من الأفهام. وكانتْ وفاة الطبيخيّ في شَوالٍ من سَنَةِ ٣٥٢ (خَريفَ عام ٩٦٣ م).

٢- كان الطبيخيُّ عالماً باللغة والشِعر، وكان له حَظٌّ من العربية (النحو): كان واسعَ الاطّلاع على كتب المشارقة كثيرَ الاحتجاج (ضربِ الأمثلة) بالقرآنِ والأمثال، كما كان جامعاً لكثيرٍ من أخبار أهل الأندلس له «شرح ديواني مسلم بن الوليد الأنصاريّ». والطبيخيّ ناقدٌ أيضاً: كان جَيّد التَفَطُّن إلى أوجه البلاغةِ حَسَنَ الترجيح بين المعاني خاصّة. وَمَعَ أن شروحَه كانتْ مُفْرَدَةً (يشرَحُ الشِعرَ بيتاً بيتاً)، فإنها كانت مُوجزةً ثم كانت، مع هذا الإيجاز، شاملةً للأوجهِ اللغوية والنَحْوية والبلاغية والتاريخية، ولكنّه قلّ ما يشيرُ إلى وجهِ البلاغة- كما فعل لمّا قال (في شرح البيت ٦٤ من القصيدة الأولى، ص ١٧): «وَجَعَلَ للدين دعائمَ على الاستعارة».

---

(١) أحسن عملي أن آويَ إلى فراشي (أن ينتهي يومي) من غير أن أكون قد غضبت من مسلم أو أغضبته.

هذا معَ العلم بأن ديوانَ مُسلم بن الوليد مملوءٌ بأوجه الصناعة وبالغريب النادر الجميل منها، كقوله مثلاً (في القصيدة الأولى):

يكسو السُيوفَ دِمـاءَ الناكثـين بـه ويجعل الهامَ تِيجان القَنا الذُبُلِ.

٣- مختارات من آثاره

- من شرح ديوانِ مسلِمِ بنِ الوليد[١]: (القصيدة الأولى، البيت التاسع والخمسون، ص ١٥- ١٦):

(والمـارِقُ ابنُ طريفٍ قد دَلَفْتَ له بعسكرٍ للمنايا مُسْبِـلٍ هَطِـلِ)[٢]

كان ابن طريف الخارجيّ قد أضرّ بهرون الرشيد إضراراً شديداً لا يقوم له أحد من قوّاده[٣] فاستشار هرون فيه بني برمك فأشاروا إليه بيزيد وكانوا على بغضة[٤] فأرادوا به إحدى حالتين إمّا أن ينهزم فيسقط حرمته[٥] بذلك وإمّا أن يقتل فيستريحوا منه فأخرجه هرون إليه[٦] فجعل يماكره ويقول له إنّي ابن عمّك من شيبان ولا أريد بك إلاّ خيراً وإنّما أخرجت إليك رغماً فطاوله[٧] بذلك شهراً حتّى انكسر حدّ أصحابه واطمأنّوا فقال بنو برمك لهرون إنّ يزيد قد حالف ابن طريف إذ هو من رهطه ودلّس[٨] عليك فبعث هرون إليه يقول له إمّا أن تناشب[٩] الرجل وإمّا قتلتك

---

(١) مسلم بن الوليد شاعر عبّاسي (ت ٢٠٨ = ٨١٣ م) يمدح بهذه القصيدة أحد مشاهير القوّاد يزيد بن مزيد الشيباني بعد انتصاره على الثائر الخارجيّ الوليد بن طريف الشيباني، سنة ١٧٩، في أيام هرون الرشيد. وقد تركت هذا النّص بلا شكل ولا تنقيط. ولكن لم يكن بد من شرح عدد من الألفاظ والتراكيب.

(٢) دلف اليه: سار إليه ببطء (وخدعة). العارض: السحاب الكثير يمتدّ في عرض الأفق. المسبل (الملقي ماءه) الهطل (الكثير المطر).

(٣) لا يقوم له أحد من قوّاده: لم يستطع أحدٌ أن يتغلّب عليه، بل كان هو يتغلّب عليهم.

(٤) بنو برمك كانوا وزراء في مطلع الخلافة العبّاسية. كانوا على بغضة (كره ليزيد بن مزيد).

(٥) فيسقط حرمته (فتسقط حرمته).

(٦) فأخرجه هرون الرشيد إليه (بعث هرون الرشيد بيزيد بن مزيد لقتال الوليد بن طريف).

(٧) .... أخرجت (بالبناء للمجهول) فطاوله: (هنا) تأخّر فيْ قتاله.

(٨) دلّس: كتم العيب الذي في السلعة (غشّ، خدع).

(٩) تناشب (تحارب).

فجمع يزيد أصحابه إلى نفسه وقال لهم إنّما هم الخوارج وإن لهم صدمة واحدة فمن صبر لها لم ينل[1] بعدها وإنّي حامل بنفسي من ذلك على الاجتهاد[2] فاصبروا معي ثمّ عبّى جيوشه وترحّل[3] هو وأصحابه ولقيه فكان بينهم قتال عظيم ووقعت الهزيمة على الخارجيّ ابن طريف فقتل فأصبحت أخته وقد لبست درعها في عسكرها تدعو براز يزيد فحمل عليها يزيد فضربها وأنشدت ترثي أخاها:

أيا شجر الخابور[4] ما لك مورقا؟ كأنّك لم تجزع على ابن طريف

فتى لا يريد الزاد إلاّ من التقى

– وقال في شرح البيت الثاني والعشرين من القصيدة الرابعةَ عَشْرَةَ (ص ١٠٤):

(نَسْتَوْدِعُ الليلَ أسرارَ الهُموم إذا باحَ النعاسُ بعَجْزِ الصاحبِ الواني)

يقول: «نستودع الليل أسرار الهموم»، نكلّم في همومِنا الليلَ فكأنّنا نُودِعه إيّاها. (ويقول): «إذا باح النعاس بعجز الصاحب الواني» أي إذا أظْهَرَ النعاس عَجْزَ الصاحبِ الواني، أي الفاتر[5] الذي قد كلَّ من المشْيِ وغلبه النومُ فباح النعاسُ بعجزه، كما تقول: بُحْتُ بالأمر، أي أظهرتُه وتركتُ كِتمانَه. ومعناه أنّه يقطع الليلَ بِجِدٍّ ونشاط إذا كَلَّ أصحابُه وأثقلَ النومُ بهم[6] على رِحالهم والنوق.تمشي بهم. وأمّا قوله: «نستودع الليل أسرار الهموم» فهو مِثْلُ ما تُحدّثُ وتنزل على فلان فتقول له كذا وكذا ويَصِلُنا بكذا وكذا، فكأنّه يُخْبِرُ الليلَ بذلك لأن أصحابَه قد سَكِروا من النوم.

---

(١) ينل (بالبناء للمجهول): لم يصب (بالبناء للمجهول)، لم يجرح أو يقتل.

(٢) على الاجتهاد: بقدر علمي وطاقتي.

(٣) عبّى وعبأ (الجيش) جمعه وأعدّه للقتال. ترحّل: سار.

(٤) الخابور: نبت أو شجر له زهر أصفر زاهي المنظر جيّد الرائحة تزيّن به الحدائق.

(٥) الواني: المتعب (بضم فسكون ففتح)، الذي أعجزه التعب. كلّ: تعب.

(٦) «بهم» موجودة في الأصل.

٤- (شرح) ديوان أبي الوليد مسلم بن الوليد الأنصاري الشهير بصريع الغواني (حرّره... دي خويه)، ليدن (بريل) ١٨٧٥ م؛ (نشره سامي الدهّان)، مصر (دار المعارف) ١٣٧٦ هـ = ١٩٥٧ م.

★ الزبيدي ٣٢٩، راجع ٣٠٣ - ٣٠٤؛ ابن الفرضي ٢: ١٥٩ (رقم ١٥١٢)؛ بغية الوعاة ٤٠٥؛ الأعلام للزركلي ٩: ١٤٣ (٨: ١٢٢)؛ الداية ٧٩- ٩٣.

منذر بن سعيد البلّوطيّ

١- هو القاضي أبو الحَكَم مُنْذِرُ بنُ سعيدِ بنِ عبد الله بنِ عبد الرحمن بن قاسم بن عبد الملك بن نجيح، أصلُ أهلِه من برابرةِ نَفزَة أحدِ فروع كَزْنَة، انتقلوا إلى الأندلس وسكنوا في فَحْص البلّوط (قرب قرطبة).

وُلِدَ مُنْذِرُ بنُ سعيدٍ، سَنَةَ ٢٦٥ (ياقوت ١٩: ١٧٤) في محلّة النشّارين بالرَبَض (الضاحية) الشرقي من قرطبة، وقيل كان مولده سنة ٢٧٣.

دَرَسَ مُنذرُ بنُ سعيدٍ في قُرطبَة على عبيدِ الله بنِ يحيى (ت ٢٩٧ هـ) أحدِ أئمّةِ الفِقْهِ وعلى ابن يحيى بن يحيى الليثي (ت ٢٣٤).

وفي سَنَةِ ٣٠٨ (٩٢٠ م) رَحَلَ مُنذرُ بنُ سعيدٍ إلى المشرق فمرّ بِمِصْرَ فسَمِعَ من أبي جعفرٍ أحمدَ بن محمّدٍ المِصْري المعروف بابن النحاس (ت ٣٣٨) ومن أبي العبّاس أحمدَ بنِ محمدٍ المعروف بابن ولّاد (ت ٣٣٢). ثمّ إنّه حجّ وسمع في مكّة من محمّد بن المنذر النيسابوري. وطالت رِحلته في المشرق أربعين شهراً.

عاد مُنذرُ بنُ سعيدٍ من المشرق ومكثَ في الأندلس عِشرين سَنَةً أو تزيدُ لا نعلَمُ شيئاً من أخبارِه في أثنائها. ونفهم أنه زار طرطوشة (نفح ٢: ٥١١) وفي سنةِ ٣٣٤ (٩٤٥- ٩٤٦ م) جاء من القسطنطينية إلى قُرطبةَ رُسُلُ ملكِ الروم قُسطنطينَ السابعِ (٩١٢- ٩٥٩ م) يحملون منه رِسالةً؛ كما وصل إليها في ذلك الحين وفودُ ملوك الفِرنجة. فاحتفل عبدُ الرحمنِ الناصرُ بهذه الوفودِ في قصر قُرطبةَ وَسْطَ أُبَّهَةٍ عظيمة وأرادَ من الشُعراء والخُطباء أن يقوموا بينَ يَدَيْهِ أمامَ الوفود ويذكُروا ما قام به في توطيد الخِلافة وما كان له من جلائل الفتوح والأعمال. فنهض الفقيه مُحمّد بن عبد

البرّ الكسنيانيّ ليتكلّم فأخذَتْه هيبةُ الموقف وأُرْتِجَ عليه ثمّ سَقَطَ أرضاً مَغْشِيًّا عليه. فقيل لأبي عليٍّ القالي (ت ٣٥٦ هـ)- ضيفِ عبدِ الرحمن الناصر-: « قُمْ فأَرقَعْ هذا الوَهْي ». فقام فحَمِدَ الله وأثنى عليه وصلّى على نَبِيِّه؛ ثمّ انقطعَ به القولُ فوقَفَ ساكتاً.

فلمّا رأى مُنذرُ بنُ سعيدٍ ذلك « قام من ذاتهِ فوصل آفتتاحَ أبي عليٍّ لأوّلِ خُطبته بكلامٍ عجيبٍ وفَصْلٍ مُصيبٍ يَسُحُّه سحًّا كأنّما يَحْفَظُه قبلَ ذلك بمدّةٍ، وبدأ من المكان الذي (كان قد) وَصَلَ إليه أبو عليٍ البغدادي « القالي » (النباهي ٦٦). فكانتْ تلك الخُطبةُ سبيلَ حَظْوتهِ عند عبدِ الرحمن الناصر.

بُعيدَ تلك الحادثةِ، فيا يبدو، عَيّنَهُ النّاصُر قاضياً في مدينة مارِدَةَ ثمّ جعله على قضاء الثغور الشرقية. وفي ربيع الآخر من سَنَةِ ٣٣٩ (مطلع خريف ٩٥٠ م) أصبحَ مُنذرُ بنُ سعيدٍ قاضيَ الجماعةِ في قُرطبةَ. ومَعَ أنّ مُنذرَ بنَ سعيدٍ كان من أتباعِ المذهب الظاهريّ، فإنّه كان يَقْضي على مذهبِ الإمام مالكٍ. وكان عادلاً بين الخُصوم شديداً في الحقّ لا تأخذه في اللهِ لَوْمَةُ لائمٍ. وقد بَقِيَ في القضاء ستَّ عَشْرَةَ سَنَةً إلى حينِ وفاتهِ في ٢٨ من ذي القَعْدةِ من سَنَةِ ٣٥٥ (١٥/ ١١/ ٩٦٦ م). ودُفِنَ في الرَبَضِ الغَرْبي من قرطبةَ قريباً من داره.

٢- كان مُنذرُ بنُ سعيدٍ البلّوطيّ فقيهاً مُتفنّناً في ضُروبِ العلم يَعْرِفُ المذهبَ الظاهريَّ ومذهبَ الإمام مالكٍ قادراً في الجَدَل. وكان أديباً شاعراً مترسّلاً له أشعارٌ مطبوعةٌ وخطبٌ عجيبةٌ ورسائلُ بليغةٌ، كما كان مُؤلّفاً. ومَعَ متانةِ خُلقه فقد كانتْ فيه دُعابةٌ حَسَنَةٌ. وشعرُه القليلُ الباقي في الزهد والشكوى من الدهر ومن الناسِ حيناً وفي الفخر بالنفسِ حيناً آخرَ. وشعرُه صحيحٌ متين. أما خُطَبُهُ فبارعةٌ جدًّا تَغْلبُ عليها السهولةُ وتتّسم بالتبسّطِ في القولِ والإتيان بالمعاني القليلةِ اليسيرة القريبة المُتناوَل مِمّا يُسَهِّلُ على السامعين آستيعابَها فيكونُ ذلك أدعى إلى تأثيرها فيهم. ويزيدُ في تأثيرها في السامعين بروزُ العُنصُرُ الدينيّ فيها من الوعظ بالترغيبِ والترهيب وإخراجِ ذلك كلّهِ مخرجَ الخِطاب للحاضرين مَعَ كَثْرة الاستشهاد بالآياتِ.

ولقد كان مُنْذرُ بنُ سعيدٍ عظيمَ الاستيلاء بخطبه على السامعين.

٣- مختارات من آثاره

- قال منذر بن سعيد البلّوطيّ يذكر الموت:

الموت حَوضٌ وكلُّنـــا يردُ ؛ لم يَنـجُ مِمَّـا نخافُـهُ أحدُ[١].

فلا تكن مُغرَماً برزقِ غدٍ، فلَسْتَ تـدري بمـا يجيءُ غـدُ.

وخذ من الدهر ما أَتاك به؛ ويَسْلَمُ الروحُ منـك والجسدُ.

والخيرَ والشرَّ لا تدَعْهُ، فما في النـاس إلاَّ التشنيعُ والحسدُ.

- وقال يشكو من الدهر والناس (قبل إقبال الدنيا عليه):

هـذا المقالُ الذي ما عابَه فَنَدُ، لكِنَّ صاحبَـه أزرى به البَلَدُ[٢].

لو كنتُ فيهم غريباً كنتُ مُطَّرَفـاً، لكنَّـني منهمُ فاْغتالني النَكَدُ[٣].

لولا الخلافـةُ- أَبقـى اللهُ بهجتَها- مـا كنتُ أَبْقَى بأَرض ما بها أَحد!

- نُتَفٌ من خطبته يومَ دخلت الوفودُ على عبد الرحمن الناصر:

أمّا بعدَ حمدِ الله والثناءِ عليه والتَعْدادِ لآلائه[٤]..... فإنّ لكّل حادثةٍ مقاماً- ولكّل مقامٍ مقالٌ. وليس بعدَ الحقّ إلاّ الضلالُ. وإنّي قد قُمْتُ في مقام كريم، بين يَدَيْ مَلكٍ عظيم. فأصْغُوا إليّ- معشرَ المَلإِ- بأسماعِكُمْ وأيْقنوا عنّي بأفْئِدَتكُمْ[٥].... وإنّي أُذكّركم بأيام الله عندكم وتلافيهِ لكم بخلافة أمير المؤمنين التي لَمّتْ شَعْثَكم وأمّنتْ

---

(١) يرد: يذهب إلى الماء (ليستقي أو ليشرب). جميع النّاس سيموتون.

(٢) الفند: ضعف الرأي من الهرم (التقدّم في السنّ). الكذب. أزرى به (عابه، خفض منزلته). البلد (أنه من أهل البلد- أهل البلد لا يحبون النابه منهم، بل يحبّون الغريب عن بلدهم).

(٣) مطّرفاً: طريفاً: جديداً، بهيجاً. غاله واغتاله: قتله، اهلكه. النكد: صعوبة العيش وضيقه، الشؤم.

(٤) الآلاء جمع إلى (بكسر الهمزة أو فتحها): النعمة.

(٥) الملأ: أشراف القوم. الفؤاد: القلب. أيقنوا عنّي بأفئدتكم: كونوا واثقين ممّا أقول.

سِرْبَكم ورفعت[1] قوّتكم: كُنتم قليلاً فكثّركم.... ومُسْتَذَلّين فنصَركم. ولاّه اللهُ رعايتَكم وأسند إليه إمامتَكم أيامَ ضَرَبتِ الفِتنةُ سُرادُقَها على الآفاق وأحاطت بكم شُعَلُ النفاق[2].....

أُنْشِدُكُمُ اللهَ- معاشرَ الملإ- ألم تكنِ الدماءُ مَسفوكةً فحقَنَها، والسُّبُلُ مَخُوفةً فأمَّنها[3] والأموالُ مُنْتَهَبَةً فأحْرَزَها وحصّنها[4]؟ ألم تكن البلادُ خَراباً فعمّرها وثغورُ المسلمين مُهْتَضَمَةً فحماها ونصرها[5]؟ فاذكروا آلاءَ اللهِ عليكم بخلافتهِ وتلافِيَهُ جَمْعَ كَلِمَتِكُمْ بعدَ افتراقها بإمامته حتّى أذهبَ عنكم غيظَكم وشفى صدورَكم وصِرْتم يداً على عدوِّكُم بعد أن كان بأسُكم بينَكم[6]... فأصبحتم بنعمتهِ إخواناً وبِلَمِّ أمير المؤمنين لِشَعْثِكُمْ على أعدائه أعواناً حتّى تواتَرَتْ[7] لديكم الفتوحاتُ، وفَتَحَ الله عليكم بخلافته أبوابَ الخَيْرات والبَرَكات، وصارتْ وفودُ الروم[8] وافدةً عليه وعليكم، وآمالُ الأقْصَيْنَ والأدْنَيْنَ مُتّجهةً إليه وإليكم: يأتون من كلّ فَجٍّ عميقٍ وبلد سحيقٍ ليأخذوا بحبل[9] بَيْنَكم وبَيْنَه جُملةً وتفصيلاً لِيَقْضِيَ اللهُ أمراً كان مفعولاً. ولن يُخْلِفَ اللهُ وعدَه؛ ولهذا الأمر ما بعدَه.....

٤- ★ ★ الزبيدي ٣١٩- ٣٢٠؛ جذوة المقتبس ٣٢٦- ٣٢٧ (الدار المصرية) ٣٤٨- ٣٤٩ (رقم ٨١١)؛ بغية الملتمس ٤٥٠- ٤٥٢ (رقم ١٣٥٧)؛ ابن الفرضي ٢: ١٤٢- ١٤٣؛ مطمح الأنفس ٣٧- ٤٦؛ تاريخ قضاة الأندلس ٦٦- ٧٥؛ انباه الرواة

---

(١) التلافي: تجنّب الأمور (المؤذية). لمّ الشعث: جمع القوم ووحّد أمورهم. أمّن السرب (جماعة الغنم أو الابل السارحة): نشر الأمن في بلدكم.

(٢) السرادق: الخيمة الكبيرة. ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق: انتشرت في كلّ مكان.

(٣) حقن الدماء: حمى الناس من القتل. مخوفة: يخاف السائرون فيها (من الاعتداء عليهم).

(٤) أحرزها: وضعها في حرز (مكان أمين) وحصّنها (أحاطها بما يحفظها).

(٥) الثغور جمع ثغر: المكان الذي يخشى منه مجيء العدوّ برّاً أو بحراً. مهتضمة: مغتصبة، منقوصة (معتدى عليها).

(٦) البأس الشدّة، الحرب.- بأسكم بينكم: كنتم في شقاق وقتال (فيما بينكم).

(٧) التواتر: التوالي، التتابع (أن تأتي الأشياء متّفقة من كل مكانٍ وبلا انقطاع).

(٨) الروم: النصارى عموماً من أي جنس كانوا.

(٩) الفجّ: الطريق في الجبل. عميق وسحيق (هنا) بمعنى بعيد. ليأخذوا بحبل منكم: ليعقدوا معكم معاهدة، ميثاقاً (في سبيل حماية أنفسهم).

٣: ٣٢٥؛ معجم الأدباء ١٩: ١٧٤- ١٨٥؛ ابن الأثير ٨: ٢٤٣- ٢٤٤؛ بغية الوعاة ٣٩٨؛ نفح الطيب ١: ٣٦٨- ٣٧٦، ٥٧٠- ٥٧٦، ٢: ١٦- ٢٢؛ شذرات الذهب ٣: ١٧؛ بروكلمن، الملحق ١: ٤٨٤؛ نيكل ٣٣- ٣٥، مختارات نيكل ٢٧؛ الأعلام للزركلي ٨: ٢٢٩ (٧: ٢٩٤).

محمّد بن يحيى الرَباحيّ

١- هو أبو عبدِ اللهِ مُحمدُ بنُ يحيى بنِ عبدِ السلام الأزديُّ الأندلسيُّ الرَباحيُّ[١]، أصلُه من جيّانَ ومَنزلُه في قُرْطُبةَ. «وكان يُعرف بالقَلَشاط أيضاً» (بغية الوعاة ١١٣).

رَحَلَ إلى المَشْرقِ وأخذَ في مِصْر عن أبي جعفرِ بنِ النحّاسِ (٣٣٨ هـ) كتابَ سِيبَوَيْهِ، وعن ابنِ وَلاّدٍ (ت ٣٣٢ هـ)، وكان ابن ولاّد يهتمُّ أيضاً بسيبويهِ وله كتاب «تفسيرُ أبياتِ (شواهدِ) سيبويه».

وعاد الرَباحيُّ إلى قرطبةَ وتصدّرَ للتدريس وأقرأ كتابَ سيبويه فكَثُرَ المُلتفّونَ حولَ حَلْقَتِه لِبَراعتهِ ولِطريقتهِ المُبْتَكَرَةِ في إقراء النحو.

وكانت وفاته في رَمَضانَ من سَنَةِ ٣٥٨ (صيفِ ٩٦٩ م).

٢- كان الرَباحيُّ بارعاً في عِلم النحو مُقتدِراً في نظمِ الشِعرِ على النَهْج العَرَبي البَدْويّ. له أرجوزة في رِثاءِ أحمدَ بنِ موسى بن حُديرٍ[٢] أوغَلَ في بِنائها على مَذهبِ العَرَبِ وفي الخروج فيها عن مذهبِ المُحْدَثينَ فلم يَرْضَها العامّةُ.

وكان الرباحيُّ قد طالعَ كُتُبَ علماءِ الكلامِ ونَظَرَ في كتبِ المَنْطِق فبَرَعَ في الاحتجاج وفي سِياقةِ الأدلّةِ حتّى كان يجادلُ الفُقهاء والأطبّاء وأهلَ التنجيمِ - وليس ذلك كلّهُ مِنَ اختصاصه- فيجولُ مَعَهُم في دقائقِ صِناعاتِهم وربّما غَلَبَهم بالحُجّة. واستفادَ الرباحيُّ من هذه الخاصّة في نفسِه فكان يَعْقِدُ مجلساً للمناظرة (في النحو) في

---

(١) نسبة إلى قلعة رباح (بنقطة واحدة تحت الباء) قرب طليطلة، وكان أبوه أو جدّه قد سكنها.

(٢) كان موسى بن محمّد بن حدير من الذين ساعدوا عبد الرحمن الناصر على الوصول إلى الخلافة ثمّ أصبح حاجباً (رئيساً للوزارة) (الظاهر أن المرثيّ ابنه).

كلَّ جُمُعة. «ولم يكنْ عند مُؤدّبي العَرَبية ولا عند غيرِهم، مِمّن[1] عُنِيَ بالنحو، كبيرُ علمٍ حتّى وَرَدَ الرَباحيّ عليهم. وذلك أن المؤدّبين إنّما كانوا يُعانون إقامة الصِناعة في تلقينِ تلاميذهم العواملَ وما شاكلَها، وتقريبَ المعاني لهم. ولم يأخُذوا أنفسَهم بعِلم دقائقِ العربية (النحو) وغوامِضِها والاعتلال لمسائلها. ثمّ كانوا لا يَنظُرون في إمالة ولا ادْغامٍ ولا تصريفٍ ولا أبْنِيَةٍ، ولا يُجيبون في شيءٍ منها حتّى نَهَجَ لهم (الرباحي) سبيلَ النظر، وأعْلَمَهُم بما عليه أهلُ هذا الشأن في المَشْرقِ، مِنَ اسْتقصاءِ الفنّ بوجوهِهِ واستيفائه على حُدودِهِ وأنّهم بذلك (أي المشارقةَ) استحقّوا اسمَ الرياسة».

٣- مختارات من آثاره

- كَتَبَ محمّدُ بنُ يحيى الرَباحيّ إلى أبي بكرِ الزُبَيْدي (ت ٣٧٩ هـ) بقصيدةٍ في مَطْلَعِها:

خَليـليَّ من فَرْعَي زبيدِ بنِ مَذْحجٍ قفا واسْمعا، قد يُسْعدُ الشَجِيُ الشَجي[2].

ألم تعلما أنّي أرقـــتُ،وشاقــني خيــالٌ سرى وهْنــاً ولّمـا يعرِّج[3].

- ورثى الرباحيُّ أحمدَ بنَ موسى بن حدير بأرجوزة قلّدَ فيها مقصورةَ ابنِ دُريد[4] أوّلُها ثم أحدُ أبياتِها اللذان يَليَان:

إحدى الرَزايا ولا أُعطي السِوى رُزْءٌ بـه دَهْري ولو عَزّ العَزا[5].

---

(١) في الزبيدي (ص ٣٣٦، السطر الثالث من أسفل) «من عني بالنحو» (المقصود أن النحاة لم يكونوا بعد قد تعمّقوا في فقه النحو وفي طريقة تعليمه).

(٢) زبيد (بضمّ الزاي للتصغير): قوم من مذحج (بفتح فسكون فكسر) من عرب الجنوب. الشجي الحزين. الشجي الأولى مفعول به والثانية فاعل (أو بالعكس). يسعد: يعين (إذا اجتمع حزينان، فربّما تعزّى كل واحد منهما إذا رأى مصيبة الآخر أشدّ من مصيبته هو).

(٣) سرى: مرّ، سار ليلاً. وهنا: بعد منتصف الليل. لم يعرّج: لم يتوقّف، لم يمل (لم يجعل طريقه) إلى مكاني.

(٤) ابن زيد (ت ٣٢١ هـ) - راجع الجزء الثاني.

(٥) إحدى الرزايا (المصائب الكبار). السوى (بكسر السين وضمّها): العدل، التساوي (لا أعطي السوي: لا أجعل مصيبة مساوية لها). عزّ العزاء: قلّ، صعب نسيان هذه المصيبة.

سائـــلْ بطَسْمٍ والـــذين قَبلَهم   والحَضْرَ والحَيّ الحِلالَ من سَبا[1]!

٤- ★ ★ الزبيدي ٣٣٥- ٣٤٠؛ ابن الفرضي ٧١- ٧٢ (رقم ١٢٩٣)؛ جذوة المقتبس ٩١ (الدار المصرية ٩٨ (رقم ١٦٤)؛ بغية الملتمس ١٣٤؛ الوافي بالوفيات ٥: ١٩٢؛ بغية الوعاة ١١٣.

الخشني المؤرّخ

١- هو أبو عبدِ الله محمّدُ بنُ الحارثِ بن أسدٍ الخُشَنيُّ، وُلدَ في القَيْروان ودَرَسَ فيها وفي تونسَ وسكن مدّة في سَبْتَةَ.

دَخَلَ الخُشَنيُّ الأندلسَ سَنَةَ ٣١١ أو ٣١٢ (٩٢٤ م) حَدَثاً، ودرس في قُرطبةَ على قاسمِ بن أصبغَ (ت ٣٤٠ هـ) وعلى مُعاصرِه محمّدِ بنِ عبدِ الملك بن أَيْمَنَ.

وأرادَ الخليفـــةُ عبـــدُ الرحمنِ الناصرُ أن يُولِّيَ الخشنيَّ القضـــاءَ في جيّانَ فأبى الخشنيُّ إباءً شديداً، ولكنّه قَبِلَ، في أيامِ الحَكمِ المُسْتَنْصِرِ (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) أن يتولّى المواريثَ في مدينةِ بجّانةَ من أعمالِ المَرِيّةَ. وبعدَ وفاةِ الحَكَمِ عَمِلَ الخُشنيُّ بالعِطارة (بيع العطور والبذور وبيع موادَّ لها صلة بالأدوية الخفيفة وبالكيمياء).

وتُوُفِّيَ محمّدُ بنُ حارثٍ الخُشنيّ في الثالثِ من صَفَرَ من سَنَةَ ٣٧١ (٩٨١/٨/٨ م) وفي تحقيق سَنَة وفاته اختلافٌ بينَ سَنة ٣٦١ وسنَة ٣٧١ هـ.

٢- محمّدُ بنُ حارثٍ الخُشنيُّ مُحَدّثٌ وفقيهٌ ومؤرّخ؛ له من الكتب: كتاب القُضاة بقُرطبة- كتاب علماءِ إفريقية (القطر التونسي)- أخبار الفُقهاء والمُحدِّثين- الاتفاق والاختلاف لمالكِ بنِ أنسٍ وأصحابِه. ويبدو أنه كان لأبي عبدِ الله محمّدِ بنِ حارثٍ الخُشنيِّ شعرٌ كثيرٌ مشهور يدلنا القليل الذي بَقِيَ لنا منه على شيءٍ من المَتانة وعلى أن من أغراضه الزُهْدَ والحِكمةَ.

---

(١) طسم: قبيلة عربية بادت (انقرضت). الحضر: بلد (أو قصر) في العراق. الحيّ الحلال (بكسر الحاء) الأقوام النازلون في مكان موقّتاً. سبا: أهل سبأ (أهل اليمن).- اسأل جميع الناس (من البدو والحضر، ومنذ أقدم الأزمنة)...

٣- مختارات من آثاره

- قال محمّدُ بنُ حارثٍ الخُشنيُّ في مقدّمة كتاب «القضاة»، بعدَ أن ذكر اهتمامَ الأميرِ الحكَمِ المُسْتَنْصِرِ[١] بالعلومِ وتدوينِها وأنه هو الذي أمر بتأليفِ هذا الكتاب:

لمّا كان القاضي أعظمَ الوُلاةِ خطَراً بعدَ الإمام الذي جعلَه الله زِماماً للدين وقِواماً[٢] للدنيا، لِمَا يتقلّدُه القاضي من تنفيذِ الأحكام في الدِماء والفُروج والأموال والأعراض[٣] وما يتّصلُ بذلك من ضُروبِ المنافع ووجوهِ المَضارّ، وكانتِ العُقبى من الله في ذلك فظيعةَ المقام هائلةَ الموقف مَخُوفَةَ المطلع[٤]، ختلفتْ في ذلك الهِمَمُ من عُقلاءِ الناس وعُلمائهم. فقَبِلَ كثيرٌ منهم القضاء رَغبةً في شرف العاجلة[٥] ورجاءً لِمَعونةِ الله عليه واتّكالاً على سَعَةِ عَفْوِه فيه، ونفَرَ آخرونَ منه رَهبةً من مكروه الآجلة[٦] وحِذاراً من الله فيما يكون منهم وعلى أيديهم. وقد سَلَفَ من رجال الأندلس، من أهل حاضِرَتِها العظمى[٧]، رِجالٌ دُعُوا إلى القضاء فلم يُجيبوا رَهبةً..... من مُنْتَظَرِ العاقبة[٨]. وقد رأيتُ أنْ أُدَوِّنَ ذِكْرَهُمْ وأَصِفَ مقاماتِهم بينَ يَدَيْ خُلفائهم وإشفاقاً ممّا دعاهم إليه أُمراؤهم، وأن أجعَلَ لذلك باباً في صدرِ الكتاب[٩]، ثمّ أصيرَ

---

(١) الحكم المستنصر كان ابن عبد الرحمن الناصر (٣٠٠- ٣٥٠ هـ) وخليفته.

(٢) الخطر: القيمة المكانة، الشرف. زمام: رسن، قياد، ضابط. القوام: النظام، الأصل، العماد.

(٣) في الدماء (القصاص على القتل والجروح) والفروج (الزواج والطلاق وما يتعلّق بها) والأموال (الزكاة والصدقات والضرائب) والأعراض (جمع عرض بكسر العين: شرف الإنسان ثمّ جمع عرض بفتح ففتح: البضائع، وهي المقصودة هنا: أي أمور التجارة من البيع والشراء الخ).

(٤) ضروب: أنواع. العقبى: النتيجة (ما يصير إليه الإنسان في الآخرة). فظيعة: شديدة، شنيعة. المطلع: المظهر

(٥) العاجلة: الدنيا.

(٦) الآجلة: الآخرة (يوم القيامة).

(٧) سلف: مضى (عاش قبل أيامنا). الحاضرة: العاصمة (قرطبة).

(٨) خوفاً من الحساب على أعمالهم يوم القيامة.

(٩) واشفاقاً (العطف هنا غير واضح). صدر: أوّل.

إلى ذِكْرِ وُلاةِ القضاء قاضياً قاضياً على ما كانت عليه دُوَلُهُمْ[1].....

- قال أبو عبدِ اللهِ محمّدُ بنُ حارثٍ الخُشنيُّ في يَحْيى بنِ مَعْمَرِ الالهاني[2] (المقتبس ٥٤):

يحيى بنُ مَعَمر بنِ عِمرانَ بنِ منير بنِ عُبيدِ بنِ أُنَيْفٍ الألهانيّ من العرب الشاميّين[3]، وكان من أهل إشبيلية، منزله منها بمغرانةَ- قريةٍ بقُرْبِ الحاضرة وعليها مّر السابلة[4]. وكان في وقتهِ فقيهَ إشبيليةَ وفارِضَها[5]. وكانتْ له رِحلة لَقِيَ فيها أشهبَ بَن عبدِ العزيزِ[6] وسَمِعَ منه ومن غيره من أهل العلم. وكان وَرِعاً زاهداً فاضلاً عِفّاً مُقبلاً على عِمارة ضَيْعتهِ وترقيح[7] مَعيشته. فانتهى خبرُه إلى الأميرِ عبد الرحمن[8]، وقدِ احتاجَ إلى قاضٍ، فاعتامه[9] للقضاء واستقدَمَه إلى قُرطبةَ وقلّده قضاءَ الجماعةِ بها. فصدَق الظنُّ به واغتدى من خير القضاة في قَصْدِ سِيرته وحُسن هَدْيِهِ وصَلابةِ قَناتِه وإنْفاذِ الحقّ على من تَوَجَّهَ عليه لا يَحْفِلُ لَوْمَةَ لائمٍ فيه.

- ومن مشهورِ شعرِ أبي عبدِ الله (محمّدِ بنِ حارثٍ) الخُشَنيِّ (المقتبس ٢٥٧- ٢٥٨):

كأنْ لم يكُنْ بَيْنٌ ولم تَكُ فُرقةٌ ... إذا كان من بعد الفراق تَلاق[10]؛

كأنْ لم تُؤَرِّقْ بالعِراقين مُقلتي، ... ولم تَمْرِ كفُّ الشوق ماءَ مآقي[11]،

---

(١) الدولة: الدور (المدّة التي يقضيها الإنسان بعد غيره)- دولة دولة: مرّة بعد مرّة.

(٢) توفّي يحيى بن معمر قبل ٢٣٤ هـ.

(٣) راجع، فوق، ص ٣٩.

(٤) الحاضرة: العاصمة (هنا: قرطبة). مّر السابلة (السائرين في السبيل: الطريق): الطريق العامّ (بين مدينة ومدينة).

(٥) الفارض: الذي يتولّى قسمة الارث بين أصحاب الحقّ (والعالم بذلك).

(٦) أشهب بن عبد العزيز فقيه مالكي من أهل مصر (ت ٢٠٤ هـ = ٨١٩ م).

(٧) الترقيح: إصلاح أمر المعيشة.

(٨) هو عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦- ٢٣٨ هـ) رابع الأمراء المتوارثين في الأندلس.

(٩) اعتامه: قصده (طلبه).

(١٠) البين: البعد، الفراق.

(١١) العراقان: البصرة والكوفة (القطر العراقي). مرى اللبن من ضرع البقرة: مسّ الضرع برفق ليخرج منه اللبن.

ولم أَزُرِ الأعرابَ في خَبْتِ أرضِهِمْ بـذاتِ اللوى من رامةٍ وبُراق[1]،
ولم أصْطَبِحْ بالبِيد من قهوةِ الندى بكـأسٍ سقانِيها الفِراقُ دِهاقِ[2].
بـلى، وكأنّ الموتَ قد زارَ مضجعي فحوّل منّي النفسَ بـين تَراق[3].
أخي، إنّما الدُنيـا محلّـةُ فُرقـةٍ ودارُ غُرورٍ آذَنَـــتْ بفِراق[4].
تزوّدْ، أخي، مِنْ قبلِ أن تسكُنَ الثرى وتلتـــفَّ ساقٌ للنشورِ بساق[5].

٤- كتاب القضاة بقرطبة (ريبيرا)، مدريد ١٩١٤ م؛ (عزّت العطّار)، القاهرة ١٣٧٢ هـ.

- كتاب علماء إفريقية (محمّد أبو شنب)، الجزائر ١٩١٦، ١٩٢١ م.

★ المقتبس (راجع الفهرس)؛ جذوة المقتبس ٤٩ - ٥٠ (الدار المصرية) ٥٣ (رقم ٤١)؛ ابن الفرضي ٢: ٢١٤ - ٢١٥ (رقم ١٤٠٠)؛ معجم الأدباء ١٨: ١١١؛ الوافي بالوفيات ٢: ٣١٥؛ المغرب (٢: ٥٤)؛ بغية الوعاة ٥٢. الديباج المذهب ٢٥٩ - ٢٦٠؛ بروكلمن ١: ١٥٧، الملحق ١: ٢٣٢؛ الأعلام للزركلي ٦: ٣٠٣ (٧٥).

ابن هاني الأندلسيّ

١- يَرْجعُ نَسَبُ ابنِ هانئٍ الأندلسيّ إلى يَزيدَ بن حاتَم بنِ قُبَيْصَةَ بن المهلّب بن أبي صُفْرَةَ الأزديِّ، وقيل بل إلى أخيه رَوْحِ بنِ حاتَمٍ. كان يزيدُ بنُ حاتمٍ قد جاء إلى إفْريقيَةَ (سنة ١٤٥ هـ) لقتال عَمْرو بنِ حَفْصٍ. ثمّ لمّا تُوُفِّيَ يزيدُ (سنة ١٧٠ هـ) خَلَفَهُ عَلَى إفريقية أخوه رَوْحٌ.

وُلِدَ أبو القاسم (وقيل: أبو الحسن) محمّدُ بنُ هاني[6] بنِ محمّدِ بن سَعْدونٍ المعروفُ بابنِ

---

(١) الخبت من الأرض: المنخفض (الذي يكون فيه عادة ماء) الواسع.
(٢) اصطبح: شرب الخمر صباحاً. القهوة: الخمر المطبوخة بالنار. دهاق: مملوءة. قهوة الندى..... (؟).
(٣) التراقي جمع ترقوة (بضمّ التاء): عظم في أعلى الصدر. فحوّل منّي الخ: قرّبني من الموت.
(٤) آذن: أوشك، اقترب.
(٥) النشور: يوم القيامة. التفّت الساق (العظم الأدنى من رجل الإنسان): اشتبكت (كناية الازدحام والاضطراب).
(٦) كان هاني بن محمّد بن سعدون (والد صاحب هذه الترجمة) من قرية من قرى المهدية في إفريقية (القطر التونسي) ثمّ انتقل إلى الأندلس. وكان أديباً شاعراً.

هاني الأندلسيّ[1] سَنَةَ ٣٢٠ (٩٣٢ م) أو ٣٢٦ في قريةِ سكون؟ من قُرى إشْبيلِيَةَ.

ونشأ في إشبيلية، ثمّ انتقلتْ أُسرتُه إلى إلبيرة (قرب غرناطة)، ولذلك أصبحَ يُعْرَفُ أيضاً باسم ابن هاني الإلبيريّ. وقد تلقّى علومه في مدينة قرطبة.

واتّصل ابن هاني الأندلسيُّ أولَ ما اتّصل بولاة اشبيلية، ولكنْ يبدو أنّه لم يَنَلْ حَظْوَةً لدى رجال الدولة المروانيّة فانتقل إلى المَغْرِبِ، وعُمْرُهُ إذ ذاك سَبْعٌ وعِشرونَ سَنَةً (٣٤٧ أو ٣٥٣ هـ) ثمّ اتّصل برجال الدولة الفاطمية. ومن المستبعد أن يكونَ ابن هاني قدِ اَعتنق المذهب الفاطميّ في الأندلس ثمّ اضطُرّ إلى مُغادرة الأندلس من أجلِ ذلك، فقد قيل إنّه اتّصل في المغربِ بِجَوْهَرٍ الصِقِلّيِّ ومَدَحَهُ فأعطاه جَوْهَرٌ مِائَتَيْ دِرْهَمٍ. ثمّ سأل عن رجلٍ كريمٍ يَقْصِدُهُ فدَلّوهُ على جَعْفَرِ بنِ فَلاحٍ وعلى جَعْفرِ اَبنِ عليٍّ بنِ حَمْدونِ المعروفِ بابنِ الأندلسية– وكان جَعْفَرُ بنُ عليٍّ وأخوه يحيى والِيَيْنِ على المَسيلةِ (المُحمّدية) إحدى مدن الزابِ (في المغرب الأوسط)، فسار إليْهما ومَدَحهما ونال عندَهما حَظوةً كبيرة. ثمّ بلغ خبرُ ابنِ هاني إلى المُعزّ لدينِ الله الفاطميّ (٣٤١–٣٦٥ هـ) فاسْتَقْدَمَهُ المعزُّ إلى القَيْروانِ وبالغ في إكرامه.

في أواخرِ شوّالٍ من سَنَةِ ٣٦١ (صيف ٩٧٢ م) اَنتقل المُعزّ لدينِ الله إلى القاهرةِ فخَرَجَ ابنُ هاني مَعَهُ مُشَيِّعاً. ثمّ إنّه عاد وجاء بأهلِه وسار يريدُ مِصْرَ. فلمّا كان في بَرْقَةَ وُجِدَ مقتولاً، في ٢٣ من رَجَبَ من سَنَةِ ٣٦٢ (٢٩/ ٤/ ٩٧٣ م) في الأغلب. ولم يَتَّفِقِ المؤرّخون على سَبَبِ مَقْتلِه.

٢– يَدُلُّ شِعْرُ ابنِ هاني الأندلسي على أنّ ابنَ هاني كان مُلِمّاً بِعَدَدٍ من العلوم كعِلْمِ اللُّغَة والفِقْه والكَلام وعلم الهيئة (الفَلَك)؛ ولكنّ اختصاصَه كان في الأدبْ. وَهُوَ شاعرٌ مُكْثِرٌ مُجيدٌ جَعَلَه مُعْظَمُ النُّقّاد في مُقَدّمةِ شُعَراءِ المَغْرِبِ كُلِّهِمْ؛ والمَغاربةُ يَقْرِنونه بالمُتَنَبّي، وقَدْ سَمَّوْه «مُتنبّي المَغْرِبِ أو متنبّي الغَرْب».

وابن هاني الأندلسيّ مُغْرَمٌ بالألفاظ الطَنّانة ذاتِ الجَلَبَةِ من غيرِ ضَرورةٍ تدعوه إلى

---

(١) تمييزاً له من ابن هاني الحكميّ أبي نواس ومن ابن هاني محمّد بن إبراهيم بن مفضّل (ت ٥٦٠ هـ).

استعمالها حتّى أفْسَدَ بذلك بَعْضَ شِعْرِه، كما يَذْكُرُ ابنُ رَشيقٍ[1]. وربّما أكْثَرَ ابنُ هاني من الألفاظ الغَريبة وربّما جاء بالصِيَغِ التي لا تَرِدُ في القواميس، نحو: دَمّع، مُمَنْطَق، صَدْقاء (مستقيمة)، الخَطِيء (الخاطىء، المُخْطىء). غيرَ أنّ بناءَ جُمَلِه مَتينٌ: والغالبُ على شَكْلِ القصيدةِ عندَهُ شكلُ المُعَلّقة، وقد يَقْتَرِبُ من المعلّقة حتّى يُقارب بألفاظهِ ألفاظَ عَنْتَرَةَ وزُهَيْرِ بنِ أبي سُلْمى وغيرِهما. وكثيراً ما كان يَطْبَعُ شِعْره على غِرارِ شِعْرِ المتنبّي في الخصائصِ اللفظيةِ والخصائص المعنوية وفي الأغراض.

والغالبُ على الديوان الذي وَصَلَ إلينا مِنَ ابنِ هاني الأندلسي المديحُ؛ ثمّ فيه شيءٌ من الرثاء وقليلٌ من الهجاء. والوَصْفُ والغَزَلُ والحِكْمة أغراض بارزةٌ في هذا الديوان. ومَعَ أنَّ الحكمةَ قليلةٌ في ديوان ابن هاني الأندلسي فإنّها بارعةٌ جِداً لما فيها من التحليل المَنْطقي المُتَّسق ولما فيها أحياناً من الابتكار.

ويَشْتَمِلُ ديوانُ ابن هاني على أربعةِ آلافِ بيتٍ في قصائدَ طِوالٍ عادةً، وقد بَلَغَتْ إحداها مائتي بَيْتٍ. فمن هذه الأبياتِ ١٦٣١ بيتاً في جَعْفَرِ بن عليّ وآلهِ و ١٧٧٤ بيتاً في المُعِزّ لدين الله وَحْدَهُ. وليسَ في الديوان الذي بينَ أيدينا شيءٌ من الشِعْر قاله ابنُ هاني في الأندلس قبلَ مَجيئه إلى المغرب.

ومُعْظَمُ قصائدِ ابنِ هاني الأندلسي مملوءٌ بالألفاظِ والمَدارك الفاطمية وبالمبالغة بالمديح والرثاء بها حتّى يَخْرُجَ بذلك إلى الكُفْرِ[2]. ولا رَيْبَ في أن ابن هاني كان يأتي

---

(١) قال ابن رشيق في « العمدة » (المكتبة التجارية، ١٣٥٣ هـ = ١٩٣٤ م،): « ومنهم (من الشعراء) » فرقة أصحاب جلبة وقعقعة بلا طائل معنى إلاّ القليلَ النادر كأبي القاسم بن هاني.... فإنّه يقول في أوّل مذهبته: أصاخت فقالت: وقع أجرد شيظم! (تبيان المعاني ٦٥٧).... وليس تحت هذا كلّه إلاّ الفساد وخلاف المراد.... وكانت عند أبي القاسم مع طبعه صنعة: فإذا أخذ في الحلاوة والرقّة وعمل بطبعه وعلى سجيّته أشبه الناس ودخل في جملة الفضلاء، وإذا تكلّف الفخامة وسلك طريق الصنعة أضرّ بنفسه وأتعب سامع شعره... (العمدة ١: ١٠٤- ١٠٥).

(٢) من المشهور في ديوان ابن هاني الأندلسي قوله في مطلع قصيدة:

ما شئت، لا ما شاءت الأقدار. فاحكم، فأنت الواحد القهّار.
فكأنما أنت النبيّ محمّد، وكأنما أنصارك الأنصار.

ونقرأ في البيان المغرب (٢: ٢٩٢- ٢٩٣) أن المنصور بن أبي عامر (ت ٢٩٣ هـ) كان =

بهذه المُبالغاتِ إرضاءً للممدوحين واستكثاراً لعطاياهم. وإيغاله في تلك المبالغات يَدُلّ على أنّه لم يكُنْ يَسْتَشْعِرُ في نفسه ما كان يُعَبِّرَ عنه بلسانِه، لأنّ أصحابَ المذهبِ الفاطميّ أنفسَهم لم يُصَرِّحوا بمثلِ ما صرّح بهِ هُوَ.

٣- مختارات من شعره

- قال ابنُ هاني يمدحُ الأميرينِ طاهراً والحسينَ ابْنَيِ المنصورِ بالله الفاطميّ (وهما أخوا المُعِزّ لدين الله):

امْسَحوا عن ناظري كُحْلَ السُّهادْ وانْفُضوا عن مَضْجَعي شَوْكَ القَتادْ[١]،
أو خُـــذوا مِنّيَ مـــا أبْقَيْتُمُ؛ لا أُحِبُّ العَيْشَ مسلوبَ الفُؤاد[٢].
هـل تُجـيرونَ مُحِبّاً من هَوًى! أو تَفُكّونَ أسيراً من صِفـاد[٣]!
وإذا كانـــتْ صَـــلاةٌ فَعَلَـــى هاشمِ البَطْحاءِ أرْبابِ العِباد[٤]؛
هُمْ أقَرّوا جانـــبَ الدهرِ، وهم أصْلَحوا الأيامَ من بَعْدِ الفَساد؛
أهـــلُ حَوْضِ الله يجري سَلْسَلاً بالطَهور العَـذْبِ والصَفْوِ البُراد[٥].
أسِواهُمْ أبْتَغي يومَ النَـــدى؟ أمْ سِواهُمْ أرْتَجي يوم المَعاد[٦]؟

= يكره الجدل والآراء الدهرية والاستخفاف بشيء من الشريعة. واتّفق أن كان في أيامه شاعر من شعرائه اسمه عبد العزيز بن الخطيب قال: «ما شئت....» (البيتين)، فضربه خمسمائة سوط وحبسه ثمّ نفاه عن الأندلس. فإذا نحن قبلنا قول ابن عِذاري في البيان المغرب وجب أن يكون هذان البيتان وأمثالها ثمّ الاتّجاه الفاطمي في الأندلس أقدم من ابن هاني الأندلسيّ.

(١) السهاد: السهر، العجز عن النوم. القتاد: نبات له شوك قاس - ساعدوني على أن أنام وعلى أن يكون نومي مريحاً.

(٢) ما أبقيتم: ما أبقى حبّكم من جسمي.- أخذتم قلبي ونومي.... وتركتم شيئاً من جسمي، فخذوه أيضاً.

(٣) هل تشفقون على محبّ لكم أو تطلقون سراح أسيركم؟ الصفاد: الوثاق (رباط من جلد أو من حديد).

(٤)- (وإذا صلّى أحد فصلاته لتقديس بني هاشم أصحاب بطحاء مكّة- لا بني هاشم الذين كانوا يسكنون خارج مكّة- لأنّ هاشم البطحاء هم أرباب العباد = الذين يحكمون الناس في الأرض بوصية من الله!).

(٥)- هم يقفون يوم القيامة على الحوض ويسقون الناس (هم الذين يجري حساب الناس يوم القيامة على أيديهم).

(٦) الندى: الكرم. المعاد: الحشر، القيامة.

هُمْ أباحوا كلَّ مَمْنوعِ الحِمى وأذَلّوا كلَّ جَبّارِ العِنادِ[١].

- وقال يرثي والدةَ جَعْفرٍ ويَحْيى ٱبْنَيْ عَليٍّ:

صَدَقَ الفَناءُ وكَذَّبَ العُمُرُ، و .... العظات وبالغ النُذُرُ[٢].

إنّا- وفي آمالِ أنفسِنا طُولٌ، وفي أعمارِنا قِصَرُ[٣]-

لَنَرى بأعْيُنِنا مصارِعَنا لو كانتِ الألْبابُ تَعْتَبِرُ[٤].

مِمّا دَهانا أنّ حاضِرَنا أجْفانُنا، والغائبَ الفِكَرُ[٥].

فإذا تَدَبَّرْنا جوارِحَنا فأكَلُّهُنّ العَيْنُ والنَظَرُ[٦].

لو كان للألْبابِ مُمْتَحِنٌ ما عُدَّ مِنْها السمعُ والبَصَر.

أيُّ الحياةِ ألَذُّ عِيشَتَها من بَعْدِ عِلْمي أنّني بَشَرُ[٧]!

خَرِسَتْ- لَعَمْرُ اللهِ- ألْسُنُنا لَمّا تكلّمَ فوقَنا القَدَر.

تَفْنى النُجومُ الزُهْرُ طالعةً والنَيِّرانِ الشمسُ والقمر.

وَلَئِنْ تَبَدَّتْ في مَطالِعِها مَنْظومةً فَلَسَوْفَ تَنْتَثِر.

أعَقيلةَ المَلِكِ المُشَيِّعها، هذا الثناءُ، وهذهِ الزُمَرُ[٨]!

---

(١) الحمى: المكان الذي يدافع أهله عنه، الحصن المنيع.

(٢) صدق الفناء (الموت) إذ أتى على كلّ إنسان. وكذّب العمر: خاب أمل كلّ إنسان في أن يعيش (إلى الأبد أو طويلاً).

(٣) حياتنا أقصر من أن تكفي لتحقيق آمالنا.

(٤) إنّنا نرى مصارعنا بأعيننا: نرى غيرنا يموتون ونوقن أنّنا سنموت مثلهم. ولكن ألبابنا (عقولنا) لا تعتبر (لا تتّعظ).

(٥)- خطأنا (في تقدير الحياة والموت) أنّنا نلتهي في حاضرنا بما تراه أعيننا ثمّ نغفُل عمّا سيأتي به المستقبل، لأنّ المستقبل مدرك بالفكر والعقل (ونحن لا نفكّر كثيراً).

(٦)- نحن نعتمد الحكم في الأمور على عيوننا (على النظر إلى حاضرنا) مع أن العين أكلّ (أضعف) حواسّ الإنسان.

(٧) إذا أدرك كلّ واحد منّا أنّه بشر (أي أنه سيموت) لم يلتذّ بشيء في هذه الحياة.

(٨) المشيّعها في متن الديوان (تبيين المعاني ٣١٥) مضبوطة بكسر العين، والصواب (ممّا نرى في شرح البيت نفسه أيضاً) فتحها، فيصبح نسق الكلام: يا عقيلة الملك التي يشيّعها (يسير وراءها إلى قبرها) ثنائي (رثائي)، هذا (الفخم) وهذه الزمر (الجماعات الكثيرة من الناس)... فيكون البيت كلّه منادى، ويكون جواب النداء في البيت التالي.

شَهِـدَ الغَمامُ، وإنْ سَقاكِ حَياً، أنّ الغَمامَ إلَيْــــكِ مُفْتَقِر[١].
ولَقَـدْ نَزَلْـتِ بَنِيَّـةً عَلِمَـتْ مـا قـد طَوَتْه فَهْيَ تَفْتَخِر[٢]؛
تَغْـدو عليهـا الشمسُ بازِغَـةً فتَحِـــجُّ ناسكَـــةً وتَعْتَمِر[٣].
وبَنو عـــليٍّ لا يُقـــال لَهُمْ: صـبراً! وهم أُسْدُ الوَغى الضُبُر[٤].

أنظر تتمة القصيدة في صفحة ٢٧٦.

- وقال يمدحُ جَعْفَرَ بنَ عَليٍّ:

فُتِقَتْ لَكُمْ ريحُ الجِلادِ بعَنْبَرِ، وأمَدّكُمْ فَلَقُ الصَباحِ المُسْفِرِ[٥]؛
وجَنَيْتُمُ ثَمَرَ الوقائــعِ يانِعــاً بالنَّصْرِ من وَرَقِ الحديدِ الأخْضَرِ[٦].
أبَــني العَوالي السَمْهَرِيَّـةِ والسُيو فِ المَشْرَفِيّــةِ والعَديـدِ الأكْثَرِ،
مَنْ مِنْكُمُ المَلِـكُ المُطـاعُ كأنّهُ تَحْتَ السَوابِغِ تُبَّعٌ في حِمْيَرِ[٧]!
في فِتْيَـةٍ صَدأُ الحَديـدِ عَبيرُهم وخَلوقُهم عَلَقُ النَجيعِ الأحْمرِ[٨].

---

(١) الحيا: المطر.
(٢) البنيّة: البناء (هنا: القبر). القبر يعلم قدومك فهو يفتخر بأنّه حوى جسدك الميت.
(٣) تطلع الشمس كلّ يوم على قبرك لتحجّ ناسكة (متعبّدة، لأنّ الحجّ إلى قبرك فرض) ثمّ لا تكتفي بالحجّ الذي هو فرض فتعتمر (تحجّ، تطوّعاً تراعي، تتأمّل قبرك مرّات كثيرة في اليوم الواحد).
(٤) - نسل الإمام عليّ لا يعزّون (بالبناء للمجهول= بضمّ الياء وفتح الزاي المشدّدة) عن موتاهم بقول الناس لهم: صبراً! لأنّهم في الدرجة الأولى ليسوا بشراً عاديّين، بل هم صور مختلفة للعزّة الالّهية. وكذلك هم في صورهم البشرية أسود شجعان من عادتهم الصبر في الوغى (الحرب، وفي جميع الشدائد). الضبر (بالضاد المعجمة) جمع ضبور (كما في متن تبيين المعاني ٣١٨): الأسد الشديد (ولعلّ صبر بالصاد المهملة وبضمّ فضمّ توافق المعنى أيضاً).
(٥) الجلاد: الحرب، القتال. ريح: رائحة. فتقت الريح: أخرجت (بالبناء للمجهول).- أنتم تشمّون (بفتح الشين) رائحة القتال طيّبة كالعنبر (مع أن رائحة الجثث في ميدان القتال تكون كريهة)= أنتم تحبّون القتال. أمدّكم: أعانكم، ساعدكم. فلق الصباح المسفر: انشقاق الفجر واضحاً (الصبح أحسن ساعات اليوم= كان حظّكم في القتال عظيماً!).
(٦) الوقائع: المعارك. يانعاً: ناضجاً. الأخضر: الأسود.- في البيت استعارة الشجر للحرب، والورق للسيوف، والثمر للفتح (للنصر، للظفر)= نلتم الظفر في الحروب بجدّ السيف.
(٧) تبّع: لقب ملوك اليمن. حمير (بن سبأ): أبو قبيلة (جانب من سكّان اليمن، كبار اليمن). تحت السوابغ (الدروع): في الحرب.
(٨) العبير: الرائحة الطيّبة. الخلوق (بفتح الخاء): نوع من الطيب. علق: الدم (أو الدم الجامد) أو شديد الحمرة من الدم، عنصر الدم (الكريّات الحمرّ). النجيع: دم الجوف، الدم المائل إلى السواد.

لا يأكُلُ السِرْحانُ شِلْوَ طَعينِهِمْ ... مِمّا عليه من القَنا المُتَكَسِّر[١].

قد جاوَروا أجَمَ الضواري حَوْلَهم، ... فإذا هُمُ زأروا بِها لم تَزْأر[٢].

قَوْمٌ يَبيتُ على الحَشايا غَيْرُهم، ... ومَبيتُهم فوقَ الجِياد الضُمَّر[٣].

وتَظَلُّ تَسبَحُ في الدِماءِ قِبابُهم ... فكأنَّهنّ سَفائِنٌ في أبْحُر[٤]

إنّا لَتَجْمَعُنا وهذا الحَيَّ مِنْ ... بَكْرٍ أذِمّةُ سالفٍ لم تُخْفَر[٥]:

أخْلافُنا فَكأنّنا من نِسْبَةٍ؛ ... وَلِداتُنا فكأنّنا من عُنْصُر[٦].

لي مِنْهُمُ سَيْفٌ إذا جَرّدْتُه ... يوماً ضَرَبْتُ بِهِ رِقابَ الأعْصُر[٧]!

- وقال يمدحُ الخليفةَ المُعِزَّ لدينِ الله:

ما شِئْتَ، لا ما شاءَتِ الأقْدارُ. ... فاحْكُمْ، فأنّتَ الواحِدُ القَهّارُ[٨]!

وكأنّما أنتَ النَبِيّ مُحَمّدٌ، ... وكأنّما أنصارُكَ الأنصارُ[٩].

---

(١) السرحان: الذئب. الشلو: القطعة من الجثّة، العضو المسلوخ من الجسم. الطعين: المقتول طعنا (بالرماح). القنا جمع قناة: الرمح.

(٢) الاجم جمع أجمة: الشجر الكثير الملتفّ (الكثيف). الضواري جمع ضار: الحيوان المولع بأكل اللحم -... تخافهم الضواري في بيوتها.

(٣) الحشيّة: الفراش. يبيت على الحشية: يقضي الليل نائماً (منعّماً غافلاً عن الكفاح أو مهملاً للكفاح). الجياد: الخيل الأصيلة. الضمّر جمع ضامر (نحيل البطن).- مبيتهم فوق الجياد: في الحرب.

(٤) القبّة: الخيمة من الأدم (الجلد)، وتكون للملوك. تسبح في الدماء (لكثرة حروبهم).

(٥) الذمام (بكسر الذال): الحق، الحرمة (ما تجب المحافظة عليه فيكون بذلك حراماً على غير أهله). سالف: (زمن) قديم. لم تخفر: لم تنكث، لم يغدر بها.

(٦) اللدات في الأصل: النساء اللواتي هنّ في سنّ واحدة. من عنصر: من أصل (واحد).

(٧) لي منهم (من بني هاشم الفاطميّين) سيف (رجل انتصر به). إذا جرّدته: إذا استجرت به. ضربت به رقاب الأعصر: تغلّبت به على جميع الأزمنة (على كلّ مناوىء أو خصم).

(٨) في هذا البيت كفر صريح، أو هو شطح (تعبير خارج عن المألوف) قبيح. غير أن الباطنيّة (والإسماعيليةالفاطميّين منهم) يرون أن لهذا البيت تفسيراً باطنيّاً فلسفياً: إنّ الله لا يباشر الأمور بنفسه، بل هو يجري أحداث الحياة كلّها في خلقه أو على يدي خلقه ممّن يشاء منهم (راجع تبيين المعاني، المقدّمة ٥٧- ٥٨).

(٩) أنصارك: أعوانك، رجال شيعتك. الأنصار: أهل المدينة الذين نصروا محمّداً رسول الله بعد أن هاجر من مكّة.

أنتَ الذي كانت تُبَشِّرُنا بهِ في كُتْبِهِ الأحْبارُ والأخبار[١].
هذا الذي تُجْدي شَفاعتُه غَداً حَقّاً، وتَخْمُدُ أنْ تَراهُ النار[٢]؛
من آلِ أحْمَدَ كلُّ فَخْرٍ لَمْ يَكُنْ يُنْمى إلَيْهِمْ- ليسَ فيهِ فَخارُ[٣].
والخَيْلُ تَمْرَحُ في الشَكيمِ كأنّها عِقْبانُ صارَةَ شاقَها الأوْكار[٤]؛
وعَلى مَطاها فِتْيَةٌ شيعِيّةٌ ما إن لَها إلاّ الوَلاءِ شعارُ[٥].
أبنيَّ فاطمَ، هلْ لنا في حَشْرِنا لَجَأٌ سِواكُمْ عاصِمٌ ومُجار[٦]؟
أنتُمْ أحِبّاءُ الالَهِ، وآلُه خُلفاؤه في أرضِهِ الأبرارُ[٧]:
أهلُ النُبُوَّةِ والرِسالةِ والهُدى في البَيِّناتِ وسادَةٌ أطْهار،
والوَحْيِ والتأويلِ والتَحْريمِ والتحليلِ، لا خُلْفٌ ولا إنْكار.
إن قيلَ: مَنْ خَيرُ البَرِيّةِ لم يَكُنْ إلاّكُمُ خَلْقٌ إلَيْهِ يُشار!
لو تَلْمِسون الصَخْرَ لانْبَجَسَتْ بِه وتَفَجّرتْ وتَدَفّقتْ أنْهار[٨]؛
أو كان مِنْكُمْ لِلرُّفاتِ مُخاطِبٌ لَبّوْا وظَنّوا أنّه إنْشار[٩].

---

(١) الأحبار: علماء الدين. الأخبار: الروايات الدينية.

(٢) تجدي: تنفع. غداً (يوم القيامة). وتخمد أن ترا (إذا رأته) النار (جهنّم).

(٣) يمى إليهم: ينسب إليهم، يتّصل بهم.

(٤) تمرح: تلعب (من النشاط). الشكيم: حديدة اللجام التي توضع معترضة في فم الحصان. العقاب (بضمّ العين): طير من الجوارح، النسر. صارة: اسم جبال في بلاد بني أسد (وفي أماكن أخرى). كأنّها عقبان صارة شاقها الأوكار: مسرعة إلى أوكارها (لتطعم أولادها بما جاءت به من اللحم).

(٥) المطا: الظهر. الولاء: الطاعة والوفاء (لعليّ بن أبي طالب). شعار: علامة.

(٦) فاطم ترخيم فاطمة (بنت محمّد رسول الله). الحشر: جمع الناس يوم القيامة للحساب. لجأ: التجاء، حماية. عاصم: مانع، حام، مدافع. مجار: اسم مكان من أجار، مكان يحتمي به الإنسان (يوم القيامة من عذاب النار).

(٧) وآله (!)...- أنتم خلفاء الله في الأرض (تحكمون باسمه وبعهد منه).

(٨) انبجس بالصخر أنهار= انبجست من الصخر أنهار: خرجت، نبعت. تفجّر: نبع بكثرة.

(٩) الرفات: الحطام (بضمّ الحاء المهملة)، الأشياء المتكسرة كأنّها مدقوقة (بقايا الأموات). إنشار: إحياء الموتى وبعثهم من القبور.- لو خاطب أحد منكم الموتى لأجابوه وقاموا من قبورهم وظنّوا (أيقنوا، وقد جاءت « ظنّ » بمعنى أيقن في القاموس وفي القرآن الكريم).

أُمعِزَّ دينِ اللهِ، إنّ زَمانَنـــــا بكَ فيه بأوٌ جَلّ واسْتِكْبار[1].
شَرُفَتْ بِكَ الآفاقُ، وانْقَسَمَتْ بِكَ الـ ـأرزاقُ والآجـــالُ والأعمار.
جَلّـتْ صِفاتُكَ أنْ تُحَدَّ بِمَقُولٍ! مـا يَفْعَـلُ المِصْداقُ والمِكْثار!

- وقال يمدحُ يَحْيى بنَ عَليٍّ الأندلسيَّ:

فَتَكاتُ طَرْفِكِ أمْ سُيوفِ أبيكِ، وكُؤوسُ خَمْرٍ أمْ مَراشِفُ فيكِ[2]!
أجِـلادُ مُرْهَفَـةٍ وفَتْـكُ مَحاجِرٍ؟ مـا أنـتِ راحمةٌ ولا أهلوكِ[3].
يا بنْتَ ذا السَّيْفِ الطويل نجادُه، أكَذا يجوزُ الحُكْمُ في ناديك[4]؟
قـد كـان يَدْعوني خَيالُكِ طارقاً حتّـى دَعاني بالقَنـا داعيـك[5]
عَيْنـاك أمْ مَغْنـاكِ موعدُنـا؟ وفي وادي الكَرَى نَلْقاكِ أوْ واديك[6]؟
مَنَعوكِ من سِنَةِ الكَرى وسرَوْا، فلو عَثَروا بطَيْـفٍ طارقٍ ظَنّوك[7].
ودَعَوْك نَشْوَى، مـا سَقَوْكِ مُدامـةً؛ فإذا تَثَنّى عِطْفُكِ اتّهموك[8].

---

(١) بأو: عزّ، افتخار. جلّ: كبر، عظم، تعالى عمّا سواه.

(٢) أهذا الذي يقتل الناس (ما تفعل بهم عيونك في الحبّ) أم (ما تفعله في المعارك) سيوف أبيك (قومك). وهل هؤلاء الناس السكارى في الحياة.من الخمر التي يشربونها أم من القبلات التي يجنونها من فمك (من حبّك)؟

(٣) إن قتل الناس بالسيف مرّة والفتك بهم بلحاظك (بعيونك) مرّة أخرى فوق ما يحتمل الناس. لا أنت ترحمين الناس ولا قومك يرحمونهم!

(٤) يا بنت ذا (هذا) السيف الطويل نجاده (يا بنت هذا الرجل الطويل القامة، وهذا الرجل الشجاع). النادي المجلس (كناية عن رؤساء القوم).- أهكذا حكمكم أبداً في الناس: بالظلم (بقلّة المبالاة بالمحبّين)؟

(٥) قد كنت أراك في المنام (فأحببتك) ثمّ رأيتك عياناً. القنا جمع قناة: الرمح (كناية عن أنّه رأى التي يتغزّل بها وكانت ذات قامة طويلة كالرمح، فازداد حبًّا لها).

(٦) هل سيبقى حظّي منك النظر من بعيد (عيناك) أم سنلتقي (في مغناك: في مسكنك). وهل سيبقى وصلي لك في وادي الكرى (في المنام) أو سيكون في واديك (في بلدك، في اليقظة).

(٧) السنة (بكسر السين: النعاس). الكرى النوم - حرّموا عليك النوم وسروا (ساروا بكِ ليلاً- لئلاّ تستطعين الاغفاء- وحتّى لا يستطيع طيفك، أي خيالك أن يزور أحد في النوم) فلو اتّفق أن شاهدوا طيفاً لظنّوا أنّه طيفك بعثت به إلى أحد المحبّين فمنعوا وصوله إليهم.

(٨) إنّك في عنفوان شبابك ودلالك ولذلك تتأوّدين- تمايلين- فكانوا يقولون عنك إنّك نشوى (كرانة) مع أنّهم ما سقوك خمراً قطّ (ولا غفلوا عن مراقبتك حتّى يمكن أن تصل إليك خمر فتشربيها)، ومع ذلك كلّما تثنّى (اهتزّ، تمايل) عطفك ظنّوك (اتّهموك) قد شربت خمراً.

حَسِبوا التَّكَحُّلَ في جُفونِكِ حِلْيَةً.	بـــالله، مـــا بأكُفِّهِمْ كَحَلوك[١].
وجَلَوْكِ لي إذ نَحْنُ غُصْنـا بانةٍ،	حتّى إذا احْتَفَلَ الهَوى حَجَبوك[٢].
ولَوَى مُقَبَّلَكِ اللِثامُ، وما دَرَوْا	أنْ قـد لُثِمْتِ بهِ وقُبِّلَ فوك[٣].
فَضَعي اللِثامَ، فقَبْلَ خَدِّكِ ضُرِّجَتْ	راياتُ يَحْيى بالدَمِ المَسْفوك[٤].
يا خَيْلَهُ، لا تَسْخَطي عَزَماتِهِ؛	وإذا سَخِطْتِ فقَلَّما يُرْضيك[٥].
عُوجي بِجِنْحِ اللَّيْلِ، فالَمِلكُ الذي	يَهْدي النُّجومَ إلى العُلا هاديك[٦].
يَدُكَ الحَميدةُ قبلَ جُودكَ، إنّها	يَدُ مالكٍ تَقْضي على مَمْلوك[٧].

---

(١) التكحّل في القاموس اكتساء الأرض بالنبات.- حسبوا (ظنّوا) التكحّل (سمرة منبت الاشفار في أجفان العين) حلية (زينة، تطرية: تلويناً صناعيّاً). أقسم بالله إنّهم ليسوا هم الذين جعلوا كحلاً في جفونك، ولكنّ الله خلقك كذلك.

(٢) وجلوك لي (أبرزوك لي في أحسن زينتك) ونحن غصناً بانة (ناعمين كأغصان شجر البان- أي ونحن صغيران في السن لا ندري ما معنى الهوى)، حتّى إذا احتفل، أي امتلأ (قلبانا) بالهوى حجبوك (حالوا بيني وبينك ومنعونا من الاجتماع).

(٣) المقبّل: الفم. اللثام: غطاء يوضع على الوجه ويراد منه ستر الفم. لوى مقبّلك اللثام: التوى اللثام على مقبّلك، كثر وقوع اللثام على فمك (كأنّ اللثام يقبّل فمك)؛ راجع في القاموس (٤: ٣٨٧): «لاوت الحيّةُ (فاعل) الحيّة (مفعول به)= انطوت (التفّت) عليها».

(٤) ضعي اللثام: ارفعي اللثام عن فمك (عن وجهك) ولا تظنّي أنّك تسترين بها جمالك النادر (احمرار خدّيك) فإنّ هذه الحمرة التي جعلت خدّك جميلاً قد كانت موجودة من قبلك على رايات يحيى بن عليّ (من خوضه المعارك وكثرة القتال فيها والانتصار على الأعداء) - وفي هذا البيت تخلّص من الغزل إلى المديح بارع جدّاً.

(٥) - يا أيّتها الخيل التي يخوض بها يحيى بن عليّ المعارك الكثيرة وفي البلاد البعيدة، لا تغضبي من ذلك، فإنّك إذا غضبت فلن يرضيك (لن يترك عادته في خوض المعارك).

(٦) عاج: مال إلى، عطف، اتّجه إلى جانب ما. الجنح (بكسر الجيم، ويجوز ضمّها): الطائفة (المدّة) من الليل.- أيّتها الخيل (راجع تفسير البيت السابق)، لا تصرّي- إن لم يكن بدّ من الذهاب إلى المعارك- على أن تذهبي فقط في النهار؛ بل لا تخشي (بفتح الشين) أيضاً أن تذهبي في الليل لأنّ الملك (يحيى بن عليّ) هو الذي يدلّ النجوم في الليل على مواقعها في السماء، فهو يستطيع أيضاً أن يدلّك في الليل على طريقك إلى المعارك.

(٧) - قبل أن تعوّدت يدك الجود (غلى الناس بالمال) كانت حميدة (تهب الناس الحياة والخير.....)، ولا غرو فإنّها ليست فقط يد إنسان عاديّ تملك مالاً فتتكرّم به على المحتاجين، بل هي يد من يملك الناس ويقضي على الناس الذين هم ملكه (بضمّ الميم) في جميع أمورهم.

وأرى المُلوكَ- إذا رأيْتُكَ- سُوقَةً، وأرى عُفاتَكَ سُوقةً كمُلوك[١]

وَقَعاتُ نَصْرِكَ في الأعادي حَدَّثَتْ عن يَوْمِ بَدْرٍ قبلَها وتَبوك[٢].

هلْ أنتَ تارِكُ نَصلَ سَيْفِكَ حِقْبَةً في غِمْدِهِ أَمْ ليس بالمَتْروك[٣]!

الأبيات التالية تتمة القصيدة ص ٢٧١.

ولَخَيْرُ عَيْشٍ أنتَ لابِسُهُ عيشٌ جنى ثَمَراتِهِ الكِبَرُ[٤].

وحُدوثُ تَعْميرِ المُعَمَّرِ أنْ يَسْمُو صُعوداً ثمّ يَنْحَدِرُ[٥].

والسيفُ يَبْلَى وَهْوَ صاعِقةٌ، وتَنالُ مِنْهُ الهامُ والقَصَرُ[٦].

والمرءُ كالظِلِّ المديدِ ضُحىً، والفَيْءُ يَحْسِرُهُ فيَنْحَسِرُ[٧].

أبْقَتْ حديثاً مِنْ مآثِرِها يَبْقى، وتَنْفَدُ قَبْلَهُ الصُوَرُ[٨].

قَسَمَتْ عَلَى ابْنَيْها مكارِمَها؛ إنّ التُّراثَ المجدُ لا البِدَرُ[٩].

---

(١) إذا قارنت الملوك بك كنت أنت وحدك ملكاً، وأصبح الذين يسمّون (بفتح الميم) الآن ملوكاً سوقة (من عامّة الناس). أمّا عفاتك (الذين يأتون إليك فيطلبون عطاءك) والذين هم سوقة (يرجعون بعد أن تعطيهم الأموال) وكأنّهم ملوك (لغناهم ووجاهتهم).

(٢) إنّ معاركك التي انتصرت بها على الأعداء تشبه معركة بدر (٢ هـ = ٦٣٤ م) وتبوك (سنة ٩ هـ)؛ وكما أن محمّداً رسول الله قد ثبّت الإسلام بمعاركه، فإنّك أنت قد ثبّت الدعوة الفاطمية (الاسماعيلية) بمعاركك!

(٣) - أراغب أنت في أن تترك سيفك في غمده (تهادن الناس مدّة ما) أم تريد أن تظلّ معاركك متّصلة؟

(٤) أفضل أعمار البشر ما كان في آخره أحسن ممّا كان في أوله.

(٥) المعمّر: الذي يعيش عمراً طويلاً.

(٦) والسيف يبلى (يدركه البلى- بكسر الباء-: الفناء) وهو صاعقة: موت (القاموس ٣: ٣٥٤). وتنال منه (تفرّضه، تشقّقه) الهام (الرؤوس) والقصر (الرقاب)- السيف يسبّب الموت للناس ثمّ هو أيضاً يموت. ومع أن السيف حديد والرؤوس والرقاب من عظم ولحم، فإن كثرة قطع السيف للرؤوس والرقاب تؤثّر فيه.

(٧) الظل يكون في أول النهار. والفيء يكون في آخر النهار- حسره: أزاله (كما أن ظلّ الأشياء يقصر جدًّا إذا تكبدّت الشمس السماء، فكذلك عمر الإنسان يقصر إذا مرّ عليه الزمن).

(٨) المآثر: المحامد، الصفات الحميدة. تنفد قبله الصور= يرى أهل العقيدة الفاطمية أن صور الوجود لا تنفد (لا تنتهي لأنّها تجيّات للعزّة الإلّهية)، ومع ذلك فإنّ هذه الصور تنفد ومآثر هذه الميتة لا تنفد (لأنّ هذه الميتة تمثّل تجليًّا حقيقياً لله عندهم).

(٩) الإرث الحقيقي هو المجد وليس البدر (جمع بدرة: عشرة آلاف درهم).

وإذا صَحِبْتَ العيشَ أوّلُهُ صَفْوٌ، فَهَيْنٌ بَعْدَهُ كَدر[1].
وإذا انْتَهَيْتَ إلى مَدى أملٍ دَرْكاً فيومٌ واحدٌ عُمُرُ[2]!

٤- ديوان ابن هاني، بولاق ١٢٧٤ هـ؛ القاهرة ١٢٧٦ هـ؛ بيروت (١٨٨٤ م) (١٣٠٢ هـ)، ١٨٨٦ م، ١٣٢٦ هـ.
- تبيين المعاني في شرح ديوان ابن هاني (صحّحه وهذّبه زاهد عليّ)، حيدر آباد ١٣٢٦ هـ، ١٣٥٢ هـ= ١٩٣٣ م، مصر ١٣٣٢ هـ؛ مصر (دار المعارف) ١٩٥٢ م.
- ابن هاني الأندلسي، تأليف عارف تامر، بيروت ١٩٦١ م.
- ابن هاني الأندلسي: درس ونقد، تأليف منير ناجي، بيروت (دار النشر للجامعيين) ١٩٦٢ م.

★ ★ مطمح الأنفس ٧٤- ٧٩؛ المغرب ٢: ٩٧- ٩٩؛ المطرب ١٩٢- ١٩٥ (الخرطوم) ١٧٥- ١٧٨؛ معجم الأدباء ١٩: ٩٢- ١٠٥؛ خريدة القصر (مصر) ١: ٢٤٨- ٢٨٢؛ الوافي بالوفيات ١: ٣٥٢- ٣٥٥؛ وفيات الأعيان ٤: ٤٢١- ٤٢٤؛ الإحاطة ٢: ٢١٢- ٢١٥؛ نفح الطيب ٣: ٤٤٣- ٤٤٤، ٤: ٤٠- ٤٦؛ ٨٦- ٨٧؛ شذرات الذهب ٣: ٤١- ٤٤؛ أعيان الشيعة ٧: ١١٢- ١٣١؛ نيكل ٢٨، مختارات نيكل ١٥- ١٦؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٧٨٥ وما بعد؛ بروكلمن ١: ٩١، الملحق ١: ١٤٦- ١٤٧؛ الأعلام للزركلي ٧: ٣٥٤ (١٣٠)؛ بالنثيا ١٦، ٦٣- ٦٤.

أبو حنيفة النعمان المغربيّ

١- هو النُعمانُ بنُ محمّدِ بنِ منصورِ بنِ أحمدَ بنِ حيّونٍ التَميميُّ الداعي الإسماعيليّ المَغْربيّ، لُقِّبَ أبا حَنيفةَ كي يُضاهِيَ الفاطميّون بِهِ أبا حنيفةَ النُّعمانَ بنَ ثابتٍ فقيهَ الدولةِ العَبّاسيةِ.

وُلِدَ أبو حَنيفةَ النُّعمانُ المَغْربيُّ بُعَيْدَ سَنَةِ ٢٨٠ (٨٩٣ م)، فيما يبدو، ونشأ على المذهبِ المالكي. ولا نَعْلم مَتى انْتَقَلَ إلى مَذْهبِ الإمامية الاثْنَيْ عَشَريّة. وفي نحو سَنَةِ ٣١٢ (٩٢٤ م) اتّصل أبو حنيفة النُعمانُ المَغْربي بالإمام المَهْدِيِّ (٢٩٧- ٣٢٢ هـ)

(١) إذا عاش الإنسان مدّة طويلة في سعادة ونعيم هان عليه في آخر حياته شيء من الكدر (الموت).
(٢) وإذا أدركت كلّ آمالك في الحياة بسرعة فيكفي أن تعيش ذلك اليوم الواحد فقط!

أولِ الأئمّةِ الفاطميّين في القَيْروانِ. ثمّ استمرّ في خِدمةِ القائمِ بنِ المَهْدي (٣٢٢- ٣٣٤ هـ) والمنصورِ بنِ القائمِ (٣٣٤- ٣٤١ هـ) والمُعِزِّ بن المنصور.

وفي سنة ٣٣٣ (٩٤٤- ٩٤٥ م) اعْتَنَقَ المذهبَ الفاطميَّ (الإسماعيليّ) وَعَكَفَ على دِراسةِ التاريخِ والفلسفةِ والفِقهِ ثمّ أخذ يضعُ الكتبَ في نُصْرَةِ المذهب الإسماعيليّ. وفي سَنَة ٣٣٥ ولاّه الإمام القائمُ قَضاءَ طَرابُلُسِ الغربِ ثمّ جَعَلَهُ قاضيَ المَغْرِبِ. وقد بدأتْ مكانةُ أبي حنيفةَ المغربيِّ ترتفعُ في أيام المنصور الفاطميّ ثمّ بلغتْ أوْجَها في أيامِ المُعِزّ.

ولمّا انْتَقَلَ المعزُّ لدينِ اللهِ الفاطميُّ إلى القاهرةِ، في رَمَضانَ من سَنَةِ ٣٦٢ صَحِبَهُ أبو حنيفةَ النُعمانُ إليها وتَقلّدَ فيها القضاء. غير أنّه لم يَعِشْ بعدَ ذلك طويلاً فقد تُوُفِّيَ في الفُسطاط، في مُسْتَهَلِّ رَجَبَ ٣٦٣ (٢٨/ ٣/ ٩٧٤ م).

كان أبو حنيفةَ النُعمانُ المَغربيُّ من أهلِ العِلْمِ بالقرآنِ وبالفقهِ، وهو مؤسّسُ الفقهِ الإسماعيلي. وبما أنّه كان يَسْتشيرُ الأئمّةَ الفاطميّين، والمُعِزَّ منهم خاصةً، في كلّ ما يَعْرِضُ له عند التأليف، فقد عُدّ كتابُه دعائمُ الإسلام خاصةً مَصْدَراً للفقهِ الإسماعيليّ.

ولأبي حنيفة من الكتب: كتابُ الدعوة للعُبيديّين- افتتاح الدعوة وابتداء الدولة- المجالس المستنصرية والمواقف والتوقيعات (ألفه للمعزّ)- اختلاف أصول المذهب- أساس التأويل الباطن- تأويل الشريعة- تأويل الدعائم- اليَنْبوع- الاقتصار- المستطاب- الأخبار في الفقه- شرح الأخبار- مختصر الأخبار في ما رُوِيَ عن الأئمّة الأطهار- الهمّة في آداب آتّباع الأئمّة.

- دعائم الإسلام (آصف عليّ أصغر فيضي)، القاهرة (دار المعارف) ١٩٥١- ١٩٦٠ م.
- الهمّة في آداب آتّباع الأئمة (محمّد كامل حسين)، القاهرة (دار الفكر العربي) بعيد ١٩٥٠ م.
- أساس التأويل (عارف تامر)، بيروت (دار الثقافة) ١٩٦٠ م.
- كتاب الاقتصار: في الفقه (محمّد وحيد ميرزا)، دمشق (المعهد الفرنسي للدراسات العربية) ١٩٥٧ م.

★★- منتخبات إسماعيلية (تحقيق الدكتور عادل العوّا)، دمشق (مطبعة الجامعة السورية) ١٣٧٨ هـ= ١٩٥٨ م.

★ وفيات الأعيان ٥: ٥١٥- ٥٢٥؛ الذريعة ٣: ٢٥١؛ بروكلمن ١: ٢٠١، الملحق ١: ٣٢٤- ٣٢٥؛ أعلام ليبيا ٣٥٦؛ الأعلام للزركلي ٩: ٨ (٧: ٤١).

عليّ بن محمّد الأياديّ

١- هو عليُّ بنُ محمّدٍ الإياديُّ، نشأ في مدينةِ تونِسَ والتحقَ بخدمةِ الدولة العُبيدية (الفاطمية) في القَيْروان والمَهْدِية في أيامِ القائمِ بأمرِ الله (٣٢٢- ٣٣٤ هـ) وأيّام اسماعيلَ المنصورِ (٣٣٤- ٣٤١ هـ)، وكان مُعظّماً لَدَى الملوكِ وعند الخاصّةِ والعامّة. وعُمِّرَ عليُّ بنُ الإياديّ طويلاً وكانتْ وفاتُه سَنَةَ ٣٦٥ (٩٧٦ م).

٢- كان عليُّ بنُ الإيادي شاعراً سَهْلَ الكلامِ عذبَ القول رائقَ النظم متينَ السَّبْكِ يُحْسِنُ الوصفَ والغَزَلَ والمَدْحَ، وقد سارَ شِعرُه في أيامِه على الألْسِنة.

٣- مختارات من شعره

- قال عليُّ بنُ الإيادي يَصِفُ رَوْضةً في يومِ دَجْنٍ (يومِ غائمٍ مُمطر):

نَمّ بالرَّوْضِ خَفْـــقُ الرِيــاحْ، واقْتَـدَحَ الشَّرْقَ زِنادُ الصَباحْ[1].
وأخجلَ الوَرْدُ شُعاعَ الضُحى وٱبْتَسَمَـتْ فيــه ثُغورُ الأقــاح.
وقام في الدَوْحِ لِنَعْيِ الدُجى حَمائمٌ تُطْرِبُنــــا بالصِيـــاحْ[2].
مُذْ وُلِدَ الصُبْحُ وماتَ الدُجى صاحتْ، فلم نَـدْرِ غِناً أو نُواح.
ويومَ دَجْنٍ حُجِبَتْ شَمْسُه وأشرقتْ في لَيْله شَمْس راحْ[3]؛

(١) نمّ...: الريح دلّت على مكان الروض (لأنّها حملت منه رائحة الأزهار). واقتدح...: الزناد: حديد تقدح بها النار من الحجر الصوان. طلوع الصبح أضاء الجهة الشرقية.

(٢) الدوح جمع دوحة: الشجرة العظيمة. نعي الدجى: نشر الخبر بموت (انتهاء) الليل.

(٣) يوم دجن: يوم فيه غيم (لا تظهر فيه الشمس). الراح: الخمر.

فما ظَنَنّـا الصُبْـحَ إلاّ دُجىً، ولا حَسبْنا الليلَ إلاّ صَباحْ[١].

- وقال يصف فَرَساً للأمير جَعْفرِ بنِ الخليفةِ الفاطميِّ القائمِ بأمرِ اللهِ:

وأقَـبَّ من لحـقِ الجِيـاد كأنّـه قَصْرٌ تباعـدَ رُكْنُه عن ركنهِ[٢].

وكأنّما آنفجرَ الصباحُ بوَجْهِه حُسْناً، أوِ آحتبسَ الظلامُ بمَتْنه[٣].

حُلْوُ الصَهيـلِ يُخـالُ في لَهواتـهِ حـادٍ يَصوغُ بدائعـاً من لَحْنـه[٤].

قد راحَ يَحْمِلُ جَعْفرَ بنَ محمّدٍ حَمْلَ النسيمِ لِوابـلٍ من مُزْنـه .

قيـدُ العُيونِ إذا بَصُرْنَ بشَخْصه، ورِضا القُلوبِ إذا آصْطَلَيْنَ بِضِغْنه[٥].

يَسْتَوْقِفُ اللَحَظاتِ في خُطُواتِـه بكَمالِ خِلْقته ودِقّة حُسنه.

مُتَجبِّرٌ، يُنْبي بعِتـقِ نِجـارِه إشرافُ كاهلِهِ ودِقّة أُذْنِه[٦].

وكأنّـه فُلْـكٌ، إذا حرّكتـه جـارٍ عـلى سَهْـلِ البِـلاد وحزنـه[٧].

- وقال يَصِفُ أسطولَ القائمِ بأمرِ اللهِ الفاطمي (في عُرْضِ البَحْر في المَهْدية

---

(١) الصبح كان من نتيجة احتجاب الشمس كأنّه دجى (ليل): أمّا الليل المظلم فبدا من نور الخمر كأنّه نهار.

(٢) أقبّ: عالي الصدر. لحق (ليست في القاموس بمعنى يوافق هذا البيت). الجياد: الخيل. لحق الجياد (بضمّ اللام والحاء) جمع لاحق (؟): سابق أو لحق الجياد (بفتح ففتح- مصدر- بمعنى ضمور بطن الفرس (وذلك محمود في الخيل). كأنّه قصر (عظيم الجسم). تباعد ركنه من ركنه (لعلّ التباعد بين كتفي الفرس من محامده).

(٣) يحمد في الفرس أن يكون له غرّة (سبحة كبيرة) بيضاء في مقدّمة رأسه وأن يكون جسمه أسود خالصاً (لا لون آخر فيه). المتن: الظهر.

(٤) الصهيل: صوت الخيل. اللهوات جمع لهاة (بفتح اللام): قطعة لحم تتدلّى من أعلى مقدّم الحنجرة. الحادي: سائق الإبل (يغنّي للإبل فتستمرّ في سيرها).

(٥) جسمه جميل حتّى أن العيون تظلّ تنظر إليه كأنّها مقيّدة (مربوطة) به. الضغن: الحقد، والشوق إلى الوطن، وللضغن صلة بجري الخيل (إذا ركض هذا الحصان أرضى القلوب لأنّه سريع جدّاً!).

(٦) ينبي بعتق (بكسر العين وفتحها) نجاره (كرم أصله) إشراف (علوّ) كاهله (كتفه) ودقة (صغر) أذنيه.

(٧) الفلك: السفينة الكبيرة. إذا حرّكته: إذا دفعته للجري. جار (يستسهل السير). الحزن (بفتح الحاء): الأرض الصلبة.

يخوضُ معركَةً)؛ ويبدو أن الأبيات الخامس وما يليه تحتاج إلى إعادة ترتيب:

واعْجَبْ لأُسطولِ الإمامِ محمّدٍ ... ولحُسنِه وزَمانِه المُسْتغرَبِ.
لَبِسَتْ بِهِ الأمواجُ أحْسَنَ منظرٍ ... يبدو لعينِ الناظر المُتَعجّبِ.
من كلّ مُشرفةٍ على ما قابلت ... إشرافَ صَدْرِ الأجْدلِ المُتَنَصّبِ(١).
دَهماءَ قد لَبِسَتْ ثِيابَ تصنُّعٍ ... تَسْبي العقولَ على ثيابِ تَرَهُّبِ(٢):
من كلّ أبيضَ في الهواءِ مُنَشَّرٍ ... منها وأسودَ في الخليجِ مُغَيّبِ(٣).
سَجَروا جَواحِمَ نارِها فتقاذفوا ... مِنها بألْسُنِ مارجٍ مُتَلَهّبِ(٤).
وتَحُثُّها أيدي الرجالِ إذا وَنَتْ ... بمُصعَّدٍ منها بُعيدَ مُصوَّبِ(٥).
جَوفاءُ تَحْمِلُ كوكَباً في جَوْفِها ... يومَ الرِهانِ وتستقلّ بمركبِ(٦).
يعلو بها حدب العُبابِ مطارة ... في كلّ لُجٍّ زاخرٍ مُغْلَوْلِبِ(٧).
من كلّ مَسْجورِ الحريقِ إذا انبرى ... من سِجْنه انْصَلَتَ انصلاتَ الكَوْكبِ(٨)،
عُريانَ يَقْذِفُ بالدُخانِ كأنّه ... صُبْحٌ يَكُرُّ على الظلامِ الغَيْهبِ(٩).

---

(١) الأجدل: الصقر.

(٢) دهماء: سوداء اللون. لبست ثياب تصنّع: لها أنواع من الشراع (لأغراض مختلفة من السير مع الريح). ثياب ترهّب: ثياب سود (لأنّ الجزء الذي يغوص من السفينة في الماء يطلى بالزفت لمنع تسرّب الماء بين شقوق الخشب).

(٣) أبيض في الهواء منشّر: الشراع. أسود في الخليج مغيّب: نصف السفينة الأسفل المطلّي بالقار.

(٤) سجر: أوقد (النار). جاحم: الجمر الشديد الاشتعال. المارج: الشعلة من اللهب. تقاذفوا: قذف بعضهم (بالنار) بعضًا.- يصف الشاعر هنا القتال بالنار اليونانية.

(٥) إذا هدأت الريح فأبطأ سير السفينة حثّها الرجال (باستخدام المجاذيف). المصعّد: الصاعد. بعيد: بعد. مصوّب: هابط (يبدو أنّه قد كان للسفينة طبقتان من المجاذيف). ونت: تعبت.

(٦) في نفح الطيب (٤ : ٥٨):.... موكبا.... بموكب. (بهذا يصبح المعنى أوضح): كلّ سفينة تحمل في جوفها عدداً كبيراً من الجند، والسفن في الأسطول كثيرة العدد.

(٧) في نفح الطيب:... مطارة... معلولب (ومعلوب بالعين المهملة ليست في القاموس ولا في التاج).- ترتفع السفينة بذلك (بالمجاذيف) فوق حدب العباب (انحناء الماء العظيم: الموج). مطارة.. في كلّ لجّ (المكان الواسع من البحر) زاخر (هائج، مضطرب) مغلولب (بالغين المنقوطة) الكثير.

(٨) من كلّ مسجور الحريق (كرة من نار: من النار اليونانية: مزيج من النفط والزفت الخ) إذا انبرى (ظهر، عرض) من سجنه (من المكان الذي يعدّ فيه) انصلت (أسرع، سبق). الكوكب: (هنا): الشهاب.

(٩) عريان (كتلة خالصة من النار) يقذف بالدخان (ينفصل منه الدخان). كأنّه صبح يهجم على ليل مظلم. في نفح الطيب: عريان يقدمه... ظلام غيهب. (وهو أصحّ).

شَرَجوا جوانِبَـــه مَجــاذف أُتْعِبَـتْ　　شأوَ الريــاحِ لهـا ولَمّا تَتْعَـبِ[1].
والبحرُ يجمَـــعُ بينَهَــا فكأنّــــه　　ليــلٌ يُقرِّبُ عقربــاً من عقربِ[2].
تنصــاع من كُثُـبٍ كما نَفَرَ القَطـا　　طَوْراً، وتجتمـع ٱجتماع الرَبْربِ[3].
وعــلى مراكِبِهــا أُسُودُ خِلافـــةٍ　　تختـالُ في عُـدَدِ السِلاح المُرْهِـبِ[4].

٤- * * *　نفح الطيب ٤: ٥٧- ٥٨؛ مجمل تاريخ الأدب الأندلسيّ ٩٦- ١٠١.

ابن فرج الجيّانيّ

١- هو أبو عمرَ أحمدُ بنُ محمّدِ بنِ فَرَجٍ من أهلِ جيّانَ ولكنّه سكنَ قُرطبةَ وأصبح من شُعراء الحَكَمِ المُسْتنصر (٣٥٠- ٣٦٦ هـ) فقرّبَه المستنصرُ. وللمستنصرِ ألّف ابنُ فرجٍ كتاب الحدائق. ثمّ نُقِلَ للمستنصرِ أنّ ٱبنَ فرجٍ هجاه فأمرَ المستنصرُ به فأُلْقِيَ في السجن. وكانت وفاتُه في السجن في صَفَرَ من سَنَةِ ٣٦٦ (أيلول- سبتمبر ٩٧٦ م) بعدَ وفاةِ المستنصر بأيامٍ (راجع الحلّة السيراء ١: ٢٥٠).

٢- ابنُ فرجٍ الجيّانيُّ معدودٌ في الأدباءِ والعلماء، ولم يكنْ في القرنِ الرابعِ أحدٌ أكثرُ منه ٱعتناءً بالتأليف في شعراءِ الأندلس يريدُ إظهارَ فضلِهم على شعراءِ المشرق. ولابنِ فرجٍ كتاب «الحدائق» عارضَ فيه كتابَ الزَهْرة لابنِ داوودَ الإصبهانيّ[5]، إلاّ أنّ ابنَ داوودَ ذكرَ مِائَةَ بابٍ في كلِّ بابٍ مِائَةُ بيتٍ. وأبو عمرَ (بن فرج الجيانيّ) ذكر مِائَتَيْ بابٍ في كلِّ بابٍ مائتا بيت: وليس فيها بابٌ يكرّرُ أبو الفرج ٱسمَه تقليداً لأبي بكر. ولم يُوردْ (ابن فرج) فيه لغيرِ الأندلسيّين شيئاً (معجم الأدباء ٤: ٢٣٧). وكتاب الحدائق مفقود. وقد عرَفَه ابنُ الأبار القضاعي (ت ٦٥٨ هـ) ونقل

(١) في نفح الطيب: شرعوا جوانبه... شادي الرياح...- مدّوا من جوانب السفن مجاذيف على نسق واحد. هذه المجاذيف تدفع السفينة قدماً إلى الإمام في وجه الرياح التي تثير الموج الذي يحاول عرقلة سير السفن.
(٢) أصبح البحر كلّه كأنّه ليل (لكثرة السفن المطليّة بالقطران)....
(٣) وهي حيناً تنفتل بسرعة (مثل طيور القطا) فتتفرّق (كما تقتضي إدارة المعركة) ثمّ تعود فتتجمّع مثل الربرب (القطيع من الظباء).
(٤) في نفح الطيب: السلاح المذهب (المحلّى بالذهب). المرهب: المخيف.
(٥) أبو بكر محمّد بن داوود (٢٥٥- ٢٩٧ هـ) كان فقيهاً وأديباً وشاعراً.

منه أشياءَ في « الحلّة السِيَراء ». والمَقّرِيّ (ت ١٠٤١ هـ) لم يَعْرِفِ الكتابَ بل ذَكَرَه اَعتماداً على الذين عَرَفوه من قبلُ. ولابن فرجٍ أيضاً كتابُ « المُنْتزين والقائمين بالأندلس وأخبارُهم »[١].

ثمّ هو شاعرٌ مُكْثِرٌ مشهور وافرُ الأدب، وشِعره رقيقٌ عَذْبٌ عفيف وفيه حكمة.

٣- مختارات من آثاره

- قال ابن فرج الجيّاني في النسيب:

ومــا زالَ الهَوى سَكَنــاً لقلــبي	أفِرُّ إليـــــه من نُوَبِ الخُطوبِ،
وألتـــذ الغرام المحـــضَ منـــه	واسْتَحْلي به حتّى كُروبي.
كذاكَ الحُبُّ ضَيْفٌ ليس يأتي	إلى غيرِ الكِرامِ من القلوب.

- وله مقطوعة في النسيب مشهورة هي:

وطائعةِ الوِصالِ عَفَفْتُ عنها،	وما الشيطانُ فيها بالمُطاعِ[٢].
بَـدَتْ في الليــل سافرةً فباتـتْ	دَياجي الليلِ سافرةَ القِناع[٣].
ومـــا من لحظـــةٍ إلاّ وفيهـــا	إلى فَتْنِ القلوب لها دَواع[٤].
فمَلّكـتُ النُهى جَمَحاتِ شوقي	لأَجْرِيَ في العَفافِ على طِباعي[٥].
وبِـتّ بهـا مَبيتَ السَّقْبِ يظما	فيمنَعُه الكِعام عن الرَضاع[٦].
كـذاك الرَوْضُ ما فيه لِمِثْلي	سِوى نظرٍ وشمٍّ من مَتاع.

---

(١) في معجم الأدباء (٤: ٢٣٧، الحاشية ٢): الأصل الذي في مكتبة أكسفورد « المنتزين القائمين » (بلا واو. ممّا يدلّ على أن الكتاب موجود).

(٢) لم أطع الشيطان فأعصي الله فيها.

(٣) أصبح الليل من ضوء وجهها نهاراً.

(٤) فتن القلوب: تعذيبها (أو استمالتها) لتخالف الخلق الكريم. دواع جمع داعية: سبب.

(٥) النهى: العقل. جمحة الشوق: الرغبة في مجانبة الطريق المستقيم.

(٦) السقب: ولد الناقة الذكر ساعة يولد. الكعام والكعامة (كلاهما بالكسر): ما يجعل على فم الحيوان كيلا يعضّ (بفتح العين) أو يأكل.

ولستُ من السوائم مُهْمَـــلاتٍ   فأتّخذَ الرِياضَ من المراعي!

- وقال يصف الرُمّانَ السَفْري[1]:

ولابسةٍ صَدَفـــاً أحمرا   أتَتْـكَ وقـد مُلِئَتْ جوهرا[2]،
كأنّك فاتحُ حُقٍّ لطيفٍ   تضمّنَ مَرْجانَـــهُ الأحمرا[3]:
حُبوبـاً كَمِثْـلِ لِثـاتِ الحبيـبِ   رُضاباً إذا شِئْتَ أو منظرا[4].
وللسَفْرِ تُعزى ومـا سافرتْ   فتشكو النَّوَى أو تُقاسي السُرى[5].
بـلى؛ فارقـتْ أيْكَهـا ناعماً   رطيبـاً وأغصانهـا نُضَّرا[6]،
وجاءتْـكَ مُعتاضـةً إذْ أتَتْـكَ   بأكرمَ من عُودِها عُنْصُرا[7]:
بعُودٍ تَرى فيـه مـاءَ النَـدى،   ويُورِقُ من قبلِ أن يُثْمِرا،
هديّــةَ مَنْ لو غَــدَتْ نفسُه   هَدِيّتَه ظَنَّه قَصّرا!

- وقال في كتاب «الحدائق» يَصِفُ أشعارَ الخُلفاء (الحلّة السيراء ١ : ٢٠٥):

وهم يُجِلُّونَ عنِ الشعرِ أقدارَهم كما يَرْتفعون عنْ أن يُروَى عنهم أو يُؤْخَذَ من أقوالِهم، وإنّما يَنْبَسطون به في سَرائِرهم فليس يظهَرُ عليهم منه إلاّ الشاذُّ القليل. ولعلّ ما سَقَط (منه) عنّا أفضلُ ممّا سقط إلينا[8]. فأمّا أميرُ المؤمنين المستنصرُ بالله-

(١) نسبة إلى سفر (بسكون الفاء) بن عبيد الكلاعي. كان عبد الرحمن الداخل قد استقدم من الشام شيئاً من الرمّان الجيّد. فلمّا وصل ذلك الرمان كان في الحاضرين سفر بن عبيد فأعطاه عبد الرحمن شيئاً منه. فاعتنى سفر بزراعة بزر الرمّان في قرية من قرى ريّة فخرج حسن الصورة غزير الماء طيّب الطعم صغير البزر طريّه.

(٢) قشرها أحمر وحبّها أبيض (!).

(٣) الحقّ: وعاء صغير.

(٤) اللثات جمع لثة (بكسر اللام و[illegible] شدّة على الثاء): اللحم الذي تكون فيه الأسنان في الفم. الرضاب: الريق ما دام في الفم.

(٥) النوى: البعد والفراق. السرى: السفر ليلاً.

(٦) الأيك جمع أيكة: الشجر الكثير الملتفّ (المجتمع بعضه على بعض). الناضر: الأخضر الطريّ.

(٧) استغنت عن أصلها الأوّل (في الشام) وتبدّلت به عنصرك أنت (أصلك) لأنّه أكرم من أصلها.

(٨) الذي لم يصل إلينا من شعر المستنصر أكثر من الذي وصل منه إلينا.

أطالَ اللهُ بقاءه- فَهُوَ فوقَ أن يُعْلِنَ بهِ أو ينشُرَ اسمَهُ عليه. ولعلّ له منه ما لا نَعْرِفُه. فأمّا الأدواتُ التي يُقال بها، بل التي يَحْتاج إليها كلُّ علم[1]، فَهِيَ مَعَه بأزْيَدَ مِمّا كانت لأحدٍ قبلَه أو تكونُ لأحدٍ بعدَه[2].

- وقال في كتاب «الحدائق» يَذْكُرُ المَرِيَّةَ (المُغْرب ٢ : ١٩٣- ١٩٤):

حَدَث فيها من صَنْعةِ الوَشْيِ والديباجِ على اختلافِ أنواعهِ، ومن صِناعة الخَزّ وجميعِ ما يُعْمَلُ من الحرير، ما لم يُبْصَر مِثْلُه في المَشْرق ولا في بلادِ النصارى. وأعظم مبانيها الصُّمادِحِيّةُ التي بَناها المعتصم بن صُمادِحٍ. ومِنْ مُتَفَرّجاتِها مِنى[3] عَبْدوسٍ ومنى غسّان، والنّجاد وبركة الصُّفْر وعين النَّطيّة. ونهرُها من أحسن الأنهار.

٤- ** المطمح ٧٩- ٨٠؛ جذوة المقتبس ٩٧- ٩٨ (الدار المصرية) ١٠٤-١٠٥ (رقم ١٧٦)= بغية الملتمس ١٤٠ (رقم ٣٣١)؛ معجم الأدباء ٤ : ٢٣٦- ٢٣٨؛ المغرب ٢ : ٥٩؛ المطرب (الخرطوم) ٥- ٦؛ الوافي بالوفيات ٨ : ٧٧- ٧٨؛ الحلّة السيراء ١ : ١٢٦، ١٣٠، ٢٠٠، ٢٠٥، ٢١٨، ٢٥٠؛ نفح الطيب ١ : ٤٦٨، ٦٠٤، ٦٠٥، ٢ : ٥٠١، ٣ : ١٧٣، ١٧٥، ١٩٦، ٢٦٥- ٢٦٦، ٤٣٧، ٤ : ٤٦- ٤٧؛ الأعلام للزركلي ١ : ٢٠١- ٢٠٢؛ (١٩٤ - ١٩٥)؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣ : ٧٦٢ - ٧٦٣.

ابن القوطيّة

١- هو أبو بكرٍ محمّدُ بنُ عُمَرَ بنِ عبدِ العزيزِ بنِ إبراهيمَ بنِ عيسى بن مُزاحمٍ المعروفُ بابنِ القوطيةِ نسبةً إلى جَدّة له هي سارةُ بنتُ أوباسَ (أسقفِ إشبيليةَ) ابن غَيْطَشَةَ ملكِ القُوط. جاءت سارةُ هذه إلى دِمَشْقَ تشكو إلى هِشامٍ بنِ عبدِ الملكِ عمَّها أرطباس الذي ظلمها حقّها من إرثِ أبيها. فأكرمها هشامٌ وزوّجها أحدَ موالي بني أميّةَ عيسى بنَ مُزاحمٍ. وقد تزوّجها عيسى وانتقل بها إلى الأندلسِ وسكَنَ إشبيلِيَةَ.

---

(١) المقوّمات التي يقوم عليها كلّ علم، من الشعر أو اللغة أو الحساب الخ.

(٢) يلوم ابن الأبار في «الحلة السيراء» ابن فرج على هذه المبالغة (١ : ٢٠٥).

(٣) منية (بضمّ الميم أو بكسرها): ضيعة أو قرية بعيدة عن المدن يتخذها الأمراء والأغنياء للنزهة أو لقضاء فصل من فصول السنة.

وُلِدَ أبو بكرِ بن القوطية في إشبيلِيةَ ونشأ فيها وسَمِعَ مِنْ محمّدِ بنِ عبدِ الله بن الفرق وسعيدِ بنِ جابرٍ وحسنِ بنِ عبدِ الله الزَّبيديّ. ثمّ انتقل إلى قُرْطُبَةَ وسمع من قاسمِ بنِ أصبغ (ت ٣٤٠) وابن الأغبش وأبي الوليد الأعرج ومحمّد بن عبد الوهّاب ٱبن مُغيث ومن طاهرِ بنِ عبدِ العزيز. وكذلك رَوى عن القاضي أبي الحزمِ خَلَفِ بنِ عيسى بن سعيدِ الخَير الوَقّشي.

وقد عَرّفَ أبو عليٍّ القالي (ت ٣٥٦) الحَكَمَ المُسْتَنْصِرَ بالله (٣٥٠- ٣٦٦هـ) فَضْلَ ٱبن القوطية وأنه مِنْ أعلم أهلِ البلدِ باللغة والنحو.

وتولّى ابن القوطية القضاءَ وخُطّة الشُرْطة.

وكانت وفاةُ ابن القوطية في ٢٣ ربيعِ الأولِ سَنَة ٣٦٧ (٦/ ١١/ ٩٧٧ م) بعد أن طالَ عُمُرُهُ.

٢- ابن القوطية نَحْويّ ومؤرّخ، وكان يَنْظِمُ الشعرَ أحياناً ويُجيد في المطالع والمقطّعات. وله من الكتب: تصاريف الأفعال- المقصور والممدود- تاريخ افتتاح الأندلس (والحوادث فيه متخلخلة وفيه رواياتٌ شعبية كثيرة- ويبدو أن هذا الكتاب لأحد تلاميذه استملاه عنه).

٣- مختارات من آثاره

من شعر ابن القوطية في الوصف:

ضَحِكَ الثَّرى وبدا لَكَ ٱسْتِبْشارُه، واخْضَرّ شارِبُه وَطَرّ عِذارُه[1].

ورَبَتْ حَدائِقُهُ، وآزَرَ نَبْتُهُ، وتَبسّمـت أنْوارُه وثِمارُه[2].

---

(١) الثرى: التراب (وجه الأرض). أخضرّ: أسودّ. طرّ: ظهر، بدا. العذار: الشعر النابت على جانبي الوجه.- يشبّه الشاعر سطح الأرض بوجه الرجل فيقول: بدأ النبات على وجه الأرض وعلا قليلاً (مع مجيء الربيع).

(٢) في معجم الأدباء (١٨: ٢٧٦) وفي الوافي بالوفيات (٤: ٢٤٣) رنت (بالنون) والصواب: ربت (بالباء) حدائقه (كثر فيها النبات). آزر النبات: التفّ وكثر. الأنوار جمع نور (بفتح النون): الزهر الأبيض اللون.

واهتزّ قَدُّ الغُصْنِ لمّا أنْ كُسِي وَرَقاً كَدِيباجٍ يَروقُ إزاره[1].
وتَعَمَّمَتْ صُلْعُ الرُّبى بِنَباتِها، وترنّمت بلُحونِها أطْياره[2].

– من كتاب «تاريخ افتتاح الأندلس»:

..... وحَكى الشيخُ ابن لُبابةَ رَحِمَهُ اللهُ، عن مَنْ أدْرَكَه من الشُيوخ، أن أرْطُباسَ[3] كان من عُقَلاءِ الرِجال في أمرِ دُنياه وأنّه دخلَ عليه..... مَيْمونٌ العابدُ– جَدّ بني حزمٍ البوّابين وهو أحَدُ موالي الشاميّين[4]. فلمّا رآه أرطبَاسُ داخلاً قام إليه والتزمه وجعل يقودُه إلى كُرْسِيِّهِ الذي قام منه، وكان مُصَمّداً[5] بالذهب والفضّة. فأبى الرجلُ الصالح الجلوسَ عليه وقال له: «لا يَحِلّ لي هذا» وجلس على الأرض. وجلسَ (أرطبّاس) معه ثمّ قال له: «ما جاء بِمِثلِك إلى مِثْلي؟» فقال له ميمونٌ: «قَدِمْنا إلى هذا البلدِ وظَنَنّا أنّ ثُوانا[6] لا يَطولُ فيه، ولم نَسْتَعِدَّ للمُقام. فحدث من الاضطراب على موالينا بالمشرق[7] ما نَتَوَهَّمُ معه أنّا لا نعود إلى مَوْضِعنا به. وقد وسّع الله عليك، فأريدُ منك أن تُعْطِيَني ضَيْعةً من ضِياعك أعْتمرُها بيدي، وأُؤدّي إليك الحقَّ منها وآخُذُ الحقّ». فقال له أرطباسُ: لا، واللهِ، ما أرضى

---

(١) الديباج: نسيج من حرير. يروق: يحسن في العين. الإزار: ثوب يلفّ به الجسم.

(٢) كانت الربى (التلال) صلعا (لا نبات عليها، تشبيهاً لها بالرأس الذي فقد شعره) فتعمّمت: لبست عمامة النبات.

(٣) كان أبو عبد الله محمّد بن يحيى بن عمر بن لبابة فقيهاً مالكياً وقاضياً في إلبيرة (الأندلس) قرب غرناطة. وكانت وفاته في الاسكندرية نحو سنة ٣٣٠ للهجرة. أدركه: لحق زمانه، كان في أيامه. الشيوخ: الأساتذة، كبار رجال العلم. أرطباس (أو أرطباش أو أرطبان) هو الأمير أردبست بن غيطشة كان من الذين انضمّوا إلى طارق بن زياد ضد لذريق الذي كان قد اغتصب الملك من غيطشة (فيتيزا). وعاش أرطباس في قرطبة مكرّماً ومنح شيئاً من السلطة على قومه. وكان لأرطباس بنت هي سارة القوطية (وكان ابن القوطية صاحب هذا النصّ من نسلها).

(٤) البوّابون: الحجّاب الوزراء (؟). الشاميّون: العرب الذين جاءوا مع بلج بن بشر بن عياض (ت ١٢٤ هـ) من الشام (سورية) إلى الأندلس في أيام القتال بين القيسية واليمانية في أواخر عصر الولاة قبل وصول عبد الرحمن الداخل.

(٥) التزمه: اعتنقه. مصمّد: مكسوّ، ملفوف، مغطّى.

(٦) ثوانا: مكثنا، بقاؤنا.

(٧) موالينا (أنصارنا وأحلافنا).

أن أُعْطِيَكَ ضَيعةً مُناصَفَةً. ودعا (أرطباسُ) بوكيلٍ له وقال له: «ادْفَعْ إِلَيْهِ المجشر الذي على وادي شَوْشٍ وما فيه من البقر والغنم والعبيد، وادْفَعْ إليه القلعة بجَيّانَ وَهِيَ المعروفةُ بقرية حزم ....».

– وقال في السوسن (الزنبق) والورد:

اشربْ على السَّوْسنِ الغَضِّ الذي نَعِما ... وباكرِ الأُنسَ والوردَ الذي نَجَما[1]،
كأنّما ارْتَضَعــــا خِلْفَيْ سمائِهِا: ... فأُرْضِعَتْ لَبَناً هذي، وذاك دَما[2].
خِلاّنِ: قد كفَّرَ الكافورُ ذاك، وقد ... عَقّ العقيقُ احمراراً ذا وما ظَلَما[3].
كأنّ ذا دُمْيَةٌ نُصَّتْ لِمُعْتَرِضٍ ... وذاك خدٌّ غَداةَ البَيْنِ قد لُطِما[4]،
أو لا، فذاك أنابيبُ اللُّجين وذا ... جَمْرُ الغَضا حَرّكته الريح فاضْطرما[5]!

٤– كتاب الأفعال (في اللغة) (نشره غويدي) ليدن ١٨٩٤ م؛ (تحقيق علي فودة)، القاهرة (مطبعة مصر: شركة مساهمة مصرية) ١٩٥٢ م.

– تاريخ افتتاح الأندلس، باريس ١٨٦٧ م؛ مدريد ١٨٦٨ م؛ (أعيد طبعه باعتناء ريبيرا)، مدريد ١٩٢٦ م؛ (نشرة هوداس) باريس ١٨٨٩؛ مصر (مطبعة التوفيق) بلا تاريخ؛ (نشره عبد الله الطبّاع)، بيروت (دار النشر للجامعيين) ١٩٥٧ م.

★ مطمح الأنفس ٥٨– ٥٩؛ جذوة المقتبس ٧١– ٧٢ (الدار المصرية) ٧٦–٧٧ (رقم ١١١)؛ بغية الملتمس ١٠٢ (رقم ٢٢٣)؛ ابن الفرضي ٢: ٧٨– ٧٩؛ إنباه الرواة ٣: ١٧٨؛ معجم الأدباء ١٨: ٢٧٢– ٢٧٧؛ وفيات الأعيان ٤: ٣٦٨– ٣٧١؛ بغية الوعاة ٨٤– ٨٥؛ شذرات الذهب ٣: ٦٢– ٦٣؛ (وفيات سنة ٣٦٧ هـ)؛ الوافي بالوفيات ٤: ٢٤٢– ٢٤٣؛ البلغة ٢٣٧؛ نفح الطيب ٣: ٧٣– ٧٤؛ الديباج المذهب ٢٩٢؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٨٤٧– ٨٤٨؛ الأعلام للزركلي ٧: ٢٠١ (٦: ٣١١).

---

(١) نعم: لان ملمسه، وكان طريّاً نضيراً. نجم: نبت حديثاً (خرجت زهرة الورد من كأسها: الأورق الخضر التي كانت تغلّفها).

(٢) الخلف (بالكسر): حلمة الثدي. السماء: المطر كأنّ الورد (الأحمر) والسوسن (الأبيض) رضعا من سماء واحدة (من مطر واحد) ولكن من ثديين مختلفين: رضع الورد من ثدي فأصبح أحمر، ورضع السوسن من ثدي آخر فأصبح أبيض.

(٣) الكافور: مادّة شفّافة تميل إلى البياض. العقيق: حجر كريم أحمر. كفّر: غطّى، ستر، غلّف. عقّ: ذبح ذبيحة.

(٤) الدُمية: الصورة، التمثال. نصّ: رفع. المعترض: الذي يعترضك: يقف مقابلاً لوجهك. البين: الفراق. قد لطم (حزناً على فراق المحبوب).

(٥) اللجين: الفضّة. الغضا: شجر خشبه كثيف يتّقد بشدّة.

١ - هو عَرِيبُ بنُ سَعْدٍ من موالي الأندلس ومن أهلِ قُرْطُبَةَ يتّصِلُ نسَبُه ببني التُركي (الذيل والتكملة ٥: ١: ١٤١ - ١٤٢) لا نَعْرِفُ من أحداثِ حياتهِ إلاّ نُتَفاً: آستعملَه عبدُ الرحمنِ الناصرُ على كُورة أَشونةَ، سَنَةَ ٣٣١ ثمّ آسْتَكْتَبَهُ الحَكَم المُسْتَنْصِرُ (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) بنُ الناصر. وقد كانتْ له مكانةٌ أثيرةٌ عند الحاجب جَعْفَرٍ المُصْحَفيّ (قتل ٣٧٢ هـ) ومكانةٌ رفيعةٌ عند المنصورِ بنِ أبي عامرٍ (٣٩٢ هـ). ولعلّ وفاتَه كانتْ نَحْوَ سَنَةِ ٣٧٠ هـ (٩٨٠ م).

٢ - كان في عَريبِ القُرطبيّ بأوٌ (فخر أو تعاظُم) شديدٌ أدّى إلى آنخفاضِ منزلتهِ عندَ جعفرٍ المُصَحفيّ وعند المنصورِ بن أبي عامرٍ في حَديثَيْنِ طويلين. ولكنّه كان أديباً بارعاً وشاعراً مطبوعاً ومُؤرّخاً واسعَ المَعْرفة بالتاريخ جامعاً للأخبار. ثمّ إنّه كان أيضاً ذا حظٍّ من اللُّغة ومن النَحْو، كما كان طبيباً ماهراً وذا عِنايةٍ بكُتُبِ الأطبّاء القُدماء والمُحْدَثين. غيرَ أن شُهْرَتَهُ كانتْ في التاريخ خاصّةً، فلقدْ أشارَ إليه، في هذا البابِ، عليُّ بنُ موسى بنِ سعيدِ العَنْسِيُّ في قصيدةٍ له مَدَحَ بها ابنَ عمّهِ أبا عبدِ الله بنِ الحُسين (بن سعيد) فقال (نفح الطيب ٢: ٢٧٥): «وإنْ سَرَدَ التاريخَ قُلْتَ: عَريبُ».

وكان عرَيبٌ القُرطبيُّ مُصَنِّفاً آشْتَهَرَ له كتابٌ عُنوانُه «صِلَة تاريخِ الطَبَريّ»[1] بَدَأه سَنَةَ ٢٩١ (وَهِيَ السَنَةُ التي وَقَفَ الطبريُّ عندَها في تاريخه). ثمّ استمرّ عَرِيبٌ في السَرْد إلى سَنَةِ ٣٢٠. وفي كتاب «الذيل والتكملة»: لِعَرِيبِ هذا «تاريخُه الذي اختصَرَهُ من تاريخ أبي جعفرٍ الطَبَريِّ وأضافَ إليه أخبارَ إفْريقِيَةَ والأندلُسِ، وَهُوَ كتابٌ مُمْتِعٌ». ويبدو أن هذا الكتابَ (المختصَر من تاريخ الطبري) غير كتابِ «صِلةِ تاريخِ الطبريّ» الذي طَبَعَهُ دي خويه والذي أُلْحِقَ أيضاً بالجُزْءِ الثاني عَشَر من «تاريخ الرسل والملوك» للطبريّ في طبعةِ القاهرة[1]. وقد أصابَ إحسانُ عبّاسٍ لمّا

(١) المطبعة الحسينية ١٣٣٦ هـ.

قال[1]: «وأحْسَبُ أنّ هذا المنشورَ لا يُمَثِّلُ ما يقولُه ابنُ عبدِ الملك (المراكشي) في هذه الترجمة».

ولِعَريبٍ أيضاً من الكتب: كتابُ خَلْقِ الجَنين وتدبيرِ الحَبالى والمَوْلودين (كتاب خَلْقِ الإنسان وتدبير الأطفال) - كتابُ عُيون الأدوية - كتاب الأنواء[2]، وهو مُفيدٌ ومُسْتَعْمَلٌ ومُعْتَمَدٌ (الذيل والتكملة) - تقويمُ قُرْطُبَةَ[3].

٣ - مختارات من آثاره

- اتّفق أن جاء عَريبٌ مرّةً إلى مجلسِ الحاجبِ جعفرٍ المُصْحفيّ، وكان المجلسُ مُكْتَظًّا، فأجلَسَهُ المُصْحَفِيّ في مكانٍ قريبٍ منه ولكنْ كان بينَهما رَجُلٌ آخرُ، فكَتَبَ عَريبٌ في رُقْعةٍ بَيْتَيْنِ ثمّ ناولَ الرُقعةَ للمُصْحفي. والبيتانُ هُما:

حالَ بَيْني وبينَ وَجْهِكَ في المَجْـ . ـلِسِ شخصٌ على القلوبِ ثقيلُ.
مـا تَوَهّمْـتُ قبلَها أنّ شخصاً بـينَ قَلْـبي وناظِري سَيَحول[4].

- بَدَأَ عَريبٌ صِلةَ تاريخِ الطَبَرِيّ كما يلي:

(ثمّ دَخَلَتْ سَنَةُ ٢٩١): ذِكْرُ ما دارَ في هذهِ السَنَةِ من أخبارِ بني العَبّاسِ: فيها كتب الوزيرُ القاسمُ بنُ عبدِ اللهِ إلى مُحمّدِ بنُ سُليمانَ الكاتب[5]، وكانَ المُكْتفي[6] قد وَلاّهُ حَرْبَ القُرْمطِيّ صاحبِ الشامةِ[7] وصيّر إليه أمرَ القُوّادِ والجيوش، فأَمَرَهُ

---

(١) الذيل والتكملة ٥: ١: ١٤٢ (الحاشية الثانية).

(٢) الأنواء (أحوال الجوّ).

(٣) راجع نصّاً من مطلعه في المختارات من هذه الترجمة.

(٤) بين قلبي (المقصود: الممدوح جعفر المصحفي) وناظري (عيني، بصري). حال: اعترض.

(٥) محمّد بن سليمان الكاتب الحنيفي قائد قدير تولّى قتال القرامطة في الشام (توفيّ بعد ٢٩٧ هـ).

(٦) المكتفي: الخليفة العبّاسي علي بن أحمد (المعتضد) بن الموفّق بن المتوكّل تولّى الخلافة نحو ستّ سنوات (٣٨٩ - ٣٩٥ هـ) ومات شابًّا (ولد ٣٦٣ هـ).

(٧) هو أحمد بن زكرويه القرمطي صاحب الشامة قاتل العبّاسيّين في العراق والشام ثمّ انهزم وأخذ أسيراً فجيء به إلى المكتفي بالله العبّاسي فأمر بقتله.

بُمناهضةِ[1] صاحب الشامة والجِدِّ في أمْرِهِ وجَمْعِ القُوّادِ والرِجال على مُحاربته. فسارَ إليه مُحمّدُ بنُ سُليمانَ بجَميعِ مَنْ كان مَعَهُ وأهلِ النواحي التي تَليه من الأعْرابِ وغيرِهم حتّى قَرُبوا من حَماةَ[2] وصار بَيْنَهم وبينه نحوُ اثْنَيْ عَشَرَ ميلاً، فَلَقُوا أصحابَ القُرْمُطِيِّ هُنالِكَ يومَ الثُلاثاء لِستٍّ خَلَوْنَ من المُحَرّم[3]. وكان القُرْمُطِيُّ قد قَدَّمَ بَعْضَ أصحابهِ في ثلاثةِ آلافِ فارسٍ وكثيرٍ من الرِجّالة في مُقَدَّمَتِهِ، وتخلَّفَ هُوَ في جَماعةٍ منهم رِدءاً لهم، وجَعَلَ السوادَ[4] وَرَاءه. وكان مَعَهُ مثالٌ جَمَعَهُ. فالْتَقى رِجالُ السُلطانِ بِمَنْ تَقَدّمَ مِنَ القَرَامطةِ لِحَرْبِهِمْ. والْتَحَمَ القتالُ بَيْنَهم، وصَبَرَ الفَريقانِ. ثمّ انْهَزَمَ أصحابُ القُرْمُطِيّ وأُسِرَ من رِجالهِ بَشَرٌ كثيرٌ وقُتِلَ منهم عددٌ عظيمٌ وتَفرّقَ الباقونَ في البوادي. وتَبِعَهُمْ أصحابُ السُلطانِ ليلةَ الأرْبُعاء[5] يَقْتُلونَهم ويأْسُرونَهم............

- وقال عَريبٌ في تَرْجَمَةِ أبي اليُسْرِ[6] إبراهيمَ بنِ أحمدَ الشَيْبانيِّ (نفح الطيب ٣: ١٣٤ - ١٣٥):

... كان شاعراً مُرَسِّلاً حَسَنَ التأليف. وقَدِمَ الأندلُسَ على الإمامِ محمّدِ بنِ عبدِ الرحمنِ[7]، وذَكَرَ له مَعَه قِصةً ذَكَرَها ابْنُ الأبّارِ في كتابه «إفادة الوِفادة[8]» وحَكَى أن له مُسْنَداً في الحديث وكتاباً في القُرآن سَمّاه «سِراجَ الهُدى» والرسالة الوحيدة

---

(١) مناهضة: مقاومة.

(٢) حماة بلدة في الشام بين حمص وحلب.

(٣) ١٠٠٠/١٢/٦ م.

(٤) الردء: المعين، الناصر (قوّة احتياطية). جعل السواد (سواد العراق، القسم الجنوبيّ منه) وراءه (كي يستطيع الهرب إليه إذا انهزم في الشام).

(٥) في يوم الثلاثاء نفسه (ليلة الأربعاء هي مساء يوم الثلاثاء).

(٦) هو أبو اليسر ابراهيم بن أحمد الشيباني المعروف بالرياضي (٢٢٣ - ٢٩٨ هـ) من الأدباء والكتّاب. أصله من بغداد جال في البلاد ودخل الأندلس ثمّ انتقل إلى القيروان وتولى فيها بيت الحكمة في أيام آخر الأمراء الأغالبة زيادة الله بن عبد الله الأغلبي. وكانت وفاته في القيروان.

(٧) جاء إلى إمارة الأندلس ٢٣٨ هـ وتوفّي سنة ٢٧٣ هـ.

(٨) الملموح أن ابن الأبار هذا هو محمّد بن عبد الله القضاعي (٥٩٥ - ٦٥٨ هـ). ولم أعثر في مصدر آخر على اسم كتابه «افادة الوفادة». وليست التكملة لابن الأبار بين يدّي الآن.

والمُؤنسة وقُطب الأدب وغير ذلك من الاوضاع[١]. قال وكَتَبَ لِبَني الأغلبِ حتّى آنصرمتْ أيامُهم، ثمّ كَتَبَ لِعُبيدِ الله حتّى ماتَ[٢]. ومن الرُواة عنه أبو سعيدٍ عُثمانُ آبنُ سعيدِ بنِ الصَيْقل[٣] مَوْلَى زِيادةِ اللهِ بنِ الأغلب[٤]. وأَسْنَدَ إليه الحافظُ بنُ الأبّارِ جُملةً منه على غيره. وناوَلَني جَميعَه وحَدّثني به عن أبي عبدِ الله بنِ زرقونٍ عن[٥] الخَوْلانيِّ[٦] عن أبي القاسمِ حاتَمِ بنِ مُحمّدٍ[٧] عن أبي غالبٍ تمّام بنِ غالبِ[٨] بنِ عُمر الُغَويِّ عن أبيه أبي تمّامٍ[٩] عن أبي سعيدِ المذكور - يَعْني آبنَ الصَيْقلِ - عن أبي اليُسْرِ عن حبيبٍ[٨]. وهُوَ إسْنادٌ غريب[١٠]. انتهى[١١].

- من مطلع «كتاب عريب في تفصيل الأزمان ومصالح الأبدان» (أو تقويم قرطبة):

هذا كتابٌ جُعِلَ مُذكِّراً بأوقات السَنَة وفُصولها وعددِ الشهور وأيّامها ومجاري الشمس في بُروجها ومنازلها[١٢] وحُدود مَطالِعها وقَدْرِ مَيْلها وآرتفاعها[١٣] وآختلافها في

---

(١) راجع في أبي اليسر الشيباني ترجمة له في نفح الطيب (٣: ١٣٤ - ١٣٥).

(٢) هو المهدي الفاطمي عبيد الله بن محمّد مؤسّس الدولة الفاطمية في المغرب بويع له سنة ٢٩٧ وتوفّي سنة ٣٢٢ هـ.

(٣) زيادة الله بن الأغلب هذا هو آخر أمراء الأغالبة (ت ٣٠٤ هـ).

(٤) هو أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الحميري الكلاعي - راجع ترجمته تحت (ت ٦٣٤ هـ).

(٥) هو أبو عبد الله محمّد بن سعيد بن زرقون (ت ٥٨٦ هـ) فقيه مالكي، محدّث، وكان مسند الأندلس (في علم الحديث وروايته).

(٦) الخولاني - لعلّه أبو جعفر أحمد بن محمّد بن الأبار الخولاني (ت ٤٣٣ هـ) - راجع ترجمته تحت.

(٧) حاتم بن محمّد؟

(٨) تمّام بن غالب التيّاني (ت ٤٣٦ هـ) أديب لغوي أندلسي.

(٩) هو أبو تمّام حبيب بن أوس الشاعر العباسيّ المشهور.

(١٠) أسناد غريب (فيه رجال مجهولون؟).

(١١) «انتهى» موجودة في الأصل، ولعلّ في هذا النصّ في نفح الطيب شيئاً من التصرّف.

(١٢) البرج مجموعة من النجوم تمرّ بها الشمس في أثناء السنة. المنازل (جمع منزلة) المدد التي تقضيها الشمس في كلّ برج من البروج الأثني عشر.

(١٣) يختلف مطلع الشمس على الأفق الشرقي بين فصل وفصل (في الصيف يكون أبعد إلى الشمال). قدر ميل الشمس (بين فصل وفصل عن كبد السماء). استواء الشمس (أعلى نقطة ترتفع إليها الشمس في السماء - في نصف الصيف). كلّما ارتفعت الشمس كان ظلّ الأشياء أقصر.

الظِلّ عند استوائها، و (في) تصرُّفِ الأزمان وتعاقُبِ الأيام بالزِيادة والنُقصان[١] و (في) فصل البرد والحرّ وما بَيْنَهما من التَوَسُّط والاعتدال[٢] و (في) مِيقات كلِّ فصلٍ وعددِ أيامِهِ على مذهبِ أهلِ التعديل والحِساب ومذهبِ الأوائلِ[٣] مِنَ الأطبّاء الذين حدّوا الأزمنةَ والطبائعَ[٤]، إذ كان بَيْنَهم في فصل السَنة ٱختلافٌ سيأتي عليه الاستِجْلابُ[٥] ويَقَعُ في مَوْضِعِه من هذا الكتاب، إنّ شاء الله؛ وذِكْرِ ما لا غِنىً عنه للناس من معرفةِ الزِراعة وحين الغِراسة[٦] وتعاهُدِ كثيرٍ من أسبابِ الفِلاحة وإمكان جَني الثمارات وضمّ الذُخر والأقوات[٧] وٱبتداء نُضْجِ الفَواكِه ومواقيت النِتاج[٨] وغير ذلك من مرافِقِ الناسِ ومصالحهم، والأزمنة التي توافق تَنْقِيَةَ أجسامهم بالدواء والفَصْد[٩] وأوقات جمعِ العقاقيرِ والأشربةِ والمُرَبَّباتِ في أوانِها وحينَ إمكانها[١٠] و (في) علم تصارُفِ الرِياح ومذاهبِ العرب في الأنواءِ والأمطار[١١] إذ كانتِ (العرب) تُعنى بها وتَحتاج إلى تحديد مَطالعِ النجوم ومَساقطها[١٢] والمُمْطِر والمُخْوي[١٣] منها لتَقَلُّبِهِمْ في الطلبِ للمعاشِ والانتقال إلى مواضعِ المياه[١٤]........

---

(١) تزايد طول النهار في الصيف (مع قصر الليل) وتزايد طول الليل في الشتاء (مع قصر النهار).

(٢) من التوسّط والاعتدال (حينما يتقارب الليل والنهار في الطول (في الربيع والخريف) يكون الجو معتدلاً (بين الحر والبرد).

(٣) أهل التعديل والحساب (علماء الفلك). القدماء (من اليونانيّين خاصة).

(٤) حدّ (الأطباء) صلة طبيعة البشر (بالقوة أو بالمرض) بحسب فصول السنة (؟).

(٥) الاستجلاب (سيأتي ذكره في هذا الكتاب).

(٦) الزرع للحبوب والنبات السنوي. والغرس للأشجار.

(٧) ضمّ الذخر والأقوات (اتّخاذ الحبوب وغيرها للمؤونة).

(٨) النتاج: ولادة الأنعام (الغنم والأبل الخ).

(٩) استعمال الأدوية بحسب الفصول (كالمسهل) أو الفصد أي استخراج الدم (في أول الربيع).

(١٠) تحضير الأدوية (من النباتات التي تنضج في الفصول المختلفة) والأشربة (من منقوع النبات) والمربّبات تكثيف عصير الفواكه، كلّ بحسب أوانه (زمانه).

(١١) النوء: الزمن الذي يكون فيه سقوط المطر (وصلة ذلك بظهور عدد من النجوم في السماء).

(١٢) مطالع النجوم (الزمن الذي تبدو النجوم فيه ظاهرة في السماء مدّة طويلة أو قصيرة. المساقط: غياب النجوم من السماء.

(١٣) المخوى: الزمن أو الشهر لا يكون فيه مطر.

(١٤) بسبب رحلة البدو (تنقّلهم في البادية وراء الماء والعشب).

٤ - صلة تاريخ الطبري (دي خويه)، ليدن (بريل) ١٨٩٧ م؛ في الجزء الثاني عشر من تاريخ الرسل والملوك للطبري (ملحق)، مصر (المطبعة الحسينية ١٣٣٦).

- تقويم قرطبة (بالعربية مع ترجمة فرنسية) (نشره دوزي)، ليدن (بريل) ، الطبعة الثانية (شارل بلاّ)، ١٩٦١ م.

★ ★ الذيل والتكملة ٥: ١: ١٤١ - ١٤٣؛ نفح الطيب ٣: ١٣٤، ١٨٢؛ دائرة المعارف الإسلامية ١: ٦٢٨؛ بروكلمن ١: ١٤٩ (السطر الخامس)، الملحق ١: ٢١٧ (السطر الخامس والعشرين)؛ بالنثيا ٤٨٧ - ٤٨٨؛ الأعلام للزركلي (٤: ٢٢٧).

جعفر المصحفيّ

١- هو أبو الحسنِ جعفرُ بنُ عثمانَ بنِ نصرِ بنِ فوزِ بنِ عبدِ الله بن كُسيلَة من بربرِ بَلَنْسِيَةَ، بدأ حياتَه العامّةَ بأنْ كان مُؤدِّباً للحَكَمِ بنِ عبدِ الرحمنِ الناصرِ. ثمّ إنّ الناصرَ ولاّه على جزيرةِ مَيورقةَ. ولمّا جاء الحَكَمُ إلى الخِلافة (٣٥٠ هـ) استوزره.

لم يكن جعفرٌ المُصْحَفِيُّ حَذِراً من دهرهِ فاسْتنام إلى الأيام ونثر أهله في مرافقِ الدولة. ودَخَلَ محمّد بن أبي عامر (ت ٣٩٢) في خِدمة الدولة فأدْرَكَ أنّه لا يستطيعُ الوصولَ إلى هَدَفِهِ مِنَ الاستبدادِ بالدولة إلاّ إذا أزاحَ المصحفيّ من طريقه. فلمّا تُوُفِّيَ الحَكَمُ المُستنصرُ وخَلَفَهُ ٱبنُه هشامٌ كان هشامٌ وفيًّا لذِكرى أبيه فرَفَعَ المُصْحَفِيَّ إلى رُتْبةِ الحِجابة (رئاسة الوزارة)، في عاشِر صَفَرَ من سَنَة ٣٦٦ (٧/ ٩/ ٩٧٦ م)، بعدَ مجيئِهِ إلى الخلافة ببِضْعةِ أيامٍ.

غير أنّ محمّدَ بنَ أبي عامرٍ- وكان قد نالَ حظوةً عند صُبْحَ أمِّ هشامٍ وأصبح له سلطةٌ على هشامٍ نفسِه- ما زال بهشامٍ القاصرِ حتّى أمرَ هشامٌ بصَرْفِ المُصْحفيّ من الحِجابة، في ثالثَ عَشَرَ صَفَرَ من سَنَةِ ٣٦٧ (٢٥/ ٣/ ٩٧٨ م) وبنَكْبَةِ المصحفيّ وأهلِه. وبدأ محمّدُ بنُ أبي عامرٍ- وكان قدِ ٱستولى على الدولةِ وتسمّى المنصورَ- يُصادِرُ أموالَ المصحفيّ وأموالَ أهلِه ويقتُل نفراً منهم. ثمّ إنه ألْقى جعفراً المصحفيّ نفسَه في السجن وأمرَ أخيراً بقتله سَنَةَ ٣٧٢ (٩٨٢- ٩٨٣ م).

٢- كان جعفرٌ المصحفيُّ أحدَ شعراءِ الأندَلُسِ المُحسنين المُتَصرفين في أنواعِ الشعرِ من المديح والخمر والأوصاف والغزل غايةً في كلِّ ذلِك في الرِقّة والإبداعِ والحُسْن، وكان يقولُ مُرْتَجِلاً (البيان المغرب ٢ : ٢٥٤) وهو شاعرٌ مُكْثِرٌ.

٣- مختارات من شعره

- قال المصحفي في نَكْبَتِه:

تأمّلتُ صَرْفَ الحادثاتِ فلم أزَلْ ... أراها تُوافي عندَ مَقْصِدِها الحُرّا[١].

فللهِ أيامٌ مَضَتْ لِسَبيلها، ... فإنّيَ لا أنْسى لها أبداً ذِكْرا.

تجافَتْ بها عنّا الحوادثُ بُرْهَةً ... وأبْدَتْ لنا منها الطَلاقة والبِشرا[٢]؛

ليالِيَ لم يَدْرِ الزمانُ مَكانَنا، ... ولا نَظَرَتْ مِنّا حَوادِثُه شَزْرا.

وما هذهِ الأيامُ إلاّ سَحائبٌ ... على كلِّ حالٍ تُمْطِرُ الخيرَ والشرّا.

★ أُجاري الزمانَ على حالِهِ ... مُجاراةَ نفسي لأنفاسِها[٣].

إذا نَفَسٌ صاعِدٌ شَفّها ... توارَتْ به بين جُلاّسِها[٤].

وإن عَكَفَتْ نَكْبَةٌ للزمانِ ... عَكَفْتُ بصَدْري على رأسِها[٥].

★ لا تأمَنَنَّ من الزمان تَقَلُّباً؛ ... إنّ الزمانَ بأهلِهِ يَتَقَلّبُ.

ولقدْ أراني والليوثُ تَخافُني، ... فأخافني من بعدِ ذاك الثَعْلَبُ[٦].

حَسْبُ الكريمِ مَذَلّةً ونقيصةً ... ألاّ يَزالَ إلى لئيمٍ يَطْلُبُ.

وإذا أتتْ أُعجوبةٌ فاصْبِرْ لها، ... فالدهرُ يأتي- بعدُ- ما هو أعْجَبُ.

★ لي مُدّةٌ لا بدّ أبْلُغُها؛ ... فإذا انقضتْ أيامُها متُّ.

---

(١) صرف الحادثات: المصائب.
(٢) تجافى: ابتعد، تجنّب.
(٣) أسلك مع الزمان كما ينبغي، مجاراة نفسي لأنفاسها (تماماً).
(٤) شفّها: أصابها فأنحلها أو أضعفها. توارت به بين جلاّسها (كتمته عمّن حولها، عن الناس).
(٥) إذا نزلت بي مصيبة قضيت على تلك المصيبة (صبرت عليها؟).
(٦) لعلّه يشير إلى المنصور بن أبي عامر.

لو قابلَتْني الأُسْدُ ضارِيةً - والموتُ لم يُقْدَرْ- لَمَا خِفْتُ[1].
فانظُرْ إليَّ وكُنْ علـى حَـذَرٍ، فَبِمِثْلِ حالِكَ أمسِ قـد كُنْـت.
★ صَبَرْتُ عـلى الأيّامِ حتّى تولّتِ؛ وألْزَمْتُ نفسي صَبْرَها فاستمرّتِ.
فواعَجَباً للقلبِ، كيف اعترافُه، وللنفسِ بعدَ العِزّ كيفَ استذلّتِ.
وما النفسُ إلاّ حيثُ يجعلُها الفتى؛ فإنْ طَمِعَتْ تاقَتْ وإلاّ تَسَلّت[2].
وكانتْ على الأيّامِ نفسي عزيزةً، فلمّا رأتْ صَبْري على الذُلِّ ذلّت.
فقُلْتُ لها: يا نفسُ، موتي كريمةً؛ فقد كانتِ الدنيا لنا ثمّ وَلّت.

- وقال المُصْحفيُّ يُعَرِّض بالمنصورِ ابن أبي عامرٍ (لأنّه هو الذي كان قد ساعدَ على تقديم ابنِ أبي عامرٍ في مراتبِ الدولة):

غَرَسْتُ قضيباً خِلْتُه عُودَ كَرْمَةٍ وكُنْتُ عليه في الحوادثِ قَيِّما[3].
وأُكرِمُهُ دَهْري فيزدادُ خُبْثُه؛ ولو كان من أصلٍ كريمٍ تَكَرّما.

- وقال في كِتمان السرّ:

يا ذا الذي أوْدَعَني سِرَّه، لا تَرْجُ أن تَسْمَعَهُ مِنّي.
لم أُجْرِهِ بعدَك في خاطري، كأنّه ما مرّ في أُذْني.

- ولجَعْفرِ بنِ عُثمانَ المُصْحفيّ في الغَزَل والنَسيب:

أمَا، والهَوى، ما كنتُ أعْرِفُ ما الهوى ولا ما دَواعي الشوقِ حتّى تَكلّما.
دعاني بلَفْظٍ لو دعا يَذْبُلاً به لَلَبّاهُ مُشتاقاً ووَافاه مُغْرَما[4].

---

(١) الأسد الضاري (الجائع) لأنّه يكون أكثر شراسة وأكثر جرأة.
(٢) تاقت: اشتاقت، رغبت.
(٣) عود كرمة (عنب)، أي ظننته غرسة كريمة نبيلة.
(٤) يذبل اسم جبل.

★ إنْ فـاهَ أُشْرِبَـتِ الضُلوعُ هَوىً	حتّـى كـأنّ جَميعَهـا أُذُنُ.
لا تُنْكروا كَلَفَ الضُلوع بِهِ	فحديثُـه لِوَجيبِهـا سَكَنُ[1].
★ لِعَيْنَيْـكِ في قلـبي علـيَّ عُيونُ،	وبين ضُلوعي للشُجُونِ فُنونُ[2].
لئن كان جسمي مُخْلَقاً في يدِ الهوى،	فحُبّك غَضٌّ في الفؤاد مَصونُ[3].
نَصيبي من الدُنيا هَواك، وإنّه	عذابي؛ ولكنّي عليه ضَنين.

- وله في وصف الخمر:

صَفراءُ تَطْرُقُ في الزُجاج، فإنْ سَرَتْ	في الجِسْمِ دبّتْ مثلَ صِلٍّ لادغٍ[4].
عَبَثَ الزمانُ بجسمها فتَسَتّرتْ	عن عينـهِ بردِاء نورٍ سابـغٍ.
خَفِيَتْ على شُرّابِها فكأنّما	يَجِـدونَ رِيًّـا في إنـاء فارغ.

٤- ★ ★ مطمح الأنفس؛ جذوة المقتبس ١٧٥- ١٧٦ (الدار المصرية) ١٨٧-١٨٨ (رقم ٣٥٣)؛ بغية الملتمس ٢٤٠ (رقم ٦١٤)؛ الحلّة السيراء ٢٥٧ وما بعد؛ نفح الطيب ١: ٤٠٢ وما بعد؛ ٥٩٢- ٥٩٤، ٣: ٨٦- ٩٠، ٥: ٦٠٠- ٦٠٢، ٤: ٦؛ الذخيرة ١: ٤: ٤٦ وما بعد؛ البيان المغرب ٢: ٢٥٤ وما بعد، نيكل ٤٩- ٥١؛ الأعلام للزركلي ٢: ١١٩ (١٢٥).

ابن أبي حنيفة النعمان

١- هو أبو الحسنِ عليُّ بنُ أبي حنيفةَ النُعْمانِ القَيْروانيُّ[5]، وُلِدَ (في القيروان) في ربيعٍ الأوّلِ من سَنَةِ ٣٢٩ (خريفِ ٨٤٣ م) ونشأ فيها. انتقل إلى القاهرةِ في صُحبةِ

(١) الكلف: شدّة التعلّق بالمحبوب. الوجيب: الخفقان.
(٢) الشجن (بفتح ففتح): الحزن.
(٣) مخلق: متهرّئ. غضّ: طريّ، جديد.
(٤) صفراء (خمر) تطرق (؟) والملموح أن معناها: تهدأ. الصلّ: الحيّة الخبيثة، الشديدة السمّ. لادغ (وهو يلدغ): يضرب بنابه.
(٥) الملموح أنّه ابن القاضي النعمان بن محمّد (ت ٣٦٣ هـ) واضع المذهب الفاطمي ومؤلف «دعائم الإسلام» - انظر أعلاه ص ٢٧٧ -

المُعِزِ الفاطميّ، سَنَةَ ٣٥٨ هـ. ثمّ تولّى القضاءَ في جميعِ البلاد التي كانتْ خاضعةً للنفوذ الفاطميّ. وكانت وفاتُه في سادسِ رَجَبَ من سَنَةِ ٣٧٤ (٤/ ١٢/ ٩٨٥ م) ودُفِنَ في القَرافة (مصر).

٢- كان ابنُ أبي حنيفةَ النعمانِ عارفاً بفنونٍ كثيرةٍ منها القضاءُ والفِقهُ والنحو والأدب. وكان شاعراً وُجْدانياً تَغْلِبُ عليه الصِناعةُ. ومن فنونِه الحكمةُ والنسيب.

٣- مختارات من شعره

- قال ابنُ أبي حنيفةَ النُعمانِ في صديق له صدوق:

ولي صديــقٌ مــا مسّني عَــدَمٌ ... مُذْ وقعَتْ عينُه على عَدَمي[١].
أغْنى وأقنى؛ وما يُكَلِّفُني ... تقبيــلَ كـفٍّ له ولا قَدَم[٢].
قام بأمري لمّا قَعَدتُ به؛ ... ونِمْــتُ عن حاجتي ولم يَنَم[٣].

- وله في النسيب مَعَ الإشارات البارعة إلى مناسِكِ الحجّ على سبيلِ الموازنة والجِناس:

رُبَّ خَوْدٍ عَرَفْــتُ في عُرَفـاتِ ... سَلَبَتْــني بِحُسْنِهــا حَسَنــاتي[٤].
حَرّمَتْ، حين أحْرَمَتْ، نَوْمَ عَيْني ... واسْتباحـت حِمايَ باللَحَظات[٥].
وأفاضَتْ مَعَ الحَجيجِ ففاضَتْ ... من جُفوني سَوابِقُ العَبَرات[٦].
ولقـد أضْرَمَتْ على القلب جَمْراً ... مُحْرِقاً إذ مَشَتْ إلى الجَمَرات[٧].

---

(١) العدم: الفقر. مذ عرف أنّي فقير أغناني.
(٢) أقنى: جعل لي ما اقتنيه (أملكه، ثروة). ولم يطلب منّي أن أتذلّل له.
(٣) قعدت بأمري: عجزت عن تدبير أموري.
(٤) الخود: المرأة الجميلة. عرفات: هضبة شرق مكّة يقف عليها الحجّاج.
(٥) أحرمت: دخلت في الإحرام (نيّة القيام بالحجّ).
(٦) أفاض الحجيج: رجعوا من الوقوف بعرفات.
(٧) الجمرات: سبع حصى صغيرة يرمي بها كلّ حاج في المحصّب (حينا ذهبت لرمي الجمار أو الجمرات).

لم أنَـلْ من مِنى مُنَى النفسِ حتّى خِفْتُ بالخَيْفِ أن تكون وَفاتي[1].

٤- * * وفيات الأعيان ٥: ٤١٧- ٤١٩؛ عنوان الأريب ١: ٣٧- ٣٨.

أحمد بن قرلمان[2]

هُوَ أبو عُمَرَ أحمدُ بنُ قَرْلُمانَ من أهلِ قُرْطُبة، سَمِعَ من قاسِمِ بنِ أصْبَغَ (ت ٣٤٠ هـ) والحسنِ بن سَعْدٍ. وكانتْ وفاتُه في ثامنَ عَشَرَ ذي الحِجّة من سَنَةِ ٣٧٧ (٨/ ٤/ ٩٨٨ م).

قال ابنُ الفَرَضِيِّ: «كانَ (ابنُ قَرْلُمانَ هذا) حافظاً للفِقه على مَذْهبِ مالكٍ وأصحابه، وكان يُؤدِّبُ[3] بالقرآنِ. وكان مِنَ العُبّاد المُتَبَتِّلينَ، لَقِيتُهُ ولم أكْتُبْ عنه، ولا حَدّثَ فيما أعْلَمُ».

٤- * * ابن الفرضي ١: ٦٧ (رقم ١٨٢)؛ أعمال الأعلام ٥٠.

---

(١) بعد الوقوف في عرفات يبيت الحجّاج ليلة في منى ثمّ يتابعون سيرهم إلى مكة لطواف الإفاضة. الخيف مكان قرب منى.

(٢) للدكتور احسان عبّاس في «كتاب التشبيهات» (ص ٣٢٥) تعليق قيّم على الأبيات التالية (ص ٢١، رقم ١٠).

أرى أرجل الجوزاء غير بوارح وأيـدي الثريّـا كالسقـيم صحيحهـا.
وهمّت ولم تمض السبيل كأنّها من الأين صرعي أثخنتهـا جروحهـا.
وللبـدر إشراق عليهـا كأنّـه رقيـب عـلى ألاّ يتمّ جنوحهـا.

قال في تعريف قائلها عيسى بن قرلمان: «عيسى بن عبد الله بن قزلمان (بالزاي) أبو الأصبغ الخازن الملّقب بالزبراكة.... شاعر مشهور.... ويرد اسمه ابن قرلمان (بالراء المهملة في بعض المصادر). وكان واحداً من الذين اعتقلهم صاحب المدينة (رئيس الشرطة) عام ٣٦١ لأنّهم يجتمعون على (نظم أشعار في الهجاء يتناولون بها أعراض الناس). وذكر الزبيدي من اسمه فرج أبو محمّد ابن قزلمان (قرلمان في المطبوعة) وقال: وكان الأغلب عليه علم النجوم وكان شاعراً مطبوعاً وسكن إشبيلية.... وهنالك ابن قزلمان آخر هو عبيد الله وكان من موالي عبد الرحمن بن الحكم (المتوفّى ٢٣٨ هـ) والمختصّين به وكان شاعراً أيضاً». (انتهى تعليق احسان عبّاس موجزاً). وفي النسخة التي بين يديّ من «طبقات النحويّين واللغويّين» (تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، مصر ١٣٧٣ هـ = ١٩٥٤ م، ص ٣٣٤): فزلمان (بالفاء والزاي) ثمّ ضحّحت في التصويبات (ص ٤٠٨): قزلمان (بالقاف وبالزاي أخت الراء). ويبدو أن ابن قرلمان الذي ترجم له هنا غير هؤلاء الثلاثة (راجع المصادر والمراجع). ثمّ إنّني أفضّل ضبط الاسم قرلمان (أو على الأصحّ: قارلمان: قارله مانيوس أو قارل الكبير).

(٣) يؤدّب بالقرآن: يقرىء القرآن للصبيان (في بيوتهم!).

أبو بكر الزبيديّ

١- هو أبو بكرٍ محمّدُ بنُ الحسنِ (ت ٣٢٠) بنِ عبدِ الله بن مَذْحِجِ بن محمّد بن عبد الله بن بِشْرٍ الزُبَيْديّ الإشبيليّ، وُلِدَ في إشبيليةَ، سَنَةَ ٣١٦ هـ (٩٢٨ م) ودَرَسَ في قُرطبةَ على نفرٍ منهم: قاسمُ بنُ أصبَغَ (ت ٣٤٠ هـ) وأبو عُثمانَ سعيدُ بنُ فَحْلونٍ (٢٥٢- ٣٤٦ هـ) وأحمدُ بن سعيدِ بنِ حزمٍ (ت ٣٥٠) وأبو عليٍّ القالي (ت ٣٥٦) ومحمّدُ بنُ يحيى الرَباحيّ (ت ٣٥٨).

عَهِدَ الحَكَمُ المُسْتنصر إلى أبي بكرٍ الزبيديّ[1] بتأديب وليّ عَهْدِه هِشامٍ (وُلِدَ سنة ٣٥٤)، فعلّمه الزبيديّ الحسابَ والعربية. ولمّا جاء هشامٌ إلى الخلافة (٣٦٦ هـ) جعل أبا بكرٍ الزُبيديَّ قاضياً في إشبيلية (بروكلمان ١ : ١٤٠)؛ ولعلّه في ذلك الحينِ تولّى أيضاً خُطّةَ الشُرطة. ثمّ ألّف أبو بكر الزبيديُّ كتاباً في الردّ على مذهبِ محمّدِ بن عبدِ الله بن مَسَرّةَ (٣١٩ هـ)، وكان مذهبُه مزيجاً من آراءِ المعتزلةِ ومن الآراءِ الإشراقية والباطنية والصوفية. ولعلّه بدأ تأليف هذا الكتابِ بعدَ استبدادِ المنصورِ ابن أبي عامرٍ بالحكم (٣٦٧ هـ)، لأنّ المنصورَ كان ينصُرُ مذهبَ أهلِ السنة ويكره مذهبَ الفلاسفة.

وكانتْ وفاةُ أبي بكرٍ الزُبيديّ في إشبيلية، في أولِ جُمادى الثانيةِ من سَنَةِ ٣٧٩ (٦/ ٩/ ٩٨٩ م).

٢- قال ابنُ خلّكان (٤ : ٣٧٢) عن أبي بكرٍ الزبيدي: «كان أوحدَ عصرهِ في علم النحو وحِفْظِ اللغة، وكان أخبرَ أهلِ زمانه بالإعراب والمعاني والنوادر (الألفاظِ القليلةِ الاستعمال) إلى علمِ السِيَرِ والأخبار. وله كتب تدلّ على وُفور علمه».

والزبيديّ شاعرٌ مكثرٌ تغلبُ على شعره نفحةٌ من التصوّف وأكثرُ فنونهِ الزهدُ والحِكمة مَعَ شيءٍ من التعريض والتهكّم. وله شيءٌ من الغزل والنسيب والشكوى.

ومن كتبه: مختصرُ كتاب العين (للخليل بن أحمد)- طَبَقات النحويّين واللغويين

(١) منتصف ذي القعدة من سنة ٣٦٢ (١٦/ ٨/ ٩٧٣ م)

(بالمشرق والأندلس من زمن أبي الأسود الدُؤلي إلى زمن شيخه أبي عبد الله الرباحي النحويّ)- هتك ستور المُلحدين (في الرد على ابن مسرّةَ وأتباعهِ)- كتاب لحن العامّة (ما يلحن فيه عوامّ الأندلس)- كتاب الواضح (في العربية: النحو)- كتاب الأبنية (في النحو).

٣- مختارات من آثاره

- اشتاق أبو بكر الزُبيديُّ- وهو في قُرطبةَ- إلى إشبيليةَ فاستأذن أميرَ المؤمنين الحَكَمَ في الرجوع فلم يأذَنْ له، فكتب أبو بكرٍ إلى جاريةٍ له اسمُها سلمى في إشبيلية:

وَيْحَكِ، يا سَلْمَ، لا تُراعي؛ لا بُدَّ للبَيْنِ من زَماع[١].
لا تحسَبيني صَبَرتُ إلاّ كصبرِ مَيْتٍ على النِزاع[٢].
ما خلقَ الله من عذابٍ أشدَّ من وَقْفة الوَداع.

- من مقدّمة كتاب طبقات النحويّين واللغويّين:

..... ولم تزلِ العربُ تَنْطِقُ على سَجِيّتها في صدر إسلامها وماضي جاهليّتها حتّى أظهر الله الإسلامَ على سائرِ الأديان فدخل الناس فيه أفواجاً وأقبلوا إليه أرسالا[٣]، واجتمعت فيه الألسنةُ المتفرّقة واللغاتُ المختلفة ففَشا الفسادُ في اللغة العربية، واستبان[٤] منها الإعراب الذي هو حَلْيها والمُوضِحُ لِمعانيها..... فعظُم الإشفاقُ من فُشُوِّ ذلك وغلَبَتِه حتّى دعاهم[٥] الحذرُ من ذَهاب لُغَتِهم وفساد كلامهم إلى أن سببّوا الأسباب في تقييدها لمن ضاعت عليه.

---

(١) لا تراعي: لا تخافي، لا ترهبي. البين: البعاد، البعد، الفراق. الزماع: المضاء في الأمر والعزم عليه. لا بدّ للبين من زماع: لا بدّ من أن يوطّن الإنسان نفسه على البين ويصبر.

(٢) النزع (بسكون الزاي): والنزاع (وليست في القاموس): قلع الحياة، خروج الروح من البدن.

(٣) الأرسال: الجماعات.

(٤) استبان: (في الأصل): وضح وظهر. ويقصد المؤلّف: ذهب (منها الاعراب).

(٥) دعا علماء اللغة.

ولم تزلِ الأئمَّةُ من الصَحابة ومن تَلاهم من التابعين يَحُضّون على تعلّم العربية وحِفظها والرِعاية لمعانيها إذ هي من الدين بالمكان المعلوم: فبِها أنزل الله كتابَه المُهَيْمِنَ على سائر كُتُبِه، وبها بَلّغ رسولُه عليه السلام وظائفَ طاعته وشرائع نَهْيِه. وكذلك كانوا يحضّون على رواية الشعر الذي هو حِكمة العرب في جاهليّتها وإسلامها، وديوانُها الذي أقامته مقام الكتاب[1] لِما تقدّم من مآثرِها وأيامها، فكانوا يتناشدونه في مجالسهم ويتذاكرون به في محافلهم.....

وإن أميرَ المؤمّنين الحكمَ المُسْتَنْصِر بالله- رَضِيَ اللهُ عنه- لِمَا اختصّه الله به ومَنَحَهُ الفضيلةَ فيه من العِناية بضروب العلوم والإحاطة بصنوف الفنون، أمرني بتأليف كتابٍ يشتمل على ذكر من سَلَف من النحويّين واللُّغويين في صدر الإسلام ثمّ من تلاهم من بعدُ... إلى زماننا هذا، وأن أطبِّقَهم[2] على أزمانهم وبلادهم بحَسْبِ مذاهبهم في العلم ومراتبهم، و(أن) أذكر مَعَ ذلك موالِدَهم وأسْنانهم ومُدَدَ أعمارِهم وتاريخ وفاتهم على قَدْرِ الإمكان في ذلك، وبحسب الإدراك له، وأجْلُبَ جُملةً من نُتَفِ أخبارهم والحكاياتِ المتضّمنةَ لفضائلهم المُشْتَملة على محاسنهم لِيكونَ ذلك شكراً لجميل سَعْيهم وحميد مَقامهم، إذ كان ذلك من حَقّهم على من أدَّوْا إليه عِلْمهم وأعْمَلوا في صلاحِه جُهْدَهم، وكان في تَقْيِيد أخبارِهم وتخليدِ مآثرِهم ما يُبقي لهم لِسانَ الصِدقِ الذي هو بَدَلُ البقاء والخُلْد.....

- لأبي بكر الزبيدي مقطّعات فيها لَفَتات بارعة. من هذه المقطّعات:

أبـا مُسْلمٍ، إنَّ الفَـتى بجَنَانـه ... ومِقْوَلـه لا بالمراكب واللِّبْس[3]

وليس ثيـاب المرء تُغْني قُلامـةً ... إذا كان مقصوراً على قِصَرِ النفس[4].

---

(١) الكتاب: الكتابة والتدوين.

(٢) أجعلهم طبقات، جماعات متقاربة في الزمن أو في المرتبة.

(٣) الجنان (بالفتح): القلب (العلم، الشجاعة، الخير الخ). المقول: اللسان (حسن التعبير، الكلام الجميل). المركب (الدابّة): البرذون (بكسر الباء وفتح الذّال): البغل، الحصان، الخ. اللبس (بالكسر): ما يلبس، الكسوة، الثوب.

(٤) تغني: تفيد. قلامة: ما يقطع عادة من الظفر. قصر النفس: على مقياس الجسم لدفع الحرّ أو البرد (؟).

وليس يُفيد العلمَ والحِلْمَ والحِجا، أبا مسلم، طولُ القعود على الكرسي[1].

★ الفقر في أوطاننا غُربةٌ، والمال في الغربة أوطانُ.

والأَرض شتّى كلها واحد، والناس إخوان وجيران.

★ أُتركِ الهمَّ إذا ما طَرقَكْ، وكِلِ الأمرَ إلى مَن خلقَك[2].

وإذا أَمَّلَ قوم أَحداً، فإلى ربِّك فأمدُدْ عُنُقَك[3].

ما طلبتُ العلومَ إلاّ لأَنِّي لم أَزلْ من فنونها في رياضِ.

ما سواها له بقلبيَ حظٌّ غيرَ ما كان للعيون المِراض[4].

★ أشْعِرَنْ قلبَك ياسَا، ليس هذا الناس ناسَا.

ذَهَبَ الإبريز منهم فَبَقُوا بعدُ نُحاسا[5]

سامريّين يقولونَ جميعاً: «لا مِساسا!»[6]

٤- كتاب الاستدراك (باعتناء كويدي)، روما ١٨٩٠ م.
- طبقات النحويّين واللغويّين (تحقيق محمّد أبي الفضل إبراهيم)، مصر (محمّد سامي أمين الخانجي)، ١٣٧٣ هـ = ١٩٥٤ م.
- لحن العَوام (نشره رمضان عبد التّواب)، القاهرة (مكتبة دار العروبة) ١٩٦٤ م؛ (تحقيق عبد العَزيز مطر)، الكويت (مكتبة الأمل) ١٩٦٨ م.

★ ★ ابن الفرضي ٢: ٩٢ (رقم ١٣٥٥)؛ جذوة المقتبس ٤٣- ٤٦؛ (الدار المصرية) ٤٦- ٤٩ (رقم ٣٤) بغية الملتمس ٥٦- ٥٧ (رقم ٨٠)؛ مطمح الأنفس ٥٣- ٥٥؛ إنباه الرواة ٣: ١٠٨- ١٠٩؛ المحمّدون من الشعراء (حيدر آباد) ٢٥٠- ٢٥٦؛ معجم الأدباء ١٨: ١٧٩- ١٨٤؛ المغرب ١: ٢٥٠- ٢٥١؛ وفيات الأعيان ٤: ٣٧٢- ٣٧٤؛ الوافي

---

(١) الجلوس على الكرسي: احتلال المناصب الرفيعة كالوزارة والقضاء. إن نيل المناصب لا يجعل الإنسان عالماً ولا حليماً ولا عاقلاً.

(٢) طرقك الهمّ: أتى عليك ما يهمّك (يحزنك). كل (بكسر فسكون) فعل أمر من وكل: عهد (بالأمور) إلى، سلّم، فوّض.

(٣) امدد عنقك: ارفع رأسك بالدعاء.

(٤) العيون المراض (المريضة): الفاترة، الناعسة.

(٥) الابريز: الذهب.

(٦) «لا مساس» (٢٠: ٩٧، سورة طه): لا تمسّني (لا تطلب منّي شيئاً).

بالوفيات ٢: ٣٥١؛ الديباج المذهب ٢٦٣؛ شذرات الذهب ٣: ٩٤- ٩٥؛ بغية الوعاة ٣٤؛ نفح الطيب ٤: ٦- ٨؛ بروكلمن ١: ١٣٩- ١٤٠، الملحق ١: ٢٠٣؛ نيكل ٤٦- ٤٧، مختارات نيكل ٣٤- ٣٥؛ الأعلام للزركلي ٦: ٣١٢ (٨٢).

ابن جلجل

١- هو أبو أيُوبَ أبو داوودَ سُليمانُ بنُ حسّانِ المعروفُ بابنِ جُلْجُلٍ، يبدو أنّه وُلِدَ في قُرطُبةَ سَنَةَ ٣٢٢ (٩٣٤ م).

بدأ ابن جُلجُلٍ تَلَقِّيَ العلمِ باكراً، قال هو في العاشرةِ من عُمُرِهِ، فسمع الحديثَ من أبي حزمٍ وهبِ بنِ مَسَرّةَ (ت ٣٤٦) وأبي بكرٍ أحمدَ بنِ الفضلِ الدِينَوَريِّ (ت ٣٤٩ هـ) ومحمّدِ بنِ هلالٍ واسحاقَ بنِ إبراهيمَ ومن أحمدَ بنِ سعيدِ الصَدَفيّ المُنْتَجالي (٢٧٤- ٣٥٠ هـ) والأسعدِ بنِ عبدِ الوارث. وأخذَ النحوَ عن محمّدِ بن يحيى الرَباحيّ (ت ٣٥٨ هـ) قرأ عليه كتابَ سِيبَوَيْهِ في سَنَةِ ٣٥٨ نفسِها. غيرَ أنّ ابنَ جُلْجُلٍ عُنِيَ بالطِّبّ خاصّةً وبَلَغَ منه الغايةَ وَهُوَ لا يزالُ في مطلعِ شبابهِ. إلاّ أنّ شُهْرَتَه تأخرتْ كثيراً حتّى أصبحَ طبيباً للخليفةِ هِشامٍ المُؤيّدِ (٣٦٦- ٣٩٩ هـ).

ولعلّ وفاةَ ابنِ جُلْجُلٍ كانتْ سَنَةَ ٣٨٥ (٩٩٥ م).

٢- يبدو أنّ ابنَ جلجلٍ قد عُنِيَ بعددٍ من فنون المعرفة. ومَعَ أنّه اهتمَّ بعلمِ الطبِّ خاصّة، فالواضحُ أنّه كان أقدرَ على التأليفِ منه على التطبيب. له من الكتب: تفسيرُ أسماءِ الأدوية المُفردَة من كتاب ديسقوريدس (العين زربيّ)- مقالةٌ في ذِكر الأدوية التي لم يذكُرْها ديسقوريدس في كتاب صِناعةِ الطِبّ- مقالة في أدْويةِ التِرياق- رسالةُ التَبْيِينِ فيما غَلِطَ فيه بعض المُتَطَبّبين- طبقاتُ الأطبّاءِ والحكماء (ألّفه سنة ٣٧٧).

٣- مختارات من آثاره

- مقدّمة كتاب « طبقات الأطبّاء والحكماء » لابن جلجل، ثمّ خاتمته[1]:

سألتَ، أيُّها الشريفُ الأديبُ[2]، أن أكتبَ إليك بِما تأدّي إليّ عِلْمُه، مِمّا

---

(١) ص ١- ٤ ثمّ ص ١١٦ .- هذه الترجمة ومعظم حواشي المختارات مأخوذان من طبعة فؤاد سيّد لكتاب « طبقات الأطبّاء والحكماء ».

(٢) لم يسمّ ابن جلجل « الشريف » الذي ألّف هذا الكتاب برسمه وقدّمه إليه، وإن كان الملموحَ أنّه أحد أبناء الخلفاء المروانيّين في الأندلس.

تَصَفّحْتُ من كُتُبِ الماضينَ وسِيَرِ المُتَقدّمين، عن أوّلِ مَنْ وَضَعَ صِناعةَ الطِبّ وتكلّم فيها في بَدءِ الزمانِ وقبل الطوفان وبعده، وفي أيّ زمان كان كلّ متكلّم فيه ممّن شنع اسمه وفشا ذِكره[١] وصحّتْ براعتُهُ وتمّتْ حِكمتُه وخلّدَ عِلماً نافعاً وذِكْراً باقياً.

وذَكَرْتَ أنّك لم تَر لأحدٍ من المتقدّمين في ذلك كِتاباً مَرْضِيّاً ولا كلاماً مُقْنِعاً مُشبَعاً، فصادفتَ مِنّي نشاطاً إلى تقييدِ ما سألتَ ورَغِبْتَ، إذ كان عندي ما رَجَوْتَ أنْ أحْسِمَ به عنك الشُبْهَةَ وأُبَلِّغَكَ من ذلك الغايةَ[٢]، إن شاءَ اللهُ؛ ولِمَا رَجَوْتَ من هذه الرسالةِ مِن إحيلهِ ذِكْرِ قومٍ قد دَرَسَ ذِكْرُهم وامّحى أثَرُهُم. ولم أصِلْ، أيُّها الشريفُ، إلى علمٍ ما قيّدتُّه لك في رسالتي هذه إلاّ بعدَ النظرِ والبحث للكتب القديمة ككِتاب الألوف لأبي مَعْشَرٍ المنجّم[٣] وككتاب هروسيش صاحبِ القِصص[٤] وككتاب القروانقة لِيرونمَ التَرْجُمانِ[٥] وكأخبارٍ رأيتُها لِحكماء اليونانية آستَدْلَلْتُ بها على مكانِ كلّ حكيمٍ منهم ودَرَجَتِه وفي دَوْلَة من كان من الملوك.

فلمّا وصلتُ إلى علمٍ ذلك- وكان السببُ في تأليفي هذا الكتاب تحريكاً لي- لم أجدْ لنفسي عُذراً في التَخَلُّفِ عن إسعافك فيما سألته ورَغِبْتَه. فقيّدتُّ ذلك ووَجّهْتُ به إليك. فكنْ به سعيداً، ومن الله مُوَفّقاً رشيداً. فقد نَحَلَكَ باريكَ بِنِحْلةٍ[٦] من العُلا فَضّلَكَ بها من ذَوِي الهِمَمِ الناقصةِ المُظلمة، كما قال المسيحُ علبه السلامُ في الإنجيلِ

---

(١) شنع (كذا في الاصل). والمقصود « شاع ». فشا ذكره: انتشر صيته.

(٢) حسم الشبهة: بيّن الأمر المختلف فيه، ردّ الباحث إلى اليقين. بلغ الغاية: منتهى ما يصل إليه الإنسان (من الصواب).

(٣) أبو معشر جعفر بن محمّد الفلكيّ (ت ٢٧٢ هـ) له كتاب الألوف في بيوت العبادات (فيه ذكر الهياكل والبنيان العظيم الذي يحدث بناؤها في العالم في كلّ ألف عام).

(٤) هروسيش أو باولوس أوروسيوس مؤرّخ إسباني عاش في القرنين الرابع والخامس الميلاديّين. وكتاب القصص كتاب في تاريخ الروم في العصور القديمة.

(٥) القدّيس يرونم (جيروم) أحد علماء الكنيسة في عصره (ت ٤٢٠ هـ) له كتاب قرونيقا أو « حوليات » (كتاب تاريخ مرتّب على السنين).

(٦) نحلك (وهبك) (باريك: خالقك).....

الطاهر: كلُّ نِحْلةٍ يُوهَبُها الشخصُ من العقلِ فَهِيَ نازلةٌ من بابِ النور من العُلا[1]. فاشكرِ اللهَ على مَوْهِبَتِه، ومجّدْه على نِحْلَتِه، واضرَعْ إليه في الاستزادة من فضلِهِ فالعَوْنُ منه وبه لا شريكَ له.....

.... قد ذكرتُ، أيُّها الشريفُ، ما أحاطَ به علمي وبَلَغَه إدراكي من وصفِ الحُكماءِ والأطبّاء المشهورين غيرِ المشكوكِ فيهم، مِنْ لَدُنْ آدَمَ عليه السلامُ إلى الزمانِ الذي كُنّا فيه وَهُوَ زمنُ المُؤيَّدِ باللهِ بِحَوْزةِ الأندلس[2]. وذكَرْنا مَنْ كان منهم بالمشرقِ والمَغْرب. ولم نذكر من كان بالمشرقِ مشهوراً- من لَدُنْ دولةِ الراضي إلى أيام الطائعِ لله[3]- إذ لم تكُنْ حَوْزَتَنا ولا جِهتَنا، ولا ظَهَرَ رجلٌ بارعٌ في تلك الدُوَلِ فيكونَ معروفاً برئاستِه ومشهوراً بإحسانِه مَعَ تراخي تلك الدُوَلِ بما دَخَلَ فيها من مُلْكِ الدَيْلَمِ والأتراكِ الذين لا نَفاقَ[4] لشيء من العلمِ عِنْدَهم. وإنّما يظهَرُ الحُكماءُ بظهور دُوَلِ الملوكِ الطالبين للحكمة. واقتَصَرْنا على مَنْ عَرَفْنا بناحِيَتِنا بالأندلسِ إذ كانوا مشهورينَ معروفينَ ظاهرينَ في دُوَلِ أئمّةٍ للعلمِ طالبينَ وعنِ الحكمةِ باحثين، ملوك أبناء ملوكٍ[5]. واقتصَرْنا على ذِكْرِ المشهورينَ الظاهرين الخادمينَ، وأضْرَبْنا عن ذِكْرِ مَنْ كان في زَمانِهم مِمّن لم يُوازِهِمْ ولا حَلّ مَحِلَّهُمْ، إذ لم يكونوا في اتّساعِ الذِكْرِ مثلَ هؤلاء. ووصفتُ صِفاتِهم وأقدارَهم وما ظهر لَهُم من النوادرِ والأخبار. واقتَصَرْنا على قليلٍ من كثيرٍ لِئلاّ يَمَلَّهُ قارِئُه ولِيَسْهُلَ على النفسِ حِفْظُه. والكلامُ إذا طال ثَقُلَ. وحَسْبُنا أنْ نَبَّهْنا وأنْبأنا من كُلِّ شيءٍ بأحْسَنِه وأخَفِّه.....

٤- طبقات الأطبّاء والحكماء (بتحقيق فؤاد سيّد)، القاهرة (مطبوعات المعهد الفرنسي

---

(١) ترد في المصادر العربية أعداد (جمل) من التوراة ومن الإنجيل مختلفة كثيراً أو قليلاً أو غير معروفة في التوراة والأناجيل الموجودة بأيدي الناس.

(٢) المؤيد بالله: هشام الثاني بن الحكم (عاشر خلفاء الأندلس ٣٦٦- ٣٩٩ هـ). حوزة الأندلس (ناحية الأندلس، ملك الأندلس).

(٣) الراضي بالله العبّاسي (٣٢٢- ٣٢٩ هـ) والطائع لله العبّاسي (٣٦٣- ٣٨١ هـ).

(٤) النفاق (بفتح النون): الرواج، الانتشار، الاقبال على الأشياء.

(٥) ملوك أبناء ملوك (كذا في الأصل)، والأصوب «ملوكاً أبناء ملوك».

للآثار الشرقية: نصوص ونقول لمؤلّفين مشارقة، رقم ١٠)، القاهرة (مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية) ١٩٥٥م؛ بغداد مكتبة المثنّى.

★ ★ جذوة المقتبس ٢٠٨ (الدار المصرية) ٢٢٥ (رقم ٤٥٣)؛ بغية الملتمس ٢٨٥ (رقم ٧٦٧)؛ وفيات الأعيان ٥: ١٦٠ (نقول عنه)، طبقات الأطباء ١: ٢١، ٢٧، ٢٨، ٤٩، ٥٤، ٧٧، ٨٠ (نقول عنه لا ترجمة له)؛ القفطي ١٩٠؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٧٥٥-٧٥٦؛ تاريخ الفكر الأندلسي ٤٦٥؛ بروكلمن ١: ٢٧٢، الملحق ١: ٤٢٢؛ الأعلام للزركلي (١٩٧٩) ٣: ١٢٣.

ابن أبي زيد القيروانيّ

١- هو أبو محمّدٍ عبدُ اللهِ بن أبي زيدٍ عبدِ الرحمنِ القيروانيُّ النَفْزيّ، نِسبةً إلى قبيلةِ نَفْزَةَ أو نَفْزاوةَ، وُلِدَ في القيروانِ سَنَةَ ٣١٠ (٩٢٢-٩٢٣ م) وتتلمذَ على أبي بكرٍ محمّدِ ابنِ أحمدَ بن اللبّاد (ت ٣٣٣) وعلى غيرِه.

رَحَلَ ابنُ أبي زيدٍ إلى المشرق وحجّ وسَمِعَ من جماعة من العلماء ثمّ عاد إلى القيروان وقضى فيها مُعْظَمَ حياتِه. ولقد عانى محنةً شديدةً من الدولة العُبيدية (الفاطمية، الإسماعيلية) التي سادت في المَغْرِبِ (٢٩٧- ٣٦٢ هـ). وكانت وفاتُه في ٣٠ شَعبانَ من سَنَةِ ٣٨٦ (١٧/ ١١/ ٩٩٦ م).

٢- كان ابنُ أبي زيدٍ إمامَ علماءِ القيروانِ في زمانهِ، وَهُوَ الذي لَخّصَ المذهبَ المالكيَّ فَسهّلَ بذلك انتشاره فأصبح هو يُعْرَفُ بِلَقَب «مالكِ الأصغرِ». ثمّ هو مُصَنِّفٌ مكثِرٌ له من الكتب: الرسالة (في الفِقه)- كتاب النوادر (جمع فيه ما في أمّهات كتب الفقه على المذاهب المختلفة من المسائل ومن أقوال الفقهاء واختلافهم)- مناسك الحجّ- السنن- العقيدة- مختصر المُدَوَّنة- الأمر والاقتداء- النَهْيُ عنِ الشذوذ عن العلماء- إيجاب الائتمام بأهل المدينة- مسألة النكاح بغير بيّنة- الذَّبّ (الدفاع) عن مذهب مالك- الدعاء- تفسير مسألة الأعيان في الخمس- أحكام المعلّمين والمتعلّمين- الجامع في السنن والأدب في الرق- جملة

مختصرة من واجب أوامر الدين - باكورة السعد - بديعية[1]. وكان له شعر عاديّ، بعضه شعرٌ دينيّ (بديعيّات: شعر في مدح محمّد رسول الله).

٣- مختارات من آثاره

- كَتَبَ ابنُ أبي زيدٍ إلى مُحرزِ بنِ خَلَفٍ التونسي رسالةً في تعليمِ الوُلْدانِ أمورَ الدِيانة، جاء في مَطْلَعِها:

أمّا بعدُ- أعانَنا الله وإيّاكَ على رِعايةِ ودائعهِ وحِفْظِ ما أوْدَعَنا من شرائعهِ- فإنّك سألْتَني أنْ أكتُب إليك جُملةً مُختصَرَةً من واجبِ أمورِ الدِيانةِ ممّا تَنْطِقُ به الألْسِنَةُ وتعتقدُه القلوبُ وتعمَلُه الجوارح (مَعَ) شيءٍ من الآداب منها وجُمَلٍ من أصول الفِقْهِ وفنونهِ على مذهبِ الإمامِ مالكِ بنِ أنَسٍ رَحِمَه اللهُ تعالى. (ذلك) لِما رَغِبْتَ فيه من تعليمِ ذلك للوُلْدانِ كما تُعَلِّمُهُمْ حُروفَ القُرآنِ لِيَسْبِقَ إلى قلوبِهم من فَهْمِ دينِ الله وشرائعهِ ما تُرجى لهم بَرَكَتُه وتُحْمَدُ لهم عاقبتُه. فأَجَبْتُك إلى ذلك لِما رَجَوْتُه لِنَفْسي ولكَ من ثوابِ مَنْ عَلّمَ دينَ اللهِ أو دعا إليه.

واعلَمْ أنَّ خيرَ القلوب أوْعاها للخَيرِ، وأرجى القلوب للخَيْر ما لم يَسْبِقِ الشرّ إليه. وأوْلى ما عُنِيَ به الناصحون ورَغِبَ في أجرهِ الراغبون إيصالُ الخيرِ إلى قلوبِ أولادِ المؤمنين لِيَرْسَخَ فيها، وتَنْبِيهُهُم على معالمِ الدِيانةِ وحدودِ الشريعة لِيُراضُوا عليها، فإنّه رُوِيَ أنّ تعليمَ الشيءِ في الصِغَر كالنَقْش في الحَجَر. وقد مَثّلْتُ لكَ من ذلك ما ينتفعون، إن شاءَ اللهُ، بحِفْظِه، ويَشْرُفون بعِلْمه، ويَسْعَدون باعتقادِه والعملِ به.....

٤- الرسالة، فاس بلا تاريخ؛ القاهرة بلا تاريخ؛ ثمّ القاهرة ١٣٣٨ هـ؛ (نشرها رسّل وسهروردي مع ترجمة إلى الإنكليزية)، لندن ١٩٠٦م؛ (نشرها؟ فانيان في مجموعة أشرف عليها أساتذة مدرسة اللغات الشرقية الحيّة في باريس، مع ترجمة فرنسية)، باريس ١٩١٤ م.

---

(١) راجع في كتبه فهرسة ابن خير ٢٤٦ - ٢٤٧، مقدمة ابن خلدون ٨٠٧ - ٨٠٠، ١٠٤٣؛ بروكلمن ١: ١٨٧ - ١٨٨، الملحق: ١ - ٣٠١ - ٣٠٢.

★ الديباج المذهب ١٣٦- ١٣٨؛ وفيات ابن قنفذ ٢٢١؛ شذرات الذهب ٣: ١٣١؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٦٩٥؛ بروكلمن ١: ١٨٧- ١٨٨، الملحق ١: ٣٠١- ٣٠٢؛ الأعلام للزركلي ٤: ٢٣٠- ٢٣١ (سقط من الطبعة الرابعة ١٩٧٩)؛ الجمل في تاريخ الأدب التونسي ١٠٦.

يحيى بن هذيل القرطبي الكفيف

١- هو أبو بكرٍ يحيى بنُ هُذيلِ بنِ الحَكَمِ بنِ عبدِ الملك بنِ اسماعيلَ التميميُّ القرطبيُّ الكفيف، كان مولُده نحوَ سَنَةِ ٣٠٠ (٩١٢- ٩١٣ م). سَمِعَ الحديثَ من أحمدَ ابنِ غالبٍ، وأخذَ عن ابنِ القوطية (ت ٣٦٧ هـ). وقَدِمَ يحيى بنُ هذيلٍ إلى المشرقِ (شرق الأندلس!) فأخذَ عنه الرَّماديُّ الشاعرُ (ت ٤٠٣ هـ) وغيرُه (معجم الأدباء ٢٠: ٣٩). وكانتْ وفاةُ يحيى بنِ هُذيلٍ سَنَةَ ٣٨٩ (٩٩٩ م)[١].

٢- كان يحيى بنُ هُذيلٍ من أهلِ العلمِ والأدب والشعر ذا بديهة- قيل فيه: عالمُ أدبِك الأندلس (نفح الطيب ٤: ٣٦)- ولكنْ غَلَبَ عليه الشعرُ. وشعرُهُ جيدٌ رائقٌ تكثُرُ فيه المُقَطَّعاتُ الوُجدانيةُ في النسيبِ والحِكمة.

٣- مختارات من شعره

- لأبي بكر يحيى بن هذيل مقطّعات منها:

لا تَلُمْني على الوقوفِ بِدارٍ ... أهلُها صَيّروا السَقامَ ضَجيعي[٢]:
جعلوا لي إلى هواهُمْ سبيلاً ... ثمّ سَدّوا عليّ بابَ الرُجوع!

- وقال في النسيب أيضاً:

شاهدتُّهم وأنا أخافُ عِناقَهم ... شُحّاً على أجسامِهِم أن تُحْرَقا[٣]؛
فتَركْتُ حَظّي من دُنُوِّيَ مِنهُمُ؛ ... ومن الوفاء بأن تُحِبَّ وتصدُقا.

---

(١) من نكت الهميان ومعجم الأدباء. وفي معجم الأدباء أيضاً: وقد جاوز التسعين. وفي جذوة المقتبس ووفيات الأعيان: توفّي سنة ٣٥٦ أو ٣٥٨ وهو ابن ستّ وثمانين سنة.

(٢) الوقوف بدار: الوقوف في مكان كان يسكنه الأحبّة.

(٣) شحّاً: بخلا، ضنّاً.- أخاف إن دنوت منهم (اقتربت إليهم) لأعانقهم أن يحترقوا من شدّة نار حبّي.

وأقلُّ فِعْلي يومَ بانوا أنّني قبّلتُ آثارَ المَطِيِّ تَشَوُّقا[1].
وَلَوَ انّ عُذرَةُ شاهدتْ من مَوْقفي شيئاً لحَذّرَها بألاّ تَعْشَقا[2]!

- في نفحِ الطيب (٣: ١٥٣- ١٥٤): قال الحُميديُّ: أُنْشِدَ بحضرةِ بعضِ ملوكِ الأندلسِ قِطعةٌ لبعضِ أهلِ المَشْرِق، وَهِيَ:

ومـاذا عَلَيْهِمْ لو أجابُوا فسَلّموا، وقـدْ عَلِموا أنّي المَشوقُ المُتَيَّمُ[3].
سَرَوْا ونجومُ الليـلِ زُهْرٌ طوالـعٌ، عـلى أنّهم بالليلِ للناسِ أنْجُمُ[4].
وأخفَوْا عـلى تلـك المَطايا مَسيرَهم فنَمّ عليهـا في الظـلامِ التَبَسُّمُ[5].

فأفْرَطَ بعضُ الحاضرين في آسْتِحْسانِها، وقال: هذا ما لا يَقْدِرُ أندلُسيٌّ على مِثْلِهِ، وبالحضرةِ أبو بكرٍ يحيى بنُ هُذيلٍ فقال بَدِيهاً:

عَرَفْـتُ بعَرْفِ الريحِ أينَ تَيَمّموا، وأينَ اسْتقـلَّ الظاعنون وخَيّموا[6].
خَليلَيَّ، رُدّاني إلى جانـبِ الحِمـى؛ فلستُ إلى غـيرِ الحِمـى أتَيَمَّمُ.
أَبِيـتُ سمـيرَ الفَرْقَدَيْنِ كأنّما وِسادي قَتـادٌ أو ضَجيعيَ أرْقَمُ[7].
وأحْوَرُ وَسنـانُ الجفونِ كأنّـه قَضيبٌ من الرَّيْحان لَدْنٌ مُنَعَّمُ[8]،

---

(١) بانوا: ابتعدوا، رحلوا. المطيّ جمع مطيّة: الراحلة، الدابة التي يسافر الناس عليها.

(٢) عذرة = بنو عذرة. بنو عذرة قبيلة كانت تسكن في بادية الحجاز اشتهر أفرادها بالحبّ، وبأنّ أحدهم كان إذا أحبّ ترك طعامه وشرابه ونومه وربّما مات من شدّة حبّه. يقول الشاعر: لو أنّ بني عذرة شاهدوا أثر الحبّ فيّ أنا لتركوا هم الحبّ خوفاً من نتائجه على المحبّ.

(٣) المشوق: المشتاق، المحبّ. المتيّم: الذي ذلّله الحبّ وأضناه (أسقمه وأمرضه).

(٤) سرى: سار ليلاً. زهر: لامعات (لشدة ظلام الليل). طوالع: عاليات في كبد السماء (في نصف الليل)

(٥) المطيّة: الدابة التي يسافر الناس عليها - سافروا على تلك المطايا في منتصف الليل حتّى يخفوا مسيرهم (سفرهم) عن المحبّ.

(٦) العرف: الرائحة الطيّبة. تيمّم: قصد، اتّجه. وأين استقل = ومن أين استقلّ (بدأ السفر، نهض من مكانه ليسير). الظاعن: المسافر. خيّم: نزل، نصب خيامه ليسكن.

(٧) أبيت: أقضي الليل. سمير الفرقدين: ساهراً مع الفرقدين. الفرقدان: النجم القطبي (وهو نجم مزدوج يتألف من نجمين) وهو لا يغيب أبداً - يقصد الشاعر أن الحبّ يجعله يسهر الليل كلّه فلا ينام أبداً.

(٨) الحور (بفتح ففتح) شدّة بياض بياض العين وشدّة سواد سوادها. وسنان الجفون: ناعس العينين. الريحان: نبت له رائحة طيّبة. لدن: طريّ. المنعّم: الذي لا يكلّفه أهله أعمالاً متعبة، ولذلك يظلّ جسمه ليناً ناعماً ممشوقاً.

نظرتُ إلى أجْفانـــــهِ وإلى الهَوى فأيقَنْـــتُ أنّي لستُ مِنْهُنّ أسْلَمُ[1].

- قال يحيى بن هذيل القرطبي في المباهاة ببناء القبور:

أرى أهـــل الـــثراء إذا تُوُفّوا بَنَوْا تلك المراصِدَ بالصخورِ[2].

أبَوْا إلاّ مُباهــــــاةً وفخراً عـــلى الفُقراء حتّـــى بالقبور.

عَجِبْـــتُ لِمَنْ تأنّـــقَ في بنـــاءٍ أمينـــاً مِن تصاريـــفِ الدهور،

ألم يَبْصُرْ بمـا قـد خرّبَتْـه الد هورُ مِنَ المدائنِ والقصور[3]؟

وأقوامٍ مَضَوْا قَوْمـــاً فقومـــاً وصـــار صغيرُهم إثْرَ الكبـير[4]؟

لَعَمْرُ أبِيهِمُ، لو أبْصَروهم لَمـا عَرَفوا الغَنِيَّ من الفقـــير،

ولا عرَفوا العبيـــدَ من الموالي، ولا عَرَفوا الإنـاثَ من الذكور[5].

إذا أكَـلَ الـثرى هــذا وهــذا، فما فضلُ الجليـلِ عـلى الحقـير؟

٤- * * المقتبس (الحجّي- بيروت) ٢٠٥- ٢٠٦؛ ابن الفرضي ٢: ١٩٣ (رقم ١٦٠٢)؛ جذوة المقتبس ٣٥٨- ٣٥٩ (رقم ٩٠٧) (الدار المصرية) ٣٨٠- ٣٨١ (رقم ٩٠٨)؛ بغية الملتمس ٤٩٥- ٤٩٦ (رقم ١٤٩٥)؛ معجم الأدباء ٢٠: ٣٩- ٤٠؛ نكت الهميان ٣٠٧- ٣٠٨؛ وفيات الأعيان ٤: ٣٦٩، ٧: ٢٢٩؛ نفح الطيب ٣: ٧٣- ٧٤، ١٥٣، ٤: ٣٦؛ نيكل ٦٠- ٦١، مختارات نيكل ٤٠- ٤١؛ الأعلام للزركلي ٩: ٢٢٢- ٢٢٣ (٨: ١٧٥- ١٧٦).

---

(١) منهنّ= من أجفانه.

(٢) المرصد: مكان رصد النجوم (المكان المرتفع)، يقصد: بنوا (بفتح النون) قبورهم عالية مشرفة (ليراها الناس).

(٣) بصر (بفتح فضمّ) به: علم، أدرك.

(٤) صار: انتهى إلى مصيره.

(٥) المولى: السيّد.

أبو القاسم بن العريف القرطبي

١- هو أبو القاسمِ الحُسينُ بنُ الوليدِ بنِ نصرٍ المعروفُ بابنِ العَريفِ النَحْويّ.

أخذَ ابنُ العريفِ النحويُّ عنِ ابنِ القُوطيّةِ (ت ٣٦٧). ثمّ انّه رَحَلَ إلى المشرق فأقام في مِصْرَ مدّةً سَمِعَ في أثنائها من الحافِظِ ابنِ رشيق ومن أبي طاهرٍ الذُهْليّ وغيرِهما. بعدَئذٍ عاد إلى الأندلسِ فجعله المنصورُ بنُ أبي عامرٍ مُؤدِّباً لأولاده.

وكانْ بَيْنَ ابنِ العريفِ وبينَ أبي بكرٍ الزُبيديِّ (ت ٣٧٩) وصاعدٍ البَغْدادِيِّ (ت ٤١٧ هـ) وغيرهما مُناظراتٌ كانَ المنصورُ بنُ أبي عامرٍ يَحْضُرُها. ولكنّ المناظراتِ بينَ صاعدٍ وابنِ العريفِ اشتدّتْ فانقلبتْ منافسةً فعداوةً (أنظر مختارات من شعره).

وكانت وفاة أبي القاسمِ بنِ العريفِ في طُلَيْطلةَ، في رَجَبَ من سَنَةِ ٣٩٠ (أواسط ١٠٠٠ م).

٢- كان أبو القاسمِ بنُ العريفِ أديباً وإماماً في العربية (النحو)، عارفاً بصنوفِ الآداب وشاعراً رقيقاً مقتدراً في تقليدِ أساليبِ الشعراءِ (على ما ترى في المختارات، وإنْ كُنتُ لم أجِدْ له في المصادر التي بين يَدَيَّ شعراً أصيلاً واضحَ النِسبة إليه). وكانتْ له مُصنّفاتٌ منها: كتاب في النحو - كتاب شرح الجُمَل (للزَجّاج) - كتب الردّ على أبي جعفرٍ النحّاسِ في كتابه «الكافي» - رسالة في إعراب قولهم: إنّ الضارب الشاتم والده كان زيداً (يستقصي فيها ثمانِمائةٍ ونَيّفاً وعشرين وَجْهاً!!) - معاني الحروف وأقسامها (فهرسة ابن خير ٣٢٠).

٣- مختارات من شعره

- لمّا قال صاعدٌ البَغْداديُّ في مجلسِ المنصورِ بنِ أبي عامرٍ يَصِفُ وردةً:

أتَتْكَ، أبا عامرٍ، وردةٌ ... يُذَكِّرُكَ المِسْكُ أنفاسَهـا
كَعَـذراءَ أبصَرَهـا مُبْصِرٌ ... فغطّـتْ بأكمامِهـا[1] رأسَهـا!

زَعَمَ ابنُ العريفِ أن صاعداً سرق الأبياتَ من العبّاس بن الأحنف ثمّ ادّعى أنه رأى تَتِمّةً لها في كتابٍ قديمٍ في بيتِه. زعم ابنُ العريفِ أن الأبياتَ هيَ:

---

(١) أكمام جمع كِمّ (بالضم): الأوراق الخضر التي تغطّي الزهرة قبل أن تتفتّح الزهرة.

غَـــــدَوْتُ إلى قَصْرِ عَبّاسةٍ، وقـــد جَـــدّلَ النومُ حُرّاسَهـــا[1]؛
فألفيْتُهـــا- وَهْيَ في خِدْرِهـــا- وقـــد صَـــدّعَ السُكْرُ أُنّاسها[2].
فقالـــت: «أسِرْتَ عـــلى هَجْعـــةٍ؟» فقلتُ «بـلى!» فرَمَـتْ كاسها[3]؛
ومـــدّتْ يَدَيْهـــا إلى وردةٍ يُحاكي لَـــكَ الطيـــبُ أنْفاسَهـــا،
كعـــذراءَ أبْصرَهـــا مُبْصِرٌ فغطّـــتْ بأكمامِهـــا راسهـــا.
وقالـــتْ: «خَـــفِ اللهَ، لا تَفْضَحَنَّ في ٱبْنَـــةِ عَمِّكَ عُبّاسهـــا[4]».
فوَلَّيْتُ عنها على خَجْلةٍ ومـــا خِنْـــتُ ناسي ولا ناسَهـــا.

٤- ★ ★ ابن الفرضي ١: ١٣٤- ١٣٥ (رقم ٣٥٦)؛ جذوة المقتبس ١٨٢- ١٨٣ (الدار المصرية) ١٩٤- ١٩٥ (رقم ٣٧٧)؛ بغية الملتمس ٢٥١- ٢٥٢ (رقم ٦٥٥)؛ معجم الأدباء ١٠: ١٨٢- ١٩١؛ بغية الوعاة ٢٣٧- ٢٣٨؛ البلغة ٧١- ٧٢؛ نفح الطيب ١: ٥٨٢- ٥٨٤، ٣: ٧٧- ٧٨؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٧١٣؛ الأعلام للزركلي ٢: ٢٨٧ (٢٦١).

المنصور بن أبي عامر

١- هو أبو عامرٍ محمّدُ بنُ عبدِ الله بنِ محمّدِ بنِ عبدِ الله بنِ عامرِ بنِ الوليدِ بنِ يزيدَ ٱبنِ عبدِ الملكِ المُعافِرِيُّ القَحْطانيّ (من عربِ الجَنوب)، وأُمُّه أمُّ عبدِ اللهِ بُرَيْهَةُ بنتُ يحيى بنِ زَكَرِيّا التَميميّة (من عرب الشَمال) من بني برطالَ في قُرطُبَةَ. وكان عبدُ الملك المعافريُّ هو الذي دَخَلَ الأندلسَ مَعَ طارقِ بنِ زيادٍ ثمّ سَكَنَ بلدةَ طُرُّشَ في الجزيرةِ الخضراء (جَنوبيّ الأندلس) حيثُ أقام لنفسهِ أُسْرَةً وجيهةً قويّةً. وأمّا أبو حَفْصٍ عبدُ اللهِ (والدُ المنصور بن أبي عامرٍ) فكان معروفاً بالتقوى والعِلم وبالزُهْد في مناصبِ الدولةِ، وقد ماتَ عند طرابُلُسِ الغربِ، في أثناءِ رجوعه من الحجّ، في أواخرِ أيّامِ عبدِ الرحمنِ الناصرِ (ت ٣٥٠).

وأمّا المنصورُ بنُ أبي عامرٍ نفسُه فقد وُلِدَ (في طرّش!) سَنَةَ ٣٢٦ (٩٣٧- ٩٣٨ م).

---

(١) جدّل: صرع (ألقى بالخصم أرضاً)، قتل. غدا: ذهب في الصباح.
(٢) الخدر: مخدع الفتاة في البيت. صدّع السكر أنّاسها (ندمانها، الذين يؤانسونها): أفقدهم وعيهم.
(٣) أسرت على هجعة: هل جئت إلينا والذين حولي نيام؟
(٤) عبّاس (بالضمّ) جمع عبّاس (بالفتح): عاذل، غاضب، خصم.

ولمّا شَبَّ قَدِمَ إلى قُرطُبَةَ طلباً للعلم فتلقّى اللغة على أبي عليّ البَغْداديّ القاليّ (ت ٣٥٦) وأبي بكرٍ بن القوطيّة (ت ٣٦٧)، كما سَمِعَ الحديثَ من أبي بكرٍ بنِ مُعاويةَ القُرَشيّ. ثمّ إنّ ابن أبي عامرٍ أصبحَ كاتباً لدى القاضي أبي بكرٍ محمّدِ بنِ إسحاقَ بنِ السَلِيم (٣٠٦- ٣٦٧ هـ).

وفي سَنَةِ ٣٥٦ (٩٦٧ م) عَهِدَ الحَكَمُ المُستنصرُ إلى ابنِ أبي عامرٍ بجميعِ شؤونِ آبنهِ الأميرِ هشامٍ وجعله ناظراً على أملاكِ زوجتهِ صُبْحَ[1]. وفي سَنَةِ ٣٥٨ أصبحَ قاضياً للجُنْدِ في إشْبيلِيَةَ ولَبْلَةَ ثمّ (٣٦١ هـ) أصبح صاحبَ الشُرطة. وقدِ آستطاع ابنُ أبي عامر بلباقته ودهائه وكَرَمه أنْ يَنالَ حظوةً لدى أهل البَلاطِ جميعِهم.

ولمّا مات الحَكَمُ المُستنصرُ بُويعَ لهشامٍ بالخِلافة، في رابعِ صَفَرَ من سَنَةِ ٣٦٦ (٢/ ٩/ ٩٦٧ م)، ولُقِّبَ «المُؤَيَّدَ»، قبل أنْ تَتِمَّ له آثنتا عَشْرَةَ سنة، فأقامتْ أُمُّهُ صُبْحُ نَفْسَها وصيّةً عليه. في ذلك اليومِ جَعَلَ هشامٌ خِطَطَ الشُرطة الوُسْطى والسِكّةِ والمواريثِ لابنِ أبي عامرٍ. وفي عاشرِ صَفَرَ جعل هشامُ الحِجابة (رئاسةَ الوزراة) لجعفر آبنِ عثمانَ المُصْحَفي (راجع، فوق، ص ٢٩٤) وجعل ابنَ أبي عامرٍ وزيراً للمُصحفي.

وفي سنة ٣٦٦ نفسِها كَثُرَ الاضطراب في أقاصي الأندلُسِ وخِيفَ من هجوم النصارى على شَماليّ الأندلسِ، فعَقَدَتْ صُبْحُ مَجْلِساً ضمّ رِجالَ الدولة وفيهم غالبُ بنُ عبدِ الرحمنِ الصَقْلبي- وكانَ قائداً قديراً تولّى الجيشَ والغَزَواتِ منذ أيامِ عبدِ الرحمنِ الناصرِ-وجعفرُ بنُ عثمانَ المُصحفي وابنُ أبي عامرٍ. فأَجمَعَ أهلُ المجلسِ على وُجوبِ تجهيزِ جيشٍ كبيرٍ للجِهاد، فلم يَجْسُرْ أحدٌ على القيامِ شَخْصيًّا بالحربِ. فتقدّمَ ابنُ أبي عامرٍ لتولّي مثلِ هذهِ الغزوةِ. وكانتْ صُبْحُ حريصةً على تثبيت مكانةِ آبنِها بكلّ سبيلٍ فأعْطتِ ابنَ أبي عامرٍ كلَّ ما طَلَبَه من مالٍ وجُنْدٍ. وكان ابن أبي

---

(١) السيّدة صبح البشكنسية (من البُشكنس: سكان الطرف الشمالي الغربي من إسبانية) كانت زوج الحكم المستنصر وأمّ ابنه هشام. وكان الحكم يسميّها «جعفر» تحبّبا. كانت امرأة قديرة. وكانت- بلا ريب- ذات أثر كبير في رفع مكانة ابن أبي عامر. وفي الروايات كلام كثير على صلة صبح بابن أبي عامر واختلاف أكثر.

عامرٍ داهيةً فجَعَلَ غالباً القائدَ الأعلى للجيش (حتّى إذا هُزِمَ الجيش كان الَّلْومُ على غالبٍ) وتولّى هُوَ القيادةَ الفِعلية. وسارَ الجيشُ في رَجَبَ من سَنَةِ ٣٦٦ (آذار- مارس ٩٧٨ م). وانتصر ابنُ أبي عامرٍ نصراً عظيماً فزادَ ذلك في مكانتهِ عندَ الناسِ وعند صُبْحَ.

وفي أواخرِ تلكَ السَنَةِ نفسِها أدرك ابنُ أبي عامرٍ مَدى قُوّته ومدى ضَعْفِ مَنْ حولَه فاستبدَّ بالأمرِ وحَجَبَ هشاماً فأصْبَحَ الحاكِمَ الفِعلي في الأندلسِ. ثمّ بدأ في التفكير بالتَخلُّص من خصومه. وفي سَنَةِ ٣٦٨ للهِجْرة بدأ ببناءِ مدينةِ الزاهرة، شَرْقَ قُرطُبَةَ على النهرِ الأعظم (نهرِ الوادي الكبير) وجَعَلَها مَقرًّا له وعاصمةً للأندلس (لأنّ الزهراءَ مقرُّ عبدِ الرحمنِ الناصرِ وابنهِ الحَكَمِ المُستنصرِ كانت مقرًّا لخُصومهِ السِياسيّين). وتمّ بناءُ الزاهرةِ سَنَةَ ٣٧٠ هـ فانتقلَ ابنُ أبي عامرٍ إليها. وفي السنةِ التاليةِ تَلَقَّب «المنصورَ» فأصبحَ يُعْرَفُ في التاريخ باسم المنصور بنِ أبي عامرٍ.

وقد دبّر المنصورُ بنُ أبي عامرٍ مقتلَ نفرٍ كثيرينَ كان يَخْشاهم على نفوذه الشخصي أو على الدولةِ المَرْوَانية في الأندلس: دبّر مقتل غالبٍ الصَقْليّ (٣٧٠ هـ) والمُصْحفي (٣٧٢ هـ) وجَعفرَ بن عليّ بنِ حَمْدونٍ (٣٧٢ هـ) والشريفِ الحَسَني الإدريسي حَسَنِ بنِ قَنّونٍ (٣٧٥ هـ) وكان في المَغْربِ فجهّز عليه جيشاً كبيراً. ولمّا استسلم حَسُن بنُ قنّونٍ للجيشِ أمر المنصورُ بحَمْله إلى قُرطُبَةَ ثمّ دبّر مقتله.

وقاد المنصورُ بنُ أبي عامرٍ خمسينَ غزوةً بنفسِه (أوْ: ثمانِيَ وخمسِينَ) كان مُظَفّراً فيها كُلِّها، وَبَسَطَ سُلطانَ العَرَبِ في الأندلس بعدَ أن كان ذلك السلطانُ قد تَراجَعَ في شَمالِيّ البلادِ وشَرْقيِّها. وضَبَطَ البلاد ضَبْطاً مُحْكَماً.

وكان المنصورُ بنُ أبي عامرٍ مُصاباً بالنِقْرِسِ[1]. وقد تُوُفِّيَ في مدينةِ سالمٍ، وهُوَ راجعٌ من الغَزْوِ، ليلةَ الاثنين لِثَلاثِ لَيالٍ بَقِينَ من رَمَضانَ في سَنَةِ ٣٩٢ (٨/ ٨/

(١) النقرس: داء الملوك (مرض يحدث في مفاصل القدم) ويبدو أنّه ناشيء عن تجمّع الرواسب في مفاصل العظام. وسمّي «داء الملوك» (الأغنياء) لكثرة ترف هؤلاء في مآكلهم ولإخلادهم إلى الراحة فتكثر الرواسب في أجسامهم.

١٠٠٢ هـ) مَبْطوناً[١]. وجاء في «تاريخ العَرَب» (المطوّل) للدكتور فيليب حتّي[٢]: «أمّا المؤرّخُ الراهبُ الذي دَوّنَ هذه الحادثةَ فقد علّق عليها بإيجازٍ مُعَبِّراً عن شُعورِ نصارى إسبانيةَ تِجاهَها فَكَتَبَ: في سَنَةِ ١٠٠٢ ماتَ المنصورُ فدُفِنَ في جَهَنَّمَ».

٢- قال ابنُ خَلْدونٍ: ومن الوزراءِ أولئك «الذين عَظُمَتْ آثارُهم وعَفَّتْ[٣] على الملوك أخبارُهم كالحجّاجِ وبني المُهَلَّبِ والبرامكةِ وبني سَهْلِ بن نَوْبَخْتَ وكافورِ الإخشيديّ وابنِ أبي عامرٍ وأمثالِهم فغيرُ نكيرٍ الإلماعُ بآبائهم والإشارة إلى أحوالهم لانْتِظامِهِم في عِدادِ الملوك».

وقد كان المنصورُ بنُ أبي عامرٍ من دُهاةِ العرب والحازمين في الأمور وذوي الشجاعة والبأس. وكذلك كان قاسياً شديدَ القَسوةِ في سبيلِ الحِفاظ على الدولة وفي سبيل نفسِه أحياناً كثيرةً. وكان له أيضاً أشياءُ متفرقةٌ من النَثْر الحِكْميّ ومن الشعرِ المتين، وإن لم يكن على شعرهِ نضارةٌ ولا عُذوبةٌ لأنّه من شعرِ العلماءِ والفُرسان.

٣- مختارات من آثاره

- لمّا غَضِبَ المنصورُ بنُ أبي عامرٍ على جَعْفَرٍ المُصْحفيّ وألقاه في السِجن كتب جعفرٌ إلى المنصور يتذلّلُ له ويَعْرِضُ عليه نفسَه ليكونَ مُؤدِّباً لابْنَيْهِ عبدِ اللهِ وعبدِ الملكِ. فقالَ المنصورُ:

«أرادَ (جعفر) أن يَسْتَجْهِلَني ويُسْقِطَني عندَ الناس، وقد عَهِدوا منّي ببابهِ مُؤَمِّلاً ثمّ يَرَوْنَه اليومَ بدِهليزي مُعَلِّمًا».

- وَعَلِمَ أن امرأةً مُسلمةً كانتْ أسيرةً مُنْذُ زمنٍ في كنيسةٍ عندَ غرسيه ملكِ البُشْكُنْسَ (برُغْمِ معاهدةٍ بينَهما تَقضي بإطلاق جميعِ الأسرى) فقال:

«كان قد عاهدني ألاّ يبقى في أرضهِ مأسورةٌ ولا مأسورٌ ولو حَمَلَتْه في حواصِلِها

---

(١) المبطون: الذي يشتكي بطنه (انتفاخ بطنه من ماء أو نحوه).

(٢) تاريخ العرب لحتّي (نقله إلى العربية أدورد جرجي وجبرائيل جبّور) بيروت ١٩٥١، ٣: ٦٣٥.

(٣) المقدّمة (بيروت، مكتبة المدرسة، ١٩٦١) ص ٥٢.

النـور. وقد بَلَغَني، بعدُ، مُقامُ فُلانةِ المُسلمةِ بتلك الكنيسة. وواللهِ، لا أنتهي عن أرضهِ حتّى أكْتَسِحَها ».

– وقال يوماً: « إنّ المَلِكَ لا يَنامُ إذا نامَتِ الرعيّةُ. ولو ٱسْتَوْفَيْتُ نومي لَمَا كان في دُورِ هذا البلدِ العظيمِ عينٌ نائمة ».

قال المنصورُ بنُ أبي عامرٍ يُعبِّرُ عن طُموحهِ إلى الاستيلاءِ على المَشْرِقِ لكَشْفِ الظُلْمِ عن أهلِ المشرق:

مَنَـعَ العَيْنَ أن تـذوقَ المَنامـا ... حُبُّها أن ترى الصَّفا والمَقاما[١].

لي ديونٌ بالشَرْقِ عند أُناسٍ ... قـد أحلّوا بالمَشْعَرَيْنِ الحرَاما[٢].

إن قَضَوْها نالوا الأماني، وإلاّ ... جَعَلوا دُونَهـا رِقابـاً وهَامـاً[٣].

عن قريبٍ تَرى خُيولَ هِشامٍ ... يَبْلُغُ النِيـلَ خَطْوُها والشَاما[٤]!

– وقال في الحماسةِ والفَخْر:

رَمَيْتُ بِنفسي هَوْلَ كـلِّ عظيمةٍ ... وخاطَرْتُ، والحُرُّ الكريمُ مُخاطِرُ.

ومـا صاحـبي إلاّ جَنـانٌ مُشَيَّـعٌ ... وأسْمَرُ خَطِّيٌّ وأبْيَضُ باتِرُ[٥].

وإنّي لَزَجّـاءُ الجُيوشِ إلى الوَغى ... أُسوداً تُلاقيها أسودٌ خَوادِرُ[٦].

---

(١) الصفا والمقام (مقام إبراهيم) في مكّة من المشاعر (مناسك الحجّ. حيث تجب أو تسنّ العبادة).

(٢) ديون (هنا): ثأر. أناس (من الحكّام). قد أحلّوا الحرام: ظلموا حتّى أصبح ما يحرم فعله مسموحاً (عادة).

(٣) إن قضوها (إن أصلحوا هذا الظلم من تلقاء أنفسهم). جعلوا دونها رقاباً (أجبروني على قطع تلك الرقاب) وهاماً (جمع هامة: رأس).

(٤) هشام: هشام المؤيّد (الخليفة الأموي في الأندلس) وكان المنصور بن أبي عامر قد حجبه (استبدّ مكانه في الحكم). الشآم والشام: سورية.

(٥) صاحبي: رفيقي. جنان: قلب. مشيع: شجاع. أسمر: رمح. خطّيّ (من بلاد الخطّ: الشاطىء الشرقيّ من شبه جزيرة العرب، وكانت الرماح، أو القصب الفارسي الذي تصنع منه الرماح تجلب إليه من الهند) كناية عن جودة تلك الرماح. أبيض: سيف. باتر: قاطع.

(٦) أزجى وزجّى: أرسل، بعث. أسود: أبطال. خوادر جمع خادر (وهو الأسد الذي يكون في خدره: في الأجمة أو الغابة الصغيرة) كناية على الشجاعة في ذلك الأسد والمفاجئة.

وسُدتُ بِنَفْسي أهـلَ كـلٍّ سيادةٍ وفاخَرْتُ حتّى لم أَجِدْ من أُفاخر .
ومـا شِدتُ بُنياناً، ولكنْ زِيادةً على ما بَنى عبدُ المليكِ وعامِرُ[1] .
رَفَعْنـا المَعـالي بالعَوالي حديثـةً، وأوْرَثَنَاها في القديمِ مُعافِرُ[2].

٤★★ منصور الأندلس، تأليف علي أدهم، القاهرة (البابي) بلا تاريخ (في سلسلة أعلام الإسلام).

★ ★ راجع كتب التاريخ العامّة؛ ثمّ بغية الملتمس ١٠٥- ٠٧(رقم ٢٤٢) الذخيرة ٤ : ٥٦-٧٨ (راجع الفهارس أيضاً)؛ المغرب ١ : ١٩٤ ١٩٨؛ الحلّة السيراء ١ : ٢٦٨- ٢٧٧؛ المعجب ٦٢ وما بعد (مع شيء من التقطّع)؛ الوافي بالوفيات ٣:٣- ٣١٣؛ البيان المغرب ٢ : ٢٥٣ وما بعد؛ نفح الطيب ١ : ٣٩٦- ٤٢٢، ٥٧٨- ٦٠٤، ٣ : ٧٦- ١٩٨؛ دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الأولى) ٣ : ٢٥٤- ٢٥٦؛ الأعلام للزركلي ٧ : ٩٩- ١٠٠ (٦ : ٢٢٦).

عبد الملك بن شهيد[3]

١- هو أبو مَروانَ عبدُ الملك بنُ أحمدَ بنِ عبدِ الملك بن عُمَرَ بنِ محمّدِ بن شُهيدِ بن عيسى بن شهيدِ بنِ الوضّاحِ الأشْجَعيُّ الأندلسيُّ القُرطبيُّ، وُلِدَ في قُرطُبَة.

وتلقّى الحديثَ خاصّةً على قاسمِ بنِ أصبغَ (ت ٣٤٠) ووهبِ بنِ مسرّة.

وتولّى عبدُ الملك بنُ شُهيدِ الوزارةَ للحاجب المنصورِ بن أبي عامرٍ ونال حظوةً عنده، كما بقي متّصلاً ببلاط الخليفة الحَكَمِ المُسْتَنْصِر (٣٥٠- ٣٦٦ هـ). وكذلك كان بينه وبين عبد الملك بن جَهْوَرٍ أحدِ وزراء عبدِ الرحمن الناصرِ (٣٠٠- ٣٥٠ هـ) مساجلةٌ ومنافسة.

مرضَ عبدُ الملك بن شُهيدٍ في شيخوخته بالنِقْرس (ورم ووجع في مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين) فكان يُحْمَلُ في مِحَفّةٍ، ومع ذلك لم يفارقْهُ نشاطُه ولا مرحه.

---

(١) ما شدّت (بنيت بناء جديداً) ولكن زيادة (زدّت على البناء الذي كان قد بناه) عبد الملك ومعافر (من أجداد المنصور بن أبي عامر).

(٢) العوالي: الرماح (بالحرب، بالقوّة).

(٣) كان ثلاثة من آل شهيد وزراء وأدباء، أبو مروان عبد الملك بن أحمد هذا؛ ثمّ والده أبو عمر أحمد بن عبد الملك؛ ثمّ أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن أحمد (ت ٤٢٦ هـ)، وستأتي ترجمته.

وكانت وفاة عبد الملك بن شُهيدٍ سنة ٣٩٣ هـ (١٠٠٢ م).

٢- كان عبدُ الملك بنُ شهيدٍ شاعراً ناثراً كاتباً ومؤلّفاً. كان في شِعْره مَرَحٌ وحبٌّ للخمرِ والنساء، كما كان له شيٌّ من الوصف والغزل والهجاء والحِكمة. وكانت له معرِفةٌ جيّدة بالبلاغة والشعر وبشعراءِ المَشْرق وبالتاريخ. وله كتابُ « التاريخ الكبير في الأخبار » رتّبه على السِنينَ من سَنة ٤٠ إلى أيّامه.

٣- **مختارات من شعره**

- قال عبد الملك بن أحمد بن شهيد (جذوة المقتبس):

أقصرتَ عن شأوي فعادَيْتَـــني. أقْصِرْ، فليس الجهـلُ من شاني[1].

إن كـان قـد أغناكَ ما تحتوي بُخلاً، فإنّ الجود أغناني.

- خضر عبدُ الملك بنُ شهيدٍ، وهو مريضٌ بالنِقْرِس، بعضَ مجالس الأُنس، عندَ المنصور بن أبي عامرٍ، فاستخفّه الطَرَبُ، فقام- برُغْمِ مرضِهِ- يرقُصُ. ثم قال مرتجلاً:

هـاكَ شيخاً قـادَه السُكْرُ لكـا قـام في رَقْصتـهِ مُسْتهلكـا[2].

لم يُطِقْ يرقُصُها مُسْتَثْبِتاً فأنثنى يرقُصُهـا مُستمسكـا[3]،

عاقَــــه مِنْ هزِّهـــا مُعتــــدلاً نِقْرِسٌ أخنى عليه فاتّكا،

من وزيرٍ فيهِمُ رقّاصــــــــــةٍ قام للسُكر يُناغي مَلِكا[4].

أنــــا لو كنـــتُ كما تَعْرِفـــني قُمْتُ إجلالاً على رأسي لكا.

قَهْقَـهَ الإبريـقُ منّي ضاحكـاً ورأى رَعْشَةَ رِجْلي فبكى.

- وقال في الخمر (نفح الطيب ٣: ٢٦٠):

أمــــا ترى بَرْدَ يومِنـــا هـــذا صيّرنـــا للكُمون أفـــذاذا[5]؟

---

(١) أقصرت أو قصّرت عن شأوي (شوطي: المدى أو المسافة التي أستطيع أنا الركض فيها).

(٢) مستهلكا: عاجزاً عن إقامة جسمه.

(٣) مستثبتا: ثابت القدمين منتصباً (معتمداً في وقوفه على نفسه).

(٤) يناغي (يلاطف في الحديث) ملكا (رجلاً عظيماً ذا سلطة).

(٥) الكمون (الاختباء في البيوت). أفذاذا (منفردين).

قد فُطِّرتْ صِحّةُ الكُبودِ به حتّى لكَادتْ تعود أفْلاذ[1].

فادْعُ بنا للشَمولِ مُصْطلياً نُغِـذَّ سيراً إليـك إغـذاذا[2].

وادْعُ المُسمّى بها وصاحِبَه تَـدْعُ نبيـلاً وتَـدْعُ أُستاذا[3].

ولا تُبالِ أبا العَلاء زها بخَمْرِ قُطْرُبُّـــلِ وكلواذا[4].

مـا دام من أرمـلاطَ مشربُنـا دعْ ديرَ عَمّى وطِيزَناباذا[5].

- وقال في الغزل يخلط المجون بالعفّة:

ويـــلي عـــلى أحورَ تيّـــاهِ أجُـــدُّ فيـــه، وهو بي لاه[6].

أقبلَ في بِيضٍ حَكَيْنَ الظِبا: بيضٍ تَراقٍ حمرِ أفواهِ[7].

يأمرُ فيهنّ ويَنْهَـــــى، ولا يَعْصِينَهُ من آمرٍ ناهِ.

حتّـــى إذا أمْكَنَـــني أمرُهُ تركتُه من خشية اللهِ!

٤- ★ ★ جذوة المقتبس ٢٦١ (الدار المصرية ٢٨٠ (رقم ٦٢٢)؛ بغية الملتمس ٣٦٢ (رقم ١٠٥٧)؛ الصلة ١: ٣٣٨- ٣٣٩ (رقم ٧٥٩)؛ الحلّة السيراء ١: ٢٣٩- ٢٤٠؛ المغرب ١: ١٩٨- ١٩٩؛ بغية الوعاة ٣١١ (وفيه وفاته ٤٩٣ بالأحرف، وهو خطأ)؛ نفح الطيب ١: ٤٠٠- ٤٠١، ٥٨٥- ٥٨٦، ٣: ٢٦٠؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٩٣٨- ٩٤٠؛ نيكل ٤٧- ٤٩؛ مختارات نيكل ٣٠- ٣١؛ الأعلام للزركلي ٤: ٣٠٠ (١٥٦).

(١) فطّرت: قطّعت. الكبود جمع كبد (بفتح فكسر). أفلاذ جمع فلذة (بالكسر): قطعة.

(٢) الشمول: الخمر (الباردة أو المبرّدة). مصطلياً: تعرّض جسمك للنار (في الشتاء)- أدعنا إلى مكان دافىء. أغذّ السير: أسرع.

(٣) وادعُ معنا شخصاً اسمه «شمول» ورجلاً آخر صاحباً لشمول.

(٤) لا تبال أبا العلاء (؟): لا تحفل (لا تهتم) برجل اسمه أبو العلاء. زها: أعجب (بضمّ فسكون فكسر)، أفتخر. قطربّل وكلواذا قريتان في العراق مشهورتان بالأعناب (وبالخمر).

(٥) الملموح أن أرملاط من الأندلس. أمّا طيزناباذ ففي العراق، دير عمّى (؟).

(٦) الأحور: شديد بياض بياض العين وشديد سواد سواد العين. التيّاه: الذي يعجب بصفاته ويرى نفسه فوق أنداده.

(٧) بيض: نساء بيض (جميلات). حكين: شابهن. الظباء جمع ظبية (الغزال). الترقوة: جانب الصدر الأعلى. بيض تراق: كناية عن الشباب والجمال.

عبد الملك بن جهور[1]

١- هو عبدُ الملكِ بنُ جَهْوَرٍ، لم أجِد فيما بينَ يديّ من المصادر، أكثرَ من أنّه كان وزيراً في أيامِ عبدِ الرحمنِ الناصرِ (٣٠٠- ٣٥٠ هـ)، وأنّه كان بينَه وبينَ ابنِ شُهيدٍ عبدِ الملكِ بنِ أحمدَ (ت ٣٩٣) شيءٌ من التحاسد. وكانت وفاةُ عبدِ الملكِ بنِ جَهْورٍ في سَنَةِ ٣٩٣ (١٠٠٢- ١٠٠٣ م).

٢- كان عبدُ الملكِ بنُ جهورٍ وزيراً جليلاً من عِلْيَةِ الرِجال وسَرَوات الكُتّاب في فضلِ آدابهم واتّساعِ أفهامهم مَعَ المُرُوءَةِ الظاهرةِ والسِيرة الجميلة. وكان كاتباً شاعراً، وشِعرُه وُجْدانيٌّ يَدورُ على الوَصْفِ والغَزَل والنَسيب والعِتاب.

٣- مختارات من شعره

- قال عبد الملك بن جهور في الغزل والعتاب[2]:

يا أحسنَ الناسِ في عينيّ مبتسماً	وأعذبَ الخلْقِ عندي مَنْطِقاً وفَما[3]،
حلّتْ بقلبيَ من عينَيْكَ نازلةٌ	من الهوى صيرتني في الورى عَلَما[4].
لم تبقَ جارحةٌ مني أقلّبُها	إلا بعثتَ عليها بالهوى سقماً[5].
فارْحَمْ مُقام محبٍّ ما شكا وبكى	تبرُّماً بالذي يَلْقى ولا نَدِما[6].
★أُجِلُّكَ أنْ تَحِلَّ بك الأماني،	فكيف بأنْ أراك وأنْ تراني[7]؟
وأكرهُ أنْ يمثّلَكَ التمنّي	حَذاراً أن يبوحَ به لساني.

---

(١) آل جهور أسرتان تتداخل أسماء أعضائها. ويبدو أن في هذه الترجمة شيئاً من التداخل.

(٢) من عادتي أن أعدّ كتبي للطبع منسوخة على الآلة الكاتبة. ولكنّ المقاطع الثلاثة الأولى معدّة للطبع على ورقة بخطّ اليد نسخت بلا ريب في عام ١٩٧٦ حينما تركت بيتي في الطريق الجديدة بسبب الأحداث المؤسفة في لبنان (أعرف ذلك من أوراق شبيهة مؤرّخة)، ممّا يدلّ على أنني وجدت هذه الأبيات منسوبة في كتاب ما إلى عبد الملك بن جهور.

(٣) منطقاً: كلاماً. فما (كناية عن جمال الفم).

(٤) نازلة: مصيبة. علماً: معروفاً، مشهوراً.

(٥) جارحة: عضو.

(٦) مقام (بالضمّ): موقف، حالة. التبرّم: الملل، الضجر.

(٧) لا أريد أن تكون مستجيباً لكلّ أمنية من كلّ إنسان (فإن جميع الناس يحبّونك ويتمنون لقاءك، ولكن كيف السبيل إلى أن نجتمع نحن الاثنان (؟)

ولو أني استطعْتُ، لِفَرْطِ شَجْوي عليـك، لَمَا رآك الحافظـان[1].
وما أشكو إليك بغيرِ دمعي: بَيـانُ الدمعِ أعربُ من بياني[2]!

– وقال بين الوصف والنسيب:

قد بَعَثْنا إليكَ بالنَرْجِسِ الغَضْـ ـضِ حكـى لَوْنَ عاشقٍ معمودِ:
فيـه ريـحُ الحبيـبِ عند التلاقي واصفرارُ المُحِبّ عند الصُدود.

ومن شعر أبي مروانَ عبدِ الملك بن جَهْورٍ (جذوة المقتبس ٢٦٣)[3]:

أتـاني كتابٌ منكَ أحلى من المُنى وأعـذبُ من وصلٍ مَحَا آيَةَ الصَدِّ.
فجـدّدَ لي شَوْقـاً إليـكَ مُذَكِّراً وأذكى الذي في القلب من لَوْعة الوَجْد[4].
وإني على أضعاف ما قد وصفتَه لديك من الشوق المُبَرِّحِ والجَهْدِ[5].
فلو أنّـني أقوى أطـيرُ صَبابةً، جعلتُ جوابي نحوَ أرضِكُمُ قَصْدي
عليـكَ سلامٌ من مُحِـبٍّ مُتَيَّمٍ يراكَ بعينِ القلبِ في القُربِ والبُعْد[6].
★ إن كانـت الأبـدانُ نائيـةً فنفوسُ أهلِ الظَرف تأتلفُ.
يـا رُبَّ مفترقـينِ قـد جَمَعَتْ قَلْبَيْهِما الأقلامُ والصُحُف.

٤- ★ ★ جذوة المقتبس ٢٦٣ (الدار المصرية) ٢٨٢ (رقم ٦٢٦)؛ نيكل ٤٨- ٤٩؛ بالنثيا ٦٣، ٢٠١.

محّمد بن الحسين الطبني

١- هو أبو عبدِ الله محمّدُ بنُ الحُسينِ بنِ محمّدِ الطُبْنيُّ، نِسبةً إلى طُبْنَةَ عاصمةِ

(١) الشجو: الحزن. الحافظان (الملكان اللذان يكتبان على الإنسان أعماله الصالحة وأعماله الطالحة) (؟).
(٢) كلام دمعي أوضح من كلام لساني.
(٣) الأبيات التالية جواب على كتاب (رسالة) جاءت اليه من صديق له (أنظر البيت الأوّل).
(٤) أذكى: أوقد، زاد في حرارة الشيء. اللوعة: الحرقة في القلب أو الألم من حبّ أو مرض. الوجد: الحبّ الشديد.
(٥) شوقي اليك أضعاف شوقك اليّ. المبرّح: الشديد (المؤلم). الجهد: التعب.
(٦) المتيّم: الذي ذلّله الحب وأمرضه وذهب بعقله.

مقاطعة الزاب في المغرب الأوسط (القُطر الجزائري)، الحمانيّ التميميّ نِسبةً إلى زيدِ مَناةَ بنِ تميمٍ.

وُلِدَ محمّدُ بنُ الحُسينِ الطُبنيُّ نحو سَنَة ٣٠٠ (٩١٣ م) في طُبْنَةَ. ثمّ إنّه انتقل إلى الأندلس سَنَةَ ٣٣١ (٩٤٢ م) وافداً على المنصور بن أبي عامرٍ. وسَكَنَ الطُبنيُّ في قرطبةَ ونال حَظْوةً عند المنصور فولاّه المنصورُ خُطّةَ الشُرطةِ ثمّ اتّخذه نديماً.

وكانتْ وفاةُ الطُبنيّ لثلاثِ ليالٍ بَقِينَ من ذي الحِجّة من سَنَةِ ٣٩٤ (٢٧/ ١٠/ ١٠٠٣ م).

٢- كان محمّدُ بنُ الحُسينِ الطُبني عالماً بأخبار العَرَبِ وأنسابِهِمْ أديباً مُتَفَنّناً وشاعراً مُكْثِراً مُجِيداً.

٣- مختارات من شعره

- قال محمّدُ بنُ الحُسين الطُبني في الغزَل، وهو ممّا يغنّى به:

صَدَفَتْ ظَبْيـةُ الرُصافةِ عَنّا، وهي أشْهى من كلِّ ما يُتَمنّى.
هَجَرَتْنــا، فما إليهـا سبيــلٌ غيرَ أنّا نقولُ: كانتْ وكُنّا!

- وقال في الخمر:

واجْتَمَعْنــا بعـدَ التَفَرُّقِ دهراً فَظَلِلْنــا نُقَطِّـعُ العُمْرَ سُكرا.
لا يراني الإلَـهُ إلاّ طريحـاً حيثُ تُلقي الغُصونُ حَوْلِيَ زَهْرا،
قائـــلاً كُلّما فَتَحْـــتُ جفوني من نُعـاس الخُمارِ: زِدْنِيَ خَمْرا!

- وقال في الهجاء:

ووَغْـدٍ إن أردتُّ لـه عِقابـاً عَفـا عن ذَنْبـهِ حَسَبي ودِيـني.
يُؤَنِّبـــني بغَيْبــةِ مُستطيــلٍ ويَلْقاني بوجهِ مُسْتكينِ[1].

---

(١) اذا كنت غائباً عن مجلسه أخذ يؤنّبني (يلومني، يوبّخني، يعنّفني) وهو مستطيل (يذكر تفضّله عليّ وتعاليه فوقي). واذا اتّفق أن كنت معه في مجلس واحد أقبل علي يتقرّب اليّ بذلّة وخضوع.

وقالوا: « قد هجاكَ ». فقلتُ « كلبٌ عَوَى جَهْلاً إلى ليث العَرين ».

٤- * * ابن الفرضي ٢: ١١٩- ١٢٠ (رقم ١٤٠٦)؛ جذوة المقتبس ٤٧ (الدار المصرية) ص ٥٠ (رقم ٣٨)؛ بغية الملتمس ٥٨ (رقم ٨٤)؛ الصلة ٢: ٥٦٢؛ المغرب ١: ٢٠١- ٢٠٢؛ وفيات ابن قنفذ ١٤٩؛ أعلام الجزائر ١٤٩؛ نيكل ٦١؛ الأعلام للزركلي ٦: ٣٢٩ (٩٨).

أبو مروان الجزيري

١- هو أبو مروانَ عبدُ الملكِ بنُ إدريسَ الأزدِيُّ الجريريُّ من أهلِ قُرطُبةَ، وَلاّه المنصورُ بنُ أبي عامرٍ الشُرطةَ ثمّ ولاّه ديوانَ الإنشاء (الوزارة). ويبدو أن أبا مروانَ الجزيريَّ كان يتجرّأُ على المنصورِ فكان المنصورُ يَسْجِنُه مرّةً بعدَ مرّةٍ. وقد سَجَنَهُ مرّة في برجِ طُرطوشَةَ ومرّةً في سجن الزاهرة. ثمّ ردّه بعدَ السجنِ إلى الوزارة.

وبَقِيَ أبو مروانَ الجزيريُّ في الوزارة إلى أيامِ المُظَفَّر بنِ المنصور. وغَضِبَ المظفَّرُ عليه فسجَنَه ثمّ قَتَلَهُ في السِجن، سَنَةَ ٣٩٤ (١٠٠٣- ١٠٠٤ م).

٢- أبو مروانَ الجزيريُّ كاتبٌ مُتَرَسِّلٌ وشاعرٌ مُكثِرٌ يُشَبَّهُ بمُحمّدِ بنِ عبدِ الملكِ الزيّاتِ[1] في البلاغة والعبقرية. وفنونُه المدحُ والعِتاب والوصف والحِكمة. وأكثرُ شِعره في المنصورِ بن أبي عامرٍ مديحاً أو في المناسبات.

٣- مختارات من آثاره

- قال أبو مروانَ الجزيريُّ يَصِفُ البَدْرَ في ليلةٍ فيها غيمٌ يَحْجِبُ البدرَ حيناً بعد حينٍ: ويخاطب المنصور:

أرى بَــدْرَ السماءِ يلوحُ حِينــاً فيَبْــدو ثمّ يَلْتَحِــفُ السَحابــا،
وذلـــك أنّــــه لمّـــا تَبَــدّى وأبْصَرَ وجْهَـك ٱسْتَحْيا وغابا!

---

(١) راجع الجزء الثاني (توفيّ ابن الزيّات سنة ٢٣٣).

- وقال وهُوَ في السِجن:

شَحِطَ المَزارُ، فلا مزارَ، ونافَرَتْ عيني الهُجوعَ فلا خيالٌ يَعْتري[١].
أزرى بَصبْري وهْوَ مشدودُ العُرى، وألانَ عُودي وهو صُلْبُ المَكْسِرِ[٢]،
وطوى سُروري كلَّـــهُ وتَلـــذّذي بالعيش طَيَّ صحيفةٍ لم تُنشَر.
هـــا إنّما أَلْقـــى الحَبيـــبَ توهُّماً بضميرِ تَذْكاري وعينِ تذكُّري.
عَجَبـاً لِقَلْـبي يومَ راعَتْـني النَّوى ودنـــا وَداعي كيفَ لم يَتَفَطَّر[٣]!

- وقال يُخاطِبُ المنصورَ بنَ أبي عامرٍ على لسانِ إحدى بناتِه وكان اسمَها بَنَفْسَجُ:

.... إذا تدافَعَتِ الخُصومُ- أيّدَ اللهُ مولانا المنصورَ- في مذاهِبِها وتنافرتْ في مفاخِرِها فإلَيْهِ مَفْزَعُها. وهو المَقْنَعُ في فَصْلِ القضيّةِ بينَها لاستيلائِه على المفاخر بأسْرِها وعلمِه بسِرّها وجَهْرِها. وقد ذهب البَهار والنَرْجِسُ[٤] في وصف محاسِنِها والفخر بمَشابِهِها كلَّ مذهبٍ. وما مِنْهما إلاّ ذو فضيلةٍ، غيرَ أنّ فَضْليَ عليهما أوضحُ من الشمس التي تَعْلونا وأعذبُ من الغَمام الذي يَسْقينا.

و (إذا) كانا قد تشبّها في شِعرِهما ببعض ما في العالَمِ من جواهرِ الأرضِ ومصابيحِ السماء، ....، فإنّي أتَشَبَّهُ بأحسنِ ما زيّنَ اللهُ به الإنسانَ وهُوَ الحَيَوانُ الناطِقُ، مَعَ أنّي أعطَرُ منهما عُطْراً وأحمَدُ خُبْراً، وأكرم إمتاعاً شاهِداً وغائباً ويانِعاً وذابلا. وكلاهُما لا يُمتِعُ إلاّ رَيْثَما يَيْنَعُ[٥]. ثمّ إذا ذَبَل تَسْتَكْرِهُ النفوسُ شَمّه وتستدفعُ الأكُفُّ ضَمّه. وأنا أُمْتِعُ يابساً ورَطْباً وتَدّخِرُني الملوكُ في خزائِنها وسائرُ (اقرأ:

---

(١) شحط (ابتعد). الهجوع: النوم. خيال: منام، طيف. يعتري (يأتي إليّ).

(٢) أزرى: عاب (أزرى بصبري: إنّ السجن جعل الناس يهزأون بي لأني ظهرت أمامهم ضعيفاً). مشدود العرى: قويّ.

(٣) راعتني أخافتني. النوى: البعاد. تفطّر: تقطّع.

(٤) البهار: النبت الأصفر اللون، والأزهار التي تظهر في الربيع. النرجس: زهر حقلي (برّي) أبيض البتلات أصفر الوسط (غير الأقحوان).

(٥) الامتاع: إدخال السرور على النفس. اليانع (في الأصل): الثمر إذا نضج.

جميع) الأطبّاءِ، وأُصَرَّفُ في منافعِ الأعضاء. فإنْ فَخَرا بأستقلالِها على ساقٍ هي أقوى مِنْ ساقي، فلا غَرْوَ أنّ الوَشْيَ ضعيفٌ والهوى لطيفٌ والمِسْكَ خفيفٌ. وليس المجدُ يُدْرَكُ بالصِراع..... (ثمّ) لِمَوْلانا أتمُّ الحُكْمِ في أن يَفْصِلَ (بينَنا) بِحُكمهِ العَدْل. وأقول:

شَهِـــدَتْ لِنُوّارِ البَنَفْسَجِ أَلْسُنٌ ... من لونـهِ الأحوى ومن إيناعه[1].

لِمَشابِـهِ الشَعر الأعمِّ أعـاره الـ ... ـقمرُ المنـيرُ الطَلْـقُ نورَ شُعاعه[2].

مَلِـكٌ جَهِلْنـا قبلَـه سُبُـلَ العُـلا ... حتّـى وَضَحْنَ بِنَهْجِـه وشِراعه[3].

في سَيْفِــهِ قِصَرٌ لِطولِ نِجــاده ... وتَمامِ ساعِده وفُسْحةِ باعه[4].

ذو هِمّـــةٍ كالــبرق في إسْراعــه ... وعزيمةٍ كالحَيْنِ في إيقاعه[5].

تَلْقى الزمـانَ لـه مُطيعـاً سامعاً ... وترى المُلوكَ الشُمَّ من أتباعـه[6]!

٤- * * جــذوة المقتبس ٢٦١ (الـدار المصرية) ٢٨٠ (رقم ٦٢٤)؛ بغيـة الملتمس ٣٦٢ - ٣٦٣ (رقم ١٠٥٨)؛ الذخيرة ٤: ٤٦ - ٥٢؛ الصلة ٣٢٩ - ٣٣٠؛ اعتاب الكتاب ١٩٣ - ١٩٦؛ نفح الطيب ١: ٥٢٩ - ٥٣٣، ٥٨٦ - ٥٨٨؛ الأعلام للزركلي ٤: ٣٠١ (١٥٦).

ابن أبي زَمَنِين

١ - هو أبو عبدِ اللهِ محمّدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عيسى الإلبيريُّ، وُلِدَ في إلبيرةَ في ذي الحِجّةِ من سَنَةِ ٣٢٤ (تشرين الأوّل - أكتوبر ٩٣٦ م).

---

(١) النوّار: الزهر. الأحوى: الأسمر (هنا: الأزرق القاتم).

(٢) مشابه جمع شبه (على غير قاعدة). الشعر الأعم (الوافر، الكثير)......

(٣) هذا البيت وما يليه في مدح المنصور بن أبي عامر (ولا صلة لها بوصف البنفسج). وضح: ظهر، بان. النهج: الطريق الواضح، الطريقة. الشراع (في القاموس) القلع (بالكسر) الذي تسير به المراكب. (لعلّه يقصد: ما شرعه الممدوح للناس).

(٤) سيفه قصير لأنّ ذراعه طويلة يصل بها إلى العدّو (ولو كان السيف نفسه قصيراً). النجاد: ما يحمل به السيف. لطول نجاده (كناية عن طول قامته).

(٥) الحين: الموت. الإيقاع: إنزال الأذى بالناس.

(٦) الأشمّ: العالي قصبة الأنف (وكان ذلك عندهم دليلاً عن النسب الملكي الصحيح).

درس ابنُ أبي زمنين الفقهَ والشعر في مدينة بيّانة. وكان فقيهاً مُقدّماً وزاهداً مُتبَتِّلاً يَلْحَقُهُ الخشوعُ إذا تلا القرآنَ أو سَمِعَه يُتْلى فتَسيلُ دموعُه على خدّيه.

تُوُفِّيَ أبو عبد الله بن أبي زمنين في إلبيرة، في ربيعٍ الثاني من سَنَةِ ٣٩٩ (كانون الأول- ديسمبر ١٠٠٨ م).

٢- ابنُ أبي زمنين فقيهٌ وزاهدٌ وشاعرٌ واعظٌ تَغْلِبُ على شِعْره نَفْحَةٌ دينيّة مَعَ شيء من التشاؤم، ويبدو أن شعره كان كثيراً مُتداوَلاً بين الناس. وكانتْ له تآليفُ منها: تفسير القرآن - أصول السنن - مُنْتَخَب الأحكام - قدوة الغازي - وغير هذه في الزهد والوعظ وأخبار الصالحين - المقرَّب في اختصار المدوَّنة - المُذْهَب في الفقه -

٣- مختارات من شعره

- لابن أبي زمنين هذه الأبيات في الزهد والوعظ:

الموتُ في كلّ حينٍ ينشُر الكفنا،	ونحن في غفلةٍ عمّا يُرادُ بنا.
لا تَطْمئِنَّ إلى الدنيا وبهجتِها	وإن توشّحْتَ من أثوابها الحَسَنا.
أيْنَ الأَحِبَّةُ والجيران، ما فعلوا؟	أين الذين هُمُ كانوا لنا سَكَنا؟
سقاهُمُ الدهر كأساً غيرَ صافيةٍ	فصيَّرتْهم لِأَطباق الثرى رُهُنا[1].
تبكي المنازلُ منهم كلَّ منسجمٍ	بالمَكْرُمات، وترثي البِرّ والمِنَنا[2].
حَسْبُ الحِمام، لو أبقاهم وأمهلهم،	ألاّ يَظُنَّ على مَعْلوّةٍ حسنا[3].

٤- * * جذوة المقتبس ٥٣ (الدار المصرية) ٥٦-٥٧ (رقم ٥٧)؛ بغية الملتمس ٧٧-٧٨

(١) رهن (بضمّتين) جمع رهن (بسكون الهاء). بين أطباق الثرى رهن: محبوسون بين طبقات الأرض (موتى).

(٢) منسجم بالمكرمات: كثير الكرم. المنسجم: (المطر أو الدمع) السائل، المنهمر. البر: الإحسان إلى الأقربين. المنّة: المعروف الذي يتبرّع الإنسان به لغيره (من غير استحقاق).

(٣) الحمام: الموت. المعلوّة: الأرض. «حسناً (في القافية) مكّررة، ولعلّها خطأ».

(رقم ١٦٠) مطمح الأنفس ٤٩ - ٥٠؛ الوافي بالوفيات ٣: ٣٢١؛ الديباج المذهب ٢٦٩- ٢٧١؛ أعمال الأعلام ٥٢؛ وفيات ابن قنفذ ٢٢٤- ٢٢٥؛ شذرات الذهب ٣: ١٥٦؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٦٩٤؛ بروكلمن ١: ٢٠٥، الملحق ١: ٣٣٥؛ نيكل ٤٦، مختارات نيكل ٤٣؛ الأعلام للزركلي ٧: ١٠١ (٣: ٢٢٧).

ابن القزّاز البربريّ

هو سعيدُ بنُ عُثمانَ بنِ سعيدِ بنِ محمّدِ بنِ سعيدِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ يوسفَ بنِ سعيدٍ البربريُّ، ويُعْرَفُ بابنِ القزّاز اللُّغويّ وبلِحْيَةِ الزِبْلِ، من أهلِ قُرطبةَ، وُلِدَ سَنَةَ ٣١٥ هـ (١١١٩ م).

رَوَى ابنُ القزّازِ البربريُّ عن قاسمِ بنِ أصبغَ ومحمّدِ بنِ محمّدِ بنِ عبدِ السلامِ الخُشَنِيِّ وأحمدَ بنِ بِشْرِ بنِ الأغبسِ وابنِ عبدِ البَرِّ صاحبِ التاريخ وسعيدِ بنِ فحلونٍ وأخذَ عن أبي عليٍّ القاليّ وصَحِبَهُ. وقد فُقِدَ في وَقْعة قنتيشَ، في نِصْفِ ربيعِ الأوّلِ من سَنَةِ ٤٠٠ (٦/ ١١/ ١٠٠٩ م).

وكان ابن القزّازِ البربريُّ من العُلماءِ في الحَديث،والفِقْهولكنّ براعتَه الأولى كانتْ في اللُّغة والنحو، «ومن طريقهِ صَحّتْ اللُّغةُ بالأندلسِ بعدَ أبي عليٍّ (القالي) ومن طريقِ ابنِ أبي الحبّاب وأبي بكرِ الزُبيدي» (الصلة ٢٠٦). وله كتابٌ في الردِّ على كتابِ «الفصوص» (في النوادر والغريب) لصاعد البغدادي اللغوي.

★ الصلة ٢٠٤- ٢٠٦ (رقم ٤٦٧)؛ جذوة المقتبس ٢١٥ (رقم ٤٧٥)؛ بغية الملتمس ٢٩٨ (رقم ٨٠٩)؛ إنباه الرواة ٢: ٤٤- ٤٧؛ بغية الوعاة٢٥٦؛بروكلمن، الملحق ١: ٥٣٩.

ابن شخيص القرطبي

١- هو أبو عبدِ اللهِ محمّدُ بنُ مُطرِّفٍ من أهلِ قُرطُبَةَ اتّصلَ بالمنصورِ بنِ أبي عامرٍ (ت ٣٩٢ هـ) ثمّ بابنهِ المُظَفَّرِ من بعدهِ وكان يجالِسُ المظفَّر. وماتَ قبلَ سَنَةِ ٤٠٠ هـ (١٠٠٩ م).

٢- كان ابن شُخيصِ القرطبيُّ «من أهلِ الأدب المشهورين ومن أعيان الشعراءِ المُقَدَّمين سالكاً في أساليبِ الجِدّ والهَزْل، وشعرُه كثيرٌ مشهور». وتجد له عدداً من المختارات[١] في كتاب التشبيهات للكَتّاني (ت ٤٢٠ هـ). ولابنِ شخيصٍ قصائدُ ومُقَطَّعاتٌ. وفنونُه الوصفُ والغَزَلُ والمدحُ والهجاء، وربّما نَحا نَحْوًا بدويّاً في مديحهِ ونحواً سوقِيًّا في هجائه.

٣- **مختارات من شعره**

- قال محمّد بن شخيص في الوصف:

كأنّ انْتِشارَ الطَلّ في الوردِ أدْمُعٌ ... تَبَدّى على زَهْرِ الخُدودِ انْتشارُها[٢].

كأنّ جَنِيَّ الأُقحُوانِ برَوْضِها ... ثُغورُ العَذارى حين راقَ اثّغارُها[٣]!

- وقال في الوصف أيضاً:

ولمّا امْترى في جَنّةِ الخُلْدِ بَعْضُهُمْ ... أقامَ لأبصارِ الجميعِ مِثالَها[٤].

فَلِلْعَيْنِ أنوارُ البساتينِ حَوْلَها، ... وللسمعِ تفجيرُ المياه خِلالَها[٥].

---

(١) اثنتا عشرة قطعة تجمع ستّة وأربعين بيتاً.

(٢) الطلّ: نقاط الماء التي تسقط في الصباح الباكر على الأغصان عادة.- كأنّ الورد خدود، وكأنّ الطلّ دموع.

(٣) الأقحوان زهر يتألف من دائرة صغيرة صفراء حولها بتلات بيض تشبه الأسنان الأمامية. الجني: الناضر (الزاهي اللون) الطريّ (الحديد). الأثّغار: بدء ظهور الأسنان (الأسنان الجديدة، وتكون صحيحة بيضاء مستوية، الخ).

(٤) لمّا شكّ قوم في شكل الجنّة (جهلوا صورتها ووصفها) أنشأ هو في الأرض شبهاً لها.

(٥) الأنوار جمع نور (بفتح النون): الزهر الأبيض.

كــأنّ يواقيتــاً أُذِيبــتْ فأُشْرِبَــتْ   سطوحُ المبــاني صِبْغَهــا وصِقالَهــا[1].

- وقال في النسيبِ (ويبدو أنّ الأبياتَ التالية والأبياتَ السابقةَ من قصيدةٍ واحدةٍ في المديح):

- وقال في تفضيلِ الوردِ لأنّه نَبْتٌ سَنَويٌّ (يأتي في أوائلِ فصلِ الربيع بعدَ أن تكونَ النفوسُ قدِ آشتاقتْ إليه) وتصغير شأنِ الآسِ لأنّه نُضارٌ (دائمُ الخُضرةِ، ولذلك يَمَلُّه الناسُ):

ومُعْتَلّـةِ الأجفـانِ مـا زِلْـتُ مُشْفِقاً   عليهــا، ولكنّي أَلَــذُّ آعتلالَهــا[2].
جفونٌ أجـــالَ الحُسنُ فيهنَّ فَتْرة   فحـلّ عُرى الآجالِ مُنْذُ أجالها[3].
فهـلْ من شفيعٍ عندَ ليلى إلى الكَرى،   لعلّي إذا مــا نِمْـتُ ألقى خَيالها.
يقولون لي: صبراً على مُطل وَعْدِها؛   ومـا وَعَـدَتْ ليـلى فأشكو مِطالها[4].
ومـا كـانَ ذنـبي غيرَ حِفظي عُهودَها   طيِّي هَواهــا وآحــتمالي دَلالهــا[5].

أرادَ الوَرْدُ بـــالآسِ انْتِقاصــاً   فقــال له[6]: نَقيصَتُــك المَـلالُ.
فقـــال الوردُ: لستُ أزورُ إلاّ   عـــلى شَوْقٍ كما زارَ الخَيــال[7].
وأنــتَ تُـديمُ تَثْقيــلاً طويــلاً   تـــدومُ بـــه كما رَسَتِ الجِبــال.
فتَسْأمُــك العيونُ لــذاك بُغْضــاً   وترقُبُـــني كما رُقِــبَ الهِـــلالُ[8]!

- وقال في الهجاء مع الهزء:

قِسْتُ بالشِعرِ مَعْشراً فـــإذا هم   صُوَرُ الإنْسِ في طِباع الحميرِ.

---

(١) انعكس لون الزهر على سطوح الابنية!!
(٢) معتلّة الأجفان: ناعسة العينين. ألذّ اعتلالها: أجد لذّة في نعس عينيها.
(٣) أجال الحسن فيهنّ فتره: جعل في عينيها كلتيهما فتره (فتوراً، نعساً). حلّ عرى الآجال (الأعمار): قصّر أعمار الناس.
(٤) المطل (بالضم) والمطال (بكسر الميم): المماطلة، تأخير الوفاء بالوعود بأعذار مختلفة.
(٥) طيّي (المصدرطيّ مضافا إلى الضمير المتصل (الياء) هواها: إخفائي حبّي لها عن الناس.
(٦) فقال الآس للورد.
(٧) الخيال: الطيف الذي يرى في المنام.
(٨) تسأم: تملّ. ترقبني: تنتظرني. كما رقب الهلال: كما ينتظر الناس هلال (العيد).

كُلّما جِئْتُهم . لأُنْشِدَ شِعري طَمَعـــاً من نَوالِهم باليسير[1]،
فكأنّي وَضَعْـــتُ فلكـــةَ بُوقٍ في فَمي أو ضَغَطْتُ أُنبوبَ كِيرِ[2]!

٤- ★ ★ جذوة المقتبس ٨٤ (الدار المصرية) ٩١ رقم ١٤٤؛ بغية الملتمس ١١٩ (رقم ٢٧٠)؛ نيكل ٤٣.

الطليق المروانيّ

١- هو أبو عبدِ الملكِ مَروانُ بنُ عبدِ الرحمنِ بنِ مروانَ بنِ عبدِ الرحمنِ الناصرِ، وُلِدَ في سَنَةِ ٣٥٠ هـ (٩٦١ م)، قُبيل وفاةِ عبدِ الرحمنِ الناصرِ. ونحنُ لا نَعْرِفُ من أحداث حياته إلاّ قِصّةَ سَجْنِه وما يتعلّق بها:

كان عبدُ الرحمن بنُ مروانَ قد ربّى مَعَ ابنهِ مَروانَ جاريةً ووعده بأنْ يُزوّجه إيّاها ثمّ اسْتأثرَ هو بها. ولَحِقَتْ مروانَ غَيْرةٌ- وكان قد أحبَّ الجارية- فقَتَل أباه. وكانت تلك الحادثةُ في أيامِ حِجابةِ المنصورِ بنِ أبي عامرٍ فسَجَنَ المنصورُ مروانَ في المُطبِق (وهو سِجْنٌ في مدينة الزهراء قرب قرطبة) وعُمُرُهُ آنذَاك نحو ستَّ عَشْرَةَ سَنَةً. وقد مكث مروانُ في سِجنه ستَّ عَشْرَةَ سَنَةً أيضاً أطلقه في نِهايتها المنصورُ بن أبي عامر لأنّ المنصور- فيما قيل- رأى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في المنام «يأمره أن يُطْلِقَه فأطْلَقَهُ». من أجلِ ذلك عُرِفَ مروانُ هذا بالطليق المرواني والطليق القُرَشي. وكان يُعْرَف أيضاً بلقب الشريف المرواني والشريف القرشي (لنسبهِ في البيت الأمويّ المالك في قرطبة). وتُوُفِّيَ الطليقُ المرواني نحو سَنَةِ ٤٠٠ هـ (١٠٠٩- ١٠١٠ م).

٢- كان الطليق المروانيّ أديباً وشاعراً، وهو في بني أُميّةَ كعبدِ الله بن المعتزّ في بني العبّاسِ «مَلاحةَ شِعْرٍ وحُسْنَ تَشْبيهٍ»؛ وقد نَظَم مُعْظَمَ شعرِه وَهُوَ في السِجن في فَتَياتِ شُقْرٍ. وله قصيدةٌ على رويّ القاف فريدةٌ في بابها.

٣- مختارات من شعره

- قال الطليق المرواني في الغزل والخمر ووصف الطبيعة:

(١) النوال: العطاء. اليسير: القليل.
(٢) فلكة (؟) البوق: آلة يزمّر بها. الكير منفاخ الحدّاد. سدّوا آذانهم (كيلا يسمعوا الصوت) وهربوا (كيلا تتّسخ أثوابهم).

غُصُنٌ يَهتزّ في دِعْصِ نَقَا   يَجتني منه فُؤادي حُرَقا[1].
أطلعَ الحسنُ لنا من وجههِ   قمراً ليس يُرى مُمَّحِقا[2].
ورنا عن طَرْفِ رِيمٍ أحْورٍ   لحظُه سهمٌ لقلبي فُوِّقا[3].
وتَناهى الحسنُ فيه- إنّما   يَحْسُنُ الغُصْنُ إذا ما أوْرقا[4].
رُبَّ كأسٍ ، قد كَسَتْ جِنْحَ الدُّجى   ثَوْبَ نُورٍ من سَناها يَقَقا[5]،
ظِلْتُ أسْقيها رشاً في طَرْفِهِ   سِنَةٌ تُورِثُ عَيْني أرَقا[6].
فكأنّ الكاسَ في أُنْمُلِه   صُفْرَةُ النَّرْجِسِ تعلو الوَرِقا[7]:
أصْبَحَت شَمْساً وفُوهُ مَغْرِباً   ويدُ الساقي المُحَيِّي مَشْرِقا.
فإذا ما غربتْ في فَمِهِ   تَرَكَتْ في الخَدِّ (منها) شَفَقا[8]!
وغَمامٍ هَطِلٍ شُؤبوبُه   نادمَ الرَّوْضَ فغَنّى وسقى[9]؛

(١) الدعص: قطعة من الرمل مستديرة (تلّة صغيرة، أو جانب من تلّة كبيرة). نقا: رمل أبيض.- كناية عن الجزء الأوسط من المحبوب!

(٢) القمر الممّحق: القمر حينما لا يكون له نور (في آخر الشهر).

(٣) رنا: تطلّع وأدام النظر. الطرف: طرف العين، النظر. الريم: الغزال الأبيض. الأحور: شديد بياض بياض العين وشديد سواد سوادها. فوّق السهم: صوّبه.

(٤) تناهى: (هنا) بلغ النهاية والغاية، كمل. يحسن الغصن إذا ما أورق: اكتسى بالورق (في الربيع). يقصد الشاعر أن محبوبه لمّا شبّ وظهر الشعر في وجهه أصبح أجمل من ذي قبل (تشبيهاً له بالغصن إذا أورق في الربيع).

(٥) الجنح (بكسر الجيم): الجانب. الدجى: الظلام، الليل. السنا: اللمعان. اليقق: الأبيض.- نور الخمر في الكأس ردّ الليل أبيض كأنّه نهار.

(٦) ظلت (بكسر الظاء) = ظللت (بكسر اللام الأولى): بقيت، استمررت. الرشأ: الظبي الصغير إذا قوي وبدأ يمشي مع أمّه. الطرف: العين. السنة (بكسر السين): النعاس (فتور العين دلالة على الحسن والإغراء). الارق: السهر (من شدّة الحبّ).

(٧) الانمل: أطراف الأصابع. «صفرة النرجس تعلو الورق» يمكن أن تمثّل صورتين (أ) كقلب النرجس الأصفر بين ورق (بفتح الراء) زهرة النرجس (بتلات الزهرة)، كناية عن إمساك الساقي بالكأس؛ أو (ب) كزهر النرجس الأصفر تحمله يد جميلة بيضاء كأنّها من ورق (بكسر الراء) أي من فضّة.

(٨) الشفق: اللون الأحمر الذي يبقى على الأفق بعد غياب الشمس.

(٩) الشؤبوب: الدفعة (بضم الدال) من المطر. الهطل: المتتابع مرّة بعد مرّة، الكثير الهطلان أو التهطال (السقوط والانهيار).- يقول: الغمام ينادم الروض: يسقي الروض من مائه ويغنّيه برعده.

فكـــأنّ الروضَ منـــه مُطْبِـقٌ، وكأنّ الهضب جانٍ أُطْبِقا[1].

خلَــع الــبرقُ عــلى أرجائــهِ ثوبَ وَشْيٍ منــه لَمّــا أبْرقــا.

وكـــأن العـــارِضَ الجَوْنَ بــهِ أدْهَمٌ طَــلّ عليــه بُلُقــا[2].

في ليــالٍ ظــلّ ساري نَجْمِهــا جائِراً لا يَستبِـينُ الطُرُقــا[3].

وَقَــدَ الــبرقُ لنــا مِصباحَهــا فَثنى جِنْحَ دُجاها مُشْرِقا[4].

وشَدا الرعــدُ حَنينــاً فجرَتْ أكْؤُسُ المُزْنِ عليــه غدَقــا[5].

فانْتَشى شُرْبــاً وأضحــى مائِــلاً مِثْلَ نَشْوانٍ وقد خرّ لَقَى[6].

وغــدتْ تَحنو لــه الشمسُ وقَدْ ألْحَفَتْــه من سَناهــا نُمْرُقا[7].

وكـــأنّ الوردَ يعلوه النَّــدى وجْنــةُ المعشوقِ تَنْدَى عَرَقــا!

- وقال في النسيب:

أقول ودمعي يَستهِــلّ ويَسفَــحُ وقد هاج في الصدر الغَليلُ المبرِّح:[8]

---

(١) (الصورة في البيت غير واضحة؛ والكلمات: مطبق، هضب، أطبقا ليس لها في القاموس معان تلائم استعمالها في هذا البيت). المطبق: السجن تحت الأرض. أطبق: سُجن.

(٢) العارض: الغيم المقبل يحمل مطراً. الجون (هنا): الأسود (لكثرة ما فيه من المطر). أدهم (فرس؟) أسود. طلّ عليه: أنزل على الروض طلاًّ (مطراً خفيفاً). بلقا جمع أبلق: فرس أبيض- الصورة غير واضحة. كأن الغيمة السوداء فرس أدهم (أسود) أحاطت به بُلق (خيل بيضاء)- غيوم بيضاء (؟).

(٣) ليلة شديدة السواد كثيرة المطر لا يستطيع فيها أحد أن يسير ولا النجوم أيضاً.

(٤) وقد: أوقد، أشعل، أضاء. ثنى: ردّ (جعل). ثنى جنح دجاها مشرقاً: جعل (البرق) جانباً من الليل مضيئاً.

(٥) غدقا: كثيراً. الغدق: الماء الكثير.

(٦) انتشت (سكرت) أغصان الروض (لكثرة ما سقط عليها من المطر- كأن هذا المطر خمر) فمالت كثيراً فأصبحت تشبه السكران الذي «خر» (سقط من كثر الشراب) لقى (مطروحاً على الأرض)».

(٧)- ثم حنت له (حنت عليه، عطفت) الشمس فأشرقت وألحفت الروض (غطّته بلحاف) من سناها (نورها) بنمرق (ببساط ملوّن).- في الغيم الكثيف يظهر كلّ شيء داكناً. أمّا في نور الشمس فيبدو كلّ شيء بلونه الطبيعي.

(٨) استهلّ: طلع، بدأ. يسفح: انصبّ، سال بكثرة. الغليل: الشوق إلى الماء، العطش، عطش الحبّ. المبرّح: الموجع، الشديد.

دعوني من الصبر الجميل فإنّني رأيتُ جميلَ الصبر في الحُبّ يَقْبُحُ.

لقد هيَّج الأَضحى لنفسي جوَى أَسًى كريهُ المنايا منه للنفس أَرْوَحُ[1].

كأَنَّ بعيني حَلْقَ كُلٍّ ذبيحة به، وبصدري قلبَها حين تُذْبَحُ[2].

فيا ليتَ شعري هل لمولايَ عطفةٌ يُداوَى بها منّي فؤاد مجرَّح؟

يَحِنُّ إلى البدر الذي فوق خدّه [مكانَ سوادِ البدر] وردٌ مفتَّح.

تقنَّع بدر التِمّ عند طلوعه مخافةَ أن يَسري إليه فيُفْضَح[3].

فقلتُ له: «يا بدرُ، أَسفرْ فقد غوى عليه رقيب للعدى ليسَ يبرح»[4].

لعمري لذاك البدرُ أَجملُ منظراً وأَحسنُ من بدر التَمام وأَملح.

٤ - ★ ★ جذوة المقتبس ٣٢١ ،(الدار المصرية) ٣٤٢-٣٤٣ (رقم ٧٩٩)؛ بغية الملتمس ٤٤٧ (رقم ١٣٤٣)؛ المغرب ١: ١٨٦ ١٨٧؛ المطرب ٧٢ وما بعد (وفيها استطراد)؛ الذخيرة ١: ٥٥٣ وما بعد؛ الحلّة السيراء ١: ٢٢٠- ٢٢٥؛ المنّ. بالإمامة ١٥٩- ١٦٤؛ نفح الطيب ٣: ٣٨٨- ٣٨٩، ٥٨٦- ٥٨٨؛ الأعلام للزركلي ٨: ٩٦ (٧: ٢٠٨)؛ نيكل ٦١- ٦٤، مختارات نيكل ٣٧- ٣٨.

عائشة بنت أحمد

١- هي عائشةُ بنتُ أحمدَ بنِ محمّدِ بنِ قادمٍ من أهلِ قرطبةَ لا نَعْرِفُ من أخبارِ

(١) الأضحى = عيد الأضحى. الجوى: الحرقة الشديدة. المرض المتطاول. الأسى: الحزن. جوى أسى (على الإضافة): حزن شديد طويل الأمد. أروح: أكثر راحة للنفس.- .... الموت الفظيع أسهل على الإنسان من هذا الحزن الناشىء من (بعاد) الحبيب.

(٢) حينما أرى الذبائح تذبح في عيد الأضحى (والحبيب بعيد عنّي) أشعر أن السكّين الذي يمر بحلقها (يذبحها) كأنّه يمر بي أنا (يذبحني أنا). كأنّ بصدري قلبها: أنا أشعر في الحبّ بما تشعر هي به عند الذبح.

(٣) بدر التِمّ (بكسر التاء) والتمام (بفتح التاء): البدر ليلة أربع عشرة. تقنّع: أرخى القناع على وجهه. سرى: سار ليلاً.- استتر البدر بالغيوم كيلاً يخرج محبوبي (إلى النزهة في ضوء القمر)، وحينئذ يظهر بدري (محبوبي) أجمل من بدر السماء.

(٤) أسفر: اكشف عن وجهك. غوى عليه رقيب للعدا: وضع أعدائي على حبيبي رقيباً قد غوى (ضلّ)، فهو يتشدّد في منعه من الخروج ليلاً ونهاراً. يبرح: يترك، يغادر (لا يترك مراقبة المحبوب).

حياتِها إلاّ أنّها كانت تمدَحُ الملوكَ (الرؤساءَ والأعيانَ) وأنّها عَشِقَتْ أحدَ أبناءِ المنصور ٱبنِ أبي عامرٍ (ت ٣٩٢ هـ)، وأنّها ماتت سَنَة ٤٠٠ هـ (١٠٠٩- ١٠١٠ م) عذراءَ لم تتزوّجْ قطٌّ.

٢- كانت عائشةُ بنتُ أحمدَ مِنْ أدقِّ الناسِ فَهْماً وأوْسَعِهِمْ عِلماً وكانتْ أديبةً شاعرةً ذاتَ فصاحةٍ، كما كانتْ حَسَنَةَ الخطِّ تكتُبُ المصاحفَ. وربّما ارتْجَلَتِ الشِعر.

٣- مختارات من شعرها

- دخلتْ عائشةُ بنتُ أحمدَ على المُظفّرِ بنِ المنصورِ بنِ أبي عامرٍ (ت ٣٩٩ هـ) وبينَ يَدَيْهِ ولدٌ فارْتَجَلَتْ:

أراكَ اللهُ فيـــه مـــا تريــدُ، ولا بَرِحَـــتْ مَعاليـــه تزيــدُ.
فسوفَ تراهُ بدْراً في سماءٍ من ٱلعَليـــا كواكِبُـــه الجنودُ.
وكيفَ يخيبُ شِبْلٌ قد نَمَتْهُ إلى العَليـــا ضَراغِمَـــةٌ أسودُ؟
فأنتم، آلَ عامرَ، خيرُ آلٍ: زكـا الأبنـاءُ منكم والجُدودُ[1].
وليدُكُمُ لَدى رأيٍ كشيخٍ وشَيْخُكُمُ لَـــدى حَربٍ وَليـــد.

- ولها قصيدةٌ وجْدانية مطْلَعُها:

لولا الدموعُ لَما خَشِيتُ عَـذولاً، فَهِيَ الـتي جعلتْ إليك سَبيلا[2].

٤- * * الصلة ٦٥٤؛ نفح الطيب ٤: ٢٩٠؛ تاريخ الفكر الأندلسي ٧٣؛ الأعلام للزركلي ٤: ٤ (٣: ٢٣٩- ٢٤٠).

السرقسطيّ المعافريّ

١- هو أبو عثمانَ سعيدُ بنُ محمّدٍ المُعافريُّ السَرَقُسْطيّ المعروفُ بابنِ الحدّادِ والملقّبُ

---

(١) زكا: طاب، صلح (بفتح اللام).

(٢) العذول: الذي يلوم الناس على أعمالهم.

بالحمار[1]، لعلّ مولدَه نحو ٣٤٠ هـ (٩٥١ م) في سَرَقُسْطة. ثمّ يبدو أنّه انتقلَ مَعَ أهله إلى قُرطبةَ ونشأ فيها وتلقّى العلم على جماعةٍ منهمُ ابنُ القوطية (ت ٣٦٧ هـ) فلازمه وأصبحَ أشهرَ تلاميذه، كما رَوى عن صاعدٍ الرَبَعيّ البَغْداديّ (ت ٤١٧ هـ). واسْتُشْهِدَ السَرَقُسطيُّ المُعافريُّ في قُرطبةَ في أيام الفِتنة (بعد ٤٠٠ هـ = ١٠٠٩ م).

كان السَرَقُسْطيُّ المُعافريُّ ذا اتّجاهٍ دينيّ حَمَلَه على التطوُّعِ في سبيلِ الله وهو في الستّين من عُمُرِه. وكان نحويًّا وأديباً، له «كتابُ الأفعال» - على غِرارِ كتابِ شيخهِ «كتاب الأفعال» - (ولكنّه بسطٌ له: مقدّمةٌ وتوضيحٌ وتوسيع!)، إلاّ أنّه اقتصر فيه على الغريب من الأفعال ومن معاني الأفعال، ولكنْ أكثَرَ فيه من الشواهد. وقدِ انتهى من تأليفه بعدَ وفاةِ ابن القوطية وقبلَ وفاتهِ هو بِبِضْعَ عَشْرَةَ سَنةً. وكتابُ السَرَقُسْطيّ المُعافريّ أتمُّ الكتبِ في موضوعه، إذ لم يقيّدِ المؤلّفُ فيه نفسَه بمذهبٍ معيّن، بل أوردَ آراءَ البَصْريّين كأبي زيدٍ (الأنصاري) والأصمعيّ وابنِ دُريدٍ وأبي حاتِمٍ (السِجِسْتاني) وآراءَ الكوفيّين كابنِ الأعرابيّ وابنِ السِكّيت وأبي عُبيدةَ (مَعْمَرِ ابنِ المُثنّى) إلى جانبِ آراءِ نفرٍ آخرينَ من النُحاة.

٤ - ★ ★ الصلة ٢٠٩ (رقم ٤٧٨)؛ فهرست ابن خير ٣٥٦، ٤٧٣؛ بروكلمن؛ بروكلمن، الملحق ١: ٢٠٣؛ الأعلام للزركلي (٣: ١٠١) - وفي هذه الترجمة تفاصيل أكثر ممّا نجد في هذه المصادر والمراجع المذكورة سقط منّي مواضع آخذها.

محمّد بن مغيث المغربي

١- هو محمّدُ بنُ مُغيثٍ المَغْربيُّ، وُلِدَ سَنَةَ ٣٥٢ هـ (٩٦٣ م) وكانت وفاتُه سَنَةَ ٤٠٢ هـ (١٠١٢ م) بعدَ مرضٍ أقْعَدَهُ، وقد بدا الهَرَمُ عَلَيْه.

٢- محمّدُ بنُ مُغيثٍ المَغْربيّ شاعرٌ مطبوعٌ مُرْسَلُ الكَلامِ مَليحُ الطريقةِ يَقَعُ على

(١) أبو عثمان سعيد بن محمّد بن الحدّاد الملقّب بالحمار هذا غير أبي عثمان سعيد بن محمّد بن الحدّاد من أهل الطبقة الثالثة من النحاة الاندلسيّين (طبقات الزبيدي ٢١٦؛ راجع بغية الوعاة ٢٥٧) وغير أبي عثمان سعيد بن محمّد القرطبي النحوي (راجع بغية الوعاة ٢٥٧) وغير سعيد بن فتحون السرقسطي الملقّب بالحمار (راجع نفح الطيب ٢: ١٧٥، ٥٠٢).

النُكَتِ ويُصيبُ (مواقع) الكلامِ ويُقيم (يُثير) حربَ الشعراء (العداوةَ بينَ الشعراء). وكان مُنْهَمِكاً في الخمرِ كثيرَ الهِجاء مُقْذِعاً، حَسَنَ التعليلِ في شِعْره.

٣- مختارات من شعره

- رُزِقَ أحدُ الرؤساءِ بِنْتاً فَحَزِنَ، فكتبَ إليه محمّدُ بنُ مُغيث:

لا تـأسَ إنْ رُحْتَ أباً لاَبْنَةٍ ... تَكْظِمُ أشجانــاً إلى كاظِمَـهْ[1]؛

فـــإنّ أبنـــاءَ نَبِيٍّ الهُــدى ... كُلُّهُمُ مِنْ وَلَدَيْ فاطمةْ[2]!

- جاء محمّدُ بنُ مُغيث إلى عبدِ المَجيد بن مُهَذَّبٍ فحَجَبَه (رفض عبد المجيد أن يستقبله) فقال محمّدُ بنُ مُغيثٍ يهجوه، وكان لعبدِ المجيد قُروحٌ في رأسِهِ يكرَهُ أن تَظْهَرَ كما كان له عبدٌ اسمُه سعيدٌ يُؤْثِرُه[3]:

زُرْتُ عبـدَ المجيـدِ زَوْرَةَ مُشْتا ... قٍ إليـه فصَـدَّ عنّي صُـدودا؛

فَكَأنّي أتَيْتُـــــــه أنزِعُ العِمْـ ... ـمَّةَ عن رأسِهِ وأخْصي سعيدا.

ابن الفَرَضيّ

١- هُوَ أبو الوليدِ عبدُ اللهِ بنُ محمّدِ بنِ يوسفَ بنِ نَصْرٍ الأَزْديّ القُرطُبيُّ، وُلِدَ في قرطبة، في ٢٣ من ذي القَعْدة من سَنَةِ ٣٥١ (٢٢/ ١٢/ ٩٦٢ م).

تلقّى ابنُ الفرضيّ العلم على كثيرين منهم في الأندلس يَحْيى بنُ مالكِ بن عائذٍ (ت ٣٧٦ هـ) ومحمّد بن يحيى بن الخرّاز.

وفي سَنَةِ ٣٨٢ هـ (٩٩٣ م) رَحَلَ ابن الفرضي من الأندلس فسمع في القيروان من ابن أبي زيدٍ القيرواني (ت ٣٨٦ هـ) ومن أبي الحسن القابسي (ت ٤٠٣ هـ). وسَمِع في مِصْرَ من أبي بكرٍ أحمدَ بنِ محمّدِ بنِ اسماعيلَ المهندسِ. وبما أن رِحْلَتَهُ إلى المَشْرق لم

---

(١) لا تأس: لا تحزن. تكظم: تردّ، تمنع، تحبس (تصبر على الغضب). الشجن (بفتح ففتح): الحزن. كاظمة (بلدة في الكويت تسمّى اليوم: الجهرة). تكظم أشجاناً إلى كاظمة (؟). (تزيد أحزان نفسك).

(٢) نبيّ الهدى: محمّد رسول الله. فاطمة ابنة محمّد رسول الله تزوّجها الإمام عليّ بن أبي طالب فجاءه منها الحسن والحسين. وجميع نسل رسول الله كان من الحسن والحسين ابني فاطمة.

(٣) يؤثره: يفضّله على غيره (والشاعر يتّهم عبد المجيد بالفاحشة).

تستَمرَّ سوى سنتينِ فقطْ (٣٨٢- ٣٨٤ هـ) فلا بدّ من أن يكون قد وصل إلى مَكّة في أواخر سَنَة ٣٨٢ هـ (في آخر عام ٩٩٢ أو أول عام ٩٩٣ م) فحجّ ثمّ سمع من أبي يعقوب يوسف بن أحمد بن الدخيل الصيدلانيّ المكّي.

وبعد أن عاد ابن الفرضي إلى الأندلس تقلّدَ القضاءَ في بَلَنْسِيَةَ، في أيام الخليفة محمّدِ المَهْديّ (٣٩٩- ٤٠٠ هـ). ثمّ إنّه انتقل إلى قرطبة. وفي قرطبة قُتِلَ ابنُ الفرضي في الفتنة، في السادس من شَوّالٍ من سَنَةِ ٤٠٣ (٢٠/ ٤/ ١٠١٣ م)، لمّا دخل البربرُ إلى قرطبة وأعادوا سُليانَ المستعينَ إلى سُدّة الخِلافة.

٢- أبو الوليدِ بنُ الفَرَضيّ مُحَدّثٌ بارعٌ في علوم الحديث وفقيه وخطيب وذو حظّ وافرٍ من الأدب. وهو أيضاً شاعر مقلّ- وعند ابن خلّكان (وفيات ٣ : ١٠٦) شاعر مكثر- وشعره لطيف تَغْلِبُ عليه العاطفة الدينية. غير أن شهرة ابن الفرضي إنّما هي في تآليفه التاريخية عرفنا منها: تاريخ العلماء والرُواة للعلم في الأندلس- تاريخ شعراء الأندلس- المؤتلف والمختلف في أسماء الرجال.

٣-مختارات من آثاره

- رَوَى ابنُ خِلّكانٍ لأبي الوليدِ بنِ الفرضي هذه المُناجاةَ (وفيات ١ : ٤٧٩):

أسيرُ الخَطايا عندَ بابِكَ واقفُ   على وَجَلٍ ممّا بِهِ أنتَ عارِفُ؛
يَخافُ ذُنوباً لم يَغِبْ عنك غَيْبُها   ويرجوكَ فيها، فهو راجٍ وخائف.
ومَنْ ذا الذي يَرْجو سِواكَ ويَتّقي؟   وما لَكَ في فَصْلِ القَضاء مُخالف.
فيا سَيِّدي، لا تُخْزِني في صَحيفتي،   إذا نُشِرَتْ- يومَ الحسابِ- الصَحائف!
وكُنْ مُؤْنِسي في ظُلْمةِ القَبْرِ عِنْدما   يَصُدُّ ذَوُو القُربى ويَجْفو المُؤالف.
لَئِنْ ضاق عنّي عَفْوُكَ الواسعُ الذي   أُرَجّي لإسرافي فإنّي لَتالِف!

- لمّا رَحَل ابن الفرضي عن الأندلس (٣٨٢ هـ) قال:

وما لي حياةٌ بَعْدَكم أستَلِذُّها؛   ولَوْ كان هذا لم أكن بعدَها حُرّا.
مَضَتْ لي شُهورٌ، مُنْذُ غِبْتُمْ، ثلاثةٌ؛   وما خِلْتُني أبْقى- إذا غِبْتُمُ- شهرا.

سأسْتَعْتِبُ الدهرَ المُفَرِّقَ بَيْنَنا. وهلْ نافعي إنْ صِرْتُ أستعتبُ الدهرا؟
أُعَلِّلُ نفسي بالمُنى في لِقائِكُمْ؛ وأَسْتَسْهِلُ البرّ الّذي جُبْتُ والبحرا.
ويُؤْنِسُني طَيُّ المَراحلِ بعدَكم: أروحُ على أرضٍ وأغدو على أُخرى.

- وقال في مقدّمة كتابه «تاريخ العلماء والرواة للعلم في الأندلس»:

هذا كتابٌ جمعناه في فُقهاء الأندلُس وعلمائِهم ورُواتِهم وأهلِ العِناية منهم مُلَخَّصاً على حروفِ المُعْجَمِ قصَدْنا فيه قَصْدَ الاختصارِ- إذ كانتْ نيّتُنا قديماً أن نُؤلّفَ في ذلك كتاباً مُوعِباً على المُدن يشتمل على الأخبار والحكايات، ثمّ عاقَتْ عوائقُ عن بلوغ المُرادِ فيه- فجمعنا هذا الكتابَ مُختصراً.

وغَرَضُنا فيه ذكرُ أسماءِ الرجالِ وكُناهم وأنسابِهم ومَنْ كان يَغْلِبُ عليه حِفظُ الرأي منهم، وَمَنْ كان الحديث والرِوايةُ أملكَ به وأغلبَ عليه، ومَنْ كانت له إلى المَشْرقِ رِحلةٌ، وعمّن رَوى ومَنْ أجلُّ مَنْ لَقِيَ، ومَنْ بَلَغَ منهم مبلغَ الأخذِ عنه ومن كان يُشاوَرُ في الأحكام ويُستفتى، ومَنْ وَلِيَ منهم خُطّةَ القضاء؛ ومِنَ المَوْلِدِ والوَفاةِ ما أمْكَنني على حَسْبِ ما قيّدتُه.....

٤-تاريخ علماء الأندلس (كوديرا)، مدريد ١٨٩٢ م= تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس، (عني بنشره وصحّحه ووقف على طبعه السيّد عزّت العطّارالحسيني)،القاهرة ١٣٧٣هـ=١٩٥٤م.

★ جذوة المقتبس ٢٣٧- ٢٣٩ (الدار المصرية) ٢٥٤- ٢٥٦ (رقم ٥٣٧)؛ بغية الملتمس ٣٢١- ٣٢٣ (رقم ٨٨٨)؛ المغرب ١: ١٠٣- ١٠٤؛ مطمح الأنفس ٥٧- ٥٨؛ الذخيرة ١: ٦١٤- ٦١٦؛ الصلة ١: ٢٤٦- ٢٥٠؛ وفيات الأعيان ٣: ١٠٥- ١٠٦؛ شذرات الذهب ٣: ١٦٨؛ نفح الطيب ٢: ١٢٩- ١٣٠؛ بروكلمن ١: ٤١٢، الملحق ١: ٥٧٨- ٥٧٩؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٧٦٢؛ الأعلام للزركلي ٤: ٢٦٥ (١٢١).

يوسف بن هرون الرماديّ

١- هو أبو عُمَرَ يوسفُ بنُ هرونَ الكِنْديُّ، وُلِدَ في قُرطبةَ، سَنَةَ ٣١٤ هـ (٩٢٦ م). وقد عُرِفَ بلَقَبِ الرَماديّ في مقابل «أبو جنيس» من الإسبانية الدارجة: cenisa (الرماد)؛ ويبدو أنّه لا صلة للقبه هذا ببلدة الرمادة في المغرب.

أخذَ الرماديُّ الأدبَ عن أبي بكرٍ يحيى بن هُذيل الكفيف (ت ٣٨٦ هـ) أحدِ علماءِ الأدبِ في الأندلس، ثمّ عُنِيَ بالفلسفة القديمة.

ولمّا دخل أبو عليٍّ القالي إلى الأندلس (٣٣٠ هـ = ٩٤٢ م) مدحه الرماديُّ بقصيدةٍ بارعةٍ، برُغم صِغَرِ سِنّهِ يومذاك.

وتكسّب الرماديُّ بالشِعر، وكان شاعرَ الحَكَمِ المُسْتَنْصِرِ (٣٥٠- ٣٦٦ هـ)، فَعَلَتْ منزلتُه. وكذلك قصد بشعرِه عَبدَ الرحمن بنَ محمّدٍ التُجيبيّ في سَرَقُسْطَةَ وفرحون بنَ عبدِ الله في شَنترينِ الغَرْبِ. غير أن أكثرَ اتّصالِه كان بالحاجبِ المنصورِ بن أبي عامرٍ (٣٦٦ - ٣٩٢هـ) ولكن لمّا وقعتِ المنافسةُ بينَ الحاجبِ المنصورِ والوزير جعفرِ آبنِ عثمانِ المُصْحَفي وَقَفَ الرماديُّ في جانبِ المُصْحفي. فلمّا تغلّب المنصورُ على المصحفي أمرَ بسَجنِ الرماديّ (٣٦٨ هـ = ٩٧٨ م) ثمّ عفا عنه (٣٧٦ هـ).

وكانت وفاةُ الرماديّ في ١٢ من ذي الحِجّة ٤٠٣ (٢٤/ ٦/ ١٠١٣ م).

٢- يوسفُ بنُ هرونَ الرماديُّ شاعرٌ وُجدانيّ مُكثِرٌ مشهورٌ عند الخاصّة والعامة لأنّه كان بارعاً في عدد من فنونِ الشعر التي تنفُقُ عند الفريقين. وفي شعرِه شيءٌ من الطَبْع وشيء من التَصْنيع والتكلُّفِ، وكان مُغْرَماً باستخراجِ الصور الشِعرية المستغرَبَةِ والمعاني المبتكرة؛ ومَعَ ذلك فقد كان سريعَ القولِ. وفنونُ الرماديّ المدحُ والهجاء والوصف والغَزَلانِ والمُجونُ والخمر. وهو يجري في الخمر على أثرِ أبي نُواسٍ. ولعلّ تطلُّبَه للصُوَرِ الشِعرية والمعاني المبتكرة هو الذي دعا أهلَ الأندلس إلى أن يُسمّوه «متنبّي الغربِ» (لقباً أُطلِق أيضاً على آبن هاني وابنِ درّاجٍ القَسْطلّي).

وللرمادي كتاب الطيرِ ألّفه في السجن.

٣- مختارات من شعره

- يبدأ ابن دِحْية (ت ٦٣٣ هـ) كتابَ «المُطرب من أشعار أهل المغرب» بالرماديّ ويقول: «أنشدَ مُقَدَّمُ شعراءِ الأندلسِ أبو عُمَرَ يوسفُ بنُ هارونَ الرماديُّ لنفسهِ:

وليلـــةٍ راقَبْــتُ فيهـا الهوى | عــلى رقيـبٍ غـيرِ وَسْنـانِ[1]،
والراحُ لا تَنْزِلُ عن راحـــتي، | وقتـاً، وعن راحـةِ نُدْمـاني[*]
وربَّ يومٍ قَيْظُـــه مُنْضِـــجٌ | كأنّـــــه أحْشاءُ ظَمْــــآن،
أبْرَزَ، في خَدّيْـــهِ، لِي رَشْحُـــه | طَــلاًّ عــلى وَرْدٍ وسَوْسان[2].
فُتِّحَـــتِ الجَنّـــة من جَيْبِــــه | فَبِـــتّ في دَعْوة رِضْوان[3]؛
مُروءةٌ في الحُـبّ تَنْهَـى بـأنْ | نُجاهِرَ اللّهَ بعِصْيـــــان!

- وقال في النسيب والخمر:

بَـدْرٌ بـدا يَحْمِلُ شَمْساً بَدَتْ، | وحَدُّها في الحُسْنِ من حَدّهِ[4]:
تَغْرُبُ في فيـــهِ، ولكنّهـــا | من بعـدِ ذا تطلُـعُ في خَـدّه!

- وقال في معذّبه (محبوبه الذي يعذّبه) يحاولُ أن يختار له محلاًّ يحفظه من كلّ سوء:

في أيِّ جارحةٍ، أَصونُ مُعَذِّبي، | سَلِمَتْ من التعذيب والتنكيل[5]؟
إن قُلتُ في بَصَري فثَمَّ مَدامعي؛ | أَو قلت في كَبِدي فثَمَّ غَليلي[6].
لكِنْ جَعَلتُ لـه المسامعَ موضعاً | وحجبتُها عن عَذْلِ كُلِّ عَذول.

- لمّا دَخَلَ أبو عليٍّ القالي إلى الأندلس (٣٣٠ هـ = ٩٤٢ م). مَدَحَهُ الرماديُّ بقصيدةٍ بارعةٍ، وكانَ الرماديُّ لا يزالُ حَدَثاً. قال:

---

(١) الوسنان: الذي يغالبه النعاس.
(*) الندمان (بالفتح: النديم الواحد: الذي يشارك في شرب الخمر). الندمان (بالضمّ: جمع نديم).
(٢) رشحه: عرقه. السوسن: (الورد) الأبيض. الطلّ: الندى. - لمّا علا العرق وجنتيه تداخل عليهما عرقه الأبيض ولونهما الأحمر.
(٣) الجيب: مدخل العنق في الثوب. رضوان: خازن الجنّة. - بتّ في دعوة رضوان (منعّماً مع حبيبي) من غير معصية (راجع البيت التالي).
(٤) بدر (كناية على الساقي الجميل) يحمل شمساً (كأساً من الخمر). حدّها من حدّه (صفاتها جميلة كصفاته).
(٥) الجارحة: العضو في الجسم (اليد، العين الخ).
(٦) الغليل: الحرّ (من الحبّ أو الحزن).

مَنْ حـاكِمٌ بَيْـني وبـين عَـذولي؟ الشَجْوُ شَجْوي والعَويل عويلي[1].

وبعدَ شيءٍ من الغَزَلِ والنسيبِ قال الرماديّ يوازِنُ بين الغَرْبِ (الأندلس) بعدَ وصولِ أبي عليٍّ القالي إليه والشرق بعدَ أن غادَرَهُ القالي (ويشبّه القالي بالروض):

رَوْضٌ تَعاهَـدَه السَحـاب كأنّـه مُتَعاهَـدٌ من عَهْـدِ إسماعيـلِ[2].
قِسْهُ إلى الأعرابِ تَعْلَمْ أنّـــه أولى من الأعراب بالتفضيـل[3]:
حــازَتْ قبائِلُهم لُغـاتٍ فُرِّقَـتْ فيهم؛ وحـازَ لُغاتِ كلِّ قَبيل[4].
فالشرقُ خــالٍ بعــدَه، فكأنّما نَزَلَ الخَرابُ برَبْعِـــهِ المأهول.
وكأنّــه شَمْسٌ بَــدَتْ في غَرْبِنـا وتَغَيَّبَـــــتْ عن شرقِهِمْ بأُفول[5].

٤- ★ ★ جذوة المقتبس ٣٤٦- ٣٤٩ (الدار المصرية) ٣٦٩- ٣٧٣ (رقم ٨٧٨)؛ بغية الملتمس ٤٧٨- ٤٨١ (رقم ١٤٥١)؛ المغرب ١: ٣٩٢- ٣٩٤؛ المطرب ٣- ٤؛ وفيات الأعيان ٧: ٢٢٥- ٢٢٩؛ معجم الأدباء ٢٠: ٦٢- ٦٤؛ مطمح الأنفس ٦٩- ٧٤؛ شذرات الذهب ٣: ١٧٠- ١٧٢؛ نفح الطيب ٣: ٧١- ٧٢، ٧٥، ٣٦٤- ٣٦٥؛ ٤: ٣٥- ٤٠، ٧٤؛ بروكلمن ١: ٣١٨- ٣١٩، الملحق ١: ٤٧٨؛ دائرة المعارف الإسلامية (ط ١) ٣: ١١١٣- ١١١٤؛ نيكل ٥٨- ٦٠، مختارات نيكل ٤١- ٤٣؛ الأعلام للزركلي ٩: ٣٣٦ (٨: ٢٥٥).

عبد الكريم النَّهْشَليُّ

١- هو أبو محمّدٍ عبدُ الكريم بنُ إبراهيمَ النهشليُّ، وُلِدَ في المَسيلة (المحمّدية) من بلادِ الزاب (في القطر الجزائري) ونشأ فيها.

---

(١) العذول: الذي يلوم المحبّ على شدّة حبّه للمحبوب. الشجو: الحزن. العويل: البكاء بصوت مرتفع.
(٢) تعاهده السحاب (استمرّ هطول المطر عليه). اسماعيل: أبو العرب. من عهد اسماعيل (منذ زمن بعيد جدًّا) كان هذا الممدوح يعرف اللغة العربية منذ عهد اسماعيل (هو عربي أصيل ونسبه قديم في العروبة). والممدوح (القالي) اسمه اسماعيل أيضاً.
(٣) الأعراب (البدو الذين ينطقون باللغة العربية الفصحى سليقة وسليمة صحيحة).
(٤) كلّ قبيلة (بدوية) تتقن لغة واحدة (لغتها). أمّا الممدوح (القالي) فإنّه يتقن لغات جميع القبائل.
(٥) الأفول: غياب الشمس وراء الأفق (في المساء).

في سنة ٣٤٥ هـ (٩٥٦- ٩٥٧ م) انتقل عبد الكريم النهشلي إلى القيروانِ، في أيامِ المعزّ لدينِ الله الفاطميّ (٣٤١- ٣٦٥ هـ)، ولَقِيَ فيها الشاعرَ ابنَ هاني والشاعر عليَّ بنَ الأياديّ وغيرَهما.

ويبدو أنّ عبدَ الكريم النهشليَّ دخل في خِدْمَةِ بني زِيري الصِّنْهاجِيِّين، مُنذُ أوائل عَهْدِهم بخَلْع دعوةِ الفاطميّين واستبدادِهم بالحُكْمِ في المَغْرب، فكانَ كاتباً لهم في ديوانِ الرسائل ثمّ نالَ عندهم حَظوةً وصَحِبَهم في حُروبهم في المغرب الأدنى والمغرب الأوسط، وكان يُنادمهم أيْضاً. وقد صَحِبَ منهم المنصورَ بنَ بُلُقّينَ (٣٧٣- ٣٨٦ هـ) وابنَه باديسَ (٣٨٦- ٤٠٦ هـ).

وكانتْ وفاةُ عبدِ الكريم النهشليّ في المَهْدية في الأغلب، سنة ٤٠٥ هـ (١٠١٣- ١٠١٤ م).

٢- كان عبدُ الكريم النهشليُّ عالماً في اللغة عارفاً بأيّام العرب وأشعارِهم، كاتباً مُترسِّلاً وأديباً ناقداً قديراً وشاعراً مُحسناً، قيل يُجيدُ القصائدَ الطِوالَ ولا يكادُ يصنَعُ مقطوعاً. ولكن لعلّه لم يُجاوِزْ في شِعرِه نظمَ خمسِ قِطَعٍ (العمدة ١: ١٦٣). وهو يذهب في شعرِه مذهبَ التَرْوِيَةِ (التفكير) ولا يرتجلُ أو يَبْتَدِهُ. وشعرُه الرثاء والوصف والخمر، ولم يقلْ في الهجاء اقْتداء بأستاذه عليٍّ بن الأيادي.

وله كتابُ «المُمتع» في علم الشعر وعمله وفي النقد على نَمَط كتاب الشِعر لِقُدامةَ ابنِ جعفرٍ وكتاب الصِناعتينِ لأبي هلالِ العسكريِّ. وعلى كتاب «الممتع» اعتمد ابنُ رَشيقِ القيروانيُّ (ت ٤٥٦ هـ) في كتابه «العُمدة في صِناعة الشعر ونقده»: في الموضوعاتِ وأسماء الأبواب، كما نَقَلَ منه فصولاً كاملة. ويبدو أنّه كان لعبد الكريم النهشليّ كتبٌ أخرى أيضاً لم تَصِلْ إلينا أسماؤها.

ويبدو أنّ قيمةَ كتابِ «المُمْتِعِ» إنّما هي في الجمع والتنظيم أكثَرَ منها في الابتكار. قَسَمَ الشعرَ أربعةَ أقسامٍ: مديحاً وهجواً وحِكمة ولَهْواً (غزلاً وخمراً). ثمّ عاد فَقَسَمَه من وجهٍ آخر فقال: من الشعر ما هو خيرٌ كلُّه (الزهدُ والوعظ والمثَل) ثمّ

ما هو ظَرْفٌ كلّه (النعوت والتشبيه وما يُفتَنُّ فيه من المعاني والآداب) ثمّ ما هو شرّ كلّه (الهجاء) ثمّ شعر التكسّب (مخاطبةُ كلٍّ إنسان من حيثُ هو والإتيان إليه من حيث فَهْمُهُ).

وعبد الكريم النهشلي يفضّلُ المعنى على اللفظ ثمّ هو يؤكّدُ أثَرَ البِيئة وأثرَ الزمنِ في مرتبة الشعر (يَحْسُنُ في بِيئةٍ أو في زمنٍ ما لا يحسُنُ في بيئةٍ أخرى أو في زمن آخَر).

٣-مختارات من آثاره

- قال عبد الكريم النهشليّ في الشكوى:

أواجــدةٌ وَجْــدي حَمامَــةُ أيْكَةٍ تَميـلُ بها مَيْلَ النَزيفِ غُصونُها[١]؟

نشاوى وما مالـتْ بخَمْرٍ رِقابُها، بواكٍ وما فاضتْ بدَمْعٍ عُيونها[٢].

أفيقي، حَماماتِ اللِّوَى، إنّ عندَنا لِشَجْواكِ أمثـالاً يعودُ حَنينُها[٣].

وكـلٌّ غريبِ الدارِ يدعو هُمومَه غَرائبَ محسوداً عليه شُجونُها[٤]!

- وقال عبد الكريم النهشلي (العمدة ١ : ١٠٧):

الكلامُ الجَزْلُ أغْنى عنِ المعاني اللطيفة مِنَ المعاني اللطيفةِ عنِ الكلام الجَزْل. قالَ بعضُ الحُذّاق: المَعنى مِثالٌ واللفظ حَذْوٌ. والحَذْوُ يَتْبَعُ المِثال ويتَغَيّرُ بتغَيُّرِه ويثبُتُ بثباتِه.

- في اختلاف الشعر بحسب الأمكنة والأزمنة (من كتاب « المُمْتِع »):

قد تختلفُ المَقاماتُ والأزمنةُ والبلاد فيحسُنُ في وقتٍ ما لا يحسنُ في آخَرَ،

---

(١) الوجد: شدّة الحبّ أو الحزن: الأيكة (مكان فيه شجر ملتفّ كثيف). النزيف: (هنا) السكران. الغصون تتمايل بهذه الحمامة بشدّة كما يتمايل السكران الشديد السكر في مشيه.

(٢) نشاوى جمع نشوى (سكرى، سكرانة). بواك جمع باكية.

(٣) اللوى: التلّة المستديرة من الرمل (ويكون عند سفحها ماء وشجر ؟) . الشجوى ليست في القاموس. والشاعر يقصد الشجو (الحزن). يعود (يرجع مرّة بعد مرّة) حنينها (صوتها الدالّ على حزنها).

(٤) كلّ غريب (عن داره وبلاده) يعتقد أن همومه غريبة (أعظم من هموم كلّ شخص آخر) مع أن أشخاصاً آخرين يحسدونه على تلك الهموم اليسيرة القليلة التافهة.

ويُستحسنُ عندَ أهلِ بلدٍ ما لا يُستحسنُ عندَ أهلِ غيرِه. ونَجدُ الشعراءَ الحُذّاقَ تُقابلُ كلَّ زمانٍ بما اسْتُجيدَ فيه وكَثُرَ استعمالُه عندَ أهلِه بعدُ، وإلاّ تَخرُجُ (اقرأ: خرجتْ) عن حُسنِ الاستواءِ وحدِّ الاعتدال وجَوْدةِ الصَنْعة. وربّما اسْتُعْمِلَتْ في بلدٍ ألفاظٌ لا تُستعملُ كثيراً في غيرِه، كاستعمالِ أهلِ البصرةِ بعضَ كلامِ أهلِ فارسَ في أشعارِهم ونوادرِ حكاياتِهم.

والذي أختارُه أنا التجريدُ والتحسينُ الذي يختارُه علماءُ الناسِ بالشِعر، ويبقى غابرُه على الدهرِ ويبعُدُ عن الوَحْشِيّ المُسْتَكْرَهِ ويرتفعُ عن المُوَلَّدِ المُنْتَحَل[1] ويتضمّنُ المَثَلَ السائرَ والتشبيهَ المُصيب والاستعارةَ الحَسَنة.....

الشعرُ أصنافٌ: فشعرٌ هو خيرٌ كلُّه، وذلك ما كان من بابِ الزُهد والمواعظِ الحَسَنة والمَثَل العائدِ على من تَمثَّل به بالخيرِ وما أشبَهَ ذلك؛ وشعرٌ هو ظَرْفٌ كلُّه، وذلك القولُ في الأوصافِ والنُعوتِ والتشبيه وما يُفْتَنُّ[2] به من المعاني والآداب؛ وشعرٌ هو شرٌّ كلُّه، وذلك الهجاءُ وما تَسَرّع به الشاعرُ إلى أعراضِ الناسِ؛ وشعرٌ يُكْتَسَبُ به، وذلك أن يَحْمِلَ (الشاعرُ) إلى كلِّ سوقٍ ما ينفُقُ فيها ويُخاطِبَ كلَّ إنسانٍ من حيثُ هو ويأتيَ إليه من جِهةِ فَهْمِه.....

٤- * * * العمدة لابن رشيق (في أماكن كثيرة مختلفة)؛ تاريخ النقد الأدبي عند العرب لاحسان عبّاس ٤٤٠- ٤٤٤؛ مجمل تاريخ الأدب التونسي ١١١- ١١٤؛ مجلّة الفكر (تونس) تموّز (جويليه) ١٩٥٩ م، ص ٥-٨.

عبد العزيز الخشني القيرواني

١- عبدُ العزيزِ بنُ أبي سهلٍ الخُشَنِيُّ الضريرُ القَيْروانيُّ النَحْويُّ المعروفُ بابنِ البقّال الضريرِ من أهلِ القيروانِ تَصَدَّرَ فيها لتعليمِ اللغة والنحو والأدب والشعر. وكان باديسُ بنُ المنصورِ بنِ بُلُكّينَ (٣٨٦- ٤٠٦ هـ) يحترمُه ويُكرِمه جدًّا. وقد تُوُفّيَ

---

(١) المولّد المنتحل (هنا): الكلام المأخوذ من لهجات غريبة ثمّ لم يجر آخذه في صوغه على مقاييس العرب.

(٢) افتنّ الرجل في القول: أتى بأفانين (بأنواع) منه مختلفة (وفاتنة: جميلة).

في السنةِ التي تُوُفِّي فيها باديسُ، سَنَةَ ٤٠٦ هـ (١٠١٥- ١٠١٦ م)، وقد أسنَّ جدًّا.

٢- كان عبدُ العزيز الخشنيُّ القيروانيُّ طَيِّبَ النفسِ كثيرَ الحياء عالماً في اللغة والنحو والأدب، وكان شاعراً مطبوعاً سَهْلَ الكلامِ لطيفَ التركيب قريبَ مآخِذِ المعاني. وفنونه الوصفُ والعِتاب والغَزَلُ والنسيبُ والحِكْمة.

٣- مختارات من شعره

- قال عبدُ العزيزِ الخُشنيُّ في العِتاب:

ولستُ كَمَنْ يَجْزي على الهَجْر مِثْلَهُ، ولكنّـني أزدادُ وصلاً على هَجْري.
ومـا ضَرّني إتـلافُ عُمْرِيَ كلّـهِ إذا نِلْتُ يوماً من لقائِكَ في عُمْري!

- أراد عبدُ اللهِ بنُ محمّدٍ الكاتبُ جَرَّ عبدِ العزيزِ الخُشنيِّ إلى دَعْوَى (إلى شهادةٍ في دَعْوَى يُجانبُ فيها العدلَ) فقال عبدُ العزيزِ يخاطبه:

لـكم عـليَّ وفـاءٌ مـا حَيِيتُ؛ ولا أغْـدو رِضاكم ولا أُرضي بهِ أحَدا.
لا تسألونيَ عن ديـني فأُسْخِطَكُمْ؛ لا بِعْـت دِيـني بدُنْياكم إذَنْ أبَدا!

- وقال في العِتاب والنسيب:

يـا غُصُنـاً غَضّـاً من الآسِ ودُرّةً وَهْيَ من النـــاسِ،
صَوّرك اللهُ عـــلى صورةٍ كانـتْ بهـا أسْبـابُ وَسْواسي.
ترديـدُ ذِكْري لـك في خاطري أكـــثرُ من ترديـــدِ أنفاسي.
نَسِيـــتَ وُدّي وتناسَيْتَـــني، وليسَ قلـــبي لـــك بالناسي.
وليسَ لي مِنْـــكَ سوى حَسرةٍ تَجُول بـــينَ الشَوْق واليـــاس.

٤-**انباه الرواة ٢: ١٧٨- ١٨٠؛ نكت الهميان ١٩٤- ١٩٥؛ بغية الوعاة ٣٠٨.

سليمان المستعين

١- هو أبو أيوبَ سُليمانُ بنُ الحَكَمِ بنِ سليمانَ بنِ عبدِ الرحمنِ الناصرِ، وُلِدَ سَنَةَ ٣٥٤ هـ (٩٦٥ م). ولمّا بَلَغَ سليمانُ أَشُدَّه كانتِ الأندلسُ قد تقسّمتْ بالفِتنة بينَ العربِ

والبربرِ خاصّةً. وكان البربرُ أنفسُهُمْ على جانبَيِ الفِتنةِ مَعَ المُتنازعين. فلمّا قُتِلَ مُحَمَّدٌ المَهْدِيُّ بنُ هِشامٍ بنِ عبدِ الجبّارِ بن عبدِ الرحمنِ الناصرِ، في سادس شوالٍ من سَنَةِ ٣٩٩ (١/ ٦/ ١٠٠٩ م) بايَعَ البربرُ سليمانَ بالخِلافةِ فتلقّب «المُسْتَعينَ»، ولكنّه لم يَسْتَطِعْ دُخولَ قُرْطُبَةَ إلاّ في ربيعٍ الأوّلِ (وقيل في ربيعٍ الثاني) من سَنَةِ ٤٠٠ (نحو تشرين الثاني- نوفمبر ١٠٠٩ م).

ثمّ إنّ سُليمانَ خَرَجَ بجموعِ أتباعهِ من البربرِ يجولُ في أقطارِ الأندلس للقضاء على خُصومه، فكان البربرُ الذين مَعَه يَخرِبون ويقتُلون ويُدَمِّرون. وفي شوّالٍ من سَنَةِ ٤٠٣ (ربيعٍ ١٠١٣ م) دخَلَ قرطبةَ ثانيةً فاتّخذ لقباً ثانياً هو «الظافرُ بحول الله».

وكان مَعَ المُستعين رجلٌ من نسلِ الأدارسة يُقالُ له عَلِيُّ بنُ حمّودٍ فولاّه المُستعينُ على سَبْتَةَ وطنجةَ في العُدوةِ الإفريقية (المغرب). ولكنّ عليَّ بنَ حمّودٍ كان يطمَحُ إلى ما فوق الوِلاية فثارَ على المُستعينِ ثمّ سارَ إلى الأندلس ودَخَلَ قُرطبةَ وقتل سُليمانَ لِثَماني لَيالٍ (أو تسعٍ) بَقِينَ من المُحرَّم من سَنَةِ ٤٠٧ (١٧ أو ١٨/ ٦/ ١٠١٦ م).

٢- كانَ سُليمانُ المُستعينُ أديباً فصيحاً وشاعراً مُكثِراً له رسائلُ وقصائدُ في فنونٍ كثيرة.

٣- مختارات من شعره

- قال سليمانُ المستعينُ في الفَخْر:

عَجَباً! يَهابُ اللَّيْثُ حَدَّ سِناني، ... وأهابُ لحظَ فواتِرِ الأجفانِ[١].

وأُقارِعُ الأهوالَ لا مُتَهَيِّباً ... منها سوى الإعراضِ والهِجْرانِ[٢].

وتَمَلَّكَتْ نفسي ثَلاثٌ كالدُّمى ... زُهْرُ الوجوهِ نواعِمُ الأبدانِ[٣].

---

(١) السنان: حديدة جارحة في رأس الرمح. فواتر الأجفان(ناعسات العيون: من صفات الجمال) كناية عن النساء الجميلات.

(٢) أنا أكافح جميع أهوال الحياة، ولكن أضعف (أعجز- بكسر الجيم) إذا أعرضت عنّي (هجرتني) النساء الجميلات.

(٣) ثلاث (ثلاث نساء). الدمية: الصورة الجميلة. أزهر: أبيض.

ككواكـــبِ الظَّلْماءِ لُحْنَ لِناظِرٍ   من فوقِ أغصانٍ على كُثْبانِ[1].
هـذي الهِلالُ ، وتلكَ بِنتُ المُشتري   حُسْناً ، وهذي أُخْتُ غُصْنِ البانِ[2].
حاكَمتُ فِيهنَّ السُّلُوَّ إلى الصِبا   فقضى بسُلْطانٍ على سُلْطانِ[3].
فأبَحْنَ مِنْ قلبي الحِمى وثَنَيْنَني   في عِزِّ مُلْكي كالأسيرِ العاني[4].
لا تَعْذِلوا مَلِكاً تَذَلَّلَ لِلْهَوى؛   ذُلُّ الهوى عِزٌّ ومُلْكٌ ثانِ.
مـا ضَرَّ أنّي عبدُهُنّ صَبابةً   وبنو الزمانِ وهُنّ من عِبْداني!
إنْ لم أُطِعْ فيهنّ سُلطانَ الهوى   كَلَفاً بِهِنّ فلستُ من مَرْوانِ[5]

٤- ★ ★ جذوة المقتبس ١٩- ٢١ (الدار المصرية) ١٩-٢٢؛ بغية الملتمس ٢١-٢٢؛ المعجب ٤٢- ٤٥؛ الحلّة السيراء ٢: ٥- ١٢؛ البيان المغرب ٣: ٩١ وما بعد إلى ١٢٠؛ فوات الوفيات ١: ٢٢٣- ٢٢٤؛ الذخيرة ١: ٣٥- ٤٨ الخ؛ نفح الطيب ١: ٤٢٨- ٤٣١؛ الأعلام للزركلي ٣: ١٨٤- ١٨٥ (١٢٣).

أبو الحسن الكاتبُ المغربيّ

١- هُوَ أبو الحسنِ (أو الحسين) محمّدُ بنُ إسماعيلَ بنِ اسحاقَ، وُلِدَ في القَيْروانِ سَنَةَ ٣٣٤ هـ (٩٤٥- ٩٤٦ م) في بَيْتِ رِئاسةٍ وكِتابةٍ ووَجاهةٍ وشِعْرٍ. وكانتْ وفاتُه سَنَةَ ٤٠٨ هـ (١٠١٧- ١٠١٨ م).

---

(١) لحن (لجماعة الإناث الغائبات من «لاح» ظهر، بدا). الغصن كناية عن القوام المشوق. الكثيب: الجانب المستدير من الرمل (كناية عن أوسط الجسم)- القمر (أو الكوكب) الأبيض المشرق فوق الغصن (القامة المشوقة) فوق الكثيب (وسط الجسم الممتلىء) من أوصاف المرأة الجميلة.

(٢) المشتري: كوكب يدور حول الشمس. غصن البان: غصن مستقيم تشبّه به القامة المشوقة الجميلة.

(٣) السلوّ: النسيان. الصبا: الشباب. بسلطان: بقوّة (بقوّة الشباب). على سلطان: ملك (خليفة).- جعلت الصبا حكمًا أستشيره في نسيانهن أو الاستمرار في حبّهن، فحكم الصبا عليّ (وأنا سلطان، ملك، خليفة) بأن أستمر في حبّهن.

(٤) أباح الشيء: مكّن منه جميع الناس. الحمى: ما تجب حمايته من مسكن أو شرف الخ. ثناه: ردّه. العاني: الذليل (وتستعمل عادة للأسير).- هؤلاء النسوة الثلاث استولين على قلبي (إرادتي) وجعلنني (وأنا ملك في أوج القوّة) أسيراً ذليلاً لهنّ.

(٥) كلفا بهنّ: محبًّا لهنّ شديد التعلّق بهنّ. لست من مروان: لست من بني مروان... (!).

٢- كان أبو الحسنِ الكاتبُ المغربيُّ حَسَنَ الشعرِ في الوصفِ والمَدْح والغَزَل مَعَ التصنيع أحياناً.

٣- مختارات من شعره

- قال أبو الحسن الكاتبُ المغربيُّ يَصِفَ المَوْجَ:

انْظُرْ إلى البحرِ وأمواجِـــهِ   فَقَـدْ علاهـا زَبَـدٌ مُتَّسِقْ؛
تَخالُهـا العـينُ إذا أقْبلَـتْ   خَيْـلاً بَدَتْ في حَلْبةٍ تَسْتَبِقْ،
حُمْراً ودُهْماً؛ فـإذا مـا دَنَـتْ   من شاطىءِ البحرِ عَلاها بَلَقْ[1].

- وقال يَمْدَحُ مُحمّدَ بنَ أبي العَرَبِ (ت ٣٩٦ هـ). وكان ابنُ أبيِ العربِ والياً على إفريقِيَةَ (تونس) مُنْذُ سَنَةِ (٣٨٢ هـ):

سأشكُرُ نُعماكَ التي انْبَسَطَتْ بِها   يَدي ولِساني فهْو بالمَجْدِ يَنْطِقُ؛
وأُثْني لِما أوْلَيْتَني مِنْ صَنيعةٍ   ومن مِنّةٍ تغدو عليّ وتَطْرُقُ[2].
وكلُّ امرىءٍ يرجو نَداكَ مُوَفَّقٌ،   وكلّ امرىءٍ يُثْني عليك مُصَدَّقُ.

- وقال في الغزل:

أَبَرْقٌ سَرى أمْ وَجْهُ ليلى تَبَلّجا   فَشَقَّ بأيْدي النُورِ أقْمِصَةَ الدُجا[3]؟
لَئِنْ بَيَّنَتْ بالبَيْنِ وَجْداً لقلبهِ   أثار جَوًى هِجْرانُها مُتأجِّجا،[4]
فما صَدَّعَـتَ إلاّ حَشاً مُتَصَدِّعاً   ولا هَيَّجَتْ إلاّ فُؤاداً مُهَيَّجا.
تُريكَ الشَقيقَ الغَضَّ منها مَحاجِراً   مُكَحَّلَةً منها، وخَدّاً مُضَرَّجا[5].

---

(١) الأدهم: الأسود. البلق: البياض (إذا ركضت الخيل تراكم على جسمها عرق أبيض). واذا اقتربت الأمواج العالية من الشاطىء بدت بيضاء (لاختلاط مائها بالهواء).

(٢) تطرق: تطلع عليّ، تأتيني.

(٣) تبلّج الصبح: أضاء.

(٤) البين: الفراق، البعاد. الوجد: شدّة الحبّ. الجوى: ألم الحبّ.

(٥) عيناها تشبهان شقائق النعمان (من حيث السعة لا من حيث اللون). ولكنّها مكحّلتان بسواد (يشبه البقع السوداء الموجودة على بتلات الشقائق الحمراء). مضرّج: أحمر (من التلطّخ بالدم).

وتحسَبُ نَورَ الأُقْحُوانِ إذا بـدا - وكفُّ الحيا يَجْلوه- ثَغراً مُفَلَّجا[1].
كـأنّ دنانـيراً بـه ودَراهماً نُثِرْنَ عليها مُفْرَداً ومُزَوّجا.

٤- * * الأنموذج (السنوسي) ١١٧- ١٢١؛ الوافي بالوفيات، ٢: ٢١٤- ٢١٦.

مريم الشلبية

١- هي الحاجّةُ مريمُ بنتُ أبي يعقوبَ الفصولي[2] أصلُها من شِلْبَ، ولكنّها سكنتْ إشْبيلية وكانت لها في إشبيلية شهرةٌ. وقد كانتْ تُعَلِّمُ النساءَ. وأسَنّتْ مريمُ كثيراً وماتَتْ بعدَ سَنَةِ ٤٠٠ (١٠١٠م) بأمَدٍ.

٢- كانت مريمُ الشِلبيةُ أديبةً شاعرةً جَزْلَةَ الشِعرِ مشهورة؛ وفي تراكيبها شيء من الضّعف.

٣- مختارات من شعرها

- بعث ابنُ المُهَنَّدِ[3] إلى مريم الشلبية بدنانيرَ وكتب إليها مَعَ هذه الدنانيرِ بأبياتٍ مطلَعُها: «ما لي بشكر الذي أوْلَيْتِ من قِبَلِ[2ب]»، فكتبتْ إليه:

من ذا يُجاريكَ في قولٍ وفي عملٍ وقد بَدَرْتَ إلى فضلٍ ولم تُسَلِ[4]؟
مـا لي بشُكرِ الذي نظّمتَ في عُنُقي من الـلآلي ومـا أَوْلَيْتَ من قُبُلِ[5].
حَلّيْتَـني بِحُلًى أصبَحْتُ زاهيـةً بها على كلّ أنثَى من حُلًى عُطُلِ[6].

---

(١) ثغر مفلّج: فم أسنانه مفترق بعضها عن بعض. تريك (هي) الشقيق (مفعول به أول) محاجر (مفعول به ثان).
(٢) في «بغية الملتمس» الفصولي (بفتح الفاء والصاد) وفي غير بضمّ الفاء وفتح الصاد.
(٣) في نفح الطيب «المهدي» (وهو في الأغلب خطأ- راجع البيت الأخير).
(٢ ب) من قبل (بكسر وفتح): طاقة، قدرة.
(٤) بدر: سبق. لم تسل: لم تسأل (بالبناء للمجهول).
(٥) من قبل (بضمّ فضم) من قبل (يبدو أنّ ابن المهنّد كان قد أحسن إليها مراراً قبل ذلك).
(٦) العطل (بضم فضمّ): العاطل (المرأة الجميلة جمالاً طبيعيًّا فتستغني عن التزيُّن بالحلى).

لِلـهِ أخلاقُـك الغُرُّ الـتي سُقِيَـتْ ... مـاءَ الفُراتِ فرَقَّتْ رِقّةَ الغزَل.
أشْبَهْتَ في الشعرِ من غارَتْ بدائِعهُ ... وأنْجَدَتْ وغَدَتْ من أحسنِ المَثَل[1].
من كـان والدُه العَضْبَ المُهنَّدَ لم ... يَلِدْ من النَسْلِ غيرَ البِيض والأسَل[2]

- وقالت لمّا أسَنّتْ وبَلَغت سَبْعاً وسبعينَ سَنَةً:

وما يُرْتَجى من بنتِ سَبعينَ حِجّةً ... وسبعٍ كنسجِ العَنكبوتِ المُهَلْهَلِ[3]
تَدِبُّ دبيبَ الطِفلِ تسعى إلى العصا ... وتمشي بها مَشْيَ الأسيرِ المُكبَّلِ[4]

٤- ★ ★ جذوة المقتبس ٣٨٨ (الدار المصرية) ٤١٢-٤١٣ (رقم ٩٨٦)؛ بغية الملتمس ٥٢٨- ٥٢٩ (رقم ١٥٨٤)؛ الصلة ٥٦ - ٥٧ (رقم ١٥٣٧)؛ نفح الطيب ٤: ٢٩١؛ الأعلام للزركلي ٨: ٩٩ (٧: ٢١٠).

القزّاز النحويّ القيروانيّ

١- هو أبو عبدِ اللهِ محمّدُ بنُ جعفرٍ التَميميُّ النحويُّ القَيْروانيّ المشهورُ بالقزّاز القَيْروانيّ[5]، وُلِدَ في القَيروانِ نحوَ سَنَةِ ٣٢١ هـ (٩٣٢ م).

رَحَلَ القزّازُ القَيْروانيّ إلى المَشْرِقِ فنزَلَ في مِصْرَ ودخل في خدمة العزيز الفاطميّ (٣٦٥- ٣٨٦ هـ) وألّف له كتابَ «الجامع» في اللغة. وحَجّ القزّازُ القيروانيُّ ثمّ زارَ العِراق ولَقِيَ الحَسَنَ بنَ بِشْرٍ الآمديَّ (ت ٣٧٠ هـ) صاحبَ كتابِ «المُوازنة بين أبي تمّامٍ والبُحتري». ثمّ إنّه عادَ إلى القَيْروان وتَصدّرَ فيها للتعليم. وكانتْ وفاتُه في

---

(١) بدائعه: أبيات شعره البديعة. غارت: نزلت إلى الغور (بفتح الغين المعجمة: الأرض المنخفضة). أنجدت: صعدت إلى نجد (المكان المرتفع)- أشعاره اشتهرت في كلّ مكان.

(٢) العضب: السيف القاطع. المهنّد: السيف من صنع الهند. البيض: السيوف. الأسل: الرماح (يلد البيض والأسل: يلد الشجعان).

(٣) المهلهل: الرقيق (الضعيف).

(٤) المكبّل: المقيّد.

(٥) يرى المنجي الكعبي أن لقب القزّاز أضيف إلى اسم أبي عبد الله محمّد بن جعفر التميميّ، وأن هذا الرجل لا يعرف لا بالقزّاز ولا بابن القزّاز، ومع ذلك فقد ألّف المنجي الكعبي كتاباً عن هذا الرجل وسمّي الكتاب «القزّاز القيرواني» (راجع المصادر والمراجع) وراجع القزّاز القيرواني للمنجي الكعبي (ص ٨- ١٥).

القَيْروانِ سَنَةَ ٤١٢ هـ (١٠٢١- ١٠٢٢ م).

٢- القزّازُ النحويُّ القيروانيُّ شيخ القيروان في العربية، أي النحوَ (راجع نفح الطيب ٢ : ١١٠) أديبٌ مشهورٌ ناثرٌ شاعرٌ مُجيدٌ مطبوعٌ مصنوعٌ (معجم الأدباء ١٨ : ١٠٧)، وهُوَ أيضاً لغويٌّ نَحْويّ. والشعرُ الباقي لنا من القزّازِ القيروانيّ مقطّعاتٌ وُجدانيةٌ تمتازُ بالسَلاسة والسُهولة. ثمّ هو ناقدٌ أيضاً. وتصانيفُ القزّازِ القيرواني[1] كثيرةٌ: كتابُ الحروف- إعراب (القصيدة) الدُرَيْديّة وشرحها- كتاب المعترض- كتاب المفترق- ما يجوزُ للشاعر في الضرورة- الجامع في اللغة (وهو كتاب واسعٌ جدًّا في اللغة مرتّب على حروف المعجم)- المُثَلّث (المثلّث أو المثلّثات لفظة ثلاثية ساكنة الوسط يأتي أوّلُها مفتوحاً ومكسوراً ومضموماً ثمّ يختلف معنى هذه اللفظة باختلافِ حَرَكة أوّلها)- كتاب فيه ذكرُ شيء من الحُلَى (الصِفات الجِسمية كاللون والقدّ وصفات الأعضاء وذكر العيوب الجسمية، وربّما ذُكِرَ النَسَبُ: نحو: روميّ، إفرنجيّ، تُركيّ، بربريّ حينما تدلّ هذه الصفاتُ على خصائصَ جسديةٍ بارزة)- كتاب العَشَرات (ذكر القزّاز الألفاظ التي تبلغ معاني اللفظة الواحدة منها عَشْرةَ معانٍ مختلفة أو تزيدُ على عشرة)- كتاب المِئات (وَعَدَ القزّاز بتأليفه، ولا نعلم إذا كان قد ألّفه)- كتاب الظاء أو كتاب الضاد والظاء (الكلمات التي يستوي معناها إذا كُتبت مبدوءة بضادٍ أو بظاء!)- الكلمات المشاكلة الصور- كتاب التعريض والتصريح (مجموع حكاياتٍ فيها تعريضٌ ظاهر من الأجوبة المفحمة)- شرح رسالة البلاغة (وهو كتاب كبير)- ما أُخِذَ على المتنبيّ من اللحن والخطأ- أبياتُ معانٍ من شعر المتنبيّ- معاني الشعر- شرح رسالة الشيخ أبي جعفرٍ العَدَويّ- أدبُ السلطان والتأدّب له.

٣- مختارات من آثاره

- من مقدّمة كتاب العشرات:

.... أمّا بعدُ- جَعَلَ الله الشيخَ الرئيسَ أبا عبدِ اللهِ محمّدَ بنَ أبي العَرَبِ الكاتبَ، أطالَ اللهُ بقاءه وأدامَ عزَّه ونَعْماءه- .... فقد اتّصل بي ما ذَكَرَهُ من كتابِ العَشَرات

---

(١) راجع «القزّاز القيرواني للمنجي الكعبي، ص ٤٤ وما بعدها.

لأبي عمرٍ وعمرو ومُحمّدِ بن عبدِ الواحدِ المعروفِ بالزاهدِ فَرَغِبْتُ في ما رَغِبَ فيه، ومِلْتُ إلى النَظَرِ في ما مالَ إليه رغبةً (في) أن أؤلّف كتاباً في معناه أُؤَدّي به بعضَ ما يَلْزَمُني من حَقّه راجياً أن يَقَعَ في التأليفِ بموافقته. ورأيتُ أبا عمرٍو قد أخذَ في بابٍ من العلم مُتّسعٍ (ثمّ هو) يَسْلُكُ طريقاً في التأليف غيرَ مُمْتَنع: يَجِدُ المؤلّفُ فيه من المِئاتِ ما وَجَدَهُ أبو عمرٍو من العَشَرات. ولستُ أقْصِدُ به وجودَ ما ذَكَرْناه من المِئاتِ في أبوابِ ما صَنَّفَه من العَشَرات، غيرَ أنّا لا نَدْري ما السببُ المانعُ من تكثيره، وما العائقُ القاصرُ عن يَسيره. فأرَدْنا أن نأتِيَ في أبوابهِ على حدٍّ ما رَسَمَ في كتابهِ من المِئات بأضعافِ ما جِئْنا به من العَشَرات. ثمّ عَلِمْنا مَعَ ذلك أنّا لو تَكَلّفناه وجِئْنا به على ما ذَكَرْناه لَما كان غريباً في التأليف ولا مُسْتَظْرَفاً من التصنيف، إذ كان الكلامُ كلُّه لا يخرُجُ عن ثلاثةِ أقسامٍ: مَعانٍ مُفْتَرِقاتٍ يُعَبَّرُ عنها بألفاظٍ مُختلفاتٍ، كقولِ أبي عمرٍو: «المَثْع مِشْيةٌ قبيحة، والمنع السَرَطان، والمَتْع الطُول» وأشباه ذلك.... ومعانٍ متّفقاتٍ يُعَبَّرُ عنها بألفاظٍ مُتّفقاتٍ، وهذا الباب قليلُ التأليفِ، مِثْلُه غريبٌ؛ فألّفنا ما وَجَدْنا فيه من العَشَرات إلى ما يَزيدُ عليها وسَمّيناه منها. وخَشِينا أن يُتَوَهَّمَ علينا تَقصيرٌ في ما ضَمِنّاه من المِئاتِ في ما أتى به أبو عمرٍو من العَشَرات، فقَدّمْنا أمامَ ما قَصَدْناه باباً نَدلّ به على القُدْرة على ما ضَمِنّاه مُبَوَّباً على بابٍ من كتاب أبي عمرٍو موجودٍ لِيُعْلَمَ قَدْرُ الزِيادةِ عليه ويُوجَدَ ما ضَمِنّاهُ فيه. فمن قولِ أبي عمرٍو: «المَثْع مِشْية قبيحة، والوَدْع المقبرة، والمنع السَرَطان، والسَطْع الأخذ، والكَبْع النَقْد، والقلع الكِنف، والمَتْع الطول، والسَلْع الشقّ، والقَنْع أن يطأطىء (الإنسانُ) رأسَه، والوقع الطريق في الجبل». فهذه عَشْرَةُ أبي عمرٍو.

وقُلنا موصولاً بذلك: والنَخْع قتل النفس أسَفاً، والبَدْع اختراعُ الشيء، والبطع القطع، والبكع استقبال الرجلِ (رجلاً) بما يكره، والبلع كثير الصمت، والبصع ضِيق مخرج الماء، والبضع قطع اللحم.... الخ.»

- من مقدّمة كتاب «ضرائر الشعر»:

هذا كتابٌ أذكُرُ فيه- إنْ شاء اللهُ- ما يجوزُ للشاعرِ عندَ الضَرورة مِنَ الزِيادة

والنُقصان و(من) الاتّساعِ في سائرِ المعاني من التقديمِ والتأخير والقَلْب والإبدال وما يتّصلُ بذلك من الحُجَجِ عليه وتَبينَ ما يَمُرُّ من معانيه فأرُدّه إلى أُصوله وأقِيسُه على نظائِره. وهو بابٌ من العلمِ لا يَسَعُ الشاعرَ جهلُه ولا (هو) يستغني عن مَعْرفته لِيكونَ له حُجّةٌ لِمَا يَقَعُ في شِعرِه ممّا يُضْطَرُّ إليه من آستقامة قافيةٍ أو وَزْنِ بيتٍ أو إصلاحِ إعرابٍ. وذلك أن كثيراً مِمّنْ يطلُبُ الأدبَ- وأخذَ نفسَه بدِراسةِ الكتبِ- إذا مرّ به بيتٌ لشاعرٍ من أهلِ عصرِه أو لطالبٍ من نُظرائه فيه تقديمٌ أو تأخير أو زِيادةٌ أو نُقصان أو تغييرُ حركةٍ عمّا حَفِظَ من الأُصول المُؤلّفةِ له في الكتب أخَذَ في التَشْنيع عليه والطعنِ على علمه....

- قال القزّاز القيرواني في الغزل والنسيب:

إذا كان حَظّي منكَ لحظةَ ناظرٍ   على رِقْبَةٍ لا أسْتَديمُ لَها لَحْظا،
رَضِيتُ بها في مُدّةِ الدهرِ مَرّةً؛   وأعْظِمْ بِها من حُسْنِ وَجْهِكَ لي حَظّا.

ولو نَظَرَ بعين الحقّ لَعَلِمَ أنّ ذلك لا يخرُجُ إلاّ من وجْهين: إمّا أن يكونَ ذلك جائزاً لِعِلَلٍ تَغَيّبَتْ عنه ولم يبلُغِ النهايةَ من عِلمِها، وهو كذلك؛ (ثمّ) وَهْمُه الذي لَعَلّه، إنْ نُبِّهَ عليه أو أعادَ (هو) نَظَرَهُ فيه رَجَعَ عنه إلى الصواب وتخطّاه إلى ما لا مَطْعَنَ فيه من الكلام، إذْ كان غيرَ مَعصومٍ من الخطأ ولا ممنوعٍ من الزَلَل. فليس للناظرِ في الأصول - مَعَ تأخّرِه عن الإحاطة بسائرِ الفروع - الهُجومُ على ما لَعَلّه جائزٌ عندَ المتقدّمين في العِلم (من) الناظرينَ بعينِ الحقّ......

- وله في النسيب (الوافي بالوفيات ٢: ٣٠٥؛ معجم الادباء ١٨: ١٠٨):

أحِينَ عَلِمْتَ أنّكَ نورُ عَيْني   وأنّي لا أرى حتّى أراكا،
جَعَلْتَ مَغيبَ شَخْصِكَ عن عِياني   يُغَيِّبُ كلَّ مخلوقٍ سِواكا.

للاطلاع على طبعات كتب «القزاز القيرواني» ومراجع ترجمته راجع ص ٣٧٤

محرز بن خلف

١ - هو مُحْرِزُ بنُ خلفِ بنِ رَزينٍ التَميمي، يَتّصِلُ نَسَبُهُ بأبي بكرٍ الصِدّيق. كان من أهلِ إفريقية (القُطر التُونسي)، ومَوْلِده فيها نحوَ سَنَةِ ٣٤٠ (١٠٣٨ - ١٠٣٩ م). ويبدو أنّه بدأ منذُ مطلَعِ حياتِه بتربية الصِبيان وتعليمهم أمورَ الدينِ ومكارمَ

الأخلاق. وقد لَقِيَهُ عبدُ الرحيمِ بنُ نصرٍ التميمي البخاري[1] وصَحِبَه. وكانتْ وفاةُ مُحْرِزِ بنِ خلفٍ سَنَةَ ٤١٣ (١٠٢٢ - ١٠٢٣ م). ومدفَنُه معروفٌ في المدرسة التي كان يُعلِّم فيها في داخِلِ تُونِسَ الحاضرةِ.

٢ - كان مُحْرِزُ بنُ خَلَفٍ رجُلاً صالحاً وواعظاً ذا تأثيرٍ وهَيْبةٍ في النفوس، كما كان وَرِعاً جليلاً وذا مَيْلٍ إلى التَصوُّف. له «حِرْزُ الأقسام» وَهِيَ قصيدةٌ صوفيّةٌ ذَكَرَ بروكلمن (الملحق ١: ٧٨٥) أنّها تُنْسَبُ إليه. أما المَقَّريُّ الجَدّ (ت ٧٥٩ هـ) فجاء في تائيته التي قال إنه تَمَّمَ بها تائيّةَ ابنِ الفارضِ (نفح الطيب ٥: ٣٣٥):

وفي حِرْزِ أقسامِ المُؤدّبِ مُحْرِزٍ ... وحزبِ أصيـلِ الشاذليِّ وبُكرةِ...

وكذلك كان محرزُ بنُ خلفٍ أديباً ناثراً شاعراً له شعرٌ في الزَهد وفي الوصف. وشِعرهُ بارعٌ وأسلوبُه سهلٌ.

٣ - مختارات من آثاره

- قال مُحرِزُ بنُ خلفٍ يَصِفُ أطلالَ مدينة قَرْطاجَنّة (قرطاجةَ قُرْبَ تُونِسَ الحاضرةِ):

خَليـليَّ، مُرّا بالمدينـةِ وآسْمعا ... مدينـةَ قَرْطاجَنّـةٍ ثمّ وَدِّعـا[2]

طُلولاً بها تبكي لِفُقدانِ أهلِها، ... كما نَدَب الأطلال كِسرى وتُبَّعا[3].

وقولا لهـا: ما بالُ رَبْعِكِ دارساً؟ ... ومـا بـالُ وفدٍ قد بَناكِ ووَدَّعا[4]

---

(١) هو أبو زكريّا عبد الرحيم بن أحمد بن نصر بن اسحاق بن عمرو بن مزاحم بن غياث التميمي البخاري حافظ للحديث ومحدّث، أصله من بخارى ونزل مدّة في مصر، جاء إلى إفريقية وصحب محرز بن خلف وجال في المغرب ودخل الأندلس. مولده سنة ٣٨٢ ووفاته سنة ٤٧٠ هـ.

(٢) اسمعا (تنبّها) إلى ما يمكن أن تحدّث به هذه المدينة عن سكّانها الذين انقرضوا.

(٣) «طلولا» منعول به من «ودّعا» في البيت السابق. كسرى (لقب ملوك الفرس) وتبّع (لقب ملوك اليمن). لا وجه لنصب «تبع» (وكسرى طبعاً) إلا إذا قلنا: «كما تندب الأطلال. (بالرفع: فاعل) كسرى وتبعا».

(٤) الربع: المكان المأهول. دارس: قد امحت معالمه. الوفد: القوم يأتون ثمّ يرجعون.

وخلاّكِ- مِنْ بعدِ اجتماعٍ وغِبطةٍ ... ومن بعدِ تَشْيِيدٍ- خَلاءً وبَلْقعا[1]؛
تُصَفِّقُ فيكِ الريحُ من كلّ جانبٍ؛ ... وفَرَّقَ مِنْكَ الدهرُ ما قد تجمّعا!

ثمّ ذَكَرَ الطياطرَ (التياترو: المَسْرَح) الذي فيها فقال:

ومِنْ بعدِهِ الرومانُ، يا صاحِ، قد بنى ... طَياطِرَها ثم القناةَ فأبدعا[2]،
وألّفَ من بعدِ العريضةِ فرضَها، ... وشَدّ ببعضٍ بَعْضَها فتجمّعا[3].
تراها كَمِثْلِ العِقْدِ في الجِيدِ نُظّمت، ... فلا بَعْضُها يعلو على البعض إصْبعا[4].
فلمّا أنتهى بُنْيانُهم ثمّ أَوْصَلوا ... بها من زُلالِ الماء ما قد تَفَرّعا[5]،
وفَرّقَه بين القصورِ جَداوِلاً ... وأفْرَطَه حتّى أعَمّ وأشْبعا
فلم يُغْنِ عنهم ما بَنَوْهُ وشيّدوا ... وما مُتّعوا في الدهرِ مَعْ مَنْ تمتّعا[6].
فيا صاحبي، إن جُزْتُما بِرُبوعها، ... خليليّ، إلاّ نادياني وسمّعا[7]،
فَلَنْ تَسْمعا إلاّ الصَدى- بعد هاتفٍ- ... مُجيباً لها، ثمّ الرياحَ الزُّعازعا[8]!

- وكتب إلى الأميرِ المُعِزِّ الصِنهاجي[9] في التوصيةِ ببعض (بفَرْدٍ مِنْ) تلاميذه:

---

(١) خلاء (من السكان) وبلقعا (خالية من كلّ شيء).

(٢) يستعمل الرومان مفرداً (يعنى الشعب الروماني). القناة: قناة نجر الماء. في عنوان الأريب (ص ٣٧) عدد من هذه الأبيات مخمس....

(٣) هذا البيت يصف المدرّج في المسرح. العريضة (الباحة المستوية في وسط المسرح للتمثيل؟). الفرضة (بالضمّ) من النهر: مشرب الماء منه. وجمعها فرض (بضم ففتح). والملموح من البيت التالي أن الشاعر يقصد المقاعد في المدرّج أو الصفوف المدرّجة نفسها.

(٤) تراها (أي صفوف المدرّجات التي هي دوائر حول المسرح) كأنّها عقد متعدّد الأسماط وأنه- أي المسرح- عنق.

(٥) الزلال: الماء العذب الصافي. تفرع الماء (أي كان مشتّتاً في أماكن مختلفة فجيء به بوساطة هذه القناة مجموعاً إلى قرطاجة (كما يلفظها اهل تونس، اليوم).

(٦) وما متّعوا به...

(٧) البيت غامض لسوء تركيبه. الملموح: يا صاحبيّ وخليليّ، إذا مررتما بقرطاجة فنادياني وسمّعا (ارفعا الصوت عالياً).

(٨) الهاتف: المنادي. الزعازع: الريح الشديدة.

(٩) المعزّ الصنهاجي بن باديس (٤٠٦- ٤٥٢ هـ).

بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ. حقّقَ اللهُ الحقَّ في قلوبِ العارفين[1] من عِباده ونقل المُذنبين إلى ما افترضَ عليهم من طاعته. أنا رجلٌ عَرَفَ كثيرٌ من الناس اسْمِيَ، وهذا من البَلاء[2]. وأنا أسألُ اللهَ أن يَتغمّدني برحمةٍ منه وفضلٍ. وربّما أتاني المُضْطَرُّ يسألُ الحاجة: فإنْ تأخّرتُ خِفْتُ، وإن ساعدتُ فهذا أشدُّ[3]. وقد كتبتُ إليك في مسألة رجُلٍ من الطَلَبة طُولِبَ بدراهمَ ظُلْماً، ولا شيءَ له[4]. وحاملُ رُقْعتي يشرَحُ لك ما جرى. فعامِلْ فيه من لا بُدَّ من لِقائه، واسْتَحِ ممّن بِنِعْمته وَجَدتَّ نعيمَ العيش[5]. واحذرْ بِطانة السوء فإنّهم إنّما يريدون دَراهِمَك. وشاوِرْ في أمرِكَ من يتّقي الله: ومَن يَتّقِ الله يجعَلْ له من أمرِهِ يُسْراً، ومن يتّق الله يجعَلْ له مخرجا». واسْتَعِنْ باللهِ، فإنّه مَنْ يتوكّلْ على الله فهو حَسْبه[6]. والسلام.

٤- ★ ★ نفح الطيب ٣: ٦٣، ٥: ٣٣٥؛ مجمل تاريخ الأدب التونسي ١١٦- ١١٩؛ بروكلمن، الملحق ١: ٧٨٥، ٢: ١٠٠٩؛ عنوان الأريب ٣٥- ٣٧.

المُسْتَظْهِر بالله المروانيّ

١- هو أبو المطرِّفِ عبدُ الرحمنِ بن هشامِ بنِ عبدِ الجبّار بن عبدِ الرحمن الناصرِ، وُلِدَ سَنَةَ ٣٩١ هـ (١٠٠١ م) وعاش في أيامِ ضَعْفِ الخلافة الأندلسية ومِحْنة الفِتنة بين العرب والبربر على اقتسام مغانمِ الحُكم. قدّمَه العامّةُ عليهم ففاجأ بهم غَرناطةَ وقُرطُبَةَ وأزالَ دُوَيْلَةَ الطوائفِ التي كانت لبني حَمّودٍ في البلدين. فَنَصَبه العامّة خليفةً في رَمَضانَ من سَنَةِ ٤١٤ (أواخر ١٠٢٣ وأوائل ١٠٢٤ م) وعُمُرُه يومَذاك ثلاثٌ وعِشرون سَنَة، فتلقّب المستظهرَ.

(١) العارف: الصوفي المتقدّم في طريق التصوّف. والعارف: المطّلع على بواطن الأمور.

(٢) هذا من البلاء (الشهرة التي تحمل الناس على أن يطلبوا من المشهور أموراً كثيرة تخرج عن نطاق قدرته).

(٣) إن تأخرت عن تلبية حاجته خفت أن يصيبه ضرر فأشعر بالتقصير، وإن حاولت مساعدته خفت أن أطلب من الحاكم ما لا يجوز طلبه.

(٤) لا شيء له (لا يملك المبلغ الذي طلب منه- لا وجه حقّ في طلب المبلغ منه).

(٥) فعامل فيه من إلخ (أي الله).

(٦) راجع القرآن الكريم في هذه الآيات الثلاث (٦٥: ٢- ٤، سورة الطلاق).

بدأ المُستظهِرُ بتوزيع المناصب على الناسِ لمن يستحقّها ولمن لا يستحقها، فلم يكنْ له ولا لهم هَيْبةٌ ولا حقيقةٌ من حقائق الحكم. ثمّ اتّفق أن جاء إليه رَجُلانِ من البربر فأكرمها (ربّما دفعاً لِشَرّها أو شرِّ قَوْمِها) فأساء العامّةُ الظنّ به وظنّوه يريدُ إعادة سُلطة البربر إلى قُرطبة فهجموا عليه وقتلوه في ٢٦ من ذي القَعْدة من سَنَةَ ٤١٤ نفسِها (١٠/ ٣/ ١٠٢٤ م).

٢- جاء في «الذخيرة» (١ : ٤٨) أنَّ عبدَ الرحمن بنَ هشامٍ (المستظهر) كان ذكياً أديباً اكتسبَ اختباراً من تقلُّبهِ في البلاد تُطاردُه المخاوفُ (ولكنّه لم يستفدْ من هذا الاختبار فائدةً تُذْكَرُ). وكان حَسَنَ الكلام جيّدَ القريحةِ مليحَ البلاغة يتصرّفُ في الخَطابة بديهةً ورَوِيّةً (ارتجالاً واستعداداً) ويصوغُ قِطَعاً من الشعر مُستجادَة. ويبدو أنه كان أيضاً كريمَ النفسِ عفيفاً لم يَشْرَبِ الخمرَ ولا واقعَ مُحرّماً. وبَرَع في العِتاب والغَزَلِ والوَصْف وفي الفَخْر أيضاً.

٣- **مختارات من شعره**

- خَطَبَ عبدُ الرحمن بنُ هِشامٍ (المستظهرُ) حبيبةَ بنتَ سُليمانَ المستعين (وكُنْيَتُها أُمُّ الحكم)، ولكنّ أمّها شنف (أو مشنف) وَعَدَتْهُ بها ثمّ أخلفتْ. واعتذرتْ إليه بعُذْرٍ غيرِ مقبول، فقال (الذخيرة ١ : ٥٦):

وجالبـةٍ عُـذراً لِتَصْرِفَ رَغْبـتي؛ وتأبى المعالي أنْ تُجيزَ لها عُذْرا.
يُكَلِّفُهـا الأهلون رَدّي سَفاهـةً، وهل حَسَنٌ بالشمس أن تمنَعَ البدرا[1]؟
ومـاذا عـلى أمِّ الحبيبـةِ، إذ رأتْ جلالةَ قَدْري، أنْ أكونَ لها صِهراً؟
تعلّقتُهـا من عبـدِ شمسٍ غريرةً مُحَـدَّرَةً من صِيـدِ آبائهـا غُرّا[2].
لقد طال صَوْمُ الحُبّ عنك، فما الذي يضُرُّك منـه أن تكوني لـه فِطْرا؟

(١) تمنع (مبنية للمعلوم): لا يليق بالشمس (المرأة الجميلة) أن تمنع (ترفض الزواج) بالبدر (بالرجل الجميل الكريم). تمنع (مبنية للمجهول): لا يجوز لأحد أن يمنع الشمس من الاقتران بالبدر.
(٢) عبد شمس: بنو أميّة. محدّرة (ينحدر نسبها). الصيد (بالكسر جمع أصيد: الشريف). الغرّ جمع أغرّ: أبيض (ذو أصل ومكانة).

وإنّي لأستشفي بمَرّي بدارِكُمْ هُدوءًا، وأستسقي لِساكِنِها القَطْرا[1].
وأُلصِقُ أحشائي بِبَرْدِ تُرابِها لِأُطفِئَ من نار الأسى بِكُمُ جمرا.
فإنْ تَصْرِفيني، يا ابنةَ العمِّ، تَصْرِفي - وعَيْشِكِ- كُفأً مدّ رَغْبَتَه سِترا[2]
وإنّي لأرجو أنْ أُطوِّقَ مَفْخَري بِملْكي لها، وَهْيَ التي عَظُمَتْ فَخْرا[3].
وإنّي لطعّانٌ إذا الخيلُ أقبلتْ جرائدُها حتّى تُرى جُونُها شُقْرا[4].
وإنّي لأَوْلى الناسِ من قومِها بها وأنْبَهُهُمْ ذِكْرًا وأرفَعُهم قَدْرا.
وعِنْدِيَ ما يُصبي الحليمةَ ثَيّباً ويُنْسي الفتاةَ الخَوْدَ عُذْرَتَها البِكْرا[5]:
جمالٌ وآدابٌ وخُلْقٌ مُوَطَّأٌ ولفظٌ، إذا ما شِئْتَ، أسْمَعَكَ السِحرا[6].

- وله في الغزل الخفيف (الذخيرة ١: ٥٧- ٥٨):

طال عُمْرُ الليلِ عِندي مُذْ تَوَلَّعْتِ بصَدّي،
يا غزالاً نَقَضَ الوُدْ دَ ولم يُوفِ بعَهْدي.
أَنَسِيتَ العهدَ إذ بِتْـ ـنا على مَفْرشِ ورد،
واجْتَمَعْنا في وِشاحٍ وانتظَمْنا نَظْمَ عِقْد،
وتَعانقْنا كغُصْنَيْـ ـنِ وقَدّانا كَقَدّ[7]،
ونجومُ الليلِ تَحْكي ذَهَباً في لازَوَرْدِ[8]؟

---

(١) الهدوء: الحين أو المدّة من الليل.
(٢) سترا: في ستر (طلباً للعيش في ستر؟).
(٣) الملك (بفتح الميم وكسرها وضمّها): حيازة الشيء، الزواج.- أريد بزواجك أن أزيد إلى فخري فخراً جديداً.
(٤) الجريدة: الجماعة من الخيل. حتّى ترى جونها (ذات اللون الأسود) شقرا (حمراء) من الدم. (من خوض المعارك).
(٥) عندي صفات تجعل الحليمة (العاقلة) الثيّب (التي تزوّجت من قبل) تميل اليّ، وتجعل الفتاة البكر تنسى أنها عذراء عزبة (بفتح ففتح)...
(٦) الخلق الموطأ: الخلق الرضي (الحسن المعاشرة).
(٧) وقدّانا كقدّ (واحد): من أبصرنا متعانقين ظننا شخصاً واحداً.
(٨) اللازورد: لون أزرق (هنا صفة لليل).

٤- ★ ★ الذخيرة ١: ٤٨ - ٥٩؛ الحلّة السيراء ٢: ١٢ - ١٧؛ المعجب ٣٥؛ نفح الطيب ١: ٤٣٥ - ٤٣٧، ٤٨٨ - ٤٩٠، ٣: ٥٤٩؛ الأعلام للزركلي ٤: ١١٦ (٣: ٣٤١).

خلف بن أحمد السعدي

١ - هو خَلَفُ بنُ أحمدَ السَعْدِيُّ، نِسبةً للسعديّين من إحدى قُرى المَهْديّة (تونس)، وُلِدَ سَنَةَ ٣١٨ هـ (٩٣٠ م). تأدَّبَ في إفريقيَةِ (القُطْر التونسي) ثمّ دَخَلَ مِصْرَ. وكانت وفاتُه في زَوِيلةِ المَهْدِيّة، سَنَةَ ٤١٤ هـ (١٠٢٣- ١٠٢٤ م).

٢- لخَلَفِ بنِ أحمدَ السَعْدِيِّ شِعْرٌ جيّدٌ.

٣- مختارات من شعره

- قال خلف بن أحمد السعدي في النسيب:

هَـلِ الدهرُ يومـاً بِلَيْـلى يجودْ ... وأيّامُنـــا في اللِّوى سَتَعُود !
عُهودٌ تَقَضَّتْ وعيشٌ مضى؛ ... بنفسي ولِلّـــهِ تلـــكَ العُهودْ.
ألا قُلْ لِسُكّانِ وادي الغَضا: ... هَنيئاً لكم في الجِنانِ الخُلودُ
أفيضوا عَلَيْنا مِنَ الماءِ فَيْضاً، ... فنَحَنُ عِطــاشٌ وأنْتم وُرودْ[1]

٤- ★ ★ الأنموذج (السنوسي) ٩٧- ٩٩؛ معجم الأدباء ١١: ٦٥- ٦٦.

زيادة الله الطُبنيّ

١- هو أبو مُضَرَ زِيادةُ اللهِ بنُ عليِّ بنِ حسينٍ الطُبنِيُّ، نِسبةً إلى طُبْنَةَ (في الجزائر)، التَميميُّ، انتقلَ أهلُه إلى الأندلُس وسكنوا قُرطُبةَ.

وُلِدَ زِيادةُ الله في قُرطبةَ في الأغلب، في شَعبانَ من سَنَةِ ٣٣٦ (شباط- آذار= فبراير- مارس ٩٤٨م). وقد تَنقّلَ بينَ بَلاطاتِ الأندلس ثمّ انقطعَ إلى المنصور ابنِ أبي عامرٍ وأصبح نديماً له (نفح الطيب ٢: ٤٩٦). وكانت وفاتُه في عاشرِ ربيعٍ الأوّل من سَنَةِ ٤١٥ (٢٢/ ٥/ ١٠٢٤ م).

٢- كان زِيادةُ الله الطُبنيُّ خفيفَ الروحِ سريع الخاطر بارعَ النُكتةِ ظريفاً حَسَنَ

(١) ورود: جمع وارد (ساكن قرب الماء).

العِشرة. وكان عالماً باللغة والأدب والشعر شاعراً فصيحَ الألفاظ سهلَ التراكيب واضحَ المعاني. وأكثرُ شعرهِ الوصفُ والنسيب، وله مديح. وله كتابٌ اسمه «الحَمامُ» ألّفه للمنصورِ بنِ أبي عامرٍ.

٣- مختارات من شعره

- قال زِيادةُ الله الطُبنيُّ يَصِفَ الحَمامَ ويذكُرُ حروبَ المنصورِ بنِ أبي عامرٍ:

أذْكَرَ القلـبَ بالتصـابي فحَنّـا ... ساجـعٌ في أراكـةٍ قد أرَنّـا[١].
أخْضَلَـتْ ريشَه السماءُ بطَـلٌّ؛ ... ورأى الرَوْضَ مُونِقاً فتَغَنّى[٢].
غَرِدٌ بالسُرورِ فازتْ يَداهُ ... بِحَبيـبٍ عليـه لا يَتَجَنّـى[٣].
بأبي عامرٍ رأى الدينُ في الكُفْـ ... ـرِ، علـى رُغْم أهلـهِ، ما تَمَنّى[٤].
مَلِـكٌ لم يَزَلْ بركْـضِ المَذاكي ... وجِهادِ العِدا مَشوقاً مُعَنّى[٥].

- وقال في النسيب والعِتاب:

عَجَبـاً أنْ يكونَ ساكنُ قلـبي ... راتِعـاً منـه في بساتـينِ حُبّي،
يجازي على الوفاءِ بِغَدْرٍ؛ ... حَسْبِيَ اللهُ، ثمّ حَسْبِي وحسبي.
جازِني كَيْفَ شِئْتَ، لا أتْرُكِ الذّنْـ ... ـبَ إذا كان فَرْطُ حُبِّكَ ذَنبي.

- وقالَ يَصِفَ حَمامةً بحُسنِ الصوت والبراعةِ في الغناء كأنّما - عُلَيَّةُ بِنْتُ زِريابٍ المُغنّي والعازفِ المشهور[٦]- تُعَلِّمها الألحانَ:

---

(١) أذكر (فعل ماض) القلب (مفعول به مقدّم)... ساجع (فاعل «أذكر»).- التصابي: فعل أفعال الصبا (الشباب) فحنّ (إليها): تمنّى أن يفعل مثلها (بعد أن تقدّمت به السنّ). الأراكة شجرة في الحجاز تؤخذ من أغصانها المساويك. أرنّ=رنّ: صاح (غرّد).

(٢) أخضلت: بلّلت. الطلّ: المطر الخفيف. مونق: جميل يسرّ العين.

(٣) يتجنّى: يتّهمه زوراً بالجنايات (الذنوب).

(٤) رأى الانتصار والغلبة.

(٥) ملك (هو المنصور بن أبي عامر).

(٦) هو أبو الحسن علي بن نافع الملّقب زريابا

أذنَــــتْ إليَّ صَبابـــاتي مُغَرِّدَةٌ أذكى الجَوى بَيْنَ أضلاعي تَرَنُّمُها
كأنّها مَكَثَـــتْ في عُشِّهـــا زَمَنـــاً عُلَيَّةٌ بنتُ زِريابٍ تُعَلِّمُها.

٤- * * الصلة ١: ١٩٢ (رقم ٤٣٧)؛ جذوة المقتبس ٢٠٥ (الدار المصرية) ٢٢١ (رقم ٤٤٦) بغية الملتمس ٢٨٢ (رقم ٧٥٩)؛ انباه الرواة ٢: ١٨؛ المغرب ١: ١٩٣؛ نفح الطيب ٢: ٤٩٦؛ كتب وشخصيّات ١٦- ٢٠.

صاعِدٌ البَغْداديّ

١- هُوَ أبو العَلاءِ صاعدُ بنُ الحسنِ بن عيسى الرَّبَعِيُّ[1] المَوْصِلِيّ البَغْداديُّ الأندلسيّ اللُّغَوِيّ، أصله من بلاد المَوْصِلِ. ولعلّ موْلِدَه فيها كان قُبيل ٣٤٠ هـ (٩٥١ م).

دَخَلَ صاعدُ بنُ الحسنِ بَغْدادَ وتلقّىْ فيها اللُّغة والأدب على أبي سعيدِ السِيرافيّ (ت ٣٦٨ هـ) وأبي عليٍّ الفارسي (ت ٣٧٧ هـ) وأبي سليمانَ الخَطّابيّ.

وفي سَنَة ٣٨٠ (٩٩٠ م) جاء إلى الأندلس واتّصل بالمنصورِ بنِ أبي عامرٍ، فأكْرَمَهُ المنصورُ ثُمّ استَوْزَرَهُ (جعله كاتباً له). وبعدَ سقوط دولةِ العامريّين في قُرطُبةَ واسْتبدادِ مُجاهِدِ العامِرِيِّ بدانِيَةَ (٤٠٨ هـ) انتقلَ صاعدٌ إلى دانية واتّصل بمُجاهدٍ.

ولّما زادَ الاضطرابُ في الأندلس (ربّما حوالَيْ ٤١٢ هـ) انتقل صاعدٌ إلى جزيرة صِقِلّيَةَ حيثُ تُوُفّيَ، سَنَةَ ٤١٧ (١٠٢٦ م)، وقد أسَنَّ.

٢- كانَ صاعدٌ البَغْدادِيُّ أديباً عالماً باللغة وكاتباً وشاعراً. غيرَ أنّ براعته في اللغة قد غَطّى عَلَيْها أنّه كان يَخْتَلِقُ الرواياتِ والتفاسيرَ في بعض الأحيان. وأما شِعرهُ فكان عادِّياً إلاّ بَعْضَ ما فيه من اللَفَتاتِ. ولعلّ شُهرتَه الحقيقية تقومُ على أنه كان كاتباً. ويبدو أنّه كان يهتمّ بالتاريخ وبالقَصَص.

---

(١) نسبة إلى أمّ الربيع وأمّ الربيعين: مدينة الموصل.

ولصاعدٍ كُتُبٌ منها: كتابُ الفُصوص (نَحى فيه منحى القالي في «كتاب الأمالي» ولكنّه كان فيه قليل الأمانة في الرواية)- كتاب الجَوّاس بن قعطل المَذْحِجي مَعَ ٱبنة عمّه عَفْراء- كتاب الهجفجف بن غيدقان اليَثْرِبي مَعَ الخِنَّوْت بنت محرمة بن أُنيف.

٣- مختارات من آثاره

- كتب صاعدٌ البَغْداديّ رسالةً إلى الوزير أبي جعفر الدّب يرجوه فيها أن يَشْفَعَ عند الخليفة سُليمانَ المستعين بالوزيرِ عبدِ اللهِ بنِ مسلمةَ، وكان سليمان قد نَكَبَ ابنَ مَسْلمة وسجنه مقيّداً (وكان صاعد لمّا دخل الأندلس قد اتّصل بابن مسلمة هذا):

.... لمّا جَمَعَ اللهُ طوائفَ الفضل عليك وأذْلَقَ بِكَ الألْسُنَ وأرْهَفَ فيك الخَواطر[١]، ورَفْرَفَ عليك طيرُ الآمال ونُفِضَتْ إليك عَلائق الرجال[٢] لم أجِدْ لابنِ مَسلمةَ- حين عضّه الثِقاف[٣] وضاق به الخِناق وانقطع به الرجاء وكَبا به الدهرُ- مَلْجأً غيرَك. فعطفك على والهٍ نبّهه النحسُ من سِنَةِ السَعْد[٤] وأيْقَظَتْه الآفاتُ من رَقْدة الغَفْلة..... فحنانَك عليهِ وعليَّ فيه، واذْكُرْ تَعَلُّقَ الآمال به وتَعَلُّقَ أملهِ بِكَ، وحاجةَ الرؤساءِ إلَيْهِ وحاجتَه إليك....

- جيء يوماً إلى المنصورِ بنِ أبي عامرٍ بوردةٍ في غيرِ أيّامِها لم يَتِمَّ تَفَتُّحُها بعدُ، فقال فيها صاعدٌ مُرْتجلا (راجع، فوق، ص ٣١٢):

أتَتْـــكَ، أبـــا عامرٍ، وردةٌ   يُذَكِّرُكَ المِسْكُ أنْفاسَهــــا؛
كعَـــذْراءَ أبْصَرَهـــا مُبْصِرٌ   فغَطّـــتْ بأكمامِهـــا راسَهـــا[٥]!

---

(١) جعل الألسن تكثر الثناء عليك وجعل الخواطر تأتي بالمعاني الجّمة فيك (لكثرة فضائلك).
(٢) (فُتشت الصلات بين الرجال- نظر في أيهم أفضل).
(٣) الثقاف أداة تقوّم بها الرماح: يمرّون بالقناة (القصبة) المعوجّة على النار ثمّ يقوّمون اعوجاجها بالثقاف. عضّ به الثقاف: اشتدّ عليه الأمر.
(٤) الواله: الحزين الخائف الذي كاد الحزن (أو الخوف) يذهب بعقله. السنة (بكسر السين): الاغفاء، النوم.
(٥) أكمام الوردة: الأوراق الخضر (الكأس) التي تتفتّح عن البتلات (الأوراق الملّونة).

- وطلب المنصورُ منه أن يُعارِضَ قصيدةَ أبي نواسٍ: «أجارةَ بَيْتَيْنا، أبوكِ غَيورُ». فاعتذرَ إجلالاً لأبي نواسٍ وهَيْبَةً من ذلك فقال:

إنّي لَمُسْتَحْيٍ عُلا ... كَ مِنَ ٱرْتِجالِ القَوْلِ فيهِ:
مَنْ لَيْسَ يُدرِكُ بالرَوِيَّةِ ... كيفَ يُدرِكُ بالبَديهِ[1]!

- من عَجائبِ الاتّفاقِ أنّ صاعداً أهْدى إلى المنصور بن أبي عامرٍ ذاتَ يومٍ أيِّلاً مُقَيَّداً بحَبْلٍ، وقد سمّاه «غرسيه»، يتفاءل بذلك أن يأسُرَ المنصورُ بنُ أبي عامرٍ عَدُوَّه غرسيه الأوّلَ بنَ شانجه مَلِكَ قشتالة، وقد كتب إلى المنصورِ بالأبيات التالية. وكان ذلك في أحدِ أيامِ ربيعٍ الأولِ من سنة ٣٨٥ = نَيْسان - أبريل ٩٩٥ م:

يا حِرْزَ كلِّ مُخَوَّفٍ وأمانَ كلِّ ... مُشَرَّدٍ ومُعِزَّ كلِّ مُذَلَّلِ،
جَدْواكَ إن تَخْصُصْ به فلأهلِهِ؛ ... وتَعُمُّ بالإحسانِ كلَّ مُؤَمِّلِ[2]
كالغَيْثِ طبّق فاسْتوى في وَبْلِه ... شُعْثُ البِلاد مَعَ المُرادِ المُبْقِلِ[3]
الله عَوْنُكَ، ما أبَرَّكَ بالهُدى ... وأشدَّ وَقْعَك في الضَلال المُشْعَلِ!
مَوْلايَ- مُؤنِسَ غُربتي، متخطّفي ... من ظُفْرِ أيامي مُمَنِّعَ مَعْقِلي-
عَبْدٌ، نَشَلْتَ بِضِبْعِه وغَرَسْتَه ... في نِعْمَةٍ، أهْدي إليك بأيِّلِ[4].
سَمَّيْتُه غَرْسِيّةً وبَعَثْتُه ... في حَبْلِهِ لِيُتاحَ فيه تَفاؤلي.

فاتّفق أنْ غرسيه هذا جِيءَ بِهِ، في ذلك اليومِ عينِه، أسيراً إلى المنصور.

٤- ★ ★ جذوة المقتبس ٢٢٣- ٢٢٧ (الدار المصرية) ٣٤٠ (رقم ٥٠٩)؛ بغية الملتمس ٣٠٦- ٣١١

---

(١) الرويّة: التفكير والتأمل. البديه: القول ارتجالاً.
(٢) الجدوى (يبدو من القاموس أن اللفظة مذكّرة): المطر العام؛ العطيّة، الكرم.
(٣) الغيث: المطر. الوبل والوابل: المطر الكثير. شعث البلاد: البلاد المغبرّة (لقلة سقوط المطر فيها). المراد: المقصود (الذي يقصده الناس لرعي أنعامهم فيه، لكثرة نباته ولخصبه). المبقل: الذي يكثر فيه البقل (النبات).
(٤) الضبع: جانب البدن. نشلت بضبعه = أخذت بضبعه، أعنته، ساعدته، أنهضته من كبوته، أنقذته من مشكلة. الأيّل: نوع من الوعول (يشبه المعزى الجبلية!!).

(رقم ٨٥٢)؛ معجم الأدباء ١١: ٢٨١- ٢٨٦؛ الذخيرة ٤: ٨-٥٦؛ انباه الرواة ٢: ٨٥-٩٠؛ وفيات الأعيان ٢: ٤٨٨-٤٨٩؛ بغية الوعاة ٢٦٧- ٢٦٨؛ شذرات الذهب ٣: ٢٠٦-٢٠٧؛ نفح الطيب ٣: ٧٥- ٨٤، ٩٥- ٩٨؛ بروكلمن، الملحق ١: ٢٤٥؛ الأعلام للزركلي ٣: ٢٧١ (١٨٦).

أحمد بن برد الأكبر

١- هو أبو حفص أحمدُ بنُ محمّدِ بنِ بردٍ من أهلِ قرطبةَ. وُلِدَ بُعيدَ ٣٣٨ هـ (٩٤٧ م). كان وزيراً ورئيساً مُقدّماً في أيامِ المنصور بن أبي عامرٍ (ت ٣٩٢ هـ) ووَلَدَيْهِ من بعدهِ عبدِ الملكِ وعبدِ الرحمن. وكانت وفاتُه سنة ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م).

٢- كان أحمدُ بنُ بردٍ الأكبرُ كاتباً مُترسّلاً ذا حظٍّ وافرٍ من البلاغة والأدب وشاعراً مُحسناً مُجيداً، متينَ السَبْكِ (في شعره ونثره) بديعَ الصِناعة حُلْوَ القولِ. نَظَمَ في الغزل والوصف، ولكنّ براعتَه كانت في الوصف.

٣- مختارات من آثاره

- قال أحمدُ بنُ بردٍ الكاتبُ يَصِفُ طلوعَ الفَجْر:

تَنَبَّــهْ فقــد شقّ النهــارُ مُغَلِّساً ... كمائِمَه عن نَوْره الخَضِلِ النَدي[1]:

مداهنُ تِبْرٍ في أنامــلِ فِضّــةٍ ... عـلى أذرعٍ مخروطةٍ من زَبَرْجَدِ[2]!

- وقال يَصِفُ ليلةً قَمْراءَ في جوِّها شيءٌ من الضَبابِ الخفيف:

والجوُّ من عَبَــقِ النسيمِ مُعَنْبَرٌ، ... والنَجْمُ قـد أغفى بغيرِ نُعاسِ[3].

---

(١) مغلّساً (أي لا يزال الغلس، أي سواد الليل، يخالط نوره). الكمائم جمع كمامة وهي (هنا) الكأس أي الأوراق الخضر التي تكون غلافاً للزهرة (قبل أن تتفتّح الزهرة). النور (بالفتح): الزهر الأبيض. الخضل: المبتّل بالماء من ندى الليل. والندي: الذي تجمّع عليه الندى.

(٢) هذه الأنوار (الأزهار البيض) مداهن (أوعية صغيرة) من تبر (ذهب، لأنّ قلب الزهرة يكون عادة أصفر اللون) في أنامل (أصابع، أي بتلات الزهرة: أوراق الزهر التي تكون عادة ملوّنة) فضّة (بيضاء اللون) على أذرع (سوق جمع ساق، أي غصن) مخروطة (مصنوعة بنسبة واحدة) من زبرجد (حجارة كريمة خضراء اللون).

(٣) العبق: انتشار الرائحة الطيّبة. معنبر: يشبه العنبر (أسمر اللون). والنجم قد أغفى بغير نعاس: أجبر نفسه على النوم من غير حاجة به إلى النوم (فهو من أجل ذلك يفتح عينيه ويغمضها- كناية عن تلألؤ النجوم).

والبدرُ كالمرآةِ غيّرَ صَقْلَها عَبَثُ الغواني فيه بالأنفاس[1]!

- من إنشاء ابنِ بردٍ الأكبر

كان عبدُ الرحمن بنُ أبي عامرٍ حاجباً لأميرِ المؤمنين هشامٍ المؤيّدِ بنِ الحكَمِ في ولايتِهِ الأُولى (٣٦٦- ٣٩٩ هـ) والمستبدَ بأمورِ دولته. ثمّ طَمِعَ في أن يكونَ رسمُ الخلافة أيضاً له فأجْبَرَ هشاماً المؤيّدَ على أن يجعَلَهُ وليّاً للعَهْدِ. فاضْطُرّ هشامٌ إلى القَبول. وقد كتب ابنُ بردٍ الأكبرُ هذه الوثيقةَ في ربيعِ الأولِ من سَنَةِ ٣٩٨ (أواخر ١٠٠٧ م):

هذا ما عَهِدَ به هِشامٌ المؤيّدُ بالله أميرُ المؤمنين إلى الناسِ عامّةً، وعاهد اللهَ عليه من نفسهِ خاصّةً... بعد أن أنْعَمَ النَظَرَ وأطالَ الاستخارة وأهَمّه ما جَعَلَهُ اللهُ إليه من الإمامةِ[2].... واتّقى حلولَ القَدَرِ بما لا يُصْرَفُ، وخَشِيَ إنْ هَجَمَ محتومُ ذلك عليه ونَزَلَ مقدورُه به ولم يرفَعْ لهذهِ الأمّةِ عَلَماً تأوي إليه[3] أن يلقى ربّه تباركَ وتعالى مُفَرّطاً ساهياً عن أداءِ الحقّ إليها. وتَقصّى عندَ ذلك مِنْ أحياءِ قُريشٍ وغيرِها[4] مَنْ يستحقُّ أن يُسْنَدَ هذا الأمرُ إليه ويُعَوَّلَ في القِيام عليه، مِمّا يستوجبُهُ بدينهِ وأمانتِه وهَدْيِهِ وصِيانته بعدَ اَطّراحِ الهَوى، والتحرّي للحقّ، والتزلُّفِ[5] إلى الله جلّ جلالُه بما يُرضيه - وبعد أن قطع الأواصر وأسخط الأقاربَ[6] - فلم يَجِدْ أحداً هو أجدرُ

(١) غير صقلها = جعل صفحتها غير صافية.- لأنّ النساء الجميلات يقرّبنها من وجوههنّ فتصل أنفاسهنّ إليها فينشأ على صفحتها شيء من بخار الماء!

(٢) أنعم النظر: دقّقه (نظر في تفاصيل الأشياء). في الأصل: أمعن. الاستخارة: طلب الخير (والتفكير فيما يريد الرجل أن يفعله). وأهمّه......: جعل يفكّر في عواقب خلو الخلافة بعده من امام عادل.

(٣) اتّقى: خاف. حلول القدر (مجيء الموت). بما لا يصرف: في حال لا يمكن معها التفكير بأمره المحتوم والمقدور: الموت. علم: شيء بارز عال يهتدي الناس به، ملجأ، حصن. تأوى إليه الأمة: تلجأ إليه وتحتمي به في الشدائد.

(٤) تقصّى: بحث بحثاً دقيقاً. أحياء قريش: قبائل العرب وبيوتاتهم (في الأندلس) وغيرهم (من البربر ومن المولّدين: المسلمين في الأندلس من أصل أسباني).

(٥) اطرّاح: ترك، إهمال. الهوى (ميل النفس إلى شيء- إلى أن يكون الخليفة المقبل عربياً أموياً). التحرّي: الطلب والتفتيش. التزلّف: التقرّب.

(٦) قطع الأواصر جمع آصرة: القرابة. أسخط: أغضب.

أن يُولِّيَهُ عَهْدَهَ ويُفوّضَ إليه الخِلافَةَ بعدَه، لِفَضْلِ نفسِه وكَرَمِ خِيمِهِ[١] وشرفِ مرتبته وعُلوِّ مَنْصِبِهِ، مَعَ تُقاهُ وعَفافِهِ ومعرفته وحَزْمِهِ، من المأمون الغيبِ الناصحِ الجيبِ أبي[٢] المُطَرِّفِ عبدِ الرحمنِ بنِ المنصورِ بن أبي عامرٍ، وَفّقَه اللهُ؛ إذ كان أميرُ المؤمنين أيّده اللهُ قدِ ابتلاه واخْتَبَرَهُ ونَظَرَ إليه واعتبره[٣] فرآه مُسارعاً في الخَيْرات سابقاً في الحَلَبات مُسْتَوْلِياً على الغايات جامعاً للمأثُرات[٤]. ومَنْ كانَ المنصورُ أباه والمظفّرُ أخاه، فلا غَرْوَ أن يبلُغَ من سبيلِ البِرِّ مداه ويَحْوي من خِلالِ الخير ما حواه[٥].....

٤- ★ ★ يمكن أن يحصل التباس في المصادر والمراجع بين أبي حفص أحمد بن برد الجدّ هذا وأبي حفص أحمد بن برد الحفيد (ت نحو ٤٥٠ هـ- راجع تحت). جذوة المقتبس ١١١ (الدار المصرية) ١١٩ (رقم ١٩٩)؛ بغية الملتمس ١٦١ (رقم ٣٨٧)؛ الذخيرة ١ : ١٠٣- ١٢٣؛ المطمح ٢٤ - ٢٥؛ المغرب ١ : ٢٠٠- ٢٠١؛ الوافي بالوفيات ٦ : ٢٦٣؛ البيان المغرب ٣ : ٤٤؛ نفح الطيب ١ : ٤٢٤- ٤٢٦، ٣ : ٢٩٣، ٥٤٥- ٥٤٦؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣ : ٧٣٩؛ الأعلام للزركلي ١ : ٩٩ (١٠٣).

حسّان بْنُ مالِكٍ

١- هُوَ أبو عَبْدَةَ حسانُ بنُ مالكِ بنِ أبي عبدةَ الأندلسيُّ من أهلِ بيتِ جَلالةٍ ووِزارةٍ في قُرْطبةَ؛ رَوى عن أبي بكرٍ الزُّبيديِّ (ت ٣٧٩ هـ) وأبي عُثمانَ القزّاز وأبي العبّاس أحمدَ بنِ عبدِ الله بن ذَكوانَ القاضي (ت ٤١٣ هـ).

لمّا جاء عبدُ الرحمنِ المستظهرُ بنُ هِشامٍ إلى الخِلافة اسْتَوْزَرَ حسانَ بنَ مالكٍ،

---

(١) الخيم: الطبيعة والأصل.

(٢) المأمون الغيب: الذي يحفظ عهدك ولو كنت غائباً عنه. الناصح الجيب: الذي لا يخونك في ما ائتمنته عليه (والأليق أن تقال في المرأة).

(٣) ابتلاه: اختبره. اعتبره: قدّره، نظر في جميع أحواله.

(٤) مسارعاً في عمل الخير، سابقاً (متقدّماً على غيره) في الحلبات (ميادين السباق) مستولياً على الغايات (يصل إلى الهدف قبل غيره من الخيل)- يشبّهه بالحصان الذي يسابق الخيل. المأثرة (بضمّ الثاء): الفعل الحميد الكريم.

(٥) لا غرو: لا عجب. البر: التقوى، طاعة الرجل لقومه وطلب المنفعة لهم ولو أضرّ ذلك به. الخلال: (هنا): الخصال: جمع خصلة (بفتح الخاء): العادة والطبيعة.

ولكنّ خلافةَ المستظهر لم تَطُلْ سوى شَهْرَيْنِ أو يزيدان مِنْ سَنَة ٤١٤ هـ (١٠٢٣-١٠٢٤ م). ويبدو أنّ حسّاناً كانَ كارهاً للوزارة في تلك الفترة، فقضى قسماً من أيام الفِتْنة مُعْتزلاً للحياة العامّة بعيداً عن العاصمة. ويبدو أنه عادَ بعدَ ذلك إلى قُرطبة وحَسُنَتْ حالُه فيها.

وكانت وفاةُ حَسانِ بنِ مالكٍ في شوّالٍ من سَنَةِ ٤١٦ [١] وقَدْ أسنّ كثيراً. ورثاه أبو عامرِ بنُ شُهيدٍ (ت ٤٢٦ هـ).

٢- كان حسّانُ بنُ مالكٍ من جِلّة العلماء والأدباء فقيهاً وكاتباً مُترسّلاً وشاعراً وُجدانيّاً مُجيداً؛ ومن فنونِ شعرِهِ الشكوى ووصف الطبيعة. وكان مصنّفاً له كتاب رَبيعةَ وعَقيلٍ:

دخل[٢] حسّانُ بنُ أبي عبدةَ يوماً على المنصور بن أبي عامرٍ (ت ٣٩٢ هـ) وبينَ يديْهِ كتابُ أبي السَريّ[٣] وهو يُعْجَبُ به. فخَرَجَ (حسّان) من عندِه وعَمِلَ (مثل) هذا الكتابِ وفَرَغَ منه تأليفاً ونسخاً وتصويراً، وجاء به في مِثْلِ ذلك اليومِ من الجُمُعةِ الأخرى وأراه (للمنصور) فسُرَّ به ووَصَلَه عليه.

٣- مختارات من شعره

- لما كَثُرَ الاستبدادُ مِنَ الخليفةِ المُسْتَظْهِرِ، كَتَبَ إليه حسانُ بنُ أبي عَبدةَ:

إذا كان مِثْلي لا يُجازى بصَبْرِهِ، فمَنْ ذا الذي بَعْدي يُجازى على الصبرِ؟

---

(١) في جذوة المقتبس (ص ١٨٤ س) وبغية الملتمس (ص ٢٥٦) ومعجم الأدباء (٧: ٢٢١- ٢٢٢) وبغية الوعاة (ص ٢٣٨) أن حسان بن مالك توفّي قبل ٣٢٠ هـ، وهذا بلا ريب خطأ نقله بعضهم عن بعض من غير تفطّن إلى أن حساناً كان في أيام المنصور بن أبي عامر (ت ٣٩٢). والتصحيح من كتاب الصلة لابن بشكوال (ص ١٣٥).

(٢) جذوة المقتبس ١٨٤.

(٣) هو أبو السريّ سهل بن أبي غالب الخزرجي وضع كتاباً ذكر فيه أمر الجنّ وحكمتهم وأنسابهم وأشعارهم وزعم أنّه بايعهم للأمين بن هرون الرشيد وليّ العهد فقرّبه الرشيد وابنه الأمين وزبيدة أمّ الأمين. وأفاد منهم (مالاً كثيراً). وله أشعار حسان وضعها على الجنّ والشياطين والسعالى. و (قد) قال له الرشيد: إن كنت رأيت ما ذكرت، لقد رأيت عجباً. وإن كنت ما رأيته، لقد وضعت أدباً. (وفيات الأعيان ٥: ٢٢١).

فكم مَشهدٍ حاربتُ فيه عَدُوَّكم — وأمّلتُ في حَرْبِي له رَاحةَ الدهر[1]!
أخوضُ إلى أعدائكم لُجَجَ الوَغى — وأسْري إليْهِمْ حيثُ لا أحدٌ يَسْري[2].
وقد نامَ عنكم كلُّ مُسْتَبْطِنِ الحَشا — أكولٌ إلى المُمْسى نَؤُومٌ إلى الظُهْر[3]
فما بالُ هذا الأمرِ أصبحَ ضائعاً، — وأنتَ -أمينَ اللهِ- تحكُمُ في الأمرِ[4]!

- وقال في الشيب:

رأتْ طالعاً للشيبِ بينَ ذَوائبي — فباحتْ بأسرارِ الدموع السواكبِ.
وقالتْ: أشَيْبٌ؟ قُلْتُ: صُبحُ تجاربي — أنارَ على أعقابِ لَيْلِ نَوائبي.

- وقال يتشوّق إلى أهلهِ:

سَقى بلداً أهلي به وأقاربي — غوادٍ بأثقالِ الحَيا وروائحُ[5]،
وهبّتْ عليهم بالعَشِيِّ وبالضُحى — نواسمُ بَرْدٍ والظِلالُ فوائحُ[6]!
تذكّرتُهُمْ والنأيُ قد حالَ دونَهم — ولم أنْسَ، لكن أوْقَدَ القلبَ لافحُ[7].
ومّما شَجاني هاتفٌ فوقَ أيْكةٍ — ينوحُ ولم يعلَمْ بما هو نائح[8].
فقلتُ: اتّئِدْ! يَكْفيكَ أنّيَ نازحٌ، — وأن الذي أهواهُ عَنِّيَ نازحُ[9].
ولي صِبْيَةٌ مِثلُ الفِراخِ بقَفْرةٍ — مضى حاضِناها فاطّحَتْها الطوائح[10].

---

(١) المشهد: المكان المشهود (الذي يكثر فيه الناس)، هنا: «المعركة الشديدة». وأمّلت (لكم) راحة طول الدهر من عدوّكم.

(٢) سرى: سار في الليل (في الأوقات العصيبة).

(٣) مستبطن الحشا: كبير البطن (وليست بهذا المعنى في القاموس).

(٤) «أمين الله جملة معترضة (للنداء)- وجملة «تحكم» خبر «أنت». أو نقول: أمين (بالرفع) خبر «أنت». وجملة «تحكم» نعت «أمين».

(٥) الغادية: الغمامة التي تأتي في الصباح. الرائحة: الغمامة التي تأتي في المساء. بأثقال الحيا (المطر): بمطر ثقيل (كثير).

(٦) نواسم (؟) يقصد «نسم» (بفتح ففتح: مفردة): الريح الخفيفة. فوائح جمع فائحة (؟) متّسعة.

(٧) النأي: البعد. اللافح واللافحة (النار أوّ الريح) التي تلفح (تحرق) ما قابلها.

(٨) شجاني: حزنني، أحزنني. هاتف: رافع صوته. الأيكة: مجتمع من الشجر الملتّف.

(٩) اتّئد: تمهّل. نازح: بعيد (عن وطنه).

(١٠) أطّحتها الطوائح (؟). في القاموس «طحى»: ذهب في الأرض وهلك. (يقصد: نزلت بها الشدائد).

إذا عَصَفَتْ ريحٌ أقامتْ رؤوسَها فلم يَلْقَها إلاّ طُيورٌ بَوارح[1].
فمَنْ لِصِغارٍ بعد فَقْدِ أبيهِمُ سوى سانحٍ في الدهرِ، لوعَنّ سانحُ[2].

٤- * * جذوة المقتبس ١٨٣- ١٨٤ (الدار المصرية) ١٩٦ (رقم ٣٨٠)؛ بغية الملتمس ٢٥٥- ٢٥٦ (رقم ٦٦٢)؛ مطمح الأنفس ٢٦- ٢٧؛ الصلة ١٥٣؛ معجم الأدباء ٧: ٢٢١- ٢٢٥؛ بغية الوعاة ٢٣٨؛ نفح الطيب ١: ٤٣٦- ٤٣٧، ٣: ٥٤٧- ٥٤٩؛ الأعلام للزركلي ٢: ١٩٠ (١٧٧).

ابراهيم بن غانم الكاتب

١- هو أبو إسماعيلَ إبراهيمُ بنُ غانمِ بنِ عبدونٍ الكاتبُ المَغْربيّ، كان مولدُه نحوَ سَنَةِ ٣٦٠ (٩٧٠- ٩٧١ م). وقدِ انتقل إلى مِصْرَ فعاش فيها مُدّةً ثمّ عاد إلى القيروان حيثُ تُوُفّي سَنَةَ ٤٢١ (١٠٣٠ م).

٢- كان إبراهيمُ بنُ غانمٍ الكاتبُ أديباً ناثراً وشاعراً كُتّابيَّ الشعرِ (يَغْلِبُ على شِعرِه أسلوبُ الكُتّابِ: صحيحُ المعاني والتراكيبِ قليلُ الرونق). وكان يُوجزُ في المعاني ويَسْلُكُ في النظم على أسلوبٍ واحدٍ ويلجأ إلى الصِناعة. وأبرزُ فنونِهِ المدحُ والهِجاء والمعاني الوُجْدانية في المواعظِ خاصةً. وكانتْ له مُشاركةٌ في الفلسفةِ والهندسة.

٣- مختارات من شعره

- قالَ إبراهيمُ بنُ غانمٍ الكاتبُ في البخيلِ والبُخل:

قُلْ للبخيلِ: وإنْ أصبَحْتَ ذا سَعَةٍ، لأنت بالبُخلِ في ضيقٍ وإقلالِ:
لَتَأْسَفَنَّ على تَرْكِ النَدى نَدَماً إذا تَخَلّيْتَ من أهلٍ ومن مالِ[3].

---

(١) إذا عصفت ريح (حدثت حركة) أقامت (رفعت).... طيور بوارح (جمع بارح): تمرّ عن يمينك إلى يسارك (وكان ذلك دليل الشؤم والحرمان).

(٢) السانح: الطائر الذي يمر من يسارك إلى يمينك (دليل الخير والبركة). في القاموس (١ : ٢٣٠): «من لي بالسانح بعد البارح أي بالمبارك بعد الشؤم».

(٣) الندى: الكرم. إذا تركت الكرم (الإحسان إلى الناس) الآن ثم اتّفق أن افتقرت (في المستقبل) وتخلّيت عن أهلك (بموتهم) وعن مالك (بالفقر) فإنّك لن تجد حينئذ أحداً من الناس حولك.

ومَنْ رأى في العُلى من مالِه عِوَضاً ... أفضى إلى خيرِ أعْواضٍ وأبْدالِ[1].

- وقال في حُسْنِ الصبر:

رُبّما كانــتِ الخلائــقُ- إن ضــا ... قتْ بخَطْبٍ- معدودةً في الخطوبِ[2].

وتَهونُ الأحــداثُ عنــد مُعــانٍ ... لِفؤادٍ شَهْمٍ وصــدرٍ رحيــبِ[3].

ورجـــاءُ المَعْسورِ يُثْمِرُ في الأنـ ... ـفسِ يُسْراً تنالُــه من قريــبِ[4].

والصبورُ الداعي إلى الله مَحْـ ... ـبوبٌ مُجابٌ مِنَ السميعِ المُجيبِ[5].

فتوكّــلْ عليــه يَكْفِــكَ، وآلْزَمْ ... حُكْمَ ذي حِكْمــةٍ ورأيٍ مُصيــبِ.

- وقال يَصِفُ النيلَ في مِصْرَ:

والنيــلُ بــينَ الجانِبَيْنِ كأنّما ... صُبّتْ بصَفْحَتِه صَفيحةُ صَيْقَلِ[6].

يأتيــكَ في كَــدَرِ الزواخرِ مَدُّهُ ... بِمُمَسَّكٍ من مائِــه ومُصَنْــدَلِ[7].

فكــأنّ ضوءَ البــدرِ في تَمْويجِه ... برقٌ يموجُ عــلى سحابٍ مُسْبَلِ[8].

وكــأنّ نُورَ السُرْجِ من جَنَباتِــه ... زُهْرُ الكواكبِ تحتَ ليلٍ ألْيلِ[9]،

مِثْــلَ الرياضِ مُفَتَّقاً أنوارُها ... يبــدو لعــينٍ مُشَبَّهٍ ومُمَثَّــلِ[10].

---

(١) إنّ الذي ينفق ماله في سبيل العلا (المجد) يجد عوضاً من المال وبديلاً منه (في مكانته عند الناس).

(٢) إذا ضاق خلق الإنسان أو طبعه أو صدره بمصيبة نزلت به، فإنّ خليقته (أو طبيعته) تصبح حينئذ مصيبة دائمة عليه أكبر من المصائب التي تنزل به حيناً بعد حين.

(٣) معان (اسم فاعل من عاني: مختبر لأمور الحياة) ومعان (اسم مفعول من أعان) كان له فؤاد (قلب) شهم (شجاع) يعينه على تلقّي مصائب الدهر.

(٤) الأمل في النفس يساعد على احتمال الأحداث. من قريب: بسهولة وسرعة.

(٥) السميع المجيب (هو الله).

(٦) سطح النيل هادىء أبيض لامع كأنه صفيحة (قطعة حديد: سيف) صيقل (حدّاد).

(٧) الزاخر: الممتلىء والمضطرب. المدّ: (هنا) الفيضان. حينما يمدّ (يفيض) نهر النيل وتصبح مياهه الزاخرة (الكثيرة المضطربة) ممزوجة بالكدر (بالأتربة) يصبح لها رائحة طيّبة كالمسك والصندل.

(٨) المسبل: المرخى، المدلّى.

(٩) زهر الكواكب: الكواكب التي تلمع. ليل أليل (شديد السواد).

(١٠) في هذه الحال يشبّه الشاعر سطح نهر النيل ببستان تفتّقت (تفتّحت) أنواره (جمع نور بفتح النون: الزهر الأبيض).

والبدرُ يبخَلُ ثمّ يبذُلُ رَغْبةً   أنْ يستردَّ فَليْتَــــه لم يبـــــذُلِ[1]

- ★ ★ الأنموذج ٢٢- ٢٥؛ الوافي بالوفيات ٦: ٧٨- ٧٩؛ مجمل تاريخ الأدب التونسي ١٢٧- ١٢٨.

أبو عبد الله بن الكتّانيّ

١- هو أبو عبدِ اللهِ محمّدُ بنُ الحَسَنِ بنِ الحسينِ المَذْحِجيُّ الأندلسيّ المعروفُ بابن الكَتّانيّ، وُلِدَ بُعَيْدَ ٣٤٠ هـ (٩٥٢ م) وسكن قُرْطُبَةَ.

أخذَ ابنُ الكَتّاني صِناعةَ الطِبِّ عن عمِّهِ أبي الوليدِ محمّدِ بنِ الحسينِ، وأخذَ المَنْطِقَ وعلومَ الفلسفةِ والفَلَك عن نَفَرٍ منهم أبو عبدِ اللهِ محمّدُ بنُ عَبْدونِ الجَبَلِيّ الطبيبُ وعُمَرُ ابنُ يونسَ بنِ أحمد الحرّانيّ وأحمدُ بنُ حَفْصونِ الفيلسوفُ ومَسْلَمَةُ بنُ أحمدَ المَجْريطيّ (ت ٣٩٩ هـ)؛ وأخذَ عنه ابنُ حَزمٍ (ت ٤٥٦ هـ).

اتّصلَ أبو عبدِ الله بن الكَتّانيّ بالمنصور بن أبي عامرٍ (ت ٣٩٢ هـ) وبابنهِ المُظَفَّرِ (ت ٣٩٩ هـ) وكان طبيباً لَهُما. ثمّ إنّه انتقلَ في أولِ الفِتْنة بينَ العَرَبِ والبربرِ في قُرطبةَ على الخِلافة، نحو ٤٠٠ هـ، إلى سَرَقُسْطَةَ. وكانتْ وفاتُه قريباً من سَنَةِ ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م).

٢- أبو عبدِ اللهِ بنُ الكَتّانيّ طبيبٌ ماهرٌ، وقد كانتْ له مُشاركةٌ في المَنْطِق وعلومِ الفلسفةِ ومقدرةٌ في الأدب. ومَعَ أنّ شِعره عاديٌّ فيه جَفافُ شِعر العلماء، فإنّ اطّلاعه على الشِعر وأقوالِ الشُعراء كان واسعاً جِدّاً، كما نرى من كتابهِ «كتاب التشبيهات» من أشعار أهل الأندلس، وهو مختاراتٌ من الشِعر على الأغراض: السماء والمطر، الربيع والزهر، الورد، الشراب وأوصاف الخمر، الشَعْر وسواده وشُقرته، العِناق والوداع، النيران، الخيل، السيوف، الخوف، الدَواة والقلم

---

(١) والبدر يبخل (يستتر بالغيم) ثمّ يبذل (يظهر من خلال الغيم) رغبة أن يستره (أن يعود إلى استتاره وراء الغيوم)....

والصَحيفة، البُخل، هَجْوُ النساء، اللِحى، الشيب والهَرَم، وأشباه ذلك. وله أيضاً كتاب «محمّد وسُعدى» وغيره.

٣- مختارات من آثاره

- قال محمّدُ بن الحسن المَذْحِجيُّ الأندلسيُّ في الغزل والنسيب والخمر:

ألا قد هَجَرْنا الهَجْرَ واتّصلَ الوَصْلُ، وبانتْ ليالي البَيْنِ وآجتمع الشَمْلُ.

فسُعْدى نديمي والمُدامةُ رِيقُها، ووَجْنَتُها رَوْضي وتَقْبيلها النُقْل.

- وقال في النسيب:

نأيتُ عنكم بلا صبرٍ ولا جَلَدِ، وصِحتُ: «واكبدًا!» حتّى مَضَتْ كَبِدي[١].

أضحى الفِراقُ رفيقاً لي يُواصِلُني بالبُعْدِ والشَجْوِ والأحزانِ والكَمَدِ[٢]؛

وبالوجوه التي تبدو فأُنْشِدُها، وقد وَضَعْتُ على قلبي يَدي بيدي:

إذا رأيتُ وجوهَ الطيرِ قُلْتُ لها: لا باركَ اللهُ في الغِربان والصرد[٣]!

٤- كتاب التشبيهات (عني بتصحيحه محمد عبد المعين خان)، كمبردج (تعريف مجلة المجمع ٢٧ : ١١٨)؛ (تحقيق الدكتور احسان عبّاس)، بيروت (دار الثقافة) ١٩٦٦ م.

★ جذوة المقتبس ٤٥- ٤٦ (الدار المصرية) ٤٩-٥٠ (رقم ٣٥)؛ بغية الملتمس ٥٧ (رقم ٨١)؛ التكملة ١١٨؛ المحمّدون ٢١٠؛ المغرب ١ : ٢٠٦؛ معجم الأدباء ١٨ : ١٨٤-١٨٥؛ الوافي بالوفيات ٣ : ١٦؛ طبقات الأطبّاء ٢ : ٤٥؛ الأعلام للزركلي ٦ : ٣١٣-٣١٤ (٨٣).

إسحاق بن إبراهيم

١- هو إسحاقُ بنُ إبراهيمَ المعروفُ بالمَغْربيّ الرافضيّ، يبدو أنّه كان من أهلِ القُطْرِ التونسيّ، قَتَله المُعِزُّ بنُ باديسَ، سَنَةَ ٤٢٠ (١٠٢٩ م). لأنّه كان سبّاباً (لأبي بكرٍ وعُمَرَ).

---

(١) نأيت: بعدت، ابتعدت. الجلد: الاحتمال (الصبر على البعد). حتى مضت كبدي: تقطعت.

(٢) الشجو: الحزن. الكمد: الألم من كتمان الحزن.

(٣) الصرد (بضمّ ففتح): طائر كبير الرأس والمنقار (جمعه صردان بكسر الصاد) وكانوا يتشاءمون به كما يتشاءمون بالغراب.

٢- يبدو أنّ إسحاقَ بنَ إبراهيمَ كان شاعراً قديراً مُحْسِناً وناقداً، وكانَ يتعصّبُ لابنِ هاني الأندلسيّ (ت ٣٦٢ هـ) إذ كان يجمَعُ بينهما الهوى للدولة الفاطميةِ وإنْ لم يَسْلُكْ طريقَه في المُبالغات المُسْتَهْجنة والألفاظِ التي تُقَعْقعُ. وله شيءٌ منَ الشعرِ الرائق.

٣- مختارات من شعره

- لإسحاقَ بنِ إبراهيمَ قصيدةٌ في المدح منها (النائل: العطاء):

ثنـــــاؤكَ كالروضِ في نَشْرِهِ، وجودُك كالغَيْـــث في قَطْرِهِ[1].

وما أنا مِمّنْ يَبْتغي نائلاً بمَدْحِـك إذ جـاء في شِعره[2].

ولكنْ لِساني إذا ما أرَدتّ (م) مديحـــاً خَطَرْتَ عـــلى ذِكْره.

فخانتْ عدوَّك أيامُه ولاقـــى الحوادثَ من دَهْره.

ولا عاشَ يوماً به آمِناً ولا بَلَـــــغَ السُّؤل في أمْره.

٤- ★ ★ الأنموذج ٤٥- ٤٦؛ الوافي بالوفيات ٣٩٨- ٤٠٠.

فيما يلي، مُؤَخَّرةً، طبعات كتب القزّاز النحوي القيرواني ومراجع ترجمته - الواردة سابقاً ص ٣٥٤-:

٤- كتاب فيه ذكر شيء من الحلى (عني بحلّ ألفاظه طاهر النعساني وأحمد قدري الكيلاني) (الناشر: مكتبة عنوان النجاح- حماة)، صيدا (مطبعة العرفان) ١٣٤١ هـ = ١٩٢٢ م.

- ضرائر الشاعر: ما يجوز للشاعر عند الضرورة (تحقيق محمّد زغلول سلاّم ومحمّد مصطفى هدّارة)، الاسكندرية (منشأة المعارف) ١٩٧٣ م.

- كتاب العشرات في اللغة، صيدا ١٣٣٤ هـ.

★ القزّاز القيرواني، تأليف المنجي الكعبي، تونس (الدار التونسية للنشر) ١٩٦٨ م.

الأنموذج ١٢٣- ١٢٨؛ إنباه الرواة ٣: ٨٤- ٨٧؛ المحمّدون من الشعراء ١٨٥- ١٨٦؛ معجم الأدباء ١٨: ١٠٥- ١٠٩؛ الوافي بالوفيات ٢: ٣٠٤- ٢٠٥؛ وفيات الأعيان ٤: ٣٧٤- ٣٧٦؛ بغية الوعاة ٢٩؛ بروكلمن، الملحق ١: ٥٣٩؛ الأعلام للزركلي ٦: ٢٩٩ (٧١).

---

(١) النشر: الرائحة الطيبة. القطر: سقوط المطر.

(٢) النائل: العطاء.

الحُصْري صاحبُ زَهْرِ الآداب

١- هو أبو إسحاقَ إبراهيمُ بن عليٍّ بنِ تميمٍ الأنصاريُّ المعروفُ بالحُصْري[١] القَيْرواني، كان على شيءٍ من الوجاهة في بلدهِ وعلى كثيرٍ من العِلْمِ بالأدب، فكان شُبّانُ القيروانِ يجتمعون عندَه ويأخذون عنه. ويبدو أنّه كان يتكسّبُ بالشعر أو يرتزقُ بتآليفهِ «حتّى انثالتْ عليه الصِلاتُ من الجِهات» (وفيات الأعيان ١ : ٥٤). وكانتْ وفاتُه في المنصورية قُرْبَ القيروان سَنَةَ ٤١٣ هـ (١٠٢٢ م) وقد جاوز أشُدَّه.

٢- قال ياقوتُ الحَمَويُّ: وكانَ (أبو إسحاق الحصري) شاعراً نَقّاداً عالماً بتنزيل الكلام وتفصيلِ النِظام يُحِبُّ المُجانسة والمطابقة ويرغَبُ في الاستعارة، تَشَبُّهاً بأبي تمّامٍ في أشعاره وتتبُّعاً لآثاره. وعندَه من الطبع ما لو أرسَلَه على سَجِيّتهِ لجَرَى جَرْيَ الماء ورقَّ رِقّةَ الهواء (معجم الأدباء «٢: ٩٥ »).

والحُصْري هذا[٢] مُصَنِّفٌ تدُور كُتُبه على الأخبار الطريفةِ والأشعار اللطيفة. من كتبه: زهر الآداب وثمر الألباب[٣]- ذيل زهر الآداب (أو: جمع الجواهر في المُلَح والنوادر)- كتاب النُورين (نور الظرف ونور الطرف)- المَصون والدر المكنون (المصون في سِرّ الهوى المكنون مجموع مقطّعات شعرية)- المُعَشَّرات[٤].

٣- مختارات من آثاره

- قال أبو إسحاقَ إبراهيمُ بن عليٍّ الحُصْريُّ القيروانيُّ (معجم الأدباء ٢ : ٩٣):

---

(١) ابن خلكان ينسب الحصري إلى صنع الحصر وبيعها (اجتهاداً!). ويقول حسن حسني عبد الوّهاب (مجمل الأدب التونسي ١١٩) أن الحصري منسوب إلى قرية الحصر قرب القيروان. .

(٢) هنالك مصادر ومراجع تخلط بين إبراهيم بن عليّ الحصري القيرواني صاحب كتاب «زهر الآداب» وعلي بن الغني الحصري القيرواني الضرير صاحب قصيدة «يا ليل الصبّ». (وقد فعل بروكلمن مثل ذلك عند الكلام على أسماء الكتب) فَلْيتفطّن الدارس إلى ذلك.

(٣) ألّفه لأبي الفضل العباس بن سليمان.

(٤) بروكلمن ١ : ٣١٥.

يــا هَــلْ بَكَيْــتَ كما بَكَـتْ   وُرْقُ الحمائمِ في الغُصونِ[1]؛
هَتَفَــتْ سُحَيْراً والرُبــى   للقَطْر رافعــةُ الجفون[2].
فكأنّهــا صاغــتْ عــلى   شَجْوي شَجى تلك اللُحون[3]!
ذَكّرْنَني عَهْداً مضى   للأُنس مُنْقَطِعَ القرين.[4]
فتصرّمــتْ أيّامُهــا   وكأنّهــا رَجْــعُ الجفون[5].

- وقال في النسيب:

إنّي أُحِبُّـكَ حُبّاً ليس يَبْلُغـه   هَمّي، ولا يَنْتَهي فَهْمي إلى صِفَتِـهْ.
أقصى نِهايةِ عِلْمي فيه مَعْرِفتي   بالعجزِ مِنّيَ عن إدراكِ معرفتهْ.

- الشعر المطبوع والشعر المصنوع (من كتاب زهر الآداب):

الشعرُ مطبوعٌ ومصنوعٌ. فالمطبوعُ الجيّدُ الطبعِ مقبولٌ في السَمْعِ قريبُ المِثال بعيدُ المَنال، أنيقُ الدِيباجةِ رقيقُ الزُجاجة يدنو من فَهْمِ سامعهِ كدُنُوّه من وَهْم صانعه. والمصنوعُ مُثَقَّفُ الكُعوبِ معتدلُ الأنبوب، يَطَّرِدُ ماءُ البديعِ على جَنَباته ويجولُ رَوْنَقُ الحُسْن في صَفَحاته. وحَمْلُ الصانعِ شِعْرَه على الإكراه في التعمُّلِ بتَنْقيحِ المباني دونَ إصلاحِ المَعاني يُعَفّي آثارَ الصَنْعة ويُطفىء أنوارَ الصبغة!!، ويُخْرِجُه إلى فسادِ التعسُّفِ وقُبْحِ التكلُّف. وإلقاءُ المطبوعِ بيدهِ إلى قَبولِ ما يَبْعَثُه هاجِسُه ويثقفه!! وَساوِسُه- من غيرِ إعمالِ النَظَرِ وتدقيقِ الفِكَر- يُخرِجُه إلى حدِّ المُسْتَهْدَمِ الرثِّ وحيّزِ المَسْتَوْخَمِ الغَثّ. وأحْسَنُ ما أُجْرِيَ إليه وَعُوِّلَ عليه هو التوسطُ بين الحالين والمنزلةِ بين المنزلتين مِنَ الطَبْعِ والصَنْعة.

---

(1) بكيت (بفتح التاء) للتجريد (اذ يخاطب الشاعر نفسه). الورقاء: الحمامة. ورق (؟) الحمائم: الحمام (الرماديّ اللون؟) البرّي (ولعلّه أجمل صوتاً).
(2) الجفون (كذا في الأصل)، ولعلّها العيون. (رافعة العيون) تطلب من الله سقوط المطر.
(3) الشجا (هنا) والشجو: الحزن والهمّ.
(4) منقطع القرين (المثيل، الشبيه): عهد الشباب.
(5) تصرّم: انقضى. رجع الجفون (كناية عن السرعة).

٤- زهر الآداب (على هامش العقد)، مصر ١٣٠٢ هـ؛ (نشره زكي مبارك)، القاهرة ١٣٤٤ هـ؟؛ (نشرة عليّ البجاوي)، القاهرة ١٩٢٥ م؛ (بتحقيق أحمد أمين وعبد السلام محمّد هارون)، القاهرة (لجنة التأليف والترجمة والنشر)؛ (بتحقيق زكي مبارك ومحمّد محيي الدين عبد الحميد)، بيروت (دار الجيل) الطبعة الرابعة ١٩٧٢ م..

- ذيل زهر الآداب أو جمع الجواهر في الملح والنوادر القاهرة (المطبعة الرحمانية) بلا تاريخ؛ (حرّره عبد العزيز البشري)، القاهرة ١٣٥٣ هـ.

★ الأنموذج ١٧- ٢٠؛ بغية الملتمس ٢٠٩ (رقم ٥١٦)؛ معجم الأدباء ٢: ٩٤- ٩٧؛ وفيات الأعيان ١: ٥٤- ٥٥، ٣٩٤- ٣٩٥؛ الوافي بالوفيات ٦: ٦١- ٦٢؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٦٣٩- ٦٤٠؛ بروكلمن ١: ٣١٤- ٣١٥؛ الملحق ١: ٤٧٢- ٤٧٣؛ الأعلام للزركلي ١: ٤٤ (٥٠)؛ مجمل تاريخ الأدب التونسي ١١٩- ١٢١.

ابن دَرّاجٍ القَسطلّيّ

١- هو أبو عُمَرَ أحمدُ بنُ محمّدِ بنِ العاصي بنِ أحمدَ بنِ سليمانَ بنِ عيسى بن دَرّاجٍ، أصلُ أهلِهِ من بربر صِنْهاجة جاءوا إلى الأندلسِ في أيام الفَتْحِ مَعَ طارقِ بنِ زيادٍ في الأغلب، ثمّ استقرّوا في قَسْطَلّةِ دَرّاجٍ التي هي عند جَيّانَ (شرقَ قرطبةَ) فيما يبدو.

وُلِدَ ابنُ درّاجٍ في المُحَرَّمِ من سَنَة ٣٤٧ (آذار- مارس ٩٥٨ م) في جَيّانَ في الأغلب. ونحن لا نَعْرِفُ شيئاً يُذْكَرُ عن حَياتِهِ الأولى قبلَ أن يَتَّصِلَ بالمنصور بن أبي عامرٍ، سنة ٣٨٢ هـ (٩٩٢ م)، ويصبحَ شاعرَهُ. ومن الثابت أنّ ابنَ درّاجٍ قد رافقَ المنصورَ بنَ أبي عامرٍ في عددٍ من غَزَواتِهِ.

ولمّا تُوُفِّيَ المنصورُ بنُ أبي عامرٍ (٣٩٢ هـ= ١٠٠٢ م) خَلَفَهُ- في الحِجابة وفي الحَجْرِ على الخليفةِ هشامٍ المُؤَيَّدِ- ابنُهُ عبدُ المَلكِ فظلّ ابنُ درّاج يتمتّعُ بالحَظْوَةِ التي كانتْ له من قبلُ. ولكنْ لمّا تُوُفِّيَ عبدُ الملك وخَلَفَهُ أخوه عبدُ الرحمن (٣٩٨ هـ) سَقَطَتْ مَنْزِلَةُ ابنِ درّاجٍ في البَلاط العامِريِّ، فصبرَ ابنُ درّاجٍ على ذلك مُكْرَهاً.

ثمّ سَقَطتِ الدولةُ العامِريَّةُ التي كانت مستبدّةً بالخُلَفاء الأُمويّينَ في قرطبةَ وجاء سُلَيْمانُ المُسْتَعينُ إلى الخِلافة (٤٠٠ هـ) فمدحه ابن دَرّاجٍ، ولكنّ سليمانَ لم يَحْفِلْ بمديحِ ابن درّاجٍ.

واتّصلَ ابنُ درّاجٍ بالقاسمِ بن حَمّودٍ (وزيرِ سليمانَ المستعينِ في قرطبةَ) ومدحه ولكنْ لم يَنَلْ منه شيئاً، فجازَ البحرَ إلى سَبْتَةَ (في المَغرِبِ الأقصى) ومدح عليَّ بنَ حمّودٍ (أخا القاسمِ بن حمّود) فلم يَنَلْ منه شيئاً أيضاً.

عندَئذٍ عاد ابنُ درّاجٍ إلى الأندلسِ ومدح خَيْرانَ العامِريَّ صاحبَ المَرِيَّةِ (٤٠٥- ٤١٩ هـ) فأثابَهُ خَيْرانُ ثواباً قليلاً. فجاء ابنُ درّاجٍ إلى قرطبةَ (٤٠٧ هـ) ومدح الخليفة عبدَ الرحمنِ المُرْتَضى فلم يُثِبْهُ بشيء. وطال تطوّفُ ابنِ درّاجٍ بين بَلاطاتِ العامريّين من غيرِ أنْ يَحْصُلَ على فائدة.

وأخيراً ذهب إلى سَرَقُسْطَةَ ومدح المُنْذِرَ بنَ يحيى التُجِيبِيَّ (٤١٠- ٤١٤ هـ) فنالَ عنده حَظْوَةً فكَثُرَتْ مدائحُه في المنذر بن يحيى ثمّ في ابنهِ يحيى (٤١٤- ٤٢٠ هـ)؛ وأقْبَلَتِ الدُّنيا عليه واقْتَنى الأراضِيَ والضِياعَ. ويبدو أن شيئاً من الفُتورِ حَدَثَ بين ابنِ درّاجٍ وبين يحيى فغادرَ ابنُ درّاجٍ سرقسطةَ وجاء إلى دانِيَةَ (سنة ٤١٩ هـ) ومدح أميرَها مُجاهداً العامريَّ.

لم تَطُلْ حياةُ ابنِ درّاجٍ بعدَ ذلك فتُوُفِّيَ في دانِيَةَ في الأغلب، في النصفِ من جُمادَى الثانيةِ من سَنَةِ ٤٢١ (٢٢/ ٦/ ١٠٣٠ م).

٢- ابنُ درّاجٍ القَسْطلّيُّ شاعرٌ فَحْلٌ مُكْثِرٌ مُطيلٌ وكاتبٌ مترسّلٌ بارعٌ. وَهُوَ من جُمْلةِ الشعراء المُجيدين والعُلَماءِ المتقدّمين. وشعره أعلى طبقة من نثره.

وأسلوبُ ابن درّاجٍ مطبوعٌ على غِرارِ الشعرِ المَشْرقيِّ من شعرِ أولئك الذين يَتَكلّفون الغَوْصَ على المعاني ويتأنّقون في الصِياغة كأبي تَمّامٍ والمتنبّي حتّى سُمّي « متنبّيَ الغرب ». غيرَ أنّ في شعرِهِ- برُغْمِ ذلك كلّهِ- قَدْراً كبيراً من العُذوبة والسَلاسة، مَعَ شيءٍ من الغُموض أحياناً. وربّما رأيناه يُقَلّدُ أيضاً أبا نُواسٍ وابنَ الروميّ وابنَ هانِي الأندلسيّ وغيرَهم.

وشعرُه الذي وصلَ إلينا مُعْظَمُه مدائحُ ثمّ بِضْعُ قصائدَ في الرثاءِ والتعزية تَبْلُغُ خَمْساً. ثمّ هنالك شيءٌ من الغزل والوصف للطبيعة وللحرب مَعَ أبيات من الحكمةِ متفرّقة في القصائد. وابن درّاجٍ يُكْثِرُ من وصف الأمجادِ ويُشيد بعظَمَةِ الإسلام

إشادةً بارزةً، ولا غَرْوَ فطبيعة الحروبِ التي كان العرب يَخوضونَها في الأندلسِ في ذلك الحين كانتْ تَقْتَضي ذلك.

٣- مختارات من آثاره

- قال ابنُ درّاجٍ القسطلّيُّ يمدح المنصورَ بن أبي عامر، وكان المنصورُ قد أمره بأنْ يُعارِضَ قصيدةَ أبي نواسٍ في مدحِ الخَصيب بن عبدِ الحميدِ صاحبِ الخَراج في مصرَ (أجارةَ بَيْتَيْنا أبوكِ غَيورُ)، فقال ابنُ درّاجٍ قصيدة منها:

ألَمْ تَعْلَمي أن الثَواءَ هو التَوَى	وأنَ بيوتَ العاجزين قُبُورُ[١].
تُخَوِّفُني طُولَ السِفارِ، وإنّه	لِتَقْبيل كفٍّ العامريِّ سَفيرُ[٢].
دعيني أرِدْ ماء المَفاوزِ آجِناً	إلى حيثُ ماءُ المَكْرُماتِ نَميرُ[٣]،
وأخْتَلِسِ الأيّامَ خُلْسَةَ فاتكٍ	إلى حيثُ لي من غَدْرِهنّ خَفيرُ[٤]؛
فإنّ خَطيراتِ المَخاطرِ ضُمَّنٌ	لِراكِبِها أنَّ الجزاء خَطيرُ[٥].
ولَمّا تدانتْ للوَداعِ، وقد هَفا	بصَبْرِيَ منها أنّةٌ وزَفيرُ[٦]-
تُناشِدُني عهدَ المَوَدّةِ والهَوى،	وفي المَهْدِ مَبْغومُ النِداء صغيرُ[٧]

---

(١) الثواء: المكث والبقاء (في مكان واحد). التوى: الهلاك.... والذين لا يبرحون بيوتهم عجزاً منهم عن الضرب في الأرض تكون بيوتهم قبوراً لهم.

(٢) طول السفار: بعد السفر وطول مدّته. سفير: وسيلة إلى تقبيل كف المنصور بن أبي عامر (لنيل نداه وعطاياه).

(٣) ورد الماء: شربه. المفازة: البيداء التي يخشى فيها الهلاك وسمّيت مفازة للتفاؤل بأن الذي يسلكها يرجى له أن ينجو- يفوز ويخرج- منها. نمير: صاف، عذب.- اتركيني أشق (مجزومة: من الشقاء) واتعب حتّى أصل إلى المكان الذي فيه راحة وكرم.

(٤) واتركيني أغافل الأيّام بجرأة وعزم لأنجو منها إلى حيث آمن على نفسي منها.

(٥) ركوب المخاطر العظيمة يضمن للإنسان ثواباً عظيماً.

(٦) هفا: أسرع، ذهب. الزفرة: تنفّس طويل يصعّده الإنسان من همّ أو أسف - أنينها وزفرتها ذهبا بصبري.

(٧) المبغوم: الذي يشبه صوته البغام (صوت الظبي): طفل.

عَيِيٌّ بمرجوعِ الخِطاب، ولَفْظُهُ — بموقعِ أهواءِ النفوس خبير[1]-

عَصَيْتُ شَفيعَ النفس فيه وقادَني — رَواحٌ لِتَدْآبِ السُرى وبُكور[2].

لَئِنْ وَدّعتْ منّي غيوراً فإنّني — على عَزْمتي من شَجْوِها لَغَيور[3].

أُسَلِّطُ حَرَّ الهاجراتِ إذا سطا — على حُرِّ وجهي والأصيل هَجير[4]،

ولِلموتِ في عينِ الجَبان تَلَوُّنٌ، — وللذُعْرِ في سمعِ الجَرِيءِ صفير[5].

لقد أيْقَنَتْ أنّ المُنى طَوْعَ هِمّتي، — وأنّي بعَطْفِ العامريّ جَدير[6]!

وأيُّ فتًى للدينِ والمُلْكِ والنَدى — وتصديقِ ظنٍّ الراغبين نَزور[7]!

مُجيرُ الهُدى والدينِ من كُلِّ مُلْحِدٍ، — وليس عليهِ للضَلال مُجير[8]

تلاقَتْ عليه من تَميمٍ ويَعْرُبٍ — شُموسٌ تَلالا في العُلا وبُدور[9]

---

(١) عيِيّ: عاجز. بمرجوع الخطاب: بتبيان الألفاظ (بالرد على الأسئلة). ولفظه بموقع أهواء النفوس خبير: تأثير لفظه يصل إلى قلوب سامعيه.

(٢) الرواح: الرجوع في المساء، الذهاب مساء. التدآب: الدأب (بفتح الدال والهمزة)، المثابرة والاستمرار. السرى: السفر ليلاً.

(٣) إذا كانت امرأتي قد مانعت أنْ أسافر لأنّي غيور عليها، فأنا أيضاً غيور على أن أنفّذ ما أعزم عليه ولا أرجع عنه لئلا تشجى (يدخل على قلبها الحزن من ذلك).

(٤) حرّ الوجه: ما يبدو منه عادة (ما لا يستره الإنسان عادة- كما يفعل البدوي بالكوفية التي تستر جوانب وجهه فقط). الأصيل: منتصف الوقت بين الظهر وغياب الشمس. هجير: حرّ (بفتح الحاء).- وفي سبيل تنفيذ عزمي أعرّض وجهي للحر في نصف النهار حينما يكون الأصيل حرًّا لا يطاق.

(٥) في الديوان (ص ٢٩٩) وللموت في عيش، وهو خطأ مطبعي بلا ريب ولكن لم ينبّه عليه في باب الصواب والخطأ (ص ٦٢٦) - وحينما يكون للموت صور مختلفة في عين الجبان، وحينما يبلغ الخوف قدراً عظيماً حتّى تبدأ أذنا الجريء الشجاع تصفران من الخوف (تسمعان أصواتاً غير موجودة).

(٦) حينئذ أيقنت أنّي أستطيع أن أنال كلّ ما أعزم عليه. وهذا يجعلني أيضاً جديراً (مستحقًّا) بعطايا المنصور بن أبي عامر.

(٧) ليس هنالك رجل آخر غير المنصور بن أبي عامر ننتظر منه الدفاع عن الدين وعن الملك وننتظر منه العطايا التي تحقّق آمال الطالبين مهما تكن تلك الآمال كبيرة.

(٨) هو يجير (ينقذ، يحمي) الدين من الملحدين جميعاً، ولا يستطيع أحد أن يمنعه من القضاء على الضلال.

(٩) اجتمع في نسبه بنو تميم (دلالة على الكثرة والقوّة) ويعرب (دلالة على قدم المجد في أسلافه). ويعرب بن قحطان أيضاً أبو عرب اليمن (دلالة على عراقة المجد).

من الحِمْيَرِيّينَ الذين أَكُفُّهُمْ سحائبُ تَهْمي بالنَدى وبُحور[١].
لهم بَذَلَ الدهرُ الأبيُّ قِيادَه، وهم سَكّنوا الأيّامَ وَهْيَ نَفور[٢]؛
وهم ضَربوا الآفاقَ شَرْقاً ومَغْرِباً بجَمْعٍ يسير النصرُ حَيثُ يَسير؛
وهم نَصَروا حِزْبَ النُبُوَّةِ والهُدى وليس لها في العالمينَ نَصير.
ألا كلُّ مدحٍ عن مَداكَ مُقَصِّرٌ، وكلّ رجاءٍ في سِواكَ غُرور[٣].
لقد حاطَ أعلامَ الهُدى بِكَ حائطٌ، وقدّرَ فيك المَكْرُماتِ قَدير[٤].
مُقيمٌ على بذلِ الرَغائبِ واللُّهى، وفِكْرُكَ في أقصى البلاد يَسير[٥].
فعَزْمُكَ بالنصرِ العزيزِ مُخَبِّرٌ، وسَعْدُكَ بالفتحِ المُبينِ بَشير.

- وقال يتغزّل[٦]:

وَحْشِيّةَ اللفظِ، هل يُودى قَتيلُكُمُ؟ دَمي مُضاعٌ، وجاني ذاك عَيْناكِ[٧].
إنّي أراكِ بقتلِ النفسِ حاذِقَةً؛ قولي- فَدَيْتُكِ-: مَنْ بالقتلِ أَوْصاك!
ما لي وللبرقِ أَسْتَسْقيهِ من ظَمَإٍ؛ هيهاتِ، لا رِيَّ إلاّ من ثَنايـاك!
لولا الضُلوعُ لَطارَ القلبُ نَحْوَكُمُ. ضَعي- بعيشِكِ- فوقَ القلبِ يُمْناك.

---

(١) الحميريّين: عرب الجنوب (دلالة على جمع المجد من عرب الشمال ومن عرب الجنوب). تهمي: تهطل: تسقط بكثرة. الندى: الكرم.

(٢) إن الدهر الذي يأبى أن يطيع أحداً من الناس انقاد لهم طائعاً راضياً. والأيّام التي هي نفور (كثيرة النفرة والهرب والجفلة من الناس) هدأت على يدهم.

(٣) غرور: خديعة النفس، مطلب لا يتحقّق.

(٤) الحائط: الحامي، المدافع. والمقصود بقوله: حائط وقدير «الله تعالى».

(٥) هو في بلده مستقر يعطي الناس الرغائب (جمع رغيبة: الأمر المرغوب فيه) واللهى (جمع لهية- بفتح اللام أو بضمّها-: العطية الجزيلة، ألف دينار، أو ألف درهم)، بينما هو يفكر (ويدير) جميع أنحاء البلاد.

(٦) هذه الأبيات تقليد لمقطوعة للشريف الرضيّ (ت بغداد ٤٠٦ هـ):
يا ظبية البان ترعى في خمائله ليَهْنِك اليوم أن القلب مرعاك.

(٧) وحشيّة اللفظ: لفظها يشبه بغام (بضمّ الباء) بقر الوحش (الظباء). في الديوان (ص ٥٣٨): هل يودي (بنقطتين تحت الياء): يهلك، يموت. والأصوب أن نقرأ: هل يودى (بألف مقصورة): هل تدفع ديته (بكسر الدال وفتح الياء بلا تشديد)، يدلنا على ذلك تتّمة البيت: دمي مضاع.... جاني ذاك عيناك: عيناك سفكتا دمي ثمّ حالتا بيني وبين أن أطلب منك دية (لأنّي أحبّك).

أصْلَيْتِني لَوْعَةَ الهِجْرانِ ظالمةً رُحْماكِ من لَوْعة الهِجْرانِ رُحْماك[1]!
حاشاكِ أن تَجْمَعي حُسْنَ الصِفاتِ إلى قُبْحِ الصَنيع بِمَنْ يَهواكِ، حاشاك.
إن كانَ واديكِ مَمْنوعاً فمَوْعِدُنا وادي الكَرى فَلَعَلّي فيه ألقاك[2]!

– وكتب ابنُ درّاجٍ القسطلّيّ إلى مُنذرِ بنِ يحيى التُجيبي صاحبِ سَرَقُسْطَةَ (٤١٠- ٤١٤ هـ) رسالةً منها: (:الذخيرة ١ : ٦٤):

حيّاكَ بتحيةِ المُلْكِ مَنْ أحيا بك دعوةَ الحقّ، وردّاك رِداءَ الإعظام مَنْ[3] أعلى بك لِواءَ الإسلام: مُجْرِي الأقدارِ بإعلاءِ قَدْرِكَ ومُصَرِّفُ الليلِ والنهارِ بإعزازِ نَصْرِك، ومُظْهِرُ[4] مَنْ أطاعَك على مَنْ عَصاك، ومُدَمِّرُ مَنْ عاداكَ بسُيوف مَنْ والاك. قد جَعَلَ الله أوّلَ أسمائِك أوْلى بأعدائك وأقربَ اعتزائِك صَفْواً لأوليائك[5]،؛ ثمّ سَما بك حاجبُ الشمسِ نُوراً وأُنْساً لهذا الإنس[6] ونَفْسَ حياةٍ لكلِّ نَفْسٍ.

– وقال يمدحُ يحيى المظفّرَ بنَ المنذرِ التُجِيبيَّ (٤١٤- ٤٢٠ هـ) صاحبَ سَرَقُسْطَةَ. وهذه القصيدة تَبْعُدُ عن التقليدِ:

نجومُ الصِبا، أين تلك النجومْ؟ نَسيم الصَبا، أينَ ذاك النسيمْ[7]؟
أما في التَخيُّلِ منها ضِياءٌ، أما في التَنَشُّقِ منها شَميمْ[8]؟

---

(١) أصلاه: عرّضه لحر النار. اللوعة: حرقة في القلب، ألم من حبّ أو همّ.

(٢) واديك: منزلك، المكان الذي تسكنينه. وادي الكرى: النوم – إذا كنت لا أستطيع أن أزورك في أرضك (خوفاً من أهلك) فلعلّي أراك في نومي (إذ ليس لأهلك سلطة على الرؤيا في النوم، ولا يستطيعون أن يمنعوها عنّي).

(٣) ردّاك: ألبسك. من: الذي (أي الله).

(٤) مظهر: ناصر.

(٥) أوّل أسمائك (المنذر: الذي يحمل خبر الشرّ). اعتزاؤك: انتاؤك، انتسابك: التجيبي (الجيب؟).

(٦) الأنس (بضم الهمزة): الحديث المفرح و(بكسر الهمزة): الناس.

(٧) نجوم (جمع نجم: أول ما ينبت من عشب الأرض). نجوم الصبا: أوائل الشباب. أين تلك النجوم: (نجوم السماء)أين أيام شبابنا الأولى؟ أين ذاك النسيم: أين ذلك الهواء الذي كنا نتنشّقه في أوطاننا؟

(٨) أليس في تخيل الإنسان لأيّام شبابه ضياء (رؤية) لذلك الشباب الذي مضى (شعور به)؟ أليس في التنشّق (محاولة شمّ الريح من نحو الوطن) شعور بأن الإنسان قريب من وطنه أو موجود فيه؟

لقـــد شَطّ رَوْضٌ إليـــهِ أحنُّ،	وغـارتْ مِيـاهٌ إليهـا أهـيم[١]،
لَيالِيَ إذ لا حبيـــبٌ يَصُـــدُّ،	وعَهْـــدِيَ إذْ لا عَـــذولٌ يلومْ؛
وخَمْري مِنَ الـدُّرِّ مِسْكٌ مُذابٌ،	ورَوْضي من السَّحْر دَلٌّ رَخـيم[٢]؛
وغُصْنُ شبـــابٍ عـــلاهُ المَشيـبُ	كغَـضٌ رِيـاضٍ علاها الهَشيم[٣].
فيـــا عَجَبـــاً لِصُروفِ الزمـانِ	شُهوداً لَنـا وَهْيَ فينا خُصوم[٤]!
فكيـفَ قضى حُكْمُ هذا القضاءِ	عـــليَّ لِدَهْرِيَ وَهْوَ الظَّلوم[٥]؟
فنحنُ ديونُ النَوى، كـــلَّ يوم	عـلى حُكْمِـهِ يَقْتَضينـا الغَريم[٦]!
جُسومٌ تطـــــيرُ بِهِنَّ القلوبُ	بأجْنِحَــــــةٍ رِيشُهُنّ الهُموم[٧]
بِكُـلِّ هَجـيرٍ لوِ النـارُ تَصْلَى	جَحـيماً لأصْبَحَ وَهْوَ الجَحـيم[٨]!
وفي كُلّ بحرٍ- كما قيل- خَلْقٌ	صغـير يُهاويـه خَلْقٌ عَظيم[٩]؛

(١) شط: ابتعد. غار الماء: ذهب في الأرض وضاع. هام: أحبّ امرأة. هام بالمرأة: حَنّ (بفتح الحاء) اشتاق. أهيم إليه (ليست في القاموس): اشتاق إليه.

(٢) خمري (الخمر التي أشربها وأسكر بها) من الدرّ (اللؤلؤ من الاسنان، أسنان المحبوب: من فمه). مسك مذاب: ريق المحبوب. في الديوان (ص ٢٧١): وروضي من السحر (بكسر السين)؛ وأرّجح أنا القراءة: وروحي (بفتح الراء: الراحة والانتعاش) من السحر (بفتح السين: الصدر!). الدلّ: الدلال، الجرأة على الزوج بتغنّج. الرخيم: (الكلام) اللّين العذب.

(٣) ليس الشباب جميلاً مع الشيب أو مع الشعر الأبيض، كما أن الروض الناضر لا يكون جميلاً إذا كان فيه عشب يابس.

(٤) من العجيب أن أحداث الدهر سالمتنا (في الماضي) مع أنّها (في الأصل والعادة) عدوّ لنا.

(٥) وكيف أعانني القضاء على دهري (ووهبني سعادة)، مع أن القضاء في العادة ظلوم (يظلم: يسلب الناس ما هو حقّ لهم)؟

(٦) نحن البشر ديون للدهر في هذه الحياة. وفي كلّ يوم يطلب الغريم (صاحب الدين، أي الدهر) دينه ممّن يريد: بالإفقار، بالمصائب، بالموت، الخ.

(٧) إنّ القلوب تتمنّى أمنيات عسيرة التحقيق ثمّ تحمل الأجسام على تحقيق هذه الأمنيات فتلقى الأجسام من جرّاء ذلك تعباً شديداً.

(٨) يسعى الإنسان إلى أن يحقّق رغباته في أحوال قاسية: في هجير (حر نصف النهار) ولو أن هنالك شيئاً أشدّ حرًّا من النار (من الجحيم: جهنّم) لكان هو ذلك الهجير.

(٩) وفي كلّ بحر عظيم يخوض فيه ذلك الإنسان الصغير. يهاويه ليست في القاموس. والأقرب أن يكون =

كأنّـــا عليـــه نُجومُ الثُّرَيّـــا ... تَسير وقـد أفْرَدَتْها النجوم[١] .
وفي اسم المظفّر فـــأل الحيـــاة ... ليحيـــا الغريـــب بــه والمقـيم.
يُبَشِّرُنـــا بِسَنـــاهِ الصَـبــاحُ ، ... وتُخْبِرُنـــا عن نَـداهِ الغُيوم[٢] .
وفي كـــلّ نـــادٍ مُنـــادٍ إليـــك: ... هَلُمَّ إلى حيثُ يَغْنـى العَديم[٣] ؛
هَلُمَّ إلى حيــثُ تُنْسى الرَزايا ، ... هلّم إلى حيثُ تُوسى الكُلوم[٤] .
عُـلاً أعْرَقَتْ فيك من عَهْدِ عادٍ ... يَــدينُ الكريمُ بهـا واللَئـيم[٥] .
وفي كـــلّ بَرٍّ وفي كـــلّ بحرٍ ... صِراطٌ إليـــك لَهـــا مُسْتَقـيم.
وسيفُـــك للـــدينِ رُكْنٌ شديـدٌ ، ... وحَظُّك في المُلْك حَظٌ عَظـيمْ.
لَبِسْتَ إليهـــا من المُلْـكِ تاجـاً ... يُهِــلُّ الهِــلالُ لـــه والنُجوم[٦]
عـــلى حُلَـــلٍ حاكَهُنّ السَنـــاءُ ... وأرْدِيَـــةٍ نَسَجَتْهـــا الحُلوم[٧].

= « يهاديه » (وهذه أيضاً ليست في القاموس ، وإن جاءت في شعر الأخطل). والمقصود يدفعه أمامه بيسر. والإشارة هنا إلى قول عمرو بن العاص حينما سأله عمر بن الخطّاب أن يصفَ له البحر ، فكتب إليه عمرو بن العاص: «البحر خلق كبير يركبه خلق صغير. وراكبه دود على عود. الداخل فيه مفقود ، والخارج منه مولود ».

(١) الثريّا عنقود نجوم. أفردتها: عزلتها.- كان الإنسان في البحر مثل عنقود الثريا في السماء إذا لم يكن في السماء نجوم غيرها (أي شيء ضئيل جدًّا).

(٢) سناء (نور الصباح جزء من سنائه: بشاشة وجهه ولطفه) والمطر نموذج من كرمه.

(٣) العديم: الفقير. في الديوان (ص ٢٧٣): يغنى (بالبناء للمجهول) ويجوز أن تكون يغنى (بالبناء للمعلوم).

(٤) الرزايا جمع رزيّة: مصيبة. الكلوم جمع كلم (بسكون اللام): جرح. أسا الجرح: داواه.

(٥) علا = العلا ، العلى: المجد والرفعة والعظمة. أعرقت: كانت عريقة (قديمة في أسلافه). يدين: يقرّ. يدين الكريم بها واللئيم: يقرّ (له بهذا الكرم) جميع الناس.

(٦) هلّ يهلّ (بالبناء للمعلوم أو للمجهول) الهلال: ظهر. وهلّ الرجل: فرح.- إذا رأى الهلال والنجوم تاجك فرحن ثمّ رفعن أصواتهن من الدهشة والحسد (لأنّ تاجك أجمل منهن).

(٧) السناء: العلّو والارتفاع (والشاعر يقصد النور؟). الحلوم جمع حلم (بالكسر): العقل. يمدح الشاعر ممدوحه بكرم الأصل وبالحكمة (؟).

وللسابغـــــــاتِ بُحورٌ تَمورُ، وللسابحـــــاتِ سَفـــينٌ يَعومُ[1]

كـــــأنّ خَوافِـــــقَ أعْلامِهِنَّ طيورٌ على الماء منها تَحوم[2].

فــلا شاءَ دَهْرُكَ مــا لا تشاءُ، ولا رامَ شانيكَ ما لا تَروم[3].

فنصْرُكَ أوّلُ مـــا نَسْتَمِـــدُّ، وعُمْرُكَ آخِرُ مــا نَسْتَـــديم[4].

٤- ديوان ابن درّاج القسطلي (حقّقه محمود علي مكّي)، دمشق (المكتب الإسلامي) الطبعة الأولى ١٣٨١ هـ = ١٩٦١ م، الطبعة الثانية ١٣٨٩ هـ.

★ جذوة المقتبس ١٠٢- ١٠٦ (رقم ١٨٦) الدار المصرية ص ١١٠- ١١٤؛ بغية الملتمس ١٤٧- ١٥٠ (رقم ٣٤٢)؛ الصلة ٤٤ (رقم ٧٧)؛ الذخيرة ١: ٥٩- ١٠٣؛ الوافي بالوفيات ٨: ٤٩- ٥٢؛ وفيات الأعيان ١: ١٣٥- ١٣٩؛ المغرب ٢: ٦٠- ٦١؛ المطرب ١٥٦- ١٥٧؛ شذرات الذهب ٣: ٢١٧- ٢١٩؛ نفح الطيب ٣: ١٩٥- ١٩٦؛ ٣٤١- ٣٤٢؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٧٤٢- ٧٤٤؛ بروكلمن، الملحق ١: ٤٧٨؛ نيكل ٥٦، مختارات نيكل ٣٣- ٣٤؛ الأعلام للزركلي ١: ٢٠٤ (٢١١).

عصر ملوك الطوائف

يمتدُّ عصرُ ملوكِ الطوائفِ في الأندلسِ جِيلَيْنِ: من سقوطِ الخِلافة المَرْوانية سَنَةَ ٤٢٢ (١٠٣٧ م) إلى أنْ قضى يوسفُ بنُ تاشفينَ[5] على ملوكِ الطوائفِ سَنَةَ ٤٨٤

---

(١) السابغات: الدروع. تمور: تموج (كناية عن كثر الجنود). السابحات: الخيل (؟). سفين: سفن، مراكب (كناية عن كثرة الفرسان؟).

(٢) كأن الأعلام التي تخفق فوق جيشك (لكثرتها) جماعات من الطيور فوق ماء البحر لا أعلام لسفن (لأنّ السفينة يرتفع عليها علم واحد أو علمان اثنان أو ثلاثة أعلام. ولكّن كثرة سفنك بكثرة أعلامها تشبه جماعات الطيور.

(٣) الشانىء: العدوّ المبغض. رام يروم: أراد، أحبّ.

(٤) أوّل دعائنا أن ينصرك الله، وآخر دعائنا أن يديم الله بقاءك.

(٥) يوسف بن تاشفين أوّل سلاطين دولة المرابطين التي نشأت في المغرب سنة ٤٤٨ وكان لها في أوّل الأمر رئيس ليس بسلطان ثم أصبح يوسف بن تاشفين، سنة ٤٥٣، سلطاناً مستقلاً فيها. وسيرد تفصيل ذلك في صورة العصر السياسية لعصر المرابطين في الأندلس.

(١٠٧١ م). وأوائلُ ملوكِ الطوائفِ، في الأصلِ، كانوا- عندَ سُقوطِ الخِلافة المروانية- وُلاةً على مُدُنٍ مختلفةٍ فاستبدّوا بما كان تحتَ أيديهم ثم أوْرثوا الحُكْمَ عليهِ أولادَهم أو أتباعهم. وهنالك نَفَرٌ آخَرونَ كانوا من قبلُ قد حَكَموا مُستقلين في عددٍ من المدن كَبَني الحَجّاجِ في إشبيليةَ، ولكننا لا نَعُدُّهم في ملوكِ الطوائف لأنّهم كانوا في الحقيقةِ ثائرينَ على سُلطةِ المَرْوانيين في قُرْطُبَةَ.

كانتْ كلُّ دويلةٍ من دُويلاتِ الطوائفِ تتألّفُ من مدينةٍ وما حولَها أو مِنْ مدينتَيْنِ؛ وكان ملوكُها من عصبيّاتٍ مُختلفةٍ: عرباً وبربراً ومُوَلَّدين (مُسلمينَ إسبانِيِّي الأصلِ). ثمّ كانوا مُتنافسين مُتخاصمين يغزو بعضُهم بعضاً. وربّما استعانَ بعضُهم بالطاغية (بملكٍ من ملوكِ النصارى الإسبان) على بعضٍ. ولقدِ اتّخذَ ملوكُ الطوائفِ جميعَ مظاهرِ الدُوَلِ من التلقُّبِ بألقابِ الخِلافة ومن الحِجابة (رِئاسة الوزارة) والوزَارة ومن أسبابِ التَرَف، كما كانوا يَجْمَعون في بَلاطاتِهمُ الأدباء والشعراءَ فيُغْدِقون عليهمُ الأموال، يَمثّلُ ذلك كلَّه قولُ ابنِ رشيقٍ (ت ٤٥٦ هـ):

مِمّا يُزَهِّدُني في أرضِ أندلُسٍ ألقابُ معتمدٍ فيها ومُعْتَضِدِ:
ألقابُ مَمْلكةٍ في غيرِ مَوْضِعِها، كالهِرِّ يحكي آنتفاخاً صورةَ الأسد!

ويصعُبُ ضَبْطُ عددِ دُويلاتِ الطوائف وضبطُ مُدَدِها، فقد تولّى نفرٌ من مُلوكِها مُدُناً مختلفةً في أزمنةٍ مختلفة، وكان بعضُهم- في أثناءِ ذلك- ينتزعُ بعضَ هذهِ المدنِ من بعضٍ. وكذلك كان ملوكُ النصارى يستَوْلونَ- بين الحينِ والحينِ- على عددٍ من هذه المدن. ولكن بإمْكانِنا أن نقولَ إنّ دويلاتِ الطوائفِ كانتْ ثلاثاً وعِشرينَ منها:

- دويلات العامريّين (أعقابِ المنصور بن أبي عامرٍ ومواليه)، وكان موالي المنصور فتياناً من الصقالبة (السلاف) فكانوا أقدرَ الناس على الاستبداد بالمقاطعات المختلفة لأنّهم كانوا قُوّاداً ورؤساءَ حرسٍ، بالإضافة إلى أن نفراً منهم كانوا منذ أيامِ المنصور نفسِه وُلاةً على المدن التي استبدّوا بها.

من أصحاب هذه الدويلات مُجاهِدٌ العامريُّ في دانيةَ والجَزائر الشرقية (ميورقة ومنورقة ويابسة)، خَلَفه فيها ابنُه إقبالُ الدولة علي. ومنهم عبدُ العزيزِ (حفيدُ المنصورِ بنِ أبي عامرٍ) كان في بلنسية. ومنهم الفتى خَيْرانُ الصَقْلَبيُّ العامريُّ في المَريَّة. ثم انتقلتِ المريةُ إلى زُهيرٍ الصقلبيّ وشيكاً، سَنَةَ ٤٣١ (١٠٤٩ م). ثمّ انتقلتْ إلى المعتصم ابن صُمادحٍ (محمّدِ بنِ معنٍ)، سَنَةَ ٤٤٤ (١٠٥٢ م)، وكان أديباً شاعراً فحفَلَ بَلاطُه برجالِ الأدب.

- دويلةُ بني هودٍ في سَرَقُسْطَةَ أولُّهم منذرُ بنُ يحيى التُجِيبيّ، وقد طالَ حُكْمُهم من ٤١٠ إلى نحو ٥٤٠ هـ= (١٠١٩- ١١٤٥ م) لأنّهم كانوا بعيدينَ في شَمالِيّ الأندلسِ عن دولَتيِ المُرابطين والمُوحِّدين في المَغْرب. وكَثُرَتِ المنازعاتُ بين امراءِ بني هودٍ كما كثرتْ حروبهم مَعَ ملوك الطوائف ومَعَ الإسبان فهَلَكَ في تلك المنازعاتِ والحُروب جماعاتٌ كثيرةٌ من المسلمين.

- دويلة بني ذي النون (تعريب زَنّونَ: اسمٍ بربريّ) في طُلَيْطُلَةَ، واشهرُ ملوكِها يحيى المأمون، هَلَكَ أيضاً في حروبه مَعَ ملوك الطوائف ومَعَ الإسبان خَلْقٌ كثيرٌ من المسلمين.

- بنو زِيري في غَرناطَةَ. غَلَبَ على غَرْناطةَ حَبّوسُ بنُ ماكِسِنْ بنِ زيري الصِنْهاجيّ ثمّ خَلَفَهُ ابنُه باديسُ فاستبقى وزيراً كان لأبيهِ اسمُه إسماعيلُ بن النَغْرَلَةِ[1] (وكان يهوديًّا) فملأ اسماعيلُ هذا مناصبَ الدولةِ بأبناء جِنسه فاكْتَسبوا

(١) يرد هذا الاسم في صور مختلفة. في البيان المغرب لابن عِذاري (٣: ٢٣١، ٢٦١، ٢٦٤، ٢٧٦): نغزالة بالزاي، وفي إعلام الأعلام للسان الدين بن الخطيب (ص ٢٣٠) نغرالّة (بالراء وباللام المشدّدة). والكتابان بتحقيق ليفي بروفنسال، وهو مستشرق يهوديّ واسع المعرفة بتاريخ الأندلس، وكان من المنتظر أن يحقق هذا الاسم في المصادر اليهودية. وورد هذا الاسم في نفح الطيب (٤: ٣٢٢): نغدلة (وهو الصواب)، ولكن مفهرس نفح الطيب لمّا قرأ (٣: ٣٨٧): « ... ابن الفراء.... عاد إلى غرناطة واعتكف بها على مدح وزيرها اليهودي » أفرد في الفهرس المجاني سطراً باسم ابن نغرالة (مباشرة بعد السطر الذي فيه: ابن نغدلة). وفي الإحاطة لابن الخطيب (بتحقيق محمّد عبد الله عنان): ابن نغرالة (١: ٤٤٢، ٤٤٦، ٤٤٧). وقد علق عنان بحاشية (ص ٤٤٢) ذكر فيها أن الاسم ورد في مخطوطتي الإحاطة « نعرالة » (بالعين والراء) وفي الذخيرة « النغريلي » وفي البيان المغرب =

المالَ والجاه واستطالوا على المسلمين. وماتَ اسماعيلُ فخلَفه في الوزارةِ ابنُه يوسفُ فزادَ على أبيهِ في الإساءة إلى المسلمين فنَشِبَتْ ثورةٌ سنة ٤٥٩ (١٠٦٩ م) قُتل فيها يوسفُ وكثيرٌ من أبناء قومه.

- دويلةُ بني الأفطس في بَطَلْيَوْسَ، أشهرهُم مُحمّدُ المُظفَّرُ وكان عالماً لبيباً وأديباً شاعراً وبطلاً شُجاعاً.

- دَوْلة بني عبّادٍ في إشبيليةَ، أكبرُ دويلاتِ الطوائف وأشهرُها وأكثرُها أثراً في حياة الأندلس في أيامِهم (٤١٤- ٤٨٤ هـ)، وسَنُلِمُّ بأشياءَ من تاريخِ دَوْلَتِهِم في أثناءِ تراجمِ رجالِهِمْ.

في الشمال الإفريقي

لمّا بدأ عصرُ ملوكِ الطوائفِ في الأندلُسِ كان لبني مَغْراوةَ وبني يفرن (وهم من زِناتة) دولةٌ في فاسَ (المغرب)، ولكنّها كانتْ تحتَ نَظَرِ المَرَوانيين في الأندلس. وكان أولَ ملوكِ هذه الدولةِ زيري بنُ عَطِيةَ المَغْراويُّ. وتقلّب هوى زيري بنِ عطيةَ بين المَرْوانيين في الأندلُسِ والفاطميين في مِصْرَ. وبعدَ قتالٍ بينَه وبينَ المنصورِ بنِ أبي عامرٍ عاد إلى طاعةِ المنصورِ والمروانيين. واستطاع زيري أن يُوَسِّعَ مُلْكَه فيضُمَّ إليه جانباً من شَمالي غَربيّ الجزائر (تاهرتَ وتِلِمْسانَ وجوارَها)، ولكنه أُصيبَ بجِراحٍ تُوُفِّيَ منها، سَنَةَ ٣٩١ (١٠٠٠ م).

وبعدَ زيري جاء ابنُه المُعِزُّ (٣٩١- ٤١٧ هـ) ثم جاء حَمامةُ بنُ المُعِزِّ (ابنُ عمّ المعزِ آبنِ زيري) فاستتبَّ الأمرُ له وعَظُمَ ملكُه وكانتْ وفاتُه سَنَةَ ٤٤٨ (١٠٥٦ م).

= «نغزالة (بالزاي) ثمّ يرجّح «نغرالة» (بالغين والراء).- والصحيح أن الاسم من جذر عبري «نجد» (بجيم فارسية) كالجذر العربي «نجد» (الأرض المرتفعة). وبما أن الدال يمكن أن تلفظ في القشطالية ذالاً (بإخراج طرف اللسان من بين الأسنان)، فالاسم يمكن أن يقرأ: نجدلة أو نجذلة أو نغذلة. ويرد هذا الاسم في «تاريخ الفكر الاسباني» (ص ١٥، ١٠٧، ١٠٨): نغدلة (ولكنّه في الفهرس: نغرلة). ويرد في «تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف (لاحسان عباس) والمرابطين»: النغرالة (ص ١٣) والنغريلة (ص ٧٥، ١٣٦، ١٤٧، ١٤٨).

في هذه الأثناءِ كان الحُكْمُ على القُطر التونسي للمعزِّ بنِ باديسَ الصِنْهاجي (٤٠٦- ٤٥٣ هـ)، وفي عَهْدِهِ ازدهرتِ الزِراعةُ والصِناعةُ واتَّسعتِ الحضارةُ ونَمَتِ الثروةُ وعَمّتِ الرفاهِيَةُ وكَثُرَ العُمرانُ ونَشِطَتِ الحركةُ الفِكريةُ والحركةُ الأدبية. وعلا صيتُ المُعزِّ الصِنْهاجي فهادَنَتْه الملوكُ وهادَتْه من السودانِ (الغربي) ومن مِصْرَ ومن القُسطنطينية، بينَ سَنَةِ ٤٢٣ وسَنَةِ ٤٢٦ (١٠٣٢- ١٠٣٥ م).

إلى ذلك الحينِ كانتْ إفريقية (القُطر التونسي) لا تزالُ على وِفاقٍ مَعَ الفاطميّين أصحابِ مِصْرَ، وكان المذهبُ الفاطمي (المذهبُ الشيعي المُتَطرِّفُ سياسياً ودينيًّا) سائداً فيها. ولكنْ في سَنَةِ ٤٣٥ (١٠٤٣ م) حدثتْ نِقمةٌ على أشياعِ الفاطميين ثمّ اتّسعتْ فأصبحتْ فِتنةً فلم يستَطِعِ المُعزُّ وَقْفَ القتالِ فيها ثمّ اضْطُرَّ إلى مُجاراةِ الرعيّةِ في اتّجاهِها فخَلَعَ طاعةَ العُبَيدِيّين (الفاطميّين) وردّ البلادَ إلى مذهبِ الإمامِ مالكٍ ثمّ حوّل الخُطبةَ (الدَعوةَ يومَ الجُمُعة على المنابر) مِنَ الفاطميين (خُلفاءِ القاهرة) إلى العبّاسيّين خُلفاءِ بغدادَ، سَنَةَ ٤٣٩ (١٠٤٧- ١٠٤٨ م).

وغِيظَ الفاطميّون فسرّحوا إلى إفريقية عدَداً من القبائل البَدْويةِ، كانتْ في ذلك الحين في صعيدِ مِصْرَ، منها بنو هِلالٍ وبنو سُليمٍ وبنو رِياحٍ وبنو زغبةَ- نحوَ أربعِمِائَةِ ألفٍ- فانْساحَ هؤلاء في الشَّمال الافريقيّ من برقةَ (شرقيّ ليبيا) إلى القُطْر التونسي ثم إلى القُطْر الجزائري فتوغّلوا فيه حتى بلادِ مِزابَ في الداخل وحتّى الشواطىء الشَّمالية الشرقية.

وجَهِدَ المُعزُّ في مُقاومتهم وصَدّهم فلَمْ يَسْتَطِعْ. وفي رَمَضانَ من سَنَةِ ٤٤٩ (خَريفِ ١٠٥٧ م) انتشرَ بنو هلالٍ «ومَنِ انْضَمّ إليهم من بِطانةِ السوء في أرجاءِ إفريقيةَ فعاثوا فيها فساداً وتخريباً ونهباً واستباحوا القَيْروانَ حتى أصبحتْ حاضِرَتُها الزاهرةُ أثراً بعد عَيْنٍ» (خلاصة تاريخ تونس ٩٤- ٩٥).

ثم نَفَذَتْ هذه القبائلُ إلى القُطْر الجزائري، سَنَةَ ٤٥٧ (١٠٦٥ م) فحَرَصَ الناصرُ آبنُ علناس، خامسُ ملوكِ الدولة الحَمّادية،- وكان أشهرَ ملوكِ هذه الدولةِ وأعلاهم شأناً، وفي أيامِهِ استفحلَ مُلكُ بني حَمّادٍ- على رَدِّهِم فلم يستطعْ فَنَجا منهم إلى مدينةِ

قُسَنْطينة « فتَبِعَهُ الهلاليون واقتحموا عليه المدينةَ فاسْتَوْلَوْا عليها وعلى القلعة والمَسيلة وطُبْنَةَ وهم ينهُبونَ ويَخْرِبون حتّى تركوا البلادَ بلاقعَ والديارَ خَراباً... ومَعَ ذلك فإنّ أضرارَ بني هلالٍ بالجزائر لم تبلغْ مَبْلَغَها في تونسَ وطرابُلُسَ (ليبيا) لأنّ الجزائرَ لم تكن المقصودةَ من (هذه) الحملةِ بالذات » (تاريخ الجزائر العام ١ : ٣١٥).

وفي ذلك كلّهِ يقولُ ابنُ خلدونٍ في مقدّمته (بيروت ١٩٦١ م، ص ٢٦٥):

« وإفريقيـةُ والمَغْربُ لمّـا جاز إليها بنو هِلالٍ وبنو سُليمٍ منذ أوّلِ المائةِ الخامسةِ.... عادتْ خَراباً كُلُّها، بعدَ أن كان ما بينَ السودان والبحر الروميّ كلُّه عُمراناً ». ومن أجلِ ذلك عَقَدَ ابنُ خلدونٍ فصلاً عُنوانه (ص ٢٦٣): « في أنّ العَرَبَ إذا تغلّبوا على أوطانٍ أسْرَعَ إليها الخرابُ ». وابنُ خلدونٍ يَقْصِدُ بكلمةِ العربِ « البَدْوَ ».

بدأتْ هذه الفَترةُ وآلُ خزرونٍ يَتَوَلَّوْنَ طرابلسَ ويَتردّدونَ بوَلائهم- بِحَسْبِ مَصالِحِهِمُ الآنيّةِ- بينَ الصِنْهاجيّين في القَيْروان والفاطميّين في القاهرة.

استعانَ سعيدُ بنُ خَزرونٍ بِمِصْرَ ثمّ استطاعَ أن يطرُدَ ابنَ عمّهِ خَليفةَ بنَ وَرّو من طرابُلُسَ ويَتَولاّها مكانه (٤٣٣- ٤٦٦ هـ). وفي أيامِه كانَ انسياحُ بني هِلالٍ وبني سُليمٍ في ليبيا ثمّ في بَقيةِ الشّمال المَغْربي. ثم وَجَدْنا خَزرونَ بنَ خَليفةَ يتولّى طرابُلُسَ (ولكن لا نَعْرِفُ كيفَ). وفي أيامِه عادتْ طرابُلُسُ عنِ المذهبِ الفاطميّ إلى المذهبِ المالِكيّ.

وفي سَنَةِ ٤٥٠ (١٠٥٨ م) فَتَحَ المُنتصرُ بنُ خزرونِ بنِ سعيدٍ طرابُلُسَ وطَرَدَ منها ابنَ عَمّهِ خزرون بنَ خليفةَ. ثمّ إنّ خليفةَ بنَ خزرونِ بنِ سعيدٍ استطاع أنْ يتولّى طرابُلُسَ (٤٦٠- ٤٨٨ هـ) وكان مُستبداً ظالماً (راجع في بني خزرون « ولاة طرابلس » تأليف الطاهر أحمد الزواوي، بيروت ١٣٩٠ هـ = ١٩٧٠ م، ص ٨٣ وما بعد).

- أوجه الحضارة:

كان عصرُ ملوكِ الطوائفِ عَصْرَ تَفَكُّكٍ اجتماعيّ وضَعْفٍ سِياسيّ، ولكنّه كان أيضاً عَصْرَ زَهْوٍ حَضاريّ ورُقِيٍّ ثقافيّ. إنّ أوّلَ ما يَلْفِتُ نَظَرَنا في عصرِ ملوكِ الطوائفِ اضطرابُ الحياةِ الاجتماعيّة بالفِتَنِ الداخليةِ: بالمُنازعاتِ بينَ العربِ والبربرِ وبالاقتتالِ بينَ ملوكِ الطوائفِ وبالحُروب بينَ المسلمين والنصارى. في أثناءِ ذلك كلّهِ كان السُكانُ يخضَعون لِهجْراتٍ إجباريةٍ أوِ اختياريةٍ: هِجراتٍ داخليةٍ بينَ مُدُنِ الأندلسِ ينتقلون في أثنائها من مدينةٍ يَظُنّونها أقلَّ أمناً أو مغانِمَ إلى مدينة يظُنونَها أكثرَ سلامةً وأوفرَ رِبْحاً. وقد تكونُ الهِجرةُ خارجيةً فَيُغادِرُ الأندلسيون مُدُنَهُمْ إلى المَغرب، وخصوصاً حينما يستولي الإسبانُ النصارى على المُدُنِ الأندلسيّة. ولقد نشأ في أثناءِ ذلك كلّهِ نَفَرٌ من المسلمين أنفسِهم انتحلوا المُغامرةَ والشَطارةَ وتنقّلوا بينَ المُدُنِ المنكوبةِ يَسْلُبون ويَنْهَبون وربّما قتّلوا وخرّبوا.

وملوكُ الطوائف الذين كانت مصادرُ أموالهم قليلةً- لضيقِ الأرض التي كانوا ملوكاً عليها- عَمَدوا إلى إثقالِ كاهلِ رعاياهم بالضرائبِ حتّى يتمكّنوا مِنَ الإنفاق على وُجوهِ تَرَفِهِمْ من البناء والمَتاع واللّهْو وعلى الغَزْو، مِمّا يُضْطَرُّ إليه في العادة عظماءُ الملوك.

ومَعَ هذا كلّهِ، فإنّ الحضارةَ في عصرِ ملوك الطوائف قدِ آستبحرتْ- على ضيقِ المكانِ وقِلّةِ عددِ السكّان- مِمّا يدُلُّ على غِنى البلادِ وخِصْبِ الأرض. إنّ الزراعةَ في الأندلس كانتْ عِمادَ الثروة الوطنية. وإنّ المرءَ لَيَعْجَبُ حينما يرى دولةً كدولةِ بني عبّادٍ في إشبيليةَ أو دُويلةً كدويلةِ بني ذي النون في طُلَيْطُلة تُنشىء القصورَ والجنائن وتستكثرُ من الرقيق وتغالي في اقتناء الجواهرِ والثيابِ ويشتري أحدُهم الجاريةَ بثلاثةِ آلافِ دينارٍ. ولم يكن هذا التَرَفُ قاصراً على الحُكّام، بل كان المحكومون أيضاً على مِثْلِ هذا الترفِ والإسراف.

ووَمَضَ في عصرِ ملوكِ الطوائفِ بارِقانِ ضعيفانِ: التشيُّع والشُعوبية.

كان بنو حمودٍ مُلوكُ قُرْطُبَةَ ينتسبون- حقاً أو باطلاً- إلى بني هاشمٍ قومِ

الرسولِ. ومَعَ أنّ هؤلاء الحمّوديّين أنفسَهم لم يُلَوّحوا بهذا النسبِ كثيراً فإنّ نفراً من الشعراء ألَحّوا في المديحِ عليه من بابِ الطَرافة والتجديدِ على الأقلّ، تَكَسُّباً لا اعتقاداً.

ومَعَ أنّه كان للشعوبية مُسَوّغاتُها لِقلّة عددِ العرب الأقحاح ولِغَلَبَةِ غيرِ العرب في الأندلس، مِنَ الفِرنجةِ خاصّةً، فإنّ الإسلامَ كان قدْ أغرقَ العصبيّاتِ كلَّها. والأندَلُسيُّ كان مُسلِماً في الدرجةِ الأولى. فالعربُ والعربيةُ أوِ العُروبة والعُروبيّة ألفاظٌ تدلّ كلُّها في نظرهِ ورأيهِ على الإسلام. ومَعَ هذا فنحن نَجِدُ مثالاً من الشعوبية الحادّة (تفضيلِ غيرِ العربِ على العربِ) عند أبي عامرٍ أحمدَ بنِ غَرْسِيَةَ، وكانَ أصلُه من نصارى البُشْكَنْس (الشَمال الغربي من إسبانية) عُنِيَ به مُجاهدٌ العامريُّ صاحبُ دانِيَةَ ونشّأه على الإسلام والعربية. ولابن غَرْسِيَةَ هذا رِسالةٌ يُعْلي فيها شأنَ قومهِ ويَحُطُّ من شأنِ العرب. ولَعَلّنا لا نَجِدُ شخصاً آخَرَ فَعَلَ ذلك!

- أوجه الثقافة في الأندلس:

لَقِيَتِ الثقافةُ في الأندلسِ في عصرِ الطوائف كثيراً من الحُرّية والتشجيعِ ولكنّها لم تُرْزَقْ كثيراً مِنَ الاتّساع. إنّ الثقافةَ تحتاجُ إلى زمنٍ تَنْضَجُ فيه شيئاً فشيئاً بخِلاف الحَضارة التي يُمْكِنُ أنْ تَسْتَبْحِرَ في الزمنِ القصيرِ بعاملِ النَّقْلِ والتقليد.

كان أبو عمروٍ الدانيُّ (ت ٤٤٤ هـ = ١٠٥٣ م) أحدَ الأئمّةِ في علمِ القُرآن وتفسيرِه وأحدَ حُفّاظِ الحديث، له تصانيفُ كثيرةٌ: التَيْسيرُ (في القِراءات السَبْع) - المُقْنعُ (في رَسْمِ - تهجئة - المَصاحف ونَقْطِها) - طَبَقاتُ القرّاء، الخ.

واشتهَرَ بعلومِ الحديثِ ابنُ غلبونٍ الخَوْلاني (ت ٤٤٨ هـ = ١٠٥٦ م)، وكان مُكْثِراً من الرِوايـة ثَبْتـاً دَيّنـاً. وأشْهَرُ منـه في ذلـك ابنُ عَبـدِ البَرِّ (ت ٤٦٣ هـ = ١١٧٠ م)، ويبدو أنّه كان يَجْمَعُ بينَ المذاهب. غيرَ أنّ شُهرتَه تقومُ على كتاب «الاستيعاب» (في تراجمِ الصَحابةِ والتابعين).

ومن علماءِ هذه الفترةِ أبو الوليدِ هِشامُ بنُ أحمدَ الكاتبُ المعروفُ بابنِ الوَقّشي

(٤٠٨- ٤٨٩ هـ) من أهلِ طُليطلة. كان واسعَ العِلمِ بعدَدٍ من فنونِ المعرفة: بالحديثِ والفِقْهِ وباللغة والنحْو وبالخَطابة والبلاغة والشِعر وبالحِساب والفَلَكِ والهندسة والفرائضِ وبالمنطقِ، كما كان شاعراً بارعاً، له:

برّحَ بي أنّ عُلومَ الورى اِثنـانِ ما إنْ فيهما مِنْ مَزيـدْ:
حقيقـــةٌ يُعْجِزُ تَحْصيلُهـــا، وباطـــلٌ تحصيلُـــه لا يُفيــدْ!

وكانتْ له تآليفُ منها: «نُكَتُ الكامل» للمُبرِّد (بغية الوعاة ٤٠٩).

ومن فُقهاءِ هذه الحِقبة محمدُ بن عَتّابٍ (ت ٤٦٢ هـ = ١٠٦٩ م)، وكان فقيهاً عالماً عاملاً وَرِعاً عاقلاً بصيراً بالحديثِ وطُرُقه وعالماً بالوثائق وعِلَلِها كَتَبَها مُدةً في حياتِه ولم يأخُذْ عليها من أحدٍ أجْراً. وقد كان شيخَ أهلِ الشورى في زمانِه وعليه مَدارُ الفتوى في وقتهِ. ولم يَقْبَلْ أنْ يتولى القضاء.

ومنهم أبو الوليدِ الباجيُّ المُتوفّى سَنَةَ ٤٧٤ للهجرة (راجع ترجمته)، له من الكتب: التسديدُ إلى معرفة التوحيد- إحكامُ الفُصول في أحكام الأصول- شرحُ المُوَطّأ- مُخْتَصَرُ المُختصَرِ في مسائل المُدَوَّنَةِ-[1] سُنَنُ الصالحين، الخ.

رَحَلَ أبو الوليدِ الباجيُّ إلى المشرق ثمّ عادَ فوجَدَ الأندلسَ في اضطرابٍ سياسيٍ وفقهِيّ، فحاول أن يجمَعَ بينَ ملوكِ الطوائف بالصُلْح. ثمّ حَرَصَ على جِدالِ ابنِ حزمٍ في المذهبِ الظاهري الذي كان ابنُ حَزْمٍ ينشُرُه في الأندلس. كان ابنُ حزمٍ يرى أنّ جميعَ ما جاء في القرآن الكريم والحديث الشريف يَجبُ أنْ يُفْهَمَ على ظاهرِه إلاّ إذا كان منه ما جرَتْ عادةُ العربِ على فَهْمِهِ مَجازاً ثم كان فَهْمُهم له على هذهِ الصورة مُوافقاً لأُصول البلاغة العربية. وكان نَفَرٌ من الفقهاءِ يَرَوْنَ في المذهبِ الظاهريّ لابنِ حزمٍ بِدْعَةً. ولقد بادَ هذا المذهبُ (بَطَلَ العملُ به).

وابن حزمٍ (ت ٤٥٦ هـ ١٠٦٤ م) عالمٌ وفيلسوف أيضاً.

---

(١) المدونة: أجلّ كتب الفقه المالكي- راجع ترجمة سحنون (ت ٢٤٠).

فَنّدَ ابنُ حزمٍ رأيَ قُدماءِ اليونانيين في الفلك فقال: ليس للنجومِ نفوسٌ وَهِيَ لا تَعْقِلُ ولا تَعْرِفُ الغيبَ ولا هي تُدَبّرنا في شأنٍ من الشؤون، إلاّ إذا قُصِدَ بالتدبيرِ التدبيرُ الطبيعيّ كأثَرِ حرارةِ الشمس فينا. وكذلك سَفّه قولَ اليهودِ ورأيَ نَفَرٍ من عَوامِّ المسلمين الذين يزعُمون أنّ النيلَ والفُراتَ ودِجْلَةَ وجَيْحونَ (نَهْراً في أواسطِ آسِيَةَ شَمالَ الأفْغان) أنهارٌ تَخْرُجُ من الجَنّة ثم قال: إنّ مَخارجَ هذه الأنهارِ مَعْروفة في الأرض ومذكورة في كتب الجغرافية.

ومن البارعين في العلوم الرياضية، وفي الفلك والهندسة خاصةً، الحسنُ بنُ محمدِ بنِ حَيٍّ التُجيبي (ت ٤٥٦ هـ) وأبو الحَكَم الكَرْماني السَرَقُسْطي (ت ٤٥٨ هـ) من أهلِ قُرْطُبَةَ وكان بارعاً في علم العدد (خواصّ الأعداد) والهندسة. رَحَلَ إلى المشرق، وكان أوّل من أدْخَلَ رَسائلَ إخوانِ الصفا[1] إلى الأندلس. ومنهم أبو الوليد الوَقّشي (ت ٤٨٩ هـ- وقد مَرّ ذِكْرُه قريباً) ثم أبو اسحاقَ إبراهيمُ بنُ يحيى التُجيبي النقاش المعروف بالزرقالي (ت ٤٩٣ هـ = ١٠٩٩ م) وقد أدْخَلَ أشياءَ من أوْجُهِ التحسين على صناعة الاسطُرْلابِ وعلى تسهيل العمل به. وقد حَسَبَ دَرَجَةَ مَيْلِ أوْج الشمسِ بالنسبة إلى النجوم الثوابت.

ولَمَعَ في هذا العصرِ، في الجُغرافية، أبو عُبيدٍ البَكْريُّ (ت ٤٨٧ هـ)- وستأتي له ترجمةٌ.

ونَجِدُ في التاريخ «التذكرةَ» أو «الكتابَ المُظَفَّريّ» للمُظَفَّرِ بنِ الأفطس (ت ٤٦٠ هـ) في فنونٍ مختلفةٍ (نحوَ خمسينَ جُزءاً) لعلَّ أبرزَها التاريخُ. ثم هنالك كتابُ «الاستيعاب» لابنِ عبدِ البَرّ (ت ٤٦٣ هـ) وقد مرّتِ الإشارةُ إليه. أمّا كبيرُ مُؤرّخي هذا العصرِ- وأحدُ أكابرِ المؤرّخين- فهو حَيّانُ بنُ خلفِ بنِ حيّانَ (ت ٤٦٩ هـ) صاحب كتاب «المقتبس»، وَنَعْرِفُ منه اليومَ ثلاثةَ أجزاءٍ من عَشْرةٍ.

---

(١) إخوان الصفا جماعة سرية نشأت في البصرة في القرن الرابع (العاشر للميلاد). ولهم «رسائل» جمعوا فيها المعارف القديمة (العلمية والفلسفية) إلى أيامهم ثم بثّوا فيها كثيراً من آرائهم الدينية.

ولِحَيّانَ ترجمةٌ مستقلة. وهنالك كتابُ «البيانِ الواضحِ في المُلِمِّ الفادحِ» لمحمدِ بن عَلْقَمَةَ (٤٢٨- ٥٠٩ هـ) في تاريخ بَلَنْسِيَةَ ومَصائِبها على يدِ الإسبانِ النصارى.

وفي «طبقاتِ الأطبّاء» (٢: ٣٥ وما بعد) أسماءٌ كثيرةٌ لِعُلماءَ اشتغلوا بالطِبِّ سَبَقَتِ الإشارةُ إلى نَفَرٍ منهم في مَيْدانِ الرياضيّات. ثم نذكُرُ من غيرِ هؤلاء ابنَ الخياط (ت ٤٤٧ هـ) وأبا مُسْلِمٍ عمرَ بنَ أحمدَ بنِ خَلْدونٍ (ت ٤٤٩ هـ) وعبدَ اللهِ بنَ محمدٍ الذَهبيَّ (ت ٤٥٦ هـ) وقدِ اشتغلَ بالطِب والكيمياء والفلسفة. ونجْمُ هذهِ الحِقبة في الطب ابنُ وافدِ الأندلسيُّ (ت ٤٦٠ هـ) كان لا يُداوي بالأدويةِ ما أمْكَنَ التَداوي بالأغذية. ثم لا يُداوي بالمُركَّبِ من الدواء ما أمْكَنَتِ المداواةُ بالبسيطِ منه، فإذا احتاجَ إلى التركيبِ لم يُكْثِرِ المُركَّباتِ في الدواء.

ولم تَجِدِ الفلسفةُ تشجيعاً في الأندلسِ: تكلّمَ ابنُ حَزْمٍ (ت ٤٥٦ هـ) في المَنْطِقِ قليلاً فزجَروه وحملوا عليه. ثمّ تكلّمَ في نَظريةِ المَعْرفة (في الجزء الخامس من كتاب «الفِصَل بينَ الأهواء والمِلَلِ والنِحَل») كلاماً في ذِرْوَةِ التَفكيرِ الفلسفيّ المُطْلَقِ حينما جَعَلَ المعارف (حتى المعدودَ منها من حَيِّزِ العقل) راجعةً إلى الحَواسِّ السليمة.

وألّفَ صاعدٌ الطُلَيْطُليُّ (٤٢٠- ٤٦٢ هـ) كتابَ «طَبَقات الأُمم» أوْجَزَ فيه تاريخَ الفكرِ والعِلمِ عند الأُمم القديمة وعند العرب.

- الثقافة في المغرب الإفريقي:

يتراكب عصرُ ملوكُ الطوائفِ في الأندلس (٤٢٢- ٤٨٨ هـ) وعصرُ المُرابطين في المَغْرب (٤٤٨- ٥٤١ هـ). ولكنْ بما أنّ الثقافةَ السائدةَ كانتْ أندَلُسِيةَ النشأةِ أندلسيةَ الطابَعِ فسنأخذ بالزمن الأندلسيّ أيضاً ونُغَلِّبُ حِقبة الطوائفِ على حِقبة المُرابطين.

كان الغالبَ على الثقافةِ في هذه الحِقبة كثيرٌ من الفِقْهِ والنحوِ وقليلٌ من العِلم والنَقْد. هنالك في هذا المَنْحى عبدُ الله بن ياسينَ (ت ٤٥١ هـ) مؤسّسُ دولةِ المرابطين وأبوها الروحي، وقد كان فقيهاً وأديباً ناثراً كاتباً. ثمّ هنالك مروانُ بن سَمْحونٍ (٤٢١- ٤٩١ هـ) وأبو القاسمِ المُعافريّ السَبْتيّ (ت ٥٠٢ هـ) وأبو عبد الله التميميُّ

(٤٢٩- ٥٠٥ هـ) وعبدُ الله بن سعيد الوُجْديّ (ت قبلَ ٥١٠ هـ) وأبو جعفرٍ اللُّواتي المعروفُ بابنِ الفاسي (ت ٥١٣ هـ). وكل هؤلاء من المغرب الأقصى.

ثمّ تَحْسُنُ الإشارةُ إلى ابنِ رشيقٍ القَيْروانيّ الأديبِ الشاعر الناقدِ (ت ٤٥٦ هـ)، له ترجمةٌ مستقلةٌ. وكذلك تحسُنُ الإشارةُ إلى ثلاثةِ نَفَرٍ من القُطْر الجزائري: الطبيبِ العالمِ ابنِ عَمْرونٍ الوهْرانيّ (من أحياء القرن الخامس) وإلى أبي القاسمِ يوسفَ بنِ علي البِسْكَريّ (٤٠٣- ٤٦٥ هـ) وكان بارعاً في القراءات واللُّغة والنحو، رَحَلَ إلى المشرق وتولّى التدريسَ في مدرسةِ نَيْسابورَ إلى أنْ تُوُفِّيَ. وهنالك أيضاً الحسنُ بنُ علي بنِ طريفٍ التاهَرْتِيّ النَحْوي (ت ٥٠١ هـ).

الخصائص الفنيّة

كان المَغْرِبُ- في إفريقيةَ والأندلُسِ- مختلفاً من المشرق في وجوهٍ كثيرةٍ: في طبيعةِ الأرض وفي أجناسِ السُكّان وفي التُراثِ الحَضاريّ والثقافيّ وفي المنازعِ الشخصيةِ التي تُمْليها عواملُ مختلفةٌ في بيئةِ الأدبِ العربي الجديدة: لا جِدَال في أنّ العربَ في المشرقِ كانوا أقربَ إلى جيرانِهِمُ الخُالطين لهم من الآراميين واليهودِ والأحباش (بعاملِ القَرابة العِرْقية- المظنونة على الأقلّ) ثمّ إلى جيرانِهِمُ المُتاخمين لهم من الروم والكُرْد والفُرس (بعامل الحَضارة الشرقية والتُراث الثقافي) من العرب في المغرب إلى جيرانِهِمُ الجُدُدِ من الرومان والقُوط والفِرنْجة، في شِبهِ جزيرةِ الأندلس. ثمّ إنّ النَصرانيةَ الشرقيةَ في المشرق لم تكنْ شديدةَ العِداء للإسلام (إذ كان في النصرانية يومَ ظَهَرَ الإسلامُ فِرَقٌ نصرانيةٌ قريبةٌ في عقائدها من العقيدة الإسلامية). أمّا النصرانيةُ الغربية (الكنيسةُ الكاثوليكية) التي كانتْ شديدةَ العِداء للنصرانية الشرقيةِ فإنّها كانتْ بطبيعةِ الحال أشدَّ عِداء للإسلامِ ولِمَا يَتّصلُ بالإسلام.

لم يكنْ لِهذه العناصرِ آثارٌ منظورةٌ في الأدب الأندلسي، ولكن كان في الأدبِ الأندلسي مظاهرُ لا يُمْكِنُ تفسيرُها بَجلاءٍ إلاّ إذا نحن أوْلَيْنا هذه العناصرَ شيئاً من العِناية. وإنّ الذي خَفَّف أثرَ هذه العناصرِ عاملانِ اثنانِ أساسيّانِ: أوّلُهما أن

الإسلامِ أغْرَقَ العصبيّاتِ كلَّها، وثانيها أن طريقةَ التعلّمِ في الأندلس كانتْ تقومُ على دِراسةِ التُراثِ العربي المُتَقدِّمِ من القرآنِ والفِقه والشِعر الجاهليّ والتاريخ العربي والحياة المشرقية- مَعَ الرِحلةِ أحياناً كثيرةً إلى المشرق نفسِه- قبلَ التَوَفُّرِ على وجهٍ من وجوه الاختصاص المُختارة. هذانِ العاملانِ جَعَلا من الأندلُسِيِّ مُسلماً في عقيدتهِ على سَمْتٍ واحدٍ، حتى إنه لم يَسُدْ في المغربِ (من عُدْوَةِ إفريقيةَ ومن عُدْوة أوروبةَ) إلاّ مذهبٌ واحدٌ هو المذهبُ المالكيّ. وكذلك بَلَغَ رسوخُ اللغة العربية في النفوس مبلغاً جعل نَصارى الأندلُس- وهم بطبيعة الحال غير عربٍ وغير بربر، بل جرمان (قوط) ولاتين وجِلّيقيون- يتعربون ويتقنون العَربية ويَنثِرون فيها ويَنظِمون.

بلغَ النِتاجُ الادبي في عصرِ ملوك الطوائف- في مَدى جِيلَيْنِ: نحوِ ستّينَ عاماً أو تزيدُ قليلاً- مبلغاً كبيراً في المِقدار وفي البَراعة والتفنُّن والجَوْدة. ومَعَ العلم اليقين بأنّ الفنونَ الأندلسيّة ما زالتْ هي الفنونَ العبّاسيةَ: المدحَ والرِثاء والهِجاء والغَزَل والخمر والوصف والزُهد وما إلى ذلك، ومَعَ أن الأغراض: وصفَ الخمرِ ووصف القُصور ووصف الجنائن ووصف السماء ونجومها ظلت كما كنّا نرى عند أبي نواسٍ والبُحتريّ وابن الرومي وابن المُعتزّ العباسيّينَ، فإنّ الأندلسيّين عالجوا هذه الفنونَ وهذه الأغراضَ نفسَها مُعالجةً جديدةً من حيثُ المِقدارُ لا من حيث النوع: لقد أكثروا من التشخيص (إضفاء صفاتِ الأحياء على الكائنات الجامدة) ومن سَعَةِ الخيال. أمّا فيما عدا ذَيْنِكَ، فإنّ النَفَسَ المشرقيّ العربيَّ والأثرَ المشرقي الفارسي- مِنَ خِلالِ النَفَسِ العربي- ظلاّ يسريان في الأدب الأندلسيّ. من ذلك مثلاً قول المعتضد بن عباد (مختارات نيكل ٧٦):

فـــــــإنْ أرَدتَّ، إلَهي، بالوَرَى حَسَنــــــــاً
فَمَلِّكَنِّي زِمــــــــــامَ العُرْبِ والعَجَمِ

وقول المعتمد بن عبّاد يفتخر بعشيرته (الحلة السيراء ٢: ١٥٦):

إن كوثروا كانوا الحصى، أو فوخروا   فمن الأكاسر من بني الأحرار[1]؟

ويُعْزى التنَّوعُ في نِتاجِ الأدبِ الأندلسي إلى التنوّع في طبيعةِ الأرض الأندلسيةِ.

ولقد كان الأندلسيون أنفسُهم يشعُرون بهذا التنوّعِ ويفتخرون به. نقل المَقَّريُّ (ت ١٠٤١ هـ = ١٦٣١ م) عن أبي عُبيدٍ البكريّ (ت ٤٨٧ هـ) قولَه (نفح الطيب ١ : ١٢٦):

الأندلُسُ شاميةٌ في طِيبها وهوائها، يَمانيةٌ في اعتدالها واسْتوائها، هِنديةٌ في عِطْرها وذَكائها، أهوازية في عِظَمِ جِبايتها، صينية في جواهرِ معادنها، عَدَنية في منَافع سَواحلها....

ودراسةُ الخصائصِ الفنّيّةِ والفنونِ الأُدبية في هذا العصرِ ليست سهلةً - لِقِصَرِ هذا العصرِ ولأخذِ عددٍ كبيرٍ من أُدبائه من عصرِ الخلافةِ المروانيةِ قبلَه ثم من عصرِ المرابطين بعدَه. من هؤلاء جميعاً: ابنُ الخياط الرَبَعِيّ الصِقِلّي (ت بُعيد ٤٣٦ هـ) وابنُ حزمٍ الأندلسيُّ وابنُ رشيقٍ القَيْروانيّ وأبو عبد الله بن شَرَفٍ القيرواني وابنُ زيدون (ت ٤٦٣ هـ) ثمّ تميمُ بنُ المُعزّ الصِنْهاجي (ت ٥٠١ هـ) وابنُ اللّبّانة وابنُ النَحْويّ التَوْزَري وابن صارةَ الشَنْتريني والأعمى التُطيلي وابنُ عبدونٍ وأُميةُ بنُ عبدِ العزيزِ والفتحُ بنُ خاقانَ وابنُ حمديسٍ الصِقِليّ (ت ٥٢٩ هـ).

إنّ كَثرةَ ملوكِ الطوائفِ وتنافُسَهم في الأُبّهة ومظاهرِ المُلك ثم عَداوةَ بعضِهم لبعضٍ جَعَلَتْهم في حاجةٍ إلى شُعَراءَ يمدحونَهم رَفْعاً لِمكانَتِهِمْ في عيونِ أعدائهم أو إغاظةً لأندادِهم ومُنافسيهم. من أجلِ ذلك تقاطَرَ الشُعراء من كُلّ طبقةٍ ومَيْلٍ إلى بلاطاتِ هؤلاء الملوكِ يمدحونهم تكسُّباً.

وكان هؤلاءِ طَبَقَتَيْنِ رَئيسَتَيْنِ: طبقةٌ من شعراءِ البَلاطات على الحَصْرِ مثلَ ابنِ

---

(١) الأكاسر جمع كسرى: لقب ملوك الفرس. الأحرار (الأبناء) أبناء الفرس الذين كانوا في صدر الإسلام وفي اليمن خاصّة.

عبدونٍ شاعرِ بَلاطِ بني الأفطس في بَطَلْيَوْسَ ثمّ طبقةً من الشعراء المتكسّبين المتنَقلين بين البَلاطاتِ مثلَ الأسعد بن بِلّيطةَ. وقد قَسَمَهُمْ إحسانُ عباسٍ (تاريخ الأدب العباسي: عصر الطوائف والمرابطين ٨٢ وما بعد): شُعراءَ مُنْتمين وشُعراءَ جَوّالين، ثمّ أضاف إلى هؤلاء عدداً آخَرَ من الطبقات.

واستعملَ نفَرٌ من هؤلاءِ الشُعراء الإلحاحَ والغَلاظَة والقِحَةَ حتى إنّ أبا الحسنِ الحُصْريَّ القَيروانِيَّ (ت ٤٨٨ هـ) تَعَرّض للمعتمدِ بن عبادٍ- والمعتمدُ أسيرٌ- بالمدح واعتصر منه جائزةً كان المعتمدُ أحقَّ بها. وفي أحيانٍ كثيرةٍ كانَ هؤلاء الشعراءُ يرضَوْنَ بالدُون من العطاء.

ومعاني المديح في الأكثر ظلّتِ المعانيَ المشرقيةَ، وإن كانَ التعبيرُ عنها يجيءُ، بطبيعةِ الحال، مُختلفاً. قال ابنُ عمّارٍ يمدحُ المعتمدَ بنَ عبادٍ:

من لا تُوازِنُـه الجِبـالُ رَزانـةً، ... من لا تُسابقه الرياحُ إذا جرى.
أثْمَرْتَ رُمْحَك من رُؤوس كُماتِهِمْ ... لَمّا رأيتَ الغُصن يُعْشَقُ مُثْمِرا.
وَصَبَغْتَ دِرْعَكَ من دِماء مُلوكِهِمْ ... لّما عَلِمْت الحُسنَ يُلْبَسُ أحمرا.

ففي البيتِ الأوّلِ قولُ الفرزدقِ «أحلامُنا تَزِنُ الجِبال رزَانةً». وفي البيت الثاني معنى مُسلِمِ بنِ الوليد:

«يكسو السيوفَ دِماء الناكثين به ... ويجعَلُ الهامَ تيجانَ القَنا الذُبُلِ»!

وأما البيت الثالث فمن بيت بشارٍ:

«وإذا دَخَلْـــــــتِ تَقَنّعي ... بالحُمْرِ، إنّ الحُسْنَ أحْمرْ»!

ومن توابعِ المديحِ الفَخْرُ (مدحُ الإنسانِ قومَه وأهلَه ونفسَه) والحماسةُ (التمدُّحُ- مدحُ النفسِ- بالأعمال المَجيدة وبالصَبْرِ على المكاره). وقد كان الفخرُ والحماسةُ مشرِقيَّيْنِ في خصائصها. قال عبدُ الملكِ بنُ هُذيل بنِ رَزينٍ[1]:

---

(١) الحلّة السيراء ٢: - ذو الرئاستين حسام الدولة أبو مروان عبد الملك بن هذيل بن رزين صاحب السهلة =

شأَوْتُ أهلَ رَزِينٍ غيرَ مُحْتَفِلٍ وهم- على ما عَلِمْتم- أفضلُ الأممِ .
قوم إذا حُوربوا أفْنَوْا، وإنْ سُئلوا أغْنَوْا، وإن سُوبقوا حازوا مَدَى الكرم .
جادوا فما يَتعاطى جُودَ أُنْمُلِهم مدُّ البِحارِ ولا هَطّالةُ الدِيَمِ .
وما ارْتَقَيْتُ إلى العَليا بلا سَبَبٍ. هيهاتِ! هل أحدٌ يسعى بلا قَدَمِ؟
فَمَنْ يَرُمْ جاهداً إدْراكَ مَنزلتي، فَلْيَحْكِني في النَدى والسيف والقلم!

وقال عبد الله الشقراطيسي[1] في الحماسة:

وكم أقدمت لي نخوة البأس في الوغى إذا حسّر الأقوامَ فيها التخلّفُ[2].
أُصَمِّمُ تصميمَ الفِرنْدِ وأمتري خَلوقَ المنايا والأسِنّةُ ترعُف[3].
وأعْتَسِفُ الهَوْلَ العَماسَ، وصاحبي رقيقُ الظُبا عَضْبُ الغِرارين مُرْهَفُ![4]

ولعلّ الرثاء في هذا العصرِ كان ألصقَ بالخصائص المشرقية من كلِّ فنٍ آخَرَ: ذكراً لمفاخرِ المَيْتِ في الحياة ومُغالاةً في ذلك ثمّ تفجّعاً شديداً، وما يُضاف إلى ذلك من التأسي بالمصائب السابقة وضرب الأمثال وإيرادِ الحِكَم والمواعظ. قال ابن اللّبّانة يرثي المعتمدَ بنَ عبّاد:

تبكي السماءُ بدَمْعٍ رائحٍ غادِ على البهاليلِ من أبناءِ عبّادِ[5]:

= (شنتمريّة الشرق: شرق الأندلس) وتدعى اليوم ألباراثين (على مائتي كيلو متر شرق مدريد ومائة كيلو متر إلى الشمال الغربي من بلنسية).

(١) الجمل في تاريخ الأدب التونسي ١٦٦.

(٢) أقرأ: وكم أقدمت بي. إذا حسّر الأقوام....: إذا انهزم القوم فكان ذلك حسرة في نفوسهم.

(٣) صمّم السيف: قطع اللحم والعظم. الفرند: السيف (الشديد الجلاء حتى ليتراقص النور على صفحتيه). امترى: استخرج. الخلوق: نوع مركّب من الطيب (العطر). المنايا جمع منيّة (الموت). خلوق المنايا: الدم (؟). السنان: الحديدة في أعلى الرمح. رعف يرعف: سال منه دم.

(٤) اعتسف الطريق: سار فيه على غير هدى (بلا مبالاة- ثقة بنفسه وشجاعته). الهول: الأمر الشديد (الحرب). العماس: الشديد. الظبا جمع ظبة (بضم ففتح) والغرار: حد السيف. العضب: القاطع. المرهف: الرقيق الحد (القاطع).

(٥) البهلول (بضم الباء): السيّد الجامع لصفات الخير.

على الجبالِ التي هُدّتْ قواعِدُها، وكانتِ الأرضُ منها ذاتَ أوْتادِ.
يا ضيفُ، أقفرَ بيتُ المَكْرُماتِ فخذْ في ضَمِّ رَحْلِكَ واجْمع فضلةَ الزاد.
ويا مُؤَمِّلَ واديهِمْ لِيَسْكُنَهُ، خَفَّ القَطينُ وجَفَّ الزرعُ بالوادي[1].
حانَ الوَداعُ فضجّتْ كلّ صارخةٍ وصارخٍ مِنْ مُفدّاةٍ ومن فادِ[2].
كم سالَ في الملءِ من دمعٍ، وكم حملتْ تلكَ القطائعُ من قِطْعاتِ أكْبادِ[3]!

وقصيدةُ ابنِ عبدونٍ مشهورةٌ في ذلك، ومنها قِطعةٌ صالحةٌ في ترجمة صاحبها[4]. وليس في رِثاءِ شعراءِ الأندلسِ للمُدُنِ والقصورِ من جديدٍ في الموضوع (وإنْ كان ثمّةَ اختلافٌ في الأحداث). من ذلك لَمّا اسْتولى الأُرْدُمانيّون على حِصن بَرْبَشْتر[5] قالَ الفقيهُ الزاهِدِ ابن العسّالِ:

ولقد رمانا المشركونَ بأسْهُمٍ لم تُخْطِ، لكن شانَها الإصْماء[6]:
هَتَكوا بخَيْلِهِمُ قصورَ حريمِها: لم يَبْقَ لا جَبَلٌ ولا بَطْحاء[7].
جاسوا خلال ديارِهم فلهم بها في كلّ يومٍ غارةٌ شَعواء[8]:
كم موضعٍ غَنِموه لم يُرْحَمْ به طِفلٌ ولا شيخٌ ولا عذراء.

---

(١) خفّ (رحل) القطين (الساكن).

(٢) المفدّاة: التي تفدّي الميت (تقول عند رأسه: أفديك بنفسي) تندبه. الفادي: الحامي عن غيره يفديه بنفسه.

(٣) القطيعة: قطعة من الأرض يولّي عليها الحاكم من يشاء (إشارة إلى أنّ أبناء المعتمد بن عبّاد الذين كانوا يتولّون مدنا أو يعدّون في الأمراء، وكانوا كثيرين).

(٤) عبد المجيد بن عبدون (ت ٥٢٩ هـ = ١١٣٥ م) شاعر ووزير لبني الأفطس من ملوك الطوائف.

(٥) (راجع نفح الطيب ٤: ٤٤٩). والأردمانيّون يقال لهم أيضاً: المجوس لأنّهم لم يكونوا، إلى ذلك الحين، قد دخلوا في النصرانية بعد.

(٦) تاريخ الأدب الاندلسي: عصر الطوائف والمرابطين ١٧٨. لم تخط (يقصد: لم تخطىء: لم تحد عن هدفها). لكن يقصد: إذ، لأنّ. أصمى: اصاب مقتلا.

(٧) حريمها (كذا في الأصل) البطحاء: الارض المستوية.

(٨) ديارهم (كذا في الأصل). الشعواء. المنتشرة: (التي تمتدّ الى كل مكان).

ونحن نَعْرِفُ مثلَ ذلك في الشعرِ المَشْرقي: رثاءِ البصرةِ بعدَ فِتنةِ الزَنْج لابن الرومي ثمّ إيوان كِسرى للبحتري وسوى ذَيْنِكَ.

وعَرَفَ هذا العصرُ الأندلسيّ هِجاءً قاله رجالٌ ونساءٌ منهم أبو إسحاقَ الإلبيري وابنُ الحدّاد الوادي آشي والسُمَيْسِرُ ووَلاّدةُ ومُهْجَةُ القرطبية. وقد كان بعضُ هذا الهِجاء مُقْذِعاً فاحشاً. غيرَ أنّ الأدبَ الأندلسيَّ لم يَعْرِفْ شعراءَ هِجاءٍ من نَجْرِ الحُطيئة وجَريرٍ وبشارٍ وأبي نُواسٍ وابنِ الروميّ من الذين برعوا في ابتكارِ المعاني وفي تصويرِ المعائب وفي تحليل الطباع. وتحسُنُ الإشارةُ إلى الإلبيري (ت ٤٦٠ هـ) في هجاء اليهود (كما نرى في ترجمته).

والشكوى من الدهرِ والإخوانِ ثمّ عتابُ الأقاربِ والأباعد معروفانِ في كلِ زمانٍ ومكانٍ. والحنينُ إلى الوطن ضَرْبٌ من الشكوى كانتْ دواعيه في المَغْرب- وفي الأندلسِ خاصّةً- أكثرَ منها في المشرق، ذلك لأنّ الحروبَ الإسبانية كانتْ تُزْعِجُ الناس عن أوطانِهِمْ طَوْعاً وكَرْهاً. وأشهرُ من يُشار إليه في هذا الموضوع ابنُ حَمْديسٍ الصِقِليّ المتوفّى سنة ٥٢٩. كان ابنُ حمديسٍ قدِ انتقلَ من صِقِلّيَةَ- لمّا استولى عليها النورمان، سَنَةَ ٤٧٠ (١٠٧٨ م) فقال أبياته المشهورة:

ذَكَرْتُ صِقِلِّيَـــــةَ والأسى يُهَيِّـــجُ للنفسِ تَذْكارَهـــا.

والإنسانُ يُحِبُّ وطنَه على كلِ حالٍ، فكيف بِهِ إذا كانَ ذلك الوطنُ جميلاً عظيماً. فقدِ اتفقَ لمحمدِ بنِ شَرَفٍ القَيْروانيّ (ت ٤٦٠) ولأبي الحسنِ الحُصْري (ت ٤٨٨) أن يُفارِقا بَلَدَهما إلى الأندلُس، فَشَكَوَا كِلاهُما البُعادَ، وأبيات الحُصريّ:

على العُدْوةِ القُصوى ،وإن عَفَتِ الدارُ، سلامُ غريـبٍ لا يَؤوب فَيَزْدارُ[1].
وحُـقَّ بُكـاءُ العينِ، والقلبُ مُسْعَرٌ، لمَنْ باتَ مِثلي لا حبيبٌ ولا جار[2].

---

(١) العدوة (الجانب) القصوى (الأكثر بعداً): الجانب الإفريقي (في مقابل الجانب الأوروبيّ: الأندلس). آب: رجع. ازدار (افتعل: ازدور: ازدار): زار.
(٢) مسعر: مشعل، حارّ (حزين).

شفى اللهُ داءَ القَيْروانَيْنِ بَعدَنا؛ فقد مَرِضَتْ للقَيْروانَيْنِ أبصـار[1].
وكيـف غِناءُ الطيرِ في غيرِ وُكْرِها، وقـد بَعُدَتْ عنهـا فِراخ وأوْكـار.
ألا يـا بُروقاً لُحْنَ من نحو صَبْرةٍ، وليس لها إلاّ دُموعِيَ أمْطار[2]،
عَسى فيـك من ماءِ الحُبَيْباتِ شَرْبَةٌ ولو مِثلَ ما يُوعي من الماءِ مِنْقار[3]!

- الوصف:

والوصفُ في المَشْرقِ كانَ مَيّزَةَ العصرِ العباسيّ، وهُوَ في الأندلس ميّزةُ الأدبِ الكبرى، في الشعرِ والنثر: وصفُ الطبيعةِ بما فيها من آثارٍ عُلْوية (بضم العين وسكون اللام: غَمامٍ ورِياح وأمطار) وبما فيها من جَنائنَ وأنهارٍ ومن أشجارٍ وأزهار وأثمار، ومن حَيَوان، وبما ينشأ فيها من مُدُنٍ وقُصورٍ ومن أساطيلَ وسِلاح وسوى ذلك. ولا حاجةَ إلى الاستشهاد على ذلك لأننا نراه عند كُلِّ خُطوةٍ في تاريخ الأدب الأندلسي.

وإذا نحن أردْنا حَلاوةَ اللفظ وأناقةَ المعنى وحدَها في وصفِ الخمر استَطَعْنا أن نُورِدَ نماذجَ كثيرةً من ذلك، كقولِ ابنِ عمارٍ (ت ٤٧٧): «أَدِرِ الزُجاجةَ فالنسيمُ قدِ انبرى» أو كقولِ ابنِ حَمْديسٍ (ت ٥٢٩): «قُمْ هاتِها من كَفِّ ذاتِ الوِشاحْ» (والقِطْعتـان كِلْتاهما من صُلْبِ عصرِ الطوائف- وهما مذكورتانِ في تَرْجَمَتَيْ شاعرَيْهما).

والغزل والنسيب من الوصف- والشعر إلاّ أقلّه وصفٌ، كما يقولُ ابنُ رشيقٍ-. وقد عرَف هذا العصرُ الأندلسيُّ الغَزَلَ الصريحَ مُؤنّثاً ومُذكّراً، كما عَرَفَ الغَزَلَ العفيفَ صحيحاً ومكذوباً. ولكنّ الغزلَ الأندلسيَّ لم يَعْرِفْ شاعراً قَصَرَ شِعرَه على الغزل كعمرَ بنِ أبي ربيعةَ ومجنونِ ليلى، أو شاعراً شُهِرَ بالغزلِ وحدَه كجَميلِ بنِ مَعْمر والعَبّاسِ بنِ الأحنف. ولا نستطيعُ أن نَتَبَيَّنَ في الغزل الأندلسيّ جانباً لم

---

(١) القيروانان: مدينة القيروان ومدينة صبرة التي تسمى المنصورية، وقد كان العمران بين القيروان وصبرة متّصلاً.

(٢) لاح: ظهر.

(٣) أوعى: جمع وحفظ (بمقدار ما يحمل منقار الطائر من الماء: قليلاً جداً).

نَجِدُهُ في الغزلِ العبّاسيّ. إن قصةَ أبي عبدِ الله بنِ الحدادِ القَيْسيّ شاعرِ المُعتصمِ بن صُمادحٍ مَعَ نُويرةَ النصرانية - والتي أراد بُطْرُسُ البُستانيُّ[1] أن يَجْلُوَها ثمّ أحبّ إحسانُ عبّاسٍ[2] أن يَجْعَلها مِثالاً للنزعةِ الفكريةِ الفلسفية في مُقابل قصيدةِ ابنِ زيدونٍ «أضحى التنائي» التي رأى إحسان عباس أنّها كَسَفَتْ قصيدةَ ابنِ الحدّاد بالشُهرةِ الاجتماعية لابنِ زيدونٍ وولادةَ وبالمقدرةِ الشعرية لابنِ زيدونٍ- لم تكن جديدةً في الأدب العربي: شاعرٌ مسلمٌ يُحِبُّ فتاةً غيرَ مُسلمةٍ.

قال بطرس البستاني:

«وكان من جَراء اختلاطِ (الأندلسيّين) بالنصارى أنْ شاعَ عندَهم الغَزَلُ النَّصْرانيُّ[3] وذِكرُ الكنائسِ والقَساوِسَةِ والصُلبان كَغَزَلِ ابنِ الحدّاد في نُويرةَ النصرانية، وكان يَهْواها فلم تَرْضَ به بَعْلاً لاختلاف دِينها عن دِينه. فهامَ بها وأكْثَرَ مِن التشبيب». ثم يُورد بُطْرُسُ البستاني مقطوعةً لابنِ الحداد في نُويرةَ هذه:

عَساكِ، بحَقّ عِيساكِ مُريحــــةٌ قَلْبِيَ الشاكي.

فــإنّ الحُسْنَ قــد ولاّ كِ إحْيائي وإهْلاكي.

وأوْلَعــني بصُلبــانٍ ورُهبــانٍ ونُسّاكِ.

ولم آتِ الكنائسَ عنْ هَوىً فيهنَّ لولاك!

وهــا أنــا مِنْــكِ في بَلْوى ولا فَرَجٌ لبَلْواك

ولا أسْطيــعُ سِلوانــاً فقــد أوْثَقْــتِ أشراكي.

وكم أبْكي عليــكِ دَمــاً ولا تَرْثِينَ للباكي!

فهــل تَــدْرينَ مــا تَقْضي على عَيْنَيَّ عَيْناكِ؟

ومــا يُذْكيــه من نــارٍ بقلبي نُورُكِ الذاكي؟

---

(١) أدباء العرب ٣: ٥٨- ٥٩.

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين ١٦٠- ١٦٢.

(٣) يقصد: الغزل بالنصرانيّات.

نُويرةُ، إن قَلَيْـــتِ فإنـ ـنَني أهواكِ أهواك[1].
وعينـــاكِ الشَهيـــدانِ بأني بعضُ قَتْلاك.

هذه المقطوعةُ، إذا تأمَلْتَها، لا تَجِدُ فيها فنًّا شِعرياً يُسوِّغ الحديثَ عليها، إذ ليسَ فيها شيءٌ من عبقريّةِ ديكِ الجنِ الحِمْصي مَعَ جاريته النَصرانية وَرْدٍ[2]. وليسَ فيها أيضاً شيءٌ من ذلك الحِسِّ الصادِق في قِصَّة مُدْرِكِ بنِ عليٍّ الشَيْبانيّ مَعَ عَمْرو النصراني[3]. وهي طبعاً نازلةٌ عنِ العاطفة وعنِ الصورة اللّتَيْنِ نَلْقاهُما في قول القائلِ:

زُنّـــارُه في خَصْرِه معقودُ كأنّـــه من كَبِـــدي مَقْـــدودُ!

وقد توسّع الأندلسيّون عندَ الغَزَلِ في أوصافِ الطبيعةِ: تلك الأوصافِ التي غَلَبَتْ في شِعْرهم على كلِّ فنّ آخَرَ.

ويلحَقُ بالغزلِ المُجونُ، وهو الإفصاحُ عن المدارك الجِنْسية باللفظ الصريح كثيراً أو قليلاً. ولعلَّنا نَجِدُ اتساعَ مَدى المُجونِ والصراحَة فيه، في الشعرِ الأندلُسي، أكثَرَ ممّا نَجِدُ مِنْها في الشعر المشرقي. ومن الأمثلة على ذلك وَلاّدة.

ومثِلُ ذلك في هذا الموضعِ شِعرُ الهَزْل والسُخف، وكان لها مِثْلٌ في المشرق. ومِنْ أحسنِ الأمثلة على الهزل مَعَ الفُحْش « الرسالةُ الهَزْلية » التي كَتَبَ بها ابنُ زَيْدونٍ إلى ابنِ عَبدوسٍ على لِسانِ وَلاّدةَ.

والسُخْفُ هو الإتيانُ بالمعاني المُبْتذَلَةِ والتمدُّحُ بأشياءَ لا قيمةَ لها أوِ ٱستحسانُ تلك الأشياء. فمِمَّنْ يشارُ إليه هنا أبو عبدِ الله محمّدُ بنُ مسعودٍ القُرْطبيُّ، مِنْ مشاهيرِ شُعراءِ المائةِ الخامسةِ. ويبدو (راجع المغرب ١ : ١٣٤) أنّه دَخَلَ على مَمْدوحٍ فألْقى بَيْنَ يَدَيْهِ شِعْراً ساقطاً فلم يُعْطَ عليه شيئاً ولكنْ صُفِعَ. فَخَرَجَ وقال:

---

(١) قلى يقلي: أبغض.
(٢) راجع من هذه السلسلة ٢ : ٢٧٢.
(٣) مثله ٢ : ٥٧٢- ٥٧٤.

وَخَرَجْنــا كما دَخَلْنــا بــلا فَلْـ ـسٍ، ولكن رَبِحْتُ صَفْعَ قَفاءِ

وتحدّثَ مرةً عن المطاعم فقال[1]:

وإذا قِيـلَ لي: بِمَنْ أنتَ صَبٌّ؟ وعـلامَ انْسكـابُ دَمْعِ المآقي؟

قُلْتُ: همّــي السِكْبـاجُ والجُمّليّا تُ ورَخْـصُ الشِوا مَعاً بالرُقاق[2].

وجَشيشُ السَميـذِ أعـذبُ عِنْـدي من رُضابِ الحبيبِ عند العِناق[3].

أدخَلَ نفر من الشعراء الأندلسيين عَدَداً من المعاني الفلسفيةِ في أشعارهم. ولكنّنا لا نَعُدُّ ذلك في شعرِ الحِكمة (والنقّادُ العَرَبُ يسمّونها: الأدبَ)، بلْ في بابِ « النظم التعليمي » كأراجيزِ النحو. فمن ذلك مثلاً قولُ ابنِ وَهْبونِ المُرسي (ت ٤٨٣):

نَفْسي وجِسْمي إن وَصَفْتَهُما مَعاً آلٌ يــذوبُ وصَخْرةٌ خَلْقـاء[4]

تتعاقـبُ الأضداد مِمّا قـد تَرى جلبَتْ عليـك الحِكمة الشَنْعاء[5].

أمّا الحِكمة المألوفةُ في الشِعر فهي اللَمْحةُ البارعةُ من الرأي الصائبِ الذي يَصْدُقُ في الواقعِ أو يُوافقُ المَنْطِقَ أو يُوجزُ الاختبارَ الإنسانيَ الطويل. وقيمة الحِكمة في الشِعر أن يَرِدَ المعنى الحكيمُ الجديدُ في التعبيرِ الوجيزِ الواضحِ. مِنْ ذلك قولُ عبدِ

---

(١) تاريخ الأدب الأندلسي: الطوائف والمرابطون ١٥٢.

(٢) في الاصل: قلت بالسكباج (ولا يستقيم بها الوزن) فأجزت لنفسي أن أثبت ما في المتن. السكباج: لحم يتبّل بأفاويه وبزورات مختلفة. الجمليات (؟). الرخص: الطريّ. الشواء: اللحم المشوي. الرقاق: خبز يصنع رقيقاً (وربّما قيل له: خبز مرقوق، خبز تنّور، خبز صاج: قطعة من حديد مستديرة ومحدّبة كأنّها قطع من كرة) تخبز الرقاق على ظاهرها وتكون النار تحتها).

(٣) الجشيش: حبّ (حنطة، قمح) يجرش خشناً ثمّ يلقى عليه لحم أو تمر فيطبخ بأحدها. السميد: السميد لباب البر (بالضم) « القمح ».

(٤) تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين ١٢٧- ١٢٨ (عن الذخيرة) آل: سراب. خلق (بفتح فكسر) الثوب والجلد وغيرها: بلي (تهرّأ) ولان وآملاسّ (بتشديد السين). الملموح (من الفلسفة لا من البيت): أنّ النفس مفارقة (لا يتفق لها ما يتّفق للبدن: لا تهلك بهلاكه)، أما الجسم (وهو مادة) فإنه يتبدل ويهلك (تتغيّر صورته).

(٥) إن تبدّل الصورة على المادّة: ماء = بخار = غمام = ماء = ثلج الخ هو أصل العذاب في الدنيا - « جلبت » (في الأصل) مبنية للمجهول. فلعلّ بناءها للمعلوم أصحّ.- أن مثل هذا العسف في المعاني والتراكيب لا يجعل من الكلمات المنظومة « فناً فلسفياً »؟.

الملك بن هُذيلِ بنِ رَزينٍ (الحلّة السيراء ٢: ١١٣) يوازن بينَ ما تُذيبُه النارُ من جِسْمِ الشَمْعةِ المُضاءة وما يَنْقُصُ من حياةِ الإنسان تدريجاً بفعل تناقص الأجل (والصفراء: الشمعة):

رُبَّ صَفراءَ تَردّتْ بِرِداءِ العاشقينـــــــا.
مِثْـــلَ فِعـــلِ النـــارِ فيهـــا تَفْعَلُ الآجالُ فينا.

ومن ذلك أيضاً قول ابنِ عبدونٍ(١):

فالدهْرُ حربٌ، وإن أبـدى مُسالمةً؛ فالبِيضُ والسُمْر مِثْلُ البيضِ والسُّمُرِ(٢)
ولا هَوادةَ بـينَ الرأسِ - تأخُـذُهُ يدُ الضِرابِ - وبين الصارمِ الذَكَرِ(٣).
فـلا تَغرَّنْـكَ من دُنيـاكَ نَوْمَتُهـا، فما صِناعـــة عَيْنَيْهـا سِوى السَهَرِ.

ويتبَعُ هذا الشعرَ ذا الاتّجاهِ الفلسفيّ الحكيمِ شعرٌ ذو نفحةٍ دينيةٍ لا يبلُغُ إلى أن يُسمّى «زُهداً»، فالزهدُ عند المتصوّفين أن ينصرفَ الفردُ عن التمتعِ بملاذِّ الحياةِ وهو قادرٌ على الحصول عليها. أمّا الفقيرُ الذي يُظْهِرُ الكُرْهَ للمالِ، وأما العاجزُ الذي يَنْفِرُ ويُنَفِّرُ من الشهوات، وأمّا الخائبُ في الوصولِ إلى بعضِ مراتبِ الجاهِ فليسوا زاهدين.

وعلى كلِّ حالٍ، فإنّنا نَجِدُ على بعضِ شعرِ هذا العصرِ نفحةً دينيةً، فإنّ الإنسانَ يَرْجعُ بينَ الحينِ والحينِ إلى نفسِه يُحاسِبُها، فيتذكّرُ - في أثناءِ ذلك، ربَّه أو يذكُرُ الموتَ أو يأسَفُ على أنّه قد أضاع في بعضِ ما مضى من حياتِه وقتاً ونشاطاً كان

---

(١) راجع ترجمة ابن عبدون (ت ٥٢٩ د).

(٢) (الفتيات) البيض و(الفتيات) السمر تفعل في حياة الإنسان من المصائب ما تفعله البيض (السيوف) والسمر (الرماح).

(٣) الهوادة: اللين والرفق والمحاباة. الصارم الذكر: السيف من الفولاذ. - إنّ قسوة اليد (التي هي من جنس الإنسان) كقسوة السيف (الذي هو من غير جنس الإنسان) ما دامت اليد هي التي تضرب بالسيف.

باستطاعتِه أن يستخدمَها على وجهٍ أصحَّ أو أنفعَ. في هذا البابِ من الشعر ذي النفحةِ الدينية يدخُلُ مثلُ قولِ أبي إسحاقَ الإلبيري (ت ٤٦٠):

يـــا أيُّهـــا المُغْتَرُّ بـــاللهِ، فِرَّ من اللهِ إلى اللهِ؛
ولُـــذْ بـــه واسأَلْـهُ من فضلـهِ فقـــد نجـــا من لاذَ بـــاللهِ.
وقُمْ لـــه، والليـــلُ في جِنْحِـهِ، فحبَّـــــذا مَنْ قـــام للهِ[1].

وكذلك قولُ العَسّالِ الطُّلَيْطُلي (ت ٤٧٨):

انْظُرِ الدنيـــا: فـــإنْ أبْـ ـصَرْتَهـــا شيئـــاً يَـــدومْ،
فاغْـــدُ منهـــا في أمـــانٍ، إنْ يُساعِدْكَ النعـــــــــيمْ.
وإذا أبْصَرْتَهــــــــــا مِنْـ ـكَ عـــلى كُرْهٍ تَهـــيمْ[2]،
فاسْلُ عنها وآطَّرِحْها وآرْتَحِـــلْ حيـــثُ تُقـــيم[3].

ففي البيتِ الثاني من المقطوعةِ الأولى ثم من المقطوعة الثانيةِ «رَغبةٌ في الدنيا» مِمّا يُناقضُ مذهَبَ الزُهدِ. ثمّ إنّ المقطوعةَ الثانيةَ على الأخصِّ ليس فيها من المقوّماتِ الفَنّية ما يَرْفَعُها إلى منزلةِ الشِعر.

وأمّا الشعرُ الدينيُّ على الحَصْرِ فيتَبَدّى، في هذا العصرِ، في قصيدةِ عبدِ اللهِ الشُقْراطيسيّ التونسي (ت ٤٦٦): «الحمدُ للهِ مِنّا باعثِ الرسلِ». ولم يُخْطِئْ حَسَنُ حُسني عبدُ الوهابِ لَمّا قالَ (مجمل تاريخ الأدب التونسي ١٦٥) «يظهَرُ أنّ قصيدَتَيِ «البُردة» و«الهَمْزيّة» للإمام البوصيريّ (راجع من هذه السلسلة ٣: ٦٧٣- ٦٧٥) مُسْتَوْحيتانِ من قصيدةِ الشُقراطيسي هذه (أنظر: ترجمة الشقراطيسي).

---

(١) جنح الليل: قسم من الليل يشتدّ فيه الظلام. قام لله (قيام الليل: العبادة في أثناء الليل).
(٢) على كره منك تهيم (تنصرف).
(٣) أسل عنها: انسها. وارتحل (إلى) حيث تقيم.

النثر

النثرُ الأندلسيُّ- في أسلوبه- هو النثرُ المشرقيُّ، لولا ذلك التطوُّحُ في الخيالِ أحياناً كقولِ أبي حفصٍ بنِ بُردٍ (ت بعيد ٤٥٠): «ما أعجبَ القلَم يشرَبُ ظُلمةً ويَلْفِظُ نوراً- على غَيْثِ القلمِ يَتَفَتّحُ زَهْرُ الكَلِمِ- التعليمُ فِلاحةٌ وليستْ كلُّ أرضٍ مُنبتةً». ولابنِ بردٍ هذا رسائلُ في تفضيلِ الوردِ وفي المُناظرة بينَ السيفِ والقلمِ مما نراه في ترجمته.

وحاكى الأندلسيون جميعَ أساليبَ المشارقةِ في النثرِ حتّى ما تَقَعّرَ منه في الغَرابة- كقولِ أحدِهِمْ في العصرِ الذي نُوجِزُ على هذه الصَفَحاتِ خصائِصَه-: «لِمَنْ هذا الكلامُ الذي اَعْذَوْذَبَ مَوْرِدُهُ وٱفْضَوْضَلَ مَنْبِتُهُ وتَحلّتْ بِقلادةِ الحَلاوة بِكْرُه وهَدَر بِشِقْشِقة الجَزالة بَكْرُه... مَعْشَرَ قومي، اسْمعوا ما سَمِعْته، وعُوا ما وَعَيْتُهُ، فإنّه لَفَخْرٌ طَلَبَكُمْ وشرفٌ تلاصَقَ بكم».

وتوفّرَ الأندلسيّون على كِتابة الرسائل- إخوانيةً وديوانيةً- ولكنّهم لم يخرُجوا في ذلك كلّهِ، من حيثُ الأسلوبُ، عن نَمَطِ المشارقةِ ثمّ لم يَبْلُغوا إلى شيءٍ من مستوى ذلك النمَطِ.

النقد الأدبي

نَهَضَ في هذا العصرِ نُقّادٌ أبرَعُهُمْ وأشهرهُمُ ابنُ رشيقٍ القَيْروانيّ (ت ٤٥٦). وقد كان اتّجاهُهُ وعددٌ من آرائهِ يَرْجِعان إلى أستاذه عبدِ الكريمِ النَهْشَليّ القيرواني (ت ٤٠٥). ومَعَ أنّ ابنَ رشيقٍ قدِ ٱستفادَ من مذاهبِ النقدِ الواردة من المشرق، فإنّ كتابه «العُمدة في صناعة الشعر ونقده»، ألصق الكتب الى ذلك الحين بموضوع النقد الأدبي.

وجاء في هذه الحِقْبة نفرٌ آخرونَ من النُقّاد مثلُ أبي القاسمِ بنِ الإفليليّ (ت ٤٤١) وله شرحٌ على ديوانِ المُتنبيّ ثمّ ابنِ حزمٍ الأندلسيّ (ت ٤٥٦) ثمّ أبي الحسنِ ٱبن سِيدَه (٣٩٨- ٤٥٨ هـ) صاحبِ كتابِ المُحْكَم وكتاب المُخَصّص ثمّ الأعلمِ

الشَنْتَمري (ت ٤٧٦) وأشهَرُ ما نَعرِفُ له « شَرْحُ الشُعراء السِتّة » (الجاهليين) ثم مُحمّدِ ابن فَتّوحٍ الحُميدي (ت ٤٨٨) صاحبِ « جُذوةِ المُقتَبِسِ » وكتاب « السَبيل إلى تَعَلُّمِ التَرْسيل » ثمّ أبي بكرٍ عاصمِ بنِ أيوبَ البَطَلْيَوْسِيّ (ت ٤٩٤) وله شروح على الأشعارِ القديمةِ ثمّ ابنِ السِيدِ البَطَلْيَوْسِيّ (٤٤٤- ٥٢١ هـ) وله « الانتصار مِمّنْ عَدَلَ عنِ الاستبصار » و « شرحُ سِقْطِ الزَنْد » (للمَعريّ). هؤلاء النفرُ الآخرونَ- وكلّهُمْ أندلسيّون- كانتْ لهم ملاحظاتٌ وآراءٌ في النقد اللُّغويّ والنقد النَحْوي والنقد البياني مُفَرَّقَةٌ في كُتُبِهِمُ المُختلفة. ويبدو أنّ « السبيلَ » للحُميدي كان قريباً جدًّا من منهج النقدِ الأدبي القائم على استعراضِ نماذجَ جيادٍ من فنونِ الترسُّل.

الموشّح: خصائصه ونشأته

الشعرُ العربيُّ، من حيثُ القافيةُ، ثلاثةُ أجناسٍ: قصيدٌ ورَجَزٌ ومُسَمَّطٌ. وكلُّها قديمةٌ. فالقصيدةُ أبياتٌ متواليةٌ ومختومةٌ بمجموعاتٍ مُتماثِلَةٍ من الأحرف تُدعى قافيةً. وتكونُ هذه المجموعاتُ كلُّها مَبْنِيّةً على حَرْفٍ واحدٍ مَخصوصٍ يُسمّى « رَوِيًّا »[١]. قالتِ الخنساءُ تَرْثي أخاها صَخْراً:

يُذكِّرُني طلوعُ الشمسِ صخراً، وأندُبُــهُ لكــلِّ غُروبِ شمسِ.
ولولا كَثْرةُ الباكــــينَ حَوْلي عـــلى إخوانِهِمْ لَقَتَلْــتُ نفسي.

فحرفُ الرويِّ هنا هو السينُ المكسورةُ؛ أما القافيةُ فهي السكون على الحرف (الصحيح) قبل السين المكسورة مع السين المكسورة. أمّا الياء في البيت الثاني بعد السين هو حرف إشباع للسين المكسورة.

---

(١) الرويّ هو الحرف الذي تبنى عليه القافية في القصيدة: د، ر، ل، ن، ي، ا، الخ. أمّا القافية فهي حرف الرويّ مع الأحرف الساكنة والمتحركة السابقة عليه والتالية له والتي تكون ضرورية في اتّساق الموسيقى اللّفظية. إنّ قوافي القصيدة الواحدة يمكن أن تكون: كلام، حرام، أمام (ولكن لا يجوز أن تكون: كلام، سليم، منام، الخ ولا تكون أيضاً: حرام، كلاماً، الخ، ممّا هو معروف في علم القافية)، أو بحر، بصر، صخر، نظر الخ.

والرَجَزُ في الأصلِ بَحْرٌ من بحورِ الشِعر[١] تُنْظَمُ عليه الأراجيزُ[٢]. والأُرجوزةُ أَشْطُرٌ وَتْرٌ[٣] مَبْنِيّةٌ كلُّها على حرفِ رَويٍّ واحدٍ. قالتِ امرأةُ أبي حَمزةَ الضَبّيِّ الخارجيِّ- وكان زَوْجُها قد هَجَرَها وجعلَ يَبيتُ في خَيْمةٍ مُجاورةٍ لخَيْمَتِها، وهُوَ غاضبٌ لأنّها كانتْ مِئْناثاً وَلَدَتْ له عِدّةَ بناتٍ ولم تَلِدْ له غُلاماً-:

مـــا لأَبِي حَمزةَ لا يأتِينـــا،	يَظَـلُّ في البيتِ الذي يَلينـا،
غَضْبـــانَ ألاّ نَلِـدَ البَنينـــا؟	تـــاللهِ، مـــا ذلـكَ في أيْدينـا:
وإنّما نأخُـــذُ مـــا أُعْطينـــا.	ونَحْنُ كـــالأرضِ لزارِعينـــا

نُنْبِتُ ما قدْ زَرَعوه فينا!

وتَجيءُ أشْطُرُ الأرجوزةِ أيضاً شَفْعاً[٤]، ويكونُ لكلِّ شَطْرينِ (للصَدْرِ ولِلْعَجُزِ) في كلّ بيتٍ من أبياتِها قافيةٌ على رَوِيٍّ واحد. قال أبو العَتاهيةِ:

إنّ الفسادَ ضِــــدُّهُ الصَــلاحُ،	يـــا رُبَّ جِـــدٍّ جَرّه المُزاحُ.
مـــا تطلُـعُ الشمسُ ولا تَغيـبُ	إلاّ لأمرٍ شأنُــــه عجيـــبُ.
لكــــلِّ شيءٍ مَعْـــدِنٌ وجوهرُ	وأوسطٌ وأصغرٌ وأكـــــــبرُ.

---

(١) بحور الشعر (أو أوزان الشعر) يمكن أن تكون غير متناهية في العدد لأنّها في الأصل ألحان موسيقية تنشأ من توالي الألفاظ بقدر معيّن على نسق مخصوص. ثم جاء الأخفش الأوسط فزاد فيها البحر السادس عشر. وليس من الضروري أن تكون هذه هي جميع الأبحر التي يمكن أن يأتي عليها الشعر العربي. وإذا نحن علمنا أن كلّ بحر من هذه البحور يمكن أن يأتي تامّاً أو مجزوءاً، وأنّ معظم الأضرب (جمع ضرب- بفتح فسكون-: التفعيل الأخير في الصدر) ومعظم الأعاريض (جمع عروض بالفتح: التفعيل الأخير في العجز) يمكن أن يأتيا على أقدار مختلفة، وجدنا أن بحور الشعر في الحقيقة أكثر من ستّة عشر بحراً.

(٢) الأراجيز تنظم على بحر واحد من البحور الستّة عشر.

مستفعلن مستفعلن مستفعلن مستفعلن مستفعلن مستفعلن.

(٣) مفردة: ٣، ٥، ٩، ١٧، ٤٩ الخ.

(٤) مزدوجة: ٤، ١٠، ٢٢، ٣٦، الخ.

• وربّما جاء الشاعرُ بأُرجوزتهِ مولعة[1] فيجعَلُ أشطُرَها تَتَردَّدُ شَفْعاً ووَتْراً، كما فَعَلَ أبو العتاهيةِ أيضاً:

مـا عيشُ مَنْ آفتُه بقاؤه!   نغّص عَيْشاً طيّباً فناؤه.
إنّا لَنَفْنى نَفَساً وطَرْفا،   لم يترُكِ الموتُ لإلْفٍ إلْفا[2].
وللكلامِ باطنٌ وظاهرُ.   في ساعةِ العدلِ يموتُ الفاجرُ.
عَلِمتَ، يا مُجاشعَ بنَ مَسْعَدَهْ   أن الشبابَ والفَراغ والجِدَه[3]
مَفْسدةٌ للمرءِ أيُّ مفسدهْ.
يا لَلشَّبابِ المَرِحِ التصابي!   روائحُ الجَنّة في الشبابِ.
ليس على ذي النُصْح إلاّ الجُهْدُ.   الشيبُ زَرْعٌ حانَ منه الحَصْدُ.
الغدْرُ نَحْس والوفاءُ سعدُ.
وَهْيَ المقاديرُ، فلُمني أو فَذَرْ،   تجري المقاديرُ على غَرْزِ الإبَرْ[4].
إنْ كُنتُ أخطأتُ فما أخطا القَدَرْ!

وبما أنّ التسميطَ يقومُ على اختلافِ القوافي والأوزانِ معاً، فسأُرجِىءُ الكلامَ عليه إلى حين الكلام على الأوزانِ في القصيد والرَجَز (كيلا أتكلّمَ على التسميط – وهو جِنْسُ الشعرِ القريب من المُوَشَّحِ – في مكانين مختلفين).

أمّا من حَيْثُ الوزنُ، فإنّ من حقّ كلِّ مقطوعةٍ شعريةٍ (من القصيد أو الرَجَز)،

---

(١) المولّع: الإنسان أو الحيوان: إذا أخذ فيه البرص (وهو مرض يتبدّل به لون الجلد في مكان دون مكان). وقال الشريف الرضي (ت ٤٠٦ هـ- ١٠١٦ م).

يُولِّع الطلّ بردينا وقد نسمت   رُويحة الفجر بين الضال والسلم.

الطل: المطر الخفيف. البرد: الثوب. ولّع الطّل بردينا: جعل بقعاً منها مبتلّة وترك بقعاً فيهما جافة.

(٢) نفساً وطرفاً (لحظاً): قليلاً قليلاً.

(٣) الفراغ: قلّة العمل واتّساع الوقت. الجدة: الغنى، الثروة.

(٤) ذر (وذر بكسر الذال يذر بفتحها): ترك – أو ذر (اترك لومي). على غرز الإبر: بالترتيب والموالاة (على قوانين دقيقة).

طالتْ أو قَصُرَتْ، أن تكون من بَحْرٍ (على وزنٍ) واحدٍ، فإنّ «الوزنَ أحدُ أركانِ الشعرِ وأوْلاها بهِ خُصوصيّةً. وهُوَ مُشْتَمِلٌ على القافيةِ وجالبٌ لها ضَرورةً: إلاّ أن تختلفَ القوافي[1] فيكونَ ذلك عيباً في التقفية لا في الوزنِ. وقد لا يكون[2] عيباً (في) المُخمّساتِ وما شاكَلَها[3]».

وتفاعيلُ الشعر لا تأتي تامّةً دائماً: مُسْتَفْعِلُنْ. فاعِلاتُنْ، مفَاعيلُنْ، فَعولُنْ إلخ بل تأتي أحياناً مقبوضةً، نحو مَفاعِلُنْ، فَعولُ (مكانَ مستفعلن، فعولن). وفي كثيرٍ من الأحيانِ يكونُ التفعيلُ المَزْحوفُ أو المقبوضُ (الناقص في أحدِ وُجوهِه) أجْرى في اللّفْظِ وأكثر موافقةً للغِناء من التفعيلِ التامّ[4]. ورُبّما زادَ الذي يُنْشِدُ الشِعرَ في أوّلِ البيتِ حرفاً أو كَلِمةً من غيرِ أن يَقْلَقَ الإنشادُ، كالذي رَوَوْهُ عن عليٍّ بنِ أبي طالب[5]:

اشْدُدْ حيَازِيمَـــــك للموتِ فــــإنّ الموتَ لاقيكـــــا.
ولا تجزَعْ من الموتِ إذا حَـــلّ بواديكـــــا!

فإنّ الأصل فيه: «حيازيمَك للموت.....».

غيرَ أنّ هذهِ الجَوازاتِ كلَّها في التفاعيلِ وهذا الجَزْءَ للبُحورِ وهذه الزياداتِ على الأبياتِ لا تُخْرِجُ الأبياتَ من الوزنِ المخصوصِ.

وكان الخليلُ بنُ أحمدَ (ت ١٧٤ هـ = ٧٩٠ م) قدِ آستعرضَ أشعارَ العربِ

---

(١) راجع الحاشية ص ٤١٦.

(٢) هذا التركيب: «قد لا يكون» غير فصيح، وقد أجازه مجمع اللغة العربية بالقاهرة (أظنّ عام ١٩٧٠).

(٣) لأنّه في المخمّسات والمسمّطات أصبح قاعدة.

(٤) قلّ أن تجد بيتاً في قصيدة تامّ التفاعيل بلا جوازات، ذلك لأنّ التفاعيل التامّة تجعل الأبيات شديدة الرتوب (على وتيرة واحدة).

(٥) سواء أكانت هذه الأبيات للإمام عليّ كرّم الله وجهه أو كان هو قد استشهد بها، فإنّه قد أضاف كلمة «أشدد» في أول البيت الأول. الحيزوم: الصدر. أشدد حيازيمك للأمر: وطّن نفسك عليه واحزم.

فاسْتَخْرَجَ مِمّا وَقَعَ تحتَ نَظَرِهِ منها خمسةَ عَشَرَ بحراً أو وَزْناً. وبما أنّ بحورَ الشِعر تَرْجِعُ في الحقيقة إلى الايقاع (حُدوثِ النغَم مِنْ تَعاقُبِ النَقْرِ على نَسَقٍ مخصوصٍ)، فإنّ كثيراً من الكلامِ الذي يأتلفُ مَعَ ضُروبِ الإيقاع المُختلفةِ والمتعدّدة يَجِبُ أن يُعَدَّ داخلاً في الكلامِ المَوْزُونِ المنظومِ، ولو لم يأتِ على أحدِ الأبحر الخَمْسةَ عَشَرَ التي اتّفق للخليل بنِ أحمدَ أن يَسْتَخْرِجَها من الشعرِ العربيّ القديم. والذي يُؤَكِّدُ هذا الحَدْسَ أنّ الأخفشَ الأوسط (ت ٢١٥ هـ = ٨٣٠ م) قدِ استدرَكَ على الخليلِ بنِ أحمدَ بحراً وزنُه «فاعِلُنْ فاعلن فاعلن فاعلن» مرّتين وسَمّاهُ المتدارَكَ (لأنّه تداركَه: لَحِقَ به بعدَ أن فاتَ ذلك البحرُ الخليلَ، أي سَبَقَهُ). ثمّ إنّ الأخفشَ اشتقّ من المُتدارَكِ - بأنْ جَعَلَ من «فاعِلن» تفعيلاً آخرَ هو «فَعِلُنْ» (بثلاثِ حَرَكاتٍ فسُكونْ)- بحراً مُستقلاً سمّاه الخَبَب، لأِنّ تواليَ لَفْظِه يُشْبِهُ خَبَبَ الفَرَسِ[١].

فن التسميط

التسميطُ هو تَنوُّعُ القوافي والأوزان في المقطوعة الشِعْرية الواحدة.

بدأ ابنُ رشيقٍ الكلامَ على «باب التَقْفِيَةِ والتصريع» (العُمدة ١ : ١٤٩) بقوله: «هذا بابٌ يُشْكِلُ[٢] على كثيرٍ من الناس عِلمُه، ويَلْحَقُهُ عيبٌ سمّاه قُدامَةُ[٣] التجميعَ، كأنّه من الجَمْعِ بين رَوِيَّيْنِ وقافيتين. ورأيتُ مَنْ يقولُ: التخميعُ- بالخاء (المُعجمة)- كأنّه من الخَمْع[٤] في الرِجْلِ».

---

(١) خبّ الفرس خببا: (في القاموس) أن ينقل الفرس أيامنه وأياسره جميعاً في الركض (والصورة ليست واضحة) ولعلّ الخبب أن ينقل الفرس قائمتيه الأماميّتين معاً وقائمتيه الخلفيّتين أو أن يخالف في نقلها (القائمة الأمامية اليمنى) «ثم الخلفية اليسرى ثمّ الأمامية اليسرى ثمّ الخلفية اليمنى» - وعلى كلّ فالخبب أشبه بالقفز منه بالركض المستمرّ. وفي تاج العروس (الكويت ٢ : ٣٢٩): «أو هو أن يراوح بين يديه ورجليه: أن يقوم على إحداها مرة وعلى الأخرى مرة».

(٢) أشكل الأمر: أصبح غامضاً.

(٣) قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧ هـ = ٩٤٨ م) كاتب وأديب وناقد له كتاب «نقد الشعر».

(٤) في القاموس (٣ : ١٩) الخمع (بالفتح): العرج.

أمّا التصريعُ فَهُوَ أن يكونَ لِلضَرْبِ وللعَروض (في مَطْلَعِ القصيدة) قافِيتانِ على رَوِيٍ واحدٍ كقولِ المتنبّي:

علىٰ قَدْرِ أهلِ العَزْمِ تأتي العزائمُ، وتأتي على قَدْرِ الكِرامِ المكارمُ.

وأمّا التجميعُ (أو التخميع) فذلك أن تكونَ القصيدةُ غيرَ مُصَرَّعةٍ، أو على الأصحِ أن يكونَ المَطْلَعُ قابلاً لِلتَّصريع ثمّ لا يُصَرِّعهُ شاعرُه، كقولِ جميلِ بنِ مَعْمَرٍ:

يا بُثْنُ، إنّك قد مَلَكْتِ فأسْجِحي وخُذي بحَظّكِ من كريمٍ واصِلِ.

(ولقد كان بإمكان جميلٍ أن يقولَ: « ... وخُذي بحظِّكِ من كريمٍ تنجَحي »، فيأتيَ المطلعُ مُصَرَّعاً ويَظَلَّ المَعْنى والوزنُ مُستقيمَيْنِ. ولكنَّ جميلاً لم يفعَلْ ذلك، بلِ اختارَ لقصيدتهِ قافيةً لاميةً رآها، فيما يبدو، أوسَعَ من القافية الحائية).

ويبدو أنّ هذا المَسْلَكَ، في المُخالفة في القوافي خاصّةً، كان قديماً في الشعرِ العربيّ. قال ابنُ رشيقٍ (ت٤٥٦ هـ أو ٤٦٣ هـ) في كتابهِ العُمدة (١ : ١٥٤- ١٥٨):

ومن الشِعرِ نوعٌ غريبٌ يُسمّونه القَواديسيّ، تَشْبيهاً بقواديسِ السانيةِ[١]، لارْتفاعِ بعضِ قوافيهِ في جِهَةٍ وانخفاضِها في الجِهة الأخرى. فأوّلُ من رأيْتُه جاء بهِ طلحةُ بنُ عبيدِ اللهِ العوْنيّ[٢] في قولِه، وهو من قصيدةٍ مشهورةٍ طويلةٍ[٣]:

كَمْ لِلدُّمــــى الأبكــــارِ بالـ ـخَبْتَيْنِ من منـــــــازلِ
بمُهْجَـــــتي للْوَجْــــدِ من تَذْكارِهـــــا منــــازلُ.
معاهـــــدٌ رَعِيلُهـــــا مُثْعَنْجِرُ الهواطـــــلِ
لَمّـــا نـــأى ساكِنُهـــا؛ فأدْمُعي هواطِـــــلُ.

---

(١) السانية: الناعورة. القادوس: صندوق صغير يكون على دولاب أو على سلسلة يحمل فيه الماء من البئر إلى سطح الأرض.

(٢) طلحة بن عبيد الله العوني... (؟). في القاموس (٤ : ٢٥) عون (بالضم) بلد بساحل اليمن.

(٣) لن أشرح الأبيات المستشهد بها في هذا الفصل (عن مقدّمات التوشيح والتوشيح) لأنّ الغاية من هذه الأبيات شكلها الظاهر (ترتيب أشطرها وتنوّع قوافيها).

وهو مربوعُ الرَجَزِ   تَعمّدَ (الشاعر) فيه الإقواء وأوطأ[1] في أكثرِهِ قَصْداً، كما فَعَلَ في البَيْتَيْنِ الأوّلين.

ومِنَ الشِعْرِ جِنْسٌ كلُّه مُصَرّعٌ، إلاّ أنّه مختلفُ الأنواع.... فمن ذلك الشِعْرُ المُسَمَّطُ، وهُوَ أن يبتدئ الشاعرُ ببيتٍ مُصَرّعٍ ثمّ يأتيَ بأربعةِ أقْسِمَةٍ على غيرِ قافيتهِ، ثمّ يُعيد قَسِماً واحداً من جِنْسٍ ما ابتدأ به. وهكذا إلى آخرِ القصيدة. مِثالُ ذلك قولُ امْرِئِ القَيْسِ - وقيلَ: إنّها منحولة[2] -:

تَوَهمْتُ من هِنْدٍ مَعالِمَ أطلالِ   عَفاهُنّ طُولُ الدهرِ في الزمنِ الخالي.
مَرابِعُ من هِنْدٍ خَلَتْ ومصائفُ   يَصيحُ بِمَغْناها صَدىً وعوازِفُ،
وغَيّرَها هُوجُ الرياحِ العواصفُ   وكُلُّ مُسِفٌّ، ثمّ آخَرُ رادفُ
بأسْحَمَ من نَوْءِ السِّماكَيْنِ هَطّالِ.

وهكذا يأتي بأربعةِ أقْسمةٍ على أي قافيةٍ شاء، ثمّ يُكَرِّرُ قَسِماً على قافيةِ اللام. ورُبّما كان المُسَمَّطُ بِأقلَّ مِنْ أربعةِ أقْسِمَةٍ، كما قال أحَدُهُمْ:

خَيالٌ هاجَ ليْ شَجَنا   فَبِتُّ مكابِداً حَزَنا
عميدَ القلبِ مُرْتَهَنا   بذِكْرِ اللَّهْوِ والطَرَبِ.
سَبَتْني ظَبْيَةٌ عُطُلُ،   كأنّ رُضابَها عَسَلُ،
يَنوءُ بِخَصْرِها كَفَلُ   ثقيلُ روادفِ الحُقُبِ.

ورُبّما جاءوا في أوله بأبيات خمسةٍ على شَرْطِهِمْ في الأقْسِمَةِ - وَهُوَ المُتعارَفُ - أو

---

(١) الإقواء: أن يخالف الشاعر في حركة الروي فيأتي به مرة مكسوراً ومرة مضموماً الخ. والإيطاء: الاتيان بالقافية مكررة لفظاً ومعنى (القاموس)؛ أو تتمة البيت في البيت الذي يليه (؟).

(٢) منحولة: نظمت بعد عصر امرئ القيس ثمّ نسبت إليه (لو تساهلنا وقبلنا أن تكون هذه القطعة منحولة، لظلّت أقدم من ابن رشيق وأقدم من نشأة الموشّح).

أربعةٍ. ثمّ يأتون بعدَ ذلك بأربعةِ أقسمةٍ، كما قال خالدٌ القنّاص ، أنشده الزَجّاجيُّ أبو القاسمِ[1]:

لَقَدْ نَكَرَتْ عَيْني مَنازِلَ جِيرانِ	كأسْطارِ رَقٍّ ناهِجٍ خَلَقٍ فان.
تَوَهَّمْتُها من بعدِ عِشرينَ حِجّةً،	فَما أسْتَبِينُ الدارَ، إلاّ بِعِرفان[2].
فقلتُ لَها: حُيِّيتِ، يا دارَ جِيرتي،	أَبيـني لَنـا أنّـى تَبَـدّدَ إخواني؛
وأيَّ بِـلادِ اللهِ رَبْعُـك حالفوا	فـإنّ فُؤادي عندَ ظَبْيَةِ جيراني.

فجاء بأربعةِ أبياتٍ. ثمّ قال بعدَها:

وما نَطَقَتْ، واسْتَعْجَمَتْ حين كُلِّمَتْ،	وما رَجَعَتْ قولاً وما إنْ تَرَمْرَمَتْ.
وكان شِفائي عِندَها لو تكلّمتْ	إلَيَّ، ولو كانتْ أشارَتْ وسَلّمتْ؛

ولكنّها ضَنّتْ عليّ بتِبْيانِ.

وهكذا إلى آخرِها. وقد جاء هذا الشاعرُ في قصيدتهِ بخمسةِ أقسمةٍ مَرّةً واحدةً ولم يُعاوِدْها. ولو عاوَدَها لم يَضُرَّهُ، وكذلك لو نَقَصَ (منها). إلا أنّ الاعتدالَ أحسنُ.

والقافيةُ التي تتكَرّرُ في التَسْميط تُسمّى عَمودَ القصيدة. واشْتقاق (التسميطِ) مِنَ السِمْطِ، وهُوَ أن تَجْمَعَ عِدّةَ سُلوكٍ[3] في ياقوتةٍ أو خَرْزَةٍ ما، ثمّ تَنْظِمَ كلَّ سِلْكٍ منها على حِدَتهِ باللُؤلؤِ يسيراً، ثمّ تجمَعَ السُلوك كلَّها في زَبَرْجَدَةٍ أو شِبْهِها أو نحوِ ذلك. ثمّ تَنْظِمَ أيضاً كلّ سِلْكٍ على حِدَتهِ وتصنَعَ به كما صنعتَ أوّلاً إلى أن يَتِمَّ السِمْطُ. هذا هُوَ المتعارَفُ عندَ أهلِ الوَقْتِ[4].

---

(١) الزّجاجي (أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق) النهاوندي (ت ٣٤٠ هـ = ٩٥٢ م).

(٢) كذا في الأصل. اقرأ: بعرفاني (لأنّي كنت أعرف هذا المكان من قبل).

(٣) السلك (بالكسر): الخيط الذي تُنظم به حبات العقد.

(٤) هذا يدل على أن التسميط كان قد أصبح واسع الانتشار في أيام ابن رشيق.

وقال أبو القاسمِ الزجّاجيُّ: إنّما سُميّ (التسميط) بهذا الاسمِ تشبيهاً بسِمْطِ اللؤلؤ، وَهُوَ سِلْكُه الذي يَضُمّه ويجمعه مَعَ تَفرُّقِ حَبّهِ[١]. وكذلك هذا الشِعرُ لَمّا كان مُتَفَرِّقَ القوافي مُتَعَقَّباً بقافيةٍ تَضُمّه وتَرُدُّه إلى البيت الأوّلِ الذي بُنِيَتْ عليه القصيدة صار كأنّه سِمْطٌ مُؤَلَّفٌ من أشياءَ مُفْتَرِقَةٍ.

«ونوْع آخَرُ يُسمّى مُخَمَّساً، وهُوَ أنْ يُؤتى بخمسةِ أقسمةٍ على قافيةٍ، ثمّ بخمسةٍ أُخرى في وَزْنها على قافيةٍ غيرِها كذلك، إلى أن يُفْرَغَ من القصيدة. هذا هو الأصلُ. وأكْثروا من هذا الفّنِ حتّى أَتَوْا به مِصْراعَيْنِ مصراعينِ فَقَطْ- وهو المُزْدَوِجُ- إلاّ أنّ وَزْنَهُ كُلَّه واحدٌ، كذاتِ الأمثالِ وذات الحُلَل[٢] وما شاكَلها. ولا يكونُ أقلَّ من مِصْراعين. وكُلُّ مشطورٍ أو مَنْهوكٍ فهو بَيْتٌ[٣]. وإن قيل: مُصَرَّعٌ فَهُوَ على المَجاز. وما سِوى ذلك مِمّا لم يأتِ مِثْلُه عن العرب[٤] فَهُوَ مَصاريعُ ليسَ بِبَيْتٍ. ولم أجِدْهُمْ يستعملونَ من هذه المُخَمّساتِ إلاّ الرَجَزَ خاصّةً. فأمّا المُسَمَّطاتُ فقد جاءتْ في أوزانٍ كثيرةٍ مختلفة.

(وهنالك) نوعانِ من الرَجَزِ، وهُما المشطورُ والمنهوك[٥]. فأمّا المشطورُ فما بُنِيَ

---

(١) يتألف عقد اللؤلؤ من حبّات مختلفة الأحجام: من واسطة (حبّة كبيرة في الوسط) ثمّ تتدرّج الحبّات أصغر فأصغر نحو طرفي العقد. وتكون هذه الحبّات مفصّلة (مفصولة مجموعات) بشذر (بفتح فسكون: جمع شذرة أو قطعة صغيرة من ذهب).

(٢) ذات الأمثال أرجوزة أبي العتاهية (ت ٢١١ هـ) وقد مرّ الاستشهاد بعدد من أبياتها. وذات الحلل قصيدة في أمور الفلك نظم فيها شاعرها ابان بن عبد الحميد اللاحقي (ت ٢٠٠ هـ= ٨١٥م) عدداً من قواعد الفقه ومما يتعلق بالصيام خاصة (راجع بروكلمن، الملحق ١ : ٢٣٩).

(٣) في التسميط يعدّ القسم الموزون (مهما يكن قصيراً) بيتاً.

(٤) العرب (هنا): العرب القدماء: الجاهليّون والأمويّون.

(٥) تفسير ابْن رشيق للمشطور والمنهوك يتناول القافية لا التفاعيل. وفي القاموس: المشطور ما نقصت ثلاثة أجزاء من ستّته (٢ : ٥٨). وفي تاج العروس (الكويت ١٢ : ١٧٢): المشطور من الرجز ما ذهب شطره، وذلك إذا نقصت ثلاثة أجزاء من ستّته. والمنهوك (القاموس ٣ : ٣٢٢): من الرجز ما ذهب ثلثاه وبقي ثلثه «غير أنّ المثل الذي أورده ابن رشيق: وبلدة فيها زور (مفاعلن مستفعلن) قد بقي ثلثاه وذهب ثلثه فقط. (أنظر الصفحة التالية).

على شَطْرِ بيتٍ، نحوَ قول أبي النجم الراجز[1]:

الحَمْـــــدُ للهِ الوَهوبِ المُجْزِلِ   أعطـى فلم يَبْخَلْ ولم يُبَخَّلِ.

وأمّا المنهوكُ فهو ما بُنِيَ على ثُلث بيتٍ ونُهِكَ بذَهابِ ثُلُثَيْـــهِ،أي أُضْعِفَ.

وهذا مِثْل قولِ أبي نواسٍ:

وبَلْـــدَةٍ فيهـــا زَوَرْ   صَعراءَ تَخْطـــى في صَعَر.

وأنشدَ الزّجاجيُّ وَزْناً مُشطّراً مُحَيَّرَ الفصولِ لا أشُكُّ (في) أنّه مُوَلّدٌ مُحْدَثٌ، وهو:

سقـــى طَلَـــلاً بِحَزْوَى   هزيمُ الوَدْقِ أحْوى

عَهِدْنـــا فيـــه أرْوى   زَمانـــاً ثمّ أقْوى

وأرْوى لا كَنودُ   ولا فيهـــا صُـــدودُ

لهـــا طَرْفٌ صَيودُ   ومُبْتَسِمٌ بَـــرودُ.

لئِنْ شَطّ المَزارُ   بهـــا ونـــأتْ دِيـــارُ

فقلـــبي مُستطـــارُ   وليس لــــه قرارُ

ستُدْنيهـــا ذَمولُ   جَلَنْفَعَـــةٌ ذَلولُ

إذا عَرَضـــتْ هَجولُ   تُقَصِّرُ مـــا يطولُ

وهذا وَزْنٌ مُلْتَبِسٌ يجوزُ أن يكونَ مَقْطوعاً من مُربَّعِ الوافر[2]، ويجوز أن يكونَ من المُضارِع مَقْبوضاً مكفوفاً، ذَكَره الجوهريُّ[3] وأنشدَ لبعض المُحْدَثين:

---

(١) أبو النجم الراجز (ت ١٢٠ هـ = ٧٣٨ م). والبيت الذي أورده مثالاً على المشطور: الحمد لله الوهوب المجزل (مستفعلن مستفعلن مستفعلن). لم ينقص من تفاعيله شيء.

(٢) [تفعيل الوافر (في الأصل): مفاعلتن مفاعيلن فاع لاتن (مرتين)، وتفعيل المضارع: مفاعيلن فاعلاتن (مرّتين). فإذا جزأنا الوافر فأصبح مفاعلتن فعولن ثمّ أدخلنا القبض والكفّ على المضارع أصبح مربوع الوافر (مع الجواز): مفاعيلن فعول، ثمّ أصبح المضارع (بالقبض: حذف خامس التفعيل، إذا كان ساكناً) مع ما يمكن من الجوازات العديدة، أصبح المضارع حينئذ: مفاعيلن فعول (كأنّه مربّع الوافر).

(٣) الجوهري أبو نصر إسماعيل بن حمّاد (ت ٣٩٨ هـ = ١٠٠٨ م) له كتاب «عروض الورقة» جيّد بالغ (معجم الأدباء ٦: ١٥٥).

أشاقَكَ طَيْفُ مامَهْ، بِمَكّـــةَ، أَمْ حَمامَـــهْ؟

«أشاقَكَ» مفاعل، وحقُّه في أصلِ الوزنِ مفاعيلن. وقد رأيتُ جماعةً يُركِّبونَ المُخمَّساتِ والمُسمّطاتِ ويُكثِرون منها. ولم أرَ مُتَقَدِّماً حاذقاً صَنَعَ شيئاً منها، لأنّها دالّةٌ على عَجْزِ الشاعرِ وقِلّةِ قوافيه وضِيق عَطَنه[1]- ما خلا امْرَأَ القيسِ في القصيدةِ التي نُسِبَتْ إليه، وما أُصَحِّحُها له. وبَشّارُ بنُ بُردٍ[2] قد كان يَصنَعُ المُخمّساتِ والمُزْدَوِجات عَبْثاً واستهانةً بالشعر؛ وبِشْرُ بنُ المُعْتَمِرِ فقد أنشدَ الجاحظُ له مُزْدَوِجَةً[3]. وصَنَعَ ابنُ المُعتّزِ قصيدةً في ذَمّ الصَبوح[4] وقصيدةً في سِيرة المُعْتَضِدِ ركِبَ فيها هذا الطريقَ، لما تَقْتضيهِ الألفاظُ المختلفةُ الضروريّةُ ولِمُراودَةِ التوسُّعِ في الكلام والتَملُّحِ بأنواعِ السَّجْع. وهذا الجِنْسُ مَوْقوفٌ على ابنِ وكيعٍ[5] و(على) الأميرِ تميمِ بنِ المُعزّ[6] و(على) مَنْ ناسب طَبْعَهُا من أهلِ الفرَاغ وأصحابِ الرُخَص[7]. وقد يَقَعُ لِبَعْضِ الشُعراءِ البيتانِ والثلاثةُ لها قافيةٌ واحدةٌ يجعَلونها

---

(١) فلان ضيّق العطن (مبرك الجمل): ضيّق الصدر.

(٢) بشّار بن برد (ت ١٦٧ هـ = ٧٨٢ م) رأس المحدثين وأوّل من خرج بالشعر العربي من الخصائص القديمة إلى الخصائص العبّاسية (في المعاني وفي شكل القصيدة).

(٣) المزدوجة قصيدة كلّ بيتين منها بروِيّ مستقل. بشر بن المعتمر (ت ٢١٠ هـ) من رجال الاعتزال الذين يعتمدون تفسير العقائد الدينية بالعقل. والجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) أديب موسعي كبير ومشارك في معظم فنون المعرفة ومصنّف مكثر.

(٤) عبد الله بن المعتّز (ت ٢٩٥ هـ). الصبوح: شرب الخمر في الصباح. ركب هذا الطريق (نظم المقطّعات الشعرية المختلفة القوافي).

(٥) ابن وكيع التنّيسي (ت ٣٩٣ هـ = ١٠٠٣ م) شاعر ظريف وقف شعره على الوصف والغزل ومال إلى المجون فاتّخذه مذهباً في الحياة، شعره الباقي مقطعات ومزدوجات ومربّعات (المربعة: أرجوزة كل بيتين منها على رويّ واحد في الصدرين والعجزين).

(٦) تميم بن المعزّ الفاطمي (٣٣٧- ٣٧٤ هـ)، من فنونه الغزل عامة، وهو يذهب مذهب أبي نواس في المجون والزندقة. وله وصف للطبيعة على مثال أوصاف ابن المعتّز.

(٧) أهل الفراغ: الذين لديهم متسع من الوقت وليس لديهم عمل جدي يملأون وقتهم به. الرخصة (في الحياة وفي الفقه): الشذوذ عن القاعدة العامة فيما لا يبلغ إلى أن يكون نقيضاً لها.

مُعاياةً فيَتَلاقَفُها العَروضيّونَ[١] كالأبياتِ التي تُروى لابنِ دُريدٍ[٢] » (انتهى قول ابن رشيق).

★ يبدو ممّا ذكره ابنُ رشيقٍ ما يلي:

- في الشعر العَربيّ مَجالٌ فسيحٌ للجَوازات في تفاعيلِ الشعر وفي اختصارِها وفي تنويع القوافي (في الرَّجَز الجاهليّ مثلاً).

- نَظَمَ العربُ منذُ الجاهلية على أبحُرٍ خارجةٍ عن البُحورِ التي استخرجها الخليلُ ابنُ أحمدَ. وربّما نوّعوا الأبحرَ في المقطوعة الواحدة.

- وكانوا يفعلون ذلك عبَثًا وتَمَلُّحاً على سبيل التَسْلِيَةِ لاعتقادِهم أن هذا التصرُّفَ في النظم ليسَ من شأنِ كِبارِ الشعراء (وهذا ما يُفَسِّر قِلّةَ المَرْوِيِّ من هذا النوع من الشعر).

- والتسميطُ الذي هو قريبٌ جدّاً مِمّا سُمِّيَ، فيما بعدُ، بالمُوَشَّحِ، قديمٌ جدّاً في الشعر العربي؛ ولعلّه كان مُنذُ الجاهلية.

- ذكَر ابنُ رشيقٍ أن هذه الأجناسَ المختلفةَ من النَظْمِ كانت في أيامِه (في القرنِ الخامس للهِجرة والثاني عَشَرَ للميلاد) شائعةً مألوفة.

نشأة الموشّح وتعريفه

يُجْمِعُ مؤرّخو الأدَبِ على أن المُوشّحَ في شكلِهِ المخصوصِ وخصائصِه المعروفةِ، فنٌّ أندلسيٌّ. وكذلك يَكادون يكونون مُجْمِعين، عِند تعريفِ الموشّحِ ووصفِه على أن أوفى ما قيل فيه ما قاله ابن خلدون (المقدّمة ١١٣٧-١١٣٨):

(١) المعاياة: الإتيان بالأمثلة النادرة التي تعيا (تستعصي، تصعب) على الآخرين. يتلاقفها (يتناولها بعضهم من بعض). العروضيون: العلماء المؤلّفون في العروض (بفتح العين: قواعد نظم الشعر)، (يحبّ) هؤلاء وأمثالهم أن يحشدوا في كتبهم قواعد وشواذّ عن هذه القواعد ممّا لم يقع عليه غيرهم من قبلهم.

(٢) ابن دريد البصري (٢٢٣- ٣٢١ هـ) من علماء اللغة ونقّاد الشعر.

« وأمّا أهلُ الأندلس، فلمّا كَثُرَ الشعرُ في قُطْرِهِمْ وتَهَذّبَتْ مَناحيهِ، وبَلَغَ التنميقُ فيه الغايةَ، اسْتَحْدَثَ المتأخرّون منهم فنّاً منه سَمَّوْه بالموشح: يَنْظِمونه أسْاطاً أسماطاً. وأغصاناً أغصاناً، يُكثِرون منها ومن أعاريضها المختلفةِ ويُسَمّون المتعدّدَ منها بيتاً واحداً[1]، ويلتزمون ذلك عِندَ قوافي تلك الأغصانِ وأوزانها فيما بعدُ إلى آخرِ القطعة؛ وأكثرُ ما تَنْتهي عِندَهم إلى سبعةِ أبياتٍ. ويشتملُ كلُّ بيتٍ على أغصانٍ عددُها بحَسَبِ الأغراسِ والمذاهب[2]. ويَنْسِبون فيها ويمدحون كما يُفْعَلُ في القصائد. وتجارَوْا في ذلك إلى الغايةِ واستظرفَهُ الناسُ جُملةً، الخاصّةُ والكافّةُ، لِسهولةِ تَناوُلِهِ وقُرْبِ طريقهِ.... »

فالموشّحُ[3]، إذَنْ، أو التوشيحُ فنٌّ أندلسيٌّ، وهُوَ «كلامٌ منظومٌ على وَزْنٍ مخصوصٍ». أمّا الموشّحاتُ فَهِيَ جمعُ موشّحةٍ. والموشّحةُ قِطعةٌ شِعريةٌ طويلةٌ في الأغلبِ تتألّفُ من مَقاطِعَ تترتّبُ فيها الأشْطُرُ والقوافي على نَسَقٍ مخصوص. فإذا اختار الوشّاحُ نَسَقاً ما في المقطعِ الأوّلِ من مُوشّحتهِ، وَجَبَ عليه أن يَلْتزم ذلك النَسَقَ بِعَيْنهِ في سائرِ مقاطعِ تلك الموشّحة.

نظريّات في نشأة الموشّح

هنـالك عددٌ من النظريّات في نشأةِ الموشّحات منها:

أ) النظرية الأجنبية:

يقول بالنثيا[4]: قال ريبيرا: إن أهلَ الأندلسِ كانوا يتعلمونَ العربيةَ الفصيحةَ لُغةً رسميةً في المدارس والدواوين (وفي الإنتاج الأدبي، طبعاً)، وأمّا في شؤونِهِمُ اليوميةِ فكانوا يستعملون الأعجمية . ثمّ يقولُ: «وكان هذا الازدواجُ في اللغة هو الأصلَ في نُشوء طِرازٍ شِعريّ مُخْتَلط، تمتزجُ فيه مؤثّراتٌ غَرْبية وشَرْقية. وقدِ

(١ و ٢)راجع، تحت: نسق الموشحات، ٤٢٩

(٣) «والحميني (بالتصغير): ضرب (نوع) من ضروب الشعر الحدثة، وهو المعروف بالموشح، يمانية» (تاج العروس ٩: ١٨٤.

(٤) تاريخ الفكر الأندلسي ١٤١ – ١٤٢.

ازدرى أهلُ الأدب الفصيحِ والمَغْنِيّون بأمرِه (أي بأمرِ الأدبِ الفصيح) هذا الطِرازَ الجديدَ، بينَما مضى الناس جميعاً يتناقلون مُقَطَّعاتِه سِرًّا بينَهم. وذاعَ أمْرُهُ داخلَ البيوتِ وفي أوساطِ العَوامِّ. وما زال أمره يعظُمُ والإقبال عليه يشتدّ حتّى أصبحَ في يومٍ من الأيام لَوْناً من الأدب. وقد أخَذَ هذا الطِرازُ الجديدُ من الأدب الشعبيّ صورتَيْنِ: إحداهُما الزَجَلُ والثانيةُ الموشَّحةُ».

هذهِ نظريةٌ ساذَجَةٌ لا شكّ في أنّ صاحبها قد وَضَعَهَا في مَطْلَعِ حياتهِ الفِكرية (وأرجو أن يُعيد القارئ تلاوة الأسطر الخمسة السابقة كي يُدْرِكَ أن صاحبَ هذه النظرية- وإنْ كان اسمَه ريبيرا الإسبانيُّ- قد غَفَلَ عن عددٍ من العوامل التاريخية واللغوية والأدبية من تلك التي تعمَلُ في تطوّرِ الحضارةِ وفي نُشوء الثقافات).- ولعلّ الاستغراب يبلُغُ ذِرْوته إذا قرأ جملة ريبيرا: «بينما مضى الناسُ جميعاً (كذا) يتناقلون مقطعاته (أي مقطعاتِ الموشح) سِرًّا (كذا) بينهم. وذاع أمره داخل البيوت وفي أوساط العامة. لا شك في أن ريبيرا قد كتب ذلك قبل أن يتحلى رأسه بشيء من الشعر الأبيض!

ومن المؤسف حقًّا أن يكونَ في العربَ نفرٌ قد تمسكوا بهذه النظريةِ الساذَجَةِ البعيدةِ عن مَدْرك الاتّساقِ في تعاقُبِ أحداثِ التاريخِ وعن المنطقِ في تعليلِ تلك الحوادث وعن الواقعِ المُشاهَدِ: كيف يرى المتعلّقون بهذه النظرية أنّ نوعاً من الأدب بَلَغَ تَمامَهُ في القرنِ الرابعِ (العاشِر للميلاد)- أو قبلَ ذلك- كما يقولون، على يد مُقَدَّمِ آبنِ مُعافىً القَبريِّ مِنْ شُعراءِ الأميرِ عبدِ الله المَرْوانيّ (٢٧٥- ٣٠٠ هـ) قد أخذ من شعرٍ أو غناءٍ بلغةٍ لم تكن قد نشأتْ بعدُ[1]؟

لا أُريدُ الجِدالَ في هذا الوجه السلبي من الموضوع لأنني سأُورِدُ الأوجُهَ الإيجابيةَ بالتفصيل.

---

(١) أنظر، تحت: «نشأة الآداب الرومانسية».

ومعَ أنّ نفراً من هؤلاء المتعلّقين بهذه النظريّة كثيراً أو قليلاً هم مِمّن أعْرِفُهم وأُجِلّهم، فإنّني لا أملِكُ استغرابيَ مِنَ استمرارهم في موقفهم بعدَ أن صَدَرَ في النظريةِ العربيـةِ للشعرِ الأُوروبي دراساتٌ علميّـةٌ مفصلةٌ باللغاتِ الإنكليزية والألمانية والاسبانية والفرنسية. لا أُريدُ أن أعتقدَ أنّهم قرأوا هذه الدراساتِ. ولكنْ أليسَ غريباً مُسْتَغرباً أن يقولَ الافرنسيون والإيطاليون والألمان والإسبان إنهم قد أخذوا شِعْرَهم من أزجالِنا وموشّحاتنا ثمّ يأتي نفرٌ منا فيَزْعُمون أنَّ موشحاتِنا وأزجالَنا مأخوذةٌ منهم؟

لقد تبنى هذه النظرية الاجنبية نفرٌ من العرب، منهم في لبنان مؤلفو كتاب «الادب العربي في آثار أعلامه»[1] فقالوا (٢ : ٢٣٣): «وقد تأثّر شعراءُ الاندلس بطرق مُنشدي الشعر الاسباني الأصلي، فمالوا اليها في شعرهم العربيّ ونظموا أبياتَهم ومقاطعَهم موافقةً لأصولِ التلحين والغناء ...»

وكذلك فعل مصطفى عوض الكريم- ولكن مَعَ شيءٍ كثيرٍ من الإصرار- إذ بدأ بقوله (فنّ الموشح ١٠٧):

«إن كثيراً من الأسئلة الحائرة لا تجد جواباً شافياً إلاّ إذا قبلنا النظرية القائلة بأن الموشحات ما هي إلاّ تقليد لشعر غنائي عجمي، وهي النظرية التي جاء بها

(١) الأدب العربي في آثار أعلامه، نصوص منتخبة وفقاً لمنهاج البكالوريا اللبنانية لخليل تقي الدين وفؤاد أفرام البستاني وواصف بارودي (١٨٩٧ - ١٩٦٢ م)، المطبعة الكاثوليكية ١٩٣٥.
واصدر بطرس البستاني (١٨٩٥ - ١٩٦٩ م) كتابه «أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث» (بيروت ١٩٣٧) فقال (ص ٨٠) «ولم يكن للأسبانيين موسيقى راقية قبل الفتح الإسلامي. فلما افتتحت الأندلس وانتشر الغناء العربي تهذبت موسيقاهم واصطبغت بألوان عربية بينة: منها أنهم اتخذوا الشبابة من آلات الغناء: وهي عربية الأصل ولهم أناشيد يسمونها Segrel وهي مأخوذة من الزجل العربي... وعندهم ربع صوت وثلث صوت. وأجزاء الأصوات عربية لا يستعملها في أوروبة غير الإسبانيين. وتقاطيعهم الصوتية تجري على نغم واحد كالتقاطيع العربية. ومن الفاظهم ما يراجع فيه الغناء غير مرة، كما يراجع لفظ يا ليل يا ليل في الغناء العربي». ثم يقول بعد صفحتين (ص ٨٢): «فاتفاق منظومات التر وبادور والموشحات في أكثر النواحي يحملنا على الاعتقاد أن العرب تأثروا بالأدب الأسباني الفرنسي (كذا) كما تأثر الأسبانيون والفرنسيون بالأدب العربي. فأخذ العرب فكرة التحرر من نظام الأوزان في أغانيهم وأخذ أولئك (يقصد الأسبان والأفرنسيين) القافية والصور الخيالية الجميلة».

المستشرقان الإسبانيان خوليان ريبيرا ومننديث بيدال وحشدا لها من الأدلة ما يجعل رفضها ضرباً من المكابرة والتعنّت ».

ثم يذهب مصطفى عوض الكريم مذهب التعنّت فيقول (ص ١٠٩):

« ولكن الأستاذ نيكل يزعم أن الطروبيين هم الذين تأثروا بالموشحات ويسوق الحجج والأدلة التي تثبت رأيه ويذكر أن الموشحات فن عربي بحت ترجع أصوله إلى الشعر التقليدي المشرقي وحده ».

ويتابع عوض الكريم الكلام فيقول:

« ونحن أميل إلى الرأي القائل بأن الوشاحين الأوائل قد قلّدوا شعراً غنائياً عجمياً كان موجوداً أمامهم سمعوه وامتلأت نفوسهم بموسيقاه وألحانه فحاولوا النظم على نهجه فجاءت الموشحات ».

ب) النظرية الفنية- قال ابن خَلْدونٍ في مقدمته (ص ٥٨٣/ ١١٣٧): « وأما أهل الأندلس فلما كَثُرَ الشعرُ في قُطْرهم وتهذّبت مناحيه وفنونُه وبلغ التنسيقُ فيه الغايَة استحدث المتأخرون منهم فَناً منه سَمَّوْهُ بالموشّح ينظمونه أسماطاً أسماطاً وأغصاناً أغصاناً يُكثرون من أعاريضها المختلفة ويسمّون المُتَعَدِّدَ منها بيتاً واحداً، ويلتزمون ذلك عند قوافي تلك الأغصانِ وأوزانها متتالياً في ما بعدُ إلى آخر القطعة، وأكثرُ ما تنتهي عندَهم إلى سبعةِ أبياتٍ. ويشتملُ كلُ بيتٍ على أغصانٍ عددُها بحَسْبِ الأغراس والمذاهب. وهم ينَسْبِون فيها ويمدحون كما يُفْعَلُ في القصائد. وتجارَوْا في ذلك إلى الغاية، واستظرفه الناسُ جُمْلَةَ، الخاصةُ والكافّةُ، لسهولة تناوله وقرب طريقه ».

ج) نظرية تطور الأنواع الأدبية- قال ابن رشيق (العمدة ١ : ١٤٩ وما بعدها):

« ومن الشعر جِنْسٌ كله مصرّع[1]، إلا أنه مختلف الأنواع. فمن ذلك الشعر

(١) التصريع أن يكون صدر البيت وعجزه مقفيين، كمطالع معظم القصائد.

المُسَمّطُ، وهو أن يبتدئَ الشاعرُ ببيت مصرّعٍ ثم يأتي بأربعةِ أقسمةٍ على غير قافيته، ثم يعيدَ قَسيماً[1] واحداً من جنس ما ابتدأ به. وهكذا إلى آخر القصيدة... والقافية التي تتكرّر في التسميط تسمى عمود القصيدة. واشتقاق (المسمط) من السِمْط، وهو أن تَجْمَعَ عدّة سُلوك[2] في ياقوتة أو خَرْزة ما، ثم تَنْظِم كلّ سِلك على حِدَته باللؤلؤ يسيراً، ثم تَجْمَعَ السلوك كلها في زبرجدة واحدة أو شبهها. ثم تَنْظِمَ كل سلك على حدته وتصنعَ به كما صنعتَ أولاً إلى أن يَتِمّ السِمْطُ. وهذا هو المُتعارَف عند أهل الوقت»[3]. «والمسمطات جاءت في أوزان كثيرة مختلفة».

هذا الشعر المسمط قديم في الأدب العربي: كان معروفاً منذ الجاهلية، ويقال إن امرأ القيس نفسَه نظم شيئاً منه[4].

د- **النظرية الموسيقية-** قال ابن سناء المُلك في كتابه دار الطِراز (ص ٣٥-٣٩):

«ومن الموشحات ما لا مَدْخلَ لشيء منه في أوزان العرب[5]، وهو الكثير والجَمّ الغفير والعدد الذي لا ينحصر. وأكثرُها مَبنيٌّ على تأليف الأرْغُن[6]. ومن الموشحاتِ قِسمٌ أقفالُه مخالفةٌ لأوزان أبياته مخالفةً تامّة. وهذا القسم لا يجسُرُ على عمله إلا الراسخون في العلم من أهل هذه الصِناعة. فأما من كان طُفَيْلِيًّا على هذه المائدة فإنه إذا سمِعَ هذا الموشّحَ ورأى مباينةَ أوزانِ أقفالِه لأوزانِ أبياتِه ظنّ أن ذلك جائزٌ في كل موشَّحٍ[7]، فعَمِلَ ما لا يجوزُ عَمَلُه وما لا يُمشيّه التلحينُ له وتظهَرُ فضيحتُه في وقتِ غِنائه، فإنّ المغنّيَ ببعضِ الآلاتِ يحتاجُ إلى أن يغيّرَ شدّ الأوتار عند خُروجه

---

(١) القسيم: الشطر (جمعها قسمة).
(٢) السلك هو الخيط الذي تسلك (تجمع) فيه اللؤلؤ والخرز.
(٣) هذا يدل على أن التوشيح كان قد أصبح شائعاً جداً في أيام ابن رشيق (ت ٤٦٣ هـ).
(٤) راجع العمدة: ١ : ١٥٠- ١٦٠.
(٥) أوزان الشعر العربي.
(٦) الأرغن أو الأرغول (الأرغل): مزمار ذو قصبتين مُثقّبتين إحداهما أطول من الأخرى (المعجم الوسيط ١٤).
(٧) يسمي ابن سناء الملك وغيره من المتأخرين الموشحة «موشحاً» أيضاً.

من القُفل إلى البيت ومن البَيت إلى القفل ». فالموشحات إذنْ نشأتْ من حاجةِ المغنّين إلى كلام يسايرون به الألحانَ. إنّ المشارقةَ كانوا إذا أُعْجِبوا بشعرٍ دفعوه إلى مُغَنٍ يَسْكُبُ عليه لحناً موافقاً. وبما أن بحور الشعر العربي المختارةَ محدودةٌ، فإنّ الألحان التي كانت تُسْكَبُ على المقطعات العربية ظلّتْ أيضاً محدودة. أما الأندلسيون فكانوا يُلقون آذانَهم إلى الألحان ثم يؤلفون عليها الكلماتِ. وبما أن الألحانَ التي يُمْكِنُ استخراجُها غيرُ متناهية نظريًّا وعمليًّا، فإن أوزانَ الموشحاتِ التي نظمت كانت كثيرةَ الاختلافِ عَدّ منها مارتن هارتمانّ مِائَةً وسِتّةً وأربعين مزيجاً سمّى كل مزيجٍ منها بحراً(١).

والتوشيحُ الصحيحُ فنٌّ صَعْبٌ، فإنّ على الوَشّاحِ أن يكونَ موسيقيًّا قبل أن يكونَ شاعراً؛ والعَزْفُ على الآلةِ الموسيقيّة هو الميزانُ الصحيحُ لبراعةِ الوشّاح. وقد شَرَحَ ابنُ سناء المُلْكِ ذلك ثم ضرب عليه مثلاً وقال: «وأكثرها مبنيّ على تأليف الأرغن. والغِناء بها على غيرِ الأرغن مُستعارٌ وعلى سِواه مجازٌ». ومِنَ المُوشّحاتِ قسمٌ يَستقلُّ به التلحينُ ولا يفتقر إلى ما يُعينه عليه وهو أكثرُها؛ وقسمٌ لا يحتملُه التلحينُ ولا يَمْشي به إلاّ بأنْ يَتَوكأ على لفظةٍ لا معنى لها تكون دِعامةً للتلحينِ وعُكّازاً للمُغنّي، كقول ابن بَقِي:

من طالب ثار قتلي ظبيات الحُدوجْ فتّانات الحَجيجْ،

فإن التلحين لا يستقيم (في هذه الموشحة) إلا بأن يقول (المغني) «لا لا» بين الجزءين الجيميين من هذا القفل.

فنّ الموشّح:

قال ابنُ بسّامٍ الشَنتريني في الموشّح كَلِمة جامعة هي (الذخيرة ١: ٤٦٨- ٤٧٠):

« ....وكان أبو بكرٍ (عُبادة بنُ ماء السماء المتوفى نحو سنة ٤٢٢ هـ) في ذلك العصر شيخَ الصِناعة وإمامَ الجماعة: سلَكَ إلى الشعرِ مسلكاً سهلاً، فقالتْ له غرائبه:

(١) Das arabische Strophengedicht 121-208

مرحباً وأهلاً. وكانت صَنعةُ التوشيح التي نهج أهلُ الأندلس طريقتَها ووضعوا حقيقتَها غيرَ مرموقةِ البُرودِ ولا منظومةَ العُقود[١]. فأقامَ عُبادةُ هذا مِنآدَها وقَوَّمَ مَيْلَها وسِنادَها[٢]. فكأنّها لم تُسمع بالأندلس إلاّ منه ولا أُخِذَتْ إلاّ عنه. واشتهر بها اشتهاراً غلَب على ذاتِه وذهب بكثيرٍ من حَسَناته[٣].

« وَهِيَ أوْزانٌ كَثُرَ استعمال أهلِ الأندلس لها في الغَزَل والنَسيب، تُشَقّ على سَماعِها مَصوناتُ الجُيوب، بلِ القلوب[٤]. وأوّلُ من صنَع أوزانَ هذهِ المُوشّحات بأُفُقنا[٥] واخترعَ طريقتَها- فيما بَلَغني- محمّدُ بنُ محمودِ القَبْرِيُّ الضرير[٦]. وكان يصنَعُها على أشْطار الأشعار[٧]. غيرَ أنّ أكثَرَها على الأعاريض المُهْمَلة غيرِ المُستعمَلة[٨]: يأخُذُ اللفظَ العامِّيَّ والعَجَميّ[٩] ويُسمّيه المركزَ[١٠] (ثمّ) يضَعُ عليه

---

(١) مرقومة (مزيَّنة) البرود (الأثواب من الحرير): غير منوعّة. ولا منظومة العقود (مرتبة): ليس لها قواعد.

(٢) المناد: المتثني المعوجّ. الميل: الانحراف عن الطريق القويم. السناد: اختلاف في القافية سيف (بفتح السين) وريف (بكسر السين).

(٣) ذهب بكثير من حسناته: برع أبو بكر عبادة في أكثر وجوه التوشيح.

(٤) الجيب (بفتح الجيم): مدخل الرأس من الثوب. شق الجيب كناية عن الحزن الشديد أو الفرح الشديد.

(٥) أفقنا: صقعنا، منطقتنا، بلادنا (الأندلس).

(٦) قبرة: بلدة في الأندلس. ومحمد محمود القبري الضرير ينسب اليه ابن بسام نظم موشحات. وفي جذوة المقتبس (ص ٨٦) وبغية الملتمس (ص ١٢١-١٢٢) انه « أديب شاعر »- وذلك رواية عن ابن حزم الاندلسي- ولم يذكر هناك انه نظم موشحات. وفي مقدمة ابن خلدون (ص ١١٣٨/٥٨٤) ينسب اختراع الموشحات الى مقدم بن معافى القبري (وفي النسختين معافر الفريري أو الفبريري- وذلك خطأ) ثم في جذوة المقتبس (ص ٣٣٣) وبغية الملتمس (ص ٤٦٠): « مقدم بن معافى القبري شاعر معروف في أيام عبد الرحمن الناصر » (٣٠٠-٣٥٠ هـ). وفي نفح الطيب (٣: ٥٣٨): « .... قال المقدّم بن المعافى (بتعريف الاسمين) في رثاء سعيد بن جودي.... » (ثلاثة أبيات). ثم (٧: ٦) « ..... مقدّم بن معافى (بالتنكير). » (مقطع منقول من مقدمة ابن خلدون).

(٧) قلّ أن يبني الموشّح على البيت الكامل (على شطرين) والمألوف أن يبنى على أشطر مختلفة القوافي (والأوزان أحياناً).

(٨) الأوزان التي لم يألف العرب استعمالها (مع أنها جارية على موسيقى الشعر).

(٩) العجمي (هنا) لغة نصارى الأندلس (لاتينية مشوّهة).

(١٠) المركز: القفل أو القفلة (من حيث تعود القافية إلى المطلع).

الموشّحةَ دونَ تضمينٍ فيها ولا أغصان[١] . وقيل إنّ ابنَ عبدِ ربِّه صاحبَ كتابِ «العِقْد »[٢] أوّلُ من سَبَق إلى هذا النوع من الموشّحات عندنا. ثمّ نشأ يوسفُ بنُ هرونَ الرَمادي[٣] فكان أوّلَ من أكثر فيها التضمينَ في المراكيز[٤] : يضمّنُ كل مركزٍ يَقِفُ عليه في المركز خاصة. فاستمرّ على ذلك شعراءُ عصرِنا كمكرم بن سعيد وابنَيْ أبي الحسن[٥] . ثمّ نشأ عُبادةُ هذا فأحدَثَ التَضْفيرَ، وذلك أنّه اعتمد مواضِعَ الوَقْفِ في الأغصان فيُضَمِّنُها، كما اعتمد الرَّماديُّ مواضعَ الوقف في المراكز.

« وأوزانُ هذه الموشحاتِ خارجةٌ عن غَرَضِ هذا الديوان[٦] إذ أكثَرُها على غيرِ أعاريضِ أشعارِ العرب[٧] ».

نسق الموشّحات

للموشّحات نَسَقانِ رئيسانِ: النسقُ المُؤتلف والنسقُ المُختلف- والنسق المؤتلف يكون عادةً في الموشحات التي على الأبحر المألوفة، من الرَمَل في الأغلبِ. ويكونُ للموشحِ على النسق المؤتلف مطلعٌ ثم تَليه الأبياتُ. ويكونُ كل بيتٍ من أسْماطٍ وقُفْلٍ (أو قَفْلَةٍ). ويحسُنُ أن نُشيرَ إلى ثلاثِ دَرَجاتٍ من الموشحات المؤتلفة: الموشحةِ المُفردةِ (البسيطة) والموشحةِ المثّناة (المُزْدوجة) والموشحة المركبة (المتعددة). ومِثالُ الموشحةِ المُفردة الموشحةُ المنسوبةُ إلى أبي بكرٍ بنِ زُهْرٍ.

المطلع: أيُّها الساقي، إليكَ المُشتكى؛ قـــد دَعَوْنـــاكَ وإنْ لم تَسْمَــعِ !

---

(١) أشطر مختلفة.

(٢) راجع، فوق، ص ٤٣٩.

(٣) راجع فوق، ص ٤٣٩.

(٤) المراكيز (كذا في الأصل): المراكز.

(٥) مكرم بن سعيد وابنا أبي الحسن (؟).

(٦) هذا الديوان: هذا الكتاب (الذخيرة). إن علماء الشعر الأندلسيين لم ينظروا إلى الموشّح نظر الجد فلا نجد مختارات منه في العقد (مع أنّه يقال إنّ ابن عبد ربّه من السابقين إلى هذا الفن)، الخ.

(٧) الصحيح أن الأوزان التي بني عليها الموشّح عربية (لها موسيقى الغناء العربي)، ولكنّها لم تكن مألوفة لأسباب خارجة عن نطاق هذه الحاشية.

البيت ١ : ونديمٍ هِمْتُ في غُرّتهِ

وبشُرْبِ الراحِ من راحتِهِ.

كُلّما اسْتَيْقَظَ من سَكْرتهِ

جَـــذَبَ الزِّقَّ إليــــه واتّكـــا وسقاني أربعاً في أربعِ.

فالمطلعُ في الموشحةِ المُفردة يتركب من سِمْطين لكل سِمْطٍ منها قافيةٌ مستقلة. أما البيتُ فيتركّب من خمسةِ أسماطٍ: ثلاثةِ أسماطٍ على رَوِيّ واحدٍ ثم سِمْطَيْنِ قافيةُ كلِ سِمْطٍ منها على رَوِيّ السِمْطِ المقابلِ له في المطلعِ. وجميعُ الأبياتِ في الموشحة تجْرْيْ في البحرِ والترتيب والتقفية هذا المجرى.

أما الموشّحةُ المثناةُ فتكونُ الأسماطُ في مَطْلَعِها أربعةً، أي مُضاعفة. ويُبنى صَدْرَا المَطْلعِ على رَوِيّ وعَجُزاه على رَوِيّ آخرَ. وكذلك يكونُ البيتُ في الموشحة المثناة مضاعفاً (سِتّةَ أسْماطٍ بِرَوِيٍّ لِصُدورِها ورَوِيٌّ آخرَ لأعْجازِها، ثم أربعةَ أسماطٍ في القَفْلة تُقابِلُ بقوافيها قوافيَ المطلع)- . مِثال ذلك مُوشحةُ إبراهيمَ بنِ سَهْلٍ:

هـل دَرى ظَبْيُ الحِمى أن قد حَمَى قلــبَ صَبٍّ حَلّهُ عن مَكْنَسِ ؟

فَهْو في حرٍ وخَفْقٍ مِثلَما لَعِبَــتْ ريــح الصَبــا بالقَبَسِ

يا بُدوراً أشْرقتْ يومَ النَوى غُرَراً تسلُــكُ بي نَهْــجَ الغَرَرْ،

ما لِنفسي في الهوى ذنبٌ سِوى مِنكُمُ الحُسنى ومِنْ عيني النظرْ.

أجْتَني اللذاتِ مَكْلومَ الجَوى. والتـدانـي من حبيـبي بالفِكَرْ.

كُلّما أشكوه شَوْقي بَسَما كالرُبـى بالعــارِضِ المُنْبَجِسِ؛

إذ يُقيــمُ القَطْرُ فيهـــا مأتَمَا وَهْيَ من بَهْجَتِها في عُرُسِ.

وأما الموشّحة المتعددةُ فَهِيَ التي يكون المطلَع فيها مُركّباً من ستّةِ أسْماطٍ مجزوءةٍ (لأنها لو جاءتْ تامةً لطال النَسَق فيها فتفقدُ رَوْعةَ النَغَم)، ويكونُ البيتُ فيها بالتالي ثلاثةَ أضعافِ البيتِ في الموشحة المفردة. فاعتبرْ موشّحةَ ابنِ زُهْرٍ التاليةَ:

ما لِلْمُوَلَّهْ	من سُكرِه لا يُفيقْ	يا لَه سَكرانْ
من غيرِ خمرِ	ما للكئيبِ المَشوقْ	يندُبُ الأوطانْ.

* * *

هل تُستعادْ	أيامُنا في الخليجْ	ولَيالينا؟
أو يُستفادْ	مِنَ النسيمِ الأريجْ	مِسكُ دارينا؟
وإذْ يَكاد	حُسْنُ المكانِ البهيجْ	أن يُحَيِّينا.
نَهرٌ أظلَّهْ	دَوحٌ عليه أنيقْ	مُورِقٌ فَيْنانْ
والماءُ يَجْري	وعائمٌ وغريقْ	من جَنى الرَيْحانْ.

ثمّ هنالك الموشّحاتُ ذواتُ النَسَقِ المختلفِ، وَهِيَ مُوشّحاتٌ لم يَتَّبعِ الوشّاحون فيها قاعدةً ما، بل كان كلُّ وشّاحٍ يختارُ من ترتيبِ الأشْطُرِ ومن ترتيبِ القوافي ما كان يَروقُ له أو يتّفقُ له. من أجلِ ذلك قَلْ أن تَجِدَ مُوشّحتينِ على نَسَقٍ مختلفٍ واحدٍ، وخصوصاً إذا كان الوشّاح قد تَصرّفَ في الأوزان فأتى بِبُحورِ الشِعرِ مجزوءةً على أقدارٍ مُتفاوتة أو إذا خرج في مُوشّحتهِ عن أوزانِ العربِ جُملةً. وهذا ما حَمَلَ ابنُ سَناءِ المُلْكِ على أن يقول[1]:

« والقِسم الثاني من المُوشحاتِ هو ما لا مَدْخَلَ لشيءٍ منه في أوزانِ العرب. وهذا القِسْمُ منها (من الموشحات) هو الكثيرُ والجَمّ الغَفير، والعددُ الذي لا يَنْحَصِرُ، والشارِدُ الذي لا ينضبط. وكنتُ أردتُّ أن أُقيمَ لها عَروضاً يكونَ دفتراً لِحسابِها، وميزاناً لأوْتادها وأسبابِها[2]، فعزّ ذلك وأعْوزَ لِخُروجها عن الحَصْر وانفلاتِها من الكَفّ. وما لها عَروض[3] إلاّ التلحينُ، ولا ضَرْبَ إلاّ الضَرْبُ[4]، ولا أوتادَ إلا

(١) دار الطراز.

(٢) الوتد في العروض (نظم الشعر) مقطع مؤلف من ثلاثة أحرف أحدها ساكن في وسط المقطع (نحو: فيل، بحر) أو في آخره، نحو: علىٰ فقط). والسبب مقطع من حرفين متحركين (نحو: فمُ، يدُ) أو متحرك وساكن (نحو: قد، لم، ما).

(٣) العروض (نظم الشعر): مقياس، ميزان.

(٤) ضرب (الأولى): نوع، جنس. ضرب (الثانية) عزف، نقر على الآلة الموسيقية.

الملاوي[١]، ولا أسبابَ إلا الأوتار[٢]. فبهذا العَروض يُعْرَفُ الموزونُ من المكسور، والسالمُ من المَزْحوفِ[٣] ».

فمِنْ أُمْثِلَةِ النَسَقِ المختلفِ موشّحةُ أبي بكرٍ الأبيضِ الوشّاحِ (قارِنِ الأوزانَ والقوافيَ في البيتِ الأوّل بما يُقابِلُها في البيتِ الثاني):

البيت الأول	البيت الثاني
ما لَذّ لي شُرْبُ راحِ	مِمّا أبادَ القلوبا
على بِساطِ الأقاحي،	يمشي لنا مُستريبا.
لولا هضيمُ الوِشاحِ	يا لَحْظَه، رُدَّ نُوبا.
إذا أسا في الصباحْ؛	ويا لَماهُ الشَنيبا،
أو في الأصيلْ	بَرِّدْ غَليلْ
أضحى يقولْ:	صبٌّ عليلْ
ما للشَمولْ؟	لا يَستحيلْ
لَطَمْتُ خدّي!	فيه عن عَهْدي.
ولِلشّمالْ؟	ولا يزالْ
هبّتْ فمالْ	في كُلِّ حالْ
غُصْنُ اعتدالْ	يرجو الوِصالْ
ضَمّه بُرْدي!	وهْوَ في الصَّدِ.

---

(١) الأوتاد جمع وتد (انظر الحاشية. ٢، ص ٤٣١). الملاوي (جمع ملوي بكسر الميم): قطع من الخشب لربط الأوتار (المعجم الوسيط ٨٥٥) - لعلها المفاتيح التي تضبط بها أوتار العود بشدها على مقادير معينة.

(٢) الأسباب (راجع الحاشية ٢، ص ٤٣١). الأوتار (أوتار الآلة الموسيقية)، أي قواعد شدها.

(٣) فبهذه العروض (بهذا الميزان الشعري). المكسور (الشعر الخارج عن الوزن الصحيح). المزحوف: التفعيل الذي دخله الزحاف (بكسر الزاي): تغيير يلحق الحرف الثاني في السبب (المعجم الوسيط ٣٩١)، أي الاضطرار إلى تحريكه (إذا كان ساكناً) أو تسكينه (إذا كان متحركاً).

أجزاء الموشّحة وأسماؤها

للموشّحة من النَسَقِ المؤتلفِ أجزاءٌ مُتحيّزةٌ أُطْلِقَ عليها عددٌ من الأسماء. ومَعَ أن هذه الأسماء تختلفُ بينَ كتابٍ وكتابٍ، فسأُشير إلى أشهرها فيما يلي (بالإشارة إلى الموشّحة المشهورة لابنِ زُهْرٍ):

(١) أيُّهـا الساقي إليـكَ المُشتكـي   قـد دَعَوْنـاكَ وانْ لم تَسْمَـعِ

(٢) ونديمٍ هِمْتُ في غُرّتهِ

(٣) وبشُرْبِ الراحِ من راحتهِ

(٤) كُلّما آسْتيقظ من سَكْرتهِ

(٥) جَـذَبَ الزِقَّ إليـهِ وآتّكـا   وسقاني أربعاً في أربعِ

تبدأ الموشّحةُ المؤتلفةُ بمطلع أو مذهبٍ (رقم ١) مستقلٍّ، وهُوَ الذي تُبنى عليه الموشّحةُ فيما يتعلّقُ بالوزنِ وبعددِ الأشطُرِ وبالأعاريض (جمع عَروضٍ: الكَلِمَةَ التي ينتهي بها كلُّ شطرٍ، أي القافية). ويحسُنُ أن يكونَ اسم كلِّ شطر في المطلع «غَرْساً».

ثمّ تأتي الأسماطُ (رقم ٢، ٣، ٤) ومعها القُفْلُ أو القَفْلَةُ أو اللازمةُ (رقم ٥). وجَميعُ هذه الأشْطُرِ (رقم ٢، ٣، ٤، ٥) تُسمّى «بَيْتاً». أمّا الأسْماطُ وَحدها (رقم ٢، ٣، ٤) فتسمّى «الدَوْر» (لأنّ قوافِيَها تدورُ فتأتي في كلِّ بيتٍ مُختلفةً عمّا مرّ في الأبياتِ السابقة). وأمّا كلُّ شطرٍ في القُفْلِ فيحسُنُ أن نَحْفَظَ له اسمَ «غُصْنٍ» (لأنّه يَتَفرّعُ من الغَرْس الذي في المطلع). والقُفْل أو القَفْلة غايَتُها قَفْلُ «البيتِ»، أي خَتْمُه. وقد يُسَمّيانِ «اللازمةَ» لأنّها «تلزَمُ» البيتَ، أي تَصْحَبُهُ بِلا شُذوذٍ ثمّ تكون قافيتاها كقافِيَتَي المطلع. وأمّا القُفل في البيتِ الأخيرِ من الموشّحةِ فيُسمّى الخَرْجةَ، لأنّ الوَشّاحَ يخرُجُ بها من النَظْمِ (أي ينتهي من النظم)، فَهِيَ علامةُ انتهاء الموشّحة.

أعاريض الموشّحة

الأعاريض جمع عَروضٍ (بفتح العين- وهي مؤنّثة): اسمُ للجُزء الأخيرِ من النِصف الأوّل من بيتِ الشعرِ (القاموس ٢ : ٣٣٤) في القصيدِ، أو هي الكَلِمةُ الأخيرةُ في كلِّ شطرٍ من أشطُرِ الموشّحةِ (أي القافية).

وللأعاريضِ في الموشّحةِ المؤتلفة (سواءٌ أكانتْ مُفردةَ المطلعِ أو مزدوجةَ المطلعِ أو متعدّدةَ المطلع) قواعدُ ثابتةٌ لتوالي القوافي: ففي المَطلَعِ للموشّحة المُفردةِ (راجع موشّحة ابن زهر، ص ٤٢٩ - ٤٣٠) وللموشّحة المزدوجة (راجع موشّحة ابنِ سهلٍ الإشبيلي، ص ٤٣٠) قافيتان مختلفتان. أمّا الموشّحة ذات المطلع المتعدّدِ (راجع موشّحة ابن زهر، ص ٤٣١) ففي مَطْلَعِها في العادةِ ثلاثُ قوافٍ مختلفاتٌ.

وللأسْماط في الموشّحةِ المُفردة قافيةٌ واحدةٌ مستقلةٌ. أمّا الأسماط في الموشّحةِ المزدوجة فيكونُ لها قافيتان مُستقلّتانِ: قافيةٌ للأسْماط اليُمنى (صُدورِ الأسْماط) وقافيةٌ أُخرى للأسْماطِ اليُسرى (أعْجازِ الأسماط).

وأمّا في الأقفالِ (وفي الخَرَجة) فإنّ القوافيَ تَتْبَعُ في تَنَوُّعِها وفي ترتيبها قوافِيَ المطلعِ.

وربّما تَمَلّحَ الوشّاحون المتأخرون بإدخالِ ألفاظٍ أو جُمَلٍ من العاميّة أو الأعْجميّة (لُغةِ النصارى الإسبان) في خَرَجة الموشّحة.

الخرجة خاصّة

الخَرْجَةُ أو القُفْل هي الأشطر الأخيرة في الموشّحة، وتكون في العادة باللغة الفصيحة. غير أنّ نفراً من الوشّاحين المتأخّرين عن نشأةِ التوشيح قد مالوا إلى التَمَلُّح بإدخال كلمةٍ من العاميّة في الخرجة أو أكثرَ من كلمة أو إلى أن يجعلوا بعضَ الخرجة أوِ الخرجةَ كلَّها باللغة العامّيّة. وربّما جعلوا هذه الألفاظ أو الأشطر باللغة الأعجمية (لغة نصارى الأندلس، وهي لهجة رومانسية مزيج من اللاتينية العامّيّة ومن بقايا محلّية).

بَيْدَ أن هذا التملُّحَ ليسَ جديداً مقصوراً على الوشّاحين الأندلسيّين، فلقد سبقهم إلى ذلك الشعراءُ المُحْدَثون في مطلعِ دولةِ بني العبّاسِ، فقد رأينا العبّاسَ بنَ الأحنفِ (ت ١٩٨ هـ = ٨١٤ م) يقول في طفلة صغيرة:

تُنــــادي كُلّما رِيعَــــتْ   من العِزّةِ: يــــا (بابــــا)!

ويبدو أنّ أبا نواس (ت ١٩٩ هـ) قد أكثَرَ من هذا التملُّح فجاء به أحياناً شطراً كاملاً من الألفاظ الفارسية في الوزن العربي، كقوله:

يــــا غاسل (الطرجَهــــار)   للخندريس العُقــــار[١]،
يــــا نَرجِسي وبهــــاري   (بــده مرا، يــك بــاري)[٢].

وظهر هذا التملُّحُ في الشعر،(وفي النثر أيضاً فيما بعد، قال ابن الرومي (ت ٢٨٣ هـ = ٨٩٦ م):

أعجمي (آيينُــــه) عربيٌّ   مجــدُه ينتمي إلى عَدْنــانِ[٣].

ولكن هذا التملحَ كانَ من باب الهَزْل لا من باب الجِدّ. قال المتنبي (ت ٣٥٤ هـ = ٩٦٥ م):

وكِلْمةٍ في طريقٍ خِفْتُ أُعْرِبُها   فيُهْتَدى لي، فلم أَقْدِرْ على اللَحَنِ[٤]!

ولا نعلَمُ متى بدأ هذا المُزاحُ (استعمالُ غيرِ اللغة العربية الفَصيحة في خَرْجات

---

(١) الطرجهارة (بفتح فسكون ففتح): إناء يشبه الكأس. الخندريس (الخمر القديمة) العقار (الجيّدة). - أيها الرجل الذي تغسل الكأس جيّداً ليزول منها كلّ شيء آخر (حتّى تصبح خليقة بأن تصبّ فيها تلك الخمر)...

(٢) البهار: زهر (أصفر) ينبت في أوائل الربيع. بده مرا (أعطنيها، اسقني فيها) يك: واحد. باره: نوبة، مرّة، قطعة. يك باري (مرّة واحدة).

(٣) آيين: حضارة، سلوك، أسلوب (حياة)، شريعة، قانون. عدنان: جدّ عرب الشمال.

(٤) اللحن: ترك الاعراب (الكلام بالعامّيّة لا بالفصحى) - هم قوم لا يحسنون الكلام بالفصحى، أردّت أن أجاريهم فلم أستطع لأنّي مطبوع على الكلام بالعربية الفصيحة.

الموشّح). إنّ الطبَقاتِ الأولى من الوشّاحين- من الذين قِيل إنهم نظموا في القرنِ الرابعِ للهجرة أو مِنَ الذين نظموا في القرنِ الخامسِ- لم تَصِلْ إلينا مُوشحاتُهم أو لم يَصِلْ إلينا إلاّ عددٌ يسيرٌ من موشّحاتهم. ومن مُراجعةِ كتاب «جيش التوشيح»[1] نَجِدُ خَرْجاتٍ عامّيّةً في الأكثر وأعجميّةً في الأقلّ لشعراءَ أوّلُهم ابنُ اللّبّانة (ت ٥٠٧ هـ = ١١١٣ م) وآخِرُهُمْ ابنُ زُهْرٍ الحفيد (ت ٥٩٥ هـ = ١١٩٩ م).

واللحْنُ العامّيُّ أوِ الأعجميّ يكونُ كَلِمَةً أو أكثرَ من كَلِمَةٍ، ويكونُ شطراً من الخَرْجة أو يكونُ الخرجةَ بِتَمامِها. ففي خَرْجَةٍ لابن بَقِيٍّ (ت ٥٤٠ هـ)[2]:

قد بَلِينا وابْتُلِينا. (واش) يقولُ النـاسُ فينـا[3]؟

قُمْ بنـــا، يــا نورَ عَيــني، نَجْعَــــلِ الشكَّ يَقينــــا!

ولابنِ اللبانةِ (ت ٥٠٧ هـ) خرجةٌ عاميةُ التركيب (جيش التوشيح، ص ٦٩):

الله زانك يالاسمَرْ زين كل عسكر قد خرجت، يا شاطر في الحرب ظافر

والخرجةُ حينما تكونُ بغيرِ اللغةِ العربية الفصيحة يُفْرَضُ فيها أن تكونَ مُبتذلةً وفيها إسفافٌ أيضاً كقول أبي القاسمِ المَنيشي- وقد كان يقودُ الأعمى التُطيلي المتوفى نحوَ ٥٣٠ هـ (جيش التوشيح، ص ١١٢):

قل لي قبل نقتلك: سروالك آش حَلّو؟ الخليل الجديد أمّا كان القديم حَلّو ؟

وإذا كانتِ الخرجةُ أعجميةً فإنّها تكونُ على وزنِ المُوشّحةِ التي ترد فيها تلك الخرجة، كما تكون في العادة أيضاً في المعنى السَفْساف واللفظ المُبتذل.

ومن الخرجاتِ الأعجميةِ واحدةٌ لأبي بكرِ بنِ رُحيم (وقد كان حيًّا سنة ٥١٥ هـ)- ولا أهتدي لوجه المعني فيها (جيش التوشيح، ص ١٧٩):

لمرني أو كــــدش دبيـــب حسب سم بغــا درد مسيـــد.

---

(١)

(٢)

(٣) واش (وأيّ شيء؟)

فمِنْ أينَ جاءتِ الخرجاتُ الأعجمية إلى الموشّحاتِ الفصيحة؟

لا يحسُنُ أن نُعالجَ الخرجاتِ الأعجميةَ في مَعْزِلٍ عن الخَرْجات العامّيّة، فإنّها كُلّها تَرْجعُ إلى شيءٍ من « تظرّف » الوَشّاح ومن مَيْلِ طَبَقةٍ من الناس إلى « استظراف » السُخْفِ في مواقفِ الجِدّ!

وفي مقدمة ناشرِ كتاب « جيش التوشيح » هلالِ ناجي مناقشةٌ سليمةٌ صحيحةٌ لهذه الخرجات ولمصدرها، أُوجِزُها فيما يلي:

ذَهَبَ خوليانُ ريبيرا وميننديثُ بيدالُ وغِرْسيه غُوميث من الإسبان ثمّ تابَعَهُمْ في رأيهم نَفَرٌ من العرب كالدكتور مصطفى عَوَضِ الكَريم مؤلفِ كتاب « فن التوشيح » إلى أنّ الخرجاتِ الأعجميةَ « تمثّل الشِعرَ الغنائيَّ الرومانسيّ الذي سَبَقَ الموشّحاتِ ».

وقد نَقَضَ هِلالُ ناجي هذا الرأيَ بأدلّةٍ منها:

- ليس لدينا نماذجُ من ذلك الشعرِ الغنائي الرومانسيّ الدي سَبَقَ الموشّحاتِ.

- إنّ هذه الخرجاتِ الأعجميةَ موزونةٌ وزناً عربياً

- يُؤخَذُ مِما ذكره ابنُ بَسّامٍ وابنُ سناءِ المُلك أنّ هذه الخَرَجاتِ (العامّيّة والأعجميةَ) من نَظْمِ أصحابِ المُوشّحاتِ أنفسِهم.

- إنّ نفراً من الشعراء الذين كانوا يَعْرِفونَ لُغتين (في الأُندلس وفي المشرق أيضاً) كانوا أحياناً يتظرّفون بإدخال ألفاظٍ وجُمَلٍ في أشعارهم من غيرِ اللُّغة العربية.

الخصائص الأدبية في الموشّح

أولُ خصائصِ الموشّح عذوبةُ الألفاظ مَعَ استعمالِ عددٍ منها لمعانٍ عربيةٍ قليلةِ الشُهرةِ في المشرق نحو « أكحل » بمعنى الأسمر[١] و « سانية » (الناعورة) والرَبَض

(١) في دير الزور (على الفرات) يقولون للاسمر « اكحل ». وهذه الكلمة لا تزال مستعملة في المغرب.

(الضاحية، ظاهر المدينة). وهنالك بعض الضعف في التركيب وفي الألفاظ، نحو « أنا فيه أهيم » (في موشّحة الأعمى التطيليّ) مكانَ « به ». غير أن الوشاحين لم يستعملوا كلماتٍ عاميةً ولا تركوا الإعرابَ. وقدِ آحتفظ نَفَرٌ منهم بأسلوبٍ مَشْرقيٍّ متين.

وتكثُرُ في الموشحاتِ الصُوَرُ الشعريةُ في التشابيه والاستعارات البارعة إلى حدٍّ الرمزِ اللطيف، نحو:

وسَلّتْ على الأُفْقِ   يدُ الغَرْبِ والشَرْقِ   سُيوفاً من البَرْقِ

وقدْ أضحكَ الزَهْرَ   بُكاءُ الغيومْ

أما الصِناعةُ اللفظيةُ فقليلةٌ جدًّا في الموشّح.

وكان الموشحُ منذُ نشأتِهِ الأُولى فنًّا وُجدانيًّا خالصاً يُعَبّرُ عن شخصية شاعره، ولذلك كثُرَ فيه الغزلُ والوصفُ والخمر وبَطَلَ فيه الوقوفُ على الأطلال والأغراضُ التقليدية الأُخرى التي ظل الشعرُ المَشْرقيُّ يَنوءُ بها. إلاّ أنّ الوشّاحين المتأخرين طَرَقوا في موشحاتِهِمْ سائرَ فُنون الشعر. قال ابن سناء الملك (دار الطراز ٣٧): « والموشحات يُعْمَلُ فيها ما يعمل في أنواع الشعر من الغزل والمدح والرثاء والهجو والُمجون والزهد ». وقال ابن خَلْدون (المقدمة ٥٨٣): « ويَنْسِبون فيها ويمدحون كما يُفْعَلُ فيْ القصائد ».

ويَلْفِتُ النظرَ أنَ الإجادة في التوشيح لم تَتّفِقْ لجميعِ الشُعراءِ ولا لجميعِ الوشّاحين، ذلك لأن التوشيحَ فنٌّ وُجدانيٌّ خالصٌ وفنٌّ يستند، فوق ذلك، إلى الموسيقى آستناداً أساسيّاً. فإذا لم يكنِ الشاعر وُجدانياً مطبوعاً وعارِفاً بأُصولِ الموسيقى فإنّ الإجادة في الموشح لا تتّفقُ له.

وكذلك لم يَعِشِ الموشحُ طويلاً، ولم يَبْرَع فيه المشارقةُ براعةً تُذْكر لهم؛ بل كان طوراً من أطوارِ الشعر آزدهرَ مُدة ثم زالَ، كما اتّفق لفنِّ المقاماتِ تماماً. إننا نَجِدُ بين الحينِ والحينِ شاعراً يَنْظِمُ موشحةً، كما رأينا أُدَباءَ كثيرين كتبوا مَقاماتٍ. ولكنّ ذلك كُلَّه من باب التقليد: إننا نرى في الموشحاتِ المتأخرةِ شكلَ الموشّحِ ولكننا نَفْتَقِدُ

روحَه ونفتقد عبقريةَ الوشّاح الأندلسيّ فيه.

أوائل الوشّاحين

لمّا ذكَرَ ابنُ خَلْدونٍ فنَّ الموشّحِ قال (المقدّمة٥٨٤/١١٣٨):

« وكانَ المخترعَ له بجزيرةِ الأندلسِ مُقدّمُ بنُ معافىَ القَبْريُّ[1] من شُعراءِ الأميرِ عبدِ اللهِ بنِ محمّدِ المَروانيِّ؛ وأخذَ ذلك عنه أبو عبدِ الله أحمدُ بنُ عبدِ ربّهِ صاحبُ كتاب العِقد. و(لكن) لم يَظْهَرْ لهما مَعَ المُتأخّرين ذِكْرٌ، وكَسَدَتْ مُوشّحاتُهما. فكانَ أوّلَ من بَرَعَ في هذا الشأنِ عُبادةُ القزّازُ شاعرُ المعتصمِ بنِ صُمادحٍ صاحبِ المَريّة ».

إنّ المتداولَ في تاريخِ الأدبِ أنّ مُقدّمَ بنَ مُعافىَ القَبريَّ الضريرَ هو أوّلُ الذين قيل فيهم إنّهم نَظَموا موشّحاتٍ. ولكن لم يَصِلْ إلينا من مُوشّحاتِه شيءٌ. أمّا ابنُ عبدِ ربّهِ صاحبُ « العِقد » فاسْمُهُ أبو عُمَرَ أحمدُ بنُ محمّدِ بنِ عبدِ ربّهِ (ت ٣٢٨هـ.) ولست أرَى أنّه نَظَمَ موشّحاتٍ لِسَبَبَيْنِ رَئيسَيْنِ:

١- لم يَصِلْ إلينا موشّحاتٌ تُنْسَبُ إليه.

٢- كان ابنُ عبدِ ربّهِ صاحبُ العِقْدِ مُولَعاً بإيراد أشياءَ من شعرهِ في كتابهِ « العِقدِ » عندَ كلِّ مُناسبةٍ. ولم نَرَ أنّه أوْرَدَ شيئاً من التوشيح من نَظْمِه. ولو أنّه نَظَمَ من هذا الفنّ الجديدِ الجميلِ شيئاً لأَوْرَدَ منه عَدداً من مقاطعِ شِعرهِ الموشّحِ كما أوْردَ من شعرهِ المُقصَّد. إلاّ إذا كانَ ابنُ عبدِ ربّهِ يعتقدُ أن ذلك الشعرَ الجديدَ كان ضَرْباً من العَبَثِ لا يَليقُ إيرادهُ في كتابٍ بُنِيَ على الجِدّ!

وهنالك شاعرٌ آخرُ هو يوسف بن هرون الرَماديّ (ت ٤٠٣ هـ=١٠١٣ م)، وكان معاصروه يسمونه « المتني » لأنهم كانوا يَرَوْن أنه في منزلة أبي الطيب. وقد قيل إن للرمادي موشحاتٍ، ولكنها لم تصلْ إلينا.

أما أول من وصلتْ إلينا موشحاتُه فهو أبو بكرٍ عُبادةُ بنُ ماءِ السماء المتوفّى في مالِقَةَ بعدَ شهرِ صَفَرَ من سَنَةِ ٤٢١ (١٠٣١ م)، وإليه يَرْجِعُ الفضلُ في توسيع فن

(١) نسبة إلى بلدة قبرة (ياقوت ٤: ٢٩). ثم اقرأ: معافى لا معافر.

الموشح والرقيّ به. ثم جاء أبو عُبادةَ القزّازُ ففاق أهل عصره في فن التوشيح. ونحن لا نعلم زمن القزّاز بالتأكيد، بل نَعْرِفُ أنه كان شاعراً في بَلاط المعتصم بن صُمادحٍ في المَرِيّة. والمعتصم تولى حكم المرية في ٤٤٣ هـ (١٠٥١ م).

ثم اتسع القول في الموشح فنبغ فيه ابنُ اللبّانة (ت ٥٠٧ هـ = ١١٣٣ م) والأعمى التُطيلي (ت ٥٣٣ هـ = ١١٣٨ م) وابن بَقيٍّ (ت ٥٤٠) وابن زُهرٍ (ت ٥٩٦ هـ = ١٢٠٠ م) وابن سهلٍ الإشبيليّ (ت ٦٤٩ هـ = ١٢٥١ م) ولسان الدين بن الخطيب وابن زُمرُكٍ.

- ضعف الموشّح لغوياً:

الموشّحُ عَمَلٌ فَنِّيٌّ يجبُ أن يَجْرِيَ في الفِكرة البارعة القريبةِ والتعبيرِ السهل الأنيق، وإلاّ لم يكن للناظمِ فضلٌ. إنّ التسهيلَ على الناظمِ في تحريرِ الوَشّاحِ من رِبْقَةِ الرَوِيّ الواحدِ ومن أَسْرِ البحر الواحد إنّما قُصِدَ منه إتاحةُ الفُرصةِ للوشّاح كي يُنْفِقَ جُهْدَه في آقتناص المَعنى الجميل وفي تخيُّرِ التركيب الأنيق. فإذا لم يستطعْ ذلك لم يَبْقَ له مُسوّغ في تفضيلِه الموشّحَ على القصيد.

من أجلِ ذلك كُلّهِ لم يكنْ للوشاح بُدٌّ من أنْ يكونَ شِعره من الناحيةِ اللغوية ضعيفاً لأنّ عِنايَته تنصرفُ إلى المعنى واللفْظِ القريبَيْنِ من الفَهْم العامّ. ولكن ما كان يجوزُ في الموشّح أن يضعُفَ حتى يَصِلَ إلى مِثل قولِ أبي القاسم المَنيشي (جيش التوشيح ١١٠):

الهوى آله معبود دينا إلى التوحيد والجزع منا بعيد.

وإذا نظرت فكفـــــار ولنـــا عـــلى الذنـــب إصرار
فما نراعي الربّ وناهيـــــك من ذنـــــب.

- موقف النقاد من الموشح:

إذا كانتِ الرواياتُ قد جاءتْ بأن نَفَراً من شعراءِ القرنِ الرابعِ - كأبي عُمَرَ

أحمدَ بنِ عبد ربه (ت ٣٢٨ هـ) وكابن أخيه (واسمُه وكُنيتُه أيضاً كاسم عمه وكنية عمه: أبو عمرَ أحمدُ بنُ عبد ربه)، وكالشاعرِ المشهورِ يوسفَ بنِ هرونَ الرَّماديّ (٤٠٣ هـ = ١٠١٣ م)- قد وَشّحوا، فأينَ مُوشحاتُهم؟ وإذا كانتْ قد ضاعتْ فما سبَبُ ضَياعِها؟ وهل كان ضياع الموشحاتِ الأُولى اتّفاقاً أو كان إهمالاً مقصوداً نُتِجَ من موقفٍ للوشاحين أنفسِهم وللنقاد ومؤرخي الأدب؟

يرى إحسان عباس أنّ الموشحات «نالت تقدير الأندلسيين منذ البداية.... ولكنّها لم تصبح موضع تقييد وتدوين في فترة مبكّرة، بل ظلت تُسمَعُ وتُتناقل شِفاهاً». أما مصطفى عوضُ الكريم فكان ظالماً- حتى لا نستعمل نحن كلمة أخرى نكون بها ظالمين له- لّما قال: «ومن أقوى الأدلّة على أصل الموشحات الأعجمي ازدراء أنصار الشعر التقليدي من العلماء والكتاب للموشحات ونرفعهم من ايرادها». إنه قد نسب إهمال الموشحات إلى ازدراء العلماء. ولكنه لم يقل لنا ما الذي اَزْدَرَوْهُ فيه: آلشكل؟ أم الأغراض؟ أم الأسلوب؟- إلاّ أن يكون جادًّا في قوله إن الازدراء له كان لأصله الأعجمي. وليس في زعمه هذا شيء من المنطق. إن العرب- في عصر نشأة الموشحات- كانوا قد بدأوا يأخذون العلم والفلسفة عن الأعاجم.

ولو كانت نظرية عوض الكريم صحيحة لوجب أن يزدريَ العرب المسلمون ما جاءهم من العلم والفلسفة عن الأعاجم لأن العلم والفلسفة كانا وثيقي الصلة عند نشأتها في بيئة أسلافنا بالدين- فيما يتعلق بالعقيدة من الفلسفة وفيما يتعلق بأوقات العبادات من العلم. ثم إن الموشح فن عربي أصيل كما سنرى بعد قليل. ولقد كان يكفي في نقض رأي عوض الكريم أن نذكر أن الدكتور شوقي ضيف (وهو الذي كتب مقدمة لكتاب عوض الكريم) قد قال (ص ٨):

«والذي لا ريب فيه أن الموشحة فن أندلسي خالص. وقد نخالف الدكتور مصطفى عوض الكريم في أنها نبعتْ من الأغاني الإسبانية الأعجمية...».

ويحسُنُ هنا أن نستعرض موقف نفرٍ من النقاد من الموشحات ومن روايتها في كتبهم أو إهمالها قليلاً أو جملة[1].

أما ابن عبد ربه (ت ٣٢٨ هـ) فقد سبق الكلام على ما يتصل به في شأن نظمه للموشحات وفي شأن غيابها من كتابه، كتاب العقد (راجع، فوق، ص٤٣٩). وفي أواخر القرن الخامس (أو أوائل السادس) ألف ابن سعد الخير البلنسي (ت ٥٢٥ هـ) كتاباً عنوانه « مشاهير الموشحين في الأندلس » أو « نزهة الأنفس وروضة التأنّس في توشيح أهل الأندلس ». وفي هذا الزمن نفسه أهمل الفتح بن خاقان الإشبيلي (ت ٥٢٩ هـ) إيراد شيء من الموشحات عند الترجمة لشعراء اشتهروا بالتوشيح كابن اللبانة (ت ٥٠٧ هـ) وابن باجُّه (ت ٥٣٣ هـ) ثم أشار من بعيد إلى الموشحات بكثيرٍ من الاستهانة والتحقير فقال في ثنايا ترجمة أبي القاسم المنيشي المعروف بعصا الأعمى لملازمته لقطب التوشيح العظيم الأعمى التطيلي: « ونكّب عن المقطع الجذل إلى الغرض الفَسْل. وليس من شرط كتابي هذا إثبات بَذائه ولا أن أقف حِذائه[2]. وقد أثبتّ له ما هو عندي نافق ولغرضي موافق » (مطمح الأنفس ٨٨).

ومعَ أن ابن بسّام (ت ٥٤٢ هـ) قد أبدى إعجاباً بالتوشيح والموشحات فإنه نصّ على أنه لم يورد في كتابه « الذخيرة » شيئاً منها لأنّ « أوزانها خارجة عن غرض الديوان (الذخيرة) إذ أكثرها على غير أعاريض العرب ». وأما الحجاري (ت نحو ٥٥٠ هـ) فقد عُنِيَ بالموشحات في كتابه « المُسْهِب » الذي تطور على يد نفر من آل سعيد فأصبح كتاب « المغرب في حلى المغرب ».

ولما جعل ابن جبير (ت ٦١٤ هـ) مراثِيَه[3] في زوجه عاتكة (في مجموع) سمّاه

---

(١) عني الدكتور مصطفى عوض الكريم في كتابه « فن التوشيح » (بيروت ١٩٩٦ م، ص ١١٠- ١١٦) والدكتور إحسان عباس في كتابه « تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين (بيروت ١٩٦٢ م، ص ٢١٧- ٢٢١) بهذه الناحية.

(٢) الأصوب: بحذائه (في سبيل صحة السجع).

(٣) تاريخ الأدب الأندلسي: الطوائف والمرابطون، ص ٢١٨.

«نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح» كان في هذا المجموع قصائدُ وموشحات.

وأورد ابن دحية الكلبيّ (ت ٦٣٣ هـ) في «المطرب» (ص ٢٠٤- ٢٠٦) موشحتين لأبي بكر بن زهر مطلعاها:

★ سدلن ظـــــــلام الشعورْ   عـــلى أوجـــه كالبـــدورْ
★ أيّها الساقي، إليك المشتكى: قـــد دَعَوْنـــاك وإن لم تسمـــعِ

بعد أن قدّمها بالمقطع التالي:

«والذي انفرد شيخنا به وانقادت لتخيّله طباعه وأصارتِ النُّبهاء خَوَله وأتباعه الموشحات. وهي زبدة الشعر وخلاصةُ جوهره وصفوتُه. وَهِيَ من الفنون التي أغرب بها أهل المغرب على أهل المشرق وظهروا فيها كالشمس الطالعة والضياء المشرق».

ولعل المؤلف الذي اتّخذ موقفاً قاسياً تجاه الموشحات كان عبد الواحد المراكشي (ت ٦٤٧ هـ) فقد ذكر أبا بكرِ بنَ زهر في كتابه «المعجب» (ص ٩٢) وأثنى عليه ثم قال: «ولولا أن العادة لم تجر بإيراد الموشحات في الكتب المجلّدة المخلدة لأوردتُّ له بعض ما بقي على خاطري من ذلك».

هذا النص لا يمثل رأي عبد الواحد المراكشيّ وحدَه بل يدلُّ أيضاً على أن نفراً كثيرين من المؤلفين في تاريخ الأدب لم يكونوا يألفون رواية الموشحات إلى جانب القصائد- ربما لاعتقادهم أن تلك نازلة عن هذه! غير أن إحسان عباس يرى أن إهمال الرواية للموشحات كان قاعدة للمؤلفين السابقين على المراكشي، وأن المراكشي ظل يتمسّك بهذه القاعدة من غير أن يعلم أنها قد فقدت سلطانها قبل زمنه بقرن على الأقل (٢١٨ تاريخ الأدب الأندلسي: عصر طوائف والمرابطين).

ثم جاء ابن سعيد (ت ٦٨٥ هـ) فعُنِيَ في كتاب «المغرب» بالموشحات (تقليداً للحجاري مبتدىء هذا الديوان البارع) عنايةً ظاهرة وختم عدداً كبيراً من أقسامه بفصول مستقلة سماها «أهداباً» (أي حواشيَ) وخصّ بها الموشحات والأزجال أيضاً.

وتقبّل ابن عبد الملك المراكشي (ت ٧٠٣ هـ) الموشحات في كتابه «الذيل والتكملة» قبولاً حسناً إذ وجد لها مكاناً في تراجم أصحابها. وفي أواسط القرن الثامن تكلم ابن خاتمة (ت ٧٧٠ هـ) على نفر من الوشاحين وعلى الموشح نفسه في كتابه «مزيّة المريّة» فقال: «وهذه الطريقة (التوشيح) من مخترعات أهل الأندلس ومبتدعاتهم الآخذة بالأنفس» (أي التاركة في النفس أثراً حسناً وارتياحاً).

ولم يكتفِ لسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ) بأن يؤلف في التوشيح كتاباً مستقلاً هو «جيش التوشيح»، بل نظم أيضاً عدداً من الموشحات. ونستطيع أن نقول بلا حذر إن أشهر الموشحات هي موشحةٌ للسان الدين مطلعها:

جادَكَ الغَيْثُ إذا الغيث همى، يا زمانَ الوصل بالأندلس.

واحتفل ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) بالموشح (التوشيح) والموشّحات وخصّها بفصل من مقدمته وبرع في تعريفها وتأريخها حتى أصبح فصله هذا أساساً لكل دراسة جادّة في هذا الفن الأندلسي الرائع.

وقدِ اعتمد المَقّريّ (ت ١٠٤٠ هـ) فصلَ ابنِ خلدون في التوشيح فغرف منه غرفاً (نفح الطيب ٧: ٥ وما بعد) ثم مضى يورد الموشحات حيث وجد إيرادها متّسقاً مع نهجه في التأليف.

ولكن يبدو أن النُفرة من رفع الموشح إلى مرتبة القصيد ظلت واضحة جداً مدة طويلة حتى بعد سقوط الأندلس (٨٩٧ هـ = ١٤٩٢ م) فإن المقري يعتذر في «أزهار الرياض» (٢: ٢٢٧ - ٢٢٨) من إيراد الموشحات (ربما في كتابيه: نفح الطيب وأزهار الرياض) ويقول في ذلك:

«كأني بمنتقدٍ ليس له خِبرةٌ... يقول: ما لنا وإدخالَ الهزل (والمُزاح) في مَعْرض الجِدّ الصُراح، وما الذي أحوجنا إلى ذكر هذا المنحى، والأليق طرحُه كلَّ الاطّراح؟ فنقول:... لم تزل كتب الأعلام مشحونة بمثل هذه الأوصاف. وليس مرادهم إيثار الهزل على غيره، وإنما ذلك من باب ترويح القلب وهو أعون على

خيره. وللسلف في مثل ذلك حكاياتٌ يطول جلبُها... وليس قصدنا نحن بهذا - علم الله - غرضاً فاسداً، وإنما غرضنا صحيح، وزندنا غير شحيح »[١]. وليس في هذا القول للمقري مدح للموشح.

نرى مما تقدّم أن موقفَ النُّقاد من « الموشحات » كان موقفاً طبيعياً عاديًّا. إن « الموشح » فنّ من فنون الشعر نشأ في زمنٍ معين لغرضٍ مخصوصٍ، ولم يكن حركةً تمثل عبقريَّة أمةٍ كما نرى في الشعر نفسِه أو في العلم أو في الفلسفة.

إن الموشحاتِ التي وصلتْ إلينا نتاجُ القرنِ الخامس والقرن السادس ثم كَثُرَ التقليد عند الطبع على غِرارِها. ثم إنها نشأتْ للتعبير الوُجدانيّ عن موضوعاتٍ شخصيةٍ كالغزلِ والخمر وبعض الوصف، تلك الأغراضِ التي تأتلفُ مَعَ الغناء إلى حدٍّ بعيدٍ - وقد كان الغناءُ من الأسبابِ التي دعتْ إلى نشوء فن التوشيح.

بهذا النظر نستطيعُ أن نُقارنَ موقف النُّقاد من الموشح بموقفهم من عدد من فنون الأدب وأغراضِه: كالطَّرْدِ والمقامات أو كالرَجَز أو كالغَزَل المذكّر والمجون عامةً. كلُّ هذه الفنونِ والأغراضِ نشأتْ ثم انقرضت بين حدَّيْنِ في الزمنِ يتباعدان كثيراً أو قليلاً، ثم كان للنُّقاد منها مواقفُ مختلفةٌ.

وإذا كان الموشحُ قد خَبَرَ شيئاً من الفُتور لدى نفرٍ من النقاد ومؤرخي الأدب فللأسبابِ التالية:

- انطواؤه عامةً على كثيرٍ من الهَزْل من حيثُ الأغراضُ وعلى شيءٍ من التساهل من حيثُ الأسلوبُ.
- الضَّعْفُ في التركيب اللُّغويّ والنَّحْويّ.
- اللُّجوءُ في الخَرْجة أحياناً إلى جُمَلٍ وتراكيبَ عاميةٍ أو عَجَميةٍ (فِرنْجية).
- قِلّةُ البراعة في كثيرٍ من الموشحات بحيثُ أصبح مجموعُ الموشحاتِ نازلاً في

(١) الزند: حديدة تقدح بها النار من الحجارة. وزندنا غير شحيح (بخيل): نحفظ كثيراً من القصائد، وكان بإمكاننا إيرادها مكان هذه الموشحات.

المرتبة والإجادة عن مجموع القصائد.

وبعدُ، فإذا نَفَرَ نَفَرٌ من النقاد من الموشحات فإن نفراً آخرينَ تقبّلوها قَبولاً حَسَناً، فلا مُسوِّغَ لخلق قضيةٍ جادّةٍ من أجل ذلك. ولكنْ بما أنّ هذه القضيةَ قد ثارتْ فلم يكن بُدٌّ من هذه الكلمة الوافية.

راجع في النظريّة العربية لنشأة الآداب الرومانسية:

Hispano-Arabic Poetry and its Relations with the Old Provençal Troubadours,.by A. R. Nykl, Baltimore 1946.

Uber the Beziehungen zwischen der arabischen und frühitalianischen Lyrik, von Silvestro Fiore, Köln 1956.

La poésie française 5 troubadours et Trouvères), par France Igly, Collection Mellior, Marabout, Paris, Pierre Seghers, éditeurs, 1960.

رحلة الأدب العربي إلى أوروبّا، تأليف محمّد مفيد الشوباشي، مصر (دار المعارف) ١٩٦٨ م.

عبادة بن ماء السماء

١ - هو أبو بكرٍ عُبادةُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ محمّدِ بنِ عُبادةَ بنِ أفلحَ بنِ الحسينِ بنِ يحيى ابنِ سعيد بن قيس بن سعدِ بن عُبادةَ[١] المعروفُ بابنِ ماءِ السماء، وُلِدَ في مالَقَةَ أو في قُرطبةَ قِيلَ سَنَةَ ٣٠٤ هـ - ٩١٦ - ٩١٧ م - (نفح الطيب ٤: ٢٣). أمّا دائرة المعارف الإسلامية ففيها (٣: ٨٥٥) أنّ مَوْلِدَه كان في مُنتصف القَرْن الرابع (نحو ٣٥٠ هـ = ٩٦١ م).

تلقّى عُبادةُ بنُ ماءِ السماء العلمَ على نَفَرٍ منهم أبو بكرٍ الزبيديّ (٣١٦ - ٣٧٩ هـ). وقد تكسّبَ بالشعر: مَدَحَ العامِريّين (أولادَ المنصور بنِ أبي عامرٍ) كما مَدَحَ عليَّ بنَ حمّودٍ الفاطميَّ صاحبَ مالَقةَ فقال فيه:

أبوكم عليٌّ كان بالشرق بَدْءَ ما ... وَرِثْتُمْ، وذا بالغرب أيضاً سَمِيُّهُ.
فَصلّوا عليه أجْمعونَ وسَلّموا ... له الأمرَ إذ وَلّاه فيكم وَلِيُّهُ![٢]

وكذلك مدح الوزير أبا عمر بن حزم، فيما قيل، ورثى أبا بكر بن زيدون[٣].
وكانت وفاة عبادة بن ماء السماء في مالقة بُعيد ٤٢٢ (١٠٣١ م).

٢ - كان عُبادةُ بنُ ماء السماء من فحولِ الشُعراءِ وكان أبرزَهُمْ مكانةً في زمنهِ،

---

(١) سعد بن عبادة (ت ١٤ هـ = ٦٣٥ م) كان سيّد بني الخزرج في المدينة ومن أصحاب رسول الله.

(٢) في الحديث: «من كنت مولاه فَعَلِيٌّ مولاه» (حديث يوم غدير خمّ).

(٣) ابن حمّود هذا من ملوك الطوائف في مالقة، جاء إلى الحكم مرّتين (٤١٢ - ٤١٣ و ٤١٦ - ٤٢٧ هـ) وكان فاطميّ الهوى والمنتمى. وقيل في عبادة بن ماء السماء إنّه كان معروفاً بالتشيّع (نفح ١ : ٤٨٤). والوزير أبو عمر أحمد بن سعيد بن حزم المنتجيلي توفّي سنة ٣٥١ هـ (جذوة المقتبس ١١٧). فإذا كان عبادة قد مدحه (جذوة المقتبس ٢٧٥) - والخبران واردان في كتاب واحد - فيجب أن يكون عبادة قد أسنّ كثيراً حتّى يكون قد اتّصل (قبل موته بإحدى وسبعين سنة!) بوزير. وأمّا أبو بكر عبد الله بن زيدون (ت ٤٠٥ هـ) فهو والد أبي الوليد أحمد بن زيدون الشاعر المشهور (ت ٤٦٣ هـ).

يُضاف إلى ذلك مُشاركةٌ في علمِ الغِناء وفي التنجيم. ولعُبادةَ قصيدٌ وموشّحٌ. ويبدو أن الموشّحَ كان قد بَقِيَ إلى أيامهِ بسيطاً قليلَ الاختلاف عمّا عُرِفَ من قبلُ من التسميط[1]، فكان عُبادةُ أوّلَ مَنْ جعلَ الموشّحَ شكلاً من القصيدة قائماً بنفسِه، ثمّ أحدثَ التضفير[2]. وكان مُصنِّفاً له كتابُ «أخبار شعراءِ الأندلس»،قال فيه المقّري (نفح ٣: ١٧٣) إنّه كتاب حَسَنٌ. وبراعة عُبادةَ هذا إنما هي في التوشيح لا في القصيد. وشعره وصف ومدح ورثاء وغزل وخمر.

٣ - مختارات من شعره

- قال عُبادةُ بنُ ماء السماء في الغَزَلِ:

إنّما الفتـــحُ هِـــلالٌ طالـــعٌ	لاح مـــن أزْرارهِ فـــي فَلَكِ[3]
خَدُّه شمسٌ، وليلٌ شَعْرُه.	من رأى الشمسَ بَدَتْ من حَلَكِ[4]!

- وقال يرثي أبا بكرِ بنَ زَيْدونٍ[5]، وكان قد تُوُفّيَ في ضَيْعةٍ له فنُقِلَ تابوتُه إلى قُرطبةَ:

أيُّ رُكْنٍ مـــن الرِياسةِ هِيضـــا	وجَمومٍ من المَكارِمِ غِيضـــا[6]؟
حَمَلوه من بلدةٍ نحو أُخرى	كي يُوافوا بـه ثَراهُ الأريضا[7]،
مِثْـلَ حَمْـلِ السحابِ ماءً طبيبـاً	لِتُداوي به مكاناً مريضاً[8]!

---

(١) راجع، فوق، ص ٤١٤.
(٢) تاريخ الفكر الاندلسيّ ١٥٤، السطر الثاني.
(٣) الأزرار: فتحة الثوب عند العنق. الفلك: الممرّ الذي يدور فيه الكوكب (حول الشمس).
(٤) الحلك: الظلام، شدّة السواد.
(٥) راجع، فوق، ص ٤٤٧ للمؤلف الدكتور عمر الحاشية ٣.
(٦) هاض فلان الشيء: كسره. غاض الماء: غار في الأرض.
(٧) الثرى: التراب. الأريض: الزكّي الرائحة، المعجب للعين الخليق للخير (راجع القاموس ٢: ٣٢٣).
(٨) طبيباً: كالطبيب - إعرابها: مفعول به ثان من المصدر (حمل) المضاف إلى فاعله (السحاب). وماء (مفعول به أوّل).

- ولعُبادةَ بن ماء السماء مُوشّحَةٌ في الغزل*:

مَنْ وَلِي ★ في أُمّةٍ أمراً ولم يَعْدِل ★ ★ يُعْزَلِ ★ إلاّ لِحاظَ الرَشأِ الأكْحلِ[1].

جُرْتَ في ★ حُكمِكَ في قتلِيَ، يا مُسْرِفُ[2]

فأَنْصِفِ ★ فواجبٌ أنْ يُنْصِفَ المُنصِفُ،

وأرافِ ★ فإنّ هذا الشَوْقَ لا يرأفُ!

عَلِّلِ★ قَلْبي بذاك البارِدِ السَلْسَلِ★★ يَنْجلي★ ما بفُؤادي من جوًى مُشْعَلِ[3].

إنّما ★ تبرزُ، كَيْ تُوقِدَ نارَ الفِتَنِ

صنماً ★ مُصَوّراً في كلِّ شيءٍ حَسَنِ[4].

إنْ رَمَى ★ لم يُخْطِ من دونِ قلوبِ الجنن[5]

كيف لي★ تَخَلُّصٌ من سَهْمِكَ المُرْسَلِ★★ فَصِلِ ★ واسْتَبْقِني حَيّاً ولا تَقْتُلِ[6].

يا سَنا ★ الشمسِ ويا أبهى من الكَوْكَبِ

يا مُنى ★ النفسِ ويا سُؤْلي ويا مَطْلَبي،

ها أنا ★ حَلَّ بأعدائِك ما حَلَّ بي![7]

---

(١) من تولّى أمراً من أمور الناس..... الرشأ: الغزال الصغير. الأكحل: الأسمر.

(٢) جار: ظلم.

(٣) علل (فعل أمر من علّ فلان فلاناً: سقاه تباعاً، مرّة بعد مرّة). البارد (الريق البارد). السلسل: الماء العذب الصافي السهل في المرور في الحنجرة. الجوى: شدّة الحبّ التي تفضي إلى حزن شديد أو إلى مرض شديد. .

(٤) تبرز أنت صنماً (كالصنم، كالصورة الجميلة).

(٥) الجنن (بضمّ ففتح) جمع جنّة (بالضمّ): وقاية (ترس). المقصود: إن رمي (هذا الغزال) المحبّ بسهم من عينيه لم يخطئه (بل أصابه). لم يخطىء من دون قلوب الجنن = لم يخطىء القلوب من دون (وراء) الجنن .

(٦) صل (فعل أمر من وصل المحبوب محبّه): عطف عليه...

(٧) حلّ بأعدائك ما حلّ بي! (أدعو الله أن ينزل بأعدائك (من الحزن والخيبة) مثل الذي نزل بي (لمّا هجرتني).

عَذَلي ★ مِنْ أَلَمِ الهِجرانِ في مَعْزِلِ ★★ والخَلِي ★ في الحُبِّ لا يسألُ عَمّنْ بُلِي[1].

أنتَ قدْ ★ صَيّرتَ بالحُسنِ مِنَ الرُشْدِ غَيّْ.

لم أجِدْ ★ في طرفي! حبّك ذنباً عَلَيّ[2].

فاتّئِدْ ★ وإنْ تشأ قَتْلي، شيئاً فشيّ[3].

أَجْمِلَنْ ★ ووَالِني مِنْكَ يَدَ المُفْضِلِ ★★ فَهْيَ لي ★ مِنْ حَسَناتِ الزَمَنِ المُقْبِلِ[4].

ما اغْتذى ★ طَرْفيَ إلاّ بسَنا ناظرَيْكَ.

وكذا ★ في الحُبِّ ما بي لَيْس يَخْفى عليك.

ولذا[5] ★ أُنْشِدُ والقلبُ رهيناً لديْكَ:

يا عَلِي ★ سَلّطْتَ جَفْنَيْكَ على مَقْتلي ★★ فأَبْقِ لي ★ قَلْبي وجُدْ بالفَضْلِ يا مَوْئلي[6].

٤ - ★★ جذوة المقتبس ٢٧٤ - ٢٧٥ (الدار المصرية) ٢٩٣ - ٢٩٤ (رقم ٦٦٢)؛ بغية الملتمس ٢٨٣ - ٢٨٤ (رقم ١١٢٣)؛ المطمح ٨٤؛ الصلة ٤٢٦؛ الذخيرة ١: ٤٦٨ - ٤٨٠؛ المغرب ١: ١١٥، ١٢٥؛ فوات الوفيات ١: ٢٥٤ - ٢٥٧؛ نفح الطيب ١: ٢٩٤، ٤٨٤، ٤٨٦، ٤: ٢٣، ٥٢ - ٥٣، ١٠٩ الخ؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٨٥٥؛ الأعلام للزركلي ٤: ٣٠ (٣: ٣٥٨).

---

(١) عذلي (لومي لك) على الألم (الذي أحدثته أنت في نفسي بسبب هجرانك لي) في معزل (بعيد عنك): لا فائدة من أن ألومك لأنّ الخليّ (الذي لم يعرف الحبّ بعد) لا يسأل (لا يستطيع أن يدرك ما يعانيه) من بلي (من ابتلي بالحبّ).

(٢) كلمة «طرفي» قلقة من حيث الوزن ومن حيث المعنى.

(٣) اتّئِدْ: تأنّ، تمهّل. إن تشأ أن تقتلني (بحبّك) فشيئاً شيئاً: اجعل ذلك شيئاً بعد شيء (حتّى لا تكون الصدمة في نفسي شديدة).

(٤) أجلن أو أجمل (فعل أمر) عاملني (حتّى في هجرك لي وفي محاولة قتلي بحبّي لك) بشيء من الإحسان. والني (كذا في الأصل). والى: تابع، نصر، حابى، أحبّ (ولا معنى لها هنا). ولعلّ الكلمة من الخطأ المطبعي وصوابها وأولني منك يد المفضل (اصنع بي معروفاً، أحسن إليّ)

(٥) في الأصل: كذا (مكرّرة من أول السطر السابق). والمعنى يقتضي «لذا» (باللام لا بالكاف).

(٦) الموئل: الملجأ.

الرقيق القيروانيّ

١ - هو أبو اسحاقَ ابراهيمُ بنُ القاسمِ القَرَويُّ أو القَيْروانيُّ - وكِلاهُما نسبةٌ إلى مدينةِ القَيروانِ - المغربيّ (نفح الطيب ١ : ١٩٣) المعروفُ بالنديمِ الرقيقِ، والرقيقُ لقبٌ له (معجم الأدباء ١ : ٢١٦). وقد تولّى ديوانَ الإنشاء في الدولة الصِنهاجية في القيروان (بعد انتقال الدولة الفاطمية إلى مِصْرَ) مُدّةً تزيدُ على عِشرين سنةً منذ أيامِ المنصورِ بن بُلُكّينَ (٣٧٣ - ٣٨٦ هـ) فيما يبدو.

وفي سَنَةِ ٣٨٨ هـ (٩٩٨ م) قَدِمَ الرقيقُ القيروانيُّ بهديّةٍ من نصيرِ الدولةِ باديسَ ٱبنِ زيري (٣٨٦ - ٤٠٦ هـ) إلى الحاكمِ بأمرِ اللهِ الفاطميّ (٣٨٦ - ٤١١ هـ) في مِصْرَ، فَسرّ في مِصْرَ وطالَ فيها مُكْثُهُ.

وكانتْ وفاتُه في القيروان نَحْوَ سَنَةِ ٤٢٥ هـ (١٠٣٣ م).

٢ - قال ابنُ رشيقٍ في الرقيقِ القيرواني: «هو شاعرٌ سَهْلُ الكلامِ مُحْكَمُه، لطيفُ الطبع قويّه تلوحُ الكتابة (!) على ألفاظِهِ؛ قليلُ الصَنْعة (في) الشعر، (ولكن) غَلَبَ عليه اسمُ الكِتابة وعلمُ التاريخِ وتأليفُ الأخبار، وهُوَ بذلك أحذقُ الناس». ويقولُ ابنُ خَلْدونٍ (المقدّمة ٤): «وابنُ الرقيقِ مؤرِّخُ إفْرِيقِيَةَ والدولِ التي كانتْ بالقيروان. ثمّ لم يأتِ بعدَ هؤلاء (أندادِ ابنِ الرقيقِ كأبي حَيّانٍ) إلاّ مُقَلِّدٌ...».

وكان الرقيقُ القيروانيُّ أديباً كاتباً مُتَرَسِّلاً وشاعراً مُكْثِراً ومُؤَلِّفاً. وشِعْرهُ سهلٌ عَذْبٌ ولكن يَغْلِبُ عليه أحياناً شيءٌ من تَكَلُّفِ أوجهِ البلاغةِ تَشَبُّهاً بالمشارقة.

وللرقيق القيروانيّ تصانيفُ كثيرةٌ في علمِ الأخبار منها: كتابُ تاريخِ افريقية والمَغرِب (عدّة مجلّدات) - كتاب النساء (كبير) - كتاب نظم السلوك في مسامرة الملوك (أربع مجلّدات)، ثمّ له كتاب الراح والارتياح (معجم الأدباء ١ : ٢١٦) - مُعاقرة الشراب (نفح الطيب ٣ : ١٣٢) - قُطب السرور (نفح الطيب ١ : ١٣٣) في وصف الأنبذة والخمور (بروكلمن ١ : ١٦١) أو في إدارة رَحَى أقداح الأشربة وإثارة نشوة الأنبذة وكاسات الخمور (بروكلمن، الملحق ١ : ٢٥٢).

٣ - مختارات من آثاره

- قال الرقيقُ القيروانيُّ يذكُرُ مِصْرَ ويتشوّقُ إلى إخوانه فيها:

هل الريحُ إنْ سارت مُشَرِّقةً تَسْري ... تُؤدّي تَحِيّاتي إلى ساكني مِصْرِ![١]

فما خَطَرَت إلاّ بَكَيْتُ صَبابةً ... وحمّلتُها ما ضاق عن حَمْلِه صدري.

تراني إذا هَبّتْ قَبولاً بنَشْرِهِمْ ... شَمَمْتُ نسيمَ المِسْكِ في ذلك النشر[٢].

وما أنسَ من شيءٍ خلا العهدُ دونَه، ... فليس بخالٍ من ضميري ولا فِكْري[٣].

ليالٍ أنِسْناها على غُرّةِ الصبا ... فطابتْ لنا إذ وافقت غُرّة الدهر[٤].

لَعَمْري لئن كانتْ قِصاراً أعُدُّها ... فلستُ بمُعْتَدٍّ سواها من العُمْر[٥].

فكم لِيَ بالأهرامِ أو ديرِ نُهْيَةٍ ... مصايدَ غِزلانِ المكابدِ والقَفْر[٦].

وكم بين بُستانِ الأميرِ وقصره ... إلى البِركةِ الزهراء من زَهَرٍ نَضْر!

وكم بِتّ في دير القصير مُواصِلاً ... نهاري بلَيْلي لا أُفيقُ من السُكْر،

تبادِرُني بالراحِ بِكْرٌ غريرةٌ ... إذا هَتَفَ الناقوسُ في غُرّة الفجر[٧]؛

مسيحيّةٌ خُوطيّةٌ كلّما انْثَنَتْ ... تَشَكّتْ أذى الزُنّارِ من دِقّة الخصر[٨].

سقى اللهُ صوبَ القصرِ تلك مغانياً ... وإن غَنِيَتْ بالنيل عن سُبُلِ القَطْر[٩]!

- وقال يَصِفُ مِصْرَ في مطلع قصيدة مدح فيها باديسَ بنَ زيري:

---

(١) تسري: (تهبّ) ليلاً.

(٢) قبولاً: من الجنوب. النشر: الرائحة.

(٣) لو نسيت كلّ ما مرّ بي في الزمن الخالي (الماضي) لما نسيت أيام اقامتي في مصر.

(٤) الغرّة: أوّل الشيء وبدؤه. غرّة الصبا: الشباب. غرّة الدهر: اقبال الدنيا على الإنسان (النجاح والثروة والصحّة).

(٥) لم ترد «معتدّ» في القاموس المحيط. وقد جاء في القرآن الكريم: «فما لكم عليهنّ من عدّة (بكسر العين: بقاء المرأة في عزلة بعد الطلاق أو بعد وفاة زوجها) تعتدّونها». والشاعر قال: فلست بمعتدّ سواها: لا أعد غيرها.

(٦) المكابد (؟).

(٧) الغريرة: القليلة التجربة والاختبار.

(٨) خوطيّة تشبه الخوط: الغصن الرفيع الطريّ (كناية عن الشباب ورشاقة الجسم).

(٩) صوب القصر (كذا في الأصل). لعلّها صوب القطر (المطر) فيكون المعنى: سقى الله تلك المغاني (الأماكن المعمورة بالسكّان) صوب القطر (المطر الكثير).

إذا ما ابنُ شَهْرٍ قد لَبِسْنا شَبابَه ... بدا آخَرٌ من جانبِ الأفقِ يَطْلَعُ[1]
إلى أنْ أقرّتْ جِيزةُ النيلِ أعْيُناً ... كما قرّ عَيْناً ظاعِنٌ حين يَرْجِعُ[2].

- وقال يتغزّل في مقدمة قصيدة للمديح أيضاً:

أظالمَــةَ العَيْنَيْــنِ يَخْلِطُهــا سِحْرُ، ... وإن ظُلِمَ الخدّان واهْتُضِمَ الخَصْرُ[3].
أعوذ ببَرْدٍ من ثَنايــاكِ قــد ثَنــى ... إليك قُلوباً حَشْوُ أثنائِها جَمْرُ[4]!

- وقال في « قطب السرور » يصف عبدَ الوهّاب بنَ حسينِ بنِ جعفرٍ الحاجبَ (نفح الطيب ١: ١٩٣ - ١٩٤):

... كان واحدَ عصرِهِ في الغناء الرائق والأدب الرائع والشعر الرقيق واللفظ الأنيق ورِقّة الطبع وإصابة النادر والتشبيه المُصيب... وكان قد قَطَعَ عُمُرَهُ وأفنى دهرَه في اللهو واللَعِبِ والفُكاهة والطَرَب. وكان أعلَمَ الناس بضرب العود واختلاف طرائقهِ وصَنْعة اللُّحُون. وكثيراً ما يقولُ المعانيَ اللطيفةَ في الأبيات الحَسَنةِ ويصوغُ عليها الألحانَ المطربة البديعة المُعْجِبة اختراعاً منه وحِذْقاً. وكان له في ذلك قريحةٌ وطبعٌ...... وكان بعيدَ الهِمّة سَمْحاً بما يَجِدُ. تُغِلُّ عليه ضِياعُه كلَّ عامٍ أموالاً جليلةً فلا تحولُ السنةُ حتّى يُنْفِدَ جميعَ ذلك ويستسلفَ غيرَهُ......

٤ - قطب السرور في أوصاف الخمور (تحقيق أحمد الجندي)، دمشق (مطبوعات المجمع العلمي العربي) ١٩٦٩ م.

---

(١) ابن شهر: الهلال، القمر. لبسنا شبابه، لبسناه: قضيناه، مرّ وانقضى. بدا آخر = بدا هلال آخر جديد (كناية عن سرعة مرور الأيّام).

(٢) الجيزة = المجاز (الجانب الآخر من النهر). جيزة مصر: الضفّة الغربية من نهر النيل جنوب القاهرة. قرّت الأعين: فرحت واطمأنّت وسكنت. الظاعن: المرتحل عن أهله.

(٣) ظالمة العينين: عيناها تظلمان المحبّين (تضنيهم، تمرضهم، تقتلهم). وإن ظلم الخدّان (وإن كانت نسبة الظلم إلى العينين وحدهما ظلماً للخدّين، لأنّ خدّي هذه الفتاة يفعلان فعل عينيها أيضاً). واهتضم الخصر (هضم حقّ الخصر أيضاً لأنّه هو أيضاً يفعل فعل العينين). وفي الكلمة تورية (معنيان)؛ اهتضم الخصر: أصبح هضيماً = نحيلاً.

(٤) أعوذ: ألجأ، احتمي. الثنايا: الأسنان. إن حرارة العشق التي يشعر بها العاشق في قلبه لا يبردها سوى قبلة من ثغر الحبيبة.

- تاريخ افريقية والمغرب: قطعة منه (تحقيق المنجي الكعبي)، تونس (الناشر: رفيق السقطي) ١٣٧٨ هـ = ١٩٦٨ م؛ جزء منه (تحقيق أحمد الجندي)، دمشق (المجمع العلمي العربي؟) ١٩٦٩ م.

* الأنموذج ٢٧ - ٣٤؛ معجم الأدباء ١ : ٢١٦ - ٢٢٦؛ الوافي بالوفيات ٦ : ٩٢ - ٩٦؛ نفح الطيب ١ : ١٤٤ - ١٤٥، ١٩٣ - ١٩٦؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣ : ٩٠٢ - ٩٠٣؛ بروكلمن ١ : ١٦١، الملحق ١ : ٢٥٢؛ الأعلام للزركلي ١ : ٥١ - ٥٢ (٥٧)؛ المجمل في تاريخ الأدب التونسي ١٢١.

أبو عامر بن شهيد

١ - هو أبو عامرٍ أحمدُ بنُ عبدِ الملكِ بنِ شُهيدٍ، وُلِدَ في قُرطبةَ سَنَة ٣٨٢ هـ (٩٩٢ م) وكان أبوه الأديبُ الوزيرُ عبدُ الملكِ بنُ شُهيدٍ شيخاً كبيراً مريضاً يميل إلى النُسك. من أجلِ ذلك لم يتمتّعِ الطفلُ الصغيرُ بشيءٍ من مالِ أبيهِ ولا جاهِ أبيه إلاّ ما كان يُبديه نحوهُ المنصورُ بنُ أبي عامرٍ من الإنعام والعطف. ثمّ مات الأبُ وللطفلِ من العُمْر نحو إحدى عَشْرَةَ سَنَةً.

ومَعَ ذلك فقد نشأ أبو عامرِ بنُ شُهيدٍ جواداً عزيزَ النفس ثم نالَ قِسطاً كبيراً من العلم والآداب وفاز بنصيبٍ من عِلْم الطِب. غير أنّه ما كاد يبلُغُ مبلَغَ الشبابِ ليأخذَ بحَظّه من الدنيا حتّى ثارتِ الفِتنةُ في قرطبةَ فضاع فيها شبابُه وعِلمُه وأدبُه وعُمُره.

واضْطُرَّ أبو عامرِ بنُ شُهيدٍ في سبيلِ الحصولِ على الرزْق إلى أن يَتَطَوّفَ بِشعْرِه للتكسّب من الذين كانوا يتنازعون الحُكْمَ على قرطبةَ وعلى عددٍ من المدن الأندلسية كمالَقَةَ والمَرِيّةِ ودانيةَ: مَدَحَ سُليمانَ الأُمويَّ الذي جاء إلى الخلافة مرّتينِ قصيرتينِ (سنة ٤٠٠ ثمّ من أواخر ٤٠٣ إلى مطلع ٤٠٧ هـ) والمُعْتلِيَ بنَ حَمّودٍ المستبدَّ بقرطُبةَ (٤١٢ - ٤١٣ هـ). ثمّ إنّه وزر لعبد الرحمن المستظهرِ الأمويّ الذي جاء إلى الخلافة نحو شهرين (٤١٤ هـ). وأخيراً لجأ إلى بَلاطِ الخليفةِ هشامٍ المُعْتدِّ (٤١٨ - ٤٢٢ هـ) - آخر الأمويّين في قرطبة - فكان جليساً له ونديماً.

وظنّ أبو عامر بن شهيْدٍ أنّ حظّه من العامريّين (نسلِ المنصور بن أبي عامر ممّن

تَوَلَّوْا حُكْمَ عددٍ من البلاد في تلك الحِقْبة) أوفر، فلم يتحقّق ظنُّه حتّى أن مجاهداً العامريَّ صاحبَ دانِيَةَ (٤٠٨ - ٤٣٢ هـ) وميورقةَ، في بعضِ تلك الفترة، قَطَعَهُ ولم يلتفتْ إليه.

وكان أبو عامرِ بنُ شهيدٍ أصمَّ، كما كان يشكو من ضيق التنفّس (الربو!). وقَوِيَ مرضُه سَنَةَ ٤٢٥ هـ فبقي طريحَ الفراشِ يحتمل الآلامَ بصبرٍ بالغٍ حتّى وافتْ مَنِيّتُه في آخرِ جُمادى الأولى من سَنَةِ ٤٢٦ (١٠٣٥/٤/١١ م) في قرطبة.

٢ - أبو عامرِ بنُ شُهيدٍ شاعرٌ ناثرٌ ناقدٌ مُكْثرٌ مطيلٌ مجيدٌ ومقتدرٌ في كلٍّ ذلك، وهو قريبُ الشَبَهِ بشعراءِ المشرق وعلى شعرِه لمحةٌ من البَداوة. وكان من أعلمِ أهلِ الأندلسِ بالأدبِ والشِعرِ وأقسام البلاغة بارعاً في جميعِ الفنون.

وأدبُه وُجدْانيٌّ فلسفيٌّ وعاطفيٌّ موضوعيٌّ في وقت معاً؛ تَجِدُ فيه الشَكْوى إلى جانبِ الفُكاهة والتشاؤمَ إلى جانب الدُعابة. وفي أدبه أيضاً تأنّق وتكلّفٌ أحياناً وصِناعةٌ يكثُرُ فيها الجِناسُ والميلُ إلى استعمالِ الغريبِ، كلُّ ذلك مَعَ سُرْعةٍ في البديهة ومقدرةٍ على الارتجال.

وفنونُ شِعْرِه المديحُ والرثاء والهجاء والوصف البارع لمظاهرِ الطبيعة وللآثار العُلْويّة خاصةً (الجو والسماء) وهو مغرمٌ باستخراجِ الصور الغريبة المبتكرة. وله نسيبٌ وغزلٌ وإخوانيّاتٌ. غيرَ أنّنا نلمَحُ في شعرِه أخذاً كثيراً من معاني أهلِ المشرق حتّى لكأنّه يتَعَمَّدُ ذلك.

ثمّ له تصانيفُ غريبةٌ عجيبةٌ منها: كشف الدّك وإيضاح الشكّ - حانوت عطّار - التوابع والزوابع[1].

ورسالةُ التوابعِ والزوابعِ قِصّةٌ خَياليةٌ جَعَلَ ابنُ شُهيدٍ مسرحَها في وادي الجِنّ من دُنيانا هذه وجعل دليلَه في ذلك الوادي جِنّيّاً اسمُه زهيرُ بنُ نُمير من بني أَشْجَعَ

(١) التابع والتابعة: الجنّيّ والجنّيّة يكونان مع الإنسان يتبعانه حيث ذهب. الزوبعة اسم شيطان أو رئيس للجنّ.

الجنُّ (وابنُ شُهيدٍ من بني أشجعَ أيضاً). وفي هذه القِصّة يستعرض ابنُ شهيدٍ عدداً من المُشْكِلاتِ البَيانية والأدبية مَعَ نَفَرٍ من الجِنّ الذين يتبدَّوْنَ في صُوَرٍ مختلفةٍ (في صور البِغال والحمير والأوزّ، الخ) في أُسلوب قَصَصيٍّ نَقْديّ مَرِحٍ يميلُ مرّةً ذاتَ الهَزْلِ ومرّةً ذات الجِدّ. هذه الرسالة تذكّرنا بقصّة أبي العلاء المعرّي رسالة الغفران. غيرَ أن رسالةَ الغُفران أشهرُ.

ويرى زكي مبارك[1] أن رسالةَ التوابع والزوابع وُضِعَتْ بعدَ سَنَةِ ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) بقليلٍ، وقبلَ (أن كَتَبَ المعرّيُّ رسالته بعِشْرين سَنَةً أو تزيدُ) ووجّهها إلى أبي بكرِ بنِ حَزْمٍ[2].

٣ - مختارات من آثاره

قال أبو عامر بن شهيد في الغزل وهو ينظر إلى معاني نفر من الشعراء المشارقة:

أصباحٌ شِيْمَ أم برق بدا ... وسنى المحبوب أورى أَزْنُدا[3]!

هَبَّ من مَرْقده منكسراً ... مُسْبِلاً للكُمّ، مُرْخٍ للرِدا،

يمسح النعسة من عَيْنَي رشاً ... صائدٍ في كل يوم أَسَدا[4]

أوردَتْهُ لَطَفاً آياتُه ... صَفوةَ العيش وأرعَتْه دَدا[5]

فهْو من دَلٍّ عَراهُ زُبْدَةٌ ... من صريح لم يخالط زَبَدا[6]

---

(١) للدكتور زكي مبارك في كتابه النثر الفنّي في القرن الرابع (القاهرة ١٣٥٢ هـ = ١٩٣٤ م، ج ٢: ص ٢٥٨ - ٢٧٠) بحث مفصّل في هذه القصّة وفي الصلة بينها وبين رسالة الغفران.

(٢) أبو بكر بن حزم هو أخو أبي محمّد بن حزم الفقيه الأديب المشهور (ت ٤٥٦ هـ). وقد توفّي أبو بكر ابن حزم قبل أخيه أبي محمّد.

(٣) شيم: رؤي (فعل مبنيّ للمجهول من «شام»). السنى: ضوء البرق. أزند جمع زند (بسكون النون): حديدة تقدح بها النار من الحجر الصوّان. أورى زنداً: أشعل ناراً.

(٤) الرشأ: الغزال الصغير.

(٥) أورده: أسقاه، أخذه إلى الماء. أرعته: تركته يرعى، أخذته إلى المرعى. الدد: اللهو. آياته (ألوان حسنه وجماله) جعلت الاهتمام به كبيراً فنشأ منعّماً.

(٦) الدلّ: الدلال، الغنج، تظاهر المحبوب بغير الرضا وهو راض. زبدة: نخبة، خلاصة، أحسن ما في =

قلتُ: «هَبْ لي يا حبيبي قُبلةً ... تشْفِ من عمّك تبريحَ الصدى»[1]
فأنثنى يهتزّ من منكِبه ... مائِلاً لطفاً وأعطاني اليدا.
كُلّما كلّمني قبّلْتُه، ... فهو إمّا قال قولاً ردّدا[2].
شربتْ أعطافه ماءَ الصِبا ... وسقاه الحسنُ حتى عربدا[3].

ومن نسيبه البارع الذي يخالطه مجون:

ولمّا تَمَلّأ من سُكْره ... ونام ونامَتْ عيونُ العَسَسْ[4].
دنَوْتُ إليه على بُعده ... دنُوَّ رفيق درى ما ٱلتَمَس.
أدِبّ إليه دبيبَ الكرى ... وأسمو إليه سُمُوَّ النفَس.
وبِتّ به ليلتي ناعماً ... إلى أن تبسَّم ثَغْرُ الغَلَس[5]
أُقبِّلُ منه بياض الطُلى ... وأَرشِف منه سواد اللَعَس[6]

- وقال يمدَح يحيى المُعتليَ بالله بنَ حمّودٍ ويصف في أثناء ذلك شِعرَه ونفْسَه ويشكو الناسَ والأيّام، من ذلك قولُه: (ونلمح هنا حيناً نَفَسَ المتنبّي وحيناً نفسَ أبي نواسٍ):

= الأشياء. الصريح: الخالص الصافي (من النسب أو من الأشياء المادّية). الزبد: ما يطفو على وجه السيل (أو الشراب) ممّا لا قيمة له ولا فائدة منه.

(١) تبريح: تعذيب. الصدى: العطش.

(٢) إمّا قال قولا: إن ما قال قولا: إذا قال قولاً كلّمني كثيراً فكنت أقبّله حتّى انتهى الكلام (لكثرة ما قبّلته) فجعل يردّد (يعيد) الكلام.

(٣) الأعطاف جمع عطف (بكسر العين): جانب الجسم. عربد الرجل: أخرجه السكر عن طوره فقال كلاماً مسيئاً أو فعل أفعالاً مؤذية.

(٤) العسس: الحرس، الحرّاس.

(٥) الغلس: الظلام.

(٦) الطلى جمع طلية (بضمّ الطاء): العنق، جانب العنق. اللعس: السمرة في الشفاه.

وما فيَّ إلاّ الشعرُ أثبَتَهُ الهوى ... فسار به في العالمين فريدُ[1].
أفوهُ به - لم آتِهِ متعرّضاً ... لحُسْنِ المعاني - تارة فأزيد[2].
فإنْ طال ذِكري بالمُجون فإنّني ... شَقِيٌّ بمظلومِ الكلامِ سعيد[3].
وهل كُنْتُ في العُشّاقِ أولَ عاشقٍ ... هَوَتْ بحِجاهُ أعيُنٌ وخُدود[4]؟
وإنْ طال ذِكري بالمُجون فإنّها ... عَظائمُ لم يَصْبِرْ لَهنّ جَليد[5]:
فراقٌ وسِجْنٌ واشْتياقٌ وذِلّةٌ ... وجَبّارُ حُفّاظٍ عليّ عَتيد[6].
فمَنْ مُبْلغُ الفِتيانِ أنّيَ بَعْدَهُمْ ... مُقيمٌ بدارِ الظالمين وَحيد:
مقيمٌ بدارِ ساكنوها مِنَ الأذى ... قِيامٌ على جَمْرِ الحِمام قُعود[7].
وقلت لصدّاحِ الحَمامِ وقد بكى ... على القصر إلْفاً والدموعُ تجود[8]:
ألا أيّها الباكي على من تحبّه، ... كِلانا مُعَنًّى بالخَلاءِ فريد[9].
وما زال يُبْكيني وأُبْكيه جاهِدًا ... ولِلشَّوْقِ من دونِ الضُلوع وَقود[10]،
إلى أنْ بكى الجُدرانُ من طول شَجْوِنا ... وأجْهَشَ بابٌ جانباه حَديد[11].
أطاعتْ أميرَ المؤمنين كتائبٌ ... تَصرّف في الأموال كيف يُريد[12]

---

(١) فريد: (لا مثيل له)، يعني الشاعر بذلك نفسه.

(٢) مع أنّني لا أتطلّب المعاني فإنّ في شعري من المعاني أكثر ممّا في شعر غيري.

(٣) إذا أكثر الناس من القول بأنّي ماجن (خليع، هاجم على اللذات)، فهذا الكلام يشقيني (يؤسفني، يحزنني) لأنّ قائله يقصد اهانتي. كما أنّني في الوقت نفسه سعيد بهذا الكلام لأنّه يدلّ على شبابي ونشاطي.

(٤) أضاع حجاه (عقله) لمّا رأى عيون الحسان وخدودهن.

(٥) وإذا اشتهر عني أنني ماجن فلأنّ الإغراء الذي نلقاه من الحسان الجميلات لا يستطيع الإنسان أن يقاومه مهما يكن جليداً (صبوراً مالكاً لعواطفه).

(٦) الحفّاظ: الملائكة الذين يكتبون حسنات المرء وسيّئاته. جبّار حفّاظ (الذي يتولّى الرقابة علي من هؤلاء جبّار لا يتساهل معي في شيء!) عتيد: حاضر (لا يفارقني، يرى كلّ ما أعمله).

(٧) قيام على جمر الحِمام قعود: (متعرّضون للموت في كلّ حين!).

(٨) يبكي على إلف (بكسر الهمزة) حبيب. على القصر (طائر الحمام الواقف على سطح القصر).

(٩) كلانا معنًى بالخلاء فريد: كلّ واحد منّا يجب أن يكون وحده في مكان خال من الناس.

(١٠) من دون الضلوع وقود (في طيّ الضلوع اشتعال).

(١١) الشجو: الحزن. أجهش: تهيّأ للبكاء (بكى). حتّى الباب الذي هو من حديد بكى حزناً علينا.

(١٢) تصرّف في الأموال (؟): تتصرّف هي بالأموال (؟).

فللشمسِ عنها بالنهار تأخّرٌ، وللبَدْر عنها بالظلام صدودُ[١]
ألا إنّها الأيّامُ تَلْعَبُ بالفتى: نُحوسٌ تَهادَى تارةً وسُعود.
[تقولُ التي عن بَيْتِها خفَّ مَرْكبي:] أقُرْبُكَ دانٍ أم نَواك بعيد[٢]؟
فقلتُ لها: أمْري إلى مَن سَمَتْ به إلى المجد آباءٌ له وجُدود:
إلى المُعْتلي عالَيْتُ هَمّيَ طالباً لكَرّتِه، إنّ الكريم يَعود؛[٣]
هُمامٌ أراهُ جُودُه سُبُلَ العُلى، وعَلّمه الإحسانُ كيف يَسود!

- رسالة التوابع والزوابع (مطلع الفصل الأوّل):

تذاكرتُ يومًا مَعَ زهيرِ بنِ نُميرٍ أخبارَ الخطباءِ والشعراء وما كان يأْلَفُهم[٤] من التوابع والزوابع، وقلتُ: هل حيلةٌ في لِقاءِ مَنِ اتّفقَ منهم؟ قال: حتّى أستأْذِنَ شيخَنا. وطار عنّي ثمّ انصرف[٥] كلَمْحٍ بالبصر - وقد أُذِنَ له - فقال: حُلَّ على مَتْنِ الجواد.

فصِرْنا عليه وسارَ بنا كالطائر يجتابُ الجوَّ فالجوَّ، ويقطَعُ الدوَّ فالدوَّ[٦]؛ حتّى الْتَمَحْتُ أرضاً لا كأرضِنا، وجوًّا لا كجوِّنا متفرّعَ الشجر عَطِرَ الزَهَر. فقال لي: حَلَلْتَ أرضَ الجِنِّ، أبا عامرٍ! فَبِمَنْ تريدُ أن نَبْدأ؟ قُلتُ: الخطباءُ أولى بالتقديم، لكنّي إلى الشعراء أشوقُ. قال: فمَنْ تُريدُ منهم؟ قلت: صاحبُ امْرِئِ القيس. فأمال العِنانَ[٧] إلى وادٍ من الأوْدِيَةِ ذي دَوْحٍ، تتكسّرُ أشْجارُه وتَتَرنَّمُ أطْيارُه، فصاح: يا عُتْبَةَ بنَ نَوْفَلٍ، بسِقْطِ اللِوى فحَوْمَلٍ ويوم دارةِ جُلْجُلٍ[٨]، إلاّ ما عَرَضْتَ

---

(١) هي أجمل من الشمس في النهار وأجمل من القمر في الليل (؟)- للبدر صدود عنها (لأنه يغار منها).

(٢) الشطر الأول لأبي نواس. أتعود قريباً أم أن سفرتك بعيدة؟

(٣) عاليت همّي: صعدتّ فوق همّي (لم أبال بهمّي لمّا قصدته). لكرّته: (حتّى يعود إلى ما عوّدني من كرمه).

(٤) من كان من الجنّ يألف البشر (ويعيش معهم).

(٥) ثمّ انصرف راجعاً.

(٦) اجتاب: قطع. الدو: الفلاة، الصحراء الواسعة.

(٧) العنان: عنان الفرس. أمال العنان: عطف بنا (نحو وادي الجنّ).

(٨) بسقط (الباء في « بسقط » للقسم). أقسم عليك بسقط اللوى فحومل ويوم دارة جلجل (سقط اللوى وحومل ودارة جلجل أماكن مذكورة في معلّقة امرىء القيس).

علينا وَجْهَك وأنشدتّنا من شِعْرِك (ثمّ) سَمِعْتَ من هذا الإنْسيّ وعَرَّفْتَنا كيف إجازتُك له[1].

فَظَهَرَ لنا فارسٌ على فرسٍ شقراءَ كأنّها تلتهبُ، فقال: حيّاك اللهْ يا زُهيرُ- وحيّا صاحِبَكَ. أهو فَتاهُم[2]؟ قُلتُ: هو هذا؛ وأيُّ جَمْرَةٍ، يا عُتْيبةُ !.

- وقال يتخيّل أنّه يتحدّث وصديقاً له في قبريهما (وهي أبيات كانت مكتوبة على شاهد قبره):

يا صاحبي، قُمْ فقد أَطَلْنا،	أنحن طولَ المَدى هُجودُ؟[3]
فقال لي: لَنْ نقومَ منها	ما دام مِن فوقِنا الصَعيد[4].
تَذْكُرُ كم ليلةٍ نَعِمْنا	في ظِلِّها، والزمان عيد؟
كلٌّ كأَنْ لم يكن تقضَّى	وشُؤمه حاضرٌ عَتيد[5]
حصَّلَهُ كاتبٌ حفيظٌ	وضمَّه صادقٌ شهيد[6].
يا ويلَنا إن تنكَّبَتْنا	رحمةُ مَنْ بَطْشُه شديد[7].
يا ربٍّ، عفواً! فأَنْتَ مولَى	قصَّرَ في شُكره العبيد.

٤ - ديوان ابن شهيد الأندلسي (جمعه وحقّقه يعقوب زكي)، القاهرة (دار الكاتب العربي للطباعة والنشر) بعد ١٩٥٨ م، (تحرير شارل بلاّ)، بيروت ١٩٦٣ م.
- حانوت عطّار (تحقيق ابن تاويت الطنجي)، القاهرة ١٩٥١ م.
- رسالة التوابع والزوابع (صحّحها... بطرس البستاني)، بيروت (دار صادر) ١٣٨٧ هـ = ١٩٦٧ م.

---

(١) كيف إجازتك له= ما تقول في جودة شعره.

(٢) أهو فتاهم (أهذا من البشر!). وأي جمرة من جمرات العرب! مثل يضرب للرجل القويّ البارع.

(٣) فقد أطلنا = فقد أطلنا النوم. هجود: نائمون.

(٤) الصعيد: التراب (الأرض).

(٥) عتيد: حاضر، معدّ.

(٦) لكلّ إنسان في الدنيا كاتبان حفيظانَ عليه موكّلان به يكتب أحدهما حسنات الإنسان ويكتب الثاني سيّئاته. ثمّ يأتي كلّ إنسان يوم القيامة ومعه سائق به إلى الحساب وشهيد على أعماله في الدنيا.

(٧) تنكبتنا: مالت عنا. انصرفت عنا (لم يشملنا الله برحمته). من بطشه شديد = الله.

★ ★- ابن شهيد الأندلسي: حياته وآثاره، تأليف شارل بلاّ (منشورات الجامعة الأردنية - كليّة الآداب)، عمّان (جمعية عمّال المطابع التعاونية) بلا تاريخ (بعد ١٩٦٥ م).

جذوة المقتبس ١٢٤ - ١٢٧ (الدار المصرية) ١٣٣ - ١٣٦ (رقم ٢٣٢)؛ بغية الملتمس ١٧٧ - ١٧٨ (رقم ٤٣٧)؛ المطمح ١٦ - ٢٢؛ الذخيرة ١ : ١٩١ - ٣٣٦؛ المغرب ١ : ٧٧ - ٧٨؛ إعتاب الكتاب ٢٠٣ - ٢٠٥؛ الخريدة (المغرب والاندلس) ٥٥٥ - ٥٦١؛ المطرب ١٥٨ - ١٦٣؛ معجم الأدباء ٢ : ٢٢٠ - ٢٢٣؛ الوافي بالوفيات ٧ : ١٤٤ - ١٤٨؛؟ خريدة الأندلس ٤٢٦ (محمّد بن عبد الملك)؛ وفيات الأعيان ١ : ١١٦ - ١١٨؛ شذرات الذهب ٣ : ٢٣٠؛ نفح الطيب ١ : ٣٨٠ - ٣٨٢، راجع ٣٥٦ - ٣٦٠، ٦٢١ - ٦٢٣؛ النثر الفنّي لزكي مبارك ١ : ٢٥٨ - ٢٧٠؛ ٢ : ٤٨ - ٥٨، ٣٠٢ - ٣١٨؛ دائرة المعارف الاسلامية ٣ : ٩٣٨ - ٩٤٠؛ بروكلمن، الملحق ١ : ٤٧٩؛ الأعلام للزركلي ١ : ١٥٧ (١٦٣)؛ داية ٢٩٣ وما بعد؛ بالنثيا ٧٣ - ٧٤، ٢٠٧.

ابن مغلّس البلنسيّ

١ - هو أبو محمّدٍ عبدُ العزيزِ بنُ أحمَد بنِ السيد القَيْسي البَلَنسيّ الأندلسيّ، قرأ الأدبَ على أبي العَلاء صاعدِ بنِ الحسنِ الربعيّ (ت ٤١٧ هـ) ثمّ رَحَلَ من الأندلس إلى مِصْرَ واستوطنها.

وقيل قرأ في مِصْرَ على النجيرمي. ثمّ إنّه دَخَلَ بَغدادَ فقرأ على نفرٍ من عُلمائِها كما قرأ عليه فيها جماعةٌ من طُلاّب العِلم. وكانتْ وفاتُه في مِصرَ، في ٢٤ من جُمادى الأولى من سنة ٤٢٧ (١٠٣٦/٣/٢٥ م).

٢ - ابنُ مُغلّس البَلَنْسيّ من أهلِ العِلم باللُّغةِ والنحو مشهورٌ. وهو شاعرٌ مُكْثِرٌ مُجيدٌ، وله ديوان. وقد كانتْ بينَه وبينَ إسماعيلَ بنِ خَلَفٍ مُعارضاتٌ (يَرُدُّ أحدُهما على الآخَرِ في قصائد).

٣ - مختارات من شعره

قال ابنُ مغلّس البلنسيُّ في النسيب:

مريــضُ الجفــونِ بــلا عِلّــةٍ، ولكــنّ قلــبي بـــه مُمْرَضُ.

أعانَ السُّهادَ على مُقلتي بِفَيْضِ الدموعِ فما تُغْمِضُ.
وما زارَ شوقاً، ولكنْ أتى يُعَرِّضُ لي أنَّه مُعْرِضُ.

وقال في الحَمّام وما يجتمع فيه من أخلاط الناس:

ومنزلِ أقوامٍ إذا ما اغْتَدَوْا به تَشابَهَ فيه وَغْدُه ورئيسُهُ.
يُخالِطُ فيه المرءُ غيرَ خليطِهِ ويُضحي عَدُوُّ المرءِ وهو جَليسُهُ.
يُفَرِّجُ كَرْبي إنْ تزايدَ كَرْبُه ويُؤنِسُ كربي أن يُعَدَّ أنيسُه.
إذا ما أعَرْتُ الماءَ حوضًا تكاثرتْ على مائِه أقمارُه وشموسُه.

٤ - ** وفيات الأعيان ٣: ١٩٣ - ١٩٤؛ جذوة المقتبس ٢٦٩ (الدار المصرية) ٢٨٨ (رقم ٦٤٥)؛ بغية الملتمس ٣٧١ (رقم ١٠٨٨)؛ الصلة ٣٥١؛ بغية الوعاة ٣٠٧؛ نفح الطيب ٢: ١٣٢ - ١٣٣؛ الأعلام للزركلي ٤: ١٣٦ (١٣).

ابن أبي الرجال

١ - هو أبو الحسَنِ عليُّ بنِ أبي الرجالِ الشَيْباني الكاتبُ المَغْربيّ القَيْروانيُّ، من أهلِ فاسَ ولكنّه عاش مدّةً في بَلاطِ المُعزِّ بنِ باديسَ (٤٠٦ - ٤٥٤ هـ) وكان رئيسَ ديوانِ الإنشاءِ في الدولةِ الصِنْهاجية. وهُوَ الذي لقّنَ المُعزَّ العلومَ. ولعلَّه شاركَ القوهيَّ في أرْصاده التي كان يقومُ بها في بَغْدادَ (في الثُلث الثالثِ من القرن الرابعِ - أواخرِ القرن العاشرِ للميلاد). وكانت وفاته سنة ٤٢٦ (١٠٣٤ - ١٠٣٥ م)، أو بعد بضع سنوات أخرى.

٢ - يبدو أن ابنَ أبي الرجالِ كان من ذوي المَيْلِ إلى العلوم الرياضية، ألّف كتابَ «البارع» في التنجيم، ولكنّ كتابَه هذا جاء غامضاً ضعيفَ التركيبَ (كأكثر الكتب في هذا الموضوع). ثمّ إنّه كانَ أديباً ناثراً وشاعراً متينَ السَبْكِ رقيق الكلامِ؛ من فنونه الفَخْرُ والحِكمة والغَزَل والعِتاب والخمر. كان ابنُ أبي الرجال بتاهِرْتَ فتذكَّرَ أهلَه بالقَيْروان فقال:

ولي كَبِدٌ مكلومةٌ من فِراقِكُمْ أُطامِنُها صبراً على ما أجَنَّتِ.
تَمَنَّتْكُمْ شَوْقًا إليكم وصَبْوةً عسى اللهُ أن يُدني لها ما تَمَنَّت.
وعينٌ جفاها النومُ واعتادَها البُكا إذا عَنَّ ذِكْرُ القيروانِ اسْتَهلّت!

وقد علّق ابنُ رشيقٍ على هذه الأبيات بقولِه: « فلو أن أعرابيًّا تذكّرَ نَجْدًا فحنّ به إلى الوطنِ أو تشوّقَ فيه إلى بعضِ السَكَنِ ما حَسِبْتُه يزيدُ على ما أتى به هذا المولّدُ الحَضَري المتأخّرُ العصرِ ».

وكان ابنُ أبي الرجالِ يَعْطِفُ على الكُتاب والشُعراء ويأخذُ بناصِرِهِمْ: وقد ألّفَ باسمِهِ ابنُ رشيقٍ مؤلّفاتٍ أدبيةً نفيسةً منها كِتاب « العُمْدة »، كما قدّم إليه ابنُ شَرَفٍ « رسائلَ الانتقاد » (مجمل تاريخ الأدب التونسيّ ١٢٩).

٣ - مختارات من آثاره

- قال أبو الحسن عليّ بن أبي الرجال في الشكوى من الناس:

أيا ربِّ، إن الناسَ لا يُنْصِفونني ... ولم يُحْسِنوا قَرْضي على حَسَناتي:
إذا ما رأوْني في رَخاءٍ تَرَدَدوا ... إليّ، وأعدائي لَدى الأزَمات.
ثِقاتِيَ ما دامتْ صِلاتي إليهمُ، ... وإنْ عَنْهم أخّرْتُها فعِداتي.
سأمنَعُ قلبي أن يَحِنَّ إلَيْهِمُ، ... وأصْرِفُ عنهم - قالياً - لَحَظاتي؛
وألْزِمُ نَفْسي الصبرَ دأبًا لَعَلّني ... أُعاينُ ما أمّلتُ قبل مَماتي.
ألا إنّما الدنيا كَفافٌ وصِحّةٌ ... وأمْنٌ؛ ثلاثٌ هنّ طِيبُ حياتي.

- وقال في الخمر:

ألا ليتَ أيامًا مَضى لي نَعيمُها ... تَكِرُّ علينا بالوصالِ وتُنْعِمُ.
وصفراءَ تحكي الشمسَ من عَهْدِ قَيْصرٍ ... يَتوقُ إليها كلُّ من يَتَكرّمُ؛
إذا مُزِجَتْ في الكأسِ خِلْتَ لآلئًا ... تُنَثَّرُ في حافاتِها وتُنَظَّم.
جَمَعْنا بها الأشتاتَ من كُلّ لَذّةٍ، ... على أنّه لم يُغْشَ في ذاك مَحْرم!

- من كتاب البارع:

.... ومتى جاءتِ السُعودُ في الثاني عَشَرَ في تحاويلِ السنينَ قَوِيَتْ أعداءُ المَوْلودِ وأيديهم. فإذا حلّتْ فيه النُحوسُ أضْعَفَتْهُمْ وأبادتهم. وإذا كان ربّ الثاني عَشَرَ في الطالعِ كان المولودُ شَقِيّاً كثيرَ الأعداء مُحارَباً ويَلْقى من الأعداء شِدّةً في أولِ أمره؛ وفي الثاني يكونُ رَديءَ العيشة سيِّءَ الحال يُكْذَبُ عليه كثيراً. وفي الثالث يُعاديه إخْوتُه ويَلْقى منهم شِدّةً وتَسُوءُ أحوالُه. وفي الرابعِ يُعاديه آباؤه ويُنازعه أهلُهُ

وتَخْرَبُ الدار التي وُلد فيها ويُنْقَلُ منها.

٤ - ★★ المجمل في تاريخ الأدب التونسي ١٢٩ - ١٣٠؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٦٨٨ - ٦٨٩؛ تاريخ العلوم عند العرب ١٧٨ - ١٧٩؛ بروكلمن ١: ٢٥٦، الملحق ١: ٤٠١؛ معجم المطبوعات العربية ٣١؛ عنوان الأريب ١: ٥٧ - ٥٨.

ابن خلوف الحروريّ

١ - هو عبد العزيز بن خلوف الحروريّ[١]، من أهل القيروان، كانت وفاته نحو ٤٣٠ هـ (١٠٣٩ م).

٢ - كان ابن خلوفٍ الحروريُّ ذا ذكاء نادر وكان مشاركاً في عدد من فنون العلم. غير أنّه اشتهر بالنحو وبالقراءات وما يتعلّق بها. وشعره حسن الألفاظ والمعاني جميل الصناعة. له مديح ووصف.

٣ - مختارات من شعره

- قال ابن خلوف الحروريُّ في مديح المعزّ بن باديس[٢]:

لو يستطيعُ لأدْخَلَ الأمواتَ من ... نُعماه في ما نالتِ الأحياءُ.
سوّتْ رعاياه يدا إنصافِه ... حتّى الشوامخُ والوِهادُ سواء[٣].
مُتنوّعُ العَزَماتِ: ماءٌ مُغْدِقٌ ... فيهم، وعنهم صخرةٌ صمّاء[٤].
ما أنتَ بعضُ الناسِ إلاّ مِثلَما ... بعضُ الحصى الياقوتةُ الحمراء[٥].
فتحتْ لنا نُعماك كلَّ بلاغةٍ ... فَجَرَى اليَراعُ وقالتِ الشعراء.

---

(١) الحروريّ: الخارجيّ (أحد الخوارج).

(٢) الرابع من ملوك بني زيري الصنهاجيّين بالقيروان (٤٠٦-٤٥٣ هـ).

(٣) رعاياه مفعول به. يدا انصافه فاعل. الشوامخ: الجبال العالية. الوهاد: الأراضي المنخفضة.

(٤) مغدق: كثير. ليّن في معاملة قومه، شديد (صخرة) في الدفاع عنهم. (أو: هو كريم عليهم وصخرة صماء عنهم: لا يقبل فيهم ذمّا).

(٥) - أنت أفضل من جميع الناس، كما أنّ الياقوت أفضل الحجارة.

- ويروى له في وصف سحابة[1] :

راحتْ تذكّرُ بالنسيمِ الراحا   وطفاءُ تَكْسِرُ للجَنوبِ جَناحا[2].
مُرْتَجّةُ الأرجاءِ يَحْبِسُ سيرَها   ثِقَلٌ فتُعْطيه الرِياح سَراحا[3].
أخفى مسالِكَها الظلامُ فأوْقَدَتْ   من بَرْقِها - كي تَهْتدي - مِصْباحا.
فكأنّ صوتَ الرعدِ خَلْفَ سَحابِها   حادٍ، إذا وَنَتِ الركائبُ صاحا[4].

- وقال يَصِفُ مِرْوَحَةً من ريشٍ أو نَسيجٍ تُطْوَى وتُفتَحُ:

ومِرْوَحَةٍ إنْ تأمّلْتَها   ترى فَلَكاً دائراً في اليَدِ.
وتُطوى وتُنْشَرُ مِن حُسْنِها   فتُشْبِهُ قُنْزُعَةَ الهُدْهُدِ.

٤ - ** بغية الوعاة ٣٠٧؛ مجمل تاريخ الأدب التونسي ١٣١ - ١٣٤.

ابن الربيب القيرواني

١ - هو أبو عليٍّ الحسنُ[5] بنُ محمدِ بن الربيب[6] التميميُّ القيروانيُّ، أصلُه من تاهِرْتَ[7] ومولِدُه نحو سَنَةِ ٣٨٠ (٩٩٠ م)[8]. نشأ ابنُ الربيب في القيروانِ وطلبَ

(١) يروي نفح الطيب (١ : ٤٨٣) بيتين من هذه الأبيات لأبي عبد الله محمّد بن سليمان الحنّاط (وكان سليمان يبيع الحنطة في قرطبة) القرطبي الرعيني (بالتصغير) الأعمى الشاعر (ت ٤٣٧ هـ).

(٢) راحت (في الماء) تذكّرنا بطيب نسيمها الراح (الخمر). وطفاء: السحابة المتشعّبة (الكبيرة التي لها ذيول بارزة من أطرافها). الجنوب: ريح الجنوب. تكسر للجنوب جناحاً: تطيع الريح في دفعها. أو: تكسر جناح الريح (لا تستطيع الريح أن تحرّكها).

(٣) مرتجّة (متحرّكة بعنف) الأرجاء (الأطراف، الجوانب). يحبس سيرها ثقل: يمنعها ثقلها من أن تسير. فتعطيه الرياح (تتجمّع الرياح وتنفخ وراءها). السراح: التسرح (الاطلاق من القيد).

(٤) الحادي: الذي يسوق القافلة. ونى يني: تعب. الركائب (جمع ركوبة: الدابّة المخصّصة للركوب).

(٥) أو الحسين (راجع حاشية في نفح الطيب ٣ : ١٥٦، من مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري عن ابن رشيق).

(٦) كذا سمّاه حسن حسني عبد الوهّاب (مجمل تاريخ الأدب التونسي، ص ٢١٤) وابن رشيق وابن فضل الله العمري (نفح الطيب ٣ : ١٥٦، الحاشية الثانية). وسمّاه السيوطي (بغية الوعاة ٢٣٠) ابن الزبيب (بالزاي أخت الراء) نقلاً عن ياقوت الحموي. وكذلك سماه عادل نويهض (تاريخ أعلام الجزائر ٩٦).

(٧) يقول حسن حسني عبد الوهّاب (ص ١٢٤): «هو قيرواني صميم».

(٨) معجم أعلام الجزائر ٦٩. وقال حسن حسني عبد الوهّاب: كانت وفاته (سنة ٤٣٠ هـ) وقد جاوز الخمسين.

العلمَ فيها، وقد عُنِيَ به محمّدُ بنُ جعفرٍ القزّازُ القيروانيُّ (ت ٤١٢) عِنايةً صحيحةً فبلغ به نِهايةَ الأدب (التأديب: التعليم) ونهاية علمِ الخبرِ (التاريخ) والنسبِ (أنسابْ القبائل). وتولّى ابنُ الربيبِ القضاءَ في تاهرتَ حيناً فصار يُعرَفُ بالقاضي التاهرتّي أيضاً.

صَحِبَ ابنُ الربيبِ بني أبي العـرب فنال بهم وَجاهةً ومكانةً: سُئِلَ عبدُ الكريمِ النهشليُّ يوماً عن أشعرِ أهلِ بلدهِ فقال: أنا ثمّ ابنُ الربيب. وكانتْ وفاةُ ابن الربيبِ في القيروان، سَنَةَ ٤٣٠[1] (١٠٤٠ م).

٢ - كان ابنُ الربيبِ القيروانيُّ لُغويًا نَحْويًا وعارفًا بأنسابِ الناسِ حتّى اكتسبَ لَقَبَ «النسابةِ الإفريقيّ». وكان أيضاً أديباً ناثراً وشاعراً مُجيداً قَويَّ الكلام يقولُ في المدح والرثاء، وربّما تكلّفَ في النظم. ثمّ هُوَ مصنّفٌ له كتابٌ في النَسَب.

٣ - مختارات من آثاره

- كتب ابنُ الربيبِ التاهرتيُّ إلى أبي المُغيرة عبدِ الوهّابِ بن حزمٍ رسالةً يذكرُ له فيها فضلَ أهلِ الأندلس واتّساعَ الثقافةِ والحضارةِ في بلادِهم وهم مَعَ ذلك مُقصّرون في تخليدِ آثارِ عُلمائهم وفي تدوينِ فضائلِ بلادِهم. قال:

..... فكّرتُ في بلادِكم إذ كانت قرارةَ كلِّ فضلٍ ومنهَلَ[2] كلِّ خيرٍ ونُبْلٍ ومصدرَ كلّ طُرْفةٍ ومورِدَ كلّ تُحفة[3].... إنْ بارتْ تجارةٌ فإلَيْها تُجْلَبُ، وإن كَسَدَتْ بِضاعةٌ ففيها تَنفُقُ، مَعَ كَثرة عُلمائها ووَفْرة أدبائها وجَلالة ملوكها ومحبّتهم للعِلم وأهله...

ثمّ هُمْ مَعَ ذلك في غايةِ التقصير ونِهايةِ التفريط...

---

(١) في بغية الوعاة: سنة ٤٢٠ هـ. وفي معجم أعلام الجزائر: ٣٤٠-٤٢٠ هـ.

(٢) قرارة: مكان منخفض إذا حلّ به شيء بقي هناك. المنهل: مكان يشرب منه الناس الماء.

(٣) الطرفة: الشيء المستحدث (الجديد) العجيب. التحفة: الطرفة إذا كانت ثمينة (غالية الثمن) تستحقّ أن يتحف (بالبناء للمجهول) بها الناس (أن تهدى إليهم).

فعُلماؤكم مَعَ استظهارِهم على العلوم[١] كلُّ امرئ منهم قائمٌ في ظِلّه لا يبرَحُ، وراتبٌ[٢] على كَعْبه لا يتزحزَحُ. يخافُ إنْ صَنّفَ أن يُعَنَّفَ، وإن ألّفَ أن يُخالَفَ ولا يُوالَفَ. لم يُتْعِبْ أحدٌ منهم نَفْساً في جَمْعِ فضائلِ أهلِ بلدِه، ولم يستعملْ خاطرَهُ في مفاخرِ مُلوكه، ولا بلَّ قلَماً بمناقبِ كُتّابهِ ووُزرائِهِ، ولا سوّد قُرطاساً بمحاسِنِ قُضاتِهِ وعلمائه. على أنّه لو أطْلَقَ ما عَقَلَ[٣] الإغفالُ من لِسانه، وبَسَطَ ما قَبَضَ الإهمالُ من بَيانِهِ، لَوَجَدَ للقولِ مَساغاً[٤] ولم تَضِقْ عليه المسالكُ ولم تخرُجْ به المذاهبُ ولا اشْتَبَهتْ عليه المصادرُ والموارد[٥]. ولكنّ همَّ أحدِهِمْ أن يطلُبَ شأوَ[٦] من تَقَدّمَهُ من العُلماء ليَحوزَ قَصَباتِ السَّبْقِ بِقِدْحِ ابنِ مُقْبِلٍ بكظم دَغْفَلٍ، ويصيرَ شَجاً في حَلْقِ أبي العُمَيْثَل[٧]. فإذا أدركَ بُغْيَتَهُ واخْتَرَمَتْهُ[٨] مَنِيَّتُهُ دُفِنَ مَعَه أدبُه وعِلْمُه، وانقطعَ خَبَرُهُ... وعُلماء الأمصارِ احتالوا لِبقاءِ ذِكْرِهِمُ احتيالَ الأكياسِ[٩] فألّفوا دواوينَ بَقِيَ لهم بها ذِكْرٌ مُجَدَّدٌ طولَ الأبد. فإنْ قُلتَ: إنّه كان مثلُ ذلك من عُلمائنا فألّفوا كُتُباً لكنّها لم تَصِلْ إلَيْنا[١٠]. فهذه دَعْوَى لم يَصْحَبْها تحقيقٌ لأنّه ليس بَيْنَنا وبَيْنَكم

---

(١) استظهارهم: استيلاؤهم، ظفرهم.

(٢) راتب: ثابت في مكانه لا يتزحزح.

(٣) عقل: ربط.

(٤) المساغ: المجرى، الطريق.

(٥) اشتبه: غمض، خفيت. المصادر والموارد (سير الأمور: أوائلها وأواخرها، أسبابها ونتائجها).

(٦) الشأو: الأمدوالغاية (النقطة التي يحاول أن يصل إليها المتسابقون).

(٧) حار قصبات السبق: سبق غيره وتقدّم عليه (كان على السابق أن يصل إلى آخر الشوط ويتناول هنالك قصبة قبل أن يصل إليها غيره). ابن مقبل: شاعر كان في صدر الإسلام الأوّل. قدح ابن مقبل (النصيب الأكبر، الظفر التامّ) راجع ديوان ابن مقبل بتحقيق عزّة حسن (ص ١٩ - ٢٠ من المقدّمة). دغفل بن حنظلة (ت ٦٥ هـ) يضرب به المثل في معرفة الأنساب. بكظم دغفل (وبكظم دغفل!):... أبو العميثل هو عبد الله بن خليد (ت ٢٤٠ هـ) كان حاضر البديهة سريع الجواب مع الإصابة.

(٨) اخترمته منيّته (مات باكراً).

(٩) الأكياس جمع كيّس: عاقل.

(١٠) لم تصل إلينا (أي لم تصل من الأندلس إلى المغرب).

غيرُ رَوْحةِ راكبٍ أو رِحلةُ قاربٍ، لو نَفَثَ من بلدِكم مصدورٌ[١] لأسْمَعَ من بِبَلَدِنا في القبور، فَضْلاً عمّن في الدورِ والقصور.

- وقال من قصيدةٍ يمدحُ بها مُحمّدَ بنَ أبي العَرَبِ:

ولّما الْتَقى الجَمْعانِ واسْتَمْطَرَ الأسى مدامعَ مِنّا تُمْطِـرُ[٢] الدَّمْعَ والدَّما،
بـدا مأتَمٌ للبَيْنِ غَنّـى بـه الهوى بِشَجْوٍ، وَحنّ الشَّوْقُ فيه فأرْزَما[٣].
تَصَدَّتْ فأشْجَتْ، ثـمّ صَدّتْ فأسْلَمتْ ضمـيرَكَ للبَلْوى عقيلـةُ أسْلَما[٤].

- وقال يرثي المنصورَ بنَ محمّدِ بنِ أبي العربِ:

يـا قـبرُ، لا تُظْلِـمْ عليـه فطـالَمَا جَلّـى بغُـرّتِـه دُجـى الإظـلامِ[٥].
أعْجِـبْ بقـبرٍ قِيـدِ شِبْرٍ قـد حوى لَيْثاً وبَحْـرَ نَدًى وبَدْرَ تَمـامِ[٦]!

- ورثى جماعةً قُتلوا (في مَعْرَكَةٍ بعد أن قَتلوا من خُصومهم خمسين):

وهـوّنَ وَجْدي أنّهـم خمسةٌ مَضَـوْا وقـد أقْعَصوا خمسينَ قَرماً مُسَوَّما[٧].
وكـان عظـيماً لو نَجَوْا، غـيرَ أنّهم رأوْا حُسْنَ ما أبْقَوْا من الذِّكْرِ أعْظما.

٤ - ** الأنموذج ٦٩ - ٧٢؛ الذخيرة ١: ١٣٣ - ١٣٦؛ إنباه الرواة ١: ٣١٨ - ٣١٩؛ بغية الوعاة ٢٣٠؛ نفح الطيب ٢: ٣٠١ - ٣٠٢، ٣: ١٥٦؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٩٠١؛ مجمل تاريخ الأدب التونسي ١٢٤ - ١٢٧؛ معجم أعلام الجزائر ٦٩.

---

(١) المصدور: المصاب بالسلّ (ويكون نفثه: تفله، بصاقه ضعيفاً).

(٢) في إنباه الرواة: (١: ٩): مدامع ما تمطو به الدمع والدما!

(٣) المأتم: اجتماع النساء (لمناسبة الموت). البين: الفراق، البعاد (كان النساء يبكين لفراقي كأنّهنّ كنّ في مأتم). غنّى به الهوى (التي بكت كانت تحبّني فكان بكاؤها بدافع حبها لي لا بدافع حزنها عليّ). أرزم: صوّت، رفع الصوت عالياً..

(٤) تصدّت: تعرضت (ظهرت أمامي، رأيتها). أشجى: حزن وأحزن. صدّت: أعرضت (لم توافقني على طلب لي). عقيلة (امرأة كريمة من بني) أسلم.

(٥) جلّى: كشف. الغرّة: الشعر في مقدّم الرأس (هنا): الجبهة، الوجه. والغرّة توصف بالبياض.

(٦) أعجب (صيغة للتعجّب): ما أعجب! قبر قيد (بمقدار) شبر: ضيّق.

(٧) قعصه: طعنه بالرمح طعناً متوالياً (قتله). القرم: السيّد. المسوّم: الذي له علامة (دلالة على شرفه ومكانته في قومه).

أبو الفتوح الجرجانيّ

هو أبو الفُتوحِ ثابتُ بنُ محمّدٍ الجُرْجانيُّ الإستراباذي العَدَويّ الأندَلُسي النَحْويّ، أصلُه من جُرجانَ؛ وكانَ مولدُه سَنَةَ ٣٥٠ هـ (٩٦١ م).

تَلقَّى أبو الفتوحِ الجرجانيُّ علم اللغة والنحوَ في بَغْدادَ: روى عن عُثمانَ بن جِنّي (ت ٣٩٢ هـ) وعليِّ بنِ عيسى الرَبَعِيِّ (ت ٤٢٠ هـ) وعن عبدِ السلام بن الحسن البَصْري قرأ عليهِ ديوانَ الحَماسة لأبي تَمّامٍ سنة ٣٧٨ هـ. أما أكثرُ روايتِهِ فكان عن ابنِ السيرافيِّ قرأ عليه كتابَ الجَمْهرةِ لابن دُريدٍ وديوانَ المتنبّي وغيرَ ذلك.

ودخلَ الجُرجانيُّ إلى الأندَلُسِ سنة ٤٠٦ هـ (١٠١٥ - ١٠١٦ م)، ويبدو أنه لم يَتَّصِلْ بأحدٍ من أُمَرائها قبلَ اتّصاله بمُجاهِدٍ العامريّ صاحبِ دانِيَةَ (٤٠٨ - ٤٣٢ هـ)؛ وكانَ مُجاهِدٌ سائراً إلى غَزْوِ جزيرةِ سَردانِيَةَ فاصطحبه. ثمّ اتّصل بيحيى بنِ عليّ بن حَمّودٍ صاحبِ ما لَقَةَ (٤١٢ - ٤٢٧ هـ). فألْزَمَ يحيى بنُ حمّودٍ ابنَه (الحَسَنَ) صُحْبَةَ الجُرجانيّ لأنّه كان يُعِدّ ابنَه هذا للحُكْمِ من بَعْدِه. ثمّ تغيّر قلبُ يحيى على الجُرجانيّ فذهب الجرجاني إلى بني زِيري في غَرْناطةَ.

تصَدّرَ الجرجانيُّ، في أثناءِ تَطْوافهِ الكثيرِ في الأندَلُس، للتدريس فأملى شَرْح كتاب الجُمَلِ للزّجّاجيّ وشرْحَ ابنِ السيرافيّ لأبياتِ إصلاحِ المَنْطِق لابن السِكّيت.

في سَنَة ٤٣٠ هـ جاء إلى حُكْم غَرْناطةَ باديسُ بنُ حبّوسٍ، فتآمرَ عليه ابنُ عَمّه يِدِّيرُ بنُ حُباسةَ. ويبدو أن الجرجاني ناصَرَ يِدّيرَ. فلمّا انْكَشَفَتِ المؤامرةُ هَرَبَ الجُرجاني إلى إشبيليةَ فقَبَضَ باديسُ على زوجةِ الجُرجاني وابنهِ وحَبَسهما في المُنَكَّبِ (حُصْنِ المُنَكَّبِ على الساحل، جَنوبَ غَرْناطة). فَرَجَعَ الجُرجانيُّ إلى غَرناطةَ ليستعطف باديسَ فلم يَعْطِفْ عليه باديسُ وقتله في ٢٨ من المُحَرَّم من سَنَةَ ٤٣١ (١٠٣٩/١٠/٢٠ م).

كان أبو الفتوحِ ثابتٌ الجُرجانيُّ إماماً في غَريب اللغة وفي علم العَربية (النحو) غزيرَ الأدبِ كثيرَ الحِفْظ لأشعارِ الجاهليين والإسلاميّين، عارفاً بعِلْم المنطق مُشاركاً في علومِ التعاليمِ (الرياضيّات والطبيعيّات) والنجوم وفي الأدب والحِكْمة. وكان أيضاً مُؤلِّفاً له: شَرْحُ ديوانِ الحَماسةِ لأبي تَمّام - شرحُ كتاب الجُمَل للزّجاجي.

٤ - ** جذوة المقتبس ١٧٣ - ١٧٤ (الدار المصرية) ١٨٤ - ١٨٥ (رقم ٣٤٤)؛ بغية الملتمس ٢٣٦ - ٢٣٧ (رقم ٦٠٢)؛ معجم الأدباء ٧ : ١٤٥ - ١٤٨ ؛ كتاب الصلة ١٢٥ ؛ الذخيرة ٤ : ١٢٤ - ١٢٦ ؛ الإحاطة ٤٦٢ - ٤٦٦ ؛ بغية الوعاة ٢١٠ ؛ إنباه الرواة ١ : ٢٦٣ - ٢٦٤ ؛ بروكلمن، الملحق ١ : ٤٠ (السطر ٢٢).

آل عبّاد

آلُ عبّادٍ يمانِيَةٌ (من عرب الجَنوب) من بني لَخْمٍ ، قيل إنّهم ينتسبون إلى اللخميّين آل المُنذرِ بنِ ماء السماء ملوكِ الحِيرة. وكانت مساكِنُهم في الإسلامِ في العريش (بين الشام ومصر). وكان أقدم من جاء منهم إلى الأندلس نُعيمٌ وابنُه عِطافٌ (بكسر العين وطاء مهملة بلا تشديد) - جاءا مَعَ بَلْج بن بِشْرِ القُشيريّ الذي أرسله هِشامُ بنُ عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ) في جيشٍ من أهلِ الشام نَجْدةً للعرب لمّا ثار مَيْسَرةُ الخارجي في جماعاتٍ من بني مَضْغَرَةَ البربر. ثم إن بَلْجاً دخل بِمَنْ مَعَهُ مِنْ أهلِ الشام إلى الأندلس - في حديثٍ طويل - في أواخر سَنَةِ ١٢٣ (٧٤١ م).

وفي الأندلسِ نَزَلَ نُعيمٌ وابنه عِطافٌ في إقليم طُشّانَةَ قُربَ إشبيليةَ حيث أنشأا أُسْرتَها الجديدة. وكان أوّلَ مَنْ نَبَغَ في هذه الأُسرة أبو القاسمِ محمدُ بنُ إسماعيلَ (ت ٤٣٣ هـ) ثم ابنهُ أبو عَمْرٍو عَبادٌ (ت ٤٦١ هـ) ثم حفيدُه أبو القاسم مُحمدٌ (المعتمدُ بن عباد المُتوفَّى ٤٨٨ هـ). وكان للمعتمدِ عددٌ من الأولاد منهم عُبيدُ الله ويَزيدُ ويحيى وحَكَمٌ وبُثينةُ. وجميعُ بني عبادِ المذكورين هنا قد قالوا الشعر، وأشعرُ آلِ عبادِ المعتمدُ، وأشعرُ أولادِ المعتمدِ يَزيدُ وبُثينةُ.

أبو القاسم بن عبّاد

١ - هو القاضي أبو القاسمِ محمّدُ بنُ إسماعيلَ ذي الوزارتين بنِ محمّدِ بنِ اسماعيلَ ابنِ قريشِ بنِ عَبّادٍ من بني لَخْمٍ ، قيل من نسلِ النُعمانِ بن المُنْذِرِ مَلِكِ الحِيرة. كان في أوّلِ أمرِهِ قاضياً على إشبيلية في دولة بني حَمّودٍ أصحابِ مالَقَةَ في أيامِ القاسم بن حمّودٍ (٤٠٨ - ٤١٦ هـ). فلمّا وَقَعَ النزاع بين القاسم بن حمودٍ وابنِ أخيه يحيى بنِ علّي بن حمّودٍ وتعاقبا على العرشِ مرّتينِ مرّتينِ، انتزعَ أبو القاسمِ بنُ

عبّادٍ إشبيليةَ وأسّسَ فيها مملكةً، واحتفظَ مُدّةً بلقبِ «حاجبٍ» (وزير، رئيسِ وزارةٍ) ثمّ اتّخذَ لَقَبَ «الظافرِ». وكانتْ وفاةُ أبي القاسم (محمّدِ بنِ اسماعيلَ) بنِ عبّادٍ في التاسع والعِشرين من جُمادى الأولى من سَنَةِ ٤٣٣ (١٠٤٢/١/٢٤ م).

٢ – كان أبو القاسمِ بنُ عبّادٍ عاقلاً كريماً وأديباً ناثراً مترسّلاً وناظماً على شيء من البراعة في الوَصْفِ والفَخْرِ.

٣ – مختارات من شعره

– قال أبو القاسمِ بنُ عبّادٍ يُشَبِّهُ شَجَرَةَ الياسَمين بِمِطْرَفٍ (ثوبٍ من حريرٍ) أخضرَ كأنَّ أزهارها عليها دراهمُ من فِضّة:

وياسَمينٍ حَسَنِ المنظرِ ... يفوقُ في المرأى وفي المَخْبَرِ.[1]
كأنّه من فوق أغصانهِ ... دراهمٌ في مِطْرَفٍ أخْضَرِ.[2]

– وقال يفتخرُ ويُمنّي نفسَه باتّساع مُلْكِهِ:

ولا بدّ من يومٍ أسودُ على الورى ... ولو رُدّ عَمْروٌ للزمانِ وعامِرُ.[3]
فما المجدُ إلاّ في ضُلوعي كامنٌ، ... ولا الجودُ إلاّ من يَميني ثائر.
فجيشُ العُلا ما بينَ جَنْبَيَّ جائلٌ ... وبحرُ النَّدى ما بينَ كَفَّيَّ زاخرُ.

٤ – * * الصلة ٤٩٥ – ٤٩٦؛ الذخيرة ٢: ١٢ – ٢٣؛ جذوة المقتبس ٧٥ (رقم ١٢٦)؛ بغية الملتمس ١٠٧ – ١٠٨ (رقم ٢٤٧)؛ الحلّة السيراء ٢: ٣٦ – ٣٩؛ البيان المغرب ٣: ٢٧٣ وما بعد؛ وفيات الأعيان (في ترجمة المعتمد) ٥: ٢٢ وما بعد؛ فوات الوفيات ١: ٢٥٤؛ الوافي بالوفيات ٢:٢١٢ – ٢١٤؛ شذرات الذهب ٣: ٢٥٢ – ٢٥٣؛ نفح الطيب ٤: ٢٢٦ – ٢٢٨؛ نيكل ١٢٧؛ مختارات نيكل ٧٤ – ٧٥؛ الأعلام للزركلي ٦: ٢٦٠ – ٢٦١ (٣٥ – ٣٦).

---

(١) في المرأى والمخبر (المنظر والرائحة).
(٢) ... دراهم (بيض) في مطرف (ثوب حرير).
(٣) عمرو (عمرو بن عامر) ماء السماء أعظم ملوك اليمن. وملك آخر من الغساسنة. وعامر (ذو رياش) أيضاً من ملوك اليمن. سأملك الأرض ولو رجع هذان الملكان (وأمثالها) إلى الحياة (سأخضعهما أيضاً).

ابن الأبّار الخولاني الشاعر

١ - هو أبو جعفرٍ أحمدُ بنُ محمّدِ الخَوْلاني الأندلسيّ الإشبيليّ من أهلِ إشبيليةَ، وُلدَ فيها، ومن شُعراءِ القاضي أبي القاسم بن عبّادٍ كانتْ وفاتُه في إشبيلية سَنَةَ ٤٣٣ هـ (١٠٤٢ م).

٢ - ابنُ الأبار الخَوْلانيُّ شاعرٌ مُجيدٌ حَسَنُ الصِناعة له قصائدُ ومقطّعاتٌ ويَظهرُ على شِعرِهِ شيءٌ من نَفَس المتنبّي. وكانت له تصانيفُ وفنونُه الوصفُ والغزل معَ شيءٍ من المُجون، وله مديح.

٣ - مختارات من شعره

- قال ابنُ الأبّار الخَوْلانيُّ يمدح المُعتضِدَ[١] بنَ عبّادٍ (المغرب ١ : ٢٥٣):

مَلِكٌ إذا الهَبَواتُ أظلَمَ جُنْحُها ... جعلَ الحُسامَ الى الحِمامِ دليلاً[٢]
إنْ كانتِ الأُسْدُ الضواري لم تَخَفْ ... من بأسِه فَلِمَ اتّخَذْنَ الغِيلا؟[٣]
أو كانتِ البِيضُ الصوارمُ لم تَهِمْ ... في حُبّه فَلِمَ اكْتَسَيْنَ نُحولا؟

- وقالَ في النسيب، مع شيءٍ من المُجون وشيءٍ من العِفّة:

خافَ العُيونَ فوافاني على عجلٍ ... مُعَطَّلاً جيدَه إلاّ من الجَيَدِ[٤]
عاطَيْتُه الكأسَ فاستَحْيَتْ مُدامتُها ... من ذلك الشَنَبِ المعسولِ والبَرَدِ[٥]
حتّى إذا غازلتْ أجفانَه سِنَةٌ ... وصَيّرتْه يدُ الصَهباءِ طوعَ يدي[٦]

---

(١) كذا في «المغرب». ولعلّه يقصد القاضي محمّد بن اسماعيل بن عبّاد.

(٢) الهبوة: الغبرة (الثائرة في المعركة). الجنح (بكسر الجيم وضمّها): الجانب (القسم) من الليل. الحِمام (بالكسر): الموت.

(٣) الغيل (مفرد) مكان فيه شجر كثير ملتفّ (كثيف) تأوي إليه الأسود أحياناً.

(٤) الجيد: العنق. عطّل جيده (لم يزينه بالحلى). الجيد (بفتح ففتح): طول العنق (وهو من شارات الجمال).

(٥) عاطيته الكأس: شربت معه الخمر. الشنب: جمال الأسنان وصفاء لونها. البرد (الحبّات المتبلورة في أثناء سقوط المطر عند البرد الشديد (كناية عن استواء شكل الأسنان). لون الخمر الجميل (الصافي) استحيا من لون أسنانه وصفائها.

(٦) السنة (بكسر السين): النعاس. غازلت أجفانه سنة (بدا النعاس يستولي عليه). الصهباء: الخمر.

أردتُ تَوْسِيـدَه خـدّي وقـلّ لـه؛ فقـال: كَفُّكَ عِنـدي أفضلُ الوُسُد[1]!
فبـات فـي حَرَمٍ لا غـدْرَ يذعـره، وبِتُّ ظمآن لم أصدُرْ ولم أرِدِ[2].
بـدرٌ ألَـمَّ وبـدرُ التِـمِّ مُمْتَحِـق والأُفـقُ مُحْلَوْلكُ الأرجاءِ من حسد[3].
تَحيَّـرَ البـدرُ منـه أيـنَ مطلَعُه، أما دَرى الليلُ أن البدرَ في عَضُدي[4]؟

٤ - ★★ جذوة المقتبس ١٠٧ (الدار المصرية) ١١٥ (رقم ١٩٠)؛ بغية الملتمس ١٥٢ - ١٥٣ (رقم ٣٥٢) المطمح ١٠ - ١١؛ الذخيرة ٢: ١٠٦ - ١١٢، ١٥٣ - ١٥٨؛ ٢٠٣، ٢٠٧ - ٢٠٩، ٣٩٦ - ٣٩٧؛ وفيات الأعيان ١: ١٤١ - ١٤٢؛ الوافي بالوفيات ٨: ١٣٧؛ المغرب ١: ٢٥٣؛ نفح الطيب ٣: ٤٧٧ - ٤٧٨؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٦٧١ - ٦٧٢؛ الأعلام للزركلي ١: ٢٠٦ (٢١٣)؛ نيكل ٢١٠.

أبو الحزم جهور

١ - هُوَ أبو الحَزْمِ جَهْوَرُ بنُ محمّدِ بنِ جَهورِ بن عُبيدِ الله بن محمّدِ بن أبي الغَمْر بن يحيى كان جَدّه الأعلى فارسياً مولًى لعبدِ الملكِ بن مروانَ. ثمّ إنّ جدًّا له - يسمّونه يوسفَ بنَ بُخْتَ - دَخَل الأندلس قبل مجيء عبد الرحمن الداخل.

وُلِدَ أبو الحَزْم جَهْورٌ في أول المحرّم سنة ٣٦٤ (٩٧٤/٩/٢١ م) في قرطبة، في أسرة وَجيهةٍ غنيةٍ. وقد رَوى عن أبي بكرِ عباسِ بنِ أصبغَ الهَمْدانيِّ وأبي محمّدٍ الأصيليّ والقاضي أبي عبد الله بن مُفَرِّجٍ وسواهم.

كان أبو الحزم جَهْورٌ مشهوراً بالتقوى والفضل والعقل ومِنْ ذوي المكانةِ مَسموعَ الكَلِمَةِ. وكانَ من وزراء الدولة العامرية، فلمّا حَدَثَتِ الفِتنةُ على هشامٍ الثالثِ المعتَدِّ وثارتِ العامّةُ وَخُلِعَ هشامٌ، في ١٢ من ذي الحِجّة من سنة ٤٢٢ (١٠٣١/١٢/٢ م) اجتمعَ الوزراء وطلبوا منه تَهْدئَةَ الناسِ فهتف بهم فهَدَأوا. وطلب الناس إخراج

---

(١) التوسيد: وضع الرأس (للنوم) على وسادة (مخدّة). الوسد (بضمّ فسكون أو بضمّ فضمّ) جمع وسادة.
(٢) ... يعني الشاعر أنّه عفّ عن محبوبه الذي كان نائماً على ذراعه. ورد: ذهب إلى الماء (شرب)... صدر: رجع عن الماء.
(٣) بدر (غلام جميل، محبوب) ألمّ (زار زيارة قصيرة) وبدر التم (قمر السماء) ممتحق (في آخر الشهر). محلولك: مظلم.
(٤) العضد: ما بين المرفق الكتف.

بني أميّة (أمراء البيت المالك) من قُرْطُبَةَ فأخرجهم أبو الحزم جَهْوَرٌ ومَعَهُمْ هشامٌ نفسُه من غيرِ أن يَحْدُثَ شَغَبٌ.

بعدئذ أجْمَعَ الناسُ على أن يَتَوّلى أبو الحزم جهورٌ أمرَ قرطبةَ.

وكانت وفاةُ أبي الحزمِ جَهْوَرٍ في السادسِ من المُحَرَّمِ مِن سَنَةِ ٤٣٥ (الذخيرة ١ : ٦٠٤) الواقع فيه ١٥/٨/١٠٤٣ م.

٢ - كان في أبي الحزمِ بن جهورٍ مزايا نادرةٌ. كان يُصرِّفُ الأمورَ بحِكمةٍ وعَدْلٍ وتجرُّد، فما كان يقضي في مسألة إلاّ إذا استشار أهلَ الحلِّ والعَقْد. ولم يَتَسَمّ بلقبٍ فوق لقبِ «وزير» وهُوَ اللقب الذي كان له قبلَ أن يتولى أمورَ قُرطُبةَ. وقد حَرّمَ الخمرَ وأمر بكَسْر أوانيها في قرطبة. ثمّ إنّه ساعدَ على هدوء الفِتنة التي كانتْ ثائرةً في أعقاب الخِلافة المروانية في الأندلس، فما كان زعيمانِ في صِقع من أصقاع الأندلسِ يتنازعانِ على حكمِ بلدٍ أو في أمرٍ عامٍّ إلاّ سعى إلى الإصلاح بَيْنَهما. ولم تُغَيِّرْهُ الدنيا ولا الثروةُ، ولا غَرّتْه الدولة والمكانة حتّى إنّه ظلّ يُؤذِّنُ بنفسهِ على بابِ مسجدهِ كما كان يفعل من قبلُ.

وكذلك كان أبو الحزمِ جهورٌ فقيهاً من الشيوخ الأكابر وأديباً مُترسِّلاً وشاعراً ليس من الطبقة الأولى. وشِعْرُه يدور على الوصفِ والحِكمة والزُهد في الأكثر. وكانتْ بينَه وبينَ أبي عامرِ بنِ شُهيدٍ (ت٤٢٦ هـ) مكاتباتٌ.

٣ - مختارات من شعره

- قال أبو الحزم جَهْوَرٌ في العِتاب (الحلّة السيراء ١ : ٢٤٨ - ٢٤٩):

أسأتَ - لَعَمْري - إذ أسأتَ بيَ الظنّــا	وألْزَمْتَني ذنباً شَغَلتَ به الذّهنا.
تَجَنَّيــتَ في عَــذْلي كأنّيَ مُذنــبٌ	رُوَيْدَكَ، إن العَذْلَ قد يُوجِبُ الشَّحْنا[١].
فـلا تَتَجنَّ الذنـبَ من غـيرِ عِلّةٍ،	فرُبَّ تجَنٍّ يُورِثُ الحِقدَ والضِّغْنا[٢].
وإنّي امْرُؤٌ مَحْــضُ المودّةِ مُخلـصٌ	أُصافي خليـلي بالـذي هو بي أسنـى.

---

(١) تجنّى فلان عليك ذنباً: نسب إليك الذنب ظلماً. العذل: اللوم. الشحناء: الحقد والعداوة.

(٢) الضغن: الحقد الشديد.

وإنْ زَلَّ يوماً في وِدادي أَقَلْتُه وقارَضْتُه في ذاك بالصُحْبة الحَسْنا[1].
وهل لي - فَدَتْكَ النفسُ - دونَك راحةٌ وأنتَ شقيقُ النفسِ والأقربُ الأدنى؟
فَثِقْ بي ولا تعجَلْ عليّ فإنّني أَدينُ بما تَرْضى وأُعنى بما تُعْني[2]
ولا ذنب لي - فيما علمتُ - ولم أكُنْ لأُصْغي إلى الواشين في قِيلِهِمْ أُذْنا.

- وقال في الزُّهْد:

قلتُ يوماً لدارِ قومٍ تفانَوْا: أيْنَ سُكّانُكِ العِزازُ علَيْنا؟
فأجابتْ: هنا أقاموا قليلاً ثمّ ساروا، ولستُ أعلَمُ أيْنا!

- وله في العتاب والتقريع:

يا عاتباً لِيَ بالصُدو دِ، ألا ذكرتَ قبيحَ غَدْرِكْ؟
أخْلَيْتَ من قلبي مكا ناً كان معموراً بذكرك.
وأنا أُحِبّك - لو وَثِقْـ ـت - وأستديمُ بقاءَ عُمْرِكْ.

٤-★★ جذوة المقتبس ٢٦ ثم ١٧٧ (الدار المصرية) ٢٧ ثم ١٨٨ - ١٨٩ (رقم ٣٦٠) بغية الملتمس ٢٤٤ (رقم ٦٢٥)؛ المطمح ١٤ - ١٥؛ الصلة ١٣٠؛ المغرب ١: ٥٦؛ البيان المغرب ٣: ١٨٥ - ١٨٨؛ الحلة السيراء ٢: ٣٠ - ٣٤؛ نفح الطيب ١: ٣٠٢ - ٣٠٤، ٥٢٥؛ الأعلام للزركلي ٢: ١٣٩؛ (٢: ١٤١). راجع فهارس الذخيرة (مثلاً ٢: ٥٣، ١٠٠، ٣: ٤٢، ٥١٢، ٥١٣، ٥٢٣، ٥٢٧).

تمّام بن غالب بن التيّانيّ

هو أبو غالبٍ تمّامُ بنُ غالبِ بنِ عُمَرَ المعروفُ بابنِ التّيّانِ أو ابن التياني (نسبةً إلى التين وبيعِهِ في الأغلب)، المُرسيّ القُرطبيّ الأندلسيّ، كان من أهل مُرْسِيَةَ. وقد كان إماماً في اللغة ثِقةً وأديباً بارعاً أميناً نزيهاً. وكان يَرْوي شعرَ أبي تمّامٍ حبيبٍ (الطائي) فيأخذُه الناسُ عنه (نفح الطيب ٣: ١٣٥). وعَرَفْنا له كتابين في اللغة: «تلقيح العين» وقد أجمعَ رواةُ الأدب على مدحه لأنّه كتاب جامعٌ وموجز في وقتٍ

---

(١) أقلته (عفوت عن ذنبه). قارضتّه: بادلته. الحسنا: الحسناء.
(٢) أعنى: اهتمّ.

واحدٍ، ثم كتاب « الموعب ». وكانتْ وَفاةُ تَمّامِ بن غالبٍ في المَرِيّة، في أحَدِ الجَمادين من سَنَةِ ٤٣٦ (أواخر ١٠٤٥ م).

- ★★ جذوة المقتبس ١٧٢ (الدار المصرية) ١٨٣ (رقم ٣٤٢)؛ بغية الملتمس ٣٢٦ (رقم ٦٠٠)؛ الصلة ١٢٢ - ١٢٣؛ المغرب ١: ١٦٦؛ إنباه الرواة ١: ٢٥٩ - ٢٦٠؛ وفيات الأعيان ١: ٣٠٠ - ٣٠١؛ فهرست ابن خير ٣٥٩ - ٣٦٠؛ معجم الأدباء ٧: ١٣٥ - ١٣٨؛ بغية الوعاة ٢٠٩؛ نفح الطيب ٣: ١٣٥، ١٧١ - ١٧٢، ١٩٠؛ شذرات الذهب ٣: ٢٥٦؛ الأعلام للزركلي ٢: ٧٠ (٨٦ - ٨٧)؛ معجم المؤلفين ٣: ٩٢ - ٩٣.

مكّي بن أبي طالب

١ - هو أبو محمّدٍ مكّيٌّ بنُ أبي طالبٍ محمّدِ (أو حموش بتشديد الميم في الأغلب: تصغير محمّدٍ) بنِ محمّدِ بنِ مُختارٍ القيسيُّ المُقرىء. وُلِدَ في القَيْروانِ في ٢٢ من شَعبانَ ٣٥٤ في الأغلب (٩٦٥/٨/٢٢ م) ونشأ فيها. وقد تردّدَ مكّيٌّ بنُ أبي طالبٍ بين القيروانِ ومِصْرَ ومكّةَ مراراً - بينَ سَنَةِ ٣٦٧ وسَنَةِ ٣٩٢ هـ (٩٧٧ - ١٠٠١ م). في هذه الأثناء تلقّى كثيراً من العِلم.

ففي القيروان سَمِعَ من أبي محمّدٍ عبدِ الله بن أبي زيدٍ القيرواني(٣١٠ - ٣٨٦هـ)(؟) وأبي الحسنِ عليِّ بنِ محمّدٍ القابسيّ (٤٠٣ هـ) وغيرِهما. وفي مِصْرَ قرأ القرآنَ على المُقرىء أبي الطيّب عبدِ المنعم بن غَلبونِ الحلبيّ (ت ٣٨٩ هـ) وعلى ابنهِ طاهرٍ (ت ٣٩٩ هـ). ثمّ أكملَ استظهارَ القرآن الكريم في مِصْرَ، بعد دراسةِ أشياءَ من الحسابِ وغيرِه من العلوم والآداب، سَنَةَ ٣٧٤هـ. أمّا في مكّةَ فقرأ على نفرٍ منهم: أحمدُ بن فِراسٍ العَبْقَسيّ ومحمّدِ بنِ محمّدِ بنِ جبريلَ العُجيفيّ وأبو الحسن بن زُرَيقٍ البَغداديّ ومحمّدِ بنِ إبراهيمَ المَرْوَزِيّ.

وفي سَنَةِ ٣٩٢ هـ (١٠٠٢ م) عاد نهائياً إلى القيروان. وفي رَجَبَ من السَنة التالية انتقل إلى قُرطبةَ. وفي قُرطبةَ أقرأ القرآنَ في مسجدِ النُّخيلة في الرقاقين (أو الزقاقين أو الرواقين!) عند باب العَطّارين. ثمّ نقلَهُ المظفّرُ عبدُ الملك بن أبي عامر الحاجبُ (٣٩٢ - ٣٩٩ هـ) إلى جامعِ الزاهرة (راجع، فوق، ص ١٧٨)فأقرأ فيه إلى

أنِ انصرمتْ دولةُ العامريّين (٣٩٩ هـ = ١٠٠٩ م). في تلكَ السنة نقله الخليفة محمّدٌ المهديُّ بن هِشام إلى المسجدِ الجامع بقرطبةَ فأقرأ فيه مدّة الفِتنة كلّها (٣٩٩ - ٤٢٢ هـ).

وكانتِ الصلاةُ والخُطبة في جامع قرطبةَ للقاضي أبي الوليدِ يونسَ بنِ عبدِ الله المعروفِ بابنِ الصفّار (ت ٤٢٩ هـ). وكانَ يُونُسُ بن عبد الله كثيراً ما يستخلفُ مكّيَّ ابن حموشٍ على الخُطبة والصلاةِ مكانَه. فلمّا تُوُفِّيَ يونسُ أقام أبو الحزمِ جَهْوَرٌ المستبدُّ بأمرِ قُرطبةَ (٤٢٢ - ٤٣٥ هـ) مكّيَّ بن حموشٍ إماماً رتيباً في جامع قرطبة.

وكانت وفاةُ مكّيٍّ بنِ أبي طالبِ حموشٍ في قرطبةَ في ثاني المُحرّمِ من سَنَةِ ٤٣٧ (١٠٤٥/٧/٢٠ م).

٢ - كان مكّيُّ بنُ أبي طالبٍ إماماً عالماً بوجوه القِراءات متبحّراً في علوم القرآن، كما كان فقيهاً وأديباً شاعراً، ولكنّه كان ضعيفاً في الخَطابة ربّما تلجْلَجَ على المِنْبر. وكذلك كان مفكّراً ينكر الخُرافاتِ ويكرَهُ الصوفية من أجلِ اختراعِهم كثيراً من الخُرافات والمُحالات. ومَعَ أنّ شِعره من طَبَقةِ شعرِ العلماء، فقد كان واضحاً سَهْلاً وعلى شيء من الطَلاوة. وهُوَ مؤلّفٌ مُكْثِرٌ قيل إنّ له خمسةً وثمانين مُصَنّفاً مبسوطة في أجزاء كثيرة خمسةٍ فعشْرةٍ فعِشرين إلى سبعين جزءاً. من هذه:

تفسيرُ القرآن - الهِداية إلى بلوغ النهاية في معاني القرآن وتفسيره وأنواع علومه (سبعون جزءاً) - مشكل معاني القرآن - مشكل غريب القرآن - المأثور عن مالك في أحكام القرآن وتفسيره - الإيجاز في ناسخ القرآن ومنسوخه - الإيضاح في الناسخ والمنسوخ - انتخاب كتاب الجرجاني[1] في نظم القرآن وإصلاح غلطه (غلط

---

(١) الجرجاني المذكور هنا يجب أن يكون القاضي عليّ بن عبد العزيز (ت ٣٩٢ هـ) أو حمزة بن يوسف (ت نحو ٤٢٧ هـ) أو عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت ٤٧١ هـ). ولم أعثر فيما بين يديّ من المراجع على كتاب لأحدهم عنوانه «نظم القرآن». غير أنّ لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي (٢٣٥ - ٣٢٢ هـ) كتاب «نظم القرآن» (الفهرست ١٣٨، السطر ٢١؛ معجم الأدباء ٣: ٦٧، السطر ٣؛ بروكلمن، الملحق ١ : ٤٠٨، السطر ٥ من أسفل). وفي الفهرست عن البلخي: «كان فاضلاً في العلوم القديمة والحديثة، تلا (تبع) في تصنيفاته وتأليفاته طريقة الفلاسفة، إلاّ أنه بأهل الأدب أشبه وإليهم أقرب».

الجرجاني) - الاختلاف في عدد الأعشار[1] - كتاب تسمية (قسمة) الأحزاب[2] - بيان إعجاز القرآن - إعراب القرآن[3] - الإبانة عن معاني القرآن - الرِعاية في تجويد القرآن وتحقيق لفظ التِلاوة - المُوجَز في القراءات - اختصار (★) أحكام[4] القرآن - التبصرة[5] في القراءات - كتاب الإمالة[6] شرح الإدغام الكبير في المخارج - اختصار الإدغام الكبير على ألف، با، تا، ثا - كتاب الحروف المُدغمة (فرش الحروف المُدغمة) - شرح الوقف التام - الوقف على كلاّ وبَلى ونَعَمْ في القرآن[7] - منع الوقف على «إنْ أَرَدْنا إلاّ الحُسنى»[8] ★ - التذكرة في اختلاف القرّاء - البيان عن وجوه القراءات السَّبْع (ألّفه ٤٢٤ هـ) - الكشوف عن وجوه القراءات وعللها - اتّفاق القُرّاء - التنبيه على

---

(١) العشر عشر آيات من القرآن تامّة المعنى تقرأ عادة في المناسبات.

(٢) الحزب ربع الجزء من القرآن الكريم. والقرآن كلّه ثلاثون جزءاً.

(٣) ورد له: مشكل إعراب القرآن - إعراب مشكلات القرآن - إعراب مشكلات القرآن وذكر علله وسببه ونادره.

(٤) الأحكام هنا تفهم على وجهين: أحكام (قواعد) أداء الألفاظ في التلاوة (وهو أليق بالموضوع) ثمّ الأحكام التي هي القواعد في المعاملات كالبيع والشراء والقصاص. وورد له «اختصار أحكام القرآن».

(٥) كان مكّيّ بن أبي طالب قد ألّف «الموجز في القراءات» أو في القراءة سنة ٣٨٥ هـ، ثمّ جاء بكتاب التبصرة توسيعاً لكتاب الموجز فألّفها من أربع عشرة رواية من القراءات السبع المشهورة، وخصوصاً من قراءة ابن غلبون.

(٦) الإمالة لفظ الألف بين الفتح والكسر.

(٧) لعلّ مكّيّ بن أبي طالب بدأ بهذا الكتاب ثمّ لم يتمّه فإنّ له كتاباً في الوقف على «كلاّ وبلى» فقط. ولعلّ هذا الكتاب يرد في المصادر المختلفة بعناوين مختلفة، فعندنا مثلاً: رسالة في حكم كلاّ وبلى ونعم والوقف عليها والابتداء - شرح كلاّ وبلى ونعم والوقف على كلّ واحدة منهنّ وذكر معانيها وعللها.

(٨) هذه الألفاظ مأخوذة من آية تتعلّق بمسجد الضرار، وذلك أن نفراً من المنافقين بنوا بجانب مسجد قباء (عند مدخل المدينة من الجنوب) مسجداً يريدون به أن يكون لجماعة تنافس أصحاب رسول الله ثمّ ادّعوا (بفتح العين) أنّهم يريدون فقط أن يبنوا مسجداً ثانياً. وقد نزل في شجب عملهم هذا عدد من الآيات منها الآية التالية: (٩: ١٠٧، سورة التوبة): والذين اتّخذوا مسجداً ضراراً (بكسر الضاد) وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل. وليحلفنّ (بضمّ الفاء) إن أردنا إلاّ الحسنى، والله يشهد إنّهم لكاذبون». فالواضح هنا أن الوقف على كلمة «الحسنى» يبدّل المعنى بأن يجعل بناء هذا المسجد أمراً حسناً.

أصول قراءة نافعٍ[1] وذكرِ الاختلاف عنه - أصول الظاء في القرآن والكلام وذكر مواضعها في القرآن - كتاب الياءات المشدَّدة (المشدودة) في القرآن - منتخب الحجّة في القراءات ★ لأبي علي الفارسي[2] - شرح الراءات على قراءة ورش وغيره - كتاب وجوه اللَّبس التي لَبّس بها أصحابِ الأنطاكي في مدّ وَرْشٍ[3] - الرسالة إلى أصحاب الانطاكي في تصحيح المدّ لورش - شرح رواية الأعشى عن أبي بكر بن عاصم[4] - إصلاح ما أغفله ابن مسرّة في قراءات شاذّة[5] - الاختلاف بين أبي عمرٍو وحمزةَ[6] - شرح الفرق لحمزةَ وهشامٍ[7] - الاختلاف بين قالونَ وأبي عمرٍو[8] - الاختلاف بين قالون وحمزةَ - الاختلاف بين قالون والكِسائي[9] - الاختلاف بين قالون وعاصمٍ - الاختلاف بين قالون وابنِ عامرٍ[10] - الاختلاف بين قالون وابنِ كثيرٍ[11] - التِّبيانُ بين قالون ووَرْشٍ - هِجاء المصاحف[12] - علل هجاء المصاحف - اختصار الألفات[13] - الاختلاف في الرسم

---

(١) نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم (ت ١٦٩ هـ) أحد القرّاء السبعة.
(٢) أبو عليّ الحسن بن أحمد الفارسي (٢٨٨ - ٣٧٧ هـ) أحد الأئمّة في النحو.
(٣) الإنطاكي...(؟). ورش هو عثمان بن سعيد المصري (١١٠ - ١٩٧ هـ) من القرّاء.
(٤) الأعشى هو عبد الحميد بن أبي أويس من القرّاء. في إنباه الرواة: «أبو بكر بن عاصم». المقصود: أبو بكر عاصم بن أبي الجود القارىء الكوفي (ت ١٢٧ هـ).
(٥) ابن مسرّة... (؟) القراءة الشاذّة التي لا يقرّها القراء السبعة.
(٦) أبو عمرو بن العلاء البصري (٧٠ - ١٥٤ هـ) من أئمّة اللغة والأدب وأحد القرّاء السبعة. وحمزة بن حبيب بن الزيّات الكوفي (٨٠ - ١٥٦ هـ) أحد القرّاء السبعة.
(٧) هشام... (؟)
(٨) قالون هو أبو موسى عيسى بن ميناء المدني (١٢٠ - ٢٢٠ هـ) أحد القرّاء المشهورين.
(٩) الكسائي هو عليّ بن حمزة الكوفي (ت ١٨٩ هـ) أحد أئمّة اللغة والنحو والقراءة.
(١٠) أبو عمران عبد الله بن عامر الشامي (ت ١١٨ هـ) أحد القرّاء السبعة.
(١١) عبد الله بن كثير المكّيّ (٤٥ - ١٣٠ هـ) أحد القراء السبعة. قالون: عيسى بن ميناء المدني (٢٢٠ هـ) أحد القراء المشهورين ومن علماء النحو.
(١٢) هجاء المصاحف أو التهجئة أو الرسم في المصاحف (نسخ القرآن الكريم) يتبع أحياناً صوراً مخالفة للتهجئة اللفظيّة المعاصرة لنا، نحو بسم (باسم)، الرحمن (الرحمان)، الصلوة (الصلاة)، الغدوة (الغداة) هويه) هواه، ءاتت(آتت)، فاعبدون (فاعبدوني) إلخ.
(١٣) اختصار الألفات من الرسم منعاً لالتقاء أحرف العلّة أو للاستغناء عنها: الرحمن (الرحمان)، الشيطن (الشيطان) إبرهيم (إبراهيم)، إسحق (إسحاق).

من « هؤلاء » والحُجَّة لكلّ فريق[1] - تنزيهُ الملائكة عن الذنوب وفضلُهم على بني آدمَ - بيانُ الصغائر والكبائر (من الذنوب) - الهِداية (في الفِقه) - الردّ على الأئمّة فيما يقع في الصلاة من الخطأ واللَّحن في شهر رَمضانَ وغيره - الترغيب في الصيام - كتاب فرض الحجّ على منِ استطاعَ إليه سبيلاً - بيانُ العمل في الحجّ من أول الإحرام[2] إلى الزيارة لقبر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم - إيجاب الجزاء على قاتل الصيد في الحَرَمِ[3] خطأً على مذهب مالك والحُجَّة في ذلك - الترغيب في النوافل[4] - التهجّد[5] في القرآن - المُدخل إلى علم الفرائض (تقسيم الإرث) - كتاب ما أغفله القاضي منذر * ووَهم فيه في كتاب « الأحكام »[6] - شرح العارية والعريّة[7] - شرح حاجة وحوائج وأصلها[8] - التذكرة لأصول العربية (النحو) ومعرفة العوامل - الزاهي في اللُّمَع الدالّةِ على مشتملات (مستعملات) الإعراب - الوصول إلى تذكرة الأصول لابن السرّاج في النحو[9] - مسائل الإخبار بالذي وبالألف واللام! - كتاب دخول حروف الجرّ بعضها على بعض[10] - الانتصاف في الردّ على أبي بكرٍ الأدفويّ فيما زَعَمَ من تغليطه في كتاب

---

(١) هؤلاء . هاؤلاء ، هوأولاء ...

(٢) الإحرام: نية الدخول في أعمال الحجّ. وقد يكون الإحرام قبل ساعات من الوقوف بعرفة (تاسع ذي الحجّة) أو قبل أيام أو أشهر.

(٣) الحرم: منطقة مكّة. وتحريم الصيد يكون في أثناء موسم الحجّ للحاجّ أو للمعتمر (الحاجّ في غير أوائل ذي الحجّة).

(٤) النوافل: العبادات غير المفروضة والتي يتطوّع المسلم بأدائها.

(٥) العبادة في الليل. التهجّد بالقرآن (قراءته ليلاً). قال تعالى: ﴿ومن الليل فتهجّد به نافلة لك، عسى أن يبعثك ربّك مقاماً محموداً﴾ (١٧ : ٧٩، سورة الإسراء).

(٦) القاضي منذر بن سعيد البلّوطي الأندلسيّ (٢٧٣ - ٣٥٥ هـ) له كتاب « الإنباه على استنباط الأحكام من كتاب الله » (والأحكام هنا: قواعد المعاملات والقصاص إلخ).

(٧) العارية (بإهمال الياء أو بتشديدها، جذرها عور): ما تعطيه لغيرك على سبيل الإعارة. والعريّة من عري : الريح الباردة.

(٨) الحاجة مفردة هي الحائجة: ما يفتقر (يحتاج) إليه الإنسان. ولكن « حاجة » تجمع على حاجات، أمّا « حائجة » فتجمع على حوائج.

(٩) أبو بكر محمّد بن السريّ بن السرّاج البغدادي (ت ٣١٦ هـ) من أئمّة النحو والأدب.

(١٠) كقولنا مثلاً: « طار العصفور من على الغصن »، فإنّ على هنا تقوم مقام اسم أو تستعمل اسماً.

الإمالة[1] - المواعظ المنبّهة - المبالغة في الذِّكْر - تحميدُ القرآن وتهليلُه وتسبيحه[2] - منتقى الجواهر في الدُّعاء - دعاء خاتمةِ القرآن - الرياضُ (مجموع!) - المسترضى شرح خطب ابن نباتة[3] - منتخب كتاب الإخوان لابن وكيعٍ[4] - اختلاف العلماء في النفس والروح - المُنتقى من الأخبار - إسلام الصحابةِ - معاني السنين القحطية والأيام - الاختلاف في الذبيح من هو[5] وهنالك بضعةَ عَشَرَ كتاباً يقتصر كلُّ كتابٍ منها على آيةٍ واحدةٍ من آياتِ القرآنِ الكريم، نحو «شرحُ قولِه تعالى» ﴿وما خَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلاّ لِيَعْبُدونِ﴾[6]. لم أُورِدْها هنا.

٣ - مختارات من شعره

- قال مكّيُّ بنُ حموشٍ في إنكار البدع والخُرافات وفي الحَمْلة على الصوفية وفي التمسّك بسُنّة الرسول:

قُلْ لِمَنْ يبغي المِرا والجَدَلا ... في البراهين وذِكرَ البُدَلا[7]
وحكاياتِ الأحاديثِ التي ... تُورِثُ العَجْز وتُبدي الكسلا:
وَيْكَ، دعْ عنكَ الخُرافاتِ ولا ... تُكْثِرِ المَزْح، أخي، والهَزَلا[8].
أيـن من يمشي على الماءِ ولَمْ ... تَخْشَ منه قَدَماهُ البَلَلا؟

---

(١) أبو بكر محمّد بن عليّ الأدفوي المصري (٣٠٤ - ٣٨٨ هـ) من علماء التفسير والنحو.

(٢) التحميد (الحمد لله) والتهليل (لا إلّه إلاّ الله) والتسبيح (سبحان الله)...

(٣) أبو يحيى عبد الرحيم بن محمّد بن نباتة (٣٣٥ - ٣٧٤ هـ) الحلبي، كان بارعاً في الخطب المنبرية (الدينية) وفي الحثّ على الجهاد.

(٤) ابن وكيع وكتاب الإخوان... (؟)

(٥) أهو إسحاق بن إبراهيم أم إسماعيل بن إبراهيم؟

(٦) ٥١ : ٥٦، سورة الذاريات.

(٧) المراء: الجدال والمخالفة في الرأي. البدل (بفتح وفتح وتجمع على أبدال) ثمّ البديل (وتجمع على بدلاء): أحد كبار الصوفية يزعمون له تأثيراً في العالم الطبيعي. - ...للذي ينكر البراهين المعقولة ثمّ يستشهد بأقوال أهل التصوّف غير المعقولة.

(٨) وي: كلمة للزجر والتهديد. ويك: ويل لك! الهزل بفتح ففتح: المزج (مزج الحق بالباطل).

او يَلِتُّ الماءَ بالرملِ، فإنْ شاء زُبْداً ردّه أو عسَلا؟[1]
أو يكونُ الطيرُ في جوِّ السما، فإذا أوْما إليه نزلا؟[2]
أو يَحجّ البيتَ في يومٍ؟ لقد كَذَبَ الناقلُ في ما نقلا![3]
هذه الأخبارُ لا أصلَ لها، لا ولا فرعَ لها مُتّصلا.
ألّفَتْها عُصبةٌ صُوفيّةٌ تشتهي الأكلَ وتأبى العملا.
مَنْ عَدا القُرآنَ والعِلْمَ فقد خالفَ اللهَ وخانَ الرُّسُلا[4].
أنزلَ الله كتاباً واضحاً، حَسْبُنا، لا نَبْغ عنه بَدَلا[5]
ثمّ مِنْهاجَ النبيّ المُصطفى فَبِهِ اللهُ هَدانا السُّبُلا[6].
فالْزَموا السُّنّةَ لا تَبْتَدِعوا واحْذروا الزَّيْغَ وخافوا الزَّلَلا![7]

٤ - ** جذوة المقتبس ٣٢٩ (الدار المصرية) ٣٥١ (رقم ٨٢٠)؛ بغية الملتمس ٤٥٥ (رقم ١٣٦٧)؛ الصلة ٥٩٧؛ معجم الأدباء ١٩: ١٦٧ - ١٧١؛ وفيات الأعيان ٥: ٢٧٤ - ٢٧٧؛ إنباه الرواة ٣: ٣١٣ - ٣١٩؛ ابن قنفذ ٢٤٢؛ الديباج المذهب ٣٤٦؛ البلغة ٢٦٣؛ بغية الوعاة ٣٩٦ - ٣٩٧؛ شذرات الذهب ٣: ٢٦٠ - ٢٦١؛ بروكلمن ١: ٥١٥، الملحق ١: ٧١٨؛ الأعلام للزركلي ٨: ٢١٤ (٧: ٢٨٦).

ابن الحَنّاطِ الأعمى

١ - هُوَ أبو عبدِ اللهِ مُحَمّدُ بنُ سُليمانَ بنِ الحَنّاطِ الرُعَيْنِيُّ الأعْمى القُرْطُبِيُّ، كانَ

(١) لتّ: خلط. الزبد: ما يستخرج من اللبن (السمن والزبدة).
(٢) أوما = أومأ: أشار.
(٣) يروي الصوفية مثلاً أن عمر بن الفارض كان يصلّي الظهر في مكّة ثمّ يصلّي العصر (في اليوم نفسه) في المدينة.
(٤) عدا: تجاوز - من أهمل ما جاء في القرآن أو ما يقول به العلم...
(٥) الكتاب: القرآن. حسبنا: يكفينا. لا نبغ (مكان لا نبغي)، وردت كذلك في القرآن (١٨: ٦٤، سورة الكهف): «قال: ذلك ما كنّا نبغ».
(٦) منهاج النبيّ: طريقته ومسلكه.
(٧) السنة = سنّة رسول الله (طريقته). الزيغ: الميل والانحراف. الزلل: العثار، السقوط.

أبوهُ يَبيعُ الحِنْطةَ. وُلدَ أعْشَى[1] ثمّ عَمِيَ من كَثْرةِ المُطالعة. وقد كَفاه بنو ذَكْوانَ - وَهُمْ أبناءُ أُسْرةٍ وجيهةٍ غنيّة في قرطبة - مَؤونَةَ السَّعْيِ في سبيل الرزق وجعلوه يَتَفَرّغُ لطلب العِلْم.

وكان ابنُ الحنّاطِ يتَكَسّب بإقراءِ النَحْوِ وبشيءٍ من التطبيب وبَمدْحِ الملوك والأمراء. وقد مدح عليَّ بنَ حمّودٍ المستبدَّ بأمرِ قرطبة (٤٠٧ - ٤٠٨ هـ) ثمّ مدح أخاه القاسمَ بن حمّود (٤٠٨ هـ وما بعدها). وكان في ابنِ الحنّاطِ شيْءٌ من الجُرأةِ على الناس وعلى الحقّ فناوأَ أبا عامرِ بنَ شُهيدٍ (٣٨٢ - ٤٢٦ هـ) مناوأةً شديدةً واستهتر في القول والفعل حتّى نُفِيَ عن قرطبة فانتقل إلى الجزيرة الخضراء، وكان صاحبَها وحاكمَها محمّدُ بنُ القاسم بن حمّود (٤٢٨ - ٤٤٠ هـ). ولعلّ نَفْيَه هذا كان في أواخر أيامهِ. ومِنَ الجزيرةِ الخضراءِ أرسل ابنُ الحنّاط مِدْحَةً إلى المظفّر بن الأفطس صاحب بَطَلْيَوْسَ.

وقد قالَ ابنُ حيّان في «المَتين» (المغرب ١: ١٢٣): «وفي سَنَةِ ٤٣٧ نُعِيَ إلَيْنا أبو عبدِ اللهِ بنُ الحَنّاطِ الشاعرُ الأديبُ القُرطبيُّ...» وبما أن المظفّر قد جاء إلى الحكم بعد ١٧ من جُمادى الثانية من سنة ٤٣٧، فمن المفروض أن تكون وفاة ابن الحنّاط في أواخر ٤٣٧ هـ (أواسط عام ١٠٤٦ م) أو بعد ذلك بقليل.

٢ - كان ابنُ الحنّاطِ الأعمى متقدّماً في علوم اللغة العربية وفي البلاغة وفنونِ الأدب مَعَ معرفةٍ بالمنطق وشيءٍ من البراعة في التطبيب. وكذلك كان أديباً ناثراً شاعراً. وشعره يتراوح بين الرِقّة والسلاسة ثم بين المتانة والجزالة، وعليه نفحةٌ دينية. وكذلك كان هواه مَعَ الفواطم (أبناء فاطمة) من بني هاشم (اعتقاداً أو تكسّباً). وفنونه المديح والفخر (بنفسه وبشعره) والوصف والطَرْدُ (وصف الصيد) في البر والبحر.

٣ - مختارات من آثاره

- قال ابنُ الحنّاط الأعمى قصيدةً يَصِفُ الطبيعةَ في مَطْلعها ثمّ يَتَخَلّصُ إلى مدح

---

[1] أعشى: ضعيف البصر (لا يبصر في الليل).

عليٍّ بنِ حمّودٍ العلويِّ (الفاطمي):

راحَتْ تُذَكِّر بالنَّسيمِ الراحا وَطْفاءُ تَكْسِرُ للجُنوحِ جَناحا[1].
مرّتْ على التّلَعاتِ فاكْتَسَتِ الرُّبى حُلَلاً أقام لها الربيعُ وِشاحا[2].
فانْظُرْ إلى الرَّوْضِ الأريضِ وقد غَدا يُبْكي الغَوادي ضاحكاً مُرْتاحا[3]،
والنَّورِ يَبْسُطُ نَحْوَ دِيمَتِها يَداً أهْدى لَها ساقي النَّدى أقْداحا[4].
وتَخالُهُ حَيّا الحَيا من عَرْفِهِ بِذَكِيَّةٍ فإذا سَقاهُ فاحا[5].
رَوْضٌ يُحاكي الفاطِمِيَّ شَمائِلاً طِيباً، ومُزْنٌ قد حَكاه سَماحا[6]!

– وله من قصيدة في القاسم بن حَمّود يذكر فيها مقتلَ الخليفةِ عبدِ الرحمنِ المُرتضى (٤٠٨ هـ)، وقدِ استبدَ القاسمُ بنُ حمّودٍ في أيامه بالحُكْم، كما يَذْكر فيها مَوْتَ خَيْرانَ الصَقْلَبيِّ العامري (٤١٨ هـ). وكان خيرانُ من أنصارِ القاسمِ بن حمّود ثمّ انقلب عليه:

لَكَ الخيرُ: خَيرانٌ مَضى لسبيلهِ؛ وأصبحَ مُلْكُ اللهِ في ابنِ رَسولِهِ[7]،
وفُرِّقَ جَمْعُ الكُفْرِ، واجْتَمَعَ الوَرى على ابنِ حبيبِ الله بعدِ خَليلِهِ[8].

---

(١) للجنوح (كذا في الذخيرة ١: ٤٤٥)، والأصوب: الجنوب (بفتح الجيم): الريح الجنوبية. راجع شرح البيت، فوق ص ٤٦٥.

(٢) التلعة: أرض مرتفعة يسيل منها الماء إلى أرض أخرى تحتها.

(٣) الأريض: الكريم (بالنبات). الغادية: السحابة المملوءة بالمطر والقادمة في الصباح. المرتاح: المسرور. الروض يبكي (بضمّ الياء) الغوادي (يجعلها تبكي: تمطر)، وهو ضاحك (بالأزهار التي تتفتّح فيه).

(٤) النور (بالفتح): الزهر الأبيض. الديمة: الغمامة الممطرة. القدح (هنا): جسم الزهرة. الندى: قطرات الماء التي تنزل في أواخر الليل. الأزهار ترتفع نحو الغيم فيسقط فيها الماء (من المطر ومن الندى) فتمتلىء (رطوبة تنعشها).

(٥) حيّا يُحَيِّي: ألقى التحية (السلام). الحيا: المطر. ذكيّة (رائحة ذكيّة: طيّبة). العرف: الرائحة الطيّبة. فاح: انتشر (انتشرت الرائحة). الصورة هنا بعيدة المتناول: النور (بالفتح: الأزهار البيضاء، وهنا الزهر عامّة) يشكر المطر بمنح المطر شيئاً من الرائحة الذكيّة. وكلّما زاد المطر سقيا للزهر زاد الزهر في شكر المطر ووهبه قدراً أكبر من الرائحة الطيّبة (وكلّما كثر المطر نشعر نحن بكثرة الرائحة الطيّبة).

(٦) حكى، حاكى: شابه. الشمائل جمع شمال (بكسر الشين: الخلق الكريم). المزن: المطر. السماح: التسامح والتساهل. والشاعر يقصد السماحة: الجود والكرم (ويجوز أن تكون كلمة «سماح» (هنا) جمع جنس للسماحة.

(٧) مضى لسبيله: مات.

(٨) خليله (خليل الله) ابراهيم.

وقــامَ لِــواءُ النصــرِ فــوقَ مُمَنَّــعٍ   من العِزّ جبريــلٌ إمــامُ رَعيلــه[1].
وأشْرَقَــتِ الدنيــا بنــورِ خَليفــةٍ   به لاح بدرُ الحق بعد أُفوله[2].
فــلا تَسْألِ الأيّــامَ عمّــا أتَتْ بِـه؛   فما زالــت الأيّــامُ تأتي بُسوله[3]!

- ومن رسالة لابن الحنّاط كتب بها إلى المظفّر بن الأفطس:

حجَبَ اللهُ عنِ الحاجب المُظَفَّر - مولايَ وسيّدي - أعْيُنَ النائبات وقَبَضَ دونه أيْدِيَ الحادثات، فإنّه - مُذْ كانَ - أنورُ من الشمس ضِياءً وأكملُ من البدر بَهاء، وأندى من الغيث كفًّا وأحمى من الليث أنْفاً[4]، وأسخى من البحر بنَاناً وأمضى من النَصْل لِساناً[5]. وأنْجبَه المنصورُ فجرى على سَنَنِه، وأدّبه فأخذ بسُنَنِه[6]. وكانتِ الرئاسة عليه موقوفةً والسياسة إليه مصروفةً[7]. قَصّرتِ الأوهامُ عن كُنْهِ[8] فضله وعَجَزتِ الأقلام عن وصفه. غيرَ أن الفضائل لا بُدّ من نَشْرِها والمكارمَ لا عُذْرَ في ترك شكرها:

فالشــكر للإنســان أربــحُ متجــرٍ   لم يَعْدَمِ الخُسرانَ من لم يشكُرِ.[9]

- وله رسالة يتهكّم فيها بأبي عامرِ بنِ شُهيدٍ[10] جاء فيها:

الإسْهابُ كُلْفة[11] والإيجاز حِكمة، وخواطرُ الألباب سِهامٌ يُصاب بها أغراضٌ

---

(١) الرعيل: الجماعة القليلة من الناس (أو من الخيل) تتقدّم غيرها (في الزمن أو في المكانة).
(٢) الأفول: الغياب، الغروب.
(٣) السول = السؤل = السؤال: الطلب.
(٤) أحمى (أكثر حماية) من أنف الليث (الأسد): كناية عن خوف الناس من الاعتداء عليه.
(٥) بنانا (أصابع): كناية عن الكرم. النصل: (حدّ السيف) لساناً: كناية عن براعته في الكلام وعن نفوذ أوامره.
(٦) عبد الله المنصور (ت ٤٣٧) والد أبي بكر محمّد المظفّر (تولّى من سنة ٤٣٧ إلى سنة ٤٦٠). أنجبه: ولده. السنن (بفتح ففتح): المثال والمنهاج. السنن (بضمّ ففتح جمع سنّة بالضم): الطريقة، السيرة، العادة.
(٧) كأنّها لا يصلح غيره للرئاسة (الإمارة، الملك) وكأنما السياسة (تدبير الأمور) قد قصد هو بها.
(٨) كنه: سرّ.
(٩) الذي لا يعرف أن يشكر (الناس على معروفهم اليه) سيكون خاسراً.
(١٠) راجع، فوق، ص ٤٥٤.
(١١) الإسهاب: التطويل في الكلام. الكلفة: المشقّة.

الكلام[1]. وأخونا أبو عامرٍ يُسْهِبُ نثراً ويطوِّل نظْماً، شامخاً بأنفهِ ثانياً من عِطفه[2] مُتخيِّلاً أنّه قد أحرز السِباقَ في الآداب وأُوتِيَ فصلَ الخِطاب[3]. فَهُوَ يستَقْصِر أساتيذَ الأدباء ويستَجْهِل شيوخَ العلماء....

- ولابن الحنّاط في ذكر بني فاطمةَ الزهراء:

أبنــاءُ فاطمــةٍ رُسْلُ العــلا رَضِعوا ... وبالسّماح غُـذُوا والجـود إذ فُطِموا.
قــوم إذا حلـفَ الأقــوامُ أنّهـمـو ... خيرُ البريّة لم يحنَثْ لَهُمْ قسَمُ،
سما لهـم من سمـاء المجـد مِن شرفٍ ... بيتٌ تداعَت إليه العُرْب والعجم:
مناقبٌ سمحـت فـي كـل مكرُمـةٍ ... كأنما هي في أنف العلا شمَمُ.

- ولابن الحنّاط الكفيف قصيدة منها:

أرِقْتُ وقد غَنَّى الحَمـامُ الهواتـفُ ... بمُنْعَرَج الأجزاع والليـلُ عاكفُ[4].
أعَدْنَ لِيَ الشوقَ القديم، وطاف بي ... على النأيِ من ذِكرى المليحة طائـفُ[5].
ومـا الجانبُ الشرقيّ من رمْلِ عالجٍ، ... بحيث استوتْ غِيطانه والنَفانف[6]،
إذا مـا تغنّى الرعدُ فـوق هِضابه ... - سقى الروضَ من وبْل الغَمامة واكف[7]
بأحسنَ مـن أطـلالِ عَلْوةَ منظـراً ... وإنْ دَرَسَـتْ آياتُـه والمعـارف[8].
خليليَّ، هل بالخَيْفِ للشمل إلفةٌ ... فيأمنَ قلبٌ من نَوى الخيف خائف[9]؟
أفـي وقفـةٍ عنـد العقيـق مَلامـةٌ ... عـلى دَنِـف شاقَتْه تلك المواقـف[10]؟

---

(١) الغرض: الهدف. اغراض الكلام: مقاصده.

(٢) و٣) شامخاً (رافعاً) بأنفه (كناية عن التكبّر). ثانياً (دائراً) من عطفه (طرف جسمه الأعلى) كناية عن الإعجاب بنفسه. فصل الخطاب: ما كان القول فيه حكماً باتّاً قاطعاً لا يحتمل الجدل.

(٤) الهاتف: المنادي بصوت مرتفع. الليل عاكف: نازل (شديد الظلام).

(٥) النأي: البعد. الطائف: خيال يتراءى للإنسان (في النوم أو في اليقظة: بفتح ففتح).

(٦) الغَيط: الأرض المطمئنّة (المنخفضة، وتكون خصبة). النفنف: الصحراء.

(٧) الوبل: المطر الكثير. الواكف: المطر المنهلّ (الشديد).

(٨) آيات: علامات. معارف: أماكن ظاهرة يعرفها الناس.

(٩) الخيف: مكان في الحجاز يكثر الشعراء من ذكره.

(١٠) العقيق: مرج قرب المدينة. الدنف: الذي قرب من الهلاك.

سقى عَرَصاتِ الدار كلُّ مُلِثَّةٍ   من المُزْنِ تُزجيها البروقُ الخواطفُ[1].
كأنّ نثيرَ القَطْرِ منها جواهرٌ   تُفرقُها للريح أيْدٍ عواصفُ[2].
كأنّ ابتسام البرق فيها إذا بدتْ   سيوفُ عليٍّ بالدماء رَواعفُ[3].

- يبدو أن ابنَ الحنّاطِ لمّا أرسل مِدْحَتَهُ إلى المُظَفّرِ بنِ الأفطسِ أرسلَ المظفّرُ إليه جائزةً سَنِيّةً، فكتب ابنُ الحنّاط إلى ابنِ الأفطس:

كَتَبْتُ على البُعْدِ مُسْتَجْدِياً   لِعِلْمِي بأنّكَ لا تَبْخَلُ.
فجاء الرسولُ كما أشتهي   وقد ساق فوقَ الذي آمُلُ.
وما كانَ وَجْهُكَ ذاك الجَميلُ   لِيَفْعَلَ غيرَ الذي يَجْمُلُ!

٤ - ★ ★ جذوة المقتبس ٥٣ (الدار المصرية) ٥٧ - ٥٨ (رقم ٦٠)؛ بغية الملتمس ٦٧ (رقم ١٢٤)؛ الخريدة (الأندلس)؟ ٢: ٢٢٤ - ٢٤١؛ الخريدة (المغرب) ٢: ٢٩٧ - ٣٠٨؛ الذخيرة ١: ٤٣٧ - ٤٦٨؛ المحمدون ٣٣٦ (؟)، ٣٥٩؛ الوافي بالوفيات ٣: ١٢٤؛ المغرب ١: ١٢١ - ١٢٤؛ نفح الطيب ١: ٤٨٣، ٥٠٣، ٣: ٢٦٣، ٢٨٨ - ٢٨٩، ٦١٠ - ٦١١؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٧٨٦؛ الأعلام للزركلي ٧: ٢٠ (٦: ١٤٩).

أبو المغيرة بن حزم

١ - هو أبو المُغيرةِ عبدُ الوهّاب بنُ أحمدَ بنِ عبدِ الرحمن (نفح الطيب ٣: ١٥٦) ابن محمّدِ بنِ حزمٍ. وهو ابنُ عمِّ الفقيهِ ابنِ حزمٍ الظاهريّ (ت ٤٥٦ هـ).

وُلدَ أبو المُغيرةِ بنُ حزمٍ في قرطبةَ. ومن الذين سَمِعَ منهم أبو القاسم الوَهْراني. ويبدو أن أبا المغيرة قد عاش عِيشةَ لهوٍ مندفعاً في الحبّ، بِرُغْمِ اتّصاله برِجالاتِ الأندلس وأصحابِ الدولة فيها. فلقدْ نشأت بينَه وبين جاريةٍ للمنصور بن أبي عامرٍ اسْمُها أُنْسُ القلوبِ ناشئةُ هوًى انكشفتْ للمنصورِ فغَضِبَ في أولِ الأمرِ ثمّ اسْتُرْضِيَ فرَضِيَ ووَهَبَ أُنسَ القلوبِ لأبي المُغيرة.

---

(١) العرصة: الباحة أمام الدار. الملثّ: الدائم. المزن: المطر. تزجيها: ترسلها. البرق الخاطف (الشديد اللمعان) الذي يخطف (بفتح الطاء) البصر.

(٢) جواهر: لآلىء.

(٣) عليّ بن حمود المتوفى ٤٠٨ هـ (؟؟). رعف: سال.

وَوَلِيَ أبو المغيرة بن حزم الوِزارة لعبدِ الرحمنِ المستظهرِ بن هشامٍ (٤١٤ هـ) ثمّ بَدَرَ منه ما أوْجَبَ العَتْبَ عليهِ فهَرَبَ إلى بلادِ الثَّغر (شَمالِيّ الأندلس). وتطوّفَ أبو المغيرة حيناً بملوكِ الطوائفِ ونالَ عند نَفَرٍ منهم حُظْوَةً كبيرة. وكانتْ وفاتُه في مُسْتَهَلِّ صَفَرَ من سنة ٤٣٨ (١٠٤٦/٧/٧ م) في عَسْكَرِ يحيى المأمونِ بنِ ذي النون (٤٢٩ - ٤٦٧ هـ) بطُليطلةَ، غيرَ متقدمٍ في السنّ.

٢ - كان أبو المغيرةِ بن حزمٍ من المقدّمين في الآداب والشِّعر والبلاغة، وكان شاعراً فَحْلاً وُجْدانيّاً مُكْثِراً. وكذلك كان ناثراً مترسّلاً رصينَ المعاني متينَ السَّبْكِ يتكلّف أحياناً، وكان مُصَنِّفاً؛ غيرَ أنّ شُهْرة ابن عمِّهِ قد غَطّتْ عليه فخَمَلَ ذكْرُهُ.

٣ - مختارات من آثاره

قال أبو المغيرة بنُ حزمٍ يمدح يحيى المظفَّرَ بنِ المنذر التُجيبيَّ (٤١٤ - ٤٢٠ هـ) أوِ المنذرَ الثانيَ بن يَحْيى (٤٢٠ - ٤٣١ هـ)، وقد بَدأ بغَزَلٍ وختم بالفخرِ بنفسه وبشعره:

بِتْنا - وباتَ المِسْكُ فينا واشِياً ... بِمَكانِنا، والحَلْيُ عنّا مُخْبِرا[1]

ورَنَتْ بألحاظٍ تُدير كؤوسَها ... فينا فنَشْرَبُها حَلالا مُسْكِرا[2]،

واللَّيْلُ يُلْحِفُني سَرابيلَ الدُّجى ... جَهْلاً وقد عانَقْتُ صُبْحاً مُسْفِرا[3].

لو جِئْتَنا لَرأيْتَ أعْجَبَ مَنْظَرٍ: ... أسدٌ تَوَسّدَ كَفَّ ظَبْيٍ أعْفَرا![4]

إلاّ تَرى المَنْصورَ تحتَ لِوائِه ... تَلْقَ ابْنَه طَلْقَ الجَبينِ مُظفّرا[5].

لا غَرْوَ، جِئْتُ البحرَ إذ أجلى الحَيا؛ ... ورأيتُ يَحْيى حين لم أرَ مُنْذِرا[6].

---

(١) رائحة المسك كانت تضوع (تنتشر) منا والحلى التي تتحلّى بها المحبوبة كانت ترنّ فيشي ذلك كلّه بنا (يدلّ على مكاننا).

(٢) رنا: أدام النظر بطرف ساكن هادىء (مستغرقاً)... كأنّنا نشرب من ألحاظها خمراً (ولكنّها خمر محلّلة مع أنّها تسكر كالخمر المحرّمة).

(٣) يلحفني: يغطّيني. سرابيل (أردية، أثواب) الدجى (الظلام). جهلاً - الليل يحاول أن يسترني عن العيون، وكيف يستطيع ذلك ومعي فتاة جميلة تضيء الظلام مثل الصبح المسفر (الطالع).

(٤) أسد: رجل (بطل). توسّد (نام على) كف ظبي أعفر (غزال أسمر): فتاة جميلة.

(٥ و ٦) الحيا: المطر. أجلى الحيا... - لا يمكن تفسير هذين البيتين إلاّ إذا فصلنا في هذه المدحة: أهي في يحيى المظفّر أو في ابنه المنذر الثاني.

فإذا دعَونا: من يُجيبُ لِنَكْبَةٍ؟ لَبّتْ تُجيبُ، فخِلْتَها سَيْلاً جرى[1].
شِيَمٌ غَدَتْ قُرْطَ الزّمان، فلم أنَمْ حتّى نَظَمْتُ عليه شِعْرِيَ جَوْهر[2].
لله دَرُّكَ والرِّماحُ شَوارِعٌ والبِيضُ تَقْطع لأمَةً وسَنَوَّرا[3].
فإذا أتَيْتُكَ مادحاً لَكَ لم يَجِئْ شِعري لِيَسْألَ، بل أتاكَ لِيَفْخَرا[4].
غَيْري الذي اتّخذَ المدائحَ مَكْسَبا، وسِواي مَنْ جعل القوافي مَتْجَرا.
أنا ما شَعَرْتُ لأنْ أُنبّهَ خامِلاً، لكن لأمنَعَ شاعراً أن يَشْعُرا[5].

- عقد المنصور بن أبي عامر مجلس شراب، فلما دارت الكؤوس غنت جارية له اسمها أُنس القلوب.

قَدِمَ الليلُ عندَ سَيْرِ النهار، وبدا البدرُ مثلَ نصف سِوار.
فكأن النهارَ صفحةُ خدٍّ، وكأنَّ الظلام خَطُّ عذار.
وكأنَّ الكؤوسَ جامدُ ماءٍ وكأنَّ المُدامَ ذائبُ نار.
نَظَري قد جَنى عليَّ ذُنوباً؛ كيف ممّا جَنَتْه عَيْني اعتذاري؟
يا لَقَوْمي، تَعجّبوا من غَزالٍ جائرٍ حيَّ مهجتي وهو جاري.
ليتَ لو كان لي إليه سبيلٌ فأُقضّي من حُبِّه أوطاري.

- وكان أبو المغيرة بن حزم حاضراً فارتجل الأبياتَ التالية:

كيفَ، كيفَ الوصولُ للأقمارِ بين سُمْر القَنا وبِيض الشِّفارِ؟
لو عَلِمنا بأنَّ حُبَّك حقٌّ لَطَلَبنا الحياةَ منك بثار.
وإذا ما الكِرامُ همّوا بشيء خاطروا بالنُفوس في الأَخطار.

---

(١) تجيب: قبيلة الممدوح.
(٢) شيم: خصال، مكارم. قرط الزمان: مشهورة (كأنّها أقراط معلّقة بأذن الزمن). نظمت عليه شعري جوهراً: حلّيت ذلك القرط بشعري.
(٣) شوارع: مشرعة (مسدّدة نحو العدوّ). البيض: السيوف. اللأمة: الدرع (من حديد). السنّور: شبيه الدرع (من جلد).
(٤) ... ليسأل (عطاء) بل ليفتخر (بأنّه مدح رجلاً عظيماً!).
(٥) لأن أنبّه خاملاً: أجعل رجلاً غير مشهور مشهوراً. لأمنع شاعراً أن يشعرا: لأمدحك بقصيدة بارعة لا يجسر بعدها شاعر آخر أن يقدم على مدحك (لعجزه عن أن ينظم مثلها).

غَضِبَ المنصور وأراد أن يقتلَ الجاريةَ، فبكتِ الجاريةُ واعتذرت بأن هذا الحُبَّ كان بقضاء اللهِ ولم تَمْلكْ هيَ له دفعاً. حينئذٍ قال أبو المغيرة على لِسانها:

أذْنبـــتُ ذنبـــاً عظيـــماً فكيـــف منـــه آعتـــذاري؟
واللهُ قـــدَّر هـــذا ولـــم يكُـــنْ بآختيـــاري.
والعَفْـــوُ أحســـنُ شـــيءٍ يـــكونُ عنـــدَ آقتـــدار.

– وله من رسالة يصف فيها الروض في الربيع:

والأرضُ قد نَشَرتْ مِلاءها وسَحَبَتْ رِداءها ولَبِسَتْ جِلْبابها وتَقَلَّدتْ سِخابها[1]. وبَرَزَ الوردُ من كِمامِهِ واهتزّ الرَّوْضُ لتغريدِ حَمامِهِ؛ والأشجارُ قد نشرتْ شُعورها وهزّت رؤوسها، والدُّنيا قد أبْدتْ بشْرَها وأماطتْ عُبوسها[2]. وكأنّي بها قد أَطْلَعَتْ من كلّ ثَمَرٍ ضُروباً وأبْدتْ من سَناها منظراً عجيباً، وإنْ كُنّا لا نُشاركُ في تلك إلاّ بالعِيانِ لا باللِسان، وبالطَّرْفِ لا بالكَفّ، ونَنالُها بالاخْتلاسِ لا بالأضْراس. وللدَّهْرِ قِسْمٌ من أقسام اللّذة وصِنْف من أصناف الشَّهْوة... وحالِي حالٌ لِلسَّقامِ بها اتّصالٌ وللصِحّة عنها انْفصالٌ، يُعينُ على ذلك ضَعْفُ البُنْيَةِ وفَسادُ الأهْويةِ والتَّخْليطُ في الأغْذِيَةِ...

٤ – ** جذوة المقتبس ٢٧٣ (الدار المصرية) ٢٩١ – ٢٩٢ (رقم ٦٥٨)؛ بغية الملتمس ٣٨٠ – ٣٨١ (رقم ١١١٠)؛ الصلة ٣٦١ – ٣٦٢؛ المطمح ٣١ – ٣٤؛ الذخيرة ١ : ١٣٢ – ١٦٦؛ فوات الوفيات ٢ : ٣٣٩؛ الوافي بالوفيات ٥ : ١٩٤؛ المغرب ١ : ٣٥٧؛ نفح الطيب ١ : ٦١٦ – ٦١٨، ٦٢٠ – ٦٢١، ٢ : ٧٩ – ٨١، ٣ : ٤٣٥، ٤٧١، ٤٧٢، ٥٥٣ – ٥٥٤، ٧ : ٤٥ – ٤٦؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣ : ٧٩٠، النثر الفني ٢ : ٢١٨ – ٢٢٥؛ نيكل ٥٤؛ الأعلام للزركلي ٤ : ٣٣٠ (١٧٩).

---

(١) الأرض نشرت ملاءها: غطت الأرض بملاءة (رداء) خضراء؛ سحبت رداءها (جعلت في ذلك الملاء الأخضر بقاعا من الورد الملّون)؛ لبست جلبابها: عمّ النبات والزهر جميع أقطارها؛ تقلّدت (لبست قلادة في عنقها) سخابها (السخاب عقد من قرنفل زكيّ الرائحة، فاحت رائحة أزهارها).

(٢) الكِمام: الورق الأخضر الذي يغلّف الأزهار قبل أن تتفتّح. اهتزّ: تحرك طرباً. الأشجار نشرت شعورها: تمّ خروج ورقها. هزّت رؤوسها: أصبحت أغصانها تتحرّك في النسيم لأنّ عليها ورقاً. البِشر (بكسر الباء): السرور. أماط: أزاح، نحّى، أزال.

الأسعد بن بلّيطة

١ - هو أبو القاسمِ الأسعدُ بنُ إبراهيمَ بنِ بلِّيطةَ[١] القُرطبيُّ. وُلِدَ في قُرطبَة. تَردَّدَ بينَ بلاطاتِ ملوكِ الطوائفِ يتكسّبُ بالشعر، كما كان فارساً أيضاً يتكسّب بالخِدمة في ديوان الجُند، فقد قالَ فيه ابنُ بسّامٍ في «الذخيرة»: فارسُ جَحْفَلٍ وشاعرُ مَحْفِلٍ فَجَرى في المَيْدانَيْنِ وارْتَزَقَ في الديوانَيْن . وتطوّفَ أيضاً في بُلدانِ المغربِ. ولكنه معدودٌ في شعراءِ المعتصم بن صُمادحٍ. وقد كان حيّاً[٢] قبلَ سَنَةِ ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ - ١٠٤٩ م).

٢ - كان الأسعدُ بنُ بلِّيطةَ ناثراً وشاعراً مُجيداً، وشِعره سَهْلٌ عَذْبٌ وأبرزُ فنونهِ الوصفُ والغَزَلُ. وله القصيدة الطائية البارعَة (وهي تسعون بيتاً) في مدح المعتصم بن صُمادحٍ.

٣ - مختارات من شعره

- قال الأسعدُ بنُ بلّيطةَ يمدَحُ المُعتصمَ بن صُمادحٍ:

بـرامةَ رِيـمٌ زارنـي بعدَما شَـطّـا	تَقَنَّصْتُه في الحُلْمِ في الشَّطِّ فاشْتَطّا[٣]
رعـى مِنْ أفانـينِ الهوى ثَمَرَ الحَشا	جَنِيّاً، ولم يَرْعَ العُهودَ ولا الشَّرْطا[٤]

---

(١) من الإسبانية القديمة: بلّيدو (بإمالة الباء وكسر اللام المشدّدة): الجميل (نيكل ١٩٦). وقال ابن خلّكان (٥: ٤٥): لا أعرف معناه، وهو بلغة أعاجم الأندلس (نصارى الأندلس الذين لا يتكلّمون العربية). ونقل حسين مؤنس (الحلّة السيراء ٢: ٨٣) عن دوزي أن «بليطة» من الكلمة الإسبانية «بلّيتا» (بكسر الباء وتشديد اللام وإمالة الياء والألف). بمعنى البطاقة (قطعة من الورق بنحو قدر الكفّ). ويبدو أنّ تعليل نيكل أصحّ.

(٢) جذوة المقتبس ١٦٦؛ وفي بغية الملتمس (ص ٢٢٩): توفّي في حدود ٤٤٠. وعن بغية الملتمس أخذ شوقي ضيف (المغرب ٢: ١٧. في الحاشية). ولكن إذا كان الأسعد بن بلّيطة قد مدح المعتصم بن صمادح صاحب المريّة (٤٤٤ - ٤٨٠ هـ) بهذه القصيدة وبغيرها (راجع وفيات الأعيان ٥: ٤٢؛ نفح الطيب ٤: ١٠٠، ١٠١) فيجب أن يكون الأسعد بن بلّيطة قد عاش بعد سنة ٤٤٠ مدّة طويلة.

(٣) ريم: غزال أبيض. شطّ: بعد. الشطّ: جانب النهر، النهر (ومجتمع الماء).

(٤) رعى (أكل): تمتّع. أفانين (جمع أفنون - بضمّ الفاء: غصن): أنواع. جنيّا: جديداً، طريّاً. لم يرع: لم يحفظ.

خَيـــالٌ لَمرقومٍ غريرٍ برامـــةٍ تأوّبَني بالرَقْمَتَيْنِ لَدى الأرْطى[١]
فأكْسَبَني من خدِّهـا رَوْضَةَ الجَنى وألْدَغَني من صُدْغِها حَيّةً رَقْطا[٢]
وباتَـتْ ذِراعاهـا نِجـاداً لعاتِقي إذا مـا الْتَقاها الحَلْيُ غَنّى لها لَغْطا.
وسَلّ اهْتِصاري غُصْنَهَا مِن مُخَصَّرٍ طواه الضّنى طَيَّ الطواميرِ فامْتطّـا[٣].
وقد غابَ كُحْلُ الليلِ في دَمْعِ فَجْرِه إلى أن تَبـدّى الصُبْحُ كاللِّمّة الشَمْطا.
كأنّ الدُّجى جيشٌ من الزَّنجِ نافرٌ وقدأرسلَ الإصباح في إثْرِه القُبْطـا[٤].
وقـامَ لها يَنْعى الدُّجى ذو شَقيقةٍ يُديرُ لنا من عينِ أجْفانه سَقطا[٥]
إذا صـاحَ أصْغـى سَمْعُـه لأذانـه وبادرَ ضَرْباً من قوادِمِهِ الإبْطا[٦].
كـأنّ أنوشروانَ أعـلاه تاجَـه وناطَتْ عليه كَفُّ مارِيَةَ القُرْطا[٧].
سَبى حُلّةَ الطاوُوسِ حُسْنَ لِباسِها ولم يَكْفِه حتّى سَبى المِشْيَةَ البطّا[٨].
تَوَهَّمَ عَطْـفَ الصُـدْغِ نُونـاً بِخَدِّها فباتتْ بِمِسْكِ الخال تَنْقُطُه نَقْطا[٩].
غُلامِيّةٌ جاءتْ وقد جَعَلَ الدُّجى لخاتَمِ فيها فَصَّ غاليةٍ خطّا[١٠].

---

(١) مرقوم: ذو علامة (جميل). غرير: جميل، ناعم العيش، شاب بلا تجربة. تأوّبني: عاد إليّ (في المنام) مرّة بعد مرّة. الرقمتين (اسم مكان - المقصود بها هنا جمال اللفظ لا الدلالة على علم جغرافيّ مخصوص). الأرطى جمع أرطاة: نوع من الشجيرات.

(٢) الرقطاء: حيّة منقّطة (خبيثة). خصلة الشعر على صدغها لدغتني (عذّبتني بالحب).

(٣) هصر الغصن: شدّ به ليقطف ما عليه. المخصّر (خصرها الناحل). الطومار: نوع من الورق يكتب فيه ثمّ يلفّ كالأسطوانة.

(٤) القبط: جيل من الناس (أقل سواداً من الزنج): كان الليل زنجيّاً، فلمّا بدأ الصبح يطلع أصبح الليل كالقبطيّ.

(٥) ينعى الدجى: يبشّر بانقضاء الليل. ذو شقيقة: صاحب قنزحة حمراء (الديك). يدير لنا إلخ (؟) - الملموح (يسقينا ماء صافياً). السقط: الندى. وعين الديك توصف بالصفاء.

(٦) بعد أن يصيح الديك يهدأ قليلاً (كأنّه يستمع إلى ماضي صياحه). القوادم: كبار الريش في جناح كلّ طائر.... ثم يصفق بجناحيه.

(٧) كسرى أنوشروان من عظماء ملوك الفرس. أعلاه: جعل فوقه، ألبسه. ناط: علّق. وكان لمارية بنت ظالم بن وهب، وهي أمّ آل جفنة (ملوك غسان) قرطان في كلّ واحد منها درّة (لؤلؤة) بحجم بيض الحمام.

(٨) يمشي ببطء وتثاقل يميل يميناً وشمالاً كالبطّة (إعجاباً بنفسه) «المشية» مفعول به ثانٍ مقدم. «البط» مفعول به أوّل مؤخر.

(٩) - لها خال أسود اللون على صدغها كأنّه نقطة النون (يشبّه جانب صدغها بالنون).

(١٠) حول فمها الصغير خطٌ أسمر اللون (شفاه سمر). فص (فلقة، قطعة) غالية (روح العطر)...؟

غـدَتْ تنقَعُ المِسواكَ في بَرْدِ ثَغْرِها وقـد ضَمّخـتْ مِسْكـاً غدائرُها المِشْطا[1].

مُحيّرةُ العَيْنَـيـنِ مِنْ غـيـرِ سَكْرةٍ متـى شَرِبتْ ألحاظُ عَيْنَيْكِ إسْفَنْطا؟[2].

أرى نَكهَـةَ المِسواك فـي حُمْرة اللّمى وشارِبَـك المُخْضَرَّ بالمِسْكِ قد خُطّا[3].

عَسى قُزَحٌ قَبّلْتِـه فإخالُـه على الشَّفَةِ اللَّمياءِ قد جاء مُخْتَطّا[4].

كـأنّ أبـا يَحيـى بنَ مَعْنٍ أجادَها فعلّمَها مِنْ كَفّه الوكْفَ والبَسْطا[5].

تألّـفَ مِنْ دُرٍّ وشَذْرِ نجـارُه فجاءت به العَليا على جيدِها سِمْطا[6].

إذا سارَ سارَ المجـدُ تحتَ لِوائِه فليسَ يحُطُّ المجدُ إلاّ إذا حطّا[7].

رفيـعُ عِمادِ النـارِ في الليـلِ للسُّرى فما يَخْبِطُ العشواءَ طارِقُه خَبْطا[8].

أقولُ لِركْـبٍ يَمَّموا مَسْقَـطَ النَّدى وقد جاوَزَ الرُّكْبانُ من دونكِ السقطا[9]:

أفي المجـدِ تَبْغي لابنِ مَعْنٍ مُناقِضاً؟ ومن أوقدَ المِصباحَ في الشمسِ قد أخْطـا!

– وقال:

لـو كنـتَ شاهِدَنـا عَشيّـةَ أمْسِنـا والمُـزْنُ تَبْكينـا بِعَيْنَـيْ مُذْنِبِ[10]،

والشمسُ قـد مـدّتْ أديمَ شُعاعِهـا في الأرضِ تجنَحُ غيرَ أن لَمْ تَغْرُبِ،

خلـتَ الرَّذاذَ بـه بُرادةَ فِضّـةٍ قد غُرْبِلَتْ من فوقِ نِطعٍ مُذْهَبِ[11].

---

(١) – شعرها يكتسب رائحة طيّبة من مشطها (بينا كانوا يمشطون الشعر بمشط من عنبر حتّى يكتسب الشعر رائحة طيّبة).

(٢) الاسفنط: الخمر.

(٣) المخضرّ: المسودّ.

(٤) قزح (يقصد قوس قزح). اللمياء: السمراء...

(٥) الوكف: سيلان الماء من سقف البيت وسيلان الدمع من العين. البسط: الكرم في الإنفاق. (معنى البيت غامض) إلا إذا قصد «الجود والكرم».

(٦) الدرّ: اللؤلؤ. الشذر: قطع صغيرة من الذهب تسلك مع اللؤلؤ في العقد. النجار: الأصل. الجيد: الصدر. السمط: الخيط الذي ينظم فيه اللؤلؤ عقداً.

(٧) حطّ المسافر أحماله: نزل.

(٨) – يشعل في الليل ناراً كبيرة، فطارقه (ضيفه) لا يخبط خبط العشواء (لا يسير في الليل على غير هدى).

(٩) يمّموا: قصدوا. مسقط الندى (حيث يكون الكرم). ولكنّهم لمّا مرّوا بك ولم ينزلوا عندك كانوا قد جاوزوا (خلّفوا وراءهم) مكان الندى (الكرم)، أي مكانك انت.

(١٠) المزن تبكي بعيني مذنب: يهطل المطر بغزارة.

(١١) خلت: ظننت. الرذاذ نقاط المطر المتفرّقة التي تظلّ تسقط بعد المطرة الشديدة. النطع: وطاء (فراش) من لبّاد.

٤ - ** جذوة المقتبس ١٦٦ (الدار المصرية) ١٧٦ (رقم ٣٣٠)، بغية الملتمس ٢٢٨ (رقم ٥٨١)؛ الخريدة (الأندلس) ٢ : ١٦٦ - ١٦٧ ، ٦٧٦ - ٦٧٩ ؛ الخريدة (المغرب) ٢ : ٩٠ ، ٢٦٢ - ٢٧٠ ، ٥٨٥ - ٥٨٨ ؛ مطمح الأنفس ٨٣ - ٨٤ ؛ المطرب ١٢٦ وما بعد؛ المغرب ٢ : ١٧ ؛ الحلة السيراء ، ٢ : ٨٣ ، ١٦٩ - ١٧٠ ؛ وفيات الأعيان ٥ : ٤٢ - ٤٥ ، ٧ : ٣٤٠ ؛ الذخيرة ١ : ٧٩٠ - ٨٠١ ؛ نفح الطيب ٤ : ٥١ - ٥٢ ، ١٠٠ ؛ نيكل ١٩٦ .

أبو الوليد إسماعيل بن محمد

١ - هو أبو الوليدِ اسماعيلُ بنُ محمدِ بن عامرِ بنِ حبيبٍ من أهل إشبيليةَ، كان يُلقّب بحبيبٍ - وقيل إن أباه كان يُلقّب بحبيبٍ أيضاً، وكان من أهلِ الرئاسة - . ووُلدَ أبو الوليد بنُ إسماعيلَ نحوَ سَنَة ٤١٠ (١٠٢٠ م). ووَزَرَ مُدّةً يسيرة فيما يبدو للمعتضد بن عبّادٍ (٤٣٤ - ٤٦١ هـ). وقيل إن المعتصد قتله قريباً من سنة ٤٤٠ (١٠٤٨ م).

٢ - كان أبو الوليدِ إسماعيلُ بنُ محمّدٍ من أهل الفهم والعلم والبلاغة. ثم هو أديبٌ كاتب وشاعر ومؤلف. وشعره سهلٌ أنيق فيه شيء من الصناعة ونُحِسّ فيه نَفَس صفيّ الدين الحِلّيّ (ت ٧٥٠ هـ). وأكثر شعره الوصف والغزل. وهو أكثر تكلُّفاً للصناعة في شعره منه في نثره. وله كتاب « البديع في وصف الربيع » جمعه من أقوال الشعراء، وقد جعله برسم المعتضد (أي ألفه له وقدمه إليه). ويميل المؤلف في كتابه هذا إلى الكشف عن براعة الأندلسيين وتبيان عبقريتهم وابتكارهم في الأدب (في مقابل ما كان يقال فيهم من الاندفاع في تقليد المشارقة)؛ ولقد أراد أن يتابع فيه كتاب الحدائق لابن فرج الجيّاني (ت ٣٦٦ هـ).

٣ - مختارات من آثاره

- قال أبو الوليدِ إسماعيلُ بنُ محمّدٍ في صدرِ كتابهِ « البديع في وصف الربيع »:
فصلُ الربيع آرَجُ وأبهجُ[1] وآنَسُ وأنفسُ وأبدع وأرفع من أن أَحُدَّ حُسْنَ ذاتِه

(١) آرج: أكثر أرجاً (طيب رائحة). البهجة: حسن المنظر، السرور بالمنظر الحسن.

وأعُدَّ بديعَ صفاتِه. وهو مَعَ سِماتِهِ الرائقةِ وآلاتِهِ الفائقةِ لم يُعْنَ بتأليفِها أحدٌ وما انفردَ بتصنيفِهـا مُنْفَرِدٌ... لكنّ أهـلَ المشرق، عـلى تأليفهم لأشعارهم وتثقيفهم لأخبارهم - مُذ تكلّمتِ العربُ بكلامها وشُغلت بنثرها ونظامها - لا يَجِدون لأنفسهم من التشبيهاتِ في هذه الموصوفات ما وجَدتُه لأهل بلدي[1] على كَثْرة ما سَقَط منها من يدي بالغفلة التي ذكرتُها عنهم وقلّة التهَمُّم[2] بها، وعلى قرب عهدِ الأندلس بمُنْتحلي الإسلام، فكيف بمنتحلي الكلام[3]؟ فكيف (لا) يُرى فضلُهم وقد سَبقوا في أحسن المعاني مُجتلًى وأطيبها مُجتنًى[4]، وهُوَ البابُ الذي تضمّنه هذا الكتابُ فلهم فيه مِنَ الاختراع الفائق والابتداع الرائق وحُسنِ التمثيل والتشبيه ما لا يقوم أولئك[5] مَقامَهم فيه.

- ولأبي الوليدِ نفسِه في كتابه المذكور قطعةٌ (كان قد خاطب بها أباه):

لمّا خُلِقَ الربيعُ من أخلاقك الغُرَ وسُرِقَ زَهْرُه من شِيَمِكَ الزُّهر[6]. وتاقتِ النفوسُ إلى الراحةِ فيه ومالتْ إلى الإشراف على بعض ما يحتويه، من النَّوْر[7] الذي كسا الأرضَ حُلَلاً لا يرى الناظرُ في أثنائها خَلَلاً. فكأنّها نجومٌ نُثِرَتْ على الثّرى وقد مُلئتْ مِسكاً وعنبراً. إن تَنَسَّمْتَها فأَرِجَةٌ، أو تَوسَّمْتَها فَبَهِجَة تَروقُ العيونَ أجناسُها وتُحيي النفوسَ أنفاسُها...

ـ وقال يصف الربيع ثم يتخلّص إلى المدح:

أَبْشِرْ فقد سَفَرَ الثّرى عن بشْرِه وأتاك ينشُرُ ما طوى من نَشْره[8].

(١) بلدي (الأندلس).
(٢) التهمّم: طلب الأشياء والبحث عنها.
(٣) انتحل: اتّخذ نحلة (ديناً، عادة). منتحلي الكلام: البارعين في النثر والشعر.
(٤) المجتلى: المنظر. المجتنى: القطف من الشجرة (المقصود: طعماً).
(٥) أولئك: (أي: المشارقة، أهل المشرق).
(٦) الأغر: الأبيض. الشيمة: الصفة. الأزهر: الأبيض، اللامع.
(٧) النور (بالفتح): الزهر الأبيض.
(٨) سفر: كشف. الثرى: التراب (وجه الأرض). البشر: طلاقة الوجه (ارتياح الإنسان للقاء الناس سروراً بهم). النشر: الرائحة الطيّبة: وأتاك ينشر ما طوى من نشره (يعبق منه ما كان مخفياً فيه - من طيب الرائحة وجمال المنظر).

مُتَحَصِّناً من حُسنه في مَعْقِلٍ　عَقَلَ العيونَ على رِعاية زهره[1].
فضّ الربيعُ خِتامَه فبدا لنا　ما كان مِنْ سَرّائِه في سِرّه[2]،
من بعدِ ما سَحَبَ السَّحابُ ذُيولَه　فيه ودرّ عليه أنْفَسَ دُرِّه[3].
فاشْكُرْ لآذارٍ بدائعَ ما ترى　من حُسْنِ مَنْظرِهِ النضيرِ وخُبْره[4].
شهرٌ كأنّ الحاجبَ ابنَ مُحَمّدٍ　ألْقى عليه مَسْحةً من بشره[5]!

- وبعث إلى أبيه وَرْداً (بعدَ أوانه) وكَتَب إليه مع ذلك الوردِ يقول:

يا من تأزّرَ بالمكارِمِ وارتدى　بالمجدِ والفضل الرفيعِ الفائقِ،
أُنظُرْ إلى خَدّ الربيعِ مُركّبا　في وجهِ هذا المِهرجان الرائق.
وردٌ تقدّمَ، إذ تأخّر، واغتدى　في الحُسن والإحسان أولَ سابق.
وافاك مشتَمِلاً بثوبِ حَيائه　خجلاً (وقد) حيّاك آخِرَ لاحِقِ[6].

٤ - البديع في وصف الربيع (نشره هنري بارس)، باريس ١٩٤٠ م، الرباط ١٩٤٩ م.

** جذوة المقتبس ١٥٢ (الدار المصرية) ١٦٢ (رقم ٢٩٥)؛ بغية الملتمس ٢١٣ (رقم ٥٣٤)؛ الذخيرة ٢: ١٢٤ - ١٣٥؛ معجم الأدباء ٧: ٤٣ - ٤٤؛ المطرب ١٢٦؛ التكملة ١: ٤٧٤؛ المغرب ١: ٢٤٥؛ بروكلمن ١: ٣١٩؛ نيكل ١٢٣ - ١٢٤؛ الأعلام للزركلي ١: ٣٢٢ (٣٢٣).

---

(١) - كثرة جماله جعلت الأيدي تخاف أن تقطفه، ولكنّ حسنه ربط العيون بالتطلّع إليه.

(٢) - الربيع جعل الزهر يتفتّح ويبدي لنا سروره الذي كان مختفياً في الأزهار حينما كانت في براعمها.

(٣) - سحب السحاب ذيوله (مرّ منخفضاً فوق الأرض، وكان مطره قريباً). ودرّ (انهمر بكثرة). الدرّ (اللؤلؤ). أنفس: أغلى (يشبّه نقط الماء الساقطة باللؤلؤ. في هذا البيت اتكاء على أبي تمّام يصف روضاً:

فقد سحبت فيه السحائب ذيلها　وقد أخملت بالنور فيه الخمائل

-أخملت، بالبناء للمجهول. والنور، بفتح النون: الزهر الأبيض).

(٤) في الواحد والعشرين من شهر آذار (مارس) يبدأ فصل الربيع. حسن المنظر من جمال الزهر. النضير: الطريّ الممتلىء بالحياة. الخبر: الباطن الذي يعرف بالاختبار (النفع والحقيقة من الشيء).

(٥) البشر (راجع شرح البيت الأوّل). المسحة: الشيء القليل - إذا كان الربيع جميلاً إلى هذا الحدّ فلأن الحاجب ابن محمّد ألقى على الربيع شيئاً قليلاً من بشره، فكم يكون بشر الحاجب ابن محمّد عظيماً؟.

(٦) بثوب حيائه (بلونه الأحمر). حيّاك آخر لاحق: خجل منك لأنه تأخّر في المجيء إليك (لأنّه أزهر بعد جميع الأزهار).

أبو القاسم الإفليليّ

هو أبو القاسمِ ابراهيمُ بنُ محمّدِ بنِ زكريّا بن مُفَرِّجِ بنِ يحيى بن زيادِ بنِ عبدِ الله ابن خالدِ بنِ سعدِ بنِ أبي وقّاصٍ القرشيُّ الزُهْريُّ المعروف بالإفليلي أصلُه من الإفليلِ، وهي قريةٌ بالشام.

وُلِدَ أبو القاسم الإفليليُّ في قُرطُبَة في شوّالٍ من سَنَةِ ٣٥٢ (خريف عامِ ٩٦٤ م). وقد حدّثَ عن أبي بكرٍ محمّدِ بنِ الحسنِ الزُبيدي (ت ٣٧٩ هـ) بكتابِ النوادر عن أبي عليٍّ القاليّ (ت ٣٥٦ هـ). ثمّ تصدّرَ للعلم في قُرطبةَ فكان الناسُ يقرأون عليه كُتُبَ الأدبِ خاصّةً.

وبعد الفتنةِ في الأندلس تقرّبَ إلى آلِ حَمّودٍ المستبدّين بقرطبة (٤٠٧ - ٤١٨ هـ)، وكتب في أثناء ذلك للخليفة المستكفي (٤١٤ - ٤٢٦ هـ). ثم لَحِقَتْه تُهمةٌ في دينه فسُجِنَ في المُطبِق بمدينةِ الزَهراء (قربَ قرطبة) أيامَ هِشامٍ المُعتَدِّ (٤١٨ - ٤٢٢ هـ) ثمّ أُطلِقَ سَراحُه.

وكانت وفاةُ أبي القاسمِ الإفليليّ في قرطبة في ١٣ من ذي القَعْدة ٤٤١ (٨/٤/١٠٥٠ م).

كان أبو القاسم الإفليليّ عالماً باللغة والنحو ويتكلّم في البلاغة ومعاني الشعر والنقد، ضابطاً لأشعارِ العرب في الجاهلية وصدر الإسلام. وممّا يؤخَذُ عليه أنّه كان إذا أخطأ مضى على عنادِه وأصرّ على تخريج خطأه. له كتابُ «شرح معاني شعر المتنبّي» (وليس له غيره)، وهو كتابٌ حسن جيّد. وله شيءٌ من الشعر العاديّ. وكذلك عانى الكتابة حيناً ولكنّه لم ينجح (في الدواوين) لأنّه كان يكتبُ على طريقة المعلّمين المتكلّمين ولم يَجْرِ في أساليب الكُتّاب المطبوعين.

يَسلُكُ الإفليليُّ في شرح ديوان المتنبّي مسلَكاً قريبَ المأخذِ: يقدّمُ للبيتِ من الشعر بشرحٍ لُغويٍّ مُوجَزٍ ثمّ يستعينُ على ما غَمَضَ من معاني الأبيات بالاستشهاد بآياتٍ من القرآنِ الكريم وبأبياتٍ من الشعر. ثمّ ينثِرُ في أثناء ذلك كلّهِ عدداً من الملاحظات النحويّة. وهو قليلُ التعليقِ على الأبياتِ المشروحة. واهتمام الإفليليّ باللغة، حينما يشرَحُ الشعرَ، أكثرَ من اهتمامه بالبلاغة. ثمّ إنّ الإفليلي مُعْجَبٌ بالمتنبّي

إعجاباً شديداً لم يُنَبِّهْ على خطإٍ له ولا أرادَ أن يأخُذَ عليه هَفْوةً، بل كان يحاول تخريجَ أخطاء المتنبّي على وجهٍ مقبولٍ ثمّ يلتمس له الأعذارَ.

- ** جذوة المقتبس ١٤٢ - ١٤٣ (الدار المصرية) ١٥١ - ١٥٢ (رقم ٢٦٢)؛ الصلة ٩٤ - ٩٥؛ بغية الملتمس ١٩٩ (رقم ٤٨٥)؛ معجم الأدباء ٢ : ٤ - ٩؛ المغرب ١ : ٧٢ - ٧٣؛ انباه الرواة ١ : ١٨٣ - ١٨٤؛ الوافي بالوفيات ٦ : ١١٤ - ١١٦؛ وفيات الأعيان ١ : ٥١؛ بغية الوعاة ١٨٦؛ البلغة ٩؛ شذرات الذهب ٣ : ٢٦٦؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣ : ٨٠٦ - ٨٠٧؛ الأعلام للزركلي ١ : ٥٩ (٦١ - ٦٢)؛ الداية ٩٤ - ١١٦.

أبو عمرو الداني

١ - هو أبو عَمْروٍ عُثْمانُ بنُ سعيدِ بنِ عثمانَ بنِ سعيدِ بنِ عُمَرَ المعروفُ بابنِ الصَيْرفيّ، كان أبوه (ت ٣٩٣) من موالي بني أُمَيّةَ ومن أهالي قُرطبةَ.

وُلِدَ أبو عمروٍ الدانيُّ سَنَةَ ٣٧١ أو ٣٧٢ هـ (٩٨٢ م) في قُرطبةَ وبدأَ طلبَ العلم فيها وهو ابنُ أربعَ عَشْرَةَ سَنةً. وقد سَمِعَ من كثيرين من علماء الأندلس في قرطبةَ وأستُجّةَ وبَجّانةَ وسَرَقُسْطَةَ وغيرِها. ثمّ إنّه رَحَلَ في مطلع سَنةِ ٣٩٧ فسكن القَيْروانَ أربعةَ أشهرٍ ثمّ انتقل إلى مِصْرَ. وفي أواخرِ سَنةِ ٣٩٨ (صيف ١٠٠٨ م) حجّ. بعدئذٍ انصرفَ راجعاً إلى الأندلس فوصل إليها في ذي القَعْدة من سَنةِ ٣٩٩ (منتصف صيف ١٠٠٩ م). في أثناء هذه الرِحلة أخذ عن علماءَ كثيرين منهم: أحمدُ بنُ محمّد بنِ محفوظٍ الجيزيّ المِصْري (ت مصر ٣٩٩ هـ) - محمّدُ بنُ أحمدَ الكاتبُ البَغْداديّ (ت ٣٩٩ هـ) - مُحمّدُ بنُ عبدِ الله النَجّادُ (ت نحو ٤٠٠ هـ) - فارسُ بنُ أحمدَ الحِمْصي (ت مصر ٤٠١ هـ) - خَلَفُ بنُ إبراهيمَ بن خاقانَ المِصْري (ت ٤٠٢ هـ) - عُبيدُ اللهِ ابنُ سَلَمةَ اليَحْصُبيّ الأندلسيّ[1]، أخذ عنه عامّة القُرآن - محمّدُ بنُ يوسُفَ القُرطبيّ النّجاد (ت ٤١٢ هـ).

---

(١) في مقدّمة أوتّو برتزل (مصحّح كتاب التيسير ومخرجه) أن عبيد الله بن سلمة مات في الفتنة سنة ٤٥٠. لعلّ المقصود ٤٠٥.

حلّ أبو عمروٍ الدانيُّ في قرطبةَ يُقْرِئ ويؤلّفُ إلى سَنةِ ٤٠٣ ، حينما اشتدّتِ الفِتْنة فيها فغادَرَها إلى سَرَقُسْطَةَ حيثُ سكن سبعةَ أعوامٍ ثمّ انتقل إلى دانيَةَ سَنةَ ٤٠٩ هـ ، ولكنْ لم يَلْبَثْ أن انتقلَ إلى جزيرةِ مَيورقَةَ وبَقِيَ فيها ثمانيةَ أعوامٍ عاد بعدَها إلى دانية واتّخذها دارَ سَكَنٍ، ذلك لأنّ صاحبَ دانيةَ مُجاهداً العامريَّ كان ذا عِناية بالقِراءة والقُرّاء فكَثُرَتِ الرَّغبةُ فيّ أيامِهِ في ذلك. ومنذُ ذلك الحين عُرِفَ أبو عمروٍ بلَقَبِ الدانيّ. وكانتْ وفاتُه في دانيةَ في نِصْفِ شَعبانَ من سَنةِ ٤٤٤ (١٢/ ١٢/ ١٠٥٢ م)[١].

٢ - كان أبو عَمْروٍ الدانيُّ من أهلِ الذكاءِ والحِفظ والعلم والفَهْم كما كان حَسَنَ الخطِّ عارفاً بقواعده. وكذلك كان مُحِبّاً للعلوم راغباً في تحصيلها، وخصوصاً فيما يتعلّق بعُلومِ القرآن وبعلوم الحديث وروايته. وقد كان عارفاً بالفِقه مُتَبَحِّراً في اللغة وفي مذاهب النَّحويّينَ. وقد كانتْ له كُتُبٌ كثيرةٌ جدّاً ضاع منها كثيرٌ. فمن كُتُبه الباقيةِ لنا: الإدغام الكبير - الأُرجوزة في أصول السُنّة - الاقتصاد في رَسْم المُصْحَف - الإمالات - الاهتداء في الوَقْفِ والابتداء - التحديدُ في صِناعة الإتقان والتجويد - التيسير في القِراءات السَبْع[٢] - طَبقات القُرّاء - الفِتَن والمَلاحم - المُحْتَوى في القراءات الشَواذّ - المُقْنِعُ في رسم مصاحف الأمصار - النُقَطُ - المُحْكَم في نَقْط المصاحف - رسالة الظاءات القرآنية[٣]

(أ) كتاب التيسير: بدأ أبو عَمْرو الدانيُّ هذا الكتابَ، بعدَ المقدّمة، بذِكر القُرّاء السبعة الذين هم أصْلُ القِراءات المختلفة: عبدُ الله بنُ عامرٍ الشاميُّ (ت دِمَشْقَ ١١٨ هـ) - عبدُ الله بن كَثيرٍ المكّي (ت ١٢٠ هـ) - عاصِمُ بن أبي النَجود الكوفي (ت ١٢٧ هـ) - أبو عمرِو بنُ العَلاءِ البَصْرِيُّ (ت ١٥٤ هـ) - حَمْزَةُ بنُ حبيبِ الزيّاتِ

---

(١) بروكلمن (١ : ٥١٧ ، الملحق ١ : ٧١٩): نصف شوال ٤٤٤ = شباط (فبراير) ١٠٥٣ (لا أرى ذلك يستقيم في الحسبان).

(٢) وهو كتاب مشهور (نفح الطيب ٣: ١٨٠ - ١٨١).

(٣) يلفى هذا الكتاب في مستل من مجلة البلاغ (مكة) ١٩٧٠ (؟) راجع مجلة « قافلة الزيت »(شوّال ١٣٩٠ هـ = تشرين الأول - اكتوبر ١٩٧٠ م).

الكوفيّ (ت ١٥٦.هـ) - نافعُ بنُ عبدِ الرحمنِ المَدَنيّ (ت ١٦٩ هـ) - عليُّ بنُ حَمْزَةَ الكِسائيّ الكوفي (ت ١٨٩ هـ).

ثمّ ذَكَرَ الرِجالَ الذين أخذوا عن هؤلاء السبعةِ ثمّ الذين كانوا بينَنا وبين هؤلاءِ. (كيف وَصَلَتْ إلينا القِراءاتُ عنِ القرّاء السبعة).

بعدئذٍ بدأ أبو عَمْرِو الدانيُّ سَرْدَ الخِلاف في القراءات:

(وَصَلَ إلينا القُرآنُ الكريمُ تامًّا في آياتهِ وألفاظِه وترتيبِه كما كان في أيام رسولِ الله. وهنالك ألفاظٌ وأحوالٌ في القِراءة كلُّها راجعةٌ إلى الصَحابة الذين أخذوا كلَّ شيءٍ عن الرسول صلّى اللهُ عليه وسلّم). من هذه الأمورِ والأحوالِ كلِّها:

- الاستعاذة: أعوذُ باللهِ مِنَ الشَيْطانِ الرجيم، لا خِلافَ في وُجوبِ قِراءتها جَهْراً عند كلِّ بَدْءٍ لِقراءةٍ من القُرآنِ الكريم.

- التسميةُ أو البَسْمَلة: بِسْمِ اللهِ الرَحْمنِ الرَحيم، لا خِلافَ أيضاً في الجَهْرِ بها عند بَدْءِ قِراءةِ القرآن. وأَوْجَبَ بعضُهُمُ الجهرَ بها عند بدء كلِّ سورة (ولو قُرِئَتِ السُوَرُ مُتَتالِيَةً)، ماعدا سورةَ بَراءةٍ أو التَوْبَةِ فإنّه لا بَسْمَلَةَ فيها. ومنهم من يُسْقِطُ التسميةَ بين السُوَرِ عند مُتابعة التِلاوة.

- الإمالة: ومِنَ القُرّاء من يُميل «الألِفَ المقصورةَ» (يَلْفِظُها بينَ الفتح والكسر)، نحو: «والنجم إذا هَوَى ★ ما ضلّ صاحبكم وما غوى...» أو الألف الطويلة أحياناً: «أحياكم».

- الترقيق: حقّ الراءِ المفتوحةِ أو المضمومة أنْ تُلْفَظَ مُفخّمةً. أمّا الراءُ المكسورة أو الساكنة بعد كَسْرٍ فحقّها الترقيق في اللفظ. ولكنّ بعضَهم أمالَ الراء أحياناً في مثل قوله تعالى: «في الآخرَة والأُولى - سَتَجِدُني ان شاء اللهُ صابراً».

- تسهيل الهمزة: نحو قوله تعالى «فأكلَه الذيبُ» مكان «فأكله الذئب». أو كان يُهْمِلُ الهمزةَ مطلقاً (وتلك لغةٌ لأهلِ الحجاز) نحو ياخذ (مكان يأخذ)، ونحو: إنّ ياجوجَ وماجوجَ مُفْسِدون في الأرض» (مكان يأجوج ومأجوج)، الخ.

- حَذْفُ الياء المتطرّفة، كقوله تعالى: «رَبَّنا وتَقَبَّلْ دُعاءِ» (مكان دعائي) أو «وثَمودَ الذين جابوا الصَخْرَ بالوادِ (مكان الوادي)».

- قرأ جُمهورُ القرّاء: سلامٌ هِيَ حتّى مَطْلَعِ الفَجْرِ (بفتح اللام)، وقرأ الكِسائي «مَطْلِع» (بكسر اللام). الخ.

(ب) المُحْكَمُ في نقط المصاحف. المقصودُ بالنَقْطِ هنا شيئانِ: نقطُ الإعجام ونقط الحركات: نَقْطُ الإعجام للتفريقِ بين الباء والتاء والياء أو بينَ الجيم والحاء والخاء ثمّ نقط الحركات (أو الإعراب)، نحو: جَمَعَ وجُمِعَ وجَمَّعَ أو يجمَعُ ولم يجمَعْ.

كانتِ الكِتابةُ العربية في أوّل الأمر مُعرّاةً من النقط ومن الحركات (وكذلك كُتِبَتِ المصاحف). ثمّ بدأ اللحنُ يتطرّق إلى أَلْسِنَةِ العرب في قراءة القرآن أيضاً. فأشار زِيادُ بنُ أبيه على أبي الأسودِ الدُؤَلِيّ أن يُوجد طريقةً تمنَعُ مثلَ ذلك اللحن. فاستنبط أبو الأسودِ أُسلوباً من التنقيط (وضع نُقَطٍ على الأحرف) للدَلالة على لفظها مُفْرَدَةً: ب، ث، ج، خ، د، ذ، س، ش الخ. أو لمعرفة الحَركات الصرفية والنحويّة. (وقد تطوّر هذا التنقيط بدَلالَتَيْهِ حتّى صار إلى ما هو معروف اليوم في كتابتنا).

ويبقى هنالك، فيما يتعلّقُ بالمصاحف، شيءٌ هو التفريق بين التَهْجئة والرَسْم. إنّ الكلماتِ في المصاحف - ما عدا عدداً يسيراً منها - تُكْتَبُ في التهجئة بحَسْبِ لفظِها نحو: «إيّاكَ نعبُدُ وإيّاك نَسْتعين ★ اهْدِنا الصِراطَ المُسْتقيم....»

ولكنّ عدداً من تلك الكلمات «تُرْسَمُ» رَسْماً خاصّاً يُخالفُ القاعدة أحياناً (من حيث اللفظُ أو من حيث جمالُ الشكلِ أو الخطِّ أو كَراهةَ اجتماعِ حرفَيْ عِلّة وما أشْبَهَ). من ذلك:

- بِسم اللهِ الرحمنِ الرحيم (بَدَلَ: باسم اللاه الرحمان الرحيم).

- الصلوة (مكان: الصلاة، لأنّ أهل الحجاز يفخّمون لفظها) والزكوة والغدوة؛ والشيطن (الشيطان)، داود (داوود)، المنفقين (المنافقين)، الموءدة (الموءودة)، يا يّها (يا أيّها).

- وبما أنّ النَقْطَ كان لِتبيانِ لفظِ الكلمات في القُرآن الكريم فقدْ أوجَبَ الأَئِمَّةُ أن يكونَ خَطُّ الآياتِ في المصاحف بحِبْرٍ (بلون أسودَ) وأن يكونَ النَقْطُ (للإعجام أو للإعراب) بصِبْغٍ (بلون: أحمرَ أو أصفر) لكيلا يظُنَّ القارئُ القليلُ الاختبار أن

هذهِ العلاماتِ من القرآن فيَقْرَأَها فيختلطُ حينئذٍ الوحيُ بالعلاماتِ الاصطلاحية التي هِيَ مِنْ وَضْع البشر، وخصوصاً إذا كانت تلك العلامات «لتوجيهِ القارىء»، نحوَ قف، لا (يجب الوقف عند هذه الكلمة)، ط (وقف مُطلَق: يجوز الوقف ويجوز الوصل)، ز (وقف جائز: الأفضلُ أن تقطع القراءة)، جـ (وقف مجوّز: الأفضل أن تصل القراءة) الخ. فمن أجل ذلك فقط رأى الأَئِمَّةُ الأوّلون أن تكون جميع العلامات الموجّهة لمعرفة الحروف ولمعرفة الحركات ولمعرفة مواضع الفصل والوصل بِصبْغ (بلون) مُخالفٍ لِحِبر الخَطّ الأصلي في المصحف. (أمّا اليومَ، وقد أصبحَ نصُّ القرآنِ محفوظاً، فإنّ المصاحفَ تُطبع بحبر واحدٍ: النصَّ القرآني والنقاط على الحروف وعلاماتِ الإعراب وعلامات الوقف).

٣ - مختارات من آثاره

- مقدّمة «المحكم» لأبي عمرو الداني:

.... هذا كتابُ عِلْمِ نَقْطِ المصاحف وكَيْفيّته[١] على صِيَغِ التِلاوة ومذاهبِ القِراءة فيما اتفّقوا[٢] عليه وفيما اختلفوا فيه، وعلى ما سَنَّه الماضون واستعمله الناقطون وما يُوجبه قياسُ العربية[٣] وتُحَقّقه طريقُ اللغة، مشروحاً ذلك بأُصوله وفُروعه، مُبَيَّناً بِعلَلِه ووُجوهه، مَعَ ذكر السُنَنِ[٤] الواردة عن السَلَف الماضين والأئِمّة المُتقدّمين في النَقْطِ ومَنِ ابْتَدَأَ بِهِ أَوّلاً ومَنْ كَرِهَه منهم ومن تَرَخّصَ فيه، إلى غيرِ ذلك مّما يَنْضافُ إليه ويتّصلُ به من ذِكْرِ رَسْمِ فواتحِ[٥] السُورِ ورُؤوس الآي والخُموسِ والعُشور[٦]، ومَنْ أبى ذلك....

---

(١) كيفية نقط المصاحف.

(٢) .... اتّفق عليه الأئمّة.

(٣) العربية: النحو.

(٤) السنن عن رسول الله (الأحاديث الشريفة).

(٥) فاتحة السورة: أوّلها: المقصود: ذكر اسم السورة وعدد آياتها وموضع نزولها في رأس كلّ سورة.

(٦) رؤوس الآي: أوائل الآيات: وضع علامات للدلالة على انتهاء الآية وبدء التي تليها. الخموس جمع خمس: مجموع من خمس آيات (توضع له علامة)، والعشور جمع عشر. وكان بعضهم يضع علامة عند كلّ انتهاء خمس آيات وعند انتهاء كلّ عشر آيات.

- من مقدّمة «كتاب التيسير في القراءات السبع»:

... أمّا بعدُ، فانكم سألتُموني - أحسنَ اللهُ إرشادَكم - أنْ أُصنِّفَ لكم كتاباً مختصراً في مذاهب القرّاء السبعةِ بالأمصار[1]، رَحِمَهُمُ الله، يَقْرُبُ عليكم تناوُلُه ويَسْهُلُ عليكم حِفظُه ويَخِفّ عليكم دَرْسه (ثمّ) يتضمّنُ من الرواياتِ والطُرُق ما اشتهرَ وانتشر عند التالين[2] وصَحّ وثَبَتَ عن الأيمّةِ المتقدّمين. فأجَبْتُكم إلى ما سألْتُموه وأعْمَلْتُ نَفْسِيَ في تصنيفِ ما رَغِبْتُموه، على النحو الذي أرَدتُّموه، واعتمَدت في ذلك على الإيجاز والاختصار وتَرْكِ التطويلِ والتكرار. وقرّبتُ الألفاظَ وهذّبتُ التراجِمَ ونَبّهتُ على الشيءِ بما يُؤدّي عن حقيقتهِ مِنْ غير استغراقٍ لكي يُوصَلَ إلى ذلك في يُسْرٍ ويُتَحَفَّظَ في قُرْبٍ.

- جامعُ القَوْلِ في النَقْط (المحكم ١٨ - ١٩):

إنّ الذي دعا السَلَفَ، رَضِيَ اللهُ عنهم، إلى نَقْطِ المصاحف، بعد ان كانتْ خاليةً من ذلك وعاريةً عنه وقتَ رَسْمِها وحين توجيهها إلى الأمصار..... ما شاهدوه من أهلِ عصرهم - مَعَ قُرْبِهِم من زمن الفصاحة ومُشاهدة أهلِها - من فسادِ أَلْسِنَتِهِمْ واختلاف ألفاظهم وتغَيُّر طِباعهم ودخول اللحن على كثيرٍ من خواصِّ الناس وعَوامِّهم، وما خافوه مَعَ مرور الأيام وتطاوُل الأزمان من تزَيُّد ذلك وتضاعُفِه فيمن يأتي من بَعْدِهم - لا شكّ - في العلمِ والفصاحة والفَهْم والدِراية دون من شاهدوه، ممّن عَرَضَ له الفسادُ ودخل عليه اللحن، لكي يُرْجَعَ إلى نَقْطها ويُصار الى شَكْلِها[3] عند دخول الشكوك وعدم المعرفة ويتحقّقَ بذلك إعراب الكَلِمِ وتُدْرَكَ به كَيْفيّةُ الألفاظ.

ثمّ انّهم لمّا رَأَوْا ذلك وقادَهُمُ الاجتهادُ اليه بَنَوْهُ على وَصْلِ القارىء بالكَلِمِ دونَ

---

(١) المصر (بكسر الميم) عاصمة المقاطعة في مقابل «العاصمة». كانت بغداد عاصمة الدولة العباسية. أمّا الكوفة والبصرة ثمّ دمشق والقاهرة (في أيام الدولة العبّاسية) فكانت أمصارا.

(٢) التالون: القارئون (قارئو القرآن الكريم).

(٣) وضع حركة عليها.

وَقْفِه عليهنّ[1]. فأعربوا أواخِرَهُنّ لذلك لأنّ الإشكالَ أكثرَ ما يدخُلُ على المُبتدىء المتعلّم، والوَهْمَ أكثرَ ما يَعْرِضُ لِمَنْ لا يُبْصِرُ الإعرابَ ولا يَعْرِفُ القراءة في إعراب أواخرِ الأسماء والأفعال. فلذلك بَنَوُا النَقْطَ على الوَصْل دونَ الوَقْف. وأيضاً فإنّ القارىء قد يقرأ الآية والأكثر[2] في نَفَسٍ واحدٍ ولا يقطَعُ على شيءٍ من كَلِمِها، فلا بدَّ من إعرابِ ما يَصِلُه (ما يَصِلُ القارىءُ بَيْنه) من ذلك ضرورةً.

قال أبو عمرو (الداني): فأمّا نَقْطُ المصاحفِ بالسَواد من الحِبر وغيرِه فلا أسْتجيزُه، بل أنْهى عنه وأُنْكِرُهُ اقتداءً بِمَنِ ابتدأ النَقْطَ من السلف واتّباعاً له في استعمالِه لذلك صِبْغاً يُخالف لونَ المِداد، إذ كان (الصبغ) لا يُحْدِثُ في المرسومِ تَغْييراً ولا تخليطاً. والسَوادُ يُحْدِثُ ذلك فيه. ألا ترى أنّه رُبّما زِيدَ في النُقطة[3] فَتُوُهِّمَتْ لأجل السوادِ الذي به تُرْسَمُ الحروفُ – أنّها حرفٌ من الكَلِمَةِ فزِيدَ في تلاوتها لذلك. ولأجل هذا وَرَدَتِ الكَراهِيَةُ عمّن تقدّمَ من الصَحابةِ وغيرِهم في نَقْط المصاحف (بالحبر الأسود).

والذي يستعمله نُقّاطُ أهلِ المدينة في قديمِ الدهرِ وحديثِه من الألوانِ في نَقْطِ مصاحفهم الحُمرةُ والصفرةُ لا غيرَ..

٤- التيسير... حيدر آباد ١٣١٦ هـ؛ دهلي (حجر) ١٣٢٨ هـ؛ (أوتّو برتزل) ليبزغ ١٩٣٠ م.
- المقنع في معرفة رسم المصاحف (أوتو برتزل)، ليبزغ ١٩٣٢ م. المحكم في نقط المصاحف (عزّة حسن)، دمشق (وزارة الإرشاد والثقافة) ١٣٧٩ هـ= ١٩٦٠ م.

** جذوة المقتبس ٢٨٦ – ٢٨٧ (الدار المصرية) ٣٠٥ – ٣٠٦ (رقم ٧٠٢)؛ بغية الملتمس ٣٩٩ – ٤٠٠ (رقم ١١٨٥)؛ معجم الأدباء ١٢ : ١٢١ – ١٢٨؛ (قرجمتان منفصلتان)؛ الصلة ٣٨٥ – ٣٨٧؛ إنباه الرواة ٢ : ٣٤١ – ٣٤٢؛ الديباج المذهب ١٨٨؛ نفح الطيب ٢ : ١٣٥ – ١٣٦؛ شذرات الذهب ٣: ٢٧٢؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣:

---

(١) إذا وقف القارىء على آخر الآية ألغى الحركة على الحرف الأخير منها(نحو:مالك يوم الدين ★ إياك نعبد... أو. مالك يوم الدين إياك نعبد).

(٢) أكثر من آية واحدة.

(٣) اقرأ: زيدت النقطة (بالحبر الأسود).

١٠٩ - ١١٠؛ بروكلمن ١: ٥١٦ - ٥١٧، الملحق ١: ٧١٩ - ٧٢٠؛ الأعلام للزركلي ٤: ٣٦٦ - ٣٦٧ (٢٠٦).

ابن الخيّاط الأندلسي

١ - هو أبو بكرٍ يحيى بنُ أحمدَ بنِ الخيّاطِ الأندلسيُّ، وُلِدَ نحوَ سَنَةِ ٣٦٨ هـ (٩٧٨ - ٩٧٩ م). وهُوَ من تلاميذِ مَسْلَمَةَ بنِ أحمدَ المَرْحيطي (المَجْريطي = المَدْريدي)، تلقّى عليه علمَ العددِ والهندسةَ ثمّ مالَ إلى علمِ أحكامِ النجومِ وبَرَعَ فيه واشتهر. وكان مُتّصلاً بالخليفةِ سُليمانَ المُستعينِ وبالمأمون القاسمِ بنِ حمّودِ بنِ ذي النون[١] . وكانتْ وفاةُ ابنِ الخيّاطِ الأندلسيِّ سَنَةَ ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ - ١٠٥٦) في طُلَيْطُلَةَ.

٢ - كان ابنُ الخيّاطِ الأندلسي بارعاً في الهندسة والفلك وفي الطِّبّ دقيقَ العلاج، كما كان أيضاً بارعاً في النحو وأديباً شاعراً.

٣ - مختارات من شعره

قالَ ابنُ الخيّاطِ الأندلسيُّ في الشكوى:

لم يَخلُ من نُوَبِ الزمانِ أديبُ — كلاّ - فشأنُ النائباتِ عجيبُ[٢].

وغَضارَةُ الأيامِ تأبى أن يُرى — فيها لأبناءِ الذكاءِ نصيبُ[٣].

وكذاك من صَحِبَ الليالِيَ طالباً — جَدّاً وفَهْماً، فاتَه المطلوبُ![٤]

---

(١) كان الخليفة سليمان المستعين والمستبد القاسم بن حمّود في أيام الفتنة (أيام الاضطراب في قرطبة) قد تداولا مع نفر اخرين الحكم على قرطبة في فترات قصيرة متقطّعة، بين سنة ٤٠٠ وسنة ٤١٦ هـ (١٠٠٩ - ١٠٢٥ م). والأرجح أن ابن الخيّاط كان متّصلاً بالمستعين وبالمأمون من قبل سنة ٤٠٠ هـ

(٢) النوب (جمع نوبة) والنائبات (جمع نائبة): المصائب.

(٣) الغضارة: النعمة والسعة في العيش. - المقصود: النعمة لا تريد أن يكون منها نصيب للأذكياء الأمناء في هذه الحياة.

(٤) - من قضى حياته في طلب العلم بالجدّ (بكسر الجيم: المثابرة) والفهم لم يكن لديه وقت لطلب المال والحظّ.

وقال في بخيل:

لا تكـــونَنَّ مُبْرِمـــاً[1] وعَسوفاً، سَلْهُ أُدْماً، وخَلِّ عنك الرغيفا[2].
أكْرَمَ الخُبْـزَ بالصِّيانةِ حتّى جعـل الكَعْـكَ للبنـاتِ شُنوفا[3].

٤ - ★★ طبقات الأطبّاء ٢: ٥٠؛ معجم الأدباء ١٩: ٣١٣ - ٣١٤؛ الوافي بالوفيات ٦: ١١٤.

أم العلاء الحجاريّة

١ - هي أمُّ العَلاءِ بنتُ يوسفَ الحِجاريةُ، نِسبةً إلى مدينة وادي الحِجارة في شَمالِيِّ الأندلسِ، عاشتْ في القرنِ الخامس للهِجْرة (الحادي عَشَرَ للميلاد).

٢ - كانتْ أمُّ العَلاءِ الحِجاريّةُ حَسَنَةَ الشِّعْرِ، وفي شِعْرِها لَفَتاتٌ، وفيه شيءٌ من الضَّعْف.

٣ - مختارات من شعرها

كان رَجُلٌ أشْيَبُ قد عَشِقَ أمَّ العَلاءِ الحِجاريّةَ فكَتَبَتْ إليه:

الشيـبُ لا يُخْـدَعُ فيـه الصِّبا بحيلـــةٍ، فاسْمَـــعَ إلى نُصْحي
فلا تكُنْ أجهلَ مَنْ في الوَرى يَبيـــتُ في الجَهْـلِ كما يُضْحي!

ولها في النسيب:

كـــلُّ مـــا يَصْدُرُ منـــكم حَسَنٌ، وبعَلْيـــاكمْ تَحَلّـــى الزَّمَنُ.
تَعْكِـفُ العـينُ عـلى مَنْظرِكمْ وبـــذكـراكـم تَلَذُّ الأُذنُ[4].

---

(١) المبرم: الملحّ في السؤال. العسوف: الشديد العنيف في المطالبة.

(٢) الأدم (بضمّ الهمزة) جمع أدمة (بضمّ الهمزة أيضاً): الناقة السمراء الثمينة، السمن، الطعام المعالج بالسمن. - المعنى: أطلب من هذا الرجل البخيل شيئاً ثميناً (نياقاً أو طعاماً مطبوخاً بالسمن واللحم) (لأنّه يمكن أن يعتذر حينئذ اعتذاراً لطيفاً فيقول لك: ليس عندي الآن مثل هذا - ويكون صادقاً). أمّا إذا طلبت منه رغيفاً (والرغيف يجب أن يكون موجوداً دائماً عند جميع الناس، فلا يمكنه أن يعتذر عند منع الرغيف عنك بعذر مقبول فيتظاهر بالغضب الشديد ويسيء إليك).

(٣) الشنف (بفتح الشين) حلية صغيرة تعلّق في أعلى الأذن.

(٤) عكف على الصنم: أطال الوقوف أمامه. تعكف العين على منظركم: تنظر إليكم كثيراً سروراً بكم.

مَنْ يَعِشْ دونَكُمُ في عُمْرِه فَهُوَ في نيـــل الأمـــاني يُغْبَنْ.

وقالت في العتاب والاعتذار:

اِفْهَمْ مَطارحَ أحوالي وما حَكَمَتْ به الشواهدُ واعْذُرْني ولا تَلُم[1]؛
ولا تَكِلْني إلى عُذْر أُبَيِّنُه شرّ المعاذيرِ ما يَحْتاج للْكَلم![2].

٤ - ** المغرب ٢: ٣٨؛ نفح الطيب ٤: ١٦٩؛ بغية الوعاة ٢٢.

ابن البزلياني

١ - هو أبو عبدِ اللهِ محمّدُ بنُ أحمدَ - أوِ ابن عامرٍ (المغرب ١: ٤٤٤) - البزليانيّ، أصلُه من مالَقَةَ، وهو منسوبٌ إلى بزليانةَ (حِصْنٍ من حصون مالَقَةَ على بحر الزُّقاق - بين الأندلس والمغرب). وكان مولده في صَفَرَ من سَنَةِ ٣٩١ (الصلة ١: ٢٦٧).

عَمِلَ ابن البزلياني كاتباً أو وزيراً عند نفرٍ من ملوك الطوائف: كان عند حَبّوسٍ صاحبِ غَرْناطةَ، وكانتْ ولايةُ حَبّوسٍ من سَنَةِ ٤١٠ إلى سنة ٤٣٠ للهجرة. ولّما استولى المُعتَضِدُ صاحبُ إشبيلية على أُونبةَ وشلطيشَ (في أقصى الجَنوب الغربيّ من البرتغال اليوم)، سَنَةَ ٤٤٣ هـ، جعَلَ ابنَهُ مُحمّداً والياً عليهما وجعل ابنَ البزليانيِّ كاتباً لابنهِ ووزيراً.

ثمّ نشأتْ لإسماعيلَ بنِ المُعتضدِ ناشئةُ استقلالٍ عن أبيه وأرادَ قتلَ أبيه في سبيلِ ذلك - وقيلَ بل زَيّنَ له ذلك وزيرُهُ ابنُ البزلياني، فَقَتَلَهُ المعتضدُ في أولِ ثورةِ ابنهِ إسماعيلَ (الذخيرة ٢: ١٤٧ ن) - . وقد قَتَلَ المعتضدُ بعدَ ذلك بمدّةٍ قصيرةٍ ابنَهُ إسماعيلَ، سَنَةَ ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م).

٢ - أبو عبدِ اللهِ بنُ البزليانيّ أديبٌ كاتبٌ مترسّلٌ، له رسائلُ ديوانيةٌ ورسائلُ

---

(١) مطارح أحوالي: كيف تقلّبت بي الأحوال (المصائب التي نزلت بي). الشواهد: جمع شاهد: العلامة الظاهرة.

(٢) - العذر الذي يحتاج إلى شرح (ولا يكون ظاهراً بنفسه ليس عذراً).

إخوانيّة. وأغراضُه فيها المديحُ والعِتاب والهجاء. وكانتْ له معرفةٌ باللغة. ويبدو أنه كان يَنْظِمُ الشعرَ (راجع الذخيرة ١ : ٦٣٥)، إذ يقول في إحدى رسائله: «... وكما أن بَرَكَةَ الأشجارِ في الأنوار، فكذلك بركةُ الأدب في الرسائل والأشعار».

٣ - مختارات من آثاره

- لابن البزلياني رسالةٌ إلى ابن مُنذرٍ[١] جاء فيها (الذخيرة ١ : ٦٢٧):

واتّصل بي ما وقَع بينك وبينَ المؤتَمَنِ وأبي المُنذرِ والموفَّقِ وعضُد الدولة أبي الحسن[٢]، وأنّكُمُ اضْطُرِرْتُمْ إلى إخراجِ كلٍّ فريقٍ منكم النصارى إلى بلاد المسلمين[٣]. فنظرتُ في الأمر بعينِ التحصيل وتأوّلْتُه بحقيقة التأويل، فعَظُمَ قَلَقي وكَثُر على المسلمين شَفَقي في أن يطأَ أعداؤهم بلادَهم ويُوتِموا أولادَهم ويتّسعَ الخِرْقُ على الراقع وينقطعَ طَمَعُ التلاقي على الطامع. ولو لم تكن - يا سيّدي - الفتنةُ إلاّ بينَ المسلمين والتشاجرُ إلاّ بين المؤمنين[٤]، لكانتِ القارعةُ العُظمى والداهيةُ الكبرى. فإذا (نحن) تأيّدْنا بالمُشركين واعتَضَدْنا بالكافرين[٥] وأبَحْناهم حُرْمَتنا ومنحناهم قوّتنا وقتلنا أنفُسَنا بأيدينا وأدّتْنا إلى النَّدَمِ مَساعينا، كانتِ الدائرةُ أمضَّ والحَيْرة أرمَضَ[٦] والفِتنة أشدَّ والمِحنة أهدَّ والأعمالُ أحبَط والأحوالُ أسقطَ والأوزارُ أثقلَ والمَضارُّ أشمَلَ. والله يُعِيذُنا من البوائق[٧] ويسلُكُ بنا أجملَ

---

(١)و(٢) ابن منذر والمؤتمن وأبي المنذر والموفق وعضد الدولة أبي الحسن يجب أن يكونوا من ملوك الطوائف وأن يكونوا أيضاً في زمن واحد. ولكن أسماء نفر من ملوك الطوائف وألقابهم وكناهم تتشابه أو تتفق. وبمراجعة جداول زامباور (ص ٨٩ وما بعد) لم أستطع أن أعيّن أصحاب هذه الأسماء تعييناً دقيقاً صحيحاً.

(٣) الشكوى من أن هؤلاء الملوك المسلمين كانوا يستعينون بجيوش النصارى على قتال بعضهم بعضاً أو على قتال منافسيهم المسلمين.

(٤) لعلّ الأصح أن يقال: ولو لم يكن (من ذلك) إلاّ الفتنة بين المسلمين وإلاّ التشاجر بين المؤمنين. «كان» في هذه الجمل والتي بعدها «تامّة» تحتاج إلى فاعل لا إلى اسم وخبر.

(٥) تأيّدنا واعتضدنا: استعنّا.

(٦) الدائرة (المصيبة المفاجئة) أمضّ (أشدّ ألماً). أرمض (أشدّ حرّاً).

(٧) البائقة: الشرّ، الداهية.

الطرائق... ولمّا انتظرتُ أن يُسْفِرَ ذلك الديجورُ[1] وتستقرَّ تلك الأمورُ، (ثمّ) أبطأ عليّ ذلك ولم يعُدْ مِنْ قِبَلِكَ رسولٌ إليّ، داخلتُ عميدَ الدولةِ[2] جاري في هذه الأنباء وراوَضْتُه[3] في علاج هذه الأدواء. وأنت - يا سيّدي - للمسلمين الحِصْنُ الحَصينُ والسَّبَبُ المتينُ والنَّصيح الأمين، فاجْرِ في جَمْعِ كَلِمَتِهِمْ والمُراماةِ دون حوزتهم[4]

- وله رسالةٌ إخوانيةٌ إلى، أبي جعفرِ بنِ عبّاسٍ[5] يقَرِّعه فيها (وقد كان زارَه فلم يُوَفِّهِ حقَّه من إكرام الضيف) (الذخيرة ١ : ٦٣٣):

كُلَفُ المُروءةِ - أبقاك اللهُ - صعبةٌ إلاّ على الكِرام، وطُرُقُ الجَفاء رحبةٌ لسلوك اللِئام. والأحمقُ يرى البِرَّ[6] خُسراناً ويعتقدُ إكرامَ الوافدين نُقصاناً، فيَمْنَحُ الكثيرَ من عِرْضه ويمنَع اليَسيرَ من عَرَضه[7]، ويلبَسُ دِرْعاً وهو مهتوكٌ بالطَّعْن[8]، ويجعل الكِبرياء رِداءه وهو مُطرّزٌ باللعن... وما يتكبَّرُ متكبّرٌ إلا من جَهْله، وعُجْبُ المرءِ أحدُ حُسّادِ عَقْله[9] ... وجِئْتُك زائراً فكأنّي جِئْتُك آملاً[10]. وأردتُ مُصافحَتَك فما مَدَدتَّ إليَّ يداً. وطلبتُ مُعانَقَتَك فخِلْتُكَ مُقْعَداً[11]. وبعدَ أن هَمَمْتَ بالنُّهوض أقْعَدَكَ الكسلُ، كأنك خُمصانةٌ أثقَلَها الكَفَلُ[12]. وجعلتَ تُشيرُ بالحاجب وتَلْوي الشَّفَة

---

(١) أسفر: انكشف (زال). الديجور: الظلام (الشدّة، المحنة).

(٢) داخلت: شاركت في البحث، شاورت، حاولت معرفة رأي (فلان). عميد الدولة (؟).

(٣) راوض فلان فلاناً (حاول استمالته وإقناعه).

(٤) أجر (فعل أمر): سِرْ، اسع، حاول. المراماة (أن يرمي كلّ خصم خصمه بالسهام). و(هنا): قاتل، دافع. الحوزة: ما يملكه الإنسان.

(٥) أبو جعفر بن عبّاس الوزير الكاتب.

(٦) البرّ: عمل الخير والإحسان إلى الآخرين والطاعة للأقارب.

(٧) العرض (بالكسر): الشرف، ما يجب أن يدافع الإنسان عنه. (وبفتح ففتح): السلعة، المادّة.

(٨) الدرع (التي تلبس في الحرب) مؤنّثة: إقرأ إذن: وهي مهتوكة (مقطوعة، ممزقة: لا تدفع أذى). والدرع (ثوب للفتاة) مذكّر.

(٩) العجب (رفع الإنسان نفسه فوق مقامها) من حسّاد عقله (يصرف الرجل عن الاستعانة بعقله؟).

(١٠) ... جئتك آملاً (جئت إليك أطلب عطاء أو مالاً).

(١١) خلتك (ظننتك) مقعداً (عاجزاً عن القيام على رجليك).

(١٢) الخمصانة (الفتاة النحيلة الخصر) أثقلها (منعها من النهوض) الكفل: مؤخّرة الإنسان (لضخامته).

وتَدّعي - بالجهلِ في كلِّ شيءٍ - معرفةً. فما كان ضَرّكَ حينَ أخْلَلْتَ لو أجْلَلْتَ ؟[1] وما كان يَسوءُك حينَ ناظرتَ لو أجْمَلْتَ؟[2] وما كان يَنْقُصك[3] حين حكمت لو عدلتَ؟.

٤ - ★★ الذخيرة ١: ٦٢٤ - ٦٤٣، ٣: ١٤٦ - ١٤٧؛ الصلة ٢٦٧ راجع المغرب ١: ٤٤٤ - ٤٤٥.

ابنُ بُرْدٍ الأصغر

١ - هو أبو حَفْصٍ أحمدُ (الأصغرُ) بنُ محمّدِ بن أبي حَفْصٍ أحمدَ (الأكبرِ) بنِ بُرْدٍ مولى أحمدَ بنِ عبدِ المَلِكِ بنِ عمرَ بنِ محمّدِ بنِ شُهيدٍ.

كان أحمدُ بْنُ بُرْدٍ الأصغرُ من أهلِ بيتِ جاهٍ ورِئاسةٍ فقد كان جَدّه أحمدُ بنُ بُرْدٍ الأكبرُ (٣٣٥ - ٤١٨ هـ) وزيراً في أيام الدولة العامريّة. وقد قرأ أحمدُ الأصغرُ على جَدّهِ فنونَ الأدبِ والعلمِ كما تعلّم على يَدَيْهِ صِناعةَ الكِتابة ثم مارسَها قبلَ أن يُتَوفّى جَدّهُ (سَرَقُسْطَة، ٤١٨ هـ = ١٠٢٧ م).

كان آلُ بردٍ يَعيشون في قُرطبةَ. ويبدو أنّهم تركوها في المحرّم من سَنَةِ ٤٠٧ هـ (حَزيرانَ - يونيو ١٠١٦ م) لمّا ضَيّق عليُّ بنُ حمّودٍ المستبدُّ بقرطبةَ على الذين كانوا قد خدموا سليمانَ المستعينَ الأمويّ وفيهم جَدّه أحمدُ بن بُرْدٍ الأكبرُ (راجع الذخيرة ١: ٨٠ - ٨٢). والذي أُرجّحه أنّهُمْ انتقلوا إلى دانِيَةَ فاتّصل أحمدُ الأصغرُ بمُجاهدٍ العامريّ (٤٠٨ - ٤٣٢ هـ) ثمّ بابنهِ وخَلَفِه أبي الأحْوصِ مَعْنٍ (٤٣٢ - ٤٣٦ هـ). ثمّ إنّه انتقل إلى المَرِيّةِ، قبلَ ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م)، فقد قال الحُميديُّ (جذوة ١٠٧): «وقد رأيته بالمَرِيّة بعدَ الأربعينَ وأرْبعِمائةٍ زائراً لأبي مُحَمّدٍ عليِّ بنِ أحمدَ غيرَ مرّة». وقدِ استوزرَه المُعْتصمُ بن صُمادحٍ. وبما أن المعتصم بن صُمادحٍ جاء إلى حُكم المَرِيّة سَنَة

---

(١) أخلّ الرجل في أمر: قصّر فيه (ماديّاً). أجلّ: أحترم (معنويّاً).
(٢) ناظر فلان فلاناً: ناقشه. المقصود هنا: طلب المساواة به.
(٣) الفعل «نقص» يكون لازماً ومتعدّياً. ما ينقصك؟: ما ينقص منك؟ ما تخسر؟.

٤٤٤، فالمُنتَظَر أن يكونَ ابنُ بُردٍ قد بَقِيَ في المَرِيّةِ بعدَ ذلك مُدّة. وكذلك صَنّف ابنُ بردٍ كتاباً للمعتصم بن صُمادح ورفعه إليه، ولا نَدْري أفَعَلَ ذلك قبل أن يَلِيَ الوِزارةَ (وهذا أقربُ إلى المعقول لأنّ مثل هذا العمل يكون لتقرّبِ الإنسانِ من ذَوي الجاهِ، وقلّ ما ينفع بعد الوصول إلى الوزارة) أم بعد ذلك.

ولَعَلَّ وفاةَ أحمدَ بنِ بُرْدٍ الأصْغرِ كانتْ في حدود سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) أو بعد ذلك بقليل، في المرية على الأرجح.

٢ - كان أحمدُ بنُ بردٍ الأصغرُ كاتباً بليغاً له رسائلُ سُلطانيّاتٌ ورسائل إخوانيّات، وهو كثيرُ التأنّق والتكلّف فيها. وكذلك كان شاعراً مليحَ الشعر له قصيدٌ ورجزٌ. وقيمةُ شعره إنّما هي في أنّه يأتي بالصِناعة البارعة في التركيب البَدْوي المتين. وأكثر شعره الوصفُ. وقدِ اشتهرَ برسالةِ السيفِ والقلم وهي مُباراة في بيانِ فضل السيفِ وفضل القلم.

٣ - مختارات من آثاره

- من رسالة السيف والقلم، وهي رسالة كتبها ابن برد الأصغر إلى الموفّق أبي الجيش مجاهد العامريّ صاحب دانية والجزر الشرقية (٤٠٨ - ٤٣٢ هـ):

... وإنّ السيفَ والقلمَ - لمّا كانا مِصْباحينِ يَهْدِيانِ إلى القَصْدِ مَنْ باتَ يَسْري[١] إلى المجد، وسُلّمَيْنِ يُلْحِقانِ بالكواكبِ مَنِ ارتقى لِسامياتِ المَراتب، وطريقينِ يَشْرَعانِ نَهْجَ الشرفِ لِمَنْ تَقَرّى إليه، ويجمعانِ شَمْلَ الفخر لِمَنْ تأشّبَ[٢] عليه... - جرّرا أذيالَ الخُيَلاءِ تفاخُراً وأشَمّا بأنفِ الكِبرياءِ تنافُراً، وادّعى كلُّ واحدٍ منهما أنّ الفوزَ لقِدْحِهِ وأن الوَرْيَ لقَدْحه[٣]... وحين كشفَ الجِدالُ قِناعَه ومدّ

(١) سرى يسري: مشى في الليل، (وهنا). سار بعزم وثبات.

(٢) شرع: أظهر وبيّن. نهج: طريق واضح. تقرّى البلاد وقرا البلاد: سار فيها ينظر إلى خصائصها وطرقها وأحوالها. تأشّب: اجتمع.

(٣) أشمّا (رفعا) بأنف الكبرياء: تنافرا (دعا كلّ منهما صاحبه إلى القتال). الفوز لقدحه (بكسر القاف): القدح سهم عليه رقم يستخدمونه في الميسر (القمار) والقدح الفائز (الرابح). والقدح (بفتح القاف): استخراج النار من حجر الصوّان بضربه بقطعة من حديد. الوري: الإشعال والاشتعال.

الخِصامُ ذِراعه... قاما يَتباريانِ في المَقال ويتساجلانِ في الخِصال ويَصِفُ كلٌّ واحدٍ منهما جَلالَ نفسِهِ ويذكُرُ فضلَ ما اجْتُنِيَ من غَرْسِه[1]....

فقال القلمُ: ها! اللهُ أكبرُ! أيُّها السائلُ بَدْءاً يَعْقِلُ لِسانَك ويُحَيِّرُ جَنانَكْ[2] وبَديهةً تملأُ سَمْعَكَ وتُضَيِّق ذَرْعك[3]: خيرُ الأقوالِ الحقُّ، وأحْمَدُ السَجايا الصِّدْقُ. والأفضلُ مَنْ فضّلَهُ اللهُ عزَّ وجلّ في تَنْزيلِهِ، مُقْسِماً بهِ لِرسولِهِ، فقال: «نَ، والقلم وما يَسْطُرون»؛ وقال: ﴿اقْرَأْ وربُّكَ الأكرمُ الّذي علّم بالقلم﴾[4]. فجلَّ مِنْ مُقْسِمٍ وعزَّ مِنْ قَسَمٍ. فما تراني وقد حَلَلْتُ بينَ جَفْنِ الإيمانِ وناظِره، وجُلْتُ بين قلبِ الإنسان وخاطِرِه! لَقَدْ أخذتُ الفضلَ برُمّتِهِ وقُدتُّ الفَخرَ بأزِمَّتِهِ[5].

فقال السيفُ: عَدِّنا مِنْ ذِكْر الشريعة إلى ذكر الطبيعة، ومن وصف المِلّةِ إلى وصف الخِصلة[6]. لا أُسِرُّ ولكنْ أُعْلِنُ: قيمةُ كلِّ امْرِئٍ ما يُحْسِنُ! إنّ عاتِماً حمل نجادي لَسعيدٌ، وإنّ عَضُداً بات وِسادي لَسديدٌ[7]. وإنّ فتًى اتّخذني دليلَه لَمَهْدِيٌّ، وإنّ امْرَأً صَيّرني رسولَه لَمُفَدًّى. يُشَقّ مِنّي الدُّجى بِمِصْباح، ويُقابَلُ كلُّ بابٍ بِمفتاح.

---

(١) تساجل الرجلان: تباريا وتفاخرا. ما اجتني (ما قطف) من غرسه (أشجاره): ما استفاده من جهوده.

(٢) يعقل (يربط) لسانك ويمنعه من الكلام (الله أكبر هو البدء الذي يفعل ذلك!). الجنان: القلب.

(٣) البديهة: الكلام الفوري بلا استعداد. يملأ سمعك (يدهشك) ويضيّق ذرعك (مقدار ما بين كتفيك: صدرك): يجعلك تعجز عن الجواب.

(٤) ن... (مطلع السورة ٦٨، سورة القلم). والحرف «ن» هنا يمكن أن يكون معناه «حرف، كلمة» ويمكن أن يكون معناه «محبرة» (وكلا المعنيين متعلّق بالقراءة والكتابة وبفضل القلم). إقرأ... (في مطلع السورة ٩٦، سورة العلق، أوّل سور القرآن نزولاً على رسول الله).

(٥) بين جفن الإيمان وناظره (في أسمى الأمكنة منه: في القرآن). بين قلب الإنسان وخاطره. في عقله (وهو خير الأمكنة فيه). برمّته (الرّمة قطعة الحبل يربط بها البعير): كلّه. وقدتّ الفخر بأزمّته (جمع زمام: لجام): استأثرت به وحدي.

(٦) عدّنا: اجتز بنا، لنترك. الشريعة: الدين (الدفاع عن القلم بقول الدين فيه) إلى الطبيعة: إلى عمل القلم (أو السيف) وحده. ومن الملّة (الدين) إلى الخصلة (الصفة الذاتيّة).

(٧) العاتق: ما بين العنق وطرف الكتف. النجاد: حمالة السيف. العضد: ما بين المرفق إلى الكتف. بات وسادي (أصبح مقيلاً لي، حملني). يقول السيف: من ملكني دافعت عنه وحميته. سديد: صائب الرأي.

أَفْصَحُ والبطلُ قد خَرِسَ، وأَبْتَسِمُ والأجلُ قد عَبَس[1] ...

- قال ابن برد الأصغر في الشكوى من ظلم المحبوب:

بـــأبـــي أنـــــتَ وأُمِّـــي ... لِـــمْ تَطَبَّعْـــتَ بظُلْــمـــي؟[2]
أَبَـداً تـأتـي بـعَـتْـبٍ ... دون أن آتـــي بـــذَنْـــب
بَيْنَنا في الحُبِّ قُرْبى: ... سُـقْـمُ عَيْـنَيْـكَ وجِسْمـي!

- وقـــال في الشكوى من البُعاد:

يا مَنْ بِفيهِ يَعْبَقُ العَنْبَرُ ... ومَنْ لَمـــاه سُـــكَّرٌ مُسْـكِرُ[3]،
صَـحَّ الـهـوى مِـنّـا، ولكنّـني ... أعْجَـبُ من بُعْـدٍ لَنـا يُقْـدَرُ[4].
كــأنّنـــا فـــي فَلَـــكٍ دائـــرٍ ... فأنـــت تَخْفـــى وأنـــا أظْهَرُ[5]!

- وقال في النسيب والخمر:

سقاني - وجفـنُ اللّيْـلِ يَغْسِلُ كُحْلَه ... بمـاءِ الصبـاحِ والنسيمُ رَقيـق -[6]
مُداماً كذَوْبِ التِّبْر: أما نِجارُها ... فضَخْمٌ وأمّـــا جِرْمُهـا فدَقيـق[7].

- وقال في وصف الطبيعة:

سقـى جَـوْفَ الـرُّصافـةِ مُسْتَهِلٌّ ... تُؤَلِّـفُ شَمْلَـه أيْـدي الرِّيـاح[8].

---

(1) السيف (القوّة) يشقّ الدجى (سواد الليل)... ويقابل كلّ باب بمفتاح: يفصل في المشاكل ويسهّل الأمور. الأجل: مدّة الحياة الدنيا. في الحرب والأخطار حينما يسكت البطل من الذهول والخوف أفصح أنا (أي أتكلّم): أنقذ البطل من الخطر. وإذا كاد المحارب أن يقتل (وكنت أنا في يده) أبعدتّ عنه القتل.

(2) أفديك بأبي... لماذا أصبح ظلمي طبعاً فيك؟

(3) يعبق العنبر: تفوح رائحته الطيّبة (من فمه). اللمى: سمرة في الشفاه. ومن لماه: تقبيل شفتيه.

(4) - كلانا يحبّ صاحبه، ومع ذلك فإنّ الدهر قدّر لنا (حكم علينا) بالبعد (الفراق).

(5) - كأنّنا موجودان على نقطتين متقابلتين في الفلك (مدار النجم أو النجوم) فلا يمكن أن نرى (من مكان واحد في الأرض) في وقت واحد.

(6) جفن الليل يغسل كحله بماء الصباح: الليل يفتح عينه (ليأتي النهار) فكأنّه يأتي بماء الصبح (النور) ليغسل به الكحل (سواد الليل)...

(7) مدام: خمر. التبر: الذهب. النجار: الأصل. الجرم: الجسم، المادّة.

(8) بطن الرصافة (وسط مدينة الرصافة). مستهلّ: مطر. تؤلّف شمله...: تزيده الرياح تجمّعا فيكثر سقوط الماء منه (من السحاب المتجمّع).

مَحَلٌّ ما مَشَيْتُ إلَيْه إلاّ مشى فِيَّ ابْتهاجي وارْتياحي[1].
كـأنّ تَـرَنُّـمَ الأطيـارِ فيـهِ أغـانٍ فوق أوتـارٍ فِصـاحٍ[2]؛
كـأنّ تَـثَـنّـيَ الأشجـارِ فيـه عَـذارَى قد شَرِبْنَ سُلافَ راحِ[3]؛
كـأنّ الجَـدْوَلَ المُنْسـابَ نَصْـلٌ صَقيـلُ المَتْنِ هُزَّ إلى كِفـاحِ[4]؛
كـأنّ رِياضَهُ أبْـرادُ وَشْـيٍ تَعَطَّفُ فوق أعْطافٍ مِلاحِ![5]

٤ - ** الذخيرة ١: ٤٨٦ - ٥٣٥؛ جذوة المقتبس ١٠٧ - ١٠٨ (الدار المصرية ١١٥ - ١١٦ (رقم ١٩٢)؛ بغية الملتمس ١٥٣ (رقم ٣٥٤)؛ معجم الأدباء ٥: ٤١ - ٤٢؛ الوافي بالوفيات ٧: ٣٥٠ - ٣٥١؛ المطرب ١٢٧ - ١٣٢؛ المغرب ١: ٨٦ - ٩١؛ نفح الطيب ٣: ٥٤٥ - ٥٤٦؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٧٤٠؛ الأعلام للزركلي ١: ٢٠٦ - ٢٠٧ (٢١٣).

ابن حصن الإشبيليّ

١ - هو أبو الحسنِ عليُّ بنُ غالبِ بنِ حُصْنٍ الإشبيليُّ نشأ في إشبيليَةَ ولم يكن فيها من ذوي اليَسار. ثمّ إنّه اتّصل بإسماعيلَ بنِ المُعتضد بنِ عبّادٍ؛ ومن طريق إسماعيلَ اتّصلَ بالمعتضد. ونال ابنُ حصنٍ حظوةً عند المعتضد فولاّه المعتضدُ الوزارةَ والكِتابةَ فحسُنَتْ حالُه.

وفي سَنَةَ ٤٤٠ هـ أو بعدَها بقليل جاء ابنُ زيدونٍ إلى بَلاطِ بني عبّادٍ في إشبيليَةَ فأصبحَ وزيراً للمعتضد. حينئذٍ نشأتْ بينَ ابنِ حُصنٍ وابنِ زيدونٍ نُفْرةٌ فحَسَدٌ. جعلَ ابنُ حصنٍ يُعرِّضُ بابنِ زيدونٍ ثمّ هجاه. ولكنّ ابنَ زيدونٍ سكت في الظاهر عن ابن

(١) الابتهاج والارتياح: الفرح والسرور.
(٢) أغان...: أغان عذبة يرافقها عزف بارع على الآلات الموسيقية.
(٣) السلاف: الخالص من الخمر (أجود الخمر). الراح: الخمر.
(٤) نصل: حديدة عريضة قاطعة (سيف). هزّ إلى الكفاح (القتال). يشبّه النهر الذي يجري متعرّجاً ينساب (كالحيّة) بالسيف الذي يهزّه حامله في الهواء (فيتثنّى لدقّته).
(٥) البرد (بالضمّ): ثوب من الحرير. الوشي: التطريز. تعطّف: استدار، استقر. الأعطاف جمع عطف (بكسر العين): الجانب الأعلى من الجسد. ملاح جمع مليح ومليحة (جميل وجميلة).

حصن. ثمّ كانت مِحْنةُ ابن حصن: كان المعتضدُ قد جعل ابنَه إسماعيلَ - ولم يكنْ إسماعيلُ بِكْرَهُ - وليّاً للعهد. غَيْرَ أنّ إسماعيلَ حاولَ الغدرَ بأبيهِ لِتَولّي المُلكِ قبلَ أوانه وشايَعه على ذلك نفرٌ فيهم ابنُ حصن.

قال ابنُ عِذاري (البيان المغرب ٣ : ٢٤٤): «وفي سَنَةِ ٤٤٩ (١٠٥٧ م) قتل عبّادٌ المعتضدُ بالله ابنَه إسماعيلَ - وكان خليفتَه المُرشَّحَ لمكانِهِ - بعدَ أن كان (إسماعيلُ) هَمّ بغدره. فأخذَه أبوه وثقّفه (حَبَسَه مُقيّداً) في قصره. فذهب (إسماعيل) إلى التّدبير عليه ثانيةً من مَكانِ اعتقاله. فقال عبّادٌ: «لا يُلْدَغُ المُؤمِنُ من جُحْرٍ مرّتين» (وهذا حديث شريف) فقتله بيده وقتلَ الوزيرَ الذي واطأه على ذلك (والراجحُ أن هذا الوزير كانَ ابنَ حصنٍ) - راجع، فوق، ص ٥٠٧.

٢ - يبدو أن ابنَ حصنٍ الإشبيليَّ كان شاعراً مُكثراً أجاد الوصفَ والفخر والمديح والغزل والخمر والمُجون. وهو متينُ الأُسلوبِ جَزْلُ الألفاظ يطبَعُ على غِرارِ المشارقة. وكان طويلَ النفس إلاّ أن المعانيَ المبتكرةَ في شعره قليلةٌ. وجمالُ شعرِه إنّما هو من حيثُ الصياغةُ المتينة المُعبّرةُ عمّا يريد.

٣ - مختارات من شعره

- قال ابنُ حصنٍ الإشبيليُّ يَصِفُ فَرْخَ حَمامٍ:

وما هاجَني إلاّ ابنُ ورقاءَ هاتفٌ ... على فَنَنٍ بينَ الجزيرةِ والنهرِ[1]؛
مُفَسْتَقُ طَوْقٍ لازَوَرْدِيُّ كَلْكَلٍ ... مُوشّى الطُّلا أحوى القوادمِ والظهرِ[2]؛
أدارَ على الياقوتِ أجفانَ لؤلؤٍ ... وصاغ من العُقيانِ طَوْقاً على الثّغْرِ[3].

---

(١) ورقاء: حمامة. فنن: غصن.

(٢) مفستق: مائل الى الخضرة. الطوق: العقد (ريش ملوّن حول عنق الحمامة). لازورديّ: أزرق. الكلكل: أعلى الصدر. موشّى: مطرّز (مختلف الالوان). الطلا جمع طلاة (بالضمّ): العنق أو جانب العنق. أحوى: أسمر. القوادم جمع قادمة: ريشة في طرف الجناح.

(٣) عيناه حمراوان وأجفانه بيض. العقيان: الذهب الخالص (الأصفر). يكون على جانبي منقار الحمامة لحيات مستطيلة حمراء. ويبدو أن الشاعر قد خلط بين العقيان (الذهب الأصفر) والعقيق (الحجر الكريم الأحمر).

حـديدُ شَبـا المِنـقار داجٍ كـأنّـه ... شَبا قلمٍ من فِضّة مُدّ في حِبر[١].
تـوسّدَ مـن فَـرْعِ الأراك أريـكـةً ... ومالَ على طيّ الجَناحِ من النَّحْر[٢].
ولـمّا رأى دمـعـي مُـراقـاً أرابه ... بُكـائيَ فاستولى على الغُصُنِ النَّضْر[٣]،
وحـثّ جنـاحَيْهِ وصَفّـق طـائـراً ... وطـار بقلبي حيثُ طار ولا أدري![٤]

وقال يفتخر بشِعره ويُعرّض بابنِ زيدونٍ ويقول في ذلك إنّ قيمة شعرِه إنّما هي في معانيه وإنّه لا يُحَسِّنُ معانِيَهُ بتفخيم إنشادِ الأبياتِ وترديدها:

تذكّرتُ قَوْلي للقوافـي[٥] فلم تَزَلْ ... تُـســاعـدنـي عـفـواً ولـم تَـتَـعـذّر.
فدونــك عَـذْراءَ المعـاني ابْتَدَعْتُهـا ... عَـوانَ القوافـي خِيرةَ المُتخيّر[٦]؛
إذا ما الـرواةُ استَنْشَدَتْها تبرقَعَتْ ... لـهـا أوجهٌ مـن حِشـمـةٍ وتغيُّـر[٧].
ويَنْكُــل عنهــا شاعرُ المِصرِ كُلّــهِ ... ألاَ فاضْحَكَنْ من شاعرِ المِصر وافخر![٨]
ولستُ بكاسيهـا مَـدى الدهرِ حُلّـةً ... بنَغْمة إنشادٍ ولا بمُكرّر.

- وكان مرةً في قُرطبةَ فذكَرَ إشبيليةَ (وكان يُقالُ لها حِمصُ تشبيهاً لها بحمصِ الشام):

---

(١) حديد: حادّ، ماض، قاطع. الشبا جمع شباة: حدّ السيف. داج: أسود.
(٢) توسّد: نام (هنا: جثم = وضع بطنه على الغصن). الفرع: الغصن. الأراك: شجر تصنع منه المساويك له ثمر أحمر يؤكل. أريكة: صفّة، مقعد وثير (مريح). ومال بعنقه الى جانبه (نام).
(٣) مراق: مسكوب، سائل. أرابه = رابه: أقلقه وأزعجه. استولى: امتلك، استوى (نهض من مجثمه). النضر والناضر: الأخضر الطريّ.
(٤) حثّ جناحيه: والى تحريكها.
(٥) قول القوافي: نظم الشعر.
(٦) عذراء المعاني: ذات معان جديدة مبتكرة. عون القوافي أو عوانها: مكرّرة القوافي (لأنّ القوافي محدودة لا يستطيع الشاعر أن يبتكر شيئا منها غير الموجود في أحرف الهجاء). ولكنّها متخيّرة (منتقاة: مختارة).
(٧) رواة الشعر والعلماء بالشعر يطلبون أن يسمعوا شعري. ولكنّ نفراً من الشعراء تتبرقع (تتغطّى) وجوههم بالحشمة (بالحياء، لأنّهم لا يستطيعون أن يقولوا مثله) أو بالتغيّر (بالاصفرار، لأنّ شعري يعرّض بهم أو يعجّزهم عن قول مثله).
(٨) نكل عن الشيء: جبن وتراجع خوفاً أو عجزاً. المصر: البلد. شاعر المصر: الشاعر المعترف له رسميّاً بأنه شاعر الدولة (إبن زيدون!) سأضحك أنا عليه وأهزأ به ثمّ أفتخر بشعري.

ذكرتُـكِ، يـا حِمصُ، ذِكرى هَوًى ... أمـاتَ الحـسـودَ وتَعْنِيتَـهْ[1]
كأنّكِ، والشمسُ عند الغُروبِ، ... عروسٌ مـن الحُسن منحـوتـهْ.
غدا النهرُ عِقْدَكِ، والطَّودُ تا ... جَكِ والـشمسُ أعلاه يـاقـوتهْ.

- وقال في الخمر:

قُمْ، يا غُلامُ، فسَقِّنيها واطرَبِ ... واشرَبْ- عَتَبْتُ عليك- إن لم تشرب
من قهوةٍ صفراءَ ذاتِ أسِرَّةٍ ... في الكأسِ تأتَلِقُ ائتلاقَ الكوكب[2].
خُضِبَتْ بَنانُ مُديرِهـا بشُعاعِها ... فِعلَ العَرارةِ فـي شِفاه الربربِ![3]

٤ - ★★ جذوة المقتبس ٣٩٥ (الدار المصرية) ٣٩٥ (رقم ٩٣٣)؛ بغية الملتمس ٣١٤، ٥٠٦ (رقم ١٢٣٢ و ١٥٢٣)؛ الذخيرة ٢: ١٥٨ - ١٨٦؛ المغرب ١: ٢٤٥ - ٢٤٧؛ نفح الطيب ٣: ٢٦٦، ٤٢٩؛ الشعر في ظلّ بني عبّاد، تأليف محمّد مجيد السعيد، النجف الأشرف (مطبعة النعمان) ١٣٩٢ هـ = ١٩٧٢ م (ص ٢٩٥ - ٣٠١).

اسماعيل بن أحمد التجيبي البرقيّ

١- هو★ أبو الطاهر إسماعيلُ بنُ أحمدَ بنِ زيادةِ الله التُجيبيُّ المعروفُ بالبَرْقيّ،[4] من أهلِ القَيْروانِ، أخذَ عن أبي اسحاقَ الحُصْريّ (ت ٤٥٣ هـ) تآليفَه.

دخل إسماعيلُ بنُ أحمدَ الأندلسَ بعدَ سَنَةِ ٤٠٠ هـ (١٠١٠ م) ومكثَ فيها مُدّةً، فقد كان في مالَقَةَ سنة ٤٠٦ هـ. ثمّ رَحَلَ إلى مِصْرَ نحو ٤١٤هـ ثمّ زارَ صِقِلّيَة وقضى

(١) في القاموس: عنّته (تعنيتا) شدّد عليه وألزمه ما يعجز عن ادائه! والكلمة قلقة هنا، ولعلّها قراءة خاطئة.

(٢) الأسرّة جمع سرير: صفّة (بضمّ الصاد) أو فراش مرتفع أو مقعد مرتفع (ولا معنى لها هنا). ولقد قال عنترة في معلّقته: « بزجاجة صفراء ذات أسرة » (وحاول الشرّاح أن يجعلوا الأسرة خطوطاً في الكأس؛ (ولكنّ عنترة أيضاً ليس حجّة في اللغة). ائتلق: لمع وأضاء.

(٣) العرارة: بهار (زهرة صفراء) طيّبة الرائحة. الربرب: القطيع من الظباء أو البقر الوحشي أو الإنسي لا واحد له. الملموح أن الظبي إذا أكل من العرار تلوّنت شفتاه كما تتلوّن كفّ الساقي من لون الخمر من خلال كأسها.

(٤) البرقي نسبة إلى برقة (مقاطعة بين الاسكندرية وطرابلس الغرب: الجانب الشرقي من ليبيا اليوم).

(★) جميع الأرقام المسبوقة بالحرف: ص (في هذه الترجمة) تشير إلى صفحات كتاب « المختار من شعر بشّار ».

فيها بضعةَ أعوام على طَرَفَيْ سَنَةِ ٤٣٠ هـ. ثمّ نَجِدهُ في الإسكندرية سَنَةَ ٤٣٨ هـ. ويبدو أنّه في أثناء هذا التَجْوال اتّصل بنفرٍ منهم أبو القاسم سعيدُ بن أبي مَخْلدٍ الأزديّ العُثماني وأبو حسنٍ عليُّ بن حُبش[1] الشَيْبانيّ الأديبُ وأبو يعقوبَ النَجيرَمي (ت ٤٢٣ هـ)- أخذ عنه كتاب «أدب الكاتب» لابن قُتيبة (ت ٢٧٦ هـ)- وأبو القاسم عمّار (بن !) محمّد الإسكندراني وأبو القاسم عبد الرحمن بن أبي البِشْر (وكان مؤدّباً له) وأخذ عن هؤلاء وعن سواهم.

وكان إسماعيلُ بنُ أحمدَ موجوداً في جُمادى الثانية من سَنَةِ ٤٤١ (ص: ل)[2].

٢- كان اسماعيلُ بنُ أحمدَ التُجيبيُّ البرقيُّ أديباً بارعاً في معرفةِ الأدب والشِعر خاصّةً بالإضافة إلى معرفته باللغة والنحو والبلاغة. وله في النثر أسلوبٌ سهلٌ رصينٌ واضحٌ متينٌ. وكان له نظمٌ عاديّ. ولم يتكسّبْ بالأدب (ص ١٧٨). وكان مُصنّفاً له: شَرْحٌ على «المختار من شعربشّار» (صنعه بعيد ٤٢٧ هـ)- الرائق بأزهار الحدائق.

٣- مختارات من آثاره

- كيف شُفِيَ اسماعيلُ بنُ أحمدَ التُجيبيُّ البَرْقيُّ من مَرَضِه، قال (ص ١٤ - ١٥):

كنتُ بمدينةِ مالَقَةَ من بلادِ الأندلس سَنَةَ ستٍّ وأربعمِائَةٍ فاعْتَلَلْتُ بها مُدَيْدَةً انقطعتُ فيها عن التصرُّفِ ولَزِمْتُ المنزلَ. وكان يُمَرّضُني حينئذٍ رفيقانِ كانا معي يلُمّانِ من شَعْثي[3] ويَرْفِقان بي. وكنت إذا جَنّني الليلُ اشتدَّ سَهَري، وخَفَقَتْ حَوْلي[4] أوتارُ العِيدانِ والطنابيرِ والمَعازف[5] من كلّ ناحيةٍ واختلطتِ الأصواتُ بالغِناء فكان ذلك شديداً عليّ وزائداً في قَلَقي وتألُّمي. فكانتْ نفسي تَعافُ تلك

---

(١) «حبش» بسكون الباء أو فتحها.

(٢) قدّر الزركلي (الأعلام للزركلي ١: ٣٠٤) وفاته سنة ٤٤٥ هـ (ولعلّها بعد ذلك).

(٣) الشعث: التفرّق (لمّ الشعث: جمع الأمور ورتّبها).

(٤) خفقت (أخرجت أصواتاً) حولي (في جوار مسكني).

(٥) العود والطنبور (بالضمّ) والمعزف (بالكسر): آلات موسيقية وترية.

الضُروبِ طبعاً وتكرَهُ تلك الأصواتَ جِبِلَّـــةً[١]، وأودُّ (أنْ) لو أجِدُ مَسْكناً لا أسمعُ فيــــه شيئاً من ذَيْنِكَ[٢]، ويتعذَّرُ عليّ وجوُده لِغَلَبَةِ ذلك الشأنِ على أهلِ تلك الناحيةِ وكَثْرتِه عندهم[٣]. وإنّي لَساهرٌ لَيْلةً - بعد إغفاءةٍ في أوّلِ لَيْلتي، وقد سَكَنَتْ تلك الألفاظُ المكروهةُ وهَدأتْ تلك الضُروبُ المُضْطربةُ - وإذا ضَرْبٌ خَفيّ معتدلٌ حَسَنٌ لا أسمعُ غيرَهُ، فكأنّ نفسي أَنِسَتْ به وسكنتْ إليه ولم تَنْفِرْ منه نِفارَها من غيره. ولم أسمعْ معه صوتاً[٤]. وجعل الضَرْبُ يرتفعُ شيئاً فشيئاً ونفسي تَتْبَعُه وسمعي يُصغي إليه إلى أن بلغَ في الارتفاع إلى ما لا غايةَ وراءه[٥]. وارْتَحْتُ له ونَسِيتُ الألَمَ. وتداخلني[٦] سرورٌ وطربٌ. وخُيِّلَ إليّ أن أرضَ المنزلِ ارتَفَعَتْ بي، وأنّ حِيطانَه تَمورُ حَوْلي[٧]. وأنا في كلِّ ذلك لا أسمعُ صوتاً. فقلتُ في نفسي: أمّا هذا الضَرْبُ فلا زيادةَ عليه. فليتَ شِعْري، كيف صوتُ الضارِبِ وأينَ يَقَعُ من ضَرْبه[٨]؟ ولم أَلْبَثْ أنِ اندفعتْ جاريةٌ تُغنّي في هذا الشِعرِ بصوتٍ أنْدى من النُّوّارِ غِبَّ القطار[٩] وأحلى من البارد العَذْبِ على قلبِ الهائِمِ الصَبّ[١٠]. فلم أَمْلِكْ نفسي أنْ قُمْتُ - ورَفيقايَ نائمانِ - ففتحتُ البابَ وتَبِعتُ الصوتَ، وكان قريباً منّي، فاطّلَعْتُ من وَسَطِ منزلي على دارٍ فسيحةٍ، وفي وَسَطِ الدار بُستانٌ كبير، وفي وَسَطِ البُستان شَرْبٌ[١١] نحوٌ من عِشرينَ رجلاً قدِ اصطفّوا - وبينَ أيديهم شَرابٌ وفاكهةٌ وجَوارٍ قِيامٌ بِعيدانٍ وطنابيرَ وآلاتِ لَهْوٍ ومزاميرَ[١٢] لا يُحرِّكْنَها - وجاريةٌ جالسةٌ ناحيةً وعودُها في حُجْرِها، وكلٌّ

---

(١) الضروب جمع ضرب: العزف على آلة موسيقية. الجبلّة: الطبع.

(٢) من ذينك الشيئين (صوت العزف وصوت الغناء).

(٣) لكثرة اهتمامهم بالطرب.

(٤) الصوت: الأغنية، النشيد (بخلاف العزف).

(٥) إلى ما لا غاية وراءه (بعده، فوقه): صوت مرتفع جدًّا

(٦) تداخلني: لزمني، أقام فيّ (استقرّ في نفسي...)

(٧) مار يمور: اضطرب وماج.

(٨) الضارب: العازف على الآلة الموسيقية. أين يقع من ضربه؟ (أصوته جميل مثل عزفه؟).

(٩) النوار: الزهر الأبيض. القطار: المطر. أندى من النوار: أكثر نضارة وجمالاً.

(١٠) الهائم الصبّ: المحبّ الذي هام (تحيّر واضطرب) من شدّة الحبّ.

(١١) الشرب (بفتح فسكون): جماعة يشربون (الخمر) معاً.

(١٢) المزمار: آلة موسيقية من آلات النفخ (من قصب أو من أنبوب مشابه للقصب).

يَرْمُقُها ببصره ويُوعِيها سَمْعه[1]. وأنا قائمٌ بحيثُ أراهم ولا يَرَوْنني وكُلّما غنّتْ بيتاً حَفِظْتُه إلى أن غَنّتْ عِدّةَ أبياتٍ وقَطَعَتْ[2]. فعُدتُّ إلى مَوْضعي - يشهَدُ اللهُ - وكأنّما أُنْشِطْتُ مَن عِقالٍ[3]. وكأنْ لم يكُنْ بي ألمٌ.

- وله من أبيات (ص ١٢٥ = ٢٩٥)

خِلٌّ بَلَوْتُ خِلالَه فوَجدتُّها	محمودةً في الجَهْر والإسرارِ[4].
عَلِقَتْ يدي منه بأروعَ ماجدٍ	جَمِّ الفضائِل طيّبِ الإخبار[5].
كَرُمَتْ أُرومَتُه، وأشرقَ وجهُه،	وصَفَتْ خلائقُه من الأكْدارِ[6].
وشأى الأفاضلَ واستبدَّ برُتْبةٍ	أعْيَتْ على الأدباء والنُظّار[7].
كم سابقٍ جاراه في مِضمارِهِ	فكبا، وجاز نهايةَ المِضمار[8].

٤- المختار من شعر بشّار (اختيار الخالديّين)[9]، وشرحه[10] (اعتنى بنسخه الغخ السيد محمّد بدر الدين العلويّ)، القاهرة (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - مطبعة الاعتماد) ١٣٥٣ هـ = ١٩٣٤ م[11].

★★ التكملة ١: ٢٢٨؛ بغية الوعاة ١٩٣؛ الأعلام للزركلي ١: ٣٠٤ (٣٠٩)؛ مجمل تاريخ الأدب التونسي ١٣٧ - ١٤٠.

---

(١) أوعى = وعى: حفظ (جعلها الكاتب متعدّية إلى مفعولين، وليس ذلك عملها. يقصد: أوعاها في سمعه).

(٢) قطعت الغناء، انتهت من غنائها.

(٣) أنشطت من عقال: فكّ عنّي رباط.

(٤) خلّ (صديق) بلوت (اختبرت) خلاله (صفاته).

(٥) علقت يذي (وجدت، ظفرت). الأروع: الذكيّ. الشريف الخيّر. جمّ: كثير. الإخبار (يقصد: الخبر = حقيقة الإنسان، خلاف ظاهره).

(٦) الأرومة: الأصل.

(٧) شأى: سبق. أعيت على: استحالت، امتنعت. النظّار: (المتكلمون بالمنطق؟).

(٨) جرى معه (إلى المجد) كثيرون فكبوا (بفتح الباء: سقطوا) في أثناء الطريق، وجاز (قطع المضار كلّه) هو إلى الهدف.

(٩) الخالديّان أخوان (أبو بكر محمّد وأبو سعيد عثمان) من الأدباء الذين عاشوا في بلاط سيف الدولة في حلب، وكانا يؤلّفان الكتب معاً (القرن الهجري الرابع).

(١٠) الشرح لأسماعيل بن أحمد صاحب الترجمة.

(١١) ليس على الكتاب تاريخ للطبع (التاريخ المثبت هو التاريخ الملحق بمقدّمة الشارح).

ابن الخيّاط الربعي الصقلّيّ

١ - لم يَصِلْ إلينا من حياةِ ابنِ الخيّاطِ هذا حوادثُ واضحةٌ. إنّ النَزْرَ اليسيرَ الذي نَعْرِفه ممّا يتّصلُ بحياتهِ نقولُه تخميناً من قرائنَ نَجِدُها في حياةِ المُعاصرين له.

هو ابنُ الخياط (ولم يَرِدْ اسمُه في فهارِس «الذخيرة» ولا في فهارِس «نفح الطيب» ولا في فهارس «المكتبة الصِقلّية العربية» التي جَمَعَها المستشرقُ الايطاليّ ميخائيل أماري. وكذلك لم يَرِدِ اسمُهُ في «خريدة القصر» - لا في قسم الأندلسِ ولا في قسمِ المَغْرِب، ولا في فهارِسِ تاريخ الأدب العربيّ للمستشرق الألمانيّ كارل بروكلمن). وقدِ اكتفيتُ أنا في هذه الترجمة بكتابِ الدكتور إحسانِ عبّاسِ «العربِ في صقلّية».

وهو ابنُ الخيّاطِ الصِقِلّي (من جزيرةِ صقلّيةَ) الربعي (بفتح ففتح: نسبةً إلى قبيلةِ رَبيعةَ؛ أو بفتح فسكون: نسبةً إلى الرَبْعة: وهو اسمٌ لحَيَّيْنِ من العرب؛ أو نسبةً إلى الرُبَع بضمّ ففتح أي الفصيلِ من الإبلِ يُنتج - بالبناء للمجهول - أي يُولد في الربيع).

وقد حاول الدكتور إحسان عبّاس أن يجعل لوفاة ابن الخيّاط زمناً بين حدّين: قال عنِ ابنِ الخيّاط (ص ٢١٠): «وهذا لا يُبعِدُ صِلَتَهُ بالأمراء الكَلْبيّين (حُكّامِ صقلّيةَ العربِ) عن سَنَة ٣٩٠ هـ» (١٠٠٠ م) بعدَ أنْ قال (ص ٢٠٩) «فإنّه (أي ابنَ الخيّاطِ) لم يَشْهَدْ صقلّيةَ في عصرِها الجديد - عصرِ الحكم النورمانيّ - ». والنورمانُ استبدّوا بحُكْمِ صقلّيةَ سَنَةَ ٤٧٣ (١٠٨٠ م). ومعنى هذا أنّ ابنَ الخياطِ انتقَل من صقلّيةَ (إلى القيروان) قبلَ أن يَنْزِلَ فيها النورمان، وليس معنى هذا (من الجملة الأخيرة) أنّ ابنَ الخيّاطِ تُوُفّيَ سنة ٤٧٣. فإذا كانَ اتّصالُ ابنِ الخيّاط بالأمراءِ الكلبيّين سَنَةَ ٣٩٠ (وعمره تقديراً بين خمسٍ وعِشرين وخمس وثلاثينَ) ثمّ بَقِيَ حيًّا إلى ما بعدَ سَنَةِ ٤٧٣، فمعنى هذا أنّه قد عاشَ مائةً وعشْرَ سَنَواتٍ على الأقلّ.

وبما أن التاريخَ الأوّلَ (في افتراض الدكتور احسانِ عبّاسِ أقربُ إلى الواقع، لأنّ الشاعرَ اتّصلَ بِحَسَبِهِ، بالكلبيّين (والدليلُ على ذلك قصائدُ مَدَحَهُمْ بها) فيحسُنُ

أن يميلَ المؤرّخُ إلى تقديمِ وفاةِ ابن الخياط إلى زمنٍ سابق على الفتحِ النورمانيّ لصقلّيةَ مدّةً طويلة، أي إلى سَنَةِ ٤٤٠ أو سَنَةِ ٤٥٠ (١٠٤٨-١٠٥٨ م).

٢ - ابنُ الخيّاطِ الصِقِلّي الربعي شاعرٌ مُجيدٌ، وشعرُهُ سهلٌ واضحُ الأغراضِ قليلُ التكلُّفِ والصِناعة، ثمّ هو يهتّم بالمعاني أكثرَ مِنَ اهتمامه بالألفاظ. وأغراضُ شِعره المديحُ والحماسةُ (وصفُ الحربِ) ووصفُ الطبيعة - وهنا نَجِدُه شاعراً يمثلُ صقلّيةَ في طبيعتها، كما كان قد صوّر أحوالَها السياسيةَ من ضَعْفها ومن الفِتَن فيها في أماديحه وفي حماساته - ثم الأدبُ أوِ الحِكمة مَعَ أشياءَ من مداركِ الفلسفة وتعابيرها. وله وصفٌ للخمر وَغَزَلٌ مَع التحلُّلِ من عددٍ من قيود المجتمع السليم.

٣ - مختارات من شعره

- قال ابن الخيّاط الربعيّ يمدح انتصارَ الدولة:

ويــا رُبَّ يــومٍ لــه مُسْعَـرٍ	إذا خَـمَـدتْ نـارُه أوقـدا[١]،
تـخاف بـه الرجلُ من أختِها،	ولا تأمنُ اليَدُ فيه اليدا[٢].
وتـرمـي رِجـالاً بأعضائهـم،	فـمَثْنـى تَراهُنّ أو مَوْحَدا[٣].
تـرى السيفَ عُـريانَ مـن غِمده	وتـحسَبُـه مـن دمٍ مُـغْـمَـدا.

- ولابن الخيّاط الربعيّ مقاطعُ في الأدب تنطوي على أشياءَ من الحِكمة تجري في عددٍ من تعابيرِ الفلسفة:

★ أرى كـلَّ شـيءٍ لـه دولـةٌ	لحُكْمِ التَعاقُبِ فيها عمل[٤].
فـلا تـفْرَحنّ ولا تَحْزَنَـنّ	لشيءٍ إذا ما تناهـى انتقلَ[٥].
★ مـا كانَ أمسِ فقد فاتَ الزمانُ به،	ومـا يكونُ غداً في الغيب موعودُ.
وبيـن ذَيْنِكَ وقتٌ أنت صاحبُـه	في حالتَيْهِ: فـمذمومٌ ومحمود.

---

(١) مسعر: موقد (شديد الحرّ) يوم مسعر: معركة شديدة. كلّما خفّت شدّة المعركة زادها هو اشتعالاً.

(٢) المعركة شديدة إلى درجة لا يأمن فيها أحد أحداً (ولو كان من حلفائه).

(٣) قد يصاب المحارب بإحدى يديه أو رجليه أو عينيه، أو فيها كليها.

(٤) دولة: دور، فترة زمنية (لأن تعاقب الأحداث من عمل قانون طبيعي).

(٥) تناهى: بلغ نهايته. انتقل: تبدّل.

★ تمتّعْ بالمنامِ على شِمالٍ، فسوفَ يطولُ نومُك باليمينِ[1].
ومتِّعْ من يُحِبُّكَ من تَلاقٍ، فأنت من الفِراقِ على يقينِ[2].
★ إنّ سبَّ الملوكِ من شُعَبِ المو تِ، فإيّاك أن تسُبَّ المُلوكا[3].
إن عَفَوْا عنك بالذنوبِ أهانو ك، وإن عاقَبوا بها قتَلوكا.

– وقال ابن الخيّاط الربعيّ يمدح انتصارَ الدولة حينَ ظَفِرَ بثائر ثارَ عليه:

ظنَّ الإمارة ظُلّةً، فإذا بها حربٌ يكاد أُوارُها يتأجّجُ[4]،
ومُهنّداتٌ كالعَقائِق ماؤها مترقرقٌ ولهيبُها متأجّجُ[5].
لا تستقرُّ العينُ فوقَ مُتونها فكأنّما هي زِئْبَقٌ مُترجْرِجٌ[6].
ومداعسٌ للخيلِ يرمَحُ وسْطَها، من غير فارسِه، طِمِرٌّ مُسْرَجٌ[7].
عَقْرى وسالمةٌ تَعَثَّرُ بالقَنا: العَسْجديُّ وذو الخِمارِ وأعْوجٌ[8]،
طرَحَتْ فوارسَها على أذقانِهم طرْحَ الكِعاب: فمُفْرَدٌ أو مُزْوجٌ[9].
في موطنٍ سلَبَ الحليمَ وَقارَه فكأنّما هو مُسْتَطارٌ أهْوَجٌ[10].

---

(١) النوم على الجانب الأيسر في الحياة (كناية عن التمتّع باللذة...). أمّا في الموت فيسجّى الميت في قبره على جانبه الأيمن.

(٢) تلاق: اجتماع. الفراق: الموت.

(٣) الشعبة (بالضمّ): الغصن ونحوه (وهنا: طريق، سبب).

(٤) الظلّة: العريش الذي يحمي الإنسان من الشمس أو المطر... الأوار: شدّة الاشتعال.

(٥) المهنّد: السيف. العقيق: حجر كريم أحمر اللون (كناية عن كثرة الدم). ماء المهنّد: صقاله (بالكسر)، لمعانه (لأنه ماض: قاطع) جدًّا.

(٦) إن صفحات هذه السيوف مصقولة تلمع في النور حتّى لا يستطيع البصر أن يثبت عليها.

(٧) المدعس: الطريق الذي كثر السير عليه (كناية عن طول المعركة. ذهاباً واياباً: هجوماً وتقهقراً). رمح (في القاموس): أضاء، رفس (وهنا معناها: يركض بحرّيّة). الطمرّ: الفرس السريع. يرمح فوقها من غير فارسه طمِرّ مسرج (كناية عن أن القتلى كانوا كثيرين حتّى أن معظم الخيل كانت تجول في ميدان المعركة وليس عليها فوارسها).

(٨) عقرى (مجروحة) تعثّر = تتعثّر. القناة: الرمح. (لمّا قتل الفوارس أصبح سلاحهم ملقى على الأرض، فالخيل في أثناء تجوالها تعثر به). العسجدي وذو الخمار وأعوج (من أسماء الخيل).

(٩) الذقن (بفتح ففتح): الوجه. الكعب: قطعة مكعّبة صغيرة تستخدم في لعب النرد. طرح الكعاب (بسهولة). مفرد (فارس قتيل مطروحاً أرضاً وبعيداً عن غيره) أو مزوج (فارسان اعتنقا في القتال ثم قتل كلٌّ منهما الآخر فسقطا معاً).

(١٠) مستطار القلب: شديد الخوف. أهوج (يفعل أفعاله بلا تنظيم).

- وقال بين الوجدان والآراء الفلسفية:

ليس إلاّ تنفُّسُ الصُعَداءِ	وبُكائي، وما غَناءُ بُكائي؟[١]
مَنْ رَسولي إلى السماءِ يُؤَدّي	لي كتاباً إلى هِلال السماء؟[٢]
كيف يرقى إلى السماء كثيفٌ؟	يسلُكُ الجسمُ في رَقيقِ الهواء[٣].
عجَزَ الإنسُ أن تَرَقّى إليها،	فعسى الجِنُّ أن تكونَ شِفائي[٤].
أم ترى الجِنَّ تتّقي شُهُبَ الرَجْمِ؟	فدَعْني كذا أموتُ بدائي[٥].

٤-★★ راجع كتاب «العرب في صقلّية»، تأليف احسان عبّاس، مصر (دار المعارف) ١٩٥٩ م (والمصادر المثبتة فيه).

محمّد بن الحسين المغربي

١ - هو محمّدُ بنُ الحسينِ بنِ أبي الفتحِ القُرَشِيُّ المَغْربيّ السُوسيّ القَيْروانيّ المعروفُ بابنِ ميخائيل، من أهلِ سوسةَ، استوطنَ القيروانَ وتأدّبَ فيها. كان في أيامِ المُعِزِّ بنِ باديس[٦].

٢ - كان محمّدُ بنُ الحُسينِ المَغْربيُّ شاعراً رقيقاً سَهْلَ الكلام، وكان شديدَ الانتقاد للشِعر على مذهبِ قُدامةَ الكاتبِ[٧]. وفنونُه الغزلُ العفيف والصريح في الكِنايات البريئة.

---

(١) تنفّس الصعداء (النفس العميق الطويل الحار - كناية عن الحزن). الغناء (بالفتح): الفائدة.

(٢) هو يريد أن يعرف أسرار العالم العلوي (ألعلّه يكني بذلك عن محبوب جميل؟).

(٣) في الفلسفة أنّ الجسم (مادّة كثيفة) لا ترقى (بعد الموت) إلى الملأ الأعلى (عالم الخلود). ولكنّ النفس (وهي جوهر روحاني خفيف) يمكن أن تصعد إلى الملأ الأعلى.

(٤) هل أستطيع أن أبلغ إلى الملأ الأعلى من طريق الجنّ فأعرف من طريق الجنّ أخبار السماء؟

(٥) تتّقي: تخاف، تتجنّب. شهاب الرجم: (الجنّ ممنوعون من الدنوّ من السماء، إذ يقذفون (إذا اقتربوا منها) بالشهب المشتعلة فيحترقون.

(٦) جاء المعزّ إلى العرش سنة ٤٠٦ هـ ثمّ استقلّ بالحكم، سنة ٤١٧، وتوفّي سنة ٤٥٣ هـ.

(٧) قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧ هـ).

٣ - مختارات من شعره

- لمحمّد ابن الحسَنِ المَغْرِبيّ مقاطِعُ رُوِيَ له منها:

★ صُوِّرَ عَبْدُ اللهِ مِن مِسْكَةٍ — وصُوِّرَ النَّاسُ مِن الطِّينِ.
أبدَعَهُ اللهُ - وسُبحانَه - — كَمِثْلِ حُورِ الجنَّةِ العِينِ[١].
مُهَفْهَفُ القَدِّ هَضيمُ الحشا — يَكاد يَنْقَدُّ من اللِّينِ[٢].
كأنّ في أجفانِه، مُنْتَضًى، — سيفَ عليٍّ يومَ صِفّينِ[٣].

★ سافراتٌ عنِ الوجوهِ تُحَيِّي — أوجهَ الشَّرْبِ بالذي تختارُهْ[٤].
كالعَذارى الحِسانِ في الحُلَلِ الحُمْـ — ـرِ وكالجَمْرِ طارَ عنه شَرارُهْ[٥]،
في أوانٍ من الربيعِ أنيقٍ — زهرُهُ، مُستقِلّةٍ أطيارُهُ[٦].
زائرٌ نَوّرَ الربيعَ فخِلْنا — وَشْيَ صَنعاءَ أنّه نُوّارُهُ[٧].
واكتسى الأُفْقُ بِشْرَه، فحَسِبْنا — مِسْكَ دارينَ ما حَوَتْ أقْطارُهُ[٨].

★ أحْبَبْتُ منه شمائلاً فوجدتُّها — في الطبعِ مِثْلَ خلائقي وشمائلي[٩].

---

(١) الحوراء من النساء من اشتدّ سواد عينيها واشتدّ بياضها. العيناء الواسعة العينين.

(٢) مهفهف القدّ: ممشوق (فيه طول مع اعتدال وامتلاء بلا سمنة). هضيم الحشا (نحيل الخصر). ينقدّ: ينقطع.

(٣) كأن سيف الإمام عليّ منتضى (مسلول) من عيونه.

(٤) سافرات (كاشفات). الشرب: الذين يشربون (الخمر) معاً. تختاره (بإشارة تختارها: بكأس خمر، بزهرة، بحركة من يدها، الخ).

(٥) كالجمر طار عنه شراره (كناية عن شدّة الاشتعال وعن النشاط).

(٦) أوان: زمان. أنيق: جميل يعجب العين. مستقلّة: طائرة في الفضاء (مع أن من عادة الطيور أن تختبىء في أيام المطر وأيام البرد الشديد. فإذا بدأ الجوّ بالاعتدال أخذت بالطيران من مكان إلى مكان).

(٧) زائر (كناية عن الزهر) نوّر (أضاء). خال: ظنّ. ظننا أن نوّار الربيع (أزهاره) وشي (تطريز) من نسج صنعاء (عاصمة اليمن المشهورة بنسج الحرير وتطريزه).

(٨) البشر: طلاقة الوجه. دارين: مكان في الشام ومكان في البحرين (أحدهما أو كلاهما مشهور بأن المسك يأتي منه). الأقطار جمع قطر (بضمّ القاف): الجانب، الناحية. كلّ جانب من الأرض (في الربيع) فيه رائحة طيّبة.

(٩) الشمائل جمع شمال (بكسر الشين): الخلق (بالضمّ) والطبيعة.

فكأنني أحبَبتُ مَنْ قد شفّه حُبّي ورُحتُ مُشاكِلاً لِمُشاكلي[1].
كم ليلةٍ مزّقتُ ثوبَ ظلامِها بضيائِه وقَبِلْتُ فيه وسائلي[2].
فكأنّني من وَجْهِهِ في صُبْحِها، وكأنّه مِنّي مَناط حَمائلي[3].
والعيشُ ليس يَلَذُّ طعمَ مَذاقِه حتّى يُشاب بمأثمٍ أو باطلٍ[4]!

٤-** المحمّدون من الشعراء ٢٦٢ - ٢٦٣؛ الوافي بالوفيات ٣: ٦.

عبد الملك بن غصن الحجاري

١ - هو أبو مروانَ عبدُ الملكِ بنُ غُصْنٍ الحِجاريّ من أهل وادي الحِجارة (على مقرُبة من مدريدَ، شَمالاً) رَحَلَ إلى المشرق وتأدّب (على نفرٍ من علمائه) وحَجّ ثمّ عاد إلى بلده. نال حظْوةً عند ملوكِ الطوائف، غيرَ أنّه فضّل صُحبةَ أبي عُبيدةَ (المستبدِ بأمرِ مدينة وادي الحِجارة؟) فغضب عليه المأمونُ بن ذي النون (٤٢٩ - ٤٦٧ هـ) صاحبُ طُلَيطُلَةَ (ربّما لمنافسةِ أبي عبيدة له ولِطَمَعِ المأمون في الاستيلاء على وادي الحجارة - لقرب المسافةِ بين البلدين). وقدِ استطاع المأمونُ أن يَنْكُبَ عبدَ الملكِ الحِجاريَّ وأن يسجُنَه أيضاً. ولكّن المقتدِر بنَ هودٍ صاحبَ سَرَقُسْطة (٤٣٨ - ٤٧٤ هـ) استطاع أن يخلّصه، إذ شَفَعَ له عند المأمون (نفح الطيب ٣: ٣٦٤) فأطلَقَ المأمونُ سَراحه. وكانت وفاة عبد الملك بن غصن سَنَةَ ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م).

٢ - كان أبو مروانَ عبدُ الملكِ الحجاريُّ أديباً شاعراً. وشعرُهُ عذبٌ رقيقٌ مُتفرّقٌ بينَ الفخر والمدح والهِجاء والاعتذار والعِتاب والخمر ووصف الطبيعة والإخوانيّات. وكان بارعاً في أنواعِ العلوم والآداب من الأدبِ والتاريخ خاصّةً.

---

(١) شفّه الحبّ: أنحله وأمرضه. مشاكل: مشابه. مشاكل لمشاكلي (أشبه محبوبي).
(٢) وقبلت فيه وسائلي (؟) - تمتعت بما قدرت عليه (؟).
(٣) المناط: المكان الذي تتعلّق به الأشياء. الحمالة (بكسر الحاء): علاقة السيف في العنق. فكأنّه منّي مناط حمائلي: يعانقني.
(٤) يشاب: يخلط. مأثم: ذنب. باطل: عبث (بفتح فسكون)، لهو، لعب، عمل لا فائدة نافعة منه.

وكان أيضاً مؤلّفاً كتب في سِجنه رسالةً عنوانها «رسالةُ السِجن والمسجون والحُزن والمحزون» وضمّنها ألفَ بيتٍ من شِعره وأهداها إلى المأمونِ بن ذي النونِ (أملاً في إطلاقِ سراحه). وله رسالة أُخرى عُنوانها «العَشْرُ كَلِماتٍ».

٣ - مختارات من شعره

- كتب عبدُ الملك بنُ غصنِ الحِجاريُّ من سِجنه إلى أخيه:

أأرْوَى، وبينَ ضُلوعي حريقُ؟ ... وأشْجى وإنسان عيني غريقُ[١]؟
وفي كلّ يومٍ وفي كلّ حينٍ ... يُحَمّلني الدهرُ ما لا أُطِيقُ.
تَهيمُ الخُطوبُ بوَصْلي، فما ... لَهنّ إلى غيرِ قلبي طريقُ.
أيا واحِدي وشَقيقي ويا ... فريقاً يُبكِّيهِ منّي فريقُ[٢]،
أخوك أخو نَكَباتٍ لها ... يَرِقُّ العَدُوُّ، فكيفَ الصديقُ؟
كَسَدتُ ونَظْمِيَ دُرٌّ نفيسٌ، ... وضِعْت ونشْرِيَ مِسْكٌ عَبِقُ.
وما أظلمَ الجَهْلُ في معشرٍ ... وفي أُفْقِهم من علومي شَريقُ[٣].
ولو جاثليقٌ تَخَوّلْتُه ... بموعظةٍ آمَنَ الجاثليقُ[٤].

- وقال يفتخر برِسالته وبما ضَمّنها من الشعر:

وألفُ بيتٍ من القريضِ إذا ... ماتَ جميعُ الأنامِ لم تَمُتِ.
لو أنّ شعرَ الورى يُنَظّمُ في ... عِقْدٍ لكانتْ بمَوْضعِ السَطَةِ[٥].
سائرةٌ حيث لم يَسِرْ قمرٌ ... ولا سَرَتْ أنجُمٌ ولا جرَتِ.

---

(١) أشجى أنا (من شجي: طرب). إنسان عيني (البؤبؤ) غريق: عيني مملوءة بالدموع (حزين).

(٢) واحدي وشقيقي (أخي الذي ليس لي أخ غيره). فريق يبكيه منّي فريق: نحن شخص واحد يبكي على نفسه.

(٣) في أفقهم: في بلادهم. شريق: شارق أو مشرق (القاموس المحيط ٣: ٢٤٩). - لا يخيّم ظلام الجهل على قوم إذا أشرق عليهم شيء من علومي.

(٤) لو تخوّلت (تعهدتُ بالموعظة) الجاثليق (رئيس النصارى) حتّى يؤمن بالإسلام لآمن (كناية عن مقدرته).

(٥) السطة: الوسط (اللؤلؤة الكبيرة جدًّا والتي تكون في وسط العقد).

- وقال يهجو المأمونَ بنَ ذي النون:

تَلقّبتَ بالمأمون ظُلماً، وإنّني لآمنُ كَلْباً حيثُ لستَ مُؤَمِّنَهْ[١].
حرامٌ عليه أن يجودَ ببِشْرِهِ، وأمّا النَدى فاندُبْ هنالك مدفَنَه[٢].
سطورُ المخازي دونَ أبوابِ قصرِهِ بُحجّابِهِ للقاصدين مُعَنْوَنَهْ[٣].

- وقال يصف الربيع:

يا صَوْبَ غاديةِ الربيعِ المُطِرِ، بادِرْ بسَيْبِكَ رسمَ دارٍ مُقْفِرِ[٤]:
مَيدانَ أفراسِ الصِبا وملاعبَ الـ ـآرامِ والرَوْضِ الأنيقِ الأزهرِ[٥].
واقْذِفْ بسِلْكِ الغيثِ في ساحاته واسكُبْ لآليَهُ عليه وانثُرِ[٦]
حتّى ترى الغيطان زاهرةَ الرُبى تُنبيكَ عن عهد الزمان الأزهرِ[٧]؛
وترى الأقاحَ كأنّه فَمُ شادنٍ غَنِجٍ تبسّم عن لَقيطِ الجوهرِ[٨]،
وشقائقَ النُعمانِ مثلَ الغِيدِ والطْـ ـطَلُّ النَدِيُّ كدمعةٍ في مَحْجِرِ[٩].
لولا خفارتُها وحالكُ شَعْرِها قُلنا: سبايا من بناتِ الأصفرِ[١٠].

---

(١) آمن = أأتمن (أثق بـ).
(٢) البشر: طلاقة الوجه واظهار السرور بالناس. الندى: الكرم.
(٣) حجّاب القصر عنوان للمخازي الموجودة في داخل القصر.
(٤) الصوب: المطر المعتدل. الغادية: السحابة التي تمطر في الصباح. السيب: العطاء (المطر). مقفر مهجور (صفة للاسم «رسم»: المكان الذي كانت فيه الدار قائمة).
(٥) الدار التي كانت ميداناً للهونا وملعباً (مرتعاً) للآرام (جمع رئم بكسر الراء: الغزال الأبيض): النساء الجميلات.
(٦) لآلىء جمع لؤلؤة (كناية عن حبّات المطر التي لها شكل اللؤلؤة وقيمتها).
(٧) الغيط (بالفتح): الأرض المنخفضة (تتجمّع فيها المياه فتكون خصبة). تنبيك = تنبئك: تخبرك. الأزهر (مكرّرة في الأصل).
(٨) الأقاح جمع أقحوانة (بضم الهمزة): زهر قلبه أصفر وله بتلات بيض. الشادن: الغزال الصغير (الفتاة الجميلة). الجوهر: اللؤلؤ (كناية عن أسنانه البيض الجميلة).
(٩) الغيداء: المرأة الجميلة. الطلّ: الندى الذي يسقط ليلاً. المحجر (التجويف الذي تكون فيه العين): العين.
(١٠) الخفارة (تكون بالفتح والكسر والضمّ وتتعلّق بالحراسة) والمقصود هنا: الخفر (بفتح ففتح): الحياء. الحالك: الأسود. بنو الأصفر: الروم.

- وقالَ عبدُ الملك الحجاري يصف الخمر:

يا فِتيةً خِيرةً فَدَتْهُمُ من حادثاتِ الزمانِ نفسي،
شُربُهُمُ الخمرَ في بُكورٍ ونُطْقُهُمْ عندَها بِهَمْس،
أما تَرَوْنَ الشتاءَ يُلقي في الأرض بُسْطاً من الدِمَقْسِ[1]؟
مُقطّبٌ عابِسٌ يُنادي: يومُ سرورٍ ويومُ أُنس[2].

٤ -** الذخيرة ٣: ٣٣١ - ٣٣٦؛ التكملة ٦٠٦؛ المغرب ٢: ٣٣ - ٣٤؛ نفح الطيب ٣: ٤٢٣ - ٤٢٤؛ الأعلام للزركلي ٤: ٣٠٧ (١٦١).

محمّد بن عبد الواحد البغدادي

١ - هو أبو الفضلِ محمّدُ بنُ عبدِ الواحدِ بنِ عبدِ العزيزِ بن الحارث بن أسدِ بن سليمانَ بن الأسودِ بن سُفيانَ الدارميُّ التميميُّ البَغداديُّ، وُلِدَ في بَغدادَ سَنَةَ ٣٨٨ (٩٩٨ م).

سَمِعَ محمّدُ بنُ عبد الواحد من أبي طاهرٍ محمّدِ بنِ عبد الرحمن المُخَلّص الذَهبي البَغْداديّ (٣٠٥ - ٣٩٣ هـ) - وكان من أصحابِ الحديثِ ومُسْنَدَ بغدادَ في أيامه[3] - . ويبدو أن خلافاً نشأ بينَه من جانب وبين أبيه وإخوتِه من جانبٍ آخرَ فترَكَ بغداد وله من العُمُرِ عِشْرون سَنَةً مُتّجِهاً شَرْقاً حتّى وصل إلى الهند ولَحِقَ بالسُلطانِ محمودِ الغَزْنويّ الذي امتدّت وِلايتُه من سَنَةَ ٣٨٩ إلى سنةِ ٤٢١ وبَقِيَ معه ثمّ مَعَ ابنهِ مسعودِ (٤٢١ - ٤٣٢ هـ) ووَزَرَ للسُلطانِ مسعودٍ.

تُوُفّيَ السُلطانُ مسعودٌ وخَلَفَهُ أخوه مَوْدودٌ، ومحمّدُ بنُ عبدِ الواحد في الهند. ولم يحمَدْ محمّدٌ بعد ذلك مُقامَه في الهند فكاتَبَ القائمَ العبّاسيَّ فاستدعاه القائمُ. واتّفق في

(١) بسط جمع بساط (ما يفرش على الأرض). الدمقس: الحرير (الشتاء يكسو الأرض بالنبات الأخضر؟؟.) كذا في بغية الملتمس ص ٩٧ س.

(٢) مقطّب عاقد بين حاجبيه (كناية عن الغضب). يوم سرور ويوم أنس (بضمّ الهمزة: سرور بعشرة الناس)... لعلّها: «بؤس» (؟).

(٣) المسند: الذي يحفظ أحاديث رسول الله بأسانيدها: بسلاسل الراوين لها (ويكون في ذلك حجّة يرجع الناس إليه).

ذلك الحين فَوْرَةُ الدعوة الفاطمية (وكان أمرُها قد علا في مِصْرَ كثيراً) فأرادَ القائمُ العبّاسيّ رجُلاً يذهب إلى المَغْرِب ليُفْسِدَ قلوبَ أهلِ المغربِ على الفاطميّين فأرسَلَ في ذلك محمّدَ بنَ عبدِ الواحد. وفي الطريقِ إلى المغرب مرَّ محمّدُ بن عبد الواحد بالمَعَرّة ولَقِيَ أبا العَلاء المَعَرّي. فسمع المعرّيُّ شيئاً من شِعْرِه ومَدَحَهُ عليه. وسار محمّدٌ إلى المغرب فوصَلَ إلى القيروانِ سَنَةَ ٤٣٩ واستطاعَ إقناعَ المُعِزِّ بنِ باديسَ في أولِ الأمر بالانتقال عن دَعْوة الفاطميّين إلى دعوةِ العبّاسيّين. ثمّ حَدَثَ الاضطرابُ في المغرب - وكان لابنِ عبدِ الواحدِ فيه يدٌ ظاهرة - وعادَ المُعِزُّ عن الدعوةِ العبّاسية في سَنَةِ ٤٤٦ فأصبحَ مُقامُ ابنِ عبدِ الواحد في المَغْرِبِ صَعْباً فانتقلَ إلى الأندلُس وتنقّل بين بُلدانِها حتّى استقرّ في طُليطُلَةَ في ٢٧ من جُمادى الأولى ٤٥٤ (١٠٦٨/٦/٨ م) عِند المأمون بن ذي النون. وكانت وفاةُ ابنِ عبدِ الواحد في رابعَ عَشَرَ شَوّالٍ من سَنَةَ ٤٥٥ (١٠٦٣/٩/١١ م).

٢ - لمحمّدِ بنِ عبدِ الواحد نظمٌ ونثر، وكان مُكثراً ومُطيلاً أيضاً. وشِعْرُه ونَثْره يَنوءانِ بِصِناعة كثيرة بعيدة. وأكثرُ شِعره عاديّ وعليه نفحةٌ من الأُسلوب القديم مَعَ شيءٍ من الغريب. وهو كثيرُ التَرْداد للأفكار وللتراكيب: أوْرَدَ له ابنُ بسّامٍ (الذخيرة ٣: ٥١١ - ٥١٣) تِسعةً وثلاثينَ بيتاً واحدٌ وعِشرون منها تبدأ بالحَرْف المُشبَّه بالفعل «كأنّ»، ونحن نَجِدُ شيئاً من هذا الترديد عند ابنِ هانئ الأندلسيّ أيضاً. وفي الذخيرة (٤: ٨٨) وفي نفح الطيب (٣: ١١٢) أن أبا العَلاءِ المَعرّي قد سَمِعَ شيئاً من شِعر ابنِ عبدِ الواحدِ وحكم له بالإجادة. ولعلّ إعجابَ المعرّي كان راجعاً إلى كَثْرةِ تَشابيهِ ابنِ عبد الواحد وغَرابةِ بعضِها. وفنونُ شِعرِ ابنِ عبدِ الواحد المديحُ والهِجاء والرِثاء والفخر والعِتاب والوصف وكثيرٌ من الغَزَل معَ شيء من المُجونِ الظاهر. وله أيضاً طَرْد (وصف للصيد) وإخوانيّات. وابنُ عبدِ الواحدِ أدخل كتابَ «يَتيمة الدهر» للثعالبيّ إلى الأندلس.

٣ - مختارات من آثاره

- كتب أبو الفضلِ محمّدُ بنُ عبدِ الواحد البَغْداديُّ رسالةً إلى الوزير الكاتبِ أبي

المُطَرِّف[*] بن مُثَنّى (الذخيرة ٣: ٤١٠) جاء فيها:

أطالَ اللهُ بقاءَ سيّدي وجعل دَرَجَ المعالي مُستقرّةً تحتَ قدَمِهِ وسُرُجَ المساعي مُسفِرةً عن بوارقِ هِمَمِهِ[١]، وظامئاتِ الأمانيّ رَوِيّةً من لُعابِ سِنّ قَلَمِه[٢]، وعَذَباتِ الإقبال مَنُوطةً بألْوِيَةِ عزائِمِه وآرائِه[٣]... وكنتُ مَرَرْتُ ببِلادٍ شموسُ الفضائِل في آفاقِها مكسوفةٌ، وعيونُ العلمِ والآداب في عَرَصاتِها مَطْروفةٌ[٤]، وستائرُ الأحرارِ بين أهلِها مهتوكةٌ مكشوفة[٥]... نَبَعَتْ بينَ أهلِها عيونُ الخِيانة والبُهتان[٦]، وضَعُفَ حبلُ الديانةِ فيهم والإيمان... فأبْدَلَهُمُ اللهُ من النور في أحوالِهم ظلاماً، وبالحلالِ في مكاسِبِهِم حراماً. وخصّ أسعارَهم بالغَلاء وجَمْعَهم بالفناء ولَفيفَهُمْ بالتشتُّتِ والجلاء[٧]. وللخَرابِ ما يعْمُرونَ[٨]، وللقتل ما يَلِدونَ وللنهب ما يجمَعون ولغيرِهم ما يَكْسِبون. «وحاقَ[٩] بهم ما كانوا به يستهزئون» (٣٩: ٤٨ سورة الزمر)، «وكذلك أخْذُ ربِّكَ إذا أخَذَ القُرى[١٠] وهي ظالمةٌ، إنّ أخْذَهُ أليمٌ شديد» (١١: ١٠٢، سورة هود). ... وأكبَرْتُ أن أُفارقَ بلدَ الأندلس، وقد أظهرَ اللهُ فيه إحدى آياتِه الدالّةَ على عِظَمِ مُعجِزاته، الناطقةَ بِصحّة براهينهِ وبَيّناته، بسيّدِنا المأمونِ بنِ ذي النونِ أطالَ اللهُ بقاءَ سلطانهِ، وقَوّى دعائمَ مُلكه وأركانه...

(*) هو أبو المطرّف عبد الرحمن بن أحمد بن صيغون المعروف بابن مثنّى من أهل قرطبة وسكن بلنسية. وقد استوزره المأمون يحيى بن ذي النون صاحب طليطلة (٤٢٧ - ٤٦٣ هـ) عدّة سنين. «انتفع الناس به في أثناء وزارته لحسن دينه وسلامة باطنه وظاهره ولتفكيره الهادئ». وكانت وفاته في بلنسية سنة ٤٥٨ (١٠٦٦ م).

(١) السراج: القنديل. مسفرة: منكشفة.

(٢) من لعاب: ريق (هنا: حبر) سنّ قلمه (الطرف الذي يكتب به من القلم).

(٣) العذبة (بفتح ففتح): طرف الشيء (زائدة تتدلّى عادة من طرف العمامة - بكسر العين). منوطة: معلّقة.

(٤) مكسوفة: مغطّاة (قد حجب نورها). العرصة (بفتح ففتح): الباحة أمام الدار.

(٥) مهتوكة ممزّقة. مكشوفة: مزاحة (كناية عن جرأة الناس على من كانت مسدولة عليه: ساترة له).

(٦) البهتان: الافتراء (اتّهام الناس بما ليس فيهم).

(٧) الجلاء (الخروج من الوطن).

(٨) عمر الناس المكان (سكنوا فيه).

(٩) حاق: أحاط.

(١٠) الأخذ: العقاب، القصاص. القرية: المدينة.

- وله يَصِفُ الليلَ (الذخيرة ٣ : ٥١١):

وليلٍ تجلّى الصُبحُ في جَنَباتِهِ سنا بارقٍ في لُجِّ بحرٍ تَعَبّبا[١].
أحاطتْ بآفاقِ السماء خِيامُه وطبّق شرقاً في البلاد ومَغْرِبا[٢].
نَفى طولُه عنّي الرُقادَ كأنما يَغارُ على الجَفْنين أن يَتَركّبا[٣].
فبِتُّ أُجيلُ الطَرْفَ أرتادُ صُبْحَه كما ارتادَ ذو الشوقِ الحبيبَ المُحَجّبا[٤].
كأنّ النُجومَ الزُهْرَ فيه خرائدٌ تُطالِعُ من زُهْرِ الكواكب رَبْرَبا[٥].
كأنّ ثُريّاهُ أناملُ فِضّةٍ تُقلّب تُرْساً من سَنا الليلِ مُذْهَبا[٦].

- وقال يتشوّق إلى بلده:

أَهيمُ بذِكْرِ الشَرْقِ والغَرب دائباً، وما بِيَ شرقٌ للبِلادِ ولا غربُ[٧].
ولكنّ أوطاناً نأتْ وأحِبّةً فَقدتُّ متى أذكُرْ عُهودَهُمُ أصْبُ[٨].
إذا خَطَرَتْ ذِكراهُمُ في خواطري تَناثَرَ من أجفانيَ اللؤلؤُ الرَطْبُ[٩].
ولم أنسَ مَنْ ودّعتُ بالشَطِّ سُحْرةً وقد غرّدَ الحادون واسْتُعْجِلَ الركْبُ[١٠]:
أليفانِ هذا سائرٌ نحو غُرْبةٍ، وهذا مُقيمٌ سار عن صَدْره القلب.

---

(١) اللجّة (بالضمّ): معظم الماء (وسط البحر). تعبّب: كثر عبابه (بالضمّ): أمواجه.

(٢) خيام جمع خيمة (كناية عن اتّساع الغيوم). طبّق (ملأ).

(٣) أن يتركّبا (أن يركب أحدهما الآخر: أن ينطبقا فينام صاحبهما).

(٤) الطرف: البصر. أرتاد: أطلب. المحجّبا (الذي جعل على نفسه حجاباً: رفض الاجتماع بالحبّ).

(٥) الزهر: اللامعة (يقصد: الكبيرة). تطالع: تديم النظر إلى (تراعي، تعتني بـ). الربرب: القطيع من الظباء. الخريدة: المرأة الجميلة. الصورة غير واضحة.

(٦) الثريّا عنقود نجوم فيه سبعة نجوم كبيرة (ظاهرة للعين) ثمّ ألوف من النجوم الأخرى. «أنامل فضّة» (لعلّ الشاعر يشير هنا إلى النجوم السبعة الكبيرة اللامعة في عنقود الثريّا). ترساً مذهباً (يشبّه الليل بترس: برقعة سوداء واسعة مذهبة: فيها نجوم تلمع صفراً وحمراً، الخ).

(٧) الشرق والغرب من بلاد الأندلس. وما بي (شوق إلى) شرق الأندلس أو غربها: إلى الأرض نفسها...

(٨) أوطان نأت: بعدت (عنّي: بعدت أنا عنها). أصبو: أميل (يعظم حبّي).

(٩) اللؤلؤ الرطب. النقيّ، الصافي اللون كناية عن الدموع.

(١٠) الشط: جانب النهر. سحرة: قبيل الفجر. غرّد الحادي: بدأ يترنّم (يغنّي) استعداداً للانطلاق بالإبل (البدء بالسفر). واستعجل الركب (جعل الحادي، سائق الأبل، يحثّ العازمين على السفر على العجلة للبدء بالسفر).

٤ - ★★ جذوة المقتبس ٦٨ - ٦٩ (الدار المصرية) ٧٣ (رقم ١٠٥)؛ الصلة ٥٦٦؛ بغية الملتمس ٩٧ - ٩٨ (رقم ٢٠٩)؛ الذخيرة ٣: ٤١٠ - ٤١٣، ٤: ٨٧ - ١١٩؛ نفح الطيب ٣: ١١١، ١١٣ - ١١٥.

الحسين التجيبي القرطبيّ

١ - هو الحُسَيْنُ بنُ محمّدِ بنِ الحسينِ بنِ حَيٍّ التُجِيبيُّ القُرْطبيُّ، أخذَ عِلْمَ العددِ والهندسةَ والهَيْئَةَ[١] عن ابي عبدِ الله محمدِ بن عَمرِو بن محمدِ المعروفِ بابنِ بَرْغوثٍ الرِياضيِّ الفلكيّ (ت ٤٤٢ هـ). وفي سَنَةِ ٤٤٢ هـ رَحَلَ الحسين التجيبيّ إلى القاهرة ثمّ إلى اليَمَنِ. وفي اليمنِ اتصلَ بأميرِ المؤمنين الصُليحيّ القائم[٢] بالدعوة للمُسْتنصرِ الفاطمي مَعَدٍّ (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ) وحَظِيَ عِندَه. ثمّ إنّ الصليحيَّ أرسله رسولاً إلى القائمِ العبّاسيّ (٤٢٢ - ٤٦٧ هـ). وتُوُفِّيَ الحسينُ التُجيبيُّ في اليمنِ، سَنَة ٤٥٦ (١٠٦٤ م)، بعدَ رُجوعِه من بَغْدادَ.

٢ - الحُسينُ التُجيبيُّ القرطبيّ أديبٌ شاعرٌ وعالمٌ بالهندسةِ والفلك. له زيجٌ مُختصرٌ على طريقةِ السِند هِنْد[٣]. وشِعْرُه القليلُ الذي وصل إلينا مُقطّعاتٌ قِصارٌ تدورُ على التأمُّل والحِكمة وفيها إشاراتٌ من الرِياضيّات والفلك.

٣ - مختارات من شعره

- قال الحُسينُ التُجيبيّ يوازِنُ بينَ الواحدِ من العدد (الذي هو أوّلُ الأعداد ومنه تأتي كلُّ الأعدادِ، مَعَ أنّه في رأي علماء العددِ ليس مثلَ سائرِ الأعداد) واللهِ الذي هو أيضاً الموجودُ الأوّلُ (وهو سابقٌ على جميعِ الموجوداتِ ومُخالفٌ لها، معَ أنّها جميعَها قد جاءتْ منه):

---

(١) الهيئة: الفلك.

(٢) عليّ بن محمّد الصليحي أمير يمني اعتنق، سنة ٤٢٨، دعوة الفاطميّين (أئمّة مصر). وفي سنة ٤٢٨ حالفه في الموسم (في الحجّ) نحو ستّين نصيراً على الدعوة للمستنصر الفاطميّ صاحب مصر. وفي سنة ٤٥٥ أصبح ملكاً على اليمن. وتوفّي سنة ٤٧٣.

(٣) السند هند كتاب هندي في الرياضيات والفلك.

تــأمَّـــلْ صـــورةَ الـعَـدَدِ، فَمَنْ يـنـظُـرْ إلـيـه هُـدِي.
كـمـا الأعـدادُ راجـعـةٌ، وإنْ كَـثُـرَتْ، إلـى الأحـدِ[1]،
كـذاك الخَـلْقُ مَـرْجِـعُـهـم لِـرَبٍّ واحــدٍ صَـمَـد[2].

- وله مقطّعاتٌ قِصارٌ في التأمُّل والحِكمة:

★ ورأيـتُ السماءَ كالبحر، إلاّ أنّ ما وَسْطَه من الدُرّ طافي[3].
فيه ما يملأُ العيونَ كبير وصغيرٌ ما بين ذلك صافي[4].

★ ودّعتُـه حيـثُ لا تُودّعُـه روحي ولـكنّـها تـسيـرُ مَـعَـهْ.
ثـمّ تولّى والـعـيـون لـه ضِيـقُ مجالٍ وفي القلوب سَعَـهْ.

★ إذا ما كَثُرْتَ على صاحبٍ وقـد كـان يُدنيك من نَفْسهِ[5]
فلا بُدَّ من مَلَلٍ واقعٍ يُغَيِّرُ مـا كـان مـن أُنْـسـه.

٤ - ★★ معجم الأدباء ١٠ : ١٥٨ - ١٦٠.

ابن حزم الكبير

١ - وُلِدَ أبو محمّدٍ عليُّ بنُ أحمدَ (ت ٤٠٢ هـ) بنِ سعيدِ بنِ حزمٍ في قُرطبةَ، في آخرِ يومٍ من رَمَضانَ من سَنَةِ ٣٨٣ (معجم الأدباء ١٢ : ٢٣٧) أو ٣٨٤ (وفيات الأعيـان ٣ : ٣٢٥)- يُوافـقُ ذلك من العامِ الميلاديّ ١٨/١١/٩٩٤ أو

---

(١) الأحد: الواحد من العدد (قبل الاثنين). كلّ الأعداد تبدأ من الواحد بزيادة واحد على العدد الذي قبله ما عدا الأثنين فهو الواحد مكرّراً ثمّ ٢ + ١، ٣ + ١، ٤ + ١، الخ.

(٢) الصمد: المقصود (الله). وكما أن جميع الأعداد ترجع إلى الواحد، فكذلك جميع الأشياء مرجعها (مبدأها) الله (الذي هو: واحد).

(٣) ..إلاّ أن ما (في) وسطه. الدرّ: اللؤلؤ. طاف: عائم على سطح الماء.-الليل بسمته يشبه البحر، مع فارق: اللؤلؤ الذي في البحر يكون غارقاً في قعره. أما الليل (السماء) فإنّ ما فيها من اللؤلؤ (النجوم) طاف (سابح) على سطحها.

(٤) في السماء نجوم كبيرة وصغيرة تملأ العيون (أي كثيرة). صافي (صاف)؟؟

(٥) كثرت على صاحب: أثقلت عليه (بالزيارات الكثيرة أو بالمطالب الكثيرة).

٩٩٤/١١/٧ ، في بيتِ جاهٍ وثروةٍ وتَرَفٍ وسُلطان. غيرَ أنه لَقِيَ عَنَتاً كبيراً من جرّاء الفِتنة في الأندلس، ولأن أباه كان وزيراً للمنصور بن أبي عامرٍ الحاجبِ (رئيس الوزراء) الذي كان قد حَجَرَ على الخليفة هِشامٍ المُؤيَّدِ واستبدَّ بالحُكم دونه. فلما تُوُفِّيَ المنصورُ (٣٩٢ هـ = ١٠٠٢ م) ثم استطاعَ هِشامٌ المؤيدُ أن يحكُمَ بنفسه تتبّع رجالَ دولةِ المنصور فلَحِقَ آلَ حزم من ذلك نصيبٌ وافر تشتّتوا به في البلاد. ثم زال الحكمُ المرواني عنِ الأندلس وبُويع عَلِيُّ بنُ حمودٍ بالخلافة وتغلّب على قُرطبةَ فاتَّهمَ آلَ حزمٍ بأنهم من أنصارِ المروانيين. ولقدْ أضاعَ آلُ حزم في أثناء ذلك كثيراً من أموالهم وقصورِهم وكُتُبهم.

وبعد خرابِ قُرطبةَ في فتنة البربرِ انتقل ابنُ حزم إلى شاطبةَ، وفيها ابتدأ تأليفَ كتابهِ « طَوْقُ الحمامة ». وكان في سَنَةِ ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م) يعيش فيها. وفي سَنَةِ ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م) كان موجوداً في جزيرةِ مَيُورِقَةَ لاجئاً فيها. واتفق أن رَجَعَ الفقيهُ أبو الوليدِ الباجيُّ من المشرق فناظره مناظرةً أضرّتْ به. ولما كَثُرَتْ عليه دسائسُ الفقهاء بسببِ مذهبه الظاهريّ اعتكفَ في تُربة بلده مُنْتَ لِيَشْم حيث تُوُفِّيَ في السابعِ والعِشرينَ من شَعْبانَ من سَنَة ٤٥٦ (١٠٦٤/٨/١٤ م).

٢ - كان ابن حزمٍ قديراً في التفسير حافظاً للحديث، وكان فقيهاً متكلماً وعالماً لُغوياً ومؤرخاً بارعاً وأديباً بليغاً ومفكّراً رصيناً، ولكنّ الشهرةَ بالأدب غَلَبت عليه.

وكُتُبُ ابنِ حزمٍ كثيرةٌ متنوعة، غيرَ أن كثيراً منها قد ضاع في النَّكَبات، في الفتن في قُرطبةَ وفي غَضْبة العامة عليه، تلك الغضبةِ التي أدّت مِراراً إلى إتلاف كتبه بالحرق والتمزيق. فمن كتبه:

الإحكام لأصول الأحكام - أسواق العرب - رسالة في الإمامة (الخلافة) - رسالة في أُمّهات المؤمنين - التحقيق في نقد مذهب محمّد بن زكريا الرازي - التقريب لحدّ المنطق والمُدخل إليه بالألفاظ العاميّة والأمثلة الفِقهية - جمهرة الأمثال - جمهرة أنساب العرب - حِجّة الوَداع - الردّ على ابن النغريلة اليهودي - رسالة في مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد في الرذائل - طَوْق الحمامة في الأُلفة والأُلاف (يتناول أحوالَ العشّاق وما يعتريهم من الحبّ والإذعان والسُّلُوّ والطاعة والهَجْر وما

تقتضيه حياتهم من السفير والمراسلة وما يُنَغِّص حياتهم كالواشي والرقيب وما يُبْهِجُهم كالوصل) - رسالة في الغِناء المُلهي أمباح هو أم محظور؟ - الفِصَل في المِلَل والأهواء والنِحَل (عَرَض فيه للأديان القديمة ومذاهب قدماء الفلاسفة وآراء اليهود والنصارى ومذاهب أهلِ الإسلام والبحث في مذهب الظاهر ومهاجمة خصومه؛ وفلسفة ابنِ حزمٍ كلُّها منطوية في هذا الكتاب) - رسالة في فضل الأندلس - المُحلّى (في فروع الفقه) - مراتب الإجماع - مراتب العلوم - المفاضلة بين الصحابة - فصل في معرفة النفس بغيرها وجهلها بذاتها. - معرفة الناسخ والمنسوخ - النُبذة الكافية في أصول أحكام الدين - نَقْطُ العَروس في تواريخ الخلفاء.

ابن حزمٍ من أتباع المذهب الظاهري وإمام هذا المذهب في أيامه. وهو يقبل كلَّ ما نصَّ عليه القرآنُ أو ورد في الأحاديث الموثوقة على ظاهرِ معناه، إلاّ أنْ يكون هنالك ضرورةٌ من عقل أو حِسّ تدعو إلى صَرْفِ المعنى عن ظاهره وإلى الأخذ بالتأويل. يقول ابن حزم في الملل والنحل: «بلِ الآياتُ كلُّها حقّ على ظاهرِها لا يَحِلُّ صَرْفُها عنه (٣: ١٥٢)؛ وإنما نتّبع ما جاءتْ به النصوصُ (٣: ١٦٢). والنصُّ لا يَحِلُّ خِلافُه (٤: ٨٥ س)، لأن اللهَ تعالى يَنِصّ أحياناً نصّاً لا يحتملُ تأويلاً (٣: ١٤٤). وكذلك الأحاديث الموثوقة (٥: ١١٣).

وصَرْفُ الآياتِ والأحاديث عن ظاهرِها لا يجوزُ إلا ببُرْهان (٣: ٢٠٧، ٥: ٧٧)، أو بنصّ من قُرآنٍ أو حديث أو بإجماعٍ مُتَيَقَّنٍ أو بضَرورةٍ من حِسّ. وعندئذٍ تَجِبُ مُخالفةُ الظاهرِ والعملُ بالتأويل على مُقتضى البلاغة العربية.

وابنُ حزمٍ مفكّرٌ في الدرجة الأولى مِمّا جعله - حينما ينصرف إلى النِتاج الأدبي: في النثر والشعر - أديباً من الطبقة الأولى أيضاً. فكتابه «طوقُ الحمامة»، وإن كان في ظاهِره أدباً خفيفاً يَصِفُ مظاهِرَ الحياةِ الإنسانية في الأُلفة والأُلاّف (في الحُبّ والمُحبّين)، فإنّه في حقيقتهِ نِظْرةٌ ثاقبةٌ في أعماق النفس الإنسانية والحياة الاجتماعية. وشعرُه متينٌ جَزْلٌ يَغْلِبُ فيه المعنى على اللفظ، ولكنّه يبقى شعراً وُجدانيّاً بعيدَ الأثر في النفس والفكر معاً.

٣ - مختارات من آثاره

- لابن حزم الأندلسيّ مقطّعات شعريّة منها حينما نُكِبَ وأُحرقتْ كتبه:

★ لا يَشْمَتَنْ حاسدي إنْ نكبةٌ عرضَتْ ... فالدهر ليس على حال بمتَّرِكِ[١].
ذو الفضل كالتبر يُلفى تحت مَتْرَبةٍ ... طوراً، وطوراً يُرَى تاجاً على ملك[٢]

★ سيكون الذي قُضِي، ... سَخِطَ العبد أم رَضِي.
فدعِ الهمَّ، يا فتى؛ ... كلُّ همٍّ سينْقَضِي.

★ وذي عَذَلٍ فيمن سباني حُسْنه ... يُطيل مَلامي في الهوى ويقول[٣]:
أفي حُسْنِ وجه لاح، لم ترَ غيرَه ... ولم تدر كيف الجسمُ، أنت قتيل؟[٤]
فقلت له: أسرفتَ في اللوم ظالماً؛ ... وعنديَ ردٌ، لو أردتَ طويلُ[٥]:
ألم ترَ أني ظاهريٌّ وأنني ... على ما بدا حتى يقومَ دليل[٦].

★ إذا شئتَ أن تحيا غنيّاً فلا تكن ... على حالة إلاّ رضيتَ بدونها[٧].

★ دعونيَ من إحراق رَقٍّ وكاغدٍ ... وقولوا بعلمي كي يَرَى الناسُ مَن يدري[٨].
فإن تُحْرِقوا القِرطاسَ لا تحرقوا الذي ... تَضَمَّنه القرطاسُ، بَلْ هو في صدري.

★ أنا الشمس في جوّ العلوم منيرةً ... ولكنَّ عيبي أنْ مَطْلَعِيَ الغربُ[٩].
ولَوْ أنّني مِن جانب الشرق طالع ... لجَدَّ لي ما ضاع مِن ذكريَ النهب[١٠].

---

(١) ....الدهر لا يترك أحداً على حال واحدة (بل ينقله من سعد إلى نحس ومن نحس إلى سعد).

(٢) ألفي: وجد. متربة (المقصود: تراب تحت متربة: مدفون).

(٣) عذل: لوم. سباني: أسرني.

(٤) أنت لم تر من هذا الشخص سوى وجهه، فلا تعرف ما حال أقسام جسمه الباقية....

(٥) أسرف: جاوز الحدّ.

(٦) أنا أثبت على الأخذ بظاهر الأمور، ولا أميل عن الظاهر (لا أتركه) حتّى يقوم عندي دليل على خلافه.

(٧) أنت تكون غنيّاً إذا أنت اعتقدتّ أنّك محتاج إلى أقلّ ممّا تملك (والانسان لا يحتاج فعلا، إلى كلّ ما يطمع ان يجمعه).

(٨) الرقّ (من الجلد) والكاغد (فارسية: من الورق). - لا تذكروا حادثة إحراق كتبي (ولا عدد كتبي قبل إحراقها) ولكن اذكروا معارفي التي أجمعها في صدري (راجع البيت التالي) فتعرفو حينئذ الذي هو عالم (من العلوم التي ينصّها من صدوه) ومن ليس عالماً (يقرأ على الناس من الكتب).

(٩) عيبي (عند الناس) أنني من الأندلس.

(١٠) - لو كنت من أهل المشرق (ثمّ أحرقت كتبي) لاتّسع ذكري في الأندلس نفسها (لأن الناس هنا لا يحبّون ابن بلدهم ويكرمون الذي يأتي إليهم من المشرق).

ولي نحوَ آفاق العِراق صَبابة. ولاغَرْوَأن يستوحِشَ الكَلِفُ الصبُّ[1].
ولكنَّ لي في يوسفٍ خيرَ أُسْوة؛ وليس على مَن بالنبيِّ آئتسى ذنبُ[2]
يقول مقالَ الحقّ والصِّدق إنني حفيظٌ عليمٌ، ما على صادقٍ عَتْب[3].

- ومن مقطّعاته في غير ذلك:

* كَذَبَ المدّعي هوى آثنينِ حتّاً، مثلَ ما في الأُصول كُذِّبَ ماني[4]-
ليس في القلب موضعٌ لحبيبَين، ولا أُحْدِثَ الأُمورُ بثاني[5]،
فكما العقل واحد، ليس يهوى غيرَ فردٍ مُباعِدٍ أو مُدان-
هو في شِرعة المودّة ذو شكٍّ (م) بعيدٌ من صِحَّة الإيمان
وكذا الدين واحدٌ مستقيم؛ وكَفور مَن عَقْدُه دينان.

* يَعيبونها عندي بشُقرة شَعرها، فقلتُ لهم: «هذا الذي زانَها عندي».
يعيبون لَوْنَ النور والتِّبر، ضِلَّةً لرأيِ جهولٍ في الغَواية ممتدّ!
وهل عاب لونَ النَّرجِسِ الغضِّ عائبٌ ولونَ النجوم الزاهرات على البعد؟
وأبعدُ خلقِ الله من كل حِكمةٍ مُفضِّلُ جرمٍ فاحمِ اللون مُسْوَدّ.
به وُصِفَتْ ألوانُ أهلِ جهنَّمٍ ولِبسة باكٍ مُثْكَل الأهلِ محتدّ.
ومذْ لاحتِ الراياتُ سوداً تيقَّنتْ نفوس الورى أنْ لا سبيلَ إلى الرشد[6]

---

(١) صبابة: محبّة. - وليس من الغريب أن يجد الإنسان وحشة (إذا كان كلفاً صبّاً: شديد التعلّق والحبّ لمكان ما أن يميل إلى ذلك المكان).

(٢) يوسف الصدّيق (ابن يعقوب). أسوة: قدوة. ائتسى: اقتدى، تسلّى (عن مصيبته). - يوسف كان بكرهه اخوته فأرادوا قتله ثمّ قرّروا أن يلقوه في حفرة إلى جانب الطريق في أثناء سفرهم الى مصر.

(٣) قال يوسف لفرعون: «اجعلني على خزائن الأرض، إنّي حفيظ عليم» (١٢ : ٥٥، سورة يوسف) وأنا أقول مثل قوله؟؟.

(٤) ماني: صاحب مذهب الفرس والقائل بالثنويّة بوجود إلَهين للعالم: إلَه الخير أو النور وإلَه الشرّ أو الظلمة. الأصول: قواعد المنطق الأساسية (أو أصول الدين).

(٥) لعلّه يشير إلى العقل الفائض (عند الإسكندرانيّين) عن الله. فإنّ الله (الأوّل، الواحد) عندهم لا يباشر الخلق. ولكن من «الثاني» (العقل الفائض من الأوّل تحدث سائر الفيوضات وتتنوّع الموجودات).

(٦) منذ لاحت الرايات سودا: منذ قيام الدولة العبّاسية (!) لأنّ لونها المختار كان السواد مخالفة لبني أميّة الذين كان شعارهم البياض. وكان آل حزم من أنصار الأمويّين.

★ وسائلٍ ليَ عمّا لي من العُمُرِ، وقد رأى الشيب في الفَوْدَين والعُذُرِ[1]،
أجبته: «ساعةٌ؛ لا شيءَ أحْسِبُه عُمْراً سواه بحكم العقل والنظر».
فقال لي: «كيف ذا؟ بيِّنْه لي، فَلَقَدْ أخبرتَني أشنعَ الأنباء والخبر»[2].
فقلتُ: «إنّ التي قلبي بها عَلِقٌ قبَّلْتُها قُبلةً يوماً على خطر؛
فما أعُدّ، ولو طالتْ سِنِيَّ، سوى تلك السُّوَيْعة بالتحقيق من عُمُري»!

★ جَرى الحُبُّ مِنّيَ مجرى النَّفَسْ وأعْطَيتُ عَيْني عِنانَ الفَرَسْ[3].
ولي سيِّدٌ لم يزل نافراً، وربّما جاد لي في الخُلَسْ[4].
فقبَّلته طالباً راحةً فزاد أليلاً بقلبي اليبِسْ[5].
وكان فؤادي كنَبْتٍ هَشيمٍ يبيسٍ رَمَى فيه رامٍ قبَسْ[6].

★ وَدِدتُ بأن القلبَ شُقّ بمُدْيةٍ وأُدْخلتِ فيه ثم أُطبِقَ في صدري،
فأصبحتِ فيه لا تَحِلِّينَ غيرَه إلى مُنقَضَى يومِ القيامة والحشر:
تعيشين فيه ما حَيِيتُ، فإنْ أمُتْ سكنتِ شِغافَ القلبِ في ظُلَم القبر.

★ لقد بُورِكَتْ أرضٌ بها أنتَ قاطنٌ، وبورك مَنْ فيها وحلّ بها السعدُ:
فأحجارُها دُرٌّ وسَعدانُها وَرْدٌ وأمواهها شَهد وتُربتها نَدُّ[7].

★ فأيّام عُمْر المرءِ مُتْعة ساعةٍ تمُرُّ سريعاً مثلَ لمعةِ بارقِ.
وقد آذنَتْ نفسي بتقويض رَحْلِها وأسْرعَ في سَوقي إلى الموت سائِقي[8]

(١) الفود: الشعر السائل من جانب الرأس. العذر (بضمّتين) جمع عذار (بالكسر): الشعر النابت على صفحة الخدّ.

(٢) الخبر (مفرد): ما ينقل من أحوال الناس. وكان حقّ الكلمة أن تكون جمعاً لأنّها هنا معطوفة على جمع ولأنّ الأفصح أن يضاف اسم التفضيل إلى جمع لا إلى مفرد، نقول: أحسن الأشياء (لإمكان المفاضلة بين أشياء متعدّدة) ولا نقول: أحسن شيء (وإن كان المولّدون قد فعلوا ذلك فقال المتنبّي مثلاً: «وخير جليس في الزمان كتاب»)

(٣) أعطيت عيني عنان (رسن) الفرس: أطلقت نفسي تفعل ما تريد (بالنظر بالعينين فقط).

(٤) في الخلس (بفتح فسكون) انتهاز الأمر. والخلسة (بالضمّ): النهزة والفرصة (بالضمّ فيهما).

(٥) الأليل: الاضطراب، الحرارة. اليبس (ربما بفتح وكسر: اليابس): الذي نسي الحب وفارقه الشباب – لعلّ ابن حزم قصد بالأليل «الاحتراق» (راجع البيت التالي).

(٦) هشيم: يابس. قبس: شيء مشتعل.

(٧) درّ: لؤلؤ. السعدان: نبت تأكله الإبل وتسمن من أكله. شهد: عسل. ند: نبات طيّب الرائحة.

(٨) آذن: اقترب. بتقويض رحلها (بيتها) للرحيل عن الدنيا.

وإنّي وإنْ أوغَلْتُ أوسِرْتُ هارباً   من الموت في الآفاقِ، فالموت لاحقي[1].

من مقدّمة «طوق الحمامة»:

... وكلَّفتَني - أعزّك الله - أن أُصنِّفَ لك رسالةً في صِفة الحُبِّ ومعانيهِ وأسبابه وأعراضه[2] وما يَقَعُ فيه وله على سبيل الحقيقة لا مُتَزَيِّداً ولا مُفَنِّناً[3]، لكنْ مُورِداً لِمَا يحضُرُني على وجهِهِ وبِحَسْبِ وقوعه حيثُ انتهى حِفْظي وسَعَةُ باعي فيما أذكُرُه. فبَدَرْتُ إلى مَرْغوبِك. ولولا الإيجابُ لكَ لَمَا تَكَلّفْتُه. فهذا من الفِقَر. والأَوْلى بنا معَ قِصَرِ أعْمارِنا ألاّ نَصْرِفَها إلاّ فيما نرجو بِهِ رَحْبَ المُنْقَلَبِ وحُسْنَ المآبِ غداً. وإنْ (جاء في الحديث): أَجِمّوا النفوسَ بشيءٍ من الباطل لِيكونَ عَوْناً لها على الحقّ... والذي كَلّفتَني فلا بُدَّ فيه من ذِكْرِ ما شاهَدَتْه حَضْرَتي وأدْرَكَتْه عِنايتي وحَدّثني به الثِّقاتُ. فاغْتَفِرْ لي الكِنايةَ عن الأسماء، فَهِيَ إمّا عَوْرةٌ لا نَسْتجيزُ كَشْفَها، وإمّا نحافظ في ذلك صديقاً وَدوداً ورَجُلاً جَليلاً. وبِحَسْبي أنْ أُسَمّيَ من لا ضَرَرَ في تَسْمِيَتِه ولا يَلْحَقُنا عَيْبٌ في ذِكْرِهِ: إمّا لاشْتِهارٍ لا يُغني عنه الطَّيُّ وتركُ التَّبْيينِ، وإمّا لِرِضاً مِنَ المُخْبَر عنه بظهورِ خَبَرِهِ وقِلّة إنكارٍ منه لِنَقْلِهِ.

وسأُورِدُ في رسالتي هذه أشْعاراً قُلْتُها فيما شاهَدتُه فلا تُنْكِرْ أنتَ ومَنْ رآها عليّ أنّي سالِكٌ فيها مَسْلَكَ حاكي الحديث عن نفسه. فهذا مذهبُ المُتَحَلّينَ بقول الشعر... وقَسَمْتُ رِسالتي هذه على ثلاثين باباً منها في أُصولِ الحبِّ عَشْرةٌ. فأوّلُها هذا البابُ في علاماتِ الحبِّ ثمّ بابُ ذِكْرِ مَنْ أحبَّ في النوم... ثمّ بابُ الإشارةِ بالعَيْنِ ثمّ بابُ المراسلةِ ثمّ باب السَّفير. ومنها في أعْراض الحُبِّ وصِفاتِهِ المحمودةِ والمذمومة اثْنا عَشَرَ باباً... وهي بابُ الصديقِ المُساعدِ ثمّ بابُ الوصلِ ثمّ باب كشف السِّرّ... ثمّ باب الغَدْرِ ثمّ باب الضَّنى ثمّ باب الموت. ومنها في الآفاتِ الداخلة على الحبّ، سِتّةُ أبوابٍ وهي بابُ العاذِلِ ثمّ باب الرقيب ثمّ باب الواشي ثمّ باب الهَجْر... ومنها بابانِ خَتَمْنا بِهِما

---

(١) أوغلت في الآفاق (أطراف الدنيا) ابتعدتّ (هرباً من الموت).

(٢) العرض (بفتح ففتح) وجمعه أعراض: العلامات التي تظهر على المرضى.

(٣) وفي رواية: مفتناً (بتشديد النون) أي متصرفاً في تنويع الأمور وسياقتها على وجه غريب.

الرسالةَ وهما بابُ الكلامِ في قُبْحِ المَعْصِية وبابُ فضل التَّعَفُّف لِيكونَ خاتمةَ إيرادِنا وآخِرَ كلامِنا الحضُّ على طاعةِ الله عزّ وجلَّ والأمرُ بالمعروف والنَّهْيُ عنِ المُنْكَر...

٤ - الإحكام في أصول الأحكام، مصر (مطبعة السعادة)، ١٣٤٥ هـ؛ القاهرة (مطبعة الإمام) بلا تاريخ.

- المحلّى (عنيت بنشره إدارة الطباعة المنيريّة) مصر (مطبعة النهضة) ١٣٤٧ - ١٣٥٢ هـ؛ (تصحيح محمّد خليل هرّاس) القاهرة (مطبعة الإمام) بلا تاريخ.

- الفصْل (الفِصَل؟) في الملل والأهواء والنحل، مصر (المطبعة الأدبية) ١٣١٧ - ١٣٢١ هـ؛ القاهرة ١٣٤٧ هـ (١٩٢٨ م)؛ (نسخة بالتصوير)، بيروت (مكتبة خيّاط).

- طوق الحمامة في الألفة والألاف (بتروف)، ليدن (بريل) ١٩١٤ م؛ وباعتناء (ليون برشيه) الجزائر (كاربونيل) ١٩٤٩ م؛ دمشق (مكتبة عرفة) ١٣٤٩ هـ؛ (تحقيق حسن كامل الصيرفي)، القاهرة ١٩٥٠، مصر (المكتبة التجاريّة الكبرى) ١٣٨٣ هـ= ١٩٦٤ م؛ بيروت (دار الحياة) بلا تاريخ؛ (تحقيق نصر فريد محمّد واصل، عبد العزيز محمّد عزّام، محمّد فهمي السرجاني)، القاهرة (المكتبة التوفيقية) ١٩٧٦ م.

- الناسخ والمنسوخ (بهامش تنوير المقباس من تفسير ابن عبّاس للفيروز أبادي)، القاهرة (المطبعة الأزهرية) ١٣١٦ هـ.

- رسالة في مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد في الرذائل (هذه الرسالة تلفى مطبوعة بعناوين مختلفة) الإسكندرية بلا تاريخ؛ (نشره أحمد عمر المحمصاني)، القاهرة (مطبعة السعادة)، بلا تاريخ؛ ١٣٢٥ هـ؛ القاهرة (مطبعة النيل) ١٣٢٣ هـ؛ (بعناية محمّد هاشم الكتبي)، دمشق ١٣٢٤ هـ؛ القاهرة (المطبعة الجمالية) ١٣٣١ هـ = ١٩١٣ م؛ (اللجنة الدولية لترجمة الروائع)، بيروت ١٩٦١ م؛ بيروت (دار الآفاق الجديدة) ١٩٧٨ م؛ (اختصره محمّد أدهم)، القاهرة ١٩١١ م.

- جمهرة أنساب العرب (نشره... أ. ليفي بروفنسال)، القاهرة (دار المعارف) ١٩٤٨ م؛ (تحقيق عبد السلام محمد هارون)، القاهرة (دار المعارف) ١٩٦٢ م.

- مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات (مطبوع مع «محاسن الإسلام...» لأبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن البخاري) القاهرة (مكتبة القدسي) ١٣٥٧ هـ.

- ملخص إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل (تحرير سعيد الأفغاني) دمشق (مطبعة جامعة دمشق) ١٣٧٩ هـ = ١٩٦٠ م.

- أسواق العرب، باريس ١٩٣٥ م.

- رسائل ابن حزم (حققها إحسان عباس)، مصر (مكتبة الخانجي) وبغداد (مكتبة المثنى) بلا تاريخ.
- جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى (تحقيق إحسان عباس وناصر الأسد)، القاهرة (دار المعارف) ١٩٥٤ م (؟).
- التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية، (تحقيق إحسان عباس)، بيروت (دار مكتبة الحياة) ١٩٥٩ م.
- حجة الوداع (حققه... ممدوح حقي)، دمشق (دار اليقظة العربية) ١٩٥٠ م (؟)، الطبعة الثانية، بيروت (دار اليقظة العربية) ١٩٦٠ م.
- الرد على ابن النغريلة[1] اليهودي ورسائل أخرى (تحرير إحسان عباس)، القاهرة (مكتبة دار العروبة) ١٩٦٠ م.
- مسائل أصول الفقه (نشره محمد بن إسماعيل بن الأمير الصنعاني وجمال الدين القاسمي)، (مطبوع في «مجموع الرسائل في التفسير وأصول الفقه»)، دمشق (مطبعة الفيحاء) ١٣٣١ هـ.
- كتاب نقط العروس في تواريخ الخلفاء بالأندلس، القاهرة ١٩٥١ م.
- فضائل أهل الأندلس لابن حزم ولابن سعيد وللشقندي (نشرها صلاح الدين المنجد)، بيروت (دار الكتاب الجديد) ١٩٦٨ م.
- ** ترجمة ابن حزم الأندلسي (من سير النبلاء للذهبي - تحقيق سعيد الأفغاني)، دمشق (مطبعة الترقي) ١٩٤١ م.
- كلمات في الأخلاق أو مداواة النفوس لابن حزم وقاسم أمين... القاهرة ١٩١٣ م.
- نظرات في اللغة عند ابن حزم، تأليف سعيد الأفغاني، دمشق (مطبعة جامعة دمشق).
- معجم فقه ابن حزم الظاهري للجنة موسوعة الفقه الإسلامي، دمشق (مطبعة جامعة دمشق) ١٩٦٦ م.
- ابن حزم: حياته وعصره وآراؤه الفقهية، تأليف محمد أبي زهرة، القاهرة (دار الفكر العربي) ١٩٥٤ م.
- ابن حزم الأندلسي، تأليف عبد الكريم خليفة، بيروت (دار العربية للطباعة والتوزيع والنشر) - عمان (مكتبة الأقصى) ١٩٦٢؟ م.
- ابن حزم الموسوعي، تأليف زكريا إبراهيم، القاهرة (الدار المصرية للتأليف والترجمة) ١٩٦٦ م (أعلام العرب ٥٦).
- ابن حزم، تأليف فاروق سعد، بيروت (دار الحياة)؟ ١٩٧٢ م.؟

---

(١) راجع تحقيق صورة هذا الاسم في «ابن حزم الكبير» للمؤلف.

- ابن حزم: صورة أندلسية، تأليف طه الحاجري، القاهرة (دار الفكر العربي) بلا تاريخ.
- ابن حزم رائد الفكر العلمي، تأليف عبد اللطيف شرارة، بيروت (المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع) بلا تاريخ.
- ابن حزم الكبير، تأليف عمر فروخ، بيروت (دار لبنان) ١٤٠٠ هـ = ١٩٨٠ م.

★ الصلة ٣٩٥ - ٣٩٦؛ الذخيرة ١: ١٦٧ - ١٨٠؛ جذوة المقتبس ٢٩٠ - ٢٩٤ (الدار المصرية) ٣٠٨ - ٣١١ (رقم ٧٠٨)؛ بغية الملتمس ٤٠٣ - ٤٠٥ (رقم ١٢٠٤)؛ مطمح الأنفس ٥٥ - ٥٦؛ معجم الأدباء ١٢: ٢٣٥ - ٢٥٧؛ وفيات الأعيان ٣: ٣٢٥ - ٣٣٠؛ المغرب ١: ٣٥٤ - ٣٥٧؛ المعجب ٣٢ - ٣٥؛ بغية الوعاة ٤٠٢ - ٤٠٥؛ شذرات الذهب ٢: ٢٩٩ - ٣٠٠؛ نفح الطيب ٢: ٧٧ - ٨٤، ٣ : ١٥٨ - ١٨٦، ٥٥٥ - ٥٥٦؛ نيكل ٧٣ - ١٠٣، مختارات نيكل ٤٨ - ٥٩؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٧٩٠ - ٧٩٩؛ بروكلمن ١: ٥٠٥ - ٥٠٦، الملحق ١: ٦٠٢ - ٦٠٧؛ بالنثيا ٧٤ - ٧٧، ٢١٣ - ٢٣٨؛ الأعلام للزركلي ٥: ٥٩ (٤: ٢٥٤ - ٢٥٥)؛ الذكرى المئوية التاسعة لوفاة ابن حزم (مجلة العربي - الكويت: آب - أوغسطس ١٩٦٣؛ ص ٢٠ وما بعد).

المرابطون في المغرب

بعدَ سُقوطِ الخِلافةِ الأُمويّةِ في الأندلسِ انتقلتِ القُوّةُ السياسيةُ مِنَ الأندلسِ إلى المَغرِبِ، ومن العَرَبِ إلى البربر.

في مَطْلعِ القرنِ الخامس للهِجْرة (الحادي عَشَرَ للميلاد) كانت قبيلةُ صِنْهاجَةَ في المغرب الأقصى وَفيرةَ العددِ قويّةَ الشكيمةِ، وقدِ اجتمعتْ حولَ الأميرِ عبدِ اللهِ بنِ محمّدِ بن تيفاوتَ المعروفِ باسم تاسَرْتَ اللمْتُونيّ. واسْتُشْهِدَ الأميرُ عبدُ اللهِ في بعضِ غَزَواتـهِ فقام بأمرِ صِنهاجةَ يحيى بنِ إبراهيمَ الكدّالي. زارَ يحيى الكدّاليُّ في مدينةِ القيروانِ الشيخَ أبا عِمرانَ الفاسيّ وسأله أنْ يَبْعَثَ مَعَهُ رَجُلا يعلّمُ صِنهاجةَ أمورَ الدينِ. فدلّهُ أبو عِمرانَ على رَجُلٍ من قبيلةِ مَصْمودةَ من بلدةِ نفيسَ في السوس (سِلْسلةِ جبالِ الأطلس) الأقصى اسْمُهُ واجاجُ اللَّمْطيّ. وكان واجاجُ قد أخذ العِلْمَ عن أبي عِمرانَ الفاسيّ ثمّ عاد إلى بلدهِ وبنى فيها داراً للعلمِ وقراءةِ القُرآنِ سمّاها دار المُرابطين. وأرسل واجاجُ إلى قبيلةِ صِنهاجةَ رجُلاً من أتباعهِ اسمُه عبدُ الله بنُ

ياسينَ الجَزولي، وذلك سَنَةَ ٤٣٠ هـ (١٠٣٩ م).

اجتمعَ حَوْلَ عبدِ اللهِ بنِ ياسينَ، في مَدَى أربعِ سَنَواتٍ، بِضْعَةُ آلافِ نَفَرٍ سمّاهم المرابطين. غير أنّه أدْرَكَ أن الدعوةَ الصالحةَ وحدَها لا تنفعُ، فبدأ بغزْوِ القبائلِ التي لم تدخُلْ في حركتِهِ فانتشرتْ عندئذٍ حركةُ المرابطينَ بين البربر.

وتقلّبَ على صِنْهاجَةَ نَفَرٌ من القادةِ حتّى جاء يوسفُ بنُ تاشفينَ فتابع غزوَ القبائلِ وإخضاعَها ثمَّ استبدّ بأمرِ المُرابطين وبنى مدينةَ مَرّاكُشَ (٤٥٤ هـ = ١٠٦٢ م) فدانَ له مُعْظَمُ المغربِ.

كانت عنايةُ المرابطين منصرفةً إلى الفِقه، وإلى الفِقه على المنهج السَلَفيّ - لا ميلَ فيه إلى الرأي أو الجِدال ولا خُروجاً منه إلى عِلمِ الكلام أو إلى التصوّف - حتّى أنّ نُسَخاً من عددٍ من كتبِ الإمامِ الغزّاليّ قد جرى إحْراقُها في مَرّاكُش في أيامِ عليِّ بنِ يوسفَ بنِ تاشفينَ (٥٠٠ - ٥٣٧ هـ) لأنّها كانتْ ممزوجةً بعلمِ الكلام وبالتصوّف.

وبدأتْ مُنذُ عهدِ المرابطين نهضةٌ فِكريةٌ وعِلْمية (في الفلسفة والطِبّ خاصةً) ولكنْ لم تتفتّحْ إلاّ في عهد المُوحِّدين التالي. فالحركاتُ الثقافيةُ تحتاجُ إلى زمنٍ تَنْضَجُ فيه وإلى حَضارةٍ سابقة. ونحنُ نَعْرِفُ أنّ الأدبَ لم يَلْقَ تشجيعاً في دولةِ المرابطين كذلك التشجيعِ الذي كان يَلقاهُ في بَلاطاتِ ملوكِ الطوائف، ذلك لأنّ المُرابطين كانوا في سَبيلِ إنشاءِ دولةٍ يَبْعُدُ نظرُها إلى جَمْعِ شَتاتِ بِقاعِ الإسلامِ في القارة الإفريقية وفي القارةِ الأُوروبّية. وإذا نحنُ عَدَدْنا نفراً من الحُكّام الذين عَظُمَتْ آثارُهم واتّسعتْ شُهرتُهم مثلَ إدريسَ الأنورِ (١٨٨ - ٢١٣ هـ) وأفْلَحَ بنِ عبدِ الوهّاب (١٩٠ - ٢٤٠ هـ) وزيادةِ اللهِ بنِ الأغلب (٢٠١ - ٢٢٣ هـ) والمُعِزّ الفاطميّ (٣١٩ - ٣٦٥ هـ) والمُعِزّ بنِ باديسَ (٤٠٦ - ٤٥٣ هـ) ويوسفَ بنِ تاشفينَ (٤٥٣ - ٥٠٠ هـ) والناصرِ الحمّاديّ (٤٥٤ - ٤٨١ هـ) لم نَجِدْ فيهم مِثْلَ يوسفَ بنِ تاشفينَ في اتساع الأُفقِ والأثرِ السياسي الجامعِ والخِدمة التي أُدِّيَتْ للإسلام.

لمّا نَجَمَتْ دولةُ المرابطين في المَغْرِب، سَنَةَ ٤٤٨ (١٠٥٦ م) كانتِ الدولةُ الحَمّاديةُ في المَغرب الأوسط (الجزائر) واسعةَ الرُقعةِ. وانتهز بُلُقّينُ بنُ محمّدٍ الحَمّاديُّ الفرصةَ

في الدولة التي لم تَقْوَ بعدُ وغزا فاسَ، سَنَةَ ٤٥٤ وأخرج منها يوسفَ بنَ تاشفينَ. ولكنّ بُلُقّينَ كان شديدَ الوطأةِ على جيرانهِ كثيرَ القَسوةِ على رعاياه فعَظُمَ الحِقدُ العامُّ عليه فقُتِلَ غَيْلَةً في تلك السَنَةِ نفسِها.

وبعدَ بُلُقّينَ جاء الناصرُ بن علناس قاتلُ بلقّينَ ولم يكنْ أقلَّ منه قسوةً: قضى على آل رومانَ حُكّامِ بَسْكَرَةَ وغزا تونِسَ ولكنّه هُزِمَ في معْركة سبيبةَ، قُرْبَ القَيْروانِ، سَنَةَ ١٤٥٨. ثم كَثُرَ الاضطرابُ عليه وثارتْ قبائلُ بني هِلالٍ وسواها من جديدٍ، وانساحوا فيما حولَ القلعة وقُسَنْطِينَةَ، فأنشأ الناصرُ، مكانَ ضيعةٍ صغيرةٍ اسْمُها «بِجايةَ»، عاصمةً جديدةً له وانتقل إليها، سَنَةَ ٤٦١ (١٠٦٩ م)، وسَمّاها الناصريةَ.

ولم يَخِفَّ الاضطرابُ في المغرب الأوسطِ فاستطاع يوسفُ بنُ تاشفينَ أن يَسْتَوْلِيَ على الجانبِ الأكبرِ منه (٤٧٢ - ٤٧٥ هـ)، ولكنَّ الدولةَ الحمّاديةَ ظلتْ قائمةً في جانبٍ صغيرٍ من مُلكِها الأوّلِ وهي تضعُفُ شيئاً فشيئاً بالنِزاعِ الداخليّ، برُغْمِ أنّ المنصورَ بنَ الناصرِ استطاعَ أن يَهْزِمَ المرابطين، سَنَةَ ٤٩٦ (١١٠٣ م) ويُخْرِجَهم من تِلِمْسانَ.

ازدهرَ المغرب الأوسط في عهدِ الدولةِ الحمّادية فكَثُرَتِ المدارسُ وارتقتِ العلومُ والفنونُ وقَصَدَ الناسُ حواضرَ الجزائرِ يغترفون منها ما شاءوا من وُجوهِ الحَضارةِ والثقافةِ، وعَظُمَ العُمرانُ واتّسعتِ الصِناعاتُ فكثُرَتْ معاملُ النسيج والزرابيّ (السجّاد) والزلاّج أو الزُلّيج (البلاط المُزَخْرف: القَيْشاني) والزُجاج. وصِناعةُ الشَمْع يَرْجِعُ الفضلُ فيها إلى بِجايةَ عاصمة الحَمّاديّينَ الجديدةِ ففيها تعلّمَ الأوروبيّون هذه الصِناعةَ، ولذلك تسمّى «الشَمْعة» في اللغة الفرنسية والإيطالية والإسبانية بكلمة مشتقّة من اسم «بجاية»: BUJIA, BUGIA, BOUGIE (بوجيَ، بوجيا، بوخيبا) على التوالي.

وفي تونسَ كانتِ الدولةُ الصِنْهاجيّة في منتصف عُمُرِها الزَّمني تماماً (٣٦٢ - ٥٤٣ هـ)، ولكنْ في أواخرِ عُمُرِها السياسيّ، إذ لم يكُنْ قد بَقِيَ في سُلطانِها، أيامَ تَميمِ بنِ المُعزِّ (٤٥٣ - ٥٠١ هـ) سوى سِيفٍ (شريطٍ ضيّقٍ على الساحل) بينَ سوسة وقابسَ. أما ما بَقِيَ من البلادِ فقد تقاسَمَهُ الأمراءُ الصِغارُ

وشيوخُ القبائلِ. وفي سَنَةِ ٤٨٠ (١٠٨٧ م) استولى الجَنَوِيّون (الإيطاليون) على المَهْديةِ، ثمّ نَزَلَ النُرمانُ في جزيرةِ صِقِلّية، سَنَةَ ٤٨٤.

وامتلأ النصفُ الثاني من حياة الدولة الصِّنْهاجيّة في تونسَ بالاضطرابِ الداخليِّ، كما كَثُرَ الغزوُ إليها من شواطىء إيطاليةَ وصِقِلّية ثم كَثُرَ الغزو منها إلى تلك الشواطىء. ولكنّ أمرَها كان إلى الزَوال.

ولم تَصِلْ سُلطة المرابطين، في هذه الحِقبة، إلى لِيبيا - وحياةُ ليبيا السياسيةُ يومذاك كانتْ تدورُ في مدينةِ طرابُلُسَ. وكان آلُ خَزْرونٍ لا يزالون يَتَوَلَّوْنَ الحُكْمَ فيها.

ولكنْ في مطلعِ هذه الحِقبة ساقتِ المقادير من مِصْرَ إلى طرابُلُسَ رجلاً تُركيًّا مُغامراً اسمُهُ شاه مَلِكٍ (اسمانِ بمعنىً واحدٍ). واتّفق أنّ أهلَ طرابُلُسَ كانوا مُستائينَ من والِيهِمْ خليفةَ بنِ خَزْرونٍ فاستنجدوا بشاهِ ملك. واستطاعَ الطرابُلُسيّون بمُساعدةِ شاه ملك أن يطرُدوا خليفةَ من المدينةِ وقَبِلوا أن يتولّى الحُكْمَ فيها شاه ملك. غيرَ أن شاه ملك أساء السِيرةَ في الناس كثيراً وقدِ اتّفقَ في ذلك الحينِ أن سار تميمُ بنُ المُعزّ أميرُ إفريقيةَ (تونسَ) إلى طرابلس فحاصرها واستولى عليها ثمّ حَمَلَ شاه ملك وأشياعَه أسْرى إلى المهدية. وبعدَ شاه ملك تولّى طرابُلُسَ محمّدُ بنُ خَزْرونِ بنِ خليفةَ ابنِ وُرّو فقَرّبَ إليه شيوخَ بني مطروحٍ لِمَا كان لهم من المَكانة في طرابلسَ.

ولكنْ سَرعانَ ما وَقَعَتِ الوحشَةُ بين محمّدِ بنِ خزرونٍ وآلِ مطروحٍ فألّبَ آلُ مطروحٍ عليه القبائلَ وأخرجوه من المدينة، ولكنْ لم يستطيعوا أن يَضْبِطوا أمرَها فَبَقِيَ حُكْمُها مُتنازَعاً بينَ الطامعين الأقوياءِ مُدّةً طويلة.

وأعظم ما اضطرب المغربُ به في القرن الخامس كان النزاعَ في المذهب الفاطميّ[1] بين أنصارِه وخُصومه. إنّ الدولة الفاطميةَ في المغرب وفي المشرق (في مِصْرَ والشام) - ولم ينتقلِ المذهبُ الفاطمي إلى الأندلس - سَلَكَتْ مسلَكاً ليس فيه من الإسلام شيء. وكذلك سلك خُصومُها مَعَها مسلَكاً لا هَوادةَ فيه. وإذا كان صلاحُ

---

(١) راجع، فوق، ص ١٦٩.

الدين الأيوبيُّ قد قضى، فيما بعدُ، على الدولة الفاطمية في مِصْرَ من غير أن يُريقَ دماً، فإنّ الدمَ في المغرب قد سال على جانِبَيْ هذا النزاعِ أنهاراً. ولقد أطْنَبَ المؤرّخون في وصفِ هذا الصدام بين أشْياع الفاطميّين وخصومهم. وأُحِبُّ أن أُورِدَ هنا عدداً من الجُمل من مَرْجعٍ حديثٍ ليكونَ ما أُورِدُهُ نَموذجاً لِما أردتُّ تِبْيانَه، لا مُتَّكأً للتبسُّط فيه والإثارة به.

قال طاهرُ أحمدَ الزواويُّ (أعلام ليبيا ٢١٦ - ٢١٧) عن سياسة الفاطميّين في طرابلس (الغرب):

« ... انتشرتْ بِدَعُهُمْ ومنعوا صلاةَ التراويحِ[1] وصلاةَ الضُحى[2] .... وكان أبو الحسنِ عليُّ بنُ محمّدِ بنِ المُنَمِّرِ أولَ من أفتى ببُطلانِ مذهبهم ونَبْذِ تقاليدِهِمُ الباطلةِ وبدَعِهِمُ المُضلِّلة.. وَهُوَ أوّلُ من..... أمر الناس بصلاة رَكْعَتَيِ الضُحى، وكان العُبيديّون يقتُلونَ من صَلاّهُما. وأمر بصَلاة التراويحِ في رَمَضانَ وصلاّها بالناس في طرابُلُسَ. وأعادَ ما كان (العُبيديّون قد) أبْطلوهُ من معالمِ دينِ اللهِ وسُنّةِ رسوله ».

أبو الحسنِ المُنَمِّرُ الطرابلسيُّ أديبٌ مُحسِنٌ وفقيهٌ مُجَدِّدٌ وُلِدَ سَنَةَ ٣٤٨ (٩٥٩ م) وتُوُفِّيَ سَنَةَ ٤٣٢ (١٠٤٠ م)، وهو من أقدم رجال الفقه والرأي في طرابلس. وقد قال فيه عليّ المِصْراتيّ (أعلام من طرابلس ٣٤): « لولا ابنُ المُنَمِّرِ لانْدَثَرَ مذهبُ مالكٍ في طرابلس ».

لا شكّ في أن للمؤرّخين مغالطَ - كما يقولُ ابنُ خَلْدونٍ - وفي أنّ نفراً كثيرينَ منهم يُبالغون أحياناً كثيرةً. ولكنّ العُبيديّين (الفاطميّين) مالأُوا الصليبيّين على المسلمين وأتَوْا بِبِدَعٍ كثيرة. وممّا لا يتّفق في المنطق أن يُقْتَلَ مُسلمٌ يُصلّي صلاةَ الضُحى - وهي رَكْعتانِ خَفيفتان يُصلّيها المُسلمُ إذا شاء بعدَ ارتفاعِ

---

(١) صلاة التراويح عدد من الركعات الوتر (٣، ٧، ١١، ١٧، ٢١ أو أكثر) تصلّي في شهر رمضان بعد صلاة العشاء.

(٢) صلاة الضحى ركعتان من النوافل يصلّيها من شاء بعد ارتفاع الشمس في الصباح مقدار رمح في رأي العين. ويقال إنّ من فرضها على نفسه وجب أن يحافظ عليها.

الشمس - ولكنّ الفقهاء ذكَروا أن مَنْ فَرَضَها على نفسِه فَيَجِبُ أن يُحافظَ على أدائها في كلِّ يوم.

وكان الفاطميّون يعتقدون أنّ أئِمّتَهُمْ آلهةٌ. وحَسْبُكَ أن يكونَ المُعِزّ الفاطميُّ قد قبل من ابنِ هاني الأندلسي (ت ٣٦٠ هـ) قولاً هو:

ما شِئْتَ، لا ما شاءتِ الأقدارُ. فاحْكُمْ فأنتَ الواحدُ القَهّارُ.

ربّما كان لِبعضِ الناسِ تفسيرٌ أو تعليلٌ يُخَفِّفُ أثرَ هذا القول - من الناحية الأدبية أو من الناحية الفلسفية، ولكنّ ظاهرَ القولِ لا يَقْبَلُ تعليلاً. وهذه كلمةٌ لِتَدُلَّ على صورةٍ لجانبٍ من العصر في المغرب في القرنِ الخامس، وليستْ لإثارة جَدَلٍ.

الحياة الاجتماعية والثقافية

في القرن الخامس للهجرة (الحادي عَشَرَ للميلاد) كانتْ سلطةُ الخلافة في بَغدادَ قد ضعُفت مُنذ أمدٍ طويل وكانتِ البلاد الإسلامية قد تقسّمت بينَ دُوَيْلاتٍ على أقدارٍ مختلفة من السَعة والضيق ومن القوّة والضَعف. غيرَ أنّ السلاجقةَ الأتراكَ الذين أنشأوا لأنفسهم دُويلاتٍ مَدّتْ سلطانَها في المشرق والعِراق وبلاد الروم (آسية الصغرى) قد نَصَروا الإسلام واحترموا مكانةَ الخلفاء العبّاسيّين. ولمّا نَشِبَتِ الحروبُ الصليبية، في أواخرِ هذا القرن، سَنَةَ ٤٩١ (١٠٩٨ م)، حَمَلَ السلاجقةُ الجانبَ الأكبرَ من عِبْئِها.

وفي هذا القرنِ أيضاً كانتِ الخلافة المروانية في الأندلس قد سقطتْ مُنْذُ عهد بعيد (٤٢٨ هـ = ١٠٣٦ م) وقامتْ على انقاضِها دويلاتُ الطوائف.

غير أنّ الذي حَدَثَ في المشرق وفي الأندلس، في هذا القرنِ: من تَجَزُّؤ الخلافة الجامعة دويلاتٍ مختلفةً، قد حَدَثَ خِلافُهُ في المغرب من قارّةِ إفريقية. إنّ الدويلاتِ التي كانت في المغرب - وأشهرُها دولةُ بني زِيري (في القُطرين التونسي والجزائري) ودولةُ بني حمّادٍ (في القُطر الجزائري) ثمّ دولةُ مَغْراوةَ وبني يَفْرَنَ (في المغرب الأقصى) - قد دخلت كلُّها، إلى حدٍّ كبيرٍ، في دولةِ المُرابطينَ الجامعة. وسنرى أن المرابطينَ قد أقاموا الوَحْدةَ السياسيةَ أيضاً في الأندلس نفسِها.

ونحن نستطيعُ أن نقولَ عنِ المشرق إنّ الحركةَ الأدبية والعقلية قدِ انتقلتْ أيضاً من بَغْدادَ إلى الأمصارِ (في المشرق: شرقَ العراقِ وفي الشامِ).

لم يكن عهدُ المُرابطين كلُّه (٤٤٨ - ٥٤٣ هـ) عصرَ ازدهارٍ للثقافة:

★ لم يكنْ يوسُفُ بنُ تاشفينَ خاصّةً ممّن يَفْقَهُ اللغةَ العربية أو يطرَبُ للشِعر العربي خاصّةً.

★ إنّ يوسُفَ بنُ تاشفينَ قد أدرك أنّه في سبيل تأسيسِ دولةٍ، ورجالُ الدُوَلِ في مثل هذه الأطوار لا يُلْقونَ بالاً إلى الفنون النظريّة وإلى أوْجُهِ الكماليّات.

ومَعَ ذلك فنحن نَجِدُ في عصر المُرابطين في المغرب وفي الأندلس جماعةً اتّجهوا إلى العِلم والثقافة. إنّ أُميّةَ بنَ عبدِ العزيز الدانيَّ أبا الصلتِ (٤٦٠ - ٥٢٩ هـ) كان من الأدباء ومن العلماء وكان له اهتمامٌ في علم الحِيَل (الميكانيك) خاصّة. وعاشَ أبو الصلتِ هذا في الأندلس وفي مِصْرَ. وفي هذا العصر أيضاً يمكن أن نَعُدّ ابنَ باجّه (ت ٥٣٣ هـ = ١١٣٨ م) واضعَ أُسُسِ الفلسفةِ العَقْلية، وقد عاشَ في الأندلس وفي المَغْرب. وحاوَلَ جابرُ بنُ أفلحَ الإشبيليُّ (ت ٥٤٠ هـ = ١١٤٥ م) تصحيحَ نِظامِ بَطْلَيْموسَ في حَركاتِ الأفلاك.

وعَظُمَتْ شُهرةُ آلِ زُهْرٍ في الطِبّ في عهد المرابطين، فكان منهم في هذا العهد أبو العَلاءِ زُهْرُ بنُ عبدِ الملك بن محمّد (ت ٥٢٥ هـ = ١١٣١ م)، بَرَعَ في الطبّ ولَمّا يَزَلْ في أوّلِ شبابه: كان يرى المريضَ فَيَجُسّ نَبْضَه وينظُرُ في قارورةِ الماء (البَوْل) ثمّ يُخْبِرُ المريضَ بمَا بهِ من غيرِ أن يسألَه شيئاً. ثمّ كان في هذا العهدِ أيضاً ابْنُه أبو مروانَ عبدُ الملك (ت ٥٥٧ هـ = ١١٦٢ م) وكان طبيباً بارعاً لم يشتغل بغيرِ الطِبّ.

وكان للمرابطين أثرٌ بعيدٌ في غربيّ قارّةِ إفريقية، فإنّ التوارِقَ (وهم من قبيلةِ مَسوفَةَ المَغْربية) امْتَدّتْ في صِلاتِها السياسية والاجتماعية جَنوباً فنشأتْ على أيديهم مدينـةٌ هي تَنْبَكْتُ، في أواخرِ القرنِ الخامسِ للهجرة. إن هذه المدينةَ العظيمة في السودانِ الغربيّ (في ملّي أو مالي، قريبةٌ من نهر النيجر) قد بدأتْ، فيما يبدو، محطّةً تجاريّةً ثمّ أصبحتْ سوقاً تجاريةً عامّة مقصودةً من أماكنَ بعيدةٍ من مِصْرَ وليبيا وتُونِسَ والجزائرِ والمغرب لأنّها نُقطةٌ صالحةٌ للانطلاق نحوَ الشواطىء الغَرْبية الوُسْطى

من قارةِ إفريقية ونحوَ أواسطِ قارةِ إفريقية أيضاً.

ومنذ مطلَعِ القرنِ الخامس للهجرة كان الإسلام قد بدأ ينتشرُ على ضِفّتَيْ نهرِ النيجر. ومنذ ذلك الحينِ بدأ الدُعاةُ المُسلمون يأتون إلى مملكةِ السونراي على النيجر من أماكنَ مختلفةٍ أبرزُها ليبيا. وفي سَنَة ٤٠٠ (١٠١٠ م) دَخَلَ الملكُ «زا» - صاحبُ مملكة سَنْغاي (على ضِفّتَيْ نهر النيجر) في الإسلام. وفي سَنَةِ ٤٣٥ (١٠٤٣ م) أسّس أهلُ سنغايَ عاصمةً جديدةً - جنّى أو دينيه - ، ربّما هَجْراً لعاصمةٍ قديمةٍ تسودُ فيها الوثنيةُ.

وفي سَنَة ٤٤٨ (١٠٥٦ م) هاجمَ المُرابطون مملكةَ غانةَ ثم فتحوا عاصمتَها كومبي بعدَ عِشرينَ سَنَةً. ولا نعلَمُ السببَ الذي دعا المرابطينَ إلى الانسحاب من عاصمةِ غانةَ (٤٨٠ للهجرة أو قبلَ ذلك بقليل)، ربّما استعداداً للمعركة الفاصلةِ في الزلاّقة حيث قضى يوسفُ بنُ تاشفينَ على الجيشِ الإسباني واستطاعَ أن يُعيدَ إلى الأندلسِ شيئاً من الوَحْدة).

لم يُبدّلِ انسحاب المرابطينَ من كومبي عاصمةِ غانةَ - ومن غانةَ كُلِّها أيضاً - شيئاً من مسيرة الإسلام في غربيّ قارّةِ إفريقية. إنّ مملكةَ مَلّي استولتْ على غانةَ فزادَ فيها انتشارُ الإسلام.

إنّ الإسلامَ بدأ ينتشرُ في غَربّي قارّةِ إفريقيةَ في البُقعة المُمتَدّةِ بينَ بُحيرةِ تشادَ ونهرِ السنغال إلى الشاطىء الغَربيّ وإلى الشاطىء الجَنوبيّ: أي في حَوْضِ نهرِ النيجر وحوض نهر الفولتا وحوض نهر السنغال، وذلك كلُّه ابتداءً من مطلعِ القرنِ الخامسِ للهجرة أو قبل ذلك بقليل. غيرَ أنّ الثقافةَ العَرَبية يَجِبُ أن تكونَ قد تأخّرتْ عن ذلك، فليسَ من المعقول أن نرى هناك - مُنْذُ ذلكَ الطَورِ الباكر - شعراء يَنْظِمون باللغة العربية. ولكنّ هذا لا يمنَعُ من أنْ يكونَ نفرٌ من الفقهاء قد دَوّنوا أشياءَ من الفِقه أو من الحديث أو من التفسير أو من الصَرْف والنَحْو. ولا أظنّ أنّ مثلَ هذا كان يبلُغُ، في تلك الحِقبة القديمة، إلى أن يُعَدَّ في الأدب.

ابن رشيق القيرواني

١ - كان رشيقٌ مملوكاً رومياً من موالي الأزدِ ومن أهل مدينةِ المَسيلة (المُحمّدية) في المغرب الأوسط (الجزائر)، وكانت صنعتُه الصِياغةَ. وفي المحمّدية وُلِدَ ابنُه الحسَنُ سَنَةَ ٣٩٠ (١٠٠٠ م) أو قبلَ ذلك بقليل، فتعلّم صَنعةَ أبيه وتأدّبَ قليلاً.

في سَنَةِ ٤٠٦ (١٠١٦ م) انتقل الحسنُ بنُ رشيقٍ إلى القَيْروانِ ودرس على جماعةٍ من أُدبائها وعُلمائها، وكان منهم أبو محمّدٍ عبدُ الكريمِ بنُ ابراهيمَ النَهشليُّ (وابنُ رشيقٍ كثيرُ الاستشهادِ بآرائهِ في كتاب « العُمدة »). ومنهم أيضاً أبو عبدِ اللهِ محمّدُ بنُ جعفرٍ القزّازُ القيروانيُّ (ت ٤١٢ هـ).

اشتهر ابنُ رشيقٍ في القيروان واتّصل بصاحبها (أميرها) المُعِزِّ بنِ باديسَ، مُنذُ سَنَةِ ٤١٠، فحَظِيَ عنده وأصبح من بِطانته وأهل دولته. واستقلّ ابنُ باديسَ بالحُكم (٤١٧ هـ = ١٠٢٦ م) ثمّ خَلَعَ طاعةَ الفاطميّين (٤٣٥ هـ) فغِيظَ الفاطميّون فسرّحوا قبائلَ بني هِلالٍ وقبائل بني سُلَيمٍ، إلى القُطر التونسيّ. وَصَلَتْ هذه القبائلُ إلى مُعْظمِ أراضي المغْرب ثمّ عاثتْ في القُطر التونسيّ خاصّةً فساداً كبيراً (٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م) فاشتهر ابن خَلْدونٍ بقوله: « إنّ العَرَبَ (البَدْوَ) إذا استَوْلوا على بلدٍ أسرع إليه الخراب ».

انتقلَ ابنُ رشيقٍ إلى جزيرة صِقِلّيةَ ونزل في مازَرَ (على الساحل الجَنوبيّ الغربي) وبَقِيَ فيها إلى أن أدْرَكَتْه الوَفاةُ في غُرّةِ ذي الحِجّة من سَنَةِ ٤٥٦ (١٠٦٤/١١/١٤ م).

٢ - ابنُ رشيقٍ عالمٌ باللغة والنحو وبارعٌ في الأدب والنقد وشاعرٌ ومؤلّفٌ حسن التأليف. ولقد غَلَبَ نَقْدُ الشعر عليه فعُرِفَ به دونَ سائرِ فنون العلم والأدب. وابن رشيقٍ شاعرٌ مقتدر صحيح المعاني متين الأُسلوب، غيرَ أن العقل يَغْلِبُ في شعره على العاطفة. ومعظم معانيه مستعارة، وإن كان أحياناً يُصيبُ الصورةَ الشِعرية.

تقوم شُهرةُ ابنِ رشيقٍ ومكانتُه على كتاب « العمدة »، وهو يتألّف من قسمين في أولها نقدٌ تاريخيّ للشعر، وفي الثاني منها بلاغةٌ ونقد (وإنْ كنتَ تَجدُ أبواباً في القسم

الأوّل هي أخلَقُ بالقسم الثاني، كما تجد في القسم الثاني أبواباً أقلَّ عدداً كان يجب أن تكون في القسم الأوّل). فمن أبواب القسم الأوّل: فضل الشعر - الردّ على من يكره الشعر - شعرُ الخلفاء والصَحابة - بابُ مَنْ رفَعَهُ الشِعْر (كامرِىء القيس) ومن وَضَعَه (حَطّ قدرَهُ) الشعرُ (كالنابغة) - باب التكسب بالشعر والأَنَفَة من التكسّب به - القدماء والمُحْدَثون - المُقِلّون من الشعراء والمُكْثِرون - مشاهيرُ الشعراء - باب الشعراء والشعر: حدّ الشعر - اللفظُ والمعنى - المطبوعُ والمصنوع - الأوزان - القوافي - القِطَعُ والطِوال - المبدأ والخُروج والنهاية - الإيجاز - الفرق بين الاختراع والإبداع - المَجاز - الاستعارة - التجنيس - الفرق بين الترديد والتكرار - الاستثناء: توكيد المدح بما يشبه الذمّ - السَّرِقات - النسيب - المديح - الرثاء، الخ - سيرورة الشعر والحظوة عند الممدوحين - باب في أصول النسب وبيوتات العرب - باب معرفة الأماكن والبلدان - باب الوصف - الخ.

وقد أشار حسنُ حُسني عبدُ الوهّاب[1] إلى أنّ ابنَ رشيقٍ قدِ ٱئْتَمَّ في وضع كتاب «العُمدة في صِناعة الشعر ونَقْده» بكتابِ عبدِ الكريم النَهْشَليّ «المُمْتِعُ في علمِ الشعر وعَمَله». ويبدو أن ابنَ رشيقٍ لم يَكْتَفِ بمُحاكاة كتاب «المُمْتِعِ» في الموضوعات وفي عناوينِ الفصول، بل نَقَلَ فصولاً برُمّتها من كتاب الممتع إلى كتاب العمدة.

ولا رَيْبَ في أنّ ابنَ رشيقٍ قد أفادَ كثيراً من آراءِ عبدِ الكريم النهشلي (وقد أكثر من ذكرِهِ عند بسطِ هذه الآراء) كما أفادَ من آراءٍ كثيرة للنُقّاد الذين سَبقوه. وقَرّظَ ابنُ خلدونٍ كتابَ «العُمْدَة» فقال[2]: «.... وَهُوَ الكتاب الذي انفرد بهذهِ الصِناعة (صناعة الشعر) واعطاءِ حقّها. ولم يُكْتَبْ فيها قبلَه ولا بعدَه مثلُه».

ولابنِ رشيقٍ من التصانيف أيضاً: كتاب الأُنموذج (في شَعراء القيروان المعاصرين

---

(١) مجلّة «الفكر» (تونس) ٤: ١٠ (جويليه - تموز ١٩٥٩ م)، ص ٨.

(٢) مقدّمة ابن خلدون ٥٧٤ (دار الكتاب اللبناني)، ص ١١٠٦.

له) - قُراضة الذهب في نقدِ أشعار العرب (لطيف الجرم كبير الفائدة) - كتاب الغرائب والشواذٌ في اللغة (يذكر فيه كلّ كلمة جاءت شاذّة في بابها). وله عَدَدٌ من الرسائل يردٌ فيها على مُواطنه ومُعاصره ومُنافسه ابنِ شَرَفِ القيرواني؛ منها: (فوات الوفيات ٢: ٢٥٥): رسالة ساجور الكلب - رسالة قطع الأنفاس - رسالة نُجْحُ الطَّلَب - رسالة رفْعْ الإشكال ودفع المُحَال - فسخٌ اللُمَح ونسخ المُلَح - ميزان العمل في أيام الدول.

٣ - مختارات من آثاره

- من مقّطعات ابنِ رشيقٍ التي تنطوي على لَفَتاتٍ حِسانٍ:

★ أُحِبُّ أخي - وإنْ أعْرَضْتُ عنه، وقَـلَّ عـلى مَسامعـهِ كلامي؛
ولي في وَجْهِهِ تقطيبُ راضٍ كما قَطّبتَ في وَجْه المُدام[١].
وربّ تَقَطُّبٍ من غير بُغْضٍ، وبُغْـضٍ كامنٍ تحتَ ابتسام

★ إذا ما خَفَفْتُ كعهدِ الصِبا أبَتْ ذلك الخمسُ والأربعونا[٢].
وما ثَقَلَتْ كِبَراً وَطْأتي، ولكنْ أجُرُّ ورائي السنينـا[٣]!

★ وقائلةٍ: ما هذا الشُحوب وذا الضنا؟ فقلتُ لها قولَ المشوقِ المُتَيَّمِ[٤]:
هواكِ أتاني، وهو ضَيفٌ أُعِزُّه، فأطْعَمْتُه لحمي وأسْقَيْتُه دمي.

- ومن ذلك في الخمر والنسيب:

★ ومن حَسَناتِ الدهرِ عِنْدِيَ لَيْلَةٌ من العُمْرِ لم تتركْ لأيّامِها ذَنْباً.
خَلَوْنا بها نَنْفي القَذى عن عُيونِنـا بلُؤْلُؤةٍ مملوءةٍ ذَهَبـاً سَكْبـا[٥].
ومِلْنـا لتقبيـل الثُغورِ ولَثْمِهـا كمَيْلِ جَناحِ الطيرِ يَلْتَقِطُ الحَبّا.

---

(١) المدام: الخمر. أعبس في وجه صديقي (وأنا راض عنه - حبًّا بأن يكون أفضل مّا هو)، كما أن شارب الخمر يعبس بعد تناول كلّ جرعة منها وهو مسرور بذلك.

(٢) خفّ الرجل: مال إلى السرور.

(٣) سيري أصبح بطيئاً لا لأنيّ ضعيف عن السير، بل لأنيّ أجرّ حملاً ثقيلاً (خمسة وأربعين عاماً).

(٤) الشحوب: اصفرار لون الوجه. الضنى: النحول من المرض. المتيّم: الذي ذلّله الحبّ.

(٥) القذى: الوسخ (الهموم). اللؤلؤة (كأس من بلّور). ذهباً سكباً (خمراً خالصة صافية).

★ مّما يُزهّدُني في أرضِ أندلسٍ ... سَماعُ مُقتدرٍ فيها ومُعتضِدِ:
ألقابُ مملكةٍ في غيرِ موضِعها ... كالهِرِّ يَحْكي انتفاخاً صورةَ الأسد!

- وقال يَصِفُ زُرافةً (جاءت هديّة إلى المعزِّ بنِ باديسَ من مِصْرَ):

وأتَتْكَ من كَسْبِ الملوكِ زُرافةٌ ... شَتّى الصِفاتِ لِلَوْنِها أثْناءُ[1].
جَمَعَتْ مَحاسِنَ ما حَكَتْ فتناسبتْ ... في خَلْقِها وتَنافَتِ الأعضاءُ[2]
تَحْتَثُّها بينَ الخوافقِ مِشْيةٌ ... بادٍ عليها الكِبْرُ والخُيلاءُ[3].
وتَمُدُّ جِيداً في الهواء يَزينُها ... فكأنّه تحت اللواءِ لِواءُ.
حُطّتْ مآخِرُها وأشْرَفَ صَدْرُها ... حتّى كأنّ وقُوفَها إقْعاءُ[4]
وكأنّ فِهرَ الطِيبِ منا رَجَمَتْ به ... وَجْهَ الثَرى لو لُمَّتِ الأجزاءُ[5]
وتَخيّرتْ دون الملابِسِ حُلّةً ... عَيّتْ لِصَنْعةِ مِثْلِها صَنعاءُ[6]:
لَوْناً كلونِ الذبلِ إلاّ أنّه ... حَلْيٍ وجِزْعٌ بعضه الجلاءُ[7]!!
أو كالسحابِ المُكْفَهِرّةِ خَطّطَتْ ... فيه البُروقُ وميضها إيماءُ[8]
أو مثل ما صَدِئتْ صَفائحُ جَوْشَنٍ ... وجرى على حافاتِهِنّ جَلاءُ[9]

---

(١) للونها أثناء (طيّات): خطوط لونها متعرّجة.

(٢) شابهت حيوانات كثيرة فأخذت من كلّ حيوان أحسن ما فيه. تناسبت في خلقها (صورتها) كان كلّ عضو فيها يناسب سائر الأعضاء. وتنافت الأعضاء: تباينت (اختلفت).

(٣) الخوافق جمع خافق: الأفق، الجهة. تحتثّها نحو الخوافق (إذا ركضت مال جسمها إلى كلّ جهة، فكأنّها تريد أن تسير إلى كلّ مكان). باد: ظاهر. الكبر: الإعجاب بالنفس. الخيلاء: التكبّر.

(٤) حطّت: انخفضت. أشرف: علا. الإقعاء: الاستناد إلى مؤخرة الجسم.

(٥) الفهر: حجر بحجم قبضة اليد تسحق به الأشياء. ما رجمت به وجه الثرى (الأرض): حافرها. لو استطعنا أن نجمع الحفر التي أحدثتها حوافرها في الأرض لكان عندنا من كلّ حفرة إناء للعطر (!).

(٦) عيّت (عجزت) لصنعة مثلها صنعاء (عاصمة اليمن)، وكانت مشهورة بنسج الثياب الحريرية.

(٧) الذبل: جلد السلحفاة (غطاء السلحفاة عند ظهرها له تقاطيع نافرة، وجلد الزرافة مثل هذه التقاطيع ولكن من لون مخالف للون جلدها الأصلي). حلي: حلى وحليه، ثوب جميل. وجزع بعضه الجلاء (غير مستقيمة في الوزن ولا واضحة المعنى).

(٨) المكفهرّ المسودّ. البقع القاتمة في جلد الزرافة تشبه الغيوم الصغيرة. والفواصل بين تلك البقع تشبه البروق الخاطفة.

(٩) وكلّ بقعة قاتمة اللون مع ما حولها تشبه جوشنا (درعاً) صدئاً أخذ العاملون في جلائه من أطرافه.

نِعْمَ التجافيفُ التي ادّرَعَتْ بها　　من جِلْدها لو كان فيه وِقاء[1].

- وقال في الحماسة ووصف الناقة:

إليك يُخاضُ البحرُ فَعْماً كأنّه　　بأمواجِهِ جيش إلى البرّ زاحفُ[2]؛
ويبعَثُ خلفَ النُجْحِ كلّ مُنيفةٍ　　تُريكَ يداها كيف تُطوى التنائفُ[3].
من الُموجفاتِ اللاءِ يَقذِفْنَ بالحصى　　ويُرمى بِهِنّ المَهْمَهُ المُتقاذف[4].
يطيرُ اللُّغامُ الجَعْدُ عنها كأنّه　　من القُطْنِ - أو ثَلْجِ الشتاء - نَدائف[5].
وقد زاغَ من فضلِ الزمام ابنُ نُكْبَةٍ　　هو السيفُ لا ما أخلصَتْهُ المشارف[6].
فكيفَ تراني لو أُعِنْتَ على الغِنى　　بَجدٍّ؟ وإنّي للغِنى لَمُشارف[7]!
وقد قرّبَ اللهُ المسافةَ بيننا　　وأنْجَزَني الوعدَ الزمانُ المُساوف[8].
ولولا شقائي لم أغِبْ عندَ ساعةٍ　　ولا رامَ صَرْفي عن جَنابِك صارف[9].
ولكنّني أخطأت رُشْدي فلم أُصِبْ؛　　وقد يُخطىء الرشدَ الفتى وهو عارف!

- مختارات من كتاب «العمدة»:

(أ) التكسّب بالشعر:

وكانتِ العربُ (في الجاهلية) لا تتكسّبُ بالشِعر، وإنّما يصنَعُ أحدُهم ما يصنَعُهُ

---

(١) التجافيف جمع تجفاف (بفتح التاء أو كسرها): شيء مثل الدرع. الوقاء: الوقاية، الحماية.

(٢) فعما: ممتلئاً، فائضاً (بالماء).

(٣) النجح: النجاح. المنيفة: التامّة الطول والحسن. التنوفة: الصحراء الواسعة. كيف تطوى التنائف: كيف تقطع المسافات الطويلة.

(٤) أوجف: أسرع في سيره. اللاء: اللواتي. يقذفن (بأرجلهنّ) الحصى (لسرعتهنّ وشدّة جريهنّ). المهمه: المفازة (الصحراء الواسعة) المتقاذف (المهمه الذي يتقاذف المسافرين فيه: يتنقّلون به من جانب إلى جانب فلا يهتدون).

(٥) اللغام: زبد (ريق) أفواه الإبل. الجعد: المستدير. ندائف: ما يطير من القطن عن قوس النداف.

(٦) زاغ من فضل الزمام (ساق الناقة بمهارة!). ابن نكبة (بضمّ النون: صبرة، القليل من الطعام): رجل قليل المال. أخلصته (صنعته من الحديد الخالص الجيد) المشارف (بلاد أعالي الشام التي كانت تصنع السيوف المشرفية الجيدة).

(٧) الجدّ: الحظّ. المشارف: المقبل على، القريب من (الغنى).

(٨) المساوف: الماطل.

(٩) جنابك: جنبك (المكان الذي تنزل أنت فيه).

فُكاهةً أو مُكافأةً عن يدٍ لا يستطيعُ أداء حَقِّها إلاّ بالشُكر إعظاماً لها، كما قال امْرُؤُ القيس يمدَحُ بني تَيْمٍ رَهْطَ الُمعَلّى:

أقرَّ حَشا امرىء القيس بن حِجْرٍ بنو تَيْمٍ مصابيحُ الظلامِ؛

لأنّ الُمعَلّى أحسنَ إليه وأجاره حين طَلَبَهُ الُمنْذِرُ بنُ ماءِ السماء لقَتْله بني أبيه الذين قَتَلَ بدير مَرينا[1]...

حتّى نشأ النابغةُ الذُبيانيُّ فمدَحَ الملوكَ وقَبِلَ الصِلَةَ على الشعر وخَضَعَ للنُعْمانِ بن الُمنْذِرِ - وكان قادراً على الامتناع منه بِمَنْ حولَه من عشيرتِهِ أو بِمَنْ سار إليه من مُلوكِ غسّانَ - فسَقَطَتْ مَنْزِلتُه. و (لكنه) تكسّبَ مالاً جسيماً حتّى كان أكلهُ وشُربُهُ في صِحافِ الذهب والفِضّة وأوانيه من عَطاء الُملوك.

وتكسّبَ زهيرُ ابنُ أبي سُلمى بالشعر يسيراً مَعَ هَرِمِ بنِ سِنانٍ.

فلمّا جاء الأعشى جَعَلَ الشعر مَتْجَراً يَتَّجِرُ به نَحْوَ البُلدانِ؛ وقَصَدَ حتّى ملوكَ العجم. فأثابَهُ (كِسرى) وأجزلَ عَطِيّتَه عِلْماً بقَدْرِ ما يقول (الأعشى) عند (ملوك) العرب، واقتداء بهم فيه[2]. على أن شعره لم يَحْسُنْ عنده حين فُسِّرَ له، بلِ اسْتَهْجَنَهُ[3] واسْتَخَفّ به، لكن ٱحْتذى فعلَ الملوكِ ملوكِ العربِ (في الرَّغبة في مدح الشعراء لهم).

(ب) المشاهير من الشعراء:

والشُعراءُ أكثرُ من أن يُحاطَ بهم عَدداً. ومنهم مشاهيرُ قد طارتْ أسماؤهم وسارَ شِعْرُهم وكَثُر ذِكْرُهم حتّى غَلَبوا على سائر مَنْ كان في زمانهم. ولكلِّ أحدٍ منهم طائفةٌ تُفَضّله وتتعصّبُ له. وقَلّ ما يُجْتَمَعُ على واحدٍ......

---

(١) كان المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة (ت نحو ٥٨ قبل الهجرة = ٥٦٤ م) قد قتل إخوة امرىء القيس في ديار بني مرينا (قرب الكوفة).

(٢) لمعرفته بقيمة شعر الأعشى في الدعاية وتقليداً لملوك العرب في اعطاء الأعشى مالاً على مدحه لهم.

(٣) لما نقلت معاني شعر الأعشى لكسرى إلى اللغة الفارسية استهجنه: استقبحه (وجده نازلاً عن مرتبة العقل والسلوك الصحيح). استخفّ به (بالأعشى).

وليس في المُولّدينَ أشهرُ اَسماً من الحَسَنِ أبي نُواس؛ ثمّ حبيبٌ[١] والبُحْتريُّ، ويقال إنّهما أخْمَلا في زمانِهما خمسَمِائَةِ شاعر كلُّهم مُجيد. ثمّ يَتْبَعُهما في الاشتهار ابنُ الروميّ وابن المُعْتزّ، فطار اسمُ ابنِ المعتزّ حتّى صار كالحسن في المُوَلّدين وامرىء القيس في القدماء. فإنّ هؤلاء الثلاثةَ لا يَكاد يجهَلُهم أَحَدٌ من الناس. ثمّ جاء المتنبّي فملأ الدُنيا وشَغَلَ الناسَ.

(جـ) الوصف:

الشعرُ، إلاّ أقلَّه، راجعٌ إلى الوصف. ولا سبيلَ إلى حَصْره (حصر الوصف) واستقصائه. وهُوَ مناسبٌ للتشبيه ومشتملٌ عليه وليسَ بِهِ[٢]، لأنّه (أي التشبيه) كثيراً ما يأتي في أضعافه[٣]. والفَرْقُ بن الوصف والتشبيه أنّ هذا (أي الوصفَ) إخبارٌ عن حقيقةٍ، وأن ذلك مَجازٌ وتمثيل[٤]... وأحسنُ الوصف ما نُعِتَ به الشيءُ حتّى يكادَ يُمَثِّلُه عِياناً[٥] للسامع... وقال بعضَ المتأخّرين: أبلغُ الوصفِ ما قَلَبَ السَمْعَ بَصَراً...

والناس يتفاضلون في الأوصاف كما يتفاضلون في سائر الأصناف. فمنهم مَنْ يُجيد وَصْفَ شيءٍ ولا يُجيد وصفَ آخَرَ؛ ومنهم من يُجيد الأوصاف كلَّها، وإنْ غَلَبَتْ عليه الإجادةُ في بعضِها كامرِىءِ القيس قديماً، وأبي نُواسٍ في عصرِهِ، والبُحتريّ وابنِ الروميّ في وقتِها...

* * *

- وقال يَصِفُ حالَ المسلمين حينما بدأ الإسبانُ النصارى يستَوْلون على المُدُنِ الأندلسية ويُخرجون منها أهلَها المسلمين تقتيلاً وتشريداً:

---

(١) حبيب (بن أوس) هو أبو تمّام.

(٢) الوصف غير التشبيه.

(٣) في أضعافه (في ثناياه): في أثنائه (تأتي التشابيه في أثناء الوصف). إنّ الوصف باب كبير. أمّا التشبيه فهو جملة مفردة تتناول صورة واحدة أو جزءاً من صورة.

(٤) تمثيل: مقارنة (بالحقيقة).

(٥) عيانا (بكسر العين): في رأي العين.

والمسلمون مُقسَّمونَ تنالُهم أيْدي العُصاةِ بذِلّة وهَوانِ.
يستصرخون فلا يُجابُ صريخُهم. حتّى إذا سَئِموا من الأزمان
بادَوْا نفوسَهُمُ. فلمّا أنفدوا ما جَمّعوا من صامتٍ وصِوان[1]
خرجوا حُفاةً عائذينَ بربِّهِمْ من خوفِهِمْ ومصائبِ الألوان.
هربوا بكلِّ وليدةٍ وفطيمةٍ وبكلّ أرملةٍ وكلّ حَصانِ[2]،
فتفرّقوا أيْدي سَبا وتشتتوا بعدَ اجتماعِهِمُ على الأوطان[3].

٤- العمدة في صناعة الشعر ونقده،؟ مصر ١٢٨٥ هـ؛ تونس والقاهرة (مطبعة السعادة) ١٣٢٥ هـ (١٩٠٧ م)؛ القاهرة ١٣٤٤ هـ = ١٩٢٥ م؛ (حقّقه محمّد محيي الدين عبد الحميد) القاهرة (مطبعة السعادة) ١٣٧٤ هـ = ١٩٥٥ م؛ بيروت (دار الجيل) ١٩٧٢ م.
– قراضة الذهب (في «مجموع الرسائل النادرة»)، مصر (مكتبة الخانجي) ١٣٤٤ هـ = ١٩٢٦ م.
– شعراء القيروان من أنموذج الزمان (جمع وتعليق زين العابدين السنوسيّ)، تونس (دار المغرب العربي) ١٩٥١ - ١٩٧١ م.
– ديوان ابن رشيق القيرواني (عبد الرحمن ياغي)، بيروت (دار الثقافة) بلا تاريخ.
– النتف من شعر ابن رشيق وزميله ابن شرف... (جمعه عبد العزيز الميمني الراجكوتي)، القاهرة (المطبعة السلفيّة) ١٣٤٣ هـ.
★★ بحث ممتع عن حياة ابن رشيق ودولة المعزّ بن باديس العمراني القيرواني، تأليف أبي البركات عبد العزيز الميمني الراجكوتي (منقول عن الأرديّة)، القاهرة بعد؟ ١٣٤٣ هـ (١٩٢٠ م).
– بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق، تأليف حسن حسني عبد الوهّاب، تونس ١٣٣٠ هـ.
– حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها، بيروت (دار الثقافة) ١٩٦١ م.
– ابن رشيق الناقد الشاعر، تأليف عبد اللطيف مخلوف، القاهرة (المؤسّسة المصرية العامّة للتأليف والأنباء والنشر) ١٩٦٥ م.

---

(١) بادوا نفوسهم؟؟ أنفدوا: استهلوا (أنفقوا) ما كانوا قد خزنوه. الصامت: المال الجامد (كالعملة والأبنية الخ). الصوان: الصندوق توضع فيه الثياب الثمينة (لصونها).
(٢) الحصان: المرأة الشريفة النبيلة (التي لا يمسّها أجنبيّ).
(٣) تفرّق القوم أيدي سبا: تشتّتوا (تفرّقوا تفرّقاً لا اجتماع بعده).

- ابن رشيق ونقد الشعر، تأليف عبد الرؤوف مخلوف، الكويت (وكالة المطبوعات) ١٩٧٣ م.
معجم الأدباء ٨: ١١٠ - ١٢١؛ الخريدة (الأندلس) ٢: ١٢١ - ١٢٥؛ الخريدة (المغرب) ٢: ٢٣٠ - ٢٣٣؛ إنباه الرواة ١: ٢٩٨ - ٣٠٤؛ وفيات الأعيان ٢: ٨٥ - ٨٩؛ المطرب ٥٧ - ٦٥؛ ابن الأثير ١٠: ١٥ - ١٦؛ بغية الوعاة ٢٢٠؛ شذرات الذهب ٣: ٢٩٧؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٩٠٣ - ٩٠٤؛ عنوان الأريب ٢: ٥٢ - ٥٤؛ مجمل تاريخ الأدب التونسي ١٤٣ وما بعد؛ بروكلمن ١: ٣٧٤، الملحق ١: ٥٣٩؛ الأعلام للزركلي ٢: ٢٠٤ - ٢٠٥، (١٩١)؛ تاريخ النقد لإحسان عبّاس ٤٤١ - ٤٥٩؛ مجلّة العربي (الكويت) ١٩٦٤/٢ م، ص ٥٨.

عبد الملك الطبنيّ

١ - هو أبو مروانَ عبدُ الملكِ بنُ زيادةِ اللهِ بنِ عليٍّ بنِ حسينِ بنِ محمّدٍ الطُّبنيُّ، وُلِدَ في قُرطُبَةَ، في سادسِ ذي الحِجّة منِ سَنَةِ ٣٩٦ (١٤/٩/١٠٠٥ م). أخذَ عن ابنِ حزمٍ المشهور (ت ٤٥٦ هـ) وطالتْ صحبته له وصَداقَتُه، كما أخذَ عن نفرٍ كثيرين (راجع كتاب الصلة، رقم ٧٧٤). ورَحَلَ إلى المشرق، قيل مرّتينِ أو أكثرَ، فكان في الإسكندرية سَنَةَ ٤٤٧ هـ وفي مكّة ٤٤٨ هـ (ربيع ١٠٥٧ م). وقد أملى عدداً من العلوم على جمعٍ غفير في قرطبة.

وكانت وفاةُ عبدِ الملكِ الطُّبنيُّ قتلاً، في قرطبة، في ربيعِ الثاني من سَنَةِ ٤٥٧ (آذار - مارس ١٠٦٤ م)، قَتَلَه أهلُه لِشدّةِ بُخْلِهِ عليهم ولإغاظتهِ لهم بالتهكُّم بهم إذا طلبوا منه حاجة. وقد اتّهم ابنه بقتله.

٢ - كان عبدُ الملِك بنُ زيادةِ الله الطُّبنيُّ هذا إماماً في الحديث والفِقه والنحو والأدبِ وشاعراً على أساليب العرب. وكانت له صفاتٌ جميلةٌ من التقوى وحسن المعاشرة والاستقامة، ولكنّ البخلَ يغطّي على جميع الفضائل التي يمكن أن يتّصفَ بها البخيلُ.

٣ - **مختارات من شعره**

- قال عبدُ الملكِ الطُّبنيُّ يفتخر بكَثْرة عدد الذين يستملون منه:

إنّي إذا حَضَرَتْني ألفُ مِحبَرَةٍ ... تقولُ:أخبَرَني هذا وحدّثني[1]،
صاحتْ بِعَقْوَتِيَ الأقلامُ زاهيةً: ... «(هذي المكارمُ! لا قُعبانَ مِنْ لَبَنٍ) »[2].

– وكتَبَ إلى ذي الوزارتين أبي الوليدِ بنِ زَيْدونٍ الشاعر المشهور:

أبا الوليدِ، وما شَطّت بنا الدارُ ... وقَلّ مِنّا ومنك اليومَ زُوّارُ[3]
وبَيْنَنا كلٌّ ما تَدْريهِ مِنْ ذِمَمٍ ... وللصبا ورَقٌ خُضْرٌ وأنوار[4].
وكلُّ عَتْبٍ وإعتابٍ جرى فلَهُ ... بدائعٌ جلوةٌ عِندي وآثار[5].
فاذْكُرْ أخاكَ بخيرٍ كُلّما لَعِبَتْ ... بهِ الليالي، فإنّ الدهر دَوّار!

– وقال في العتاب:

لا يُبْعِدِ اللهُ مَنْ قد غابَ عن بصري ... ولم يَغِبْ عن صميمِ القلبِ والفِكَرِ.
أشتاقُه كاشْتياقِ العينِ نَوْمَتَها ... بعدَ الْمجودِ[6]. وجَذْبِ الأرضِ للمطر.
وعاتبوني على بَذْلِ الفُؤادِ له، ... وما دَرَوْا أنّني أعطَيْتُه عُمُري!

٤ – ** مطمح الأنفس ٥٠؛ الصلة ٣٤٣ – ٣٤٥؛ جذوة المقتبس ٢٦٥ – ٢٦٦ (الدار المصرية) ٢٨٤ – ٢٨٥ (رقم ٦٢٩)؛ بغية الملتمس ٣٦٦ – ٣٦٧ (رقم ١٠٦٥)؛ الذخيرة ١: ٥٣٥ – ٥٤٩ وما بعد؛ المغرب ١: ٩٢ – ٩٣؛ المطرب ٢١٥؛ تعريف الخلف (الجزائر) ٢: ٢٤٣ – ٢٤٧؛ بغية الوعاة ٣١٢؛ نفح الطيب ٢: ٤٩٦، ٥١١، ٧: ٤٨ – ٤٩؛ تاج العروس ٩: ٢٦٧؛ الأعلام للزركلي ٤: ٣٠٣ (١٥٨)؛ كتب وشخصيّات ٢١ – ٢٨.

ابن سِيدَه

١ – هُوَ أبو الحسنِ عليُّ بنُ إسماعيلَ (وقيلَ ابن أحمد أو ابن محمّد) بن سِيدَه الضريرُ المُرْسيُّ، وُلِدَ في مُرْسِيَةَ سَنَةَ ٣٩٨ هـ (١٠٠٨ م). وقد دَرَسَ أوّلاً على أبيه ثمّ على أبي العَلاء صاعدِ البَغْداديّ وأبي عُمَرَ أحمدَ بنِ محمّدِ الطَلَمَنْكيّ.

---

(١) ألف محبرة: ألف تلميذ يأخذون عنّي العلم.
(٢) العقوة: الموضع المتّسع أمام الدار. القعبان جمع قعب (بالفتح): قدح ضخم (يقصد أنّ العلم في الحضارة أفضل من الحياة في البداوة).
(٣) شطّ: بعد.
(٤) الأنوار جمع نور (بفتح النون): الزهر الأبيض.
(٥) العتب: اللوم. الأعتاب: إرضاء الذي كان يعتب.
(٦) المجود: النوم (ولا يستقيم ذلك في المعنى). لعلّ الصواب: قبل المجود. والمجود أيضاً: السهر في العبادة.

واتّصلَ ابنُ سِيدَه بأبي الجيش المُوفّق مُجاهدِ العامريّ صاحبِ دانِيَةَ (٤٠٨ - ٤٣٢ هـ) ثمّ بخَلَفِه أبي الأحْوص مَعْنٍ. ولمّا جاء إقبالُ الدولة إلى الحُكم (٤٣٦ هـ = ١٠٤٤ - ١٠٤٥ م) وَقَعَتْ بينَه وبينَ ابن سيده جَفْوَةٌ فهَرَبَ ابن سِيده عن دانية ثمّ عاد إليها ومدح إقبال الدولة واستَعْطَفَهُ.

وماتَ ابنُ سِيده في دانية، في ٢٦ ربيعٍ الآخرِ من سَنَةِ ٤٥٨ (١٠٦٦/٣/٢٥ م).

٢ - كانَ ابنُ سِيده إماماً في اللغة وفي العربية (النحو) حافظاً لها وعارفاً بأيّامِ العَرَبِ وأشعارِهم ومُلِمّاً بشيءٍ من علوم الحِكمة. وكان له أيضاً شيءٌ من الشعر. ولابنِ سِيدَه كُتُبٌ منها: المُحْكَم والمُحيط الأعظم (في اللغة، وهو جامع لأنواع اللغة ومرتّب على حروف المعجم) - المُخَصَّص (في اللغة، وهو مرتّب على الأبواب) - كتاب العالَم (بفتح اللام، في اللغة، وهو مرتّب على الأجناس: بدأه ابن سِيدَه بالفلك وختمه بالذَّرّة = صِغار النمل) - كتاب العالِم والمُتعلِّم (مرتّب على المسألة والجواب) - شرحُ إصلاح المَنْطِق (لابن السكّيت) - كتابُ شاذِّ اللغةِ - الوافي في علم أحكام القوافي - الأنيق في شرح الحماسة - شرح مُشْكِلِ ديوانِ المتنبّي. وله أيضاً كتاب السماء والعالم (نفح الطيب ٣ : ١٩٢).

٣ - مختارات من آثاره

قال ابن سِيدَه يمدح إقبالَ الدولة ويستعطفه:

ألا هَلْ إلى تَقْبيلِ راحَتِك اليُمْنى ... سَبيلٌ؟ فإنّ الأمْنَ في ذاك واليُمْنا[١].
فيا مَلِكَ الأملاكِ، إنّي مُحَلَّأٌ ... عن الوِرْدِ لا عَنه أُذادُ ولا أُدْنى[٢].
فإن تَتأكّدْ في دَمي لَكَ نيّةٌ ... بصِدْقٍ، فإنّي لا أُحِبُّ له حَقْنا[٣].
وما لِيَ من دَهري حَياةٌ أَلَذُّها ... فتَعْتَدَّها نُعْمى عليّ وتَمْتَنّا[٤].

---

(١) اليمن: البركة.
(٢) المحلّأ: الذي حيل (بكسر الحاء) بينه وبين ما يريد، منع (بالبناء للمجهول) ممّا يريد. الورد: الشرب. أذاد: أطرد. أدنى: أقرّب.
(٣) - إذا كان في نيّتك أن تسفك دمي (تقتلني)، فأنا لا أريد حقن دمي (حفظ دمي: بقائي حيّاً).
(٤) - ليس لي سرور بحياتي فلا تعدّ بقائي حيّاً نعمة منك عليّ ثمّ تمنّ عليّ إن تركتني حيّاً (إفعل بي ما تشاء).

إذا مِيتَةٌ أرْضَتْكَ مِنّـا فهاتِها!　　حَبيبٌ إلَيْنا ما رَضِيتَ به عَنّا!

- من مقدمة « المخصص »:

... أما بعدُ، فإن الله عز وجلّ لمّا كرّم هذا النوعَ المَوْسومَ بالإنسانِ وشرّفه بما آتاه من فضيلةِ النُّطْق على سائرِ أصنافِ الحَيَوانِ وجعل له رَسْماً يَميزه، وفصلاً يُبيِّنُه على جميعِ الأنواعِ فَيَحُوزُه[1] أحْوَجَهُ إلى الكشْف عمّا يَتَصَوَّر في النُّفوس من المعاني القائمة[2] فيها المُدْركة بالفِكرة ففَتَقَ الألسنةَ بضُروبٍ من اللفظ المحسوس ليكونَ رَسْماً لِما تَصَوَّرَ وهَجَسَ[3] من ذلك في النفوس. فعَلِمْنا بذلك أنّ اللغة اضطراريةٌ وإن كانت موضوعاتُ ألفاظِها اختياريةً. فإن الواضِعَ الأوّلَ المُسمِّيَ للأقلِّ جُزءاً وللأكثرِ كُلاًّ وللّونِ الذي يُفرّق شُعاعَ البصرِ وينشُرُه بياضاً، وللّذي يَقْبِضه ويحصُرُه سواداً، لو قَلَبَ هذه التَّسْميةَ فسمّى الجُزءَ كُلاًّ والكُلَّ جُزءاً والبياضَ سواداً والسوادَ بياضاً لم يُخِلَّ بموضوعٍ[4] ولا أوْحشَ أسْماعنا من مسموع.

وقدِ اختلفوا في اللغة: أمُتَواطأٌ عليها أمْ مُلْهَمٌ إليها؟[5] وهذا موضوعٌ يحتاجُ إلى فضلِ تأمُّلٍ. غيرَ أنّ أكثرَ أهلِ النَّظَرِ على أنّ اللغةَ إنما هي وضعٌ واصْطلاحٌ لا وَحْيٌ ولا توقيفٌ[6].

- من مقدمة « المحكم »:

بذِكرِ اللهِ نفتتحُ وبنوره نقتدح[7]، وبما أفاضَه علينا من نوريّةِ إلهامِه نهتدي،

---

(١) الرسم: السلوك ونمط الحياة. الفصل: النوع والهيئة. يبيّنه (يجعله مختلفاً من غيره). مازه يميزه (بفتح فكسر): اختاره. فضّله. حازه: استولى عليه، اتّصف به.

(٢) يتصوّر (تجوز بالبناء للمعلوم أو للمجهول). المعاني (مجرورة لفظاً مرفوعة محلاً على أنّها فاعل أو نائب فاعل للفعل « يتصوّر »). القائمة فيها (الموجودة في النفوس).

(٣) هجس: خطر.

(٤) لم يخلّ بموضوعٍ: لم يفقد اللفظ الذي أطلق على شيء تسمَّى شيئاً من دلالته.

(٥) متواطأ: متّفق عليه (بين الناس). ملهم إليها: موحى بها.

(٦) على أنّه (متّفقون على أنّ ألفاظ اللغة). توقيف: التعليم، التلقين (المقصود: أول اللغة لم يكن بتعليمها جملة للناس).

(٧) اقتدح: استخرج النار من حجرها بالقدح (نقتبس أو نهتدي بنور الله).

وبما سَنّه لنا نبيُّنا المُقْتفى ورسولُه المُصطفى[١] من فُروض طاعتهِ نقتدي. نَحْمَدُه بآلائه ونُصلّي على عاقِبِ أنبيائهِ[٢]. ونسألُه خيرَ ما يَخْتِمُ وأفضلَ ما به لهذه النفوس يَحْتِمِ[٣]...

أما بعدُ، أيُّها المُسْهِرُ طلبُ العلمِ لجفونهِ الكاتبُ لحورِ عيونه[٤]. الرائعُ منه في أزاهيرِ فنونه، فإني أقولُ لك: هنيئاً! فقد أُوتيتَ بَغِيَّتَكَ[٥]. وشُكْراً! فقد مُلِّكْتَ أُمْنيَّتك...

وشكراً له، أيُّها النَّهِمُ على محاسنِ العلوم الباحثُ عن نتائجِ مُقدّمات الحُلوم[٦]، فما أَسْلَمَكَ للواحقِ الزمان، ولا خلّى بينَك وبين طوارق الحَدَثان[٧]، بل كَفاكَ ما كان يُنازِعُكَ من هواك ويُمِرُّ عليك مُسْتَعْذَبَ نَواك[٨]: من تصوُّرِ التعب بشَدِّ الرِّحال ومَئونة التَّرحال ولَفْح السَّموم[٩] وعَقْدِ الطَّرْفِ ليلاً بسُموتِ النجوم[١٠]، وتأمُّلِ السَّرابِ شَوْقاً إلى بَرْدِ الشراب، والتمتُّع بأباطيلِ الخيال بَدَلاً من لذيذِ محصولِ الوِصال...

٤ - المخصّص، بولاق (المطبعة الكبرى الأميرية) ١٣١٦ - ١٣٢١ هـ.
- المحكم والمحيط الأعظم في اللغة (تحقيق مصطفى السقّا وحسين نصّار

---

(١) المقتفى: المتبع. المصطفى: المختار.
(٢) الآلاء: النعم. عاقب: آخر.
(٣) خير ما يختم (به الحياة: الموت على شريعة الإسلام). يحتم: يوجب، يقضي.
(٤) المسهر خبر مقدّم. طلب العلم مبتدأ مؤخّر. لجفونه (اللام زائدة). جفونه مجرورة لفظاً منصوبة محلاً على أنّها مفعول به لاسم الفاعل «المسهر». الحور في الأصل جمع حوراء (المرأة الناعسة العينين، الجميلة (وهنا، حور عيونه: خير ما في العلم).
(٥) البغيّة: الطلبة (بالكسر) والمطلب.
(٦) الحلوم (جمع حلم بالكسر): العقول. نتائج مقدّمات الحلوم: ما يوجبه العقل من القواعد والأحوال. شكراً له (لله).
(٧) لم يجعلك الله عرضة لمصائب الدهر ولا جعل لمصائب الدهر إليك طريقاً.
(٨) يمرّ الشيء (يجعله مرّاً). النوى هنا: المقصد (بلوغ ما يقصد الإنسان).
(٩) لفح السموم (الريح الحارّة): ملاقاة الوجه وإحراقه.
(١٠) عقد الطرف (البصر، العين) بسموت (السمت بالفتح: النقطة القائمة عمودياً على رأس الناظر): أي قضى الليل ساهراً.

وغيرها) - (جامعة الدول العربية - معهد المخطوطات)، القاهرة (مصطفى البابي الحلبي) ١٩٥٨ - ١٩٦٨ م.
المخصَّص لابن سِيده، تأليف محمد الطالبي، تونس (المطبعة العصرية) ١٩٥٦ م.

** جذوة المقتبس ٢٩٣ - ٢٩٤ (الدار المصرية) ٣١١ - ٣١٢ (رقم ٧٠٩)؛ بغية الملتمس ٤٠٥ (رقم ١٢٠٥)؛ الصلة ٣٩٦ - ٣٩٧؛ معجم الأدباء ١٢: ٢٣١ - ٢٣٥؛ وفيات الأعيان ٣: ٣٣٠ - ٣٣١؛ المطمح ٦٠ - ٦١؛ المغرب ٢: ٢٥٩؛ نكت الهميان ٢٠٤ - ٢٠٥؛ الديباج المذهب ٢٠٤ - ٢٠٥؛ بغية الوعاة ٣٢٧؛ شذرات الذهب ٣: ٣٠٥ - ٣٠٦؛ نفح الطيب ٣: ٣٨٠، ٤: ٢٧ - ٢٨؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٩٤٠؛ بروكلمن ١: ٢٧٦، الملحق ١: ٥٤٢؛ الأعلام للزركلي ٥: ٦٩ (٤: ٢٦٣).

ابن شرف القيروانيّ أبو عبد الله

١ - هو أبو عبدِ اللهِ محمّدُ بنُ أبي سعيدٍ مُحَمّدٍ الجُذاميُّ المعروفُ بابنِ شرفٍ القَيْروانيّ، لعلّه وُلِدَ في السنينَ الأخيرةِ من القرنِ الهِجْري الرابع.

روى ابنُ شرفٍ القيروانيُّ عن أبي الحسنِ القابسي (٣٢٤ - ٤٠٣ هـ) وأبي عِمرانَ الفاسيّ وقرأ النَّحْوَ على أبي عبدِ الله محمّدِ بنِ جعفرٍ القزّازِ، وأخذَ العلومَ الأدبيةَ عن أبي إسحاقَ إبراهيمَ الحُصريِّ.

ونال ابنُ شَرَفٍ حُظوةً في بَلاط المُعِزّ بن باديسَ في القيروان، وكان المُعِزُّ قدِ استقلَّ بالحُكمِ سنة ٤١٧ هـ (١٠٢٦ م)، ولكنّنا لا نعلَمُ متى جاء ابنُ شرف إلى بَلاط القيروانَ. وفي هذا البَلاط التقى ابنُ شرفٍ بابنِ رشيقٍ فتنافَسا وتنافَرا ثمّ تهاجَيا وأقْذَعَ كلٌّ واحدٍ منهما في هِجاءِ الآخرِ، ولكنْ يبدو أنّهما لم يتقاطَعا ولا تَعاديا.

وفي سَنَةِ ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) هاجَمَ العَرَبُ (البدو) القيروانَ واستباحوها فانتقلَ المُعِزُّ بنُ باديسَ منها إلى المَهْديّةِ، وانتقلَ مَعَه ابنُ شرفٍ. ثمّ تُوُفِّيَ المعزُّ (٤٥٣ هـ = ١٠٦١ م) وخَلَفَه ابنُه تميمٌ، فَلَزِمَه ابنُ شرفٍ مُدّةً يسيرةً فلم يَجِدْ عنده من الحظْوة ما كان قد وَجَدَ عند أبيهِ فغادَرَ إفريقيةَ (تونس) إلى جزيرةِ صِقِلِّيَةَ ثمّ انتقلَ، نحو سَنَةِ ٤٥٠ هـ، إلى الأندلس وسكن المَرِيَّةَ. ثمّ إنّ نفسَه نازعَتْه إلى التردُّدِ على بَلاطاتِ ملوكِ الطوائف للتكسُّبِ بشعرِه. وقدِ استقرّ حيناً في طُلَيْطُلَةَ عندَ

المأمون بن ذي النونِ (٤٢٩ - ٤٦٧ هـ) ثمّ انتقلَ إلى إشْبيلِيَةَ واتّصلَ بالْمُعْتَضِدِ بنِ عَبّاد (٤٣٤ - ٤٦١ هـ).

وكانتْ وفاةُ أبي عبدِ الله بن شرفِ الجُذاميّ القَيْروانيّ في إشبيليةَ، أول المحرم من سَنَةَ ٤٦٠ هـ (١٠٦٧/١١/١١ م)

٢ - أبو عبدُ اللهِ محمّدُ بنُ شرفِ القيروانيُّ أديبٌ كاتبٌ مُترسِّلٌ وشاعرٌ. أما نثرُه فترسّلِ فيه تأنُّقٌ وتكلُّفٌ، وفيهِ تقليدٌ للمقامات، وإن كان يُعالِجُ فيه أحياناً موضوعاتٍ بعيدةً عن طبيعةِ المقامةِ كما عرَفها المَشْرِقُ. وأما شعرُه فرقيقٌ عذبٌ سَلِسٌ في أكثرِ الأحيان. وفنونُ شعرِه المدحُ والرثاء الصادقُ (وخصوصاً رثاء بلدِهِ القيروانِ بعدَ أن هاجمها البدو وخرّبوها). وأحسنُ فنونهِ الوصفُ. وله هجاءٌ فيه دُعابةٌ تَحولُ أحياناً إقذاعاً. ثمّ له غزلٌ وحِكمة.

وفي معجم الأدباء (١٩. ٤٣): «ولابنِ شرفِ القيروانيّ من التصانيف: أبكار الأفكار جمع فيه ما اختاره من شعره ونثره، وأعلام الكلام (مجموعٌ فيه فوائدُ ولطائفُ ومُلَحٌ مُنْتَخبَةٌ)، ورسالة الانتقاد[١] (وهي على طرازِ مقامةٍ نَقَدَ فيها شِعرَ طائفةٍ من شُعراءِ الجاهلية والإسلام)، وديوان شعر وغير ذلك». وله رسائل ومقامات.

٣ - مختارات من آثاره

من مطلع «أعلام الكلام»:

هذه أحاديثُ صُغْتُها مختلفةٌ في الأنواع مؤتلفة في الأسماء، عربياتُ المواسم غريبات التراجم[٢]. واختلَقْتُ فيها أخباراً فصيحاتِ الكلام بديعيات النظام لها

---

(١) وله أيضاً «مسائل (أو رسائل) الانتقاد». يقول إحسان عباس (تاريخ النقد ٤٦٠ - ٤٦١): «ليس ثمة ما يمنعُ أن تكون أعلامُ الكلام رسالةً في النقد، ولكن هل هي نفس الرسالة (إقرأ: الرسالةُ نفسُها) التي تُدعى مسائلَ (أو رسائل) الانتقاد؟». - إن ما يذكره ياقوت الحَمَوِيّ في صدد هذا المقطع يدل على أن «أعلام الكلام» كتابٌ مختلف من رسالة الانتقاد والتي نشرت أيضاً باسم رسائل (أو مسائل) الانتقاد (راجع قسم المصادر، ص ٥٧٠).

(٢) في القاموس (٤: ١٨٦): صادفت الإبل مرعى موشماً (بضمّ الميم وكسر الشين) أي طيّباً. والميسم (بكسر الميم وفتح السين المهملة بلا نقط) المكواة تجعل بها العلامات (على أجسام البهائم) وجمعها مواسم =

مقاصدُ ظِرافٌ وأسانيدُ طِرافٌ يَروقُ[1] الصغيرَ معناها والكبيرَ مغزاها. وعَزَوْتُها إلى أبي الريّان الصَّلْتِ بن السكن من سلامان[2] - وكان شيخاً هِمّاً في اللسان وبدراً تِمّاً في البيان[3] - قد بَقِيَ أحقاباً ولَقِيَ أعقاباً[4]، ثم أَلْقَتْهُ إلينا من باديته الأزَماتُ وأورَدَتْه علينا العَزَمات[5]. فأمْتَحَنّا من علمه بحراً جارياً وقَدَحْنا من فَهْمه زَنْداً وارِياً[6]، وأدَرْنا من بِرّه طَرَفاً وآجْتَنَيْنا من ثمره طُرَفاً[7]. ونحن إذ ذاك والشبابُ مقتبلٌ، وغَفْلةُ الزمان تُهتَبَل[8]. وآحتذيتُ فيما ذهبت إليه ووقع تعريضي عليه[9] - من بث هذه الأحاديث - ما رأيتُ الأوائلَ قد وضعَتْه في كتاب كليلةَ

= ومياسم. وهنا عربيّات المواشم (بالشين المعجمة): صفاتها عربية. غريبات التراجم: أعمالها غريبة مستطرفة (مستحسنة).

(١) الظراف جمع ظريف: جميل الوجه خفيف الظلّ حسن الكلام والأعمال. أسانيد جمع إسناد (بالكسر): رواية، اتّصال، إرث (هنا: أخبار نادرة مستحسنة). يروق: يعجب (راقني هذا المنظر: أعجبني فسررت به).

(٢) عزوتها: نسبتها. أبو الريّان الصلت بن السكن (بفتح ففتح: من أسماء الرجال) بن سلامان اسم مرتجل أو مخترع (خيالي).

(٣) الشيخ الهِمّ (بالكسر) الكبير الفاني. البدر التِمّ: الكامل. البيان: التعبير عن المقاصد (الكلام الواضح البليغ).

(٤) بقي أحقاباً (عاش مدّة طويلة) ولقي أعقاباً (نسلاً كثيراً من أجيال متتابعة).

(٥) الأزمة (بفتح ففتح أو بفتح فسكون): الشدّة، الضيق (الفقر، القحط). العزمات في القاموس (٤: ١٥٠): الحقّ (من حقوق الله). والمقصود هنا جمع عزيمة (الهمّة والصبر على المشاق والجرأة على الأعمال).

(٦) الزند قطعة من الحديد نحكّ بها قطعة من الحجر الصوّان فيقدح (من الحجر) نار وري (بفتح فكسر ففتح) الزند يورى (بفتح فسكون ففتح): قدح النار من الحجر بسرعة وثبات فهو وار. قدحنا من فهمه زنداً وارياً (المقصود: كل سؤال كان يخرج منه رأياً صائباً).

(٧) أدرنا (طفنا على أنفسنا، وزعنا) من برّه (من خيره، من علمه ورغبته في الإفادة). طرف: جانب. قسم (شيء قليل). اجتنينا (قطفنا، نلنا، استفدنا) الطرفة (بالضمّ): كل شيء جديد عجيب (يسر النفس).

(٨) مقتبل (بالبناء للمجهول): نحن نستقبله (في أول شبابنا). غفلة الزمان (عن الإساءة إلينا) تهتبل (تنتهز، تغتنم).

(٩) احتذى: قلّد. التعريض: الإشارة من غير شرح.

ودِمنةَ[1] فأضافوا حِكَمَهُ إلى الطير الحوائم ونَطَقوا به على ألسنة الوحش والبهائم[2] لتتعلق به شَهَوات الأحداث وتُستَعْذَبَ بثمره ألفاظ الحُدّاث[3]... فأقمتُ من هذا النحو عِشرين حديثاً أرجو أن يتبيَّنَ فضلُها ولا تقصّر عمّا قبلها[4]...

وجاريت أبا الريّان في الشعر والشعراء[5] ومنازِلهم في جاهليّتهم وإسلامِهم، واَستَكْشَفتُهُ عن مذهبِهِ فيهم ومذاهبِ طبقتهِ في قديمهم وحديثهم[6]. فقال: الشعراءُ أكثرُ من الإحصاء وأشعارهم أبعدُ شُقّةً من الاستقصاء[7]. فقلتُ: لا أعَنْتُك بأكثرَ من المشهورين ولا أُذاكر رأيَك إلاّ في المذكورين[8]، مثل الضِّلّيل والقتيل ولبيد وعَبِيدِ والنوابغ والعُشْوِ[9]... ومن الطَّبَقة المتأخرة في الزمان المتقدمة في الإحسان كابن حَمْدانَ والمتنبي أحمدُ بنُ الحسين بن عبدان[10]...

- من مقامة لابن شرفٍ القيروانيّ اسمُها أعلام الكلام (ص ٢٥، ٢٦):

... وأما أبو فراسٍ بنُ حَمدانَ ففارسُ هذا المَيْدانِ، إن شِئْتَ ضرباً وطعناً أو شِئْتَ لفظاً ومعنًى، مَلَكَ زماناً ومَلَكَ أواناً، أشعرُ الناسِ في المملكةِ وأشعرُهم في ذُلّ

---

(١) راجع، فوق، ٢: ٥٤.

(٢) الحوائم (التي تدوم في طيرانها في الجوّ). الوحش (الحيوان الذي يعيش بعيداً عن الناس، كالأسد والثعلب) والبهيمة (الحيوان الأليف كالبقرة والدجاجة).

(٣) الشهوة: الرغبة. الأحداث جمع حدث (بفتح ففتح): الصغير السنّ. الحدّاث: الجماعة يتحدّثون (وهو جمع على غير قياس - راجع تاج العروس، الكويت ٥: ٢١٤).

(٤) ... عمّا قبلها: عمّا سبقها (مثل كتاب كليلة ودمنة، مثلاً).

(٥) جاريته: جريت معه، رافقته في مسيره (هنا: خاطبته، ناقشته، باحثته).

(٦) طبقته (الذين هم في المعرفة والمكانة مثله).

(٧) الشقّة (بالضمّ): البعد، المسافة. الاستقصاء: الاستنفاد (ذكر الأشياء كلّها حتّى لا تترك منها شيئاً) - أبعد شقّة من (عن) الاستقصاء: يستحيل أن يحيط بها أحد.

(٨) أعنتك: ساعدتّك (ذكرت لك). ذاكر ليست في القاموس ولا في تاج العروس (المقصود: أتبادل الكلام معك في شيء ما). المذكور (المعروف الذي يكثر الناس ذكره).

(٩) الضلّيل (امرؤ القيس) والقتيل (طرفة بن العبد) ولبيد (بن ربيعة) وعبيد (بن الأبرص) والعشو جمع أعشى (وهم عدد من الشعراء (ميمون بن قيس الجاهلي أشهرهم) راجع أسماء نفر منهم في القاموس (٤: ٣٦٣).

(١٠) ابن حمدان أبو فراس أو سيف الدولة. ابن عبدان خطأ (عيدان - بالياء التحتية بنقطتين - السقاء لقب والده. راجع ٢: ٤٥٨).

المَلَكة. وله الفخريّاتُ التي لا تُعارَضُ والأسْريّات التي لا تُناهَض.

وأمّا المُتنبّي فقد شُغِلَتْ به الألْسُنُ وسَهِرتْ في أشعارِه الأعيُنُ. وكَثُرَ الناسخُ لشعرهِ والآخذُ لذِكْرهِ والغائص في بحرِه والمُفتّش في قَعْرِه عن جُمانِه ودُرِّه. وقد طال فيه الخُلْفُ وكَثُرَ عنه الكَشْف. وله شِيعةٌ تغلو في مَدْحه، وعليه خوارجُ تتغايا في جَرْحه. والذي أقولُ إنّ له حسناتٍ وسيّئاتٍ، وحسناتُه أكثرُ عدداً وأقوى مَدداً. وغرائبُه طائرةٌ وأمثالُه سائرة، وعلمه فسيح ومَيْزه صحيح. يروم فيَقْدِرُ، ويَدري ما يُورِدُ ويُصْدِرُ.

... وأمّا ابن درّاجٍ الأندلسيّ القَسْطَلّيّ فشاعرٌ ماهرٌ عالمٌ بما يقولُ، تشهَدُ له العقولُ بأنّه المُؤخَّرُ بالعَصْر المُتَقدِّمُ في الشِّعر. حاذقٌ بوضع الكلام في مواضِعه، لا سِيّما إذا ذكَرَ ما أصابه في الفِتْنة وشكا ما دَهاه في أيام المِحْنة. وبالجُملة فهو أشعرُ أهل مَغْرِبهِ في أبعدِ زمانهِ وأقربهِ...

- وقالَ أبو عبدِ الله بنُ شرفٍ يَصفُ أهل القَيْروان وقد جَلَوْا عن القيروان بعدَ أن هاجمها العرب (البدو) وخرّبوها:

تَرَحَّلَ عنها قاطنوها، فلا تَرى ... سِوى سائرٍ أو قاطنٍ وهو سائر[1].
تَكَشّفتِ الأستارُ عنهم، ورُبّما ... أُقيمتْ سُتورٌ دونَهم وستائر[2].
تَبيتُ على فُرْشِ الحَصى، وغِطاؤها ... دَوارسُ أسمال زَوارٍ حقائر[3].
فيا ليتَ شِعرَ القيروانِ مَواطني، ... أعائدةٌ فيها الليالي القصائر؟![4]
ويا رَوْحَتي بالقيروان وبُكْرتي، ... أراجعةٌ رَوْحاتها والبواكر؟
كأن لم تكن أيّامُنا فيك طَلْقةً ... وأوجهُ أيّامِ السرورِ سوافرُ[5].

---

(١) القاطن: الساكن في البلد أو المنزل. وهو سائر (راحل. مهاجر).

(٢) انكشف عنه ستر (الله): افتضح بين الناس وظهرت معائبه إلخ أقيمت ستور دونهم (كناية عن حفظ كرامتهم) وستائر (كناية عن احتجابهم عن العامة لعلو منزلتهم).

(٣) فرش (بضم فضم - وهنا بضم فسكون لضرورة الشعر). الحصى: صغار الحجار. السمل (بفتح ففتح): الثوب البالي المتهرىء. الدارس (المحوّ): القديم المتهرىء. زوار جمع زارية (؟): تكسب صاحبها عيباً (؟).

(٤) المواطن جمع موطن. قصائر جمع قصيرة.

(٥) الوجه الطلق: البشوش، الضاحك، الفرح. والوجه السافر: المشرق، المضيء.

- وقال يَصِفُ ليلةَ أُنسٍ كان المطرُ فيها كثيراً والبَرْدُ شديداً:

ولقد نَعِمْتُ بليلةٍ جَمَدَ الحَيا ... في الأرض فيها، والسماءُ تذوبُ[1].
جَمَعَ العِشاءينِ المُصَلّي، وانزَوى ... فيها الرقيبُ كأنّه مرقوبُ[2].
والكأسُ كاسيةُ القميصِ كأنّها ... قَدْراً ولَوْناً، مِعْصَمٌ مخضوبُ[3].
هِيَ وردةٌ في خدِّه، وبكأسِها الـ ... (م) ـدُرّيُّ منها عَسْجَدٌ مصبوبُ[4]
مِنّي إليه، ومِنْ يَدَيْهِ إلى يدي، ... فالشمسُ تطلُعُ تارةً وتَغيبُ[5].

- ولابن شرف في نقد الشعر:

أوّلُ ما عليهِ تَعْتَمِدُ وإيّاهُ تَعْتَقِدُ ألاّ تستعجلَ باستحسانٍ ولا استقباحٍ ولا باستبرادٍ ولا باستملاحٍ حتّى تُنْعِمَ النَّظَرَ وتستخدمَ الفِكَر. واعلمْ أن العَجَلَةَ في كلِّ شيءٍ موطئٌ زَلوقٌ ومركَبٌ زَهوقٌ[6]: فإنّ من الشعر ما يَمْلأُ لفظُه المسامعَ (ثمّ لا) يَرِدُ على السامعِ منه (إلاّ) قَعاقعُ. فلا يدعكَ!![7] شَماخةُ مَبْناهُ وانظُرْ إلى ما في سُكناه من مَعْناه، فإنْ كان في البيتِ ساكنٌ فتلك (هي) المحاسنُ، وإن كان خالياً فاعْدُدْهُ جسماً بالياً.

وكذلك إذا سَمِعْتَ ألفاظاً مُستعملةً وكلماتٍ مبتذَلةً فلا تَعْجَلْ باستضعافِها؛ فكم من مَعْنًى عجيبٍ في لفظٍ غيرِ غريبٍ. والمعاني هي الأرواحُ، والألفاظُ هي الأشباحُ؛ فإنْ حَسُنَا فذلك الحَظّ الممدوحُ، وإن قَبُحَ أحدُهما فلا يَكُنِ الروحُ!.

---

(1) الحيا: المطر. السماء (الغيوم) تذوب (تسقط ماء).

(2) جمع العشاءين (صلاة المغرب وصلاة العشاء) لشدة البرد (كيلا يصليهما بوضوءين (؟)). انزوى: جلس بعيداً في زاوية. الرقيب: الحارس (المكلف بمراقبة الناس) كأنه مرقوب (كأن أحداً يراقبه).

(3) والكأس كاسية القميص: جمدت حولها (أو فيها) نقط الخمر فكأنها (ببياض زجاجها معصم امرأة بيضاء جميلة وبلون الخمر فيها مخضوبة بالحناء).

(4) الدُّرّيّ: الذي يشبه الدر (اللؤلؤ): الأبيض. العسجد: الذهب.

(5) الشمس (كناية عن الخمر). تطلع تارة (مرة) تصب في الكأس. وتغيب (تنسكب في أفواهنا: نشربها).

(6) زلوق: تزلق فيه قدم السائر. زهوق: زائل (؟).

(7) القعقعة: الصوت (الذي لا فائدة منه). يدعك (كذا في الأصل)، ولعلها: يرعك (بفتح فضم فسكون): يخفك، يعجبك.

- وقال في عُودٍ (الآلة الموسيقية المعروفة):

سَقى اللهُ أرضاً أنْبَتَتْ عودَكَ الذي زكَتْ منه أغصانٌ وطابتْ مَغارسُ:
تَغنّى عليهِ الطيرُ وَهْيَ رَطيبةٌ، وغَنّى عليها الناسُ والعودُ يابسُ![1].

٤ - أعلام الكلام (نشره حسن حسني عبد الوهّاب) دمشق ١٩١٢؛ (الرسائل النادرة - جمعها عبد العزيز أمين الخانجي)، القاهرة (مكتبة الخانجي) ١٣٤٤ هـ = ١٩٢٦ م.

- رسالة الانتقاد (نشرها حسن حسني عبد الوهّاب)، تونس ١٣٣٠ هـ، = مسائل الانتقاد (نشرها شارل بلاّ)، الجزائر ١٩٥٣ م = (في مجموعة الرسائل النادرة) (أنظر الكتاب السابق).

★ الصلة ٥٧١؛ الذخيرة ٢: ٦٤١ - ٦٤٣، ٤: ١٦٩ - ٢٤٥؛ الخريدة (الأندلس) ٢: ١١٠ - ١٢١؛ الخريدة (المغرب) ٢: ٢٢٤ - ٢٣٠؛ معجم الأدباء ١٩: ٣٧ - ٤٣؛ الوافي بالوفيات ٣: ٩٧ - ١٠١، فوات الوفيات ٢: ٢٥٥ - ٢٥٦؛ المغرب ٢: ٢٣٠ - ٢٣٢؛ المطرب ٦٦ - ٧١؛ جيش التوشيح ٩٧ - ١٠٨؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٩٣٦؛ بروكلمن ١: ٣١٥، الملحق ١: ٤٧٣، الجمل في تاريخ الأدب التونسي ١٥٠ وما بعد؛ عنوان الأريب ١: ٥٦ - ٥٧؛ الأعلام للزركلي ٧: ١٠ (٦: ١٣٨)؛ تاريخ النقد لعبّاس ٤٦٠ - ٤٦٩؛ العربي (الكويت) ١١/١٩٦٥، ص ٤٨.

أبو حفص الهَوْزَنيّ

١ - هو أبو حفصٍ عُمَرُ بنُ الحسنِ بنِ عبدِ الرحمنِ بن عُمَرَ الهَوْزَنيُّ من بيتٍ كبيرٍ مشهورٍ كانت إليه زعامةُ إشبيليةَ قبلَ دولةِ بني عبّاد.

وُلِدَ أبو حفصٍ الهوْزنيّ في رَجَبَ من سَنَةِ ٣٩٢ (أواخرِ الربيعِ من عام ١٠٠٢ م). وقد روى الهوزنيُّ عن نفرٍ من العلماء منهم أبو القاسمِ بن عصفورٍ وأبو عبدِ الله الباجيّ وأبو محمّدٍ الشنتجالي.

لمّا خَلَفَ عبادٌ المُعْتَضِدُ أباه محمّداً في الاستبداد بإشبيلية سنة ٤٣٤ هـ، كان الهوزنيُّ ظاهرَ الرئاسة في إشبيليّة رفيعَ المكانةِ فيها. وسَرعانَ ما ثَبّتَ المُعتضدُ حُكمَهُ في إشبيليةَ فخاف الهَوزنيُّ مَغبّةَ ذلك على نفسِه واستأذنَ المعتضدَ بالذّهاب إلى الحجّ.

---

[1] كان هذا العود (آلة الطرب) من قبل غصناً أخضر تتغنى عليه الأطيار. وبعد أن يبس صنع الناس منه عوداً (آلة طرب) يغنون عليها.

وفي سَنَةِ ٤٤٠ هـ (١٠٤٩ م) رَحَلَ الهوزنيُّ إلى المشرق فزار مِصْرَ ثمّ تابع طريقه إلى مكّة. وفي أثناء رِحْلته التي دامتْ بِضْعَ عَشْرَةَ سَنَةً، فيما يبدو، سَمِعَ «صحيح البخاري» (وقيل: «سُنَنَ التِرْمذيّ».) فلمّا عاد إلى الأندلس، قبل ٤٥٦ هـ، استأذنَ المعتضدَ في سُكنى مُرْسِيَةَ وجعل يُحَدِّثُ بصحيحِ البُخاريّ، إذ هو أوّلُ من أدخل هذا الكتابَ إلى الاندلس. ثمّ إنّ المعتضد حاسَنَ الهوزنيَّ وسأله أن يَرْجِعَ إلى اشبيليةَ، فرجَعَ إلى اشبيلية ففوّضَ اليه المعتضدُ شيئاً من أمور الدولة.

ولمّا اطمأنّ الهوزنيُّ في اشبيلية غَدَرَ به المعتضدُ وقتله في قصْره بيدِه، في مُنتصف ربيعِ الآخِرِ (في الأغلب) من سَنَةِ ٤٦٠ (أواخرِ شباط - فبراير ١٠٦٨ م).

٢ - كان أبو حفصٍ الهَوْزنيُّ مُتَفَنِّناً في علومٍ كثيرة قد نال من كلِّ علمٍ منها قِسْطاً وافراً، كما كان كثيرَ الذكاء ثاقبَ الذهنِ صحيحَ الرأي دقيقاً في معارفه. وقدِ اشتهرَ بالحديثِ، ولكنّه كان مجيداً للنثرِ والنظم أيضاً.

٣ - مختارات من آثاره

- لمّا استولى الإسبانُ على حُصْنِ بربُشْتر (أو ببشتر)، سَنَةَ ٤٥٦ هـ، كتب أبو حفصٍ الهَوْزنيُّ من مُرْسِيَةَ الى المعتضدِ بن عبّادٍ رسالة يحضّه فيها على الجهاد، منها:

أعبّادُ، جلّ الرزءُ والقومُ هُجّعُ ... على حالةٍ من مِثْلِها يُتَوَقَّعُ[1].
فَلَقِّ كتابي من فَراغِك ساعةً ... وان طالَ، فالموصوفُ للطول موضِعُ[2].
إذا لم أَبثَّ الداءَ ربَّ شِكايةٍ ... أضَعْتُ؛ وأهلٌ للمَلامِ المُضَيِّعُ[3].

وما أخطأ السبيلَ من أتى البيوت من أبوابِها، ولا أرجأ الدليل من أناطَ الأمور بأربابِها[4]. ولَرُبَّ أملٍ بينَ أثناءِ المحاذيرِ مُدْمَجٌ، ومحبوبٍ في طيِّ المكارهِ مُدرَجٌ[5].

---

(١) هجّع جمع هاجع: نائم. يتوقع (ينتظر الخطر أو الهلاك ....).

(٢) اجعل لرسالتي ساعة وإن كانت رسالتي طويلة. الموصوف (في رسالتي) الخطر من استيلاء الإسبان على حصن ببشتر موضع (أي يستحق) للطول.

(٣) أبث: أظهر، أذكر (أشكو الحزن الذي بي). رب (صاحب) شكاية (القدرة على ازالة الشكوى).

(٤) أناط (علّق) الأمور بأربابها (أصحابها، القادرين على معالجتها).

(٥) قد يكون الأمل (رجاء الخير) في المحاذير (جمع محذور: ما يخاف الناس منه) مدمج (موضوع، مدخل). مدرج (مدخل).

فانتهزْ فُرصتَها فقد بانَ من غيرِكَ العَجْزُ، وطَبِّقْ مفاصِلها فقد أمْكَنَكَ الحزّ[1]. ولا غرْوَ أن يُسْتَمْطَرَ الغمامُ في الجَدْبِ وَيُسْتَسْحَبَ الحُسامُ في الحرب.

٤-★★ الذخيرة ٢: ٨١ - ٩٤؛ الصلة ٣٨١ (رقم ٨٦٣)؛ المغرب ١: ٢٣٤ - ٢٣٥؛ نفح الطيب ٢: ٩٣ - ٩٤؛ الأعلام للزركلي ٥: ٢٠١ (٤٤)؛ نيكل ١٣٤.

أبو اسحاق الإلبيري

١ - هو الاستاذُ (نفح الطيب ٤: ٣١٧) أبو اسحاقَ إبراهيمُ بنُ مسعودِ بنِ سعيدٍ التُجيبيُّ الغَرْناطيُّ الإلبيريُّ، نَعْرِفُ من حقائقِ حياتِهِ أنّه كان عربيّ الأصلِ وأنّ أصلَ أهلِهِ من سَرَقُسْطَةَ، كما يُدلّ لقبُه « التُجيبيّ »؛ ثمّ إنه كان تلميذَ الفقيهِ الشاعرِ ابنِ أبي زَمنينَ (ت ٣٩٨ هـ).

كان أبو إسحقَ هذا يسكن غَرْناطةَ في أيام باديسَ بنِ حَبّوسٍ (٤٣٠ - ٤٦٦ هـ) ولم يدركْ عند باديسَ الحُظوةَ ولا المكانةَ التي كان يرجوها. وكان لباديس وزيرٌ يهودي اسمهُ اسماعيلُ (صموئيل) بن النَّغْدَلَة (ت ٤٤٧ هـ = ١٠٥٥ م) - والنغدلّة تحريف من « الناجِد » بِمعنى « الرئيس » - فاستولى على الأمور. ثمّ خَلَفَه في الوزارة ابنٌ له اسمهُ يوسفُ فزادَ استبدادُه بأمور الدولة. وكان لباديس ابنٌ اسمهُ بُلُقّين يُرَشِّحُه باديسُ للملك من بعده. وضاق بلقّين باستبداد يوسف بن صموئيل فجعل يحضّ أباه على الاستغناء عنه. علم يوسف بذلك فدبّر اغتيال بلقّين. ولمّا انكشف أمر الاغتيال زعم يوسف أن نفراً من خَدَمه وجواريه فعلوا ذلك بغير علمه وارادته فقام باديس بقتل جماعات من اليهود (بتحريض من يوسف). غير أن نفوذ يوسف ازداد كثيراً.

وكان أبو اسحق الإلبيريّ ممّن يَحُضّ باديسَ وبني صِنْهاجةِ، قومَ باديسَ، وأهلَ غَرْناطةَ كلَّهم على الفتك باليهود. واستطاع يوسف أن يحمل باديس على أن يُخْرِجَ أبا اسحاقَ الإلبيريّ من غرناطة. فذهب أبو اسحق الى إلبيرة وعاش في دار على

---

(١) طبّق المفصل (الوصلة بين عظمين): أحسن القطع (تدبير الأمور). الحزّ: القطع.

إحدى التلال عيشةَ الزهد والتصوّف. وهنالك نظم قصيدة في الحضّ على الفتك باليهود وسَرَدَ فيها جميع التهم الموجّهة إليهم وَذَكَرَ جميعَ الصور التي كان استبدادُهم بالمسلمين يجري فيها. وأثّرتْ هذه القصيدةُ في أهلِ غَرْناطةَ فثاروا على اليهود فيها وقتلوا منهم مَقْتَلَةً عظيمة (قيل ثلاثةُ آلافٍ) وقُتِل في هذه المَعْركةِ (تاسعَ صَفَرَ من سَنَة ٤٥٩ = ١٠٦٦/١٢/٣٠ م) يوسُفُ بنُ النَغْدلة نفسُه. وفي «أعمال الأعلام» (ص ٢٣٣) أنّ هذه المعركة كانتْ سَنَة ٤٦٩ أو ٤٦٥.

ويبدو أن وفاةَ أبي اسحاقَ الإلبيريِّ كانتْ بعدَ ذلك بُمدّةٍ يسيرة، بعدَ أنْ تقدّمتْ به السِّنُّ كثيراً.

٢ - كان ابو اسحق الإلبيريُّ فقيهاً ومُحَدِّثاً بارعاً في علم الحديث. وكذلك كان شاعراً وُجْدانياً مُحسناً يُغْرَمُ أحياناً بالصناعة وبالجِناس خاصّة ويتكلّم عن الحب بتعابير الحرب والقتال، ولكن على نَهْجٍ بَدْويٍّ لا في سبيل الإثارة الجنسية. وأكثر شعره في الزهد والتصوّف والحِكَم تغلب عليه العاطفة الدينية وشيءٌ من التشاؤم. على أن شهرته قائمة على القصيدة التي يَحُضّ فيها باديس بن حبّوس وقومَه صِنهاجةَ على الفتك باليهود. وهي قصيدة سهلة التركيب واضحة المعاني مملوءة بالصور المثيرة للنخوة والإباء من طريق المقارنة.

٣ - مختارات من شعره

- قال أبو اسحاق الإلبيري يُحَرِّضُ باديسَ بنَ حبّوسٍ وقومَه صِنْهاجةَ على الفتك باليهود:

ألا قُلْ لِصِنْهاجةِ أجمَعِينْ	بُدُورِ الزمانِ وأُسْدِ العرينْ
مقالةَ ذي مِقَةٍ مُشفِقٍ	يَعُدُّ النصيحةَ زُلْفَى ودينْ[1]:
لقد زلّ سيِّدُكُمْ زلّةً	تقَرُّ بها أعينُ الشامتينْ.
تخيّر كاتِبَهُ كافراً؛	ولو شاءَ كان من المؤمنينْ[2].

---

(١) زلفى: تقرّبا (إلى الله). دين: يأمر بها الدين.

(٢) الكاتب: الوزير.

فعَزَّ اليهودُ به وانْتَخَوْا وتاهوا، وكانوا من الأرذلين.
فكم مُسلِمٍ راغبٍ راهبٍ لأرذلِ قِرْدٍ من المُشركين.
أباديسُ، انت امْرُؤٌ حاذقٌ تُصيبُ بِظنِّك نفسَ اليقين،
فكيف خَفِي عنك ما يَعْبَثُون وفي الأَرض تُضرَب منها القرون[1]؟
وكيف تُحِبُّ فِراخ الزنا وقد بغَّضوك الى العالمين؟
وكيف يَتِمُّ لك المُرْتَقى إذا كنتَ تبني وهم يَهدِمون؟
فلا تَتَّخِذْ منهمُ خادماً، وذَرْهم إلى لَعْنةِ اللاعنين[2].
فقد ضجَّت الأرض من فِسْقِهِمْ وكادت تميد بنا أجمعين.
وإنّي حَلَلْتُ بغَرناطةٍ فكنتُ أراهم بها عابثين،
وقد قسّموها وأعمالَها فمنهم بكلّ مكانٍ لعين.
وهم يَقْبِضون جِباياتِها، وهم يَخْضِمون وهم يَقْضِمون[3].
وهم يَلْبَسون رفيع الكِسا وانتم لأوضعِها لابسون.
وهم أُمناكم على سرّكم، وكيف يكون أميناً خَؤُون؟
ويأكلُ غيرُهُمُ درهماً فيُقْصى، ويُدنَوْنَ إذ يأكلون.
وقد ناهضوكم إلى ربّكم فما يُمنَعون وما يُنكَرون[4].
وهم يذبحون بأسواقنا، وأنتم لإطريفهم آكلون[5].
ورخَّمَ قِردُهُمُ دارَه وأجرى إليها نَميرَ العيون[6].
وصارَتْ حوائجُنا عندَه، ونحن على بابه قائمون.
ويضحَكُ منّا ومن ديننا. فإنّا إلى ربّنا راجعون.
ولو قلتُ في مالِه إنَّه كمالُكَ كنتُ من الصادقين.
فبادرْ إلى ذبحه قُرْبَةً وضحِّ به فهو كَبش سمين.
ولا ترفعِ الضغط عن رَهْطه فقد كنزوا كلَّ عِلْقٍ ثمين[7].

(١) وفي الأرض تضرب منها القرون: (؟).
(٢) الخادم: الكاتب (الوزير).
(٣) الخضم: أكل الشيء الطري. القضم: أكل الشيء اليابس - يأكلون الأخضر واليابس.
(٤) ناهضوكم إلى ربّكم: قاوموكم وحملوكم على ما يغضب ربّكم. ما ينكرون: لا ينكر عليهم أحد ما يفعلون.
(٥) الإطريف: الطريف (بامالة الياء): اللحم الذي به عاهة (كالمرض في الذبيحة والنقص في أعضائها. واليهود لا يأكلون مثل ذلك اللحم).
(٦) رخّم داره: فرشها (بلّطها) بالرخام (البلاط الأبيض الثمين). النمير (الماء) الحلو.
(٧) العلق: الشيء النفيس.

وفرِّقْ عُـراهـم وخذ مـالـهـم، فـأنـت أحقُّ بـمـا يَجْمَعـون.
ولا تـحـسَـبـنْ قـتـلَـهـم غـدْرةً؛ بـل الـغـدرُ فـي تـركـهـم يَعْبَثون.
فـقـد نَـكَـثـوا عـهـدَنـا عـنـدهـم، فـكـيـف نُـلامُ عـلـى الـنـاكـثـيـن؟
وكـيـف تـكـون لـنـا هِـمَّـة ونـحـن خُـمـول وهـم ظـاهـرون؟
ونحن الأذلَّـــــة من بينهم، كأنّـا أسأنـا وهم مُحسِنون.
فـلا تَـرْضَ فـيـنـا بـأفـعـالـهـم فـأنـت رَهـيـنٌ بـمـا يـفـعَـلـون.
وراقـبْ إلاهَـكَ فـي حِـزبـه، فـحزبُ الإلـه هـم الـمُـفـلـحـون!

– في نفح الطيب (٣: ٤٩١): لمّا مَرِضَ الفقيهُ الزاهدُ أبو اسحاقَ ابراهيمُ الإلبيريُّ دَخَلَ عليه الوزيرُ أبو خالدٍ هاشمُ بنُ رجاءٍ فرأى ضِيقَ مَسْكَنِهِ فقال: «لوِ اتّخذتَ غيرَ هذا المسكنَ لكان أولَى بِكَ». فقال (أبو اسحاق)، وهُوَ آخرُ شِعرٍ قاله:

قـالـوا: ألا تَـسْـتـجـيـدُ بَـيْـتـاً تَـعْـجَـبُ مـن حُـسْـنِـه الـبـيـوتْ!
فـقـلـتُ: مـا ذلِـكُـمْ صَـوابـاً؛ عُـشٌّ كـثـيـر لِـمَـنْ يـمـوتْ.
لـولا شِـتـاءٌ ولَـفْـحُ قَـيْـظٍ وخـوفُ لِـصٍّ وحِـفـظُ قـوتْ[1]
ونِـسْـوةٌ يَـبْـتَـغِـيـنَ سِـتْـراً، بَـنَـيْـتُ بُـنْـيـانَ عـنـكـبـوتْ.

– وقال يلوم الشيوخَ المتصابين، وفيها كِناياتٌ بارعةٌ ملموحةٌ:

الـشـيـب نَـبَّـهَ ذا الـنُّـهـى فـتَـنَـبَّـهـا، ونَهَى الجَهولَ فما استفاقَ ولا انْتَهى.
فإلى مَتى أَلْهو وأُخْدَعُ بالمُنى؛ والشيخُ أقبحُ ما يكونُ إذا لَها[2].
ما حُسْنُه إلاّ التُقى، لا أن يُرى صَبًّا بألحاظِ الجآذِرِ والمَها[3]:
أنّى يُقاتِلُ، وهو مَفْلولُ الشَبا كَابِي الجوادِ، إذا اسْتَقَلَّ تأوّها[4]!
مَحَقَ الزمانُ هِلالَه فكأنّما أبْقى له منه على قَدْرِ السُها[5]؛

---

(١) لفحت النار بحرّها (أحرقت). القيظ: الحرّ الشديد.
(٢) لها يلهو (انصرف إلى اللهو).
(٣) الجآذر جمع جؤذر (الغزال الصغير) والمها جمع مهاة (بقرة الوحش: نوع من الغزلان).
(٤) في هذا البيت كناية لو صرّح بها لكانت قبيحة جدًّا. الشبا جمع شباة (حدّ السيف). مفلول = مفلّل: كالّ (لا يقطع). كابي (ساقط على وجهه، لا يستطيع أن يقف ثابتاً) الجواد (الحصان). استقلّ: بدأ سيره، ركب. تأوّه: تحسّر.
(٥) محق نوره (بالبناء للمجهول) ذهب نوره (كما يكون القمر في آخر الشهر). السها: نجم صغير في بنات نعش مجاور لنجم آخر لا يكاد يراه إلاّ من كان بصره حديداً (صحيحاً قويًّا).

فغدا حَسيراً يَشْتَهي أن يُشْتَهى؛ ولَكَمْ جَرى طَلْقَ الجَموحِ كما اشْتَهى[1].
فَقَدَ اللِداتِ، وزادَ غيّاً بَعْدَهم. هَلاّ تَيَقّظ بعدَهم وتَنَبّها[2]!
يا ويحَه! ما بالُه لا يَنْتهي عن غَيِّهِ، والعُمْرُ منه قدِ انتهى؟

- وقال في إقبال الدنيا وإدبارها:

خليليَّ عوجا بي على مَسْقَط اللوى لعلّ رسومَ الدار لم تتغيَّرا[3]
فأسألَ عن ليلٍ تولّى بأُنسِنا وأندُبَ أيّاماً تقضَّتْ وأَعْصرَا.
ليالِيَ إذ كان الزمانُ مسالِماً وإذ كان غصن العيش فَيْنَانَ أخضرا[4]،
وإذ كنتُ أُسقَى الراحَ من كفّ أغيدٍ يناولُنيها رائحاً ومبكِّراً[5].
أُعانق منه الغصنَ يهتزُّ ناعماً وألثِمُ منه البَدر يَطْلُعُ مُقمِرا.
وقد ضربَتْ أيدي الأَمان قِبابَها علينا، وكفَّ الدهر عنّا وأَقْصَرَا[6].
فما شئتَ من لهوٍ وما شئتَ من دَدٍ ومن مبسم يُجنيك عذباً مؤَشَّراً[7].
وما شئتَ من عُودٍ يغنّيك مُفصِحاً (سما لك شوقٌ بعد ما كان أقصرا)[8].
ولكنَّها الدنيا تُخادعُ أهلَها تَغُرُّ بصفوٍ وهْيَ تَطْوي تَكَدُّرا.

---

(١) في هذا البيت كناية لو صرّح بها لكانت أيضاً قبيحة جدّاً. الحسير: الضعيف البصر. وحسر البعير: ضعف وتعب. وحسر الرجل: تلهّف (أراد شيئاً وعجز عنه)، أعيا: تعب فانقطع (عن المشي، أو العمل أو القيام). يشتهى (يريد، يرغب) أن يشتهى (بالبناء للمجهول): يعامل معاملة الأنثى. طلق: غير مقيّد. الجموح: استبداد الفرس براكبه لنشاطه وقوّته.

(٢) اللدة (بكسر ففتح): الترب (بكسر التاء) من كان في مثل سنّك. واللدة والترب تقالان للذكور وللإناث.

(٣) عاج: مال. مسقط اللوى (ورد في معلّقة امرىء القيس «سقط اللوى»). لم تتغيّرا = لم تتغيّرن (قلبت نون التوكيد الخفيفة ألفاً).

(٤) فينان: ممتدّ (الفينان ذو الشعر الحسن الطويل).

(٥) الأغيد الناعم اللّين (الجميل). رائحاً (في الرواح: المساء).

(٦) ضربت أيدي الأمان علينا قبابها: حمتنا، جعلتنا آمنين.

(٧) الدد: اللهو. مبسم (فم) يجنيك (يعطيك، يقدّم لك) عذباً (حلواً، أي ريقاً حلواً) مؤشّراً (مخطّطاً) حينما تكون الأسنان لصغير في السنّ وتكون صحيحة ونظيفة يبدو عليها تأشير (أي خطوط).

(٨) العجز (بفتح فضمّ) لامرىء القيس - تجدّد في نفسه شوق (الى اللهو) بعد أن كان قد ترك (اللهو) مدة.

لقد أوردتني بعد ذلك كلّه — مواردَ ما أُلفيْتُ عنهنَّ مصدرا[١].
وكم كابدتْ نفسي لها من مُلمَّة — وكم باتَ طرفي من أساها مسهَّرا[٢]؟
خليليَّ ما بالي على صدق عَزمتي — أرى من زماني وَنيةً وتعذُّرا؟
ووالله مــا أدري لأيّ جريمــةٍ — تَجَنَّى ولا عن أي ذنب تغيّرا؟
ولم أك عن كَسْبِ المكارمِ عاجزاً — ولا كنتُ في نَيْلٍ أُنيل مقصِّراً[٣].
لئن ساء تمزيقُ الزمان لدولتي — لقد ردَّ عن جهلٍ كثيرٍ وبصَّرا[٤]
وأيقــظَ من نوم الغَرارة نائماً — وكسَّب علماً بالزمان وبالورى[٥]

- وقال في حال الدنيا:

تَمُرُّ لِداتي واحداً بعد واحدٍ — وأعلمُ أنّي بعدَهم غيرُ خالدِ[٦].
وأَحمِلُ موتاهم وأشْهَــدُ دَفْنَهم — كأنّي بعيدٌ عنهمُ غيرُ شاهد.
فها أنا في علمي بهم وجهالتي — كمستيقِظٍ يَرْنو بمقلةِ راقد[٧].

- وقال، وفيه شيء من الفخر:

ذروني أَجُبْ شرق البلاد وغربَها — لأَشْفِيَ نفسي أو أموتَ بدائي[٨].
فلستُ ككلب السوءِ يُرضيه مرْبَضٌ — وعَظْمٌ، ولكنّي عُقــاب سماء،
تحوم لكيما يُدْرِكُ الخصبَ حَوْمُها — أَمــامَ أَمــامٍ أو وراءَ وراءِ.
وكنتُ إذا ما بلدةٌ لي تنكَّرَتْ — شدَدتُ إلى أُخرى مطِيَّ إبائي[٩]،

---

(١) المورد: مكان شرب الماء. المصدر: الرجوع عن الماء (بعد الشرب أو بعد للتزوّد بالماء).
(٢) الملمّة: النازلة، المصيبة. طرفي: بصري (عيني). الأسى: الحزن.
(٣) النيل (العطا)، أنيل (اعطي أنا).
(٤) كما أن ذهاب الملك عنّي قد ساءني من جانب فإنّه من الجانب الآخر قد علّمني أن أتّعظ بأحداثه.
(٥) الغرارة: الغفلة وحداثة السنّ. الورى: مجموع البشر.
(٦) تمرّ (تموت).
(٧) يرنو: ينظر يتطلّع. مستيقظ يرنو بمقلة (عين) راقد (نائم): يرى بعينيه من غير أن يعرف ما يرى.
(٨) ذر: دع. جاب: طاف.
(٩) المطيّ: ما يركبه الإنسان من الحيوان للانتقال من مكان إلى آخر. الإباء: الترفّع عن الأمور الدنية.

وسرتُ ولا أَلْوي علـى متعـذِّر وصممت لا أُصغي إلى النُصَحـاء[1]،
كشمسٍ تبـدّتْ للعيون بمشرق صباحاً، وفي غربٍ أصيلَ مسكِ.

٤ - ديوان أبي اسحاق الإلبيري (تحقيق ايميليو غرسيه غومس)، مدريد، غرناطة ١٩٤٤ م، الطبعة الثانية ١٩٥١ - ١٩٦٥؟

** بغية الملتمس ٢١٠، نفح الطيب ٣: ٤٩١، ٤: ٨٦، ١١٢ - ١١٣، ٣٢٢، ٣٤٥ - ٣٤٦؛ دائرة المعارف الإسلامية ١: ١٣٠؛ بروكلمن، الملحق ١: ٤٧٩ - ٤٨٠؛ نيكل ١٩٧ - ٢٠٠، مختارات نيكل ١٣٨ - ١٤٦؛ مم‌ع‌ع ٤٩: ١، ص ٢١ - ٣٣؛ الأعلام للزركلي (١٩٧٩ م). ١: ٧٣ - ٧٤.

ابن مُقانا

١ - هو أبو زيدٍ عبدُ الرحمنِ بنُ مُقانا القَبْذاقيُّ - نِسبةً إلى قرية القَبذاق من ساحل شِنْتَرَةَ (الذخيرة ٢: ٧٨٧) - الأُشْبوني البَطَلْيَوْسيّ من سكّان بَطَلْيَوْسَ، ويبدو أنّ أصله من القبذاق في غربيّ الأندلس. بدأ ابن مُقانا حياته بالتكسّبِ بالشعر: مدح المُعْتَدَّ بالله المروانيَّ آخِرَ خلفاءِ قُرطبةَ (٤٢٤ - ٤٢٨ هـ) ومُنذِرَ بنَ يحيى التُجيبيَّ صاحبَ سَرَقُسْطَةَ (ت ٤٣٠ هـ) ومُجاهداً العامريَّ (ت ٤٣٦ هـ) وإدريسَ بن يحيى صاحبَ مالَقَةَ الملقّبَ بالعالي بالله، وقد تولّى الإمارة مرّتين من سَنَةِ ٤٣٤ إلى سَنَةِ ٤٣٨ ثمّ من سنة ٤٤٥ إلى سنة ٤٤٦. وارتفعت مكانة ابن مقانا فتولّى القضاء في بطليوس (راجع الحلة السيراء ٢: ٩٩).

وبلغَ ابنُ مَقانا أشُدَّه نحوَ سَنَةِ ٤٣٨ (١٠٤٦ م). وفي أواخرِ حياتِه عاد إلى موطنه في القبذاق ثمّ كانت وفاتُه في مطلعِ النِصف الثاني من القرن الخامسِ (في النِصف الثاني من القرن الحادي عَشَرَ للميلاد)، في الأغلَبِ.

٢ - ابن مَقانا أديبٌ وشاعرٌ مُحسِنٌ مُجيد، وقدِ اشتهر بقصيدتِهِ النونيّة التي مدَحَ بها ادريسَ بنَ يحيى، وَهِيَ قصيدةٌ حَسَنة مُشْرِقة فصيحةُ الألفاظ صحيحةُ التراكيب

---

(١) لا ألوي (لا ألتفت، لا أهتمّ بـ). المتعذّر: الذي يتنصّل من الذنب (المقصود: الذي يلوم). صمم: قصد، تقدّم، ثابر.

عَذْبَةُ التِلاوة يكثُرُ فيها الاقتباس من القُرآن الكريم. وفنونُ شِعرِه المديحُ والعتاب والوصف. وكان ابن مَقانا في أوّلِ حياتهِ الأدبية أجودَ شعراً منه بعدَ كُهولته.

٣ - مختارات من شعره

- قال ابن مقانا يمدح العاليَ بالله إدريسَ بنَ يحيى بن حمود (٤٣٤ - ٤٣٨ هـ).

أَلِبَرقٍ لاح لـي مـن أنْـدَريـنْ ... ذَرَفَـتْ عيناك بالماء المَعينْ؟[١]

لَـعِبَـتْ أسيـافُـه عـاريـةً ... كَـمخـاريـقَ بأيْدي لاعـبيـنْ[٢].

وأناجي في الدُجـى عـاذِلـتي: ... ويْـكِ! لا أسمعُ قولَ العاذلين[٣].

عَـيّـرتْـنـي بسَقام وضَـنـىً؛ ... إنّ هـذين لَزَيْنُ العاشقـين[٤].

اسْقِنيها مُـزّةً مَشْمـولـةً ... لَبِثَتْ في دَنِّها بِضْعَ سِنين[٥]،

مَعَ فِتيـانٍ كِـرامٍ نُجُـبٍ ... يَتَهادَوْنَ رياحينَ المُجون[٦].

وسَيُسْقَوْنَ إذا مـا شَرِبـوا ... بأباريـقَ وكـأسٍ مِنْ مَعين[٧]،

ومصابيـحُ الدُجـى قد طُفِئَتْ ... في بقايا من سوادِ الليل جُون[٨].

---

(١) ورد هذا البيت مكسوراً (سقطت منه «لي») في المغرب (١: ٤١٣) وفي نفح الطيب (١: ٤٣٣). ويقتضي أن تجعل «عيناك» عيناي، فإنّه أصح في المعنى وأحسن في مخاطبة الملوك، يدلّنا على ذلك استخدام ضمير المتكلّم في الأبيات التالية للمطلع: أناجي، عيّرتني الخ. أندرين قرية أو قرى قيل فيها إنّها اشتهرت بالخمر. راجع في صيغتها اللغوية والنحوية (القاموس ٢: ١٤٠)؛ المعين: الظاهر، المرئي (ويكون عادة كثيراً). - في الذخيرة (٢: ٧٩١): لائح (وهو صحيح في المعنى والوزن).

(٢) أسيافه (أسياف البرق): الأذرع التي ترى بين الغيوم حينما يلمع البرق. المخراق: لفافة من النسيج شبه السوط يتضارب بها الصبيان في أثناء اللعب. هذا اقتباس من قول عمرو بن كلثوم:

كأنّ سيوفنا منّا ومنهم ... مخاريق بأيدي لاعبينا.

(٣) العاذلة: التي تلوم المحبّين. ويك: ويل لك.

(٤) الضنى: الهزال (بالضمّ) الشديد.

(٥) مشمولة (هبّت عليها ريح الشمال - بفتح الشين): باردة. الدنّ: إناء الخمر.

(٦) المجون: التصريح في الغزل (؟).

(٧) معين (غير معين في مطلع القصيدة). خمر جارية من منبع على وجه الأرض كأنهار الماء. الشطر تضمين من القرآن الكريم (٥٦: ١٨ سورة الواقعة).

(٨) إنّ عدداً من النجوم قد اختفى وبقي من النجوم عدد آخر مفرّق في البقع المظلمة من السماء.

وكأنّ الظلَّ مِسْكٌ في الثرى، وكأنّ الطَلَّ دُرٌّ في الغُصون[1]،
والندى يقطُرُ من نَرْجِسِه كدُموعٍ أسْبَلَتْهُنّ الجُفون.
والثُريّا قد هَوَتْ من أُفْقِها كقضيبٍ زاهرٍ من ياسَمين.
وكأنّ الشمسَ لمّا أشرقتْ - فانْثَنَتْ عنها عُيون الناظرين -
وجهُ إدريسَ بنِ يحيى بنِ عَلِيِّ بنِ حَمّودٍ أميرِ المؤمنين.
مَلِكٌ ذو هَيْبةٍ لكنّه خاشعٌ لله ربِّ العالمين.
خُطَّ بالمِسْكِ على أبوابه: ادْخُلوها بَسلامٍ آمنين![2]
فإذا ما رُفِعَتْ راياتُه خَفَقَتْ بينَ جَناحَيْ جِبْرئينْ[3].
وإذا أشْكَلَ خَطْبٌ مُعْضِلٌ صَدَعَ الشكَّ بِمصباحِ اليقين[4].
فبيُسْراه يَسارُ المُعْسرينْ، وبيُمْناه لِواءُ السابقين[5].
يا بَني أحمدَ - يا خيرَ الورى - لأبيكمْ كان وَفْدُ المُسلمين[6].
نَزَلَ الوحيُ عليه، فاحْتَبى في الدُجى فوقهم الروحُ الأمين[7].
خُلِقوا من ماءِ عَدْلٍ وتُقىً وجميعُ الناسِ من ماء وطين.
انظُرونا نَقْتَبِسْ من نورِكُم، إنّه من نور ربّ العالمين[8].

---

(١) الظلّ (ظلام الليل) يبدو على الأرض كأنّه مسك (أسود اللون) مفروش. الطلّ: نقط الماء التي جمدت (بفعل برد الليل) على الأغصان. درّ: لؤلؤ.

(٢) «ادخلوها بسلام آمنين» تضمين من القرآن الكريم (١٥: ٤٦، سورة الحجر - بكسر الحاء).

(٣) جبرئين وجبرئيل وجبريل: الروح القدس.

(٤) أشكل (أبهم، غمض) خطب (حادث مفجع، مصيبة) معضل (لا علاج له) صدع (شقّ) اليقين (العقل!).

(٥) اليسار: الغنى، الثروة. المعسر: الذي لا يجد ما ينفق. السابقون: الذين يتقدّمون غيرهم في أعمال البر (في الإيمان، في التقوى، في الإحسان، الخ).

(٦) أحمد من أسماء رسول الله. الورى: مجموع البشر. - الشاعر يرفع نسب الممدوح إلى رسول الله.

(٧) الروح الأمين = الروح القدس: جبريل. احتبى: جلس أرضاً وضمّ ركبتيه إلى صدره بشملة أو بيديه (وتلك جلسة الأشراف والرؤساء). - احتبى فوقهم... ليس لهم رئيس من البشر، رئيسهم الروح الأمين (جعلهم الله ملوكاً على البشر).

(٨) انظرونا: انظروا الينا (لأنّ الشاعر كان ينشد من وراء ستار، والممدوح لم يكن يراه). نقتبس: نأخذ قبساً (قطعة من خشب مشعلة من قطعة أخرى أكبر منها): نستمدّ منكم نوراً أو علماً أو قوة... «انظرونا نقتبس من نوركم» اقتباس من القرآن الكريم (٥٧: ١٣، سورة الحديد).

٤ - ** الذخيرة ٢ : ٧٨٦ - ٧٩٦؛ جذوة المقتبس ٢٦٠ (الدار المصرية) ٢٧٩ (رقم ٦١٨)؛ بغية الملتمس ٣٥٨ - ٣٥٩ (رقم ١٠٤٤)؛ المغرب ١ : ٤١٣؛ نفح الطيب ١ : ٢١٤، ٤٣٣ - ٤٣٥، ٣:٢٦٤؛ نيكل ١٠٥.

المظفّر بن الأفطس

١ - هو أبو بكرٍ محمدُ بنُ عبدِ الله بنِ محمّدِ بنِ مَسْلَمَة (وقيل: سلمة) التُجيبيُّ الأندلسيُّ، المعروفُ بالمُظَفَّر بنِ الأفطس ،لعلَ أصلَه من البربر وإن كانت نسبتُه الرسميةُ إلى قبيلةِ تُجِيبَ العربية. جاء المظفَّر هذا إلى عرش بَطَلْيَوْسَ بعدَ وفاة أبيه المنصورِ عبدِ الله بنِ محمدٍ، في جُمادى الثانية من سَنَةِ ٤٣٧ (أواخر ١٠٤٥ م). ولم تكنْ أيامهُ أيامَ هُدوءٍ وسِلْمٍ فقد كَثرتْ حروبُه مع المعتمدِ بنِ عبادٍ (ت ٤٨٨) ويَحيى المأمونِ بنِ ذي النون صاحبِ طُليطلة (٤٢٩ - ٤٦٧ هـ) ومَعَ الجَلالقة الذين استَوْلَوْا، سَنَةَ ٤٥٦ (١٠٦٤ م) على قَلَمَرِيَةَ (في البُرتغال اليوم).

وكانتْ وفاةُ المُظفَّر سَنَةَ ٤٦٠ (١٠٦٧ - ١٠٦٨ م).

٢ - كان المظفرُ بنُ الأفطس جَمَّ المعرفةِ جَمّاعةً للكتُب عارفاً بالتاريخ وبالأدب أديباً شاعراً ناثراً، مُلِمًّا بعددٍ من العلوم. وكذلك كان ناقداً يُفَضّل الشعرَ المتين إذا كان نبيلَ المعنى. وكان كريمَ الخُلُق لا يشرَبُ الخمرَ ولا يُحِبّ وَصْفها في الشعر، فقد قَطَعَ لسان شاعرِه القَلَمَنْدَرِ لأنّه ذَكَرَ الخمرَ بخيرٍ ودافع عن شُرْبها. ثم هو مُصَنّفٌ له تفسيرُ القرآنِ الكريم ثم له كتاب التذكرة المعروفة باسم (الكتاب) «المُظفريّ»، نِسبَةً إليه. والتذكرة هذه مؤلَّفةٌ على نَمَطِ «عيون الأخبار» لابنِ قُتيبةَ (المشرقي) وفيها أدبٌ وشِعر وتاريخٌ وسوى ذلك، وهو كتاب كبير قيل خمسون مجلدة (نفح ١ :٤٤٢، ٣ : ١٨١، ٤ : ٤٤٦) وقيل «نحو مائة مجلدة» (نفح ٣ : ١٩٤).

٣ - مختارات من آثاره

- قال المظفرُ بنُ الأفطس يوماً (نفح الطيب ٤ : ٤٦٦):

«واللهِ، ما يَمْنَعُني من إظهار الشِعر إلا كوني لا أقولُ مثلَ قولِ أبي العشائرِ بنِ حَمْدانٍ... وقولِ أبي فِراسٍ ابنِ عَمّه... (ولكنْ) أينَ هذا من قولي:

أنِفتُ من المُدامِ لأنّ عقلي ... أعزُّ عليَّ من أُنسِ المُدامِ[1].
ولم أرْتَحْ إلى رَوْضٍ وزهرٍ ... ولكن للحمائِلِ والحُسام[2].
إذا لم أمْلِكِ الشهَواتِ قَهْراً، ... فَلِمْ أبْغي الشُفوفَ عن الأنام[3].

– ومن شعره (نفح الطيب ٤ : ٤٦٧) في النسيب:

يا لَحْظَهُ، زِدْ فُتوراً ... تَزِدْ على اقْتِدارا.
فاللَّحْظُ كالسيفِ أمضا ... هُ ما يَرِقُّ غِرارا[4].

٤ – ** التكملة ١٢٨؛ المطرب ٢١ – ٣٣؛ المغرب ١ : ٣٦٤ – ٣٦٥؛ الوافي بالوفيات ٣ : ٣٢٣؛ الذخيرة راجع ٢ : ٣٣ – ٣٦، ٦٤٠ – ٦٤٦ وأماكن أخرى (راجع فهرست الجزءين الأول والثاني)؛ البيان المغرب ٣ : ٢٢٠، ٢٣٦؛ راجع المغرب ١ : ٢٣، ٣٦٤، ٣٦٩، ٣٧٤، ٣٧٧؛ نفح الطيب ١ : ٤٤٢، ٣ : ١٨١، ١٩٤، ٣٨٠، ٣٩٨، ٤ : ٤٦٦؛ الاعلام للزركلي ٧ : ١٠٢ – ١٠٣ (٦ : ٢٢٨).

صاعد الطليطلي

١ – هو أبو القاسم صاعدُ بنُ أحمدَ بنِ عبدِ الرحمنِ بنِ محمّدِ بنِ صاعدٍ التَغْلَبيّ الأندلسي القُرطبي الطُليطليّ، أصلُه من قُرطبةَ ومولدُه في المَريّة، سَنَةَ ٤٢٠ (١٠٢٩ م). وقد سكنَ قُرطبةَ. ورَوَى صاعدٌ عنِ ابنِ حزمٍ الكبيرِ (ت ٤٥٦ هـ) وعن الفتحِ ابنِ قاسمٍ وأبي الوليد الوقّشي القاضي (؟) وغيرِهم.

وَوَلِيَ صاعدٌ القضاءَ في طُليطلَة استقضاهُ فيها المأمونُ يحيى بنُ ذي النون، فَبَقِيَ في القضاء إلى وَفاتِه في رابعِ شوّالٍ من سَنَةِ ٤٦٢ (٦/٧/١٠٧٠ م).

---

(١) المدام: الخمر.

(٢) الحمالة (بالفتح): الدية (بكسر ففتح بلا تشديد) يدفعها قوم عن آخرين (يقصد انّه كريم). الحسام: السيف (يقصد الشجاعة في الحرب).

(٣) الشفوف (ظهور الشيء من وراء ستر رقيق). الأنام: الناس – يقصد: إذا لم استطع بإرادتي أن ابتعد عن العيوب فأنا لا أحاول التستر عن الناس (أنا ظاهر دائماً للناس لأنّني لست على شيء من الشهوات الرديئة).

(٤) الغرار: حدّ السيف.

٢ - كان صاعدٌ الطُليطليُّ من أهلِ الذكاءِ والمعرفة وكان مؤرّخاً بَحَّاثة وفقيهاً. وكان لصاعدٍ عددٌ من الكتب: جوامعُ أخبارِ الأمم من العرب والعجم - صِوان الحِكمة في طَبَقات الحكماء - مقالاتُ أهلِ المِلَل والنِحَل - إصلاح حركاتِ النجوم - تاريخُ الأندلس - تاريخ الإسلام (ويبدو أن هذه كلَّها قد ضاعتْ). وقد بَقِيَ لنا كتابُه المُوجَزُ « طبقاتُ الأمم ». دَرَسَ صاعدٌ في هذا الكتاب أجناسَ البشر وجعلَها طَبَقَتَيْنِ: طبقةً عُنِيَتْ بالعلوم وصدرَ عنها معارفُ هي الهِند والفُرس والكَلْدان والعِبران واليونان (القدماء) والروم (البيزنطيّون) وأهلُ مِصْرَ والعرب. ثمّ هنالك طَبَقةٌ لم تُعْنَ بالعلوم ولا صدرَ عنها شيء مفيدٌ من المعارف. من أُمَمِ هذه الطَبَقةِ الصينُ والصقالبة والبربرُ والسودان وغيرُهم.

٣ - مختارات من آثاره

- قال صاعد الطليطلي في « طبقات الأمم »:

اعلمْ أن جميع الناس في مشارق الأرض ومغاربها وجنوبها وشمالها، وان كانوا واحداً، يتميّزون بثلاثة أشياء: بالأخلاق والصور واللغات (ص ٥).

ووجدنا هذه الأمم، على كثرة فِرَقِهم وتخالُفِ مذاهبهم، طبقتين: فطبقة عُنيت بالعلم فظهرت منها ضروب العلوم وصدرت عنها فنون المعارف؛ وطبقة لم تُعْنَ بالعلم عناية تستحق بها اسمه... وأما الطبقة التي عنيت بالعلوم فثماني أمم: الهند والفرس والكلدانيون والعبرانيون واليونانيون والروم وأهل المغرب والعرب (ص ٧).

وأما الطبقة التي عُنيت بالعلوم فهم صفوة الله من خَلْقِه ونخبته من عباده لأنهم صرَفوا عنايتهم إلى نيل فضائل النفس الناطقة الصانعة لنوع الإنسان والمقوّمة لطبعه (ثم) زهدوا فيما رغب فيه الصين والترك ومن نَزَعَ مَنْزِعَهم من التنافس في أخلاق النفس الغضبية والتفاخر بالقوى البهيمية، إذ علموا ان البهائم تَشْرَكُهم فيها وتفضلهم في كثير منها (ص ١٠).

.... احمدُ بنُ إبراهيمَ بنِ أبي خالدِ القيروانيّ المعروفُ بابنِ الجزّار كان حافظاً للطِب دارساً للكتب جامعاً لتواليف الأوائل حَسَنَ الفَهْمِ لها. وله مصنَّفاتٌ حسنةٌ في الطِبّ

وغيره فمن أشهرها كُنَّاشُه في علم الأمراض المعروف بزاد المسافر وكتابه في الأدوية المفردة المعروف بالاعتماد وكتابه في الأدوية المركبة المعروف بالبُغية ورسائله في النفس وفي ذكر اختلاف الأوائل فيها. وكان له أيضاً عناية بالتاريخ أدّت الى أن يؤلّفَ فيه مختصراً حسنا سماه «كتاب التعريف بصحيح التاريخ».وكان مع هذا جميل المذهب فاضل السيرة صائناً لنفسه منقبضاً عن الملوك ذا وفرةٍ وثروة. (ص ٦١ - ٧٢).

.... وابو عثمانَ سعيدُ بنُ فتحونٍ بن مكرم المعروف بالحمار السَرَقَسْطيّ كان متحقّقاً إماماً في علم النحو واللغة (وبعلم الهندسة والمنطق والموسيقى متصرّفاً في سائر علوم الفلسفة). وله تأليف في الموسيقى ورسالة في تعديل العلوم وكيف ١ زجت إلى الوجود من انقسام الجوهر والعرض. ونالته في ايام المنصور بن ابي عامر محنة شديدة مشهورة السبب أدّته بعد انطلاقه من السجن الى الخروج عن الاندلس فتوفيّ في جزيرة صِقلّية (ص ٦٨).

٤ - طبقات الأمم (نشره... الأب لويس شيخو اليسوعي)، بيروت (المطبعة الكاثوليكية) ١٩١٢ م؛ مصر بلا تاريخ.

★ ★ الصلة ٢٣٢ (رقم ٥٣٩)؛ بغية الملتمس ٣١١ (رقم ٨٥٢)؛ طبقات الأطباء ١: ٣٦، ٣٧، ٤٣، ٥٧ - ٥٨؛ بروكلمن ١: ٤١٩، الملحق ١: ٥٨٥ - ٥٨٦؛ الأعلام للزركلي ٣: ٢٧١ (١٨٦)؛ بالنثيا ٢٣٩ - ٢٤٠.

ابن عبد البرّ

١ - هُوَ أبو عُمَرَ يُوسُفُ بنُ عبدِ البَرِّ بنِ محمّدِ بنِ عبدِ البَرِّ بن عاصمٍ النَمِريُّ القُرطبي، وُلِدَ في قرطبة، في ٢٤ ربيعِ الآخرِ من سنة ٣٦٨ (٢٩/١١/٩٧٨).

وفي قرطبة رَوَى ابنُ عبدِ البرّ الحديثَ عن نَفَرٍ من مشاهيرِ العلماء منهم أبو عُمَرَ الباجيُّ وأبو عُمَرَ الطَلَمَنْكِيُّ وأبو الوليد بن الفَرَضيّ (ت ٤٠٣ هـ) وقد لَزِمَ ابنَ الفَرَضي وأخذَ عنه كثيراً من علم الحديث وعلم الأدب.

وسَكَنَ ابنُ عبد البرّ اشبيلية وتفقّه فيها على الفقيه أبي عُمَرَ أحمدَ بن عبدِ الملك بن

هاشمٍ الاشبيلي. ولم تَعرِفْ اشبيليةُ قَدْرَ ابنِ عبدِ البرّ، كما لم تَعْرِفه قُرْطبةُ من قبلُ، فانتقـــل إلى غَربي الأندلس فولاّه المُظفّرُ بنُ الافطس صاحـــبُ بَطَلْيَوْسَ (٤٣٧ - ٤٦٠ هـ) القضاءَ في الإشبونةِ ثمّ في شَنْتَرِينَ. ثمّ إنّه تَحوّل إلى شَرقي الأندلس وسكن دانِيَةَ وتنقّل بينها وبين بَلَنْسِيَةَ وشاطبةَ. وكان مَرّةً في زِيارةٍ لشاطبة فأدركَتْهُ فيها الوَفاةُ، في آخرِ ربيعٍ الآخِرِ من سَنَةِ ٤٦٣ (١٠٧١/٢/٣ م).

٢ - كانَ أبو عُمَرَ يُوسُفُ بن عبد البرّ أحفظَ أهلِ الأندلس للحديث، كما كان فقيهاً على المذهب الظاهري ثمّ انتقل عنه إلى مذهب مالكٍ. وكذلك كان عالماً بالسِيَرِ والأنْسابِ. وكان أيضاً شاعراً كثيرَ الأنَفَةِ في شعرِه، ولكّن شِعْرَه يَنوءُ برَصانةِ العُلَماء.

وابنُ عبدِ البرّ مؤلّفٌ خِصْبٌ له من الكتب: الاستيعاب في معرفة الصِحاب (جمع فيه أسماء أصحابِ رسول الله) - التمهيدُ لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (رتّبه على أسماء شيوخ الإمام مالكٍ وعلى حروف المُعْجَم) - الاستذكار في شرح مذاهب علماء الامصار (في ما تضمّن الموطأ من معاني الرأي والآثار، شرح فيه ابن عبد البرّ الموطأ على وجهه ونَسْقِ أبوابه) - الدُّرر في اختصار المغازي والسير - الإنباه في ذكر أصول القبائـل والرُواة عن رسول الله - القصد الأَمَم في التعريـف بأصول العرب والعجم - التقصّي في الحديث النبويّ - جامع بيانَ العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله - الكافي في الفقه - الإنصاف في ما بين العلماء من الخلاف - العقل والعقلاء وما جاء في أوصافهم - بهجة المَجالس وأُنس المُجالس مما يجري في المذاكرات من غُرر الابيات ونوادر الحكايات (من الأمثال والأشعار والحكايات المتعلقة بمكارم الأخلاق والحلم والصداقة والعداوة والوعظ الخ).

٣ - مختارات من آثاره

- توجّه ابنُ عبدِ البرّ من دانِيَةَ قاصداً المُعْتَضِدَ بنَ عبّادٍ في أشبيلية وقال له:

قَصَـدتُ إليـك من شَرْقٍ لغَرْبِ ‍ ‍ ‍ ‍ لِتُبْصِرَ مُقْلتي ما حَلّ سَمْعي[1].

(١) مقلتي (فاعل للفعل « تبصر »)، ما (اسم موصول، مفعول به).

وتَعْطِفُكَ المكارِمُ نحوَ أصْلٍ ... دعاكُمْ راغباً في خيرِ فَرْعِ
فإن جُدتُّم به من بعدِ عَفْوٍ ... فليس الفضلُ عِنْدَكُمُ بِبِدْعِ[1]!

- وقال يفتخر بعلومه:

إذا فاخرتَ فافخَرْ بالعلوم ... ودعْ ما كان من عَظْمٍ رميمِ[2].
فكم أمسيتُ مُطَّرَحاً بَجْهلٍ، ... وعلمي حلَّ بي بَيْنَ النجوم.
وكم أقبلت مُتَّئِداً مُهاباً ... فقام إليّ من ملك عظيم[3].
وركْبٍ سار في شرق وغرب ... بذِكْري مِثْلَ عَرْفٍ في نسيم[4].

- وقال في الشكوى من الناس:

تنكَّر مَن كنَّا نُسَرُّ بقربه ... وصار زُعافاً بعدما كان سَلْسَلا[5].
وحُقَّ لجارٍ لم يوافقْهُ جارُه ... ولا لاءمتْه الدارُ أنْ يتحوَّلا.
بُلِيْتُ بحمصٍ، والمُقام ببلدة ... طويلاً لَعَمْري مُخْلقٌ يُورثُ البِلا[6]
إذا هان حرّ عند قوم أتاهمُ، ... ولم ين عنهم كان أعمى وأجهلا[7].
ولم تُضْرَبِ الأَمثالُ إلا بعالم ... وما عُوتب الإنسان إلاّ ليَعْقِلا.

- ومن مقدمة كتاب « الاستذكار »:

اما بعدُ، فإنّك سألتني - رَحِمَكَ اللهُ - عن معنى العلم وفضل طَلَبه وحَمْدِ السعْي

---

(١) بدع: مستغرب.
(٢) العظم الرميم: الذي تفتّت من القدم (يقصد: لا تفتخر بنسبك بل بعلمك).
(٣) متّئدا: على مهل. مهابا (يقصد: مَهيبا: ذا هيبة = اجلال واحترام مع شيء من الخوف). من ملك عظيم: كم من ملك عظيم قام نحوي يستقبلني احتراماً لي.
(٤) الركب: الجماعة يركبون الخيل (أو الإبل) ويسيرون أو يسافرون معاً. العرف: الرائحة الطيّبة.
(٥) الزعاف: السم الشديد. السلسل: الماء العذب.
(٦) بُلي بالبناء للمجهول: جرب، امتحن. حمص: اشبيلية. أخلق الثوب: صيَّره بالياً. البلا (كذا بالأصل) البلاء، ولكن المقصود: البلى (بكسر اللام): الرثاثة وذهاب الجدة.
(٧) ونى يني. تعب. لعلها. لم ينأ: لم يبتعد. أعمى: المقصود أشدّ عمى: إذا اتفق ان جاء رجل حر إلى قوم فهان عندهم ثم لم يرتحل عنهم فإنه اعمى جاهل.

فيه والعِناية به، وعن تثبيت الحِجاج [١] بالعِلم وتبيين فساد القول في دين الله بغير فَهْم وتحريم الحُكم بغير حُجّة، وما الذي أُجيز من الاحتجاج والجدل وما الذي كُرِهَ منه، وما الذي ذُمّ من الرأي[٢] وما حُمِدَ منه، وما يجوز من التقليد[٣] وما حُرِّم منه.

ورغبتَ أن أُقدّم لك قبل هذا البابِ من آداب التعلم ما يلزم العالِمَ والمتعلّمَ التخلّقُ به والمواظبةُ عليه، وكيف وجهُ الطلب وما حُمِدَ ومُدح فيه مِنَ الاجتهاد والنَصَب[٤] إلى سائر انواع آداب التعلم والتعليم وفضلُ ذلك وتلخيصه باباً باباً مما رُوِيَ عن سَلَفِ هذه الأمة - رضي الله عنهم أجمعين - لِتتَّبعَ هَدْيَهم[٥] وتسلُكَ سبيلهم وتَعْرِفَ ما اعتمدوا عليه من ذلك مجتمعينَ أو مختلفين في المعنى منه. فأجَبْتُك إلى ما رَغِبْتَ وسارعتُ فيما طلبتَ رَجاءَ عظيم الثَّواب وطمعاً في الزُلفى يوم المآب[٦]، ولِما أخذه اللهُ عزّ وجلَّ على المسؤول العالِم بما سُئل عنه[٧] من بيان ما طُلب منه وتَرْك الكتْمان لِما عَلِمَهُ. قالَ اللهُ عزّ وجلَّ : «وإذْ أخَذَ اللهُ مِيثاقَ الذين أُوتوا الكتاب لَتُبَيِّنُنَّهُ للناس ولا تكتُمونه». وقال ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عِلْماً عَلِمَهُ فكتَمَهُ جاء يومَ القِيامة مُلْجَماً بِلِجامٍ من نارٍ»....

- ومن مقدمة كتاب «الانتقاء»:

.... أما بعدُ، فإن طائفةً ممّن عُنِيَ بطلب العِلمِ وحملِهِ، وعَلِمَ - بما علّمه الله - عظيمَ بركتِهِ وفضلِه سألوني، مجتمعين ومتفرّقين، أنْ أذكرَ لهم من أخبار الأئمّة الثلاثة الذين طار ذِكرُهم في آفاق الإسلام لِما انتشر عنهم من عِلْمِ الحلال والحرام، وهُم: ابو عبد الله مالكُ بن أنَسٍ الأصبحيّ المدَنيّ وابو عبد الله محمدُ بنُ إدريسَ

---

(١) الحِجاج: نصر القول بالحجة (والجدل).

(٢) الرأي: الحكم في قضايا الفقه حكماً شخصياً.

(٣) التقليد: أن يتبع إنسان إنساناً آخر في آرائه.

(٤) النصب: التعب، بذل جهد كبير.

(٥) الهدي (بالفتح) هو الهدى (بالضم).

(٦) يوم المآب (الرجوع): يوم القيامة.

(٧) إن الله تعالى إذا أنعم على إنسان بعلم أوجب عليه أن ينفع الناس بذلك العلم.

الشافعيّ المكّيّ وابو حَنيفةَ النُعمانُ بنُ ثابتٍ الكوفيّ، عُيوناً وفِقَراً[1] يستدلّون بها على مَوْضِعهم من الإمامة في الدِيانة، و (أن) يكون ذلك مختصراً ليَسْهُلَ حِفظُه ومعرفته والوقوفُ عليه والمذاكرة بهِ من ثناء العلماء بعدَهم عليهم وتفضيلهِم لهم وإقرارِهم بإمامتهم. وقد أكثر الناس في ذلك بما يُرْغَبُ عن كثير منه[2]. فاقتصرت ممّا ذكروه على عُيونه دون حشوِه وعلى سمينه دون غثّهِ [3]. وسأذكر في كتابي هذا من ذلك - إن شاءَ اللهُ - ما يكفي ويشفي مَعَ الاختصار وطرْح التَكرار والاقتصار على ما يَجْمُلُ به التذكار...

٤- الاستذكار لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الاقطار فيما تضمّنه الموطّأ من معاني الرأي والآثار (تحقيق علي النجدي ناصف)، القاهرة (المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٩٧٠ م.)

- الاستيعاب في معرفة الاصحاب، حيدر اباد ١٣١٨ - ١٣١٩ هـ، ١٣٢٦ هـ؛ (على هامش الإصابة لابن حجر)، القاهرة ١٣٢٣ - ١٣٢٧ هـ؛ حيدر اباد (دائرة المعارف) ١٣٣٦ هـ؛ (تحقيق علي محمّد البجاوي)، القاهرة (مكتبة نهضة مصر ومطبعتها) بلا تاريخ.

- الانتقاء في فضائل الثلاثة الفقهاء: مالك والشافعي وأبي حنيفة، القاهرة (مكتبة القدسيّ) ١٣٥٠ هـ.

- الإنباه على الرواة (مطبوع مع «القصد والأمَم»)، النجف (المطبعة الحيدرية) ١٩٦٦ م.

- بهجة المجالس وأنس المجالس (مطبوع مع «الأدب الكبير» لابن المقفّع بعنوان: (جواهر الحكماء) القاهرة ١٩٠٧ م. (تحقيق محمّد مرسي الخولي) القاهرة (الدار المصرية للتأليف والترجمة) بلا تاريخ.

- مختصر بهجة المجالس، الجزائر ١٨٦٩ م.

- تجريد التمهيد لما في الموطّأ من المعاني والاسانيد أو التقصّي لحديث الموطّأ وشيوخ الامام مالك...، القاهرة (مكتبة القدسي) ١٣٥٠ هـ؛ نشره محمّد التائب السعيدي، الرباط؟ (نشرته وزارة الاوقاف المغربية) ١٣٩٢ هـ (؟).

---

(١) العين: الرجل الوجيه في قومه، والشيء النفيس. الفقرة (بكسر فسكون): الجملة القصيرة التي تتضمّن نكتة (معنى مبتكراً أو لفتة بارعة).

(٢) وقد أكثر الناس... كثير منه (كتب المؤلفون أشياء كثيرة عن هؤلاء الأئمة ومعظمه لا حاجة اليه) (يرغب عنه).

(٣) عيون الشيء: النفيس البارع منه. الحشو (ما يستغنى عنه). السمين من الكلام: الرصين (ما فيه معنى نافع). الغث: النحيف أو الرديء أو الفاسد.

- جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله (نشره أحمد عمر المحمصاني)، القاهرة (مطبعة الموسوعات) ١٣٢٠ هـ؛ المدينة المنورة (المكتبة العلمية) بلا تاريخ؛ (نشره عبد الرزّاق مليح آبادي)، الهند؟ (كتابستان) ١٩٦٢ م.
- الدرر في اختصار المغازي والسير (تحقيق شوقي ضيف)، القاهرة (المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية) ١٩٦٦ م.
- القصد والأمم في التعريف بأصول العرب والعجم، القاهرة (مكتبة القدسي) ١٣٥٠ هـ؛ النجف (المكتبة الحيدرية) ١٩٦٦ م.

** المطمح ٦١ - ٦٢؛ الصلة ٦٤٠ - ٦٤٢ (رقم ١٥٠١)؛ جذوة المقتبس ٣٤٤ - ٣٤٦ (الدار المصرية) ٣٦٧ - ٣٦٩ (رقم ٨٧٤)؛ بغية الملتمس ٤٧٤ - ٤٧٦ (رقم ١٤٤٢)؛ مطمح الأنفس ٦١؛ الخريدة (الاندلس) ٢ : ٤٧٨ - ٤٧٩؛ المغرب ٢ : ٤٠٧ - ٤٠٨؛ وفيات الاعيان ٧ : ٦٦ - ٧٢؛ الديباج المذهب ٣٥٧؛ شذرات الذهب ٣ : ٣١٤ - ٣١٦؛ نفح الطيب ٣ : ٢٣٥ ، ٤ : ٢٨ - ٣٠ ، ٣٦ (راجع الفهرس أيضاً)؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣ : ٦٧٤؛ نيكل ٢٠٨ - ٢٠٩ ، مختارات ١٤٦ - ١٤٧؛ بروكلمن ١ : ٤٥٣ - ٤٥٤ ، الملحق ٦٢٨ - ٦٢٩؛ الأعلام للزركلي ٩ : ٣١٦ - ٣١٧ (٨ : ٢٤٠).

ابن زيدون

١ - هو أبو الوليدِ أحمدُ بنُ عبدِ الله بنِ أحمدَ بنِ غالبِ بنِ زَيْدونٍ المَخْزوميُّ، أصْلُ أهلِهِ من بني مخزوم من قُريش. تَقَعُ حياتُه في ثلاثةِ أدوارٍ: من وِلادتِه إلى اتصاله ببَلاطِ بني جَهْوَرٍ - حياتِه في بَلاطِ بني جهور (٤٢٢ - ٤٤٢ هـ) - حياتِه في بلاطِ بني عبّادٍ.

(أ) وُلِدَ ابنُ زَيْدونٍ في رُصافةِ قُرطبَة ، في بيتِ علمٍ وجاهٍ وغِنًى، سَنَةَ ٣٩٤ هـ (١٠٠٣ - ١٠٠٤ م)، فبدأ تَلَقِّيَ العلم على أبيه، وكان أبوه فقيهاً مشهوراً معروفاً بالنَباهةِ والعلم والأدب. ولمّا تُوُفِّيَ أبوه (في إلبيرةَ، سَنَةَ ٤٠٥ هـ) كَفَلَهُ جَدُّه لِأُمّه القاضي أبو بكرٍ محمّدُ بنُ ابراهيمَ بنِ سعيدٍ القَيْسيُّ (٣٥٥ - ٤٣٢ هـ) فأخذَ عن جَدّه هذا أيضاً شيئاً من العلم. وقد كان من شُيوخِه (أساتذته): الفقيهُ القاضي أبو العبّاس أحمدُ بنُ عبدِ الله بن ذَكْوانَ (٣٤٣ - ٤١٣ هـ) وأبو بكر مُسلمُ بنُ أحمدَ

القرطبيُّ النَحْوي (ت ٤٣٢ هـ). ولكنْ يبدو أن عبقريّة ابن زيدونٍ قد صُقِلَتْ بدِراساتهِ الخاصّة وبالاختبار في الحياة. وقد ظهر ذلك واضحاً في مرثيته لشيخه ابن ذكوان - وهو بعد في العشرين من عمره.

(ب) لمّا إضطرب أمرُ بني أُميّةَ في قرطبةَ - قبلَ سقوط الخلافة نهائيّاً - وفرّ هِشامُ الثالثُ عنها، سَنَةَ ٤٢٢ هـ، كان أبو الحزم جَهْوَرُ بنُ محمّدِ بن جهورٍ وزيراً له. خاف أهلُ قُرطبةَ من عواقب الاضطراب والفوضى ووجدوا في أبي الحزم بنِ جهورٍ حاكماً قديراً فوَلَّوْهُ أمرَ المدينة. وقد أنشأ أبو الحزمِ في قرطبةَ دُوَيْلَةً من دويلات الطوائف.

واتّصل ابنُ زيدونٍ بالدويلة الناشئة باكراً ووَزَرَ لأبي الحزمِ جهورٍ (وزارةَ استشارةٍ لا وزارة عمل). وقد كان أبو الحزم وابنُ زيدونٍ صديقينِ من قبلُ ثمّ كانتْ لابنِ زيدونٍ، من أوّل أمره، آمالٌ سياسيّةٌ سَنَحَتِ الآنَ فُرصةُ الوصول إلى شيءٍ منها. بذلك قَذَفَتْ ريحُ السياسة بابنِ زيدونٍ في تيّارِ الحياة العامّة بما فيها من خصومةٍ ومكائدَ. وفي هذا التيّارِ ٱلْتَقى شِراعُ ابن زيدونٍ - في الحياة - بشراع ولاّدةَ ٱبنةِ المستكفي.

وأعظمُ الاحداثِ أثراً في حياة ابنِ زيدونٍ وفي أدبه كانَ اتّصالَه بولاّدة. كانت ولاّدةُ ابنةً للخليفةِ المُسْتكفي من أمَةٍ له مُسْتَعْرَبةٍ من أهل مَوْرُورَ اسمُها سَكْرى. كان الخليفة المُسْتكفي نفسُه رجلاً جاهلاً ضعيفَ الإرادةِ والرأيِ مُنْغمساً في اللهوِ مُستهتراً به. وكانت سكرى امرأةً خبيثةً شِرّيرة. أما ولاّدةُ فكانت فتاةً جميلة بيضاءَ شقراءَ مائلةً إلى الصُهبة (الحُمْرة)، كما كانت ذكيةً متأدّبة بالفنون والآداب قوّية الشخصية؛ ولكنّ جمالَها وذكاءَها كانا يَطْغَيانِ على ثقافتها وأدبها. ويُروى لولاّدةَ شيءٌ من الشعر يَغْلِبُ عليه الفحشُ والاستهتار. ولمّا قُتِلَ المستكفي (٤١٦ هـ = ١٠٢٥ م) انفلتَتْ ولاّدةُ من القيودِ الاخلاقية والاجتماعية وَجَعَلَت دارَها مُنْتدَى لرجالِ الأدبِ وانصرفت إلى كثيرٍ من أسبابِ اللّهو.

في هذه الفترةِ اتّصلتْ ولاّدةُ بابن زيدون - ويبدو أنّها كانت لِدَةً له أو تَصْغُرُهُ قليلاً - أغراها بِهِ أدبُه وشبابُه. ولقد نَعِمَ الحبيبانِ بأيّامٍ وليالٍ مشهورةٍ عند الناس.

كان منَ المُنتَظرِ أن يَقَعَ ابنُ زيدونٍ في حبّ وَلاّدةَ. وكذلك كان من المنتظرِ أن تَستجيبَ ولاّدةُ لدعوةِ الحبِّ التي تمثّلت في شَبابِ ابن زيدون وفي جاهِهِ الاجتماعي ومكانته الأدبية. ولعلّ ولاّدةَ كانتْ ذاتَ آمالٍ سياسيّة - كابنِ زيدونٍ نفسِه - فساقها ذلك إلى أن تُوَثّقَ صِلَتَها به، وخصوصاً بعدَ أن أصبح ابنُ زيدونٍ أثيراً في بلاط بني جَهْور. هذا على رأي من يعتقد أن صِلَةَ ولاّدةَ بابنِ زيدونٍ قد نشأت قبلَ قِيام الدُوَيْلة الجَهْوَريّة.

غير أنَّ هذا الحبَّ الذي بدأ باكراً ثمّ اشتعلَ بأشدِّ ما يكونُ من السُرعة وبأشدِّ ما يكون من العُنف لم يَعِشْ في صَفائه ووَفائه سوى بضعةِ أشهُرٍ ثمّ أخذ يفتُرُ بمثل السرعةِ التي كان قد نشأ بها. انّ قلبَ ولاّدةَ تغيَّرَ قبلَ قلبِ ابنِ زيدونٍ. ومَرَدُّ ذلك إلى عددٍ من الاسباب فيما قيل. ولكنّ أقربَ تلك الأسبابِ الى التصديق الظاهرِ على الأقلّ أنّ ابنَ زيدون تعلّق بجاريةٍ سوداءَ بارعةٍ في الغناء كانتْ لولاّدة، قيل لِيُثِيرَ غَيْرة ولاّدةَ فتعُودَ اليه. وقد عاتبتْ ولاّدةُ في ذلك ابنَ زيدون، كما أنّ ابنَ زيدون قد أقرّ على نفسِه بأنّ مَيْله إلى الجاريةِ السوداءِ كان ذَنْبا له، ولكنّه ذَنبٌ أجْبَرَتْهُ ولاّدةُ نفسُها على ارتكابه. وبعدُ، فنحن لا نعلَمُ اليومَ مبلغَ هذا الحبّ: أكانَ حُبّاً صريحاً للجاريةِ السوداء نفسِها أو حُبّاً عُذْرِياً لوَقْعِ غِنائِها في قلبه.

وحاولَ ابنُ زيدون أن يستردَّ عطفَ ولاّدة ببراعته الشعرية، ولكنّ ولاّدة لم تأبهْ به. ولا ريب في أن حبّ ابن زيدون لولاّدة - برُغْمِ ما يقال فيه - قد أوحى إلى ابن زيدونٍ أجملَ قصائده. ولقد أخطأ ابنُ زيدون في الطريق التي أرادَ أن يسلُكَ بها إلى قلب ولاّدة، كما ضلّ عنترةُ الطريقَ إلى قلبِ عبلةَ لمّا ظنّ أن الفَخْرَ بنفسِه وبقوّة طَعْنه وضربه في ميادين القتال يقرّبُه من قلب الفتاة اللَعوب. إنّ ابن زيدونٍ وعنترةَ لم يُرْزَقا براعةَ امرِىءِ القيس وبراعةَ عُمَرَ بنِ أبي ربيعةَ في خطاب المحبوبة!

وأرادتْ ولاّدةُ أن تَغيظ ابنَ زيدون وتُجازِيَهُ غَيْظاً بغيظٍ فألْقَتْ شِباكَ هواها على رجلٍ قليلِ الذكاء واسعِ الثَراء قليلِ العلم عظيمِ الجاه هو الوزير أبو عامر بن عبدوس - وكانتْ في حاجةٍ إلى رجلٍ مِنْ مِثْلِهِ تَفْرِضُ عليه إرادتَها ويُطيعها في كلّ شيء - ثمّ قَطَعَتْ صِلَتَها بابن زيدون مرّةً واحدة. غيرَ أن تعلّقَ ابنِ زيدون بولاّدةَ

ظلّ شديداً، كما أنّ شِعرَه ظلّ يَفيضُ بذِكْرِها. أمّا هي فأخذت في هجائِه هِجاءً فاحشاً مرّاً (راجع عدداً من أبيات هجائها في نفح الطيب ٤: ٢٠٥ - ٢٠٦).

ثمّ أطلّتْ محنةُ ابنِ زيدون.

كَثُرَ حُسّادُ ابنِ زيدون وخصومُه في بَلاط بني جَهْور وفي خارج بلاط بني جهور. وكان أشدَّ هؤلاءِ عداوةً له وأعظمَهم أثراً الوزيرُ أبو عامرِ بنِ عبدوسٍ. فكتب ابنُ زيدون رسالَته الجِدّيّةَ وحاول فيها أن يَحُطَّ من مَقامِ ابنِ عبدوس في عيون ولاّدة. ومَعَ أن هذه الرسالةَ راجتْ بين الأدباء الذين أخذوا يتفكّهون بما سَرَدَهُ ابنُ زيدون فيها من معايِبِ ابنِ عبدوس، فإنّ ولاّدة نفسَها لم تتأثّرْ بهذا الأُسلوب الجديد: فلا هي رقّتْ للمُحّبِ القديم ولا هي نَفَرَتْ من المحبّ الجديد. وغيظَ ابنُ عبدوس فجعل يُلْصِقُ بابن زيدون تُهَماً منها أنّه كان ميّالاً إلى ردّ الحكم إلى بني أمية - تُهمةً كانت شائعةً يومذاك - فأمرَ أبو الحزم جَهْور بحبسِ ابنِ زيدون (في ١٤ من رجب سنة ٤٣٣ هـ).

جعل ابن زيدون يُوالي القصائدَ إلى أبي الحزم وإلى نفرٍ آخرين لِيَشفعوا له عند أبي الحزم: كتب إلى أبي الوليد بن أبي الحزم وإلى الشاعر ابنِ بردٍ وإلى شيخه القديم أبي بكرٍ مسلم بن أحمد القرطبي فلم يستطع أحد منهم أن يَعْطِفَ قلبَ أبي الحزم على ابن زيدون. واقترحوا على ابن زيدون أن يهرُبَ من سجنه، فلم يقبلْ في أوّل الأمر، ولكنّه عاد فقبل واستطاع الهَرَبَ (بمساعدة أبي الوليد بن أبي الحزم).

وطاف ابنُ زيدون في قُرطبة مُتَخَفّياً لعلّه يلقى ولاّدة فلم يَلْقَها، فكتب إليها بقصيدته المشهورة «أضحى التنائي بديلاً من تَدانينا» فلم تَرُدَّ عليه. ثمّ بعثَ إليها بالقصيدة «إنّي ذكرتُكِ في الزهراء مُشتاقاً» فلم تردّ عليه أيضاً. وأخيراً بعث بقصيدته الطائية «شَحَطْنا وما للدارِ نأيٌ ولا شَحْط» إلى شيخه القديم أبي بكرٍ مُسلمِ ابنِ أحمدَ يشكو حاله ويستشفع به إلى أبي الحزم. فنَجَحَتِ الشفاعة فاستعاد ابن زيدون رِضا أبي الحزم واستقرّ في قرطبة.

وفي سَنَةِ ٤٣٥ هـ تُوُفّيَ أبو الحزم بن جَهَور وخلفه ابنه أبو الوليد في حكم قرطبة فقرّب ابن زيدون. ويبدو أن ابن زيدون لم يَنْسَ حبَّ ولاّدة فأراد أبو الوليد أن

يُنْسِيَهُ ذلك الحبّ فجعله سفيراً له عند ملوك الطوائف فأرسله إلى إدريس العالي بالله صاحبِ مالَقَة(٤٣٤ - ٤٣٨ هـ)، فطال مُكْثُ ابن زيدون في مالقة حتّى عَتَبَ عليه أبو الوليد بن جهور. وأرسله أيضاً إلى بَطَلْيَوْسَ إلى المُظَفَّر أبي بكرٍ محمّدِ بنِ عبدِ اللهِ (٤٣٧ - ٤٦٠ هـ) وإلى بَلَنْسِيَةَ إلى عبد العزيزِ المنصورِ بنِ عبدِ الرحمنِ بنِ أبي عامرٍ (٤١٢ - ٤٥٣ هـ)، فيما أظنّ.

(جـ) ثمّ عاد قلب أبي الوليد بن جهور فتغيّر على ابن زيدون لأنّ نفرا من أصحاب ابن زيدون قاموا في قرطبة بمحاولة لإعادة دعوة الامويّين إلى قرطبة، سنة ٤٤٠ هـ. خاف ابن زيدون مَغَبّةَ الرجوع إلى قرطبة فذهب إلى إشْبِيلِيَةَ ولَحِقَ بالمعتضدِ عبّادٍ (٤٣٤ - ٤٦١ هـ) فنال عنده حُظْوةً كبيرة وأصبح وزيراً ونَديماً وشاعراً للمُعْتَضِدِ ثمّ لابنهِ المعتمد من بعده.

ولمّا حدثت فِتنةُ العامة في قرطبةَ (بين المسلمين واليهود) أرسل المعتمد نفراً من رجال الدولة لتهدئة الخواطر وجعل فيهم ابن زيدون. وكان ابن زيدون مريضاً فاستعفى المعتمدَ فلم يُعْفِهِ - قيل لأن قلب المعتمد كان قد تغيّر على ابن زيدون، وقيل إنّ ابن مرتينَ وابن عمّارٍ أوغرا صدرَ المعتمد على ابن زيدون ففعل المعتمد ذلك - اشتدّ المرض على ابن زيدون من أثرِ تلك الرِحلة ثمّ تُوُفّيَ، في اشبيلية، في نِصْف رَجَبَ من سَنَةِ ٤٦٣ هـ (١٨/ ٤/ ١٠٧٠ م). ونقل جثمانه إلى قرطبة ودفن فيها.

٢ - ابنُ زيدونٍ أديبٌ بارعٌ، فهو شاعرٌ مُجيدٌ مُحْسن وناثرٌ مُقتدر حَسَنُ التصرّفِ في النثر المُرْسَل والنثر الأنيق المسجوع. وابن زيدون في شعرِه ثم في نثره خاصّةً كثيرُ الاقتباس والتضمين من القرآن الكريم والحديث الشريف ومن الأمثال والأشعار، وله إشاراتٌ واضحة إلى نِتاج الشعراء والنّاثرين مُنذُ الجاهلية إلى معاصريه من العصر العبّاسيّ. وأثرُ البُحتري واضح جِدّاً في شعر ابن زيدون، كما أنّ أثر الجاحظ واضح جدّاً في نثره. ولابن زيدون ديباجةُ شعرٍ رائقةٌ تُلقي على شعره وُضوحاً وحَلاوة وموسيقى وتظهَرُ فيها البراعةُ في الصناعة حتّى سمّاه النقّاد «بُحتريَّ المَغرب». وهو أفضلُ شعراءِ الاندلس الذين حافظوا على عَمود الشعر العربي، ولسنا نَعْلَمُ أنّه نَظَمَ

مُوشّحاتٍ مَعَ أن عصرَه كان قدِ امتلأ بالوشّاحين.

وفنونُ ابنِ زيدونٍ في شعرِه الغَزَلُ والنسيب (أوسعُ فنونِ شعرِه وأجملُها وأصدَقُها تعبيراً عن نفسِه وألْصقها بأحداث حياته) ثمّ المديح ولم تكنْ غايتُه التكسّبَ، لاستغناء ابنِ زيدونٍ عن الكَدْح في سبيل المعاش، ولكنّه كان يتقرّبُ بمديحه من رجال الدولة وذَوي الوَجاهةِ وخصوصاً لمّا نَزَلَت به مِحْنتُه ثمّ أراد أن يدفَعَها عن نفسِه باستشفاع هؤلاء إلى الذين كانوا السببَ في تلك المِحنة. وله أيضاً أشياءُ في وصفِ الطبيعة وشيءٌ من الرثاء العاديّ.

وابن زيدون كاتبٌ مترسّلٌ في أسلوبٍ جَزْلٍ متين ولكنّه نِتاجُ قُدرةٍ لا فَيْضُ وُجدان. وهو يميل إلى الصِناعة ويتّكىء على السجع والموازنة بين الجمل مَعَ شيء من الترديد. غير أن السجع في رسالته الهزلية أكثرُ منه في الرسالة الجدّية. وفي الرسالتين كثيرٌ من الإشارات التاريخية من أسماء الرجال وأحداث الزمان ومن التلاعب بأقوالِ الشعراء والناثرين - يُورد هذه الاقوالَ أحياناً إيراداً أميناً أو يَنْثُرُها أحياناً ثمّ يَسْلُكُها في خِلال جُمَله - من أجل ذلك تغمُضُ غاياتُه في كثيرٍ من الأحيان حتّى على المُثَقَّف الذي لم يُحِطْ بأصول الأدب إحاطةً وافية. وربّما ألْحَقَ برسائله القِصار مقاطع من الشعر تَطولُ أو تقصُرُ. وله أيضاً كتابُ التبيين في خلفاءِ بني أُميّةَ في الأندلس (نفح الطيب ٣: ١٨٢) وقيل إن هذا الكتابَ لابنهِ ابي بكرٍ (راجع نفح الطيب ١: ٣٣٢ في الحاشية).

٣ - مختارات من آثاره

- لمّا هرب ابن زيدون من سجنه كتب إلى ولّادة بهذه القصيدة، وهي أشهر ما يحفظه الناس له. من هذه القصيدة:

أَضحى التنائي بَديلاً من تدانينا، وناب عن طيب لُقيانا تجافينا.
مَن مُبْلغُ المُبلِسينا بأنتزاحِهِمُ حُزناً مَعَ الدهر لا يَبْلَى ويُبلينا[1].

---

(١) المبلسينا: الذين أبلسونا (قطعوا حجتنا وحيرونا) لأننا لا نستطيع أن نسوغ (ان نجد مبرراً) لانتزاحهم (لابتعادهم عنا وهجرنا). يبلى: يفنى (ينتهي).

أَنَّ الزمانَ الذي ما زال يُضحِكُنا ... أُنساً بقربِهِمُ قد عاد يُبْكينا.

غِيظَ العِدى مِن تَساقينا الهوى فدَعَوْا ... بأَن نَغَصّ، فقال الدهرُ: آمينا!

وقد نكونُ وما يُخشى تفرُّقُنا؛ ... فاليوم نحن وما يُرجى تَلاقينا.

لم نعتقد بعدكُمْ إلاَّ الوفاءَ لكم ... رأياً، ولم نتقلَّدْ غيرَهُ دِينا[1].

ما حقُّنا أَنْ تُقِرُّوا عينَ ذي حسد ... بنا، ولا أَن تُسِرُّوا كاشحاً فينا[2].

بِنْتُم وبِنَّا فما ٱبتلَّتْ جَوانِحُنا ... شوقاً اليكم ولا جفَّت مآقينا[3].

نكاد، حين تُناجيكم ضمائرُنا، ... يَقْضي علينا الأَسى لولا تأَسِّينا[4].

حالَتْ لفَقْدِكُمُ ايامُنا فغدَتْ ... سوداً؛ وكانت بكم بيضاً ليالينا[5]،

إذ جانبُ العيش طَلْقٌ مِن تألُّفِنا ... ومَوْردُ اللهو صافٍ من تَصافينا.

وإذْ هَصَرْنا فنونَ الوصلَ دانيةً ... قُطوفُها، فجَنَيْنا منه ما شِينا[6].

لِيُسْقَ عهدُكُم عهدُ السرورِ، فما ... كنتم لأَرواحنا إلاَّ رَياحينا.

لا تَحْسَبوا نأيَكم عنَّا يُغَيِّرنا ... إنْ طال؛ ما غيَّر النأيُ المُحبينا.

واللهِ، ما طلبَتْ أهواؤنا بَدَلاً ... منكم، ولا ٱنصرفَتْ عنكم أَمانينا.

يا ساريَ البرق، غادِ القصْرَ وٱسْقِ به ... مَن كان صِرْفَ الهوى والوُدِّ يَسقينا[7].

ويا نسيمَ الصَّبا، بلِّغْ تحيَّتَنا ... مَنْ لَوْ على البُعْد حَيّا كان يُحْيِينا.

يا روضةً طالما أَجْنَتْ لواحِظَنا ... وَرْداً - جلاه الصِبّا غضّاً - ونسرينا[8].

ويا حياةً تمَلَّينا بزهرتها ... مُنًى ضُروباً ولذّاتٍ أَفانينا[9]،

---

(١) الدين: العادة، السلوك.

(٢) الكاشح: المبغض. قرت عين فلان (سكنت): أصبح مسروراً.

(٣) ما جفت مآقينا (اطراف عيوننا): لم ننقطع عن البكاء. الجوانح: الأطراف. ما ابتلت جوانحنا: كانت الدموع تنهمر بكثرة على صدورنا، ولكن حر صدورنا (من الحزن على فراقكم كان شديداً إلى درجة كانت تجفف هذه الدموع فوراً).

(٤) حين تناجيكم ضمائرنا (حين نفكر بابتعادكم عنا ونتمنى قربكم من جديد). الاسى: الحزن. التأسي: الاقتداء بغيرنا (لم يقض علينا الحزن لأننا نعرف محبين مثلنا عاملهم المحبوبون مثل المعاملة التي تعاملوننا بها الآن).

(٥) حالت: تغيرت.

(٦) هصر فلان الغصن: شده إليه ليقطف ثمره.

(٧) غاد (اذهب باكراً).

(٨) أجنى فلان فلاناً ثمراً (اعطاه، منحه). النسرين: الورد الابيض. كنا قد نلنا منكم جميع أنواع السرور.

(٩) الضرب (بفتح فسكون): النوع. الافانين جمع أفنان جمع فن: غصن (صنف، نوع).

لسنا نُسَمّيكِ إجلالاً وتكرِمةً ... وقـدرُكِ المُعتـلي عن ذاك يُغنينـا.
يا جنّةَ الخُلدِ أُبدِلْنا بسَلْسَلِها ... والكَوثرِ العَذْبِ زَقّوماً وغِسلينا[1]،
كأنّنا لم نَبِتْ والوصلُ ثالثُنا ... والسعدُ قد غَضّ مِن أَجفان واشينا[2]:
سِرّانِ في خاطر الظلماء يَكْتُمُنا ... حتّـى يكادَ لسانُ الصُبـح يُفشينـا.
إنّا قَرَأْنا الأَسى يومَ النَوى سُوَراً ... مكتوبـةً وأَخذنـا الصبرَ تَلْقِينا[3].
دومي على العهد، ما دُمنا، مُحافِظةً ... فالحرُّ مَن دان إنصافاً كما دِينـا[4].
فما ٱستَعَضْنا خليلاً منكِ يَحبِسنا، ... ولا ٱستفدنـا حبيباً عنـك يَثْنينـا.
ولو صَبا نحوَنا من عُلوِ مَطْلَعِه ... بدرُ الدُّجى لم يكن، حاشاك، يُصْبينا[5].
ابـلي وفـاءً، وان لم تَبْـذُلي صِلَـةً ... فالطيفُ يُقنِعنا والذِكر يَكفينا[6].
عليـكِ منّـا سلامُ الله مـا بَقِيـتْ ... صُبابةٌ مِنكِ نُخفيها فتُخفينا[7].

- بعد لقاء ابن زيدون بولّادة ثمّ انفصاله عنها في اليوم التالي كتب إليها « هذا الوداع »:

ودَّعَ الصـــبرَ مُحِـبٌّ ودَّعَــكْ ... ذائـعٌ مِن سرّه مـا استودعَــكْ؛
يقْرَعُ السِنَّ على ان لم يكن ... زاد في تلـك الخطى اذ شيَّعَكْ[8].

---

(١) السلسل: الماء العذب. الكوثر: ماء نهر في الجنة. الزقوم (طعام أهل جهنم) والغسلين: الصديد (القيح) الذي يخرج من الجسم عند أول احتراقه (في جهنم).

(٢) غض: كسر، خفض. ان الواشي المبغض لما رأى سرورنا المتبادل انكسرت نفسه ولم يستطع أن ينقل عنا أن أحداً منا لم يكن مسروراً بصاحبه.

(٣) الأسى: الحزن. النوى: البعاد، الفراق. سوراً (كأنها من القرآن الكريم - نقرأ باستمرار لأنها فرض علينا). تلقينا: تعلماً (لطول ما صبرنا).

(٤) دان: قضى، حكم. عاملينا بالحب كما نعاملك.

(٥) صبا: مال (احب). اصبى: استمال (اوقع في الحب). حاشاك: الاك. لو ملت إلينا انت لأسرعنا في الميل إليك.

(٦) في جميع المصادر التي بين يديّ « أبلي » (باختلاف في التنقيط والتحريك). وجميع هذه الوجوه غامضة. فأنا اقترح « أبْدِي » (فعل أمر من « أبْدَى »: أظهر) ليكون فيه شيء من التجنيس مع « تبذلي ». فيكون المعنى حينئذ: (تظاهري بشيء من الوفاء، إن لم تستطيعي أن تمنحيني وصالا (وفاءً لما كنت أعاملك به من الحبّ من قبل). الطيف: الخيال في النوم. الذكر (هنا) ذكرك لنا.

(٧) الصبابة (بالضمّ): البقية (بقية من حبك عندي) - ومع ذلك فإن هذه البقية القليلة التي لا نحاول اظهارها للناس تكاد تخفينا عن الناس (تقتلنا).

(٨) قرع فلان سنه: ندم. شيّع فلان فلاناً: رافقه (في اثناء سفره، الخ)

يا اخا البدر سناءً وسناً حفـــظ الله زمانـــاً اطلَعَـــكْ[1]،
ان يَطُلْ بَعْدَكَ ليلي فلَكَم بِـــتُّ اشكو قِصَرَ الليـــل معَـــكْ!

– لمّا فرّ من سجنه وتوارى في نواحي قرطبة جاء يوماً إلى الزهراء[2] ليتذكّر أيامه في تلك المعاهد مع ولاّدة. ثمّ كتب إليها:

إنّـي ذكرتُـكِ بـالزهـراء مُشتاقاً والأُفقُ طلْقٌ ووجه الأرض قد راقا[3]،
وللنسيمِ ٱعتلالٌ في أصائلهِ كأنّمـا رَقّ لـي فٱعتـلّ إشفاقـا[4]،
والروض عن مائه الفِضّيّ مبتسم كـمـا حَلَلْتَ عنِ اللَّبّات أطواقـا[5].
يوم كأيام لذّاتٍ لنا ٱنصرمَت بِتْنـا لها – حينَ نام الدهر – سُرّاقا[6]،
نلهو بـمـا يستميـلُ العينَ مِن زَهَر جـال النـدى فيه حتى مال أعناقا[7].
لا سكّن الله قلباً عنَّ ذكركُمُ فـلم يَطِرْ بِجَنـاح الشوق خفّاقـا[8].
لو شاء حَمْلي نسيمُ الريح حين هفا وافاكُمُ بفتى أضناهُ ما لاقى
يا عِلْقِيَ ٱلأخْطرَ ٱلأسنى الحبيبَ الى نفـسي اذا ما ٱقتنى ٱلأحبابُ أعلاقا[9]،
كـان التجاري بمَحْضِ الوُدّ مذ زمنٍ ميـدانَ أُنسٍ جَرَيْنا فيه أطلاقا[10].
فٱلآن أحْمَد (؟) ما كنّا لِعهدكُم: سلَوتُمُ وبَقِينـا نحـنُ عشّاقـا[11].

---

(١) السناء: العلو. الرفعة. السنا: ضوء القمر.

(٢) الزهراء (راجع، فوق. ص ١٧٨).

(٣) طلق: (هنا) واسع (ليس فيه ضيق أو حزن). راق: صفا وحسن واصبح يسر النفس.

(٤) الاعتلال (الاولى): اللطف، الرقة. اعتل (الثانية) مرض.

(٥) اللبة: اعلى الصدر. الطوق: العقد.

(٦) انصرمت: مضت. بات: قضى الليل. بتنا لها سراقاً: نسرع في اغتنام اللذات فيها قبل ان تمضي.

(٧) جال: طاف، تحرك (كثر) الندى: قطرات الماء التي تتكوّن ليلا (بعد برودة الجو). مال اعناقا: مالت اعناقه، انحنت الازهار على عروقها. حتى نعس الزهر مثلنا (؟).

(٨) اذا كان قلبي لا يطير (يضطرب كلما جرى ذكركم) فلا جعله الله ساكناً ابداً.

(٩) العلق: الشيء النفيس (الغالي) الثمين. الاخطر: الاعلى خطراً (شرفاً وقيمة). الاسنى: العالي القدر.

(١٠) كان التجاري (الجري معاً بمحض الود..): احب بعضنا بعضاً زمناً طويلا. الطلق (بفتح فسكون): الشوط. جرينا اطلاقاً: تمتعنا بالحب كثيراً.

(١١) حالي الحاضرة احمد (افضل) شيء لكم انتم: انتم نسيتم حبنا (واحببتم آخرين) ونحن لا نزال نحبكم (فاصبح لكم حبيبان مكان الحبيب الواحد).

- من رسالته الهزلية التي كتب بها إلى ابن عبدوس يهزأ به - على لسان ولادة -:

أمّا بعدُ، أيّها المُصابُ بعقلِهِ المورَّط بجهلِهِ البيّنِ سَقَطُه الفاحش غَلَطُه.... الساقطُ سقوطَ الذُباب على الشراب المُتهافتُ تهافُتَ الفَراش على الشهاب[1]، فإنّ العُجْبَ أكذبُ ومعرفة المرءِ نفسَه أصوبُ[2]. وانّك راسَلْتَني مُستهدياً من صِلَتي ما صَفُرتْ منه أيدي أمثالِكَ.... مُرْسِلاً خَليلتك مرتادةً.... كاذباً نفسَك أنّك ستَنْزِلُ عنها إليّ وتَخْلُفُ بعدَها عليّ[3]......

ولا شكّ إذ لم تَضِنَّ بِكَ، ومَلّتْك إذ لم تَغَرْ عليك، فإنّها أعْذرتْ في السِفارة لك وما قصّرتْ في النِيابة عنك: زاعمةً أن المُروءة لَفْظٌ أنت معناه والإنسانيةَ اسمٌ أنت جِسمه وهَيولاه[4]؛ قاطعة أنّك انفردتّ بالجمال واستأثرت بالكمال..... حتّى خيّلتْ أنّ يوسُفَ عليه السلامُ حاسَنَكَ فَغَضَضْتَ منه وأنّ امرأة العزيزِ رأتْكَ فسَلَتْ عنه[5]، وأن قارونَ[6] أصاب بعض ما كنزت وأن.... كُليبَ بن رَبيعةَ إنّما حَمى المرعى بعِزّتِك وجَسّاساً انّما قَتَلَهُ بأنَفتِك ومُهَلْهِلاً انما طلب ثأره بِهمّتك[7].... و (أنّ) أفلاطون أوْردَ على أرسطاليس ما نقل عنك، وبَطْلَيْموسَ سوّى الاصْطرلاب

---

(١) المورط بجهله: الذي يورطه (يوقعه) جهله بما لم يحسب له حساباً ثم لا يستطيع الخلاص منه. الورطة (بالفتح): الحفرة العميقة، الوحل... على الشراب (الحلو). تهافت الفراش على الشهاب (الضوء، النار): اسرع (فاحترق).

(٢) العجب: الكبر والتكبر.

(٣) صفرت: خلت، فرغت (بفتح فكسر). خليلتك: عشيقتك. مرتادة: طالبة. تريد ان توهمني انك ستترك عشيقتك لي لاعشقها انا. تخلف هي او انت (؟).

(٤) الهيولى: المادة الاصلية في الوجود (المقصود هنا: مادة الجسد).

(٥) حاسنك: باراك، نافسك في الحسن. غض فلان من فلان: قلل من قيمته. امرأة العزيز هي زليخا (امراة فرعون الذي كان يوسف بن يعقوب في ايامه). سلت عنه: نسيت زوجها (اعجاباً بجمالك).

(٦) قارون: اغنى الناس في ايامه.

(٧) كان كليب بن ربيعة من العزة (القوة) انه كان عنده جرو كلب يلقيه في ارض فيها عشب. فيعوي ذلك الجرو فلا يجسر احد ان يرعى في مكان من تلك الارض يسمع فيه صوت ذلك الجرو. جساس بن مرة قتل كليب في حديث طويل. مهلهل اخو كليب طالب بثار كليب فوقعت حرب البسوس (بفتح الباء) ودامت العداوة فيها بين بكر وتغلب اربعين سنة.

بتَدْبيرك .... وبُقْراطَ علّم العللِ والأمراض بلفظ حسّك[١] .... وأن صِناعة الألحان اختراعك.... وأن عبدَ الحميدِ بنَ يحيى باري أقلامِك، وسهلَ بنَ هارونَ مُدَوّنُ كلامِك، وعمروَ بنَ بحرٍ مُسْتمليك[٢]، ومالكَ بنَ أنَسٍ مُسْتَفْتيك[٣] ......

ليس على الله بِمُسْتَنْكَرٍ أن يجمعَ العالمَ في واحدِ[٤].

...... وذكرتَ أنك عِلْقٌ لا يُباع مّمن زادَ، وطائر لا يَصِيدُه من أرادَ، وغَرَض لا يُصيبُه إلاّ من أجادَ......

- من الرسالة الجدّيّة التي كتب بها من السجن يستعطف أبا الحزم بن جهور ويتنصّل مّمّا نسب اليه:

يا مولايَ وسَيّدي الذي ودادي له واعْتدادي به[٥] وامتدادي منه، أبقاكَ اللهُ ماضِيَ حدِّ العزمِ وارِيَ زَنْدِ الاملِ ثابتَ عهدِ النعمة. إن سَلَبْتَني - أعزّك اللهُ - لِباسَ نَعْمائِك وعطّلتني من حَلْي إيناسك[٦].... وغَضَضْتَ عنّي طَرْفَ حِمايتك بعدَ أن نَظرَ الأعمى الى تأميلي لك وسمع الاصمّ ثنائي عليك[٧].... فلا غَرْوَ، قد يَغَصُّ بالماء شاربُه، ويقتلُ الدواءُ المُسْتشفِيَ به، ويُؤتى الحَذِرُ من مأمَنِه وتكون مَنِيّةُ[٨] المُتَمَنّي في أُمْنِيَّتِهِ،....

---

(١) افلاطون استاذ ارسطوطاليس، وهما أكبر فلاسفة اليونان أو أكبر الفلاسفة. بطليموس عالم بالرياضيات والفلك. الاصطرلاب اداة تشبه الزاوية يقاس بها ارتفاع النجوم فوق الافق. بقراط او ابقراط اكبر الاطباء اليونانيين القدماء.

(٢) عبد الحميد بن يحيى وسهل بن هرون وعمرو بن بحر (الجاحظ) من كبار الكتاب والمنشئين العرب.

(٣) مالك بن انس فقيه اهل المدينة وقد ضرب المثل به في الفتيا (بالضم) فقيل: ايفتى ومالك في المدينة؟

(٤) في الفلسفة القديمة ان الإنسان هو العالم الاصغر (ان كل ما في العالم موجود بصورة مصغرة في الإنسان: الصورة والمادة والعناصر الأربعة.... الخ).

(٥) اعتدادي به: جعلته عدة لي (استعين به في المستقبل على كل شيء).

(٦) الزند: قطعة من الحديد تقدح بها النار من حجر الصوان. وري (بفتح فكسر) الزند يري (بفتح فكسر): اخرج ناراً من حجر الصوان عند القدح. عطلتني: سلبتني الحلى التي ألبسها.

(٧) في هاتين الجملتين تضمين من بيت المتنبي:

انا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم.

(٨) المنية: الموت.

كـلّ المصائبِ قد تَمُرُّ على الفتى   وتهـونُ غـير شماتـةِ الحسّـاد .

وانّي لأتجلّدُ وأُري الشامتينَ أنّي لِرَيْبِ الدهرِ أتَضَعْضَعُ[1]، فأقولُ[2]: هلْ أَنا إلاّ يدٌ أدماها سِوارُها، وجَبينٌ عَضّهُ إكْليلُه....

هذا العَتْبُ محمودٌ عواقِبُه، وهذه النَبْوَةُ غَمْرَةٌ ثمّ تَنْجلي، وهذه النكبة سَحابة صيفٍ عَنْ قليل تَقَشّعْ . ولن يَرِيبَني من سَيّدي أنْ أبطأ سَيْبُه أو تأخّرَ - غيرَ ضَنينٍ - غَناؤه فأبطأُ الدِلاءِ فَيْضاً أملأُها وأثقلُ السحائبِ مَشْياً أحفَلُها .... ومَعَ اليومِ غَدٌ، ولكلّ أجلٍ كتابٌ

وأعودُ فأقولُ: ليتَ شِعْري، ما هذا الذنبُ الذي لم يَسَعْهُ عَفْوُكَ، والجَهْلُ الذي لم يأتِ من ورائه حِلْمُك!.... ولا أخْلو من أنْ أكونَ بريئاً فأينَ العَدْلُ أو مُسِيئاً فأينَ الفضل؟.....

٤- ديوان ابن زيدون (كامل كيلاني وعبد الرحمن خليفة)، القاهرة// ١٩٣٢ م، ١٣٧٠ هـ ١٣٧٥ هـ؛ (علي عبد العظيم)، القاهرة (مكتبة نهضة مصر) ١٩٥٧ م؛ (سيّد كيلاني)، القاهرة// ؛= شعر ابن زيدون (تحقيق كرم بستاني)، بيروت (مكتبة صادر) ١٩٥١ م، ١٣٨٤هـ = ١٩٦٤ م؛ بيروت (الشركة اللبنانية للكتاب) بلا تاريخ.

- الرسالة الجدّية، القاهرة ١٢٧٨ هـ= ١٨٦٢ م؛ (أبو بكر محمّد حكيم)، القاهرة ١٣٤٥ هـ.

- الرسالة الهزلية (رايسكه)، ليبسك ١٧٥٥ م؛ (هيرت)، يانا ١٧٧٧ م؛ القاهرة ١٢٧٨ هـ، ١٢٩٠، ١٣٠٥، ١٣٢١ هـ؛ (على هامش لامية العرب للصفدي، الاسكندرية ١٢٩٠ هـ؛ (محمد أبو الفضل ابراهيم) القاهرة (المطبعة الحسينية) ١٣٨٣ هـ= ١٩٦٤ م.

** تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون (للصلاح الصفدي)، بغداد (مطبعة الولاية) ١٣٢٧ هـ؛ (لابن نباتة) (تحرير محمّد أبي الفضل ابراهيم)، القاهرة (دار الفكر العربي) ١٩٦٤ م، ١٩٦٤ م، ١٣٨٩ (١٩٦٩ م).

- سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون (لابن نباتة)، الاستانة ١٢٧٥ هـ؛ القاهرة

---

(١) هاتان الجملتان اقتباس من بيت ابي ذؤيب الهذلي:

وتـجـلـدي للشـامـتـين اريهـم   اني لـريـب الـدهـر لا اتضعضع.

(٢) وفي الجمل التالية اقتباس من الامثال والأشعار ومن أي القرآن الكريم.

(المطبعة الأميرية) ١٢٧٨ هـ؛ الاسكندرية ١٢٩٠ هـ؛ مصر (مطبعة الموسوعات) ١٣٢١ هـ؛(تحرير محمّد أبي الفضل ابراهيم)، القاهرة (دار الفكر العربي) ١٩٦٤ م.

- اظهار المكنون من الرسالة الجدّية لابن زيدون، تأليف مصطفى العناني، القاهرة (مطبعة المعارف) ١٣١٧، الطبعة الثالثة، القاهرة (المطبعة الرحمانية) ١٣٤٥ هـ = ١٩٢٧ م.
- الدر المخزون في شرح رسالة ابن زيدون (ابو بكر محمد بن حكيم)..
- قطعة عن ابن زيدون (من قلائد العقيان للفتح بن خاقان) (تحرير وايرس)، ليدن (بريل) ١٨٣٠ م.
- ابن زيدون، تأليف أحمد زكي، القاهرة (مطبعة صبيح) ١٨٨٨ م، ١٩١٤ م.
- ابن زيدون، تأليف نهاد عناية، دمشق (المكتبة الهاشمية) ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٩ م.
- ابن زيدون، تأليف شوقي ضيف، بيروت (دار المعارف) ١٩٥٣ م.
- ابن زيدون: عصره وحياته وأدبه، تأليف علي عبد العظيم، القاهرة (مكتبة الانجلو المصرية) ١٩٥٥، القاهرة (نهضة مصر) ١٩٥٧ م.
- ابن زيدون: حياته - عصره - أدبه، تأليف حسن جار حسين، القاهرة (المطبعة المنيرية) ١٣٧٤ هـ = ١٩٥٥ م.
- ابن زيدون، تأليف نديم مرعشلي، بيروت (دار الشرق الجديد).
- ابن زيدون: أو صفحة من مجالي الانس في ليالي الاندلس، تأليف زكي أحمد،
- شوقي وابن زيدون في نونيّتيها، تأليف أبي القاسم محمّد كرّو، تونس (منشورات كتاب البعث، رقم ٢) (مطبعة الترّقي) ١٩٥٦ م.

ابن زيدون: أثر ولاّدة في حياته وأدبه، تأليف وليم الخازن، بيروت (دار مكتبة الحياة)؟ ١٩٦١ م.

- ولاّدة وابن زيدون، تأليف عبد الرزّاق مجيد الهلالي، بغداد (مطبعة المعارف) ١٩٤٧ م.
- مجلّة الكتاب (بغداد): عدد خاصّ بالذكرى الألفية لميلاد ابن زيدون (٣٩٤ - ١٣٩٤ هـ)، الرباط ١٥ - ٢٢/ ١٢/ ١٩٧٥ م، السنة التاسعة، العددان ١١ - ١٢ (تشرين الثاني وكانون الأول = نوفمبر وديسمبر ١٩٧٥ م).

المطمح ٦٠ - ٦١؛ الذخيرة ١: ٣٣٦ - ٤٢٨؛ جذوة المقتبس ١٢١ - ١٢٢ (الدار المصرية) ١٣٠ - ١٣١ (رقم ٢٢٤)؛ بغية الملتمس ١٧٤ - ١٧٥ (رقم ٤٢٦)؛ قلائد العقيان ٧٩ - ٩٣؛ وفيات الأعيان ١: ١٣٩ - ١٤١، ٤٥٧؛ الوافي بالوفيات ٧: ٨٧ - ٩٤؛ اعتاب الكتّاب ٢٠٧ - ٢١٤؛ المغرب ١: ٦٣ - ٦٩؛ المطرب ١٦٤ - ١٦٨؛ نفح الطيب ١: ٦٢٧ - ٦٣٤، ٦٦٨ - ٦٧٠، ٣: ٢٧١ - ٢٨٧، ٥٦٥ - ٥٦٦، ٤: ٩٩ - ١٠٠، ٢٠٥ - ٢١٢، ٢٦٤ - ٢٧١؛ شذرات الذهب ٣:

٣١٢ - ٣١٣؛ دائـرة المعارف الإسلامية ٣: ٩٧٣ - ٩٧٤؛ بروكلمن ١: ٣٢٤ - ٣٢٥، الملحق ١: ٤٥١؛ نيكل ١٠٦ - ١٢٠، مختارات نيكل ٦٢ - ٧٣؛ الأعلام للزركلي ١: ١٥١ - ١٥٢ (١٥٨).

غانم المخزومي

١ - هو أبو محمدٍ غانمُ بنُ وليدِ بن عُمَرَ[١] بن عبد الرحمن المخزوميُّ القرشيّ الأشوني (نِسبةً إلى أشونة وهي حصن بالأندلس من نواحي أُستُجة).

روى غانمٌ المخزوميُّ علومَه في النحو واللغة والأدب عن نفر منهم أبو عمرَ يوسفُ ابنُ عبدِ اللهِ بن خَيْرونٍ وأبو عبدِ الله بنُ السرّاج. واشتغل بالتدريس وكان قديراً محمود الطريقة في ذلك.

وعاش غانم في مالَقة مدّة ونال حُظوةً كبيرةً عند صاحبها إدريسَ العالي بالله (٤٣٤ - ٤٣٨هـ)، كما عاش (بعد ذلك) في غَرْناطةَ متّصلاً ببلاط باديس بنِ حَبّوسٍ (٤٣٠ - ٤٦٦ هـ).

ويبدو أن وفاةَ غانمٍ المخزومي كانت نحو ٤٦٥ هـ لأنّه شَهِدَ، فيما يبدو، مقتلَ القاضي أبي عبدِ الله محمّدِ بنِ الحسنِ بنِ يحيى بن الحسن الجُذامي النُباهي في قرطبةَ، سنة ٤٦٣ هـ[٢]، ولم يَرْوِ له ابنُ بسّامٍ في الذخيرة (١: ٢: ٣٤٥ - ٣٦١) رثاءً في باديس بن حبّوسٍ (ت ٤٦٦ هـ). ويبدو أنه عاش طويلاً.

٢ - كان غانم المخزوميّ فقيهاً ولُغَويّاً ونحويّاً وأديباً ناثراً ناظماً، وكان مقتدراً في تدريس هذه الفنون محمود الطريقة في ذلك.

وكان في شعره صاحبَ بديهة ومقتدراً. وأكثر شعره الذي بين أيدينا في المديح والرثاء والوصف والغزل والحكمة والزهد. وكذلك له ترسّل أكثره إخوانيّات وبعضه مديح في مجرى الخطابة أو الكتابة.

---

(١) في كتاب الصلة، ص ٤٣٣: غانم بن وليد بن محمّد بن عبد الرحمن. وفي جذوة المقتبس، ص ٣٠٦: غانم ابن الوليد بن عمر بن عبد الرحمن.

(٢) راجع كتاب قضاة الأندلس، ص ٩٣، السطر ١٣؛ ثمّ ص ٩٣، السطر الثالث.

٣ - مختارات من آثاره

- دخل غانم على باديس بن حبّوس، وكان باديسُ يجلِس في مكان ضيّق، ومَعَ ذلك فقد وسّع لغانم مكاناً يَجْلِسُ فيه. عند ذلك قالَ غانم بديهة:

صيِّـرْ فـؤادَكَ للمحبوب مَنْزِلـــة؛ سَـمّ الخِيَـاط مَجـالٌ للمُحَبَّيْنِ[١].
ولا تُسَامِحْ بَغيضاً في مُعاشرةٍ فقـلَّمـا تَسَـعُ الـدنيــا بَغِيضَيْنِ!

- وقال في الصبر والتجمّل بالوقار:

الصـبرُ أولـى بـوقـارِ الفـتى من مَلَـكٍ يَهْتِـك سِتْرَ الوَقـارْ[٢].
من لَزم الصبرَ على حالةٍ كـان عـلى أيّامـه بالخِيـارْ

- وله في مَطْلعٍ غزلّي لقصيدة في مدح ادريسَ العالي بالله؛ وهذه الأبيات تقليد ظاهر لمقطوعة الشريف الرضيّ:

يا ظبيةَ البانِ ترعى في خَمائله، لِيُهْنِـكِ اليومَ أنّ القلـبَ مَرْعـاكِ.

قال غانمٌ المخزوميّ:

لولا التحرّجُ لم يُحْجَـبْ مُحَيّـاكِ؛ حُيِّـيت عنّـا، وحُيِّينـا بمَحْياكِ[٣].
أيا غزالَتَنا، شمسُ الضُّحى طلعتْ على اتّفاقٍ فَسِماها كسِماك[٤].
بَدَوْتِ في حُلّةٍ زَرقاء، وَهْيَ كذا. فقالَ قاضي الهوى: «هذي ولا ذاكِ».
أظْمَأتِني منكِ، يا ظمياءُ، جائرةً؛ ما كان ضَرّك لو أحظى بسُقْياك[٥].
إنّي أراك بقَتْل النفس حاذِقَةً؛ قولي، بفَضْلِكِ، من بالقَتْل أوْصاك؟
إن كانَ واديكِ مَمْنوعاً فمَوْعدنا وادي الكَرى ثمّ تلقياني وألْقاك[٦].
دَمْعي ببَغْدادَ مَمْدودٌ بدِجْلَتِها، وأنتِ من رَوْض نَجْدٍ نَشْرُ ريّاك[٧].

---

(١) سمّ الخياط: ثقب الابرة.

(٢) هتك: شقّ، مزّق.

(٣) المحيّا (بتشديد الياء): الوجه. المحيا (بلا تشديد): الحياة.

(٤) الغزالة: الشمس والمرأة الجميلة. السما: العلامة، الهيئة.

(٥) الظمياء: الناقة السوداء، الشفة الرقيقة السمراء، العين الرقيقة الجفون (المرأة الجميلة).

(٦) واديك: بلدك. وادي الكرى (كناية عن النوم).

(٧) النشر (هنا): الانتشار. الريّا: الرائحة الطيّبة.

- توفّي لغانم المخزوميّ أخَوانِ أحدُهما مات غَرَقاً فقال غانمٌ يرثيهما بمقطوعة يقلّد فيها مقطوعةً غَزَليةٍ لابن زيدونٍ:

يـا دمـعُ، لا تَخْذُلْ وكُنْ مُسْعِداً؛ ... لا تَخْشَ من صبرِيَ أن يَمْنَعَكْ[1].

أخٌ غريقٌ وأخٌ في الثَّرى، ... وتَـرْتجـي السَّلْوة؟ مـا أطمعَكْ!

إنّ جمودَ العينِ - خوفَ العِدى ... ورقْبــةَ الحُسّادِ - لــن يَنْفَعَـــكْ[2].

يــا عُمَــراً، أعْمَرْتَ قلــبي أسىً ... وودّع (؟) صبري مِثْلَما ودّعك[3].

رُزِئتُ فــي الدنيــا يَـدَيْ نُصْرتي؛ ... يا دهرُ، بَتًّا لكَ، ما أفجعك[4]!

- وله من رُقعةٍ خاطب بها أبا الحسن الحُصْرِيَّ:

ما أفصحَ لِسانَكَ وأفسحَ مَيْدانَك وأوضحَ بَيانَك وأرْجح ميزانَك وأنور صَباحَك وأزْهَرَ مِصْباحك، أيُّها السابقُ المُتمهِّلُ في مَيْدانِ النُّبْلِ، والسامق[5] المتطَوّل بفضائل الذكاء والفَضْل: أرَحْتني من غُلِّ الهَمّ فازْدَهَتْني أرْيَحِيّةٌ[6]، وأزَحْتَني عن ظِلِّ الغمِّ فلاحت لي شَمْسُ الأُمْنِيّة بما أطْلَعْتَه عليّ وَأنْفَذَتْهُ مكارِمُك إليّ. فقلت: أعَصْرُ الشبابِ رَجَعَ، أم كوكبُ السعدِ طَلَع، أم بارق الإقبال لمع؟كلاّ، واللهِ، إنّها لَمَكْرُمَةٌ فِهْرِيّةٌ[7] أهْدَتْها نَفْسٌ سَخِيّةٌ وهِمّةٌ عَلِيّة... بَلى، واللهِ، أرَتْني زهرَ الربيعِ في غير أوانهِ، وحُسْنَ الصَنيعِ على عَدَمِه في أهلِ زمانهِ... فأنتَ واحدُ البلاغةِ الذي لا يُجارى، وفارسُ الفصاحةِ الذي لا يُبارى.

٤ - ** الصلة ٤٣٣ - ٤٣٤ (رقم ٩٨٢)؛ الذخيرة ١: ٨٥٣ - ٨٧٠؛ جذوة المقتبس ٣٠٦ - ٣٠٧ (الدار المصرية) ٣٢٥ - ٣٢٦ (رقم ٧٥٤)؛ بغية الملتمس ٤٢٨ (رقم ١٢٨٠)؛ مطمح الأنفس ٦٠ - ٦١؛ معجم الأدباء ١٦: ١٦٧ - ١٦٩؛ إنباه

---

(١) المسعد: المساعد. الدمع المسعد هو الذي يسيل بسرعة وبكثرة.

(٢) الرقبة: المراقبة. رقبة الحسّاد (رجاء الحسّاد أن تزول النعمة عن غيرهم).

(٣) الأسى: الحزن. ثم اقرأ: ودّعت صبري الخ.

(٤) رزئت: فقدت. يدي نصري: نصرتي بكلتا يدي (بكل قوتي). بتا: قطعا. ما أفجعك: ما أكثر انزالك الفجيعة (فقدان الأحباب بالموت) منك.

(٥) السامق: العالي.

(٦) ازدهتني: أخذتني خفة (سرور) بالأريحيّة (الارتياح للكرم أو للعمل الجميل والسرور به).

(٧) فهرية: نسبة إلى فهر بن مالك من جدود العرب القدماء (عربية صحيحة).

الرواة ٢: ٣٨٩؛ الوافي بالوفيات ٨: ٣٢٤ - ٣٢٥؛ المطرب ٨٤؛ المغرب ١: ٣١٧ - ٣١٨؛ بغية الوعاة ٣٧١؛ نفح الطيب ٣: ٢٦٥، ٣٩٨، ٤٤٧، ٥٩٥ - ٥٩٦، ٦١٥، ٤: ٢٨، ٢٢٦، ٣٣١؛ راجع نيكل ١٨٨ - ١٨٩ ومختارات نبكل ١٣١؛ الأعلام للزركلي ٥: ٣٠٧ (١١٦).

أبو جعفر اللمائي

١ - هو أبو جعفرٍ أحمدُ بنُ أيّوبَ اللمائيُّ من أهلِ مالَقَةَ، كان كاتباً لَدى ناصرِ الدين عليِّ بنِ حمّودٍ صاحبِ مالَقَةَ (٤٠٧ - ٤٠٨ هـ) ومدبّرَ أمورِه، كما كَتَبَ لِغيرِه (من ملوك مالقة؟). وقد علا صيتُه بسبب ذلك وعَلَتْ مكانتُه. ويبدو أنّه حَصَلَ على أملاكٍ في غَرْناطةَ فكان يتردّد عليها فيَتَفقّدُ أملاكَه ويزورُ ملوكَها الصِنْهاجيّين، في أيام باديسَ بنِ حَبّوسٍ (٤٣٠ - ٤٦٦ هـ) في الأغلب، أَو في أيام أبيهِ حبّوسٍ (٤١٠ - ٤٣٠ هـ) أيضاً.

وعَرَضَتْ لأبي جعفرٍ اللمائيّ النَسَمَةُ (من أمراض الصدر: الرَبْو؟) وأزْمَنَتْ فتُوُفِّيَ من أثرِها في مالَقَةَ، سَنَةَ ٤٦٥ هـ (١٠٧٢ - ١٠٧٣ م). وقد نُقلت جُثّتُه إلى حِصْنِ الوَرْدِ عندِ مونْتَ مَيورَ (الجبلِ الكبيرِ) بحَسْبِ وَصِيّتِه ودُفِنَ هنالك في قبرٍ كان قدِ ٱبتناه. وإذا كان أبو جعفرٍ اللمائيُّ قد راسلَ أبا جعفرِ بنِ عبّاسٍ (ت ٤٢٧ هـ) فيَجِبُ أن يكونَ قد عاشَ سبعينَ سنةً أو تزيدُ.

٢ - أبو جعفرٍ اللمائيّ أديبٌ مُترسِّلٌ وناثر شاعر. وشِعرُه مدحٌ ووصف للطبيعة. ويبدو أن مُعظَمَ شِعرهِ وُجدانيّ قالَه في أحوالِ مرضِه وفي الشَكْوى من الأيام. وله نَسيبٌ أيضاً.

٣ - مختارات من آثاره

- كتب أبو جعفرٍ اللمائيُّ إلى أبي جعفرِ بنِ عبّاسٍ[١] يُعزّيه بأبيه:

إنْ لم أُجِدِ التأبينَ فأجد[٢] البكاءَ والحنين، وإن لم أُحْسِنِ التملُّقَ والإطراء

---

(١) هو أبو جعفر أحمد بن عبّاس كان وزيراً لزهير صاحب المريّة ولباديس صاحب غرناطة. وكان غنيّاً جدّاً وبخيلاً جدّاً. وقد نكبه باديس وسجنه ثمّ أمر بقتله، سنة ٤٢٧ هـ وهو ابن ثلاثين سنة.

(٢ و٣) التركيب خاطىء. ليس هنا مكان لربط جواب الشرط (وهو فعل مضارع بالفاء). والصواب أن =

فأحسن الإخلاص والدعاء. واتّصلَ بي موتُ الوزيرِ أبيك - لقّاه اللهُ غُفرانَه - وكَوْنُك بفضلِ الله مكانَه، فروّعَ جَنانَ[1] الصبرِ وأخرسَ لِسانَ الشكر: بَدْرٌ أفَلَ وهِلالٌ استَقَلّ[2]. أعزّيك وأُسلّيك: قَدْرُ مُصابِكَ قدرُ ثَوابِك[3]. صبراً جميلاً عليه لتُؤجَرَ، وفعلاً حميداً[4] بعدَه لِتُذكرَ.......

- وقال أبو جعفرٍ اللمائيُّ في عِلته (داء النسمة):

عَظُمَ البلاءُ فلا طبيبٌ يُرتجى ... منه الشفاءُ، ولا دواءٌ ينجَعُ[5].
لم يبقَ شيءٌ لم أعالِجْها به ... طَمَعَ الحياةِ؛ وأينَ مَنْ لا يطمع[6]؟
(وإذا المَنيّةُ أنشَبَتْ أظفارَها ... أَلْفَيْتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفع)[7].

- ودخل عليه بعضُ أصحابه في عِلته (في فَتْرته التي مات فيها) فجعل يُرَوِّحُ عليه بِمِرْوَحةٍ. فقال ارتجالاً:

رَوَّحَني عائِدي فقُلتُ لَه: ... مَهْ، لا تَزِدْني على الذي أجِدُ[8].
أما ترى النارَ، وهي خامِدة، ... عند هُبوبِ الرياحِ تَتّقِدُ؟

- وقال (يُصوّرُ الربيعَ وهو يطلُبُ النَدى - العَطاءَ - من يدِ باديس):

طلَعَتْ طوالعُ للربيع فأطْلَعَتْ ... في الرَوْضِ ورداً قبلَ حِينِ أوانهِ[9]
حيّا أميرَ المؤمنين مُبشّراً ... ومُؤمِّلاً للنَيْلِ من إحسانه[10].

= يقال مثلاً: فإن لم أجد التأبين فأنا أجيد الدعاء (فيكون جواب الشرط جملة اسمية مربوطة بالفاء).

(1) جنان: قلب.

(2) بدر (رجل كبير) أفل (غاب)، وهلال (رجل شابّ) استقلّ (طلع).

(3) كلّما عظم مصابك بالميت كان أجرك عظيماً على مقدار ذلك.

(4) صبراً جميلاً: أصبر صبراً جميلاً.....

(5) ينجع: ينفع.

(6) طمع الحياة (طمعاً في الحياة). وهل في الدنيا أحد لا يطمع بطول الحياة.

(7) البيت لأبي ذؤيب الهذلي (بضمّ ففتح) وهو شاعر مخضرم (ت ٢٨ هـ).

(8) العائد: الذي يزور المريض. مه: كف، كفي.

(9) طالعة: أول نبات (الربيع).

(10) النيل: العطاء.

- وقال يشكو نوائب دَهْرِه:

أمسى سَقامي زاجري ومُؤنّبي، وغدا مَشيبي واعظي ومُؤدّبي.
أوْهَتْ خُطوب الدهرِ مني عاتِقي ثِقْلاً، وزعزعَ مَنْكِباهُ مَنْكِبي[1].
وَهمَتْ سحائِبُه علَيَّ فغادَرَتْ أرضي قَرارةَ كل خَطْبٍ مُعْجِبِ[2]،
يا سَيّدي وأخي الوَفِيَّ، وما أخي منه إلى قلبِ الإخاء بأقربِ.
وإذا غدا العِلْمُ المُشَرِّفُ أهلَهُ نَسَباً يُؤلِّفُنا، فنحن بنو أب
وكتبْتَ عن وُدٍّ، وقد كَتَبَ الإخا بينَ النفوس صحائفًا لم تُكْتَبِ،[3]
بأرَقَّ من دَمْعِ المَشوقِ فؤادُه وأرقَّ من ريقِ الحبيب وأعذبِ.
فَظَلِلْتُ منه في غديرِ بلاغةٍ عَذْبٍ ومُلْتَفِ الحدائقِ مُعْشِبِ.
كَرُمَتْ مغارِسُهُ فأوْرَقَ فرعُه عِلْماً وأثْمَرَ بالكلامِ الطيّب
خَفِيَتْ معانِيه على أوهامِنا، فالفِكر بينَ مُصدِّقٍ ومُكذِّبِ.

٤ - ** المطمح ٢٥ - ٢٦؛ بغية الملتمس ٥٠٥ (رقم ١٥٢٠)؛ الذخيرة ١: ٦١٧ - ٦٢٤؛ المغرب ١: ٤٤٦ - ٤٤٧؛ الإحاطة ١: ٢٤٠ - ٢٤٣؛ نفح الطيب ٣: ١٩٦، ٥٤٧، ٥٩٦، ٤: ١٥٤؛ نيكل ١٢٢.

أبو الحسن البلّنوبي

١ - هو أبو الحسن عليُّ بنُ أبي القاسمِ عبدِ الرحمن بنِ أبي البِشَر (أو البشائر) البَلّنوبي الصِقِلّي نِسبةً إلى مدينة بيلاّ نووبا (باللفظ الإسباني) أو فيلاّ نوفا (باللفظ الإيطالي الحديث: البلدة الجديدة)، وهي بلدة في غَرْبِيّ جزيرةِ صِقلّيةَ. وقد كان أبو القاسمِ عبدُ الرحمن (والدُ أبي الحسن البلّنوبي)، فيما يبدو، رجلَ علمٍ وأدبٍ وشعرٍ[4].

---

(١) المنكب: ما بين الكتف والعنق. للدهر منكبان (هو أقوى منّي).
(٢) هما: سقط، هطل، (نزل الماء من السحاب). القرارة: المكان المنخفض تستقرّ فيه الأشياء. الخطب: المصيبة. المعجب: الداعي إلى العجب (الكبير، الشديد).
(٣) للأخاء (الصداقة) صفحات كثيرة جميلة لم يستطع أن يكتب بقلمه مثلها.
(٤) في «المختار من شعر بشّار» (الصفحة ل) أنّ أبا القاسم عبد الرحمن ابن أبي البشر أنشد:

نزل المشيب بعارضيّ ولمّتي. يا نفس، فازدجري عن اللذّات.
ودعي الحياة لأهلها وتجهّزي، يا نفس - ويك - تجهّز الأموات. =

أمّا مَوْلِدُ أبِي الحسن البلّنوبيّ فكان في صِقليّةَ، ولكنّنا لا نَعْرِفُ شيئاً من تفاصيل حياته فيها. ثمّ إنّه هاجرَ منها في أواخرِ عهدِ الفِتنة أو في مطلعِ الاحتلالِ النورماني إلى مِصْرَ، لأنّنا نرى له اتصالاً بأبي محمّدٍ الحسنِ بنِ عليٍّ اليازوريّ الذي استوزره المُستنصرُ الفاطميُّ من المُحرّم سَنَةَ ٤٤٢ إلى المُحرّم سَنَةَ ٤٥٠ (١٠٥٠ - ١٠٥٨ م). ويبدو أنّ أبا الحسن البلّنوبيَّ كان أحياناً في الاسكندرية وأحياناً في القاهرة وأنّه تكسبَ بمدحِ العُظماء وبشيءٍ من التدريس. ولعلهُ قد بَقِيَ في الحياة إلى الثُّلُثِ الأخيرِ من القرنِ الهِجْري الخامس (نحو ٤٦٥ هـ = ١٠٧٢ م) أو إلى ما بَعد ذلك.

٢ - كان أبو الحسنِ البلّنوبيُّ شاعراً كثيرَ التقليدِ للمشارقة في أغْراضهم وأساليبهم مَعَ شيء من الفصاحة ومن جَمال الأسلوب، برُغم ما في أسلوبِهِ أحياناً من الضَعْف. ولم يَرِدْ في شعرِه ذِكْرٌ لصِقِلّية، بل كان فيه كثيرٌ من خصائصِ شعراءِ مِصْرَ في العهد الفاطمي مِمّا يَدُلّ على أنّ أكثر شعرِه قد قيلَ في مِصْرَ، ولعلَّ جانباً كبيراً من حياته كان أيضاً في مصر. وفنون شعره المدحُ والهِجاء والرثاء والوصف وشيءٌ من الغزل.

٣ - مختارات من شعره

- قال أبو الحسن البلّنوبي يمدح الوزير رئيس الرؤساء:

لَحَظاتٌ مِن شَبيهاتِ الدُّمى ... صَرَعَتْني بين ظَلْمٍ ولَمى[1]

= فلقد نصحتك ان قبلت نصيحتي، ... ولقد وعظتك ان قبلت عظاتي.

وكان أبو القاسم عبد الرحمن هذا مؤدّباً لأبي طاهر اسماعيل بن أحمد بن زيادة الله صاحب «المختار من شعر بشّار». وكان التجيبي (ت نحو ٤٤٥ هـ) من أهل اللغة (بغية الوعاة ١٩٣)، وهو من القيروان وسكن المهدية ويعرف بالبرقي (تكملة الصلة) فلعلّ أصله كان من برقة (شرقي ليبيا اليوم). وقد كان عالماً بالآداب شاعراً مجوّداً ومن المصنفين للكتب دخل الأندلس، بعد سنة ٤٠٠ هـ فكان في مالقة سنة ٤٠٦ هـ ثمّ سار إلى مصر فرأيناه فيها سنة ٤١٥ هـ. وقد اجتمع به أبو مروان الطبني في الاسكندرية سنة ٤٣٨. ورأى ابن الابّار شيئاً بخط أبي طاهر مؤرخاً في جمادى الأخرة من سنة ٤٤١ (تشرين الثاني - نوفمبر ١٠٤٩ م).

(١) الدمية: الصورة الجميلة (أو التمثال الصغير الجميل، أو اللعبة على هيئة فتاة جميلة). شبيهات الدمى: نساء جميلات جداً. صرع: ألقى (خصمه) أرضاً، (قتله). الظلم (بفتح الظاء): ماء الأسنان وبريقها (لونها الأبيض). اللمى: سمرة في الشفتين (من مظاهر الجمال البدوي).

بعدَ ما قلتُ تناهتْ صَبْوتي رَجَعَتْــني مُستهامـاً مُغْرَمـا[١].
لائمي، أقْصِرْ فإنّي كُلّما زِدتَّ لَوْماً زاد سمعي صَمَما[٢].
بأبي من جاءني مُعتذِراً وَجِــلاً مِمّــا جَنـاهُ نَدِمـا[٣]
فرأيتُ البدرَ من طَلعتهِ ضاحكًـا مـن وجهـه مُبْتَسِما.
زائرٌ أسألُ عنه مُقْلتي هــل رأتْـه يَقظـةً[٤] أم حُلُما؟
كيـف تخفى زَوْرةُ الصُبحِ وقد فَتّــحَ الروضَ وجلّـى الظُلَما.
عَجَبًا من سَقَمٍ في طَرْفِه يُورِث الجسم ويَشْفي السَقَما[٥].
قـد أعـارَ الكـأسَ منه وَجْنةً وثَنايًـــا ورضُـابًـــا وفَـما.[٦]
كيـــف أعتــدُّ بلُقيـا هـاجـرٍ قَبْلَما حاولَ وَصْلي صرَما[٧]؟
لو تجاسرتُ عــلى الفَتْــكِ بـه لم أعُدْ أقرَعُ سِنّي نَدَما.
أيُّ شيءٍ ضرّنـي لـو أنــــني كنـتُ في الحِـلِّ طَرَقْتُ الحَرَما[٨]؟
ولقـد ذُقْـتُ بـكـاسـاتِ الـهـوى عَسلاً طَوْراً وطوراً عَلْقما.

---

(١) الصبوة: ميل الانسان إلى الحبّ. تناهت: بلغت منتهاها، انتهت، بطلت (بالتقدّم في السنّ). رجع (بلا تشديد) فعل لازم ومتعدّ. رجعتني (بلا تشديد للجيم): ردّتني، أعادتني. مغرم (شديد الحبّ والتعلّق بالمحبوب) مستهام (كاد الحبّ يذهب بعقله).

(٢) لائمي = يا لائمي. أقصر: أقلل من لومك إيّاي.

(٣) وجلا: خائفا. جناه: أذنب فيه. ندما = نادما.

(٤) اليقظة (يجب أن تكون بفتح القاف).

(٥) سقم في طرفه: من فتور في عينيه (من الدلال والنعمة والجمال) في الأصل يورث الجسم. والبلاغة والشاعرية تقتضيان أن يقول الشاعر: يورث السقم (بضمّ السين: إذا هجر) ويشفي السقم (إذا وصل، أنعم علِى المحبّ).

(٦) قد أعار الكأس (الخمر) منه وجنة (لوناً أحمر جميلا كلون وجنته: خدّه) وثنايا (حببا أبيض يعلو صفحة الخمر في الكأس كبياض ثناياه: أسنانه). ورضابا (طعما حلوا كريقه) وفما (رائحة طيّبة كرائحة فمه).

(٧) كيف أعتدّ (أحسب، أجد ربحا في) لقيا.هاجر (لقاء حبيبي الذي كان قد هجرني طويلا). صرم: قطع.

(٨) الحلّ: كلّ مكان خارج مكان الحجّ أو زمن الحج في مكّة. الحرم (تورية) مساحة حول مكّة يحرم فيها الصيد في أيام الحجّ. والحرم: المكان الذي يحرم من جسم المحبوب.

وجليسٍ قد شَنِئْنا شخصَهُ   مُذْ عَرَفْناه مُلِحًّا مُبْرِمًا[1].
ثَقَّلَ الوَطْأَةَ في زَوْرَتِهِ   ثُمّ ما وَدّعَ حتّى سَلّما.
بعضُ ما لاقَيْتُ منه أنّه   نفّرَ الرِئمَ الذي قد رَئِما[2].

★ ★

وأعزُّ الخلقِ طُرًّا عائذٌ   برئيسِ الرؤساءِ اعْتَصَما.
نحنُ منه في جنانٍ ورع   نَلْبَسُ العِزَّ ونَجْني النِعَما[3].
قد بَلَوْناهُ على عِلاّتِهِ   فبَلَوْنا العارِضَ المُنْسَجِما[4].

٤ - ★★ بروكلمن ١: ٣١٧، الملحق ١: ٤٧٤؛ تاريخ الأدب العربي في صقلّية (تأليف ريزيتانو) ص ١٢١ - ١٢٥؛ راجع الخريدة (تحقيق الدسوقي وعبد العظيم) ٤: ٢: ١٢٨ - ١٢٩.

الشقراطيسيّ

١ - هو أبو محمدٍ عبدُ الله بنُ يحيى (ت ٤٢٩ هـ) بنِ عليٍّ بنِ زكريا التوزريُّ الشقراطيسيّ، نِسبةً إلى قلعة قديمة كانت بالقُرب من قَفْصةَ (في تُونِسَ) تسمّى شقراطس.

وُلِدَ الشقراطيسيُّ في تَوْزرَ (جَنوبيَّ القُطر التونسي) وعاش فيها. وتلقّى العلم على والدِه وعلى غيرِه. وفي سَنَةِ ٤٢٩ رَحَلَ إلى المشرق وحجّ وزار (المدينة). وفي أثناء رِحلته (ذَهاباً أو إياباً) اتفق نُزولٌ للفِرنْجةِ (الصليبيّين) في مِصرَ فاشترك في مقاتلتهم.

---

(١) شنئنا: أبغضنا، كرهنا. شخصه (حضوره في مجلسنا). المبرم: الذي يملّ الناس منه.

(٢) نفّر الرئم (الغزال الأبيض، المحبوب). رئم: عطف. كان المحبوب قد عزم على أن ينيلني مرادي منه، فلما رآه هرب.

(٣) جنان ورع (؟). جنان (بالفتح: القلب، وبالكسر جمع جنّة). نجني: نقطف، ننال.

(٤) بلوناه: اختبرناه. على علاّته: في جميع أحواله وعلى ما كان منه من نقص أحياناً. العارض: السحاب (الكثيف). المنسجم: الهاطل (الساقط) بكثرة.

ويبدو أنه أبلى في هذا القتالِ بَلاءً حَسَناً، إذ له في ذلك قصيدةٌ تدُلّ على مَتانةٍ وجمال، منها:

واسمَرَ عَسّالِ الكُعوبِ سَقَيْتُه نَجيعَ الطُلى والخيلُ تَدْمى نُحورُها[1].

وعادَ الشقراطيسيُّ إلى تَوْزرَ فأفتى فيها ودرّس. وكانتْ وفاتُه في ثامن ربيعٍ الأوَّلِ من سَنَةِ ٤٦٦ (١٠٧٣/١١/١١ م).

٢ - كان الشقراطيسيُّ من فقهاءِ بلدةِ تَوْزرَ ومن القضاة فيها، وقد بَرَعَ أيضاً في شيء من النثر والشعر. واشتهر ببَدِيعيّة (قصيدةٍ في مدحِ الرسول) عُرِفَتْ بلامية الشقراطيسي، تبلُغُ نحوَ مائةٍ وثلاثةٍ وثلاثينَ بيتاً أورد فيها الشقراطيسي أشياءَ من السِيرة (حياة رسول الله) من أحداث وغزوات ومعجزات. وفي هذه القصيدةِ وجهانِ من أوجهِ الضَعْف: المبالغةُ في الصِناعة اللفظية (الجِناس والطِباق) خاصةً (ممّا يجعل المعانِيَ في أكثرِ الأحيان غامضةً) ثمّ ضَعفٌ في اللغة (في استعمال الألفاظ وفي التراكيب). ولكن لا شكّ في أن البوصيري (ت ٦٩٤ هـ)[2] قد نَظَرَ إلى هذه القصيدةِ لمّا نظم قصيدتَه البُرْدَةَ: «أمِنْ تذكُّر جيرانٍ بذي سَلَمِ ؟». وقدِ اهتّم بهذه القصيدةِ نفرٌ كثيرون فشطّروها أو خمّسوها أو شَرَحوها. وكذلك أصابَ الذين انتقدوا ما فيها من الغُلُوِّ في التَصنيع (أوجه البلاغة).

٣ - مختارات من شعره

- منتخبات من القصيدة الشقراطيسية:

الحمدُ للهِ، منّا باعثُ الرسلِ هَدَى بأحمدَ منّا أحْمَدَ السُبُلِ[3].
خيرُ البَريّةِ من بَدْوٍ ومن حَضَرٍ وأكرمُ الخَلْقِ من حافٍ ومُنْتَعِلِ.
توراةُ موسى أتتْ عنه فصَدّقها إنجيلُ عيسى بحقٍّ غيرِ مُفْتَعلِ[4].

---

(١) أسمر: رمح. عسّال: اللين الذي يهتزَ. الكعوب (جمع كعب): العقد التي في قناة (قصبة) الرمح. نجيع: دم. الطلا (بالضمَ) جمع طلاة (بالضمّ): العنق.

(٢) راجع، فوق، الجزء الثالث.

(٣) أحمد (الأولى): محمّد رسول الله واحد (الثانية): أحسن.

(٤) جاء ذكر بعثة رسول الله في التوراة وفي الانجيل.

أخبارُ أحبارِ أهلِ الكُتْبِ قد وَرَدَتْ ... عمّا رأوْا أو رَوَوْا في الأعصُرِ الأُوَل.

ضـاءتْ بمَوْلـده الآفـاقُ واتّصلـتْ ... بُشرى الهواتفِ في الإشراق والطَفَل[1].

وصَرْحُ كِسرى تداعـى من قواعِـدِه ... وانقضَّ منكسرَ الأرجاءِ ذا مَيَل[2].

ونـارُ فـارسَ لم توقَدْ، وما خَمَدَتْ ... مُذْ ألفِ عامٍ، ونَهْرُ القوم لم يَسِل[3].

خرّتْ لَمبْعَثه الأوثانُ وانبعثتْ ... ثواقـبُ الشُهْبِ تَرْمي الجنَّ بالشُعَل

والجِذْعُ حنّ لأنْ فارَقَتَه أسفاً ... حنـينَ ثَكْلى شَجَتْها لَوْعةُ الثَكَل[4].

ما صبرُ مَنْ صارَ من عينٍ إلى أثرٍ ... وحالُ من حالَ من حَلْيٍ إلى عَطَل[5]؟

دعوتَ للخَلْـق عامَ المَحْل مُبْتَهِلاً، ... أفْدِيكَ في الخَلْق من داعٍ ومُبْتهل[6].

صَعَّدتَّ كَفيْـكَ إذْ كـفّ الغَمامُ فما ... صَوّبتَ إلاّ بِصَوْبِ الواكِفِ الهَطِل[7].

أراقَ بـالأرض ثَجّـاً صَوْبَ رَيِّقـه ... فحـلّ بالرَوْضِ نَسجاً رائقَ الحلل[8].

زُهْرٌ من النُورِ حَلتْ روضَ أرْضِهِمُ ... زَهْراً من النَّوْرِ ضافي النَبْتِ مُكْتَهِل[9].

من كـلّ غُصْنٍ نضـيرٍ مُورِقٍ خَضِرٍ ... وكلٍّ نَوْرٍ نَضيدٍ مُورِقٍ خَضِل[10].

تحيـةٌ أحيـتِ الأحيـاءَ من مُضَرٍ، ... بعـد المَضَرّةِ تَرْوي السُبْلَ بالسيل[11].

---

(١) الهاتفة: المنادية (من غير أن يراها أحد). الطفل: الوقت الذي تقترب فيه الشمس من المغيب.

(٢) الميل (بفتح ففتح): الاعوجاج. من الأحداث التاريخية الثابتة أن ايوان (قصر) كسرى انشقّ (بزلزال) في نحو الزمن الذي ولد فيه محمد رسول الله.

(٣) وكذلك غاض ماء بحيرة ساوة في فارس (بفعل الزلزال نفسه) وانطفأت النار التي كانت تشتعل في الهيكل للعبادة.

(٤) شجاه الأمر: حزنه وأحزنه. اللوعة: مرض الحزن أو الحب. الثكل (بفتح ففتح أو بضم فسكون): موت الأولاد.

(٥) الحلي: لَبس الحلي (من الذهب وغيره). العطل: التجرّد من أسباب الزينة

(٦) المحل: القحط وانحباس المطر. دعوت: استسقيت (طلبت من الله أن ينزل المطر).

(٧) صعدت: رفعت. صوبت: خفضت (كفّيك) بصوب الواكف الهطل. بانسكاب المطر الغزير.

(٨) أراق: صبّ. الثّج: الانصباب الشديد (للمطر). الريق (أول المطر). نسج رائق (يعجب العين). الحلل (اللباس): كناية عن كثرة النبات والزهر على وجه الأرض.

(٩) الزهر (بالضم): النجوم و(بالفتح) أزهار النبات. مكتهل: ناضج، واف، كثير.

(١٠) نضير: ريّان (طري) من الماء. نضيد: منظوم، مرتب. خضل: مبتل.

(١١) تحيّة (من المطر). الأحياء: منازل القبائل. مضر (العرب). السبل: الطرق (السائرون على الطرق): السيل (بفتح وسكون): جريان الماء (حرّك الشاعر الياء لضرورة الشعر).

دامتْ على الأرض سَبْعاً غيرَ مُقْلعَةٍ، لولا دعاؤُك بالإقلاع لم تَزُل[١].
أعجزتَ بالوَحْيِ أربابَ البلاغةِ في عصرِ البيانِ فضلّتْ أوجهَ الحِيَل[٢].
سألتَهُمْ سُورةً في مثلِ حكمتهِ فتَلَّهُمْ عنه حَيْنُ العَجْزِ حين تُلي[٣].

بَرِئتَ من دينِ قومٍ لا قَوامَ لهم: عُقولُهم من وِثاقِ الغَيِّ في عُقُل[٤].
يستخبرون خَفِيَّ الغيبِ من حَجَرٍ صَلْدٍ، ويَرْجون غَوْثَ النصْرِ من هُبَلِ[٥]
نالوا أذىً منك لولا حِلْمُ خالِقِهِمْ؛ وحُجَّةُ اللهِ بالإعذارِ لم تُنَل[٦].
واستضعفوا أهلَ دينِ الله فاصطبروا لكلِ مُعْضِلِ خَطْبٍ فادحٍ جَلَل[٧].
أزَحْتَ بالسيفِ ظهرَ الأرضِ من نفرٍ أزَحْتَ بالصِدْقِ منهم كاذبَ العِلَل[٨].
تركتَ بالكُفرِ صَدعاً غيرَ مُلْتَئِمٍ، وآبَ عنك بقرحٍ غيرِ مندمل[٩].
وأفْلَتَ السيفُ منهم كلَّ ذي أسفٍ على الحِمام حَمَاهُ آجلُ الأَجَل[١٠].
ويومَ مكّةَ إذ أشرفتَ في أُمَمٍ يَضيقُ منها فِجاجُ الوَعْثِ والسهل[١١].
خوافقٌ ضاقَ ذَرْعُ الخافقينِ بها في قاتمٍ من عَجاجِ الخيلِ والإبلِ[١٢].

---

(١) سبعا: سبع ليال. أقلع المطر: وقف عن السقوط. - ولولا أنّك دعوت الله ليقف هطول المطر (كما كنت قد دعوته لانزال المطر) لاستمر المطر في هطوله بلا انقطاع.

(٢) ضلّت أوجه (بالرفع) الحيل: لم يكن هنالك حيلة (وسيلة) لمباراة نظم القرآن (لأنه وحي). (وبالنصب): أرباب (أصحاب) البلاغة ضلّوا (لم يهتدوا) إلى وجه يستطيعون به تقليد نظم القرآن.

(٣) تلّه: كبّه على وجهه. حين (موت؟) تلي: قرىء.

(٤) العقل جمع عقال (بالكسر): الرباط.

(٥) صلد: يابس. هبل: صنم كبير كان في مكّة.

(٦) لو لم يرد الله بحلمه أن يدفع عنهم الأذى لنالهم أذى منك......

(٧) الخطب: الحادث العظيم (المصيبة) الفادح: الثقيل. المعضل: الذي لا دواء له. الجلل: الكبير.

(٨) أزحت (أزلت) كاذب العلل: ما يتعلّلون به لبقائهم على الوثنية (؟).

(٩) الصدع: الشقّ (بفتح الشين). آب: رجع. القرح (بالفتح أو الضمّ): الجرح. اندمل الجرح: انضمّ (برىء).

(١٠) الحمام: الموت - نجا من السيف نفر لأن آجالهم لم تنته، وهم يأسفون على أنّهم لم يموتوا (لأن بقاءهم كان عاراً عليهم....؟).

(١١) الفجّ (بالفتح): الطريق في الجبل، الطريق. الوعث: الطريق العسير. السهل (بفتح فسكون) الأرض اللينة (وحرّك الشاعر الهاء لضرورة الشعر).

(١٢) (الجماعات) الخوافق: الذين يذهبون في طول البلاد وعرضها. الخافقان: الأفقان (المشرق والمغرب). الذرع: القياس، المسافة، المساحة (بكسر الميم). العجاج: الغبار.

قالوا: «محمدُ قد زارتْ كتائبُهُ كالأُسْدِ تزأرُ في أنيابها العُصُل[١]

فويلُ مكّةَ من آثارِ وَطأتِه، وويلُ أمِّ قُريشٍ من جَوى الهبل[٢].

فجُدتَّ عَفواً بفضلِ العفوِ منك، ولم تُلمِمْ ولا بأليمِ اللَّوْم والعَذَل[٣].

عاذُوا بظِلٍّ كريمِ العفوِ ذي لَطَفٍ مُباركِ الوجهِ بالتوفيقِ مُشْتَمل[٤].

وحلَّ أمْنٌ ويُمْنٌ منك في يَمَنٍ لمّا أجابت إلى الإيمان عن عَجَل[٥].

وأصبحَ الدينُ قد حُفّتْ جوانبُه بعِزّةِ النصرِ واستولى على المِلَل.

قد طاعَ مُنحرفٌ منهم لمُعترفٍ وانقاد مُنْعدلٌ منهم لمعتدل[٦].

لم يَبْقَ للفرسِ ليثٌ غيرَ مُفترَسٍ، ولا من الحُبْشِ جيشٌ غيرَ مُنْجفِل[٧].

ولا من النُوب جِذْمٌ غير مُنْجَذِمٍ، ولا من الزَنْج جذل غيرَ مُنجذلِ[٨].

وسُلّ بالغَرْب غَرْبُ السيفِ إذ شَرِقَتْ بالشرقِ قبلُ صدورُ البِيض والأَسَل[٩].

وعادَ كلُّ عدوٍّ عزَّ جانبُه قد عاذَ منك ببَذْل غير مُبْتَذَل.[١٠]

يا صفوةَ الخلقِ، قد أصْفَيْتُ فيك صَفا صَفْوِ الودادِ بلا شَوْبٍ ولا دَخَلِ[١١].

- قال عبد الله الشقراطيسي في الفخر:

فلمّا تَجلّى الفَجْر من طُرّةِ الدُجى، وولَتْ بأعجازِ النجومِ صُدورُها؛

تَيَمَّمْتُ أسْدامَ المياه، ودونها مَجاثِمُ آجامِ القضا ووُكورها،

---

(١) محمّد رسول الله. وحقّ «محمّد التنوين» (ومنعه الشاعر من الصرف لضرورة الوزن). العصل جمع أعصل وعصلاء: (الناب) المعوجّة الصلبة.

(٢) ويل أم قريش = ويل قبيلة قريش. الجوى: شدة الحزن. الهبل: الثكل (موت الأولاد).

(٣) ألم: زار زيارة خفيفة و(هنا) عذل (عاتب) عتاباً قليلاً.

(٤) عاذوا: لجأوا إلى. مشتمل: عامّ، مغطّى بشملة. تكون الميم في «مشتمل» مكسورة (هو مشتمل بالتوفيق) والأصوب أن تكون مفتوحة (شمله (بفتح فكسر) الله بالتوفيق.

(٥) اليمن (بالضمّ): البركة، النعمة. أجابت إلى الايمان (دخل أهل اليمن في الاسلام).

(٦) طاعه وأطاعه بمعنى. المنحرف: المائل (عن الدين) المعترف (المقرّ بالإسلام). منعدل ليست في القاموس (يقصد: المائل، الجائر، المنحرف). المعتدل (السائر على الطريق العدل أو الحق: الإسلام).

(٧) المنجفل: المطرود الشارد.

(٨) الجذم: الأصل. منجذم: منقطع (مقطوع من أصله). الجذل: الجذم.

(٩) غرب السيف: حدّه. الغرب (المغرب من الأرض). شرق: غصّ (امتلأ). قبل (من قبل). البيض (السيوف) والأسل (الرماح).

(١٠) عاذ: لجأ. بذل: عطاء (عفو) غير مبتذل (لا يمنح لكلّ من يطلبه).

(١١) الشوب: المزج، الخلط. الدخل: الفساد، العيب، المرض، الريبة.

بقلبٍ رَبيطِ الجأشِ مُتَّسِعِ الحَشا ... على الهَوْل مجموعِ الحَصاةِ وقورها.
وأسْمَرَ عَسّالِ الكُعوبِ سَقَيْتُه ... نجيعَ الطُلى والخيلُ تَدْمى نُحورها.
وقد عَلِمِ الأبطالُ كَرِّيَ فيهِمُ ... إذا جاحمُ الهيجاءِ شُبَّ سَعيرها.

٤- عبد الله الشقراطيسي (في: أعلام الأفارقة)، تأليف الهادي مصطفى التوزري (نشره رابطة التضامن الأدبي بتونس)، تونس (مطبعة الترقي) ١٩٥٥ م.

★★ فهرست ابن خير ٤١٩، راجع ٥١٦؛ مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ٥٤: ١ (صفر ١٣٩٩/ كانون الثاني - يناير ١٩٧٩)..... القصيدة الشقراطيسية في مدح المصطفى (لعبد الله كنون)، ص ٨٦ - ١٠٦؛ ابن قنفذ ٢٥٣؛ مجمل تاريخ الأدب التونسي ١٦٣ - ١٦٧؛ عنوان الأريب ١: ٤٢ - ٤٣؛ المرحلة المغربية (جدّو) ٤٠؛ بروكلمن ١: ٣١٦، الملحق ١: ٤٧٣؛ الأعلام للزركلي (٤: ١٤٤ - ١٤٥).

ابن حيّان المؤرّخ

١ - هو أبو مروانَ حَيّانُ بنُ خَلَفِ بنِ حُسينِ بنِ حيّانَ بنِ محمّدِ بنِ حيّانَ بنِ وهْبِ ابنِ حيّانَ؛ وحيّانُ هذا (والدُ وَهْبٍ) كان مولًى للأمير عبدِ الرحمن الداخل. وكذلك كان أبوه (خَلَفُ بنُ حُسين) كاتباً للمنصورِ بن أبي عامرٍ، وقدّ أثّرَ باتّجاههِ الأُمويّ الشديدِ في قِيامِ سياسةٍ مُعاديةٍ لملوكِ الطوائف.

وُلِدَ ابنُ حيّانَ سَنَةَ ٣٧٧ (٩٨٧ م) في قُرطُبةَ ونشأ فيها، وتلقّى العلمَ على أبيهِ ثمّ على أبي عمرٍو أحمدَ بنِ عبدِ العزيز بنِ أبي الحُبابِ النَحْويّ (ت ٤٠٠ هـ) وأبي حَفْصٍ عُمَرَ بنِ حسينِ بنِ نابلٍ (ت ٤٠١ هـ) وأبي العَلاءِ صاعدٍ البَغْداديّ (ت ٤١٧ هـ).

وشَغَلَ ابنُ حيّانَ مَنْصِبَ صاحبِ الشُرطة (أو صاحب المدينة) في قُرطبةَ ثمّ وَلِيَ الوَزارةَ لأبي الوليدِ محمّدِ بنِ جَهْوَرٍ (٤٣٥ - ٤٥٠ هـ) ثمّ لابنهِ عبدِ الملك (٤٥٠ - ٤٦١ هـ)، ولكنّنا لا نعلَمُ مُدّةَ بقائهِ في الوزارة. وخالفَ ابنُ حيّانَ سياسةَ أهلهِ فتقرّبَ إلى بني ذي النونِ أصْحابِ طُلَيْطُلَةَ. ولمّا استولى المعتمدُ بنُ عبّادٍ على إشبيليةَ من يدِ بني جَهْورٍ، سَنَةَ ٤٦٢ (١٠٧٠ م) كتب ابنُ حيّانَ إليه رسالةَ تهنئةٍ.

وقد كانتْ وفاةُ ابنِ حيّان في ٢٨ من ربيعِ الأوّلِ من سَنَةِ ٤٦٩

(٣٠/١٠/١٠٧٦ م) ودُفِن في مقبرة الرَبَض في قُرطبةَ.

٢ - كانَ ابنُ حيّانَ رجلاً سياسِيّاً مُتَقلِّبَ الهَوى، ولكنّه كان « مؤرِّخَ الأندلسِ والدولةِ الأموية فيها، إمامَ أهلِ الصِناعة (صناعة التاريخ) في هذِه الملكة (المملكة) ورافعَ الراية لهم فيها » (مقدّمة ابن خلدون ٥٦٥/١٠٩٠) واسعَ الاطّلاعِ موثوقَ الروايةِ وافرَ الحظِّ من فنونِ العلمِ والأدَب. وكانت له كتبٌ عرَفْنا منها: المَتين - المآثر العامرية (أخبار الدولة العامرية) - البطشة الكبرى (سقوط أبي الوليد ابن جهور) - كتاب المقتبس في أخبار بَلَد الاندلس - كتاب معرفة الصحابة. وكتاب المقتبس أجلُّ كتبهِ، وقد كان في الاصل عشرةَ أجزاءٍ تتناول تاريخ الاندلس منذُ افتتاحِها إلى أيام المؤلّف، ولكن لم يَبْقَ لنا منه سوى أربعةِ أجزاء تتناول أحداث الاندلس من سَنَةِ ١٨٠ إلى سنة ٣٦٧ للهِجْرةِ (٧٩٦ - ٩٧٧ م).. ويورد ابن حيّان تاريخ الاندلس في هذا الكتاب على السنين وبتفصيل وافٍ ودقّةٍ بالغة ثمّ يستطرد عادة إلى الاحوال الاجتماعية والأدبية والطبيعية كذِكْرِه « خَبَرَ الصَبِيّ المتفاوتِ الخَلْق »، فقد وُلِدَ هذا الصبيُّ ونما في جسمهِ وكلامه فوق المُشاهَدِ في العادة (المقتبس، دار الثقافة - بيروت، ١٩٦٥ م، ص ٦٢). وكان جُلُّ اعتمادِ ابنِ حيّانَ في أحداثِ التاريخ على كتابين لأحمدَ بنِ محمّدٍ الرازيِّ (ت ٣٤٤ هـ) هما: كتاب أخبار ملوك الأندلس وكتاب الاستِيعاب لأنسابِ أهلِ الاندلس (والكتابان لم يَصِلا إلينا).

٣ - المختار من آثاره

- من منهج ابن حيّان في تدوين التاريخ: الفتنة البربرية:

... فأنْعَمْتُ البحثَ عن ذلك عند من بَقِيَ يومئذٍ من أهلِ العلم والأدب لدينا، فلم أظفرْ منه الاّ بما لا قَدْرَ له لزهدِ مَنْ قِبَلَنا قديماً وحديثاً في هذا الفنّ ونَفْيِهم له عن أنواع العلم.... وَشَرَعْتُ في التفنيدغِبَّذلك التفنيد[1] غير مُخِلّ به، ووصلتُ القولَ في ما فاتني قبلُ من ذِكْرِ انبعاثِ تلك الفتنةِ وأخبارِ ملوكِها ومشهورِ حروبها ممّا

---

(١) فنّدفلان فلاناً (في القاموس): كذّبه وعجّزه وأبطل رأيه. غب: بعد. ولعل التفنيد هنا: التفصيل فنداً فنداً (من الفارسية: بند). لعل الجملة: فشرعت في « التقييد » بعد « التفنيد »

أصَبْتُ[١] به عندي تذكرةً أو أخذته عن ثِقَةٍ، أو وصلتني به مشاهدةٌ أو حاشته[٢] إليّ مذاكرةٌ، حتّى نظمت أخبارَها إلى وقتي، وجئتُ بها على وجوهها وأوردتّها على سُبوغها[٣] ناشراً مطاويها ومُعْلِناً بخوافيها، غيرَ محابٍ ولا خائفٍ في الصدق عليها....

فركِبْتُ سَنَنَ[٤] مَنْ تقدّمني في ما جمعتُه من أخبارِ هذه الفتنةِ البربرية[٥]، ونظمته وكشفت عنه، وأوْعَبْتُ[٦] فيه ذكرَ دُوَلِهِمُ المُضْطربةِ وسياساتِهم المُنَفّرة وأسبابِ كبارِ الأمراء المُنْتَزِينَ[٧] في البلاد عليهم وسببِ انتفاضِ دولهم (حالٍ فحالٍ بأيديهم) ومشهورِ سيرتهم وأخبارهم وما جرى في مُدَدِهم وأعْصارهم من الحروب والطوائل والوقائع والملاحم[٨]، إلى ذكر مقاتل الأعلام والفرسان ووَفاة العلماء والأشراف حَسْبَ ما انتهت إليه معرفتي ونالَتْهُ طاقتي.

- موت زاوي بنِ زيري[٩] (الذخيرة ١ : ٥٨٨):

ونُعِيَ إلينا عدُوٌّ نفسِه زاوي بنُ زيري مُوقِدُ الفِتنةِ بعدَ الدولة العامرية[١٠]. وَرَدَ النبأُ بِمَهْلِكهِ في القَيْروانِ وطنِهِ، بعدَ مُنْصَرَفِهِ إليها خامِلاً مغموراً بينَ أعاظمِ قومِه لم يرتفعْ له ذِكْرٌ بينَهم[١١]. مَهْلِكُه كان - زعموا - مِنْ طاعونةٍ[١٢] أصابَتْه. فالحمد للهِ

---

(١) أصبت: وجدت.

(٢) حاش: جمع.

(٣) السبوغ: التفصيل.

(٤) السنن: الطريق، الطريقة.

(٥) البربرية: التي قام بها بربر افريقية على عرب الاندلس.

(٦) أوعب (بالباء) وأوعى بمعنى واحد: جمع الأشياء ولم يترك منها شيئاً.

(٧) المنتزي: الثائر.

(٨) الطائلة: العداوة، الثأر. الواقعة: الحادثة. الملحمة: المعركة الكبيرة.

(٩) زاوي بن زيري من زعماء البربر تآمر مع علي بن حمود البربري وغدرا بالخليفة سليمان المستعين فخلعاه (سنة ٤٠٧) ثم قتلاه.

(١٠) الدولة (الوزارة) التي كان قد أنشأها المنصور بن أبي عامر (ت ٣٩٢) واستبد فيها بأمور الخلافة ثم خلفه فيها ولدان له وانتهت بسقوط الخلافة الأموية في قرطبة (٤٢٢ هـ)

(١١) إن غدر زاوي بن زيري لم يجعل له مكانة بين قومه البربر.

(١٢) طاعونة (بثرة أو خراج - بضم الخاء وفتح الراء بلا تشديد - تخرج للإنسان في مرض الطاعون أو في ما يشبهه).

المُنْفَرِدِ بإهلاكِه الكفيلِ بقِصاصه. فلقد كان، في الظُّلم والجَوْر والاستحلالِ للمحارم[1] و(في) القسوة، آيةً من آيات الله[2]. أهانَ اللهُ مَثْواه ولا قدّس صَداه[3].

٤ - تاريخ دولة الأمير عبد الله الأمويّ بقرطبة (نشره ملشور أنطونيه)، باريس (كتنر) ١٩٢٨، ١٩٣٧ م.

- المقتبس في أخبار بلد الأندلس (تحقيق عبد الرحمن عليّ الحجّي)، بيروت (دار الثقافة) ١٩٦٥ م.

- المقتبس من أنباء أهل الأندلس (حقّقه محمود علي مكّي)، بيروت (دار الكتاب العربي) ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م.

★★ جذوة المقتبس ١٨٨ - ٢٠٠ (الدار المصرية) (رقم ٣٩٧)؛ بغية الملتمس ٢٦١؛ الذخيرة ١ : ٥٧٣ - ٦١٤؛ الصلة ١٥٠ - ١٥١؛ المغرب ١ : ١١٧؛ وفيات الأعيان ٢ : ٢١٨ - ٢١٩؛ إعتاب الكتاب ١٩٨؛ نفح الطيب (راجع الفهرس في أماكن كثيرة أكثرها نقول)؛ شذرات الذهب ٣ : ٣٣٣؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣ : ٧٨٩ - ٧٩٠؛ بروكلمن ١ : ٤١٢ - ٤١٣؛ الملحق ١ : ٥٧٨؛ الأعلام للزركلي ٢ : ٣٢٨ (٢٨٩)؛ بالنثيا ٢٠٨ - ٢١١؛ العربي (الكويت) ٣/١٩٦٦، ص ٤٨.

محمّد بن خلصة

١ - هو أبو عبدِ اللهِ محمّدُ بنُ خلصة الشذونيّ[4]، يُقال له البصيرُ وكان أعْمَى.

---

(١) الجور: الظلم. استحلال المحارم: الجرأة على فعل ما حرّمه الله (الاعتداء على نسوةٍ لا يحللن (بضم اللام الأولى وتسكين الثانية) له.

(٢) آية من آيات الله (نموذج نادر شاذّ).

(٣) المثوى (القبر). الصدى (الهلاك، الموت، الجثة).

(٤) جاءت كلمة «خلصة» في المصادر المنشورة بالطبع على صور مختلفة. في القاموس (٢ : ٣٠١): الخلصة (بفتح ففتح): نبات و(بفتح ففتح أو بضمّ فضمّ): بيت كان يدعى الكعبة اليمانية. وفي القاموس أيضاً (٤ : ٢٣٩): شذونة ومنها أبو عبد الله بن خلصة (بفتح ففتح) النحوي. وقبل ذلك محمدُ أبو الفضل ابراهيم (انباه الرواة ٣ : ١٢٥). وأمّا محمّد بن تاويت الطنجي (جذوة المقتبس ٥١) وابراهيم الابياري وطه حسين (المقتضب ٢٠) فاختاروا فتح الخاء وسكون اللام. واختار أحمد زكي (نكت الهميان ٢٤٨) ضمّ الخاء وسكون اللام. ولا شكّ في أن احسان عبّاس قد توقف أمام هذه المشكلة فاختار اهمال الكلمة فلم يضبطها (نفح الطيب ٤ : ١١٠، ١٥٦، ٧ : ٣٠). أمّا كلمة شذونة فالمشهور فيها والمعمول به فتح الشين وضمّ الذال (راجع القاموس ٤ : ٢٣٩). ولكنّ محمّد أبا الفضل ابراهيم ضبطها (انباه الرواة ٣ : ١٢٥) بفتح الشين وسكون الذال وفتح الواو اعتمادا على السمعاني.

أخذ عنِ ابنِ سِيدَه (ت ٤٥٨ هـ) ثمّ تَصدّرَ للتدريس في دانيةَ (بشرق الأندلس) بعدَ سَنَةِ ٤٤٠ هـ. وكان أيضاً يتكسّبُ بالشعر، وقد مَدَحَ أحمدَ بنَ سُليمانَ بنِ هودٍ لمّا استولى على دانية، سَنَةَ ٤٦٨ هـ (١٠٧٥ - ١٠٧٦ م). ويبدو أنّه تُوُفِّيَ سَنَةَ ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ م) أو قَبْلَها بقليلٍ.

٢ - بَرَعَ مُحمّد بن خلصةَ في اللُّغة والنحو وكانَ شاعراً مُجيداً فنونُه المدحُ والغزلُ والوصف. وشِعرُه عذبٌ مَشرقيٌّ الدِيباجةِ فَخْمٌ واضحٌ حَسَنُ الصِناعة مَعَ أنّه يتكلّفها أحياناً.

٣ - مختارات من شعره

- قال مُحمّدُ بنُ خلصة الشذونيّ في النسيب:

أمُدْنَفُ نفسٍ ذو هوًى أم جَليدُها … غَداةَ غدتْ في حَلْبةِ البَيْنِ غِيدُها[١]؟
وقد كَنَفَتْ مِنْهنّ أكنافُ مَنْعِجٍ … عباديدَ ساداتُ الرجالِ عبيدُها[٢].
تبادَرْنَ أستارَ القِبابِ كما بَدَتْ … بدورٌ، ولكنّ البروجَ عُقودُها[٣].
تَخُدُّ بألحاظِ العيونِ خدودَها، … وترهَبُ أن تنقدَّ ليناً قُدودُها[٤].
فيا لَدِماءِ الأُسْدِ تَسفِكُها الدُّمى … وللصِيدِ من عُفْرِ الظِباءِ تَصيدها[٥].
وفوقَ الحَشايا كلُّ مُرْهَفَةِ الحَشا … حَشَتْ كَبِدي ناراً بَطيئاً خُمودُها[٦].

---

(١) المدنف: القريب من الهلاك. الجليد: المتصبّر، المتماسك. البين: البعاد، الهجر. - غداة غدت...الخ: حينما أخذت المحبوبات يتسابقن في هجر المحبّ.

(٢) كنفت (أحاطت) أكناف (أطراف). منعج بفتح الميم وكسر العين (تاج العروس - الكويت - ٦: ٢٤٤). عباديد تدلّ على عدد من المعاني لا توافق المعنى المراد (راجع تاج العروس ٨: ٣٣٧ - ٣٣٨). الشاعر يقصد النساء الجميلات (كالظباء التي في وادي منعج) الإماء المملوكات...

(٣) تسابقن ينظرن من وراء ستور القباب (الخيم الكبيرة: دلالة على غناهن وتنعّمهن وعلوّ مكانتهن في المجتمع. البروج: مجموعات نجوم (عددها اثنا عشر) كان القدماء يعتقدون أن الشمس تمر بها كلّها في عام كامل.

(٤) كذا في الاصول: تخدّ وترهب (بالتاء فيهما). ولعلّها بالنون: نخدّ (نجرّح) خدودها بألحاظنا (دلالة على نضارة وجوههن ورقّتها). تنقدّ: تنقطع.

(٥) الدمية: الصورة، التمثال (المرأة الجميلة). الصيد: الرجال الأشراف الشجعان. العفر: السمر.

(٦) الحشيّة: الفراش، الأريكة. مرهفة الحشا: ضامرة الخصر. وفوق الحشايا...(دلالة على التنعّم).

لَئِنْ زَعَموا أنّي سَلَوْتُ، لقد بَدَتْ دلائـلُ من شَكْواي عَدْلٌ شهودُها:
نُحولٌ كرَقْراقِ السَراب، وعَبْرة كما انْهَمَلَتْ غُرُّ السَحاب وسودُها[1].
لِتَفْـدِكِ أكبـادٌ ظِماءٌ أجَفَّها هواكِ وأجْفانٌ جَفاها هُجودُها[2].
ضَنَى جَسَدي إن كان يُرضيكِ بُرْؤه، وإتـلافُ نفسي في هواكِ خُلودها.
ولولا الهوى لم تَرْضَ نفسٌ نفيسةٌ هواناً، ولكنْ حبُّ نفس قؤودها[3].

٤ - ★★ الذخيرة ٣: ٣٢٢ - ٣٣١؛ جذوة المقتبس ١: ٥٤ - ٥٥ (رقم ٤٩)؛ بغية الملتمس ٦٤ - ٦٥ (رقم ١١١)؛ المحمدون من الشعراء ٤١٠ - ٤١١؛ انباه الرواة ٣: ١٢٥؛ نكت الهميان ٢٤٨ - ٢٤٩؛ الوافي بالوفيات ٣: ٤٢ - ٤٣؛ المغرب ٢: ٣٩٣ - ٣٩٤؛ بغية الوعاة ٤٠؛ نفح الطيب ٤: ١٠٠ - ١٠١، ١٥٦.

ابن الأجدابيّ

١ - هو أبو إسحاقَ ابراهيمُ بنُ إسماعيلَ بنِ أحمدَ بنِ عبدِ الله اللُّواتي الطَرَابُلُسيُّ المَغْربِي المعروفُ بابنِ الأَجْدابيّ، نِسْبَةً إلى أحد أجدادِه الذي كان من أجدَابِيَة، وَهِيَ بلدةٌ على نحو مائةٍ وستين كيلو متراً جنوب بنغازي (ليبيا).

وُلِدَ ابن الأجدابيّ في طرابلُسَ ونشأ فيها وتعلّم على علمائها وعلى الذين كانوا يَفِدون إليها لأنّه لم يُبارِحْها قَطُّ. ولسنا نَعْرِفُ شيئاً من أحداثِ حَياته ولا نَعْرِفُ تاريخَ مَوْلده ووفاتِه. وإذا كان ابنُ الأجدابي هذا مُعاصِراً للقاضي أبي مُحمّدٍ عبدِ اللهِ ابنِ محمّدِ بنِ هانِشٍ[4] الذي تولّى القضاءَ في طَرابُلُسَ اثنتينِ وثلاثينَ سَنَة

---

(١) عبرة: دمعة. في السحاب الاسود ماء كثير.
(٢) لتفدك (لتكن فداء لك). هجود: النوم.
(٣) القؤود والقوود (من قاد): الذي ينقاد بسهولة - ولكن حبّ (محبوب) الانسان يحمل ذلك الانسان على قبول الذلّ والهوان.
(٤) نفحات النسرين والريحان ٧٢، ٨٦. ابن هانش كان قاضيا في طرابلس (الغرب) من سنة ٤٤٤ الى سنة ٤٧٦ (١٠٥٢ - ١٠٨٣ م) راجع أعلام ليبيا، ص ١٩٣.

(٤٤٤ - ٤٧٦ هـ) فَيَجِبُ أن يكونَ ابن الاجدابيّ من أحياءِ المائةِ الخامِسة[١]. وكان ابن الأَجدابي أحْوَلَ.

٢ - يبدو أنّ ابنَ الأجدابيّ كان مُلِمّاً بعددٍ من فُنونِ المعرفة كالحديثِ والفِقْهِ واللغة والصَرْفِ والنحو والأدبِ والتاريخ والحِساب والفَلَك، ولكنّ شُهرتَه في اللغة. ثمّ هو مُصَنِّفٌ مُكْثِرٌ، له: كِفايةُ المُتَحَفِّظِ ونهايةُ المُتَلَفِّظِ في اللُّغة العربية[٢] - كتابُ الردّ على أبي حفص في تَثْقيفِ اللِسان - كتابٌ في شرح الأسماء المُعْتَلّة بالياء وما يتّصلُ بها من تصغيرٍ وتكسير - كتابٌ في العَرْوض (كبير) - كتاب في العروض (صغير، مختصر) - مُخْتَصَرٌ في علم الانساب - مختصرُ كتابِ نَسَبِ قريش لأبي عبدِ اللهِ الزبيرِ بنِ بكّار - كتابُ الأزمنةِ والأنواء - كتابُ الحُول (جمع أحول).

٣ - مختارات من آثاره

- من مقدّمة « كفاية المتحفّظ »:

هذا كتاب مختصر في اللغة وما يُحتاج إليه من غريب الكلام، أودعناه كثيراً من الأسماء والصفات وجنّبناه حوشيّ الألفاظ واللغات وأعريناه من الشواهد ليسهل حفظه ويقرب تناوله. وجعلناه مغنياً لمن اقتصد في هذا الفن ومُعينا لمن أراد الاتساع فيه.

- من مقدّمة كتاب الأزمنة والأمكنة:

.... هذا كتابٌ مُخْتَصَرٌ أوْدَعناه أبواباً حَسَنَةً في علمِ الأزمنة وأساساتِها، والفصولِ وأوقاتها، ومناظِرِ النُجومِ وهَيْئاتها، بأوضَحِ ما أمْكَنَنا من التَبْيِينِ وبأسْهَلِ ما حَضَرَنا من التَقْريب.......

---

(١) في نفحات النسرين والريحان تضارب في اثبات تواريخ ولاية ابن هانش وتواريخ ابن الأجدابي. فصاحب نفحات النسرين والريحان يذكر أن وفاة ابن الاجدابيّ كانت في صدر المائة السابعة بعيد ٦٠٠ هـ ثمّ يجعله معاصرا لابن هانش. ولعلّ ما اختاره الزركلي (الاعلام ١ : ٢٥) قريب من الصواب اذ جعل وفاته سنة ٤٧٠ هـ.

(٢) كتاب في فقه اللغة (على مثال « فقه اللغة » للثعالبي).

- السَنَةُ (كتاب الأزمنة والأمكنة، ص ٣٠):

... وأمّا السَنَةُ فَهِيَ المُدّةُ الجامعةُ للفصولِ الأربعةِ التي هي الربيعُ والصيفُ والخريف والشتاء، ومِقْدارُها عندَ الروم والسُريانيّينَ اثْنا عَشَرَ شَهْراً شَمْسِيّةً، قد أُكْمِلَ الكَسْرُ في بَعْضِها فصارَ واحداً وثلاثينَ يوماً وأُسْقِطَ من بَعْضِها فصار ثلاثينَ يوماً لا غيرُ. ومِقدارُها عند القِبْطِ اثنا عَشَرَ شَهْراً شَمْسيّةً قد أُسْقِطَ الكَسْرُ من جَميعِها فصارَ كلُّ شهرٍ منها ثلاثين يوماً؛ ويَزيدونَ على ذلك خَمْسَةَ أيامٍ تُسمّى النَسيءَ عِوَضاً عن الكُسورِ التي أُسْقِطَتْ من كلِّ شَهْرٍ.

ومِقْدارُ السَنَةِ عندَ العَرَبِ اثنا عَشَرَ شَهْراً قَمَريّةً، وكذلك هي عند العِبرانيّين واليونانيّين، إلاّ أنّ هؤلاءِ يَزيدونَ في كلّ ثلاثِ سِنينَ من سِنِيهِم، شَهْراً فتكونُ الثالثةُ من سِنِيهمَ أبداً ثلاثةَ عَشَرَ شَهْراً قمريّةً يُسَمّونَها الكبيسةَ. وربّما كانت زيادتُهم لهذا الشهرِ في مُدّةِ سَنَتَيْنِ لأنّهم يفعْلون ذلك في كُلِّ تِسْعَ عَشْرَةَ سَنَة تِسْعَ مرّاتٍ[1].......

٤- كفاية المتحفّظ ونهاية المتلفّظ، القاهرة ١٢٨٥، ١٢٨٧، ١٣١٣؛ (نشره أحمد عبّاس)، بيروت ١٣٠٥ هـ؛ (في المجموعة اللغوية- نشرها مصطفى الزرقا)، حلب ١٣٤٥ هـ.

- كتاب الأزمنة والأمكنة (حقّقه عزّة حسن- نشرته وزارة الثقافة والإرشاد القومي الجمهورية العربية السورية: احياء التراث القديم، رقم ٩)، دمشق (دار سميراميس للطباعة والنشر) ١٩٦٤ م.

★★ معجم الأدباء ١: ١٣٠؛ انباه الرواة ١: ١٥٨؛ بغية الوعاة ١٧٨؛ رحلة التجاني ٢٦٢ - ٢٦٤؛ المنهل العذب ١: ١٥٤ - ١٥٦؛ أعلام ليبيا ٤ - ٥، أعلام طرابلس ١١٦ - ١٢٢؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٦٩؛ تاج العروس (الكويت) ٢: ١٤١؛ بروكلمن ١: ٣٧٥، الملحق ١: ٥٤١؛ مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ٣٣: ٣٤٩؛ مجلّة كلّية الآداب (الجامعة الليبية)، العدد الثالث ١٣٨٩ هـ= ١٩٦٩ م، ص ١٤٥ - ١٨٢؛ صوت الحقّ (المغرب) السنة الأولى، العدد الأوّل، ص ٣٣؛ الأعلام للزركلي ١: ٢٥ (٣٢).

---

(١) لأنّ السنة الشمسية في الحقيقة ثلاثمائة وخمسة وستّون يوما وربع يوم وكسر من الساعات.

إدريس بن اليمان

١ - هو أبو عليٍّ إدريسُ بنُ اليَمانِ بنِ سامٍ العَبْدريُّ اليابسيّ (نسبة إلى يابسةَ أصغرِ الجزرِ الشرقية - شرقَ الاندلس) الشبينيّ (نسبةً الى الشبين، وهو شجر الصَنَوْبر لأنه يكثُر في بلده). أصلُ أهله من قسطلّةِ الغربِ من عملِ شنت مريّةِ ابنِ هارونَ من مملكة شِلب حيثُ حكم بنو مَزيّن من ملوك الطوائف (٤١٩ - ٤٤٤ هـ). ويبدو أن مولده كان في جزيرةِ يابسةَ. ولقد نشأ وقرأ العلمَ في مدينة دانية (على الساحل الجنوبيّ الشرقي من الاندلس). ثم طال مُكثه فيها، وفيها بدأ حياته العامّةَ وعُرِفتْ مواهبُهُ الأدبية. بعدئذٍ أخـذ يتردّد على بلاطات ملوك الطوائف فَنَفَقَ شعره فيها وتكسب به: مدح ابن حمّود (لعلّه محمدُ المهديّ بن القاسم بن حمودٍ صاحب الجزيرة الخضراء من سنة ٤٣١ إلى سنة ٤٤٠) ومدح ابن مقنة وزير يحيى بن حمّودٍ صاحب مالَقة ومدح الموفّق مُجاهداً العامري في دانية (٤٠٨ - ٤٣٢ هـ) وابنَه اقبال الدولة (٤٣٦ - ٤٦٨ هـ) ومدح المأمون بن ذي النون في طليطلة (٤٢٩ - ٤٦٧ هـ) ثم مدح المعتضد بن عبّادٍ صاحب اشبيلية (٤٣٤ - ٤٦١ هـ).

وكانت وفاةُ ادريسَ بنِ اليمانِ اليابسيِّ سنة ٤٧٠ (١٠٧٧ م). وإذا نحن قبلنا أن يكون مدحه قد بدأ بابن مقنة وزير يحيى بن حمّودٍ - وكان يحيى قد حكم مالَقَةَ في فترتين بين سنة ٤١٢ وسنة ٤٢٧ (١٠٢١ - ١٠٣٥ م)، فيجب ان يكون قد عاش ثمانين سنة او تزيد.

٢ - إدريس بن اليمانِ اليابسي شاعرٌ جليل ومُكْثِرٌ مُطيلٌ، نَجِد في شعره الوُجدانيّ عُذوبةً. أمّا شِعْره الرسمي في الفخرِ والمديح ففيه تقليدٌ للمشارقةِ في الأغراض والأسلوب. وهُوَ مَعَ ذلك، في الأندلس، من فُحولِ الشعراء. ولم يكنْ بعدَ ابن دَرّاجٍ (راجع، فوق، ص ٣٧٧) من يجري مجراه في متَانة التركيب وعُلُوّ النفس. وقد تصرّف في المديح تصرّفاً حسناً، وكان يأخذ على القصيدة مائةَ دينارٍ. وغَزَلُه ونَسيبه حَسنانِ. وله وصف بارعٌ للخمر وللطبيعة: وله هِجاء.

٣ - مختارات من شعره

- من مشهور شعرِ (ادريس بن اليان) في المغرب والمشرق (نفح الطيب ٤ : ٧٥) في الخمر:

ثَقُلَتْ زُجاجاتٌ أَتَتْنا فُرَّغاً حتّى إذا مُلِئَتْ بِصِرْفِ الراحِ[١]،
خفَّتْ فكادتْ أن تطيرَ بما حَوَتْ، وكذا الجُسومُ تخِفّ بالأرواح.

- ومن أبياته المُستحسَنَة عندهم:

قُبلةٌ كانتْ على دَهَشٍ أذهَبَتْ ما بي من العَطَشِ[٢].
ولها في القلبِ مَنْزِلَةٌ لو عَدَتْها النفسُ لم تَعِشِ[٣].
طرقَتْني والدُجى لَبِسَتْ خِلَعاً من جِلدةِ الحنشِ[٤].
وكأنّ النجمَ حين بدا دِرْهمٌ في كفّ مُرْتَعِشِ.

- ومن أبياته القصيرة المُرقصة بألفاظها:

أقْبلتْ تَهْتزّ كالغُصْنِ وتَمْشي كالحَمامهْ
ظَبْيةٌ تحسُدُ عَيْنَيْها وخَدّيْها المُدامهْ[٥].

- وله في لِحْيةٍ طويلةٍ عريضة (المغرب ١ : ٤٠٠):

لو أنّها دونَ السماءِ سَحابةٌ لم تَخْتَرِقْها دعوةُ المظلومِ[٦].

- ومن شعرِه الفخم الذي يقلّد فيه المشارقة قولهُ:

لَبّيْكَ لبّيْكَ، داعي اللّهوِ من كَثَبِ إلى مُعاطفةِ الأغصانِ والكُثُبِ[٧]،

---

(١) صرف الراح: الراج (الخمر) الخالصة (غير الممزوجة بالماء).

(٢) دهش (بفتح فكسر) يدهش (بفتح الهاء) دهشا (بفتح ففتح) : ذهاب العقل او تحييره من خوف او حب او حياء.

(٣) عدتها: تجاوزتها.

(٤) من جلدة الحنش (حية سوداء كبيرة غير سامة): شديدة السواد.

(٥) المدامة: الخمر.

(٦) في الاثر: ان الشخص المظلوم اذا دعا الله فلا يكون بين دعوته وبين وصولها الى الله حجاب.

(٧) كثب (الاولى): قرب. الكثب (الثانية) جمع كثيب: التلة من الرمل العظيم المستدير. الاغصان (هنا): كناية عن قدود النساء، والكثب كناية عن اوساط النساء.

إلى خدودِ بناتِ الروم قد بَرَزتْ ... من حُجْبِها وأدارتْ أعيُنَ العَرَبِ،
من كلّ سافرةٍ عن مَشْربٍ خَجِلاً ... فيه طِرازانِ من ماء ومن لَهَبِ[1].
واستَضْحكتْ عن لآلٍ أو حَصَى بَرَدٍ ... يَكادُ يقطُرُ من مائيَّةِ الشَنَبِ[2].
يحدو بها فِتْيَةٌ صِيغتْ وُجوهُهُمُ ... من الرِضا وعواليهم من الغَضَبِ[3].
قد قارعوا دونَها كلَّ ابنِ قارعةٍ ... يهُبّ مُنغمساً في الحَرْب والحَرَبِ[4].
ماذا أقولُ لِدُنْيَا لو ظَفِرْتُ بها ... أدّبْتُها غَضَباً للظَرْفِ والأدبِ[5].
ألْقى الأحِبّةَ مخفوضَ الجَناح وَقد ... أختالُ تحتَ الرداءِ العضبُ ذو الشَطَبِ[6].

- وقال في فعل الخمر بشاربيها:

ومُوَسِّدينَ على الأكُفِّ رؤوسَهم ... قد غالَهُمْ في السُكْر ما قد غالَني[7].
مــا زِلْــتُ أسْقيهِمْ وأشربُ فَضْلَهُمْ ... حتّى انْثَنَيْتُ ونالَهم ما نالــني.
والخمرُ تَعْرِفُ كيف تأخـذُ حَقّهـا. ... إنّي أمَلْتُ إناءها فأمالَني[8].

- وقال في الوصف:

وفتيــانِ صــدقٍ عرّسوا تحتَ دَوْحةٍ ... وليس لهم الاّ النَبــاتُ فِراشُ[9].

---

(١) مشرب: فم. طرازان: صفان (من الاسنان) من ماء (ريق ابيض حلو زكي الرائحة) ومن لهب (كناية عن اشتعال العاطفة بالحب).

(٢) حصى (حجارة) برد: حبات البرد (قطرات الماء المتجمدة والساقطة مع المطر، كناية عن نظافتها وشدة بياضها). الشنب: اللون الابيض في الاسنان.

(٣) العالية: صدر الرمح (اعلاه). - هم في السلم يبدو الرضا على وجوههم (للجميع) وفي الحرب يكونون في غضب شديد على الخصم.

(٤) قارعوا دونها: قاتلوا ودافعوا (عنها). القارعة: الداهية (المصيبة). ابن قارعة الرجل المتمرس بالدهاء والاختبار. الحرب (بفتح ففتح): السلب.

(٥) ادبتها (عاقبتها بالضرب) غضبا (انتقاما) للظَرف والادب (لأنه ليس فيها او لا ينفع فيها الظرف - الحلاوة في الكلام وفي المعاملة مع النكتة).

(٦) مخفوض الجناح (الجانب) متواضع. ثم امشي الخيلاء (بضم ففتح) متعاظما متكبرا، اذا كنت احمل تحت ثوبي عضبا (سيفا قاطعا) ذا شطب (شقوق) لكثرة ما حاربت به. - يختال (فرحا) وهو ذاهب الى الحرب.

(٧) قوم جعلوا أكفّهم وسادة (ناموا من السكر أو التعب في غير فراش). غالهم: أهلكهم، (أتعبهم، ذهبت الخمر بوعيهم).

(٨) أملت اناءها (حنيته لأصب منه الخمر: شربت ما فيه من الخمر) فأمالني (حنى رأسي من النعاس).

(٩) عرّسوا: نزلوا في الليل، باتوا. دوحة: شجرة عظيمة.

فكأنّهم- والنَوْرُ يسقُـــطُ فوقَهم-   مصابيحُ تَهْوي نحوهُنّ فَراشُ[1].

- سأله المُعْتَضِدُ أن يمدحَهُ بقصيدةٍ يُعارِضُ بها قصيدتَه السِينيةَ التي مَدَحَ بها ابنَ حَمّودٍ فقال له: «أشعاري مشهورةٌ. وبناتُ صدري كريمة. فمن أرادَ أن يَنْكِحَ بِكْرَها فقد عَرَفَ مهرها».

٤ - ** الذخيرة ٣: ٣٣٦ - ٤٠٩؛ جذوة المقتبس ١٦٠ (الدار المصرية ١٧٠ (رقم ٣١٣)؛ بغية الملتمس ٢٢٢ (رقم ٥٦٠)؛ الوافي بالوفيات ٨: ٣٢٧ - ٣٢٨؛ المغرب ١: ٤٠٠؛ الحلة السيراء ٢: ١٨٤ - ١٨٥؛ نفح الطيب ٤: ٧٥، ٥: ٦٠١.

ابن عبد البرّ الصغير

١ - هو أبو محمّدٍ عبدُ الله بنُ الفقيهِ أبي عمرَ يوسفَ بنِ عبدِ الله بنِ محمّدِ بن عبد البَرِّ النمِري القُرْطُبي المالكيّ نقولُ لأبي محمّدٍ: ابنُ عبدِ البَرِّ الصغيرُ بالإضافة الى أبيه أبي عُمَرَ. (ت ٤٦٣ هـ).

عَلَتْ منزلةُ أبي محمّدِ بنِ عبدِ البرِّ في الكِتابة والأدب فتنافسَ في اجتذابه ملوكُ الطوائف، ولكن ظَفِرَ به المُعْتَضِدُ عَبّادُ بنُ محمّدٍ صاحبُ إشبيلِيَة (٤٣٤ - ٤٦١ هـ). وفي سَنَةِ ٤٥٠ هـ كان ابنُ عبدِ البرّ في بَلاط المُعْتَضِد وكتب الرسالةَ المشهورةَ في تبريرِ قتلِ اسماعيلَ بن المعتضد.

وبعدَ ذلك بَرَزَتِ العداوةُ بينَ ابنِ عبدِ البرّ وابن زَيْدونٍ (لأنّ ابنَ زيدونٍ وزيرَ المعتضد خاف على مَنْصِبه من ارتفاع منزلةِ ابن عبدِ البرّ عند المعتضد). ثمّ تغيّر المعتضدُ على ابن عبد البر. وأحسَّ ابن عبدِ البرّ الخَطَرَ على حياته فاستطاع أن يُغادِرَ إشبيليةَ في قِصّةٍ طويلة. وبعدَ هربه من إشبيلية تنقّل في البلدان وكتب (عُيّنَ كاتباً) عن أكثرِ ملوكِ الطوائف. ثمّ إنّه لَحِق بالعامريّين أصحابِ دانية. وكانت وفاته سَنَةَ ٤٧٤ هـ (١٠٨٠ م) في الأغلب.

٢ - كان أبو محمّدِ بنُ عبدِ البرّ (الصغير) كاتباً مُجيداً مُترسّلاً رَوِيّةً وارتجالاً.

---

(١) النور (بفتح النون) الزهر الابيض.

ورسائلُه سُلطانية (ديوانية، حكومية، رسمية) وإخوانية (شخصيّة). وأغراضُه في رسائله كلِّها التهنئةُ والتعزية ثمّ ما بينَ التهنئة والتعزية ثمّ في العِتاب وفي الهِجاء ثمّ في الموضوعات الدينية والموضوعات الأدبية. وهو يُكْثِرُ الاقتباسَ من الأمثال ومن القرآن. ثمّ إنّه يُكثِر الاستشهادَ بالشعر، ولكن لم يُرْوَ عنه من النَظْم الاّ أبياتٌ يسيرة. والصِناعة عنده كثيرة ولكنّه لا يُلِحّ على السَجْع، فكثيرٌ من فُصوله (جُمَلِهِ) مُطْلَقٌ.

٣ - مختارات من آثاره

- قال أبو محمّدِ بنُ عبدِ البَرِّ في الأدب (الحكمة):

لا تُكْثِرنّ تأمُّلاً ... واحْبِسْ عليك عِنانَ طَرْفِكْ[١].
فَلَرُبّما أرسلتَه ... فرماكَ في مَيْدان حَتْفِكْ[٢].

- ولابن عبد البرّ الصغير رسالةٌ أنشأها ارتجالا بحضرة المعتضد عبّادِ بنِ مُحمّدٍ، وكان المعتضدُ قد قَتَلَ ابنَه اسماعيل لمّا ثار عليه. وطلبَ المعتضدُ من ابنِ عبدِ البرّ أن يُنْشِئَ هذه الرسالةَ في شرح أسبابِ ذلك القتل وتسويغها (والرسالة طويلة جدّاً):

... ولمّا وَثَبَ هذا اللعينُ الغبين[٣] من المَهْد الى الجد[٤]، ودَرَجَ من الأذْرَع الى المحلّ الأرفع[٥]، ورآه اسْتَغْنى وأثْرَى من زِينة الدنيا[٦]، أشَرَه ذلك وأبْطَره وأطغاه وأكْفَره[٧]، وطلبَ الازديادَ وأحبّ الانفرادَ[٨]. وقُيِّضَ له قُرناءُ سوءٍ أعْدَوْهُ

---

(١) العنان: الرسن، اللجام. الطرف: البصر، العين.
(٢) الحتف: الهلاك.
(٣) الغبين والمغبون: الضعيف الرأي.
(٤) من المهد (الطفولة) الى الجد (الحكم): بسرعة (جاء الى الحكم صغيرا).
(٥) درج من الأذرع الى الأرفع (الأذرع: المقرف، الخسيس الدنيء).
(٦) استغنى: أصبح غير محتاج. أثرى: غني، أصبح مالكا لأشياء كثيرة.
(٧) أشره (بالمعنى المقصود: أبطره أي كثر فرحه بالنعمة حتّى جعل يسرف في الأشياء) غير موجودة في القاموس. أطغاه: جعله ظالما. أكفره: نسبه الى الكفر (والمقصود: جعله يكفر بالله أو يكفر النعمة).
(٨) الازدياد من القوة والانفراد بالحكم.

وأرْدَوْهُ[١]، وأُتِيحَ له جُلَساءُ مكْر أغْرَوْهُ وأغْوَوْهُ[٢]، وأشْعَروه الاستيحاشَ والنِفار وزيّنوا لَهُ العُقوق والفِرار[٣]، لينفرد - وينفردوا مَعَه - بالبلدِ ولا تكونَ على أيديهم فيه يدُ أحدٍ. فخرج ليلاً بأهلِه وولدِه خُروجاً شنيعاً فَتَقَ فيه قَصْري وخرق به حِجاب سِتري[٤] يَؤُمُّ الجزيرةَ الخضراء وما يليها لِيتملّكَها ويَعيثَ فيها[٥]. وكنتُ غائباً على مَقْرُبَةٍ فوردتُ وطيّرتُ في الحِين الى الجِهة[٦] من يصُدّه عنها ويمنعه منها. فسبقه الخبرُ وفاته الوطَر[٧] ... فوجّهتُ الى (هذا) اللعين أعْرِضُ عليه قَبولَ عُذرِه. وسرّبتُ الخيلَ مَعَ ذلك للإطاحة به وحَصْره حتّى ألجأه ذلك الى التنصُّلِ والاعتذار وأجاءه الى الإقالة[٨] والاستغفار. فأَقْبَلْتُه وعفوتُ عنه وأغْضَيْتُ[٩] على ما كان منه. (ثمّ) صرفتُه الى جميع حالِه ومالِه[١٠]. ولم أُؤدِّبْه الاّ بالإعراض والهِجران، وإنْ كنت قد أنّسْتُه مَعَ ذلك بمزيد الإنعام والإحسان. فإذا به كالحيّة لا تُغني مُداراتها، والعَقْربِ لا تُسالم شَباتها[١١]. وكأنّه قدِ استصغر ما أتى واحتقر ما جنى، فَرَدّى وسَدّى[١٢] ما صارتْ به الصُغرى التي كانت العُظمى[١٣]. فلم أشعُرْ به الاّ وقد ألّفَ أوْباشاً من خِساس صِبيان العبِيد المُمْتَهَنين[١٤] في أدْوَنِ وُجوهِ التصريف - إذ لم

---

(١) قرناء أصحاب قيّضوا (أتاحوا، هيّأوا، سهّلوا). أعدى: نقل اليه (المرض). أردى: أهلك.

(٢) أغرى: أطمع. أغوى: أضلّ.

(٣) العقوق: عصيان الوالدين.

(٤) فتق: شقّ. خرق حجاب ستري: أطلع الأعداء على أسراري وعلى أحوال أسرتي.

(٥) الجزيرة الخضراء: مقاطعة في جنوبيّ الاندلس. يليها: يقاربها، يتبعها. يعيث: يفسد.

(٦) وردت (رجعت الى البلد). في الحين: حالا. الى الجهة (المكان الذي هرب اليه).

(٧) الوطر: الغاية.

(٨) أجاءه: ألجأه، دفعه الى. الإقالة (العفو عن الخطأ).

(٩) أغضى على الأمر: سكت عنه وصبر عليه.

(١٠) وصرفته إلى جميع حاله وماله: رددتّه إلى ما كان عليه من المشاركة في الحكم وإلى ما كان معه من المال.

(١١) شباة العقرب: ابرتها. لا تسالم (بالبناء للمعلوم أو للمجهول): العقرب لا تترك اللسع أو الضرب بابرتها.

(١٢) ردّى: ألبس رداء أو ثوبا. سدّى الثوب (عند النسج): مدّ الخيوط طولا (المقصود أنه أتمّ حبك المؤامرة).

(١٣) ما صارت به...: عظم ذنبه (لعلّ المنطق يقتضي: ما صارت به العظمى التي كانت الصغرى).

(١٤) الأوباش: الأخلاط من الناس والسفلة. المتهنين: المستخدمين (بفتح الدال).

يطمع اللعينُ أن يُساعِدَه على هذه الفَتْكة من فيه أدنى رَمَقٍ وأقلُّ مُسكةٍ[١]- ثمّ سقاهُمُ الخمرَ وسقى نفسَه لِيَجْتَرِيَ ويُجَرِّيهم[٢] ويحولَ بينَهم وبينَ أدنى مَيْزٍ[٣] إن كان فيهم. وسَلّحهم بضُروب من الأسلحة المتصرِّفة في أماكنِ الضِيق والسَعة. وطَرَقَ القصرَ في بِضْعَ عَشْرةَ[٤] منهم. وتعلّق مَعَهم الأسوارَ والحِيطانَ، وتسنّم بهم السُقوفَ والجُدرانَ يَرومُ فِيِّ القضيّةَ العُظمى والطامّة الكُبرى[٥] التي قام دونَها دِفاعُ الله تعالى. فَشَعَرْتُ بالحركة فخرجتُ. فلمّا وقعتْ عينُه وأعيُنُهم عَلَيّ تساقطوا هاربين وتطارحوا[٦] خائفين خائبين. وإنّما كان رجاءَ هم[٧] أن يَجدوني في غَمْرةِ الكرى أو على غَفْلة من أن أسْمع وأرى. ففالتْ، بِحَمْدِ الله، أراجيهم[٨]، وضلّتْ أعمالهم ومَساعيهم. وأعْجَلَتْهم عواقبُ كُفْرهم وتَعَدّيهم. وَخَرَقَ اللعينُ سورَ المدينة فارّاً بنفسه. وأخرجتُ الخيلَ في أثَرِه فلُحِقَ غيرَ بعيدٍ، وسِيق إلَيَّ في حالِ الأسير المَصْفود. وكذلك سائرُ الجُناة وباقي العُصاة أظفرَ اللهُ بهم ومكّن منهم وأعْثَرَ عليهم جميعِهم. فلم يُفْلِتْ منهم أحدٌ، ولا فاتَ منهم بَشَرٌ... وحَصَلَ في قَبْضتي جميعُ الصبيان من العبيد المذكورين. وأقَمْتُ حُدودَ الله تعالى[٩] على الجميع منهم. وأنْفَذْتُ حُكْمَهُ العَدْلَ فيهم. والحمْدُ للهِ كثيراً...

- وقال يرثي رجُلاً مات مجذوماً[١٠]:

---

(١) أدنى (أقل) رمق: بقيّة (من الحياء) ومسكة: القليل (من العقل).

(٢) يجتري يجترىء (يقدم). يجرّيهم= يجرّئهم.

(٣) الميز: الرفعة (بكسر الراء) العلوّ. والمقصود: التمييز (التفريق بالعقل بين الأمور).

(٤) الصواب: في بضعة عشر (بفتح التاء والعين والشين والراء).

(٥) الطامّة: الداهية، المصيبة (موت المعتضد).

(٦) تطارحوا: تناظروا وتحاوروا (والمقصود هنا: انطرحوا: ألقوا (بفتح القاف) بأنفسهم أرضا.

(٧) في الأصل: رجاؤهم. والصواب: رجاء هم (خبر كان مقدّم، لأنّ «المصدر المؤوّل» (أن يجدوني) يعرب اسماً لكان لا خبراً لها).

(٨) فال: خاب، أخطأ، ضعف. أراجيّ (بتشديد الياء) جمع أرجية (بضمّ الهمزة وتشديد الياء): الشيء الذي يؤخّر (والمقصود: أمانيّهم).

(٩) أقام الحدّ على المذنب: عاقبه بالعقاب الذي أمر الله به.

(١٠) الجذام (بالضمّ): مرض يتهرّأ به اللحم.

مـاتَ مَـنْ كُنّـا نـراه أبـداً سالمَ العقـلِ سَقيمِ الجَسدِ؛
بحرُ علمٍ ماج في أعضائه فـرمـى فـي جِلْده بالزَّبَد[1].
كانَ مِثلَ السيفِ، إلاّ أنّه حُسِدَ الدهرُ عليـه فصَـدِي[2].

– وله من رسالة اخوانية:

... إنْ أخذْتُ في ذِكرِ فضائلكَ أو عَطّرتُ كلامِيَ بِطيب شمائِلكَ فلِسانُ الأيام بها أفْصحُ ولها أشْرح. وان عدَلْتُ[3] إلى وصفِ ما أعتقده فيك وأُضْمِرُه، وأطْوِيه من وِدادي لك وأنشُرُه، فشاهدُ ضميرِكَ به أنْطَقُ وعنه أصْدَقُ. فليس إلاّ الاتّفاق والاصطلاح[4] على ما تتناجى بِهِ النفوسُ والأرواح.

– ولابنِ عبد البرّ الصغيرِ رسالةٌ وجّه بها الى أبي القاسم بن خَيْرونٍ[5] في شأن الكُتّاب والكُتُبِ والذين يَدّعون العلمَ والأدب وليس لهم منها شيء. من هذه الرسالة ما يلي:

... ووَقَفْتُ على ما جَدّدتَّه من مُقابلة السِفرينِ المُشْتَمِلَيْن[6] على فنونِ الآداب وصِناعة الكُتّاب[7] وطُرُقِ الخِطاب الجامعةِ لفصاحة الأعراب[8] ولُباب اللباب. وبادرتُ الى ذلك بِدارَ[9] من عَلِمَ أنّها نِعمةٌ سابغة مُنِحْتُها، ووَصْلة وُصِلْتُها، لمَا في تأمُّلِها من الإشراف على طُرُقِ البلاغة والكتابة وصِناعة الترسيل والخَطابة، مَعَ ما يلزمني من حَقِّك أقْضيه وواجِبِك أتصرّف فيه وأُوَفّيه[10]، إذ أنتَ صِنْوُ[11] أبي

(۱) فرمى في جلده بالزبد (وصف فعل المرض في الجلد).
(۲) مثل السيف (في الجلاء وبياض اللون). صدي = صدئ (علاه الصدأ، سواد).
(۳) عدل: مال.
(٤) فليس الاّ الاتفاق الخ: لم يبق الاّ أن أتكلّم بما ألفه الناس من الكلام في هذا الشأن.
(٥) أبو القاسم بن خيرون شاعر من دانية (شرقيّ الاندلس) كان في بلاط إقبال الدولة بن مجاهد العامري (المغرب ۲: ٤١٩). وقد حكم اقبال الدولة من سنة ٤٣٦ إلى سنة ٤٦٨ هـ (زامباوّر ٩١).
(٦) يبدو أنّ ابن خيرون هذا كان له كتابان اطّلع عليهما ابن عبد البرّ.
(۷) الكتاب (بتشديد التاء أو بتخفيفها) بمعنى «الكتابة».
(۸) الأعراب: البدو.
(۹) بادر بدارا (بكسر الباء): أسرع.
(۱۰) وفّاه يوفّيه: أتمّه.
(۱۱) صنو: النظير والمثل.

مولايَ - مَدّ الله عَلَيّ ظِلَّكما وكَبَتَ[١] الباغيَ عليكما والحاسدَ لكما - فكم يقرَعُ سَمْعيَ مِنْ قولِ الحاسدين مَنْ خَصّ أبي مولايَ بمُعاداة أهلِ الجهل وحَباه[٢] بمُوالاة أهلِ الفضل. ولا غَرْوَ[٣]، فغيرُ غريبٍ ذلك من فِعْلِهم بالعلماء، ولا بِبَديعٍ من صُنْع الدَهْماء[٤] ... ومِنْ أطْرفِ ما جاءتْ به الأيامُ وتحدّثتْ به الأنام مُناوأة جاهلٍ خسيسٍ لإمامٍ عادلٍ رئيس... إنّ البُغاثَ بأرْضِنا يَسْتَنْسِر[٥]. وما لِتَيْسٍ جَبانٍ والجَرْيَ مَعَ العلماء في مَيْدان. أوْهَمَتْهُ نفسُه أنه لُقِّبَ بالفقيه، وذلك أقصى أمانيه. وهُوَ من العلم أبعدُ من النجم ومن الجهل الشديدِ أقربُ من حبل الوريد[٦] ... وانّي لَيَبْلُغُني ما يأتي به من هَذَيانهِ في المنثور والموزون[٧]، وتَخَطّيه الى العِرْضِ المَصون، والنَيْلِ[٨] من ذَوِي الفَضْل والدين، فأهُمُّ بمُعارضته ثمّ أُمْسِكُ عنه لِتفاهَته ودَناءته...

٤ - ** قلائد العقيان ٢٠٦ - ٢٠٩؛ الذخيرة ٣: ١٢٥ - ٢٢٦ (مع استطراد كثير)؛ إعتاب الكتّاب ٢٢٠ - ٢٢٢؛ المغرب ٢: ٤٠٢ - ٤٠٣؛ البيان المغرب ٣: ٢٤٤ - ٢٤٨.

أبو الوليدِ الباجيّ

١ - هو أبو الوليدِ سليمانُ بنُ خَلَفِ بنِ سعدِ بنِ أيّوبَ بنِ وارثٍ المالكيُّ الأندلسيّ التُجيبيّ الباجيّ، أصلُ أهلهِ من بَطَلْيَوْسَ ثمّ انتقلَ جدّه إلى باجةَ التي هِيَ قُربَ إشبيلية، وفيها وُلِدَ أبو الوليدِ، في النِصْفِ من ذي القَعْدة من سَنَة ٤٠٣ (١٠١٣/٣/٢٨ م).

(١) كبت (غاظ، أذلّ) الباغي (الظالم).
(٢) حبا: منح، أعطى.
(٣) لا غرو: لا عجب.
(٤) بديع: مبتكر. الدهماء: عامّة الناس.
(٥) البغاث (ضعاف الطير) يستنسر (يقوى، يصبح كالنسر).
(٦) الوريد: عرق في جانب العنق.
(٧) المنثور (النثر) والموزون (الشعر).
(٨) تخطّيه (تقدّمه، وصوله) الى العرض (الشرف العائلي) المصون (المحفوظ)، أي بالهجاء. النيل: الحطّ، التحقير.

نشأ أبو الوليدِ الباجيُّ في باجةَ في أُسْرَة مُعْدِمَةٍ ثمّ انتقل إلى قُرطبةَ فبدأ تَلَقّي العلومِ فيها وهُوَ يعيشُ عِيشةً مُجْهِدَةً. وفي سَنَة ٤٢٦ هـ (١٠٣٥ م) رَحَلَ إلى المَشْرق للأخذ عن عُلَمائه وليتَثَقّفَ في الحديثِ والفقْه والأدب. وقد مَكَثَ في المشرقِ ثلاثَ عَشْرَةَ سَنَةً: ثلاثاً منها في مكّة ثمّ ثلاثاً في بَغدادَ وسَنَةً في المَوْصِل. ومكث حيناً في الشام. وفي أثناء رِحْلَته هذه مال إلى المذهبِ الأشعريّ. وكذلك كانتْ حياةُ أبي الوليد الباجيّ في المشرق مُضْنِيَةً فقدِ اضطرَّ إلى العَمَلِ في حِراسةِ الدُروب حتّى يَكْسِبَ عَيْشَه.

وفي سَنَةِ ٤٣٩ هـ (١٠٤٧ م) عادَ أبو الوليد الباجيّ إلى الأندلسِ فأرادَ نَشْرَ المذهبِ الأشعريّ فيها. واتّفقَ بعدَ عَوْدته بمُدّةٍ يَسيرةٍ أنْ دَعاه ابنُ رَشيقٍ والِيْ جَزيرةِ مَيورقةَ فلَقِيَ هنالك ابنَ حَزْمٍ الظاهريَّ فتناظرا في مَجْلِسِ محمّدِ بنِ سعيدٍ المالكيّ مُناظرةً عنيفةً ولكن لا نَعْرِفُ شيئاً من آثارِها العملية.

وبعدَ ذلك بدأتِ الدُنيا تُقْبِلُ على أبي الوليدِ الباجي فتولّى القضاءَ في عَدَدٍ من المُدُنِ في شَرْقيِّ الأندلسِ، ولكنّ كلَّ تلك المدنِ كانتْ تَصْغُرُ عن قَدْرِهِ. غيرَ أنه نال حُظوةً كبيرةً عندِ المَقْتدرِ بنِ هودٍ صاحبِ سَرَقُسْطَةَ (٤٣٨ - ٤٧٤ هـ).

وكانتْ وفاةُ أبي الوليدِ الباجيّ في المَرِيَّةِ، في ١٩ رَجَبَ مِنْ سَنَةِ ٤٧٤ (١٠٨١/١٢/٢٣ م).

٢ - كانَ أبو الوليدِ الباجيُّ أحدَ الأئمَّةِ في الفِقْه، كما كان مُحَدِّثاً مُتَكَلِّماً وأديباً شاعراً. على أن شُهْرتَه تقومُ على مُصَنّفاتِه التي يدور مُعْظَمُها على علومِ القُرآنِ وعلوم الفِقْه. فمن كتبه: تفسير القرآن - الناسخ والمنسوخ - المعاني (في شرح المُوطّأ، في عِشْرينَ جزءاً) - الاستيفاء (شرح الموطّأ) - المنتقى (مختصر من الاستيفاء) - الإيماء (مختصر من المنتقى) - اختلاف الموطّآت - التَعْديل والتَجْريحُ لمن خرج عنِ البخاريّ في الصحيح - التسديد إلى معرفةِ التوحيد - إحكام الفصول في أحكامِ الأصول - الحدود في الأصول - الإشارة في الأصول - المُقْتَبَس في علمِ مالكِ بنِ أنَس - المُهَذّب (في اختصار المُدَوّنة) - مختصر المختصر (في مسائل المُدَوّنة) - فِرَقُ الفقهاء - التبيين لمسائل المهتدين (اختصار فرق الفقهاء) - السراج في ترتيب

الحِجاج (في المُناظرة والجدال) - سُنَن المنهاج وترتيب الحِجاج - السُنن في الدقائق والزهد (في النصيحة لولديه).

٣ - مختارات من شعره

- قال في حال الناس:

مضى زمَنُ المكارم والكِرام؛ سقاه اللهُ من صَوْب الغَمامِ!
وكان البِرُّ فِعْلاً دون قول، فصار البرّ نُطقاً بالكلامِ.
وزال النطق حتى لستَ تلقى فتىً يسخو بردٍّ للسلام.
وزادَ الأمرُ حتى ليس إلاَّ سَخِيٌّ بالأذى أو بالمَلام!

- قال أبو الوليد الباجي في الدُنيا والعَمَل فيها:

إذا كُنتُ أعلمُ عِلْمَ اليَقينِ بأنّ جَميعَ حياتي كَساعَهْ،
فَلِمْ لا أكونُ ضَنيناً بها فأجْعَلَها في صَلاحٍ وطاعَهْ!

- وقال في لَذّةِ الوَداعِ:

ليسَ عِنْدي شَخصُ النَّوى بعظيمٍ؛ فيهِ غمٌّ وفيه كَشْفُ غُمومِ:
إنّ فيه اعْتناقةً لِوَداعٍ وانتظارَ اعْتِناقةٍ لِقُدوم.

- ومات له ولدانِ فأكثرَ من رِثائِها؛ من ذلك قولُه في رثاء ابنهِ محمّدٍ:

أمُحَمَّدُ، إنْ كنتُ بَعْدَك صابراً صَبْرَ السليمِ لما به لا يَسْلَمُ[1]
ورُزِئْتُ قَبْلَك بالنَبِيِّ مُحَمَّدٍ؛ وَلَرُزْؤُهُ أدهى لَدَيَّ وأعْظم[2]،
فَلَقَدْ عَلِمتُ بأنّني بِكَ لاحقٌ، مِنْ بَعْدِ ظَنّي أنّني مُتقدّمُ[3].
للهِ ذِكْرٌ، لا يزال بِخاطري، مُتَصَرِّفٌ في صَبْره مُتَحكّم.
فإذا نظرتُ فَشَخْصُه مُتَخيَّلٌ، وإذا أصَخْتُ فصَوْتُه مُتَوَهَّم[4].

---

(١) السليم كناية عن الذي لدغته الحيّة (سمّي سليماً تفاؤلاً بأن يسلم) - وإن كان المعروف أنه لا يسلم.
(٢) الرزء: المصيبة الكبيرة. أدهى (أشدّ).
(٣) كنت ظننت، وأنا أبوك، أن أموت (كما جرت العادة) قبلك.
(٤) أصاخ: استمع.

وبكـلِّ أرضٍ لي مِنَ اَجْلكَ لَوْعةٌ، وبكلِّ قبرٍ وَقْفَةٌ وتَلَوُّم[1].
فإذا دعوتُ سِواكَ حادَ عنِ اسْمِه، ودَعاهُ باسْمِك، مِقْوَلٌ بك مُغْرَمُ[2].

٤ - ** الذخيرة ٢: ٩٤ - ١٠٥؛ بغية الملتمس ٢٨٩ (رقم ٧٧٧)؛ قلائد العقيان ٢١٥ - ٢١٦؛ الصلة ١٩٧ - ١٩٩؛ معجم الأدباء ١١: ٢٤٦ - ٢٥١؛ الخريدة (الأندلس) ٢: ٤٩٩ - ٥٠٠؛ وفيات الأعيان ٢: ٤٠٨ - ٤٠٩؛ فوات الوفيات ١: ٢٢٤ - ٢٢٥؛ المغرب ١: ٤٠٤ - ٤٠٥؛ الديباج المذهب ١٢٠ - ١٢٢؛ ابن قنفذ ٢٥٥؛ قضاة الأندلس ٩٥؛ شذرات الذهب ٣: ٣٤٤ - ٣٤٥؛ نفح الطيب ٢: ٦٧ - ٧٧، ٨٤ - ٨٥، ٦: ١٧٣ وما بعد؛ دائرة المعارف الإسلامية ١: ٨٦٤ - ٨٦٥؛ بروكلمن ١: ٥٣٤، الملحق ١: ٧٤٣ - ٧٤٤؛ نيكل ١٠٣، مختارات نيكل ٦٠؛ الاعلام للزركلي ٣: ٨٦ (١٢٥).

ابن خلّوف المغربي النحويّ

١ - هو عبدُ العزيزِ بنُ خَلّوفٍ المَغْرِبيُّ من أهلِ إفريقيَةَ (تُونِسَ) وسُكّانِ القَيْروانِ، كان حَروريًّا (من الخوارج). وقد كان في أيامِ باديسَ بنِ حبّوسٍ الصِنْهاجيّ المستولي على إفريقِيَةَ (٤٢٨ - ٤٦٥ هـ) ومُعاصراً لابنِ رَشيقٍ (ت ٤٦٣ هـ).

تصَدّرَ ابنُ خلّوفٍ للإفادةِ في القَيْروانِ وتقدّم هنالك على كثيرينَ من أهلِ عصرِه. ويبدو أنّ وفاتَه كانت نحو سَنَةِ ٤٧٥ هـ (١٠٨٢ م).

٢ - كان ابنُ خَلّوفٍ المَغْرِبيّ ذَكِيًّا جِدًّا ومُلِمًّا بعلومٍ كثيرةٍ أبرزُها القِراءاتُ والنَحْو. وكذلك كان شاعراً مُكْثِراً مُجيداً، وكان في شِعره قُوّةٌ وحسنُ تَصَرّفٍ في الفنون المختلفةِ من مدحٍ ووصفٍ وغَزَلٍ مَعَ أشياءَ من التصنيع وتطلُّبِ أوجهِ البلاغة ومَعَ البراعة في انتقاء البحور المُناسبة لمعانيه. قال فيه ابن رَشيقٍ: « شاعرٌ مُتْقَنٌ ذو ألفاظٍ حَسَنَةٍ ومعانٍ مُتَمَكِّنَةٍ، مُثَقَّفُ نواحِي الكلام »، وفي شعره طَبْعٌ وعُذوبة.

---

(١) التلّوم: الانتظار (الوقوف في مكان من غير أن يدرى ماذا يريد - إنّ الذي يطيل الوقوف على قبر لا ينتفع بوقوفه ولا ينفع الميت).

(٢) المقول: اللسان. - إذا أردتُ أن أنادي أحداً سبق لساني إلى اسمك فناديته باسمك أنت.

٣ - مختارات من شعره

- قال ابنُ خلّوفٍ المَغربيّ يمدَحُ المعزّ بن باديس (ت ٤٥٤ هـ):

أَبِلَحْـظِ طَرْفٍ هـذه الأنضـاءُ! شَقِيَتْ، إذَنْ، بالأعْيُنِ الأعضـاءُ(١).
تَتَمثّـلُ الغِيدُ الحِسانُ ببعضِ ما جرّتْ عليه الغادةُ الحسناء(٢).
تصبو الجمادات المَواتُ لوَجْهِـهـا طَرَباً، فكيف النُطّـقُ الأحْياء؟
سارتْ وقدْ بَنَتِ الأسِنّةُ حولَها سُوراً يُجازُ بحَـدّهِ الجَوْزاء(٣).
فَتَحَـتْ لنـا نُعماك كـلَّ بلاغـةٍ فجَرَى اليراعُ وقالـتِ الشُعراء.

- وقال في الغزل:

مُرُوا أنْ يُرَوَّحَ هــذا الأسيـ ـرُ بالقَتْـلِ، إن كان لا يُطْلَقُ(٤).
أيَتْلَـفُ ذا العَبْـدُ: لا رَغْبَـةً يُبـاعُ، ولا حِسْبَـةً يُعْتَـقُ(٥).
وإنّـيَ مَنْ فَقْرُه مَـوْتُـه لأنّيَ من كَبِدي أُنْفِقُ(٦).
لقدْ فَتَقَتْ يـدُ سِحْـرِ العيو نِ فَتْقا على العَقْل لا يُرْتَقُ(٧)!

٤ - ** انباه الرواة ٢: ١٨٠ - ١٨٢؛ بغية الوعاة ٣٠٧.

---

(١) النضو (بالكسر): التعب (بفتح فكسر)، الضعيف المنهوك، المريض. الطرف: العين، البصر. أبلحظ طرف... الخ: أكل هؤلاء المرضى مرضوا من عيون الحسان (من الحب؟). فالعيون، اذن، شقاء (مصيبة، عار) على جميع أعضاء البدن.

(٢) لا تكون المرأة الجميلة، عادة، جميلة بكل ما فيها، بل بوجهها وحده أو بعينيها وحدها... الخ. جرت عليه (على الحب).

(٣) هذه الحسناء جميلة جداً يغار عليها اهلها غيرة شديدة، فإذا سارت جموها (بفتح الميم) بالأسنّة (الرماح) الكثيرة. الجوزاء: كوكبة (مجموع نجوم) في السماء.

(٤) يروح (تجلب له الراحة). هذا الأسير (في الحب).

(٥) لا رغبة (في ثمنه) يباع ولا حسبة (احتساباً: طلباً للأجر من الله).

(٦) أنا إذا افتقرت فإني أموت لأني لا أنفق من مال إذا نفد كسبت غيره، بل من كبدي التي إذا ذهبت لا يمكن أن يكون لي بعدها كبد ثانية.

(٧) إن العيون تجني علينا جنايات لا يستطيع العقل ان يتلافاها.

الأعلم الشنتمريّ

١ - هو أبو الحجّاجِ يوسُفُ بنُ سُليمانَ بنِ عيسى المعروفُ بلقب « الأعلمِ الشَنْتمري »[1].. ولُقِّبَ بالأعلم لأنّ شَفَتَه العُليا كانتْ مشقوقةً شقًّا واسعاً. ومَوْلِدُ الأعلمِ كان في شنتمريّة الغرْبِ، سَنَةَ ٤١٠ (١٠١٩ م) وفيها نشأ. وفي سَنَةِ ٤٣٣ (١٠٤١ م) جاء إلى قُرطُبَةَ وأخذ العلمَ عن أبي القاسم ابراهيمَ بنِ محمّدِ بنِ زكريا الأفليليّ - وقيل ساعده في شرح ديوان المتنبّي (وكان قد قرأ هذا الديوانَ على الأفليليّ) - وأخذ أيضاً عن أبي سهلٍ يونُسَ بنِ أحمدَ الحرّانيّ وأبي بكرٍ مُسلمِ بنِ أحمدَ. وقدِ انتقل إلى إشبيلية واتّصل بالمُعتمدِ بنِ عبّادٍ وقرّظه ومدحه. ويبدو أنّه عاشَ مدّةً طويلةً في إشبيلية إلى أن تُوُفِّيَ فيها ٤٧٦ (١٠٨٣ م).

٢ - كان الأعلمُ الشنتمريُّ عالماً بالنحوِ خاصّةً وباللغة والشعر واسعَ الحِفظ جيّدَ الضَبْط. وكان مُصَنِّفاً للشروح على شعرِ الشعراءِ خاصّةً، فمن كُتُبه: شرحُ الأشعار (الدواوين) الستة (من شعر المعلّقات) - شرح أشعارِ الحماسة (لأبي تمّامٍ) - شرح ديوان عَلْقَمةَ الفحلِ - النُكَت في كتاب سِيبَوَيْهِ - عيونُ الذهبِ في شرح أبياتِ (الشواهدِ في) كتاب سيبويه - شرح أبياتِ الجُمَل للزجّاجي - المُختَرَعُ في النحو.

٣ - مختارات من آثاره

- من شرح الأعلمِ الشَنْتَمريّ لمعلّقةِ طَرَفَةَ:

وإنْ يَلْتَقِ الحيُّ الجميعُ تُلاقِني ... إلى ذِرْوةِ المجدِ الكريمِ المُصمَّدِ.
نَداماي بِيضٌ كالنّجومِ، وقَيْنةٌ ... تَروحُ علينا بينَ بُرْدٍ ومُجْسَدِ.

★ يقولُ: إذا التقى الحيُّ الجميعُ، بعدَ افتراقِهِمْ، وَجَدتّني في موضعِ الشرفِ منهم وعُلُوّ المنزلة. وقولُه: « إلى ذِروة المجد » أيّ إلى ذروة البيت. وذِروة كلّ شيءٍ أعلاه. والمُصَمَّدُ الذي يَصْمُد إليه الناسُ لشرفه ويلجأون إليه في حوائجم. والصَمْدُ القصدُ.

---

(١) هو غير الأعلم البطليوسي (بفتح الباء والطاء) ابراهيم بن محمّد (أو ابن قاسم) بن ابراهيم كان بارعاً في النحو ومصنّفاً له: « الجمع بين الصحاح للجوهري والغريب المصنّف »، وله تاريخ بطليوس. كانت وفاته سنة ٦٣٧ هـ، وقيل ٦٤٢ أو ٦٤٦ هـ (بغية الوعاة ١٨٥؛ الأعلام للزركلي ١ : ٦٠)

وقولُه: « نَداماي بيضٌ كالنجوم »: الندامى الأصحابُ المُشاربون[1]. وقوله: « بيضٌ كالنجوم »، أيْ هم أعلامٌ مشاهيرُ. ويحتملُ أن يريدَ الحَسَني اللونِ. والقَيْنة المُغنّية. وكلُّ أمـةٍ[2] قينة. والبُرْدُ ثوبُ وَشْيٍ. والمُجْسَدُ الثوبُ المصبوغُ بالزَعْفرانِ المُشْبَعُ . والجِساد الزعفران[3]. « بين بُرْدٍ ومُجْسَد »، أيْ تروحُ إلينا وعَلَيْها بُردٌ ومُجسَد.

وظُلْمُ ذَوي القُربـى أشـدُّ مَضاضـةً   على النفس من وَقْعِ الحُسام المُهنَّدِ.

★ قولُه: « أشدُّ مَضاضةً »، أي حُرقةً. يقولُ: ظلمُ القَرابةِ أشدُّ ظُلْمٍ على الإنسان وأبلَغُه، وإنّما ذلك لأن المظلومَ لا يكادُ يَجِدُ[4] في الانتصار من قريبه، بل يَنْطوي على ما يلقى منه ويَصْبِر. فموقعُ ذلك الظلمِ أشدُّ من وقعِ الحُسام، وهُوَ السيفُ القاطع. والمُهنَّدُ المنسوبُ إلى الهِند.

– ومن شرحه لديوانِ عَلْقَمةَ الفَحْلِ[5]:

ومـا أنـتَ أمْ مـا ذِكْرُهـا رَبَعِيّةً   يُخَطُّ لها مـن ثرمـداءَ قَليبُ[6]؟

★ قولُه: « وما أنتَ أمْ ما ذِكْرُها؟ » يُعاتبُ نفسَه ويُنكِرُ عليها تَتَبُّعَه هذه المرأةَ وقد بَعُدَتْ عن دِيارِه وحلّتْ في غيرِ قبيلته. وقولُه « رَبَعيّةٌ » يَعْني أنّها من قبيلةِ بني ربيعةَ بنِ مالكٍ، وهم غيرُ قبيلتهِ وعَشيرتِه. وقولُه: « يُخَطُّ لها من ثرمداءَ قليبُ »، أي هِيَ نازلةٌ في هذا الموضعِ مُقيمةٌ فيه. وكَنى عن إقامتها بحَفْرِ القليبِ، لأنّ من أقـامَ بموضعٍ فلا بُدّ له من ماءٍ يُقيم عليه. وقالَ الأصمعيّ: يكونُ أيضاً معناهُ أن يكونَ كأنّها لا تَبْرَحُ منه حتّى تموتَ وتُدْفَنُ فيه، فيكونُ القليبُ، على هذا، القبرَ. ورَوَى

---

(١) المشاربون: الذين يشربون (الخمر) معاً.

(٢) الأمة: الجارية (الفتاة) تطلق على الحرّة وعلى الرقيقة.

(٣) الزعفران نبت له زهر أصفر (مائل إلى الحمرة). المشبع: الوافر، الممتلىء.

(٤) اقرأ: لا يكاد يجد (سبيلاً أو وسيلة) في الانتصار من قريبه.

(٥) علقمة الفحل شاعر جاهلي عاش طويلاً: عاصر امرأ القيس (ت ٥٤٠ م) وبقي إلى ما بعد الهجرة بثلاث سنوات (٦٢٥ م).

(٦) القليب: البئر.

ابنُ ولاّدٍ[1] ثُرمُداءَ بضمّ الثاء والميم. وروايةُ أبي عليٍّ[2] بفَتْحها.

٤- شرح ديوان زهير (مطبوع مع «طرف عربية»- جمعها كارلو لاندبرغ)، ليدن ١٣٠٣ - ١٣٠٦ هـ.

- شرح ديوان الشعراء الستّة، منشن: ميونيخ ١٨٩٢ م.
- تحصيل عين الذهب في معدن جواهر الأدب في علم مجازات العرب: شرح شواهد سيبويه (مطبوع على هامش كتاب سيبويه)، القاهرة (بولاق) ١٣١٦ - ١٣١٧ هـ؛ بيروت (مؤسّسة الأعلمي) الطبعة الثانية ١٩٦٧ م.
- ديوان طرفة بن العبد (اعتنى بتصحيحه.... مكس سلغسون)، شالون (برتران) ١٩٠٠ م.
- شرح ديوان زهير بن أبي سلمى (جمع..... محمّد بدر النعساني)، القاهرة (جماليّ وخانجي) ١٣٢٣ هـ.
- شرح ديوان علقمة الفحل (اعتنى بتصحيحه محمّد أبو شنب)، الجزائر (كربونل) ١٩٢٥ م.

★★ معجم الأدباء ٢٠: ٦٠ - ٦١؛ مطمح الأنفس ٦٤ - ٦٧؛ نكت الهميان ٣١٣ - ٣١٤؛ وفيات الاعيان ٧: ٨١ - ٨٣؛ بغية الوعاة ٤٢٢؛ شذرات الذهب ٣: ٤٠٣؛ نفح الطيب ٤: ٧٩ - ٨٦ (المسألة الزنبورية)؛ بروكلمن ١: ٣٧٦ - ٣٧٧، الملحق ١: ٥٤٢ - ٥٤٣؛ الأعلام للزركلي ٩: ٣٠٨ (٨: ٢٣٣).

ابن عمّار الأندلسيّ

١ - هُوَ ذو الوزارتينِ أبو بكرٍ محمّدُ بنُ عمّارِ بنِ الحسينِ بن عمّارٍ المَهْرِيُّ، نِسْبَةً إلى مَهْرَةَ وَهِيَ قبيلةٌ عربيةٌ من قُضاعةَ؛ ويُقال له أيضاً الشِلْبِيّ والأَنْدَلُسِيّ.

وُلِدَ ابنُ عمّارٍ سَنَةَ ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) في قرية شَنّبوسَ قُرْبَ شِلْب (في الجَنوبِ الغَربيِّ من الأندلس).

انتقلَ ابنُ عمّارٍ إلى شِلْبَ ثمّ رَحَلَ الى قُرْطُبَة في طَلَبِ العِلْمِ.

وقد بَدَأَ ابنُ عمّارٍ حياتَه العمليّة بالتَّطْوافِ في البلادِ يَمْدَحُ أشْخاصاً مُخْتَلفي

(١) ابن ولاّد نحوي مصري (ت ٣٣٢ هـ).

(٢) أبو علي القالي (ت ٣٥٦ هـ).

المراتبِ في الهيئة الاجتماعية؛ غيرَ أنّه فيما يبدو لم يَنَلْ حِظْوةً في بلاطٍ من بلاطاتِ ملوكِ الطوائفِ لِكَثْرَةِ الشعراء في ذلك الحين. وأولُ حِظْوةٍ نالَها كانت لَدى المُعْتَضِدِ عبّادٍ ملكِ إشْبيلِيَةَ، وكانَ المُعتضدُ قد حارَب ابنَ الأفْطس مَلِكَ بَطَلْيَوْسَ وانتصر عليه فجاء إليه ابنُ عمّارٍ، سَنَةَ ٤٤٥ هـ (١٠٥٣ م)، ومدحه بقصيدةٍ رائيةٍ بارِعةٍ. وعَرَفَ ابنُ عمّارٍ، في بلاطِ إشبيلية، المعتمدَ بنَ عبّادٍ المعتضدِ - وكانَ لا يزالُ أميراً - وتَوَثَّقَت الصِّلة بينَ الشابَّيْنِ الشاعِرَيْنِ، فقد كان يَجْمَعُ بَيْنَهما في الحياةِ حُبُّ اللَّهْوِ ونَزْعَةُ الطُّموح والتَّوسُّلِ بالمكائدِ إلى بُلوغ المَآرِب.

وأدْرَكَ المُعْتَضدُ أنَّ حالَ ابنهِ المعتمدِ وحالَ شاعرِه ابنِ عمّارٍ ذَوَاتا خَطَرٍ على مُلْكِهِ فأحاطَهما بِرَقابةٍ شَديدةٍ؛ ثمّ إنّه أبْعَدَ ابنَ عمّارٍ عن إشبيلية، سَنَةَ ٤٥٠ (١٠٥٨ م)، فمضى ابنُ عمّارٍ يَتَنَقّلُ في البلاد: زارَ المَرِيَّة ثمّ السَّهْلَةَ ثمّ اسْتَقَرّ في سَرَقُسْطَةَ عند بني هُود.

وفي سنة ٤٦١ هـ (١٠٦٩ م) تُوُفّيَ المُعتضدُ فَخَلَفَهُ ابنُه المعتمدُ فأسْرَعَ المُعتمدُ باسْتِدْعاءِ صديقِهِ القديمِ ابنِ عمّارٍ. وأحبَّ ابنُ عمّارٍ أن يَتَولّى مدينةَ شِلْب فولاّه المُعتمدُ عليها. ثُمّ إنّ المعتمدَ استدعى ابنَ عمّارٍ من شِلْب وشيكاً وولاّه الوزارةَ.

وأخذَ ابنُ عمّارٍ والمعتمدُ بنُ عبّادٍ يَضَعانِ الخُطَطَ لانتزاعِ المُدُنِ من مُلوكِ الطوائف (راجع ترجمة المعتمد بن عبّاد) - وهُمْ في ذلك يَسْتَظْهِرونَ بملوكِ الإسبانِ على إخوانِهِمُ المُسلمينَ - فنشأ في نَفْسِ ابنِ عمّارٍ ناشئةٌ مِنَ الاسْتِبْدادِ. ففي سَنَةَ ٤٧١ هـ (١٠٨١ - ١٠٨٢ م) استَوْلى ابن عمّارٍ باسمِ المعتمدِ على مُرْسِيَةَ فأخَذَ يَتَصرّفُ بِها وكأنّه مُسْتَقِل. ثمّ إنّه تَمَرَّدَ على المعتمدِ واستبدّ بالمدينة. ثمّ زادَ طُموحُ ابنِ عمّارٍ، وكانت أحوالُ طُلَيْطُلَةَ مُضْطَرِبَةً، فسارَ من مُرْسِيَةَ مُحاوِلاً الاستيلاءَ على طُلَيْطُلَةَ بطريقةٍ يمتزجُ فيها الخِداعُ بالحرب فلم يَنْجَحْ. وانتهز ابنُ رَشيقٍ، قائدُ ابنِ عمّارٍ وخليفتُه على مرسيةَ، هذه الفرصةَ واستبدّ بالمدينة. ولمّا لم يَسْتَطِعِ ابنُ عمّارٍ أنْ يَعودَ إلى مرسيةَ لجأ إلى سَرَقُسْطَةَ وعاش في كَنَفِ مَلِكِها المُؤتَمَنِ بنِ هُود (٤٧٤ - ٤٧٨ هـ). واتّفق أن تَمَرّدَ أحدُ أتباعِ المؤتمِنِ بنِ هود في حصن مِنَ الحُصونِ، فاقترحَ ابنُ عمّارٍ على المؤتمن أن يُعيدَ التابعَ المتمرّدَ إلى الطاعة. واستطاع

ابن عمّارٍ أنْ يُعيدَ تلك القلعةَ إلى سلطانِ المؤتمن. ثُمّ تَمرّدَ بنو سُهَيْلٍ في قَلْعَةِ شقورة[1] فجاء ابنُ عمّارٍ لِيُعيدَ هذه القلعةَ أيضاً إلى سُلطانِ المؤتمن ولكنَّ بني سُهَيْلٍ خَدَعوا ابنَ عمّارٍ وقَبَضوا عليه وألْقَوْهُ في السجن، في ربيعٍ الأول من سَنَةِ ٤٧٧ هـ (آب - أوغسطس ١٠٨٤ م) ثمّ باعوه للمعتمدِ بنِ عبّادٍ، في حديثٍ طويلٍ، بمَبْلغٍ كبيرٍ من المال. وأُلقِيَ ابنُ عمّارٍ في سِجْنِ إشبيلية مُدَّةً يسيرةً ثمّ دَخَل عليه المعتمدُ بنُ عبّادٍ وقتله بيدهِ.

وبُرْغمِ القَسْوة التي نُسِبَتْ إلى المعتمدِ بنِ عبّادٍ، فإنّ قلوبَ الناسِ لم تَرِقَّ لِمَقْتَلِ ابنِ عمّارٍ، وخصوصاً بعد أنِ اشْتَهَرَ عنه أنّه كان يُداخِلُ ملوكَ الإسبانِ لانتزاع المُدُنِ من أيدي مُلوكِ الأندلسِ حتّى يستبدَّ هُوَ بِحُكْمِ تلك المُدُنِ أو حتّى يُضيفَها إلى مُلْكِ بني عبّادٍ أو حتّى تَخْرُجَ من يدِ أصحابِها المُسلمينَ لِتَدْخُلَ في حُكْمِ الإسبانِ. ولقد عبّر عبدُ الجليل بنُ عَبْدونٍ عن عاطفة الصداقة التّي يَكِنُّها نَحْوَ ابنِ عمّارٍ إلى جانبِ النُّفورِ من خياناتهِ حينَما رَثاهُ فقالَ:

عَجَباً له! أبْكيهِ مِلْءَ مَدامعي وأقولُ: لا شُلَّتْ يمينُ القاتلِ!

٢ - كان لابنِ عمّار الأندلسيّ ذكاءٌ مُفْرِطٌ وطُموحٌ بعيدٌ وثَقافةٌ واسعة واخْتبارٌ كثيرٌ، غيرَ أنه كانَ قليلَ المُبالاةِ بالعُرْفِ وبالمُثُلِ العُلْيا عِنْدَ السَّعْيِ لِتحْقيقِ مآربهِ في الحَياةِ.

وابنُ عمّارٍ شاعرٌ مَطبوعٌ مُكْثِرٌ ضاعَ قِسْمٌ مِنْ شِعْرهِ، ويُقال إنّه قد أحْرَقَ هجاءه قَبْلَ موتهِ. وشِعْرُه فصيحُ اللفظِ متينُ السَّبكِ مَشْرِقيُّ الدِيباجةِ في الأكثرِ مَعَ شيءٍ من الرَشاقةِ الأندلسية. وهُوَ يَعْتَمِدُ الصورةَ الحِسِّيَّةَ والتعبيرَ الرَّصينَ عَنِ الفكْرة لإبرازِ أغراضهِ. ولا تراه يَتَكَلَّفُ الصِناعةَ؛ وإذا هُوَ فَعَل ذٰلِكَ وَاتَتْهُ الصورةُ الحِسّيّة ثم أخطأ هُوَ الصِناعة البَحْتَ، ففي قولهِ مثلاً:

يَوْمٌ تَكاثَفَ غَيْمُهُ فكأنّهُ دُونَ السماءِ دُخانُ عودٍ[2] أخْضرِ؛

(١) شقور (كصبور) بلد في الأندلس.

(٢) العود (الغصن، الحطب) الأخضر لا يشتعل بسهولة، ولذلك يكثر دخانه.

والطَّلُّ مِثْلُ بُرادَةٍ من فِضّةٍ مَنْشورَةٍ في تُرْبَةٍ مِنْ عَنْبَرِ.
والشَّمْسُ أحْياناً تَلوحُ كأنّها أمَةٌ تُعَرِّضُ نَفْسَها للمُشْتري.

لا تَتَأتّى له التَّوْرِيَةُ بينَ المُشْتري (الذي يَدْفَعُ المالَ في السِلْعَةِ المَبِيعَةِ) وبينَ المُشْتري (الذي هو كَوْكَبٌ مِنَ الكواكبِ السَيّارة)، لأنّ المُشْتري نَجْمٌ بعيدٌ قلّ أنْ يُرى بالعينِ المُجَرّدة؛ وأما إذا أرَدْنا أنْ ننْظُرَ في التوريةِ من حيثُ صِلَتُها بالشمسِ (في النَّهارِ) فإنّ هذه التوريةَ تَفقدُ حينَئذٍ قيمَتها. وكذلكَ الصورةُ في البيتِ الثاني غيرُ صحيحةٍ: إنّ الطَّلَّ (النَّدى) يكونُ في الليالي البارِدَةِ جامداً على الأغصانِ، ولكنّه إذا سَقَطَ على الأرض فيكونُ قد ذابَ واصبحَ ماءً فلا يُمْكِنُ أن يَبْقى حينئذٍ بَلّوراتٍ (بُرادةً مِنْ فِضّةٍ) حتّى يَبْدُوَ وكأنّه فُتاتٌ من الفِضّةِ منثورٌ على أرضٍ من العَنْبَرِ (الأسودِ أو الأسمرِ)!

وفنونُ شِعرِ ابنِ عمّارٍ المَدْحُ والعِتاب والإخوانيّات والهِجاء والوَصْف والنَسيب والغَزَل مَعَ شَيْءٍ من المُجونِ أحياناً.

٣ - مختارات من شعره

- قال ابنُ عمّارٍ الأندلسيّ يَمْدَحُ المعتضدَ عبّاداً لمّا لَقِيَهُ للمرّة الأولى:

أدِرِ الزُجاجةَ فالنسيمُ قدِ انبرَى، والنَّجْمُ قد صَرَفَ العِنانَ عَنِ السُّرى[١]؛
والصُّبْحُ قد أهْدى لنا كافورَهُ لمّا اسْتَرَدَّ الليلُ منه العَنْبرا[٢]،
والرَّوْضُ كالحَسْناء كَساهُ زَهْرُهُ وَشْياً، وقَلَّدَه نَداهُ جَوْهرا[٣]:
رَوْضٌ كأنّ النَّهْرَ فيه مِعْصَمٌ صافٍ أطَلّ على رِداءٍ أخْضرا،
وتَهُزُّهُ ريحُ الصَّبا فتَخالُه سَيْفَ ابنِ عبّادٍ يُبَدّدُ عَسْكرا!
مَلِكٌ إذا ازْدَحَمَ المُلوكُ بمَوْرِدٍ ونَحاهُ، لا يَرِدونَ حَتّى يَصْدُرا[٤].

---

(١) النسيم قد انبرى (قد بدأ يهبّ بليلاً عليلاً، بعد أن برد الجو في الليل). السرى: المسير ليلاً. النجم قد صرف العنان عن السرى: توقّف عن المسير (بقي الليل، تأخّر طلوع الصبح).

(٢) الكافور: مادّة طيّبة الرائحة بيضاء اللون. العنبر: مادّة طيّبة الرائحة سوداء اللون.

(٣) الوشي: التزيين، التطريز، تحسين الثوب بنقوش صغيرة. قلّده: جعل له قلادة، عقداً (حلية في العنق). الندى: قطرات الندى التي تتجمّع في الليل على الأغصان. الجوهر: اللؤلؤ.

(٤) المورد: الشريعة (مكان على النهر صالح للاستقاء: لأن يشرب الناس منه). نحاه: اتّجه اليه. يردون: يجيئون إلى النهر للشرب. يصدر: يرجع عن النهر بعد أن يكون قد أخذ حاجته من الماء.

أَنْدى على الأكبادِ من قَطْرِ النَّدى وأَلَذُّ في الأجفانِ من سِنَةِ الكَرى[1].

قدّاحُ زَنْدِ المجد: لا يَنْفَكُّ من نـارِ الوَغى إلاّ إلى نار القِرى[2].

يا سائِلي، ما حِمْصُ إلاّ خاتَمٌ أبصَرْتُ إسْماعيـلَ فيها خِنْصَرا[3]؛

لا شيءَ أقرأُ من شِفارِ حُسامِهِ إن كنتَ شَبَّهْتَ الكتائبَ أسْطُرا[4].

قادَ المواكِبَ كالكواكِبِ فَوْقَهُم مِنْ لأمِهِمْ مِثْلُ السَّحابِ كَنَهْوَرا[5]:

مِنْ كُلِّ أبيضَ قد تَقَلَّدَ أَبْيَضاً عَضْبـاً، وأسْمَرَ قد تقلّد أسمرا[6].

مَلِكٌ يَروقُكَ خَلْقُهُ أو خُلْقُهُ كالرَّوْضِ يَحْسُن مَنْظَراً أو مَخْـبرا.

أَعْلَمْتُ بالإيمانِ حَتّى شِمْتُه فَـرَأَيْتُـه فـي بُـرْدَتَيْـهِ مُصَوَّرا[7].

فاحَ الثَّرى مُتَعَطِّراً بِثَنائِه حَتّى حَسِبْنـا كُـلَّ تُـرْبٍ عَنْـبرا.

يا أيُّها المَلِكُ الذي أصلُ المُنى مِنْـهُ بوَجْـه مِثْـلَ حَمْـدِي أَزْهرا،

اَلسَّيْفُ أَفْصَحُ من زيادٍ خُطْبَةً في الحَرْبِ إنْ كانتْ يَمينُكَ مِنْبرا[8]!

أَثْمَرْتَ رُمْحَكَ من رُؤوسِ كُماتِهِمْ لَمّـا رأيـتَ الـغُصْنَ يُعْشَقُ مُثْمِرا؛

وصَبَغْتَ دِرْعَكَ مِنْ دِماءِ مُلوكِهِمْ لَمّـا رأيـتَ الـحُسْنَ يُلْبَسُ أحْـمَـرا.

ولَئِن وَجَدتَّ نسيمَ حَمْدي عاطِراً فَلَقَدْ وجدتُّ نَسـيـمَ بِـرِّكَ أعْطَرا!

- وكتب ابنُ عمّارٍ إلى الأميرِ محمّدٍ المعتمدِ من سَرَقُسْطَةَ، وكانَ المُعتضدُ قد نَفاه من إشبيلية:

---

(١) أندى: أكثر ندى (برداً ورطوبة). قطر الندى: سقوط الندى (راجع فوق ص ٦٤١ الحاشية ٣). السنة (بكسر السين) أول النوم. الكرى: النوم. - ألذّ ممّا يشعر به الإنسان الشديد التعب والحاجة إلى النوم إذا بدأ يغفو.

(٢) الزند: حديدة تقدح بها النار من حجر الصوّان. قدّاح زند المجد: دائم الطلب لمعالي الأمور. نار الوغى: الحرب. نار القرى: الضيافة (الكرم).

(٣) حمص: مدينة اشبيلية. اسماعيل: ابن المعتضد بن عبّاد. أبصرت اسماعيل فيها (في اشبيلية) خنصراً (الأصبع الصغيرة في طرف الكفّ): قادراً على تدبير أمورها (اشارة إلى استحقاقه لولاية العهد).

(٤) أقرأ: أحسن قراءة (أشدّ فعلاً وأثراً). شفار جمع شفرة (بفتح الشين): السكّين العظيم، نصل السيف. الحسام: السيف. الكتائب: جماعة الجند بين مائة وألف.

(٥) اللأم جمع لأمة: الدرع. مثل السحاب (ممتدًا). كنهور (قطع السحاب المتراكم).

(٦) أبيض (أبيض اللون، له مجد) تقلّد (علّق في مقلّده: في عنقه) أبيض (سيفاً) عضباً (قاطعاً) وأسمر (أسمر اللون، له فتوّة وشباب تامّ) قد تقلّد أسمر (رمحاً).

(٧) شام يشيم: نظر، تطلّع. البردة: الثوب.

(٨) زياد بن أبيه والي البصرة والكوفة من قبل معاوية، ومن الخطباء المعدودين (راجع الجزء الأول).

عَلَيَّ وإلاّ ما بكاءُ الغَمائمِ؟ وفِيَّ وإلاّ ما نِياحُ الحَمائِمِ[1]؟
وعنّي أثار الرَّعْدُ صَرْخَةَ طالبٍ لِثَأرٍ، وهَزَّ البَرْقُ صَفْحَةَ صارمِ[2]!
وما لَبِسَتْ زُهْرُ النُّجومِ حِدادَها لِغَيْري ولا قامتْ لـه في مآتِمِ[3].
ألا قاتلَ اللهُ الجيادَ فإنّها نَأَتْ بِيَ عَنْ أرْضِ العُلا والمكارِمِ.
أشِلْبٌ؟ ولا تَنْسابُ عَبْرَةُ مُشْفِقٍ! وحِمصٌ؟ ولا تَعْتادُ زَفْرَةُ نادِمِ[4].
كَساها الحَيا بُرْدَ الشَّباب! فإنّها بِلادٌ بها عَقّ الشَّبابُ تَمائِمي[5].
ذَكَرْتُ بها عَهْدَ الصبا فكأنّما قَدَحْتُ بنارِ الشَّوْقِ بين الحَيازِمِ[6].
لَيالِيَ، لا ألْوي على رُشْدِ لائِمٍ عِناني ولا أَثْنيهِ عن غَيّ هائِمِ[7].
أنالُ سُهادي من عُيونٍ نَواعِسٍ وأجْني عَذابي من غُصونٍ نواعِمِ[8].
ولَيْلٍ لنا بالسَّدِّ بين مَعاطِفٍ من النَّهرِ يَنْسابُ انْسِيابَ الأراقِمِ[9]؛
بِحَيْثُ اتَّخَذْنا الرَّوْضَ جاراً تَزورُنا هَداياهُ في أيْدي الرِّياحِ النواسِمِ[10]
تُبَلِّغُنا أنفاسَهُ فنَرُدُّها بأعْطَرِ أنفاسٍ وأذْكى مَناسِمٍ[11].

---

(١) نياح: النواح (بضمّ النون)، النوح (بفتح النون): البكاء على الميت. - لا أحد أشقى منّي يستحقّ أن تبكي عليه الغمائم (تسقط على قبره الأمطار) أو تنوح الحمائم!

(٢) من صوتي تعلّم الرعد القصف (الصوت الشديد). ومن عزمي تعلّم البرق أن ينشر أشعّته كأنّها السيوف شكلاً ولمعاناً.

(٣) زهر النجوم: النجوم البيضاء. لبست حدادها: ظهرت في الليل محاطة بالسواد. ولا قامت (زهر النجوم: النساء الجميلات). المأتم: اجتماع النساء (في أماكن الموت).

(٤) أ (أذكر) شلباً ولا تسيل مدامعي، و (أتذكّر) حمصاً ولا تعتادني (ترجع إليّ مرة بعد مرّة) زفرة (نفس حار من الحزن) نادم (عليها: على فراق اشبيلية).

(٥) كساها الحيا برد (ثوب) الشباب! (يدعو الشاعر لحمص بأن تظلّ شابّة: زاهرة فتيّة). عقّ الشباب (قطع) الشباب تمائمي (جمع تميمة: الحرز أو الحجاب يعلّق في عنق الطفل): في اشبيلية انتقلت من طور الطفولة إلى طور الشباب.

(٦) الحيازم جمع حيزوم (بفتح الحاء): جانبا الحلق، عند العنق. إذا تذكّرت أيام شبابي في اشبيلية شعرت بغصّة (بضمّ الغين) في حلقي.

(٧) في تلك الأيّام ما كنت استمع إلى نصيحة ولا أرجع عن انغماس في اللّذات. الهائم: الذي يسير على غير هدى.

(٨) لم يكن يسهرني شيء إلاّ عيون النساء ولا يعذبني شيء إلّا قدودهنّ الليّنة.

(٩) السدّ (الحاجز على النهر). الأرقم: الثعبان، الحيّة الكبيرة.

(١٠) هداياه - هدايا الروض: الروائح الزكيّة. النواسم جمع ناسمة (!): الهبّة الضعيفة من الريح.

(١١) الذكي (بالذال أخت الدال): الساطع (الشديد) الرائحة (الطيّبة). المنسم: مكان هبوب النسيم.

وبِتْنا ولا واشٍ يُحَسُّ، كأنّما حَلَلْنا مَكانَ السِّرِّ من صَدْرِ كاتِمِ.
هُوَ العَيْشُ، لا ما أشْتَكيهِ من السُّرى إلى كلِّ ثَغْرٍ آهلٍ مِثْلِ طاسِمِ[1]؛
وصُحْبَةِ قَوْمٍ لَمْ يُهذِّبْ طِباعَهُمْ لقاءُ أديبٍ أو نَوادرُ عالمِ[2].
نَدامَى ولا غيرُ السُّيوفِ أزاهِري لَدَيْهِمْ ولا غيرُ الغُمودِ كَمائِمي[3].

وما حالُ مَنْ رَبَّتْهُ أرضُ اعارِبٍ وألْقَتْ بهِ الأقدارُ بينَ الأعاجِمِ؟
ونُبِّئْتُ إخوانَ الصفاءِ تَغَيَّروا وذَمّوا الرضا من عَهْدِيَ المُتَقادِمِ.
لَقَدْ سَخِطوا ظُلْماً على غيرِ ساخِطٍ عَلَيْهِم، ولاموا - ضِلَّةً - غيرَ لائِمِ.
إلى الحاجبِ الأعلى، إلى العَضُدِ الذي تَطولُ بيُمْناهُ قِصارُ الصوارِمِ[4]؛
لَهُ هِزَّةٌ في الجودِ مُعْتَضِدِيَّةٌ تَهُزُّ إلى تَشْتيتِ شَمْلِ الدراهِمِ[5].
سَما بأبيهِ ذِرْوَةَ الشَّرَفِ الذي أباطِحُهُ سَهْلُ النَّدى والمَكارِمِ[6].
إذا نَشَرَتْ لَخْمٌ بذِكْراهُ فَخْرَها طَوَتْ طيِّئٌ من خَجْلَةٍ ذِكْرَ حاتِمِ[7].
أبى أنْ يراهُ اللهُ غَيْرَ مُقَلَّدٍ حِمالةَ سَيْفٍ أو حَمالةَ غارِمِ[8].
إذا جَرَّ أذيالَ الجُيوشِ إلى العِدى أطاعَتْهُ أو جَرَّتْ ذُيولَ الهَزائِمِ.
مُلوكٌ مُناخُ العِزِّ في عَرَصاتِهِمْ؛ ومَثْوى المَعالي بينَ تِلْكَ المَعالِمِ[9].

---

(١) السري: السير ليلاً. الثغر: المكان على طرف البلاد (القريب من أرض العدوّ). الآهل: المسكون. الطاسم: المحو (غير مسكون).

(٢) النوادر جمع نادرة: الكلمة القليلة الورود (الأشياء القليلة التي لا يعرفها إلاّ العلماء).

(٣) هؤلاء هم ندماني (بضمّ النون): الذين يصحبونني ويرافقونني (برغمي). إذا أردت أن أشمّ زهرته ضربوني بالسيف. وليس لي كمائم (الكمامة في الأصل الورق الأخضر الذي يحيط بالزهرة): ستر، مأوى (!) إلاّ غمود السيوف: الحبس (!).

(٤) الحاجب في الأندلس يشبه رئيس الوزارة في أيامنا. العضد: أعلى الذراع (من الكتف إلى المرفق). تطول بيمناه قصار الصوارم (السيوف) كناية عن شجاعته: إذا كان السيف لا يصل إلى العدوّ فإنّه يمدّ يده بالسيف فيصل إلى العدّو.

(٥) معتضديّة نسبة إلى المعتضد (والد المعتمد بن عبّاد). تهزّ: تجعل الإنسان يهتزّ (يطرب).

(٦) الأبطح: مكان مجرى السيل (المكان المنخفض). الندى: الكرم. المكارم: الأعمال الجيدة.

(٧) مجد المعتمد بن عبّاد (في قومه بني لخم) يجعل كرم حاتم طيّ قليلاً حتّى يخجل بنو طيّ من ذلك الكرم القليل.

(٨) مقلّد (حامل في عنقه) حمالة سيف = سائر إلى الحرب، أو حمالة غارم (رجل عليه دين) = هو ينقذ (بكرمه) المدينين من ديونهم .

(٩) العرصة (بفتح ففتح): الباحة أمام المنزل. المعلم: المكان (مساكن المعتمد بن عبّاد).

أَلْكِنِيَ مِنْهُمْ بالسَّلامِ إلى فَتىً تَهادى بهِ جُرْدُ العتاقِ الصَّلادِمِ[1]،
تَبوَّأ مِنْ لَخْمٍ - وناهِيكَ مَقْعَداً - مَكانَ رَسولِ اللهِ مِنْ آلِ هاشِمِ[2]!
أبا القاسِمِ، اقْبَلْها إلَيْكَ فإنّما تَناؤُكَ مِسْكي والقَوافي لَطائمي[3].
أنا العبدُ في ذُلِّ الخُضوعِ لَوَ انّني أرى البدْرَ تاجي والنُّجومَ خَواتِمي.
وإنّي - إذا أنْصَفْتَ - بَعْدَكَ خادِمٌ لِدَهْري، وكانَ الدهرُ عِنْدَكَ خادِمي.
لَعَلَّ الذي أقْذى بِتَرْحَةِ راحِلٍ عُيوناً سَيَجْلوها بفَرْحَةِ قادمِ[4]،
فتَرْجِعَ أيّامٌ مَضَتْ وكأنّها، إذا امْتَثَلَتْها النَّفْسُ، لَذّةُ حالِمِ[5].

- وقال ابن عمّار في هجاء المعتضد وابنه المعتمد (وفيات الأعيان ٢ : ٣٧١):

مِمّا يُقَبِّحُ عِنْدي ذِكْرَ أَنْدَلُسٍ سَماعُ مُعْتَضِدٍ فيها ومُعْتَمِدِ؛
أسْماءُ مَمْلَكَةٍ في غيرِ مَوْضِعِها، كالهِرِّ يَحْكي انْتِفاخاً صَوْلَةَ الأَسَدِ.

٤- نحلة اللبيب، الجزائر ١٩٠٤ م.

★★ ابن عمّار: ترجمة قصصية، تأليف ثروت أباظة، القاهرة (دار المعارف - سلسلة «اقرأ»، رقم ١٤٣) بلا تاريخ؛ (مطبوع مع مؤلّفات ثروت أباظة)، القاهرة (الهيئة المصرية العامّة للكتاب) ١٩٥٧ م.
- محمّد بن عمّار الأندلسي: دراسة أدبية تاريخية، تأليف صلاح خالص، بغداد (مطبعة الهدى) ١٩٧٥ م.

قلائد العقيان ٩٣ - ١١١؛ الذخيرة ٢ : ٣٦٨ - ٤٣٣؛ خريدة (المغرب) ٢: ٧١ - ٨٣؛ المغرب ١: ٣٨٩ - ٣٩١؛ المطرب ١٦٩ - ١٧٤؛ الحلّة السيراء ٢: ١٣١ - ١٦٥؛ الوافي بالوفيات ٤: ٢٢٩ - ٢٣٤؛ وفيات الأعيان ٢: ٤٢٥ - ٤٢٩؛ المعجب ١١١ - ١٢٩؛ أعمال الأعلام ١٥٩ - ١٦٢؛ نفح الطيب ١: ٦٥٢ - ٦٥٦،

---

(١) ألكني: احمل عني (منّي) رسالة. تهادى - تتهادى: تتمايل (تفتخر). جرد (الخيل القليلة الشعر) العتاق (الأصيلة) الصلادم جمع صلدم (بكسر الصاد والدال): الأسد، الصلب، الشديد الحافر.

(٢) تبوأ: نزل منزلاً، اتّخذ مكانة. ناهيك مقعداً: يكفيك شرفاً أن تكون في مثل هذا المقعد. مكانة المعتمد بن عبّاد في لخم كمكانة رسول الله في بني هاشم (مبالغة مكروهة).

(٣) أبو القاسم - المعتمد بن عبّاد. اقبلها = اقبل هذه القصيدة. تناؤك مسكي: لا أستطيع أن أهدي اليك مسكاً (شيئاً طيباً) سوى مدحي ايّاك. القوافي: القصائد. لطائمي جمع لطيمة: قافلة تحمل مسكاً للتجارة من بلد إلى بلد.

(٤) أقذى العين: ألقى فيها القذى (وتأتي بمعنى أزال منها القذى). الترحة: الحزن. سيجلوها = سيجلو القذى منها.

(٥) امتثلتها: جعلتها هدفاً، تخيّلتها.

٦٦٧ - ٦٦٨ ، ٦٧١ - ٦٧٢ ، ٣ : ٢٤٢ - ٢٤٤ ، ٣٢٥ - ٣٢٨ ، ٤ : ٢١٢ - ٢١٣ ، ٣١٣ - ٣١٤ ، ٥ : ١٨١ - ١٨٢ ؛ شذرات الذهب ٣ : ٣٥٦ - ٣٥٧ ؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣ : ٧٧٥ - ٧٧٦ ؛ نيكل ١٥٤ - ١٦٣ ، مختارات نيكل ١٠٧ - ١١٣ ؛ بالنثيا ٨٩ - ٩٤ ؛ الأعلام للزركلي ٧ : ١٩٩ - ٢٠٠ (٦ : ٣١٠ - ٣١١) ؛ مجلة العربي (الكويت) ١٩٦٨/١١ ، ص ٧١ ، ١٩٧٠/٧ ، ص ٧٦ .

ابن أرفع رأسه

١ - هو أبو بكرٍ محمّدُ بنُ أرفعَ رأسه[1]، من أهلِ طُليطلةَ، رَوى عن محمّدِ بنِ ابراهيم الخشنيِّ وغيره.

كان ابنُ أرفع رأسه متّصلاً بيحيى المأمونِ (٤٢٩ - ٤٦٧ هـ) من بني ذي النونِ أصحابِ طُليطلةَ. وقد تولّى قضاءَ طَلَبيرة (غَربَ طُليطلة)، في زمنٍ لا نَعرِفُه. أمّا وفاتُه فَلَعَلّها كانت في أواخرِ القرنِ الخامسِ للهجرة (أواخرِ الحادي عَشَر للميلاد).

٢ - كان ابنُ أرفع رأسَه من أهلِ الذِهْنِ الثاقبِ والعلمِ البارع حافظاً لرأي مالكٍ ومن رؤساء المذهب في زمنه. كان شاعراً لهُ موشّحاتٌ ذاعتْ على ألسُنِ أهلِ الأندلس. وكانتْ مكانتُه في التوشيح تَلي مكانةَ ابنِ عُبادةَ القزّازِ[2].

٣ - مختارات من شعره

- قال ابن أرفع رأسه يمدحُ المأمونَ بنَ ذي النون:

دَعوا الملوكَ وأبناءَ الملوك فمَنْ ... أضحى على البحر لم يَشْتَقْ إلى نَهرِ.
ما في البسيطةِ كالمأمونِ ذو كرمٍ ، ... فانظُرْ لتصديق ما أسمعتُ من خبر.
يا واحداً ما على عَلْياه مُختلفٌ ، ... مُذْ جاد كَفُّكَ لم نحتَجْ إلى المطر.
وقد طلعتَ لنا شمساً، فما نظرتْ ... عينٌ إلى كوكبٍ يَهْدي ولا قمر.

---

(١) في الصلة (ص ٣٨٥ ، رقم ٨٧٤): أبو بكر عثمان بن عيسى بن يوسف التجيبي من أهل طليطلة ويعرف بابن أرفع رأسه.

(٢) مقدمّة ابن خلدون ١١٣٨ . راجع ترجمة ابن عبادة القزّاز ، فوق، ص

وقد بَدَوْتَ لنا وُسْطى ملوكِهِمُ فلَمْ نُعَرِّجْ على شَذْرٍ ولا دُرَرِ[١].

- وقال من موشّحة:

من علّقَ القُرْطا في أُذُنِ الشِعْرى وأكففَ المِرْطا الغُصُنَ النضْرَا[٢]؟

★ ★ ★

قد هِمْتُ في وَسْنانْ أُسْدَ الشَرى يَسْبِي[٣]
بلحظِهِ الفتّانْ في مَعْرَكِ الحبّ.
أعلى ظُبا سلطانْ بقُدرة الربّ[٤].
سُبحانَ من أعْطى جُفونَكَ النَصْرا والقَبْض والبَسطا والنَهْيَ والأَمْرا[٥].

★ ★ ★

ضنَّ بإسعاد، والشمسُ تَحْكيهِ[٦]،
من بعدِ ميعادِ أبْدى الرِضا فيه.
فكانَ إنشادي خوفَ تَجنّيهِ[٧]:
حيثُ قد أبطا من أمْسك البَدْرا عَنّي لقدَ أخْطا وأشْغل السِرّا[٨].

---

(١) الوسطى: الجوهرة الكبرى التي تكون في وسط العقد. وسطى ملوكهم: أعظم الملوك. لم نعرّج (لم نلتفت، لم نهتمّ). الدرر: اللؤلؤ. الشذر: قطع صغيرة من ذهب تكون بين اللؤلؤة واللؤلؤة في العقد.

(٢) الشعرى نجم كبير لامع (المحبوب الجميل). أكفف (؟). المرط: ثوب من حرير. الغصن (المحبوب ذو القامة المنتصبة كالغصن). النضر (الأخضر الريّان). (من أحاط هذا الغصن بثوب من حرير).

(٣) هام: اشتدّ حبّه. وسنان: محتاج إلى النوم (هنا: ناعس العينين). أسد الشرى (الجبال) تكون أشد (؟)، يقصد الرجال الأقوياء.. يسبي: يأسر، يستعبد.

(٤) أعلى ظبا (جمع ظبة بضم ففتح: حد السيف) سلطان (؟)

(٥) القبض والبسط: القدرة على الحرمان والعطاء.

(٦) ضنّ: بخل. اسعاد (مساعدة): استجابة للمحبّ. تحكيه: تشبهه.

(٧) أنشدتّ فيه (تغزّلت به) خوف أن يتجنى عليّ (فيدّعي أنّه مال عنّي لأنني لا أحبّه).

(٨) حيث (إذا) أبطأ (تأخر) من أمسك (الذي يشرف على: المربّي أو المربّية) البدرا (المحبوب الجميل)... (ولمّا اتّفق أن مرّ بي جعله يتخطّاني ولا يلتفت إلى مكاني) فأشغل السرّ(القلب، قلبي: بلبله وحيّره).

- ومن موشّحاته الموشّحةُ التاليةُ (ونلاحظُ في أعاريضها عدداً من أوجهِ الاختلاف في الوزن!):

خلعتُ عُذْري وبُحتُ بالغُزلان[1]،
مذ بانَ عُذري في الأوجه الزُهْرِ الحِسان[2]؛
من كلّ بدرِ يلوحُ في غصنِ بان[3].
أوطفٌ قد أدارْ لحظاً يُصيب حبَّ القلوبْ بسَهْمِ احْورار[4].

* * *

قضيبُ رَنْدِ يَميس في دِعْصٍ رجراج[5]؛
وبدرِ سَعْدِ يُريك تحتَ الليلِ داج[6]
رُمّانَ نَهْدِ أينَعَ في لَبّات عاج[7].
يُقْطَف بأفكارْ فوقَ قضيبْ لَدْنٍ رطيبْ من ذَوْب البلّار[8].

* * *

أوْدى بصبري لامَا عبيرْ في شقيقْ[9]،

---

(١) عذر (بضمّتين، وحذف الشاعر الثانية للضرورة) جمع عذار (بالكسر): اللجام، أي أعلنت حبّي وبحت (بأسماء) المحبوبين..

(٢) بان: ظهر. يبدو أن «الزهر» زائدة.

(٣) البان شجر أغصنه طويلة مستقيمة سمراء.

(٤) أوطف: كثيف شعر الحاجبين. أدار لحظاً: جعل يتطلّع إلى كلّ جهة. يصيب حبّ القلوب (وسطها): يصيب مقتلاً. الأحورار: شدّة بياض العين وشدة سوادها.

(٥) الرند نوع من الشجر. يميس: يتمايل. الدعص: الجانب المستدير من رمل أبيض. (يقصد الكفل - بفتح ففتح).

(٦) تحت الليل داج (داجياً: مسودًّا): تحت شعره الأسود الحالك.

(٧) أينع الثمر: نضج (بلغ تمامه). اللبّة (بالفتح): أعلى الصدر. عاج: سنّ الفيل (شديد البياض).

(٨) يقطف (أي رمّان النهد) بالفكر والنظر (ويمنع مسّه). قضيب: قامة منتصبة. لدن: طريّ يتثنّى. البلّار: البلّور (بكسر الباء وفتح اللام المشدّدة أو بفتح الباء وضمّ اللام المشدّدة. اقرأ «بلاّر» (بلا لام للتعريف).

(٩) أودى بصبري: ذهب به، أفناه. لاما (مثنّى لام = ل: استدارة خصلة من الشعر على جانب الصدغ. في شقيق (على خدّ أحمر كشقائق النعمان).

خُطّا بالسحرِ في صَفْحتَّيْ خدٌّ أنيقْ[١]؛
وسِمْط ثغرِ قد نمّ بالمِسْك الفتيق[٢]،
وصُفَّ بالنُضارْ ألْمى شَنيبْ مِثْلُ الضَريبْ يُزري بالعُقارْ[٣].

★ ★ ★

حَماني الظَلْما من لا يبالي ظُلْما[٤].
ان راشَ سهما أصابَ قلبي وأدْمى[٥].
رَضيتُ السُقْما في حبّهِ حَظًّا وقِسْما
بملتف بمدرار. ما للكئيبْ حينَ يصوبْ كالمُزْنِ أسْرارْ[٦].

★ ★ ★

أضاقَ ذَرْعي بالصَدّ عنّي يومَ زارْ[٧].
يهفو عن رَوْعي كطائرٍ في الجوّ طارْ[٨].
هَمَّ بوَقْعِ وخافَ من إنْسٍ فحارْ[٩].

---

(١) كأنّما خطّا (خطّتا، رسمتا) بالسحر (بمقدرة غير بشرية، لجمالها الخارق). أنيق: مؤنق (يعجب العين).

(٢) وسمط (عقد) ثغر (فم): صفّ أسنان. نمّ: وشى (نقل الكلام): فاح منه. الفتيق: الجديد (يكون المسك في وعاء مغلق، فإذا فتح لأوّل مرّة كانت رائحته قويّة).

(٣) النضار: الذهب. صفّ (سمط الثغر - أي الأسنان) بالنضار (في لثّة تشبه الذهب في صفائها). ألمى: أسمر (شفة سمراء) شنيب: بارد (ريق بارد). الضريب: اللبن الذي يحلب من عدد من النوق في إناء واحد (والشاعر يقصد الضرب - بفتح ففتح - أي العسل). يزري: يعيب، ينتقص القدر. العقار: الخمر (ريقه أفضل من الخمر!).

(٤) حماني: منع عنّي. الظلم (بالفتح): الريق.

(٥) راش السهم: وضع ريشاً في مؤخره ليكون سيره في الهواء أدق (إن نظر بعينيه إلى المحبّ أصابه وآذاه).

(٦) ملتف (؟) لعلّها متلف: مهلك. مدرار: كثير الدر (بالفتح) المطول والسيلان (بدموع مدرارة). - ما (ليس) للكئيب (العاشق الحزين لأنّ محبوبه قد هجره) حين يصوب (دمعه، أي ينحدر دمعه: يبكي) كالمزن (كالمطر) أسرار (أي أسرار مكتومة - الدموع الكثيرة دليل على العشق).

(٧) أضاق ذرعي (المسافة بين الكتفين: صدري): جعله يضيق.

(٨) يهفو: يسرع في مشيه: عن روعي (اقرأ : من روع): من خوف.

(٩) همّ: عزم، أراد. وقع الطائر على الغصن: حطّ عليه.

رفرفْ ثمّ طارْ طيرٌ غريبْ   حُلوٌ عجيبْ بالعهدِ غدّارْ.

– وله موشّحة (بقي منها مَطلُعها وخاتمتها):

العودُ قد ترنّمْ بأبدعِ تلحينْ   وشَقّت المذانبْ رياضَ البساتينْ[1]

تخطرُ ولا تسلِّمْ عساكَ المأمونْ   مروِّع الكتائبْ يحيى بنُ ذي النونْ[2]

٤ – ** المغرب ٢ : ١٨ ؛ جيش التوشيح ص ٧٣ – ٨٥ ؛ (راجع ص ٢٤٤ – ٢٤٥) ؛ نفح الطيب ٤ : ١٣٤ – ١٣٥ ، ٧ : ٦ ؛ مقدّمة ابن خلدون (بيروت – دار الكتاب اللبناني) ١١٣٨ – ١١٣٩ ؛ نيكل ٢٠١ – ٢٠٢ .

علي بن فضّال

١ – هو أبو الحسنِ عليُّ بنُ فَضّالِ بنِ عليِّ بنِ غالبِ بنِ جابرِ بنِ عبدِ الرحمنِ التميميُّ المُجاشعيّ الفَرَزْدَقيّ (من نسل الفرزدقِ) القَيْروانيّ. يبدو أنّه وُلِدَ في القَيْروانِ ثمّ هَجَرَ مسقَطَ رأسِه (معجم الأدباء ١٤ : ٩١ ؛ إنباه الرواة ٢ : ٢٩٩) ، باكراً ورَحَلَ إلى العراق من الغَرْبِ (البلغة ١٦١) وطوّف كثيراً في الأرض حتّى وصلَ إلى غَزْنَةَ (الأفْغانِ اليومَ) وأقامَ في نَيسابور ولَقِيَ فيها إمامَ الحَرَمَيْنِ أبا المعالي عبدَ الملك الجُوينيَّ (٤١٩ – ٤٧٨ هـ) أستاذَ أبي حامدِ الغزّاليّ (٤٥٠ – ٥٠٥ هـ) – وكان الغزّاليّ لا يزالُ في الأغلبِ في نَيْسابور قبلَ أن ينتقلَ إلى بغدادَ ، ولعلّه رآه .

ثمّ عادَ عليُّ بنُ فَضّالٍ إلى العراقِ وسكن بَغْدادَ وأقرأ اللغةَ والنحوَ فيها مدّة « وحدّث عن جماعةٍ من شُيوخِ المَغْرب »(بغية الوعاة ٣٤٥). ثمّ دَخَلَ في خِدمةِ نظام الملك[3] وكانتْ وفاتُه في بَغدادَ ، ثانيَ عَشَرَ ربيعٍ الأوّلِ ٤٧٩ (٢٧/٦/١٠٨٦ م).

---

(١) المذنب (بكسر الميم وفتح النون) مسيل الماء .

(٢) مروّع الكتائب: مخيف الجيوش .

(٣) نظام الملك هو الحسن بن عليّ الطوسي (٤٠٨ – ٤٨٥ هـ) وكان وزيراً للسلاجقة يهتمّ بالعلم والعمران، بنى عدداً من المدارس (الجامعات) في بلاد المشرق فكانت تعرف باسم « المدارس النظامية ». قتل قرب نهاوند (فارس). ولا ندري إذا كان ابن فضّال قد دخل في خدمة نظام الملك في فارس أو أنّه قد دخل في خدمة دولة السلاجقة في بغداد .

٢ - كان عليُّ بنُ فَضّالٍ إماماً في النحوِ واللغة والتصريف والتفسيرِ والتاريخ، كما كان شاعراً مُحْسِناً يَرِقّ حيناً ويبدو على شعره الجفافُ حيناً. وفنونُه الحكمةُ والمديح والغزل. وهو يلجأُ أحياناً إلى الصِناعة والتَوْرِيَةِ خاصّةً. ثمّ هو مؤلّفٌ مُكْثِرٌ، له: الإكسير في علم التفسير (خمسة وثلاثون مجلّداً) - البُرهان العَميدي (في التفسير، عشرون مجلّداً) - النُكَتُ في القرآن - شرح بسم الله الرحمن الرحيم - الفصول في معرفة الأصول - المقدّمة في النحو - شرح عُنوانِ الإعراب - العواملُ والهوامل (في الحروف خاصّة) - الإشارة في تحسين العبارة - شرح معاني الحروف - إكسيرُ الذهب في صِناعة الأدب والنحو (اقرأ: صناعة النحو والأدب) - معارف الأدب - شجرة الذهب في معرفة أئمّة الأدب - العَروض - الدُوَلُ (في التاريخ: خمسة وثلاثون مجلّداً).

٣ - مختارات من شعره

- قال عليُّ بنُ فَضّالٍ في «فُقدانِ الصَداقة من الناس»:

وإخوانٍ حَسِبْتُهُمُ دُروعاً، فكانوها ولكنْ للأعادي.
وخِلْتُهُمُ سِهاماً صائباتٍ، فكانوها ولكن في فُؤادي.
وقالوا: قد صَفَتْ منّا قُلوبٌ. لقد صَدَقوا، ولكن من وِدادي.

- وقال من قصيدة في مَدْحِ نِظامِ المُلك:

دوارسُ آيٍ ما تَكادُ تُبينُ عَفاهنّ دمعٌ للسَحاب هَتونُ[1].
وقَفْنا بها مُسْتَلْهِمينَ فلم يَزَلْ لِسانُ البِلى عن عُجْمِهِنّ يُبين[2]؛
على حينَ عاصَيْتُ الصِبا وهو طائعٌ وأرْخَصْتُ عِلْقَ اللَّهْوِ وهْوَ ثمين[3].
سقى اللهُ حيثُ الظاعنون سحائباً فقَلْبِيَ حيثُ الظاعنونَ رَهين[4].

---

(١) دوارس (أمكنة ممحوّة الأثر، مهدّمة. آي=آيات (جمع آية) مكان تتلى فيه الآيات (؟). عفاهنّ (محاهنّ) دمع (مطر) هتون (كثير).

(٢) البلى: الفناء، الخراب. عجمهنّ (صمتهنّ) يبين (يعبّر، يتكلّم).

(٣) العلق: الشيء النفيس. حينما كنت شاباً قادراً على اللهو لم أكن ألهو؛ بينما كان غيري يرى أن هذا اللهو مهمّ جدّاً.

(٤) الظاعنون: الراحلون عنّي (أحبابي - يقصد: الظاعنات: النساء الحسان).

فكم ضُمِّنَتْ أحداجُهُم مِنْ جآذِرٍ أوانسَ يَنْضوها جآذر عِينُ[1]!
وأقمارِ تِمّ لم يَرَ الناسُ قبلَها بُدوراً تَثَنّى تحتَهنّ غُصون[2]،
يُجَرِّدْنَ من ألحاظِهِنّ صوارِماً مُهنّدةً أجفانُهنّ مُتون[3].

٤- معجم الأدباء ١٤: ٩٠-٩٨؛ الخريدة (المغرب) ١: ٢٨٧ - ٢٨٩، إنباه الرواة ٢: ٢٩٩ - ٣٠٢؛ بغية الوعاة ٣٤٥؛ البلغة ١٦١؛ شذور الذهب ٣: ٣٦٣؛ الأعلام للزركلي ٥: ١٣٥ (٤: ٣١٩).

ابن جاخ البطليوسيّ

١- هو ابنُ جاخٍ البَطَلْيَوسِيُّ الصبّاغُ (كان يعمَلُ في صَبْغِ الثياب)، وكان أُمّياً لا يَخُطُّ ولا يقرأُ الخَطَّ. ولا أعلَمُ إلى ما استَنَدَ نِيكلُ لمّا ذَكَرَ (ص ١٧٩) أنّه كان أعمى.

يبدو أن حَياةَ ابنِ جاخٍ تَقَع كلُّها في القرنِ الخامسِ (القرنِ الميلاديّ الحادي عَشَرَ)، ويبدو أيضاً أنّه لم يَجِدْ في بَلاطِ بَطَلْيَوْسَ عندَ بني الأفطس ما يُؤمِّلُ، إذ كان أمرُ بني الأفطسِ مُضْطَرِباً، فذهب إلى إشبيليةَ ومدح المُعْتَضِدَ عبّاداً (٤٣٢ - ٤٦١ هـ). ثمّ لمّا اسْتَقَرَّ أمرُ بني الأفطس واستقلّ عُمَرُ المتوكّلُ بالإمارةِ (٤٧٣ - ٤٨٧ هـ) زارَه ابنُ جاخٍ مادحاً. وسَمِعَ الوزيرُ أبو بكرِ بنِ عمّارٍ بابنِ جاخٍ قبلَ اشتهارِه فمرّ على حانوتهِ وَهُوَ آخذٌ بعملِه وطارَحَه شيئاً من الشِعْرِ ثمّ قَدّمه وأحسنَ إليه. فإذا كانَ ابنُ عمّارٍ الذي وَلِيَ الوزارةَ للمُعْتَمدِ بنِ عبّادٍ، مُنْذُ سَنَةِ

---

(١) الحدج (بالكسر) مركب من مراكب النساء كالهودج. الجؤذر (بضمّ فسكون ثمّ بفتح أو ضم): الغزال الصغير (كناية النساء الحسان). الآنسة: الفتاة التي يؤنس بها. نضاها ينضوها (يتقدّمها!). العيناء: الواسعة العينين. هنالك سرب من الحسان المتقدّمات في السنّ يسرن في الطليعة (كما يكون في أسراب الحيوان).

(٢) بدر التمّ (في الليلة الرابعة عشرة). بدور (وجوه جميلة). تثنّى= تتثنّى (تتمايل). غصون جمع غصن (كناية عن قوام الفتاة النحيلة).

(٣) صارم: سيف. مهنّده: من صنع الهند. جفن السيف: قرابه، بيته. ولكنّ أجفان هؤلاء الحسان متون (صفائح سيوف)!

٤٦١ ، قد لَقِيَ ابنَ جاخٍ قبل أن يشتهر فيجب أن يكون ابنُ جاخٍ قد عاشَ بعدَ ذلك مدّةً طويلةً. فلعلّ وفاتَه لم تَقَعْ قبلَ ٤٨٠ (١٠٨٧ م).

٢ - كان ابنُ جاخٍ البَطَلْيَوْسِيُّ شاعراً مُحسناً. ولعلَّ جهلةَ القِراءةَ والكِتابةَ قد ترك شِعْرَهُ بريئاً من التكلّف. ومَعَ ذلك فإنّ صُوَرَهُ الشِعرية تُلْفى أحياناً بارعةً. ولكن لا يجوزُ أن نُخْدَعَ كثيراً بالقولِ إنّه كان أمّياً، لأنّ الأُمّيّةَ شيءٌ والثقافةَ شيءٌ آخرَ. ففي شِعرِ ابنِ جاخٍ ما يَدُلُّ على أنّه عَرَفَ غَريبَ اللغة ووَصْفَ الناقة وسَيْرِها عند الجاهليّين.

٣ - مختارات من شعره

- قال ابنُ جاخٍ البَطَلْيَوْسِيُّ في النَسيبِ:

ولَمّا وَقَفْنا غَداةَ النَوى ... وقد أسْقَطَ البَيْنُ ما في يدي[١]،
رأيتُ الهوادجَ فيها البُدورُ ... عليها البَراقعُ من عَسْجَدِ؛
وتحتَ «البراقعِ» مَقْلوبُها ... تَدِبُّ على وَرْدِ خَدٍّ نَدي[٢]
تُسالِمُ مَنْ وَطِئَتْ خَدَّهُ ... وتلدَغُ قلبَ الشَجِي المُكْمَدِ[٣].

- وقال يمدَحُ المُعْتَضِد عبّاداً:

قَطّعْتَ، يا يومَ النَوى، أكبادي ... وحَرَمْتَ عن عيني لذيذ رُقادي[٤]؛
وتَركْتَني أرْعى النُجومَ مُسَهَّداً ... والنارُ تُضْرَمُ في صَميمِ فُؤادي[٥].
فكأنّما آلى الظلامُ أليّةً: ... لا يَنْجلي إلاّ إلى ميعادِ[٦].

---

(١) البين: البعد، البعاد. أسقط ما في يدي (جعلني حائراً).

(٢) مقلوب براقع «عقارب» (كناية عن الشعر المتدلّي والمتعرّج على الصدغ (هذا يدل على أنه كان يعرف الخط).

(٣) الشجي: الحزين. المكمد: الذي أكمده الحزن (أغمّه).

(٤) لو قال: «وحرمت عيني من لذيذ رقادي» لكان أصحّ في التركيب والمعنى (من غير اختلاف في الوزن).

(٥) مسهّد: طائر النوم.

(٦) آلي: أقسم. أليّة: يمين، قسم. اقرأ: إلى الميعاد (يوم القيامة).

وَلَرُبَّ خَرْقٍ قد قَطَعْتُ نِياطَه والليلُ يرفُلُ في ثِيابِ حِداد[1]،
بشِمِلّةٍ حَرْفٍ كأنّ ذَميلَها سُرُحُ الرياحِ وكلُّ برقٍ غاد[2]،
والنَجْمُ يَحْدوها، وقد نادَيْتُها: يا ناقُ، عُوجي على عبّاد[3]!
مَلِكٌ إذا ما أُضْرِمَتْ نارُ الوغى وتلاقَتِ الأجنادُ بالأجناد
فَتَرى الجُسومَ بلا رُؤوسٍ تَنْثَني، وترى الرؤوسَ لَقًى بلا أجساد[4].
يا أيُّها الملكُ المُؤَمَّلُ والذي قِدْماً سَما شَرَفاً على الأنداد،
إنّ القصيدَ لَكاسدٌ في أرْضِنا، وله هنا سُوقٌ بغَيْرِ كَساد.
فجَلَبْتُ من شِعري إلَيْكَ قوافياً يَفْنى الزمانُ وذِكْرُها مُتَمادي،
مِنْ شاعرٍ لم يَضْطَلِعْ أدباً ولا خَطّتْ يداهُ صَحيفةً بِمِداد!

- وقال ابن جاخ:

(إذا مَرَرْتَ بِركْبِ العِيسِ حَيِّيها) يا ناقتي، فَعَسى أحْبابُنا فيها[5].
يا ناقُ، عُوجي على الأطلالِ، عَلَّ بها مِنْهُمْ غَريبٌ يراني كَيفَ أبْكيها؛
أو كيف أرفُضُ طِيبَ العيشِ بَعْدَهُمُ، أو كيف أُسْبِلُ دمعي في مَغانيها[6].
إنّي لأَكْتُمُ أشواقي وأَسْتُرُها جُهْدي، ولكنّ دَمْعَ العينِ يُبْديها.

٤ - ** جذوة المقتبس ٣٨١ (رقم ٩٦٣) (الدار المصرية ٤٠٥ (رقم ٩٦٤)؛ بغية الملتمس ٥٢٢ (رقم ١٥٦٢)؛ نفح الطيب ٣: ٤٥٢ - ٤٥٣، ٦٠٨، ٤: ٢٤٣ - ٢٤٤؛ بغية الوعاة ٥٢٢؛ نيكل ١٧٩ - ١٨٠، مختارات نيكل ١٢٣ - ١٢٤.

---

(١) خرق: القفر، الفلاة الواسعة. النياط (المسافة البعيدة).

(٢) شملّة: (الناقة) السريعة. الحرف (الناقة) الضامرة (الخفيفة السريعة). الذميل: السير السريع. السرح (بضمّ فضمّ: مفردة أو جمع): السريع.

(٣) النجم يحدوها (يسوقها) تسير ليلاً.! عوجي: ميلي (اقصدي). اقرأ: يا ناقتي...

(٤) لو قال «تلقى» مكان «فترى» لكان أصحّ في الإعراب. لقى: ملقى أرضاً، ما طرح ثمّ ترك لهوانه (لا قيمة له).

(٥) في جذوة المقتبس (ص ٣٨١) أنّ ابن جاخ قصد فخر الدولة أبا عمرو عبّاد بن محمّد بن عبّاد (الملموح أنّه المعتضد عبّاد صاحب إشبيلية). فلمّا دخل عليه، قال له (المعتضد) أجز: «إذا مررت بركب العيس حيّيها». فقال ابن جاخ هذه الأبيات ارتجالاً.

(٦) أسبل دمعه: تركه يسيل. المغنى: المكان المسكون العامر.

ابن الحدّاد الوادي آشي[١]

١ - هو أبو عبدِ الله محمّدُ بنُ أحمدَ بنِ عثمانَ القيسيُّ المعروفُ بابنِ الحدّادِ الوادي آشي[١] - وكان لَقَبُهُ «مازنٌ» - مَوْلده ونشأته في وادي آشَ. وهنالك عَشِقَ في صِباه فتاةً فلاّحة رومية (مسيحية) اسمُها جميلةُ ولكنّه يُكني عنها في شِعره باسم «نُويرة» اتّصل ابنُ الحدّاد الوادي آشيُّ بِبَلاطِ المعتصم بن صُمادحٍ (٤٤٤ - ٤٨٠ هـ) في المَرِيّة وقضى فيه مُعظَمَ حياته. واتّفق مرّةً أن عرّضَ في شِعره بالمعتصم بنِ صمادحٍ بالبخلِ فخافَه ثمّ فَرّ منه إلى سَرَقُسْطَةَ ومكث عند صاحِبها المقتدِر بنِ هودٍ سنينَ قلائلَ (٤٦١ - ٤٦٤ هـ) ولكنّه عاد بعدئذٍ إلى بَلاط المعتصم.

وكانت وفاةُ ابنِ الحدّادِ الوادي آشي سَنَة ٤٨٠ هـ (١٠٨٨ م) أو بعدَها بقليل.

٢ - كان ابنُ الحدّاد الوادي آشيُّ مُتَفَنّناً في علومٍ كثيرةٍ ولا سيّما في علومِ الأوائل (الفلسفة) وعلومِ التعاليم (الرياضيّات والفلك[٢] خاصّة) كما كان شاعراً فَحْلاً مُجيداً شديدَ الغَوْصِ على المعاني مُغْرَماً بالتشبيهات التي تبدو مُشرقةً في الشعر (بارعةَ المَظْهَرِ) من غيرِ أن يكون بينها وبين المعاني المقصودة صلةٌ وثيقة بالضرورة. وفنونُ شِعره المديح (ومُعْظَمُ مديحه في المعتصم) والغزلُ والعتاب والفخر والزُهد، وله هجاءٌ مُقْذِع. وكذلك كان حافظاً للحديث ومؤرّخاً وناقداً له كتاب في العَروض مزج فيه بين الأنحاء الموسيقية وآراء الخليلِ بنِ أحمدَ[٣] وردّ فيه على السرقُسطيّ المنبوذِ بالحمارِ[٤] ونقدَ كلامه فيما يتعلّق بالأَشْطار.

---

(١) هو غير الأديب الكاتب المؤرخ والحافظ الفقيه أبي عبد الله محمّد بن الحدّاد الشهير بالوادي آشي نزيل تلمسان بعد سقوط غرناطة (٨٩٧ هـ = ١٤٩٢ م). انظر نفح الطيب ٦ : ٢٢، ثمّ ٤ : ٥٠٧، ٧ : ١٠٣.

(٢) راجع نفح الطيب ٧ : ٢٦. قيل عرف خسوف البدر قبل موعده، وهي الحادثة المذكورة لابن باجّه المتوفّى ٥٣٣ هـ (راجع نفح الطيب ٧ : ٢٥).

(٣) توفّي عام ١٧٠ هـ. (راجع ٢ : ١١١ - ١١٦).

(٤) هو أبو عثمان سعيد بن فتحون التجيبي كان بارعاً في علوم اللغة وفي علوم الفلسفة وله في علم العروض كتاب مطوّل وكتاب مختصر وله رسائل في الفلسفة. امتحنه المنصور بن أبي عامر محنة (اتّهمه باعتقاد آراء الفلاسفة!) وسجنه. ثمّ أطلق سراحه فانتقل إلى جزيرة صقلّية، وبقي فيها إلى أن توفّي (أوائل القرن الخامس). راجع الذيل والتكملة ٤ : ٤٠ - ٤١؛ بغية الوعاة ٢٥٦، نفح الطيب ٣ : ١٧٥، ٥٠٢.

٣ - مختارات من آثاره

- قال ابن الحدّاد في النسيب:

هُمْ في ضَميركَ، خيّموا أمْ قوّضوا، ومُنى جُفونِك أقبلوا أم أعرضوا[١].
وهُمُ رِضاكَ مِنَ الزمانِ وأهْلِهِ سَخِطوا كما زَعَمَتْ وُشاتُك - أم رَضُوا[٢].
أهواهُمُ وإنِ استَمرَّ قِلاهُمُ؛ ومِنَ العجائبِ أن يُحَبَّ المُبْغِضُ[٣]!

- وقال يتغزّل في نُوَيْرَةَ:

وارَتْ جُفوني مِنْ نُوَيْرَةَ، كاسْمِها، ناراً تُضِلُّ؛ وكلُّ نارٍ تُرْشِدُ[٤].
والماءُ أنتِ، وما يَصِحُّ لِقابضٍ؛ والنارُ أنتِ، وفي الحَشى تَتَوَقَّدُ[٥].

- وقال في مُسامَحَةِ الإخوانِ وتَشْبيهِهِم بالسِراج:

سامِحْ أخاكَ إذا أتاكَ بزَلّةٍ؛ فخُلوصُ شيءٍ قلّما يَتَمكّنُ.
في كلِّ شيءٍ آفَةٌ مَوْجودةٌ: إنّ السِراجَ على سَناهُ يُدَخِّنُ!

- وقال يَصِف إعطاءَ المَمْدوحِ البِدَرَ للطالبين (والبَدْرَةُ خَمْسُمِائَةِ دينارٍ، وتكونُ عادةً في صُرّةٍ مُكَوَّرةٍ):

يَدينُ نَداهُ دينَ كَعْبٍ وحاتمٍ؛ فحَتْمٌ عليه، الدهرَ، وَصْلُ صِلاتِها[٦].
يُجاهِدُ في ذاتِ النَّدى بَيْتُ مالِهِ؛ ولا جَيْشَ إلاّ من أكُفِّ عُفاتِها[٧].
إذا البِدَرُ انثالَتْ عَلَيهِمْ حَسِبْتَها، بأيدي مَواليها، رُؤوسَ عِداتِها[٨]!

---

(١) خيّموا أو قوّضوا: أقاموا أو رحلوا (حضروا أو غابوا). ومنى جفونك: الذين تتمنّى أن تراهم.
(٢) الوشاة: الذين ينقلون الأخبار السيئة أو المختلقة للإفساد بين المتحابين.
(٣) القلى: البغض.
(٤) وارى: أخفى. كاسمها (يقصد: ناراً، حرارة، حبّاً وشوقاً وتلهّفاً إلى رؤية المحبوبة).
(٥) أنت تشبه الماء لا يستطيع أحد أن يقبض عليه (ولا أن يصل إليك) وكالنّار ولكن تشتعل في القلوب.
(٦) نداه (جوده وكرمه) يدين (يسلك، يعمل، يسير على) دين (عادة) كعب (بن مامة الأيادي) وحاتم (الطائي) كريمان مشهوران. حتم عليه: يرى من الواجب عليه. الدهر (طول الدهر) وصل (مواصلة، استمرار) الصلات (بكسر الصاد) العطايا.
(٧) الندى: الكرم. العفاة (جمع عاف: طالب المعروف والعطاء). كأن بيت ماله (أمواله) في جهاد (حرب) في ذات الندى (في سبيل الندى= ضدّ البخل والفقر) والجنود هم أكفّ (أيدي) طالبي العطاء.
(٨) انثالت: انهمرت، انصبّت. مواليها: أصحابها (أصحاب البدر، الذين يستحقّون هذه البدر).

– وقال ابن الحدّاد الوادي آشي يتغزّل ثمّ أحسن التخلّص إلى مديح محمّد بن معن (المعتصم بن صمادح):

– عُجْ بالحِمى حيث الغياضُ العين ... فعسى تَعُنّ لنـا مَهـاهُ العِيـنُ[١].
واَستَقبِلَنْ أَرَجَ النسيمِ فَدارُهم ... نَـدِّيَـة الأَرجـاءِ لا داريـنُ[٢].
أُفُقٌ إذا ما رُمْتَ لحـظَ شموسِه ... صَدّتْك للنَقْعِ المُثارِ دُجـون[٣].
أَنّـى أُراعُ لهـم وبـيـن جـوانحي ... شوق يُهَوِّن خطبَهم فيهون[٤]؟
أنّـى يَهـابُ ضِرابَهم وطِعانَهـم ... صَبٌّ بألحـاظ العيـون طَعين[٥].
فـكـأنّـمـا بِيـضُ الصِفـاحِ جَداولٌ ... وكـأنّـمـا سُمْرُ الرِماحِ غُصون[٦].
ذَرْني أَسِـرْ بيـن الأَسِنَّة والظُبى ... فالقلب في تلك القِباب رَهين[٧].
فـلـعلّـه يُروي صَدايَ بلحظـه ... وجهٌ به ماء الجمال مَعين[٨].
يـا ربَّـةَ القُـرطِ المُعيرِ خُفوقَـه ... قـلـبـي، أما لِحِراكِه تَسْكين؟
تـوريـدُ خدِّكِ للصَّبابـة مَـوردٌ، ... وفـتـور طَـرْفكِ للنفوس فُتـون.
فإذا رَمقْتِ فَوحي حبِّـك مُنْزِلٌ ... وإذا نَطَقْـتِ فـإنّـه تَلْقـين[٩].
أنـتِ الـهوى، لـكنّ سُلوانَ الـهوى ... قَصْدُ ابنِ مَعْنٍ؛ والحديثُ شُجون[١٠]

---

(١) عاج بالمكان: أقام. الغيضة: المكان يكثر فيه الشجر ويلتفّ. الحمى: المكان الذي لا يجسر أن يقترب منه عدوّ. العين (جمع عينة: الجميلة المنظر، الفائقة على غيرها). المها: الظباء (النساء الجميلات). العين جمع عيناء (بفتح العين): المرأة الواسعة العينين.

(٢) أرج: رائحته الطيّبة المنتشرة. نديّة (نسبة إلى ندّ: نوع من الطيب يستخدم بخورا). دارين مكان في الشام فيه نباتات طيّبة الرائحة.

(٣) الأفق: البلد، الجانب من الأرض. النقع: غبار الحرب. دجن: الغيوم. بلد تكثر فيه الحروب(؟).

(٤) أنّى: كيف (لماذا). راع: أخاف (نار الحبّ التي في قلبي أشد خطراً من الحروب بين الجيوش).

(٥) هاب: خاف. الضراب (بالسيف) والطعان (بالرمح). صبّ: محبّ.

(٦) بيض الصفاح (صفحات الحديد: السيوف). جداول: أنهار.

(٧) ذرني: دعني. السنان: الحديدة في رأس الرمح. الظبة (بضمّ ففتح): حد السيف. القبّة: الخيمة الكبيرة من الجلد (تكون للقوّاد وللأشراف).. سأستسهل السير بين المتحاربين حتى أصل إلى خيمة المحبوب.

(٨) الصدى: العطش. معين: ماء كثير جار (عذب).

(٩) رمق: نظر. إذا نظرت إليّ أوحيث إليّ (قول الشعر). تلقين: تعليم بالقراءة.

(١٠) سلوان: نسيان. قصد «زيارة» ابن معن (المعتصم بن صمادح). زيارته تنسيني المحبوب.

فالحسنُ أجمعُ مـا يُريـكِ عِيانُـه، لا ما أرتْهُ سَوالِفٌ وعيـون[١].
والروض ما اشتملت عليه سُهولُه، لا ما أرَتْهُ أباطِحٌ وحُـزون[٢].
قصـرٌ تَبيَّنَتِ القُصورُ قُصورَهـا عنـه، وفضـلُ الأفضلين يَبين[٣].
هـو جنّـةُ الـدنيـا تَبوّأ ظِلَّهـا مَلِـكٌ تَمَلَّكَـهُ التُقـى والـدين[٤].
فَمَنِ ابنُ ذي يَزَنٍ؟ ومـا غُمْدانُـه؟ النَقْـلُ شكٌّ والعِيـانُ يَقـين[٥]!

- وقال في النسيب (التشابيهُ والاستعاراتُ والكنايات هنا كثيرة):

بِعَيْشِكُما، ذاتَ اليَمـينِ! فـإنّني أُراحُ لِشمِّ الروح مـن عقداتِهـا[٦].
فقـد عَبِقَتْ ريـحُ النّعامـى كأنّمـا سَـلامُ سُلَيْمـى راحَ من نَفَحاتها[٧].
وتَيْماءُ للقلـبِ المُتَيَّمِ مَنْزِلٌ؛ فعُوجـا بِتَسليـمٍ عـلى سَلَماتِهـا[٨].
مَشـاعـرُ تهيـامٍ وكَعْبـةُ فِتْنـةٍ، فُـؤاديَ مـن حُجّاجها ودُعاتِهـا[٩].

---

(١) عيانه: مشاهدته. السالف: الشعر المتدلّي من جانب الرأس. سوالف وعيون كناية عن النساء الجميلات.

(٢) الأبطح: الأرض الواسعة المستوية. الحزن (بالفتح) الأرض الصلبة يعسر السير فيها. بلاد المعتصم بن صمادح أجمل (وأفضل) من بلاد غيره....

(٣) قصورها (تقصيرها) عنه. يبين: يظهر (من تلقاء نفسه).

(٤) تبوّأ: سكن وأقام في المكان.

(٥) سيف بن ذي يزن: ملك مشهور في اليمن. غمدان: قصر سيف بن ذي يزن. نحن نسمع عن سيف بن ذي يزن سماعاً، ولكنّنا نرى مجد المعتصم بن صمادح بعيوننا.

(٦) استحلفكما بحياتكما أن تميلا بنا ذات اليمين. راح لذلك الأمر يراح: فرح (قا ١: ٢٢٥، السطران ٥ - ٦). الروح (بفتح الراء): نسيم الريح. عقداتها (بضم العين وفتح القاف) جمع عقدة (بضمّ العين وسكون القاف): كلّ أرض مخصبة.

(٧) النعامى: (بضمّ النون): ريح الجنوب، أو ريح بين الجنوب والشرق. عبقت الريح: لزقت بها رائحة الطيب. النفحة: الهبة من الرائحة الطيّبة.

(٨) تيماء بلدة في نجد (المقصود: بلد المحبوبة). المتيّم. الّذي تيّمه (استعبده وذلّلهُ) الحبّ. وتيماء للقلب المتيّم منزل: قلبي لا يترك حبّ المحبوبة ولا يترك تذكّرها. عوجا: ميلا (بنا)، دعانا نذهب إلى (بيت المحبوبة). السلمات (بفتح ففتح): جمع سلمة (بفتح ففتح): نوع من الشجر؛ أو جمع سلمة (بفتح فكسر): حجر (المقصود: ديار الحبيبة).

(٩) مشاعر جمع مشعر (المكان المقدّس الذي يزار). التهيام (غير موجودة في القاموس، مع أنّها وردت في شعر كُثَيِّر عزّة): شدّة الحبّ للمرأة.

فكم صافحَتْني في مِناها يدُ المُنى، وكم هبّ عَرْف اللّهْوِ في عرَفاتها[1].
عَهِدتُ بها أصنامَ حُسْنٍ عَهِدْنَنِي هَوًى عَبْدُ عُزّاها وعبدُ مَناتها[2].
أُهِلُّ بأشْواقي إلَيْها وأتّقي شَرائِعَها في الحُبِّ حَقّ تُقاتِها

٤ - ** المطمح ٨٠ - ٨٣، الذخيرة ٢: ٦٩٢ - ٧٢٩؛ جذوة المقتبس ٣٧٣ (رقم ٩٣٩)؟؛ المحمدون من الشعراء ١٠٦ - ١٠٨؛ الخريدة (المغرب) ٢: ٢٧١ - ٢٨٩؛ الخريدة (الأندلس)١: ١٧٧ - ٢٠٩؛ فوات الوفيات ٢: ٢٠٩؛ الوافي بالوفيات ٢: ٨٦ - ٨٨؛ التكملة ١٣٣ (رقم ٤٦١)؛ الذيل والتكملة ٦: ١٠ وما بعد؛ أزهار الرياض ٣: ٣١٤؛ المغرب ٢: ١٤٣ - ١٤٥؛ الاحاطة (١٣١٩) ٢: ٢٥٠ - ٢٥٢؛ نفح الطيب ٣: ٢٦٣، ٥٠٢ - ٥٠٥، ٤: ٤٨ - ٥١، ٥٦، ١٠١ - ١٠٢، ٧: ٢٦ - ٢٧؛ دائرة المعارف الاسلامية ٣: ٧٧٥ - ٧٧٦؛ نيكل ١٩٤ - ١٩٥، مختارات نيكل ١٣٥ - ١٣٨؛ الأعلام للزركلي ٦: ٢٠٧ (٥: ٣١٥).

ابن الدبّاغ

١ - هو أبو المُطرِّفِ عبدُ الرحمنِ بنُ فاخرٍ من سَرَقُسْطة، كان كاتباً عند صاحبها المقتدرِ بنِ هودٍ (٤٣٨ - ٤٧٤ هـ)، فوقعتْ بينَهما وَحْشةٌ فهرب ابنُ الدبّاغ ولَحِقَ بالمُعتمد بنِ عبّاد في إشبيلية (٤٦١ - ٤٨٤ هـ) فنال عندَه حظوةً وسَفَرَ[3] بينَه وبينَ المُتوكِّلِ بنِ الأفطس صاحبِ بَطَلْيَوْسَ. وكان لابنِ الدبّاغ حُسّاد وأعداء، كما كان هو أيضاً ضيِّق الخُلُق كثيرَ التضجُّر من الناس. ووقعت بينَه وبينَ ابنِ عمّارٍ (قتله المعتمد سنة ٤٧٧ هـ) عداوةٌ فانتقلَ إلى المُتوكّل بنِ الأفطس، في ٤٧٣ هـ أو بعدَ ذلك بقليلٍ (راجع الذخيرة ٣: ٢٥٢).

---

(١) منى (بكسر الميم) مشعر أو منسك من مناسك الحجّ. العرف: الرائحة الطيّبة. عرفات: جبل يجتمع عليه الحجّاج للتلبية (دعاء الله).

(٢) عهدت: عرفت. عهدنني: تعوّدن أن يرينني. هوى: محبّ. العزّى ومناة (من بنات الله عند عرب الجاهلية).

(٣) سفر: عمل سفيراً (تردّد بين الدول في مهمّات رسمية).

وكان أبو عبدِ اللهِ محمّدُ بنُ أيْمَنَ[1] وزيراً لدى المُتوكّل - أو مُسْتَوْلِياً على أمورِ الوزارة فخافَ من مُنافسة ابنِ الدبّاغِ فنشأتْ بينَهما عداوةٌ شديدة ارتحلَ ابنُ الدبّاغ بعدَها إلى بلدِهِ سَرَقُسْطَةَ. وبعدَ قليلٍ قُتِلَ ابنُ الدبّاغ في بعضِ بساتينِ سَرَقُسْطةَ. وقد رَثاه ابنُ عَبْدونٍ (ت ٥٢٩ هـ).

إنّ هذه الأحداثَ المُتلاحقةَ تَدُلّ على أن مقتلَ ابنِ الدبّاغ كان في حُدودِ سَنَةِ ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م).

٢ - كان ابنُ الدبّاغِ أديباً ناثراً شاعراً وكاتباً. وكان النثرُ أغلبَ عليه. ومُعْظَمُ رسائلِهِ إخوانيّاتٌ كثيرةُ السجعِ والصِناعة، وتكاد تكونُ كلُّها في الشكوى من الدهر ومن السِعايات (الذخيرة ٣ : ٢٦٩). ومن رسائلِهِ المتقدّمةِ رسالةٌ ذكرَ فيها سببَ خُروجِهِ عن سَرَقُسطة (٣ : ٢٧٢). أمّا شعرُه فسهلٌ عذْب، ولكنَّ معانِيَهُ عاديّة. والقليلُ المَرْويّ من شِعره في الغَزَل والنسيب والمديح.

٣ - مختارات من آثاره

- فصل من رسالة له في الشكوى (الذخيرة ٣ : ٢٥٧):

كتابي، وعِندي من الدهر ما يهُدُّ أيسرُه الرواسِي[2] ويُفَتِّتُ الصخرَ القاسِيَ. فأنا وإيّاه فَرَسا رِهانٍ[3]: «يُجِدّ نوائباً وأُجيدُ صبْراً»[4]. ومن أجَلِّها[5] قَلْبُ محاسِني مَساوِيَ[6]، وأوْليائي أعادِيَ، وقَصْدي بالبُغْضة من جِهة المِقة، واعتمادي بالخِيانة من حيثُ الثِقةُ[7]. فقِس بهذا على ما سِواه وعارِضْه بما عَداه[8]. ولا أُطَوِّل عليك،

---

(١) هو أبو عبد الله محمّد بن أيمن كان وزيراً للمتوكّل صاحب بطليوس (٤٦٠ - ٤٧٣ هـ).
(٢) الرواسي: الجبال.
(٣) فرسا رهان: متساويان في المقدرة.
(٤) يجدّ (يأتي بأشياء جديدة) نوائب (جمع نائبة: مصيبة) وأجيد صبراً (أصبر صبراً جميلاً، كثيراً). والجملة شطر من الشعر (مستشهد به هنا).
(٥) أجلّها: أعظمها، أكبرها.
(٦) قلب (عكس، تبديل) مساوي (مساوىء، جمع سيّئة).
(٧) المقة: الصداقة والمحبّة. من حيث الثقة (في مكان الثقة).
(٨) عارضه: قارنه. بما عداه: بما تجاوزه (بغيره).

فقدغَيّر عليّ حتّى شَرابي وأوحشَني حتّى ثيابي[1] .. فها أنا أتّهم عِياني وأسْتريب من بَناني[2] وأجْني الإساءة من غَرْس إحساني. وقاتل الله الحُطَيْئةَ[3] في قبره فَلَشَدَّ ما غَرّ بقوله:

مَنْ يفعلِ الخيرَ لا يعدَمْ جوازِيَهُ، لا يذهبُ العُرْفُ بين الله والناس[4].
من يزرعِ الخيرَ يَحْصُدْ ما يُسَرّ به. وزارعُ الشرّ منكوسٌ على الراس[5].

أنا، واللهِ، اغْتَرَرْتُ به[6] وفعلت خيراً فعَدِمْتُ جوازِيَه وأذْمَمْتُ عوائِدَه ومَبادِيَه[7]. وزرعته فلم أحصُدْ إلاّ شرّاً ولا اجْتَنَيْتُ معه إلاّ ضُرّاً. وهكذا جَدّي[8]، فما أصنع، وقد أبى القضاء إلاّ أن أقضيَ عُمُرِيَ في بُوس ولا أنْفَكّ في نُحوس[9]. ويا ليتَ باقِيه قدِ انصرم وغائِبَ الحِمام قد قَدِمَ[10]. فعسى أن تكونَ بعدَ المَمات راحة من هذا النَصَب وسَلوةٌ عن هذه الخُطوب والكُرَب[11]. ودَعْ بنا[12] هذا التَشكّي «فالدهرُ ليس بمُعْتِب من يجزَعُ»[13]، ولا بمُشْفِقٍ على مَنْ يتوجّع[14]. واطّرِحْ

---

(١) كذا في الأصل (لعلّها: حتّى من ثيابي).
(٢) العيان: البصر، (النظر بالعينين). استراب: شكّ. البنان جمع بنانة: طرف الأصابع (عقد الأصابع، الأصابع).
(٣) الحطيئة جرول بن أوس العبسيّ (ت ٥٩ هـ = ٦٧٨ م). شاعر مخضرم (أدرك الجاهلية والإسلام) اشتهر بالعنف في الهجاء.
(٤) الجوازي: جمع جازية: الجزاء (الثواب أو العقاب). العرف: المعروف، عمل الخير.
(٥) يبدو أن هذا البيت ليس للحطيئة (الذخيرة ٣: ٢٥٨، الحاشية الثانية).
(٦) .... به (ببيت الحطيئة).
(٧) أذممت الشيء: وجدتّه ذمياً (قبيحاً). العوائد جمع عائدة: راجعة (الشيء يفعل مرة بعد مرّة). مبادئه: أوائله (الشيء يفعل للمرّة الأولى).
(٨) جَدّي (بالفتح): حظّي.
(٩) بوس = بؤس: شدّة، الفقر، لا أنفكّ: لا انقطع (أبقى دائماً).
(١٠) ويا ليت باقيه (باقي العمر) قد انصرم (انقطع، انتهى) وغائب الحِمام (بالكسر: الموت) قد قدم (أتى، وصل).
(١١) النصب: التعب. الكربة (بالضمّ): الحزن والغمّ.
(١٢) فدع بنا هذا... (بنا لا حاجة إليها).
(١٣) «والدهر ليس بمعتب...» شطر لأبي ذؤيب الهذلي (بضم ففتح): شاعر مخضرم (ت ٢٨ هـ).
(١٤) في الأصل «توجّع» (يحسن أن تكون «يتوجّع» للسجع مع «يجزع».

بنا[1] هذا القولَ في الرِياح واعْدِلْ بنا عن الجِدّ إلى المُزاح[2] .

- وقال ابن الدبّاغ، وقد رأى غُلاماً وسيماً يحمل بين يديه عُصفوراً:

يـا حامـلَ الطائرِ الغرّيـدِ يعشَقُه، تَهْنـا العصافيرُ إن فازتْ بلُقياكـا.
تُمسي وتصبـحُ مشغوفـاً بعُجْمتهـا في غَفلةٍ عن دمٍ أجْرَتْه عَيْناكا[3].
إذا رأتْـكَ تَغنّـتْ كلُّهـا طرَبـاً حتّـى كـأنّ طُيورَ الجوّ تَهْواكـا.
يـا ليْتَني الطيرُ في كَفَّيْكَ مَطْعَمُه وشُربُه، حين يَظْما، من ثَناياكا[4].

- وله من رُقعة خاطب بها الوزيرَ الكاتب أبا محمّدٍ عبد الله بن عبد البرّ[5] (الذخيرة ٣: ٣١٦):

لمّا أصبحتَ، أعزّكَ اللهُ، في صِناعة البلاغة إماماً ولأشتات الفضائل نِظاماً[6]، لمْ تَتّهِمْ - في وِدادٍ تَدّعيه واعتلاق تَبْتغيه[7] - مَنْ سَمَتْ بِهِ إليكَ هِمَمٌ أو تقدّمتْ له فيها قَدَمٌ[8]، لأنّك المُبتغى الذي إليه يُجرى وتُبتغى لَدَيْهِ الزُلفى ويُتَوَصّل به إلى العَليا[9]. وأنا مِمّن يتشيّعُ فيك تشرُّعا ويُحِبُّك طبْعاً لا تَطَبُّعاً[10]، وأسْتَنْزِلُ في الجَمْعِ بك الأقدارَ وأسْتخدمُ[11] في التعلُّق بأسبابِك الليلَ والنهارَ لِتُلْحِقَه بالعِتاق

(١) اطْرَحْ: (ألقِ، ارم). «بنا» لا حاجة إليها.
(٢) عدل: مال.
(٣) عجمتها: غناؤها الأعجم (الذي لا يفهم).... وأنت غافل عن أن عينيك قتلتا محبّين كثيرين.
(٤) يظما = يظمأ (يعطش). الثنايا: الأسنان (المقصود: الريق، التقبيل).
(٥) راجع، فوق، ص ٦٢٦.
(٦) النظام: السلك الذي تجمع فيه حبّات العقد.
(٧) اعتلاق: تعلّق (صداقة). تبتغيه: تريده.
(٨) تقدّمت له قدم (سبقت له مقدرة) له قدم: أمر ثابت.
(٩) الزلفى: الوسيلة، التقرّب بوساطة إنسان أو شيء. العليا = العلياء: كلّ شيء مرتفع (هنا: الشرف).
(١٠) يتشيّع: يتبع، يناصر. تشرّعا (كذا في المتن) ليست في القاموس. وفي قراءتين: تشيّعا (ص ٣١٦، الحاشية الرابعة). أصحّ. لعلّها أيضاً تسرّعا (اسراعا). التطبّع: التكلّف، التظاهر بالشيء.
(١١) استنزل واستخدم (بالبناء للمضارع في الأصل). ولكن توالي الأزمنة يقتضي أن يكون هذان الفعلان بصيغة الماضي، وإلاّ فيجب أن تكون القراءة: يستنزل ويستخدم مطابقة للفعلين: يتشيّع ويحبّك قبلها ثمّ للفعل «تلحقه» بعدها.

السوابق[1] وتُلْقِيَ عليه شُعاعك فيُشرقَ[2] في المَغارب والمَشارق.... (ثمّ ختم ابن الدبّاغ رسالته بأبيات يمدح فيها ابن عبد البر هذا). من هذه الأبيات:

حِلْمٌ لَوَ آنّ الدهرَ حُمِّـلَ بعضَـه ... لَشَكَـتْ عواتقُـه من الإعيـاءِ[3].
وإذا تناوَلَـتِ الرِقـاعَ بَنانُـه ... أنسَتْكَ طرز الوَشْيِ في صَنْعاءِ،[4]
تَقْضي بـأنّ سَنـا البلاغـة لم يَلُـحْ ... من قَبْلِهنّ لأعيُنِ البلغـاءِ[5].
ولـه إذا شاء النِظـام غرائـبٌ ... لا تَدّعيهـا فِطْنـة الشعراء[6].
بَرِئَـتْ من التعقيـد في تأليفهـا ... فأتَتْـك أمْلَسَ من زُلال المـاء.
مـا كُنـتُ بالمدّاحِ غيرَك واصلاً، ... لو كانـتِ الشِعرى عليه جزائي[7].

٤ - ** قلائد العقيان ١٢٠ - ١٢٣؛ الذخيرة ٣: ٢٥١ - ٣١٧؛ المغرب ٢: ٤٤٠؛ الخريدة (الأندلس) ٤: ٣٤٩ - ٣٥٦؛ الخريدة (المغرب) ٣: ٣٨٧ - ٣٩٣.

ابن وهبون المرسيّ

١ - هو أبو محمّدٍ عبدُ الجليلِ بنُ وهبونِ المُرسيُّ المعروفُ بالدمغة (فوات الوفيات ٢: ٣١٣)، وُلِدَ في مُرسِيَةَ بين سَنَةِ ٤٣٠ وسَنَةِ ٤٤٠ هـ (١٠٣٨ - ١٠٤٨ م) فيما يبدو. كان شاعرَ المُعتمِدِ بن عبّادٍ ونديماً له وقد نالَ منه عطايا كثيرةً جَزيلة. ولمّا غَضِبَ المعتمدُ على وزيرِه ابنِ عمّارٍ وقتلَه بيدهِ (٤٧٧ هـ) قال ابنُ وهبونِ بيتاً فيه حُزْنٌ على ابن عمّار وتَقِيَّةٌ من المعتمدِ (الحلة السيراء ٢: ١٦٠):

---

(١) العتاق (الخيل الأصيلة الكريمة) السوابق (التي تسبق غيرها).
(٢) فيشرق (في الأصل) بضمّة على القاف (والصواب بفتحة).
(٣) العاتق: المسافة بين الكتف والعنق. الإعياء: التعب.
(٤) صنعاء: عاصمة اليمن. الوشي: النقش (بالألوان) والتزيين. الطرز: الشكل والنمط والجيّد من كلّ شيء. الرقاع جمع رقعة (الرسالة). إذا تناولت الرقاع بنانه (أصابعه): إذا كتب رسائل.
(٥) لاح يلوح: ظهر. السنا: الضوء.
(٦) النظام: النظم (الشعر).
(٧) واصلاً (؟). الشعرى اسم لنجمين (الشعرى اليمانية ومطلعها جنوبي بفتح الجيم ولا نراها من نصف الكرة الشماليّ بفتح الشين ثمّ الشعرى الشاميّة ومطلعها شماليّ ولا ترى من نصف الكرة الجنوبي) يقصد: ولو كان ثوابي على مدح غيرك عظيماً.

عَجَباً لِمَنْ أبكيهِ مِلْءَ مدامِعي وأقولُ: لا شُلّتْ يَمينُ القاتلِ!

وعاشَ ابنُ وهبونٍ مُنْقَطِعاً إلى بَلاطِ المعتمد في إشبيلية، ولمّا دعاه المُعتصِمُ بنُ صُمادحٍ صاحبُ المَرِيَّةِ (٤٤٤ - ٤٨٤ هـ) لم يذهبْ إليه. وقد كان صديقاً لابنِ حمديسٍ (ت ٥٢٩ هـ) ولابنِ خَفاجة (ت ٥٣٣ هـ) ومُعْجَباً بالأعلم الشَنْتَمريّ (ت ٤٧٦ هـ) وقد رثاه. وفي سَنةِ ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م) كان ابنُ وهبونٍ راجعاً مَعَ ابنِ خَفاجةَ من المَغْرِب، فبينما كانا في الطريق، بين لُورَقَةَ ومُرْسِيَةَ، طَلَعَتْ عليهم طالعةٌ من الجنودِ النصارى سَلبوا ابنَ خفاجَةَ ما مَعَه وقتلوا ابنَ وهبون.

٢ - ابنُ وهبونٍ من فطاحلِ الشعراءِ وأهلِ الأدب متينُ السَبْكِ يُجيد القصائدَ والمقطّعاتِ ويطبَعُ أحياناً شعرَهُ على غِرارِ المشارقة. وربّما نَزَعَ إلى ألوانِ البيئة الأندلسية. وفنونُ شعرِهِ المديحُ والطَرْد (وصف الصيد) والرثاء والشكوى والوصف والغزل ويميلُ إلى الغزل المذكّر والمُجون. وله وصفٌ للأُسطول وتَغَنٍّ بوَقْعة الزلاّقة (٤٧٩ هـ).

٣ - **مختارات من شعره**

- أنشدَ المعتمدُ بنُ عبّادٍ يوماً بيتاً للمتنبيّ واستجاده فجَعَلَ يردِّدُه، فقال عبدُ الجليلِ بنُ وهبونٍ:

لئن جادَ شِعْر ابنِ الحُسينِ فإنّما تُجيدُ العَطايا؛ واللُهى تفتَحُ اللَها.
تنبّأ عُجْباً بالقريضِ، ولو دَرَى بأنّك تَرْوي شِعْرَه لَتألّها!

- وقال يصف بِركةً فيها زَهْرُ نَيْلَوْفَرٍ:

وبِرْكةٍ تزهو بنَيْلوفَرٍ نَسيمُه يُشْبِهُ ريحَ الحبيبْ.
حتّى إذا الليلُ دنا وقتُه ومالتِ الشمسُ لعَيْنِ المغيب،
أطبقَ جَفْنَيْهِ على إلْفِهِ وغاصَ في الماء حَذارَ الرقيب!

- وقال في الغزل:

زَعَموا الغزالَ حَكاه، قلت لهم: نَعَمْ! في صَدّه عن عاشِقيهِ وهَجرِهِ.
قالوا: الهلالُ شَبيهُه! فأجَبْتُهُمْ: إن كان قِيسَ إلى قُلامَةِ ظُفْرِه.
وكذا يقولون: المُدامُ كَرِيقِهِ! يا ربِّ، لا عَلِموا مَذاقةَ ثَغْرِه.

- وقال في ذَهاب الوَفاء من الناس:

غـاضَ الوَفـاءُ فما تَلْقاه في رَجُلٍ ولا يَـمُـرُّ بمخلوقٍ عـلى بـالِ.
قـد صـار عندَهُمْ عَنقـاءَ مُغْرِبَـةً أو مِثْـلَ ما حَدّثوا عن ألْفِ مِثْقالِ.

- في نفح الطيب (٣: ٢٦٨): خَرَجَ ابنُ وهبونٍ لِنَظَرِ هِلالِ شَوّالٍ، وأبو بكر (عبد العزيز) بن القبطرنة الوزيرُ يُسايره وهو يومَذاك غُلامٌ يُخْجِلُ البدرَ..... فارتجَلَ عبدُ الجليلِ (بن وهبون):

يـا هِـلالُ، اسْتَتِرْ بِوَجْهِـكَ عنّي؛ إنّ مـولاك قـابِـضٌ بِشِمالي.
هَبْـكَ تَحْكي سَنـاه خَـدّاً بخـدٍّ، قُـمْ فجِئْـني لِقَـدِّهِ بِمِثـالِ!

- في معركَةِ الزلاّقةِ (٤٧٩ هـ = ١٠٨٦ م) طُعِنَ فَرَسُ المُعتمدِ بنِ عبّادٍ فكبا به فسقَطَ عنه. فَقدّمَ له أحدُ جُنْدِهِ فرساً فَرَكِبَهُ وقاتَلَ عليه قِتالاً شَديداً. فقال ابنُ وهبونٍ يمدَحُ المعتمَد بقصيدةٍ منها:

ولـم يَثْبُـتْ مـن الأشْيـاعِ إلاّ شَقيقُـك وهـو صارِمُـكَ الحُسامُ[1]:
يَمـانٍ فـي يَـدَيْ مـاضٍ يَمـانٍ فـلا نـابي الغِـرار ولا كَهـام[2].
ولـم يَحْمِلْـكَ طِرْفُـكَ، بـل فؤادٌ تعوَّدَ أن يُخـاضَ بـه الحِمام[3]!

٤ - ★★ الذخيرة: ٢: ٤٧٣ - ٥١٩؛ قلائد العقيان ٢٧٨ - ٢٨٢؛ بغية الملتمس ٣٧٤ - ٣٧٥ (رقم ١١٠١)؛ الخريدة (المغرب) ٢: ٩٥ - ١٠٣؛ المغرب ١: ٣٩١ - ٣٩٣؛ أخبار وتراجم أندلسية ١٩؛ المطرب ١١٨ - ١٢٣؛ فوات الوفيات ١: ٣١٣ - ٣١٥؛ أعمال الأعلام ٢٤٦؛ نفح الطيب ٣: ٣١٨ - ٣١٩، ٦٠٦، ٤: ٥٩ - ٦٠؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٩٦٣؛ نيكل ١٦٥ - ١٦٧.

---

(١) الأشياع: الأنصار، التابعون. الصارم: السيف القاطع.

(٢) يمان (الأولى) صفة للسيف (من صنع اليمن). ماض: رجل ذو عزم واقدام. يمان (الثانية) نسبة إلى اليمن (المعتمد بن عبّاد أصله من اليمن - عرب الجنوب). الغرار: حدّ السيف. نابي الغرار (ينبو أي يرجع عن الضريبة ولا يؤثّر فيها). الكهام: كالّ (لا يقطع).

(٣) الطرف (بالكسر): الحصان. الحمام: الموت.

المُعْتَصِمُ بنُ صُمادحٍ

١ – هُوَ أبو يحيى المعتصمُ مُحمّدُ بنُ مَعْنِ بنِ محمّدِ بن أحمدَ بنِ صُمادحٍ التُجيبيُّ، كان مَوْلدُهُ سَنَةَ ٤٢٩ (١٠٣٧ – ١٠٣٨ م) في مدينة وَشْقَةَ. وجاء الى حُكْمِ المَرِيّةِ في رمضان من سنة ٤٤٣ (البيان المغرب ٣: ١٦٧).

كان محمّدُ بنُ أحمدَ بن صُمادحٍ (جَدُّ المُعْتصم بنِ صمادح) صاحبَ مدينة وَشْقَةَ منذ أيامِ المُؤَيَّدِ هشام بنِ الحكمِ (٣٦٦ – ٣٩٩ هـ). ولمّا قُتِلَ زُهَيرٌ الصَّقْلَبِيُّ صاحبُ المَريّةِ (٤٢٩ هـ) استولى عبدُ العزيزِ العامريُّ على المريّة لأنّ زُهيراً كان من مَوالي العامريّين. ولكنّ مُجاهدَ بْنَ عبدِ الله العامريَّ صاحبَ دانيةَ نازَعَ عبدَ العزيزِ على المريّة. فخرج عبدُ العزيز لِلقاءِ مُجاهدٍ واسْتَخْلَفَ على المريّة صِهْرَهُ ووزيره مَعْنَ بنَ محّدٍ (والدَ المعتصم بن صمادح)، فخانه فيها وطرَده عنها ثمّ استبد بحكمها سنة ٤٣٣ هـ (١٠٤١ م).

فلمّا تُوُفِّيَ مَعْنٌ، في رمضان من سنة ٤٤٣ (١٠٥٢ م) خَلَفه ابنهُ مُحَمّدٌ وعُمْرُهُ أَرْبعَ عَشْرَةَ سَنَةً فتولّى عَمُّه الوِصايةَ عليه. وتَسَمّى محمّدُ بنُ مَعْنٍ بالمعتصمِ ثمّ بَلَغَ رُشْدَهُ واستقلّ بملكهِ الصغيرِ في المريّةِ وبِجايةِ الاندلس وما حَوْلَها مُنْصَرِفاً الى لَذّاته غيرَ ناهضٍ الى جهادٍ ولا دِفاعٍ عنِ البلادِ. وبَنى قصراً عظيماً جميلاً سمّاه الصمادحية وجمع فيه نفراً عديداً من الشعراء كابنِ شرفٍ البَرْجيّ القَيروانيّ (ت ٤٦٠ هـ) وابنِ أختِ غانمٍ – وهو أبو عبدِ الله محمّدُ بن مَعْمَر المالكيّ – وأبي حَفْصٍ بنِ الشهيدِ (ت بعد ٤٤٤ هـ) وابنِ الحدّادِ الوادي آشي (ت ٤٨٠ هـ) والسُمَيْسِر الإلْبيري ونفراً من العلماء منهم أبو بكرٍ محّدُ بنُ أبي دَوْسٍ البيّاسيّ النحويّ (ت ٤٩٦ هـ) وأبو عُبيدٍ البَكْريّ الجُغْرافيّ (ت ٤٨٧ هـ). وكان في آل المعتصم شُعراءُ منهم أولادُه عِزّ الدولة ورفيع الدولة وأمُّ الكرام.

وكانتْ وفاةُ المعتصمِ بنِ صُمادحٍ في ٢٢ من رَبيعٍ الاوّلِ من سَنَةِ ٤٨٤ (١٠٩١/٥/١٤ م) في المريّة. وحينما كان في النَزْعِ الأخيرِ حاصر المرابطون المريّة واستَوْلَوْا عليها. فلمّا سَمِعَ المعتصم اختلاطَ الأصواتِ في أثناء الحِصارِ قالَ: «لا إلَه إلاّ اللهُ، نُغِّصَ علينا كلُّ شيءٍ حتّى الموتُ!»

٢ - كان المعتصمُ بن صُمادحٍ أديباً مُحِبّاً للعلم والأدب وأهْلِها، وكانَ شاعراً مُقلاً يقول بديهةً وعن رَويّةٍ، ويقول في المناسبات الوُجْدانية؛ ولكن لم يَجْعَلِ الشعرَ وُكْدَه ولا شُغْلَه. وشِعْرُه سَلِسٌ رقيقٌ عَذْبٌ. وقد لَفَتَ المُعْتَصِمُ بن صمادحٍ الأنظارَ منذ زَمَنٍ بعيدٍ، فقد ألّفَ مُحمّدُ بن أيوبَ الأنصاريُّ، في سَنَةِ ٥٦٨ هـ (١١٧٢ - ١١٧٣ م)، كِتاباً في تَرْجمة المعتصم بن صمادح للسلطانِ الملك الناصر صلاحِ الدين الأيّوبيّ (٥٦٤ - ٥٨٩ هـ) ذكرَ فيهِ طرفاً من أخباره وشيئاً من أشعارِه وحَكى صورةَ حِصارِه وقولَه في مرضِه: نُغِّصَ علينا كُلُّ شيءٍ حتّى الموتُ! (وفيات الاعيان ٥: ٤٤).

وكان للمعتصم بنِ صُمادح بِضعةُ أولادٍ يقولون الشعر: عزُّ الدولة (بُعيد ٥٠٤ هـ) ورفيع الدولة (نحو ٥٤١ هـ) - وقد أُفْرِدَ لكلٍّ واحدٍ منهما تَرجمةٌ - ثمّ:

مُعِزُّ الدولة أبو جعْفَرٍ أحمدُ، لعلّه بِكْرُه، إذ كان قد رَشَّحَهُ لِولايةِ العهد. قيل تولّى المُلْكَ بعدَ أبيه (٤٨٤ هـ) أياماً ثمّ تَرَكَ المَرِيَّةَ هَرَباً من المُرابطين ولجأ إلى بِجايَة (في الجزائر اليومَ)، وقيلَ إنّ أباه أمرَه بذلك لَمّا ٱسْتَوْلى المرابطون على إشبيلية وخَلَعوا المُعتمدَ بنَ عبّادٍ. وكانَ أبو جعْفَرٍ أحمدُ هذا شاعراً عادِيًّا له (المغرب ٢: ٢٠٠ - ٢٠١):

أتــى بالبَــدْرِ من فوقِ القَضيــبِ ... فطـارَتْ نحــوَهُ طَيْــرُ القلوبِ[1].
وأشْرقَ مــا بأُفقي من ظـــلامٍ ... لنورٍ منه في أُفُقِ الجُيوب[2].
وولّــى بعـــدَ تـأنيــسٍ وبِرٍّ ... كَمِثْلِ الشَمْسِ ولَّتْ للمَغيب.

وأمّ الكرامِ وقدِ اعْتَنى أبوها بتأديبها لِمَا رأى من ذَكائها فقالتِ الشعرَ ونَظَمَتْ قصائدَ ومُوَشّحاتٍ. غيرَ أن مُوشّحاتِها لم تَصِلْ إلينا. وكانتْ أُمُّ الكرام قد عَشِقَتْ فَتىً من دانِية مَشهوراً بالجمال يُعْرَفُ بالسَمّارِ وتَشَوَّقَتْ إليه في شِعرها. فلمّا عَلِمَ أبوها بذلك خَفِيَ أمرُ السمار هذا من ذلك الحينِ (أي قُتل غَيْلةً وخِفْيةً). ومِمّا قالته أمُّ الكرام في التشوُّق إلى السمّار (المغرب ٢: ٢٠٢ - ٢٠٣):

---

(١) البدر كناية عن الوجه الجميل. القضيب كناية عن القوام المعتدل.

(٢) الجيب: مكان الثوب عند العنق (الوجه).

ألا لَيْتَ شِعري، هلْ سبيلٌ لَخَلْوةٍ يُنَزَّهُ عنها سَمْعُ كُلٍّ مُراقِبِ.
ويا عَجَباً، أشتاقُ خَلْوةَ من غدا ومَثْواهُ ما بينَ الحَشا والترائبِ[1].

- وممّا قالته أُمُّ الكرام بعدَ مَقْتَلِ السمّار:

يا معشرَ الناسِ، ألا فاعْجَبوا ممّا جَنَتْهُ لَوْعَةُ الحُبِّ.
لولاه لم يَنْزِلْ بِبَدْرِ الدُجى من أُفْقِهِ العُلْوِيِّ للتُرْبِ[2].
حسبي بِمَنْ أهْواه، لو أنّه فارَقَني تابَعَه قَلْبي[3]!

وكان رشيدُ الدولة - أبو يحيى محمّدُ بنُ عزِّ الدولة - حفيدُ المعتصمِ بنِ صُمادِح يَنْظِمُ الشعرَ أيضاً. وكان شعرُه عاديًّا. من ذلك قولُه (الحلّة السيراء ٢: ١٩١):

صبراً على نائباتِ الدهْرِ، إنّ له يوماً كما فَتَكَ الإصباحُ بالظُلَمِ.
إنْ كُنْتَ تعلَمُ أنّ اللهَ مُقْتدرٌ، فَثِقْ بهِ تَلْقَ رُوحَ اللهِ من أَمَمِ[4].
وقلّما صَبَرَ الإنسانُ مُحْتَسِباً إلاّ وأصبح في فَضْفاضة النِعَمِ[5].

٣- مختارات من أشعاره

- ورد الشاعر النحليّ على المريةِ في أسْمالٍ سُودٍ باليةٍ فَكَتب إلى المُعْتَصِمِ يَقولُ مُسْتَميحاً ويَذْكُر أنّ الحُجّابَ منعوه مِنَ الوُصولِ إليه:

أيا مَنْ لا يُضافُ إليه ثانٍ ومَنْ وَرِثَ العُلى باباً فبابا[6]،
أيَجْمُلُ أن تكونَ سَوادَ عَيْني وأُبْصِرَ دونَ ما أبْغي حِجابا،
ويَمْشي الناسُ كلُّهُمُ حَماماً وأمشي بَيْنَهم وَحْدي غُرابا؟[7]

---

(١) الترائب (جمع تريبة): عظام الصدر العليا. ما بين الحشا والترائب (في قلبي).
(٢) لولاه - لولا الحبّ. بدر الدجى (كناية عن المحبوب). للترب (للقبر).
(٣) يكفيني أنّه إذا فارقني محبوبي (بالموت) فإنّ قلبي يتبعه (مات بموته، يرافقه ولا ينساه!).
(٤) تلق روح الله (مؤيّداً لك من الله) من أمم (من قرب): سريعاً.
(٥) المحتسب هو الذي يرجو الثواب على عمله من الله وحده.
(٦) لا يضاف إليه ثان: ليس في البشر من يدانيه في مجده وكرمه الخ.
(٧) يكون الناس فرحين في مثل ثياب العيد (لأنّ الحمام مختلفة الألوان زاهية الريش)، وأكون أنا وحدي غراباً (ألبس ثياباً سودا حزينة، لأنّ الغربان كلّها سود).

فأرسل إليه المعتصم مالاً وثياباً وكتب إليه يقولُ:

وَردتَ ولِلَّيْلِ البَهيم مَطارفٌ ... عليك، وعِنْدي للصّباحِ بُرودُ[1]

وأنتَ لَدَيْنا، ما بقيتَ، مُقَرَّبٌ ... وعَيْشُك سَلْسالُ الجِمامِ بَرودُ[2]

– وبَلَغَ إلى المعتصم عن الشاعرِ ابنِ عمّارٍ (قتله المعتمدُ بن عبّاد، سنة ٤٧٧ هـ) أنه يَغتابُه فقال:

(وزَهّدني في الناسِ مَعْرِفتي بهم) ... وطولُ اخْتباري صاحباً بعدَ صاحب[3].

فلم تُرِني الأيّامُ خِلاًّ تَسُرّني ... مَباديه إلاّ ساءني في العَواقب[4]؛

ولا قُلْتُ أرجوه لِدَفعِ مُلِمّة ... من الدهرِ إلاّ كان إحدى المصائب![5]

– وقال عند موته:

تَمَتّعْتُ بالنَّعماء حتّى مَلِلْتُها، ... وقد أضْجَرَتْ عَيْنيّ مِمّا سَئِمْتُها!

فيا عَجَباً، لمّا قَضَيْتُ قضاءَها ... ومُلِّيتُها عُمْري تَصرّم وَقْتُها[6].

٤ – ** قلائد العقيان ٥٣ – ٥٧؛ الذخيرة ٢: ٧٢٩ – ٧٣٦؛ المغرب ٢: ١٩٥ – ١٩٨؛ الوافي بالوفيات ٥: ٤٥ – ٤٧؛ الخريدة (المغرب) ٢: ٨٣ – ٨٩؛ المطرب ٣٤ – ٣٨؛ الحلة السيراء ٢: ٧٨ – ٨٨؛ وفيات الأعيان ٥: ٣٩ – ٤٥؛ البيان المغرب ٣: ١٦٧، ١٧٣ – ١٧٥، ١٩٢؛ أعمال الأعلام ١٩٠ – ١٩٢؛ نفح الطيب ١: ٦٦٦ – ٦٦٧، ٣: ٢٦٣ – ٢٦٤، ٣٢٨ – ٣٢٩، ٤١٢ – ٤١٣، ٥٠٣ – ٥٠٥؛ شذرات الذهب ٣: ٣٧٢ – ٣٧٣؛ دائرة المعارف الإسلامية؛ نيكل ١٨٣ – ١٨٤، مختارات نيكل ١٢٥ وما بعد؛ الأعلام للزركلي ٧: ٣٢٧ (١٠٦).

* ترجمة «محمّد بن عبادة القزّاز (ت نحو ٤٨٨ هـ) ستأتي (لخطأ غير مقصود) على الصفحة ٧٤٤.

---

(١) المطرف: رداء من خزّ (حرير) ذو أعلام مربّعة. البرد (بضمّ الباء): ثوب رقيق من حرير.

(٢) السلسال: العذب (الحلو) البارد. الجمام: أطراف (حوض الماء). برود (بفتح الباء): بارد سيكون لك عيش ناعم رغيد.

(٣) الشطر الأوّل للمعريّ، وتمامه: وعلمي بأن العالمين هباء.

(٤) مباديه = مبادئه: في أول أمره. العاقبة: آخر الأمر.

(٥) الملمّة: المصيبة.

(٦) المعنى غامض

عبد العزيز بن أرقم

١ - هو أبو الأصبغ عبدُ العزيزِ بنُ محمّدِ بنِ أرقمَ النُميريُّ الوادي آشيُّ كان كاتباً لدى ملوك الطوائف: كَتَبَ عن مُجاهدِ العامريّ صاحبِ دانية (٤٠٨ - ٤٣٢ هـ) إلى المُعِزِّ بنِ باديسَ ملكِ المَغْرب (٤٠٦ - ٤٥٣ هـ) وعن عبدِ الملك بن رَزينٍ (٤٣٦ - ٤٩٦ هـ) صاحبِ السهلةِ واتّصل بالمُعتمدِ بنِ عبّادٍ ملكِ إشبيليةَ (٤٦١ - ٤٨٤ هـ) وكان وزيراً للمُعْتَصِمِ بنِ صُمادحٍ صاحبِ المَرِيّةِ (٤٤٤ - ٤٨٤ هـ) - وقيل هو ذو الوَزارتين (الذخيرة ١ : ٧٤٠)، كما كَتَبَ عن مُجاهدِ العامري إلى صاحبِ مِصْرَ (المستنصر أبي تَميمٍ مَعَدٍّ)، سنة ٤٥٢ هـ (١٠٦٠ م).

وكانت وفاة ابنُ أرقم هذا في أيامِ المعتمدِ بن عبّادٍ. ولعلّ ذلك كان نحوَ سَنَةِ ٤٧٥ هـ (١٠٨٢ م).

٢ - كان أبو الأصبغِ بنُ أرقمَ «أحَدَ كَتَبَةِ الجزيرةِ المَهرَةِ والنَقَدَةِ الشَعَرَةِ» بارعاً في النثر عارفاً باللُغة مُحيطاً بفنونٍ من العلم. وكان له اتّجاهٌ دينيٌّ في الكِتابة وفي السُلوك، كثيرَ الاستشهاد بالقرآن والحديث وبالأمثال والأشعار، حسن الرَوِيَّةِ والارتجال كِتابةً وخِطاباً، جِدًّا وهزلاً. وكان فوق ذلك كريمَ الأخلاق كثيرَ الوفاء. كان ابنُ صمادحٍ صاحبُ المَرِيّة قد أرسلَ أبا الأصبغِ بنَأرقمَ في أمرٍ إلى المعتمدِ بنِ عبّادٍ. فأُعْجِبَ المعتمدُ بابنِ أرقمَ وأرادَ إفساده على المعتصم للاحتفاظ به زينةً لبَلاطه هو. فقال له ابنُ أرقمَ: «ما رأيتُ من صاحبي ما أكرَهُ فأُؤْثِرَ عندَ غيرِه ما أُحِبُّ. ولو رأيتُ (عنده) ما أكْرَهُ لَما كان من الوفاء تركي له في حينِ فَوّضَ إليّ أمرَه ووَثِقَ بي وحَمّلني أعباءَ دولته».

فاستَحْسَنَ ابنُ عبّادٍ ذلك منه وقال له (إذَنْ) فاكْتُمْ عليّ.

فلمّا عاد ابنُ أرقمَ إلى صاحبِهِ (المعتصمِ بنِ صُمادحٍ) سأله عن جميعِ ما جرى له. فقال ابن أرقمَ له:

«... وجرى لي معَه (مع المعتمد) ما إنْ أعْلَمْتُك به أن تَحْسَبَ فيه كالامتنانِ

والاستظهار، وتَظُنَّ أن خاطِري قد فَسَدَ به. وإنْ كَتَمْتُكَ لم أُوفِّ النصيحةَ حقَّها. وخِفْتُ أنْ تَطّلعَ عليهِ من غيري فيَحُطّني ذلك من عَيْنِك وتحسَبَ فيه كَيْداً». ثمّ إنّ ابنَ أرقمَ أخبرَ المُعتصمَ بما كان قدِ اتّفق له من الحديث في بَلاطِ المعتمد.

٣ - مختارات من آثاره

- كتب أبو الأصبغ عبدُ العزيز بنُ أرقمَ عن إقبالِ الدولة عليٍّ بن مُجاهدٍ صاحبِ دانِيَةَ (٤٣٦ - ٤٦٨ هـ) إلى المُسْتنصِرِ الفاطميّ في مِصْرَ رسالةً جاء فيها:

... إذا كانت نِعَمُ الله عند الحَضْرة الإسلامية[١] مُشرقةَ المطالعِ ورحيبةَ الأرجاءِ والمراتعِ، وكان أنصارُها وعبيدها وكتائِبُها المنصورةُ وجنودُها المرهوبةُ - في اجتماعِ كَلِمَتِهم على طاعتِها واتّفاقٍ من أهوائهم في مُناصَحَتِها وتضافرٍ[٢] من جميعِهِم على خِدمتها - فقد عَلَتْ يدُ الإسلامِ واحتمى عِزُّه أن يُضامَ وجانِبُه أن يُرامَ. وشَمِلت نُعماها الأقطارَ وأمَدّتْ أقاصِيَ الديارِ وأبَرّتْ على نأيِ المَزار[٣]. فهيَ جُمّاعُ الدين وردءُ المؤمنين ومَحْفِل المسلمين[٤]... ومِمّا وَجَبَ التعريفُ به ما عمّ أقطارَ ثَغْرِنا وغَشِيَ مجامعَ أُفُقِنا[٥] من تَمالُؤ النصارى وتضافُرِهم من كلّ أوْبٍ إلينا بجَمْعٍ[٦] لا عهدَ لنا بِمِثْله مَلأ الفضاءَ وطبّقَ الأرجاءَ، وشُغِلْنا بالفِتْنة[٧] بينَنا عن تخفيف وطأتِهم وتضعيف سَوْرَتِهم[٨]؛ فطَمَسوا الآثارَ وجاسوا خِلالَ الدِيارِ، مَوْفورينَ[٩] لا

---

(١) الحضرة الإسلامية (يقصد: القاهرة التي هي عاصمة إسلامية قويّة).

(٢) التضافر: الاجتماع للتعاون على أمر ما.

(٣) أبرّ: أحسن إلى الناس (وتفضّل عليهم). نأي: بعد (بضمّ الباء).

(٤) جماع (بضم الجيم وتشديد الميم، أو بكسر الجيم وتسهيل الميم): أصل الشيء ومجتمعه (مركزه، تماسكه). الردء: المعين، الناصر. المحفل: مكان اجتماع العدد الكبير من الناس.

(٥) الثغر: (هنا) المكان الذي يهدّده العدوّ. غشي: غطّى، عمّ. أفقنا (الناحية التي نسكنها).

(٦) الأوب: الجهة. بجمع (بعدد كبير).

(٧) واشتغلنا بالفتنة (بحرب بعضنا بعضاً).

(٨) الوطء: الدعس بالرجل. السورة: الشدّة.

(٩) طمس: محا. الآثار: البناء القائم. جاس (تردّد) خلال (بين) الديار: أفسد فيها وخرّبها. موفورين: لم يمسّهم أذى.

مانعَ منهم ولا دافعَ لهم إلاّ الْتِفاتَةُ الله تعالى لأهلِ دِينِهِ بأنْ أقلَّ فائدَتَهُمْ وخيّبَ مَرامَهم وأطاشَ سِهامَهم[1]. والحمدُ لله على مِنْحَته ومِحْنَته.

– وله من رُقعةٍ طويلةٍ خاطَبَ بها الفقيهَ أبا بكرٍ صاحبَ الأحْباس[2] وشرح فيها عدداً من الكَلِماتِ وَرَدَتْ في رسالته إلى صاحبِ مِصْرَ، وكان ابنُ سِيْدَه[3]، قدِ انتقدها. وحمل ابنُ أرقمَ في هذه الرسالة على ابنِ سِيْـدَه، وعلى الذين زيّنوا لابن سيده أنْ ينتقدَه. ويبدو أنّ أبا بكرٍ صاحب الأحباس كان شيخَ (أستاذ) ابنِ أرقمَ. والرسالةُ مَصوغةٌ في قالَبٍ من التهكّم. وسأترك هذه الرسالة بلا شَرْحٍ، إلاّ في النادر، لأنّ شرحَها يقتضي مِساحةً واسعةً لِما فيها من الأعلامِ وأسماء الكُتُب والتَوْريات والإشارات التاريخية:

لمّا كُنتَ – أعزّك اللهُ – في أكَفِّ الآدابِ عَلَماً وعلى لِسان العرب وغيرِه قَيِّماً[4]، لاقْتباسِكَ العِلْمَ من كُتُبٍ ووِراثَتِك إياه عن كلالةِ أبٍ[5]. ولم تَزَلْ تتلقّاه كابراً عن كابرٍ وباهراً عن باهر: لستَ ابنَ سَمْعِك ولا عبدَ طَبْعك[6]، تُقَلِّدُ كاتباً ساذَجاً وتعتقدُ قارئاً هازِجاً[7] وتقبَلُ البصرَ بلا بصيرةٍ وتقْفو الأثَرَ على غير وتيرة[8]. تُراعي الحروفَ ولا تُبالي التحريف. وتتْلو الصُحُفَ ولا عليك بالتصحيف[9]. ولم تَقْتَصِرْ على حِفظِ سُطورٍ من كتاب سِيبَوَيْهِ، و «شرح الفصيح» لابن دَرَسْتَوَيْهِ، واستظهار

---

(١) أطاش سهمهم: جعل سهمهم ينحرف فلا يصيب هدفه. (لم ينالوا ما كانوا قد أمّلوا).
(٢) الأحباس: الأوقاف. صاحب الأحباس: الموظّف المشرف على ادارة الأوقاف. أبو بكر صاحب الأحباس (؟).
(٣) ابن سيده (أنظر، فوق، ز، ص ٥٦٠).
(٤) قيّا: وكيلا، حافظاً (مقتدراً في اللغات).
(٥) الكلالة: أن يموت رجل ليس له زوجة ولا أولاد فيرثه أقاربه (المقصود: ورثت أدب رجل ليس له وريث غيرك).
(٦) لست ابن سمعك... (لم تسمع العلم عرضاً فقط ولا أنت تعرف الأشياء بالطبع وحدَه بلا تعلم – بل تلقّيت العلم منظماً على شيوخ أو أساتذة).
(٧) الساذج: البسيط (غير المثقّف). تعتقد قارئاً هازجاً (مطرّباً، متغنّياً).... (؟)
(٨) تقفو (تتّبع) الأثر (الطريق الذي خطّه غيرك) على غير وتيرة (طريقة منظمة).
(٩) التحريف: الخروج على المعنى. التصحيف: تبديل حرف بحرف عند القراءة.

أوراقٍ من الغريب، والتَحفُّظ مَعَ الشروق ما تنساه في المَغيب. ولم تَشْدُ إلى المَخْرقةِ بفَرْفوريوسَ[١]، ولا الغَطْرسةِ بأرِسْطاطاليسَ، والفرقَعَــةِ بقافــاتِ أرِثْماطيقــا وأنالوطيقا[٢]، والصفيرِ بسينات قاطيغورياسَ وباري أرْمينياس[٣]. و (لا) ضَيّعتَ علومَ القرآنِ والتفنُّنَ في حديثِهِ عليه السلام وصَحابتِهِ، وتفهُّمِ أغراضهِ ولُغاته، واجْتناء زَهْرِه وثَمَراته. و (لا) أغفلتَ « الكاملَ » و « البيان » وتواريخَ الأزمانِ ونوادرَ البُلغاءِ أهلِ اللَسَن والبَيان[٤] و (لا) أهملتَ أشعارَ العربِ والمُحْدَثين[٥]، إلاّ طَلَبَكَ أثراً بعدَ عينٍ، وقد أرْبَيْتَ على السِتّين[٦] . ولم تَتَمَعْدَدْ أعْجَميًّا، ولم تَتَبَغْدَدْ بَدْويًّا[٧] ، ولم تَكُنْ مرّةً شَبيبيًّا ومرّةً قَطَريًّا[٨]، وتارةً طبيعيًّا، وتارة فَلَكيًّا. ولم تَتَزَبّبْ حِصْرِماً، ولم تَتَشَحَّمْ وَرَماً[٩] ..... وأنتَ الذي أدَرَّ لي غَمائِمَ الأدب وأطلَعَ لي من كمائِمِهِ كلَّ مُعْجِب[١٠]، وما كاد الشبابُ يَحُلّ تمائمي، ولا الزمانُ يُطْلِعُني على كمائمي[١١]... فَٱنْدُبِ العلمَ وأهْلِيهِ، وٱرْثِهِ وحامِليهِ، وابْكِ رُسومَه وَحَيِّ طُلولَه وسَلِّمْ

---

(١) كتاب سيبويه في النحو، كتاب الفصيح في اللغة. الغريب: الكلام القليل الدوران في حديث الناس. تشد إلى (؟). شدا من العلم يشدو (حصل منه شيئاً قليلاً). المخرقة: الكذب والتمويه على الناس البسطاء. فرفوريوس الصوري له كتاب ايساغوجي (المقدمة إلى المنطق).

(٢) ارسطوطاليس كبير فلاسفة اليونان. أرثماطيقا (علم الحساب) وأنالوطيقا (القياس) من أقسام المنطق.

(٣) قاطيغورياس (المقولات: الألفاظ المفردة) وباري آرمنياس (العبارة، تركيب الكلمات المفردة) من أقسام المنطق (وهي من تأليف أرسطوطاليس).

(٤) اللسن (بسكون السين): اللغة عامّة. و (بفتح اللام والسين): الفصاحة والبلاغة. البيان: المقدرة في جعل الكلام صحيحاً وواضحاً.

(٥) أشعار العرب (البدو، الجاهليّين) والمحدثين (العباسيّين، أهل الحضر).

(٦) أربى على (زاد عمره على).

(٧) لم تنتسب إلى العرب بينما أنت فارسي. ولم تتبغدد (تنتسب إلى بغداد، إلى الحضر...).

(٨) شبيب بن يزيد الشيباني من الخوارج الصفرية (قتل ٧٦ هـ) وقطريّ بن الفجاءة (ت ٧٩ هـ) من الخوارج أيضاً. لم تبدّل مبدأك مرة بعد مرة.

(٩) لم تبرز في الحياة قبل أوانك ولا كان مظهرك الخارجي خلاف حقيقة أمرك.

(١٠) أدرّ (سكب)، – منك تعلمت الأدب (الشعر والنثر). الكمامة (بكسر الكاف): الكأس من النبات (الأوراق الخضر التي تكون فيها الزهرة قبل أن تتفتح).

(١١) التميمة: حرز تعلّقه الأمهات في أعناق أطفالهن (حلت عنه التمائم: أدرك مدرك الرجال). الكمائم (هنا): المستور من المقدرة الشخصية في العلم والأدب وغيرها.

عليه تسليمَ وَداعٍ وأشْفِقْ لعِلْقِهِ[1] المُضاع. واعلَمْ أن صَدْعَه كصَدْعِ الزُجاجةِ أعيا الصَنّاع[2]. فيا له مَغْنىً هُجِرَ على بَرْدِ مَوْقعِهِ وبَقْلاً[3] زُهِدَ فيه على شرفِ موضعه:.. ولم يَبْقَ إلاّ من قَدّمتُ نُعوتَه وحُلاه، ووصفتُ حَذْوَه، وحُذَيّاه[4]، وأغناني ما صَدّرتُ[5] به عن إعادة ذِكراه.... فأفتَوْا بغيرِ علمٍ فضَلّوا وأضَلّوا.

ومن الأمرِ المُعْجِبِ والخَطْبِ المُغْرب[6] أنّهم يَدّعون - على جهلهم وما بَيّنْتُ من وَصْفهم - الترؤُسَ في الأدب من غيرِ رِياسة، والمنافسةَ لأهْلِيه من غير نَفاسة، ومُناقضةَ ذَوِي العِلم باللِسان بالهذيان[7] حين آنسوا[8] عَدَمَ المُنْتَقِدِ وفُقدانَ المُفْتَقِد.

... وتفسيرُ ما أجْمَلْتُه وتفصيلُ ما أبْهمتُه أُورِدُه عليك محلولَ العُقدةِ مَنْضُوَّ البُردة[9]. وذلك أن إقبال الدولة - أيّدَهُ اللهُ - أمرني بإنشاء رِسالتين إلى مصر. فلمّا عَلَتْ شُرُفاتُها وروّضت عَرَصاتُها[10]، وَرَدَ عليهم مِنْهُما المُقيمُ المُقْعِد[11]. وكاد يُهْلِكُهُمُ الحسدُ... وطاروا طَيَرانَ الفَراشِ حولَ النار وجالوا جَوَلانَ الذُباب بين الأزهار، مرّةً يستَفْتونَ الفُقهاء، ومرّة يستَشْهِدون السُفهاء. ومرّةً يقولون: هذا يُسأل

---

(١) أندب العلم (الآن): ابك عليه (لأنّه ضاع في هذا الزمان). الطلل (مكان الخيمة بعد أن ترفع من مكانها - لم يبق من العلم إلاّ آثار يسيرة). العلق: الشيء النفيس.

(٢) الصدع: الشقّ. أعيا: أعجز. الصنّاع: البارع في صناعته (والزجاج إذا تكسّر لا يعود إلاّ إذا سبك من جديد).

(٣) المغنى: المنزل المسكون. البقل: النبات الصالح لطعام البشر.

(٤) الحذو: جعل الشيء على قياس معلوم. الحذيّا (ما كان قريباً منك) - وصفته هو وما يتصل به.

(٥) صدّرت به (أوردتّه في صدر رسالتي).

(٦) المعجب (الذي يتعجّب منه الناس) والخطب (المصيبة) المغرب (المستغرب عند الناس).

(٧) الهذيان: الكلام المضطرب الخارج على المعقول (من أثر مرض أو نحوه).

(٨) آنسوا: أبصروا، علموا.

(٩) منضوّ: مخلوع البردة (غير لابس ثيابه)، بصراحة.

(١٠) الشرفة: شبه نافذة بارزة يطلّ الناس منها على ما هو خارج بيوتهم. روّض: كثر النبت (في المكان). العرصة (بالفتح): الباحة الواسعة أمام الدار، أو بالعراء (في الخلاء) - يقصد: لمّا ظهرت براعته في رسائله.

(١١) المقيم المقعد: (الهمّ الذي يجعل صاحبه مضطرباً لا يستقرّ من الغضب أو الفزع...)

عنه إن كان يقال، وربّما كان له في مِضْمار اللُغة مجالٌ[1]. (ثمّ) يتَسَوّرونَ ويتَشوّرون[2]، حديثُ النِسكِ بعدَ البُعول وهَريفُ الإماء دونَ الكَفيل[3]... فاتّفَقَ رأيُهُم واستَمرّ هَدْيُهم إلى سُؤالِ أبي الحسنِ ابنِ سيده. فلم يُفَكِّرْ أبو الحسن في العواقب ولم ينظُرْ نظَرَ أهلِ التجارِب. فسلّمَ لهم واغترّ بِمْثلِ وَشْيِ الحَيّاتِ[4]، وانقاد في زِمامِ الزَخارف والتُرّهات[5] .... فردّ مواضِعَ أنا واصِفُها وجوابَها على سَرْدٍ[6]، وذاكِرُها وما يجلو ارْتِيابَها على حَرْدٍ

- لابن أرقم مَقاطعُ من الشعر:

★ نشرتْ عليك من النعيم جَناحا — خضراءُ صيّرتِ الصباحَ وِشاحا[7].

تحكي بخَفْقٍ قلبَ مَنْ عاديتَه — مهما تُصافحْ صِفْحُها الأرواحا[8].

ضَمِنَتْ لك النُعمى برأيٍ ظافر — فترقّبِ الفألَ المُشير صباحاً.

★ فتى الخيل يقتادُها ذُبَّلاً — خِفافاً تُباري القَنا الذابلا[9].

ترى كلَّ أجردَ سامي التَليـ — ـلِ وتحسَبُه غُصُناً مائلاً[10].

---

(١) ينتقدون كلّ لفظ (في رسائله) فإذا وجدوا فيها شيئاً صحيحاً لا مجال (موضع) للنقد فيه، قالوا (تقليلاً لشأنه): «ربما كان جائزاً في اللغة».

(٢) تسوّر (الجدار) تسلّقه. تسوّر: هجم على. (هنا): انتقدوا رسائلي بالباطل. تشوّر غير موجودة في القاموس. اشتوروا: تشاوروا (تعاونوا على نقض رسائلي).

(٣) حديث (بالرفع - وتجوز بالنصب) النساء بعد البعول (بعد فراق أزواجهنّ بالموت أو بالطلاق، ويكنّ عادة كثيرات الكلام فيما لا ينفع). هرف الرجل: قال كلاماً غير مفهوم وغير معقول أو قال عن جهل. الأمة (بفتح ففتح): الجارية دون الكفيل (ليس معها من هو مسؤول عنها فتتحدّث في كل شيء).

(٤) وشي الحيات (ربما كان جلد الحيّة جميل الرقش، ولكنّ الحيّة تكون مؤذية).

(٥) الزخرف: الكلام المنمّق بلا صحّة. الترّهة: الباطل.

(٦) على سرد: متابع (كان الجواب بسرعة). الحرد: البعد عن الناس. (هنا: البعد عن الحقّ).

(٧) خضراء (راية خضراء)...

(٨) قلوب أعدائك تخفق (ترتجف خوفاً منك) مثل خفقها (تحركها هي. الأرواح جمع ريح. صفح جمع صفحة. مهما (كلّما) مسّت الريح أحد صفحيها (وجهيها).

(٩) ذابل: نحيل. القناة: الرمح. بارى: نافس. - تقود خيلاً نحيلة كأنّها رماح (الخيل النحيلة تستطيع الجري بسرعة).

(١٠) الأجرد: الحصان الخفيف الشعر (وذلك من صفاته الحسنة). التليل: العنق.

- وله مطلع موشحة:

★ مَبْسِمُ البَهْرمانْ
في المُحيّا الدُرّي
صادَ قلبي وبانْ[1]
وأنا لم أدْر.

٤ - ★★ الذخيرة ١: ٧٤٠، ٢: ٤٦، ٣: ١٥٠، ٣٦٠ - ٤٠٩، ٥٠٥، ٥٠٦؛ التكملة ٦٢٢ (رقم ١٧٣٥)، نفح الطيب ٣: ٣٩٨ - ٣٩٩؛ نيكل ١٨٧، مختارات نيكل ١٢٨ - ١٢٩؛ الأعلام للزركلي ٤: ١٥١ (٢٥).

الراضي العبّادي

١ - هُوَ الراضي أبو خالدٍ يزيدُ بنُ محمّد المعتمدِ بنِ عبّادٍ، لعلَّ مَوْلدَه كان نحو ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م). كان المعتمدُ بنُ عبّادٍ قد آسْتنابَ مرّةً على مُرْسِيةَ وزيرَه ابنَ عمّارٍ فَطَمِعَ ابنُ عمّارٍ بمُرْسِيَةَ وآسْتَبدّ بها وخَلَعَ طاعةَ ابنَ عبّادٍ. فاحتالُ ابنُ عبّادٍ في القبضِ على ابنِ عمّارٍ ثمّ أرْسَلَ ابنَه الرَاضِيَ لِتَسَلُّمِ ابنِ عمّارٍ من يدِ آسِرِيهِ، وكان ذلك سَنَةَ ٤٧٧ هـ.

وتولّى الراضي على الجزيرةِ الخَضْراءِ (مدينةٍ في أقصى الجنوب من الاندلس). فلمّا أرادَ يوسفُ بنُ تاشفينَ الجَوازَ إلى الأندلُسِ آسْتعداداً لِمَعْركةِ الزَلاّقة (٤٧٩ هـ) آشْترطَ أنْ تكونَ الجزيرةُ الخضراءُ له مكاناً لتجميع جُيوشه. فنَزَلَ المعتمدُ عنِ الجزيرةِ الخضراءِ وأمرَ ابنَهُ الراضيَ أن ينتقلَ والياً على رُنْدةَ (على مسافةٍ يسيرةٍ شَمالَ الجزيرة الخضراء). وبعدَ أن استولى المرابطون على إشبِيلِيَةَ وخَلَعوا المعتمدَ حاصروا رُنْدة. ورأى الراضي أن يَنْزِلَ للمرابطين عن رُندةَ طَوْعاً، حِفاظاً على حياته وحياةِ أبيه، فأخذَ مِنَ المرابطين مَوْثِقاً بأنْ يُبقوا عليه. ولكنّهم لم يفعلوا وقتلوه في رَمَضانَ من سنةِ ٤٨٤ (خريف ١٠٩١ م).

---

(١) مبسم: ثغر (فم). البهرم (والنسبة إليه بهرمانيّ): نبت ذو زهر أحمر يصبغ به (يشبّه بذلك الشفتين). المحيّا: الوجه. الدرّي (نسبة إلى الدرّ: اللؤلؤ): الأبيض. بان: ابتعد (هجرني).

٢ - كان الراضي بنُ المعتمدِ العَبّاديُّ من أهلِ العِلم والأدب كَلِفاً بالمُطالعة والدِراسة قرأ كُتُبَ أبي بكرٍ الباقلاّنيِّ (ت ٤٠٣ هـ) وكُتُبَ ابنِ حزمٍ الظاهريّ (ت ٤٥٦ هـ) فمَهَرَ في أُصولِ الفِقْهِ ولكن ذَهَبَ الى النَظَر والاختيار[١]. ثمّ إنّه كان عالماً بالشرعيّاتِ واقفاً على الطبيعيّات ذاكراً للعرب وأنْسابِها حافِظاً للّغة وآدابها. و « كان شاعرَ بني عبّادٍ بعدَ أبيه، غيرَ أنّه أقوى عارضةً[٢] من أبيه، وأبوه ألْطَفُ طبعاً وأرقُّ صُنْعاً ». وشِعْرُه حُلْوٌ سَلِسٌ واضحُ المعاني يَجْري على السَجِيّة لا تكادُ تلمَحُ فيه أثراً للصَنْعة. وفُنونُه النسيبُ والعِتاب والحِكمة.

٣ - مختارات من شعره

- قال الراضي بنُ المعتمدِ بنِ عبّادٍ في النسيب:

مرّوا بِنـا أُصُـلاً من غير ميعادِ ... فأوْقَدوا نارَ شَوْقي أيَّ إيقادِ[٣].
وأذْكَـرونِـيَ أيّامـــاً لَهَوْتُ بِهِمْ ... فيهـا ففازوا بإيثاري وإحْمادي[٤].
لا غَرْوَ أنْ زادَ في وَجْدي مُرورُهم، ... فرُؤْيَـةُ الماءِ تُذكي غُلّةَ الصادي[٥].

- وقال يعاتِبُ أباه المعتمدَ، « وكان أبوه قدْ أنْهَضَ جماعةً من إخوته دونَه » (أنْعَمَ عليهم أو عَهِدَ إليهم بأمرٍ جليل):

أُعيـذُك أن يكـونَ بنا خُمولُ ... ويطلُـعَ غيرنـا، ولنـا أُفـولُ[٦].
حنانَك! إنْ يكُنْ جُرمي قبيحاً، ... فـإنّ الصفحَ عن جرمي جميل.
وإنْ عَـثرتْ بنـا قَـدَمٌ سَفاهاً، ... فإنّي مِنْ عِثـارِيَ مُسْتقيـلُ[٧].
وأحْسنُ مـا سَمِعْـتَ به - عزيزٌ ... يُناديـــه فيَرْحَمُه - ذليـــل.

---

(١) النظر: تحكيم العقل. الاختيار (أن الإنسان حرّ في أعماله غير مجبر عليها).
(٢) قويّ العارضة (المعجم الوسيط ٦٠٠): ذو قدرة على الكلام وذو بديهة (ارتجال) ورأى جيّد.
(٣) أصل جمع أصيل: الوقت في أواخر النهار.
(٤) فازوا بإيثاري (بتفضيلي إياهم على غيرهم) واحمادي (مدحي، شكري).
(٥) لاغرو: لا عجب. الوجد: شدّة الحبّ. يذكي: يزيد (الأمر شدّة). الغلّة: العطش. الصادي: العطشان.
(٦) أفول: غروب (عزل، زوال الحكم، زوال الملك).
(٧) عثر: زلّ (أخطأ). استقال فلان فلاناً - . (طلب أن يقيله): يساعده على النهوض (يعفو عنه).

وها أنا ذا أُناديكم، فهلْ لي إلى قُرْبٍ من الرُحمى سبيل[1]؟
وأنتَ المَلْكُ تعفو عن كثيرٍ، فما لك ظِلْتَ يُغْضِبُكَ القليل؟
بعثتُ برُقْعتي هذي رسولاً صغيرَ السِنّ ليس له حَويلَ[2]
لِتَرْحَمَه وأفراخاً إذا ما عَتَبْتَ عليّ عادَ لهم عَوِيل[3].
بَقِيتَ لهم على عَتْبٍ وعُتْبى، فإنّ حياتَك الظِلُّ الظليل[4]!

– وقال يَصِفُ نَكَدَ أيّامهِ ويَصِفُ أحوالَ الدنيا:

هِيَ الدارُ غادرةٌ بالرجال وقاطعةٌ لِحبال الوِصال.
وكُلُّ سُرورٍ بها نافدٌ، وكلُّ مُقيمٍ بها لارْتحالِ.
ومَوْعِدُها أبداً كاذبٌ، فإنْ أنجَزَتْهُ فبعدَ المِطال[5].
فمَنْ رامَ منها وفاءً يدومُ ومُكْثاً لها، رامَ عَيْنَ المُحال.
خُلِقْنا نياماً، وظَلْتْ خَيالاً. وأوْشَكُ شيءٍ فِراقُ الخيالِ[6].
نُعَذَّبُ منها بغيرِ اللذيذِ ونَشْرَقُ منها بغيرِ الزُلالِ[7].
ونَزْدادُ مَعْ ذاك عِشْقاً لها. ألاَ إنّما سَعْيُنا في ضَلالِ.

– وخاطبه المعتمدُ بقصيدةٍ يهزأ به فيها ويطعَنُ عليه لأنّه كان كثيرَ الإنصرافِ إلى العلم قليلَ الاهتمامِ بأمورِ الدولة وشؤونِ الحرب. ومطلَعُ قصيدةِ المعتمدِ:

المُلْكُ في طيِّ الدفاتِرْ، فتَخَلَّ عن قَوْدِ العساكِرْ[8].

---

(١) الرحمى: الرحمة.
(٢) الحويل (القاموس ٣: ٣٦٣، السطر الثاني من أسفل): القصد. لعلّه يقصد: ليس له حويل بالتصغير (قوة).
(٣) أفراخ (كناية عن الأطفال).
(٤) العتب: العتاب، اللوم. العتبى: الرضا.
(٥) المطال: المطل (بالضمّ): قلة الوفاء بالوعد.
(٦) أوشك: أقرب.
(٧) شرق (بفتح فكسر): غصّ. الزلال: الماء العذب الصافي السائغ. نشرق منها (من الدنيا) بغير الزلال (بالمصائب).
(٨) ألدفتر: كتاب العلم.

طُفْ بالسريرِ مُسَلِّماً وَارْجِعْ لتوديعِ المنابِرْ[1].
واضْرِبْ بسِكّينِ الدوا ةِ مكانَ ماضي الحدِّ باترْ[2]؛
أَوَلَسْتَ رَسْطاليسَ إنْ ذُكِرَ الفلاسفةُ الأكابرْ؟
وأبو حنيفةَ ساقطٌ في الرأي حين تكونُ حاضرْ

فكَتَبَ إليه الراضي بقصيدةٍ طويلةٍ يَتَنَصّلُ فيها من كثير مّما رماه به أبوه ويَعِدُ بأن يَرْجعَ إلى ما يُرضي أباه. من هذه القصيدة:

مَوْلايَ، قد أصبحتُ كافرْ بجميعِ ما تَحْوي الدفاترْ؛
وفَلَلْتُ سِكّينَ الدَوا ةِ وظِلْتُ للأقلامِ كاسرْ.
وعَلِمْتُ أنّ المُلكَ ما بينَ الأسِنّةِ والبواتر[3].
والمجدُ والعَلياءُ في ضَرْبِ العساكرِ بالعساكر،
لا ضَرْبَ أقوالٍ بأقْـ ـوالٍ ضعيفاتٍ مَناكِرْ[4].
قد كُنْتُ أحسَبُ، من سَفا هٍ، أنّها أصْلُ المفاخر؛
فإذا بها فرعٌ لها والجهلُ للإنسان عاذرْ.
لا يُدْرِكُ الشَرَفَ الفتى إلاّ بعَسّالٍ وباتر[5].
وهَجَرْتُ مَنْ سَمّيْتَهم، وَجَحَدتُ أنّهم أكابِرْ.
لو كُنتَ تَهْوى ميتَتي لَوَجَدْتَني للعيشِ هاجر.
ضَحِكَ المَوالي بالعبيـ ـدِ، إذا تُؤُمِّلَ، غيرُ ضائر[6].
إن كانَ لي فضلٌ فمِنْـ ـكَ، وهل لذاك النورِ ساتر؟

---

(١) السرير: العرش.
(٢) مكان: بدلا من. باتر: (سيف) قاطع.
(٣) السنان: الرمح. البواتر جمع باتر (سيف).
(٤) ضرب أقوال بأقوال: نقاش وجدال. مناكر (جمع منكر؟): ما تحكم العقول بقبحه. ومناكر (مناكير؟): جمع منكور: مجهول.
(٥) العسّال: الرمح.
(٦) المولى: السيد. ضائر: مضرّ.

أو كـــان بـــي نَقْـــصٌ فمِنْـ ـــنِي. غـيرَ أنّ الفضلَ غامر[1].
ذَكَّـرْتَ عَبْـدَكَ ســاعـــةً يَبْقى لها ما عاشَ ذاكـر.
يـا لَيْتَهـا قــد غَيَّبَتْـ ـهُ عندَها إحْدى المقابـر.
أتريـدُ منّـي أنْ أكـــو نَ كمن غدا في الدهر نادر[2]؟
هَيْهـــاتِ! هـــذا مطمَــعٌ يُعْيِـي الأوائـلَ والأواخـر.
لا تَنْـسَ، يـا مَـولايَ، قَـوْ لَةَ ضارِعٍ، لا قـولَ فاخـر،
ضَبْـطَ الجـزيـرةَ عِنـدَمـا نَزَلَتْ بعَقْوتِهـا العسـاكـر[3]،
أيّـامَ ظِلْـتَ بهـا فـريـ ـداً ليـس غـيرَ الله نـاصـر؛
إذ كـــان يُعْشـي ناظـري لَمْـعُ الأسِنَّـةِ والبـواتـر[4]،
ويُصِمُّ أسْمـاعـي بهـــا قَـرْعُ الحِجـارَةِ بالحوافـر[5].
وَهِـيَ الحضيـضُ سُهـولـةً لكـنْ ثَبْـتُّ بها مُخاطِـر.
هَبْـني أسـأتُ - كما أسـأ تُ - أما لهذا العَتْـبِ آخِـر؟
هَـــبْ زَلّـتي لِبُـنُـوتـي واغْفِـرْ، فـإنّ اللهَ غـافـر.

٤ - ** الحلّة السيراء ٢: ٧٠ - ٧٥؛ المطرب ٣٨ نفح الطيب ١: ٦٢٧، ٦٦١ - ٦٦٢؛ ٤: ٢٤٩ - ٢٥٦.

السميسر الإلبيري

١ - هو أبو القاسم خَلَفُ بنُ فرجٍ المَعْروفُ بلَقَبِه «السُمَيْسِر»، أصلُه من إلْبيرةَ (قُربَ غَرْناطة) وسَكَنَ غَرْناطَةَ مُدّةً مُتّصلاً بصاحِبها باديسَ بنِ حَبّوسٍ (٤٣٠ - ٤٦٦ هـ). ثمّ وَقَعَتْ وَحْشَةٌ بينَه وبينَ باديسَ لِبيتين قالَها في هجاء البربر،

---

(١) غير أن الفضل (فضلك) غامر (يغمرني: عفوك أكبر من ذنبي).
(٢) نادر: ساقط، شاذ.
(٣) العقوة: المكان المتسع أمام الدار. العساكر (اشارة إلى الجنود الاسبان؟).
(٤) أعشى النور البصر: جعله ضعيفاً لا يرى. الأسنة والبواتر: الرماح والسيوف.
(٥) بالحوافر: بحوافر الخيل (في الحرب).

فهَرَبَ إلى المَرِيَّةِ لاجئاً إلى صاحِبِها المعتصمِ بنِ صُمادحٍ. ويبدو أنّ مَجيئه إلى المَريّة كان باكراً (قبل ٤٦٦ هـ، بلا ريبٍ)، كما يجبُ أن تكونَ إقامته في المَريّة قد طالتْ حتّى استحقّ أن يُسَمِّيَهُ المَقّري «شاعرَ المريّةِ» (نفح الطيب ٣: ٣٩٠). ثمّ بَقِيَ في المريّة إلى ما بعد وفاةِ المُعتصم بن صُمادحٍ، ثامنِ ربيعِ الأولِ من سَنَةِ ٤٨٤ (٣٠/ ٤/ ١٠٩١ م).

٢ - كان السُميسرُ شاعراً مطبوعاً سهلَ الشعرِ، وكان أفضلَ الشعراء الذين حَفَلَ بهم بَلاطُ المعتصم بن صُمادحٍ. وهو صاحب مُزْدَوِجٍ (في قوافي الشعر) لعلّه قلّدَ فيه منصورَ بنَ اسماعيلَ التميميَّ الفقيهَ الشافعي الضرير (المُتوفّى في مِصْرَ سَنَةَ ٣٠٦). ثمّ له طبعٌ وتصرُّفٌ مُستحسَنٌ في المُقطعات لا في المُطوّلات. وأغراضُ شعرِه الشكوى والزُهدُ والحِكَم والنسيب والهجاء المُقْذِع، فقد كان هجّاءً مُتَوَثِّباً على الناس مُرَّ اللِسانِ لم ينْجُ من لسانهِ هذا أحدٌ ولا أولئك الذين عاشَ في بَلاطهم. وكذلك كان له إخوانيات. ويبدو انهْ صنّفَ كُتُباً، فقد ذكروا له كتاباً عُنوانُه «شِفاء الأمراض في أخْذِ الأعراض» (نفح الطيب ٤: ١٠٨).

٣ - مختارات من شعره

- قال أبو القاسم السُميسِرُ في الدنيا وحقيقةِ مَوْقفِ الناسِ منها:

لله في الدنيا وفي أهْلِها ... مُعَمّياتٌ قد فَكَكْناها:
مِنْ بَشَرٍ نحن، فمِنْ طَبْعِنا ... نُحِبُّ فيها المال والجاها.
دَعْني من الناسِ ومِنْ قَوْلِهِمْ، ... فإنّما الناسكُ خَلاّها.
لم تُقْبِلِ الدنيا على ناسكٍ ... إلاّ وبالرَحْبِ تَلقّاها.
وانّما يُعْرِضُ عن وَصْلِها ... من صَرَفَتْ عَنْه مُحيّاها[1]!

- وقال، وقد وقف على أطلال مدينة الزهراء:

وَقَفْتُ بالزهراءِ مُسْتَعْبِراً ... مُعْتَبِراً أندُبُ أشْتاتا[2]

---

(١) محيّاها: وجهها. الذين يزهدون في الدنيا هم (عند السميسر) أولئك الذين تكون الدنيا قد ضنّت عليهم بخيرها.

(٢) مستعبرا: باكياً: معتبرا: متأمّلاً بالعواقب. أشتاتاً: أشياء مبدّدة (متفرّقة - متهدّمة).

فقلتُ: يا زَهــرا، ألا فــارْجِعي. قالــتْ:وهــلْ يَـرْجِـعُ مَــنْ ماتـا؟
فــلـم أزلْ أبْكـي وأُبْكـي بهــا؛ هَيْهـاتَ يُغنـي الـدَمْعُ هَيْهـاتـا!
كـأنّمــا آثـارُ مَــنْ قــد مضــى نــوادبٌ ينـدُبْـنَ أمـواتــــــا.

- وقال في بعوضٍ كانت تلدغه:

بَعوضٌ شَرِبْـنَ دَمـي قَهْـوةً وغَنَّيْنَــني بضُــروبِ الأغــانْ(1).
كـأنّ عـروقـيَ أوْتـارهــا وجِسْمِي الرَبـابُ وهُــنّ القِيـان(2)!

- وفي المَرِيَّة يقولُ السُميسر شاعرُها (نفح الطيب ٣: ٣٩٠):

بِئْـسَ دارُ المَــرِيّـةِ اليــومَ داراً ليــسَ فيهــا لسـاكـنٍ مـا يُحِـبُّ.
بلــدةٌ لا تُمــارُ إلاّ بِريـحٍ رُبّمــا قــد تَهُـبُّ أو لا تَهُـبُّ(3).

- وقال يهجو البربر:

رأيتُ آدَمَ فــي نـومي فقُلـتُ لـه: أبا البريّـةِ، إنّ النـاسَ قـد حكَموا
أنّ البرابرَ نسلٌ مِنـكَ. قـال: إذَنْ، حَوّاءُ طالقةٌ إن كانَ ما زَعَموا.

- وقال في سوء الظنّ بالبشر (وبأقاربه):

قــرابـــــةُ الســوءِ داءٌ فاحْمِـلْ أذاهُــم تَعِـشْ حَميدا.
ومــن تَكُـنْ قَـرْحـةٌ بِفِيـه يَصْبِــرْ عــلى مَصِّــه الصَديدا!(4)

- وقال في العليل الشَرِهِ ومَوقفهِ من الطبيب:

يــا آكــلاً كــلَّ مــا اشْتَهــاهُ وشــاتــمَ الطِّــبِ والطبيـبْ،
ثِمارُ مـا قــد غَـرَسْـتَ تَجْـني. فـانتــظرِ السُقْمَ عــن قريـــبْ.
يجتمــعُ الــداءُ كــلَّ يــوم: أغْذِيَــــةُ الســوءِ كــالذُنــوب.

٤ - ** الذخيرة ٢: ٨٨٢ وما بعد؛ الخريدة (الأندلس) ٢: ١٥ - ١٦؛ المغرب ٢: ١٠٠ - ١٠١؛ المطرب ٩٣؛ نفح الطيب ١: ٥٢٧ - ٥٢٨، ٣: ٢٢٧ - ٢٢٨، ٢٩١، ٢٩٣، ٣٢٠ - ٣٢١، ٣٢٩، ٣٩٠، ٤١٢، ٤: ٢٠، ١٠٨، ١١٦؛ نيكل ١٩١ - ١٩٣، مختارات نيكل ١٣٢ - ١٣٥؛ الأعلام للزركلي ٢: ٣٥٩ (٣١١).

---

(1) قهوة: خمر.
(2) الرباب والربابة آلة موسيقية وترية: القيان جمع قينة (بالفتح): المرأة (الجميلة) المغنّية.
(3) تمار: تأتيها الميرة (الطعام). المريّة: ثغر في الجنوب الشرقي من الأندلس.
(4) بفيه: في فمه. الصديد: القيح.

ابن غرسيه

١ - هو ابو عامرٍ احمدُ بنُ غرسيه أصله من البُشكَنْس (شمال غربيّ الاندلس) سُبِيَ صغيراً فاعتنق الإسلام ودخل في وَلاء مجاهدِ العامري صاحبِ الجُزُر الشرقية ومدينة دانية. ويبدو انه قد قضى حياته كلها في دانية. وكانت وفاته بعيد سنة ٤٧٧ (١٠٨٤ م).

٢ - ابن غرسيه اديب قدير في النثر ومجيد في الشعر وكانت تَغْلِبُ عليه شعوبية حمل بها على العرب حملة شديدة سفيهة، وان كانت هذه الرسالة (في هجاء العرب) تنكشف عن معرفة بغريب اللغة وبالأحداث التاريخية ومصادر الثقافة. والمعروف ان الشعوبيين يفضّلون المسلمين على العرب (أي يفتخرون بالإسلام على الذين يتعصبون للنسب العربي). والملموح عند ابن غرسيه أنه يفضل الفرس والروم واليهود على العرب، ولكنه يتستر بمدحِ رسولِ الله (الذخيرة ٣ : ٧١٢ - ٧١٣). ولقد فَطِنَ الذين ردّوا عليه إلى ذلك فنَسَبَهُ بعضُهم إلى النِفاق. وقال بعضُهم إنّه بَرِيء من الإسلام (ودخل في الكُفر مُرْتدّاً وانه يستحقُ القتلَ على ذلك- ولكنْ لم يكُنْ في الاندلس في ذلك الحين ملكٌ قويّ يستطيعُ أن يُقيمَ مِثْلَ هذا الحَدّ: يُوقع مِثلَ هذا القِصاص).

وفي شِعر ابنِ غرسيه فخرٌ بنفسِه وبأصله. غيرَ أن شِعرَه الذي بين أيدينا نازلٌ عن مرتبةِ نثرِه (وخصوصاً من حيث المتانةُ) والوضوحُ.

ولقد ردّ على ابنِ غرسيه نفرٌ من مُعاصريه منهم ابنُ الدودينِ وأبو الطيبِ عبدُ المُنعم القَرَوِيّ ثمّ رجُلٌ آخَرُ يدعى ابنَ عبّاس يبدو أنه ألّف في ذلك كتاباً. وسأُورِدُ أشياءَ من تراجمِ هؤلاءِ ومن رسائِلِهِمْ في هذا الشأن، بعدَ المختاراتِ من رسالةِ ابنِ غرسيه.

٣ - مختارات من آثاره

- قال ابنُ غرسيه يفتخرِ بأصله (المغرب ٢ : ٤٠٧):

إن أصْلي كما عَلِمتَ، ولكنّ(م) لساني أعزُّ من سَحْبـــانِ[1].
وأنا من خير الملوك بصدْرٍ، هـل ترى بالقَناةِ صدرَ سِنان[2]؟

– ومن الرسالة الشُعوبية لابنِ غرسيه (في هَجْو العرب) يُخاطبُ بها الأديبَ الشاعرَ أبا جعفرٍ بنَ الخزّاز[3]. قال (الذخيرة ٣: ٧٠٥ – ٧١٤):

.... كأنّ ما في الأرض إنسانٌ إلاّ من غسانٍ أو من آلِ ذي حسّانٍ[4]. وإنْ كان القومُ أقْنَوْكَ وما أغْنَوْك، على حَسْبِ المذكور، فما هذا الإعمال للكُور وتَرْكُ الوُكور[5]؟ وقلّ ما تأخُذ الشَعَرةُ في الرحيل إلاّ عن الربْع المَحيل[6]. ولو أن القومَ خَلَطوك بالآلِ لَما ألْجأوكَ إلى الخَبْط في الآلِ[7]. مَهْ مه. مَنْ أحْوَجَكَ إلى رُكوبِ المَهْمَه[8]؟.... أحسبك[9] أنْ أزْرَيْتَ، وبهذا الجيلِ النجيب ازْدَرَيْتَ[10]، وما دَرَيْتَ أنّهُمُ الصُهْبُ الشُهْب، ليسوا بعُرْبٍ ذَوِي أيْنُقٍ جُرْبٍ[11]. بل هم القياصِرةُ والأكاسرة. مُجُدٌ نُجُدٌ: بُهَمٌ لا رُعاةُ شُوَيْهاتٍ وبَهَم[12]. شُغِلوا بالماذيّ والمُرّان عن

---

(١) أصلي كما علمت (بشكنسي نصراني، ثمّ مولى). أعزّ: أقوى. سحبان: خطيب عربي مشهور.

(٢) هذا البيت مضطرب الوزن في أوّله (اقرأ: وأنا خيرة الملوك بصدر). القناة: عصا الرمح. السنان: الحديدة التي في أعلى الرمح.

(٣) أبو عبد الله محمّد بن أحمد بن الخزّاز من أهل سرقسطة وسكن بلنسية وكان أديباً شاعراً.

(٤) من غسان أو آل ذي حسّان (من العرب أو من ملوك العرب؟).

(٥) أقنوك: منحوك قنية (عطية). وما أغنوك (المفروض أن يقال: وأغنوك). على حسب المذكور (كما ذكر في التاريخ). الإعمال (بالكسر: الاستخدام، السير) بالكور (رحل الناقة): السفر (الكثير). وترك (هجر) الوكور (المساكن) يشبّه بيوت العرب بالوكور احتقاراً.

(٦) الشعرة: الشعراء. الربع: المسكن. المحيل: المغيّر، المتبدّل (المهدوم).

(٧) القوم (قومك) خلطوك بالآل (أدخلوك في أهلهم). الخبط: السير على غير هدى. الآل: السراب.

(٨) مه: أكفف، توقّف (عن الادّعاء). المهمه: الصحراء الواسعة.

(٩) أحسبك (الصيغة غير واضحة. اقرأ: حسبك (يكفيك) إن (بكسر الهمزة).

(١٠) أزريت (عبت غيرك) وبهذا الجيل (من الناس، أي الفرس أو الروم أو الافرنج) ازدريت (احتقرتهم) أن تعلم (تحسن زيادتها هنا).

(١١) الأصهب: الأشقر، الأحمر. الأشهب: الأبيض. أينق جمع ناقة.

(١٢) في تاج العروس (الكويت ٩ : ١٥٢) مجد (بضمّتين): النياق التي تشبع من المرعى. الجد (بضمتين) جمع مجود (بالفتح): نبيل، شريف. البهم (بضمّ ففتح) جمع بهمة بالضمّ: الشجاع. البهم (بفتح ففتح): الغنم، البهائم.

رَعْيِ البُعْران[١] ، وبجَلْبِ العزّ عن حَلْب المَعْز. جبابرةٌ قياصرة، ذَوُو المَغافر والدُروع للتنفيس عن رَوْعِ المَروع[٢] . حُماة السُروح نُماة الصُروح[٣] . صقورةٌ غَلَبت عليهم شُقورة، وصُقورة الخُرسان، لكنّهم خَطَبَة بالخرصان[٤] .

بُصُرٌ صُبُر ، قيولٌ على خيول كأنّهم فُيولٌ، بنو غابٍ مُنْتَفون من كلّ عابٍ[٥] . لم تَلِدْهُم صواحبُ الراياتِ[٦] ، بل تَبَحّجتْ عنهمْ سارةُ[٧] الجمال والكمال، ربّة الإياة[٨]..... غَنُوا بالإسْتَبْرق والسُنْدُس عن البَتّ المُقَيِّظ المُشَتّ المجموع من النَعَجات السِتّ[٩]. طعامُهُمُ الحنيذُ[١٠] وشرابُهُمُ النبيذ، لا زهيدُ الهَبيدِ في البيد[١١]....

---

(١) الماذيّ: الدرع. المرّانة (بالضمّ): الرمح الصلب ولكن ينثني. البعران جمع بعير.

(٢) المغفر (بكسر فسكون ففتح): وقاء للرأس في الحرب. الروع: الخوف. المروع: الخائف.

(٣) السروح (قطعان الماشية). نماة الصروح (القصور): الذين يبنون قصوراً عالية.

(٤) الذخيرة ٣: ٧٠٦ (الحاشية العاشرة): أي فيهم صقورة الخرسان، وهم الصقالبة من حرس القصر وكانوا يلقّبون الخرس، وإنّما يظهرون فصاحتهم بالخرصان (بالضم أو بالكسر) أي الرماح (كذا). صقورة جمع صقر (طائر يصاد به). شقورة (ليست في القاموس). المقصود « شقرة » (أي هم أبطال ولكن شقر: أفرنج لا عرب). الخرسان أو الخرس: حرس صقالبة اتّخذهم خلفاء الأندلس، سمّوا خرسا (لأنهم لم يكونوا يتكلّمون العربية). خطبة (يقصد خطباء). أي يحسنون الكلام بالخرصان (بالضمّ أو بالكسر) جمع خرص (بالكسر): الرمح اللطيف (القصير)، أي يجيدون القتال.

(٥) الغاب جمع غابة. العاب: العيب.

(٦) كانت المتزيّنات للرجال ينصبن على مداخل بيوتهن راية ليعرفن. في هذا تعريض بزياد بن أبيه، وكانت أمه من صواحب الراية، ادّعى معاوية أنّ أباه أبا سفيان أتاها (قبل اسلامه) وأنّ زياداً كان ابنه منها. وقد ألحقه معاوية، فيما بعد، بنسبه.

(٧) سارة امرأة ابراهيم الخليل وأمّ اسحاق أبي اليهود.

(٨) أيا وأياة (بكسر الهمزة فيهما): ضوء الشمس وحسنها.

(٩) غني الرجل أصبح غنيًّا وليس محتاجاً إلى شيء. الإستبرق والسندس من الحرير. البتّ: كساء من صوف أو وبر. المقيّظ المشتّي (يلبس شتاء وصيفاً). وهنا إشارة إلى أشطر من الرجز لأعرابي يذكر أن له ثوباً واحداً يلبسه في جميع الفصول وقد نسجه هو من ست نعجات كانت عنده.

(١٠) الحنيذ: اللحم السمين.

(١١) الزهيد: القليل القيمة. الهبيد: الحنظل (ثمر نبات صحراوي يشبه البطيخ، ولكنّه أصغر حجماً ثمّ هو مرّ).

معشرَ البُداةِ العُداة، اعتقدتم غِلاً فاسْتَتَرتم صِلاّ[١].

.... أما علمتم ان الدولة النُوشرانية والدولة الأزدشيرية[٢] بَقَروا أجوافَكم وخلعوا أكتافَكم[٣] ثم عطفوا ورأفوا وملّكوكُمُ الحِيرة بعد عظيمِ الحَيرة قُلُلاً ذُللاً[٤] تتخيّرون البناتِ عند البَياتِ مَبْهورات لا ممهورات[٥]. فَبَرِم مِنْ ذلك غَسّانُكم ونُعْمانكم[٦]. وكان بَرَمُه سبباً لِدَرْء أَمانكم[٧]، فأصْبح بعدَ جرّ الذيول مدوساً بأخْفاف الفُيُول[٨]. (هذا) والكِرامُ بنو الأصفر[٩] الأطهر الأظهر عَطَفَتْهم عليكُمُ الرَحِمُ الإبراهيميةُ والعُمومة الإسماعيلية[١٠] وسَمَحوا لكم من الشام بأقْصى مكان بعدَ ان كان من سَيْلِ العَرِم[١١] ما كان....

فلا فخرَ، مَعشرَ العُربان الغِربان[١٢] بالقديم المُفَرَّى الأديم[١٣]. لكنْ بابن عمِّنا الاسماعيليِّ الحَسَبِ الابراهيمي النَسَبِ.... بهذا النَبيّ أُفاخرُ من يَفخَر وأُكاثرُ مَنْ تقدّم وتأخَّر.... أُصَلّي عليه عددَ الرمْل ومددَ النمل. وكذلك أُصلّي على واصلي جَناحه، سُيوفه ورِماحِه، صحابَتِهِ الكرامِ علَيْهِمْ أفضلُ السلام.

---

(١) البداة (سكان البادية) العداة (الأعداء) اعتقدتم (أضمرتم) غلّا (حقداً). الصلّ: الحية الخبيثة.

(٢) نسبة إلى أنو شروان وأزدشير (من ملوك الفرس).

(٣) كان سابور (ملك الفرس) يلقّب «ذا الأكتاف» لأنّه كان يخلع أكتاف الأسرى.

(٤) قلل جمع قلال (بالضمّ): قليل. ذلل: مذلّلين.

(٥) البيات (هنا): النوم. مبهورات (خائفات، تغتصبونهنّ). ممهورات (دفع مهرهن (أي تزوّجتموهنّ حلالاً).

(٦) برم بكم: ملّ منكم (غسّانكم ونعمانكم: الملوك الذين جعلوا بني غسّان وبني النعمان حكّاماً عليكم).

(٧) درء أمانكم (الملموح: ذهاب الأمن عنه وعنكم).

(٨) جرّ الذيول (ذيل الثوب): العزّ والتبختر. مدوساً بأخفاف الفيول (إشارة إلى النعمان آخر ملوك الحيرة الذي استدعاه كسرى إليه وانتقم منه بأن ألقاه تحت أقدام الفيلة فداسته).

(٩) بنو الأصفر: اليونان.

(١٠) الرحم: القرابة. إبراهيم الخليل ثمّ ابنه اسحاق أخو اسماعيل، فاسحاق عمّ العرب لأنّ اسماعيل أبو العرب.

(١١) لمّا انفجر سدّ مأرب في اليمن هاجرت قبائل يمنية كثيرة نحو العراق والشام. العرم: الشديد.

(١٢) العربان (البدو) الغربان (السود الألوان).

(١٣) المفرّى (المقطّع) الأديم (الجلد) كناية عن الذل وكثرة اعتداء الناس (على العرب).

- وفيما يلي أشياءُ من الردّ على هذه الرسالة:

من الذين ردّوا على ابن غرسيه أبو جعفرٍ أحمدُ بنُ الدودينِ لَقِيَهُ ابنُ بسّامٍ في الأُشبونةِ (لشبونةَ عاصمةِ البرتغال اليومَ)، سَنَةَ ٤٧٧ (١٠٨٤ م) واستملى منه شيئاً من نثرِه وشِعره فأمْلاهُ - مِمّا وَصَل إلينا - أبياتاً في الغزل المذكّر ليس فيها براعةٌ معنوية خاصّةٌ ولا لفظيّةٌ. وأمّا رِسالته التي ردّ بها على ابنِ غرسيه ففيها أشياءُ من المَقْدِرة اللغوية وصِناعة البلاغة مَعَ أشياءَ من المعرفة بالتاريخ والعلم. وفيما يلي مختاراتٌ من رسالة ابن الدودينِ (الذخيرة ٣: ٧١٥ - ٧٢٢):

اخسأْ، أيُّها الجهول المارقُ والمرذولُ المُنافق. أينَ أُمُّك، ثَكلَتْكَ أُمُّك[١]؟ أَوَما عَلِمْتَ انّما سُحِبْتَ من عِقالِكَ لِعُقّالك[٢]، وقدّمتَ أوّلَ قدَمِك لِسَفْكِ دَمِكَ[٣]... (ثمّ) حبّرتَ بِجبرِك لذَهاب خُبْرِك[٤]؟ فما حقيقةُ جوابك على خَطَل خِطابك الاّ سَلْبُكَ عن إهابِك[٥] وصَلْبُكَ على بابِك، لو كان في الحَضْرة أقيالٌ وحَضَرَكَ رجال[٦]. لكنّك بين هَمَجٍ هامج ورَعاعٍ مائج[٧]: « مُذَبْذَبِينَ: لا إلى هؤلاءِ ولا إلى هؤلاء »[٨]....

هل يجوز في التحصيل أو يَصِحّ في العقول أن يَحْمِيَ قومُك سُروحَ شائِهم وقد أباحوا فروج نسائهم؟ أليس هذا عينَ المُحال ومغالطةَ الجُهّال؟ فهلاّ توهّمتَ، يا فتى، الجوابَ قبلَ الخِطاب وأبصرتَ الوَرْطة[٩] قبل السَقْطة؟

---

(١) المارق (الخارج من الإسلام).

(٢) العقال: الرباط الذي يحمي الإنسان. العقّال (الرباط الذي يمنع الإنسان من الحركة).

(٣) أوّل ما عملته (من سب العرب): الكفر.

(٤) الخبر (حقيقة الأمر - كلامك دلّ على أنّك لم تبق مسلماً).

(٥) الخطل: الفساد (فساد الرأي والعقل). سلبك (سحبك) من اهابك (جلدك): قتلك.

(٦) الحضرة: العاصمة أو المكان الذي أنت فيه. أقيال: ملوك (حقيقة). وحضرك (كان حولك) رجال (لهم رأي وعزيمة).

(٧) الهمج: جماعات الناس (كالبهائم). هامج: بلا نظام، سائبون، فوضى. رعاع: جماعات لا انتظام لها.

(٨) من القرآن الكريم (٤: ١٤٣، النساء): « مذبذبين بين ذلك، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ».

(٩) الورطة: الحفرة العميقة، الوحل.

وأما ما قَعْقَعْتَ به ووَعْوعت[١] من صواحبِ الراياتِ[٢]، فهنّ - وأبيكَ - بعضُ بناتِ الإياة[٣]، فما عُجْنا بهنّ عمّا عوّدتُّموهنّ مِنَ البِغاء[٤] للاسترضاء. فكَثَّرَ معشرُ العُربانِ من وَلَدِ سارَتِكم الإمْوانَ والعُبدان[٥]. وفيكَ و(في) أبيك من ذلك أصحُّ دليلٍ وأوضح بُرهان[٦].

وأمّا لَوْكُهُمُ العُرودَ[٧] فأوضح من السِراجِ الوهّاج في الليل الداج. لكنْ أُلْمِعُ بذلك لُمعةً تشهد بذاتها على ذَواتها: وذلك أنّه قد تُحُدِّثَ أنّ وُلدانَكم قد عطّلوا في بعضِ أعوامِكم سوقَ نِسائكم. فَنُمِيَ[٨] ذلك إلى مَليكِكُمْ فحَكَمَ - أكرِمْ به من حَكَمٍ - أن يُبيحَ النِسوانُ من أنفُسِهِنَّ ما أباح الولدانُ (من أنفسهم). فامتَثَلْنَ ذلك، فاتَّسَقَتِ الحالانِ ونَفَقَتِ السُوقانِ.

وأمّا ما عيّرتَ به العربَ مِنَ الاغتذاء بالحيّاتِ فَكَتَغَذِّيكُمْ بالدِماء والمَيْتات....

وأمّا فخرك بالشرائعِ فمن أبدعِ البدائع. وأنّى يكون ذلكَ كذلكَ، ولم يأخُذوها عن نبّيٍ ولا نقلوها عن حَواريّ[٩] إلى أن أصاروها في حَيّزِ الهَذَيان. وحَسْبُكَ بهم جهلاً أنّهم يعتقدون إلَهاً نَبِيَّهُمْ، فوَسَموه بالربّ المعبود وصيّروه - بعدُ - مصلوبَ اليهود. فاعجَبْ لجهلٍ يجمع بين هذين الطَرَفين. وأعجبُ من ذلك أنهم مُجمعون على أنّ عيسى يَنْزِل إلى الأرض لِحساب الخلائق يومَ العَرْض. فما ظنُّك يفعل اليهوديّةُ على ما قدّموه، على زَعْمهم، إذا (هو) ناقَشَهُمُ الحسابَ[١٠]؟

---

(١) وعوع الكلب الخ: عوى وصوّت.

(٢) صواحب الرايات (انظر، فوق، ص ٦٨٥، الحاشية ٦.

(٣) الاياة: ضوء الشمس، حسن الشمس.

(٤) عاج: مال، انحرف (خالف). البغاء: النكاح غير المشروع، الزنا.

(٥) كثر نسل العربان (البدو) من بنات سارة (امرأة إبراهيم وأم اسحاق): اليهوديات. الاموان والعبدان: الارقّاء من الإناث والذكور.

(٦) ومشابهة جماعات من اليهود للعرب دليل على ذلك.

(٧) لاك الشيء: حرّكه في فمه كأنّما يريد أن يمضغه. العرد: الصلب الشديد، عضو الرجل.

(٨) نمي: رفع (نقل الكلام إلى....)

(٩) الحواريّ: الصاحب (من أتباع الرسل خاصّة).

(١٠) بماذا يدافع اليهود عن أنفسهم إذا نزل عيسى ليحاسب البشر وسأل اليهود عن دعواهم قتله.

والآن تذكّرتُ مَساقَ أبي غَبْشانَ[١]- وما أنْسانِيه إلاّ الشيطانُ[٢]- ذلك الذي به ظَنَنْتَ ومن قضيّته عظّمتَ. وليس الأمرُ كما توهّمت. وأبو غَبْشانَ إنّما باع خِدْمَتَهُ في البَيْت. وهَبْها وَصْمَةَ سفيهِنا العربيِّ، فاين تقعُ (بالإضافة إليها) قضيّةُ إمامِكُمْ يَهوذا[٣] الحَواريِّ، إذ باع نَبِيَّه روحَ القُدُس بالأفلُس. فكذّبَ اللهُ ظنّه وأنجى نَبِيَّه[٤]. فدونَك: ضَعْ قضيّةَ سفيهِنا في كِفّةٍ[٥]، وفي أُخرى قضيّةَ إمامِكُم (ثمّ) رَجّح بينَهما.

وما كان أغناكَ، يا كُشاجِمُ[٦]، عن كشف عَوْراتِ آلِكَ الأعاجم؟ لكنّ ضَعْفَ نظرك حَداك إلى هَذَرِك[٧]، وسوءَ أدبِك وافَى بك على عَطَبِك. نسألُ اللهَ سِتراً يَمْتَدُّ ووجْهاً لا يسوَدُّ.

★ ومن الذين ردّوا أيضاً على ابنِ غرسيه أبو الطيّب عبد المُنعم القَرَوِيُّ (القَيْرواني) المُتَوَفَّى سَنَةَ ٤٩٣ (١٠٩٩ - ١١٠٠ م) دخلَ إلى الأندلس وحدّث في الجانب الشرقي منها. وردُّ أبي الطيّبِ القَرَويّ بارعٌ جِدًّا. ويبدو أنّ ثقافَته العامّة كانت واسعةً. وفيما يلي مختارات من رِسالته الطويلةِ في هذا الموضوعِ (الذخيرة ٣ : ٧٢٢ - ٧٤٦):

.... أيُّها الفاخرُ بزعمه بلِ الفاجرُ برُغمه، ما هذه البَسالةُ في الفَسالة[٨]؟ما هذه الجسارةُ على الخسارة؟ لقد تجرّأتَ ومِنَ المِلّةِ تبرأتَ[٩].... فأخبِرْني عنك: أما كانتْ

---

(١) أبو غبشان كان له نصيب في خدمة البيت (الكعبة) فباعه في أثناء سكره.

(٢) القرآن الكريم (١٨ : ٦٣ ، الكهف).

(٣) يهوذا الاسخريوطي كان من أتباع المسيح الاثني عشر الأوائل فخان المسيح بأن دلّ الجنود الرومان عليه حتّى قبضوا على المسيح.

(٤) أراد اليهود لعيسى أن يقتل ويصلب، ولكن الله نجاه ورفعه إليه.

(٥) للميزان كفّتان.

(٦) كشاجم: اسم علم (فارسي). يا كشاجم (يا من يدعي نسبة الى غير العرب)

(٧) حدا: ساق، دفع. الهذر: سقط الكلام (الكلام الغثّ الساقط: لا معنى له).

(٨) البسالة: الشجاعة. الفسالة: سوء الرأي (الفسولة بالضمّ: قلّة المروءة).

(٩) الملّة: الدين (الإسلام). تبرّأت (تخلّيت عنه، وهذا ممّا يدلّ على أن الذين ردّوا على ابن غرسيه اعتقدوا أن رسالته الشعوبية قد أخرجته من الإسلام إلى الكفر).

للعرب (عليك) يدٌ تشكُرها ومِنّةٌ تذكُرها؟ أما جبَرَتْ نقيصتَك؟ أما رفعتْ خسيستَك؟ أَلَمْ تُربِّكَ فينا وَليداً[١]؟ ألم تتّخِذْك تَليداً[٢]؟ ألم تُعْنَ بتخريجك وتدريجك؟ أما أنْطَقَتْكَ بعدَ العُجمة؟ أما أسْلَقَتْكَ عَقِبَ اللُكْنة[٣]؟ حتّى إذا اشتدّ كاهِلُكَ[٤] وعَلِمَ جاهلُك، وقَوِيَ ساعدك ورَقِيَ صاعدُك، كفرتَ نِعمتَها لَدَيْكَ ونثرتَ عِصمتها[٥] من يدَيك؟ أحينَ فَكّتْ أسْرَكَ.... ناهَضْتَها بحُسامِها وجاهضتَها بكلامِها[٦] ورَمَيْتَها بسِهامها:

أُعلِّمُه الرِمايةَ كلَّ يومٍ، فلمّا استدَّ ساعِدُه رَماني[٧].

وهاتِ أَرِنا مَفاخرَك نُرِكَ مَساخِرَك....: ليس للسَخاء في الروميةِ اسمٌ ولا للوفاء في العَجَمية رسْمٌ[٨]. أينَ أنتَ عن السُمْرِ القُمْر[٩]: البيضِ غُرَراً وصِفاحاً السودِ طُرراً وأوْضاحاً[١٠].... قِمَمٌ من العمائم وهِمَمٌ من الغمائم، سَعّروا عليكم نارَ الحرب بتلك الأيْنُقِ الجُرُب فكسروا أكاسِرَتَكُمْ وقَصَروا قياصرتكم.

والعربُ....، إن فاخرتَها فبغيرِ الطعامِ والشرابِ، ولكنْ بالطِعانِ والضِراب.... ومن الآياتِ ذِكْرُ صواحبِ الرايات، والمُباضعةُ عندَكم كالمُراضعة، ما

---

(١) راجع القرآن الكريم (٢٦ : ١٨، الشعراء): ألم نربّك (الجماعة المتكلمين) فينا وليدا...؟

(٢) التليد: القديم (اتّخذتك منذ زمن قديم؟).

(٣) أما أنطقتك (بالعربية) بعد العجمة (الكلام الأجنبي) أسلقتك (ليست في القاموس بمعنى موافق. لعلّ المقصود: جعلت لك سليقة الكلام بالعربية). اللكنة: صعوبة الكلام بالعربية.

(٤) الكاهل: ما بين الكتف والعنق (كناية عن بلوغ الرجولة والقوّة).

(٥) نثرت (خلعت) عصمتها (رباطها)... تخلّيت عن أهل اللغة العربية.

(٦) ناهض: قاوم. جاهضه: مانعه من بلوغ مراده، قاوم.

(٧) استدّ ساعده (أصبحت يده سديدة: تصيب الهدف).

(٨) رسم: صورة (حقيقة، في مقابل «اسم»). العجمية (لغة نصارى الأندلس).

(٩) الأقمر: الأبيض الشبيه بالقمر.

(١٠) الغرّة: مقدّم الرأس. الصفح (بالفتح): جانب الوجه. الطرّة: الشعر المشرف على الجبهة. الأوضاح (جمع لا مفرد له): كثرة الناس. أو جمع وضح (بفتح ففتح): الغرّة.

في الشَكْرِ [١] عِندَكمْ نُكْرٌ تبيحون وُلوجَ العُلوجِ على بدورِ الحُدوج [٢]. والزِنا عندكمْ سَنا، وفَجارِ بينَكم فَخارٌ [٣]: تقتادونَهنّ وتستأذِنونهن [٤]. فكيف أنكرتَ ما ذكرتَ وسَرِفْتَ [٥] ما عرفتَ وأنتَ على سَنَنِ تلك السُنَن [٦]؟....

وعلامَ جَثَثْتَ أصلَكَ من الأنباط وأزَحْتَ فَصْلَكَ عن الأقباط [٧]؟ ما كان ذنبُهم إليكَ وجِنايتُهم عليك حتّى أخرَجْتَهم من جُملة الأعاجم ونَفَيْتَهم عن جَنَبة أصحاب التراجم [٨].... هذا على اتّصالِ نَسَبِكَ برومانَ [٩]. فإن كنت من وَلَدِ كَنعانَ فما أبعدَ دارَك وأشْحَطَ مَزارَك وأطمَسَ آثارَك [١٠]. وأمّا الخَيلُ فسامِحِ العربَ بركوبها ووُثوبِها، وخَلِّ بينَهم وبينَ عُيوبِها [١١].... الخَيلُ حرثُ العرب وحَصادُها وعِدّتها وإرصادها [١٢]. ليستْ أُمّةٌ من (جميع) الأمم الأعجمية تُنازِعها ذلك ولا تُدافعها عنها: تُسمّيها بأسمائها وتَنْسِبها إلى آبائها وتَعْرِفها بأصواتها وتُؤثِرها [١٣] بأقواتها. وإنّك لَتَعْلَمُ

---

(١) المباضعة: الصلات الجنسية. المراضعة: أن يرضع الأطفال معاً (من مرضع واحدة). الشكر (بفتح فسكون): عضو المرأة. النكاح.

(٢) ولوج: دخول. العلج (الأجنبي). الحدج (بالكسر): مركب المرأة (في الهودج).

(٣) سنا: ضوء القمر (شيء ممدوح محبوب). فجار (بالبناء على الكسر، معرفة): الفجور (يقال للمرأة السيّئة: يا فجار).

(٤) تقتادونهن (بالأجرة). وتستأذنونهن (بالصداقة)؟؟

(٥) سرف (بفتح فكسر): اهمل، أغفل.

(٦) السنن (بفتح ففتح): نهج، منهج. السنّة (بالضمّ): الطريقة.

(٧) جثّ: قطع. الأنباط (فرع من الآراميّين في العراق والشام) والأقباط (فرع من الاعرابيّين) في مصر. والأنباط والأقباط ظلّوا نصارى، وإن كان أصلهم من الأعرابيّين (أشقاء العرب). لماذا تبرأت من الأنباط والأقباط وهم نصارى مثلك (في الأصل)؟

(٨) جنبة: جانب. ناحية. أصحاب التراجم (الترجمة: تاريخ حياة شخص)؟؟.

(٩) رومان: الرومان (نصارى أوروبّة يومذاك).

(١٠) كنعان: الأعرابيّون سكان الأراضي المنخفضه الساحلية (سمّاهم اليونان « فينيقّيين »). أشحط: أبعد. الآثار المطموسة (المحوّة المنسيّة).

(١١) العرب تعرف عيوب خيلها (ومحاسنها) أكثر منك.

(١٢) الحرث: الزرع. الحصاد: قطع الزرع (الخيل مبدأ عمل العرب ومنتهاه). العدّة: وسيلة العمل (السفر، الحرب الخ). الإرصاد (بكسر الهمز): اعداد الخيل للحرب أو للسباق.

(١٣) تؤثر: تفضّل.

أن خَيْلَهم أشهرُ من مُلوكِكُمْ أسماءً وألقاباً وأطهرُ من نسائكم أنساباً وأعقاباً[١]، قالوا: بناتُ أعوَج[٢]، وداحسٌ والغبراءُ، والنَعامة والشمّاء، وحافلٌ والشقراء، وأسماؤها كثيرةٌ وألقابُها شهيرة. ولَعَلّك أنْ تذكُرَ لنا من خَيْلِ آبائك الأوّلين وأفراس أسْلافك الأقدَمين فَرَساً مشهوراً وفارساً مذكوراً. فإن أتيتَ بذلك شَهِدْنا وآمَنّا....

وكيف اسْتَجَزْتَ، على فَضْلِكَ الباهرِ وشرفك - بزعْمك - الظاهر، أنْ تستعينَ على فخرك بغير الحقّ وتلجأ في تهوّرك إلى غير الصِدق؟ هل كان النُعمانُ الاّ مَلِكُ أملاكٍ وشمسُ أفلاك: أصلُه عريقٌ وفَرْعه وَريق[٣]. اتّخَذْتُموه جبّاراً ودون العرب حِجازاً[٤]. نزل الحِيرة وأنتم له جِيرة... قد كَفاكُمُ العربَ جمعاءَ من جِلّقَ إلى صنعاءَ[٥]: يذُبّ عنكم بمالِه واحتماله[٦] بعد عَقْدٍ مؤكّدٍ وعهدٍ منكم مُؤبّد. وأجارتِ العربُ مَنْ أجارَ وأغارتْ على من أغار. وحسُنَتْ حالُ الفُرْسِ بمكانه وعزّتْ بسُلطانه[٧]. فلمّا شَمَخَ على أعلاجكم وامتنع من زَواجكم[٨] - ولم تكُنِ العربُ تزوّجُ أحْفاها أو يكونَ من أكْفاها[٩]. فقال لباغي السَواد: عليك ببَقَرِ السَواد[١٠]. فاسْتَزَرْتُموه وغَرَرْتُموه[١١]. فكيف رأيتم غضبَ العرب لثارِها وطَلَبَها لأوْتارها؟ ألم

---

(١) أعقاب جمع عقب (بفتح فكسر): نسل.

(٢) أعوج، داحس، الغبراء الخ: أسماء خيل مشهورة.

(٣) عريق: قديم، كريم. وريق: كثير الورق، أخضر، جميل (كثير العدد).

(٤) جبّاراً: قوياً مستبداً بمن يحكم. حجاز: فاصل (جعلَ الفرس امارة المناذرة (أسرة النعمان) في العراق فاصلاً بين بدو شبه الجزيرة وبلاد فارس).

(٥) جلّق (في حوران في الشام)، وصنعاء؟ (عاصمة اليمن).

(٦) احتماله: طاقته، مقدرته (بأقصى ما يستطيع).

(٧) قَوِيَ الفرس (لمّا أمنوا من غارات البدو على حدودهم).

(٨) طلب كسرى من النعمان أن يرسل إليه زوجة عربية فلم يفعل النعمان ذلك.

(٩) أحفاها (أكرمها؟) أكفاها = أكفاؤها جمع كفؤ (ند، مماثل). كانت العرب لا توافق على زواج أحد بامرأة من نسائها (ولو كان كريم الأصل) إلا إذا كان مماثلاً لها.

(١٠) باغي (مستبد، ظالم = كسرى) السواد (سواد العراق: جنوب العراق). البقر: الغزلان (كناية عن النساء الجميلات). كان النعمان قد قال: «عين» (بكسر العين) الواسعة العينين من النساء، فنقلت الجملة إلى كسرى بمعنى البقرة أنثى الثور لا الغزال.

(١١) غرّ: خدع.

تَصْدِمْكم بذي قارٍ[1] صَدْمَةَ ذي احتقار، فأدركتْ فِيكُمْ رِضا الرحمنِ وأخذتْ بثأر النُعمان. وطَحْطَحتْ[2] بني ساسانَ وآلَ كاسانَ[3]. ولم تَقُمْ للفرس بعدَها قائمةٌ ولا رَعَت لها سائمةٌ[4]. ولم تَزَلِ (الفُرْسُ) في قواصفَ تتقاذفُ وعواصفَ تترادفُ[5] حتّى تَمّمَ اللهُ آفتَها واستأصلَ الإسلام شأفتَها[6].

وفَخَرْتَ بالرياضيّةِ والأرِيضية[7]. صدقتَ ونُبْتَ عنّي في الجواب.... والموسيقى وهو عِلْمُ فنونِ اللُحون بالعَجَمِ إليه حاجةٌ مُجْحِفة وضرورةٌ مُعجِفة[8]، لِعَجْزِ طِباعهم عنِ الأوزان وقِلّة اتّساعهم في (هذا) المَيْدان[9] لأنّ لُغاتِهم قليلة وقُواهم كليلة لا تستجيبُ الاّ بوسائطَ ولا تستقلّ الاّ ببسائطَ[10]. ليس عندهم شعرٌ موزون ولا كلامٌ مرصون[11]. ولُغةُ العرب واسعةُ العباراتِ ناصعة الإشارات، لها الشِعرُ الموزونُ والنظم المكنون والكلام المنثور والسجْع المأثور[12] والرَجَزَ المشطور والمُزْدَوِج المبتور والمُوشّح والأطْواق والقلائدُ في الأعناق والمخمّسات والمربّعات[13]... و(لهم) الأهْزاجُ والأرْمال وغير ذلك من الأعمال: كالركباني والأعْرابي، والنَصْبي والمَدَني، والثقيلُ

---

(1) ذو قار: معركة اجتمع فيها العرب على قتال الفرس (١٣ قبل الهجرة - ٦١٠ م) وانتصروا.

(2) طحطح: فرّق، أهلك، شتّت.

(3) آل ساسان وآل كاسان (الفرس). كاسان (ليست في القاموس).

(4) السائمة: البهيمة ترعى في الفلاء.

(5) قواصف (رعود) تتقاذف (يقذف بعضها بعضاً: تقع في كلّ جانب). تترادف: تتتابع.

(6) استأصل شأفتها (أزالها من أصلها).

(7) الأريضية... (؟)

(8) مجحف: شديد الضرر. ضرورة (فقر) معجف (يجعل الإنسان هزيلاً ناحلاً).

(9) في هذا الميدان (الغناء).

(10) كليلة: ضعيفة. تستقلّ ببسائط: لا تستطيع إلاّ الأمور البسيطة (السهلة، الهيّنة).

(11) مرصون: كامل محكم. في هذا المقطع ينظر عبد المنعم القرويّ إلى اللغة الأعجمية (لغة نصارى الأندلس التي كانت لا تزال في ذلك الحين لهجة قاصرة متقهقرة من اللغة اللاتينية).

(12) المأثور: المرويّ. المكنون: المستور، المخبأ (لقيمته).

(13) الرجز المشطور: الذي يتألف من أشطر متوالية كلّها على رويّ واحد. المزدوج الخ: أنواع من الأوزان والقوافي. القلادة: العقد (كناية عن جودة القصائد العربية التي هي كالعقود التي توضع في الأعناق).

الثاني، والماخوري والسُرَيْجي[١] .... وَهِيَ كثيرةٌ نُسِيَ معَها الارغن والسلياق والصَنج والكنكلة والقندورة والقِيثارة[٢] فلا يُعْرَفْنَ ولا يُوْلَفنَ[٣].

وما أظنّ مَعبَداً والغريضَ وأشعَبَ وطُوَيْساً وابن سُريجٍ وابن مُحْرِز والمَيْلاء وبُصْبُصاً[٤] قرأوا قطُّ موسيقى ولا سمعوا بفوطيقا[٥]. فاعْرِضْ، إنْ شئتَ، ألحانَهُمُ المطبوعة على أوْزانكم المصنوعة[٦] (ثمّ) أظْهِرْ (إن استطعتَ) غَلَطَهُم في التنغّم وخطأهم في الترنُّم.... وقد كان منهم مَنْ إذا غنّى ثَنَتِ الوُحوشُ أجيادَها وفارقتِ اعتيادَها[٧]، وعَطَفَتْ خُدودَها وتركت شُرودها، مُصْغِيَةً إليه مُقْبِلة عليه[٨]. فإذا قَطَعَ عاودتْ نِفارها وطلبتْ أوكارها. هذا فعلُ الأوابدِ والوحوش الشوارد[٩]، فما ظنُّك بالقلوب الرقيقة والفِطَن الرشيقة؟ ولقد ألّفَ الإسلاميّون في الأغاني وما يتّصلُ بها من المعاني ما إنْ نظرتَ بِمَيْزٍ وحكمت بعدلٍ وقفتَ على الفضل في هذا الفصل[١٠]؛ ولم تُحْوِجْكَ العصبيةُ والنَفْسُ الغَضَبية[١١] إلى شَهادةِ الزورِ والجَوْر المأزور[١٢]..

* ومن الذين قِيلَ إنّهم ردّوا على ابنِ غرسيه ابنُ عبّاسٍ (الذخيرة ٣: ٧٤٦ - ٧٥٧) ثم يَسْبِقُ الظَّنُّ إلى أنّه أبو جعفرِ بنُ عبّاسٍ كاتبُ زهيرٍ الفتى المُستبدِّ

---

(١) الهزج والرمل (هنا): من أنواع الغناء. الركباني..... السريجي: (نسبة لابن سريج: مغن مشهور توفي ٩٨ هـ) من طرائق الغناء وأساليبه.

(٢) الأرغن... الخ: آلات موسيقية فرنجية.

(٣) لا يعرفن (لا يعرفهنّ أحد في ذلك الحين) ولا يؤلفن (لا يستسيغها أحد إذا سمعها).

(٤) معبد الخ: مغنّون وملحنون عرب مشهورون (عزّة الميلاء وبصبص مغنّيتان).

(٥) فوطيقا أو بؤطيقا (فنّ الشعر) واسم كتاب لأرسطو في قواعد الشعر.

(٦) المطبوعة: الطبيعية (الجارية على السليقة). المصنوعة: المصطنعة التي فيها تعمّل.

(٧) ثنت (لفتت) أجيادها (أعناقها) لتستمع إلى الغناء.

(٨) الشرود: النفار، النفور. مصغية: مائلة (مستمعة).

(٩) الآبدة: الحيوان يقيم في أرضه (لا يقترب من مساكن الناس). الشاردة: الحيوان الذي ينفر إذا هو شعر بدنوّ إنسان.

(١٠) الفضل: الزيادة (في البراعة). الفصل (جانب من الغناء: الغناء العربي).

(١١) النفس الغضبية (في الفلسفة): العاطفية (التي بها يغضب الإنسان ويرضى).

(١٢) الجور: الظلم. المأزور: الذي يحمّل صاحبه وزرا (ذنبا).

بأمر المَرِيّة (راجع الذخيرة: ٣: ٢٢٧، ٢٢٩، ٢٣٤) مُنذُ سَنَة ٤١٩ (١٠٢٨م). وكذلك خدم أبو جعفر بنُ عبّاسٍ هذا عبدَ العزيزِ صاحبَ بلنسيةَ كاتباً (ووزيراً)، وكـان عبـد العزيز قـد تولّـى بَلَنْسِيـةَ من سَنَـةِ ٤١٢ إلى سنـة ٤٢٩ (١٠٢١ - ١٠٣٧ م) - راجع الذخيرة ٣: ٢٥٠. وفي فِهرِسِ القسمِ الأول من كتاب الذخيرة (ص ٩٥٤) اسم «أبو جعفرٍ أحمدُ بنُ عبّاسٍ الوزير» مُحالاً على «أحْمَدَ بنِ عبّاسٍ الوزير». ولكنّ الاسم المُحال عليهِ لا يظهَرُ - مَعَ الأسف - في هذا الفهرس.

وفي الإحاطةِ ترجمةٌ شِبهُ مفصّلةٍ لابي جعفرٍ أحمدَ بنِ عبّاس بنِ زكريا الأنصاريِّ الوزيرِ (١: ٢٦٧ - ٢٧٠). كان مولدُ ابنُ عبّاسٍ هذا سَنَة ٣٩٧ (١٠٠٦ - ١٠٠٧م) ثمّ دَخَلَ في خِدمة نفرٍ من ملوك الطوائف في المَرِيَّةِ وبَلَنْسِية، في الكِتابة والوَزارة، وجَمَعَ - على صِغَرِ سِنّه ثروةً طائلةً (قيل خمسمِائَة ألفِ مثقالٍ من الذهب) ومكتبةً عظيمة (قيل أربعمِائة ألف مجلّدٍ كامل. وأمّا المُجلّدات المخرومةُ التي تنقُصُ صَفَحاتٌ من أماكنَ مختلفة فيها فكانتْ أكثرُ من ذلك كثيراً). وكذلك كان ابنُ عبّاسٍ هذا أديباً شاعراً ناثراً حَسَنَ الكِتابة جميلَ الخطّ، كما كان فاحشَ البُخل فاحش الإعجاب بنفسِه ومعروفاً أيضاً بسوء الخَلْوة.

وفي سَنَة ٤١٩ (١٠٢٨م) توفّي خَيْرانُ صاحبُ مُرْسِيَةَ فصار الأمرُ إلى أخيه زُهيرٍ (البيان المغرب ٢: ١٦٦) وكان الذي قام بهذا الترتيب بين أهلِ الدولة أحمد (بن عبّاس) بنُ أبي زكريا الوزيرُ (أعمال الأعلام ٢١٦، راجع الفهرس، ص ٣٣٩ من أجل زيادة «ابن عبّاس»). في هذه الاثناءِ كان حبّوسٌ ملكُ غَرْناطةَ قد مات (سنة ٤٢٧) وقام بالأمرِ بعدَه ابنه باديسُ. (البيان المغرب ٢: ١٩١). ثمّ وقعتِ الحربُ بين زُهيرٍ وباديسَ (البيان المغرب ٢: ١٦٧)، وكان أبو جعفرٍ أحمدُ بنُ عبّاسٍ هو الذي حَضّ زُهيراً على هذه المُغامرة (البيان المغرب ٢: ١٧٠، ١٧١، ٢٩٣)، فالتقى الجيشانِ في قرية يقال لها ألْفونْتْ على نحو أربعةِ أميالٍ من غَرْناطة (البيان المغرب ٢: ٢٩٣) فانهزَمَ زهيرٌ ثمّ قُتِلَ، في آخِرِ يومٍ من شوّالٍ من سَنَة ٤٢٩ (البيان المغرب ٢: ٢٩٣). وفي هذه المَعْركة وَقَعَ ابن عبّاس في الأسرِ وسِيقَ إلى باديسَ في غَرْناطة، فسَجَنَه باديسُ مدّةً ثمّ قتله في سَنَةِ تسعٍ وعشرين (البيان المغرب ٣: ١٩١) وأربعمائَةٍ.

وفي البيان المغرب ما يمكن أن يدلّ على مقتل زُهيرٍ وأحمدَ بن عباس في يومٍ واحد (راجع ٣: ١٧١ ، ١٧٢ السطر ١٠). وفي الإحاطة (١: ٢٧٠) أن مقتلَ أحمدَ بنِ عبّاسٍ كان في الواحدِ والعِشرين من ذي الحِجّة من سنة سَبْعٍ وعِشرين (كذا) (وأربعمائة).

وفي « نفح الطيب » (١: ٤٢٠ - ٤٢٣) نقلاً عن « المطمح » حديثٌ جَرَى في أيام الحاجبِ المنصورِ بنِ أبي عامرٍ (ت ٣٩٢) يتناول جعفرَ المُصحفي (قُتِلَ ٣٧٢) يُبدي الوزيرُ أحمدُ بنُ عبّاسٍ فيه رأياً. وفي « نفح الطيب » أيضاً (٣: ٥٣٥ - ٥٣٦) كلامٌ على أشياءَ من ترجمةِ « الوزيرِ الكاتبِ أبي جعفرٍ أحمدَ بنِ عبّاسٍ وزيرِ زُهيرٍ الصَقْلَبيّ » وعلى أشياءَ من عناصرِ شخصيّته وخصائصه الأدبية. وكذلك نَجِدُ في « نفح الطيب » (٣: ٦١٠ - ٦١١) ذِكْرَ مجلسٍ يجتمع فيه أبو عامرٍ بن شُهيد (٣٨٢ - ٤٢٦ هـ) وابن بُرْدٍ الأكبر (تُوُفِّيَ سنة ٤١٨) والأصغرُ (توفّي سَنَة ٤٤٠ هـ). وحضر هذا المجلس الوزيرُ أحمدُ بنُ عبّاس.

وليس في نفح الطيب ولا في الإحاطة ولا في أعمال الأعلامِ ذِكْرٌ لردٍ للوزيرِ أبي جعفرٍ أحمدَ بنِ عبّاسٍ على ابنِ غرسيه. وليس من المعقول أن يكونَ للوزيرِ ابنِ عبّاسٍ هذا (ت ٤٢٩) ردٌّ على مقالٍ تُوُفِّيَ صاحبه بعدَ سَنَة ٤٧٧ بمدّة.

ويُصيبُ إحسانُ عبّاسٍ (الذخيرة ٣: ٧٥٥ ، الحاشية) في التساؤلِ عمّا إذا كان هنالك شخصانِ بهذه الكُنية « أبي جعفرٍ ».

انّ الذي يبدو مِنَ الاستعراض المُفصّلِ الذي سَبَقَ يُجيزُ أن يكونَ هنالك أشخاصٌ تَتّفِقُ كناهم وأسماؤهم وألْقابُهم (في الكتابة أو الوَزارة). وجميعُ القرائنِ تدلّ على أن الوزيرَ أبا جعفرٍ أحمدَ بنَ عبّاسٍ المقتولَ سَنَةَ ٤٢٩ يصعُبُ أن يكون صاحبَ الردِّ على ابنِ غرسيه المُتوفّى بعدَ سنة ٤٧٧.

★ وفيما يلي مختاراتٌ من الردّ الذي صنعه ابنُ عبّاسٍ - كائناً مَنْ كان ابن عبّاس هذا - اعتماداً على رواية ابن بسّامٍ الشَنْتريني في هذا الشأن (الذخيرة ٣: ٧٤٦ - ٧٥٤).

هذا الردُّ أدنى مرتبةً من الردّين الآخَرَيْن: لا يمتازُ بجديدٍ ولا يدلّ على براعةٍ ثقافية خاصّة. وهو يدورُ في الأكثرِ على الجِدالِ اللُّغويّ والشواهدِ الأدبية وعلى كثيرٍ من الإشاراتِ التاريخية والعِلمية (الفَلَكية مثلاً) والتي تَرْجعُ إلى الخصائص اللغوية.

قال ابنُ عبّاس:

عليكَ السِّلامُ لا السَّلامُ - تحيّةَ آلك لا هديّةَ آلك[١] - يا ذا الوَسَنِ لا اللَّسَن، واللَكَن لا الركن[٢]، وابنَ المَراغة لا البلاغة المُزْري[٣] بولاء مُواليهِ، المُغري بهاجَرَ وقد نَسِيَ أرِقّاءَ مَواليه[٤].... أما هالَكَ ما أضْناك وأمالك عن اللَّهَجِ بآلِ ذي حسّانِ وحَلَلَةِ الماء من غسّانَ[٥]؟ أوَ ما أجَرَّ منك اللسانَ ما في عُنُقك من المَنّ والإحسان[٦]؟ على أنّك اسْتَغْنَيْتَ بنُعماك حين أبْقَيْتَ فأقْطَعْتَهُمْ مُلْكَ البلاد والحَسَب التِلاد[٧] ومواردَ الشرف والأعداد، السامين على الأنْداد النامِين بالآباء والأجداد[٨] من عَدَانِ عادٍ وعادِ شدّادٍ[٩]... (والعرب هم) ذَوُو الفِطَن والهِمم والآراء والمَجْد العَمَم[١٠] والعلمِ بالأفلاك والرَصْد في الأحْلاك[١١]....أخذوا على البدرِ ثنايا سَفَرهِ

---

(١) السلام (بالكسر) جمع سلمة (بفتح فكسر): الحجر. الآل: الأهل. والآلك: (الأولى:) مرسل الرسالة. آلك (الثانية): أهلك. والمعنى المقصود غامض.

(٢) الوسن: النعاس. اللسن: الفصاحة. حسن الحديث. اللكن: صعوبة الكلام.

(٣) المراغة: الأتان، الحمارة. المزري العائب (المتكلّم في المعايب).

(٤) الولاء: القرابة، المحبّة. الموالي (بالضمّ): التابع، المقتدي. المغري: المحرّض. هاجر: امرأة ابراهيم وأم اسماعيل (جدّة العرب). الموالي (بالفتح) جمع مولى: سيّد.

(٥) هالك: أفزعك. أضناك: ألزمك الفراش من الضنى (شدّة المرض). اللهج: تكرار الكلام (المثابرة عليه (في هجاء الآخرين؟؟)...

(٦) إنّ للعرب فضلاً كبيراً عليك، ولكنّك لم تذكر ذلك.

(٧) ويبدو أنّك قد استفدتّ من الانتساب اليهم فأبقيت (كانت فيك بقيّة من خير ومعرفة للجميل) فأشرت إلى اتّساع ملكهم وإلى حسبهم (أعمالهم الكريمة) التلاد (القديمة).

(٨) النامين (المرتفعين).

(٩) عدان: ساحل البحر وحافّة النهر (أهل الحضرة).

(١٠) العمم: العميم، العامّ الشامل.

(١١) الأفلاك: مدارات الكواكب (علم الفلك). الحلك: الظلام (الليل).

ونَفَضوا عن مكامن سَرَره[١] ، وقدّوا قُلامته من ظُفُره[٢] ، وأدْلَوُا الدَلْوَ بالرِشاء وخلَّوْا للحوت سَرَبَهُ حيث شاء[٣] ، وقلّدوا العَقْرَب إبْرَتَه والأسدَ زُبْرته وراشوا من الطائِر قَوادِمَه وقصّوا من الواقعِ مقادمه[٤]....

حَلّوا من الارضِ سِطَتَها[٥] ، ومن قِلادة الدنيا واسِطَتَها ، وبينَ سَمْعِ الارض وبَصَرها[٦] ، وفي جَفْن كِسراها وقَيْصرها[٧] .... لَقاحٌ لا يدينون وبإلقاح الحروب يَدينون[٨] يَسْتَأْدونَكُمُ الإتاوةَ في كل وَهْدٍ ورُباوة[٩] .... ويومَ ذي قارٍ، وهو أشهرُ من بادٍ وقارٌ[١٠]: إذ أَسَروا أساوِرَتَك وكسروا أكاسِرَتَك وقَصَروا قياصِرَتك.

وعلى ذكر البِغاءِ فأنتم له بُغاء[١١]: نساؤكم عليه حوابسُ[١٢].... ولا تَرَوْنَ ذلك من

---

(١) ثنايا سفر البدر (حسبان عمره). نفضوا: كشفوا، بحثوا. السرار (بالكسر): الأيام الأخيرة من الشهر القمري (ويكون القمر فيها مستسرّاً: لا يظهر للناظر).

(٢) قدّوا: قطعوا. قلامته: طرفه (القمر حينا يكون هلالاً يشبه قلامة الظفر. من ظفره (تمامه: حينما يكون البدر تامًّا يشبه ظفر الإبهام (بالكسر): الأصبع الغليظة من اليد أو الرجل.

(٣) الدلو، الحوت، الطائر، الخ: من أبراج السماء (مجاميع من النجوم حول مدار الشمس والقمر في علم الفلك القديم). الرِّشاء: الحبل الذي يستقى به من البئر.

(٤) زبرة الأسد: الشعر المتجمع حول كاهلي الأسد. ثمّ (النسر) الطائر و (النسر) الواقع. راشوا: جعلوا له ريشاً. القادمة: الريشة الكبيرة في طرف الجناح. المقصود أنهم أدركوا صور هذه المجاميع من النجوم (في رأي العين) وسمَّوها (بفتح الميم المشدّدة) أسماءها.

(٥) السطة: الوسط (بفتح ففتح).

(٦) بين سمع الأرض وبصرها (ظاهرة، واضحة).

(٧) في جفنه (في مكان مزعج له).

(٨) اللقاح: الذي فيه مناعة (إذا ألقحت الناقة رفضت الفحل بعد ذلك). والقوم اللقاح هم الذين ما دانوا (ما خضعوا) للملوك في الجاهلية، ولا أصابهم سبي. يدينون بالقاح الحرب (يعتقدون بصواب إثارة الحروب).

(٩) يستأدونكم... الخ: كانت قبائل من العرب في الجاهلية يحمون قوافل الفرس التجارية إذا مرّت في مناطقهم ويأخذون على ذلك أتاوة (خوّة، ضريبة). الوهد (الأرض المنخفضة) والرباوة: الرابية، التلّة.

(١٠) ذوقار (راجع، ابن الأثير ١ : ٤٨٢). البادي: الساكن في البادية (المتنقّل). القارّ (بتشديد الراء): المستقرّ (الساكن في الحضر).

(١١) البغاء (بالكسر) النكاح غير المشروع. بغاء : طالبون.

(١٢) حوابس: محبوسات عليه (لا يفعلن غيره).

النُكْر. (أمّا) نساؤنا (فهن) للطَرْفِ قواصرُ وعلى بني العَمِّ قواصرُ[١] لم يُحْتَضَنّ بَغيّةً ولا حُصِّنَّ قطُّ لِغيّة ولا إقرافٍ[٢]، بل عن أشرافٍ فأشراف....

فخَلٌ عن العَدَنية واليَزَنيّة لا الرَسَبِيّة[٣]، فنَفاستهم نفسانيةٌ وسياستهم إنسانية.

فقد أعْذَرْنا وما عَذَرْنا، و(لكن) نَذَرْنا وما أنْظَرَنا[٤]. فالعصا للعَبد إن عصى، ومِثْلُكَ من بني سَهوانَ لا يُوصى[٥]. ولا يُقْبَلُ - ولا كرامةَ - ما رأيتَ في سَيّدِ المُرسلين من الكرامة[٦].

٤ - ★★ الذخيرة ٣: ٧٠٥ وما بعد؛ المغرب ٢: ٤٠٦ - ٤٠٧.

ولاّدة المروانيّة

١ - هي ولاّدةُ بنتُ الخليفةِ المُستكفي باللهِ، وهُوَ محمّدُ بنُ عبدِ الرحمن بنِ عُبيدِ الله ابن (الخليفةِ عبدِ الرحمن) الناصرِ (نفح الطيب ١: ٣٠١). وكانتْ أمُّها أمَةً (جارية) إسبانية (نصرانية) اسمُها سَكْرى. وقد وَرِثَتْ ولاّدةُ من أُمّها بَشَرَتَها البيضاءَ وشعرَها الأصهبَ (المائلَ إلى الحُمرة وعَيْنَيْها الزرقاوَيْنِ وجمالَ قَوامها، كما وَرِثَتْ من أَبَوَيْها كلَيْهما مَيْلَها إلى المَرَح والتَفَلُّتَ من قُيود المجتمع والجُرأةَ على الفساد.

ولمّا خُلعَ المستكفي ثمّ قُتل (٤١٦ هـ) بَرَزَتْ ولاّدةُ للحياة العامّة - وهي بعدُ في نحو الخامسةَ عَشْرةَ من العُمُر أو فوقَ ذلك قليلاً - وانْفَلَتَتْ من قيودها ثمّ استطاعت،

---

(١) قاصرات الطرف: حييّات (لا يرفعن أبصارهنّ إلى ما لا يليق بهنّ). على بني العمّ قواصر: لا يتزوجن إلا في بني عمّهنّ (لأنهم أكفاؤهنّ).

(٢) بغيّة؟؟ غيّة: زنا. بغيّة: غاية، مطلب. (لغواية، لضلال؟؟). اقراف: ذكر بالسوء. ولكنّ حصّنّ (حين بضمّ فكسر) عن أشراف فأشراف (ليتزوجهنّ (هنّ ونسلهنّ) أشراف من الرجال.

(٣) اترك أنت الكلام في العدنية (عرب الشمال؟؟) واليزنية (عرب الجنوب) لا الرسبية (؟).

(٤) أعذرنا القوم: جعلناهم يشرفون على الهلاك (أهلكناهم)، انتقمنا. نذرنا: أوجبنا (على أنفسنا قتالهم). انظرنا: أمهلنا.

(٥) السهوان: الساهي (الناسي، الغافل): من بني سهوان لا يوصى (إذا أوصيته بعمل شيء نسي، فلا فائدة من توصيته بشيء).

(٦) من أجل ذلك لا يقبل منه مديح في محمّد رسول الله.

بما كان لها من الجمالِ والجاه والمال، أن تجعلَ من بيتها مُنتدىً لرجالِ الأدبِ والجاه والسياسة.

في هذه الحِقبة نشأتِ الصلةُ بين ولاّدةَ وابنِ زيدون (راجع ترجمة ابن زيدون، ت ٤٦٣ هـ). غيرَ أن حبَّ ولاّدةَ لابنِ زيدونٍ لم يدُمْ طويلاً، بينما هُيامُ ابنِ زيدونٍ بولاّدةَ قد بَقِيَ على شيءٍ من العُنْفِ إلى آخرِ حياةِ ابنِ زيدونٍ. والذي يبدو أنّ ولاّدةَ قد أظهرَت الميلَ إلى أبي عامرٍ أحمدَ بنِ عبدوسٍ، في أوّلِ الأمر، إغاظةً لابن زيدون، كما كان ابنُ زيدون قد أظهرَ الميلَ إلى جاريتها السوداءِ إغاظةً لها فيما قيل. ولكنْ لمّا أجمعتْ ولاّدةُ أمْرَها على أن تقطعَ صِلَتَها بابنِ زيدونٍ قطعتْ صِلَتَها بالمجتمع وبالسياسة أيضاً ثمّ اطمأنّتْ إلى العيش الهادىء في بيتِ ابنِ عبدوسٍ بقيّةَ عُمُرها. وعاشتْ ولاّدةُ عشرينَ سنةً بعدَ ابن زيدونٍ ثمّ ماتت - وقد تقدّمتْ بها السِنُّ وبابنِ عبدوسٍ كثيراً - في ثاني صفر من سَنَةِ ٤٨٤ (١٠٩١/٣/٢٦ م) في الأغلب.

٢ - كانت ولاّدةُ بنتُ المستكفي أديبةً شهيرةً (نفح ١ : ٤٣٧) ومن أشهرِ شواعرِ الأندلس (نفح ٤ : ٢٠٥) وإلَيها كتبَ ابنُ زيدونٍ بقصيدته النونية المشهورة (نفح ٣ : ٢٧٥): «أضحى التنائي بَديلاً من تدانينا». ولولاّدةَ أبياتٌ من الشعر يَغْلِبُ فيها جانبُ المعنى على جانب الرَوْنق. هذه الأبيات وُجدانية في الأكثر. ثمّ لها هِجاءٌ مُؤلم فاحشٌ سَفيه (راجع نفح الطيب ٣ : ٢٠٨ و ٤ : ٢٠٥ - ٢٠٦).

٣ - مختارات من شعرها

- جعلتْ ولاّدة لثوبها الرسميّ (الذي تظهَرُ به في المجتمعات) طِرازاً (شِعاراً) نسجته بالذهب: جعلت على كلّ جانب منه بيتاً من البيتين التاليين:

أنا - واللهِ - أصلُحُ للمعالي ... وأمشي مِشْيتي وأتِيهُ تيها[1]؛
وأُمْكِنِ عاشقي من صَحْنِ خدّي ... وأُعطي قُبلتي من يشتهيها.

- وكتبت إلى ابنِ زيدونٍ لمّا أُولِعَ بها بعدَ طول تمنّع:

---

(١) التيه (بفتح التاء أو كسرها): التكبّر، الفخر بالنفس على الأقران.

ترقّبْ إذا جَنّ الظلامُ زِيارتي، فإنّي رأيتُ الليلَ أكتَمَ للسرّ[١].
وبِي منك ما لو كان بالشمس لم تَلُحْ، وبالبدر لم يطلُعْ، وبالنَجْمِ لم يَسْرِ[٢].

– وكتبت إليه: (وقد اشتد شوقُها إليه):

ألا هل لنا من بعدِ هذا التفرُّقِ سبيلٌ فيشكو كلُّ صَبٍّ بما لَقِي[٣]؟
وقد كنتُ أوقاتَ التَّزاوُرِ في الشِتا أبيتُ على جَمْرٍ من الشوق مُحْرِق[٤].
فكيفَ وقد أمْسَيْتُ في حال قَطْعةٍ؟ لقد عجّل المقدور ما كُنتُ أتّقِي[٥].
تَمُرُّ الليالي لا أرى البَيْنَ ينقضي ولا الصبرَ من رِقِّ التشوّق مُعْتقي[٦].
سقى الله أرضاً قد غَدَتْ لكَ مَنْزِلاً بكل سَكوبٍ هاطِلِ الوَبْلِ مُغْدِقِ[٧]!

– ويبدو أن عينَ ابنِ زيدونٍ قدِ امتدّتْ إلى جاريةٍ سوداءَ لولاّدةَ، فكتبتْ ولاّدةُ إليه:

لو كنتَ تُنْصِفُ في الهوى ما بَيْنَنا لم تَهْوَ جاريتي ولم تتخيَّرِ[٨]،
وتركتَ غُصناً مُثْمِراً بجماله وجَنَحْتَ للغُصْنِ الذي لم يُثْمِرِ[٩].
ولقد علِمْتَ بأنّني بدرُ السما، لكن وَلِعْتَ لِشَقْوتي بالمُشْتري[١٠].

---

(١) جنّ الظلام (الأشياء): غطّاها وسترها (عن العيون).

(٢) لاح يلوح: ظهر، بدا للنظر. سرى يسري: سار ليلاً.

(٣) « يشكو » حقّها النصب. الباء في « بما » زائدة.

(٤) وقد كنت عند دنوّ وقت الزّيارة في الشتاء (البارد) أبيت: أقضي الليل (انتظر) على جمر (أشعر بحرّ شديد، مع أن الوقت شتاء).

(٥) فكيف، وأنت الآن قد قطعت زيارتك عنّي مرّة واحدة. اتّقى يتّقي: خاف.

(٦) البين: الفراق، البعاد.. معتقي: منقذي، مخلّصي.

(٧) تصف ولاّدة المطر بأنّه سكوب وهاطل (ساقط بكثرة وشدّة). الوبل: المطر الكثير. المغدق: المطر الذي يغطّي الأرض.

(٨) تتخيّر = تتخيّرها (تفضّلها عليّ).

(٩) تركتني وأنت تستطيع الوصول إليّ (لأني أنا أحبّك) وجنحت (ملت) إلى الغصن الذي لم يثمر (لا ينفعك لأنّها جاريتي وأنا أستطيع أن أحول بينك وبين الاتّصال بها).

(١٠) بدر السماء: كناية عن الجمال وعن الظهور والوضوح. المشتري كوكب يعسر اكتشافه لبعده إلاّ على العارفين بالفلك. وهو بعيد جدًّا. ثمّ هو كوكب نحس.

٤ - ** الذخيرة ١: ٤٢٩ - ٤٣٣؛ الصلة ٦٥٧؛ بغية الملتمس ٥٣١ - ٥٣٢ (رقم ١٥٩٥)؛ نفح الطيب ٤: ٢٠٥ - ٢١٢؛ المطرب ٧ - ١٠؛ نيكل، راجع ١٠٧، ١٠٨؛ الأعلام للزركلي ٩: ١٣٥ - ١٣٦ (١١٨:٨). راجع أيضاً ترجمة ابن زيدون (ت ٤٦٣ هـ) ومصادرها.

أبو عبيد البكريّ

١ - هو أبو عُبيدٍ عبدُ اللهِ بنُ عبدِ العزيز بن محمّدِ بنِ أيوبَ بنِ عمروٍ البكريُّ (نِسبةً إلى بكرِ بنِ وائلٍ) الأندلسيُّ من بيتِ شرفٍ وإمارة: كان آباؤه ولاةً على وَلْبَةَ وشَلطيشَ من قِبَلِ خلفاءِ قُرطبةَ. فلمّا ضعُفتِ الخلافةُ المروانية في قرطبةَ بالمنازعات وسقطتْ دولةُ العامريّين (٤٠٢ هـ) استبدَّ آلُ البكريّ بما كان تحتَ أيديهم. ثمّ إنّ المُعتضدَ بنَ عبّادٍ صاحبَ إشبيليةَ انتزعَ ولبةَ من أبي المُصْعَبِ عبدِ العزيز (والدِ أبي عُبيدٍ) بالحرب (٤٤٣ هـ) وأخذَ منه شلطيشَ بالشِراء. فانتقل عبدُ العزيزِ بأهلِهِ إلى قُرطبة التي كان يحكُمُها بنو جَهْوَرٍ.

وُلِدَ أبو عُبيدٍ البكريُّ في ولبةَ أو في شلطيش، في مطلعِ القرنِ الخامس (أوائلِ القرن الحادي عَشَرَ للميلاد). وتلقّى أبو عُبيدٍ البكريُّ أشياءَ من العلم على نفرٍ من العلماء منهم أبو مروانَ بنُ حيّانَ وأحمدُ بنُ عمرَ بنِ أنسٍ العُذريّ (ت ٤٧٨ هـ) وأبو بكرٍ محمّدُ بنُ هشامٍ المُصْحفيّ (ت ٤٨١ هـ) وأجازَ له أبو عُمَرَ بنُ عبدِ البَرِّ (ت ٤٦٣ هـ). وانتقل أبو عُبيدٍ بعدَ موت أبيه (سَنَةَ ٤٥٦) إلى المَرِيّة (وفيها لَقِيَ ابنَ أنسٍ العُذريَّ). وفي المَرِيَّةِ أيضاً دخل في خِدمة صاحبِها المعتصمِ بنِ صُمادحٍ (٤٤٤ - ٤٨٠ هـ). وكان أبو عُبيدٍ يَسْفِرُ للمعتصم: ذهب مرّةً في سِفارة له إلى إشبيليةَ إلى المُعتمد بنِ عبّادٍ، فاستمالَه المعتمد ابنُ عبّادٍ فَبَقِيَ في إشبيلية. ويبدو أن أبا عُبيدٍ قد تَقَلَّبَ بينَ البُلدان في الأندلس، ولكن يبدو أيضاً أنّه في أواخر حياته زَهِدَ في السياسة وفي المناصب وعادَ إلى قُرطبةَ لِيَقِفَ وقتَه كلَّه على العلم وحدَه.

ومَرِضَ في أواخرِ أيامهِ ثمّ تُوُفِّيَ في شوّالٍ من سَنَةَ ٤٨٧ (خريفِ ١٠٩٤ م)، في قُرطبةَ.

٢ - أبو عُبيدٍ البكريُّ مؤلّفٌ خِصْبُ الجُهودِ له كُتُبٌ مختلفةُ الموضوعاتِ في اللغة والدين والطبّ والنبات. غير أنّ شهرتَه إنّما هي في كتبه الجغرافية. ومعَ أنّه لم يرحَلْ من الأندلس، فإنّ كتبه الجغرافية جامعةٌ موثوقة حسنةُ التصنيفِ والترتيب. فمن كتبه «المسالكُ والممالك» (وقد ضاعَ إلاّ فصلاً منه عن المَغْرِبِ والأندلس وما جاورها). ثمّ له كتابُ «مُعجَمُ ما استعجَمَ» (وهو في أسماءِ المواضعِ في المَشْرق)، وله كتابٌ في الأمثال. وللبكريِّ أيضاً شعرٌ قليلٌ عليه مسحةٌ من حُبّ اللهو.

٣ - مختارات من آثاره

- من مقدّمة فصل المقال في شرح كتاب الأمثال:

... أمّا بعدُ، فإنّي تَصَفّحْتُ «كتابَ الأمثالِ» لأبي عُبيدٍ القاسمِ بنِ سَلاّمٍ[١] فرأيتُه قد أغفلَ تفسيرَ كثيرٍ من تلك الأمثالِ فجاء بها مُهْمَلَةً، وأعْرَضَ أيضاً عن ذكرِ كثيرٍ من أخبارِها فأوْرَدَها مُرْسَلَةً[٢]. فذكرتُ من تلك المعاني ما أشكل[٣]، وَوَصَلْتُ من تلك الأمثالِ بأخبارِها ما فَصَلَ. وبَيّنْتُ ما أهْمَلَ ونَبّهْتُ على ما ربّما أجْمَلَ[٤]، إلى أبيات كثيرةٍ غيرِ منسوبةٍ نَسَبْتُها وأمثالٍ جَمّةٍ غيرِ مذكورةٍ ذكَرْتُها، وألفاظٍ عِدّةٍ من الغريبِ فسّرتُها. وعلى اللهِ قَصْدُ السبيلِ، وهو حَسْبُنا ونِعْمَ الوكيلُ[٥]. وقد رَتّبْتُه على عِشرينَ باباً يَتَفَرّعُ منها أبوابٌ في مَحالِّها: في حِفْظِ اللسانِ ويتفرّع منه أبوابٌ في معناه - في معايب المَنْطِق... - في مكارِمِ الأخلاق - في الجود والجد - ...في المَعاش والأموال - في العلم والمعرفة - ... في الظلم - ... في البخل وصفاته - ...

- اسم جزيرة الأندلس (من «المسالك والممالك»):

يُذكَرُ أنّ اسمَها القديمَ إبارِيةُ من وادي أبْرُهْ[٦] ثمّ سمِّيَتْ بعد ذلك باطقةَ من

---

(١) أبو عبيد القاسم بن سلاّم الهرويّ (١٥٤ - ٢٢٣ هـ) له كتاب الأمثال السائرة.

(٢) مهملة ومرسلة (الملموح هنا): بلا تفسير ثمّ مقطوعة عن رواتها وما يتعلّق بها.

(٣) أشكل: كان مشكلاً (غير واضح).

(٤) أجمل: أوجز ولم يفصّل.

(٥) «وعلى الله قصد السبيل» (١٦ : ٩، سورة النحل): إنّ الله هو الذي يوجّهنا في الطريق المستقيم الصحيح. «حسبنا....» (٣ : ١٧٣، سورة آل عمران).

(٦) يبدأ في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة ويصبّ في الغرب (في المحيط الأطلسيّ).

وادي بيطي وهُوَ نهرُ قُرطُبةَ. ثمّ سُمّيت إشبانيةَ من اسم رجُلٍ مَلَكَها في القديم كان اسمَه إشبانُ. وقيل إنّما سُمّيت بالإشبان[١] لـمّا سكنوها في أوّلِ الزمان على حرمة[٢] النهر وما والاه. وقال قومٌ: إنّ اسمها إنّما هو في الحقيقة اشبارية، مُسمّاةً من أشبرشَ وهو الكوكب المعروف بالأحمر. وسمّيت بعد ذلك بالأندلس من أسماء الأندليش الذين سكنوها...

- جبال الأندلس (منه):

ومن الجبال المشهورة بالعِظَمِ في بلدِ الأندلس منها إلْبيرَةُ وهو جبل الثلج وهو متّصل بالبحر المحيط المتوسط[٣]، منتظمٌ بجبل ريّة ولاصق بالجزيرة[٤] مَعَ البحر. ويذكُرُ ساكنوه أنهم لا يزالون يَرَوْنَ الثلج نازلاً فيه شتاءً وصيفاً. وهذا الجبل يُرى من أكثرِ بلاد الأندلس، ويُرى من عِدْوةِ البحر ببلاد البربر[٥]. وفي هذا الجبل أصنافُ الفواكهِ العجيبة. وفي قُراه المتّصلةِ به يكونُ أفضلُ الحريرِ والكَتّان الذي يفضُل كِتّان الفيّوم.

ومنها جبال البُرْت، وهو الحاجز بين بلاد الإسلام وبلاد غاليش، ومُبتدأُه من البحر القِبلي المتوسّط المُجاور طُرطوشةَ ومنتهاهُ إلى البحر الغَربي بين الإشبونة[٦] وجِلّيقيّة.

ومنها الجبل الحاجز بين بلاد إفرنجة وبلاد الصقالبة.

- قال أبو عبيد البكري في الخمر:

خَليليَّ، إنّي قد طَرِبتُ إلى الكاسِ وتُقْتُ إلى شَمّ البَنَفْسجِ والآس،

---

(١) لعلّ هذا الاسم جاء من شابان أو شيشبان (سابان)، وهو شجر الصنوبر (أو شجر من فصيلة الصنوبر) الذي يكثر هناك.

(٢) وفي رواية «جرية» (بكسر الجيم: مجرى).

(٣) المقصود: البحر الأبيض المتوسّط الذي يحيط بشبه الجزيرة من الشرق وبعض الجنوب.

(٤) الجزيرة الخضراء (رأس في جنوب شبه جزيرة اسبانية).

(٥) من المغرب (من قارّة أفريقية).

(٦) لشبونة عاصمة البرتغال اليوم (على المحيط الأطلسي).

فقوما معي نلهو ونستمتعُ الغنا ونسرُقُ هذا اليومَ سِرًّا من الناس.
فليس علينا في التعلُّل ساعةً - وإن وَقَعَتْ في عُقْبِ شَعْبان - من باس.

- وقال يصف خطَّ ابن مُقْلَةَ (الخطاطِ العبّاسي المُجيد المشهور):

خَطُّ ابنِ مُقلةَ من أرْعاه مقلته ودّت جوارحُه لو أصبحت مُقلا [1].
فالدُرُّ يَصْفَرُّ لاستحسانهِ حَسَداً، والوَرْدُ يَحمَرُّ من إبداعهِ خَجَلا!

٤ - المسالك والممالك، الجزائر ١٩١١ م.
معجم ما استعجم (نشره وستنفلد)، غوتنجن (دويرليخ) ١٨٧٦ م؛ (حقّقه مصطفى السقّا)، القاهرة (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٩٤٥ - ١٩٥١ م.
- المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب (تحقيق دي سلان)، الجزائر ١٨٥٧ م؛ (نسخة بالتصوير)، المغرب (مطبعة الحكومة) وبغداد مطبعة المثنّى بلا تاريخ.
- جغرافية الأندلس وأوروبّة من كتاب المسالك والممالك (تحقيق عبد الرحمن علي الحجّيّ)، بيروت (دار الإرشاد) ١٩٦٨ م.
- فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي القاسم بن سلّام الهرويّ (حققه عبد المجيد عابدين واحسان عبّاس)، الخرطوم (جامعة الخرطوم) ١٩٥٨ م، ثمّ بيروت (دار الثقافة) ١٩٧١ م.
- سمط اللآلي في شرح الأمالي (للقالي)، القاهرة (لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٩٣٦ م.
- التنبيه على أبي علي (القالي) في أماليه، القاهرة (مطبعة دار الكتب) ١٩٢٦ م، ثم ١٩٥٤ م؛ بيروت (دار الكتاب العربي) بلا تاريخ.

** قلائد العقيان ٢١٨ - ٢١٩؛ الذخيرة ٢ : ٢٣٢ - ٢٣٨ الصلة ٢٧٧ - ٢٧٨؛ الخريدة (الأندلس) ٤ : ٥٠٤ - ٥٠٦؛ الخريدة (المغرب) ٢ : ٤٧٥ - ٤٧٦؛ الحلّة السيراء ٢ : ١٨٠ - ١٨٧؛ طبقات الأطبّاء ٢ : ٥٢؛ المغرب ١ : ٣٤٧ - ٣٤٨؛ بغية الوعاة ٢٨٥؛ نفح الطيب ١ : ٢٩٢، ٢ : ٦٦٥، ٣ : ١٨٤ - ١٨٥؛ دائرة المعارف الإسلامية ١ : ١٥٥ - ١٥٦؛ م م ل ع د ٢٧ : ٥٢٠؛ بروكلمن ١ : ٦٢٧ - ٦٢٨، الملحق ٨٧٥؛ نيكل ١٩٥؛ الأعلام للزركلي ٤ : ٢٣٣ (٩٨)؛ بالنثيا ٣٠٩ - ٣١١.

---

(١) تمنّى أن تكون كلّ جارحة (عضو) في جسمه مقلة (عيناً) ينظر بها إلى ذلك الخط الجميل.

ابن العسّال

١ - هو أبو محمدٍ عبدُ اللهِ بنُ فَرَجِ بنِ غَزْلونَ بنِ خالدِ الأنصاري اليحصُبيّ، وُلِدَ في طُلَيطِلةَ في مطلعِ القرن الخامس. وتلقى ابنُ العسّال العلمَ على أبيه وعلى نَفَرٍ آخرينَ منهم ابنُ عبدِ البَرّ ومكّيُّ بنُ أبي طالبٍ وابنُ شِقِ الليلِ محمدُ بنُ إبراهيمَ الأنصاريُّ المحدّثُ الطَّلَبيريّ (ت ٤٥٥ هـ). ويبدو أن ابنَ العسّالِ كان قدِ انتقل إلى طَلَبيرةَ ليسمعَ مِنَ ابنِ شِقّ الليل، إذ أنّه تولّى فيها القضاءَ بعدَ أبي الوليدِ الوَقَشيّ.

ثمّ إنّ ابنَ العسّال عادَ إلى طُلَيطلة. ولكنْ لمّا استَوْلى الإسبانُ عليها، سَنَةَ ٤٧٨، انتقلَ منها إلى غَرْناطة. وكان ابنُ العسّال يُقرِىء الفِقهَ والتفسير. وفي غَرناطةَ كان يَعِظُ الناسَ في مَسْجِدِها الجامع. وفيها كانتْ وفاتُه في عاشِرِ رَمَضانَ من سَنَةِ ٤٨٧ (١٠٩٤/٩/٢٣ م).

٢ - أبو العسّالِ اليحصُبيُّ فقيهٌ زاهدٌ غَلَبَ عليه حِفظُ الحديث والوعظ، وكانتْ له معرفة واسعة بالأدب والنحو وبالتفسير. وكان أديباً فصيحاً وشاعراً مطبوعاً، ولكنْ وَصَلَ إلينا نُتَفٌ من شعره فقط. وكان له تأليفٌ في الوعظ.

٣ - مختارات من شعره

- قال ابنُ العسّالِ اليحصُبيّ، بعدَ سقوط طُلَيطلةَ، يَرَى الخَطَرَ الداهمَ على الأندلس من الإسبان:

يا أهلَ أندَلُسٍ، حُثّوا مَطِيَّكُمُ، ... فما المُقام بها إلاّ من الغَلَطِ.
الثوبُ يَنْسِلُ من أطرافِه، وأرى ... ثوبَ الجزيرةِ منسولاً من الوَسَط
ونحن بين عَدُوٍّ لا يُفارقنا، ... كيفَ البقاءُ مَعَ الحيّاتِ في سَفَط[1].

- وله في التزهيد (نفح الطيب ٣: ٢٠٨ - ٢٢٨):

انظُرِ الدنيا فإنْ أبْـ ... ـصرتَها شيئاً يدومُ،
فاغْدُ منها في أمانٍ ... إنْ يُساعِدْكَ النَعيم.

---

(١) السفط: وعاء (في الأصل، يوضع فيه الطيب).

وإذا أبْصرتَها منـ ـك على كُرْهٍ تَهيم،
فـاسْلُ عنها واطّرِحْها وارتحلْ حيثُ تُقيم.

- وقال أيضاً:

أعندكُمُ علمٌ بأنّي مُتَيَّمٌ؟ وإلاّ فما بالُ المدامع تَسْجُمُ[1]؟
وما بالُ عيني لا تغمّضُ ساعةً كأنِّيَ في رَعْيِ الدراري مُنَجِّمُ[2].

٤ - ** الصلة ٢٧٦؛ المغرب ٢: ٢١؛ بغية الوعاة ٢٨٦؛ نفح الطيب ٣: ٢٠٨، ٢٢٨، ٤: ١٣٥؛ نيكل ٣١٣؛ مختارات نيكل ١٤٨ (وفيه أبو العسّال)، ١٩٩.

أبو الحسن الحصري الضرير القيرواني

١ - هو أبو الحسنِ عليُّ بنُ عبدِ الغَنيِّ الفِهْريُّ القَيْرَوانيُّ الضَريرُ الحُصْرِيُّ، نِسْبةً إلى صِناعة الحصر، وُلِدَ في القَيْروانِ سَنَةَ ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م) في الأغلب. وقد تُوُفِّيَتْ أمّهُ وَهُوَ صغيرٌ لم يُجاوِزْ دَوْرَ الطُفولةِ بعدُ، ثمّ أُضَرَّ (عَمِيَ). ويبدو أنّه كان قد جاوَزَ الخامسة والعِشْرين وقال الشِعْر حينما تُوُفِّيَ أبوهُ قُبيل ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م).

تَلَقّى الحُصْريُّ الضَريرُ القِراءاتِ وعلومَ اللُغةِ والأدبِ على أساتذةٍ منهم أبو بكرٍ عَتيقُ بنُ أحمدَ بنِ إسحاقَ التميميُّ القصريّ (ت في شَعبانَ ٤٤٧ هـ) وأبو عليٍّ الحسنُ ابنُ حَسَنِ بنِ حَمدونِ الجَلّوليّ وأبو مُحمّدٍ عبدُ العزيزِ بنُ محمّدِ بنِ عبدِ الحميد.

وعاش الحُصْريُّ في القَيروانِ مُنْصَرِفاً إلى التدريسِ وإلى قَوْلِ الشِعر، ولكن يبدو أنّه لم يتّصل بالمُعِزِّ بنِ باديسَ (٤٠٦ - ٤٥٣ هـ). وبعدَ هُجومِ العرب (البَدْو) على القَيروانِ واستباحتِها، سَنَةَ ٤٤٩ هـ، انتقلَ الحُصْرِيُّ إلى سَبْتَةَ حيثُ اشتغلَ بالتدريس أيضاً ولَمَعَ نَجْمُه في عالم الشِعْر، فاستدعاه المُعتمدُ بنُ عبّادٍ، وكانَ لا يزَالُ أميراً، إلى إشبيليةَ. فلم يشأ الحُصْريُّ أن يَجوزَ إلى الأندلُسِ، خوفاً من رُكوبِ

---

(١) سجم: سال.
(٢) رعي: (مراقبة، رصد) الدراري (النجوم).

البحر، فكأن يُراسلُ المعتمدَ ويُرْسِلُ إليه غُلامَه لِيَحْمِلَ إليه من المعتمدِ الأموالَ والجوائز.

غير أنه عادَ فانتقلَ إلى الأندلُسِ، سَنَةَ ٤٦٢ هـ (١٠٧٠ م)، واتّصلَ ببَلاطِ المعتمد ولكن سَرعانَ ما غادره - لِسَبَبٍ لا نَعْرِفُه - وأخذَ يتطوّفُ بِبَلاطاتِ ملوكِ الطوائف الآخَرينَ: نَزَلَ في دانيةَ فَمَدَحَ أميرَها إقبالَ الدولة بنَ مُجاهدٍ العامريَّ، ولمّا استولى المقتدرُ بنُ هودٍ أميرُ سَرَقُسْطَةَ على دانيةَ وأَسَرَ إقبالَ الدولة، نحو سَنَةِ ٤٦٨ هـ (١٠٧٥ - ١٠٧٦ م) لم يَجِدِ الحُصْرِيُّ ضَيْراً في أن يمدَحَ المقتدرَ بنَ هودٍ (ت ٤٧٤ هـ). ويبدو أن الحُصْرِيَّ مَدَحَ بعدَ ذلك أبا عبدِ الرحمنِ محمّدَ بنَ طاهرٍ أميرَ مُرْسِيَةَ (٤٥١ - ٤٧١ هـ). وكذلك مدح المُعْتَصِمَ بنَ صُمادحٍ (ت ٤٨٠ هـ) أميرَ المَرِيّةِ. ولعلّه بَقِيَ في المريّةِ مُتّصلاً بأحمدَ بنِ المعتصمِ.

في هذهِ الأثناء، أو بعدَ ذلك بقليلٍ، نَجِدُ الحُصْرِيَّ في مالَقَةَ يمدَحُ القاضيَ أبا المُطَرِّفِ الشَّعْبِيَّ ثمّ يمدَحُ خَلَفَه في القضاء أبا مروانَ بنَ حَسّونٍ (ت ٥٠٥ هـ).

ثم اضطربتْ أحوالُ الأندلس اضطراباً شديداً، لأنّ الأمورَ كانت قد فَسَدَتْ بينَ ملوكِ الطوائف وبينَ سُلطانِ المُرابطين يوسفَ بنِ تاشُفِينَ وبدأ المرابطون يَسْتَوْلونَ على دُويلاتِ ملوكِ الطوائف. وعاد الحُصْرِيُّ من الأندلُسِ إلى طَنْجَة، سَنَةَ ٤٨٣ هـ ومكث فيها إلى أن تُوُفِّيَ سَنَةَ ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م).

٢ - أبو الحسنِ الحُصْرِيُّ الضريرُ أديبٌ مُتَرَسِّلٌ وشاعر. على أنّ شُهْرتَه إنّما هي في شِعره. وَهُوَ سَهْلُ الشعرِ سريعُ النظم صاحبُ بديهةٍ ذو مَعانٍ قريبةٍ حِسانٍ تَسْهُلُ سَيْرورتُها على الألْسُن، غزيرُ المادّةِ اللُّغَوِيَّةِ صحيحُ الأُسلوبِ ولكنّ تراكيبَه تَضْعُفُ أحياناً. ثمّ هو متكلّفٌ في تَطَلُّب أوجهِ البلاغة (في نثره وشعره) يقلّد في ذلك نفرًا من المشارقة والمعرّيَّ (ت ٤٤٩ هـ) منهم خاصّةً في لُزومِ ما لا يَلْزَم على الأخصّ(الديوان ١٣٣):

يـــا أديبًـــا مَلَكْتَني ... فــي يَدَيْـــهِ المَكْرُمـــاتُ

ليـــتَ قومـــاً دأبُـهُـــمْ ... فِــيَّ وفيــكَ المكـرُ مـاتـوا.

وشِعْرُه كلُّه قصيدٌ (ليس له توشيحٌ أو رجَز) في قصائدَ ومقطّعاتٍ. ثمّ له تخميسٌ

ومُعَشَّراتٌ (مقاطعُ تتألّف كلّ واحدةٍ منها من عَشْرة أبياتٍ) هُوَ مُبْتَكِرُها، وقدِ التزم فيها أن تكون مبادئُها كقوافيها:

زخارفُ دُنْيانا الأنيقة أصبحتْ هشيماً كما رثّ الرداءُ المُطَرّزُ.
زمانَ الصِبا، للهِ درُّكَ، لم تَزَلْ مواعيدُ من نَهْوَى لنا فيك تُنْجَزُ[1].
زَعَمْتُمْ بأنّ الحبَّ فيه تذلّلٌ؛ صَدَقْتُمْ! وفيهِ للمِلاحِ تَعَزُّز.

للحُصْرِيِّ مديحٌ للتكسّب، وربّما أحسَنَ في مدح الذين يُحِبّهم. وله رثاء كثيرٌ، وخصوصاً في وطنهِ- بعد نَكْبةِ القَيروان- وفي ابنهِ عبدِ الغَنِيِّ، وهجاءٌ مُرّ لاذعٌ ونَسيبٌ قليلٌ فيه عُذوبة ورِقّة وبراعة. وله أيضاً شيء من الحِكمةِ والمواعظ والشَكْوى.

وآثار الحصري الضرير:

١ - رسائلُ إخوانيةٌ وخُطَبٌ ليس فيها براعةٌ سِوى تكلُّفِ أوجهِ البلاغة بجَعْلِ الخُطْبة عاطلةً (خالية من الإعجام: النقط على الأحرف) أو منقوطةً على جميعِ حروفها.

٢ - مجموعاتٌ مختلفةٌ من الشعر:

(أ) المُعَشّرات: مقطّعاتٌ في الغزل تتألّفُ كلٌّ واحدةٍ منها من عَشْرةِ أبياتٍ على جميعِ حروفِ الهجاء، أي مِائَتَيْنِ وتِسعينَ بيتاً (باعتبار «لا» حرفاً مُستقلاًّ). وكل مقطوعةٍ تبدأ أبياتُها وتنتهي بحَرْفٍ واحدٍ وليس هذا الكتاب للحصري صاحب «زهر الآداب»...

(ب) اقتراحُ القريح واجتراحُ الجريح: مجموعٌ من الشِعر في رثاء ابنهِ عبدِ الغنيٍّ، وقد عاشَ تِسْعَ سَنَوات وأربعة أشهُرٍ (نحو ٤٦٦ - ٤٧٥ هـ). وفي هذا الديوان قصائدُ على حروفِ الهِجاء منها تِسعٌ وعشرون مقطوعةً على نَمَطِ المُعَشّرات (ولكنّه جعل كلَّ مقطوعةٍ منها خَمْسَةَ عَشَرَ بيتاً).

---

(١) أنجز الوعد: وفى به (حقّقه) - ما زلنا قادرين على أن نتمتّع بما يعدنا به المحبون (ما زلنا في أول الشباب).

(جـ) مُسْتَحْسَن الأشعار: قصائد في مدح المعتمد بن عبّاد.

(د) متفرّقات مختلفة فيها القصيدة المشهورة: «يا ليل الصبّ متى غده؟».

٣ - مختارات من آثاره

- للحُصْريِّ الضريرِ قصيدةٌ طويلةٌ مطلعها: يا ليل الصب متى غده! قالها في مَدْحِ الأميرِ أبي عبدِ الرحمنِ محمّدِ بنِ طاهرٍ صاحبِ مُرْسِيَةَ (ت ٤٥٥ هـ). في ذلك الحين كان الحُصْريُّ يُدَرِّسُ في جامع مُرْسِيَةَ فوَشَى جماعةٌ به إلى الأمير وقالوا إنّه يَشْتِمُهُ في مجالسِه. فنظم الحُصريُّ هذه القصيدةَ ليدفَعَ التُهمة عن نفسِه أو ليتبرّأ منها. والقصيدةُ تِسعةٌ وتسعون بيتاً منها ثلاثةٌ وعِشرون في مَطْلعها في الغَزَل من هذه القصيدة:

يا ليلُ، الصبّ مَتى غَدُهُ	أقيامُ الساعةِ مَوْعِدُهُ[1]؟
رَقَدَ السُمّارُ فأرّقَه	أسفٌ للبين يُردّده[2].
فبكاه النَجْمُ ورَقّ له	مما يَرْعاه ويَرْصُدُه[3].
كَلِفٌ بغَزالٍ ذي هَيَفٍ	خَوْفُ الواشين يُشَرِّده[4].
نَصَبَتْ عَيْنايَ له شَرَكاً	في النَوْمِ فعَزّ تَصَيّده.
صَنَمٌ للفِتْنةِ مُنتصبٌ	أهواه ولا أتَعَبّده.
صاحٍ - والخَمْرُ جَنى فَمِهِ -	سكرانُ اللَحْظِ مُعرْبِدُه.
يَنْضو من مُقْلتِه سَيْفاً،	وكأنّ نُعاساً يُغْمِدُه[5].
فيُريقُ دَمَ العُشّاقِ به؛	والوَيْلُ لِمَنْ يَتَقَلّدُه.
كلا، لا ذَنْبَ لِمَنْ قَتَلَتْ	عيناهُ ولم تَقْتُلْ يده.
يا مَنْ جَحَدَتْ عَيناه دَمي،	وعلى خَدّيْهِ تَوَرُّده،

(١) الصّب: المحبّ. قيام الساعة: يوم القيامة.

(٢) السامر: الساهر بالليل يتحدّث إلى رفاقه. البين: البعاد، الهجر.

(٣) رعى الرجل النجم (راقب حركته). رصده: درس مواقعه (تبدّل مواقعه في السماء).

(٤) الكلف: الشديد الحبّ. الهيف: دقّة الخصر.

(٥) نضا الرجل السيف: شهره (أخرجه من بيته ليقاتل به).

خَدّاكَ قدِ اعْتَرفا بدَمي | فعَلامَ جُفونُك تَجْحَده؟
إنّي لأُعِيذُكَ من قَتْلي | وأظُنُّك لا تَتَعَمّدُه.
باللهِ، هَبِ المُشتاقَ كَرًى | فلَعلّ خيالَك يُسْعِدُهُ!
ما ضَرّكَ لو داوَيْتَ ضَنى | صَبٌّ يُدْنيكَ وتُبْعِده[1]؟
لم يُبْقِ هَواكَ له رَمَقاً، | فَلْيَبْكِ عليه عُوَّدُه[2]
وغداً يَقْضي أو بعدَ غدٍ؛ | هل من نَظَرٍ يَتَزوّدُهُ؟
الحبُّ أعَفُّ ذَويهِ أنا | -غَيْري بالباطل يُفسِده-
كالدهرِ أجَلُّ بَنيه أبو | عَبْدِ الرحمنِ مُحَمَّدُهُ.
فاليومَ هُوَ المَلِكُ الأعْلى | مَولَى مَنْ شاء وسَيّدُه؛
هَيْنٌ لَيْنٌ في عِزّته، | لكن في الحَرْبِ تَشَدُّدُهُ.
يَطْوي الأيّامَ ويَنْشُرُها، | ويُقيمُ الدهرَ ويُقْعِدُه.
تَرَكَ اللّذّاتِ، فهِمّتُهُ | عِلْمٌ يَرْويهِ ويُسْنِدُهُ[3]
وهُدًى في الخير يُرَغّبُه، | وتُقًى في المُلْك يُزَهّدُهُ.
مَنْ ذمّ الدهرَ وزارَك، يا | مَلِكَ الدُنيا، فَسَيَحْمَدُهُ.
إن ذَلّ فجيشُك يَنْصُرُه، | أو ضَلّ فرأيُك يُرْشِده؛
أو راحَ إلى أُمْنيَّته | ظَمْآنَ فحَوْضُك يُورِدُه.
أنتَ الدُنيا والدينُ لنا | وكريمُ العصرِ وأوْحَدُه.
لو أنّ الصَخْرَ سَقاه نَدَى | كَفَّيْكَ لأوْرَقَ جُلْمُدُه[4].
أتَراكَ غَضِبْتَ لِما زَعَموا | وطَمى من بَحرِكَ مُزْبِده[5]،
فبدا مِنْ سَيْفِك مُبْرِقُه، | وعلا من صَوْتِكَ مُرْعِدُه!

(١) الضنى: شدة المرض (مع النحول)..
(٢) الرمق: بقية الروح (في الجسم). العائد: الذي يزور المريض.
(٣) يرويه (عن العلماء) ويسنده (يذكر الراوين الذين قبله): علمه كثير وموثوق.
(٤) الندى: الكرم. الجلمد: الصخر القاسي.
(٥) طمى الماء في النهر أو البحر: ارتفع(كثر). المزبد: الهائج (حينا يضبح الزبد عائماً على الأمواج).

أنتَ المَولى، والعَبدُ أنا؛ فبأيٍّ وَعِيدِك تُوعِدُه؟

ما لي ذَنْبٌ فتُعاقِبَني؛ كَذِبَ الواشي تَبَّتْ يَدُه[1]!

ولوِ استَحْقَقْتُ مُعاقَبَةً لأَبى كَرَمٌ تَتَعَوَّدُه.

أهْدَيْتُ الشِعرَ على شَحَطٍ ونَداكَ قريبٌ مَوْلِدُه[2].

ما أجودَ شِعْري في خَبَبٍ! والشعر قليلٌ جَيِّده[3].

لولاك تَساوى بَهْرَجُه، في سوقِ الصَرْف، وعَسْجَدُه[4]؛

ولَضاعَ الشِعرُ لِذي أدبٍ أو يُنفِقُه مَنْ يَنْقُده[5]!

- وللحُصْريِّ الضريرِ رسالةٌ يهجو فيها أبا الحُسينِ بن الطراوة:

..... وزَعَمَ هذا الأهْوَجُ الأعْوَج أنّه لم يَعْرِفْ رَسمي ولا سَمِعَ باسمي؛ كأنّما وُلِدَ بالأمسِ أو بُعِثَ من الرَمْس أو عَمِيَ عن الشمس. لو عَلِمَ قَدْرَ نفسِه لم يَجْهَلِ العِلْمَ، ولو أرادَ السَلامة لألقى السِلْم.....

- ومن خطبةٍ له عاطلةٍ (غير مُعْجَمة):

الحمدُ لله مالكِ المُلكِ ولا أمَدَ، ومُمْسِكِ السماء ولا عَمَدَ؛[6] سَمَكَها وأطْلَعَ مُهْلَها، وَعلّم آدمَ الأسماء كلَّها[7]، .....لا أمرَ إلاَّ أحْكَمَهُ، ولا مُرادَ إلاَّ حَكّمه. لا إلَه إلاّ هُوَ إلَهٌ واحد، لا وَلَدَ له ولا والِد....

صلاحُ العادةِ أصلُ السعادة، والوُدّ مَعَ المَلَل أسْوأ المِلَل[8]

- وقال في موت المعتضد وخلافة ابنه المعتمد له:

---

(١) تبّت: انقطعت، هلكت.

(٢) الشحط: بعد الدار والمسكن.

(٣) الخبب بحر (وزن) من بحور الشعر يندر أن تنظم عليه القصائد الطوال.

(٤) البهرج: الباطل (قطعة العملة المغشوشة التي لا تقبل في السوق). العسجد: الذهب.

(٥) ينفقه (يشتري منه كثيراً حتّى يروج: يكثر عليه الطلب) من ينقده (من يعرف الجيّد منه من الرديء).

(٦) الأمد: المدّة. العمد جمع عمود.

(٧) سمكها: رفعها. المهل: أطلع الله مهل الأرض: أخرج منها المعادن. علّم آدم الأسماء كلّها (القرآن الكريم ٢ : ٣١ ، سورة البقرة) إنّ الله هو الذي علم الإنسان اللغة التي يتكلّم بها.

(٨) الملّة: الدين، الشريعة (العادة). والتاء المربوطة لا تعدّ هنا من ذوات النقط.

مـــات عبَّـــادٌ ولـــكـــن بقي الفرعُ الـكـريمْ .
فكـــأنَّ المَيْـــتَ حـــيٌّ غـــير أنَّ الضـــادَ مـيم[1] .

٤ - ★★ أبو الحسن الحصري القيرواني: عصره، حياته، رسائله، ديوان المتفرّقات الخ، تأليف محمّد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى، تونس (مكتبة المنار) ١٩٦٣م.

- معارضات قصيدة «يا ليل الصّب» (جمعها عيسى اسكندر المعلوف)، القاهرة (مطبعة الهلال) ١٩٢١ م؛ معارضات قصيدة الحصري (جمعها محيي الدين رضا)، القاهرة ١٣٣٨ هـ = ١٩١٩ م، الطبعة الثانية ١٣٤٢ هـ = ١٩٢٤ م؛ «يا ليل الصّب.... ومعارضاتها لكبار شعراء العربية»، الطبعة الرابعة، القاهرة (دار إحياء الكتب العربية) ١٩٥١ م.

جذوة المقتبس ٢٩٦؛ بغية الملتمس ٤١٢ - ٤١٣؛ الذخيرة ٤: ٢٤٥ - ٢٦٤؛ الصلة ٤١٠؛ معجم الأدباء ١٤: ٣٩ - ٤١؛ وفيات الأعيان ٣: ٣٣١ - ٣٣٤؛ الخريدة (الأندلس) ٤: ٥٠ - ٥١؛ نكت الهميان ٢١٣ - ٢١٤؛ ابن قنفذ ٢٥٩ - ٢٦٠؛ بغية الوعاة ٣٤١ - ٣٤٢؛ شذرات الذهب ٣: ٣٨٥ - ٣٨٨؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٦٤٠ - ٦٤١؛ بروكلمن ١: ٤٠٨، الملحق ١: ٤٧٩؛ مجمل تاريخ الأدب التونسّي ١٥٨؛ الأعلام للزركلي ٥: ١١٤ - ١١٥ (٤: ٣٠٠).

المعتمد بن عبّاد

١ - هو المُعْتَمِدُ على الله، الظافر المؤيد، أبو القاسم محمد بن عباد بن محمد بن اسماعيل بن عباد، ولد في ربيع الأول من سنة ٤٣٢ (كانون الأول ١٠٤٠) في مدينة باجة قرب إشبيلية. وتقع حياة المعتمد السياسية والأدبية في ثلاثة أدوار:

(أ) دور الشباب - حينما كان أميراً يتبع اللهو ويغشى مجالس الأنس غير مُلْقٍ بالاً إلى تكاليف الحياة. لما بلغ المعتمد الثالثة عشرة من عمره (٤٤٥ هـ=١٠٥٣ م) عينه والده والياً على شِلْب (في أقصى الجنوب الغربي من الأندلس) وبعث معه الشاعر أبا بكرِ بنَ عمّار نديماً ووزيراً. وكان ابن عمّار أسنّ من المعتمد بتسع سنوات. ومكث المعتمد في شلب خمس سنوات أو تزيد قليلاً ثم استدعاه والده إلى اشبيلية على أثَر ما

(١) عبّاد لقبه المعتضد (بالضاد قبل الدال) وابنه محمّد لقبه المعتمد (بالميم قبل الدال).

بلغه من انغماسه في الملاذّ واندفاعه مع ابن عمّار في شيء من المُجون. غير أن ابن عمار بقي وزيراً للمعتضد.

(ب) دور الرجولة- حينما بدأ والده يعهد إليه بقيادة الحملات ثم حينما أصبح ملك إشبيلية. في مطلع هذا الدور الْتَقَى المعتمد بالجارية التي تزوّجها: كان المعتمد يتنزه معَ ابن عمار (٤٥١ هـ = ١٠٥٩ م) على ضِفاف نهر الوادي الكبير، قرب مرج الفِضة، فأُخِذَ المعتمد بمنظر الماء المُتَمَوّج فقال:

صنـع الريـح عـلى المـاء زَرَدْ

وطلب من ابن عمار أن يُجيزه. فتوقف ابن عمار قليلاً. وكان على شاطىء النهر جوارٍ يَمْلأنَ الماء فقالت احداهن:

أيُّ دِرْعٍ لقتـــال لو جَمَـــدْ!

فأُعجِبَ المعتمدُ بذكاء تلك الجارية وبجمالها - وكان اسمُها اعتمادَ جاريةَ الرُمَيْك بن الحجّاج- فاشتراها من سيدها وتزوجها وهو لا يزال ولياً للعهد. ولم يرض المعتضد عن هذا الزواج في أول الأمر. ولكن لما وَلَدت الرُميكية للمعتمد بِكْرَه عباداً، بعث المعتمد بالطفل وأمه إلى أبيه المعتضد. ورأى المعتضد حفيده فامتلأ حنُوًّا وعاد إليه رضاه.

في نحو ذلك الزمن غضب المعتضد على ابن عمار فأخرجه من بلاطه. فتنقل ابن عمار في عدد من بلاطات ملوك الطوائف حتى استقر في بلاط المقتدر بن هود في سَرَقُسْطة.

وتوفي المعتضد في سنة ٤٦١ هـ (١٠٦٩ م) فخلفه ابنه المعتمد. وكان أول ما فعله المعتمد أن استدعى ابن عمار واستوزره. وأقام المعتمد قصوراً حول اشبيلية تزخر بالترف وتغرق في الجنات والأشجار والأزهار. واتفق أن دخل يوماً، (في نحو سنة ٤٧٤ هـ = ١٠٧٠ م) فرأى امرأته تنظر من نافذة القصر إلى شاطىء النهر. فسألها عما استأثر بانتباهها، فأشارت إلى جوارٍ كُنّ يملأن ماء من النهر وهن حافيات يَغُصْن في الطين وقالت إنها تذكرت أيامها الأولى يوم كانت تفعل مثلهن. فجاء المعتمد بماء

الورد وبالمسك والسكر ثم أمر بجبلها وجَعَلها في باحة القصر؛ فأخذت الرميكية وبناتها الصغيرات - فيما قيل - يَسِرْنَ حافيات في هذا المزيج المُتْرَف على أنه طين. ولكن يبدو أن أفكار الرميكية كانت ذاهبة في أبعد من النظر إلى الجواري الحافيات على شاطىء النهر، ذلك أن الشاعر ابن عمار كان قد أصبح ذا نفوذ عظيم على زوجها. فقالت لزوجها ذات يوم بعد ذلك: لم أرَ منك يوماً صالحاً. فقال لها: «ولا يوم الطين!»

(جـ) المعتمد في الأسر - وعادَ العربُ في الأندلسِ إلى النزاعِ فيما بينَهم، فلم يَجِدْ يوسفُ بنُ تاشفينَ بُدًّا من القضاء على ملوكِ الطوائف وضمٍّ بقايا الأندلسِ إلى دولتِه. وكان أنْ خَلَعَ يوسفُ بنُ تاشفينَ المعتمدَ بنَ عبّادٍ وحَمَلَهُ أسيراً إلى حصن أغماتَ، قُربَ مدينةِ مَرّاكُشَ، هو وأفرادَ أُسرته.

وكان للمعتمد ابنٌ اسمُه عبدُ الجبار كان قد تخفّى لما أُسِرَ أبوه فلم يَصِلِ المرابطون إليه. فلما خَرَجَ عبدُ الجبار من مَخْبأه، بُعيدَ سَنَةِ ٤٨٦ هـ (١٠٩٣ م) وثار في مدينة أرقُش على حُكم المرابطين غَضِبَ ابنُ تاشفينَ وقيدَ المعتمدَ في سِجنه. فكان ذلك مما زادَ في حُزن المعتمد وآلامِه. ثم إن عبد الجبار قُتِلَ بعدَ قليل. وتُوُفِّيتِ الرُمَيْكِيّة بعدَه بمدةٍ يسيرةٍ. ثم تُوُفِّيَ المعتمدُ في شَوّالٍ من سَنَةِ ٤٨٨ (تشرين ١٠٩٥).

٢ - كان المعتمدُ بنُ عبّادٍ من أُسرةٍ من الشعراء: أسلافهُ شعراءُ وأولاده - صِبياناً وبناتٍ - شُعراءُ، ولكنّه هو كان أشعرَهم قاطبةً، وأشعرَ ملُوك الأندلسِ على الإطلاق. ونَعِمَتْ مملكةُ إشبيليةَ بالثروةِ والتَرَفِ، وكان بَلاطُ المعتمدِ عُنوانَ ذَيْنِكَ الثروةِ والترف فجَمَعَ المعتمدُ في بَلاطه هذا من الشُعراء والعُلماء ما لم يكن قدِ اجتمعَ مثلُهُ في بَلاطٍ ما من قبلُ، إلاّ أنّ الشعرَ كان أغلبَ فيه على جَميعِ فنونِ الأدب. ولم يَسْتَوْزِرِ المعتمدُ وزيراً إلاّ أن يكونَ أديباً شاعراً، وقد كان اهتمامُه بالشعرِ فوق اهتمامه بإدارةِ مُلْكِه. وكذلك كان ناقداً للشعر عارفاً به وبرِجاله وبِقصائده.

وشعرُ المعتمدِ بنِ عبّادٍ صورةٌ لحياتِه، وهو من هذه الناحية قِسمانِ: قسمٌ قاله قبلَ أسْرِه (وهو شعرٌ مُتْرَفٌ أنيقٌ يَميلُ إلى التكلّف والصِناعة ويَدورُ حولَ المدح والحماسة والوصف والغَزَل والعِتاب والرثاء، ويبرُزُ بروزاً واضحاً في وَصْفِ مجالسِ

السرور ووصفِ المعارك) ثمّ قسمٌ قاله بعدَ أسرِه (وهو أصدقُ أشعاره عاطفةً وأكثرُه أثراً في النفس - ولا ريبَ، فقد كان يُعَبِّرُ في هذا الشعرِ عن حالهِ التي يَخْتَبِرُها في حاضرِه). قال أميليو غرسيه غومس (الشعر الأندلسي ١٠٧): «فالقصائدُ التي قالَها (المعتمدُ بن عبّادٍ) في مَنْفاهُ في أغماتَ وَصوّرَ فيها مراراتِ السجنِ وآلامَ النَفْيِ تُعَدُّ من أرْوَعِ ما لَدَيْنا من غُرَرِ الشِعر العالَميّ».

٣ - مختارات من شعره

- لمّا كان المعتمدُ والياً على شِلبَ (٤٤٠ - ٤٤٥ هـ) انغمسَ في اللهو انغماساً أغضبَ أباه المعتضدَ. أدرك المعتمدُ خطأه ومغبّة هذا الخطأِ على مستقبلهِ، فكتب إلى أبيهِ بهذه القصيدة يمدَحُه بها ويترضاه:

سَكِّنْ فؤادَكَ لا تذهَبْ بكَ الفِكَرُ! ... ماذا يُعيدُ عليك البَثُّ والحَذَرُ؟[1]
وازجُرْ جُفونَك لا تَرْضَ البُكاءَ لها، ... واصْبِرْ فقد كنتَ عند الخَطْبِ تصطبرُ[2].
فإنْ يَكُنْ قَدَرٌ قد عاقَ عن وَطَرٍ، ... فلا مَردَّ لما يأتي به القدرُ[3]؛
وإنْ تكُنْ خَيْبَةٌ في الدهرِ واحدةٌ، ... فكم غَزَوْتَ ومِنْ أشْياعِك الظفر[4]
مَنْ مِثْلُ قَوْمِكَ؟ مَنْ مثلُ الهُمامِ أبي ... عمرٍو أبيكَ له مجدٌ ومُفتَخَر؟
سَمَيْدَعٌ يَهَبُ الآلافَ مُبتدئاً ... ويستقلّ عطاياهُ ويعتذر[5].
لـه يـدٌ كـلُّ جبّـارٍ يُقَبِّلُها؛ ... لولا نداها لقُلنا إنّها الحجر[6]!
يا ضَيْغَماً يقتُلُ الفُرسانَ مُفترساً، ... لا تُوهِنَنّي فإنّي النابُ والظُفُرُ[7].

---

(١) البثّ: الحزن.

(٢) زجر: منع. الخطب: الأمر العظيم الصعب (المصيبة).

(٣) إذا كانت إرادة الله قد عاقت (أخّرت) إنساناً عن وطر له (غاية) فإنّه لا يستطيع أن يبدّل شيئاً من قضاء الله وقدره.

(٤) إذا كنتُ (يا والدي) قد خبت مرّة واحدة (في ما أمّلت فيّ أنا)، فكم من مرّة قد ظفرت بأعدائك في الغزوات.

(٥) السميدع: السيّد الشجاع الكريم.

(٦) نداها: كرمها (وفي البيت تورية: نداها: لينها أيضاً ملموحة من القرينة «الحجر»).

(٧) الضيغم: الأسد الواسع الشدق. أوهنه: أذهب قوّته وجعله ضعيفاً. فإنّي الناب والظفر (لك) سأدافع في المستقبل عنك وعن مجدك.

قد أخلفَتْني صُروفٌ أنتَ تعلَمُها، وغال مَوْرِدَ آمالي بها كَـــدَرُ[1].
فالنفسُ جازعةٌ، والعين دامعـــة، والصوت منخفضٌ والطَرْف منكسر[2].
لم يأتِ عبدُكَ ذنباً يستحقّ به عَتْباً، وها هُوَ قد ناداك يعتذر.
ما الذنبُ إلاّ على قومٍ ذَوِي دَغَلٍ وَفَى لهم عَدْلُكَ المألوفُ إذْ غدَروا[3]:
قومٌ نَصيحَتُهم غِشٌّ، وحبُّهُمُ بُغْضٌ، ونَفعُهُمُ - إن صرّفوا - ضَرَرُ[4].
يُمَيِّزُ البُغْضُ في الألفاظِ إنْ نَطَقوا، ويُعْرَفُ الحِقدُ في الألحاظ إن نظروا.
أَجِبْ نِداءَ أخي قلبٍ تَملّكَهُ أسىً، وذي مُقلةٍ أوْدى بها سَهَرُ[5].
لم أُوتَ مِنْ زَمَني شيئاً أَلَذُّ به: فلستُ أَعْرِفُ ما كأسٌ ولا وتر[6]،
ولا تَمَلّكَني دَلٌّ ولا خَفَرٌ، ولا سَبى خَلَدي غُنْجٌ ولا حَوَر[7].
رِضاكَ راحةُ نفسي - لا فُجِعْتُ به - فَهْوَ العَتادُ الذي للدهر أدَّخِرُ[8].
كم وقعةٍ لك في الأعداء واضحةٍ تفنى الليالي ولا يَفْنى بها الخَبَر
ما تَرْكِيَ الخَمْرَ عن زُهْدٍ وعن وَرَعٍ فلم يُفارِقْ، لَعَمْري، سِنّيَ الصِغَرُ[9].
وإنّما أنا ساعٍ في رِضاكَ، فإنْ أَخْفَقْتُ فيه فلا يُفْسَحْ لِيَ العُمُرُ[10]!

---

(١) إنّ أحوالاً لا أملكها قد كدّرت حياتي. الصرف (الحادث المؤلم) غال: قتل. المورد: مكان شرب الماء.
(٢) الطرف: العين.
(٣) الدغل: العيب والفساد (شرّ). عاملتهم بالعدل والإحسان فازدادوا شرًّا.
(٤) صرّف الرجل الأمر: دبّره. حتّى لو أرادوا أن ينفعوا لجاء من محاولتهم النفع ضرر (لأنّهم جهّال لا يفرّقون بين الخير والشر ولا بين النفع والضرر).
(٥) الأسى: الحزن. أودى: أهلك.
(٦) أوت - أُوْتى (مبني للمجهول): أعطى.. ما كنت أعرف سيّئات الكأس (الخمر) والوتر (الغناء = اللهو).
(٧) الدلّ: حالة من الوقار مع الاطمئنان (يوحى بها إلى الإنسان بثقته باعجاب الناس به أو بتأثيره فيهم). الخفر: اشتداد الحياء (وهو من صفات الجمال في النساء). سبى: أسر، ملك. الخلد: البال، النفس. الحور: اشتداد بياض العين واشتداد سوادها. الغنج: إتيان المرأة بأقوال وأفعال من الدلال تتحبّب بها إلى زوجها.
(٨) العتاد: العدّة، ما يهيّئه الإنسان ويستعدّ به للقاء المستقبل والعدوّ الخ. ادّخر: خبّأ (للمستقبل)، كنز.
(٩) كنت أشرب الخمر، وقد تركتها الآن. لم أتركها زهداً فيها (ميلاً عنها وكرهاً بها) ولا ورعاً (للتقوى) لأنّني لا أزال صغير السنّ، والزهد والورع يكونان عادة في أواخر العمر.
(١٠) تركتها إرضاء لك. إن أخفقت: خبت (لم ترض أنت عنّي). فلا يفسح لي العمر: لا طال عمري!

- وقال يُخاطبُ أبا بكرِ بنَ عمّارٍ ويُذَكِّرُه أيامَهُا في شِلْبَ:

أَلا حَيِّ أوطـاني بشِلْـبَ، أَبا بكرٍ، وسَلْهن: هـل عهدُ الوصال كما أدري[1]؟
وسلِّم عـلى قَصْرِ الشراجيبِ عن فتىً له أبـداً شوقٌ إلى ذلـك القصر[2].
منازلُ آسادٍ وبيضٍ نواعمٍ فناهيـكَ من غِيلٍ وناهيك من خِدر[3]
وكم ليلةٍ قد بِتُّ أَنْعَمُ جُنحَها بُمخصِبـة الأرداف مُجدِبة الخصر[4].
وبيـضٍ وسُمرٍ فاعــلاتٍ بُمهْجَتِي فِعالَ الصِفاحِ البيضِ والأَسَلِ السُمر[5].
وليــلٍ بسدِّ النهر لَهْواً قطعتُــه بذات سِوارٍ مثلِ منعطف النهر[6].
وباتــت تُسَقِّيــني الُـدامَ بلحظهـا ومِن كأسها حِيناً وحِيناً من الثَغر.
وتُطربــني أوتارُهــا، فكأنّـــني سَمِعتُ بأوتار الطُلى نغم البُتر[7]
نضَتْ بُرِدَها عن غُصن بانٍ منعَّمٍ نضيرٍ كما انشقّ الكِمامُ عن الزهر[8].

- وقال في الخمر (يصف تلألؤ الخمر بالبرق ويصف الساقية الجميلة بشمس الضحى):

ربعَـــتْ من الـــبرق وفي كفِّهـــا بـــرقٌ مـــن القهـــوة لَمّـــاعُ.
عجبـتُ منهـا وهي شمسُ الضُّحى كيــــفَ من الأنوارِ ترتــــاع.

- كان للمعتمد جارية يحبها اسمها سحْر، فوقعت بينها جَفْوة فتركت زيارته. واتفق أن مرض المعتمد فجاءت سحر تزوره فقال:

(١ و ٢) شلب في أقصى الجنوب الغربي من جزيرة الأندلس (في البرتغال اليوم). والشراجيب قصر في شلب.

(٣) آساد - أسود (أبطال، شجعان) وبيض: نساء جميلات. ناهيك: يكفيك. من غيْل ومن خدر (من بلد هو في الوقت نفسه مسكن للأسود ومسكن للنساء الجميلات).

(٤) جنح الليل: قطعة منه شديدة السواد. أنعم جنحها (في أثناء جنحها: في أثنائها). مخصبة: كبيرة، كثيفة. الردف (بالكسر) وسط البدن. مجدبة الخصر: نحيلة الخصر.

(٥) بيض وسمر (نساء جميلات). الصفاح البيض (السيوف) والأسل السمر (الرماح).

(٦) مثل منعطف النهر: في الجمال (؟).

(٧) أوتارها = أوتار عودها. أوتار الطلى: عروق الرقبة. البتر جمع أبتر (المقطوع الذنب، الخ)، وهو يقصد البواتر جمع باتر (السيف). صوت عودها ذكّره صوت السيوف التي كان يسمعها في المعارك التي خاضها!

(٨) نضى: خلع. البرد: ثوب من الحرير. البان: شجر أغصانه طويلة مستقيمة سمراء (يشبّه بها القوام الجميل). الكمامة: الكأس (الأوراق الخضر التي تغلّف الزهرة قبل تفتّحها).

سأسأل ربي أن يـــديم لي الشكوى ... وقد قرّبت من مَضْجَعي الرَشَأَ الأحْوى[1].
إذا علــةٌ كانــت لقربــك علــةً، ... تمنيت أن تبقى بجسمي وأن تَقْوى[2]،
شكوت وسِحْر قــد أغبَّت زيــارتي ... فجاءت بها النُعْمى التي سميت بلْوى[3].
فيــا علــتي، دومي فأنــت حبيبــة؛ ... ويــا رب، سمعاً من ندائي والشكوى[4].

– وقال يصف شمعة:

وشمعـــةٍ تنفي ظـــلامَ الدُّجـــى ... نَفْيَ يــدي العُــدْمَ عن النــاسِ[5]
ساهرتهـــا، والكـــأس يسعـــى بهـــا ... مَنْ ريقــه أشهــى من الكــاس.
ضياؤهـــــا لا شك من وجهـــــه، ... وحَــرُّهــا مــــن حــرِّ أنفاســـي!

– وقال في الغزل:

ثلاثـــةٌ منعتهـــا عن زيارتنـــا، ... خوف الرقيب وخوف الحاسد الحَنِق[6]:
ضوءُ الجبـــين ووسواس الحُلِيِّ ومـا ... تحوي معاطفهـا من عنــبرٍ عَبِقِ[7].
هَــبِ الجبــينَ بفضــل الكُمِّ تستره، ... والحَلْيَ تَنْزِعـه، مـا حيلةُ العَرَقِ[8]؟

– وقال وهو أسير مسجون في حصن أغمات، وقد حلّ عيد الفطر، يوم الخميس في أول شوّال من سنة ٤٨٥ (الرابع من تشرين الثاني ١٠٩٢)، قبل أن يقيد، يذكر ما هو فيه من الحبس والبــؤس ويتذكر ما كان فيه من قبل من النعيم:

في ما مضى كنتَ بالأعياد مسرورا ... فجاءك العيدُ في أغماتَ مأسورا[9].
ترى بناتِكَ في الأطمار جائعةً ... يغزِلْن للناس ما يَمْلكْنَ قطْميرا[10].
برزْنَ نحوك للتسليم خاشعةً ... أبصارُهنّ حَسيراتٍ مكاسيرا،

---

(١) الرشأ: الغزال الصغير. الأحوى: ذو الشفة السوداء.
(٢) إذا علة (مرض) كانت لقربك علة (سبباً).
(٣) أغبت: تركت. إن المرض الذي يسميه الناس بلوى (بلية، مصيبة) هو نعمة عندي لأنه كان سبباً في رضا محبوبي علي.
(٤) لندائي. في الاصل: من ندائي.
(٥) شمعة تبدد ظلام الليل مثل ما تقضي يدي (بالجود والعطاء) على الفقر من بين الناس.
(٦) الرقيب العذول الذي ينغّص على كل محبين اجتماعهما. الحنق، الغاضب المغتاظ.
(٧) الوسواس: الصوت الخفيف. العبق: الذي تضوع (تنتشر) رائحته.
(٨) لنفرض أنها غطت وجهها (فمنعت ضوءه) وخلعت حلاها (فبطل صوتها)، فكيف تستطيع أن تمنع انتشار الرائحة الطيبة منها؟
(٩) يقول الشاعر: كنت (بفتح التاء)... يخاطب نفسه (وهذا في البلاغة يسمى التجريد).
(١٠) قطمير: (في الأصل) الغشاء الرقيق الذي يغلف نواة التمر، شيء يسير جداً.

يطأن في الطين، والأقدامُ حافية، كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا[1]!
أفطرتَ في العيد لا عادت اساءته وكان فِطْرك للأكبادِ تَفْطيرا[2].
قد كان دهرُك إنْ تأمُرْهُ ممتثلاً؛ فردّك الدهرُ مَنْهيًّا ومأمورا[3].
من بات بعدك في مُلْكٍ يُسَرّ به فإنما بات بالأحلام مغرورا.

– لما حُمل المعتمد أسيراً إلى المغرب ألحف الشعراء عليه بطلب النوال، فقال متأففاً:

شُعراءُ طَنْجَةَ كلُّهم والمَغْرِبِ ذهبوا من الإغراب أبعدَ مذهب[4].
سألوا العسيرَ مِن الأسير، وإنّه بسُؤالهم لأحقُّ فاْعجبْ واْعجب[5]
لولا الحياءُ وعِزّةٌ لَخميَّةٌ طيُّ الحشا، ناغاهمُ في المطلب[6].

– وكان المرابطون قد هاجموا قصرَه فَنَشِبَتْ بينَه وبينَهم مُناوشةٌ تمكّن في أعقابها من النجاة. ولكنّ الأحداثَ توالَتْ وأدّتْ إلى انفضاضِ عددٍ كبيرٍ من أنصارِه عنه فتغلّبَ المرابطون عليه وخَلَعوه وأسروه. فقال في ذلك:

إنْ يَسْلُبِ القومُ العِدى مُلْكي، وتُسْلِمْني الجمُوعْ،
فالقلبُ بينَ ضلوعهِ: لم تُسْلِمِ القلبَ الضُلوع!
قد رُمْتُ يومَ نِزالِهِمْ ألاّ تُحصِّنَني الدُروع.
وبَرَزْتُ ليس سوى القَميص على الحشا شيءٌ دَفوعْ.
أجَلي تأخّرَ! لم يكُنْ بِهَواه ذُلّي والخُضوع.
ما سِرْتُ قطُّ إلى القتال وكان من أمَلي الرُجوع.
شِيَمُ الأُلى أنا مِنْهُمُ؛ والأصلُ تَتْبَعُه الفُروعْ.

وكان للمعتمدِ بن عبّادٍ بِضعةَ عَشَرَ ولداً منهم :سِراجُ الدولةِ أبو عُمَرَ عبّادٌ (قُتِلَ سَنَةَ ٤٦٨ هـ، وعُمُره سِتَّ عَشْرَةَ سَنَةً) والمأمونُ أبو نصرٍ الفَتْحُ (هَلَكَ في أوائل ٤٨٤

---

(١) راجع قصة يوم الطين. فوق، ص ٧١٤.
(٢) تفطير: تقطيع. كان تفطيراً للأكباد: يدعو إلى الحزن الشديد مع الإشفاق.
(٣) كنت من قبل آمر الدهر (جميع الناس) فأطاع، فأصبحت اليوم وعلي ناه وآمر (سجان).
(٤) الإغراب: السلوك المستغرب.
(٥) العسير (المال الكثير أو القليل الذي لا يملكه لأنه الآن أسير). فاعجب (من حالي كيف كانت وكيف أصبحت) ثم اعجب من حالهم كيف يسألونني وهم يعرفون حالي).
(٦) لخمية نسبة إلى لخم (بني المنذر بن ماء السماء في الحيرة، وإليهم يردّ آل عبّاد نسبهم).

هـ) والمُعْتَدُّ أبو بكرٍ عبدُ الله وزينُ الدولةِ أبو هاشمٍ المُعَلّى وشَرَفُ الدولة أبو بكرٍ يَحْيى وذُخْرُ الدولةأبو المكارمِ الحَكَم وتاجُ الدولةِ أبو سليمانَ الربيعُ وعَضُدُ الدولة ومالكٌ (راجع في مالكٍ نفحَ الطيب ٤ : ٢٤٧) وكان مَقْتَلُه في أثناءِ اسْتيلاءِ المُرابطين على إشبيلِيَةَ، سَنَةَ ٤٨٤ هـ (وليسَ لهؤلاءِ كُلِّهِمْ ما يُذْكَرون به) ثمّ عبدُ الجبّارِ الذي ثار على المُرابطين في جَنوبِيِّ الأندلسِ فَغَضِبَ يوسفُ بنُ تاشِفين وأمرَ بِتَقْيِيدِ المُعتمِد في السِجْنِ انتقاماً منه لفعلِ ولدِهِ عبدِ الجبّار (نفح الطيب ٤ : ٢١٧-٢١٨).

وأولادُ المعتمدِ الذين طارَ لهم ذِكْرٌ في الأدبِ: الراضي والرشيدُ وبُثَيْنَةُ. أمّا الراضي فكان شاعراًمُجيداً وقد أُفْرِدَت له تَرْجَمة. وأمّا بُثَيْنَةُ ففي ما يلي شيءٌ من خَبَرها وشعْرها.

وُلِدَتْ بُثينةُ نحوَ سَنةِ ٤٦٣ هـ (١٠٧٠ م) وأُمّها اَعْتادٌ الرُمَيْكِيّة. ووَرِثَتْ قولَ الشعر من أُمّها وأبيها فأَحْسَنَتْ فيه بعضَ الإحسان. وكذلك كانتْ قريبةً من أُمّها في الجَمال وفي النادرة: في سُرعة الخاطرِ مَعَ الإتيانِ بالنُكْتة اللطيفة البارعة. وفي سَنةِ ٤٨٤ هـ، لمّا اسْتَوْلى المُرابطونَ على إشْبيلِيَة، أُخِذَتْ سَبِيَّةً فاشتراها تاجرٌ من إشبيليةَ وَهُو لا يعلَمُ من أمرِها شيئاً ووَهَبها لاِبْنِهِ. ورَفَضَت بُثينةُ - في حديثٍ طويلٍ - أن يَقْرَبَها ابنُ التاجرِ الإشْبِيليّ الاّ بعدَ استشارةِ والِدِها وبعدَ عَقْدٍ شرعي. وفي هذه المناسبة كَتَبَتْ بُثينةُ إلى أبيها الأسيرِ في أغماتَ (بالمغرب) بالأبياتِ التالية، وَهِيَ مِنَ الشِعر العاديّ (نفح الطيب ٤: ٢٨٤):

اسْمَعْ كَلامي واسْتمعِ لمقالتي، ... فَهْيَ السُلوكُ بَدَتْ مِنَ الأجيادِ[1].
لا تُنكِروا أنّي سُبِيتُ وأنّني ... بِنْتٌ لِمَلْكٍ من بني عبّاد:
مَلْكٍ عظيمٍ قد تولّى عَصْرُه. ... وكذا الزمانُ يَؤولُ للإفساد[2].
لمّا أرادَ الله فُرْقَةَ شَمْلنا ... وأذاقَنا طعمَ الأسى عن زاد[3]،
قامَ النفاق على أبي في مُلكِهِ؛ ... فدنا الفِراقُ، ولم يكُنْ بُمراد.

(١) السلك: الخيط (تنظم فيه حبات اللؤلؤ وغيرها). الجيد: أعلى الصدر. العنق.
(٢) آل يؤول: يرجع، يعود.
(٣) جعل الله الأسى (الحزن) زاداً (طعاماً) لنا. أذلّنا.

فخرجْتُ هاربةً فحازَنِيَ امْرُؤٌ لم يأتِ في إعجالِه بسَداد[1]

إذ باعني بيعَ العبيدِ فضَمّني من صانني إلاّ من الإنكاد[2].

وأرادَني لِنكاحِ نَجْلٍ طاهرٍ حَسَنِ الخلائقِ من بني الأنجاد[3].

ومضى إليك يَسومُ رأيَك في الرِضا، ولأنتَ تنظُرُ في طريق رَشادي[4].

فعساك، يا أبَتي، تُعَرّفُني به، إن كان مِمَّنْ يُرتَجى لِوِداد.

وعسى رُمَيْكِيَّةُ الملوكِ بفضْلِها تدعو لنا باليُمن والإسعاد[5].

٤ - ديوان المعتمد بن عبّاد (وزارة التربية والتعليم المصرية) ؛ (تحقيق أحمدبدوي وحامد عبد المجيد)، القاهرة ١٩٥١م ؛ المعتمد وشعراءعصره (حقّقه محمّد زهدي يكن)، بيروت (دار يكن للنشر) ١٩٧٥م.

★★ المعتمد بن عبّاد: الملك الجواد الشجاع، الشاعر المرزّأ، تأليف عبد الوهّاب عزّام، القاهرة (دار المعارف) ١٩٥٩ م.

- المعتمد بن عبّاد، تأليف علي أدهم، القاهرة (المؤسّسة المصرية العامّة للتأليف والطباعة والنشر - أعلام العرب، رقم٢)، بلا تاريخ.

راجع كتب التاريخ العامّة ثمّ قلائد العقيان ٤ - ٣٥ ؛ المطمح ١١ - ٢٢ ؛ الذخيرة ٢ : ٤١ - ٨١ ثمّ أماكن كثيرة في جميع الاقسام ؛ المطرب ٧ - ١٠؛ وفيات الأعيان ٥ : ٢١ وما بعد (ترجمة عامّة لبني عبّاد، وفيها استطراد كثير) ؛ الحلّةالسيراء ٢ ٥٢ - ٦٨ ؛ الوافي بالوفيات ٣ : ١٨٣ - ١٨٨ ؛ أعمال الأعلام ١٥٧ - ١٧٠ ؛ شذرات الذهب ٣ : ٣٨٦ - ٣٩١ ؛ نفح الطيب ٤ : ٩٢ - ٩٩، ٢١١ - ٢٢٧، ٢٤٥ - ٢٨٥، ٣٥٤ وما بعد (أخبار معركة الزلاّقة ويوسف بن تاشفين وما يتّصل بذلك من أخبار ملوك الطوائف عامّة والمعتمد بن عبّاد خاصّة) ؛ بروكلمن١ : ٣١٩ - ٣٢٠، الملحق ١ : ٤٧٩ ؛ دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الأولى)؛ نيكل ١٣٤ - ١٦٣ ؛ مختارات نيكل ٨٢ - ١٠٣ ؛ الأعلام للزركلي ٧ : ٥٠ - ٥١ (٦ : ١٨١).

---

(١) السداد: الصواب.

(٢) الانكاد: قلّة الخير (الحاجة إلى أسباب الحياة)، الفقر.

(٣) النجل: الولد (ولد الرجل). النجد (بفتح فكسر أو بفتح فضمّ): الرجل ذو العزيمة.

(٤) سام: طلب. تنظر في طريق رشادي (تريد لي الخير).

(٥) رميكية، الرميكية: امرأة المعتمد وأمّ بثينة.

الحُمَيْديُّ

١ - هُوَ أبو عبدِ اللهِ مُحمّدُ بنُ فَتّوحِ بنِ عبدِ اللهِ بن حُمَيْدِ بن يَصَلَ الأزْدِيُّ، كان أبوهُ مِنْ أهلِ الرُصافة (بقُرطبة) ثمّ انتقلَ إلى جَزيرةِ مَيورقَةَ. ولد الحميدي هذا قبل ٤٢٠.

سَمِعَ الحميديّ من أبي القاسمِ أصبغَ بنِ راشدِ بنِ أصبغَ (ت ٤٤٠ هـ) ثمّ من أبي عبدِ اللهِ أحمدِ بنِ مُحَمّدٍ ومن أبي العبّاسِ العُذْري ومن ابنِ عبد البـرّ، ولَزِمَ ابنَ حَزْمٍ (ت ٤٥٦ هـ) وأَخَذَ عنه المذهبَ الظاهريَّ وأكثرَ من الرواية عنه.

ولّما اشتدّ الاضْطِهادُ على أتباعِ المذهبِ الظاهريّ رَحَلَ الحُمَيْدِيُّ عنِ الأندلس، سَنَةَ ٤٤٨ هـ (١٠٥٦ م) فحَجّ وسَمِعَ الحديث في مَكّةَ من أبي القاسمِ سَعْدِ بنِ عليّ الزَنْجانيّ (ت ٤٧١ هـ). ثمّ إنّه عاد إلى مِصْرَ فرَوى عن أبي عبدِ اللهِ بن أبي الفَتْح وسَمِعَ من الضَرّاب ومن أبي عبدِ اللهِ بن سَلامةَ القُضاعي (ت ٤٥٤ هـ). ثمّ رَحَلَ إلى الشامِ فالعراقِ: نَزَلَ في بَغْدادَ ثمّ قَضَى مُدّةً في واسطَ، وبعدَئذٍ عاد إلى بَغْداد واسْتَقَرّ فيها. وفي بَغْدادَ أدْرَكَ الخَطيبَ البَغْداديّ وروى عنه. وكانت وفاةُ الحُمَيْدِي في بَغْدادَ، في ١٧ مِنْ ذي الحِجّة ٤٨٨ (١٩/ ١٢/ ١٠٩٥ م).

٢ - كان الحُمَيْدِيُّ إماماً ثِقَةً في عِلْم الحديثِ وَعِلَلِه ومَعْرفةِ مُتونه ورُواتِه مُحيطاً بفنونٍ من العلم والأدب وبالفِقه عامّة والفقه الظاهري خاصّة. وهُوَ الذي حَمَلَ كُتُبَ ابنِ حزمٍ إلى المشرق. وكان له شيء من الشِعْرِ.

.وكانَتْ للحُمَيْدِيّ مُصَنّفاتٌ كثيرةٌ ضاع كثيرٌ منها وبَقِيَ بَعْضُها. فمن أشْهرِ مّما بَقِيَ لنا منها: جَذْوَةُ المُقْتَبِسِ في ذِكْر ولاةِ الأندلس وأسماء رُواة الحديث وأهلِ الفقه والأدب وذوي النباهة والشعر - الجمعُ بين الصحيحين (جمع الأحاديث المتّفق عليها في صحيح البُخاري وصحيح مُسْلِمٍ) - تفسير غريب ما في الصحيحين - الذهب المسبوك في وعظ الملوك - تذكرة الحميديّ (مختارات في الأخلاق والأدب) - بلغة المستعجل في معرفة جُمَلٍ من التاريخ.

٣ - مختارات من آثاره

- قال الحُمَيْدِيُّ في مقدّمة كتابه «جذوة المقتبس»:

.... أما بعدُ، فإنّ بَعْضَ من ألْتزم (!) واجبَ شُكْرِهِ على جميل برّه - لمّا وصلتُ إلى بَغْدادَ وحَصَلْتُ من إفادته على أفضل مُسْتَفادٍ - نَبّهني على أنْ أجمع ما يَحْضُرُني من أسماء رواةِ الحديثِ بالأندلس وأهلِ الفقه والأدب وذوي النباهة والشعر ومن له ذِكْرٌ منهم أو ممّن دَخَلَ إليهم أو خَرَجَ عنهم، في مَعْنًى من معاني العلم والفضل أو الرئاسة والحرب.

فأعْلَمْتُه عن بُعْدي بمكان هذا المَطْلوب وقِلّة ما صَحِبني منَ الغَرَض المرغوب، وأنّي إنْ رُمْتُه على قِلّةِ ما عِنْدي وتعاطَيْتُهُ على انقطاع موادّي وبُعْدي لم أخْلُ من أحَدِ وَجْهَيْنِ: إمّا أن أبْخَسَ القومَ حَظَّهُمْ وأنْقُصَهم فأتَعَرّضَ لِلاَئِمَتِهِمْ في ما أوْردتُ وأقِفُ موقفَ الاعْتذارِ في ما إليه قَصَدتُّ؛ وإمّا أن أُوهِمَ من رأى قِلّةَ جَمْعي ونِهايَةَ ما في وُسْعي أنّه ليس من أهلِ الفضلِ في تِلْكَ البلادِ إلاّ نَزْرٌ من الأعدادِ، فأكونَ بعدَ احْتِفالي لَهُمْ قد قَصّرتُ بهم، وعِنْدَ اجتهادي في ذِكْرهم قد أخْلَلْتُ بفخرهم. وما أراني مَعَ ذلك إلاّ مُتَصَدّياً لِمَذَمّةِ الطائفتين..

- للحميدي مقطعات في الزهد منها:

★ طريق الزهد أفضلُ ما طريق	وتقوى الله تاليةُ[1] الحقوق.
فثِقْ بالله يَكْفِكَ، واْستَعِنْه	يُعِنْك ودع بُنَيّاتِ الطريق[2].
★كلام الله عز وجلّ قولي	وما صحّتْ به الآثار[3] ديني.
وما اتفق الجميعُ عليه بدءًا	وعوداً، فهو من حقٍّ مبين.
★ لِقاءُ الناس ليس يُفيد شيئاً	سوى الهذيانِ من قيل وقال.
فأقْلِلْ من لقاءِ الناس إلاَّ	لأَخْذِ العلم أو إصلاح حال.

---

(١) «ما» زائدة. تالية: تابعة (؟).

(٢) بنيات الطريق: الطرق الضيقة المتفرعة من غيرها.

(٣) الآثار ما روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم.

★ أَلِفتُ النّوى حتى أَنِستُ بوَحْشِها — وصِرْتُ بها لا في الصبابة مُولَعًا.
فلم أُحْصِ كم رافقته من مرافق — ولم أُحصِ كم خيَّمتُ في الأرض مَوضِعا.
ومن بعدِ جَوْبِ الأرض شرقاً ومغرباً — فلا بدَّ لي من أن أُوافيَ مَصْرعا[1].

٤ - جذوة المقتبس ... (قام بتصحيحه محمّد بن تاويت الطنجي)، القاهرة (مكتب نشر الثقافة الإسلامية) ١٣٧٢ هـ = ١٩٥٢ م؛ القاهرة (الدار المصرية للتأليف والنشر) ١٩٦٦ م.

★★ بغية الملتمس ٥٣٠ - ٥٣١ (رقم ١١٣)؛ المغرب ٢: ٤٦٧ - ٤٦٨؛ معجم الأدباء ١٨: ٢٨٢ - ٢٨٦؛ وفيات الأعيان ٤: ٢٨٢ - ٢٨٤؛ الوافي بالوفيات ٤: ٣١٧ - ٣١٨؛ الخريدة (الأندلس) ٤ (الجزء الثاني): ١٢؛ شذرات الذهب ٢: ٣٩٢؛ نفح الطيب ٢: ١١٢ - ١١٥، ٣: ١٨٠، ١٨١، ٤: ٣٣٧ - ٣٣٩، ٣٤٨؛ نيكل ٢١١ - ٢١٢؛ مختارات نيكل ١٤٧ - ١٤٨؛ بروكلمن ١: ٤١٣، الملحق ١: ٥٧٨ - ٥٧٩؛ الأعلام للزركلي ٧: ٢١٨ - ٢١٩ (٦: ٣٢٧).

ابن عبد الصَمَد

١ - هو أبو بكرٍ (وأبو بحرٍ) يوسفُ بنُ أبي القاسمِ بنِ خَلَفِ بنِ أحمدَ، من نسلِ السَمْحِ بن مالك الخَوْلانيّ الذي كان والياً على الأندلس (١٠٠ - ١٠٢ هـ) من قِبَلِ عُمَرَ بنِ عبدِ العزيز، أصلُه من كُورةِ جَيّانَ. وكان أهلُه من ذَوِي الجاهِ ومن أهلِ الكتابة والأدب.

قَسَتِ الدنيا على ابنِ عبدِ الصَمَد حتّى اتّصل بالمعتمدِ بنِ عبّادٍ وحَظِيَ عندَه فارتقَتْ مَنزِلَتُه ونال من المعتمدِ عطايَا كثيرةً. ولمّا استَوْلى المرابطون على الأندلس وأزالوا جميعَ ملوكِ الطوائف وأَسَروا المعتمدَ بنَ عبّادٍ، يومَ الأحدِ في الثاني والعِشرين من رَجَبَ من سَنَةِ ٤٨٤ (٧/ ٩/ ١٠٩١ م)، تخفّى ابنُ عبدِ الصمد ثمّ انتقلَ إلى المَغْرِبِ ولكنّه لم يَنَلْ حُظوةً عند المرابطين، ولكن يبدو أنّه عاشَ في المغرب بعدَ ذلك مُدّةً. وفي عيدِ الأضحى من سَنَةِ ٤٨٨، بعدَ وفاةِ المعتمدِ بن عبّادٍ بشهرين تامَّيْنِ، اتّفقَ ان كان ابنُ عبدِ الصمد في أغماتَ (إحدى ضواحي مدينة

(١) جوب الأرض (الجولان فيها).

مَرَّاكُش، وفيها قبرُ المعتمد) فزارَ قبرَ المعتمد مَعَ الزائرين وأنشد عندَه قصيدتَه المشهورةَ الرائعة. ولسنا نعلَمُ سَنَةَ وفاةِ ابن عبد الصمد، ويبدو أنّه تُوُفّي في أواخِرِ القرنِ الخامسِ للهِجرة.

٢ - كان لابنِ عبد الصمدِ نثرٌ وشعر، ولكنْ لم يصلْ إلينا من آثاره في الأغلب إلاّ قصيدتُه الداليةُ وهي قصيدةٌ رائعة طويلةٌ جِداً أورد منها ابن الخطيب في كتابه «أعمال الأعلام» (ص ١٦٥ - ١٧٠) مائةً وأربعةَ أبياتٍ. وهي قصيدةٌ فصيحةُ الألفاظِ سهلة التراكيب واضحة المعاني ذاتُ تأثيرٍ في النفس. وفيها صناعة يسيرةٌ وعددٌ من الإشارات التاريخية. وفيها رثاءٌ للمعتمد ثمّ فخرٌ بشعره هو.

٣ - مختارات من شعره

- في عاشرِ ذي الحِجّة من سَنةِ ٤٨٨ (١٠/ ١٢/ ١٠٩٥) انصرف الناس من صلاة عيدِ الأضحى وجاء جَمْعٌ منهم لزيارة قبرِ المعتمد بنِ عبّادٍ، وكان فيهم ابنُ عبدِ الصمدِ، فوَقَفَ على القبرِ وأنشد:

مَلِكَ الملوكِ، أسامعٌ فأنادي؛ ... أم قد عَدَتْكَ عن السَماع عوادِ[1].
لمّا خَلَتْ منك القصورُ فلم تكن ... فيها كما قد كنتَ في الأعياد[2]،
أقبلتُ في هذا الثرى لك خاضعاً ... وتَخِذْتُ قبرَكَ موضعَ الإنشاد[3].
قد كنتُ أرجو أن تُبَرِّدَ أدمُعي ... نيرانَ حُزنٍ أُضْرِمَتْ بفؤادي.
فإذا بدَمْعي كلّما أجْرَيْتُه ... زادتْ عليَّ حراوةُ الأكباد.
يا أيُّها القمرُ المنيرُ، أهكذا ... يُمحي ضِياء الكوكب الوَقّاد؟
ما كان ظنّي قبلَ موتِكَ أن أرى ... قبراً يضُمُّ شوامخَ الأطْواد[4].
عَهْدي بمَلْكٍ وَهْوَ طَلْقٌ ضاحِكٌ ... مُتَهَلِّلُ الصَفَحاتِ للقُصّاد[5]،

(١) عواد جمع عادية: نائبة، مصيبة. عدتك: صرفتك (عن الأمر) وشغلتك.
(٢) خلت: فرغت (بكسر الراء). لم تبق القصور اليوم كما قد كنت أنت فيها من قبل.
(٣) الثرى: التراب (هذا الجانب من الأرض، البلد)، أغمات (موضع قبر المعتمد).
(٤) الطود: الجبل. الشامخ: العالي.
(٥) الصفحات (صفحتا الوجه). طلق: منطلق، ضاحك، مسرور. متهلّل: فرح.

أيّامَ تَخْفِقُ حولَكَ الراياتُ فو ... ق كتائبِ الرؤساءِ والأجنادِ،

والأمرُ أمرُكَ والزمانُ مُبشّرٌ ... بمالِكٍ قد أذْعَنَتْ وبلادِ،

والخيلُ تمرَحُ والفوارس تنحني ... بينَ الصوارمِ والقَنا المَيّادِ[1]؛

إذ تحسَبُ الهَيْجاءَ رَوْضاً يانعاً ... وترى الأزاهِرَ من ضِياءِ صِعادِ[2].

وكأنّ بِيضَ المُرهَفاتِ على الطُّلا ... وُرْقُ الحمامِ على الغصونِ شَوادِ[3].

ولكَمْ هَزَزْتَ الغُصْنَ من طربٍ لها ... وجرَرْتَ أذيالاً من الأزْرادِ[4].

وكأنّما في الدِرْعِ منك رَبيعةُ بْـ ... ـنُ مُكدَّمٍ والحارثُ بن عُبادِ[5]!

حتّى إذا ما الدهرُ أظهرَ حِقْدَه، ... والدهرُ للأحرارِ ذو أحْقادِ،

ألْقَتْ بأيْدِيها مَعاقِلُكَ التي ... مُلِئَتْ من العُقْبانِ والآسادِ[6].

وتهدّمتْ أركانُ كلِّ سياسةٍ، ... وانْهَدَّ حولَ المُلْكِ كل عِمادِ.

قالوا: أضاع الحَزْمَ وَهْيَ بواطِلٌ؛ ... نورُ الحقائقِ للنواظرِ بادِ[7].

وإذا انْقَضَتْ أيّامُ مُلْكٍ فالعَنا ... في غايةِ الإكثارِ والإعدادِ[8].

---

(١) تنحني (!) اقرأ: تنتمي (تفتخر، تذكر أنسابها - والانتماء من عادة العرب في الحروب عند المبارزات). الصارم: السيف. القناة: الرمح. الميّاد: المتأوّد (ينحني ولا ينكسر).

(٢) الهيجاء: الحرب. اليانع (من الأثمار): الناضج. الصعدة: الرمح (إذا رأيت الرماح في أثناء المعركة خيّل إليك أنّها أغصان مزهرة).

(٣) المرهف: الرقيق، القاطع. البيض: السيوف. الطلاة (بضمّ الطاء): جانب العنق. الورقاء: الحمامة. شادية: مترنّمة، مغنّية (أنت تحسب أصوات السيوف وهي تقطع الأعناق كأنّها حمائم تشدو على الأغصان).

(٤) الغصن (هنا): الرمح. الزرد: الدرع (أنت تطرب للطعن بالرمح وتتبختر في الدرع - في أثناء المعركة - كما يسرّ الناس بتمايل أغصان الأشجار وبالتبختر في ثيابهم النفيسة).

(٥) ربيعة بن مكدّم والحارث بن عباد من الفرسان الشجعان في الجاهلية.

(٦) المعقل (بفتح فسكون فكسر): الحصن. ألقت معاقلك بأيديها: استسلمت (للعدو). العقبان (كناية عن الخيل) والآساد (كناية عن الجنود).

(٧) اتّهموا المعتمد بأنه كان بملاذّه قد بَعُد عن الاهتمام بإدارة الملك. باد: ظاهر.

(٨) العناء: التعب. الإعداد (الاستعداد، الاحتياط لما سيحدث في المستقبل). الإكثار: إكثار الكلام في اللوم (؟) - إذا آذن عمر الدولة في الانتهاء فإنّها ستسقط حتماً، ولن يمنع سقوطها جهود أو لوم (راجع ابن خلدون - ت ٨٠٨ هـ).

حازتْ بنو العبّاسِ مُلْكَ أُميَّةٍ وَهُمُ ذَوُو الأعداد والأمداد[١].
ورأى مُعاويــةٌ عَليّــاً هالكــاً، وعَـليٌّ الليثُ الهِزَبْرُ العادي[٢].
والدهرُ أذهَــبَ تُبَّعــاً وجُنودَه وأزال مُلْكَ الأرضِ عن شَدّاد[٣].
انّي لأعْجَبُ بعدَ فَقْدِكَ كيف لا تُسْتَنْكَرُ الأسيافُ في الأغماد[٤]
مَنْ يَفْتَحُ الأمصارَ بعدَ محمّدٍ؟ مَــنْ يَعْقـدُ الرايــاتِ للقُوّاد؟
مَنْ يترُكُ الأسطارَ في الأوراقِ مثـ ـلَ الحَلْيِ في اللَّبّات والأجيــاد[٥]؟
مَنْ يفهَمُ المعنى الخَفِيَّ، ومن له صِدقُ الحديثِ وصِحّة الإيراد[٦]؟
مَنْ ذا يَرُدُّ على العُفاةِ ظِلالَه ويُبلِّــغُ الآمــالَ كـلَّ مُراد[٧]؟
هَيْهاتِ، ماتَ الجودُ بعدَ محمّدٍ وأصابَ بَزَّ الفَهْمِ كُلُّ كَساد[٨].
مُسِخَ الزمانُ بأهلِهِ فتَعَوّضوا من ذلك الإصلاح بالإفساد[٩].
يــا ساكنَ القبرِ الذي فُقْدانُه قتلَ الرجاءَ وفتّ في الأعضــاد[١٠]،
كُنّا نُؤَمِّلُ أن نرى لك عَوْدةً تُعطي بها الأيامَ كلَّ قِياد[١١]،
وتَبيتُ خَيْلُك في مَرابطها على وعْــدٍ من الإتهام والإنجاد[١٢].

---

(١) .... وكان بنو أميّة كثيري العدد كثيري الثروة والجنود.
(٢) الليث: الاسد. الهزبر: الاسد الضخم الكاسر. العادي (الجريء على القتال).
(٣) تبّع بن حسان ملك اليمن، كان قويّاً مظفّراً طال ملكه جدّاً (زعموا ثمانية وسبعين عاماً). شدّاد بن عاد ملك يمنيّ قديم، غزا البلاد (زعموا أنّه وصل إلى أرمينية والمغرب).
(٤) الغمد (بالكسر): قراب (بالكسر) السيف. - ... كيف لا تسلّ السيوف للانتقام من أعداء المعتمد.
(٥) اللبّة: أعلى الصدر. الجيد (بالكسر): العنق. أدبه (شعره ونثره) جميل مثل الحليّ على النساء الحسان.
(٦) صادق في حديثه وصحيح الإيراد (النقل) لأحاديث الآخرين).
(٧) العافي: الذي يطلب المعروف (العطاء).... ويحقّق كلّ أمل.
(٨) ... كسد بزّ (حرير) الفهم: قلّ الاهتمام بالنتاج العقلي والأدبي (هذا تعريض بيوسف ابن تاشفين الذي خلع جميع ملوك الطوائف وقيل فيه انّه كان لا يعرف اللغة العربية ولا يقبل إنشاد الشعر في حضرته).
(٩) الصلاح الذي كان في أيام المعتمد حلّ محلّه الفساد في أيام يوسف ابن تاشفين.
(١٠) فتّ (كسر) في العضد (بفتح فضمّ: ما بين المرفق والكتف). فتّ في عضده: أوهن قوته وأيأسه.
(١١) .... كنا نرجو أن تعيد ملكك.
(١٢) الاتهام: النزول إلى الأرض المنخفضة. الانجاد. الصعود إلى الأرض العالية (تسيير جيوشك إلى جميع البلاد).

إنّي لأعْجَبُ من ضَجِيعَتِك التي قد كان قُرْبُك أُنْسَها في النــادي [١].

جاوَرْتَهــا فــي قَبْرِهــا فكأنّما قـد كُنْتُما في ذا على ميعاد [٢].

أمَّ الملوكِ، أمــا عَلِمْــتِ بزائرٍ لـك ذي وفاءٍ مُخلصٍ ووِداد؟

أبْكى العُلا والمجدَ فَقْدُكُما الذي لَبِسَتْ لـه الدنيا ثِيابَ حِداد.

لَهفي عـلى تلـك السَجايا إنّها زَهْرُ الرُبى مَوْشِيَّةُ الأبْراد [٣].

كم نعمــةٍ خضراءَ قــد ألْبَسْتَــني ومواهــبٍ وَالَيْتَهــا وأيــاد [٤]!

أخْجَلْتَ في الجود الذي دَفَّقْتَ حا تَم طَيّئٍ وفَضَحْتَ كَعْبَ إياد [٥].

قـد كنتُ لا أرضى البِحارَ مَناهلي زَهْواً ولا أرضى السِماكَ مِهادي [٦]

فــي دولــةٍ غــرّاءَ عَبّــاديّــةٍ فَلّتْ مِنَ الأملاكِ كُلَّ عِناد [٧]،

ورِئاسةٍ تحمي البــلادَ، رئيسُهــا يومـاهُ: يومُ نَدًى ويوم جِلاد [٨]؛

والبـدرُ تِرْسي والثُريّــا مَعْقِــلي والصُبْحُ سَيْفي والرِّياحُ جِيادي [٩].

أغْرَقْتَــني في بَحْرِك الطامي الذي منــعَ الظِماءَ وُرودَ كُــلّ ثِماد [١٠].

وسَلَلْتَ في نَصْري سُيوفَ مكارمٍ تركـتْ سيوفَ الهِندِ غيرَ حِداد [١١].

عادتْ بحاراً إذ سَقَيْتَ ضَحاضِحي، وغدتْ هِضاباً إذ رفعتَ وِهــادي [١٢].

(١ - ٢) يشير الشاعر إلى موت اعتماد (زوج المعتمد) قبله بقليل.

(٣) السجايا: الطبائع (الأخلاق الجميلة). موشيّة: مطرزة. البرد (بالضمّ): ثوب من حرير.

(٤) الموهبة (الهبة) العطاء. والى الأشياء: جاء بها متوالية (متتابعة). الإيادي: النعم.

(٥) حاتم الطائي المشهور بالكرم. كعب بن مامة الأيادي يضرب به المثل في الكرم (وكلاهما جاهلي).

(٦) النهل: الشرب الخفيف. الزهو: الإعجاب بالنفس. السماك (الأعزل) والسماك (الرامح) مجموعتان من النجوم. المهاد: الفراش.

(٧) الأملاك: الملوك. فلّت عناد الملوك (أخضعتهم).

(٨) ندى: كرم. جلاد: حرب.

(٩) الثريّا: مجموع نجوم. المعقل: الحصن. الجواد: الحصان.

(١٠) الطامي: المرتفع (الكثير الفائض). الظماء جمع ظمآن: عطشان. الورود: الذهاب إلى الماء. الثماد: الماء القليل - كان الشعراء يأتون إليك لأنّك كنت تعطي كثيراً بينما كان الآخرون يعطون قليلاً أو لا يعطون شيئاً. (عطاؤك الكثير أغنى الناس عن الذهاب الى جميع الملوك).

(١١) حداد جمع حادّ: ماض، قاطع - رفعت منزلتي حتّى خافني الأبطال ذوو السيوف.

(١٢) الضحضاح: الماء القليل. الوهدة: المكان المنخفض.

ومَدَدتُ كفّي للكواكبِ قاعِداً ... فبَلَغتُها لّما غَدَوْتَ مَصادي[1].
نَفّقْتَني والدهرُ يبخَسُ قِيمتي ... وأنِفتَ من رُخْصي به وكَسادي[2].
وأقَمْتَني لّما رأيتَ حوا ... دِثَ الأيّام قد أسْرَفْنَ في إقعادي.
فالجَفْنُ بعدَكَ ليس يدري ما الكَرى ... (مِنْ) دمعةٍ مُنْهَلَّةٍ وسُهاد[3].
وكأنّ قَلْبِيَ في مخالبِ طائرٍ، ... وكأن جَفْنِيَ فوقَ شَوْكِ قَتاد[4].
ان لم تَطِبْ فيك المَراثي والثنا ... مِنّي فلستُ بطيّبِ الميلاد!
ما كان إلاّ الرَوْضَ مَوْشِيَّ الحُلى ... سُقِيَتْ أزاهِرُه بصَوْبِ عِهاد[5].
يَهْتزّ عند الحَمْدِ مِعطفه كما ... يهتزّ عِطفُ الأملَدِ المَيّاد[6].
يا موتُ، لم تترُكْ حنيفاً مُسلماً ... صَعْبَ اللقاء على ذَوي الأحقاد[7].
قد كان من أعلى المُلوكِ رِئاسةً، ... وفُؤادُه من أوْرعِ الزُهّاد.
يا موتُ، كيف رأيتَ صبرَ مُحمّدٍ، ... قَبْلَ احتِلالِكَ كان في استعداد[8].
كم رامَ في رَجَبٍ لقاءك جاهِداً، ... والحَظُّ ليس يُنالُ دونَ جِهاد[9].
أهْوَى الشهورَ سِواهُ فَهْوَ أذَلّني ... وأُحِبُّ أيّامي سِوى الآحاد[10].
صبراً جميلاً، يا بَنيهِ، فرُبّما ... نال المُنى قومٌ بلا ميعاد.
إنّي نظمتُ لكم لآلىءَ قَوْلَةٍ ... عَرَضَتْ على الأيام صَفْوَ ودادي[11].

---

(١) المصاد: مكان الصيد.
(٢) يبخس (يقلّل من) قيمتي (مكانتي).
(٣) الكرى: النوم. السهاد: السهر. في الأصل: «في دمعة».
(٤) قلبي في مخلب طائر: قلق (خائف). القتاد: نبت له شوك قاس.
(٥) موشيّ: مطرّز. العهاد: المطر المتتابع. الصوب: انسكاب (المطر) بكثرة.
(٦) معطف: ثوب يلبس في الشتاء (كناية عن المعتمد نفسه). اهتز: ارتاح (طرب، سرّ). العطف: الجانب الأعلى من الأشياء. الأملد: (الغصن) الناعم اللين. المياد المتمايل، المتثني.
(٧) بعد موت المعتمد لم يبق في الدنيا مسلم حنيف (حقيقي).
(٨) قبل أن يدركه الموت كان يستعد ليستعيد ملكه بالحرب.
(٩) في رجب من سنة ٤٨٤ استولى يوسف بن تاشفين على اشبيلية وخلع المعتمد. كان المعتمد في ذلك الحين يريد أن يموت في سبيل الدفاع عن ملكه.
(١٠) كان خلع المعتمد في يوم أحد (راجع ترجمته).
(١١) قولة: قصيدة. نظمتها إظهاراً لخالص مودّتي للمعتمد (مع العلم بأن دولة المرابطين لم تكن تريد ذلك).

ولقد رَثَيْتُ وما قَضَيْتُ حُقوقَكم، والله يعلَمُ مـــا يُكِنُّ فُؤادي[1].

٤ - ★★ قلائد العقيان ٣٤ - ٣٥؛ الذخيرة ٣: ٨٠٩ - ٨٢١؛ المغرب ٢: ٢٠٣ - ٢٠٤؛ الخريدة (المغرب) ٢: ٥٣٧ - ٥٣٨؛ أعمال الأعلام ١٦٥ - ١٧٠؛ نفح الطيب ٣: ٥٣٤، ٤: ٢٢٣ - ٢٢٤، ٢٥٩؛ دائرة المعارف الإسلامية ٣: ٦٧٧؛ نيكل ١٥٣.

أبو مروان عبد الملك بن سراج

١ - هو أبو مروانَ عبدُ الملك بن سراج بن عبدالله بن محمد بن سراج، قيل إنه من ذرية سراج بن قُرّة من صحابة رسول الله فيكون بذلك عربي النسب، ولكنّ الأقرب إلى الصواب أنه من موالي بني أمية في المشرق. ولعلّ الصحيح أن أصله من الأندلس وانه مولى المروانيين في الأندلس. ولا ريب في أن آل سراج كانوا ذوي شهرة ومكانة كما كانوا أهل بيت ذوي خير وفضل ومن مشاهير الموالي أيضاً.

ولد عبد الملك بن سراج في قرطبة في ثاني عَشَرَ ربيعِ الأوّل من سنة ٤٠٠ (١٠٠٩/١١/٣ م). وتلقى العلم على أبيه (ت ٤٥٦ هـ) وعلى القاضي يونس بن عبد الله بن الصفّار (ت ٤٢٩ هـ) وابراهيم بن محمد الإفليلي (ت ٤٤١ هـ) وأبي مروان بن حيان المؤرخ (ت ٤٦٩ هـ) ومكي بن أبي طالب القيرواني.

وكانت وفاة عبد الملك بن سراج يوم الخميس ليلة عَرَفَةَ (في ثامن ذي الحجّة) من سنة ٤٨٩ ودفن يوم عرفة (تاسع ذي الحجّة) أو ١٠٩٦/١١/٢٩ م، في مقبرة الرَبض من قرطبة.

٢ -كان أبو مروانَ عبدُ الملكِ بنُ سِراجٍ إماماً في اللغة غيرَ مُدافَعٍ وعالماً بعددٍ من الفنون من معاني القرآن ومعاني الحديث وغريب اللغة والنحو والأنساب والأيام (المعارك) كما كان حريصاً على إسناد الأخبار في ذلك إلى العلماء والرواة كثيرَ الاستشهاد بآيات القرآن الكريم. وكذلك كان له نظم عاديّ منه مديح وعتاب وفخر ونسيب.

---

(١) رثائي كان أقلّ ممّا يجب عليّ. يكنّ: يضمر يكتم، يخفي.

٣ - مختارات من آثاره

- جاء عبد الملك بن محمد بن جَهْوَرٍ - وهو أبن أبي الوليد محمد بن جهور صاحب قرطبة (٤٣٥ - ٤٥٠ هـ) - لزيارة ٱبن سراج، ولم يكن ٱبن سراج يزوره ثم عاتبه في ذلك. فقال له عبد الملك بن سراج:

أعزّك الله. أنت إذا زُرتَني قال الناس: أمير زار عالِماً تعظيماً للعلم واقتباساً منه. وأنا إذا زُرتُك قالوا: عالِمٌ زارَ أميراً للطمع في دنياه والرَغبة في رِفْده ولا يصون علمه.

- قال أبو مروان عبد الملك بن سِراجٍ يمدح المظفر بن جهور ويعاتبه على قِلة العناية به:

أمّا هواكَ ففي أعزِّ مكانِ	كم صارمٍ من دونه وسِنانِ[1]!
وبنو حروبٍ لم تزلْ تغذوهمُ	حتى الفِطامِ ثُديُّها بِلِبانِ[2].
في كلِّ أرضٍ يَضرِبون قِبابَهم،	لا يُمنعون تخيُّرَ الأوطانِ.
ولقد سَرَيْتُ وما صَحِبْتُ على السُرى	غيرَ النجوم إرادةَ الكِتمانِ[3].
في ليلةٍ نظرتْ إليّ نجومُها؛	ومُقَحِّمُ الغَمَراتِ غيرُ جبانِ[4]
قالت فتاتُهمُ وقد نبَّهتُها	والليلُ مُلقي كلكلٍ وجِرانِ: [5]
كيف اجترأتَ على تجاوُزِ من ترى	من نائمٍ حولي ومن يقظانِ؟
فأجبتُها إن ابن جهورٍ الرضا	منع المخاوف أن تَحِلّ جَناني.
أتعود دلوي من بحور سَماحكم	صِفراً وليست رَثّةَ الأشطانِ[6]،

---

(١) صارم: سيف. سنان: رمح.

(٢) الثديّ (بضمّ فكسر فتشديد) جمع ثدي (بفتح فسكون): العضو الذي يرضع منه الطفل من أمّه. اللبان (بكسر اللام): الرضاع (بالكسر أو الفتح) تناول اللبن من الثدي.

(٣) سرى: سار ليلاً.

(٤) - انّ الذي يسير وحده في الليل لا يكون جباناً.

(٥) الكلكل: الصدر. الجران: باطن عنق البعير (الليل في أواسطه شديد الظلام).

(٦) السماح: الكرم. الشطن (بفتح ففتح): الحبل الطويل (يسحب بوساطته الماء من البئر).

ويكون رَبْعي مُسْتَبِيناً جَدْبُه — حتى أهيمَ بنجعة البلدان[1] ؟
قِسْني بمن ينأى برفع مكانه — بنَدِيِّكَ العالي وخفض مكاني[2] .
أمِنَ السَّوِيَّةِ ان يَحِلّوا بالربي — من أرضه وأَحِلُّ بالغيطان[3]؟
إن تُرخِصوا خطَري فكم مُغْلٍ له — يستام فيه بأرفع الأثمان[4] .

٤ - ★★ قلائد العقيان ٢١٧ - ٢١٨ ؛ الصلة ٣٤٦ - ٣٤٧ ؛ بغية الملتمس ٣٦٧ - ٣٦٨ ؛ المغرب ١ : ١١٥ - ١١٦ ؛ إنباه الرواة ٢ : ٢٠٧ - ٢٠٨ ؛ الذخيرة ١ ٨٠٨ - ٨١٤ ؛ الخريدة (الاندلس) ٤ : ٥٠١ - ٥٠٣ ؛ الديباج المذهب ١٥٧ ؛ نفح الطيب ٤ : ١٦٢ - ١٦٣ ؛ شذرات الذهب ٣ : ٣٩٢ - ٣٩٣ ؛ الأعلام للزركلي ٤ : ٣٠٤ (١٥٩).

أبو الوليد الوقّشيّ

١ - هو أبو الوليدِ هِشامُ بنُ أحمدَ بنِ هشامِ بنِ خالدِ بنِ سعيدِ الكِنانيُّ المعروفُ بالوَقَّشيّ نسبةً إلى وَقَّشَ (على مقرُبَةٍ من طُليطلة)، وفيها كان مولدُه سَنَة ٤٠٨ (١٠١٧ م).

تلقّى الوقّشيُّ العلمَ على أبي عمرَ عُثمانَ بنِ أبي بكرٍ السفاقسي (ت ٤٤٠ هـ) وأبي عُمرَ أحمدَ بنِ محمدِ بنِ الحذاء (ت ٤٦٧ هـ) وأبي عمرَ الطَلَمَنكي وغيرِهم. وتولى الوقّشيُّ القضاءَ في طَلَبيرَة من أعمالِ طُليطُلة. وفي أواخرِ أيامِه سكَنَ بَلَنْسِيَةَ مُدّةً يسيرةً ثمّ غادرها، سَنَةَ ٤٨٧ لمّا استولى عليها النصارى، وانتقلَ إلى دانيةَ وفيها كانتْ وفاتُه في السابع والعشرين من جُمادى الثانيةِ من سَنَة ٤٨٩ (٢٠/ ٦/ ١٠٩٦ م).

٢ - كان أبو الوليد الوقّشيُّ دَمِث الأخلاقِ حَسَنَ المُعاشرة واسعَ المعرفة بفنون

---

(١) ...حتّى اضطرّ (بالبناء للمجهول) إلى أن أهيم (أسير على وجهي من غير مقصد معروف) بنجعة (بالذهاب الى أماكن بعيدة).....

(٢) ينأى : يبعد (هنا: ينأى بجانبه: ينفر ويتكبّر - لأنّه رفيع المكان في بلاطكم). النديّ: مجتمع القوم.

(٣) الغيط (بالفتح) المكان الكثير الماء (ويكون منخفضاً). المقصود (هنا): انخفاض المنزلة.

(٤) - ان جعلتم أنتم قيمتي عندكم قليلة، فهنالك كثيرون يساومون (على تركّكم ويدفعون) أعلى الأثمان.

العلم والأدب عالماً باللغة والنحو والأدب ومعاني الشعر حافظاً للحديث بارعاً في الفقه وفي الفرائض (تقسيم الإرث) قديراً في المنطق والفلسفة ومُحَقّقاً لعلم الحساب والهندسة والموسيقى. ثمّ هو أديبٌ بليغٌ وشاعرٌ مُجيدٌ يحومُ على المعاني ويسوقُها في التراكيب السهلة. وكانت له قصيدةٌ في رِثاء بَلَنْسِيَةَ لمّا استولى عليها الإسبانُ ولكن يبدو أنّها لم تَصِلْ إلينا. والوقَّشيُّ هذا مُصَنِّفٌ له: نُكَتُ الكاملِ للمُبرِّدِ - المُنتخبُ من غريبِ كلامِ العرب - مختصرٌ في الفقه.

٣ - مختارات من شعره

- لأبي الوليد الوقشي عدد من المقطعات، منها:

★ قد بَيّنتْ فيه الطبيعةُ أنّها ... بدقيقِ أعمالِ المهندسِ ماهرهْ:
عُنِيَتْ بَمَبْسِمِه فخطّتْ فوقَه ... بالمِسك خطّاً من مُحيط الدائره[1].

★ لا أركَبُ البحرَ ولو أنني ... ضربتُ فيه بالعَصا فانفلقْ[2].
ما إنْ رَأَتْ عَيْنايَ أمواجَه ... في فِرَقٍ إلاّ تَناهى الفَرَقْ[3].

★ برّحَ بي أن علومَ الورى ... اثنانِ ما إنْ فيهما من مزيدْ:
حقيقةٌ يُعْجِزُ تحصيلُها، ... وباطلٌ تحصيلُهُ لا يُفيدْ.

★ عجباً للمُدامِ ماذا استعارتْ ... من سجايا مُعَذِّبي وصِفاتِهْ:
طيبَ أنفاسِه وطعْمَ ثنايا ... ه وسُكْرَ العقولِ من لَحَظاتِهْ،
وسَنا وجهِهِ وتوريدَ خدّيْـ ... ـهِ ولُطْفَ الديباجِ من بَشَراتِه[4]؛
والتداوي منها بها كالتداوي ... برِضا من هَوِيتُ مِن سَطَواته[5].
وَهْيَ مِنْ بعدِ ذا عليَّ حرامٌ ... مِثلَ تَحْريمِهِ جنى رَشَفاته.

---

(١) يصف شاربي ذلك الشاب وأنهما منحنيان فوق شفتيه انحناء مستوياً لا تعرّج فيه.

(٢) موسى ضرب البحر بالعصا فانفلق البحر وظهرت أرضه فقطع موسى وبنو اسرائيل من مصر إلى سيناء.

(٣) الفرق (بكسر فسكون): الموجة العالية. الفرق (بفتح ففتح): الخوف. تنامى: بلغ نهايته (في الحجم، في المقدار، الخ)، أصبح عظيماً جداً.

(٤) البشرة (بفتح ففتح): ظاهر الجلد.

(٥) التركيب هنا معقد (المقصود: صفاته الجميلة تمرض المحبّ والتمتّع به يشفي المحبّ من مرضه).

٤ - ** الصلة ٢١٧ - ٢١٨؛ بغية الملتمس ٤٧٠ (رقم ١٤٢٦)؛ الخريدة (المغرب) ٢: ١٨٩ - ١٩١؛ الخريدة (الأندلس) ٤: ٥٥ - ٥٧؛ المطرب ٢٢٣ وما بعد؛ معجم الأدباء ١٩: ٢٨٦ - ٢٨٧؛ بغية الوعاة ٤٠٩؛ نفح الطيب ٣: ٣٧٦ - ٣٧٧، ٤: ٩٠، ١٣٧ - ١٣٨، ١٦٢ - ١٦٣، ٣٠٦؛ بروكلمن ١: ٤٧٩، الملحق ١: ٦٦٢؛ نيكل ٣٠٨ - ٣٠٩، مختارات نيكل ١٨١ - ١٨٢؛ الأعلام للزركلي ٩: ٨٠ - ٨١ (٨: ٨٤).

ابن البين البطليوسيّ

١ - هو أبو عبد الله محمد بنُ البَيْنِ البَطَلْيَوْسيُّ، من شعراء المِائَة الخامسة (المغرب ١: ٣٧٠)، كان يعيش في مدينة بَطَلْيَوْسَ معاصراً لابن صارةَ (ت ٥١٧ هـ). ولعلّ وفاتَه كانت نحو سَنَة ٤٩٠ (١٠٩٧ م).

٢ - ابن البَيْنِ البَطَلْيَوْسِيُّ أحدُ الشعراء المُجيدين مُسْتَظْرَفُ الألفاظِ والمعاني يميل إلى طريقة ابن هاني الأندلسي (ت ٣٦٢ هـ) مشغوفاً بها. وقد بَرَعَ في المدح والغزل والنسيبِ والوصف.

٣ - مختارات من آثاره

- قال ابنُ البَيْنِ البَطَلْيَوْسِيُّ في الغزل والنسيب:

غَصَبوا الصباحَ فقسّموه خُدوداً ... واسْتَوْهَبوا قُضُبَ الأراكِ قُدودا[1].
ورَأَوْا حَصى الياقوتِ دُونَ مَحَلِّهم ... فاسْتَبْدَلوا منه النجومَ عُقودا[2]،
واسْتَوْدَعوا حَدَقَ المَها أجْفانَهم ... فَسَبَوْا بِهِنّ ضراغماً وأُسودا[3].
لم يَكْفِ أن سَلَبوا الأسِنَّةَ والظُّبى ... حتّى اسْتعانوا أعْيُناً ونُهودا[4].
وتضافروا بضفائرٍ أبْدَوْا لنا ... ضَوْءَ النهارِ بلَوْنِها معقودا[5].

---

(١) الأراك: شجر تتخذ من أغصانه المساويك.
(٢) الياقوت (مأخوذ من الارض) والنجوم (في السماء).
(٣) المهاة: بقرة الوحش (نوع من الغزلان له عيون واسعة). الضرغام (الاسد).
(٤) السنان (الرمح) الظبة (بضم ففتح): حدّ السيف... حتى استعانوا بالعيون وبالنهود (على قتل المحبّين).
(٥) تضافروا: اجتمعوا وتعاونوا.

- اجتمعَ ابن البَيْنِ البَطَلْيَوْسيُّ بابن صارة الشَنْتريني فقال له ابنُ صارةَ: أجزْ:

هذي البسيطةُ كاعِبٌ أَبْرادُها حُلَلُ الربيعِ وحَلْيُها الأزهارُ[1].

فقال ابنُ البين:

وكأنّ هذا الجوَّ فيها عاشقٌ قد شَفَّه التعذيبُ والإضرار[2].

فإذا شكا فالبرقُ قلبٌ خافقٌ، وإذا بكى فدُموعه الأمطار.

من أجلِ ذِلّةِ ذا وعِزّةِ هذه تبكي السماءُ ويضحَكُ النّوارْ[3].

٤ - ** الذخيرة ٢: ٧٩٩ - ٨٠٣؛ المغرب ١: ٣٧٠؛ رايات المبرّزين ٣١ (؟)؛ الخريدة (المغرب) ١: ١٨٥ - ١٨٦؛ المحمدون من الشعراء ١٩٧ - ١٩٨؛ نفح الطيب ٣: ٤٥٣، راجع ٤٠٣.

لبّون بن عبد العزيز

١- هو ذو الوزارتين أبو عيسى لَبّونُ بنُ عبدِ العزيزِ بنِ لَبّونَ، وَزَرَ في طُليطلةَ للمأمونِ بنِ ذي النون (٤٢٩ - ٤٦٧ هـ) ثمّ لأخيه وخَلَفِه يحيى القادرِ (٤٦٧ - ٤٧٨ هـ). ثمّ استولى الإسبان على طليطلةَ (٤٧٨ هـ) فانتقل لبّونُ إلى بلنسية وتولى فيها القضاءَ، في أيامِ صاحبها الأمير المنصور أبي بكرِ بنِ عبدِ العزيز (٤٦٨ - ٤٧٨ هـ). ثمّ إن يحيى القادرَ (صاحب طليطلة) استولى على بلنسية، في حديثٍ طويلٍ، في أواخرِ سَنَة ٤٧٨ نفسِها.

ويبدو أن لبّون قد فضل ولايةَ البلدان على القضاء فأصبح قائداً (والياً) على قلعة عبدِ السلام قربَ وادي الحجارة (أعمال الأعلام ٢٠٩)، إلى الشمال الشرقي من مدريد. ثمّ إنّه استبد بحكم مُرْبَيْطَرَ (من أعمال بلنسية)، شمالَ بلنسية وعلى الساحل.

---

(١) الكاعب: الفتاة في أول صباها (حينا يبدأ نهداها بالبروز). البسيطة (الأرض) ابرادها (البرد بالضم: ثوب من حرير). الحلة (بالضم): الثوب النفيس. الحلي (بفتح فسكون) الحلى (بضم ففتح): ما تزين به المرأة عنقها ويديها من الذهب وغيره.

(٢) شفّ المرض المريض (أنحله وهزله): جعله نحيلاً وهزيلاً.

(٣) النوار: الزهر الأبيض.

ولكن عبدَ الملك بن هُذيل أميرَ السهلةِ (٤٣٦ - ٤٩٦ هـ) خدعه وأخذ مُربيطر منه على أن يُعوِّضَه منها بلداً آخرَ. ولكن عبدَ الملك لم يَفِ للبونَ بذلك. ولم يكن لبّون ميّالاً إلى الكفاح فانتقل إلى شَنتمريّةَ الشرقِ (شرق مدريد) ليعيشَ في دَعَةٍ.

ولعل حياةَ لبون قد امتدت إلى نحو سَنَةِ ٤٩٠ (١٠٩٧ م) أو إلى ما بعدها بقليل. وقيلَ إن وفاته كانت في شَنتمريةَ الشرقِ، وقيل: بل في سَرَقُسْطة.

٢ - كان أبو عيسى لبونُ بنُ عبدِ العزيز أديباً ناثراً شاعراً. وفنونُ شعره الوصفُ (للخمر والزهر في الأكثر) ثمّ الزُهد والرثاء.

٣ - مختارات من آثاره

- قال أبو عيسى بن لبون بعد أن لَحِقَ بابن رزينٍ واستقل ما كان يأخذه منه (على تخلّيه له عن مُرْبَيْطَر):

ذَروني أجُبْ شرقَ البلاد وغربَها	لأشْفِيَ نفسي أو أموتَ بدائي[1].
فلستُ ككلبِ السوءِ يُرضيه مَرْبَضٌ	وعَظْمٌ، ولكنّي عُقاب سماء
تحومُ لكيما يُدْرِكُ الخِصبَ حَوْمُها	أمامَ أمامٍ أو وراءَ وراء*.
وكنتُ إذا ما بلدةٌ لي تنكّرتْ	شَدَدتُ إلى أُخرى مَطِيَّ إبائي[2]،
وسِرتُ ولا ألْوي على مُتَعَذِّرٍ	وصَمّمتُ لا أُصْغي إلى النُصحاء[3]
كشمسٍ تبدّتْ للعيونِ بمشرقٍ	صباحاً، وفي غربٍ أصيلَ مساءِ[4].

- وقال أيضاً يَكْشِفُ عن الخِدعة التي وَقَع فيها بتخلّيهِ عمّا كان يَمْلِكُ من البلدان:

---

(١) ذرني: دعني، اتركني. جاب الأرض: طاف فيها.

* في بعض المصادر «أمام أمامي» وما اخترناه أصح. ولعل المقصود ما قصده ابو فراس «لنا الصدر دون العالمين او القبر».

(٢) المطية: الدابة يركبها الإنسان في أسفاره. شدّ المطية: أعدّها للسفر.

(٣) المتعذر: الذي ينتحل الأعذار لنفسه ليبرر أخطاءه. ألوي: ألتفت (أخاصم). صمم الرجل (مضى في رأيه لا يبالي بلوم الآخرين).

(٤) الأصيل (الوقت قبيل غروب الشمس).

خليلَيَّ، ما بالي على صِدْقِ عَزْمتي أرى مِنْ زماني وَنْيَةً وتَعَذُّرا[١]!
فواللهِ، ما أَدْري لأيِّ جريمةٍ تَجَنّى ولا عن أيِّ ذنبٍ تغيّرا[٢]؟
ولم أكُ عن كسبِ المكارمِ عاجزاً ولا كنتُ في نَيْلٍ أُنيلُ مُقَصِّرا[٣].
لَئِنْ شانَ تمزيقُ الزمانِ لِدَوْلتي، لقد ردَّ عن جهلٍ كثيرٍ وبَصَّرا[٤]؛
وأيْقَظَ من ليلِ الغَرارة نائِماً وكَسَّبَ عِلْماً بالزمان وبالوَرى[٥]!

- وقال يصف الخمر:

يا رُبَّ ليلٍ شَرِبْنا فيه صافيةً حمراءَ في لَوْنها تَنْفي التباريحا[٦].
ترى الفراشَ على الأكواسِ ساقطةً كأنّما أبْصرتْ منها مصابيحا[٧].

- وله في العِتاب:

لحا اللهُ قلبي كم يَحِنُّ إلَيْكُمُ، وقدْ بِعْتُمُ حظّي وضاعَ لَدَيْكُمُ[٨].
إذا نحن أنْصفناكُمُ من نفوسِنا، ولم تُنْصفونا، فالسلامُ عليكُمُ!

٤ - ** قلائد العقيان ١١١ - ١١٥؛ الذخيرة ٣: ١٠٤ - ١٠٨؛ أزهار الرياض ٣: ١٢٠ - ١٢٣؛ المغرب ٢: ٣٧٦ - ٣٧٧؛ خريدة (المغرب) ٢: ٣٧٥ - ٣٨٠؛ الخريدة (الأندلس) ٤: ٣٣٢ - ٣٣٦؛ الحلة السيراء ٢: ١٦٧ - ١٧١؛ أعمال الأعلام ٢٠٩؛ جيش التوشيح ١٥٨ - ١٦٩ (راجع ٢٦٢ - ٢٦٥)؛ نفح الطيب راجع ١: ٦٧٢ - ٦٧٣، ٣: ٥٩٧، ٤: ٣١٤؛ نيكل ٢٠٢ - ٢٠٤.

عبد الملك بن رزين

١ - هو ذو الرئاستين حُسامُ الدين أبو مروانَ عبدُ الملكِ بنُ هُذيلِ بنِ عبدِ الملك

(١) الونية: التعب، الضعف. التعذر: العسر، المشقة.
(٢) تجنّى (زماني علي): اتهمني بالذنوب والتقصير (بغير حق). ولا عن أي ذنب (ارتكبته أنا).
(٣) النيل: العطاء. أنيله: أعطيه (كرما مني).
(٤) شان: عاب.
(٥) الغرارة (بالفتح): الغفلة، حداثة السن.
(٦) التباريح: الشدائد (الخمر تنسي الإنسان ما يحيط به من المشكلات أو كذلك يزعُمون).
(٧) الأكواس (يقصد بها الشاعر هنا جمع كأس) وليس هذا في القاموس ولا في تاج العروس.
(٨) لحا: لعن.

ابن خَلَفِ بن لُبٍّ بن رَزِينٍ، قيل إنّ أصلَ أهله عربٌ من هَوّارةَ، وقيل من بَرابرةِ الثغْر (شَمالِيّ الأندلس)، والاسم «لُبٌّ» في أعلى نَسَبه اسمٌ إسباني مشهور.

وُلِدَ عبدُ الملك بن رَزِينٍ نحوَ سَنَةِ ٤١٦ هـ (١٠٢٥ م). ويبدو أن مجيئه إلى الحكم باكراً (في العِشرين من عُمُرِه) حالَ بينَه وبين التثقيف المُنظَّم. وكان مُلكُ آلِ رَزِين في السَهْلة من كورة شَنْتَبرِيةَ ما بين سَرَقُسْطةَ ووادي الحِجارة (أو شنتمريّة الشرق) على مقرُبَةٍ من مجريط (مدريد) شرقاً في شَمال. وهي كورةٌ كثيرةُ الخِصْب كثيرة التضاريس (الجِبال والأودية) وكثيرة المعاقل.

وفي سَنَةِ ٤٩٣ جَرَتْ عليه مؤامرة، فإنّ جماعة من أتباعهِ وأهلِه فيهم ابنه وصِهْره خبطوه بالسيوف فأكثروا فيه الجِراحَ ولكنّه سَلِم. وقد عاقَبَهم عِقاباً شديداً بالتعذيب والقتل، غيرَ أنّه أمرَ بابنهِ أن تُقْطَعَ رِجله ويُترَكَ. ودامَ ملكه سِتينَ سَنَةً أو تَزيدُ.

وكانت وفاةُ عبدِ الملك بن رَزِينٍ في تاسعِ شَعبانَ من سَنَةِ ٤٩٦ (١١٠٣ م).

٢ - يَحمِل ابنُ عِذاري على عبدِ الملك بنِ رَزِينٍ حملةً شديدة (٣: ٣٠٩) فيقول فيه نقلاً عن ابنِ حَيّانَ: سيّئةُ الدهر وعارُ العصر جاهلٌ خاملٌ قليلُ النباهة شديدُ الإعجاب بنفسه طويل الدعوى بما ليس فيه، قليلُ العلم. ولكن لا شكّ في أنّه كان حَسَنَ المعاملة لجُنده ولكنْ قليلَ العطاء للشعراء (ولعلّ النِقمَة عليه جاءتْ من هنا). ثمّ إنّه كان فَظّاً قاسياً في العِقاب قليل الاهتمام في السِياسة والمُلك إلاّ بأمر نفسِه ومُلكه. من أجلِ ذلك لم يختلفْ من سائرِ ملوكِ الطوائفِ الذين كانوا يستعينون بمُلوكِ النصارى على ملوك المسلمين، فقدِ اشترك مَعَ السيد القمبياطور، سَنَةَ ٤٨٧ هـ، في حِصار بَلَنْسِية.

وكان لعبد الملك بن رَزِينٍ أدبٌ من نَثْرٍ ونظْم، إلاّ أنّ أدبَه كان عاديّاً. ومن أغراضهِ الفخرُ والوصف والخمر والأدب (الحكمة) والغزل والنسيب والهجاء.

٣ - مختارات من آثاره

- من رسالة إخوانية كتب بها إلى أبي عبد الرحمن بن طاهر يطلُبُ منه الوفودَ عليه بعدَ أن بلغه ما حلّ به من طرده من ملكه:

أنت - أدامَ الله عِزَّك - عالمٌ بالزمانِ وانقلابهِ، عارفٌ بإعارتهِ واستلابهِ. ومَنْ عَرَفَه حقَّ معرفتهِ لم تَزِدْهُ شِدَّتُه إلاّ مُعْتَبَراً وشُكراً لله وتدبُّراً. وما زِلتُ ألقاكَ بالوُدّ على البُعْد، فأعْلَمُك بتَقَدُّمِك في الأعيان وإنْ لم أرَكَ بالعِيان[1]. وأستخبرُ الأخبار فأسمعُ ما يَقْرَعُ صَفاةَ الكَبِد بإنحاء الزمان[2] عليك وتنكُّرِه لديك... وأنا - أعزّكَ اللهُ - أعْرِضُ ما هو الأوفقُ لي والأليق بي، عن عَزْمةٍ مَكينة ورَغْبة أكيدة: مِنَ الانتقالِ إلى جهتي والانبساط في دولتي، فأقاسِمُك خاصَّ ضِياعي ومَعلومَ أملاكي وان شَقّ عليكَ الكَوْنُ بجهتي لبَرْدِ هوائِها وبُعْد أنحائها، فها هي شنت مريّة أَقِفُ طاعتها عليك وأصرِفُ أمرَها إليك[3]. وعندي من العَوْن على الارتحال ما يَقْتَضيه لك في الحال. ولك الفضلُ في مُراجعتي بما يستقِرّ عليه رأيُك...

- ولعبد الملك بن رَزين يَصف روضاً:

ورَوْضٍ كساه الطَلُّ وشْياً مُجدَّدا	فأضحى مُقيما للنفوس ومُقْعِدا[4].
إذا صافحَتْـه الريحُ ظلّتْ غُصونُه	رواقصَ في خُضْرٍ من العَصْبِ مُيَّدا[5].
إذا مـا آنسِكابَ الماءِ عايَنْتَ خِلْتَه	- وقد كَسّرَتْه راحةُ الريحِ - مِبْردا.
وان سكنَتْ عنه حَسِبْتَ صفاءه	حُساماً صقيلاً صافِيَ المَتْن جُرِّدا.
وغنّـتْ بـه وُرْقُ الحمائِمِ حولَنـا	غنـاءً يُنَسِّينا الغَريضَ ومَعْبَدا[6].
فـلا تَجْفُوَنَّ الدهرَ ما دام مُسْعِداً،	ومُـدّ إلى مـا قد حَباكَ به يدا[7].
وخُذْهـا مُدامـاً من غَزالٍ كأنّـه،	إذا ماسعـى، بدرٌ تحمّلَ فَرْقَـدا[8].

---

(١) بالعيان: برؤية العينين.

(٢) يقرع: يدقّ، يضرب. صفاة (صخرة) القلب. - يحزن النفس. انحى الزمان على الإنسان انحاء: مال على (شيء بشدة أو ظلم).

(٣) أصرف أمرها إليك: أجعل لك الحكم عليها (أجعلك حاكماً عليها).

(٤) الطلّ: الماء الذي ينعقد من بخار الماء في الليل على الأشجار. الوشي: النقش (بالألوان والتزيين). المقيم المقعد (في الأصل): الهمّ الشديد. المقصود هنا: كثير الطرب.

(٥) العصب: نوع من الثياب الحريرية. مائد (يتمايل).

(٦) الغريض ومعبد مغنيان من العصر الأموي أولهما يجيد الغناء الحزين.

(٧) مسعد: مساعد، نافع. حبا: أعطى.

(٨) الفرقد نجم معيّن. وهنا: نجم.

- وأخذ عبدُ الملك بن رَزينٍ شَطْرَ المُتنبّي « فلا مَجْدَ في الدنيا لِمَنْ قلّ مالُه » وحلّه حلاًّ لطيفاً في الأبيات التالية:

من كَثّرَ الجُنــد يرى سَعْــدَهُ يصعَدُ حتّـى ينتهي حـدَّه[1].
ومــن أذلّ المــالَ عزّتْ بــه أيّامُــه أو نَصَرَتْ جُنــدَه[2].
فاهدُمْ بناء البُخل وارفض به. من هدّمَ البُخلَ بنى مجدَه[3].
لا عــاش إلاّ جائعــاً نائعــاً مَنْ عاش في أمواله وحدَه[4].

- وفي الذخيرة (٣: ١١٦): « ومن غريب شعرِ ابنِ رَزينٍ قولُه » (في الهجاء):

أخْسِسْ بمجلسِ مَعْشَرٍ ما فيه إلاّ الطنزُ بِرُّ[5].
جُلَساؤه قــومٌ ثِقــا ل كُلُّهم خُبْثٌ وشرّ.
مــا فِيهِــمُ إلاّ دَنــي ءٌ أو غَــبيٌّ أو مُـضِــرّ.
أُسْــدٌ عــلى ثَلْبِ الكِــرا مِ، وإنْ وَزَنْتَـهُـمُ فــذَرّ[6].
هــذا يَغــوثٌ، بــل أضَلْـ ـلُ، وذا يَعوقُ، وذاك نَسْر[7].
ذاك المَحَــلّ كــواد عَــوْ فٍ ليس يُلقــى فيــه حُرّ[8].

- وقال بين الفخر والنسيب:

دعِ الدمعَ يُفْنِ الجَفْنَ ليلةَ ودّعوا. إذا انقلبوا بالقَلْب ،لا كان مدمعُ[9].

---

(١) حدّه (في الأصل أيضاً) منصوبة، ولا أدري وجه ذلك.
(٢) في الأصل: انصرفت جنده (والتصحيح من الحلة السيراء ٢: ١١١).
(٣) رفض (بفتح الفاء) يرفض (بكسر الفاء أو ضمّها): ترك الشيء. « به » لا حاجة إليها.
(٤) النائع: العطشان، والذي يتايل من شدة الجوع (يمكن أن تكون اتباع « جائع »).
(٥) اخسس = ما أخسّه: ما أقلّه وأتفهه وأحقره. الطنز: الهزؤ والاستخفاف.
(٦) الثلب: السبّ والشتم. الذرّ: صغار النمل.
(٧) يغوث ويعوق ونسر من الأصنام (كانت في الجاهلية).
(٨) تضمين للمثل « لا حرّ بوادي عوف » (الذخيرة ٣: ١١٦، الحاشية الخامسة). راجع هذا المثل وقصته في فرائد اللآلي ١: ١٩٩ - ٢٠٠. يلقى (كذا في الأصل): يوجد (ولعل الأفصح: يلفي بالفاء، وهما بمعنى).
(٩) أكثر من البكاء. إذا انقلبوا بالقلب (إذا ارتحلوا وأخذوا قلبك معهم، لأنك تحبّهم) فلا كان مدمع (لم يبق بعدهم حاجة إلى البكاء أو الحزن على شيء).

سَرَوْا كاغتداء الطيرِ،لا الصبرُ بعدَهم جميـلٌ ولا طولُ الندامة ينفع[1].
أُضيقُ بحملِ الفادحاتِ من النَوى، وصدري منالأرض البسيطة أوسع[2]
وان كُنتُ خَلاّعَ العِذار، فإنّني لَبِسْتُ من العلياء ماليس يُخلـــع[3].
إذا سَلّتِ الألحاظُ سيْفاً خَشِيتُه، وفي الحرب لا أخشى ولا أتوقّع[4].

- وقال في الغزل والنسيب:

بـــاللهِ، إن لـــم تَـرْدجِـرْ، يـــا مُشْبِـهَ البـــدرِ المنـيرْ،
لأُسَــرِّحَـــنّ نـــواظــــري فــــي ذلــك الخَـدّ النَضـير،
ولآكُلَنّـــــــك بالمُنـــــــى ولأشربَنّـــــــك بالضمـــــير.

٤ - ** قلائد العقيان ٥٨-٦٤؛ الذخيرة ٣: ١٠٩ - ١٢٤؛ الحلّة السيراء ٢: ١٠٨ - ١١٥؛ المغرب ٢: ٤٢٨ - ٤٣٠؛ الذيل والتكملة ٥: ٥٢؛ الخريدة (المغرب) ٢: ٣٦٠ - ٣٦٣؛ البيـــان المغرب ٣: ١٨١ - ١٨٢، ٣٠٩ - ٣١٠؛ المطرب ٣٩ - ٤١؛ أعمال الأعلام ٢٠٥ - ٢٠٧؛ نفح الطيب ٣: ٢٤٦ - ٢٤٧، ٤٠٧، ٤٣٢ - ٤٣٣، ٥٦٧ - ٥٦٨؛ الأعلام للزركلي ٤: ٣١٤ (١٦٥ - ١٦٦).

ابن الودّاني

١ - هو أبو الحسنِ عليُّ بنُ أبي إسحاقَ إبراهيمَ ابن الودّاني، نسبةً إلى وَدّانَ وَهِيَ بلدة في إفريقيةَ (ليبيا اليوم). وكان ابنُ الودّاني من العرب الذين انتقلوا إلى جزيرةِ صِقِلِّيَةَ وسكنوها وأصبحَ لهم مكانةٌ فيها. ثمّ أصبح ابنُ الودّاني نفسُه فيها من أهلِ النَفاسة والرِئاسة وصارَ صاحبَ الديوانِ أو رئيسَ الكُتّاب.

وكان ابنُ الودّاني من أحيلِ القرنِ الخامسِ للهجرة (الحادي عَشَرَ للميلاد). وفي الخريدة (قسم المغرب ١: ٨٣) أن ابن الودّانيّ «كان في عهد ابنِ رشيقٍ و(كانت)

---

(١) سروا: سافروا ليلاً. اغتداء الطير: خروج الطيور من أوكارها صبحاً (باكراً جدًّا).
(٢) الفادح: الثقيل. الفادحة: النازلة، المصيبة. النوى: البعد، البعاد (الفراق).
(٣) خلاّع العذار (الرسن من الرقبة): أعمل الأشياء التي يستحيا منها في العادة.
(٤) إذا نظرت إليّ العيون الجميلة خفت منها. اتوقّع: انتظر (أو ينتظر مني) أن أخاف.

بينهما مكاتبات ». وبما أن وفاةَ ابنِ رشيق كانتْ سَنَةَ ٤٥٦ (وفي رواية سنة ٤٦٣)، فلا يُنْتَظَرُ أن يكونَ قد عاش إلى ما بعدَ سَنَةِ ٤٩٠ (١٠٩٧ م).

٢ - وصل إلينا من آثار ابنِ الودّاني خمسةُ أبياتٍ من الشعر أحبّهُ الدارسون من أجل ثلاثةٍ منها. إنها أبياتٌ بارعةٌ في المعنى عَذْبةٌ في اللفظ سهلةٌ في الأَداء، وفيها كلِّها لفتةٌ من الابتكار في الاستعارة: « من يشتري منّي النجومَ - شيبٌ أطلَّ على سَوادِ شبابي ».

٣ - مختارات من شعره

- قال ابنُ الودّاني يَصِفُ ليلةً اجتمع فيها بأصحابٍ له يتحاورون في فُنونٍ من الأدب:

من يشتري مِنّي النجومَ بلَيْلـــةٍ ... لا فرقَ بينَ نُجومِها وصِحابي[1].
دارتْ على فَلَكِ السماء، ونحن قد ... دُرْنا على فَلَكٍ من الآداب[2].
وأتى الصباحُ - فلا أتى - وكأنّه ... شَيْبٌ أطلَّ على سوادِ شبابي.

- وقال في الشيب:

وبرُغْمي لَمّـــا أتـــاني مَشيـــبي ... قُلتُ: أهلاً بذا الضَحوكِ القَطوب[3].
ولَعَمْري مـــا كنـــتُ مِمّن يُحيِّيـ ... ـهِ، ولكـــنْ تَمَلُّـــقُ المغلوب.

٤ - ** الخريدة (المغرب) ١: ٨٢ - ٨٣؛ أعلام ليبيا ٢٠٤؛ أعلام من ليبيا (من طرابلس؟)، تأليف علي مصطفى المصراتي، طرابلس - ليبيا (مكتبة دار الفكر) ١٣٩٢ هـ = ١٩٧٢ م، ص ٥٩ - ٧٤؛ المكتبة الصقلّية ١٣٣، ٥٩١.

---

(١) أنا أستغني عن نجوم الليل (عن الاستضاءة بها) لأن أصحابي مثل النجوم في الإضاءة والهداية.

(٢) نجوم الليل ثابتة في أفلاكها على الدوران مجتمعة. ونحن أيضاً ثابتون على الاجتماع بعامل الآداب (كأننا ندور في أفلاك ثابتة كالنجوم).

(٣) الضحوك (لأنه أبيض اللون). القطوب: العابس (لأنه يسيء إلى الإنسان بتذكير الإنسان بالعجز وبالموت).

ابن القزّاز محمّد بن عبادة

١ - هو أبو عبدِ اللهِ محمّدُ بنُ عُبادَة المعروفُ بابنِ القزّاز - ويُكْنى أبا بكرٍ (أزهار الرياض ٢ : ٢٥٢). ويُشار إليه أحياناً باسم عُبادةَ القزّازِ (راجع الخريدة: المغرب والأندلس ٢ : ١٨٢ ؛ وفي نفح الطيب ٧ : ٦ ، نقلاً عن مقدّمة ابن خلدون، بيروت، المطبعة الأدبية، عام ١٩٠٠ ، ص٤٨٥ ثمّ دار الكتاب اللبناني، عام ١٩٦١ ، ص١١٣٨). وقد يَقَعُ الخلْطُ فيما يُنسَبُ إليه من الشعر بينه وبينَ عُبادَة بنِ ماء السماء. وقد وَقَعَ مثل هذا في هذا الكتاب، فقد أثبتُّ أنا (فوق، ص٤٤٩ - ٤٥٠) المُوشّحة البارعةَ: « مَنْ وَلِي - في أمّةٍ - أمراً ولم يَعْدِلِ، يُعْزَل... » لِعبادةَ بنِ ماء السماء، استناداً إلى « فوات الوفيات » (١ : ٢٥٥ - ٢٥٦). ثمّ هي مُثْبَتَةٌ في « الوافي بالوفيات » (٣ : ١٨٩ - ١٩٠) لابنِ القزّازِ مُحمّدِ بنِ عُبادةَ صاحبِ هذه الترجمة.

ونحن لا نكادُ نَعرِفُ من حياة ابنِ القزّازِ هذا شيئاً من التفاصيلِ المفيدة. إنّ ابنَ خاتمةَ (٧٧٠ هـ) ذَكَرَ ابنَ القزّازِ في كِتابه « مَزيّة المَريّة » فقال: « مُحمّدُ بنُ عُبادةَ يُكْنى أبا بكرٍ ويُعْرَفُ بالقزّاز (لا بابنِ القزّاز)، وأحْسَبُهُ من أهلِ مالَقَةَ... » (أزهار الرياض ٢ : ٢٥٢).

وكانَ ابنُ القزّازِ محمّدُ بنُ عُبادةَ متّصلاً بالمعتمدِ بن عَبّادٍ. ولكنْ يبدو أنّ اتّصالَه بالمُعْتَصِمِ بن صُمادِحٍ وبابنِه وَوَلِيّ عهدِه كانتْ أوثقَ.

ولعلّ وفاةَ ابنِ القزّازِ كانتْ في سَنَةِ ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) أو بعدَ ذلك بقليل.

٢ - كان ابنُ القزّازِ محمّدُ بنُ عُبادةَ « من مشاهير الأدباء والشعراء. وأكثرُ ما اشتهرَ اسمُهُ وحُفِظَ نَظْمه في أوزانِ الموشّحات » (الذخيرة ١ : ٨٠١). أمّا قصائدُه فليستْ بالمكانِ الذي يستحقّه، فيما يبدو، بمُوشّحاتِه. وفنونُ شعرِه المديحُ والغزل. وله هجاءٌ فيه إقذاعٌ ثم له وصف. وله أيضاً ترسُّلٌ فيه كثيرٌ من السُهولة برُغْمِ كَثْرةِ الصِناعة فيه.

٣ - مختارات من آثاره

- من رسالةٍ كَتَبها محمّدُ بنُ عُبادةَ المعروفُ بابنِ القزّاز إلى أبي بكرٍ الخَوْلاني المنجّم (الذخيرة ١ : ٨٠٢):

إنْ لم تَتَقدَّمْ بينَنا مُخاطبةٌ ولا جرتْ مُكاتبةٌ، فقد عَلِمَ اللهُ تعالى أنّ ودادي لك محضٌ لا يَشوبُه[١] كَدَرٌ، وأنّ ثنائي عليك غضّ يتضوّعُ[٢] تضوُّعَ الزَهَر. فحالُ قدري[٣] لوصْفِكَ الجليلِ مُطرَّزةٌ بذكرِكَ الجميل، وتيجانُه على مَفارقِ مَجْدِك الأثيلِ[٤] مُرَصّعةٌ بلآلىءِ حَمْدِكَ الجزيل[٥]. وكنتُ عندَ حُلولكَ بالمَرِيّةِ قد باشرتُ من أفعالك السَنيّةِ وشَهِدتُ من مَحاضِرِك الحِسان ما يَكِلُّ عن وَصْفِه كُلُّ لِسانٍ. وما زِلْتُ مُنذُ غِبْتَ عنها - لا غابَ نجمُ سَعْدِك ولا أصلد واري زَنْدِك[٦] - أذكُرُ مآثِرَكَ[٧] وأنشُرُ مفاخِرَكَ وأَبُثُّ ما عايَنْتُ من مناقِبِكَ، كالذي يَتَعيَّنُ من واجِبِك أعانَ الله على أدائِه والقيامِ بأعبائه[٨]....

- وله من قصيدةٍ (الذخيرة ١ : ٨٠٤ = الوافي بالوفيات ٣ : ١٨٩):، وهي في استجداءٍ من الممدوح (من آلِ عبد الحميد؟) ظاهرٍ:

يا دَوْحَةً بظِلالِها أتفيّأُ،	بـلْ مَعْقِـلاً آوي إليـه وألجَـأُ[٩]،
رَمِدَتْ جُفوني مذ حَلَلْتُ هنا، ولو	كُحِلَـتْ برُؤيتِكُمْ لكانَـتْ تـبرَأُ.

---

(١) المحض: الخالص الذي لا يشوبه (لا يخالطه شيء آخر).

(٢) الغضّ (من النبات): الطريّ الناضر. تضوّع: انتشر (فاحت رائحته).

(٣) فحال قدري.. حلمى.....

(٤) الأثيل: الأصيل (الثابتة أصوله والمعروف بالشرف).

(٥) الجزيل: الكثير العظيم من كلّ شيء.

(٦) أصلد: أصبح صلداً (قاسياً). واري زندك (الزند: حديدة تقدح بها النار من حجر النار. الواري: المشعل). وإذا أصلد الزند بطل تأثيره في الحجر فلا يخرج من الحجر ناراً.

(٧) المأثرة (بضمّ الثاء): العمل الكريم المتوارث أباً عن جدّ.

(٨) بثّ: نشر، أذاع. المنقبة (بفتح فسكون ففتح): العمل الكريم. يتعيّن عليّ (يجب عليّ). العبء: الحمل (الثقيل).

(٩) الدوحة: الشجرة الكبيرة. المعقل: الحصن الذي يحمي من فيه.

فَخُبِئْــتُ عنــك، وإنّما أنـا جَوْهرٌ في طيّ أصدافِ الحوادثِ أُخْبَأُ[1].
يا من إذا أنتسبَ البرايا للثّرى، فَلَهُ من الشمسِ المنيرةِ ضِئْضِئُ[2].
لم أختـرعْ فيـك المديـحَ، وإنّما مِنْ بَحْرِك الفيّاضِ هـذا اللّؤلؤُ.
أمّـا بنو عبـدِ الحميـدِ فإنّهم زُهْرٌ، وأنـتَ هِلالُها المُتلألِـىءُ[3].
فَخَرَ الزمـانُ بنـا لأنّـك حاتمٌ في جوده، ولأنّـني المُتنبّـىءُ[4].

- وقال يمدحُ المعتصمَ بنَ صُمادحٍ (نفح الطيب ٤ : ١٠٣):

نَفَـى الحـبُّ عن مُقْلَتَيَّ الكَرى كما قـد نَفَـى عن يَدَيَّ العَدَمْ[5].
فقـد قَرَّ حبُّـكَ في خاطِري كما قرّ في راحَتَيْـكَ الكَرَمْ.
وفَرّ سلُوُّكَ عن فِكْرتي كما فَرّ عن عِرضِـهِ كُـلُّ ذَمّ.
فحُبّي ومَفْخَره باقيـا نِ لا يذْهبـانِ بطُولِ القِـدَمْ:
فأبقـى لِيَ الحـبُّ خـالٌ وجَـدٌّ، وأبقـى لـه الفخرَ خـالٌ وعَمّ[6].

- ولابن القزّازِ محمّدِ بنِ عُبادةَ موشّحاتٌ منها الموشّحة التالية (المغرب ٢ : ١٣٦):

أذابَ الخَلَــدْ نَهْــدٌ مُنهَّــدْ
وغُصنٌ تــأوّدْ في دِعْـصٍ مُلبّـدْ
عن سقم مكمد[7]
آه!

* * *

(١) الجوهر (اللؤلؤ) يكون عادة مخبوءاً في الصدف. - لمّا نزلت بي المصائب غبت عنك كيلا أحمّلك شيئاً من أثقالي (؟).

(٢) الثرى: التراب. الضئضىء: الأصل.

(٣) زهر (بالضمّ): نجوم. - كان القدماء يعتقدون أن القمر أكثر ضوءاً من النجوم.

(٤) حاتم (الطائي) كريم مشهور. والمتنبّي شاعر متكّسب.

(٥) الكرى: النوم. العدم: الفقر.

(٦) أنا ورثت حبّي لك عن خالي وجدّي. وأنت ورثت الفخر (الجد) عن خالك وعمّك (من أسرة أمّك وأسرة أبيك).

(٧) الخلد: البال، النفس. أذاب الخلد (شتّت بالي). نهد: ثدي. منهّد (عال). تأوّد: تمايل. الدعص: الجانب المستدير من الرمل (كناية عن ردفي المرأة). ملبّد: مكتنز (؟). مكمد (اسم مفعول من أكمد وكمّد): يورث الغمّ والحزن.

فـــــدَعْ عَـــــذْلي يـــــا مَنْ يلومُ.
فَلَوْمُـــــــــكَ لي في الحُـــــبِّ لُومُ.
أقصى أمَـــــــلي ظَبْيٌ رَخـــــيمُ
ابتزَّ الجَلَـــــــدْ بلحـــــظٍ مُرَقَّـــدْ
ولِمّـــــةٍ عَسْجـــــدْ، قتلي قدْ تَعَمّدْ،
دَمي تَقَلّدْ[1]..
آه!

★ ★ ★

ولّمـــــا انـــــبرى لـلـعـامِـــــرِيّ
خَيـــــــالٌ سَرى فِـــغْـــلَ الـــكَمِـــيّ
شَدَوْتُ الوَرى شَـــدْوَ الـشَجِـــيّ.
البـــــدرُ سَجَـــــدْ والرِيم أسجَـــــدْ
لِنَعْـــــلِ مُحمّـــــدْ بالخَـــــدِّ المُوَرَّدْ.
والجِيدِ الأغْيَدْ[2].
تاه!

٤ - المغرب ٢ : ١٣٤ - ١٣٧ ؛ الذخيرة ١ : ٨٠١ - ٨٠٥ ؛ الخريدة (المغرب والأندلس) ٢ : ١٨٢ - ١٨٣ ، راجع ٣ : ٧٠٨ ؛ الترجمة المشار إليها في معجم الأدباء لياقوت

---

(١) العذل: اللوم. لوم = لؤم. ظبي: ولد الغزال أو الغزال. الرخيم: الليّن الصوت (صاحب الصوت المطرب). ابتزّ: سلب. الجلد: احتمال المشاق. مرقّد: ناعس. اللمّة: شعر الرأس المجاور للأذن (الشعر عموماً). عسجد: ذهب (أشقر). تقلّد (لبس) دمي (أنّ تورّد خدّيه من دمي المسفوك في حبّه).

(٢) انبرى: عرض، تصدّى. للعامري: قيس بن الملوح (مجنون ليلى) للمحبّ. سرى: سار ليلاً. الكمي: الشجاع التامّ عدة الحرب. شدوت (غنّيت) الورى (للورى: للناس كلّهم) شدو (لحن) الشجيّ (الحزين). البدر والريم (الغزال الأبيض (كناية عن المحبوب الجميل). سجد: خضع. أسجد: نظر بعين مسكورة (مطمئنّة). محمّد (هو الشعر: محمّد بن عبادة). الجيد: العنق. الأغيد: الناعم المتثنّي. الضمير في «تاه» يرجع إلى محمّد (؟).

١٩ : ١٠٥ (والصواب ١٨ : ١٠٥ وما بعد) هي لمحمّد بن جعفر القزّاز القيرواني المتوفّى سنة ٤١٢ للهجرة؛ قلائد العقيان (ستّة أبيات حائية في ترجمة المعتمد بن عبّاد)؛ الخريدة (الأندلس) ٢ : ٤٢ - ٤٣؛ الوافي بالوفيات ٣ : ١٨٩ - ١٩٠؛ فوات الوفيات، راجع ١ : ٢٥٥ - ٢٥٦؛ نفح الطيب ٣ : ٤١١، ٤٩٢، ٦١٠، ٤ : ١٣، ١٠٣، ٧ : ٦؛ أزهار الرياض ٢ : ٢٥٢، ٢٥٤.

* * * * * * *

يقف هذا الجزء عند أصحاب التراجم الذين شهدوا عصر ملوك الطوائف أو جانباً منه. ويبدأ الجزء التالي بتراجم الذين شهدوا عصر المرابطين في الأندلس.

فهرس هجائي
لأعلام الأشخاص

لا يدخل في هذا الفهرس أسماء الأشخاص ممّا يَرِدُ في قسم المصادر والمراجع (القسم ٤) من كلّ ترجمة، ولا الأسماء التي ترد (عند الاستشهاد بمصدر أو مرجع، في المتن أو في الحاشية) إلاّ إذا كان صاحب هذا المصدر أو المرجع قد أبدى رأياً معيّناً أو قال قولاً صريحاً في بحثٍ ما. وكذلك لا تظهر في هذا الفهرس أسماء المؤلفين والمحرّرين والمحقّقين والناشرين للكتب الموجودة في ثبت المصادر والمراجع.

إذا كان للاسم صيغة مشهورة جدًّا، نحو: أبي بكر الصّدّيق، أبي تمّام، البحتري، ابن خلدون، فأنا أكتفي بإيراد هذه الصيغ المشهورة من غير إحالة عليها من: عبد الله بن أبي قحافة - حبيب بن أوس - الوليد بن عبيد - عبد الرحمن بن خلدون.

م = مكرّر، ح = في الحاشية، ح م = مكرّر في الحاشية فقط.
= (انظر الاسم الذي بعدها).

آ - أ

(١) النجوم تدلّ على أولاد المعتمد بن عبّاد (ت ٤٨٨ هـ). وكثيراً ما يقال في أشخاص أُسرة آل عبّاد: «فلان بن عبّاد» بقطع النظر عن اسم والده.

ب

ح

خ

د - ذ

س

ع

غ

ف

ق

ك

ل

ن

هـ

و

ي

١٩٨١/٢/١١